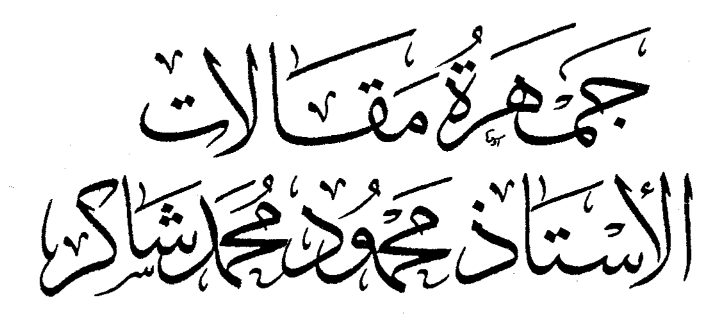


جمعها وقرأها وقدم لها

الدكتور عادل سليمان جمال

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة


جمهرة مقالات
الأستاذ محمود محمد شاكر

الرسول ﷺ

قرأتُ فى عدد الرسالة الذى صدر بتاريخ الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ بابًا من القصص الشعرى عن (إسلام حمزة) رضى الله عنه وقد وضع هذه القصة واضعُها [١] وهو يَقْصِد بها – إن شاء الله – خيرًا . إلا أن طريق الخير إلى ما قصد إليه قد التوى به التواءً يذهب بكل ما عَمِد إليه ، فإنه وضع على لسان الرسول شعرًا نزهه الله عنه بقوله ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ ، ثم يلى ذلك أنه قد وضع على لسانه ما لم يقله ﷺ .

وليعلم صاحب هذه القصة أن الرسول ﷺ يقول « من كذب علىَّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النار » ويقول « من حَدَّث عنى بحديث يرى أنه كَذِبٌ فهو أحد الكاذبين » . فكيف بصاحبنا وهو يُنْطِقُ رسولَ الله ﷺ بما لم يقُلهُ ، ثم يكون ما أنطقه به من الكلام مَصُوغًا فى القالب الذى نزَّه الله عنه نبيه ﷺ ؟

وهذه المسألة مما يريد بعضُ الناس أن يحتال لها بمنافق الكلام ليستحِلَّ ما لا يَحِلُّ أبدًا . وهم يراودون الناس فيها عن عقولهم أولًا ثم عن إيمانهم ثانيًا ، لينقادوا لهم فى الرضا بها والمتابعة عليها ...

والمسألة لو تناولت أحدًا غير صاحب الرسالة لقلنا عسى ولعلَّ ...

ولنظرنا فى المخرج الذين يتأولونه نظر المنطق ، ولكنها تتناول إنسانية وحدها قد جعلها الله بمنزلة فوق منازل سائر البشر ، وإن لم تخرج عن منزلة البشر فى أعراض الحياة وما يكون فيها وما يأتى منها .

إن إنسانية الأنبياء وحدها هى الإنسانية التى أوجب الله على من حضرها من الناس أن يؤمن بها أولًا ، ثم يحافظ على رواية سيرتها ثانيًا ، ثم يحترس ويتدبر

---

* الرسالة ، السنة الثانية (العدد ٥٢) ، ١٩٣٤ ، ص : ١٠٩٥

(١) هو الأستاذ فريد عين شوكه ، انظر العدد ٥١ من الرسالة ، السنة الثانية ، ص : ١٠٧٧

فيما ينقُل عنها أو يصفُ منها ، لأن نسبة شيء من الأشياء إليها قد يكون مما يتوهم أحدٌ منه وهمًا يخرج - فيما يُقبل من أمر الدنيا - بحقيقة الرسالة التى أرسلوا بها عن القانون الإلهى الذى عَمِلوا به ليحققوا كلمة الله التى تعلو أبدًا ، وتُزْهِر دائمًا ، وتبقى على امتداد الزمن روح الحياة البشرية وميزان أمر الناس فى هذه الدنيا .

وليس يقال فى قصة صاحبنا أو غيرها أَنَّ ما أُنْطِقَ به الرسول لا يتناول تشريعًا أو أدبًا أو حكمة ، وإنما يتناول الكلام المُتَعَاطَى بين الناس فليس به من ثَمَّ بأسٌ ... ليس يقال مثل هذا لأن التشريع حين يوضع ويراد به سدُّ أبوابٍ من الشر والفتنة يأتى منعًا مصمتًا لا مَدخلَ فيه ولا ثغر حتى يدفع المُحَزِّبين (١) والمفسدين والعابثين ويضرب على أيديهم من كل ناحية . ولو كان الأمر على غير ذلك لتناول كل لصٍّ مفتاحَ الباب الذى يريد أن يدخل منه إلى عقول الناس ليستغرَّهم ويزلزلهم من جنة الإيمان إلى جحيم الإلحاد فى الدين من الطريق الخفى الذى لا تُبْصِر فيه العامة ولا تَهدى به إلى أرشد أمرها فى الحياة .

فنحن هنا نتقدم إلى الأستاذ صاحب القصة بأن يتدبر ما شاء ، فهو سيدع ما سلك إلى سبيلٍ أهدى ، فإن الأدب الذى له نعمل لم يقتصر ولم يضق حتى ندَع ما أحل الله إلى ما نهى عنه ، ونترك سبيل الرشاد إلى سبيلٍ تنحدر بنا إلى هاويةٍ لا قرار لها ، ولا عَاصِمَ منها .

* * *

(١) المحزبون : الذين يُحزِّبُون القوم ، أى يجعلونهم أحزابا ليتعصبوا لما جمعوهم له .

الرافعي

رحمةُ الله عليكَ ! رحمةُ الله عليكَ !
رحمة الله لقلبٍ حزينٍ ، وكبدٍ مَصدُوعة !

* * *

لم أَفْقِدكَ أيها الحبيبُ ولكنِّى فقَدْتُ قَلْبى .
كنتَ لى أملًا أستمسِكُ به كلما تَقَطَّعَتْ آمالى فى الحياة .
كنتَ راحةَ قلبِى كلما اضطربَ القلبُ فى العناء .
كنتَ اليَنْبُوعَ الرَّوِىَّ كلما ظَمِىءَ القلبُ وأحرقه الصَّدَى .
كنت فجرًا يتبلَّج نورُهُ فى قَلْبى وتتنفس نسماته ، فوَجدتُ قلبى ...
إذ وجدتُ عَلاقتى بكَ .
لم أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكنى فقدتُ قلبى .

* * *

جزعى عليك يمسك لسانى أن يقول ، ويرسل دمعى ليتكلم . والأحزانُ تجدُ الدمعَ الذى تذوب فيه لتهونَ وتضَّاءَل ، ولكنَّ أَحزانى عليك تجد الدمع الذى تروَى مِنْه لتنمو وتَنْتَشر .

ليس فى قلبى مكان لم يرفّ عليه حبى لك وهوَاىَ فيك ، فليس فى القلبِ مكان لم يحرقه حزنى فيك وجَزَعى عليك . هذه دموعى تُتَرْجِم عن أحزانِ قلبى ، ولكنها دموع لا تُحْسِنُ تَتَكَلَّم .

* * *

(*) الرسالة السنة الخامسة (العدد ٢٠٢) ، ١٩٣٧

عشتُ بنفسٍ مُجْدِبة قد انصرفَ عنها الخصب ، ثم رحمَ الله نفسى بزهرتين تَرِفَّان نضْرة ورواء . كنتُ أجدُ فى أنفاسهما ثرْوة الروضة الممْرعة فلا أحسُّ فقر الجدْب !

أما إحداهما فقد قطفتْها حقيقةُ الحياة ، وأما الأخرى فانتزعتها حقيقةُ الموت ، وبقيت نفسى مجدبة تستشعِرُ ذلَّ الفقر .

* * *

تحت الثرى ... عليك رحمة الله التى وسعتْ كلَّ شىء ، وفوق الثرى ... علىَّ أحزان قلبى التى ضاقت بكل شىء ؛ تحت الثرى تَتجَدَّدُ عليكَ أفراحُ الجنّة ؛ وفوق الثرى تتقادمُ علىَّ أحزان الأرض !

تحت الثرى تتراءى لرُوحِك كلُّ حقائق الخلود وفوق الثرى تتحقَّقُ فى قلبى كلُّ معانى الموت . لم أفقِدْك أيها الحبيب ولكنّى فقدت قَلْبى

* * *

حضَرَ أَجلك ، فحضرتنى همومى وآلامى .

فبين ضلوعى مأتم قد اجتمعت فيه أحزانى للبكاء ؛ وفى روحى جنازة قد تَهَيَّأَت لِتَسير ؛ وعواطفى تُشَيِّعُ الميت الحبيب مُطرقة صامتة ؛ والجنازة كلها فى دمى – فى طريقها إلى القبر وفى القلب ... فى القلب تُحْفَرُ القبورُ العزيزة التى لا تُنْسَى

* * *

فى القلب يجد الحبيب روحَ الحياة وقد فرغ من الحياة ؛ وتجد الروح أحبابها وقد نأى جُثْمَانها .

فى قلبى تجد الملائكة مكانًا طَهَّرَته الأحزان من رجس اللذات .

وتجِدُ أجنحتها الروح الذى تهفهف عليه وتتحفَّى به .

هنا ... فى القلب ، تتنزَّل رحمة الله على أحبابى وأحزانى ، ففى القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تَفْنَى ، وفى القلب تُحْفَرُ القبور العزيزة التى لا تُنْسَى .

* * *

لم تُبْقِ لى بَعدَكَ أيها الحبيب إلا الشوقَ إلى لقائك .
فقدتُكَ وَحْدِى إذ فقدك الناس جميعًا .
سَمَا بكَ فرحك بالله ، وقعدت بى أحزانى عليكَ .
لقد وجدتَ الأنْسَ فى جوارِ رَبِّك ، فوجدتُ الوحشة فى جوار الناس .
لم أفقدك أيها الحبيب ولكنى فقدتُ قلبى
لم تُبق لى بَعدَك إلا الشوق إلى لقائك
رحمة الله عليك ، رحمة الله عليك !

* * *

بين الرافعى والعقاد

– ١ –

قرأت ماكتب الأستاذ سيد قطب فى العددين السالفين من الرسالة ، وكنت حَرِيًّا ألّا أعبأ بما يكتبُ عن الرافعى فى أوانِ حولِ وفاته ، وقد تهيأ أهله وأحباؤه وأصحابه تتلفَّتُ قلوبهم لذكراه الأولى بعد أن سَلَّه الموت من بينهم اغترارًا .

والأستاذ سيد قطب قد أبى له حسن أدبه ، وجميل رأيه ، ومروءة نفسه ، ونُبْل قلبه ، وشرف مقصده ، وإشراق نقده إلّا أن ينبش ماضى الرافعى وما سلف من أمره ، ليستخرج حلية يتحَلّى بها إذ يكتب عن خصومةٍ بين رجلين : أما أحدهما – أنسأ الله فى أجله وأمتع به – فما برح يتلطف للناس بما يستجيد من عمل يجدد به مَطَارِفَ آخرته ؛ وأما الآخر – رحمةُ الله عليه – بين يدى ربه يتقرب إليه بعمل قد أبلى به أثوابَ دُنْياه . فلولا أن الميت لا يدفع عن نفسه فى ساعة موته مثل الذى كان يدفع فى أيام حياته ، وأن ذكر الحى أقرب إلى الناس من ذكر الميت – لكان جديرًا بنا أن ندع الأستاذ المهذب الفاضل يتكلم بالذى يهوى على ماخيَّلَتْ له . فليس للأدب اليوم من الحرمة ، ولا فيه من النبل ، ولا عليه من الحياطة والحرص ما يحفز أحدًا للمراصدةِ دونَه أن يُمتَهن أو يُسْتَرْذَل .

هذا ... وقد جعل الأستاذ الفاضل يستثير دفائن الإِحَن [١] ، والأحقاد التى كانت بين الرافعى والعقاد ، ليتخذ منها دليلَهُ الذى يفزعُ إليه فى أحكامه !! على الرافعىّ . لا بل على قلب الرافعىّ ونفسه وإيمانه بعمله وعقيدته فيه !! ثم لم يرض بذلك حتى نفخ فيها من روح الحياة ، ما جعلها ممّا يكتب الأحياء عن الأحياء للإيلام والإثارة ، لا للجرح والتعديل والنقد ؛ وكأن الفتنة عادت جَذَعَةً [٢] بين الرافعى نفسه وبين العقاد . ولقد بدا لبعض الناس رأىٌ فيما كتب الأستاذ

(*) الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٤) ١٩٣٨ ، ص : ٧٨١ – ٧٨٣

(١) الإحن : جمع إِحْنَة ، وهى الحقد والضغينة

(٢) جذعة : يقال : أعدتُ الأمَر جَذَعًا ، أى جديدا كما بدأ ، ولا يكاد يُسْتَعمل إلا فى الشرّ .

المهذب ، ولكنا نفيناه إذ سُئلنا عنه ، فنحن نعلم أن العقاد لا يرضى اليوم أن يكتب مثل هذا الذى كُتب عن الرافعى . ولقد ساء ظن امرئ بالعقاد ألا تكون للموت فى نفسه حرمة ، حتى يكون هو يعين عليه أو يرتضيه أو يسكت عنه إلا سكوت الغَضَبِ والاستهانة .

فنحن إذ نكتب فى ردِّ كلام هذا الأستاذ الفاضل سيد قطب لا نبغى أن نسدِّدَ له الرأى فيما يحب أن يرى ، فما علينا ضَلّ أو اهتدى ، ولا أن نقيم مذهب الرافعىّ على أصله وقد ذهب سَببُه وبقى أدبه ؛ ولا أن نسوء العقاد حفيظة نتوارثها له عن الرافعى أو من ذات أنفسنا ، فما من شيمتنا مثلُ ذلك ؛ كلَّا ، بل نكتب لنميط الأذى عن حُرَم الموت ، وكفى بالموت حقًّا وجلالًا .

ورحم الله الشعبىّ فقد كان يقول : « تعايش الناس زمانًا بالدين والتقوى ، ثم رُفِعَ ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم ، ثم رفع ذلك فما يتعايش الناس اليوم إلا بالرغبة والرهبة . وأظنه سيجئ ماهو أشد من هذا » . ولقد جاء وفات ما نحن فيه ظنونَ الشعبى . فما يتعايش الناس اليوم إلا بثلْبِ الموتى !

وإلا فما الذى رمَى فى صدر الأستاذ سيد قطب بهذه الغضبة الجائحة من أجل العقاد ؟ ألم يكتب الرافعى للعقاد يوم كان يملك يكتب ويقول ؟ أو لم يكتب العقاد للرافعى ماكتب ؟ ثم نامت الثائرة ما بينهما زمنًا كان حده الموت . يقول الأستاذ : إنه – هو لا العقاد – « كان مستعدًّا للثورة والحنق ، لو تناول بعض هؤلاء – يعنى الرافعى ثم مخلوقًا – أدَبه ! بمثل هذا الضيق فى الفهم ، والاستغلاق فى الشعور ... » . أفكان كلام سعيد العريان – وهو يؤرخ أحقادًا قد سلّها الموت إذ سَلَّ أسبابها – هو الذى أثار هذا الحىّ المستعد للثورة على ذلك الميت العاجز عن دفع الثورة ؟ ثم ما الذى يحمله على أن يُلبسَ هذه الثورة جلد النقد ؟ والعجب أن يثير ماكتب « سعيد » حيًّا ليس شيئًا فى الخصومة بين الرافعى والعقاد ، وهو ليس يثير العقاد أحدَ طرفى الخصومة ، وهو الذى يملك أن يقول لسعيد أخطأ أو أصاب ... ! أشهد أن ما بالأستاذ قطب النقد ، ولا به الأدب ، ولا به تقدير أدب العقاد أو شعره . فما هو إلا الإنسانُ وجهٌ يكشفه النور ويشف عما به ، وباطنٌ قد انطوى على ظلمائه فما ينفذ إلى غيبه إلا عِلْمُ الله .

وأنا أقدّمُ بين يدى كلامى حقيقةً لابدّ من تقريرها عن الرافعى والعقاد ، وذلك أن الرافعى – رحمه الله – لو كان يرى العقاد ليس بشىء البتة ، وأن أدبه كله ساقط ذاهب فى السقوط ، وأنَّ وأن ... مما كان يكتب ليغيظ به العقاد من جراء العداوة التى ضريت بينهما – لما حمل الرافعى عناء الكتابة فى نقد العقاد وتزييف أدبه وإبطال أصل الشعر فى شعره . ولو كان العقاد يرى الرافعى بعض رأيه الذى كتب لما تكلف الرد على الرافعى ولا التعرض له . وكم من رجل كتب عن الرافعى وعن العقاد ونال منهما وأوجع ! ولأنه ليس يدخل فى حسابهما ، ولا يقيمان لأمثاله وزنًا ، ولا يعبآن بقوله ونقده وثورته – فقد تركاه يقول فيكثر فيملُّ فيسكُت . ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذى كان بين الرافعى والعقاد .

فالرافعى والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتيهما ، كلٌّ فى ناحيته وغرضه ، وأفنيا الليالى والأيام والسنين فى ممارسة ما هو فيه وإليه ، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه مثل ما يعلم عنه ، ولا يُظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر . فلما كانت العداوة بأسبابها بينهما بدأت قوّة تعارضُ قوة ، ورأىٌ يصارع رأيًا ، وكان فى كليهما طبيعة من العنف والعُرام [1] والحدّة ، وَولِعَ العقادُ بإرسال العبارة حين يغضب على هِينتها صريحة لا صنعة فيها ، وأُغرى الرافعى بالسخرية والمبالغة فى تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه على طريقة من الفن ؛ فمن ثَمَّ ظهرت العداوة بينهما فى النقد . وفى أذيالها أذى كثير وغبارٌ ملؤه القواذع والقوارص من اللفظ ، وعلى جنباته صورٌ ينشئها أحدهما لصاحبه للكيد والغيظ والحفيظة ، لا يراد بها إلا ذلك . ولقد شهدتُ أن الذى كان يكتبه الرافعى عن العقاد لم يكن عندى مما يحملنى على الحط من منزلة العقاد التى كان ينزلها فى نفسى ، بل أستيقن أن الذى يكتبه إنما يراد به النيل من غيظ العقاد لا من العقاد نفسه . وعلى مثل ذلك كنتُ أجد ما يكتبه العقاد عن الرافعى ، فلم يكن نيل العقاد من الرافعى – وأنا أحبه – مما يحملنى العداوة له أو يدفع بى إلى الغيظ والحنق والثورة .

وخليق بنا وبآدابنا أن نطوى الآن سيئة رجلين قد تفارط أحدهما فى غيب الله . وبقى الآخر تحوطه الدعوة الصالحة بطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل .

---

(١) العُرام : الشِّدّة والبأس .

والكلمة الأولى من كلمتى الأستاذ سيد قطب ، إنما تدور رحاها ورحى (بغضائه) للرافعى – أو كما قال – عن نفى الإنسانية من ذلك الإنسان رحمة الله عليه ، وخلوه من النفس ، وفقدانه الطبع ، وفقره إلى الأدب النفسى – وما إلى ذلك من لفظ قد ضل عنه معناه ، وتهافت عليه حده – وأنه كان (رحمة الله عليه) ذكيًّا قوى الذهن ، ولكنه كان مغلقًا من ناحية الطبع والأريحية ، وأن أدبه كان أدب الذهن لا أدب الطبع ، فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، ولكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية ، إلى غير ذلك مما حفظه الأستاذ من شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى ... وأسمع جعجعةً ولا أرى طحنًا [١] .

وأنا كنت أتنظر بالأستاذ أن يأتى فى كلمته الثانية بشىء من النقد يُنسى إليه ما قدم فى الأولى من سوء العبارة وشُنْعَة [٢] اللفظ فى ذكر الرافعى الميت ؛ ولكن خاب الفأل ، وجاءت الثانية تدل مَنْ يَغْفُل عن الدلالة البينة ، على أن هذا الأستاذ الجليل لا يزال يستملى ما يكتب من بغضائه . وهان شيئًا أن يكره الأستاذ الجليل رجلا كالرافعى حتى يأكله السُّلّ من بغضه ؛ ولكن الأمر كل الأمرِ حيث ذهب يزعم فيما يكتب أن هذه البغضاء التى يستملى منها هى النقد ، وأن أحكامه على الرافعى إنما هى أحكامُ قاضٍ ، لزم المتهم حتى أنطقه وأشهد عليه لسانه ، فاستوعب كلامه واستنبط الحجة عليه من ألفاظه ، واستوثق للتهمة من قوله ، ثم بنى (الحيثيات) من فحوى عباراته ، ثم حكم وما حكم على المتهم إلا كلامُه ، ولا شهد عليه إلا لسانُه .

فلهذا كان علينا لزامًا أن ننظر فى الذى أتى من كلام الرافعى . ثم قوله فيه ، واستنباطه الدلائل منه ، وتحليله نفس الرافعى من لفظه حتى جعله مستغلق الطبع مسلوب العقيدة ، ثم هو فوق ذلك لا يزال يبدئ ويعيد فى كلامه ذِكرَ أصدقاء الرافعى وأصحابه ويسخر منهم ويتحداهم ، ويحملهم على مركب وعر ، ويضطرهم بين خُطَّتى خَشفٍ [٣] فى أحكامه على الرافعى ، ويخيرهم أن يختاروا

---

(١) طحنا : الطِّحْن : الطَّحِين ، فعيل فى معنى مفعول أى المَطْحُون ، « أسمع جَعْجعةً ولا أرى طِحْنا » مَثَلٌ .

(٢) شنعة : الشُّنْعَة ، شَنُع الأمر شَناعةً وشُنْعا وشُنُوعا : قَبُحَ ، فهو شنيع ، والاسم : الشُّنْعَة .

(٣) خُطَّتا خَشف : أمران فيهما الهوان والبلاء والمكروه . وجاءت هذه العبارة فى شعر عبد الله ابن الزُّبير (انظر ابن سلام : ١٧٦) .

للرافعيّ طرفًا من طرفين يحسب أنه يُلزمهم شناعةَ شناعاته التى سمَّاها أحكامًا على الرافعى . وسنتولّج فيما لا نحب ، لا كرامةً للأستاذ الجليل أو استجابة لدعائه ، بل لنميط الأذى عن نَفْسٍ مطمئنة لحقت بالرفيق الأعلى راضية مرضية .

ولولا أن يُقال هَجَا نميرًا ولم نَسْمَع لشاعرهم جوابا
رغبنا عن هجاء بنى كُلَيْبٍ وكيف يُشاتِم الناسُ الكلابا

* * *

بين الرافعي والعقاد

- ٢ -

نقل الأستاذ الأديب سيد قطب في كلمته الثانية بعض ما نقده الرافعي في قصيدة للعقاد في ديوانه بعنوان (غزل فلسفي ؛ فيك من كل شيء) ، وذلك حين يقول في حبيبته :

فيك منّى ومن الناس ومن   كلّ موجودٍ وموعودٍ تُؤام

فقال الأستاذ قطب : فلا يرى الرافعي في هذا البيت الفريد إلا أن يقول : « قلنا فإن (من كلِّ موجود) البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الإنجليزى إلى واوات من مثلها لا تعدّ ، أفيكون هذا كله في حبيب إلا على مذهب العقاد في ذوقه ولغته وفلسفته ؟ » .

ثم يعودُ فيقول : « إن هذا المثال هو مصداق رأيي في أن الرافعي أديب الذهن لا أديب الطبع ، وأنه تنقصه « العقيدة » ! التي هي وليدة الطبع أولًا ؛ فأىّ « طبع » سليم يتجه إلى تفسير بيت غزليّ في معرض إعجاب شاعر بحبيبته ، واستغراق في شمول شخصيتها بأن « كلّ موجود » هو البق والقمل والنمل .. إلخ » غافلًا عما في هذا الإحساس من « حياة » ! « واستكناهٍ » ! لجوهر الشخصية ، و« خيالٍ بارع » تثيره طبيعة فنية ، فيرى في هذه المرأة من متنوّع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا عالمًا كاملا من كل موجودٍ وموعود .

أحد أمرين :

إما أن الرافعي ضيق الإحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت إلى مثل هذه اللفتات الغنية بالشعور .

---

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٤) ، ١٩٣٨ ، ص : ٨٠٨ - ٨١١

وإما أنه يدرك هذا الجمال ، ولكنه يتلاعبُ بالصور الذهنية وحدها ، غافلًا عما أحسّه وأدركه .

وهو فى الحالة الأولى مسلوب « الطبع » وفى الثانية مسلوب « العقيدة ! » فأيهما يختارُ له جماعة الأصدقاء » .

ثم أتمَّ الأستاذ علينا نعمة نقده بأن قال « إن هذا المثال يمثل تلاعب الرافعىِّ بالصور الذهنية ، واستغلاق طبعه دون تملى الإحساس الفنى » .

وقد آثرنا أن ننقل فى كلامنا كلَّ هذا لانبدِّله ولانحرِّفه لنقطع بذلك مادة الشك فى صحة النقل من كلام الأستاذ قطب ، وليجتمع للقارئ فكرُه على رأى متصل حين ينظرُ فى أعقاب كلامنا بالتعرُّف أو الإنكار .

ونحن حين قرأنا قصيدة العقاد لأول مرة فى مجلة المقتطف (يناير سنة ١٩٣٣) زعمنا أنها قصيدة مؤلَّفة من مادة غير مادة الشعر ، وأن الغزل الفلسفى الذى فيها حديث يتهالك ، والفلسفة منطق يتماسك ، فهى على ذلك ليست من شعر ولا فلسفة . وهذا هو بديهة الرأى لمن يقرأ هذه القصيدة ويتدبر معانيها ، ويقيسها إلى غرض صاحبها فإنه سماها أول ما سمى « غزلًا فلسفيًا » ثم أتبع هذا - وفى رأسها - مما يشبه التفسير لهذا العنوان ، وما يتضمن فحوى القصيدة ، ويحدد جملة معانيها ، وذلك قوله : « فيك من كل شىء » .

ولسنا الآن بسبيل نقد القصيدة كلها ، وبيان ما أشرنا إليه قبل فى أثنائها وتضاعيفها ، وإنما نجتزئ بالقول فى البيت الذى نقده الرافعى ، ثم عقب على نقده الأستاذ سيد قطب بما شاء له « طبعه » المفتوح غير المغلق ، و« عقيدته » الكاملة غير المسلوبة و « خياله البارع » غير المتخلف .

وهذا البيت بعينه :

فيك منِّى ومن الناس ومن كلِّ موجودٍ وموعودٍ تُؤامْ

إنما هو تكرار لقوله فى صدر القصيدة : « فيك من كل شىء » حين أراد الشاعر أن يزيده بيانًا ووضوحًا ، ويجلوه جلاء المرآة ليصف شخص صاحبته ، أو كما قال الأستاذ القطب (لاستكناه جوهر شخصيتها !) .

وقد ذهب الرافعى فى نقد هذا البيت مذهب العربى حين يسمع الكلام العربىَّ لا ينحرف بألفاظه إلى غير معانيها حتى يتسع فى معانى الألفاظ بغير دلالة ظاهرة أو مُسوِّغ مُضْمر ولا يقبض من معانيها إلا بمثل ذلك مما يجيز انقباض بعض اللفظ عن سائره . وقد قال العقاد لصاحبته فى الغزل : « فيك من كلِّ شىء » و« وفيك من كل موجود » . والعرب والفلاسفة جميعًا يزعمون أن لفظ (كلّ) إذا دخَل على النكرة أوجب عموم أفرادها على سبيل الشمول دون التكرار . فكذلك أوجب الشاعر على صاحبته أن يشمل (جوهر شخصيتها) جزءًا من كلِّ مايمكن أن يسمى (شيئًا) ، ومن كل ما يسوغ أن يسمى (موجودًا وموعودًا) . وهذا الإطلاق من (فيلسوف يتغزَّل) يقتضى شمول الأفراد من (كلِّ شىء) ، ومن (كلِّ موجود) . وليس يشك أحد - ممن لم يسلبهم الله « الطبع » و« العقيدة » ولم يحرمهم « الخيال البارع » - فى أن ماذكره الرافعىُّ فى كلامه - من البق إلى الملح الإنجليزى - شىء من الأشياء وموجود من الموجودات . والفيلسوف حين يتغزل لن يريد هذا بغير شك ، ولكن أين تذهب بمعنى اللفظ (كلّ) فى العربية ؟ وفى حدود الألفاظ التى تدور على ألسنة الفلاسفة ؟ وأى دلالة توجب قبض معنى الشمول من هذا اللفظ ؟ أو أىُّ مُسَوِّغ يجيز الحد من الإحاطة التى يقتضيها هذا الحرف فى مجرى قول الشاعر « فيك من كل شىء » وفيك « من كل موجود » ؟!

هذا بعض القول فى فساد ألفاظ هذا البيت ، وبطلان معنى الفلسفة فيه . ولا يفوتنى فى هذا الموضع أن أدل على موضع الضعف فى فهم الأستاذ قطب لكلام الرافعى . فالرافعى يقول : « قلنا ، فإن من - كل موجود - البق ... إلخ » ، والأستاذ الأديب البارع يقول وكأنه يشرح معنى الرافعى : « فأى طبع سليم يتجه إلى تفسير بيت غزلى ... بأن « كل موجود » هو البق والقمل ... إلخ » ؟ غافلًا عما فى هذا الإحساس من « حياة » و« خيال بارع » ، تثيره طبيعة فنية ، فيرى فى هذه المرأة من متنوع الصفات وشتى المزايا عالمًا كاملًا من كل موجود وموعود » . والرافعى رحمه الله لم يقُل إن (كل موجود) هو البق ... إلخ ، وإنما

قال إن من (كل موجود) ، أى من أفراد الموجودات مايسمى بقًّا ... إلخ ، فالحرف (من) فى كلام الرافعى ليس هو الحرف (من) الذى فى شعر العقاد حتى يجوز ما ذهب إليه الأستاذ قطب بما ساء من تعليقه .

وقد أطلت القول فى تقرير نقد توحى بصحته سلامة الفطرة ، وحسن الذوق ، وصفاء القريحة ، ويوجبه اصطلاح المنطق ، وحَدُّ الكلام ، وإتقان الفلسفة ، ويقتضيه ما ذهب الشاعر يسرده مما هو « فى صاحبته » معددًا مبينًا مفصلًا حتى انتهى إلى إجمال المعانى فى هذا البيت . فقد قال لها : فيك من الشمس والبدر ، ومن الربيع والشتاء ، ومن غناء الطير ونوح الحمام ، ومن انسياب الماء ، ومن طبائع الوحش ، ومن حركة الأسماك ، وفيك من جوارح الطير ، ومن النعام ، ومن نار الحياتَيْن ، ومن الموت الزؤام ، ومن نقص الدنيا ، وكمال الآخرة ، ومن الملائكة ، ومن الشياطين ، ومن الخمر ، ومن القوت ، ومن الماء ، ومن الجوع ، ومن الأرض ، ومن السماء ، ومن عمل الأيام والدهور ، ومن الهندسة ومن الفن ... ثمَّ .

« فيك منى ومن الناس ومن كل موجود وموعود تؤام » !!

أفلا يدل هذا على أن الشاعر الفيلسوف كَلَّ [1] التفصيل فرَمى بالجملة فى (كل شىء) من (موجود وموعود) بعد الذى تعب فى بيانه وتفصيله وذكره وتعداده ؟؟ وأى شىء بقى له لم يعدده من متنوع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا والعالم الكامل ! إلا هَناتٌ هينات كذا وكذا ... وما ذكر الرافعى .

هذا ... وقد اقتصر الأستاذ على نقل بعض كلام الرافعى فى نقد هذا البيت ونحن نتمه للقراء بعد ذلك :

« إن ذلك المعنى الذى بَنى عليه هذا المسكين غزلَهُ الفلسفى قد مرّ فى ذهن أعرابىّ لم يتعلّم ولم يدرس الفلسفة ، ولا قرأ الشعر الإنجليزى والفرنسى والألمانى والفارسى ، وليس له إلا ذوقه وسليقته وطبيعته الشعرية ، فصفى المعنى تصفية جاءت كأنما تقطر من الفجر على ورق الزهر بقوله : زهر الآداب ج ٢ ص ٢٦١

---

(١) كَلَّ : تَعِب

فلو كنتِ ماءً كنتِ مَاءَ غَمَامَةٍ ... ولو كُنْتِ درًّا كُنْتِ مِنْ دُرَّةٍ بِكرِ
ولو كنتِ لهوًا كنتِ تعليل ساعةٍ ... ولو كنت نومًا كنتِ إغفاءَة الفَجْرِ
ولو كنت ليلًا كنت قمراءَ جُنِّبَتْ ... نُحُوسَ ليالى الشَّهْرِ ، أو ليلةَ القَدْرِ

(ولو كُنْتِ كُنْتِ) هذا أبدع عنوان لأجمل قصيدة فى فلسفة الغزل . وانظر كيف جعل الأعرابى حبيبته أصفى شىء ، وأغلى شىء ، وأسعد شىء ، وكيف صورها شعرًا للشِّعْر نفسه . ثم قابِلْ هذا الذوق المصفى بذوق من يجعل حبيبته من كل شىء ، ومن كل موجود وموعود تؤامًا وزؤامًا وبلاء عامًا » انتهى كلام الرافعى .

فإن شئت أن تعرف كيف يتناول الشعراء هذا المعنى المغسول من الشعر « فيك من كل شىء » فانظر حيث يقول جرير ، وهو فيما نعلم أول من افتتحه :

ما استوصف الناسُ (من شىء) يروقُهم
إلا أرى أُمَّ عمْرو فوْقَ ما وَصَفوا
كأنها مُزْنَةٌ غرَّاء واضحة
أو دُرَّةٌ لا يُوارِى ضَوْءَها الصَّدَفُ (١)

وقد أحسَنَ جرير تحديد المعنى وتجريده من اللغو (من شىء يروقهم) وجعل فى صاحبته من ألوان الجمال ما تهفو إليه نفوس الناس على اختلاف أذواقهم وتباين أنظارهم . وكأن أبا نواس نظر إلى هذا المعنى حين قال :

لكِ وجهٌ مَحَاسنُ الخَلْقِ فيه ... ماثلاتٌ تدعو إليه القُلوبا

على أن جريرًا قد ناقض وأحال وأفسد ما استصلح من شعره حين رجع فقال فى البيت الذى يليه : « كأنها مزنة ... أو درة » فإن هذا الحرف (كأن) للتشبيه ، والتشبيه يدعى قصور المشبه عن المشبَّه به ، وهو قد ادعى أنه يرى صاحبته فوق مايصف الناس (من شىء) يروقهم أو يروعهم أو يفتنهم .

ثم جاء مسلم بن الوليد بعقب جرير يقول :

---

(١) المزنة : السحابة البيضاء ، ورواية الديوان : غَرّاء رائحة .

مِثَالُها زهرةُ الدنيا مصورَّةً   في أحسن الناس إدبارًا وإقبالا
أَسْتَوْدِعُ العينَ منها كلما برزت   وجها من الحسن لا تُلقى له بالا
فالعين ليست ترى شيئًا تُسَرُّ به   حتى تُريني لما استودعتُ تمثالا

ففارق مسلم جريرًا حيث جعل صاحبته (زهرة الدنيا مصورة) أى محاسنها وتهاويل جمالها ، وأنه يجد عندها تمثالًا لكل حسن تسر به العين .

ثم جاء أبو نواس فألبس الشعر والمعنى من توليده وحسن مأخذه ولطف عبارته فقال :

لها من الظرْف والحسن   زائـدٌ يـتـجـدَّدْ
فـكـل حُـسْـن بـديـع   مـن حُسنـهـا يتولَّدْ

ثم جاء أبو تمام فَقَصَّر ، ولم يحسن اختيار اللفظ ، وأضعف روح الشعر فيه فقال :

انْظُرْ فما عايَنْتَ في غيره   من حَسَن فَهْوَ له كُلُّهُ

وتناوله البحترى ، فزاد فيه معنى ، ولم يجوِّد نسجه فقال :

وأهيف مأخوذ من النفس شكله   ترى العينُ ما تحتاجُ أجمعُ فيه

فالزيادة فى قوله « مأخوذ من النفس شكله » وهى جميلة لولا شناعة قوله (مأخوذٌ) ، ولو عدل فيها إلى مثل نهجه فى صفة الخمر :

أُفرغتْ فى الزجاج من كل قلب   فهْى محبوبة إلى كلِّ نفس

لأجاد وبزَّ من سبقه . وقد فطن ابن الرومى إلى معنى البحترى فاتخذه لنفسه وسبَق حين قال :

وفيكِ أحسنُ ما تسمو النفوسُ له   فأين يرغَبُ عنكِ السَّمْعُ والبَصَرُ

وقد قصر ابن الرومى فى الشطر الأول عن المعنى الذى أراده البحترى ، ولكنه جاوز البحترى ورمى به خلفه فى مقابلة قوله (ترى العين ماتحتاجُ أجمعُ فيه) بما قال (فأين يرغبُ عنك السمعُ والبصرُ) . ثم أدار ابن الرومى هذا المعنى ونقَّلَهُ [١] من سواه حين قال :

---

(١) نقّله : اكتسبه من غيره .

لا شيءَ إلا وفيه أحسنهُ　　　فالعينُ منه إليه تنتقلُ
فوائد العين منهُ طارفةٌ　　　كأنما أُخرياتهُ الأُوَلُ

ولقد كنت أتعجب لبيت العقاد كيف نزل مع كل هذا الشعر ، وكيف خفى عنه موضع التقييد من مثل قول جرير « من شيء يروقهم » ، وقول مسلم « زهرة الدنيا » و« شيئًا تُسرُّ به » وما إلى ذلك ، ووجهتُه مع سائر القصيدة فلم يزل مختلًّا ناقصًا معوجًّا لا يستوى . وزادنى عجبًا قوله فى نهاية الشعر (تُؤام) ، ولم أجد للفظ معنى ولا رأيت له وجهًا يتوجهُه مع مقاصد الغزل الفلسفى حتى وقعت لى أبيات ابن الرومى فإذا قوله (تؤام) ترجمة للفظ آخر هى لفظ (معًا) فى قول ابن الرومى ينحو إلى هذه المعانى بعينها :

فالعين لا تنفكُّ من نَظَرٍ　　　والقلب لا ينفكُّ من وَطَرِ
ومحاسن الأشياء فيكِ (معًا)　　　فَملَا لتِيك مَلالَتى بَصرِى
مُتعاتُ وجهك فى بديهتها　　　جُدُدٌ وفى أعقابِها الأُخَرِ
فكأنّ وجهكِ من تجدُّدِه　　　مُتنقِّلٌ للعين فى صُوَرِ

وقول ابن الرومى (ومحاسن الأشياء فيك معًا) هو عمل الشعر فى معنى غسيلٍ قدَّم به العقاد لقصيدة غزل فلسفىّ وهو قوله : « فيك من كل شيء »

ورحم الله الصولى الذى يقول :

أعرفُ مِنها شَبهًا　　　فى كلِّ شئ حسَنِ

فقد أتى بالمعنى عاميًّا لطيفًا مَجْفُوًّا غير صنيع ، وهو على ذلك أرق من فيك منى ومن الناس ...

فهذا مذهب الشعر من لدن جرير إلى يومنا هذا ولم نستقصه فى غرض واحد من أغراضه ، وذاك مذهب العربية فى معانى ألفاظها ، وسبيل الفلاسفة فى تحديد معانيها ، وفى ثلاثتها قصَّر بيت العقاد وفسد واستحال معناه وتهالك منطقه . فمن أين يمكن وصف الرافعى – إذا نقد هذا البيت – بأحد أمرىْ الأستاذ قطب : إما أن يكون ضيق الإحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت هذه اللفتات الغنية

بالشعور ... (وأين وأنى وكيف نجدها يا أستاذ الأستاذين ؟) وإما أنه يدرك هذا الجمال ولكنه يتلاعب بالصور الذهنية وحدها ، غافلا عما أحسه وأدركه ... وما ندرى كيف كان يحسه الرافعى رحمه الله ؟

أكان يحسه ويدركه بقوة الجوع والعطش فى البيت الذى يليه :

كيف بى أُعزلُ إن أغنيتنى أنت ، حتى عن شرابى والطعام !

وأخيرًا ، فقد خير الأستاذ قطب أصدقاء الرافعى بين أن يحكموا عليه بإحدى كلمتيه أن يكون رحمة الله عليه مسلوب « الطبع » أو مسلوب « العقيدة » . وقد تبين بعد الذى قلنا أن نقد الرافعى نقد « محكم » فى سياق العربية ، وفى جوهر الشعر ونزيد فنقول إن قارئ القصيدة (غزل فلسفى) حين يقرؤها إلى أن ينتهى إلى هذا البيت : « فيك منى ومن الناس ... » لا يجد فيها من « الحياة » ولا من « الخيال » ولا من « غنى الشعور » ولا من « الإحساس الفنى » – إلى آخر ما يتنبل له الأستاذ قطب – مايجعل نقد هذا البيت بعينه دليلا على ضيق الإحساس واستغلاق الشعور ، والغفلة عن الجمال ، وفساد الإنسانية فى قلب ناقده .

وعلى هذا فقد سقط الدليل الأول من أدلة أحكامه على الرافعى وبان فى ذلك ما امتاز به الرافعى من الدقة وصدق الإحساس فى إدراك معانى الشعر ومافيه من غضارة ورُوقة وجمال .

* * *

بين الرافعي والعقاد

– ٣ –

ثم ماذا ؟ ثم يقول الأستاذ سيد قطب فى ثالث أدلته على أحكامه : « يقول العقاد فى طرافة ودُعابة عن حِسان شاطئ استانلى !!

ألقى لَهُن بقوسه | قُزحٌ وأدبر وانصرفْ
فلبِسْنَ من أسلابه | شتى المطارف والطُّرفْ

فلا يجد الرافعى فى هذه الطرافة إلا أن يتلاعب بالألفاظ فيقول : فقزح لا يلقى قوسه أبدًا إذ لا ينفصل منه . قال فى اللسان : « لا يفصل قُزَح من قوس » . فإذا امتنع فكيف يقال : « أدبر وانصرف » . أما قزح العقاد ، فلعله الخواجة قزح المالطى مراقب المجلس البلدى على شاطئ استانلى الذى قيلت فيه القصيدة .

ثم يقول إن هذا المثال « فيه تلاعب وروغان ، وهو فى هذه المرة (التلاعب) أخسُّ من السابقة ، ففى الأولى كان تلاعبًا بصور ذهنية ، وهو هنا تلاعبٌ بألفاظ لغوية ! » .

أوَّلا ، فمن ذا الذى يغفُل عن طرافة هذا « الخيال » الذى يتصور « قُزحًا » ملقيًا بقوسه لهؤلاء الحسان ، وهن يتناهبن هذه الأسلاب ، بينما هو مدبر منصرفٌ ، مغلوب على أمره ، لا يستطيع النصفة ممن غلبَ جمالهنَّ جماله !

ألا تستحق مثل هذه الطرافة ، ومثل تلك الحيوية ! من الناقد إلا أن يذهب إلى القاموس أو اللسان ، ينظر هنالك ، هل يفصل قوس عن قزح أو لا يفصَل ؟ ثم يكمل الكلام بتهكم بارد لا يرد على الفطرة المستقيمة فى معرض هذا الجمال !!

---

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٥) ، ١٩٣٨ ، ص : ٨٥١ – ٨٥٤

أهذا هو النقد الذى هو « أقرب إلى المثال الصحيح » ؟ وما قلته فى المثال الثانى يقال بنصه هنا ، فلترجع إليه جماعة الأصدقاء .

ثم يعود فيقول عن هذا المثال أنه يمثل « تلاعبه بالألفاظ اللغوية ، والوقوف بها دون ما تُشِعُّه فى الخيال من صور طريفة » انتهى كلام الأستاذ الجليل .

* * *

ومن أعجب العَجَب أن يُعدَّ اعتراض الرافعى ونقده هذا البيت تلاعبًا بالألفاظ اللغوية ، ولا يكون هذا الشعر نفسه قد بُنى على التلاعب فى غير طائل ، وعلى تكلف اللفظ لترميم قافية البيت . وأول ما نقول فى هذا أننا نخالف بعض رواة العربية ثم الرافعى فى أن يلزم أحد هذا الحرفين صاحبَه على كل حالة وفى كل ضرب من ضروب القول .

وبيان ذلك أن لأصحاب العربية فى هذا الحرف (قُزَح) ثلاثة أوجه من الرأى :

الأول : أن (قُزَح) اسم شيطان ، أو اسم ملك موكل به .

والثانى : أن (القُزَح) هى الطرائق والألوان التى فى القوس ، والواحدة قُزْحة .

والثالث : أن يكون من قولهم : قزح الشىء ، وقحزَ إذا ارتفع

قلت : وكأنهم أرادوا أن يجعلوه معدولا به عن (قازح) ، وهو المرتفع

ففى الوجه الأول لا يضير أن ينفصل الحرفان ، إذ كان (قوس) اسم جنس ، و(قزح) اسم علم بعينه ، وأضيف أحدهما إلى الآخر إضافة نسبة . فهو بمنزلة قولك (كتاب محمد) . ومن هنا جاز أن يبدلوا تسمية العرب الأوائل فقالوا له : « قوس الغمام » و« قوس السحاب » . ويقول ابن عباس رضى الله عنه : « لا تقولوا قوس قُزَح ، فإن قزح من أسماء الشياطين . وقولوا (قوس الله) عز وجل . وعلى هذا يجوز قول القائل : « ألقى قُزح قوسه » بإضافة القوس إلى ضميره ، على أن الشيطان ، أو المَلَكَ الموكل بالقوس قد ألقى (قوسه) .

وأما الوجه الثانى والثالث فلا يجوز الفصل معهما البتة على إرادة (الاسم) الذى تعرفُ به هذه الطرائق المتقوّسة التى تبدو فى السماء . فإن الحرفين على

حالتهما ينزلان منزلة الكلمة الواحدة إذ ذاك . وللقول فى هذا مجال ليس هنا مكانه ولا أوانه .

ونحن نرى أن العقاد قد ذهب - وإن لم يرد ذلك - إلى الوجه الأول ، وأن شعره يحمل على رأى جائز فى العربية .

هذا ، وقد ذهب الرافعيُّ فى نقد بيت العقاد إلى رأى أصحاب اللغة فى امتناع الفصل بينهما ، وأن الحرفين كالكلمة الواحدة على تتابعهما . وعلى ذلك لا يقال « ألقى (قُزح) قوسه » وأولى إذن ألا يقال إن (قُزَح) أدبر وانصرف ، لأنه ليس بذاته يدُلّ على معنى ، أو يقع اسمًا لشىء بعينه ، فهو إذن لا يجوز عليه الإسنادُ إسناد الخبر أو الفعل كالإلقاء والإدبار والانصراف . فأين التلاعبُ فى هذا الرأى باللفظ اللغوىّ ؟ ولو قد كان وقع فى بعض كلام الرافعى فصل أحدهما عن الآخر لأمكن أن يقال إنه يتلاعب باللفظ ، ولكن ذلك لم يكن .. !

وأما الأستاذ العقاد فقد نقد رواية قمبيز فى سنة ١٩٣٢ ، وجعل من ملاحظاته أن هذه الرواية « لم تخلُ من مخالفة للنحو والصرف فى القواعد المنصوص عليها » ، وأتى فى هذا الموضع من نقده بما خطأ فيه شوقى ، وليس بخطأ .

يقول شوقى على لسان أحد المجان (ص ٣٢) .

أَلْقَدَحا أَلْقَدَحا ... الخمرُ تنفى التَّرَحا
قصرًا أرى أم فَلَكا ... وشجرًا أم قُزَحا

ثم علق (شوقى) فى الوجه (٣٢) نفسه فقال : « قالوا : إن قزح لا يفصل من قوس ، ولكن الناظم لم ير بأسًا فى فصله لسهولته وكفاية دلالته » انتهى . ونحن نجيز هذا فى العربية ولا ننكره .

قال ذلك شوقى فى التعليق ، ثم جاء الأستاذ العقاد فى كتابه (رواية قمبيز فى الميزان) يقول ص ١٥ « ... ويقول (قُزَح) ولا تذكر قُزَح إلا مع قوس » . وَبيّنٌ أن كلام الأستاذ العقاد ليس عربى العبارة ، فإن أصحاب العربية منعوا (فصل) قُزَح من قوس ، ولم يمنعوا (ذكر) قزح إلا مع قوس . والفرق بين اللفظين كبير . وبينٌ أيضًا أن هذا ليس نقدًا فإنه لم يأت بأكثر من تكرار ماذكره شوقى فى تعليقه ،

وكان الوجه أن يبين فساد رأى (الناظم) إذ لم ير بأسًا فى الفصل للعلة التى ذكرها .

ومع ذلك ... فقد كان نقد العقاد فى يونية سنة ١٩٣٢ ، ولم تمض ستة أشهر أى فى يناير سنة ١٩٣٣ حتى فصل العقاد نفسه بين (قزح) وقوس فى شعره هذا !! فلعل هذا أن يكون بالتلاعب بالألفاظ اللغوية أشبه ، وبتصريف النقد على الهوى أمثل . وأما بيتا العقاد :

ألقى لهنَّ بقوسه   قزحٌ وأدبر وانصرف
فلبسن من أسلابه   شتى المطارف والطرف

فقد بنيا على ألفاظ يدفع بعضها بعضا عن معنى يولده - من لفظ (القوس) التى هى من آلات القتال . وكان سبيل التوليد هكذا : القوس من آلات القتال ، واستعيرت للطرائق فى السماء مضافة إلى (قُزَح) ، فيكون ماذا لو أنشأ من لفظ هذا القوس صورة للقتال بين (قُزَح) وبين جميلات شاطئ استانلى ؟ ويكون ماذا لو زعم أن الجميلات انتصرن على (قُزَح) صاحب القوس ، فألقى سلاحه ثم أدبر وانصرف ؟ ويكون ماذا لو جعل ألوان (قوس قزح) أسلابًا كأسلاب المحاربين فى القتال ظفر بها الجميلاتُ بعد انهزام (قزح) ؟ ويكون ماذا لو زعم أنهنَّ اتخذن هذه الألوان مطارف وطرفا يلبسنها ويتحلين بها ؟ وهكذا

وهو توليد كما ترى ، وتوليد من لفظ واحد . ونحن لا نرى بأسًا - وإن كنا لا نرتضيه - أن يأتى الشاعر بالمعانى مولدة من ألفاظ اللغة ، فإن من بعض اللفظ فى العربية لما يُضرم الفكر ويُؤرث المعانى ويستفزُّ الخيالَ إلى أعلى مراتبِهِ . على أن هذا لا يتحقق إلا أن تستقيم الطريقة للفكرة ، ويتراحب المجال للمعانى ، ويسمو المدى بالخيال ، على أن تصحَّ المقابلةُ بين معانى اللفظ وسائر الصور التى تتولد منه .

والمقابلة فى هذا الشعر فاسدة باطلة . فهى مقابلة بين (قزح) وبين الجميلات على شاطئ استانلى ، ثم بين الطرائق المقوسة ذات الألوان فى السماء (القوس) وبين ماترتديه الجميلات من مطارفهن . وكان حق المقابلة أن يكون (قزح) هذا

مشتهرًا بالجمال موصوفًا به ، حتى إذا ما ذكر فى معرض الكلام عن الحسان الجميلات تمت المقابلة بينه وبينهن . فإن لم يكن ذلك كذلك ، فلا أقل من أن يكون فى الشعر مايدل على سبب (حالة الحرب) التى أنشبها الشاعر بين حسان شاطئ استانلى ، وبين العم (قزح) ، ثم ماكان من علة لإلقاء سلاحه ثم انهزامه وإدباره .

فأما إذ لم يكن (قزح) جميلًا ، ولم يأت الشاعر بسياق جيد لهذا التوليد ، فقد بطلت الأفعال التى أسندها إلى (قزح) من إلقاء قوس وإدبار وانصراف ، وما أضافه إليه من الأسلاب ، وصار كله لغوًا لا فن فيه . وهذا الضرب خاصة من ضروب الشعر الذى يتضمن التصوير والوصف لا يأتى جيده إلا على دقة الملاحظة ، وتقدير النِّسب بين الألفاظ والمعانى والصور . فلو اقتصر الشاعر فجعل (قزح) يهدى إلى الحسان تحاسين قوسه ، فاتخذن منها (شتى المطارف والطرف) لكان أجود وأقرب إلى الإتقان . أما إعلان الحرب بينهما فليس جيدًا ولا براعة فيه كما رأيت .

وقد أجاد ابن الرومى – ويقال إنها لسيف الدولة – إذ يقول :

وقد نشرت أيدى الجنوب (مطارفًا)
على الجو دُكنًا ، والحواشى على الأرض
يطرّزُها (قوس السحاب) بأصفر
على أحمر فى أخضر وَسْطَ مُبْيضٍّ
كأذيال خودٍ أقْبَلَتْ فى غلائل
مُصَبَّغَةٍ والبعض أقصر من بعض

وهو قريب جيد فى الوصف

ونحن لا نذهب مع الأستاذ قطب فيما يتخير من اللفظ لوصف هذا الشعر وما فيه ، بذكر (الطرافة) و(الدعابة) و(الخيال) و(الحيوية) و(معرض الجمال) ، وما إلى ذلك من ألفاظ لو أقيم ضدها مكانها لقام . إذ كان لا يبين أسبابها ولا يوجه معانيها ولا يأتى كلامه فى مثل ذلك إلا على طريقة صاحب كتاب

(الوشى المرقوم فى حل المنظوم) إذ يقول : « أولا فَمَنْذا الذى يَغْفُل عن طرافة هذا « الخيال » الذى يتصور « قزحًا » ملقيًا بقوسه لهؤلاء الحسان ... إلخ » .

وقد وضح الآن أن ليس فى كلام الرافعى تلاعب بالألفاظ اللغوية ، وأنه ليس فى هذه الألفاظ مايجعلها « تشع فى الخيال صورًا طريفة » ، وذلك لما ذكرنا من تخالف ألفاظها وتدافعها وبُعد صورها عن جودة التوليد ، إذ كانت هذه الصور مولَّدة من اللفظ على غير نسق متصل أو طراز جميل .

ثم .. أتى الأستاذ قطب بالمثال الرابع فقال : « ويسمع العقاد صيحات الاستنكار لِلَهْوِ الشواطئ ، وما تعرض من جمال ، فيصيح صيحة الفنان الحى المعجب بالحيوية والجمال :

عيد الشباب ، ولا كلا　　　م ، ولا ملام ، ولا خَرف

فإذا الرافعى يقول : « إن غاية الغايات فى إحسان الظن بأدب العقاد أن تقول إن فى هذا البيت غلطة مطبعية ، وأن صوابه :

عيد الشباب ، فلا كلا　　　م ، ولا ملام ، (بلا قرف) !

ثم يقول بعدُ إن هذا المثال يغنيه الرافعى عن الحديث فيه « فهو لم يزد على أن أورد البيت ، ثم استغلق دون استيعاب ما يعبر عنه من روح الفنان الحى ، الموكل بالجمال حيثما وجد ، وكيفما كان ، الهازئ بخرف التقاليد ، وقيود العُرْف ، ولم يجد ما يقوله إلا « بلا قرف » وهو قول لا تعليق لنا عليه » .

ثم يعود فيقول : إن هذا يمثل هروب الرافعى « من مواجهة النقد الصحيح إلى المراوغة وكسب الموقف - فى رأيه - بنكتة أو تهكم أو شتيمة » .

وأنا لا أعجب لكلام الأستاذ سيد قطب ، لأنه على طريقته فى حل المنظوم ، وإن أعجب فعجبى لصاحب « وحى الأربعين » كيف ارتضى أن يثبت البيت فى قصيدته ، وفى عقب هذه القطعة بالذات ، وينتقل من الوصف والتأمل وإمتاع النظر ، وإمداد الفكر بأسباب من الجمال ، أو كما يقول الأستاذ قطب من الطرافة والدعابة والخيال والحيوية ! إلى صيحة الاستنكار والتفزع بقوله : « فلا ملام

ولا كلام »[(١)] ثم الغضب الذى لا يتورع فى قوله : « ولا خرف » . إن هذا الانتقال ليس من منطق الفن ولا من نهجه وسبيله .

وما أظن الرافعى أراد أن ينقد البيت - لأنه ليس بسبيل مما يحسن أن يُنقد ، وإنما وضعه هكذا للعقاد وهو يريد ماقلناه فى كلمتنا الأولى مما جرَّته العداوة التى اضطرمت بينهما .

* * *

وبعد فقد قرأت كلمة الأستاذ الجليل المهذب سيد قطب فى البريد الأدبى من العدد السالف من الرسالة ، وقد أعلن فيها بعض رأيه فيما نكتب ، وحكم بحكمه على ماقلناه ، وحاول أن يتهكم ، ووعظ وذكر . ونحن ندعه لما به عسى أن يرى يومًا غير هذا الرأى ، وله الشكر أحسن أو أساء .

* * *

(١) هكذا كتب شيخنا محمود شاكر ، أما سياق الكلمات فى البيت فهو « فلا كلام ولا ملام » .

بين الرافعي والعقاد

— ٤ —

وبعد ، فقد فرغنا فى الكلمات السالفة من الحديث فيما هو « بين الرافعيّ والعقاد » ، ممّا جاء فى كلام الأستاذ الفاضل سيد قطب . ثم رأينا الأستاذ يبدأ ضربًا من القول هو إلى رأيه فى كلام الرافعي وحده ، ليس يدخله ذكر العقاد إلا قليلا . وقد كان بدء حديثنا محددًا بالرافعي والعقاد معًا . فنحن نرى أن عملنا قد انتهى إلى نهايته فى هذا الغرض من القول ، ولذلك ، ليس يضيرنا الآن أن نسكت إلى حين يفرغ الأستاذ سيد قطب مَمَّا يسر الله له القول فيه مما يسميه نقدًا .

وأول مايجب علينا أن نقوله للأستاذ الفاضل بعد الذى كتبناه أنه يسىء بنا الظنّ بلا دليل ولغير عِلَّة . يتزعّم أن فى حديثنا (غمزًا ولمزًا وتعريضًا به) وكذا وكذا ، ونحن نكرم أنفسنا وقلوبنا وضمائرنا وألسنتنا عن هذا الضرب من القول ، ولو أردناه لمضينا على عادتنا من التصريح دون التلويح ، ولقلنا له من القول ما هو حق لا كذب فيه .. حق يدافع عن حقيقته بالبيان والحجة والوضوح ، والأدب الذى يعفُّ عن دنيَّات المعاريض وسفاسف الأخلاق .

وليعلم الأستاذ قطب أنى إذا أحببت لا أغلُو ، ولا أتجاوز حد الحب الذى يصل القلب بالقلب ، ويمد الروح بالروح ، ويجعل النفس فى فرح متصل بسببه ، أو حزن آت بعلته ، فهذا أخلق الحب أن يخلو من سوء العصبية ، وفساد الهوى ، وقبح الغرض . فلا يجدنى أرفعُ الرافعى عن الخطأ ، ولا أجله عن الضعف ، ولا أنزهه عما هو فى عمل كل إنسان حيٍّ ناطق يأمل ويتشهى . مما يسمى بأسمائه حين يعرض ذكره . وفى كل أحد ممن خلق الله على صورة (الإنسان) ضروب من الشمائل والسجايا والأخلاق والآداب ، ليس يطلع طلعها إلا الله جل

---

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٦) ، ١٩٣٨ ، ص : ٩٠٢ - ٩٠٣

جلاله ، وربٌّ رجل صافٍ كنور الفجر يخبأ من ورائه مظلمة من سـواد الليل .

ولقد عرفنا الرافعي زمنًا – طال أو قصر – فأحببناه ومنحناه من أنفسنا ومنحنا من ذات نفسه ، ورضيناه أبًا وأخًا وصديقًا وأستاذًا ومؤدبًا ، فلم نجده إلا عند حسن الظن به في كل أبوّته وإخائه وصداقته وأستاذيته وتأديبه . ولقد مات الرافعي الكاتب الأديب وهو على عهدنا به إنسانًا نحبه ولا ننزهه ، ثم جاء الأستاذ سيد قطب بحسن أدبه يقول في الرجل غير ما عهدناه ... يؤوّل كلامه ويأخذ منه ويدع ويتفلسف ويحلل ويزعم القدرة على التولج في طويات القلوب وغيب النفوس فيكشف أسرارها ويميط اللثام عما استودعت من خبيئاتها ، ثم هو في ذلك لا يتورع ولا يحتاط ، ولا يَرعى زمام الموت [١] ، ولا يُوجب حق الحيّ .

لقد كتب الأستاذ ماكتب ، فقرأ كلامه من قرأ ، أَفَيجِدُ في هؤلاء من يقول له أصبتَ ؟ ومن يقول له أحسنتَ ؟ ومن يزعم أن ليس له مندوحة عما اتخذ من اللفظ في ذكر الرافعي وصفته والحديث عنه وعن أدبه وشعره ؟ أما يجدر بالأستاذ الفاضل أن يعود إلى بيته هادئَ النفس مُخَلًّى من حوافز الحياة الدنيا ، فيقرأ ماكتب مرة أو مرتين . ثم يرى هذا الذى ترك الدنيا بالأمس وحيدًا ، وخَلَّف من ورائه صغارًا وكبارًا من أبنائه وحفدته وأصحابه واللائذين به ، ثم يراهم يقرأون ما يكتب عن أبيهم وجدهم وصاحبهم بالأمس ، ثم يراهم والدمع يأخذهم بين الذكرى المؤلمة والألم البالغ ! ولو فعل ، لعرف كيف أخطأ ومن أين أساء ، ولوجده لزامًا عليه أن يقدر عاطفة الحي ، إن لم يعظِّم حرمة الموت . وهذا أمر لا نطيل القول فيه ولا نكثر من لوم الأستاذ عليه ، فإن مرجعه إلى طبيعته وما تضمره نفسه ، وإلى تقديره لعواطف الناس .

ومهما يكن من شيء ، فسندعُ الأستاذ سيد قطب يقول مايقول ، ويذكر من رأيه في الرافعي ما يذكر ، ويصف أدب الرجل وذهنه وقلبه ونفسه بما يوحي إليه ،

---

(١) زمام الموت : كذا بالأصل ، والصواب : ذِمام (بالذال) وذِمام الموت : حُرْمَته .

لا نعقب على شيء منها حتى يفرغ ، وحتى يستوفى مادته ، ويضع بين أيدينا كل حججه فى فن الرافعى . فيوم ينتهى نبدأ نحن القول فى الذى قال ... لا نرد بذلك عليه قوله ، أو نسدد له رأيه ، فما لنا بذلك حاجة ولا لنا فيه مأرب ، ولكنا نريد إذ ذاك أن نضع رأيه بمنزلة الرأى يقول به فئة من الناس ، أو شبهة تحيك فى صدر جماعة من الأدباء ، فعلينا أن نبين مواضع الخطأ إذا أخطأ ، ومكان الصواب إنْ أصاب ، وذلك غاية مانستطيع .

أما ما يوعدنا به الأستاذ الفاضل ، وما يسخر به ويتهكم ، وما يضمر لنا من (بقايا) كلماته !! فليقل فيه ماشاء كما يشاء ، وسنرده على قدره وفى حد طاقتنا وآدابنا ، ولو اجتمع للأستاذ كل سلطان يستطيع به أن يسىء ، فأساء إلينا بمثل الذى أساء به إلى الرافعى رحمة الله عليه ، فنحن لا نزال – مع كل ذلك – نحترمه ... إذ ليس فى طاقتنا أن نفعل شيئًا إلا أن نحترمه كل الاحترام .

* * *

بين الرافعي والعقاد
- ٥ -

« تحرقك النار أن تراها ، بله أن تصلاها »

منذ تسعمائة سنة قال الخفاجي حين ذكر البلاغة :

« لم أر أقل من العارفين بهذه الصناعة ، والمطبوعين على (فهمها) و(نقدها) مع كثرة من (يدعى) ذلك ، ويتحلى به ، وينتسب إلى أهله ، ويمارى أصحابه فى المجالس ، ويجارى أربابه فى المحافل . وقد كنت (أظن) أن هذا شئ مقصور على (زماننا) اليوم ، ومعروف فى (بلادنا) هذه ، حتى وجدت هذا (الداء) قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله وأشكالهما حتى ذكراه فى كتبهما ، فعلمت أن (العادة به جارية) ، و(الرزية فيه قديمة) . ولما ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب ، أملت وقوع الفائدة به ، إذ كان (النقص) فيما أبنته شاملًا ، و(الجهل) به عامًّا ، والعارفون به قُرحة الأدهم [(١)] بالإضافة إلى غيرهم ، والنسبة إلى سواهم » .

* * *

ومع ذلك ... فالأستاذ سيد قطب أحد (الأخصائيين !!) فى اللغة التى نعبر بها .

عاد الأستاذ الفاضل سيد قطب بحديثه عن الرافعيّ ، ثم عقب عليه بالحديث عنى وعما كتبت فى الكلمات السالفة . وكنت عزمت أن أدعه حتى يشفى ذات صدره من الرافعيّ ومنى ؛ وكنت أجمعت الرأى على أمر ، ثم هأنذا أتحلل من عزيمتى ... ومرة أخرى أقول كما قلت فى الكلمة الأولى : إنى سأتولج فيما لا أحب ... لا كرامة للأستاذ أو استجابة لدعائه بل لميط الأذى ... بل لميط الأذى حسبُ .

---

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٧) ، ١٩٣٨ ، ص : ٩٣٣ - ٩٣٥

(١) القُرْحة : بياض يسير فى وجه الفَرَس ، وهى دون الغُرَّة . والأدهم : الأسود . وقرحة الأدهم تضرب مثلا للشىء العزيز .

ولقد علم من لم يكن يعلم أنى كتبت ما سلف هادئًا لا أهاجم ، إلا أن أترفق وأستأنى وأتصبر على كلام ينفد معه صبر الحليم ... وأنا وإن كنت لا أبالى بشىء مما يصف الأستاذ الكامل به كلامى فأنا لازلت أحفظ للقراء عهدهم قِبَلَ الكتَّاب ، فلا أدع القارئ عُرْضَة لرجل يفهم القول الرفيع بالفهم الوضيع ، ولا لرجل يسىء القول فى الناس ويأبى عليهم أن يقولوا له أسأت فأجمِل . ولا لرجل يرى الظل ممدودًا له - زمن القيظ - فيتجنبه إلى وقدة الشمس ...

فهكذا أبى الأستاذ أن يأوى إلى مأوى يقيه ، وتجرد يختال علينا ، ويقتال [١] إلى نفسه جريرة شر . وما ظنى برجل يصف الرافعىّ بألفاظٍ ملفقة ، وهى على ذلك بينة الدلالة على قبح الغرض ، سافرة عن شُنْعَة الإساءة ، قليلة التذمم فى حق الأحياء بَلْهَ الأموات ممن لم تجف عن قبورهم بعدُ دموع أزواجهم وأطفالهم وذراريهم ومن يَمُتُّون إليهم بالحب والمودة والإخاء ؟

وماظنى وظنك بإنسان قد حُمِّل القلم ليستملى ، فيتنزل عليه القول من بغضاء مربدة باغية لا تتقى سوء المقال ولا مأثور الكلام ؟

وما ظنى وظنك بفهم يتعالى على سلاليم من القوارص والقواذع ، لا تجد لها فى الذى تعرف سببًا قديمًا أو علة محدثة تسوِّغ الأذى أو تحمل عليه ؟

ماظنى وظنك بهذا الرجل الذى نترفق به ونستر (نفسه ودافعها فى الحياة) بالإشارة اللطيفة ، فيأبى إلا أن يترجم القول إلى غير معناه ... إذ يسمى ما كتبت له (شتائم) ... شتائم .. ! أنف فى السماء ... أأنا يدور فى نفسى أن أكتب للأستاذ الفاضل مايسمى (شتائم) ؟ لِأَنَّا ياسيدى الأستاذ قطب أحسن ظنًّا بك من هذا . ولقد قلتُ ما قلتُ من أن الناس كانوا يتعايشون بالدين والتقوى ثم رُفِع ذلك - كما قال الشعبى - فتعايشوا بالتذمم والحياء ؛ ثم رفع ذلك ، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة ، ثم رفع ذلك ، وجاء زمان يتعايش الناس فيه (بِثَلْب الموتى) ... وهو زماننا هذا . ولو قد كنت (أخصائيًّا !) فى اللغة التى يعبر بها لما زعمت أنى (رحت أتهمك بمجانبة الدين والتقوى ، والحياء والتذمم) فأنا لم أقصد إلى

---

(١) اقتال قولا : اجترّه إلى نَفْسه مِن خير أو شرّ .

ذلك ، فهو أمر قد فرغ من الحكم فيه صاحبنا الشعبى . وما كان قصدى إلا أن الذى كتبت أنت عن الرافعى الذى مات وسكت ، والعقاد الذى بقى يتكلم ، بل عنهما معًا فى قران واحد ، هو ثَلب للموتى وزُلفى للأحياء . وحق لى أن أقول ذلك فقد جمعتَ بين الرجلين ، فوضعتَ الميت موضعًا لا يتنزل إليه حيٌّ فى الضعة ، ورفعت الحى مكانًا لا يسمو إليه أحد فى الرفعة ، وضربت الكلام من هنا ومن هنا حتى استبان الغرض ..

أيريد (الأخصائى !) الفاضل أن نبين له موضع الإشارة فى كلامنا هذا ... ؟ إذن فليسمع .

حين قرأت الكلمة الأولى من حديثه فى الرسالة ، لم أشك ساعة أنه يختدع القارئ عن نفسه يبتغى أن يُفهمه أنه يريد النقد ، والنقد حسب ، ولا شيء غير النقد ! وألح فى ذلك إلحاح الظنين [1] فى الإكثار مما ينفى الظِّنَّة عنه ، غافلا عن أن تكلف نفى التهمة بالإلحاح يثير الشك ويوقظ الريبة فى نفس من أراد الله له الخير ... ثم يشرع الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) يأتى بالشواهد من كلام الرافعى فى نقد (وحى الأربعين للعقاد) ليثبت صدق ماذهب إليه من الآراء فى الرافعى .

كان يشك فى « إنسانية » الرافعى ، ويزعم أنه خواء من النفس .

ثم قرأ ماكتب الأستاذ سعيد العريان فعدّل حكمه قليلا ! ولم يعد يستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ، ولكن بقى الأساس سليما ... فما هو ؟

كان ينكر على الرافعى « الإنسانية » فأصبح ينكر عليه « الطبع » .

وكان لا يجد عنده « الأدب الفنى » فأصبح لايجد عنده « الأدب النفسى » .

وكان الرافعى ذكيًا قوى الذهن ، ولكنه مغلق من ناحية الطبع والأريحية .

والرافعى أديب الذهن الوضاء ، والذكاء اللماع !

والرافعى مغلق القلب متفتح العقل وحده للفتات والومضات . وهذا فى المقالة الأولى ، ثم نزل درجة بالرافعى فى الكلمة الثانية ، ثم لم يكد يرمى الثالثة حتى زعم أنه حين عاد بعد ذلك فقرأ رسائل الأحزان أحسَّ أنه (خُدع !) فى

(١) الظنين : المتَّهم .

قياس ذكاء الرافعى ! ومعرفة طبيعته ودرجته ! ولكنه يحس الغضاضة فى هذا التراجع فيعزّيه « الصدق » ! الذى يعبِّر عنه حين ينصت لإحساسه ويصور حقيقة رأيه ... وتأويل ذلك عنده فى مقاله الثالث أنه أخطأ فى عدم ! تحديد (الذهن) ... فمن الذهن ماهو سليم أو مريض ، وماهو مشرقٌ أو خابٍ ، وماهو متفتح أو مغلق ، (أو كما قال) ...

لقد قال فى الكلمة الأولى ما رأيت ، ثم قال فى الثالثة ما رأيت من تراجعه ، ولقد كان هذا التراجع فى الثالثة مطويًا تحت الكلمات فى الأولى وفهمناه وأدركناه ، وكان آخر الرأيين هو الغرض الذى يسعى إليه . وإلا فما أظن أحدًا يستطيع أن يعقل أن (ناقدًا) قد فرض على نفسه النقد - أى التتبع والاستيعاب وصدق النظر - يصف رجلا « بالذهن الوضاء » « والذكاء اللماع » والقوة فى الذهن ، والتفتح فى العقل ، ثم لا تمضى عشرة أيام ... فيقرأ أحد كتب هذا الرجل ، فيعود يقول فى صفته إن ذهنه مريض غير سليم ، « خاب غير مشرق » ، « مغلق غير متفتح » .

أيريد الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) بيانًا هو أوضح من هذا على سوء غرضِه .. ؟ الناقد رجل عَدْل مُنصِف لا يزال يتتبع شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى يستنبئها أخبار أصحابها ويستنبط من قلوبها أسرار كتابها ، ويكشف عنها خبيئة قائليها .. ، ثم يحكم مميزًا مقدرا لا يجورُ فيتجاوز الغاية ، ولا يحيف فيقعُ دون المدى . وقد حكم هذا (الأخصائىُ !!) فى كلمته الأولى حكمه الأول حين (استطاع أن يكون ناقدًا ، لا يكتفى بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان ، ولكن يعلل ما يحس ويحلّله) !! كما قال فى بدء كلامه .

أو ليس يقتضى هذا - على الأقل - أن يكون قرأ كل ماطُبع من كتب الرافعى دون ما تفرق من كلامه فى الجرائد والمجلات على كثرتها .. ؟ بلى .

أو ليس يقتضى هذا - على الأقل أيضًا (أن يكون حين حُكمه قد استردَّ شتات ما بقى فى نفسه من آثار كلام الرافعى فيها ؟ قالوا بلى .

أو ليس يقتضى حق النقد والحكم - على الأقل أيضًا - ألا يصفَ الرافعى بالذكاء اللماع ، والذهن الوضاء ... وهذا الكلام المفخم - إلا أن يكون ذلك من آثار ما قرأ له من شيء ...؟ قالوا بلى .

إذن فكيف – فى عشرة أيام ياسيدى – يستطيع كتاب واحد للرافعى هو « رسائل الأحزان » أن يقلب – هذا (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) ، وهذا الذى (استطاع !! أن يكون ناقدا) – رأسا على عقب ، فلا يكتفى بسلب النعوت المفخمة (كالوضاءِ واللماع والمتفتِّح) فيترك الذهن هكذا مجردا ، بل يضع مكانها أضدادها فيجعله ذهنا « مريضًا خابيًا غير لمّاع ولا وضاء ، مغلقًا غير متفتِّح » .

هآه ... إنى لأشك كل الشك فى براءة الأستاذ مما غاظه من كلمتى الأولى مما سماه (شتائم) . ولقد شهدت مرة أخرى « أن ما بالأستاذ قطب النقد ، ولا به الأدب ، ولا به تقدير أدب العقاد وشعره ، فما هو إلا الإنسان وجه يكشفه النور ويشف عما به ، وباطن قد انطوى على ظلمائه فما ينفذ إلى غيبه إلا علم الله » . ولا زلت أقول له : « إنه لو عاد إلى داره مخلى من حوافز الحياة الدنيا » فقرأ ماكتب قراءة الناقد لوجد الاختلاط فى لفظه بينًا ، والغرض من ورائها متكشفًا . ولو شئنا أن نقول لقلنا فلم نكذب : إن كلامه لمشترك بين ضربين من العقل أحدهما ظاهره نعرفه ولا ننكره لأنه مما عهدناه زمانًا ، والآخر ظاهر أيضًا ... نعرفه وننكره ، لأنه مما استحدث الرافعى رحمة الله عليه .

وأما الأديب الكبير ! الّذى لقى الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) فضرب لنا الأمثال « بالجماعة الذين يجلسون فى المأتم ويرجمون الناس بالحجارة . فإذا رجمهم الناس صاحوا وولولوا ، وملأوا الدنيا تسخطًا ونعيًا على الأخلاق ، لأن الناس لايقدرون حرمة المأتم ، وهم الذين استهانوا بهذه الحرمة حينما رجموا المارة » . فإن شاء أن يختفى فى ألفاظ الأستاذ (الأخصائى !) فهو عتيق جُبنه ، وإن شاء أن يظهر من ورائه فسيرى كيف عرفناه من لفظه ومن أمثاله .

وأيما كان ... فالمثل فاسد من وجوهه كلها ... فإن الأستاذ سعيد حين كتب لم يرجم أحدًا ، وإنما كتب تاريخًا ، وحين قال إن رد العقاد على الرافعى سباب وشتائم ، فهو لم يكن إلا كذلك ، ولا يمكن أن يقال فيه إلا ذلك ... إذ ليس فيه شىء مما يسوغ أن يعد ردًا أو نقدًا ... حتى ولا على طريقة الأستاذ (الأخصائى !) فى حل المنظوم ووصفه بالدعابة والطرافة والحيوية ... وما إلى ذلك من اللفظ الذى لا يتخذه ناقد إلا بعد الإبانة عن محجته وسبيله . أو كما قال

الأستاذ (الأخصائى !) فى كلمته الأولى « فى الناقد الذى لا يكتفى بالتذوق والاستحسان والاستهجان ، ولكن يعلل ! مايحس ويحلله » .

ومع ذلك فهل يرى أحد أن (حل المنظوم) فى ألفاظ ملفقة مذيلة ، ثم نعته بالطرافة والحيوية ... إلخ ، هو التعليل والتحليل الذى يتخذه النقاد أسلوبًا لهم ؟ .

ومع ذلك أيضًا ... فلو فرض أن « سعيدًا » رجم المارة ، والمارة ههنا هم الأستاذ العقاد وحده ، فلم تطفل الأستاذ (الأخصائى) فقاذف الأستاذ العريان ؟ ولِمَ لَمْ يدع ذلك للمرجوم نفسه ... ؟

ثم وراء ذلك كله ...تطفل (الأستاذ الأخصائى !) للقذف والرجم ، فلِمَ لَمْ يخص سعيدًا وحده دون أصدقاء الرافعي وأصحابه يتحداهم ويتناولهم بالأذى غير متذمم ... كأن أصدقاء الرافعي وأصحابه هم الذين كتبوا لسعيد ماكتب !!

* * *

وبعد فهذه كلمة كتبناها لنقرر حقيقة واحدة هى أن الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) ، كان فى أول حديثه عنى - حين انتهى من حديث الرافعى - يضطرب ويؤخذ ويتناوح كأنه قصبة مرضوضة معلقة على عود هش قد يبس ... أريد أن أقول بلفظ آخر إنه كان يضطرب لأن حججه التى يتعلق بها حجج فاسدة ، وإن أصل كلامه عن الرافعي خائر يتصدع ، وإن فكره فى الذى كتب لم يستقر على شيء صحيح لا يختلف عليه .

وسيرى فيما يستقبل (١) من كلامنا أنه قد عجز كل العجز عن الإتيان بشيء يمكن أن يسمى نقدًا . وسيرى أيضًا أن النقد الذى نأخذ أنفسنا به لا يجور على العقاد ، ولا يميل بنا إلى الرافعى . ويكفيه مما مضى فى كلامنا وكلامه أن يعلم أنه نزه العقاد ورفعه أرفع درجة ، وأننا لم ننزه الرافعى ولم نقل فيه بعض مايقول هو فى الشاعر الكبير صاحبه .

* * *

---

(١) لم يكتب الأستاذ شاكر بعد ذلك شيئا فى أمر العقاد والرافعى ، ولم يواصل رده على سيد قطب .

من صاحب العصور
إلى صاحب الرسالة

أخى الأستاذ الزيات :

السلام عليك ورحمة الله ، وبعد فإنى أحمد الله إليك وأستعينه وأسألهُ لك التوفيق والسَّداد . أبيتَ أيها الرجلُ إلّا كرَمًا من جميع نواحيك ، فما كدتَ تستقبل العام السابع من عمر « الرسالة » حتى عُدْتَ عليّ بفضل من ثنائك وحسن ظنك ، فذكرت « العصور » ثم أثنيت فأغنيت .

لقد وافتنى كلمتك ، وأنا بعدُ أنفض عن يدىّ غبار « العصور » وأتخفف من أثقالها التى حملتها راضيًا غير كاره ، لأنقلب إلى هذه الغرف العزيزة التى نشأت فى حجور الشيوخ من سكانها أستخبرهم علم ما أجهل ، وأستنبئهم أخبار ما مضى ، لأستوحِىَ الظن فيما يستقبل ، وأجدّد بعادىٍّ [١] قوتهم قوة النفس التى لا تهدأ ولا تنام .

لابد من كلمة - أيها الشيخ الجليل - وقد كان الصمت أولى بى وأحبّ إلىّ . لابدّ من كلمة أعتذر بها للذين استقبلونى بفرحة المحبّ أمتع باللقاء على غير ميعاد . فأنت تعلم أنى يوم عزمت على إصدار « العصور » لم أكن قد أعددت لها من مال إلا ما ادخرته فى نفسى من جهد أعوامٍ طالت فى معاناة العلم والأدب ، وبقية من خُلُق ضننت بها أن تذيع فى أطرافها ونواحيها مهزعات العصر الحديث التى صرّفت الأخلاق فى وجوه الغى والضلال ، وأطلقت دَنِيّاتِ الغرائز من عقال الشرائع ، وأرسلتها ترعى حِمّى أبى الله ورسولُه أن يكون مرعى لمن آمن بالله واليوم الآخر .

ولكن لابد من مال مَشكُوك معترف به ، مصدّق على الاعتراف به من « محافظ البنك الأهلى » ، وإن قليل ما عندى من هذا المال لا يغنى غناءه فى

---

* الرسالة ، السنة السابعة (العدد ٢٨٧) ، ١٩٣٩ ، ص : ٦٧

(١) العادِىّ : نسبة إلى قوم عاد ، والعرب تنسب إليهم كل ماهو قوِىّ وعظيم وقديم .

عمل أوّلُه استهلاكٌ بغير نتاج وأنت أخبر بهذا الأمر . فلم يبق إلا الصديق الذى يعين على نوائب الحق ... فبدأنا إصدار « العصور » يَعُولها الجِدُّ من قِبَلى ، والعون من قبل الأصدقاء الكُتاب من أصحاب مذهبنا ، والمَدَد من « جيب » الصديق الذى أبدى بشاشته ، واستظهرها بعاجل البر ، وسِرْنا على اسم الله . فما كان إلا كلا ولا [١] حتى قلت كما قال الأول :

سعتْ نُوَب الأيام بينى وبينهُ فأقلعن مِنَّا عن ظلوم وصارخ
فإنى وإعدادى لدهرى « محمدًا » كملتمس إطفاء نار بنافخ

وأبيتُ أن أخفض عن نفسى أو أرُدّ غُلَواءَها ، فرددتُ المالَ إلى صاحبه غير منقوص ولا مُهْتَضَم . وقلتُ إنّ أمرًا قضاهُ الله لابُدّ له من تمامٍ وأجلٍ ، وما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكنْ . وخيرُ الأمر أن ألجأ إلى الله ثم أستعين بما عندى على قضاءِ الحق الذى يقتضيه ما أقررت به على نفسى ، وما أقررتها عليه فى كلمة العدد الأول من « العصور » . فلم أبخل ولم أتراجع ، وأقدمتُ على إصدار العدد الثانى مستبشرًا مؤملًا راجيًا معتمدًا على ثقتى بالله ، ثم ثقتى بحسنِ التقدير الذى لقيته . فلم يلبث أن لقَى العدد الثانى من « العصور » حفاوة الناس فى كثير من بلاد العربية ، ولكن هذه الحفاوة المستبينة فى بيع مجلة - تكاليفها أكثر من دخلها بهذا البيع - لا يمكن أن تكونَ هى الرُّقية التى تجذب إليَّ رقاب المال من كهوف « البنك »فأحويها وأروضها وأتصرَّف فيها تصرُّف الناس فيما هُمْ به « ناس » !!

وقلت : عسى أن يقضى الله لأمرٍ ضاق بالفرج ، وتوجهت بقلبى إلى الله ، وبوجهى إلى من أتوسم فيه سمة « الخزانة » المُعَدَّة لاحْتِجان المال [٢] . ولكنى وجدت القفل بعد القفل على الخزانة ، وافتقدت المفتاح الذى يتسنى له كل مُغْلَق . إن هذا المفتاح ليس عندى ، ولستُ أملكه ، وما أحسبنى أرتضى - بعد أن جرَّبتُ - أن أملكه أو أَحوزه . إنه لا يملكه إلا من قدّم رهينةً ، والخُلُق

---

(١) كلا ولا : أى لحظة قصيرة خاطفة ، أى بقدر الوقت الذى تستغرقه فى نطق هذين الحرفين .

(٢) احتجان المال : إصلاحه وجمعه وضم ما انتشر منه .

لا يُعترف به فى باب الرَّهائن ، ولستُ أملكُ غيره ، فلا رهينةَ ، أى لا قَرْضَ ولا معونة . وإنه لا يملك المفتاح بعدُ إلا اللصُّ الذى يلين له ما أُعْضِل من قُفْل غَلِق وأنا بحمد الله لم أُخْلَق على طبيعة السارق بل سُوِّيتُ على هيأة المسروق ، كلّ من شاء أن يأكلنى أكلنى ؛ قد رضيتُ أن أحوطَ جوهرى بالعَرَضِ المُضيَّع .

ومع ذلك فقد أعددت العدد الثالث للطَّبْع ، وتصرَّفتُ فى وجوه التدبير ، ثم وُفّقت إلى من أرضى عنه ويرضى عنى ... ولكن أبى خُلُق الدُّنيا معى أن يتم جميل تستودعنيه ، أو معروف تربّبه عندى . فرجعت عَودى على بدئى راضيًا عن الله شاكرًا لله واثقًا بالله ، أستعينه وأستحفظه ، وأشكره ولا أكفره .

لا أقـول الله يـظـلـمـنـى   كـيـف أشـكـو غـيـر مُـتَّـهـم

وأنا لا أزال أقول : يَصْنَعُ الله ، يَصْنَعُ الله ، إن لله تدبيرًا يصرّفنا به كيف شاء إلى مواقع علمه ومنازل حكمته . وأنا مذ كنت ، كنت مطية القدر حيثما وجهنى استقبلتُ المضيقَ والطريقَ بنَفس مسلمةٍ وجهَها لله ، بأن الزّمامَ فى يد الله .

فإن تسأليني ، كيف أنتَ ! فإننى   صَبورٌ على رَيْبِ الزمانِ صَليبُ
يعزُّ علىَّ أن تُرى بى كآبةٌ   فيشمتَ عادٍ أو يُسَاءَ حَبيبُ

وعلى ذلك فأنا مُنتظِرٌ ، و« العصور » إلى جانبى تنتظِر ! وشكر الله لك ، وجزاك خَيْرًا من صديق .

* * *

(الرسالة) تألم الرسالة أشد الألم أن يُثبِّط هذا القلمَ البارع وهذا الفكر الرشيد مثبطات المادة ، وتدعو الله مخلصة أن يلهم أهل المال معونة أهل العلم حتى لا تتخلف « العصور » عن صفها فى الجهاد إلا ريثما تواتيها العدة . وعسى أن يضن القراء بهذه الثروة الأدبية على الضياع فيعينوها على الصدور بإسلاف [1] الاشتراك .

* * *

(١) الإسلاف : الإقراض الذى لا منفعة فيه للمُقْرِض غير الأجر والشكر .

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

ذات النطاقين

(قال عمر بن أربى ربيعة بعَقِب حديثه) :

... فوالله لقد جَهَدَنا البلاء – يا أهل مكة – ولقد صبرنا على حصار الحجّاج سبعة أشهر أو تزيد عن غير حصن ولا منعة ، وإنّ أحدَنا ليُرى وقد لحقت بَطْنُه بظهره من الجوع والطَّوَى ، ولولا بركة تلك العين (يعنى زمزم) لقضينا ، وصدق رسول الله ﷺ « إنها مباركة ، إنها طعامُ طُعمٍ » لقد أشبعنا ماؤها كأشد ما نشبع من الطعام ، وما ندرى ما يُفْعَلُ بنا مُنذُ اليوم . فلقد خَذَل « ابنَ الزُّبَير » أصحابُه خذلانًا شديدًا ، وما من ساعةٍ تمضى حتى يخرج من أهل مكة من يخرج إلى الحجاج فى طلب الأمان . ألا شاهتْ وجوه قوم زعموا أنْ سينصرونه ، يحمون « البيت » أن يُلحَد فيه ، ثم ينكشفون عنه انكشافة كما تَتفرق هذه الحمامُ عن مَجْثمها على الرَّوْع ...

وخرجتُ ، ومكة كأنها تحتَ السَّحَر خليَّة نحل مما يدوِّى فى أرجائها مِنْ صوت داعٍ ومكبِّر وقارئ ، وصَمَدْت [1] أريد المسجد فأسمع أذان « سعد » مؤذِّنِ ابن الزبير فأصلى ركعتى الفجر ، فيتقدم ابن الزبير فيصلى بنا أتمَّ صلاة ، ثم يستأذن الناس ممن بقى من أصحابه أن يُوَدّع أمه « أسماء بنت أبى بكر الصديق » فأنطلق وراءه وما أكادُ أراهُ مما احتشدَ الناس فى المسجد ، وقد ماجوا وماجَ بهم يتذامرون ويحضَّضُون ويُحرِّضون ، وزاحمت الناس المناكب أرجو ألا يَفوتنى مَشهد أسماء تستقبل ولَدها وتودِّعه ولقد تَعْلمُ أنه مقتول لا مَحَالة ، فما أكاد أدركهُ إلا وقد انصرف من دارها يريد المسجد ، وإذا امرأة ضَخْمة عجوز عمياء

---

* الرسالة ، السنة السابعة (العدد : ٢٩٧) ، ١٩٣٩ ، ص : ٥٣٩ – ٥٤١

(١) صَمَدَ المكانَ وإليه : قَصَدَه

طُوالة كأنْ سرْحةٌ (١) فى ثيابها ، قد أمسكت بعُضادتى الباب تصرف وجهها إليه حيثما انتقل ، فوالله لكأنها تثبتُه وتُبصرُه ، وقد برقَت أسرَّةُ وجهها تحت الليل برق العارِض (٢) المتهلل ، ثم تنادى بأرفع صوت وأحنِّه وألينه ، قد اجتمعت فيه قوة إيمانها وحنينُ قلبِها : « ياعبد الله ! يا بُنى ، إنى أُمك التى حملتك ، وإنى احتسبتك فلا تَهِن ولا تجزع . يابنى ابذُل مُهجة نفسك ، ولا تَبعد إلا من النار ... ياعبد الله ! لا تبعد إلا من النار ، أستودعك الله يابُنى ! » ثم تدور لتلج الدار فكأنها شِرَاعٌ قد طُوِى .

رحمة الله عليكم يا آل أبى بكر ، لأنتم أصلبُ الناس أعوادا وألينهم قلوبًا . وأحسن الله عزاءك ياذاتَ النطاقين ، فلقد تجملتِ بالصبر حتى لقد أُنسيت أنك أمٌّ يجزع قلبها أن يَهلكَ عليها ولدُها فيتقطع عليه حَشاها .

وانصرفتُ عنها بهمِّى أَسعَى ، فوالله ما رأيت كاليوم أَكْسَبَ لعجب وأجَدّ لحُزنٍ من أُمٍّ ثكلى يحيا ظاهرُها كأنه سراجٌ يَزْهَرُ ، ويموتُ باطنها كأنه ذُبَالةٌ توشكُ أن تنطفئ ، وذهبتُ ألتمسُ الوُجوهَ وأحزانها ، فما أَرَى وُجُومَها وقُطُوبَها وانكِسَارَها ورَهَقَهَا وصُفرَتها إلَّا ذِلّة النفس وخضوعَها واستكانتها وضعفَها وعلَّتها ، وأن المؤمنَ حين يحضُره الهمُّ أَشْعَثَ أغبرَ يَردُّه إيمانُه – حين يؤمن – أبلجَ يتوقَّد ، ليكون البُرْهانَ على أنَّ الإيمانَ صيْقَلُ الحياةِ الدُّنيا ، يَنْفى خَبَثَها ويجلو صَدَأَها ، فإمَّا رَكِبها من ذلك شئٌ ، عادَ عليها يُحَادثها ويصقُلها حتى يتركها بيضاءَ نقيَّة ...

وما بلغتُ المسجدَ حتى رأيتُ ابن ذاتِ النِّطاقين قائما بين الناس كأنه عمودٌ من طُولِهِ واجتماعه ، ووثاقَة بنائِه ، وحضَرْته وهو يقول : « أيها الناس ، عجِّلوا الوِقاع ، ولا يرعِكُمْ وَقْع السيوف ، وصونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، فلينظرْ رجلٌ كيف يضرب ، لاتخطئوا مضاربكم فتكسِرُوها ، فإن الرجُلَ إذا ذهب

---

(١) السَّرْحة : الشجرة الطويلة العظيمة .

(٢) العارِض : السحاب يعترض فى الأفق .

سلاحُه كان أعزَلَ أعضبَ [١] يؤخَذُ أخذًا كما تُؤخذ المرأة . لِيَشْغَلْ كلّ امرئٍ قِرْنَه ، ولا يُلهينكم السؤالُ عنى : أين عبد الله بن الزبير ؟ ألا منْ كان سائلًا عنى فإني فى الرَّعيل الأول » ... ثم يدفَعُ أسدٌ فى أَجَمَةٍ ، ويحيصُ أصحابُ الحجاج حيصة [٢] فى منازلهم من الرُّعب ، فلقد رأيته يقفُ ما يدنو منه أحدٌ ، حتى ظننتُ أنه لا يُقْتَلُ ، حتى إذا كان بين الركن والمقام رُمى بحجرٍ فأصاب وجْههُ فبلغ منه حتى دَمِىَ ، وسال دَمُه على لحيته ، وأُرعشَتْ يدُه ... وغَشِيهُ أصحابُ الحجّاج من كلّ ناحية وتغاوَوْا [٣] عليه ، وهو يقاتلهم جَاثِمًا أشدَّ قتال حتى قُتِل .

وارحمتا لك يا بنتَ أبى بكر !! أىُّ كبِدٍ هى أشدُّ لوعةً من كبدِكِ ! لقد واللهِ رُحمتِ رحمةً إذ كفَّ الله منك البصر ، لئن لم تكونى تجزعين لموته ، لقد كنتِ جزعتِ لما مثَّلوا به وحزُّوا رأسهُ ، ورفعوه على خشبةٍ مُنكَّسًا مَصلوبًا ...

وما كدْتُ حتى أقبلتْ أسماءُ بين يديها كفنٌ قد أَعلَّته ودَخَّنتْهُ [٤] ، والناسُ ينفرجون عن طريقِها فى أعينهم البكاء ، وفى قلوبهم الحُزْنُ والرُّعب ، قد انتُسفت وجوههم كأنما نُشروا من قُبورهم لساعتهم ، وسكتت الأوصالُ ، وجالت الأحداقُ فى مَحاجرها وكأنها همَّت تخرُج ، وتمشى أسماءُ صامدة [٥] إلى الخشبة صمدًا وكأنها ترى ابنها المصلوب ، وكأنها تستروِح رائحة دَمِهِ ، حتى إذا بَلَغَتْهُ - وقد وجم الناس وتعلقت بها أبصارهُمْ ورجفت بهم قُلوبُهم - وقفتْ ، وقد وجدت رائحة المسك تحت ظِلاله فقالت : « يابُنَىّ طبتَ حيًّا وميّتًا » ولا والله ما أجزعُ لِفراقك ياعبد الله ، فمن يَكُ قُتِلَ على باطل فقد قتلتَ على حق ، والله لأثْنِيَنّ عليك بعلمى : لقد قتلوك يابُنى مُسلمًا محرمًا ظمآن الهواجر مصلّيًا فى ليلك ونهارك » .

---

(١) الأعضب : أصله فى الحيوان ، وهو المكسور القَرْن .

(٢) حاص (كسار) : رَجَع ، وفى حديث أَنَس يوم أُحُد « وحاص المسلمون حَيْصَةً » ، أى جالوا جولةً يطلبون الفرار .

(٣) تَغَاوَوْا عليه : تجمّعوا عليه ، وهى بالعين المهملة أيضا .

(٤) دَخَّن الثوبَ : جعل فيه الدُّخْنَة ، وهو بُخُور تُدَخَّن به الثياب والبيت .

(٥) صَمَدَ المكانَ وإليه : قَصَدَه

ثم أقبلتْ وجهها السماءَ ومدّت بيديها تدعو : « اللهمَّ إنى قد سلَّمته لأمرك فيه ورضيتُ بما قضيتَ له ، فأثبنى فى عبد الله ثوابَ الشاكرين الصابرين . اللهمّ ارحم طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ، وبرّهُ بأبيه وبى » .

ووجم الناس وجمةً واحدةً ، وخشعوا خشعةً لكأن السماءَ والأرض صارتا رتقًا فما يتنفَّسُ من تنفّس إلا من تحتِ الهمِّ والجهد والبلاء . وكأنّ مكة بيتٌ قد غُلِّقتْ عليه أبوابهُ لا ينفُذُ إليه أحد ولا يبرحه أحد . وكأن الناس قد نزعت أرواحهم وقامت أبدانهم وشخصت أبصارهم ، وبدت أسماءُ بينهم وكأن وجهها سراج قد نُصّ على سارية ، لا يزال يزهر ويتلألأ ، ثم تتلفت كأنما تتطلع فى وجوه هذه الأبدان الخوالد [١] ، وأضاء ثغرها عن ابتسامة . والله لقد بلغتْ من العمر وما سقطت لها سنٌّ ، ومازال ثغرها ترفُّ غروبه [٢] ثم قالت : « يا بَنِيَّ ، لشد ما أحببتم الحياة وآثرتم دنياكم ، فخذلتم أخاكم ، وفررتم عن مثل مصرعه . يابنيَّ يغفر الله لكم ، وجزاكم الله عن صاحبكم خيرًا » .

وأطرقت أسماءُ إطراقةً ثم رفعت رأسها تُومِئُ إلى الخشبة ، فوالله لقد رعدت فرائصى حتى تَزَايلتْ أوْصالى ، وصَرَّ الناسُ كأنما تقصَّفت أصلابُهم [٣] ، وإذا هى تقول : « أَلَا مَنْ مُبْلغ الحجّاج أن المُثْلَة سبّة للحىّ وما تضرّ الميّت . ألا مَنْ يُبْلِغ الحجَّاجَ عنِّى أن الشَّاةَ إذا ذُبحتْ لم تألم السَّلْخ » .

وحامتْ أسماءُ وطافت بين الناس وبين هذه الخشبة ساكنةً صابرةً ، لا يُرَى إلّا بريق وجهها يومِضُ كأنه سيف صَقِيل ، ثم طفقت تردّد « يابَنِيّ ، أمَا آن لهذا الراكبِ أن ينزل ؟ أما آن لهذا الراكب أن ينزل ! يابَنِيّ ليستأذنْ أحدُكم حَجَّاجَكمْ هذا أن يَدفَع إلىّ هذه العظام . أَدُّوا عنى ، يرحم الله من أَدَّى عنِّى » .

فيجىء الرسول من قِبل الحجاج يأبَى عليها أن تُدْفَعَ إليها عظَامُ ابنها

---

(١) الخوالد هنا : بمعنى الساكنة كالجبال والحجارة والصخور .

(٢) الغروب : جمع غَرْب ، وهو الماء على الأسنان يكسبها بَرِيقا .

(٣) صر : صدر عنهم صوتا كالصرير ، وجاءت هذه العبارة فى شعر العطوى :

وليس صريرُ النَّعْش ما تسمعونه ... ولكنه أصلابُ قَوْم تَقَصَّفُ

المصلوب ، ويَجيءُ على أثره موكلون قد وكلهم بجثَّته يقومون عليها يحرسونها ، كأنما خَشِى أن يَحيا ميت قد حُزَّ رأسه أن تمسَّهُ يَدُ أُمِّه . فوالله ، فوالله لقد سمعتْ أسماءُ وخُبِّرتْ فما زادت على أن وَلَّتْ عنهم كما جاءت ما تقطر من عينيها قطرةُ دمْع ، وما تُجاوز قومًا إلا جاوزتهم كأنهم فُسطاطٌ يتقوَّض ، حتى ولجتْ بابَها وغلَّقَته عليها .

وانطلقتُ أنفضُ الناسَ بعينيَّ ، فرأيتُ أخى الحارث (ابن عبد الله بن أبى ربيعة) وابن أبى عتيق (هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق) ما فى وجهيهما رائحة دم من الحزن والفرقِ . فقلت : ماهذا أوان جزع ، انطلقوا بنا - يرحمكم الله - إلى دارها نواسيها ونترفقُ لها ، فوالله لقد تخوَّف أن يذهبَ بها الحزن عليه ، وإنه لفالقٌ كبدَها ما لَقِيَتْه . ويطرق الباب ابن أبى عتيق ، فيجيبُ الصوت من داخل : قد أسمعتَ فمهْ . فيقول : أنا ابن أبى عتيق يا أمَّاه . ويؤذن لنا فندخل دارها تَجِفُ قلوبنا من الروع والرّهبة ، ونأخذ مجلسنا عند بنت أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ وزوج حواريِّه عليه السلام ، وكأن قد تركنا الدُّنيا وراءنا وأقبلنا على الآخرة .

استضحكت أَسماءُ حتى بدت نواجذُها وقالت : « مرحبًا بكم يا بَنِّى ، جئتم من خلل الناس تعزُّون أُمكم فى عبد الله . يرحم الله أخاكم لقد كان صوَّامًا قوَّامًا ما علمتُ . وكان ابن أبيه الزُّبير أوّلِ رجل سلّ سيفه فى الله ، وكان أشبه الناس بأبى بكر .

يا بَنِىّ ، والله لقد حملتُه على عُسْرَةٍ ، والمسلمون يومئذ قليلٌ مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطَّفَهم الناس ، ولقَدْ سعيت به جنينًا بين بيت أبى بكر وغار ثور بأسفل مكة فى هجرة رسول الله ﷺ وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه آتيهما تحت الليل بما يصلحهما من الطعام ، ويسكنُ الطلبُ عن رسول الله ﷺ ، فأتيتهما بسفرتهما وسقائهما ونسيت أن أتخذَ لهما عِصامًا [١] ، فلما ارتحلا

---

(١) عِصام السِّقاء والقربة هو رباطها وسَيْرها التى تُحْمَل به .

ذهبتُ أُعلّق السُّفرة فإذا ليس لها عِصامٌ ، فوالله ما أجدُ ما أعلقهما به ، ووالله ما أجِدُ إلّا نطاقى وأنا حُبلى مُتِمٌ . فيقول أبو بكر يا أسماءُ شقّيه اثنين ؛ فأشقه فأربط بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة ؛ فلذلك ما سمّانى رسول الله ﷺ « ذات النِّطاقين » يعنى فى الجنة . وأعود بعبد الله يرتكض فى أحشائى ، قد احتسبتُ نِطاقى فى سبيل الله ، فوالله ما أجدنى احتسبتُ بنىّ عبدَ الله اليوم إلا كما احتسبت نطاقى ذاكم . وأَعود إلى دار أبى بكر ويأتى نفرٌ من قريش فيهم أبو جهلٍ فوقفوا ببابها ، فأخرج إليهم فيقولون : أين أبوك يابنت أبى بكرٍ ؟ فأقول : لا أدرى والله أين أبى ، فيرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فيلطم خدِّى لطمة يطرح منها قُرطى فتغُول بى الأرض الفضاء ، فوالله لما لقيتُ من حَجّاجكم هذا أهون عندى مما لقيتُ من لطمة أبى جهل وأنا بعبد الله حامِلٌ مُتِمٌ . يابَنِيّ إنى آخرُ المهاجرين والمهاجراتِ ، لم يبق على ظَهرِها بعد عبد الله منهم غيرى ، فلا والله ما حَسَنٌ أن يَجزَعَ من هاجَرَ - وإنّ شأن الهجرة لشديدٌ - وما حَسنٌ أن يجزع من شَهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وكيف وقد أربيت [١] على المائة .

يابنى جزاكم الله عنى وعن أخيكم خيرًا ، قوموا لشأنكم وذرونى وشأنى يرحمكم الله » .

وودّعنا وانصرفنا ، ولا والله ما نجد لأسماء فى الرجال ضَريبة [٢] فأين فى النساء ؟ ولكنها كانت تصبر صبر المهاجرين الأولين على الجهد والبلاء .

وما كان صُبح خامسة من مقتل ولَدها حتى استجابت لدعوة ربّها رضى الله عنها وأرضاها ، وهى أمٌّ حنَّت تكتم حنينها ولكأنه عجَّل بها موته فقطع نياطها وصدع فؤادها ، وفلق كبدا عليه حنينها إليه ....

* * *

---

(١) أربى : زاد وأَوْفَى .

(٢) الضريبة : النظير والشبيه .

منهجي في هذا الباب

عهد إليّ الأستاذ « الزيات » أن أتولى تحرير هذا الباب [١] من « الرسالة » ، فأجبت إرادته بالتسليم ، وأنا أجد المعانى فى نفسى حائرة لاتكاد تقر ، فقد لحقتنى إرادته والحياة من حولى تفتِّرنى حتى ما أحس من فورتها إلا القليل ، والنفس منبوذة على حدود النشاط فى كسلٍ مجدب بالقحط والظمأ لا يهتدى إليه رِىٌّ ولا شِبَع . وإذا كانت النفس كذلك لم يأت خيرها إلا من طول الإحساس بالحرمان والألم ، فهى تريد أن تتكلم من نوازعها بألفاظ ثائرة ضائعة حائرة كأنما تبحث عن نفسها فى معانيها ... ثم لا تتكلم ، وهى على ذلك لا تطيق التأمل فى المادة التى تعرض لها إلا بمقدار من الرغبة فى البحث عن نفسها فى سر نفس غيرها لتجد عند ذلك أسبابًا تهتاج بها وتضطرب وإذا لم تجد النفس لذتها المؤلمة إلا فى انتزاع الآلام المحرقة مما ترى وتسمع وتتخيل ، فكيف تعيش أفكارها إلا فى دخانٍ من الأحزان الصامتة صمتَ الفكرة المختنقة التى لا تجد أنفاسها ولا جوّ أنفاسها . هكذا أَجدُنى .

وهذه النفس المنبوذة بما جنت وبالذى لم تجن من شىء ، هى النفس التى أريد أن أتولى بها النظر فيما يعرض لى من شؤون الأدب فى أسبوع من أسابيع « مصر » ، ولقد تشاكلا ووقع حافرٌ على حافر فى حَلْبة مغلقة . فنفسى الآن هى نفسى التى لا أكاد أجمعها وألم أشتاتها إلا قليلًا ، وما هو إلا أن أراها مبعثرة تَفِرّ منى أوابدها فى كل وجه ، وأقف أنا أتلفَّت ... أنظرها وهى تغيب فى ظلام الأحزان ، وتترك عندى أطيافًا من الذكرى تطوف فى تأملاتى مرسلة من مزاميرها ونايها أنغامًا حزينة مهجورة متفجِّعة كأنما تقول : هذا مكان كان أهله ثم بادوا ، وهكذا أيضًا أَجِدُنى .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٣٩) ، ١٩٤٠ ، ص : ٢٤ - ٢٦

(١) هذا الباب هو « الأدب فى أسبوع » .

فى بعض الإنجيل هذه الكلمة : « من وجد نفسه أضاعها ، ومن أضاع نفسه من أجلى وجدها » ، أفيكون معنى ذلك أن النفس الإنسانية لا توجد باقية أبدًا إلا وهى مستهلكة ، وأن الأشياء الشريفة التى تُهلك هى بعينها التى تُحيى ، وأنه لا معنى للشىء الحيِّ إلا أن يجتمع فيه معنى الأشياء الشريفة ، الموت والحياة معًا ، وأن استغراق النفس واستهلاكها فى الأحزان النبيلة وتعذيبَها بها هو استحياؤها وتنعيمها ، وأن العمل المهلك والفكر المهلك هما العمل الإنسانىُّ الجليل الذى خُلِقَتْ من أجله الحياة على الأرض ! وعلى ذلك لا تكون النفْس حيَّة أبدًا إلا وهى سائرة بالحياة فى مَسْبَعَةٍ [1] من الموت ، يتخطفها كل شىء حتى الأسباب التى يستوجب بها الحىّ صفة الحياة ! إذن ما أعجب الحياة .

* * *

وإذن فقد فرَّت منى المعانى التى أحمل نفسى الآن على علاجها ، واستجهلتنى الآلام فى عواصفها حتى ذهبت هذا المذهب الحزين من القول لأقدِّم به الكلام فى هذا الباب الذى عقده « الزيات » للأدب ، ومع ذلك فإنى لأرى الصلة التى تصل أصل هذا الباب بالأصل الذى فى نفسى ، فإن تتبع « الظواهر الأدبية » ينبغى أن توفر له أسباب الاستقرار النفسىّ حتى يستطيع الكاتب أن يجمع إليه المعانى ويضرب عليها الحصار حتى يفندها أو ينقدها أو يحصيها أو يبين عن غامضها أو يكشفَ أستارها أو يقدم لها بالنظر والفكر والتوهم ما يوجب بعض النتائج التى تفضى به الآراء إليها ، وبذلك يمكنه أن يوجد للأدب ميدانًا تستعرض فيه أعماله التى يدأب الأدباء والكتاب والشعراء وأصحاب الرأى فى صنعها وتجويدها . فإذا تناول هذا الأمر بالنفس التى لا تستقر ولا تهدأ كان عمله أقرب إلى الثورة – أى إلى الفوضى – من حيث يريد أن ينظم ، ومع ذلك فإن الخير كل الخير أن نحاول الحياة كما تحاولنا بالاقتسار والعنف ، وأن نقبل عليها وهى مدبرة بالبرهان على إمكان احتمالها جافية كانت أو ناعمة ، ومؤلمة كانت أو مريحة ،

---

(١) المسبعة : الأرض تمتلىء بالسِّباع ، وهى كل حيوان مفترس .

ومنصفة كانت أو باغية ، وأن نأخذها من حيث نرى الرأى أنه هو أجدى وأنفع ، وأيضًا فإن المصدر الحيّ للأدب إنما هو النفس ، فهو يصدر عنها موسومًا بسمتها ، إمّا مستقرة هادئة مفكرة فى جوّ من الراحة ، وإما ثائرة لمّاحة متخطفة فى مسبح الأحلام والآلام والأمانىّ المعذبة بالحرمان ، فليس إذن من المُنْكَر أن ينصب امرؤ لا تهدأ نفسه لمثل هذا الباب الذى وصفناه وأن يتناول هذا الأدب بما يتداولُه من الإحساس المشبوب والنظر الخاطف والرأى العنيف أو أى ذلك كان .

وأحب أن أعهد قبل أن أتكلم ، فإنى رأيت الأدباء قد أكل بعضهم بعضًا بألسنة كظهر المبرد ، وتشاحنوا بينهم للكلمة التى لا ترفع ولا تضع ، وتنابذوا على الأهواء الغالبة المستكلبة ، ومن كان ذلك هجِّيراهُ [١] ودأبهُ ، فهو عند النقد أو الاعتراض كالوَحْش الجوَّع [٢] الغرثانِ قد أُجْهِض عن أشلاء فريسته ، يكاد يَنْقَدُّ عليه إهابُه من الغيظ والحِقد والرغبة فى الإيقاع بمن يصرفه عن أحلام مَعِدته . وهذا أسوأ الخلق وأبعده عن صريح نهج الأدب ، وأقله غناءً فى تهذيب الأديب ، وما أظن أن فى الدنيا العاقلة أديبًا تخيّل له أوهام « العبقرية » الطائفة به أنه قد سبق السهو والخطأ وبقى النقد والنقاد لَقًى وراءه يتلوذون بظلاله – فى طلب البركة ! ومع ذلك فإن بعض من عتّاهُ القدر فرمى فى غيل الأدب العربى يتصيد ، ... يقتات من أوهام العبقرية حتى حبط بوهمه فى نفسه ، واستكرش ونفش بما أكل حتى تضلَّع ، ثم استلقى على الأفياء يتخيَّل أن الأدب كلَّه قد وقف عليه من عند قدمه إلى رأسه يُهدهده حتى ينام فى ظلال هذا الملك الهنىء . ومن كان هذا مثاله من الأدباء ، وعرضنا لبعض قوله بالنقد ، فلا يتخيَّلنَّ أنَّا نعنيه هو بذاته – فهو موفور الأحلام على نفسه إن شاء الله – وإنما نعرض للقول على أنه كلام مقول فيه السهو والخطأ ، وتتعاوره الصحة كما يتعاوره السُّقم ، وأنه كلامٌ مصبوبٌ على الناس وعلى أسماعهم وأذهانهم ، فنحن بنقدنا كلامه ، إياهم نريد ، وإياهم

---

(١) الهِجِّيرَى والدَّأب والعادةُ بمعنى .

(٢) جوّع : هكذا فى الأصول ، وهو جمع لا مفرد ، والسياق يقتضى الإفراد ، والغرثان والجائع سواء .

نخاطب ، وعسى بعدُ أن يكون له فى هدأةٍ من نفسه رأىٌ يتابعنا به إن أصبنا أو يسدِّدنا ببيانه إن أخطأنا ، وما نألو فى الاجتهاد ، ولكن ربما حُرم الإنسان التوفيق فيما يأتى وما يذر .

هذه واحدة فيما نبدأ به ، أما ما يقع بين الأدباء من المجادلات والمنافرات ، فحقها من هذا الباب التسجيل ، فإن بقى لنا فى القول مقال نقوله – نتعقب به الأصل الذى يقع عليه الاختلاف والتَّنافُر – لم نقصِّر فى تحقيق البيان وتحريره ، متعاونين فى جعل الحقيقة أسرع إلى إثبات وجودها والدلالة على نفسها حتى تتجلى .

وأما الشعر والشعراء وما يلوذ بهما ، فأنا حين أغمض عينى لأجمع علىّ خيالى ورأيى وفكرى ، أنتهى إلى مثل الغيبوبة من الحسرة واللهفة والألم . فقد فرغ الشعر من بيانه ومعارضه وصاريته الفاتنة ، ووقع إلينا أوزانًا تَتخلَّج بما تحمِلُ تَخَلُّج المجنون فى الأرض الوحِلة ، وما أظنه يعتصم فى هذه الأيام بشاعرين أو ثلاثة ، ولكل منهم مذهب ، وكل قد قذفت به الحياة فى مهنتها وابتذالها حتى صار أكثر فراغه مستهلكًا على صناعة أو وظيفة تطعمه العيش وتحرمه لذته ، ومع ذلك فهم يقولون ويتكلمون والسامعون ينصرفون عنهم لسوء رأيهم فى الشعر الحاضر أول ، ثم لكثرة مايسمعون من كلام لا يحرك عاطفة لأنه لا يصدر عن عاطفة ، وما يزال ذلك يتوالى عليهم ، حتى إنهم لا يكادون يعرفون الشعر إلا هكذا ثقيلًا غثًّا باردًا ، فكيف لا ينصرفون عنه ، ومن ذا الذى يرضى أن يحمِل نفسه إلى « ثلاجة » وهو يُعَد فى العقلاء . فكذلك ضاع شعر هؤلاء الثلاثة فى غثاثة الكثرة ، ثم فترت أنفسهم ولا تزال تفتر – إلا أن يشاء الله – لما يحسون من غفلة السامعين عنهم ، وليس كلهم يستطيع أن يقول كما قال صاحبهم الأول :

لم يَبْقَ من جُلِّ هذا الناس باقيةٌ ... ينالها الفَهْمُ إلّا هذه الصُّوَرُ
أهزُّ بالشِّعر أقوامًا ذوى وَسَن ... فى الجهل ، لو ضُربوا بالسيف ما شعروا
علىَّ نَحْتُ القوافى من مَقَاطِعها ... وما علىَّ لَهُم أن تَفْهَم البَقَر

وكذلك نخشى أن يأتى على الناس زمان يضيع فيه الشعر الجيد أو يرفع حتى

من صدور هؤلاء الثلاثة . ولست أدرى الآن كيف يُتاح لى أن أنهج مع الشعر والشعراء نهجًا يكون رضا ومَقنعًا وباعثًا على تجويد الأساليب والمعانى حتى ينقذ الشعراء فنهم من الضياع ؟ فلندع هذا إلى حينه ، وإلى رأى الشعراء فى « مطالبهم » ، فقد صار لكل أصحاب صناعة مطالب وحتى النساء ، فكيف لا يعرف الشعراء مطالبهم وحقوقهم وهم أرهف إحساسًا وأنبل مقصدًا وأبين بيانًا !!

وأما الكتب التى تصدر فى خلال الأسبوع أو قبله بكثير أو قليل فسننهج لها نهجًا مخالفًا لمنهج العرض الكامل أو النقد الشامل ، فإن هذا أحق به باب « الكتب » و « النقد » وإنما نعرض لها من حيث يتوجه لنا الرأى فى غرض الكتاب الذى يرمى إليه ، وأين يقع منه . وربَّ كلمة واحدة فى صدر كتاب أو ذيله ، لم يعرضْ لها الكاتب إلا شاردًا أو كالشارد ، ثم تكون هى تربُو بمعانيها على الكتاب كله وعلى أغراضه أيضًا ، فربما وقفنا عند هذه وقفةً تَجيش لها النفس من نواحيها ، فنحتفل لها أشد احتفال وأعظمه لتكون كالعَلَم على المعانى النبيلة التى تضيع فى خرائب الكتب .

وبقيت كلمة ... ، فقد أحسن « الزيات » إذ تنبَّه إلى هذا الباب – الآن – من أبواب مجلته وقد أغفله كل هذه السنين . فإن الحرب والثورة وما فى معناهما هى اضطراب عنيف يهز أعصاب الحياة ويقضقض أوصالها ، فلا جَرَم إذن أن تدور الرؤوس وعقولها دورات كثيرة حول نفسها ، فتختلّ الأوزان والمقاييس فى كل شىء ، وأن تبدأ الحياة بعد الحروب بدءًا جديدًا ، ويكون الناس إذ ذاك كالناشر من باطن الأرض وقد خرج من أكفانه ليرى ظاهرها كل شىء غريب وغير مفهوم ، ومع ذلك فهو جديد لذيذ لا يُملُّ وإن كان كله خطأ وفسادًا واستحالة وسببًا من أسباب الفناء ، وكذلك يكون الأدب والأدباء بعدَ الحرب ، كما أخرجت الحرب الماضية ثم الثورة المصرية سنة ١٩١٩ جيلًا من الأدباء استفحل أمرهم وذاع صيتهم وضربوا فى الأدب بأسهم مفلولة محطمة ، ومع ذلك ...

فهذا الباب فى هذه الأيام – إلى مابعد الحرب – يصوِّر بعون الله وتوفيقه

وهدايته الطريقَ الذى كان عليه الأدب إلى اليوم ، ثم أين انتهى وكيف ؟ ثم غيب ذلك كله موقوف على نوع الحرب وأساليبها وما تُبدع من فنون الشر ، وما تثير من طبائع الإنسان – من أنثى وذكر – ، وما تحفِزُ أو تُبِيرُ [1] من أحلام الإنسانية المتحدرة من أطباق الماضى البعيد مع الإنسان الوارث الحىّ على هذه الأرض .

* * *

(١) تُبِير : تُهلِك .

الإصلاح الاجتماعي

من عادتي – إذا ما استبهمَ عليَّ نَفاذُ الرأى – أن أعدِل بأفكارى إلى الليل ، فهو أحصنُ لها وأجمع . فإذا كان الليلُ ، وهدأتِ النائرةُ ، وأَوَى الناسُ إلى مضاجِعهم ، واستكنَّت عقاربُ الحياةِ فى أجحارِها ، تفلَّتُّ من مكانى إلى غرفتى أُسدِلُ ستائرها وأغلِّقُ أبوابها ونوافذها ، وأَصنعُ لنفسى ليلًا مع الليل ، وسكونًا مع السكون ، ثم أقعد متحفِّزًا متجمعًا خاشِعًا أملأ عينى من ظلام أسود ، ثم أدعُ أفكارى وعواطفى وأحلامى تتعارف بينها ساعة من زمان ، حتى إذا ماجت النفس موجها بين المد والجزر ، ثم قرَّت وسكنت ، وعاد تيارها المتدفق رهوًا ساجيًا كسعادة الطفولة ، دلفت إلى مكتبى أستعين الله على البلاء .

وأمسِ ، حين أيقظنى من غفوتى داعى « الرسالة » جمعت إلىَّ ما عزمت على قراءته من الصحف والمجلات والكتب – التى هى مادة هذا الباب – وطفقت أقرأ وأقرأ ، ولا أكتم أنى كنت أقرأ فى هذا اليوم – على خلاف عادتى فى أكثر هذه الأيام – قراءة المتتبع اليقظ الناقد المتلقِّف لأضع يدى على أغزر الأصول مادة وأعظمها خطرًا وأشدها بِنية ... وأدسمها شحما ، فإنّ حق القراء علينا أن نتخذ لهم صنيعًا ومائدة تكون أشهى وأمرأ وأقرب متناولًا وأردَّ على شهواتهم فائدة . فلما فرغت من إعداد ما أعددت لهم وأويت إلى ليلى المختلق المزيف ، جعلت أستعيد فى نفسى ماقرأت ، وأين وقفت منه ، وما تنبهت له مما تعودت أن أستشفَّه من وراء الألفاظ المعبرة ، ومن تحت السياق المهدِف إلى غرضه – مما هو بأخلاق الكُتاب وعاداتهم ونوازعهم وخفايا نفوسهم ألصق منه بأغراض الكاتب فيما كتب . فما كدت أقدح الظلام بعينى وأفكر فى هذا الأمر وأستدرجه إلى نفسى حتى رأيتنى أكاد أنفر من مكانى لما عرانى من سوء الرأى وقسوة الظن ، فإن طول تغلغلى فى معانى الكُتاب والشعراء ، أو فى معانى أنفسهم ، يدلنى على أن أكثر من يكتب إنما يدفع بعض الكلام إلى قلمه ليعبر عنه ، غير محتفل بما يقول ، فكذلك يخرج الكلام متخاذلًا مفككا كأنه ناقةٌ من وباء مرض ، ويخيل

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ٦٢ – ٦٤

إليّ أن أكثر كتابنا إنما يتناولون المعاني والأغراض من عَيْبةٍ [١] جامعة غير متخيَّرة ولا منتقاة ولا مصنفة ، وأنهم إنما يعرض لهم اشتهاء القول فيقولون للشهوة المستبدة لا للرأى الحاكم ، وأنهم إنما يكتبون ليبقوا كُتابًا فى عقول الناس وعيونهم من طول ما تعرض عليهم المقالات متوجة بالأسماء مذيلة بها ، وأن الكلام عندهم هو أهون عليهم من ضغطة النائم المتلفف زرَّ الكهرباء فإذا هو نور مستفيض . لابد للعرب والعربية أن يبرأ هؤلاء من أمراضهم ثم يقولون ، وأن يعتدُّوا بجمهرة القراء اعتداد من لا غنى له عنهم ولا فقر بهم إليه ، فبذلك أيضًا يصلح ما فسد من القراء الذين يقرأون الأسماء دون معانى هذه الأسماء . ويومئذ لا يشكو الكُتاب من بوار أسواقهم ، لأنهم يعرضون للناس الحَسَن الذى ينشئ فى القلوب الإحساس بالحُسن والرغبة فى اختيار الأحسن ، ويتشوق الناس الجميل لأنه جميل يسمو بالروح فى سُبُحات المثل الأعلى من الجمال الروحانى ... ثم لا يجيزون إلا الجميل . وكذلك يترافد الكاتب والقارئ ويمدُّ أحدهما الآخر بأسباب حياته وخلوده بين خوافق الأدب السامى الرفيع . هذا هو بعض الرأى أدعو إليه كتابنا ، والأدب على شفا جرف هار إلى البوار والبلى والفساد .

* * *

والآن ، وقد تحدَّثت النفس ببعض كلامها ، أعودُ إلى « أدب الأسبوع » ويخيل إلى أن « وزارة الشؤون الاجتماعية » هذه التى استحدثت بعد أن لم تكن ، قد كان من فضل اسمها أن أيقظ أكثر كتَّابنا إلى حقيقة ملموسة كانوا يَغُضُّون دونها أبصارهم لما تلبس صاحبها من لباس الخزى والعار : وهى بقاؤنا بين الأمم أمة لا قوام لها من نفسها وأصلها وتاريخها ، وأن مركز مصر الاجتماعى والسياسى والشرقى أيضًا قد سما فى ظن الناس ولكنه فى حقيقته أقل مما يُحمل عليه من الزينة والتألق والزخرف المستجلب بالإيحاء وإرادة الاستغلال . فقد كتب الدكتور هيكل فى « السياسة الأسبوعية » عدد (١٥٢) كلمة فى « نهضة الإصلاح فى مصر » استقصى بها تاريخها وقواعدها وأغراضها من عهد الثورة الفرنسية إلى هذا الوقت . وكذلك كتب الدكتور « طه حسين » فى « الثقافة » عدد (٥٢) يقترح

---

(١) العَيْبَة : وعاء من أدَم يكون فيه المتاع .

إنشاء « مدرسة المروءة » . وجاء « الزيات » فى ختام فاتحة « الرسالة » لعامها الثامن يشكو إلى الله : « إن كبراءنا عطلوا فى أنفسهم حاسة الفن فَلَمْ يعودوا يدركون معنى الجميل ، وإن أدباءنا قتلوا فى قلوبهم عاطفة الأدب فليسوا اليوم من كرمها فى كثير ولا قليل ، وإن زعماءنا تفرقت بهم السُّبل بتفرق الغايات ، فلِكُلّ غاية دعوة ولكل دعوة سبيل » . وكل هذه تلتقى على أصل واحد ، وهو أن الحياة الاجتماعية لا تزال تحبو فى مدارجها ، وأن « لين العظام » يُخشى أن يطول علينا بقاؤه فى صدر الحياة حتى نقعد دون شبابها ، وأن الإصلاح لابد أن يتعجل حدوثه ... ولكن كيف يكون ذلك ؟! .

وقد ساق الدكتور طه حديثه عن المروءة ساخرًا من هذا الجيل الذى طبع على سفاسف الأخلاق ، وتحطمت عنده مكارم الإنسانية النبيلة ، وامتاز عظماؤه وصغاره باعتبار الأخلاق ضربًا من التجارة يلبِّسها الغشّ والخِلابُ والمواربة وتلقِّى التاجر للبائع بالدهان حتى يكون هو فى باطنه أظلم شىء ، وظاهره يتلألأ بمعانى الشرف والأمانة والنزاهة وإرادة الموافقة وتغليب منفعة المشترى على منفعته ، وغير ذلك من حيل التُّجار والسماسرة . فأراد أن يمزح ، فيدعو إلى اقتراحه إنشاء مدرسة للمروءة ليسخر من « تنازع الاختصاص » فى وزارتنا بل فى أعمالنا كلّها . وهذا كله فى مدرجه جيد لا يحاول أحد أن ينازع عليه أو يختلف فيه ، ولكن التهكم فى هذا الدهر المائج بصنوف العذاب والبلاء لا يكاد يجدى شيئًا فى الإصلاح . وهل يظن الدكتور طه أن كل هؤلاء الذين أقامتهم الأمة المسكينة على حياطة شؤونها ومرافقها وأسباب عيشها – لا يستشعرون من ذلك ما نستشعر ، ولا يجدون من معانيه مثل الذى نجد ؟ أجل ؛ ولكنهم كالذى يصف هو فيما سبقَ من الحديث ، فمن أين يأتى الشفاء إذا كان كلُّ الطبيب هو بعض المريض ! إن أعمال الإصلاح الكبرى لن تأتى من وزارة الشؤون الاجتماعية ، ولا وزارة المعارف ، ولا غيرهما إذا بقى الشعب ينظر إلى هذه كلها ليرى ما تعمل . والرأى لا يمكن أن يتجه فى هذا الأمر إلى تسديد وزارة المعارف ووزارة الشؤون الاجتماعية وتوقيفها على ما يجب عمله باقتراحات ومذكرات وبيانات ... إلى آخر هذه الجموع . إن عمل الإصلاح الآن موقوف على شىء واحد ، على ظهور

الرجل الذى ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلوم يحمل فى رجولته السراجَ الوهَّاج المشتعل من كل نواحيه ، الرجل المصبوب فى أجلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كلها ، وآلام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحى المتحرك على هذه الأرض الذى يسمى فى اللغة « الإنسان » . وليس ظهور هذا الرجل بالأمر الهين ، ولا إعداده بالذى يترك حتى يكون ؛ بل هنا موضع للعمل وللإنشاء . وكبرُ ذلك مُلقًى على الأدباء والكتاب والشعراء ، وعلى كل إنسان يحترم إنسانيته ؛ فالأدباء ومن إليهم قد وقع عليهم التكليف أن يرموا بما يكتبون إلى إيقاظ كل نائمة من عواطف الإنسان ، وإلى إثارة كل كامنة من نار الهداية المحاربة التى لا تخمد ، ولا يكون ذلك شيئًا إلا بأن يعدّ كل أحد نفسه كالجندى عليه أبدًا أن تكون حماسته هى روح الحرب فيه ، فهو يمشى بها فى كل عمل ، ولو فى نقل البريد من مكان إلى مكان . إذن فأول الإصلاح الاجتماعى هو إدماج عواطف الفرد فى مصالح الجماعة على أَتم صورة من صور الحماسة أى القوة التى تنبعث من الدم لتطهير الدم ؛ وهذا بعض ما نتوافى عليه مع الدكتور هيكل إذ يقول فى مقاله الذى أشرنا إليه آنفًا « لم يفكر أحد فى مشكلاتنا الاجتماعية واضعًا نصب عينيه غاية قومية يريد أن يحققها ، بل ترانا إذا فكرنا فى الأمر كان الدافع لتفكيرنا فيه عواطف الشفقة أحيانًا ، والبر بالإنسان أحيانًا أخرى ، وهذه عواطف قد تحمد فى الأفراد ، لكنها لا قيمة لها فى حياة الجماعة ويوم فرض الله الزكاة فى الإسلام وقرن بها الصدقة لم يقم الشارع ذلك على أساس العاطفة الفردية ، بل أقامه على أساس النظام الاجتماعى » .

والكتابة هى زكاة العلم ، فيجب أن تقوم على هذا الأصل الفردى المتحمس المتدفق بتياره فى أعصاب النظام الاجتماعى ، فإذا اتخذها كتابنا على هذا وتكلموا بقلوبهم قبل ألسنتهم وأقلامهم كان ذلك قمينًا أن يبعث الرجل الذى سوف يضىء للحياة الاجتماعية سُدَف [1] الجهل والضعة والبغى والاستبداد .

* * *

(١) سُدَف : جمع سُدْفة ، وهى الظُّلْمَة .

أبو العباس السفاح أمير المؤمنين [١]

أثار الأستاذ العبادى فى « الثقافة » عدد (٤٧) مشكلة ابتغى حلها ، وذلك أنه وصف حِلية « أبى العباس أمير المؤمنين » أول خلفاء بنى العباس كما رواها المؤرخون من أنه كان « ذا شعرة جعدة ، طويلًا أبيض ، أقنى الأنف ، حسن الوجه واللحية » وكان « شابًّا متصوِّنًا عفيفًا حسن المعاشرة ، كريمًا معطاءً » إلى نهاية ذلك من كريمات الخصال . ثم استبعد أن يكون هذا الإنسان الرقيق أهلًا لتلك الصورة البشعة الطاغية التى تخلعها عليه معانى هذا الحرف « السفَّاح » من الجريمة وسفك الدَّمِ والرغبة فى ذلك والمبالغة فيه . واحتفل الأستاذ للحوادث التاريخية فلم يجد فيها ما يسوِّغ أن يكون « أبو العباس أمير المؤمنين » سفاحًا سفاكا للدماء ، وزاد أن ثقات المؤرخين كالطبرى والدينورى لم يذكروه إلا مجردًا من هذه الصفة ، ثم رجح بدليل بيانى جيد أن السفاح محمول هنا على الأصل اللغوى أى الكريم المعطاء الذى يتلف الأموال ولا يبخل بها. ولكن الأستاذ « أحمد أمين » رد عليه بعض أدلته فى العدد (٤٩) فردها الأستاذ العبادى عليه فى العدد (٥٠) وهكذا إلى العدد (٥٢) . وأنا قد أعجبت كل الإعجاب ببحث الأستاذ العبادى ، وإن كنت أخالفه كل المخالفة ، وذلك لأنه مبنى على منطق تاريخى جيد ، ولأنه أراد أن يفرق فرقًا جيدًا بين كتب التاريخ وكتب الأدب القديمة من حيث الحجة فى برهانات التاريخ . فإنا نجد كتبًا من أعظم كتب الأدب تحمل على الخلفاء من غث الأخلاق ما تناقضه سير هؤلاء الخلفاء كالذى يروون عن الرشيد – وهو بالمنزلة من الشرف والعلم والسياسة وطول الانبعاث للغزو والحجِّ – من معاقرة الخمر والملاهى والاطلاع على الحرم واستباحة الأعراض وغير ذلك مما لا يمكن أن يصح بوجه من الوجوه .

هذا ، وإنى أخالف الأستاذ العبادى ، فإنه حين رده الأستاذ « أحمد أمين » رجع عن تفسيره لفظ « السفاح » بالكرم والسخاء لغير علة ظاهرة وأصرّ على أن

---

(١) وتأتى بقية الكلام على أبى العباس السفاح ، ص: ٦٨

« أبا العباس أمير المؤمنين » لم يلقب « بالسفاح » البتة فى حياته ، ولا ذكر ذلك عنه أئمة المؤرخين ، وأصر مع ذلك أيضًا على أن صفات أبى العباس وحليته تنفى عنه أن يكون سفَّاكًا للدماء ؛ ولا كل هذا ! فإن هذه الصفات لم يُروَ لنا إلا أقلها حتى يمكن أن نجعلها أصلًا يستشف خلق أبى العباس من ورائها ، وإن الرقة والدعة والجمال ولين الخلق تخفى وراءها أحيانًا قسوة لا تدانيها قسوة ، كالذى يكون فى النساء ، فإنهن قد عرِفن بين الناس بالرقة « وهن أغلظ أكبادًا من الإبل » وإن المرأة إذا ثارت لم يبلغ مبلغها فى القسوة (أقْعد) الوحوش فى باب الوحشية ومع ذلك ... فهى الزهرة غِبُّ الندى ، وهى النسيم فى السَّحَر ، وهى ...

وكنت أحب أن أستوفى هنا القول فى تحقيق هذه الصفة لأبى العباس أمير المؤمنين ، ولكنى رأيت أن الكلام قد جاوز حده ، وأن الدليل يقتضينى إثباتَ كثير مما يُخِلّ تركه بالفائدة فموعدنا الكلمة التالية إن شاء الله .

* * *

أسواق النخاسة

مازلت أُضحك إبْلى كلما نظرَت إلى من اختضبتْ أخفافها بدم !
أسيرُها بين أَصنام أشاهِدُها ولا أُشاهِدُ فيها عِفَّةَ الصنم

هكذا يقول المتنبى فى صفة أصحاب السلطان الأدبى والسياسى من أهل عصره ، ولا يزال هذا ينطبق إلى اليوم على البلاد الشرقية والعربية إلا قليلًا قليلا . لقد أذكرتنى أشياءُ رَمَتْ إلى ماكنت أَسُوس النفس على تناسيه ونبذه والتباعد عنه ، ولكن صِناعة الأدب هى من بين الصناعات أشدُّها التحامًا بالحياة ... لا ، بل الأصول النفسية التى تقوم عليها وبها أسواق المجتمع الإنسانى ، وهى ترمى بالأديب فى تنّور متسعِّر من نزاع الغرائز والشهوات والأحقاد ، وهو بين اثنتين : إما أن ينحط فى هوى غرائزه التى تثيرها هذه النار الآكلةُ ، فيفسد بفسادها ، وإما أن يتحصن دونها ، فيروض غرائزه الوحشية ، حتى تألفَ وتنقاد لحكم العقل النبيل والعواطف السامية . فكذلك يوطن نفسه على الحرمان والألم والتفرد والوحشة ... ثم على الصراع الذى لا رحمة فيه ولاهوادة بين تَضَرُّم النزغات المستبيحة ، وبين زهادةِ النفس المتورعة المطمئنة . وكان أحق الناسِ بالتسامى ومطاولة الغرائز فى هذه الحرب الموقدة – الأدباء ، فالأدب فى أَصله تنزيةٌ للنفس وكبحٌ من جماحها ، ورفق فى سياستها ، فإذا انقلب الأدب تضرية للوحوش الرابضة فى الدم من الطبائع والغرائز ، خرَج عن أصله وفقدت ألفاظه معانيها ، وصارت أسواق الأدب تعتمد فى معاملتها على البغى والظلم والعدوان والتهجم والاستبداد . وفقدت كل معانى الحرية والعدل والإنصاف والتمييز بين الخبيث والطيب ، وهى أصول الفطرة الأدبية السامية .

إن الأديب الحر ينتفض تَقَزُّزًا واشمئزازًا كلما انبعثت روح حقارة المجتمع من

* الرسالة السنة الثامنة (العدد ٣٤١) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٠١ – ١٠٣

وراء الرّمم الأخلاقية المموَّهة بالنفاق ، والتى أقيمت عليها أصنام منصوبة للعظمة الباطلة الجوفاء ، وهو أشد انتفاضًا وانتقاضًا حين يرمى بصره إلى الأدب والعلم وهذه المعانى السامية فيرى الأدباء والعلماء أذلّاء مستعبدين قد خضعت أعناقهم للحاجة والضرورة والبؤس ، فهم نواكس الأبصار إلى الأرض بين يدى فئة منهم قد أخذوا عليهم أفواه الطرق المؤدية إلى بعض الرزق ، حين واتاهم القدر ببعض السلطان والجاه والسيطرة ، وأقامتهم الشهرة الذائعة أنصابًا تهوى إليها الأغراض ، وتناط بها الوسائل ، وتعتمد عليها الحكومات فى تقدير العلم والأدب وأهلهما والعاملين عليهما ، وكذلك لا يستطيع أديب أو عالم أو فيلسوف أن يجتاز إلا بإجازة من أيديهم وبأختامهم ، وإلا أن يشهدوا له شهادة التقدير ، وأن يعبُروا له السِّعر فى « تسعيرة » السوق الأدبى الذى أقامتهم الحظوظ عليه حكّامًا ومقوِّمين .

إن الشهرة والشهادة هما شيئان لا قيمة لهما فى العلم والأدب ، فبناءُ العلم على نجاح التجربة واستواء المنطق وإقرار العقل ، وبناء الأدب على صدق الإحساس وحدة الإدراك وسمو العاطفة وقوة الحشد وبراعة العبارة والأداء . فإذا لم تكن الشهرة من هذا تستفيض وعنه تَشرع ، فما غناؤها على صاحبها إلا بعض الأباطيل التى تنفش فى عقول الأمم الضعيفة والأجيال المستعبدة بالأوهام والتهاويل . والشهادة ما هى إلا إجازة الدولة لأحد من الناس أنه قد تحرَّر من طلب العلم والأدب على القيود التى تتقيد بها المدارس والجامعات فى أنواع بعينها من الكلام ، وأنه قد حصل فى ورقة الامتحان ما فُرض عليه تحصيله بالذاكرة ، ثم ترفع الشهادة يدها عن معرفة ما وراء هذا التحصيل وما بعده وما يصير إليه من الإهمال أو النسيان أو الضعف أو الفساد . فحين يغادر أحدهم الجامعة حاملًا شهادته مندمجًا فى زحمة الجماعة تفقد الشهادة سلطانها الحكومى – أو هكذا يجب أن يكون – ولا يبقى سلطان إلا للرجل وأين يقع هو من العلم أو الأدب أو الفن ؟ وهل أصاب أو أخطأ ؟ وهل أجاد أو أساء ؟ وهكذا فهو لا ينظر إليه إلا مغسولًا غفلًا من « مكياج » الدبلوم والليسنس والماجستير والدكتوراه .. وما إليها ، وإذَن ، فأوْلى ألا ينظر إليه عن شهادة قوم لم يكن سبيلهم إلى التحكم فى أسواق العلم والأدب إلا الشهادات المستحدثة ، والشهرة النابغة على حين فترة

وضعف واختلاط وجهل كان فى الأمة حين كان أقلُّ العلم وأشَفُّ [١] الأدب يرفعان صاحبهما درجات من التقدير والإجلال والكرامة .

إن هذه التجارة التى تقوم على استعباد العلم والعلماء والأدب والأدباء تجارة باغية ينبغى أن تَفْنى نخاستها وأن تغلق أسواقها ، وينبغى أن يتحرر الأدباء والعلماء المستعبدون قليلًا من أغلال الضرورات المستحكمة ليحاربوا بغى هذه التجارة بالنبل والسمو والترفع ، وليهتكوا تلك الأستار الحريرية الرفيعة المسدلة على بيوت الأوثان الجاهلية التى تستعبد الأحرار باستغلال ضراعة الضرورة والحاجة والفقر ، ينبغى ...

وينبغى لكاتب هذا الباب الجديد فى « الرسالة » أن يرفع القلم عند هذا القدر الآن ، ويعود إليه بالتفصيل والبيان فيما يستقبل .

معهد الصحراء بيت الحكمة

كتب صديقى « إسماعيل مظهر » - فى مقتطف يناير سنة ١٩٤٠ - كلمة بليغة يصف فيها « رهين المحبسين » ، محبِس الصحراء ، ومَحْبس النسيان ، وهو معهد الصحراء القائم على مشارف الصحراء المترامية ، فى « مصر الجديدة » ، وقد شيده « الأسد المصرىُّ » الملك فؤاد رحمة الله عليه من ماله خاصة ، ليكون مأوى للعلماء الذين يدرسون طبائع الصحراء ومعادنها وأجواءها ، ولكنه لم يتم بناؤه لما عرض من مرض الملك العالم ثم وفاته على شدة الحاجة إلى جُرأته وإخلاصه وعزمه ، وإنفاذ هذا العزم بالبصيرة والحكمة والمثابرة .

وكنت كلما صحبت أخى « إسماعيل » لبعض الرياضة ، تهاوينا إلى البيداء المقفرة الصامتة بأحزانها الحائرة ، وسرنا نتقاوَدُ [٢] فى جوفها فترمى بنا أرْجلنا إلى بناء شامخ قد أقْعى على ربوة من الأرض كأنما يتجمّع للوثبة ، ومع ذلك فأكاد أجد فى سمعى بيان هذا الأعجم الصموت ، وهو يُهَمهِمُ بأنّاته من ذُلّ الوحشة والأسر والنسيان والخراب ، فأنشد « إسماعيل » قول الرضىّ :

(١) أشَفّ الشىء : اليسير القليل منه .

(٢) نتقاود : يقود بعضنا بعضا قُدُما .

ولقد رأيتُ « بديْر هِنْدٍ » منزلًا أَلِمًا من الضَّرَّاءِ والحَدَثانِ
أغضى كمستَمِعِ الهوانِ ، تغيَّبَتْ أنصارُهُ وخلا من الأعوانِ

وكان هذا البناء المسكين همةً من همم الملك النبيل رحمه الله . ولقد سمعت أنه قد أحاطه بما يزيد على عشرة أفدنة ليقوم فيها ، وفى متنزهاتها ، وليؤدى أهله إلى صحراء مصر المجهولة حقَّها من الدرس والكشف والاستنباط .

هذا ، وقد ضَرَع « إسماعيل » إلى خليفة « فؤاد » فى ملكه وعلمه وعزمه وبصيرته ، إلى « الفاروق » صاحب مصر الأعلى وحاميها وهاديها إلى الخير ، أن يُتمّ ما بدأ الملك الأول من البناء ، وأن يعيد لملكه الزاهر تاريخ العرب والعربية فى عصر المأمون الذى أنشأ « بيت الحكمة » ، وجعله مُسْتَقر النَّقَلة من العلماء الذين استوعبوا نقل حكمة « يونان » إلى اللسان العربى ؛ فأسسوا للعلم ملكًا لم يطاوله فى العصور إلا عظمة المأمون ... قال :

« ومعهد الصحراء – يامولاى – عظيمٌ متسع الأرجاء اتساع العقل الخالد الذى فكر فى إنشائه ، فهل نطمع فى أن يضم إليه بضعة علماء يقفون جهودهم على ترجمة علوم أوربا إلى اللغة العربية ؟ وفى مصر – يامولاى – علماء أقعدهم النسيان عن العمل ومنعهم الخجل عن السؤال ، وعزّ عليهم أن يهينوا العِلْمَ باستجداء العطف . أَنطمعُ – يامولاى – أن تفيضَ عليهم من فضلك الواسع ما يسدُّ حاجتهم من حطام الدنيا ، ليكونوا نواة لبيت الحكمة فى عهدك ، فيتركوا للأجيال القادمة آثارًا لا يبزها من حيث الأثر فى العالم العربى إلّا عظمتك ، ولا يفوقها فى الجلالة إلّا جلالتك ؟ » .

وكل أديب وعالم ومفكر فى العالم العربى يضم صوته إلى صوت « إسماعيل » فى هذه الضراعة النبيلة إلى « وارث مُلْك مصر ، ومجد العرب » ، ويستيقن فى قلبه أن « الفاروق » سيحمى العلم والأدب بحماية ملكية ترفع عنه الظلم والاستعباد ، وتحرر العلماء والأدباء من غطرسة الأدعياء المتشدقين بقليل العلم ومنقوص الأدب ، مما أطاقوه وحملوه بفضل الرحلة إلى أوربا بضع سنين ، تزودوا فيها بالمعاشرة والمخالطة – لا بالدرس والمثابرة – بعض ماجهله أصحاب

الفضل والعلم والأدب من قومهم لقعودهم بالضرورة والعجز عن مثل الذى ساروا إليه ، وهم بالعلم والأدب أَقْوَم ، وعليه أحرص ، وطبائعهم إليه أشد انبعاثًا .

الشباب والسياسة

فى يوم الخميس السالف (٤ يناير سنة ١٩٤٠) ألقى بهى الدين بركات باشا محاضرة عظيمة القدر درس فيها معنى « السياسة » وحق « الشباب » فى المساهمة فى أصولها وفروعها ، ودافع عن حرية الشاب فى أن يهتم « بالعمل العام الذى يتصل فى وقت من الأوقات بتسيير دفة الحكم فى البلاد » . وهذا هو تعريف السياسة عنده ، وبذلك يخرج منها النزاع الحزبى الذى شهدته السياسة المصرية خاصة ، على وجه من التنابذ والتعادى والتسفيه والاعتداء على حرية الفرد وحرية الجماعة . فإذا أُخرج هذا الضرب من معنى السياسة أوجب العقل أن يكون لكل أحد الحق فى أن يشارك أصحاب الرأى فى آرائهم ، بل إن الشعور بالحرية الفطرية توجب عليه أن يشارك بالرأى وأنْ يُضَحِّيَ فى سبيل المبدأ الوطنى العام الذى لاتقوم الدولة إلا بقيام معانيه فى أعمال الأفراد والجماعات ، وقد ناقش المحاضرُ جماعةً من الأساتذة ولكنهم فى مناقشتهم كانوا لا يزالون متأثرين بالمعنى (المصرىّ القديم) للسياسة ، وغفلوا عن الغرض الذى رمت إليه محاضرة المحاضر فى الفصل بين ما كان ومايجب أن يكون عليه معنى السياسة ، وكيف يشارك الشباب فيها بالرأى والعمل . والسياسة – كما قال عزام بك فى موقفه – لا يمكن أن تكون بحثًا فلسفيا مجردًا ، لأن الإيمان بعقيدة ما يقتضى التضحية فى سبيل الدفاع عنها ، فإذا كانت السياسة عملًا قوميا يراد به المصلحة العامة ومجد الوطن ، فهى أمر يستحق كل تضحية . وأما إذا صارت السياسة إلى المعنى الذى شهدناه فى مصر من الخلاف الحزبى على مطامع الحكم فهى أمر لا يستحق أتفه التضحية .

ونحن نعتقد أن الإنسان الحر لا يعرف معنىً لهذا السؤال القديم : « هل ينبغى أن يشتغل الشاب بالسياسة أو لا ينبغى ؟ » فهو سؤال عليه سيمياء الذل والعبودية ! إن كل أحد فى مصر وغيرها من بلاد العالم – شابًّا أو شيخًا ، غنيًّا

أو فقيرًا – عليه دَيْن للأرض التى تَغْذُوه وتَعُوله وتُؤْويه وتمده وتحفظ له نسله جيلًا بعد جيل ، وأداءُ هذا الدَّيْن لا يكون إلا عملًا فى حفظها وحياطتها والمدافعة عنها بالسلاح والعلم والعمل والفكر والنفس ، فإذا أخلَّ أحد بشىء من ذلك خان أمانة هذا الدين وأسقط مروءته .

وكيف يمكن أن يمتنع الشاب أو الطالب عن الاشتغال بالسياسة ؟ أيمتنع عن قراءة الصحف والكتب لئلا يعرض له الفكر فى ذلك والتمييز بين صوابه وخطأه والعمل على بيان مواضع الخطأ ومعاونة الصواب على الاستمرار ؟ أم يقرأ أخبار الأمم وأحداثها فإذا أقبل على أمر بلاده طوى الصحيفة واستغفر ؟ أم يقرأ ويقرأ ولا يكون إلا كالخزانة ، يُلقِى فيها ما يلقى ليحفظ ويصان من لصوص الفكر التى يطلقها عقله فى آثارها ؟ أم يقرأ ويفكر ، ثم يحبس آراءه بين جدران الجمجمة إلى أن يذهب بها الإهمال ؟ وكذلك تضعف النفس وتصدأ وتتآكل ، لأن الإيمان والعمل هما جلاءُ النفس وصقلها لتبقى أبدًا مشرقة .

إن الشباب – ولابد – مشتغل بالفكر فى السياسة ، ونصرة مذاهب الحق فيها – كما هو – مشتغل بالعلم والأدب والفن ، ولكن الإشكال كله فى انفساخ القوة الخلقية التى يجب أن يقوم عليها العلم والأدب والفن والسياسة ، وكل عمل فتربية الخلق أوَّل . ثم ارموا – بالشباب – حيث شئتم فإنهم عصام الشعب ، وهم ذادة الوطن ، وهم أصحاب المستقبل .

المرأة والرجل

لشدّ ما اجترأت المرأة فى هذا العصر !! وإذا أخذت المرأة أسلحتها – من الزينة والتطرية [١] والجمال والفتنة ، وجيَّشت غرائزها – من الحذر والحيلة والضعف والإغراء ، لم يبق للرجل إلا أن يستقتل أو يفر ... وقد أقامت « وزارة الشؤون الاجتماعية » مناظرة بين الأستاذ « محمد فريد أبو حديد » والسيدة « زاهية مرزوق » وكان غرضها هو « كيف ننهض بالأسرة ؟ » . والظاهر أن السيدة

---

(١) التطرية : يعنى بها الأستاذ : المكياج أو التواليت ، وهى كلمة استحدثها انظر ص ١٩٩ .

الكريمة قد اعتقدت فى قلبها معنى « حرية المرأة » بالإصرار والتعصب فأخذت تنتزع رجولة الرجل شيئًا فشيئًا حتى ليخيل لسامعها أنه مخلوق وحشى منطلق من كل قيود النبل ، فهو عندها أنانى لا يؤثر على نفسه ، وهو معنى متجسم للفوضى فى بيت الأبوة والأمومة ، وهو جاهل متحامل على ضعف المرأة لا يرحمها ولا يحس بآلامها ، وهو فاجر متوقح يستجر الأخطاء ويجنيها ثم يرمى المرأة بها وينسَلُّ منها .

وأنا لا أريد الآن أن أدافع عن الرجل ، ولكنى أريد أن أسأل السيدة الكريمة ومن يذهبُ مذهبها من النساء : إذا كانت هذه صفة الرجل فى أنفسكن ، وإذا تحدثتن بمثله فبلغ الأسماع فى بيوت العقائل ، فوقع فى آذان الأم والزوجة ، والفتاة الجاهلة الطياشة ، فاعتقدنه ومالت إليه أهواؤهن ، فبأى عين تنظر المرأة إلى زوجها والفتاة إلى خاطبها ؟ وأىُّ معاملة يلقاها الرجل بعدُ على أيديهن وبألسنتهن !

كلا ياسيدتى ، إن المرأة هى تجنى أكثر الذنب فيما نعلم ، ثم تتنصل ، وهى كل الأنانية إلا أن يتصل أمرها ذلك بمصدر الأمومة فى غرائزها ، فهى عندئذ مثال الإيثار والتضحية ، وهى صاحبة الفضائل كلها إذا أُثيرت أمومتها وإحساسها بالمحافظة على النوع الإنسانى ، وأما بغير ذلك ، فهى المرأة بضعفها وأنوثتها وحاجتها إلى عون الرجل وتضحيته ورحمته . وليس للمرأة عمل إلا أن تعمل دائمًا على أن تجعل الرجل فى عينيها تمام إنسانيتها ، وبذلك تستصلح منه ما عسى أن يكون فاسدًا ، وتتم ما وقع إليها ناقصًا ، ويبنى البيت - بَيتهما - على أساس من القوة الداعية للبقاء ، فمن الرجل الرحمة والإخلاص ، ومن المرأة الاحترام والعفاف ، ومنهما النسل الجميل المحفوف بالفضيلة من جميع نواحيه .

أبو العباس السفاح

لم تتسع كلمة هذا الأسبوع لتحقيق لقب السفاح أبى العباس عبد الله بن محمد أمير المؤمنين ، فأرجأنا ذلك إلى العدد القادم ..

* * *

التقليد

لم أكد أفرغ من قراءة ماتيسر لى أن أقرأه فى هذا اليوم وما قبله حتى عاودنى الفكر فى أصول ما قرأت من كلام الكتّاب والشعراء ، ووقفت أستعيد فى نفسى تلك التيارات الكثيرة التى تموج بنفوسهم من تحت اللفظ والعبارة والمعنى والغرض . ولقد ظننت – حين أقدمت على قبول كتابة هذا الباب من الرسالة – أن انبعاثى للكتابة وطول ممارستى لمادتها كفيلان بنهنهة النفس عن بعض ثورتها ، ولكنى أخطأت ، فإن أكثر ماحملت نفسى على قراءته يكاد يؤرِّث النار كلما خبت ، ويعيدها جَذَعة [1] كلما طفئت ، ويدفعنى إلى مثل الحريق من الألم والحسرة والغضب للأدب العربى أن يكون إلى مثل هذا الضعف والفساد والقبح مصيرُه وعقباه .

إن أصحاب هذا اللسان العربى والناطقين به قد أصابتهم فى عصور متتابعة مصائبُ الجهل والغفلة والضعف فتحطمت عروش الدولة فى بلادهم كلها وعدا عليها كل عادٍ من ذؤبان الأمم فاستذلوهم وأخذوهم وفتكوا بهم وقَضْقَضُوا أوصالهم بالعنف والاستبداد تارة ، وبالرِّفق والسياسة المتدجِّية ، تارة أخرى . ثم جاءت أيام بعثت من تحت الليل جمرات تفرقت ثم اجتمعت ثم استطار شرارها فرمى فى كل هامدة بعض الحياة ، وكذلك ثارت أحلام النائمين بتحاسينها وتخاريجها وفنونها فانتفضوا يطلبون تحقيق أنوار لياليهم فى سواد أيامهم ، ولكنهم قاموا وهبوا على غير نظام ولا تدبير ولا تعبئة فانتشرت القوى الجديدة وتمزقت ، فضعفت وأخفقت ، ولم يكن منها ماكان يُزجِى لها من الغلبة والظفر والسيادة ، وبقى الضعف فى هذه الأمم العربية هو عمادها وعماد أعمالها فى عصر من القوة الأوربية الطاغية يمتد ويتراحب وينساح فى الأرض كلها متدافعًا متدفقًا لا يقف ولا يفتر .

ومن بلاء الأمم الضعيفة بنفسها أن انبعاثها إلى التقليد – تقليد القوى – أشد

---

* الرسالة السنة الثامنة (العدد ٣٤٢) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٤٣ – ١٤٥

(١) جَذَعة : عادت كما بدأت ، ولا يقال ذلك إلا فى الشر .

من انبعاثها لتجديد تاريخها بأسباب القوة التى تدفع فى أعصابها عنفوان الحياة . والضعف يجعل محاكاة القوى أصلًا فى كل أعماله . فلما فسدت قيادة أصحاب الرأى عند هذه الأمم الضعيفة ، وكان لابد للمستيقظ من أن يعمل ، كان عمل الأفراد متفرقين منسحبًا على أصلين : ضعفٌ أورثهم إياه ضياع كيان الدولة السياسى ، وضعف كرثهم [١] به تفرُّق القيادة وشتات الأغراض ، فلا جرم أن يكون كل عمل موسومًا بسمَةٍ من ضعفٍ مُظَاهر بضعف صاحبه ، ولا جرم أن يكون أعظم أعمالنا هو تقليد أعمال الناس على الهوى والجهل والدهشة المتصرفة بغير عقل .

هذا كل شيء تحت أعيننا وبأيدينا : بيوتنا ، مدارسنا ، أبناؤها ، رجالنا ، نساؤنا ، علمنا ، أدبنا ، فننا ، أخلاقنا ... كل ذلك على الجملة والتفصيل قد وُسم بميسم الضعف والتفرق وانعدام التشاكل بين أجزائه التى يتكون من مجموعها معنى الأمة ، وكلها تقليد قد تفرقت فى جمعه أهواء أصحابه من هنا وهنا . والتقليد بطبيعته لا يتناول من الأشياء إلا ظاهرها ، فكل مآخذنا من أجل ذلك ليست إلا مظهرًا .

هذه المرأة – وهى فن الحياة الذى يَشْتهِى أبدًا أن يبدع حتى فى الأذى – ماتكادُ تَراها عِندَنا إلا دُمْيَة ملفّقةً من الحضارات وبدعها ... ثيابها ، زينتها ، حليها ، تطريتها [٢] ، شعرها ، تطريف [٣] بنانها ، مشيتها ، منطقها ... كل ذلك أجنبى عنها متكلف منتزع من مظاهر غانيات باريس وعابثات هوليوود ، ليس له من جنسها ولا أصلها شبَةٌ تَنْزِع إليه ، وأسمَجُه أنه ملفّق لا يتشاكل تشاكل المصدر الذى اجتلب منه بالتقليد .

وهذا الكاتب وهذا الشاعر – وهما فن الحياة الذى يعمل أبدًا فى تجديد معانيها بالتأثير والبيان – لا تجد فيما يكتب أكثرهم إلا المعانى الميتة التى نقلت

---

(١) كل أمر أثقل الإنسان وشقّ عليه فقد كَرَثَه (من باب ضرب) .

(٢) يعنى بها الأستاذ « المكياج » ، وهى كلمة استحدثها .

(٣) أراد بها « المانوكير » ، وهى كلمة استحدثها الأستاذ ، انظر ص : ١٩٩ .

من مكانها بالاعتناف والقسر فوضعت فى جو غير جوها فاختنقت فمات ما كان حيا من بيانها فى الأصل الذى انتزعت منه .

وهكذا ... هكذا كل شيء تأخذه العين أو يناله الفكر ، إنما هو دعوى ملفقة وتقليد مُسْتَجْلَبٌ وبلاءٌ من البلاء . ولا نزال مقلدين حتى يستطيع الأحرار – وهم قلة مشردة ضائعة – أن يبسطوا سلطانهم على الحياة الاجتماعية كلها ، ويردوا إلى الأحياء بعض القلق الروحى العنيف الذى يدفع الحى إلى الاستقلال بنفسه والاعتداد بشخصيته ، والحرص على تجديد المواريث التى تلقاها من تاريخه ، ويغامر فى الحضارة الحديثة بروح المجدد لا بضعف المقلد ، فعندئذ ينتزع من الحضارة الأسباب التى تنشأ بقوتها الحضارات ، ولا يكون موقفه منها موقف المسكين الذليل المطرود من المائدة ... ينتظر وفى عينيه الجوع ليتقحَّم من فتاتها [١].

صورة النفس

عرضت لى مقالة فى مجلة الثقافة عدد (٥٤) عنوانها « الأدب صورة النفس » كتبها الأستاذ « محمد مندور » ، وقد استوقفنى عنوانها قبل أن أقرأها ، لأن هذه هى الحقيقة التى نقولها ولا نصل فيها إلى حق . وقد تغاوى [٢] النقاد عليها ومع ذلك فما تظفر من أقوالهم إلا بالمُبهم بعد المُبهم ، ولا نجد لأكثرهم شرحًا لها يفى بمدلولها أو بسرها أو يزيل الإبهام عن مسالكها ... يقول الأستاذ : « وإذن ، فالآثار الأدبية والفنية تطلعنا بغير تحفظ على أسرار واضعيها النفسية بأسلوبها الخاص ... ونحن نقصد بذلك إلى البحث عن نفس الكاتب والشاعر فى تضاعيف ما يكتب ... وعمل الناقد إذن عمل كشف عن أسرار لا تقع تحت البصر لأول نظرة ، وسبيله إلى ذلك لا يمكن أن يكون إلا حسًّا باطنيًّا ترهفه التجارب والمعرفة الطويلة بمختلف النفوس ... » . وكل هذا جيد من القول ،

---

(١) تَقَحَّم الأمر : رمى بنفسه فيه على غير رويّة .

(٢) تغاوى النقاد عليها : أى تناولوها واحدا بعد الآخر ، وتقال أيضا بالعين المهملة .

وهو كالشرح على عنوان المقالة . ولكنى رأيت الأستاذ ينظر فى آثار أدبية لأستاذين جليلين هما : أحمد أمين وطه حسين ، وشرع يتكلم عن بعض آثارهما . تكلم عن مقال « فى فيض الخاطر » هو : (صديق) . فإذا كل الذى قاله وصف يمكن أن يقع على كل كلام ، فيقول : « سترى كيف حطم الأستاذ هذا الصديق ، فرده إلى عوامله الأولية ؟ وقد تقاصرت جمله متجاوبة كأنها ذرات مادية نتجت عن هذا التحليل » ... والنتيجة ! والنتيجة أن الأستاذ أحمد أمين أو أسلوبه أسلوب تحليلى ، وفيه قوة مخيفة ! والأستاذ طموح متقلقل فى شتى السبل ، لأنه كتب عن الشمس وعن الليل ، يستقرى ما يجوب فى ظلام الليل ، وما تغدقه الشمس ؛ ولا يصف جمالها أو وحشته ! وهكذا ، ولا أدرى كيف أستخرج شيئًا من كل الذى كتبه يدل على الذى أراده مما نقلناه آنفًا ؟ ولا كيف عمل هو فى الوصول إلى هذه الأحكام التى دمغ بها الآثار الأدبية وأصحابها ؟ ولا كيف كان عمله فى التحليل النفسى الذى أحس به إحساسًا باطنيًّا !!

إنه لا بد لمن يتناول مثل هذا الموضوع أن يفصل القول ، فلا يجمله ، لأنه بلاشك موضوع جليل ، والكلام فيه سلوك فى مجهل غامض يحمل على الإبانة والإيضاح ، وإلا كان الكلام فيه على هذا تقصيرًا لا ينفع ، ويكون أنفع منه أن يترجم لنا الأستاذ كلام النقاد الأوربيين الذين مارسوا هذا العمل وأفرغوا له أوقاتهم واستوعبوا الأصول التى يُسَار عليها فى معالجته ، وكذلك تتم خدمته للأدب والأدباء ...

أبو العباس السفاح [١]

كنت أحب أن أستوعب فى هذا التعليق كل الرأى الذى عرض لى فى أمر أبى العباس السفاح أمير المؤمنين ، ولكنى رأيته قد خرج عن أن يكون من مادة هذا الباب ، فلذلك اقتصرت على أشياء أرجو أن تعين الأستاذ العبادى فى تحقيقه الذى بدأه ، وعسى أن يكون فى هذا القول بعض الصواب الذى يسعى إليه .

(١) انظر أول الحديث عنه ص ٥٦

فمن ذلك أن أبا العباس السفاح ، وأبا جعفر المنصور أَخَوان وليا الخلافة العباسية لأول أمرها ، وكان أبو العباس أصغر من المنصور بعشر سنين ، وأن اسم أبى العباس وأبى جعفر فى نسبهما هو « عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس » ، فأبو العباس هو « عبد الله الأصغر » ، وأبو جعفر هو « عبد الله الأكبر » . فإذا كان ذلك كذلك ، وأبو جعفر قد لقب بالمنصور وأن الذى لقبه بذلك أبوه فيما نعلم ، فلا غَرْو أن يكون أبو العباس كذلك ملقبًا ، وأن يكون أبوه قد لقبه كما لقب أخاه .

وإذا كان أبو العباس « عبد الله » هو الأصغر فالتلقيب هو أولى به للتفريق بينه وبين أخيه أبى جعفر « عبد الله » وهو الأكبر الذى ولد أولًا وسمى « عبد الله » من قبله . ويؤكد أمر هذا التلقيب سيرورته بعد فى خلفاء بنى العباس جميعًا إلى انقضاء دولتهم ، فكأنه كان من « تقاليدهم » وتعاليمهم .

وأيضًا فإنه قد وردَ فى الحديث عن أبى سعيد الخُدْرىّ عن رسول الله ﷺ قال : « يخرج منا رجل فى انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يقال له (السفاح) يكون عطاؤه للمال حَثْيًا » ، وأئمة الحديث لا يصرفون هذا الاسم إلى أبى العباس ، وإنما هو نبوءة كبقية النبوءات التى وردتْ فى القرآن الكريم والحديث النبوى لا يدرى تأويلها إلا أن تكون ... ، ولكن الدعوة العباسية فيما يظهر قد جمعتْ بين هذا الحديث وأحاديث أُخر هى من باب النبوءات أيضًا وجعلت منها حديثًا اتخذته فى الدعوة إلى إقامة الخلافة فى بنى العباس ، فكانوا يروون للناس عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « والله لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لأدال الله من بنى أمية . ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدى » ، وهم الخلفاء العباسيون الثلاثة على التتابع . ولا شك فى أن هذا كان قبل قيام الدعوة بالفتح بزمن طويل . فلعل الإمام « محمد بن على » قد لقَّب ولديه بهذين اللقبين تفرقة بينهما ، وتفاؤلًا بالذى يروون فى أحاديث الدعوة العباسية .

وإذا كان ذلك كذلك فمعنى اللقب إذن ليس من « سفح الدم » – وهو بهذا المعنى مجاز مقصورٌ لغرض بعينه – لكنه من الكرم والعطاء والبذل كما ورد فى الحديث الذى سقناه آنفًا من أن « عطاء السفاح للمال حثْيًا » لأنه لا يصح فى

العقل أن يلقب أحد ولده بهذه المذمة القبيحة وهو ينصبه للناس خليفة ، وقد لقب أخوه من قبل بالمنصور . نعم قد سمت العرب فى جاهليتها بالأسماء المنكرة ، ولكن الإسلام جاء فحسم ذلك كله ، ولم يبق من التلقيب والتسمية بالمنكر من الألفاظ شيء فى أكثر البادية العربية ، فكيف فى الحضر ثم فى أعظم بيوت الحضر ، وهو بيت العباس ؟ وقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة فهو قد غير أسماء كثير من الوافدين عليه من أصحابه « كزحم بن معبد » فسماه بشيرًا ، وجميلة امرأة عمر بن الخطاب وكان اسمها « عاصية » وخلق كثير .

وعلى هذا الأصل نرى أن الناس فى صدر الإسلام سموا « السفاح » فمنهم : السفاح بن مطر الشيبانى ، وهو ممن ولد فى النصف الثانى من المائة الأولى للهجرة وكان من أصحاب الحديث ، والسفاح أخو أبى سلمة بن عبد الرحمن الزبيدى لأمه وهو من التابعين ، وقد روى عن أبى هريرة وغيرهما . ولاشك أن التسمية هنا منصرفة إلى المدح لا إلى الذم ، فصفة أبى العباس السفاح هى إلى العطاء والكرم كما ذهب الأستاذ العبادى أولًا ، ثم رجع حين تعقبه الأستاذ أحمد أمين .

أما النص الذى نقله الأستاذ عن اليعقوبى من أنه قال : عبد الله بن على الأصغر وهو السفاح » ، وهو عمّ أبى العباس والمنصور ، فإن أصله منقول من ابن سعد فى طبقاته حين ذكر أولاد على بن عبد الله بن عباس فقال : « عبد الله بن على الأكبر ... وعبد الله بن على الأصغر السفاح الذى خرج بالشام » ، فهذا هو الأصل ولا يرى فيه إرادة التلقيب كالذى يرى من نص اليعقوبى ، وإنما هى صفة كالسفاك والقتال . نعم ، وأنا لا أدرى كيف ادعى الأستاذ العبادى أنه اشتهر بذلك فانتقلت هذه الصفة إلى أبى العباس أمير المؤمنين ، فإن الطبرى وأئمة المؤرخين قد ذكروا عبد الله بن على عم أبى العباس وأبى جعفر فى أكثر من خمسين موضعًا ولم يلقبه أحدهم بهذا اللقب ، فكيف يمكن أن ندعى أنه اشتهر به حتى كان من جراء هذه الشهرة أن اختلط على الناس وعلى الأدباء وعلى فلان وفلان كالجاحظ وابن قتيبة فوضعوا صفة « عبد الله بن علىّ » صفة « لعبد الله بن محمد » على قرب العهد . وكيف جاز أن يقع فى ذلك الجاحظ فى روايته ، وهو أدق العلماء

رواية ، وهو الذى رد أكثر رواية الهيثم وابن الكلبى وغيرهما من أصحاب الأخبار ؟

وخبره الذى رواه وذكر فيه السفاح فى البيان والتبيين ج ١ ص ٩٣ أخبره به « إبراهيم بن السندى » وقد قال فيه ج ١ ص ٣٢٦ :

« وكان إبراهيم بن السندى يحدثنى عن هؤلاء بشىء هو خلاف ما فى كتب الهيثم بن عدى وابن الكلبى ، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور ، وكان عبد الله بن على وداود بن على يعدلان بأمة من الأمم . ومن مواليهم إبراهيم ونصر ابنا السندى ، فأما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث ، وكان لايعدو حديث ابن الكلبى والهيثم ، وأما إبراهيم فإنه كان رجلًا لا نظير له ... وكان ... وكان ... من رؤساء المتكلمين وعالمًا برجال الدعوة وكان أحفظ الناس لما سمع وأقلهم نومًا وأصبرهم على السهر » .

فرواية الجاحظ فيما نرى أقوم من رواية غيره ، وهى دليل على صحة الصفة التى وصف بها أبو العباس أمير المؤمنين ، والجاحظ قد أدرك صدر الدولة العباسية ، ولم يكن بين مولده ووفاة أبى العباس السفاح كبير دهر حتى يكون ممن يختلط عليه الحق فى مثل هذا الأمر ، وبخاصة وهو يروى مايروى عن الثقات فى معرفة أخبار رجال الدولة .

أما سكوت الطبرى وغيره – من متأخرى المؤرخين عن صدر الدولة العباسية – فليس يعد دليلًا على بطلان هذا اللقب . وإن دل على شىء فربما دل على أنهم جانبوه وتباعدوا عنه وتركوه لما كان قد انتشر فى عصرهم من معنى السفاح على أنه السفاك للدماء ، وخفاء معنى هذا اللفظ الأول وهو الكريم الباذل الفياض الذى يكون عطاؤه للمال حثيًا .

هذه كلمةٌ صغيرة إلى الأستاذ العبادىّ أرجو أن أكون قد بلغت بها بعض رضاه فى التعقيب على رأيه الذى انتهى إليه ووقف عنده . ولعله يعود إلى الذى كتبه فإن له بالعلم بصيرة نافذة مسددة إن شاء الله .

* * *

العـــيد

أيتها الأيام السعيدة الهاربة من عمل الدنيا ببراءتها من الشقاء ، أيتها الأيام الصغيرة المتلألئة فى ظلام الزمن بأفراح السعادة ، أيتها الأيام الذاهلة عن معانى الآلام !

أنت هكذا أبدًا ، وهكذا أبدًا تعودين ...

ولكن هل تستطيعين أن تمنحى الناس جميعًا بعض سعادتك وأفراحك ولذاتك البريئة ؟

هل تستطيعين أن تمنحى العقول المتغَضِّنة من الهم والكِبَر أفكارًا غضَّة ناعمة كأحلام العذارى ؟

الحـــرب

كانت أيام العيد هدنة سكنت فيها الأخبار المحاربة بمعانيها فى أذهان الناس وعواطفهم ، وانقطعت الصحف الأخبارية أيامًا عن الظهور ، فانقطع أكثر الحديث عن الحرب المخيفة بأوهامها قبل حقائقها ، وهدأ الناس .

أذكرتنى هذه الأيام المسالمة بتأثير الحرب فى الأدب ، وحملت إلىّ صورًا كثيرة مما قرأت فى الصحف والمجلات الأدبية ، ولا أدرى ، فيخيَّل إلىّ أن المجلات الأدبية منذ بدأت الحربُ إلى اليوم قد أفرغت كثيرًا من صفحاتها للحرب ، وشرحت صدرها لكثير مما يتعلق بها ، ومع ذلك لا أكاد أجد إلا القليل من هذه الأحاديث يصلح أن يكون من أغراض المجلات الأدبية ، وإنما هو بأغراض الصحف اليومية الأخبارية أليق وألصق . ومن الوهم المتفشِّى أن يدّعى مدع أن أثر الحرب لابد أن يكون كذلك ، وأن مثل هذه الأحاديث هى سمة الحرب على أدب الأدباء ، فإن أثرها فى فكر العامة لا يكاد يخرج عن مثل ذلك . أما أثرها على الأدباء فهو أشد تغلغلًا فى طوايا النفس ، وأشد هزًّا لعواطف

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٣) ١٩٤٠ ، ص : ١٨١ - ١٨٣

الإنسانية . فإذا أقررنا أن الحرب إنما تتدافع فى صدور الأدباء والشعراء ورجال الفن لتكون كالتيار الذى يتدافع بالبحر فينشئ له الأمواج المتصارعة المتدفقة مخافة أن يركد فيأسن ، لم نجد بُدًّا من اعتبارها كالمدد للمعانى الخائفة التى تنزوى فى كهوف النفس الإنسانية السامية الطامحة ، تجرّؤها وتذمرها وتؤلبها من هنا وهنا لتتعارف وتتساند وتندفع إلى غمارها مجدة إلى المثل الأعلى الذى هو أحلام النفوس الرفيعة الدائبة أبدًا إلى الأغراض النبيلة .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأثر الحربِ إنما هو تنبيهٌ للمعانى والأغراض التى تحيك فى صدور الأدباء والشعراء ، وتطريقٌ للمسالك الغامضة التى يراد منهم أن يمهدوها ويكونوا أدلاء للناس فى مجاهلها ومنكراتها . إن الصحف اليومية الأخبارية عليها أن تمد الناس بأخبار الحرب وصفاتها وصفات بلادها المتحاربة ، وعواقبها الدانية أو البعيدة لأحداثها ، ولكن مهمة الأدباء الذين يمارسون تحرير المجلات الأدبية أن يتعقبوا مَعانىَ أسْمَى من هذه المعانى المبتذلة التى توضَعُ عن أفكار الناس حين تضع الحرب أوزارها ، عليهم أن يسبقوا أحداث الحرب بتمهيد جديد إلى حياة أخرى تبرأ من الغرائز الدنيئة التى دفعت العالم إلى هذا الشر البغيض الذى لا غرض له إلا استبداد السلطان ، واستعباد الناس بعضهم لبعض . وإذن فهم – لابد – يبحثون عن العلل والأمراض التى داخلت المدنية الحديثة ، فجعلت قوة الافتراس فيها هى الأصل الذى بنيت عليه عقائدها وأعمالها ، غير متحيزين إلى فئة بعينها ، فإن الأسلحة المشرعَة الآن فى جميع الصفوف لن تعرف بعدُ معنًى إلا معنى الحرب وحدها بوحشيتها وجوعها وقرمها ... لن تعرف إلا الدَّمَ وشهوة الدم ، وتنقرض العواطف الرقيقة التى تملأُ النفس ورعًا وتقوى وحنانًا . وإذا استبان لهم مكنون هذه العلل استطاعوا أن يمهدوا السبيل للحياة الجديدة المبرأة من أسبابها الباغية ، فمنعونا شرها ثم شر الآثار والعواقب التى تأبى شياطين الحرب إلا أن تزينها للباقين والناجين من أحلاسها [(١)] .

---

(١) أحلاسها : شرورها اللازمة . المفرد : حِلْس ، وأصله كساء يوضع على ظهر الدابة ، فهو ملازم لها أبدا ، فقيل للفرسان المقاتلين الذين يلزمون ظهور خيولهم : أحلاس الحرب .

هذا هو عمل الأدباء والشعراء على الاختصار والإجمال . أما أن يتوهم متوهم أن أثر الحرب إنما يكون إذ يلوك أخبارها وأحداثها ويمضغها فى لفظه وعبارته مضغ الكلأ ، فذلك شيء لا يقع عليه إلا عقل العامة الذين لا ينفذون فى المعانى إلا على الوهن والضعف والفساد . إن أفكار الأدباء التى تسمو بألفاظها ومعانيها سمو الروح بين خوافق السماء ، وإن أحلام الشعراء التى تختالُ فى زينتها رقيقة ناعمة أو ثائرة مُتفجرة - هى أحبُّ إلى نفوس الناس فى زمن الحرب ، لأنها تنفيس عنهم من كرب الحروب ، وإخراج لهم من حمأة الدم الذى ينشر رائحته مع كل نَفَس ، ثم هى التمهيد الصحيح لتهذيب النفس الإنسانية وتربيتها والتسامى بها عن المعنى الحيوانى الضارى الذى تنشّئه الحروب فى مهد من الأشلاء والدم .

العقل المصرى !!

كتب الأستاذ (محمود المنجورى) كلمة فى السياسة الأسبوعية (١٥٥) يريد أن يكشف بها عن (طبيعة العقل المصرى ، ومدى تأثرها بالانقلابات الاجتماعية أو السياسية أو الدينية . وساق حديثه فيها إلى وزارة الشؤون الاجتماعية . ونحن نتجاوز عن بعض الخطأ الذى وقع الأستاذ فيه عصبيَّة للعقل المصرى كما يسمّيه ، كدعواه أن إنشاء الأزهر كان نتيجة للأسباب الفكرية والاجتماعية والروحية - التى نشأت فى مصر فيما يرى - فأريدَ إقامة الدعوة الفكرية المتميزة عن صواحباتها فى سائر العالم الإسلامى بإنشاء هذا المعهد العلمى العظيم . ولا شك فى أن هذا تأويل غير جيد لحقائق التاريخ ، فإن الفاطميين هم أنشأوا هذا المسجد الجامع لأول فتحهم لمصر ، ولم يكن للعقل المصرى إذ ذاك كبير شأن ولا صغيره فى دفع الفاتحين إلى إقامة هذه العمارة فى مصر ، وإنشاء الأزهر كان لغرض فى نفس الفاطميين أصابوه أو أخطأوه ... فليس ذلك من شأننا هنا .

وأيضًا فأنا إلى اليوم لا أكاد أعرف شيئًا يمكن أن يسمى « العقل المصرى » أو « العقل الإنجليزى » أو « العقل الفرنسى » وهلم جرّا ، حتى يوضع فى كفة

وحده أعدت له فى موازين العقول ، وليس قيام المدنيات بأجزائها على « العقل » حتى يمكن أن يقال إن العقل المصرى هو الذى استطاع أن يبقى خالدًا والمدنيات من حوله تفنى وتبيد . حقًّا إن مصر - وغير مصر من الأمم التى كانت منزلًا لمدنيات كثيرة متباينة - قد احتفظت مع هذه المدنيات بأشياء امتازت بها ، ولكن هذه الأشياء المميزة لم يكن مرَدُّ أكثرها إلى العقل بل كان مردها إلى الطبائع التى أنشأتها إرادة الإقليم المسيطرة على الطبائع الإنسانية ، وإلى العادات المتوارثة التى لم تقاومها هذه المدنيات مقاومة الحرب والإبادة ، فلذلك بقيت هذه المميزات قائمة سائرة متعارفة ، فيخيل لبعض من لم يَغْزُ إلى أعماق هذه المخلفات أنها ظواهر عقلية مع أن الحق غير ذلك ..

ونحن نجد الجنس من الناس ينزل أرضًا غير أرض ، فما يمضى الجيل أو الجيلان حتى تفنى المميزات الجنسية فى نسلهم من أبنائهم وأحفادهم ، ويبدأ الوطن الجديد بطبيعته المستبدة فى تحويل هذا النسل إلى طبائعه التى تلائم تربته وسماءه وجوه وحاجات سكانه ، فكذلك المدنيات إذا نزلت أرضًا خضعت لما يخضع له الإنسان الحى المتحدر من أصلاب قوم غير سكانه الأوائل ، وجعلت تتميز بضرورات الإقليم الطبيعية .

ولماذا يريد كثير من الكتّاب أن يجعلوا عقول أممهم بدْعًا فى العقل الإنسانى ؟ لا أدرى ، وما يكاد يدرى أحد من هؤلاء ما هو العقل ، وكيف يتميّز فى الإنسان ، أو كيف يتبيَّن فى الأفكار أو المدنيات مكان العقل من مكان غيره من الغرائز والطبائع والدوافع وما إلى ذلك من الأشياء التى تشترك فى نتاج الفرد ثم فى إنشاء المدنيات الاجتماعية ؟ ولو استطاعوا لأبانوا لنا - على كثرة مايقولون - عن موضع واحد يقولون فيه هذا « صنع العقل » الفلانىّ . إن العقل المصرى كغيره من العقول يقبل كل شىء ، ولكن طبائع الإقليم تريد أشياء وتنفى أشياء لأنها لا تستطيع البقاء فى سلطانها . إن جوهر الأشياء كلها لا يتغير فى العقل بعد العقل ، ولكن الأعراض هى التى يصيبها التبدُّل والتغيير لأنه من طبيعتها أوّلُ ، ولأن العقل لا يعمل فيها عملًا إلا للتدبير والتصريف وحسب .

* * *

وقد عرضَ الأستاذ (المنجورى) فى مقاله هذا إلى عهد الاحتلال وماصنعت سياسته فى أخلاق مصر وتعليمها ، وكيف حطم بجوره وعدوانه كل الصلات القوية التى يعتمد عليها ترابط الكيان الاجتماعى ، فتمزقت الجهود المصرية فى الإصلاح ، واستبدَّت الشهوات الجارفة بأخلاق الطبقات كلها ، ففشل الاجتماع المصرى فى إرادته ، وقام على أساس فاسد من الأخلاق حتى صار أكثر ما نرمى إليه غرضًا فرديًا لا قيمة له فى البناء الاجتماعى ، ومن هنا استبد المستبد وصارت السيطرة الفردية فى كل أعمالنا هى المبدأ ، فلم يقم بيننا التعاون على أساس صحيح ، وكذلك تنازعت الشهوات أعمالنا فصار الآخر بأنانيته يريد هدم عمل الأول لينفرد بأحدوثته وَصِيته ، كالذى رأيناه فى الحكومات الكثيرة التى تعاقبت على الدولة المصرية فشرعت ووعدت وبدأت وسارت ، ثم جاءت أختها من بعدها لتقف كل ذلك وتبدأ من جديد بلجانها وتقريراتها واقتراحاتها ، تريد أن تخالف وأن تنشئ وأن توجد ، ثم هكذا دواليك حتى غدت وعود الحكومات عند المصريين خاصة والشرقيين عامة إلى مثل التى يقول فيها كُثَيِّر عزَّة :

تَمَتَّعْ بها ما ساعفتك ، ولا تكن	عليك شجى فى الصدر حين تبينُ
وإن هى أعطتك الليان ، فإنها	لآخرَ من خُلّانها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها	فليس لمَخْضُوبِ البَنَان يَمينُ

فهذه أمراض وأوبئة لا تزال تنتشر ، ولابد من مكافحتها مكافحة صارمة بغير هوادة . فهل فى الذين يصير إليهم السلطان الوازع العامل من يستطيع أن يتجرد لمكافحة هذه الأوبئة ، ولو كان فى كفاحها كفاح لنفسه وشهواته وأغراضه ؟ هل تجد مصر أخيرًا طبيبها المغامر ؟ ليتها تجد ...

المنطلق

قرأت فى العدد ٣٤١ من « الرسالة » أغنية – أو هكذا سمّاها صديقنا – بعنوان « الناى » . قال الأستاذ بشر فارس : وهى على بحرين مختلفين رغبة فى

تنويع مجرى النغم ، والبحر الأول وضعه الشاعر ، وأجزاؤه : « فاعلاتن مفاعلتن » مرتين وليكن اسمه « المنطلق » انتهى .

وصديقنا بشر شخصية جوالة فى معانى الدعَة والرقة واللطف والظرف والابتسام والمرَح ، وسائر هذه الكلمات الراقصة بألفاظها قبل معانيها . وهو كالبحر الذى زعم أنه اخترعه وسماه « المنطلق » ... فهو منطلق فى كل أشياء الحياة بأحلام كأحلام الليل جميلة هادئة ساكنة ... ولكن إذا فجأها النهار تطاردت له هاربة وقد تركت آثارها أخاديد نديّة كذكريات الحبيب الهاجر فى قلب العاشق ...

وهذا البحر « المنطلق » كما يسميه ، قد أرسله على مثل هذه الأبيات :

« جَنِّبوا الناى عن أُذنى ... أُذُنى زلزلتْ طَرَبا
مثلَ قلب تُحَدِّثُهُ ... سِرَّه السُّودُ فاضطربَا »

وقد زعم « بشرٌ » أنه وضعه ، ونحن نُسلِّم لبشر ما يقول ، ولكن أصحاب العَروض هم أبدًا كبحورهم لا يهدأون ، فقد زعموا أن الأخفش قد تدارك على الخليل بحرًا سموه « الشقيق » يزعمونه أخا « المتقارب » ، وسموه المحدث والمخترع والخبب إلى غير ذلك وعُرف عندنا باسم « المتدارك » - أى الذى تداركه الأخفش على الخليل بن أحمد - وأصل تفاعيله عندهم : « فاعلن ، فاعلن ، فاعلن ، فاعلن » مكررة ، وله عروضان تامة ومجزوءة ، فالعروض المجزوءة هى : « فاعلن ، فاعلن ، فاعلن » مكررة .

وهذه العروض المجزوءة من بحر المتدارك ، هى زنةُ شعر بشر قد دخلها من رِقَّتِه ماجعلها تتأوّد عند قوافيها لتستريح ؛ فالبحر ليس إذن « منطلقًا » ، ولكنه « خليع المتدارك » .

وسائر أبيات القصيدة فى قوله مثلًا :

« أوتار الخاطر تغمزها ... أَنَّاتُ الناى فترتجف »

هى أيضًا من عروض المتدارك التامة دخلها التشعيث والخبن كقول ابن حَمديس :

صادَتكَ مَهاةٌ لم تُصَدِ   فلواحظُها شركُ الأسَدِ
من توحى السِّحر بناظرة   لا تنفثُ منه فى العُقد

هذا فى مخترع « بشر » ولكن ما بال هذا الصديق يريد أن يزلزل أذنه ، ونحن لم نفرغ بعد من حديث الزلازل التى هدمت ما هدمت فى الأناضول ، لماذا أيها الصديق ؟ ولماذا تريدنا أن نشعر أن أذنك وحدها - دون سائرك - هى التى تطرب ، ولا يكون طربها إلا زلزلة .

كفى ... كفى ، فإنى إذا نقدت « بشرًا » فلن أجد الراحة بعد ، وإن كنت أظن أنى لم أفهم الشعر كله جيدًا ... فلعله شعر جديد ، والجديد على من بدأ الشيب يغزوه يبليه ويخيفه فينتشر عليه فهمه فلا يفهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

* * *

الغذاء العقلى والروحى للشباب

ألقى الدكتور طه حسين فى قاعة الجامعة الأمريكية كلمة أُريد عليها ، كما قال فى أول كلامه ، فاستغرقت هذه الكلمة من الوقت ساعة أو أشفَّ قليلًا ، افتتحت بالتصفيق الشديد للدكتور طه حين خرج على الناس ليتكلم !!

ولستُ هنا فى مقام التلخيص لهذه الكلمة ، ولكنى بالمكان الذى يجب علىَّ فيه أن أشقّ للقراءِ موضع الرأى الذى ينبغى لهم أن يشغلوا أفكارهم به ولو ساعةً من نهارٍ ، كما شغل الدكتور طه سامعيه ساعةً من ليل يوم الإثنين ٢٩ يناير سنة ١٩٤٠ . وليس فى القراء الذين يعرفون الدكتور طه من يجهلُ أن أوّل ما يتكلم به الدكتور إنْ هو إلا أن يجعل مَردّ كل شيء إلى « يونان » ومدن يونان ... فلا شك إذن فى أن أول نظام عرف للغذاء العقلىّ والروحىّ للشباب ، إنما كان فى المدن اليونانية والحضارة اليونانية والعقلية اليونانية !! فهذا شىءٌ مفروغٌ منه قد جعله الدكتور طه مذهبًا لا يحيدُ عنه ، وأسلوبًا لا يسلُك غيرَه ، ولا بأس بذلك ... فأنا أعتقد أن اختلاط المدنيات المتعاقبة على الأزمان المتقادمة ، قد جعلت لصاحب الرأى سعةً يذهبُ فيها حيث يشاء . فلو قلت أنا مثلًا : إن أول نظامٍ عرفه التاريخ لتنظيم الغذاء الروحى والعقلى للشباب ، إنما كان بالصين ، وقد فصَّله لنا ما بقى من آثار « كونفوشيوس » فيلسوف الصين الأكبر ، لوجدت من الدليل ما أستطيع أن أقيم بها عِوَجَ الرأى ، وأردُّ به على مخالفىّ رد إلزامٍ وخضوعٍ ... وكيف لا أستطيع ذلك وفى كل كلمةٍ من كلام هذا الفيلسوف العظيم توجيهٌ لقوى الشاب الصينىّ إلى الخير المحض ، وهو الذى يقول : « من حق الشاب أن ننظر إليه بعين الاحترام ، فما يدرينا أن علمه فى المستقبل سيكون فوق علمنا فى الحاضر ؟ أمّا من أسند فى الأربعين أو الخمسين من عمره ولم يشتهر بعلمٍ من العلوم ، فلا يستحق أن ننظر إليه بعين الاحترام » . وقد جَعَلَ كل جهده فى تدبير شؤون الدولة الصينية ، يقول : « إن الاضطراب قد مزّق البلاد بالفوضى ، فمن

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٤) ، ١٩٤٠ ، ص : ٢٢٢ - ٢٢٤

الذى يُعيدُ نظامها » ، « لا يمكن أن أعاشر الطيور والوحوش ... وإذا أنا لم أعاشر هذه الأمة ، فمن أعاشر ؟ لو كانت البلاد تحت سياسة عادلة لما كنت فى حاجة إلى أن أُحاول إعادة نظامها » ...

هذا وغيره من تاريخ الأمة الصينية وتاريخ فيلسوفها يعلمنا أن أول نظام كان إنما كان بالصين ، فإن شئت أن أقول الهند وأسوق الدليل فعلت . فأنت ترى أن المذهب يتسع فى الحضارات القديمة لكل رأى يحتمل به صاحبه إن شاء . واليونان من الأمم القديمة ذاتِ الحضارات القديمة ، وإنما نفَعَها وجعَلَها مثابة لبحثِ كلِّ باحثٍ يريدُ أن يردَّ إليها مذهبًا من المذاهب ، بقاءُ كثير من آثارها . ثم قيام أوربا الحديثة بإحياء ما طَمّ عليه الزمن من مدنيتها ، وأخفى أمر الحضارات الأخرى ضياع أكثر آثارها أو بقاؤها فى قبر من الإهمال والنسيان ، وهمود النشاط فى البلاد الشرقية التى هى أحق بإحياء آثارها . هذا قليل من كثير يمكن أن يقال فى مثل هذا الأمر من أمور التاريخ القديم .

وبعد هذه المقدمة ، ساق الدكتور طه حديثه ببراعته التى لا يستعصى عليها غامض ولا بعيد ولا متشامخ . وأنا وإن كنت أظن أن الدكتور طه لم يوفق فى كلمته كل التوفيق ولم يمس أغراضها إلا مسًّا رفيقًا غامضًا بعيدًا ، فإنى أعترف بأنه قد استطاع بحسن تحدُّره فى المعانى أن يثير من الآراء ما يجبُ أن يُثَار فى أفكار هذا الجيل ، حتى يمكن بعد ذلك أن نستصلح من أمورنا ما أفسده طغيان الجهل واستبداد الحاكمين ، وتوالى المصائب المرهقة على شعب نائم لا يستطيع أن يدفع عن نفسه أسبابها ، ولا أن يذُودَ الوحوش الضارية التى فَرَضَتْ عليه بالاستعباد أقسى ما يمكن أن تبتدعه من ضروب الفتك والعدوان .

الدولة والثقافة

فأهم ما تناوله الدكتور فى حديثه هذا هو بيانُ موقف الحكومة من الأمة التى رضيتها أن تقبضَ على زمام الأمر فيها تصرفه بما ينفع الناس ويزيدهم قوة على قوتهم . فالأمم كلها قد أسلمت إلى حكوماتها أمر القيام على الثقافة والتعليم ، وأعطتها من حُرِّ مالها ما تستطيع أن تنشىء به نظامًا كاملًا للتعليم يكون فيه رضى

الشعب وحياطته وتوفير أسباب النهوض العقلى له ، وحماية أفراده من أمراض الجهل وأوبئته التى تهد قوى الشعوب وتفتك بالعقول التى خلقها الله لتعمل فى تدبير الحياة الإنسانية للوصول بها إلى الكمال الممكن على هذه الأرض .

وإذا كانت الحكومة - أو الحكومات - تأخذ من الشعب الأموال المتوافرة الكثيرة بالضرائب التى تفرضها عليه فى كثير من مرافق حياته كتجارته وزراعته ، لتتخذ هذه الأموال فى تدبير الجيش وإعداده وتسليحه وتقويته ليدفع عن الأمة شر المطامع الأجنبية التى لا تلبث أن تغزو البلاد إذا وجدت منه ثغرًا مُضاعًا تنفذ إليه منه ، فمن العبث أن تهمل شأن الفرد الذى يقوم به معنى الجيش ، والذى هو المدد الأول للجيش بروحه وعقيدته وفكره وقوته . فالجيش الذى يتكون ويتجمع من شعب جاهل معذب بالجهل محطم بالضعف العقلى والخلقى ، لا يمكن أن يكون جيشًا مؤتمنًا على ثغور البلاد يحميها من غوائل الحروب .

الأغنياء والفقراء

وإذا كانت الحكومات جميعًا لا تفرّقُ فى إمداد الجيش بين طبقات الشعب كلها ناظرة إلى الغنى والفقر ، فمن الخطل الذى ليس بعده خطلٌ أن يقوم نظام تعليم هذا الشعب على التفريق بين الغنى والفقير ، فكلاهما قد فرض عليه أن يبذل دمه وماله وقوته وجهده فى الدفاع عن أوطانه التى تحكمها هذه الحكومة ، فمن حقه على الحكومة أن تمده بالأسباب التى يستطيع أن يدافع بها عن هذا الوطن . والأسلحة المختلفة هى بعض أدوات الدفاع ، ولكن الأداة الكبرى فى الدفاع إنما هى الرجل الذى يحمل هذه الأسلحة ، فيجب أن ينصرف أعظم هَمِّها إلى أحياء الرجل فى طبقات الشعب غنيها وفقيرها على السواء بالحرص على إعطاء الشعب غذاءه كاملًا من الألوان المختلفة من الثقافات المتعددة ، كلٌّ على قدر طاقته ورغبته واستعداده ، مكفولًا له الحرية فى الاختيار مع التسديد والحياطة والنصح .

والحكومة حين تنظر إلى قوى الدفاع تفرض الضرائب على نسبة الأموال التى يملكها الشعب غير مفرقة بين الغنى والفقير فى نسبة الضريبة التى تتقاضاها منه

اقتسارًا وفريضة ، فكذلك يشترك الغنى والفقير على السواء فى تحمل واجبات الحرب . فأولى إذن أن يشترك الغنى والفقير معًا فى القيام بأعباء التعليم والثقافة ونشرهما والمساواة فى منحهما للغنى والفقير على المساواة بغير تفريق . وليست تفرق الحكومات على الحقيقة بين الغنى والفقير بقانون موضوع ، وإنما هى تفرق بما هو أعظم خطرًا من القانون الوضعى لأنه قانون الطبيعة وقانون القدر . فالغنى يستطيع أن يدخل أبناءه جميعًا بيوت العلم من الابتدائى إلى العالى مستعينًا على ذلك بماله الذى استخلفه الله عليه ، والفقير لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك فيبقى أبناؤه طعامًا للجهل الضارى وبقايا من فرائس الفقر المتوحش .

ومن العجيب الذى لا يعجب إلا منه أن يكون فى أمة من الأمم رجل تفضى إليه ثلاثة آلاف جنيه فى العام ، وليس له من الولد إلا ثلاثة أو أربعة يتكلف فى تعليمهم ما لا يزيد عن مائة جنيه فى العام كله ، ورجل آخر يكون ما لا يدخل عليه مائتا جنية فى العام وله من الولد مثل الذى للأول فهو يدفع مائة مثل مائته أى نصف دخله ! فما بالك إذن بالذين ينصبّ عليهم من الأموال ما لا يستطيعون التصرف فيه إلا أن يسفكوه على اللذات والمنكرات من النساء والخمر والقمار وحالِقات [١] المال والخُلُق وليس لهم ولدٌ ، ثم يكون فى الأمة آلاف مركومة من الإنسانية إلى ملايين تنسل وتلد وتمد الأمة بأسباب حياتها من الأبناء والبنات ولا يملك أحد مايقوت به نفسه فضلًا عما يقوت به ولده ، فضلًا عما يدفعه لوزارة المعارف أجرًا للتعليم ... ! إذن فواجب الأمة أن تحمل الحكومات على تغيير نظام التعليم ونظام الضرائب ، فتحصل الضرائب من الشعب كله على نسبة رأس المال والدخل ، ليستخدم هذا المال المجموع من الضريبة فى تعليم الشعب كله على المساواة بين غنيه وفقيره ، ويلغى من وزارة المعارف نظام التحصيل ، « تحصيل المصروفات المدرسية من أولياء أمور التلاميذ » ويكون التعليم كله من أوله إلى نهايته مجانًا مبذولًا معرضًا لكل مستطيع وطالب وراغب بغير تفريق .

---

(١) الحالقات : المُفْنِيات ، يقال : وقعتْ فى القوم حالِقة فلم تدع شيئا إلا أهلكته ، ومنه سُمّيت المنيّة : حَلاق .

وأحب أن أقول للدكتور طه ، ولغيره من كتابنا ، إنه حقٌّ عليهم أن يقوموا بالدعوة ، وبالكتابة فى مثل هذا الغرض النبيل الذى ينفع الناس ويرفع عن أعناقهم نِير العبودية التى يفرضها الجهل مرة والفقر مرات كثيرة . فإن كلمة الدكتور طه التى ألقاها ، إنما سمعها عدد من الناس - أكبر الظن فيهم أنهم قد طرحوا عبء التفكير فيها حين خرجوا من باب « قاعة يورت التذكارية » ، كما تطرح الأعباء المثقلة . وليس شيء يحمل الحكومة على الجادة وعلى سواء السبيل كالصحافة وكتابها إذا أخلصت وتطهرت من الغرض والهوى والحقد والبغى والعدوان ... فهل يمكن أن يكون هذا فى مصر ؟

فإن تسألينا : كيف نحن ؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المسخَّر

عناصر الثقافة المصرية

وقد حددالدكتور طه ألوان الغذاء الروحى والعقلى الذى يجب أن يقدم للشباب ، فجعله مركبًا من ثلاثة عناصر : العنصر المتحدرُ من تاريخ مصر القديم - الفرعونى - وهو الفن ، والعنصر المتغلغل فى مصر الإسلامية ، وهو الدين والأدب والفن العربى الإسلامى ، والعنصر المتلبس بحياتنا الحاضرة منذ اتصلنا بغيرنا من الأمم التى نتعاون معها أو ننافسها ، وهو العنصر الأوربى الجديد ، وسترى بعد ما هو عند الدكتور طه .

أما العنصر الأول ، وهو الفن الفرعونى القديم ، فأنا أدعه للكلمة الآتية ، فإن اللَّبس كثير فيه ، وقد زلّ على مزالقه أكثر أصحابنا ممن فُتنوا به عن صواب الرأى . وأنا أحب أن أتناوله بالبيان الذى يدفع عن مصر شرًّا كثيرًا ويحقق لها ما نتمناه جميعًا من الخير .

وأما العنصر الإسلامى من الدين والأدب والفن ، فقد أجاد الدكتور طه فى الدعوة إلى العناية به لأنه أصل المدنية ، ومن جَهِل فى بلاد مصر - أو بلاد العربية على اختلافها - تاريخ الإسلام فقد حطّ فى مَهوًى ينقطع به حبله الذى يصله إلى قومه وإلى حضارته وإلى مستقبل هذه الحضارة التى سوف تنبعث بنورها مرة ثانية فى جنبات الشرق فيما أرى . ولكن الدكتور طه بعد أن تكلم عن الاجتماع العربى

أو الإسلامى الذى عاشت عليه الأمة المصرية هذه الأجيال ولم تجد به بأسًا - كما يقول - عاد فاستدرك عليه بقوله : « بشرط أن يتابع تطور المدنية الحديثة » . فأنا والدكتور طه وكل عربى قد درب بالحضارة وجرَّبها يعرف أن البناء الاجتماعى هو أصل المدنية ، وأن الاجتماع إذا صلح استطاعت كل القوى أن تعمل فى بناء الحضارة بعقائدها وآرائها وإيمانها وفلسفتها ، فإذا أردنا أن نجعل النظام الاجتماعى الإسلامى فى العمل والتشريع والسياسة هو النظام فمن الخطأ الذاهب فى الفساد أن نخضعه لتطور مدنية أخرى قد بُنى اجتماعها على المسيحية فى التشريع والسياسة والأخلاق . فمصر والشرق الإسلامى إذا أراد أن ينهض فلابد له - كما قال الدكتور طه - أن يستمد نهضته من أصول الاجتماع الذى يربطه به التاريخ والدم والوطن واللسان والدين والوراثة ، وإذا ساير فإنما يساير فى فكرة مطلقة وهى « النهضة والحضارة والمدنية الإنسانية » على الطريق الذى يوافق طبيعة هذا الاجتماع . أما المدنية الحديثة فقد بنيت على غير ذلك وقد تطورت على أصوله ، وليس بعد خطبة الملك جورج ملك الإنجليز ما يدع موضعًا للشك ، فقد خطب الملك يوم ٢٥ ديسمبر سنة١٩٣٩ فى الاحتفال بعيد ميلاد المسيح - صلوات الله عليه - فذكر الاتحاد الإنجليزى الفرنسى للحرب ضد ألمانيا النازية فكان مما جاء فى خطبته (ترجمة الأهرام) : « إنى أومن من أعماق قلبى بأن القضية التى تربط شعوبى معًا ، وتربطنا بحلفائنا المخلصين الأمجاد هى (قضية المدنية المسيحية) . وليس ثمة قاعدة أخرى يمكن أن تبنى عليها مدنية صحيحة » .

ونحن ننظر إلى المدنية الأوربية هذا النظر ، وكلام الملك جورج هو من أدق التصوير لحقيقة الحضارة الأوربية فى نظر كل باحث نصرانى أو يهودى أو مسلم . فإذا أردنا أن نتابع تطوّر هذا الضرب من المدنية بتبديل اجتماعنا - الذى دعا إليه الدكتور طه فى حديثه - ليطابقه ، فكأنما ندعو إلى « تنصير الإسلام » . وما أظن الدكتور طه يرضى أن نصير هذا المصير !

والعجيب بعد ذلك أن يذكر الدكتور طه العنصر الثالث وهو الحضارة

الحديثة الأوربية ، فلا يدعو إلى الأخذ بشيء مما فيها دعوة صريحة إلا فى الذى يتصل بالخلق ليكون عندنا الرجل الصريح الذى يتحرى ألا يكذب نفسه قبل اجتنابه الكذب على الناس ، والرجل الذى يستطيع أن يقول : « لا » أو « نعم » حين يريد أن يقولها ، لا حين يكره عليها !!

ألا إن أخلاق المدنية الأوربية قد استعلنت جميعها فى هذا البغى المتفجر فى الحرب التى لا يعلم خَبْأها إلا عالم الغيب والشهادة ، وإن أردنا أن نأخذ – أى أن نقلد – فلنأخذ من تاريخنا ، من ديننا ، من أخلاق رجالنا .. من الذين استطاع أحدهم أن ينكر على عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، ويقول له : « اتق الله ياعمر » ، فيقوم رجل يستأذن عمر فى أن يأمره فيه بأمره ، فينهاه عمر ويقول : « دعه ، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم » . فالرجولة هنا ليست أن يقول الرجل ، ولكن أن يتقبل صاحب السلطان هذا القول بالخضوع والرضا ، فهل فينا من يقبلها يادكتور طه ... أو فى النفاق الأوربى المتلبس بالرجولة طبقًا للمنافع فى أكثر أمره إلا مَنْ عصم الله ... ؟ لا أدرى .

الفـــن

كنت أرجأتُ الحديث عن « الفنّ الفرعونى » الذى أراد الدكتور طه حسين أن يجعله أحد العناصر فى « الغذاء الروحى والعقلى للشباب » فى عصرنا هذا ، وهو رأْى متداولٌ قد دعا إليه فلان وفلان ممن استطارتهم العصبية فعصفت أعاصيرها بعماد الرأى وحسن البصر وكمال التقدير لما ينبغى أن نقيم عليه حضارتنا المصرية الإسلامية . والعصبية هى دليل الضعف ، وهى الآفةُ التى تتخون الرأى ، وهى الهدْم الذى يأتى بنيانَ العقل والعاطفة منْ القواعد حتى يدمّره تدميرًا . وسنوجز القول ما استطعنا ، فإن الإفاضة والشرح والبيان مما لا يتسع لها هذا الباب .

فالفنان هو القلب النابض الذى يُفضى إليه الدمُ الحى الذى تعيش به حضارة أُمته فى عصره ، وهو الفكر القلق النافذ المتلقف الذى ينقد الحياة الاجتماعية فى عصره يألفها أو يُنكرها ، وهو العبقرية الماردِة التى لا تخضع إلا لناموس الحياة الأعظم . والفنان بطبيعته الإنسانية فكرة معبرة عن حقيقة الاجتماع الإنسانى الذى يعيش عليه ، وعن طبيعة الأرض التى يمشى فيها ، والسماءِ التى يَستظلُّ بها ، وكل أولئك ينشىء للفنان أفكارًا وأَخيلة وأحلامًا تستمد غذاءَها من ينبوعها الذى يتفجر بين يديه ولعينيه وفى قلبه .

ونحن لو تتبعنا الآثار الفنية وتاريخها فى كل أجيال الناس من الهند والصين والعرب والترك والروم ، وكل الأمم القديمة ، وسائر الأمم الحديثة لم نخطئ أَثر الحياة الاجتماعية فى الأثر الفنى ، ولا أثر الطبيعة الجغرافية فى جوّه الفنى . ونعنى بالحياة الاجتماعية كل ماتقوم عليه من الدين وعقائده وشرائعه ، وما يتميز به العصر من الأخلاق والعادات والوراثات والأساطير الشعبية التى انحدرت إليه من القدم ، ثم سائر أسباب الحضارة المعاصرة بكل مادتها وألوانها وحقائقها وأباطيلها . وأما الطبيعة الجغرافية ، فهى صورة الأرض بنباتها وأنهارها وفدافدها [1]

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٥) ، ١٩٤٠ ، ص : ٢٥٩ - ٢٦٢

(١) الفدافد : جمع فَدْفد ، وهى الصحراء لا شىء بها .

وحيوانها وغابها وما إلى ذلك ، وجو السماء بصفائه والتماعه وشمسه وقمره ونجومه وسحابه وثلوجه وصيفه وشتائه وربيعه ، وغير ذلك مما يولّد فى نفس الفنان ألوانًا من أخيلة الفن التى يريد تحقيقها أو تمثيلها أو إبداعها ، والأثر الفنى لا يمكن أن يكون خاليًا من تأثير هذين العنصرين المميزين .

فالفن – ولا شك – نتيجة من نتائج الاجتماع الإنسانى والطبيعة التى تحتضنه فهو يتأثر بها تأثرًا بينًا ، لمكان الإحساس المرهف البليغ من الفنان القدير المتمكن . فأعظم الآثار الفنية التى يعدها الجيل الأوربى – مثلًا – فى طليعة العبقرية الفنية ، هى الآثار العظيمة الخالدة ، التى نشأت وربت وترعرت وامتدت تحت ظلال الكنيسة والعقائد المسيحية ، التى عاش فى مدنيتها الفنانون الذين أبدعوها ، وتأنقوا فيها وبالغوا فى إتقانها ، ونحن لا نحتاج هنا إلى أن نضرب المثل بفلان وفلان من الفنانين الإيطاليين والفرنسيين وغيرهم ، ولا أن نعدِّد آثارهم التى بقيت إلى اليوم أصلًا للفن الأوربى الحديث . وهذه الآثار كما يشاهدها المشاهدون تختلف باختلاف الطبيعة الجغرافية التى هى سببٌ ثان فى إنتاج الفنان . فكذلك الفنون الصينية والهندية تتميز بالاجتماع الوثنى الذى يعيش فيه الفنان الصينى أو الهندى ، وبطبيعة البلاد الهندية والصينية . ونحن لا نشك أن عظم الفنون والآثار عامة قد كان نتيجةً لازمة للعقيدة الدينية – وثنية كانت أو إلٰهية – وللطبيعة الجغرافية التى تمد عليها من ظلالها ، وأن الدين والعقيدة هما عماد الاجتماع وأصله وأعظم مؤثر فى توجيه أغراضه وحياطتها وتدبيرها وتوليدها ، فهما إذن أصل قائم فى الحضارة التى تدين بهما مهما تطورت بعد ذلك وخرجت عليهما فأهملتهما . وذلك لأن الشعوب تحتفظ من الأديان بخصائص كثيرة لا يمكن أن تؤثر فيها تطوراتُ الحضارة المدنية الخاضعة للعلم والسياسة وما إليهما .

الفن الفرعونى

فالفن الفرعونى – بغير شك – ليس إلا نتاجًا مركبًا من الوثنية المصرية الفرعونية والطبيعة المصرية الرائعة القوية ، وأثرها بيِّن فى هذه الأبنية الضخمة

بتماثيلها الغريبة المتقنة المختلفة الدلالات على المعانى الدينية المصرية القديمة ، وعلى الأصول الاجتماعية الخاضعة للوثنية الفرعونية التى كان يعيش عليها الشعب المصرى القديم . فهذه الديانة القديمة الجاهلية التى عبدت أوثانها وتقدست بعقائدها الباطلة ، وخضعت لأساطيرها الرهيبة المخيفة ، واستمدت تهاويلها من الإيمان بجَبْرِيَّة هذه الأوثان والقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح وكذا وكذا من الأوهام الغالية ، هى التى أنتجت هذا الفنَّ المصرى القديم بمعابده وتماثيله وكتابته الهرغليفية المعبِّرة أدقَّ تعبير عن حقيقة المدد الفنى للآثار المصرية الفرعونية .

والفنَّان الفرعونىّ لم يستطع أن ينشىء هذه الآثار الهائلة الغريبة التى بقيت هذه القرونَ الطوال تتحدى الزمانَ المُتطاوِل عليها ، ولم يمنحها هذا الجبروتَ الهائل والاستبداد الطاغى إلا بالقوة التى أنشأتها ودبرتها له عقائدُه الوثنية الرهيبة ، وإيمانُ المجتمع المصرى بها إيمانًا خاضعًا مُتعقبًا أيضًا ، وأعانتها الطبيعة الجغرافية المصرية العظيمة بشمسها وقمرها وصيفها وشتائها ، وصحرائها التى تحفُّ بالنيل العنيف المتدفق بسلطانٍ طاغٍ كسلطان الفراعنة الملوك . كل أولئك أثار الفنانَ وأمد إحساسه المرهف بالمادة التى استطاع أن يصوغ فيها فنه الوثنى العبقرى .

وعلى ذلك فيجب أن نقرر أن الفن المصرى الفرعونى – على دقته وروعته وجبروته – إن هو إلا فنٌّ وثَنِىٌّ جاهلىٌّ قائمٌ على التهاويل والأساطير والخرافات التى تمحقُ العقل الإنسانىّ ، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرة أخرى فى أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية – سواء أكان هذا الدين يهوديًّا أم نصرانيًّا أم إسلاميًّا أم غير ذلك من أشباه الأديان .

تمثال نهضة مصر

وهذا « تمثال نهضة مصر » القائم فى « ميدان المحطة » ، والذى أقامه المَثَّال القدير « مختار » ، أنا أراه فلا أرى فيه إلا تقليدًا فاسدًا لآثار حضارة قد دثرت وبادت ولا يمكن أن تعود فى أرض مصر مرة أخرى بوثنيتها وأباطيلها وأساطيرها

وخرافاتها . نعم ، هو تقليد رائع يدل على قدرة الفنان الذى نحته ، ولكنه لا معنى له الآن فى مصر الإسلامية . هل يستطيع الفنان الذى نحته وأقامه أن يعيد فى مصر تاريخ الوثنية الجاهلية ، واجتماع الحضارة الفرعونية ، وما يحيط بذلك من الأبنية الضخمة التى شادها أوائله ، والتى كانت وحيًا للفنان الفرعونى الذى عبد الشمس وخضع لفرعون وأقر له معانى الربوبية ، وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية والوثنية الضخمة الهائلة المخيفة التى قذفها فى قلبه أبالسة عصره من الجبارين والطغاة ؟ وهل يستطيع أن يجعل فى أرض مصر شعبًا وثنيًا مُتَعَبِّدًا للفراعنة والجبابرة بالخوف والرهبة والرعب حتى يتأثر بمعنى هذا الضرب من الفن المصرى القديم ؟ ولكن أفى مصر الآن من الشعب من يستطيع أن يجد له معنًى أو تأثيرًا أو اهتزازًا إلا من القدم أو أخيلة القدم ؟ كلا ... كلا .

لقد ذهب كل هذا ، لقد دثر ، لقد باد . إن الأصول الفنية التى يكون بها الفن فنًّا قلما تتغير ، وهى ممكنة دانية فى كل الآثار على اختلاف أنواعها وبلادها وأراضيها وأديانها ، ولكن روح الفن هى دين المجتمع وعقائده وطبيعة أرضه وسائرُ أسباب حضارته ، وهى التى تمنح الفنان القوة والقدرة على الإبداع ، وهى التى ترفع فنه أوتضعه .

وإذن فدعوة الدكتور طه إلى الاستمداد من الفن الفرعونى - كما استمد « مختار » ، ثم دعوته إلى جعل اجتماعنا اجتماعًا إسلاميا ، ثم استمدادِنا أيضًا من الفن الإسلامى - تناقضٌ عجيب فى أصل الرأى ، لا يمكن أن يكون ولا أن يُعمل به إلا إذا شئنا أن نوجِدَ لمصر حضارةً مقلّدة ضعيفة ملفَّقة من أشياء ليست نتيجة ولا شبه نتيجة للاجتماع المصرى الإسلامى الحديث الذى ندعو إليه ويدعو إليه الدكتور طه حسين !!

وبشر أيضًا !!

يقول بشار بن برد لخَلَف بن أبى عمرو فى حديث جرى بينهما معابثة ومزاحًا :

أرْفق بعمرو إذا حركتَ نسبته   فـإنـه عـربـىٌّ مـن قـواريـرِ

وصديقى « بشر » قارورة عطر نشوان من نفحات روحه ، قارورةٌ عربيةٌ معربدةٌ تختال بطيبها تيّاهةً من الخفة والطرب . وأنا أرفق به ولكنه يأبى - كرمًا منه - إلا أن يتحطم فى يدى ليسكب طيبَه عليها فيعبَقُ بها ، ويبقى أبدًا يتضوع منها نسيما يسكر ، ويَعْلَق بهذا القلم من عِطْره أثرٌ خالد كرائحة الحبيبة فى ذكرى المحب ، و« للرسالة » بعد ذلك من شذاه ما يفور وما يتوهج وما يسطع من نضخ عبيره .

وبشر - هذا الإنسان الرقيق - يتجهم لى ويملأ علىّ « بريد الرسالة » زلزلة ورعدًا وبرقًا وصواعق ... ويبصرنى بفروق اللغة بين « وَضَع بحرًا » و« اخترعه » !! وأنا بلا شك لا أستطيع أن أشغل نفسى بتبصيره بمنطق اللسان العربى . ثم لا يكتفى بهذا بل هو يغلو فى تقديرى فيعدنى من « الخَلْق » الذى يقف على معانى الألفاظ العربية من « الإكباب على قراءة الصحف اليومية » !! كلا ، بل يجوز ذلك فيعلِّمنى مجاز العربية وحقائق بيانها ودقائق ألفاظها !! أوَّه ، بل هو يعرِّفنى بالقرآن لأنى « من عامة الناس فى هذا الزمان » ممن يفهمون القرآن - كلام الله - بما يغلب عليهم من عامية العصر !! ولا يكون كل ما يكتبه « بشر » من علمه هذا « إلا على جهة التسلى والتلهى » ! بلى ، فهو يرحمنى ويشفق على أن يدخل بى فى المقاييس العربية الدقيقة الغامـــــضة التى تستهلك قوةَ العقل والإدراك ، فهو يأخذنى من قريب !! وأنا قد أخطأتُ وأسأتُ وأثمتُ وحَبِط عملى ، ومَحَقنى اندفاعى إلى شعر بشر « أتلمس » - هكذا قال بشر - أتلمس له الخطأ !!

ولا كلّ هذا أيها العـــزيز ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ، وأنا يابشر لا أطاولك فى علم ولا فقه ولا بيان ولا معرفة ، فأنت أنت ، وأنا حيث أنا من العجز والبلادة ، ورحم الله امرءًا عرف قَدْر نفسه .

ومن جَهِلتْ نَفْسُه قدرَهُ　　　رَأى غيرُه منه ما لا يَرَى

وأنا يا صديقى أقل شأنًا وأضعف من أن أجرى فى عنانك ، ولكنك - إذ كتبت ورددت وأعطيتنى فوق ما أستحق فى نفسى - تحملنى على المركب

الصعب ، فكان أولى بك أن تهملنى ، فأما إذ أبيت فلا بأس عليك إذا أنا أقحمت نفسى معك ، فاصبر على هذا البلاء « فالحرُّ يظلم أحيانًا فيَظَّلم » .

وقد زعموا - أيها العزيز - أنه كان رجل عِبَادِىٌّ بالحيرة البيضاء ، فلاقى ضحضاحًا من الماء لابد له أن يجوزه ويخوض فيه ، فاستعان الله وأقبل على الماء - وهو إلى الكعبين حسبُ - فلما دخله صاح : « الغريقَ ، الغريق ! » يستنجد أصحابه ، فتناولوه يسألونه : ما دعاك إلى هذا وليس غرقٌ ؟ فقال : « أردت أن آخذ بالحزم » .

وأنت - أيها الصديق - تأخذ بهذا الحزم ، فتهرول إلى « لسان العرب » ، و« أساس البلاغة » و« الألفاظ الكتابية » تحشد لى ماجاء فيها من مادة العربية فى قولهم « زلزل » ولا تكتفى بهذا بل تسعى إلى « الأغانى » (طبعة بولاق !) تقلب أوراقه ، تستخرج تراجم المغنين وأصحاب الملاهى كإسماعيل بن جامع وإبراهيم ابن ميمون الموصلى - وغيرهما فى دواوين العربية وأصولها - فتفلِّى ألفاظها وتجرى عينيك وراء إصبعك على حروف الكلمات عساك تقع على جملة يكون فيها « زلزل » وما يخرج منها وما يتداعى إليها ، ولا تكتفى أيضًا فتتناول من بين كتبك أحد فهارس القرآن الكريم - « وهو الحجة العليا فى مثل هذه المشكلات » - كما قلت وإن لم تقل - فتجد اللفظ فى آيات بينات منه . فتجمع ذلك كله فى مقالك - أو ردِّك علىَّ - حشدًا بارعًا عظيما تُضاهى به عمل « المستشرقين » الثقات الأثبات المتضلّعين المتقنين المجيدين ! الذين لا يدعون للحرف مكانًا إلا نبشوه وتقصوه ورموا بعضه فوق بعض « أخذًا بحزم العبادى ... » الذى عَرَفْت . وهو أسلوب فاسد عندنا لا يعول عليه فى الحجة ، وإنما هو أسلوب ضرورى حسن حين يراد منه المقارنة والتدبر لاستخراج المعانى من الألفاظ وبيان سرها من الحقيقة والمجاز ودقة التصوير للأغراض التى نصبت لها هذه الألفاظ .

والنصوص التى جمعتها وحشدتها ورتبتها تختلف فى حقائقها ومجازها فى العربية ، وأنت لم تشرح حرفًا واحدًا منها تبين عن وجه مجازه على العبارة التى وقع عليها ، ولو كنت فعلت ذلك أو أحسنته لطويت كل الذى نشرته علىّ وعلى

القراء ... تعلمنى به ماغاب عنى من « القرآن وهو فى صدرى ، والتفسير والحديث واللغة وهى شواغلى » – كما تقول – وأنا لا أضن عليك ، أيها الصديق ، بما يجعل لحشدك هذا – الذى رُعْتنا به حين قذفته علينا – قِرانًا ونظامًا يسلك فيه ويمضى عليه ، ويَعرف به من لايعرف سرّ البيان وكيف يكون مجازه على طريق اللسان العربى المبين !!

فأصل الحرف « زلزل » من « زلّ الشىء إذا زلق فتحرك فتدأدأ ، فمر مرًّا سريعًا فى ذهابه عن مستقره » . فلما ضعَّفت العرب الحرف ، فقالوا : « زلزل وتزلزل » ، ضاعفوا معنى هذه الحركة ، فكان معناها الحركة الشديدة العظيمة والاضطراب والتزعزع ، وتكرار هذه الحركة مرة بعد مرة ، حتى كأن بعض الشىء يَزِلُّ عن مكانه ، فينقضّ على بعض ويتساقط ويتقوض . وإذن ، فشرط مجاز هذا الحرف أن يكون لشىء يتحرك حركة عظيمة شديدة ، فالرجل يتزلزل ، والأقدام والأيدى والرؤوس والقلوب وما إليها من أعضاء الإنسان المتحركة حركة ما ، وكذلك الحيوان كالإبل جاء راعيها بها « يزلزلها » أى يسوقها سَوقًا عنيفًا كأنها تزلّ معه مرة بعد مرة ، والمكيل فى مكياله كالبُرّ والشعير ، كلٌّ يتزلزل لأنه يحرك فيتحرك ، والدار والأرض والدنيا كلها تتزلزل لأنها تتحرك أو يجوز عليها الحركة فيتهدم بعضها على بعض ، والنفس كذلك لأنها تضطرب فى حيزوم المحتضر اضطرابًا شديدًا يتجلى فى الكرب الذى يلحقه والضيق الذى يأخذه ، فينتزع الأنفاس ، ويضطرب القلب بالنبض الشديد ، ويزيغ البصر ، وتتحرك اليد والرجل فى الحشرجة حركة كثيرة شديدة بتردُّد النفس فى نزاع الموت والحياة . ومع ذلك فأنا أدع أشياء كثيرة لا أتناولك منها أيها الصديق .

أما الأُذن ... فالإنسان من بين جميع الحيوان هو الذى لا يحرك أذنيه البتة ، لا فى طرب ولا غضب ، فما بالك وهى ليست مجرد حركة ، وإنما هى حركة شديدةٌ مهدِّمة لأنها زلزلة . فإذا علمت ذلك وتلقَّيته وتدبرته وأحكمته ولم يأخذك العناد عليه عرفت أنه لا يمكن أن تقول « أُذنى زلزلت » لأن الزلزلة تتطلب أصلها المقرر وهو الحركة والانتقال والزّلةُ بعد الزّلّة من مكان إلى مكان ولو على وجه

المبالغة . فدع أذنك من آذان خلق الله الذين صورّهم فأحسن صورهم إن شئت . وأنا لا أصنع فى كلامك هذا تعبًا فأتلمس لك الخطأ كما تزعم ، ولكن انظر يابشر كيف يتكلم الشعراء عن الآذان وعن الزلزلة ؛ يقول بشار فى مغنية :

لعمرُ أَبى زُوَّارِها الصِّيدِ ، إنهم — لفى مَنظر منها وحسنِ متاعِ
« تُصلّى لها آذانُنا » وعُيوننا — إذا ما التقينا والقلوبُ دَوَاعِ
إذا قَلّدَت أطرافَها العودَ « زَلْزَلَتْ — قلوبًا » دَعَاها للوساوِس دَاعِ
يَروحون من تغريدها وحديثها — نَشاوَى ، وما تسقيهم بصُواعِ
لَعوبٌ بألباب الرجال وإن دنت — أطيعَ التُّقى والغيُّ غير مُطاعِ

فانظر صلاة الآذان بالخشوع والإنصات والسجود للصوت ، وتأمل زلزلة أوتار العود التى تزلزل القلب بوقعها وتوقيعها . وكيف أتم المعنى بذكر الوساوس وهى قلق واضطراب ... وأما أنت أيها العزيز .

فلا تذهبْ بحلْمِك طامياتٌ — من الخُيلاءِ ليس لهن بابُ
فإنك سوف تَحْلُمُ أو تَناهَى — إذا ما شبتَ أو شاب الغرابُ

* * *

الهجـــــرة

يانبيَّ الله !!

إنّ الإسلامَ قد قَعَدَ به أَهْلُه ، والزَّمنُ بالناسِ يعدُو ، والحياةُ فى العالم فكْرٌ يتحقَّق ، وهى عندنا حُلُمٌ يَتبدَّد ، هذه أُمَّتُك تملأُ الأرْض ، ولكن قد فرغت قلوبها من الإيمان ، والإيمانُ فى دِينك قولٌ وعملٌ ، كانت به المعجزةُ الإسلامية ولكنه عندنا قولٌ وجدَلٌ ، تكون به الفُرقةُ الجاهليّة ...

فاللهمَّ هِجْرةً كهـــجرَةِ نبيِّكَ بالعزمِ والإيمان
اللهمَّ جهادًا كجهادِهِ يُجدِّد القلوبَ والأوطان

الشباب والأدب

الطفل حياةٌ صغيرة غضَّةٌ ليّنةٌ تقبلُ التشكل وتطاوِعُ على ضغط البيئة التى تكتنفها وتُطيفُ بها وتميل عليها ، وبيئةُ الطفل هى أخلاق أبويه ، ومعاملتهما وحديثهما وما يحيط بهما من الأقارب والأصحاب والخدم وكل من يعود البيت من زوّاره . وقد حُمِّل الإنسان طبيعة التشكل من أَوَّل عمره ليكونَ بعدُ إنسانًا اجتماعيًّا مقتدرًا على التصرُّف فى نظام الجماعة بما لا يخرجه من جوّها ويقذفه وراءَ حدودها التى ضربتها عليها الأحوال الاجتماعية التى يتميز بها الجيل من الناس الذين يعاشرهم . وتتصل بهذه الطبيعة من قريبٍ طبيعة أخرى هى التقليد ، ليسوغَ له أن يَثْقف الحياةَ ويتلقَّفَ أسبابَها وطرائقها وأساليبها فى مدًى قصير ، فلا ينقطع دون إدراك الطلائع الإنسانية السابقة التى بدَرت أمامَه فى الحياة ومارستها وعملت لها وجددت فيها بعضَ ما يمكن تجديده فى نظامِ الجماعات . ولا يزال الإنسان – من أول عمره – خاضعًا خضوعًا تامًّا لهاتين الطبيعتين ولقانونهما المستبدّ ، حتى يأتى عليه زمان يستطيع أن يتحرر فى بعض نواحيه بالخضوع فى بعض النواحى للتشكل والتقليد فى زحمة الجماعات وضغطها لقانون آخر هو

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٦) ، ١٩٤٠ ، ص : ٣٠٠ – ٣٠٢

قانون الاستقلال الفكرى والعملى الذى تقوم عليه رجولة الإنسان وقوته ، ولكنه مع ذلك يبقى أبدًا متلبسًا بأسباب القوانين الأولى التى تخضعه وتأثيرها . فهو إذن لا يبلغ مرتبة الاستقلال إلا بعد أن يكون قد قبل من الأَشكال - بالضعف والتقليد - ما لا يستطيع أن ينفك منه أو أن يتفصَّى [١] من قيوده التى تحبسه على ضروراتها ...

فمن هنا يَبين مقدار الخطر الذى تنذر به هذه الفترة الأولى من حياة الإنسان ، ونحن لا نستطيع أن نحدد عمر هذه الفترة ، ولكنها تستمرُّ على الأقل إلى نهاية رَوْقِ الشباب ما بين العشرين والثلاثين ، بل ربما جاوزت إلى نهاية العمر إذا ما انتكست الحياةُ فى الحىّ وصار إلى حيوانية آكلة شاربة غير مفكرة !

فالشاب حين يخرج إلى الحياة العقلية والفكرية تستهويه أسماءُ المفكرين من الكتاب والشعراء والفلاسفة فتستهيمه وتذهب بهواه وعقله إلى الأخذ عنهم والاقتداء بهم والسير على مناهجهم ، ولا يزال كذلك فى تحصيل وجمع وتأثر واتباع حتى يتكوَّن له قِوَامٌ عقلىٌّ يجرّئه على الاستقلال بفكره ورأيه ومذهبه . فالقدرة والأسوة هى مادة الشباب التى يتم بها تكوينه العقلىّ على امتداد الزمن وكثرة التحصيل وطول الدُّرْبَةِ ، فإذا كان ذلك كذلك فالكتَّاب والشعراء والفلاسفة وأصحاب الرأى وكل من يعرض نتاجه العقلى للشباب ، ويكون عُرضةَ الاقتداءِ والتأسّى والتأثر - يحملون تبعة تكوين العقول الشابة التى ترث علومهم وأفكارهم ثم تستقل بها وبإنتاجها الخاص ، وكذلك يكون هذا الإنتاج الخاصُّ ضاربًا بعرق ونسب إلى الأصل الأول الذى استمد منه واتبعه وتَلَقَّى عنه .

هذا ... ، فتبعة الكتَّاب والأدباء أمانة قد تقلدوها وحملوها ، ثم ارتزقوا منها أيضًا وأكلوا بها وعاشوا فى الدنيا الحاضرة بأسبابها ، فهم على اثنتين : على أمانة قد فرض عليهم أن يؤدوها إلى من يخلفهم من الشباب الذى يتبعهم ويتأثر آدابهم ، وعلى شكر للمعونة التى يقدمها لهم الجيل الشاب الذى يبذل من ماله ليشترى

---

(١) يتفصى : يتخلص من القيود بفصمها .

منهم ما يكتبون وما يؤلفون وما يقدمون للتاريخ من آثارهم ليكسبوا به خلود الاسم وبقاء الذكر .

وشبابنا اليوم قد تهدَّمت عليه الآراء ، وتقسَّمته المدنية الأوربية الطاغية ، وهو لا يجد عصامًا يعصمه من التدهور فى كل هوة تنخسف بين يديه وهو مقبل عليها بشبابه ونشاطه واندفاعه وعنفوان قوته فى الشوط الذى يجريه من أشواط حياته . والمدارس فى بلادنا لا تكاد تعطيه من الرأى أو من الفن أو من الأدب ما يبلُّ أدنى ظمأه إلى شيء من هذه الأشياء ، وإذن فليس يجد أمامه إلا المجلات والصحف والكتب التى يقدمها له أصحاب الشهرة من كتَّابه الذين تُرفَع له أسماؤهم فى كل خاطرة وعند كل نظرة . وهو لا يَنى يستوعب منهم أساليبهم وأفكارهم وآراءهم وما يدعونه إليه من موائدهم .

فهل ينصف هؤلاء الكتاب هذا الشباب ؟ أتراهم قد عرفوا قدر أنفسهم عند الشباب فعبَّأوا له قواهم احتفالًا بشأنه وحرصًا على مصيره الذى هو مصير الأمة ومصير مدنيتها ؟ أنا لا أرى ذلك إلا فى القليل ممن عرفهم الشباب وجعلهم نصب عينه ، واتخذ أساليبهم فتنة يهوى إليها .

ناقد يتكلم

وأنا أدع أحد الكتاب من إخواننا الشآميين يتحدث عن بعض ما نحن بسبيله ، وهو الأخ « قسطنطين زريق » فى كتابه « الوعى القومى » فقد قال فى ص (١٦٢ - ١٦٣) :

« لسنا نعيش اليوم فى عصر ترف عقلى ورفاهية فكرية . فى عصور الترف والرفاهية قد يسمح للكاتب أن يقول : « لى الحق أن أكتب ما أريد وأعبر عما فى نفسى كما أشاء » ... إن عصرنا عصر أزمة فكرية وضيق عقلى . وكما أنه لا يسمح للناس فى زمن الأزمة المالية أن يبذروا أموالهم فى سبيل شهواتهم الخاصة وأمورهم التافهة ، فكذلك يجب ألا يسمح لقادة الفكر فى عصر الضيق العقلى والأزمة الفكرية أن يبددوا قواهم على المسائل الطفيفة والأبحاث الجزئية .

فعلى كل منا عندما يهم بكتابة مقال أن يتساءل بصراحة : « إلى ماذا أرمى ؟ أتراني أُضيف بمقالى فوضى إلى هذه الفوضى الفكرية التى يتخبط فيها عالمى ، وأقذف بعنصر جديد إلى العناصر التى تتطاحن فى محيطى ، فأزيد فى بلبلة أمّتى واضطرابها الفكرى أم أنا أعمل لتوجيه قوى هذه الأمة العقلية نحو فكرة صائبة أو عقيدة واضحة ؟

فإذا لم تكن غايته من هذا النوع الأخير ، فخيرٌ له وللأمة أن تظل كلماته مدفونة فى نفسه ، وأن يبحث له عن طريق آخر يخدم بها أمته ولغته » . ا هـ

إن هذه الكلمات القلائل التى ختم بها الأستاذ زريق بحثه عن الأدب الذى يقود الأمة وشبابها إلى إنقاذ المدنية العربية والإسلامية والشرقية من رَدَغَة الخبال [1] التى تورط أهلها فى أوحالها ومستنقعاتها - حقيقة بأن تكون من « محفوظات » كبار الأدباء الذين يرمون عن أقلامهم آراءَ وعقائد وأساليب لا يمكن أن تكون مما يحتملها مخلص لأمته ، ينظر إلى المستقبل الذى هو ثمرة الماضى والحاضر ، ونتاج اللّقاح الفكرى الذى تتقبله عقول الشباب حين تبدأ تتفتح عن أكمامها لتعمل عملها فى إنتاج الثمار إما غضًّا شهيًّا وإما فجًّا متعفنًا موبوءًا .

هل يمكن ؟

فهل يمكن أن يكون أدباؤنا ممن يتقبل النصح الخالص الذى لا تحمل عليه ضغينة أو رياء أو حيلة ؟ وهل يمكن أن يعرف أحدهم أن ليس فى الدنيا أحد هو أعلى من أن يتعلم ، ولا أحد أقل من أن يُعلم ؟ وهل يمكن أن تفرَغ النفوس التى تتخذها الكبرياء من الروح التّافشة التى لا طائل تحتها ؟

لقد جعلت مقامى فى هذا الباب مقام المذكِّر الذى يحب أن يؤدى واجبه لمن يقرأ كلامه ، فأنا لا أستطيع إلا أن أتكلم بكلامى وإن أغضَب من لا يرضى إلا بما يرضيه من الملق والدهانِ والمماسحة ، وقد انقضت أسابيع طوال من أسابيع الأدب وأنا أزداد كل يوم شكًّا فى مقدرة أدبائنا على الإنتاج الأدبى الرفيع

---

(١) رَدَغَة الخَبَال : جاء فى الحديث : مَن قال فى مؤمن ما ليس فيه حَبَسه الله فى رَدَغَة الخَبَال ، فسَّرها أهل الحديث بأنها عصارة أهل النارِ ، والأصل فى هذا الحرف : الطِّين والوَحْل .

الذى يمكن أن يخلد فى تاريخ الأدب ، وقد تتبعت أقوال هؤلاء وأساليبهم فلم أجد إلا كل ما يحفزنى على المصارحة والنصح وإبداء الرأى مكشوفًا غير مكفَّن .

وأنا لو كنت أحمل نفسى على تتبع هؤلاء واحدًا بعد واحد أنقد أقوالهم على التفصيل دون الجملة ، ثم أقيد ما أريد بالكتابة فى هذا الباب من « الرسالة » لما كفانى القدر الذى أكتبه ولما استطعت أن أستوعب الرأى فى كل ذلك على أسبوع أسبوع ، فلذلك تجنبت جهدى أن أعرض لأشياء كانت تقتضينى أسابيع فى تقصيها وتفصيل أجزائها ، وبيان مكان الفساد منها ، والدلالة على قلة عناية هؤلاء بقرائهم ، وصغر احتفالهم بالأدب الذى اتخذوه لهم صناعة عرفوا بها عند الناس ، حتى صاروا للشباب أئمة بهم يقتدون . نعم ، وكأنهم لا يعرفون أن ما يخرجونه للناس إن هو إلا غذاء جيل من الشبان يأخذ عنهم ويحتذى عليهم ، فإن يكن فى الذى يأتون به فساد فهو إلى إفساد الشباب الجديد أسرع ، وفى طبائعه اللينة أعمل وأوغل ؛ فأيُّما خطأ صغير منهم فهو عدة أخطاء كبار فى الذين يلونهم من الشباب المقلد المسكين .

إن أمثال الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والدكتور زكى مبارك والأستاذ الزيات وفلان وفلان من كبار الأدباء هم من هذه الأمة الشابة من الناس بمنزلة السراج الذى يضئ للشباب معانى الحياة المظلمة بالجهل ، فإذا انقلب السراج فإنما هو الحريق وانتشاره ومعمعته ومضغُه قوة الشباب بفكين من نارٍ حُطَمة .

الرحلتان

ويذكرنى هذا ما يقطع علىّ نهاية الرأى . فقد قرأت أخيرًا مقالتين ، إحداهما للدكتور طه ، والأخرى للأستاذ أحمد أمين ، وهما بهذا العنوان « رحلة » . وقد تعود الأستاذان أن يتقارضا المقالات منذ أسابيع طويلة ، وأكثرا فى ذلك إكثارًا لا يمكن أن يُغْضَى عنه ، وكنتُ أحبُّ ألّا أعرضَ لَهُ لعلّه ينتهى إلى نهايته ، فإذا هو شيء لا ينقطع . فمن يوم أن كتب الأستاذ أحمد أمين ماكتب وسماه « مدرسة الزوجات » وقارضه الدكتور طه « بمدرسة الأزواج » ثم « مدرسة المروءة » ثم

« مدرسة ... » إلى آخر هذه الأشياء ، وافتتنا بهذه الطاحون التى تدور على دقيق مطحون قد فُرِغ منه – من ذلك اليوم وأنا لا أرى فيما يكتبان إلا استسلامًا للقلم وبدواته وبوادره ، واجتلبا فى ذلك من الرأى ما لا يستقرُّ ولا يتماسكُ .

وفى هاتين الرحلتين رأيتُ العجب !! فالدكتور طه مثلًا قد أطال فى تحقير مصر والزراية عليها وعلى أرضها بما احتمله عليه الغضب الذى رغب فى إنشاء مدرسة له يسميها « مدرسة الغضب » . رحل الدكتور طه بالسيارة فى الطريق الزراعية فغاظه التراب الذى يثور من حوله فيطلق لسانه بهذه الأسئلة « لماذا ندفع الضرائب » وفيم تنفق الدولة أموالنا ؟ وماذا تصنع الدولة ؟ ولماذا ننشىء الدولة ؟ » .

فليخبرنا الدكتور طه عن السبيل الذى نتَّقى به الزراية على أرض مصر ! ماذا تصنع الدولة فى طريق عن جانبيه تلك الأرض الخصبة الواسعة التى تُسْقَى لتطعم أهل مصر من خيراتها ؟ كيف تتقى الدولة مرور الناس والدواب وأرجلهم تحمل أوحال الأرض الخصْبَة فتمرُّ بها على الطريق الزراعى الممهَّد ، فتأتى الشمسُ المصرية الملتهبة فتجفف الوحل فيثور ترابًا ؟ إن هذا كلام يقال فى البلاد الباردة التى لا تفعل الشمس فيها ما تفعل فى أرض مصر الغبراء ، هناك فى « قرية من قرى السفوا أو الدوفنييه أو الكانتال ، على قمة جبل من هذه الجبال التى ألف الدكتور طه الاعتصام بها إذا أقبل الصيف ، والتى فارقها فى الصيف وقلبه يتقطع حسرات » أو كما قال ... ! إن مثل هذا يجب أن يلغى من آراء أدبائنا ، إن لم يكن من أجل أنفسهم فمن أجل مَن يتولاهم من الشباب . وليس أكثر آراء الأستاذ أحمد أمين فى هذا المقال بأقل ابتعادًا عن الحق من الذى عرضنا له .

جناية !!

والأستاذ أحمد أمين هو الذى حمل على الأدب العربى ، وحقر الشعر الجاهلى ، ودفع بحجته فى وجوب نبذ هذا الأدب وذلك الشعر الجاهلى لأنه كان جناية على أدبنا . وأنا كنت هممت أن أؤدى واجبى للأدب العربى بإظهار فساد هذه الآراء التى لم تنضج ثمراتها ، ثم رجعت عن ذلك ، رغبة أن يترك مثل

هذا الرأى حتى يفنى فى نفسه ، لعلمى - بالاستنتاج - أن الأستاذ ليس أديبًا ناقدًا ، والناقد أديب مضاعَف ، وقدرته على الأدب أكبر من قدرة الأديب المحض . وقد أحببت أن أقف على كلمة فى مقالة الأستاذ أحمد أمين « رحلة » تدلك على أن رأى الأستاذ فى الأدب العربى والشعر الجاهلى رأى لا يؤخذ به ، فقد قال : « وهاهم أولاء رفقة كأنّ أخلاقهم سكبتْ من الذهب المُصفَّى ، وكأن شمائلهم عصرت من قطر المزن » وهى جملة لا ينطلق بها أديب متمكن البتة ، فما ظنك بأديب ناقد ، وأنا لا أعرف كيف يعصر قطر المزن (أى الماء) ، وهو لا يمكن أن يُعصر . ونحن لانشك فى أن الذنب ليس للأستاذ الجليل ، وإلا فهو ذنب الشيخ اليازجى صاحب « نجعة الرائد ، وشرعة الوارد ، فى المترادف والمتوارد » ... إلخ ، الذى ذكر هاتين العبارتين بنصهما وترتيبهما فى فصل « كرم الأخلاق ولؤمها ص ٧٠ الطبعة الثانية ، وهما من حشد الشيخ الذى لايقوم على أصل من البيان والبلاغة .

أَجَلْ ، إن كثيرًا مما وقع فى كتاب الشيخ اليازجىّ - على جلالته - إنْ هو إلّا مجازات واستعاراتٌ كأخيلِة المحموم مادَّتها من الهذيانِ اللغوىِّ الذى لا يَصِل إلى الحقيقة بأسباب من منطق العقل . والبلاغةُ ليست إلّا حفظ النسبة بين الحقيقة اللغوية والمجاز البيانى ، فكل ما لم يكنْ كذلك من المجاز والاستعارة فهو لَغْوٌ يتشدقُ به من ليس لَهُ طبعٌ أدبىٌّ رفيع . وجهدُ اليازجىّ كان حشدًا من كلامِ العصور المتقدمة فى العربية ، فأخذ من الجيد والردئ على غير نقد أو تمييز .

فكان واجبُ الأستاذ أحمد أمين - الزارى على الشعر الجاهلى وواصمه بالجناية على الأدب العربى - أن ينقُد مثل هذه العبارات الضعيفة المتهالكة التى لا تتصل بسبب إلى البلاغة العربية على اختلاف عصورها لا أن ينقلها إلى كلامه . وإلا فلينظر الأستاذ إلى أثر هذه المجازات فى بيان الشباب الذى يحبُّه ويعجب بأدبه ، ويتلقى كلامه بالإجلال وحب الاقتداء .

* * *

الشـــعر والشـــعراء

أخشى أن يكون أهمَّ أركان الشعر إحساسُ الشاعر بمعانيه إحساسًا كاملًا نافذًا متغلغلًا ، لا يدعُ للمنطق العقلى المجرّدِ عملًا فى تكوين شعوره . وليس معنى ذلك أن يَتَعرَّى الشعر من المنطق العقلى المجرد ، بل معناه أن ينقلب المنطق العقلى - بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته - حاسةً دقيقة مدبِّرة تعمل فى حياطة الإحساس والقيام عليه وتصريفه فى وجوهه على هُدًى لا يضل معه ، فلا يشرُد عن الغرض الذى يرمى إليه فى التعبير عن الصور التى تنشأ لهذا الإحساس . وإذن فأكبَرُ عمل المنطق العقلى فى الشاعر أن يُمِدَّ الإحساسَ ، بما ليسَ لَهُ من الاستواءِ والاستقامةِ والسدَاد ، وكذلك تتداعَى إليه الألفاظُ التى يريدُ التعبير بها مقترنًا بعضها إلى بعض ، بحيث لا تخرج هذه الألفاظ فى الكلام حائرة قلقة ، تجول فى عبارتها من انقطاع الرباط الذى يربطها بالمعانى التى أحسها الشاعر ، فهاجتْه فغلبته فأراد التعبير عنها تعبيرًا صافيًا مهتزًّا متغلغلًا قويًّا ، فيه صفاءُ الإحساس ، واهتزازه وتغلغله وقوته .

وأداة المنطق العقلى هى اللغة ، والعقل بغير اللغة لا يستطيع أن يستوى ويتسلسل ويتصل ، ولا أن تتدفق معانيه فى مجراها الطبيعى .

فالمنطق العقلى كما ترى هو خزانة اللغة التى تمول الإحساس ، فهو يتقاضاها ما تستطيع أن تمده به من المادة التى تمكنه من الظهور والانتقال . فربما أخذ من اللغة ماهو « موصل ردىء » للإحساس ، وربما أخذ منها ماهو « موصِّل جيد » يستطيع أن يسرى فيه إلى قارئه أو سامعه ، فإذا عرفت هذا أيقنت أن الشعر يتصل أول ما يتصلِ بإحساس قارئه وسامعه ، فيهزه بقدر ما تحمل ألفاظه من إحساس قائله . فإذا أَخفق أن يكون أثره كذلك ، فمرجع هذا إلى أحد أمرين :

إما أن الشاعر لم يُوَفَّق إحساسُه فى الاستمداد من لغته ما يطابق الإحساس ويكون « موصِّلًا جيدًا » له ، لأن منطقه العقلى لم ينبذ إليه من مادته ما هو حق

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٧) ، ١٩٤٠ ، ص : ٣٤٣ - ٣٤٧

المعانى التى يتطلبها إحساسه ، هذه واحدة . أو لأن مادة هذا المنطق العقلى أفقر من إحساس الشاعر ، فهى لا تملك عندها ما يكفى للتعبير عن إحساسه ، فهذه أخرى . ولهذه العلة الأخيرة تجد كثيرًا من عامة الناس ليسوا شعراء ، ومع ذلك فربما كان أحدهم أدق إحساسًا وأعمق وأعنف ، ويكون إحساسه أحفلَ بالمعانى وأغنى ، وإنما يقطعهُ عن الشِّعر هذه العلَّة ، وهى فقر المنطق العقلى من اللغة التى هى مال له . أو انقطاع المنطق العقليّ دون الوصول إلى المنطقة التى ينقلب فيها هذا المنطق – بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته – حاسة دقيقة مدبِّرة تعمل فى حياطة الإحساس والقيام عليه وتسديده للغرض الذى يرمى إليه فى التعبير عن معانى الإحساس ، كما قدمناه آنفًا .

وأما الأمر الثانى – الذى يُخْفِقُ بسببه الشعر فى التأثير – فمرَدُّهُ إلى القارئ أو السامع . فإذا كان إحساسُ السامع أو القارئ ضعيفًا بليدًا غثًّا ، فمهما يَأْتِه من شعر حافل قوىٍّ عنيف دقيق العبارة عن إحساس شاعره – فهو لديه شىءٌ فاتِرٌ ضعيفٌ لا يهزُّه ولا يبلغُ منه ولا ينفذُ فيه ، وهذا الضرب من العامة الذين لا يتأثرون بالشعر لا يُعتد بهم ولا ينظر إليهم ، ولكن هناك ضربٌ آخر يكون بليغ الإحساس جيد التلقى ، صالحًا للتأثر بما ينتقل إليه من هزة الإحساس فيهتزُّ لها ويطرب ، وقد يكون مع ذلك خِلوًا من اللغة التى يعبِّر بها الشعر ، إذ ليس له منطقٌ عقلىٌّ سامٍ متخير للكلام يختزن اللغة لنفسه إذا فكَّر ، ولفهمه إذا حُدِّث أو أُنشد ؛ فهو ربما سمع الشعر الجيد فلم يبلغ منه المبلغ الذى أريد له هذا الشعر ، وكثر هؤلاء فى عصرنا هذا حتى سقط الشِّعر ولم يحفلْ به إلا قليلٌ ؛ وهم لم يكونوا كذلك إلا لفساد التعليم وقلة احتفاله باللغة وبيانها وأسلوب مجازها ، ولأن الجهلاء والسخفاء هم سوادُ الناس ، وفساد الطبائع فيهم راجعٌ إلى هذين : فمخالطة الجهالة تورث الجهالة والخبال ، وترك التعلُّم وسوء التعليم ذريعةٌ مفضيةٌ إلى الجهل والبلادة ، فكيف – مع هذين – يخلص أحدهم من فقر العقل وبلادة التأثر بالشعر البليغ الحافل بالإحساس المشبوب العنيف ؟

فأنت ترى : أن اللغة المتخيرة المرصدة للتعبير عن الإحساس تعبيرًا مسددًا

بالمنطق العقلى الذى لا يزلُّ على مدارج المجاز فتنقطع صلاتُه بحقائق المعانى التى وضعت لها هذه الألفاظ اللغوية ... ، ثم المنطقُ العقلى الذى يختزن هذه اللغة ، ويستطيع أن يتحوَّل حاسة دقيقة مدبرة تقوم على الإحساس وتحوطه من الضلال ... ، ثم المعانى التى يتمثلها إحساس الشاعر حين يَهيجه ما يؤثِّر فيه تأثيرًا قويًا عنيفًا - هذه الثلاثة هى ، مادة الشعر الجيد ، فإذا سقط أحدها أو انحط أو ضعف ، سقط الشِّعرُ بسقوطه أو انحط أو ضعف .

وأنا أقول : إن أكثر شعر العصر العربى الحاضر قد انحط وضعف وسقط ، لأن أكثر الشعراء قد بلغ منهم العيب مبلغًا أفسد كل ما يعتدُّ به من آثار « الشاعرية » التى بقيت فيهم ، ولم يخلص لأحد منهم جميع هذه الثلاثة التى ذكرنا . ولكن بقى لشاعرين أو ثلاثة مايمكن أن يُلحقهم بأهل المرتبة الأولى من الشعراء العبقريين ، وهذه المرتبةُ الأولى إنما نتخيلُها ولا نكاد نعرف أحدًا استوى عليها ، فملك فيها بيان العربية وشعرها يصرفهما كيف شاء ، فيكون فى تاريخ اللسان العربى عبقرية جديدة كامرئ القيس ، ومسلم بن الوليد ، والمتنبى ، وأبى نواس ، والبحترى ، وأبى تمام ، وغيرهم ممن يعد لسانًا وحده ...

شــــاعر !!

وأحد هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سيدفعون أنفسهم فى مجاز العربية حتى يبلغوا المرتبة الأولى - فيما نتوهم - هو « محمود حسن إسماعيل » : فهو إنسان مرهف الحسّ دقيقه ، متوهِّجُ النفس ، سريع التلقى للمعانى التى يصورها له إحساسه ، وإن إحساسه لينشئ له من هذه الصور والمعانى أكثر مما يستطيع أن يطيق صبره ، وهو - إذ فقد الصبر على مطاولة هذه المعانى من إحساسه - تراه يثبُ وثبًا من أول المعنى إلى آخره لا يترفَّق ، كأن فى إحساسه روح « قنبلة » . فلذلك تجد المنطق العقلى فى شعره متفجرًا أبدًا لا يبالى « أوقع على اللفظ من اللغة ، أم وقع اللفظ عليه » ، ولكنه على كل حال منطق يقظٌ حساس بعيد الوثبة ، يحاول دائمًا أن يضبط هذا الإحساس الذى لا يهدأ ولا يستقر . وسينتهى - بعد قليل من المصابرة والمرابطة لإحساس مشاعره - إلى القدرة على متابعة إحساسه وكبحه وتزجيته على هدْى واحد مؤتلف غير مختلف ، وذلك حين يجتاز الشاعر

السن التى هى علة التوقد الدائم والاهتزاز المتتابع تتابع البرق إذا خفق وومض وضرب بعضه بعضًا بسياطٍ من الضوء فى عوارض السحاب ... وأما لغته ، فقد ملك منها مايكفيه بقدر حاجة بعض إحساسه ، فإذا امتدت يده إلى خزائن العربية التى لا تنفد ، وتداخل فى أسرار حروفها بالمدارسة الطويلة ، وتآمرت – ثلاثتُها – على تسنية الأبواب له واحدًا بعد واحد ، حتى يستطيع أن يستوى على سَرارة [١] المرتبة الأولى للشعر غير مدافع .

هذا ... وإن فى كثير من شعره الذى نشره إلى اليوم ، مايجعلنى على ثقة – إن شاء الله – من أنه مدرك ذلك لا محالة ، فهو قد استولى على كل ما هو به شاعر ، ولا أظن ظن السوء بقدر الله أن يكون هو قاطعه دون المنهج الذى تعبَّد بين يديه ، ولم يبق له إلا قليل حتى يبلغ الذروة العليا .

قصيدة الزلزال

وقد قرأت قصيدته [*] الأخيرة فى « فاجعة تركيا » – كما سماها – ثم سمعتها ، فوجدت لزامًا علىّ فى هذا الباب أن أثبت بعض رأيى فى الشعر والشاعر ، ثم فى « محمود حسن إسماعيل » خاصة ، ثم فى هذه القصيدة ، وقبيح أن يجهل مريدو الشعر الجيد هذه القصيدة الفذة ، التى تكشف عن السر المستكن وراء هذا الشاعر . وإذ قد عرضنا مرة لبعض الشعر الأسود المظلم ، فلا بد إذن من أن نمحو آيته ببعض آيات الشعر المشرق المضىء .

وقد كان « زلزال الأناضول » عذابًا من العذاب الأكبر بأهواله ، حتى قالوا إنه أشد ما عرف من الزلازل وأخطرها وأفظعها موقعًا وأثرًا ، وقد كان ما تنشره الصحف اليومية من أخباره هولًا هائلًا مفزعًا يكاد يجعل الولدان شيبًا . فلا شك إذن أن يكون هذا الرعب الراجف فى إحساس شاعر فزِع « كمحمود » رجفة يُرعد بها رِعدة طائرة مدوية مصلصلة مجلجلة .

---

(١) سرارة كل شيء : أكرمه وخياره .

(*) وهى طويلة تزيد على ثمانين بيتا ، فلذلك لم نستطع أن نستوفى الكلام عنها وإنما دللنا على منهاجها وروعتها (شاكر) .

وأنت إذا بدأت القصيدة :

هات الشدائد للجريحةِ هاتها　　　فالصبر فى الأهوال دِينُ أُساتها

واحشُد صروفك يازمان فربما　　　لهبُ العظائم شُب من نكباتها

ولعلها خمرٌ تدور فيستقى　　　خَمْرَ الكفاح الشرقُ من كاساتها

رأيت الأمر والنداء ، نداء الفزع الطامى بطغيان أمواجه على إحساس الشاعر ، فلم يملك إلا إسلام نفسه إلى اليأس ، فيستزيد من البلاء ويطلبه فيقول : « هات الشدائد » ثم يعود فيقول : « هاتها » ليثبت إيمانه بالصبر على هذا البلاء ، فهو إيحاء ، إذ قد يئس أن يصرف عن إحساسه ماطغى به عليه هول ما سمع من صفة الزلزال . ويَدُلُّك على أن هذا المطلع قطعة من اليأس ، عودتُه إلى الشك فى هذه الشدائد الموقدة بنارها ولهيبها ، والتى زلزلتْ أمة من الناس فكانوا كما قال الله تعالى فى صفة زلزلة الساعة : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ . فكذلك عاد الشاعر يشك بعد طغيان البلاء عليه أن ينقلب كل ذلك الرُّعب الذى اضطرب به الناس سُكرًا يجرِّىء هذا الشرق المغلوب على الكفاح ، فى زمن يرمى من أهواله شدائد ترجف بالشرق رجفة كأشد ما رَجفتْ زلزلة الأناضول ، فلذلك قال : « ولعلها خمر ... » .

هى أمةٌ زلزلتَ جَنبَ مِهادها　　　ونفختَ ريحَ الموت فى جَنباتها

وهذا البيت يكاد يكون الحد الفاصل بين يأس الشاعر الذى طغى عليه حتى أنساه روح الزلزلة التى كانت فى إحساسه ، وهو نفسه الذى يردُّه مرة أخرى فزعًا ثائراً متوثبًا تتقاذفه تهاويل إحساسه فى رعب بعد رعب .

شَوَّهتَ صَفحتها بمديةِ جازِر　　　الرحمة انتحرت بحدِّ شَباتِها

مجنونةُ الحدّيْن لو هى لَوّحتْ　　　لانهَدَّ رُكن الأرض من حركاتها

ذئبية الشهوات جاع حديدُها　　　وأراق جوع الوحش فى لَهَواتها

وهنا موضع يوقف عنده ، فإن المعنى الذى أراده الشاعر ، والصورة التى

نشأت من شدة إحساسه بهول الزلزلة طغتْ فلم يستطع المنطق أن يضبط اللغة على قياسها ، فهو يريد أن يقول : إنه يرى هذه المدية الصقيلة الذئبية الجائعة المهلكة المجنونة فيرى على حَدَّيْها وصفحتيها من فِرندها وضوئها ومائها ما ينسابُ ويتريَّق ويتلألأ ويرمى بأضوائه كأنه ضوء جائع يريد أن يلتهم كل ما يلقاه ، وذلك قوله : « وأراق جوع الوحش فى لهواتها » فقوله : « وأراق » هنا لا توافق المعنى ، وقد أوقعه عليها اختلاط « فرند المُدْيَة » – وهو ماؤها – بالمعنى الذى أراده ، ولو قال : « يذكى سعار الوحش فى لهواتها » أو ما يقارب ذلك لكان أجود . ثم يمضى الشاعر فى تصوير ماتخيله – حين فجأت الزلزلة الأناضول –:

والناسُ غَرْقى فى السكون سَجتْ بهم
سِنَةٌ يَنامُ الهوْلُ فى سَكناتِها
بَيْنا هُمُ فَوْق المهودِ عَوَالمٌ
غشَّى ضبابُ الصمت كل جهاتها
وإذا بقلبِ الأرض يرجفُ رجفةً
دُكَّ الصباحُ وذابَ فى خَفقَاتِها
وانشقَّت الدُّنيا لديه فلم يَجِدْ
أرضًا يغيثُ النورَ فى رَبَواتها
فَطوَى المدائن والقرَى وهَوَى بها
فى سدْفَة تهوِى على ظلماتِها
... ...
... ...
وبنى اللحودَ على المهودِ وهدَّها
فَنَضَا ستورَ الموت عن عَوراتها
زأرت جراحُ الأرضِ فاهتاجَ الردى
وتنهد الزلزال فى ساحاتها

وإذا الذى أتى به فى وصف الزلزلة إلى آخر القصيدة شىء هائل مخيف تقشعر

له الأبدان ، وتراه متدفقًا طاغيًا لا تكاد تقف على كلمة منه إلا مرتاعًا قد قفّ شعرك (١) عن هول ما تنقل إليك ألفاظه من معانى إحساسه الثائر المتفجر :

أنفاسه لهبُ الجحيم وخطوه خطو المنايا السود فى فجآتها

إلى بعض القراء

... وبعد ، فإن العالِمَ الثقةَ الثبت المحقق الدكتور بشر فارس قد عَلِمَ فعلَّمَ !! وأنا أشكرُ له ما علّمنى ، فأنا لا أحب أن أكون كالذى قيل فى أمره : « لا تناظرْ جاهلًا ولا لجوجا فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلُّم بغير شكر » . ثم بصَّر « بشر » أيضًا بما كنت أَجهل من العروض واللغة والبيان ، فأوغَرَ صدرى ، فنثرت حول قَهْرى ما ملكت من نُفاية الكلام وكذلك طوّقتُ نفسى به زينة وحِلية أتبرّج بها للناس أو كما قال ! وهو كذلك ...

فأنا أحمد الله الذى كفانى شر الغرورِ والخيلاء ، ولم يجعلنى كالجاهلة الخرقاء التى زعموها تأنّقت بما ليس فيها ، ولا هو من طباعها ، حتى ضربوا بها المثل فقالوا : « خرقاءُ ذات نِيقة » (٢) ، والحمد لله الذى لم يجعلنى ممن يتزين بما ليس تملكه يداه ، فقد قال رسول الله ﷺ « المتشبّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبى زُور » (٣) ، والحمد لله الذى جعلنى جاهلًا يعرف أنه جاهل ، ومن أين لمثلى العلم ؟ أليس قد « ذهب العلم إلا غبارات فى أوعية سوء » كما قال ابن شُبرمة فى رواية بشر فارس عن ابن شبرمة : (بريد « الرسالة » العدد ٣٤٦) .

وقد قرر الأستاذ بشر أنه بصرنى بأمور ثلاثة ، وأنى سلمت مرغمًا بأنه بصرنى بما كنت أجهل من أمرها !! وإذا قرر الأستاذ بشر فقد وجب علىّ وعلى الناس التسليم بما قرر ، أليس ذلك كذلك . بَلى ، ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ومع ذلك ، فمن غَلَبَة الجهل علينا أن البحر الذى وضعه وسماه

---

(١) قَفَّ الشَّعْرُ : قام من الفزع .

(٢) قال الميدانى فى مضرب هذا المثل : « يضرب للجاهل بالأمر وهو مع ذلك يدعى المعرفة » .

(٣) « كلابس ثَوْبَىْ زور » مثل ، انظر الميدانى ٣ : ٣٥ .

« المنطلق » ، لا يزال عندنا وعند أصحابنا من علماء العروض هو من « مجزوءة المتدارك » أدْخَل الشاعر الأستاذ على ضربها العرج أو الفساد أو الخبن أو ما شئت فسمِّه ، ثم ألزمها ذلك فى سائر أبياته ، ثم قال إنه وضع بحرًا . ومن غلبة جهلنا أيضًا أننا نعده وزنًا ثقيلًا غثًا كسائر الأوزان الممكنة التى تركتها العرب لثقلها على السمع ، فلم تجزها فى شعرها ، ومن غلبة جهلنا أيضًا أننا لا نزال ندعى أن لن يوجد فى أصحاب الألسنة العربية من الشعراء المجيدين من يتابع النظم على هذا الوزن الجافى من « مجزوءة المتدارك » ، وكذلك أهملناه وسنهمله .

وأما حديث « الزلزلة » ، فلا نزال نقول إن كل حرف من حروف العربية ينقل إلى المجاز ، فهو يتطلب دائمًا حقيقته ، وإلا فسد مجازه . فإذا كان أصل الحرف « زلزل » وحقيقته : أن يزلَّ الشيء عن مكانه مرة بعد مرة ، أى أن ينتقل ويتحرك ويسقط ويخرج عن الموضع الذى يستقر عليه ، فلابد فى كل مجاز لهذا الحرف أن يكون مايقع عليه فعل الزلزلة - (أى نائب الفاعل أو المفعول) - شيئًا منتقلًا من مكان إلى مكان أو شيئًا يجوز أن ينتقل من مكان إلى مكان ، فهذا هو شرط المجاز أو الاستعارة فى هذا وأمثاله ، وإذ ليست الأذن كذلك ، فقولك « زلزل الطرب أُذُنى » مجازٌ فاسدٌ لأن الأُذُن ثابتة لا تتحرك .

وإذا قال كتاب « خلاصة الطبيعة فى الصوت !! » فى باب « شرح عمل الأذن » إن الصوت يهزُّ غشاء طبلة الأذن حين تصكُّها الأمواج الهوائية التى يُحدثها مصدر الصوت ، فليس معنى « يهز الغشاء » هنا أنه ينقله من مكان إلى مكان آخر ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان غشاء طبلة الأذن مثبتًا لا يتحرك أى لا ينتقل من مكانه ، وإنما هو اهتزازٌ يلحقه ، فليس فى الدنيا « ناى » أو غيره يستطيع أن يجعله يتحرك أى ينتقل من مكانه ، ولو كان فى قلب هذا « الناى » عشرون فرقة من فرق « الجازبنْد » ... ولو كان ذلك فتحرك الغشاء قليلًا عن مكانه لتمزَّق وانخرَق ، وكان الصَّمم ، وإذن فليس يجوز فى العربية أن يقال « زلزل الطرب أو الناى غشاءَ طبلة أُذُني » ! وإلا فهو مجازٌ فاسدٌ أيضًا .

وأما ما يقال من أن الزلزلة والطرب على مجاورة فى لغتنا !! فهو شىء لا أصل له ، وهى عبارة لا تؤدى إلى معنى ، وهو كلام « يدخل بعد العِشاءِ فى العرب » .

وأخيرًا ... ، فمن عظة نبينا ﷺ قوله : « من طلب العلم ليمارى به السفهاء ، أو يُباهى به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار » . ونحن نعوذ بالله أن نخالف عن أمر نبينا ، أو نكون ممن يستخف بما أنذر به ، فنباهى الأستاذ بشر بما نعلم ، وإذن فلست أجعل حديثى هذا إلا للقراء وحدهم لأضع به عن نفسى أمانة العلم ...

حتى إذا ما الصباحُ لاحَ لهم   بيَّن ستُّوقَهم من الذهب [(١)]
والناس قد أصبحوا صيارفة   أعلم شىء بزائف النسب

فأستأذن القراء وأستغفرهم ، فأنا امْرُؤٌ لا يحب أن ينصب نفسَه لمَن هو عنده نفسُه أكبرُ من نفسه والسلام .

ابن شُـــبرمة !!

وما دمنا فى حديث أمانة العلم ، فقد رأيت أن الأستاذ المحقق « بشر فارس » روى خبرًا عن ابن شبرمة القاضى قدمناه آنفًا وهو : « ذهب العلم إلا غبارات فى أوعية سود » . وقد رأيت صاحب العقد الفريد (ج ١ ص ٢٠٥ طبعة بولاق أيضًا !) قد أورده بهذا النص عينه ، وهو يبدو لنا نصًا عربيًا مظلم النور .

وتحرير رواية الخبر : « ذهب العلم إلا غُبَّراتٍ فى أوعية سوء » بضم الغين المعجمة وفتح الباء المشددة . والغبّرات جمع غبّر ، وهو آخر الشىء وعقابيله وما يبقى منه . يريد ابن شبرمة : أن العلم لم يبق منه إلا قليل قد وقع فى صدور رجال من الفخار والخزف لا تضىء ولا تقبل الضوء .

وقد ورد هذا الحرف (غبرات) فى حديث عمرو بن العاص يقول لعمر بن الخطاب : « إنى والله ما تأبّطتنى الإماءُ ، ولا حملتنى البغايا فى غبّرات المآلى » .

---

(١) الستوق (بفتح السين وضمها) : الزَّيْف البهرج الذى لا خير فيه ، وهو مُعَرَّب .

والمآلى خرق للنساء يكون فيها الدم ، وغبّراتها بقايا الدم . ومن ذلك أيضًا قول أبى كبير الهُذَلى يصف ابن زوجته تأبط شرًّا الشاعر الفاتك :

حَملتْ بِهِ فى ليلةٍ مَزْؤودةٍ ... كرْهاً وعقدُ نِطاقِها لم يُحللِ (١)

فأتتْ بِهِ حُوشَ الفؤاد مبطنًا ... سُهدًا إذا ما نام ليل الهَوْجَل (٢)

وَمُبرَّأً من كل « غُبّر حَيْضة » ... وفساد مرضعة ، وداءٍ مُغْيل (٣)

فهذا تحقيق رواية الخبر على التحرير والدراية ، فمن كانت عنده نسخة من (العقد الفريد طبعة بولاق !) فليصححه

* * *

(١) مزؤودة : فَزِعة ، نسب إليها الفزع لأنه وقع فيها .

(٢) حوش الفؤاد : وَحْشِيّ الفؤاد حديده . المبطَّن : الضامر البطن ، وهو مدح . السُّهُد : الذى لا ينام الليل ، من حذره وتوقُّده . الهوجل : الوَخِم الثقيل ، ونسب النوم لليلة لأنه يقع فيها .

(٣) مُغْيِل : من الغَيْل ، وهو أن تُغْشَى المرأة وهى تُرْضِع ، فذلك اللبن الغَيْلُ ، ومنه حديث النبى ﷺ « لَهَمَمْتُ أن أنهى عن الغَيْلَة » .

من مذكرات ابن أبى رَبيعة

الحقيقة المؤمنة

« قال عمر بن أبى ربيعة » ... فبادرت أعدو يكادُ ينشقُّ علىَّ جِلْدى من شدَّة العَدْو ، فقد أَكلتْ منى السنُّ وتعرَّقتْنى [١] أَنيابُ الكِبَر ؛ فما جاوزت رَوْضة قصر أمير المؤمنين حتى تقطعت أنفاسى من الجهد ، وتلقانى الآذِنُ : ماعدا بِكَ يا أبا الخطاب ؟ فقلت : إيذَن لى على أمير المؤمنين [هو الوليد بن عبد الملك] ، فقد نزل بنا ما لا ردَّ له ، وتبعتُه ... والله إنَّ فرائصى لتُرْعدُ وكأنى محمومٌ قد جرت عليه هبَّةُ ريح باردة ... وغاب الآذنُ : فما هو إلا أمير المؤمنين يستقبلنى كالفزِع ، وقد خرج إلىّ فقال : أىُّ شىء هو يا ابن أبى ربيعة ؟

قلت : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين ، فما كان إلّا ومحمد بن عروة [بن الزبير] تحت سناكبها ، فما زالت تضربه بقوائمها ، وما أدركناه إلا وقد تهشم وجهه وتحطمت أضلاعه !! .

وكأنما فارقتنى الروح ، فما أشعر إلا وأمير المؤمنين قائم على رأسى ينضح الماءَ على وجهى ، وقد قُرِّبتْ إلىَّ مَجْمرَةٌ يسطع منها ريح المندَلِ الرطِب ، فلما أفقتُ ورجَعَتْ إلىّ روحى سألنى أمير المؤمنين أَن أقصَّ عليه الخبرَ ...

قلت : خرجنا أنا ومحمد بن عروة وهشامٌ أخوه نريد منزلنا من قصر أمير المؤمنين ، نرجو أن نتخفَّف من بعض ثيابنا ، فقد أنهكنا الحرُّ ... فنظر محمد إلى مرآةٍ من فِضَّة مُجلوّةٍ معلقةٍ فى البيت ، ثم قال : أتذكُر يا أبا الخطاب حَجَّتنا تلك قلت : أيَّتهنَّ ؟ فقد أكثرتَ وعمَّك الحجَّ ، فقال : سرعان ما نسى الشيخ ، لقد كبرت والله يا أبا الخطاب ! وقد حدثنى أبى بالذى كان منك ، فقد كنت تسايره

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٨) ، ١٩٤٠ ، ص : ٣٨٣ - ٣٨٥

(١) تعرق فلانٌ العَظْمَ : أخذ عنه اللحم

وتحادثه ، فلم تلبث أن سألته : وأين زينُ المواكب [١] يا أبا عبد الله ؟ فقال لك : أمامَك ، فأردت تركضُ راحلتك تطلبُنى ، فقال لك : يا أبا الخطاب ، أوَلسنا أكفاءً كِرامًا لمحادثتك ، ونحن أولَى أن تسايرنا ، فقلت له : بَلَى ، بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله ! ولكنى مُغرًى بهذا الجمال اتّبعهُ حيث كان ، ثم عدلتَ بِراحلتك وضربتها وأقبلتَ إلىَّ ، وجعل أبى يتعجب منك وَيضحك ، وقد استنار وجهه ... إحدى سوآتك هى والله يا أبا الخطاب ...

فضحكت لقوله وتناقلنا الحديث وإذا هو ساكنٌ ساجٍ كأنما غشيّته غاشية همٍّ ، فقلت : مابك يا محمد ؟ فزفر والله يا أمير المؤمنين زفرة كأنما انشقت لها كبدى ، ثم قال : أرأيت هذا الجمال الذى تبعته يا أبا الخطاب ، يوشك أن يكون طعامًا يلحسه تراب القبر فما ترى إلا عظما أغبر من جمجمة تقذف الرعب من محجريها . لقد روَّعنى والله يا أمير المؤمنين حتى تطيَّرتُ ومابىَ الطيَرَة ، فأردت أن أصرفه عن بعض وهمه أن يكون الصيف قد أوقد عليه حرّه فحيّره . فانطلقنا جميعًا [يعنى هو وهشام ومحمد] إلى سطح البيت نستظل بظلّته ونستروح النسمات وأقبلنا نضحك ونعبث ونلهو من بعض اللهو ، وإذا طائر يحوم يصفق بجناحيه ثم رنّق فكسرهما من الإعياء ثم سقط ثم درج ثم اضطرب قد كاد يقتله الظمأ . فجرى إليه « محمد » ليأخذه فَيبُلّ ظمأه . فخفّ الطائر فهوى إليه محمد ليدركه ، فما نرى والله محمدًا .. قد اختطفه أجَله فجذبه فهوى به إلى اصطبل الدواب ، فيقعِ بينها فيثيرها فتهيج ، وإذا « زين المواكب » تحت سنابكها تضربه ، فما أدركناه والله يا أمير المؤمنين إلا جثة قد ذهب رأسها ، ومانرى إلا الدم ... رحمة الله عليه ، لقد ...

قال أمير المؤمنين : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، فكيف نحتال لهذا الأمر يا ابن أبى ربيعة ؟ قلت : فيم الحيلة يا أمير المؤمنين وقد ذهب القدر بما يُحتال له ! فقال : أههنا أنت ياعمر ، نمت وسار الركب ، هذا أبوه أبو عبد الله شيخ كبير يوشك أن يصاب فى نفسه ، قلت : يا أمير المؤمنين ، هذا

---

(١) كان محمد بن عروة يُسَمّى زين المواكب ، ربما لجماله وبهائه .

مصابه فى ابنه ، فما مصابه فى نفسه إلا أن يكون الخبر إذ يبلغه ؟ وسأحتال له . قال أمير المؤمنين : مهلًا ياعمر ، لقد علمت أن أبا عبد الله [عروة بن الزبير بن العوام] كان قد اشتكى رجله ومازال يشتكى ، فبينا نحن الساعة جلوس إذ دخل علينا « أبو الحكم » الطبيب النصرانى ، فاستأذنت أبا عبد الله أن يدَع « أبا الحكم » حتى يرى علة رجله ، فما راعنا إلا « أبو الحكم » يقول إنها الأُكلة ، وإنها قد ارتفعت تريد الركبة ، وإنها إذا بلغت الركبة أفسدت عليه جسده كله فقتلته ، فما بُدٌّ من أن تقطع رجله الساعة خشية أن تدب الأكلة إلى حيث لا ينفع القطع ولا البتر .

فوجَمتُ والله لهذا البلاء ، وقد اختلف به القدَر على شيخ مثل أبى عبد الله فى إدبارٍ من العمر ، وأخذ أمير المؤمنين بيدى وقام . فدخلنا مجلس الخلافة وإذا وجوه الناس قد جلسوا إلى عُرْوة أبى عبد الله يواسونه ويصبّرونه ويذكرونه بقدَر الله خيره وشرِّه ، وإذا فيهم سليمان بن عبد الملك أخو أمير المؤمنين ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم بن محمد ، وعبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقد حضره ولده هشام فأَرَمَّ [١] قد انتُسف لونه من الحزن على أخيه والرحمة لأبيه . وأقبل أمير المؤمنين وأنا معه على عرْوة ، فتفرق الناس إلى مجالسهم ، وإذا عُرْوة كأنْ ليس به شيء ، يرفُّ وجهه كأنه فِلْقة قمر وهو يضحك ويقول : لقد كرهت يا أمير المؤمنين أن يقطعوا منى عضوًا يَحط عنى بعض ذنوبى ، فقد حُدّثنا أن أبا بكر قال : يارسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ ، فكل سوءٍ عملناهُ جزينا به ، فقال رسول الله ﷺ : غفر الله لك يا أبا بكر ، ألستَ تمَرضُ ؟ ألستَ تَنْصَبُ ؟ ألست تحزَن ؟ ألست تصيبك اللَّأْوَاءُ [٢] ؟ قال : بلى يارسول الله . قال ﷺ : فهو ما تُجزَون به ، فإن ذاك بذاك . لَوَدِدْت يا أمير المؤمنين أنها بقيت بدائها فهى كفَّارةٌ تحتُّ الذَّنْبِ .

---

(١) أَرَمَّ : جلس ساكنا لا يتحرك .

(٢) اللَّأْوَاءُ : الشِّدَّة

قال أمير المؤمنين : غفر الله لك ، غفر الله لك ، وما أعجبُ لصبرك ، فأمُّك أسماء بنت أبي بكر الصديق « ذات النِّطاقين » وأبوك حَوَارِيُّ رسول الله ﷺ وابن عمته الزبير بن العوام ، فرضى الله عنك وأرضاك يا أبا عبد الله .

فما كدنا حتى أقبل أبو الحكم ، وهو شيخ نصرانيٌّ طويل فارعٌ مَشبوحُ [١] العظام ، قد تخدَّد لحمه ، أحمرُ أزْهرُ أصلع الرأس إلا شعرات بيضًا قد بقيت له ، كثُّ اللحية طويلها ، لو ضربتها الريح لطارت به ؛ ودخل أبو الحَكَم وراء لحيته وهي تسعى بين يديه ، حتى وقف على عروة بن الزبير فقال : لابدّ مما ليس منه بُدٌّ يا أبا عبد الله ، وإني والله لأرحَمك وأخشى أن يبلُغ منك الجهد ، فما أرى لك إلا أن نسقيك الخمر حتى لا تجد بها ألم القطع . قال عروة : أبْعَدَكَ الله من شيخ ، وبئس والله ما رأيت ! إنا والله ما نحبُّ أن يرانا الله بحيث نستعين بحرامه على مانرجو من عافيته ! قال أبو الحكم : فنسقيك المُرْقِدَ [٢] ، يا أبا عبد الله ! قال عروة : ما أحبُّ أن أُسْلَبَ عضوًا من أعضائى وأنا لا أجد أَلَم ذلك فأحتسبه عند الله .

قال أبو الحكم : وقاك الله يا أبا عبد الله ! لقد ألنت منا قلوبًا كانت قاسية ؛ ثم التفت (أبو الحكم) إلى رجال سود غِلاظ شداد قد وقفوا ناحية فقال : أقبلوا ، فأقبلوا ... فأخذتهم عينُ عروة فأنكرهم فقال : ماهؤلاء ؟ فقال أبو الحكم : يمسكونك ، فإن الألم ربما عزب [٣] معه الصبر ، قال عروة : أما تُقلع أيها الشيخ عن باطِلك ، انصرفوا يرحمكم الله ، وإني لأرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى ، ولا والله ما يسعنى أن هذا الحائط وقانى أذاها فاحتمل عنى ألمها . أقبل يا أبا الحكم ، وخذ فيما جئتَ له ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ .

---

(١) مشبوح : عريض .

(٢) المُرْقِد : شىء يشرب فيُنَوِّمُ مَنْ شربه ويُرْقِدُه .

(٣) عزب (من باب ضرب ونصر) : بَعُدَ .

فرأيت أبا الحكم وقد برق وجهه وتوقد كأنما أسلم بعد كفر ، ثم نشر درجًا كان فى يده وأخرج منشارًا دقيقًا طويلًا صقيلًا يضحك فيه الشعاع ووُضع الطست ومَد أبو عبد الله رجْله على الطست وهو يقول : باسم الله والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ . تقدم يا أبا الحكم فقد احتسبتها لله . فما بقى والله أحدٌ فى المجلسِ إلا استَدارَ ودَفَنَ وجههُ فى كفيه ، وبكى القوم فَعَلَا نشيجهم ، وإن عرْوةَ لساكن قارٌ ينظر إلى ما يرادُ به ، وكأنما مَلَكٌ قد جاء إلى الأرض يستقبل آلامها بروح من السماء . ووضع أبو الحكم منشاره فى اللحم إلى العظم ، وإن عروة لصائم يومه ذاك ، فما تضور وجهه ولا تقبض ، والمنشار يأكل فى عظمه الحى ، وما يزيد على أن يهلل ويكبر ويسبح الله ، وكأن الدار والله قد أضاء جوها كأنه شعاع ينسكب من تهليله وتكبيره ، ودخل رجال يحملون مغارف من حديد يفور منها ريح الزيت وقد غلى فيها على النار ، ودنوا فما هو إلا أن فرغ أبو الحكم وقد فار الدم منها وتفجر مثل الينبوع ، فأخذها أبو الحكم يغمسها فى الزيت فيسمع نشيشها فيه حتى حسم الدم . وإذا عروة قد غشى عليه ، وإذا وجهه قد صفِر من الدم ، وقد نجِدَ [١] فنضح وجهُه بالعرق ، ولكنه بقى مشرقًا نيرًا يرفُّ كأنه عَرارة [٢] تحت الندى . قال أبو الحكم : مارأيت كاليوم يا أمير المؤمنين إنه الرجل ، وإنها الحقيقة المؤمِنة ، وإن إيمانه ليحوطه ويثبته ويسكنه وينفض عنه الجزع ، ثم التفت إلى عروة يقول : جزاك الله خيرًا يا أبا عبد الله ، لأنت والله تمثال الصبر فى إهاب رجل .

وما لبثنا ، حتى إذا أفاق أبو عبد الله جلس يقول : لا إله إلا الله والحمد لله ، ويمسح عن وجهه النومَ والعرق بكفيه ، وينظر فيرى قدمه فى يد رجل يهم أن يخرج بها فيناديه : على رِسْلِك أيها الرجل ، أرنى ماتحمل ؛ فيأخذ قدمه فى يده فيرنو إليها وقد سكن وحرّك شفتيه . ثم يقلبها فى يده ثم يقول لها : أما والذى

---

(١) نجد : سال عَرَقُه .

(٢) العَرارة : نبتة طيبة الريح ، وهى النرجس البرّى .

حملني عليك ، لقد علمتِ أنى مامشيت بك إلى حرام ولا معصية ، اللهم هذه نعمة أنعمت بها علىّ ثم سلبتنيها أحتسبُها عندك راضيًا مطمئنًا إنك أنت الغفور الرحيم . خذها أيها الرجل ؛ ثم أضاءَ وجهه بالإيمان والصبر عن مثل الدرة فى شعاع الشمس ... ...

قال أمير المؤمنين : غفر الله لك يا أبا عبد الله ، وإن فى الناس لمن هو أعظم بلاءً منك ، ياعمر [يريد عمر بن عبد العزيز] ، ناد الرجل من أخوالى [يعنى من بنى عَبْس] فيقبل عمر ومعه رجلٌ ضريرٌ محطومُ الوجهِ لا تُرى إلّا دمامته ، فيقول لهُ أمير المؤمنين : حدّثْ أبا عبد الله بخبرك يا أبا صعصعة ، فيلتفت الرجل إلى عُرْوة ويُقبل عليه فيقول : ابنَ الزُّبير ، قد والله لقيتَ البلاءَ ، يافقيه المدينة وابن حوارى رسول الله ﷺ . وإنى والله محدثك عنى بخبرى عسى أن يرفع عنك : فقد بتُّ ليلة فى بطن واد ، ولا أعلم عَبسيًّا فى الأرض يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيلٌ جارفٌ كأنه الطوفان ، يتقاذف بين يديه موجًا كالجبال ، فذهب بما كان لى من أهل ومال وولد إلا صبيًا مولودًا وبعيرًا نِضوًا ضعيفًا . فندَّ البعيرُ يومًا والصبى معى ، فوضعته واتبعت البعير أطلبه ، فما جاوزت ابنى قليلًا إلا ورأسُ الذئب فى بطنه قد بعجها بأنيابه العُصل فاستل أحشاءه ، وإن الصغير ليصرخ ، ويركض برجليه الأرض ، فكدت والله أسوخ فى الأرض مما رأيت ، ولكنى ذكرت الله واستعنته واحتسبتُ الصغير فتركته لقدر الله واتبعت البعير ، فهممت آخذ بذنبه وقد أدركته ، فرمحنى رمحة حطم بها وجهى وأذهب عينىّ ، فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد ولا ذا بصر ، وإنى أحمد الله إليك ، يا أبا عبد الله ، فاصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . قال عُروة : لقد أفضل الله عليك يا أبا صعصعة وإنى لأرجو لك الجنة .

قال عمر بن أبى ربيعة : وألاح إلىَّ أمير المؤمنين أن أقبل ، فدنوت إليه فأسرَّ إلىّ : إن أردت الحيلة فقد أمكنتك ، فاذهب إلى أبى عبد الله فانْعِ إليه ولده « زين المواكب » ، قلت : هو والله الرأى يا أمير المؤمنين ، ثم مضيت إلى عروة وقد غلبتنى عيناى بالبكاءِ .

فلما قاربته قلت : عزاءك يا أبا عبد الله ؛ قال عروة : فيم تعزيني يا أبا الخطاب ؟ إن كنت تعزيني برجلي فقد احتسبتها لله ، قلت : رضي الله عنك ، بأبي أنت وأمي ، بل أعزِّيك « بزيْن المواكب » ، فدهش وتلفَّت ولم ير إلا هشامًا ولده ، فرأيت في وجهه المعرفة ثم هدأ فقال : ما لَهُ يا أبا الخطاب ؟ فجلست إليه وتحلّق الناس حوالينا وتكنَّفُونا ، وأخذت أحدِّثه بشأنه ، ووالله ما يزيد على أن يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنّا لله وإنا إليه راجعون ، فلما فرغت من خبري ما زاد على أن قال :

وكنتُ إذا الأيامُ أحدثنَ هالكا ... أقول شوًى ما لمْ يُصبنَ حَميمي [(١)]

ثم رفع وجهه إلى السماء وقد تندّت عيناه ثم قال : اللهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة ، فلك الحمد فيما أخذت وأبقيت ، اللهم أخذت عضوًا وتركت أعضاء ، وأخذت ابنًا وتركت أبناء ، وأيْمُ الله لئن كنت أخذت لقد أبقيتَ ، ولئن ابتليت لطالما عافيت ، سبحانك ربنا إليك المصير . قوموا إلى جهاز أخيكم يرحمكم الله ، وانظروا لا تكون عليه نائحة ولا مُعْوِلة فإن رسول الله ﷺ نهى عن النياحة ، ومُرُوهنَّ بالصبر للصدمة فإن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي صبيًّا لها فقال لها : اتقي الله واصبري ، فقالت : وما تبالي بمصيبتي ! فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ﷺ ، فأخذها مثل الموت ، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت : يارسول الله لم أعرفك ، فقال ﷺ : إنما الصبر عند أول الصدمة .

وجزاك الله خيرًا عني وعن ولدي يا أمير المؤمنين ، ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

* * *

(١) الشَّوَى : اليسير الهيِّن .

غُـبـَّـرات لا غُبارات

قال شيخُنا أبو عثمان الجاحظ فى « كتاب الحيوان » يذكرُ مايعرض للكِتابِ المنسوخ من آفات الناسخين :

« ... ثم يصيرُ هذا الكتاب بعد ذلك لإنسان آخر ، فيسير فيه الورّاقُ الثانى سيرةَ الورَّاق الأوّل ، ولا تزال تتداوله الأيدى الجانية ، والأعراض المفسدة ، حتى يصير غَلَطًا صرفًا وكذِبًا مُصْمتًا . فما ظنكم بكتاب يتعاقبه المترجمون بالإفساد ، وتتعاوره الخطّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله ... ، كتاب متقادِمِ الميلاد ، دهرىّ الصنعة » .

ولم يزل أئمتُنا وعلماؤنا وأصحاب العقل من شيوخنا ، يردُّون الكلام المنقول المكتوب إلى العقل - بعد التحرى للفظه المكتوب - اتِّقاءً لما عرفوه من تحريف الناسخين ، وانتحال المبطلين وغفلة الجاهلين . ونحن إنما نمضى على سنتهم - إن شاء الله - ولانقف عند القول نخرُّ عليه تعبُّدًا لحرفه ، وخضوعًا لنصِّه . ولئن فعلنا لمحق الله منا نصف العقل وبقى النصف الآخر متردِّدًا بين قال فلان وكتب فلان .

... وعلى ذلك ، فقد صححنا قول ابن شبرمة فى رواية صاحب العقد الفريد فى العدد (٣٤٧) من الرسالة ، فجعلناه « ذَهَبَ العلم إلا غُبَّرات فى أَوْعية سوء » ، ورفضنا نص العقد وهو : « إلَّا غبارات » . ثم رأيت فى البريد الأدبى من الرسالة (٣٤٩) كلمة الدكتور بشر فارس يردّ ما ذهبنا إليه بثلاثة براهين نثبتها بالترتيب من تحت إلى فوق :

الأول : أن الحرف (غبارات) قد وَرَدَ كذلك فى جميع نسخ العقد الفريد المطبوعة ، وكذلك فى مخطوطة منه بدار الكتب يُظَنُّ أنها كتبت فى القرن السادس .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ٥١٣ - ٥١٤

الثانى : أن هذا النص يصحُّ لغة وأداءً وبيانًا . وإذا صحّ كذلك فمن الاستبداد أن يُرَدّ على الهوَى .

الثالث : مخالفة نهجنا فى ذلك لنهج علماء الفرنجة (المستشرقين) . وجوابنا على الترتيب من تحت إلى فوق :

إننا أَدْرَى بأساليب هؤلاء الأعاجم - الذين اتخذوا العربية عملًا من أعمالهم - من أن نخالفهم فى الجيّد من مذاهبهم ، فتحرير النص ومراجعته على جميع النسخ التى ذكر فيها وما إلى ذلك ، عملٌ ضرورىٌّ لكل باحث . ولكن هؤلاء الأعاجم تقعد بهم سلائقهم عن معرفة أسرار العربية ، فلم يتجاوزوا الوقوف عند النص المكتوب ، وذلك لعجزهم عن بيانها . فلما عرفوا ذلك من أنفسهم ، كان من أمانتهم أن يتوقفوا ، فلا يقطعون برأى فى صواب أو خطأ . وهى أمانة مشكورة لهم .

ولكن العربىّ إذا أخذ بأسبابهم ، فلا بُدَّ له من أن يهتدى بعربيته إلى ماعجزوا عنه بأعجميتهم ، فكذلك فعلنا فى كلمة ابن شبرمة وقلنا « إنه نصٌّ عربىٌّ مُظلم النور » . وبيان ذلك أنه ليس من قياس العربية أن يجمع « غبار » على « غبارات » ولا غيرها من الجموع ، وأن ابن شبرمة لم يُرِدْ تحقيرَ العلم نفسه فيجعل ما بقى منه « غبارًا » ، وإنما أراد أنه بقى من العلم شىء هو من صحيح العلم ، ولكنه وقع فى صدور رجال من أهل الباطل يفتونَ الناسَ ، يضِلّ بهم من يضِلُّ إذ يحسبونهم لا ينطقون بباطل ما داموا أصحاب فقه ودين وعلم . ولم تكن الشهادات وألقابها عُرِفتْ لعهد ابن شبرمة حتى تكون هى التى تقدر العلماء وتميزهم للناس ، وإنما كانوا يتميزون بالعلم ، فإذا لم يكن عندهم علم لم يعدهم الناسُ فى العلماء . ثم إن الغبارَ لا يمكن أن يُوكى [1] عليه فى وعاء حتى يصح أن يجعل - ما أغلقت عليه صدورهم من بقية العلم - غبارًا . فلو صح نص العقد لكان المراد تحقير العلم وأصحابه جميعًا .

(١) يُوكَى : يُرْبَط

وأخيرًا ، فنحن نرفض نص العقد من جهة بيان العربية وتحريرها ، ونقول : إنه لا يصح أن يروى إلا هكذا : « ذهب العلم إلا غُبَّرات فى أوعية سوء » . وإذا كان الدكتور بشر أو غيره يريد أن ينحاز إلى رأينا بنص آخر . فلا بأس علينا أن ندله عليه فقد روى ابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » - المطبوع فى سنة ١٣٤٦ عن نسختين قديمتين : إحداهما للإمام الشيخ الشنقيطى وعليها خطه فى الجزء الأول منه (ص ١٥٣ سطر ٦) بإسناده إلى محمد بن سيرين (وليس ابن شبرمة) قال : « ذهب العلم فلم يبق إلا غبرات فى أوعية سوء » . فهذا نص ، وهناك نصوص غيره ؛ فمن شاء أن يبحث فليبحث ، ونصيحتنا إلى من عنده نسخة من العقد - أى الطبعات كانت - فليصححها بالذى أثبتناه ، وماسوى ذلك ، فهو - كما قال - أبو عثمان : غلط صرف وكذب مصمت ... والسلام .

* * *

العــــودة

إن بعض الحوادث فى حياة الرجل لتنزل منزلة الآية المحكمة : تنسخ ما كان قبلها ، ثم يأتى بعضها كالقنبلة : تخسف الأرض أمامه فلا يرى إلّا هوةً وغبارها ، فإذا تلاحقا لم يدر المرءُ ما يستدبرُ من أمره ولا ما يستقبل ، وإنما هو الحيرة والضلال والرُّعبُ ، والتردّى كلما أقدم أو أحجم ... بَلَى ، إن علينا أن نصارع الحياة بالقوة ، وأن نداورها بالحيلة ، حتى نخلص إلى الأرض المطمئنة ، ولكن هل يستطيع أحدنا بعد ذلك أن يصل إلى هذه الأرض ؟ لولا أن اليأس هو باب الموت ، لكان هو - فى الحقيقة - إحدى الراحتين ...

كـــتب

ولنعُدْ ... أصدرت المطابع المصرية فى الأسابيع الماضية طائفة كثيرة من الكتب العربية ، بعضها لأصحابنا من المعاصرين ، وبعضها مما أنقذه المعاصرون ، من المكتبة العربية المدفونة فى خزائن الكتب ، فنحن نختار من هذه الكتب ثلاثة يجرى الحديث فيها مجرى واحدًا فى الغرض الذى نرمى إليه ، وهى كتاب : « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » وهو دراسات لكبار المستشرقين مثل : بِكَر ، وجولد تسيهر ، ونلينو ، ومايرهوف . ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد الرحمن بدوى ، وكتاب « الرسالة » لإمام المذهب محمد بن إدريس الشافعى . نشره العالم المحدِّث الثقة الشيخ أحمد محمد شاكر ، وكتاب « الذخيرة » لأبى الحسن على بن بسام ، نشرته كلية الآداب مستعينة بمراجعة الأساتذة محمد عبده عزام ، وخليل عساكر ، وبخاطره الشافعى ؛ وأشرف على عملهم أساتذة الجامعة : أحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الحميد العبادى ، وعبد الوهاب عزام ، وطه حسين .

وهذه الكتب الثلاثة لايجمَعُها بابٌ واحدٌ من حيث موضوعها ، فالأول آراء للمستشرقين فى فروع من الحضارة العربية والآراء الإسلامية ، ورسالة الشافعى هى

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥١) ، ١٩٤٠ ، ص : ٥٣٩ - ٥٤٢

أصل علم « أصول الشريعة » . والثالث فى تاريخ الأندلس ، وشعرائها ، وبلغائها ، وكتابها . فالذى حملنا على جمعها فى باب واحد من كلامنا هو الرأى فى المستشرقين ، وما يجب علينا أن نتابعهم عليه ، ومايتبغى لنا أن نحذره منهم .

المستشرقون

فقد قرأت مقدمة كتاب « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » - كتبها الأستاذ « بدوى » بحرارة الشباب التى تتضرم فى دَمِه ، وجعل يتهدّمُ فيها على التُّراث العربىّ بآراء كالمعاول : تضربُ فى الجِذع بعد الجذع على غير هُدًى ولا كتابٍ منير . فلما توغلت فى الكتاب رأيت أن آراء المستشرقين - الذين ترجَمَ لهم كلامهم - هى التى وضعتْ فى يديه هذه الفأسَ ليعمل بها ، ونحن لا نرى أن مثل ذلك مما يُضر بالتراث الإسلامى بشىء ، ولكنا نرى أنه يُضرُّ بأصحابه والعاملين عليه أوّل ، لأنه يأكل قواهم فى شىء لا يمكن أن ينال منه شىءٌ ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ، والمُشْكلة كلُّها هى فتنَةُ أكثر الناس بأسماء المستشرقين ، وأن مايكتبون فى التاريخ الإسلامى والعربى ينزل من قلوب كثير من شبان الجامعة وغيرهم منزلة الكلام القُدْسى : تحريف معانيه إبطال لقوة « الاستشراق » التى فتنتهم . ونحن - حين قرأنا بعض آرائهم التى ترجمها الأستاذ « بدوى » - وجدناها عملًا صالح المذهب من ناحية مَدْرَجِه ، وأما من ناحية التحقيق العلمى ، والغاية التى يرمى إليها ، فهو عمل غير صالح . فكان هذا الذى عرفناه هو الذى دفعنا أن نخصص هذه الكلمة للكتب الثلاثة المذكورة آنفًا ، ولمذاهب المستشرقين فى تناول الكتب العربية القديمة بالتحقيق لنشرها ، ثم مذاهبهم خاصة فيما يعالجون من تاريخ الفكر الإسلامى أو الحضارة الإسلامية . وليس غرضنا هنا أن نعرض لنقد شىء بعينه من آرائهم ، وإنما نريد أن نثبت لهم حقهم الذى وجب لهم بما بذلوه من جُهْدٍ ، ونحذر شبَّاننا من الافتتان بباطل من باطلهم .

وينقسم أمر المستشرقين كما ترى إلى عملين : أحدهما عملهم فى الكتب العربية القديمة التى نشروها من بدءِ توجههم إلى هذا الغرض ، والآخر ما كتبوه

من دراساتهم فى الآثار العربية ، وما أرّخوه من تاريخ الإسلام ، وتاريخ آرائه ومذاهبه العلمية والفلسفية .

نشر الكتب العربية

فالمستشرقون حين بدأوا فنشروا الكتب العربية القديمة لم يقصِّروا فى بذل المال والوقت لاستجلاب الأصول التى يطبعون عنها هذه الكتب ، ثم يتفرغ أحدهم لمقارنة الأصول بعضها ببعض ، وإثبات الاختلاف بين النسخ الكثيرة التى تقع لهم ، وتحرير ذلك بالحرف والنقط والشكل على ماهو عليه فى أصل من الأصول ، وأمانتهم فى إبقاء المحرّف على تحريفه والخطأ على صورته ... إلى غير ذلك من الدقة والأمانة فى إعطاء القارئ صورة كاملة فى نسخة واحدة من الكتاب المطبوع لعدة نسخ مختلفة متباينة من الأصول المخطوطة . حتى إنهم ليثبتون فى « الهامش أو الاستدراك » ماهو خطأ بيِّنٌ لا يصح على وجه من الوجوه ، وإنما هو جهلُ ناسخٍ وإفسادُ كاتبٍ ، ثم لا يعطونك رأيًا يرجِّحون به لفظًا على لفظ ... وحتى إنهم ليثبتون الخطأ الصرف فى صلب الكتاب ويكون صوابه فى الاستدراك ، وحجتهم فى ذلك أنهم يعتمدون أقدم النسخ عندهم ، يطبعونها كما هى ، وأما اختلاف سائر النسخ فهو من حق المستدرك وإن كان هو الصواب الذى لاصواب غيره .

وهذا - على علاته - عمل جيد وأمانة صحيحة . ثم جاءتنا هذه المطبوعات فى بلادنا على فترة جهل وإهمال ، وعلى زمن كلُّ أصحاب المال الذين ينشرون الكتب فيه ، إنما هم عامة لا يعنيهم إلا الربح من طبع الكتب حروفًا قد جُمع بعضها إلى بعض على غير نظام ولا تحرير ولا فن . فلما قارن بعضنا هذا بهذا ونحن عرب وهم أعاجم لا يعينهم من عربيتنا مايجب أن يعنينا ، انبثق بثق الفتنة ، ومجد الناس همة هؤلاء المستشرقين الأعاجم - وحقٌّ لهم - وجعل جماعةٌ ممن لُبِّس عليهم يدفعون القول بعد القول فى تعظيمهم والمغالاة فيهم بغير الحق ... ثم مضى ذلك وانسحب التبجيل على آرائهم فى الفكر الإسلامى والتاريخ العربى كما انسحب على أعمالهم فى نشر الكتب ... وأين هذا من ذاك ؟

ثم انبثقَ بثقٌ آخر ، فظن بعضُ المغالين أنّ المذهب الذى سلكه المستشرقون فى التصحيح ، هو المذهبُ لا مذهبَ غيره ، وجعلوا يَنْعَونَ على مَنْ يخالفهم من أصحاب اللسان العربى فى طريقة نشر الكتب العربية . ومع ذلك فهم على الحق فى بعض مايقولون ، ولكنه ليس كل الحقّ ، فإن المستشرقينَ لم يذهبوا هذا المذهب ، ولم يقفوا هذا الموقف من اختلاف النُّسخ ، إلا لعجزهم عن ترجيح بعض الكلام العربيّ على بعض ، وذلك لعِلَل بيّنة : أولها جهلهم بالعربية على التمام ، فإن تمامَ العربية هو السليقة التى لا تكتسب ، كما أن تمام الإنجليزية والفرنسية هو السليقةُ والنشأة والاندماج فى الوسط الإنجليزى أو الفرنسى من بدءِ المولد والحضانة ، والثاني أنه قَلَّما يوجد فيهم المتخصص فى فقه علم بعينه حتى يكونَ حجّة فيه ، اللَّهمَ إلَّا أن تكونَ الحجة - عندهم - فى جمع نصوص كثيرة فى موضوع واحد من كتب شتى ، ولكنهم لايدّعون أبدًا أنهم أصحاب رأى فى البيان والتأويل والترجيح .

رسالة الشافعي

ويجب أن نضرب المثل هنا « برسالة الشافعى » التى طبعها العالم الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر ، فهو طبعها عن أصول مخطوطة ومطبوعة ، وأقدمها نسخة بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى وراوى كتبه . فالأستاذ الشيخ شاكر حجة فى علم الحديث النبوى ، وفقيهٌ مُتْقِنٌ للسنة التى هى أصل من أصول الدين ، فلمّا تناولَ « الرسالة » يُعدّها للطبع لم يترُك شاردة ولا هائمةً من اللفظِ إلا رَدَّها إلى مكانها من عربية الشافعى وأصوله التى فى كتبه ، وأثبت الاختلاف ورجح بعضه على بعض ، وعمل فى ذلك عمل العقل المفكّر بعد أن ضبط كل اختلاف رآه إلى غير ذلك من أبواب التحرير والضبط . فإذا أنت قرأت الأصل دون التعليق رأيته قد سلم من كل عيب ، وصار بيانًا كله ، بعد أن كان فى الطبعة الأولى من « الرسالة » شيئًا متخالفًا يتوقف عليه البصير ، فما ظنك بسائر الناس ممن يقرأ وليس له فى هذا العلم قديم معرفة أو مشاركة ؟ وأنت إذا قارنت هذه الرسالة بأى كتابِ من الكتب التى أتقنها أصحابُها من ثقات المستشرقينَ ، وجدت الفرق

الواضح ، وعرفت فضل العربى على الأعجمى فى نشر الكتب العربية ، إذا هو حمل أصولها على أصول الفقه والدراية والتثبت ، ولم تخدعه فتنة برأى لعل غيره أقوم منه وأجود .

وأنا أذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ قد أرسل إلىّ فى (إبريل سنة ١٩٣٢) يسألنى عن كلمة وردت فى حديث من مسند أحمد بن حنبل ، ولم أكن قرأتها قبل ذلك ، فكتبت إلى الرافعى رحمه الله أسأله عنها وعرضت له مارأيت من رأى ، فخالفنى الرافعى ، ثم لم تمض أيام حتى وجدت فى الطبرى ما يوافق بعض رأيى أو يدل عليه ، وأبى الرافعى أيضًا . ثم لم ألبث أن وجدت نصًا بعينه على الذى رأيت ، وهذا الكلمة هى فى الحديث ... « رجل قد جرد نفسه ، قد (أطّنها) على أنه مقتول) ، فرأيت أن قراءتها : « أَطَّنَها » والهمزة فيها منقلبة عن الواو فهى « وطنها » وكذلك وردت فى الطبرى ، ولكن أصحاب كتب اللغة لم يثبتوا ذلك فى كتبهم كما أثبتوا « وَكَدَّ وأَكَّدَ ، ووثل وأثل » إلى غير ذلك . فأنت ترى أن الطبع والسليقة ربما هدت إلى ما لا يقع إلا بعض طول التنقيب والبحث والتجميع .

الذخيرة

وهذا أيضًا كتاب « الذخيرة » فإن الجهد الذى بذل فى تصحيحه وضبطه على الأصول المخطوطة التى طبع عنها وبيان اختلاف النسخ ، قد أوفى على الغاية ، وقلَّ من المستشرقين من يستطيع أن ينفذ إلى إجادة مثله فى التحرير ، ومع ذلك فقد وقع فيه بعض ماكان يمكن تجنبه ، لولا أن الأساتذة المصححين قد تهاونوا فى تحطيم أسلوب المستشرقين الأعاجم ، فى التوقف الذى لا معنى له عند العربى ، ونضيف إلى هذا علة أخرى ، هى أنهم ليسوا ممن تخصص لشىء بعينه من تاريخ الأندلس وأدبه ، فكذلك بقى بعض الخطأ كما هو ، وأُثبت على ذلك وليس له أى معنى . وترك مثل ذلك للقارئ مما لا يصح ولا يستحسن ، ولنضرب لذلك مثلًا أو مثلين : ففى ص ٨٢ « ... دبّروا جميعًا عليه فقتلوه ليلًا ... » وفى نسخة أخرى « بدروا » ؛ وكلا الحرفين لا معنى له فى الجملة ،

والصواب عندى أن يكون « اندَرَأوا عليه ... » أى هجموا واندفعوا ، ومن قرأ النص عرف أن هذا هو حق السياق ، وكذلك فى ص ١١٠ « وفارس ميدان البيان ، وذات صدر الزمان » وفى نسخة « وأذات » وكلاهما ليس له معنى ، وهو محرف عن « ودُرَّة » أو أى شيء يكون حليًا للصدر ... ونحن لا نتتبع وإنما نقلب بعض أوراقه الآن على غير ترتيب ، ومع ذلك فهو أجود بكثير من أغلب كتب المستشرقين .

هذا ... ، وليس كل المستشرقين ممن يصح الاعتماد عليهم فى كل شيء ، فقد طبعوا كثيرًا من الكتب ... ، وأقل كتاب وأردأه مما يطبع فى مصر هو خير من مثل هذه الكتب . فلو أخذت مثلًا « كتاب الزُّهرة » لابن داود الظاهرى ، الذى طبعه الأستاذ « لويس نيكل » بمساعدة الأخ « إبراهيم طوقان » (*) ، لوجدت أكثره خطأً ، بعد الذى بذله الأستاذ طوقان فى الاستدراك عليه ... ولو شئنا أن نضرب المثال بعد المثال على ذلك لضاق المكان عن إتمام ذلك .

مباحثهم

أما مباحث المستشرقين فهذه هى موضوع الإشكال كله ، والمستشرقون - كما لا يشك أحد - ثلاث فئات : فئة المتعصبين الذين تعلموا العربية فى الكنائس لخدمة التبشير ، وهم الأصل ، لأن الاستشراق فى أوله كان قد نشأ هنالك بين رجال الدين ... وفئة المستشرقين الذى يخدمون السياسة الاستعمارية فى الشرق العربى ، وفئة العلماء الذين يظن أنهم تجرّدوا من الغرضين جميعًا ...

فأما الفئة الأولى والثانية فما نظن أكثر أقوالهم فى المباحث الإسلامية إلا جانحًا إلى غرض أو مركوسًا (١) بقوله إليه ، وهم أكثرية المستشرقين ، ولا نظن أن كلام هؤلاء مما يمكن أن يعتمده أحدٌ إلا أن يكون مفتونًا جاهلًا . وأما الفئة

(*) ترجم الأستاذ بدوى هذا الإسم فجعله « توقان » !! شاكر .

(١) مركوسا : ركس الشيءَ وأركسه : قَلَبَه وردَّه إلى أوله . وفى التنزيل العزيز ﴿ والله أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ ، أى رَدَّهم إلى الكفر .

الثالثة ، فهى أيضًا موضع الإشكال ، فمن غير الممكن فيما نظن أن يتجرد هؤلاء عن الغرض الخفى الذى يدب من وراءِ الكلام ؛ هذا على أنهم كما قدمنا ليسوا أصحاب سليقةٍ فى فهم النصوص العربية على التحرى لموضوعها ، وتمام الفقه لمعانيها التى يتعاطونها ، وإذن فمن واجب قارئ كلامهم أن يقف عند آرائهم موقف الناقد الذى لا يقبل إلا ما تقبله الطبيعة الفطرية للغة فى المعانى التى يستخرجونها من الكلام . ومع ذلك أيضًا فمن عيوب هذه الفئة أنهم ربما استخرجوا قولًا ضعيفًا فاسدًا ليس بشىء فى تاريخ الإسلام والعربية ، ثم يكتبون وقد اتخذوا هذا القول أصلًا ثم يجرون عليه سائر الأقوال ويؤولونها إليه ، ثم يحشدون لذلك شبهًا كثيرة مما يقع فى تاريخ مهمل لم يمحص كالتاريخ الإسلامى ، وكذلك يلبسون على من لا يعلم تلبيسًا محكما لأنه حشْد وجمع ، وتغرير بالجمع والاستقصاء الذى يزعمون . وسنتناول ذلك بعد قليل بعرض بعض الآراء التى ترجمها لنا الأستاذ بدوى فى كتابه لنحقق كل ذلك إلى نهايته ، حرصًا على أن نحصر الفساد فى أضيق محيط .

العقاد

وأنا لا أحب أن أختم هذا الحديث بغير مثل أيضًا . فهذا الأستاذ « العقاد » ، وكلنا يعلم أنه قلما كان يتناول الأغراض الإسلامية بالتحرير والبحث ، ولكنه منذ العدد الهجرى للرسالة كتب مقالة عن عبقرية محمد ﷺ العسكرية ، ثم عن عبقريته السياسية ، فاستوفى القول فى ذلك وأشبعه ، ورد كثيرًا من الشبه التى كان يلبس بها الأعاجم على الأغرار من شبابنا . وليس يستطيع مستشرق أن ينفذ فى فهم التاريخ العربى ، والاجتماع الإسلامى ، والفلسفة الإسلامية ، كما يستطيع كاتب قارئ مطلع كالأستاذ العقاد . ثم هو فوق ذلك أديب عربى يستطيع أن يجعل فطرته العربية الأدبية عونًا له على التغلغل فى أسرار تاريخية مطموسة ، لا يطيقها المستشرق لفقدانه مثل هذه الفطرة ، ثم لأن البيئة العلمية والاجتماعية التى نشأ فيها وتثقف على أساسها لا تطاوعه أو تلين معه ، حتى يكون فى نظره

إلى التاريخ العربى أو الفلسفة الإسلامية ، خَرَّاجًا وَلاَّجًا على طبيعة العرب وطريقتهم فى تداول معانى حياتهم ، وحياة أفكارهم وفلسفتهم . ونحن نرجو ألا يخلى الأستاذ العقاد مباحثه من هذا النوع الجديد من الفكر فى تاريخ تنقذف عليه كل يوم جهالات كثيرة مفسدة ليس لها أصل ولا بها قوة .

* * *

توطـــئة

كتبت - فى هذا الباب - منذ أسابيع بعض رأيى فى الشعر والشعراء ، ولم يكن همى أن أستوفى كل الرأى فيهما وليس من عملى الآن أن أفعل ذلك ، وإنما هى إشارات فى لمحات يأخذ بها من يأخذ ، ويدعها من شاء أن يدع ، وأنا أحب أن أقدم بين يدى كلامى ... فإن بعض من يغافل نفسه عن حدود الألفاظ ومعانيها ينطلق من ورائها يمد منها بأوهامه مدًّا بعيدًا حتى يخرج بما نكتبه عن المعنى الذى نريده إلى أحلام ووساوس وخطرات يحم بها ثم يغلى ثم ينتفض ... ثم لا يكون رأيه فينا إلا وهمًا ، من فوقه وهم ، من فوقه عناد ، ظلمات بعضها فوق بعض .

فأنا حين أهجم على الغرض الذى أريده من النقد أو البيان ، لا أتلجلج دونه لما أخشاه من قالة السوء التى يوكل بها بعض من فرغ زمانه إلا من الفراغ الذى يستهلكه فى اختلاق الأوهام واقعة وطائرة ، رائحة وغادية ، ثم هو يجلس إليها - بعد أن تفصَل عنه - ليتأملها ويملأ عينيه وأذنيه من مفاتنها وألحانها ! وأنا أحب أن يعلم من ليس يعلم أنى حين أكتب عن صديقى وكأن ليس بينى وبينه سبب من مودة ، وأكتب عن عدوى وكأن ليس بينى وبينه دخان من غضب ... فإذا خُيِّل لبعض من يتخيل أنى أماسح صديقى أو أتلفف على عدوى فقد أخطأ ، وإنما العيب منه لا منا ... وذلك عيب علمه أن هذا عدو وهذا صديق ، فيرى من وراء اللفظ ومن تحته ومن فوقه ومن بين يديه معانى ليست منه ولا تتداعى إليه ، وإنما نحن نستوفى الكلام ونعطيه حقه على وجوهه فى الرضا والغضب ، ونأخذ أنفسنا بذلك ما استطعنا ، فإن الحق فى هذا الذى نكتبه هو حق القارئ لا شهوات من يكتبه ؛ ثم هو بعد ذلك رأينا أصبنا أو أخطأنا ، وليس علينا أن نوافق هوى قارئ لأنه هواه ، بل علينا أن نجتهد له فى إمحاض الرأى الذى نراه ليأخذ منه أو يدع على قدر من اقتناعه أو مخالفته ؛ فهذه كلمة أُوَطِّئُ بها ما بينى وبين القراء ، ليسيروا إلينا ونسير إليهم فى مهاد مذلَّل من الرأى والنصيحة ...

ويعتَدُّه قومٌ كثيرٌ تجارةً   ويمنعُنى من ذاك دينى ومنصِبى

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٢) ، إبريل ١٩٤٠ ، ص : ٥٨٣ - ٥٨٦

الملاح التائه !

أمّا « الملّاح التائه » فذاك هو الصديق الشّاعر المهندس « على محمود طه » ، وقد عاد بعد خمس سنوات فألقى على شاطئنا ديوانه الثانى « ليالى الملاح التائه » ثم نشر شراعه ومضى . وقد أحدث ظهور هذا الديوان الجديد – فى معرضه الأنيق وشعره القوى الجميل – آثارًا فى توجيه أنظار الناسِ إليه وإلى صاحبه ثم إلى الشِّعر خاصة ، ثم اختلف الأدباء عليه بأحاديثهم وآرائهم ، ولَغَوْا لغوًا كثيرًا فى الأغراض التى اشتملتْ عليها ضفتا هذا الديوان الثانى فى شعر « الملاح التائه » . ونحن لن نعرض لشيءٍ مما قيل فى ذلك إلا كما يدرج الكلام على أغراضه بالإشارة والتنبيه والبيان على مجاز السياق .

والشعر أيضًا !

ولا بُدّ من أن نعود مرة أخرى للحديث عن الشعر عامةً ، ليكون بعض الرأى فيه مدخَلًا للكلام عن « الملاح التائه » ، فإن أكثر ماقيل – عن ديوان هذا الشاعر – إنما مردُّه إلى آراء فاسدةٍ فى معنى الشِّعر ، وماهو ، وكيف هو ؛ وإلى الجَهْل بطبيعة الشاعر وفطرته ومن أين تأتى ، وأنى تتوجَّه ، وكيف تجرى به إلى أغراضِها على نِظام لا ينفَكُّ عنه أراد أو لم يُرِدْ .

وليس يشكُّ أحدٌ أن الشِّعْر فى أصله هو معانٍ يريدُها الشاعِرُ ، وأن هذه المعانى ليست إلا أفكارًا عامّةً يشتركُ فى معرفتها كثير من الناس ، وأنها دائرةٌ فى الحياة على صورتها التى تأخُذُها بها كل عينٍ ، ويتداولُها من جهته كل فِكْرٌ ، وأنها – إذ كانت كذلك – ليست شيئًا جديدًا فى الحياة ولا فى معانيها وأوصافها وحقائقها ، وإنما تصيرُ هذه المعانى شعرًا حين يعرضُها الشاعر فى معرضٍ من فنِّهِ وخياله وأدائِه ولفظه ، فيجدد لك هذه المعنى تجديدًا ينقلها من المعرفة إلى الشعور بالمعرفة ، ومن إدراك المعنى إلى التأثُّر بالمعنى ، ومن فهم الحقيقة إلى الاهتزاز للحقيقة ، فتجد المعنى القريب وقد نقلك الشاعر إلى أغواره الأبدية وأسراره العظيمة وكأنه قد خرج عن صورته التى ضُربت عليه فى الحياة إلى السِّر

الأول الذى أبدع هذه الصورة ، وإلى الصلة التى تصل مابين المعلوم إلى المجهول البعيد الذى لا يُرى ولا يُلمس .

فالشعور والتأثر والاهتزاز هى أصل الشعر ، ولا يكون شعر يخلو منها ومن آثارها وتأثيرها إلا كلامًا كسائر الكلام ليس له فضلٌ إلا فضل الوزن والقافية وهذه الثلاثة لا يكتسبها الكلام من المعانى من حيث هى معان معقولة مدركة ، وإنما هى فيه من روح الشاعر وأعصابه ، ونبضات الشوق الأبدى التى تتنزّى فى دمه ؛ فأيُّما معنًى عرفه الشاعر ، وأيّما صورة رآها ، وأيّما إحساس أحس به ، فهو لا يكون من شعره إلا حين يتحول فى روحه وأعصابه ودمه إلى أخيلة ظامئة عارية تبحث عن رِيِّها ولباسها من أسلوب الشاعر وألفاظه ، ثم تريد بعد ذلك زينتها من فن الشاعر لتفصل عنه فى مفاتنها الجميلة كأنها حسناء قد وجدت أحلام شبابها فى زينتها وأثوابها . وبقدر نقصان خزائن الشاعر مما تتطلبه أخيلته الظامئة العارية ، يكون النقص الذى يلحق العذارى الجميلة التى تسبح فى دمه من معانيه .

والشعر على ذلك هو فن تجميل الحياة ، أى فن أفراحها الراقصة فى نسمات من الألحان المعربدة بالحقيقة المفرحة ، وفن أحزانها النائحة فى هدأة التأملات الخاشعة تحت لذعات الحقيقة المؤلمة ، وفن ثوراتها المزمجرة فى أمواج من الأفراح والأحزان والأشواق ، قد كُفَّتْ وراء أسوار الحقيقة المفرحة المؤلمة فى وقت معًا .

وهو على ذلك فلسفة الحياة ، أى فلسفة السمو بالحياة إلى السر الأبدى الذى بث فى الحياة أسراره المستغلقة المبهمة التى تُرى ولا تُرى ، وتظهر ولا تظهر ، وتترك العقل إذا أرادها حائرًا ضائعًا مشردًا فى سبحات من الجمال تضىء فيه بأفراحها كما تضىء بأحزانها ، وتفرح بكليهما وتحزن ، فرحًا ساميًا أحيانًا ، وحزنًا ساميًا أبدًا .

وإذا كان الشعر هو فلسفة السمو بالحياة ، فمعنى ذلك أنه النظام العقلى الدقيق الذى يبلغ من دقته أن يكون منطقه إحساسًا مسددًا لا يخطئ ولا يزيغ ولا يبطل ولا يتناقض فى أسلوبه الفنى ونظامه الشعرى البديع ، وهذا النظام العقلى

النابض الذى يتلقف مادة أفكاره من الحياة لا يستطيع أن يشعر أحيانًا ، ولا يشعر أحيانًا ، كما قال بعضهم ، ولا يستطيع أن يتقيد بزمان ومكان يستوحى منهما الشعر ثم لا يكون هو يستوحى من غيرهما ، كما ذهب بعض أصحاب الكلام إلى القول حين ظهر « ليالى الملاح التائه » فى شعر الطبيعة المصرية ، وشعر الطبيعة الأوربية وما إلى ذلك من فضول الحديث .

إنّ هذه الحاسَّة العاقلة المفكرة النابضة فى الشاعر تأخذ مادتها من مَساقط الوحْى فى كل أرضٍ وتحت كل سماءٍ ؛ وربَّ خمول أو فَترة تأخذُ هذه الحاسة فى موطنها ومنشئها ومدْرجها ثم تكونُ البلادُ البعيدة فى مطارح الغُرْبة هى التى تنفُض عنها غبارها وتمسحه حتى تجلوها جلاء المرآة ، إعدادًا لها لتتلقى صُورها التى تجرى فى مائها إلى دم الشاعر ثم إليها مرة أخرى ، ولا تزال كذلك بين الأخذ والإعطاء حتى ينبثق ماء الينبوع من صخرة الحياة الشاعرة .

فلا يخدعنَّك مايقول فلانٌ وفلانٌ ، فإنْ هم إلا أسماء قد ركبتْ على ألقابها تركيبًا مَزجيًّا على خطأ وفساد ، كما ركِّبتْ حضرمَوت وبعلَبك تركيبًا مزجيًّا على صحة وصواب .

ليالى الملاح التائه

كل هذا الديوان شعرٌ من شعر « على طه » بعد رحلتيه من مصر إلى أوربا فى خلال هذه السنوات التى انقضت بعد نشره الجزء الأول من ديوانه وهو « الملاح التائه » . وقد كانت هاتان الرحلتان وحيًا جديدًا فى نفس الشاعر وأعصابه وأحلامه ، وكانتا تغييرًا فى حياته عامة وفى أفكاره خاصة ، ولم يكن بد إذن أن يجدَ قارئُ هذا الديوان فرقًا بيّنًا بين شعر « الملاح التائه » و« ليالى الملاح التائه » . وليس هذا الاختلاف بشىء ألبتَّة ، فإن شاعريَّته لم تزل هى ما هى فى كليهما على نمط لن يختلف ، ولكنه نزع فى هذا الطَّوْر الجديد إلى السهولة والرِّقة ومعابثِة المعانى والألفاظ بغزل رقيق من عواطفه . وعلةُ ذلك فيما نرى أنه انطلق من قيود مصر فى أول رحلته وخرج شاردًا يستجلى روائع الحياة الأوربية الزاخرة ببدائع

الفن ومعجزات الحضارة والعلم ، ونزلَ المنازل المتبرِّجة بفتنَها فى عواصم المدن الأوربية ، وعبَّ من مُسكرَاتِ الجمال الفطرىِّ والصناعىِّ البديع الذى تستجيده أنامِلُ الحضارة الرقيقة العابثة اللاهية ، والتى لم تدع للفنّ مَعقلًا إلا لعبت به واستخرجت كنوزه وتلاعبتْ بها على أصول أخرى غير التى بنى عليها الفن القديم البارع المحكم ، وعرضت له الصور التى تفتن الناس بجمالها وتهدمهم بفتنتها ، وتقعُ فى دمائهم موْقعًا لاتلبث معه إنسانية الإنسان أن تشتعل من جميع نواحيها بلهيب من اللذة والسكر والفرح ... كل ذلك هزَّه وهزَّ أعصابه وألقى عليه من وحيِهِ وتركه يقول من الشعر على السجية غير متكلِّف ولا مُنقِّح ولا راغبٍ فى الكد والعناء و ... ، والحنبليَّة الفنية التى تريد البديع ، فإذا أدركته طلبت الأبدع ، فإذا بلغت تسامت إلى ماهو أبدع منهما ، لا تهدأ ولا تقرُّ ولا تستريح إلى جميل .

كان هذا - فيما نرى - وكانت نفسه الشاعرة المتلقِّفة - والتى تهجم بعينيها على أَبكار المعانى بنشوة الشباب العِربيد - تتلفت تلفُّت الصائد ، تكاثرَ الصيد بين يديه ، فما يدرى ما يأخذ وما يدع ، وهو مع ذلك لا يزال يذكر صِغاره وأحبابه وهوى قلبه ، ومن يريد أن يصنع لهم حياةً من صَيده ؛ فهو يتلفَّت إليه بقلبه حنينًا وذكرى وصبابة . فهذه العواطف الدائبة فى تكوين شاعريته ، والتى تلوّنها بألوانها وتخاريجها ، هى التى جنحت به إلى السهولة والرقة والغزل الحُلو بينه وبين معانيه وألفاظه ، ومن غير الممكن أن يتقيد الغزل الشعرى بقيودٍ تضبطه ، وإلا انقلب تكلفًا واستكراهًا وجفوة .

الجندول

وإذا أردت أن تعرف صدق الذى قلنا به من العوامل الجديدة فى تلوين هذا الشعر ، فخذ هذه الأغنية الجميلة التى ترنَّم بها الشاعر الموسيقى ، ثم أعطاها الموسيقىّ البارع « عبد الوهاب » تغريدها فى ألحان هى من شعر الموسيقى ....

فإن الشاعر حين لعبت به فتن « عروس الإدرياتيك » فى كرنڤالها المشهور ، ودَفِئَ دَمُه فى أنفاسها الحبيبة المعطَّرة وفجأته فِتنة من فِتَنِهِ التى عرضت فى

صبابته ... أَرَقَّ فتنة فى أحلى جوٍّ فى سِحر الليل المضئ فى أجمل فن الحضارة فى أَحْفَل الليالى باللهو والعبث ، والضحكات التى تتردد بين أضواء الكهرباء حتى كأنها أمواجٌ من الضوء تضحك ضحكها - لم يستطع ضَبْط تلك الأمواج الفرحة المعربدة فى إحساسه الشاعر ، فبدأ يترنَّم :

أين من عينىَّ هاتيك المجالى ... ياعروس البحر ياحلم الخيالِ
أين عُشَّاقُك سُمَّار الليالى ... أين من واديك يامهد الجمالِ

ثم انطلق يصف عاطفته وجو عاطفته وعطر عاطفته ، كل ذلك بألفاظٍ غزلةٍ عاشقةٍ ، تتنفس أنفاسها من المعانى المرحة ، حتى فى بعض اللوعة المستكنَّةِ وراءَ نفسه ، والتى استعلنت فى قوله :

« أنا من ضيَّع فى الأوهام عمره »

بعد أن قال :

ذهبىُّ الشَّعر شرقى السماتِ ... مرح الأعطاف حُلوُ اللفتات
كلما قلت له : خذ ، قال : هات ... ياحبيب الرُّوح ، يا أُنس الحياة

كل ذلك والشاعر فى مرح ونعمة وخيال وافتتان ، وكأنَّه نسى الدنيا التى ولد فيها كما « نسى التاريخ أو أنسى ذكره » ... ولكن لا يلبث يتلفت بعد ذلك تلفتًا مؤثرًا عجيبًا ، هو دليل الشاعريّة الصحيحة التى اشتمل عليها تكوينه العصبى ... يقول :

قال : من أين ؟ وأصغى ورنا ... قلت من مصر ، (غريب) هَهُنا

(غريب) ، هذه كلمة النفس الشاعرة فى مكانتها من ألفاظها وفى أقصى مدِّها من التأثير ، إنه حرف يبكى من الغربة والذكرى ، ولوسقطت هذه الكلمة من الشعر لسقط كل الشعر ولسقط معه رأينا فى العوامل التى عملت شعر « على طه » بعد رحلته إلى أوربا ، لو قال : (من مصر) وسكت ، أو أتى بذلك الحشو الذى لا معنى له ، والذى يكثر فى شعر الضعفاء ، لانسلخ عن الشعر إلى سؤال يتلقاه المرء من فضولى قائم على طريق السابلة ، وجواب استخرجه الفضول

واللجاجة ... ثم هى بعد ذلك التفات يخيل لك معه أن الشاعر قد رد فقال : من مصر ، ثم انفتل بوجهه إلى مصر ، وتلقى دمعة يموِّهها بيده ويمسح أثرها بمنديله - فى هذا الجو المرح العابث اللاهى - وهو يقول : (غريب ههنا) .

هذا ... وقد أخذت هذا الموضع وحده من القطعة لشهرتها الآن وليتدبر من يسمعها فإن فيها من أمثال ذلك كثير ، مما هو دليل الشاعرية الناضجة التى لا تخطئ معانيها . ولو أخذت سائر شعره على هذا الأساس الذى كشفنا لك عنه فى حديثنا عن الشعر لوقفت على روائعه التى هى روائعه .

* * *

الرأى العام

كتب الأستاذ « الزيات » فى العددين الماضيين من الرسالة كلمتين جليلتين ، إحداهما عن « التبشير » والأخرى عن « فقهاء بيزنطة » : أى فقهاؤنا وعلماؤنا . وهما تنزعان جميعًا إلى بيان أصل واحد ، وهذا الأصلُ هو غفلتُنا وإهمالنا ، ثم غثاثة آرائنا وضآلتُها ، وهذه مردّها إلى عِلل كثيرة قد توغَّل داؤها فى أعصاب الأمم الإسلامية ، حتى صار الدواء لها باطلًا أو كالباطل ، وذلك لغلبة الجهل علينا ، وفى الجهل العناد ، وفى العناد المكابرة ، وفى المكابرة اللجاجة ، واللجاجة أمٌّ ولودٌ كل أبنائها أباطيل ، ومَنْ طَلَب علاج الأباطيلِ وترك أمهاتِها تَلِد ، فقد جعل علاجَه باطل الأباطيل .

وهذه الأمة المصرية وسائر الأمم الإسلامية قد خضعت من قرون طويلة لسيطرة الجهل وبغيه ، وامتدت عليها حقبٌ طويلة أظلّتها بالغفلة والنسيان والموت ، وحجبت دونها شمس المعرفة ونور العلم ، حتى انحنت على أساطير التراب تجدُ فيها كل معانى الفكر والعقل والقوة ، وصار همُّها الأرضَ وما تنتج مما يكفى شهوات النفوس المشتغلة باللذة ، أو يردُّ مسغبة النفوس المحطَّمة بالعمل . ثم جاءت الذئابُ الذكية العاقلة المدبّرة ، فعرفت صيدها وقالت له : اعمل عَملك ، فهذا طريقُك ، ولكنها خشيتْ أن تتمزَّق الظُّلَلُ وتسقطَ الحُجُب ، وتهبَّ تلك القوة العلوية الرابضة فى دمِ الإنسان ، فترى أشواقَها فتندفع إليها اندفاعَ الوحش المجوَّع فى مَهوى الريح التى تحملُ أنفاسَ فريسته ، وعندئذ تعجزُ الحيلة فى دفع هذه القوة وردّها إلى ماكانت عليه تحت أطباق الخمول والخمود والغفلة . وعمِلَ ذكاءُ الذئاب عمله ، ورأى أن قمع القوة العلوية بالاستبداد والفجور فى الاستبداد هو الشر عين الشر ، وأنه كقمع البخار فى قماقم الحديد ومن تحتها جاحم من النار يتضرم ، فما يعقب إلا الانفجار والتصديع والأذى .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٣) ، ١٩٤٠ ، ص : ٦٢٠ - ٦٢٢

فنكبوا عن ذلك إلى تصريف هذه القوة العلوية حين تستيقظ فى هذا الشرق تصريفًا يكفل لهم معها أمرين :

الأمر الأول : التنفيس عن هذه القوة ، واتخذوا لذلك أبرع الأساليب ، فحاولوا أن يظهروا وكأنهم هم الذين يعملون على إزالة غشاوة الجهل عن العيون المحجبة ، فأنشأوا المدارس وتلبَّسوا بالنصيحة للتعليم فى معاهده كلها ، وجعلوا خلال ذلك يضعون ويقررون أصولًا تؤدى بهم إلى أغراضهم ، ليسيروا بالتعليم إلى حالة ترضيهم وتنفعهم ، فلا يخرجون من هذه المعاهد جيلًا يقف أمامهم كما تقف القوة للقوة وكما يناهض العقل العقل ، ثم يزاحم فى إنشاء الحضارة بالقوة العاملة والفكر المبدع .

والأمر الثانى : وهو بناء على ذلك البناء ، وذلك اجتهادهم - بكل أساليب التنبيه والدعاية والمثال وغير ذلك - فى توجيه الرأى العام فى نواح بعينها إلى العصبية الفردية والإجماعية ، ثم صرف هذا الرأى العام - أى أهله - عن الاهتمام بتقرير الأصول العامة التى تسير عليها السياسة الخلقية والعقلية والإنشائية والعملية ، وعن العمل فى توحيد الرأى العام للشعب توحيدًا يكفل للأمة أن تستغل كل قواها فى تدبير المستقبل على نظام ثابت مستقر ماض على أسبابه إلى النهاية غير مختلف ولا متنافر .

وقد كان من نتائج هذين الأمرين العظيمين - حين استيقظنا وأبصرنا - أن تعددت الثقافات فى الشعب الواحد ، وتنابذت العقول على المعنى الصحيح ، واختلفت المناهج المفضية إلى الغايات ، وعاون ذلك ما ورثناه من الجهل الداعى إلى العناد والمكابرة واللجاجة ، فاستشرَى داء العصبية وأصبح العمل عندنا لا يكون عملًا حتى يحاول أن ينقُض كل ماسبقه من العمل ، وتعاقبت على الأمة أطوارا بعد أطوار ولا تزال فى عهد الإنشاء ، ولا تزال اللجان تجتمع عامًا بعد عام لتقرر وتضع ، وليس إلا التقرير والوضع وَحَضَانة المذكرات !!

وكذلك اختل نظام الرأى العام . وهو لا يكون إلا من اشتراك الجماعة فى الأصول الثقافية كلها ، واختل أيضًا مكوِّن الرأى العام ، وهو الصحافة وما ينزل فى

ذلك منزلتها ، فتكَوَّن من الصحف المختلفة المبادئ آراء متخالفة ، لا بل متباعدة ، لا بل متعادية ، كلا بل هى فى الواقع لا تمس جوهر حياة الشعب العامل المستَهلَك فى الزراعة والصناعة والجهْل أيضًا ... وحتى لا نجد صحيفة واحدة قد بَنَتْ دعوتها على أصولٍ بيِّنة موافقة لحاجة هذا الشعب ، وعلى هذه الأصول تأخذ وتدع ، وتحبذ وتنقد ، وتهدم وتبنى ، على تعاقب السنين وتغير الظروف والأحوال .

التبشير

وأحدُ الأمورِ التى ابتُغِى بها العملُ على إضعافِ الشعب والتفريق بين أهله ، وإيجادُ ضروب من الثقافات فى بلد واحد يجب وجوبًا قطعيا - كما يقولون - أن تتوحد ثقافته - هو ما اتخذوه من التبشير ومدارسه المختلفة ، وما يبطن أصحابها وما يظهرون . وليس التبشير هو الدعوة الصريحة إلى الدين المسيحى ، فإن هذا لا يمكن أن يكون فى بلد جل أهله من المسلمين ، وخروج المسلم من دين الإسلام إلى دين غيره يكاد يكون مستحيلًا فى العامة من الشعب ، ويكاد لا يصح عند المتعلمين وأشباه المتعلمين وهذه حقيقة يعرفها المبشرون قبل أن يعرفها المسلمون ، وإذا فليس الغرضُ من التبشير هو المفهوم من لفظه ، ولكنه الذى أشار إليه الأستاذ « الزيات » فى مقاله ، ثم إيجاد ضرب من الثقافة الأدبية والخلقية والعقلية يناقض ضروبًا أخرى من الثقافات المختلفة فى مدارس الأجانب والمدارس الوطنية ، وبذلك تتعدَّد المناهج الفكرية فى حياة الشعب ، ويعسر بعد ذلك أن تتحد هذه الثقافات على رأى عام يقوم عليه الشعب ويحرص على تنفيذه ، ويأخذ فى الإعداد للوصول إليه درجة بعد درجة . وكذلك يبقى الشعب إلى النهاية وهو فى بدء لا ينتهى وفى اختلاف لا ينفضُّ ، بل يصير ولابد إلى المعاداة والمنابذة والأحقاد التى تؤرثها السياسة الاجتماعية الخفية التى طغت على الشرق من قِبَل حضارة قوية باهرة عظيمة كالحضارة الأوربية .

ولا يزال أهل الشرق مختلفين ما بقيت هذه الثقافات المتعددة من مدارس التبشير إلى المدارس الإلزامية ، تمد الرأى العام بأصحاب الآراء المختلفة والعقول

المتباينة . ولن يصلح أمر هذا الشعب حتى يناهض ذلك كله بانصرافه إلى مدارسه ابتغاء توحيد ثقافته على أصل واحد . والأصل الضعيف الموحد فى ثقافة الشعب خير وأنفع من الأصول المتعددة القوية ، لأن هذه تغرى بالتفرقة والعداء ، وذلك يؤلف ويوفق ويضم أشتاتًا ويقيم القلوب على الإخلاص والتفاهم .

فقهاء بيزنطة

وهذا مثل جيد ضربه الأستاذ الزيات لاختلاف عامة المسلمين على بعض أحكام الفقه الإسلامى والسنة النبوية ، وبغى بعضهم على بعض فى ذلك ، وتركهم الأصول الإسلامية التى ترفع المسلم إنسانية فوق إنسانية ، وتمحُّصه من الجهل والضعف والفساد والذلة وكيف يختلف علماء المسلمين على فروع من دينهم ويدعون الأصل لا ينفذ نوره إلى قلوب هذه الملايين من المسلمين ، فيطهر أدرانها ويزيل غشاوة العمى التى ضربت عليهم أسدادها .

وضرب الله مثلًا فقال : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

فقد بين الله سبحانه أن اختلاف من سبقنا لم يكن إلا بغيًا من بعد أن جاءهم العلم ، وأنه جعل المسلمين على شريعة من الأمر . وحق ذلك ألا يقع الاختلاف بين المسلمين إلا فى رأى لا يفضى إلى فرقة ، وعلى ذلك كان السلف من أصحاب رسول الله ﷺ فاتبعوا قوله : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » ، وقد نهى عن الجدل والمراء وتناهى أصحابه عنه حتى قال ابن عمر : « لا يصيب الرجل حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وهو مُحِقّ » .

ونحن قد صرنا الآن إلى زمن قد غلبت فيه بدع كثيرة ليست من الدين ولا تنزع إليه ، ولكنها من محدثات الأمم وفتن الأهواء . ونحن أيضًا فى زمان ضعف وقلة وتفرق ، والأمم من حولنا تتباغى على أنفسها وعلينا ، فما يكون

اختلافنا على البدع والمحدثات وبغى بعضنا على بعض - ومصير ذلك كله إلى العداوة والبغضاء وأن يكفر بعضنا بعضًا - إلا إعانة لهؤلاء على النيل منا ما شاءوا . ثم نحن فى زمان جهل بالدين ، فليس من أمر الله أن ندع أصل الدين مجهولًا ، وننصرف إلى فروع نحاول على إبطالها أو تحقيقها .

وقد روى البخارى : « قال رسول الله ﷺ اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه » ، فإذا كان من سنة رسول الله ﷺ أن يحسم أصل الخلاف بترك مجلس الخلاف فى القرآن وهو أصل الإسلام كله ، فأولى أن نقوم عن مجلس الخلاف فى فروع وسنن ، لئلا يفضى ذلك إلى مثل الذى نراه بيننا اليوم من التعاند على بعض السنن بالعداوة ، حتى صار لكل صاحب رأى فريق يحامى دونه ويعادى عليه ، ثم يقع بعضهم فيما هو أشد نكرًا من أصل الخلاف ، ألا وهى الغيبة والتفريق بين المسلمين .

سياسة الإسلام

والإسلام فى بنائه قائم على مصلحة الجماعة ، وجعل المسلمين يدًا على من سواهم ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا . وهذه مصلحة مقدمة على كل المصالح الأخرى . وهى مقدمة على فروع الفقه الإسلامى ، كما قدم الجهاد فى سبيل الله على كل عمل من أعمال الإسلام .

والإسلام فى أصله أيضًا لا يعرف من نسميهم اليوم « رجال الدين » فإنما هم من المسلمين يعملون أول ما يعملون فى حياطة الجماعة وإقامة كيانها الاجتماعى والسياسى بالعمل ، كما يعمل فيه سائر الناس فى وجوه العيش وضروب البناء الاجتماعى . وليس الانقطاع للجدل فى الفقه والسنن والتوحيد عملًا من أعمال الحياطة إلا أن يبنى على المسامحة والأخوة والرضا وترك اللجاج والمعاندة ، وإلا فهو شرٌّ كبيرٌ يجب على المسلمين أن يحسموا أصله .

فإذا استقرَّ البناءُ الاجتماعىُّ للأُمم الإسلامية على أصولِ الإيمان المُبْصِر والتقوى الهادية ، وتبرأتِ النفوس والقلوبُ من غوائل الضعف والذلّةِ والخُضوع ،

وقام على الأمم الإسلامية قرآنُها يَهديها ، ويُهذِّبُ شُعوبها ، ويرقِّق أفئدتها لدين الله ، ويؤلف قلوبها على إعلاء كلمة التوحيد ، ويجمعها على دستور الإسلام فى التشريع الواضح الحازم القوى ، ويجعل الاجتماع فى كل بلد إسلامى اجتماعًا بريئًا من فتن الغواية ومحدثات الشر ، ثم تكون للمسلمين حضارة من أصل دينها تضارع الحضارات التى تناوئ شعوبها وتستذلها ، - إذا كان ذلك كله - فعندئذ يستطيع الحكم الإسلامى أن يرد ما يبقى من البدع التى غلبت على أهل الجهالة بالسلطان الحاكم لا بالكلام المفرق بين الناس وإذن فأجدرُ العملين برجال الإسلام من أصحاب الفقه والشريعة والتوحيد أن يعملوا على إنقاذ المجتمع الإسلامى من أسباب ضعفه بهدايته بأسباب القوة الأخلاقية والفكرية التى جعلت المسلمين فى ثمانين عامًا سادة حاكمين على الإمبراطورية التى جاهد الرومان فى بنائها ثمانمائة عام ... وإلا فلن يكون بعد مائة عام محمل فى حج ولا محراب فى مسجد .

* * *

نقد

كتب الأخ الفاضل الأستاذ سلامة موسى فى مجلة اللطائف (٨ إبريل سنة ١٩٤٠) كلمة يتعقب بها كلامنا فى (الفن فرعونى ، وتمثال نهضة مصر) المنشور فى عدد الرسالة ٣٤٥ فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٠ ، وجعل عنوان نقده « تعارض التيارات الفكرية ، وضررها على التطور الاجتماعى والثقافى » . وسنلخص لك نقده ثم نتبعه ببعض ما يجب علينا من تحرير رأينا ، وتقدير رأى الأستاذ الفاضل ، يقول : إن الأفكار تتعارض فى كل أمة حرة ولكنه لا يخرج بها عن أسلوب الحياة العامة من التوافق إلى التناقض والتنافر ، فيفضى ذلك إلى اختلال التوازن الاجتماعى ، يعتاقُ الأمة عن الرقىّ والإصلاح . ويقول : إن بعض الآراء فى مصر ليتناقض كما يكون التناقض بين أمتين متخالفتين ، وإن (العقلية المصرية) التى تفكر بها مصر فى أنظمتها الاقتصادية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والتعليمية ، والحربية : هى ضرورة الوضع الجغرافى والاحتكاك السياسى بأوربا ، وإننا لا نعيش فقط فى القرن العشرين ، بل فى سنة ١٩٤٠ من هذا القرن . ويقول ما نصه :

« ونستطيع أن نضرب الأمثال على هذا الاختلاف الذى يقارب التنافر . فقد ألَّفَ الدكتور طه حسين بك كتابًا يدعو فيه إلى أن نجعل من الفن الفرعونى أحد العناصر فى « الغذاء الروحى والعقلى للشباب » فتناول هذه الدعوة الأستاذ محمود محمد شاكر بالاستنكار حتى قال فى مقاله بالرسالة : وعلى ذلك ، فيجب أن نقرر أن الفن المصرى الفرعونى – على دقته ، وروعته ، وجبروته – إن هو إلا فنٌّ وثنىٌّ جاهلى قائم على التهاويل ، والأساطير ، والخرافات التى تمحق العقل الإنسانى ، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرّة أخرى فى أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية – سواء أكان هذا الدين يهوديًّا أم نصرانيًّا أم إسلاميًّا أم غير ذلك من أشباه الأديان » ... ثم استمر فنقل بعض رأينا فى الذى قلناه عن تمثال نهضة مصر .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٤) ، ١٩٤٠ ص : ٦٦١ – ٦٦٤

وهذا تعارضٌ عجيبٌ ، كما يرى الأستاذ سلامة موسى ، واختلاف في التيارات الفكرية يحمله على أن يدعو الاجتماعيين أن يحاولوا التوفيق بين هذه الآراء حتى لا يصير اختلاف الرأى الحر تناقضًا فى العقائد المجزومة ، وحتى نُصْبح أمة متمدنة تستطيع أن تنصت إلى الرأى المخالف فى تسامح ، وأن تعبر عنه فى اعتدال ينأى عن الحدة والتهور .

ثم يقول الأستاذ الفاضل إنه يتوهّم مما كتبته أن الدكتور طه أو المثّال مختار يريدان منا أن نحنط الموتى ونعبد (رعْ) مع أن حقيقة ما طلبه كل منهما أن نستوحِيَ هذا الفن المصرى القديم . ثم يقول عنى وعن الدكتور طه : « إن الاختلاف بين الكاتبين هنا يرجع إلى أكثر من ذلك ، وهو أشبه بالتنافر بين القائلين بعقيدتين متناقضتين ، ومصلحة الأمة تقتضى إزالة هذا التنافر بين الذين يكلفون هذه المهمة ، وكل رجل مثقف يهتم بالانسجام الاجتماعى فى الأمة » .

وهذا نهاية الرأى فى كلام الأستاذ سلامة موسى نقلنا أكثره بنصه أو ما يقربُ منه . ونحن نشكر الأستاذ سلامة موسى على حُسن مقصده ورغبته فى تحقيق الإصلاح الاجتماعى بإزالة كل العوامل المفرِّقة بين الناس .

التيارات الفكرية

ومن الغريب أن اليوم الذى صدرت فيه هذه المقالة فى اللطائف ، هو نفسه اليوم الذى كتبنا فيه عن « الرأى العام وسياسته » فى العدد الماضى من الرسالة ، وقلنا إن تعدد الثقافات فى الشعب الواحد قد أفضى إلى شر آثاره ، حيث تنابذت العقول على المعنى الصحيح ، واختلفت المناهج المؤدية إلى الغايات ، وكذلك يبقى الشعب إلى النهاية وهو فى بدء لا ينتهى ، وفى اختلاف لا ينفضُّ . وكما يرى الأستاذ سلامة موسى أن هذا التعارض البغيض بين الآراء مما يعتاقُ رقى الشَّعب ، ويمنعه من الاجتماع على رأى ، ويَحْرِمُه فضيلةَ القوة التى تنفُذُ به إلى غاياته ... كما يرى نحن نرى ، ونرى وراءَ ذلك كله ماهو أسوأ وأقبحُ مما يستعاذ منه وتخشى مغبَّتُه . فهذا إذن أمرٌ مفروغٌ من تقريره بيننا وبينه ، وهى رغبة نتوافى جميعًا على العمل لها ، ونَشْرِى أنفسنا فى سبيل إنقاذها .

وكان جديرًا بالأستاذ سلامة موسى أن يرى مثل هذا الرأى فى الذى كتبناهُ ، ويعلم عِلْم ما طويناه فى نقدنا لرأى الدكتور طه ، ولعلّه لم يقرأ كل ما كتبناهُ فى العدد ٣٤٤ ، ٣٤٥ من الرسالة ، ولعلّه لم يتتبَّع مانقولُ به من الرأى فى باب « الأدب فى أسبوع » ولو قد فَعَل لعرف أن الرأى بيننا وبينه فى ذلك غير مختلف إن شاء الله .

القرن العشرون

وما دمنا فى حديث تعارُض هذه التيارات الفكرية ، فقد كنت أحبُّ أن ينزِّهَ الأستاذ سلامة موسى كلامه عن بعض التعريض ... وذلك تنبيه لنا أننا نعيش فى القرن العشرين ، وفى سنة ١٩٤٠ منه . فهل يَظُنُّ الأستاذ أننا نعيش فى غيره أو أننا نرى أنفسنا رِمَمًا تاريخية عتيقةً قد انبعثتْ فى أجلادِ إنسانِ (القرن العشرين) .

... الزمن لا يكون هو العلة فى إنشاء الحضارة ، وإنما تُستجدُّ الحضارة بالروح الإنسانية وبالإنسانية الروحية ، وإنما الزمن وحدوده تبع للإنسان الحى ، ولا يكون الإنسان تبعًا للزمن إلا حين تفقد الروح إنسانيتها العالية ، وتفقد الإنسانية روحانيتها السامية ... وترتد الحكمة والحضارة والتهذيب وجميع الفضائل إلى منزلة الغرائز الدنيا التى تصرِّف العجماوات من الأحياء فى سبيلها ، وعلى سنّتها ، وبقانونها ، ومن مدارجها النازلة إلى أغوار الحيوانية الفطرية .

إن من أخطر التيارات الفكرية التى تهاوى فيها أكثر كتاب القرن الماضى ، والمخضرمون من كتاب القرن العشرين اعترافهم بالقرن العشرين وما فيه اعترافًا (تعبُّديًّا) يكاد يكون إيمانًا وعقيدة ، فما أقنع منه بالبرهان والحجة فهو ببرهانه وحجته ، وما لم يقنع فهو مردود إلى الأسرار الأزلية للحضارة ، وأنه هكذا كان ... وأنه هكذا خلق ، وأنه مادام موجودًا فى حضارة القرن العشرين ، فوجوده هذا هو برهانه وحجته ... !

وأنا - مع الأسف - لا أعتقد فى هذا القرن العشرين اعتقادًا قلبيًّا مطمئنًّا بالإيمان ، لا لأنى أريد أن أرتدَّ إلى الماضى لأعيش فى ظلماته وكهوفه وتهاويل

خرافاته ، بل لأنى أرى أن حضارة الإنسانية يجب أن تتجدد بمادتها النبيلة السامية التى كل أجزائها فضائل . أما هذه الحضارة الأدبية العصرية للقرن العشرين ، فهى حضارة حيوانية الفضائل ، ليس فى أعمالها إلا فتنة بعد فتنة . ولا نقول هذا فى العلم – معاذ الله – فإن العلم الحاضر قد استطاع أن ينفذ فى بعض أسرار الكون بأسباب كأسباب المعجزات ، ومع ذلك ، فقد كان هذا العلم نفسه ، هو ما اتخذوه تدليسًا فى تمجيد حضارة القرن العشرين ، ليفتنوا الناس بها عن حقيقة الإنسانية الروحية المتجردة من أغلال الحيوانية النازلة المُتَسَفِّلَة .

الحرب

ويكفى أن تكون هذه الحرب التى أحدَّت أنيابَها ونشرت مخالبها ، وزأرت زئيرها ، ثم أسبابها التى نشأت عنها من المطامع الاستعمارية المستكلبة الضارية ، ثم ماسيكون من آثارها فى الأرواح الإنسانية والمدنية الروحية ... يكفى أن تكون هذه الحرب – من جميع نواحيها وأطرافها ، وبجميع خلائقها وزمن هذه الخلائق – توصيما كتوصيم الفجور الأسود فى الأعراض النقية البيضاء .

هذه الحرب الفاجرة المتعرِّية من جميع الفضائل برذيلة الكذب والخداع مما يسمونه الدعاية والسياسة هى البرهان الحى فى أذهاننا جميعًا – أهلَ القرن العشرين – على أن مدنية هذا القرن ، مدنية حيوانية الأصول والفروع ، هى مدنية مفترسة متوحشة ، لا تعترف بالحق ولا تعرف الحق ، وليس إلا ... الغذاءَ الغذاءَ ... الصيدَ الصيدَ ... : هذا نداؤها وهذا دينها وهذا إيمانها . ثم لا تكون مغبّة أعمالها إلا تمزيقًا وقضقضة وقضما ، وتدميرًا لبنيان الله الذى يسمى « الإنسان » .

الحرية !!

إن هذا القرن العشرين أُسطورةٌ مُهَوَّلَةٌ قد انحدَرت من القدم إلى هذا الزمن ، فى دمها كلُّ الأساطير الحيوانية المرجِفة فى تاريخ الإنسانية . إنه أسطورة عظيمة كاذبة مُكَذَّبة على الناس ، وإن فى مدنيته من الباطِل ملءُ علومِها حقًّا . إنَّ الأجيالَ

الإنسانية النبيلة لتصرخ من وراءِ أسوار التاريخ تريدُنا أن ننقذ أنفسنا من أوهام (القرن العشرين) ، ومن خرافاته الجميلة المزينة بالعلم ، المثيرة باللذة ، المندلعة بألسنة من نيران الشهوات والأهواء ، الصاخبة بعبادة الأوثان التى تجُولُ فى أدمغةِ البشر حاملة نَدَّها وبخورها ومجامِرها وطيبها ، وكل ما ينفذ عطره إلى أعمق الإحساسات يثيرها لتقديس البشرية المتجسدة بلذاتها وشهواتها .

يجب - فى هذا الزمن - أن نتحرر من أباطيل القرن العشرين وأباطيل القِدَم معًا ، يجبُ ألا نعرف الحاضر بأنه هو الحاضرُ وكفى ، ولا الماضى بأنه هو الماضى وحسْبُ ، يجبُ ألا نَتعبَّدَ بشيءٍ من كليْهما ، يجبُ أن نأخذَ الحاضر والماضى بالعقل والعلم والفضيلة ، وما لم يكن كذلك مما مضى ومما حضر فهو نَبذٌ يجب أن ننبُذَه ونتجافى عنه ، يجب أن نتحرر ، يجب أن نتحرَّر ...

إننا الآن أممٌ تريد أن تسيرَ إلى غاياتها فى إبداعِ حضارتها التى سترث جميع الحضارات التى سبقتها ، والحضارةُ التى تأتى من التقليد ليستْ حضارة ، وإنما هى تزييفٌ وكذبٌ ووثنيةٌ جاهلية تنحدر إلى هذا الزمن عن السلالات التى قال الله فيها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟! ﴾ .

لن نبلغ شيئًا حتى تكون (الحرية والحب) نقييْن طاهرين مبرَّأين كاملين متواضعيْن ، فهما القوة التى تسير بهما الحضارة إلى مجدها وروائعها . إذا عرفنا الحرية وجرتْ فى دمائنا فيومئذ تتهدّم كل هذه الأباطيل التى تعوقنا وتقف بين أيدينا من قمامات الرذائل الإنسانية التى قُذِفتْ فى طريقنا من أباطيلِ الماضى وترهات القرن العشرين !!

الفن الفرعونى

والأستاذ سلامة موسى قد بنى نقده على ما يسميه (العقائد المجزومة) ، وعلى عقيدته فى (القرن العشرين) !! ونحن - مع الأسف - لا نبنى أبدًا كلامنا على (العقائد المجزومة) ، ولا على التعصب (للقرن العشرين) ، لو رجع

الأستاذ إلى المقالين اللذين نشرناهما فى الرسالة عدد ٣٤٤ و ٣٤٥ عن محاضرة الدكتور طه ، ولو رجع خاصة إلى حديثنا عن (الفن) ماهو ، وكيف هو ؟ وعن الفنان وعمله فى فنّه - لعرفَ أن دعوتنا كلها مبنيةٌ على تحرير أعمالنا من قيود الماضى والحاضر معًا على أساس من العقيدة والعلم والفضيلة ، فلا يُزرِى عندنا بالقديمِ قِدَمه ، ولا يُوغل فى الجديد جدّته . وإن القول فى (القديم والجديد) على اطلاع اللفظ ، وجعله لفظًا تاريخيًا زمنيًا محصورًا باليوم والسنة ، إن هو إلا تلذذ بالكلام كما يتمطق آكل العسل بعد أكله من تَحَلُّب الريق وشَهْوة الحُلْو ، ولو كان فى هذا العسل السم الناقع .

إن حديثنا عن الفن الفرعونى ، وأنه لا يصلح أن يكون شيئًا يستمد منه الفنان فى زماننا ، لا يمت بصلة إلى الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ سلامة موسى فى فهم كلامنا ، لأننا نظرنا إلى شىء واحد ، وهو تحرير الفن من التقليد . ثم معرفتنا أن الفنان لا يستوحى كما يقول الأستاذ سمة من فنون غيره بل إن الفنان عندنا هو القلب النابض الذى يفضى إليه الدم الخاص الذى تعيش به حضارة أمته فى عصره ، والفن إن هو إلا نتيجة من نتائج الاجتماع الإنسانى والطبيعة التى تحتضنه ، والعقائد التى تسيطر على الشعب وتملأ قلبه بالإيمان بها والفكر فيها . فإنْ لم يكن الفن ناشئًا من ثَمَّ ، فاعلم أنه ليس بفن وإنما هو كذا مضرَّج بتحاسين قوس قزح ، وما أسقط الفن الرفيع فى زمانه وفى بلادنا إلا أنه نتاج العقول المزيفة بالتقليد والخيال المدلل بالسرقة . وهذا الهمج الهامج من الفنانين والأدباء والشعوب والعلماء أيضًا ممن يعيشون بأدواتهم تحت جناح الليل الأسود وفى ستره ، ثم يقبلون على الناس إذا أصبحوا فيقولون أين كنتم ؟ يقولون : كنا نستوحى ، ثم يخدعون الناس بزيفهم وبهرجهم لأنهم لا يعلمون من أين يأتى هؤلاء هذا الوحى . ولو علموا أنما وحيهم وحى اللص الذى يبدع له المال ، وإنما دبيب واستخفاء وحرص ، و« طفاشة » تهشم بها أقفال خزائن بعض الناس ، يستخرجون كنوز غيرهم ليتنبّلوا بزينتها وجمالها .

الحرية هى أصل الفن كما بينا ، وكما هو ظاهر كلامنا وأما الاستيحاء من

فنون القدماء لإنتاج فن لايتصل بمدنيته بسبب إلا القدم والوراثة وتاريخ هذه الأرض ، فهو إبطال للفن ومعنى الفن وقيمة الفن ، وإلا فما الذى فعله الأستاذ المثال القدير « مختار » إلا أن نقل صورة لا معنى لها فى عقائد الشعب المصرى الحاضر ، هى صورة أبى الهول ، وليس فيها معناه القديم الباسط ذراعيه فى جوف رمال الصحراء هناك ، ثم ماذا ؟ ثم فعله بعد أن كان باسطًا متطامنًا ، ثم ماذا ، ثم ألصق إلى جانبه فتاة تضع يدها على رأسه ... سبحان الله هذه نهضة مصر ، وهذا هو فن القرن العشرين !!

إذا كان الأستاذ سلامة موسى أو غيره يريد أن يناقشنا فى هذه الآراء . فليناقش على أساس واحد ، هو أساس الفن ، وماهو ، من هو الفنان . أما (القرن العشرون) ، وأنظمة مكافحة الأوبئة ، والنظام الاقتصادى ، والعلوم ، وما إلى ذلك ، فليس له مدخل أو سبب فى الطبيعة الفنية ، وتقدير الآثار الفنية ، وهل يمكن أن تكون فنًّا إذا كانت تقليدًا واستيحاء وتشاكلا ذكيًّا بارعًا ؟

كل فن يأتى من التقليد واستيحاء فنون الناس ، وكل فن يتولد من شهوة التقليد وبلادة العزيمة وعبودية الروح ، فهو فن كالمولود السُّقط فى آخر تسعة أشهر من حمله ... فيه صورة الحى ولكن ليست فيه الحياة ، فيه قوة المشابهة للحى ولكن ليست فيه قوة استمرار الحى على الحياة .

* * *

مولده

سَكن الكون وأصغى ، وتعبَّأت كل القوى الأبدية لحشدها ، وَعَبَّ التيَّار الإلهيُّ الذى يَمُوج به الكون ، وسعت الملائكة بالبشرى بين خوافق السماء والأرض ، وتهلَّلتْ أجيال النبوّة بأفراح خاتمها الذى أتمَّ الله به نعمته على الناس ، وسَرَتْ فى الكائنات أسرار الحياة الجديدة فاهتزَّت وربتْ واستشرفت إلى النور الخالد الذى ينبع من أُفق الإنسانية العالى البعيد ، ووسوست رمال الصحراء بتسبيحة الحمد لله ، تستقبل الأقدام التى تطؤها النورَ الذى سيمشى أوَّلَ ما يمشى على حَصْبائها ، ثم يمشى بأصحابه فى أرجاء الأرض يحييها بعد موت ، ويطهرها بعد دَنَس .

سكن الكون وأصغى ، وسكنت نأمةُ [١] الشياطين فى مخارمها ومهاويها وآفاقها ،[٢] وخشعت وساوس إبليس بالرُّعب والفزع ، وثبتت فى مساربها جائلاتُ الجِبْت والطاغوت ، وتحيَّرت فى مستقرِّها أباطيلُ الأوثان وأوهام الألوهة المزيفة على الناس .

ثم اهتز الكون كله بالفرح ، فتداعت أبنية الأجيال الوثنية الباطلة ، ثم أخذت تتداعى تحت الأشعة النبوية التى نشرت على الدنيا نورها بالحق والعدل والتوحيد والسلام ...

سكن الكون وأصغى ، ثم اهتز بنوره وتطهر ، ﷺ . والسلام عليك يارسول الله ، سلامًا من كل قلب ، وفى كل زمن ، والحمد لله الذى أرسلك بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

أعـــيادنا

أعياد الأمم هى الأيام التى تستعلن فيها خصائص الشعوب وذخائرها

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٥) ، ١٩٤٠ ، ص : ٧٠١ - ٧٠٣

(١) النأمة : الصوت الضعيف الخفىّ .

(٢) المخارم : جمع مخرم ، وهو منقطع أنف الجبل .

وخلائقها الأدبية والعقلية والنفسية والسياسية . هى الأيام المبتهجة التى تنبض بالحياة وأسبابها فى الأمة ، لتدل على السر الحيوى السارى فى أعصاب الحياة العملية اليومية المتتابعة على نظام من الجد لا يكاد يختلف .

واحتفال الشعب بأعياده أمر ضرورى لإعطائه المثل الأعلى وإمداده بالروح التى تدفعه إلى مجده ، أو إلى المحافظة عليه . فهو من ناحيتيه يظهر ما فى الشعب من خصائصه ومحامده وعيوبه ، ويبقى على المثل الأعلى بالتجديد والبهجة والزينة .

فأعياد الأجانب الأوربيين مثلًا تكشف عن قوتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتعشقهم لجمال الحياة الدنيا إدمانًا وإغراقًا ، وعن جعلهم المجاملة أصلًا أخلاقيًا فى أنفسهم وأهليهم ، وعن غرورهم واستهتارهم واستهانتهم بأكثر الفضائل الإنسانية حين تجرى فى دمائهم عربدة الطغيان الإنسانى المتوحش الذى يرتد إلى الغرائز الحيوانية المستأثرة باللذة ، المجردة من الورع والتقوى .

وأعيادنا نحن تهتك الحجاب عن ضعفنا وذلتنا ، واستكانتنا لما نشعر به من الضعف والذلة ، وتبين عن ذهول الشعب عن نفسه وعن تاريخه ، وعن مجده ، وتعلقه بتُرَّهات الحياة ، وقلة مبالاته بجمالها ، وانصرافه عن معرفة الأحزان الخالدة فى طبقاته بخلود الفقر والجهل والبلادة .

فهل يزدلف [(١)] إلينا ذلك اليوم الذى تتمثل فيه أعياد الشعب الإسلامى صورةَ السيطرة والسيادة والقوة ، وتتبدَّى عليه أفراح الحياة الراضية المؤمنة المطمئنة ، وتعود إليه الأخوة الإسلامية التى ساوت بين الناس غنيهم وفقيرهم وعالمهم وجاهلهم ، وجعلتهم سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالخلق والتقوى ؟ هل يأتى ذلك اليوم السعيد الذى يجعل أعيادنا صورة من مدنية دين الله التى تبدأ بالرحمة والحنان والتعاطف ، وتنتهى بالعمل والجد والصبر والتعاون ؟ يومئذ تكون السيادة العليا للمدنية المستقبلة ، مدنية الحرية التى لا تشتهى أن تَفْجُر ، والعلم الذى لا ينبغى أن يكفر .

---

(١) يزدلف : يقترب ، وأصله المشْى البطىء إلى غاية الشىء .

التعليم

فاز الأسبوع الماضى فى مجلس النواب بإثارة انتباه الناس إلى شأن التعليم وسياسته التى درجت عليها وزارة المعارف من سنين تطاولت ، وقد قدمت اللجنة المالية تقريرها عن ميزانية المعارف ، وتناولت فى هذا التقرير سياسة التعليم وأغراضه ، وعيوبه وما ترجو به له الإصلاح ، وناقش المجلس بعض هذه الآراء ، وعرض حضرات النواب بعض آرائهم وملاحظاتهم .

ونحن - على أننا لم نحضر هذه الجلسة بل قرأنا ما اختصر مما جرى فيها - نظن أن حديث النواب كان يدل دلالة قاطعة على أن وزارة المعارف التى انقضى على قيامها بهذه المهمة مايربو على قرن من الدهر لم تقرر فيها أصولٌ صحيحةٌ للتعليم ، ولم تجر سياستها على منهج يستمر بها إلى غاية تريدها على تدبير وحياطة .

أفلا ترى أن الوزارة لا تزال تسمع من الناس ومن النواب ومن أصحاب الرأى ما يجب عليها للتعليم الدينى فى مدارسها ، وما ينبغى فى مناهج تعليم البنات ، وما تتطلّبه أنظمة التعليم الإلزامى ، وهل أدى الغرض منه إلى اليوم أو لم يؤده ؟ وما تفرضه الوطنية من النظر الصادق فى ترقية التعليم الحر حتى يصل إلى الدرجة التى تليق به وبالأمة التى يتولى هو بعض الرعاية على بعض أبنائها ، وغير ذلك من الشؤون الابتدائية فى سياسة التعليم .

فهذا عجيب أن تبقى وزارة المعارف إلى هذا اليوم ، ولم تتقرر لها سياسة كاملة عامة تتناول حياة الأمة العلمية والأدبية والخلقية والبدنية بأدق النظر وأحسن الرأى ، فلا ينبغُ لها نابغ يسددها إلى هذه الآراء الأولية التى يفرض كل أحد أنّ الوزارة قد انتهت من إقرارها والسير عليها والتدبير لها بكل الوسائل التى تكفل للشعب تربية أبنائه تربية تامة كاملة مهيَّأة لتحمُّل الأعباء المثقلة التى سيحملها جيلهم من بعد هذا الجيل .

وقد سارت وزارة المعارف فى السنين الأخيرة على سُنَّة لا يمكن إلا أن تُفضى إلى توهين الروابط الثقافية التى تربط الشعب كله بعضه إلى بعض ؛ وذلك

كثرة تبديل المناهج وتغييرها عامًا بعد عام لغير ضرورة ملجئة فى أكثر هذا التبديل والتغيير . ولابد أن تحزم وزارة المعارف أمرها على خطة واسعة متراحبة ترمى إلى أبعد مدى على أتم حذر ، ليتسنى لها أن تمحو كل أخطاء الماضى التى لعبت فيها الأيدى الاستعمارية والسياسية بكل ما من شأنه أن يسلب الشعب قدرته على التحفز والتوثب والتجمع ، وما ينشئه على الحرية العقلية والنفسية التى ترفعه إلى الدرجات السامية التى يجب أن يرقى إليها كل شعب يريد أن يتحرر ويسود ويفرض مدنيته على الأرض التى يعيش عليها .

وإذا أرادت وزارة المعارف ذلك الآن ، فإن فى همة وزيرها الذى لا يَمَلّ ولا يتأخر عن دواعى الوطن ، إنفاذًا لهذه الإرادة . فوزير المعارف رجل معروف بالجد والإخلاص والمثابرة وقوة العزيمة ، فلو اجتمع له كل أصحاب الرأى ممن يحب أن يساهم فى شأن التعليم مساهمة الدرس والكفاح للمستقبل ، لأمكنهم أن ينقذوا وزارة المعارف من البلبلة التى لا زالت تتساقط بها من ذلك العهد القديم المعروف بأغراضه فى تحطيم قوى الشعب تحطيما استعباديًّا مستبدًّا . فنرجو أن يضمَّ وزير المعارف إلى رأيه جماعة من أصحاب التدبير السياسى للتعليم غير متقيِّد بشىء من الرسوم القديمة – وهو الرجل الحر – فإن القيود هى التى جعلتنا إلى هذا اليوم نسرى فى ظلام دامس من الأهواء التى غلبت على شأن التعليم فيما مضى .

تعليم العربية

وبهذه المناسبة أذكرُ أنى قرأتُ فى الأسبوع الماضى أيضًا كلمة عن أسباب ضعف الناشئة فى اللغة العربية ، وأن الكاتب ردّ هذا إلى أسباب من المعلم والكتب وغير ذلك ، وزعمَ أن أكثر كتُبنا لا يصلح لتعليم الناشئة لسانَ أمتهم . وإن يكن فى هذا بعضُ الحقِّ فليس هو كلُّ الحقِّ ، فإن أسبابَ ضعفِ النشءِ فى العربية ليس يُردُّ إلى المعلم والكتاب ، بل مَرَدُّه إلى المنهج الذى يُقيِّد المعلم بقيود كثيرة ترفع عنه التبعة فى نتيجة التعليم ، ويقيد الكتاب بمثلها ، ويُعطى النشء ما لا يَصْلُح عليه لسانٌ ولا يستقيم به تعليم لغة .

فلو أنت نظرت لما رأيت شعبًا من شعوب الأرض المتعلمة ، يفعَلُ بلغته

مانفعل نحنُ من التجاهل للآثار الأدبيةِ وقلّة الاحتفال بتزويد الناشىء بمادّتها التى تحفظها لتكون أبدًا على مدٍّ الذاكرة وفى طلب اللسان ، ولو أنت سألتَ أى مُتعلِّم من أهل الأمم الأخرى أن يُسمِعك من روائع شعر أُمته ونثرها وحديث بلغائها لاحتفَلَ لك بالكثير الذى تظنُّ مَعَه أنه إنما أعدَّ لك الجواب لعلمِه أنك قد أعددتَ له السؤال . فلو أنتَ جئت بعدَ ذلك إلى أحد المثقَّفِين المكثرين المتنفِّخين من المتعلمين عندَنا وسألته مثل ذلك لنَحا إليك بَصَرَه فأتأرَ [١] النَّظَر فابتسمَ فضَحكَ فاستهزأَ بك فولاّك ظهره فمضى يعجب من غفْلتك وحماقتك وقلّة عقلك .

وإن بعضهم ليقول : ليس لنا ما لهم ، أَين للطالب المصرى أو العربى ما يغريه بالقراءة كما يغرى شكسبير وملتون وبيرون وشيللى وفلانٌ وفلانٌ من الشعراء والكتاب ؟ بَلى أين ؟ وإن يكن هذا كله حقًّا فافترضناه كذلك ، فليس يكون لنا مثل شكسبير وأصحابه إلا باستيعاب قديم كتابنا وشعرائنا ، والحرص على آثار مُحْدَثيهم ، فإذا كان ذلك أخرج الشَّعْبُ يومًا أمثالَ هؤلاء لمن يلينا من أهل أمتنا . وإلا فإننا سائرون إلى ضعف أبدًا ما دُمنا نرَى أن الطالب لا يطيقُ أن يستوعب من شعر البحترى إلا قصيدة واحدة ومن المتنبى مثلها ، ثم يكون ذلك آخر عهده وأوله بدراسة الآثار الأدبية العربية .

إن الحفظ الأول للآثار الأدبية الرائعة قديمها وحديثها هو الذى يخرج الأديب والكاتب والشاعر . انظر إلى المنفلوطى والرافعى وشوقى وحافظ والبارودى والزيات وطه حسين ، كل هؤلاء لم يكونوا كذلك إلّا لأنهم نشأوا وقد حفظوا القرآن أطفالًا فحملهم ذلك على متابعة حفظ الآثار الأدبية الجليلة ، ثم حفز هذا المحفوظ ما انطووا عليه من الطبيعة الأدبية التى استقرَّت فى أنفسهم وأعصابهم ، فلما استحكموا استحكمت لهم طريقتهم فى الأدب والشعر والإنشاء ، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يكونوا اليوم إلا كما نرى مِن سائر مَنْ تخرجهم دور التعليم بالآلاف فى كل عام ينقضى من أعوام الدراسة .

---

(١) أتأر النَّظَرَ : أَحَدَّه

مشروع

كتب الأخ الأستاذ « محمد خلف الله » كلمة جليلة الغرض تحت هذا العنوان « مشروع » فى مجلة الثقافة العدد (٦٨) الماضى . وخلاصة هذا المشروع: أن تؤلف جماعة من الباحثين يمثلون اللغة والأدب وعلم النفس والاجتماع يكون من أغراضها أن تدرس النواحى المختلفة للاجتماع المصرى الحاضر وما يكون فيه من الظواهر المختلفة التى يخشى أن تدرج وتبيد ولم نستفد من الحرص عليها إن كانت نافعة ، أو الاستعانة بها فى درء الأمراض الاجتماعية عن الشعب فيما يستقبل إن كانت من السوء بحيث تكون كذلك .

وقد عَدّ الأستاذ خلف الله بعض الأمثلة فيما يجب أن تتوجه إلى دراسته هذه الجماعة كمخارج الحروف وأصواتها فى كل الأقاليم المصرية ، ورد ذلك إلى أصوله الأولى التى انحدر عنها من تاريخ القبائل ، وكذلك اللهجات الكثيرة فى الوجه البحرى والقبلى مما هو - ولا شك - نتيجة لإقامة بعض العرب فى هذه الجهات ، ثم دراسة الأدب الشعبى من قصيد وموال ومثل وفكاهة وسمر ، ودراسة الخلق المصرى، وعيوبه وفضائله ، وما يتعاوره من الغلو والضعف . ويكون ذلك كله إعدادًا لمعرفة حقيقة هذا الشعب معرفة صحيحة ، ثم نشر كل ذلك على التتابع فى رسائل قد استوفت شروط المنهج العلمى للدراسة الاجتماعية واللسانية والفنية .

وكلنا يرحب بهذا المشروع الذى نستطيع معه أن نخدم الشعب خدمة عظيمة باستظهار ما يستتر من قوته ، وما يستعلن من ضعفه ، فيكون ذلك أحرى بأن يهدينا إلى إصابة الدواء الذى يحسم مادة الداء التى تلتهم أسباب رقيه سببًا بعد سبب . وهذه الدراسات المفصلة للشعوب على طبيعتها التى تتعامل بها فى السوق والحقل والمصنع والمدرسة والبيت ، وهى النجاة لنا من شر كبير قد أوقعنا فيه الاضطراب وقلة الخبرة . ولو علمت أن أكثر الأمم المستعمرة تلجأ إلى هذا الطريق نفسه فى دراسة الشعب الذى تريد أن تستبد به ، ليتسنى لها أن تعمل على إضعافه وقتله بتقوية ضعفه وإضعاف قوته دون أن يشعر أو يتألم بل يحسب أنه

يسير إلى غايته على تدريج طبيعى – لو علمت ذلك علمت ما نستطيع أن نستفيده من نتائج هذا المشروع الجيد إذا أُحكم تنفيذه ، ولم تَغْلب على اختيار رجاله محاباة ، ولم تتحكم فى هؤلاء الرجال شهوةٌ أو هوًى .

* * *

الأزهر

الأزهر – كما يجب أن نعرفه – إن هو إلا تاريخ مصريٌّ عربى إسلامى كاملٌ متتابعٌ قد امتدَّ على مَدْرَجةِ التاريخ ألف سنة يجدِّد فيه ويتجدَّد به ، ويعيشُ عيشه هذا فى التاريخ كالمدد المتلاحِق الذى يستفيضُ بمادَّته لينشىء القوةَ فى رُوح الجيش المرابط وأعصابه وأفكاره وأعماله المجيدة . وهذا التاريخ العجيب الذى لا يزال حيًّا فى هذه الأرض ، هو كالتاريخ الإسلامى والعربى كله مجهولٌ متروك لم تَنفُضْ عنه الحياةُ العربية الجديدةُ غُبار السنين المتقادمة والأجيال المتطاولة التى تعاقبت عليه بالنسيان والإهمال والهجر . وإذا نظرنا إلى الأزهر على مقتضى هذه النظرة وبسبب من هذا الرأى – علمنا أنه كهذا التاريخ الإسلامىّ قد تعاورته القوَّة والضعف ، وحزَّت فيه سِيما العلم ومِيسم الجهل ، وتغلغل فيه النبوغ الفذُّ السامى والنبوغ الشاذُّ النازلُ : النُبُوغُ السامى الذى ارتفع بروحانية الشعوب الإسلامية وأخرجها من سُلطان الشهواتِ والجهالات ، فمدَّتْ بذلك سلطانها على جزء عظيم من العالم ، والنُّبوغُ النازل الذى هَوَى بروحانيةِ هذه الشعوب إلى الجَدَل والفُرقة والمذاهب والآراء الخاضعة لسلطان الشهوات العقلية المريضة ، فقلَّصتْ ظِلَّ هذا السلطان عن هذا الجزء العظيم من العالم .

والأزهرُ – كان – مجْتَمَع القُوى المختلفة التى عملتْ فى إنشاءِ الحضارة الإسلاميَّة والعربيَّة التى عاشَتْ فى التاريخ الماضى وملأته بالألوان المختلفة من مميزات هذه الشعوب الإسلامية المتباينة ، والمتباعدة فى مطارح الأرض ما بين الصين إلى المغرب الأقْصى ، واستمرَّ على ذلك مئات من السنين تتلوها مئات ، وكذلك مهدت هذه السنين للشعب العربى المصرى فى هذا العصر – عصر النهضة الجديدة فى الشرق – أن يكونَ هو قِبْلَة الأمم العربية والإسلامية . وذلك لأن روح الشعب المصرى ، وثقافته الموروثة فى تفكيره وأخلاقه وطباعه ، وحضارته القديمة التى تبرَّجتْ على ضفاف النيل – هذه كلُّها ليست إلا خلاصة

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٦) ، ١٩٤٠ ، ص : ٧٤١ – ٧٤٤

هائلةً مصفّاة من أرواح الشعوب الإسلاميّة كلها وثقافاتها وحضاراتها . وكان الأزهر هو المصدر الذى استمدَّتْ منه مصر هذا الفيض العظيم الجارى فى أودية التاريخ المتقدِّم ، لأنه هو كان الجامعة الوحيدة فى هذه الديار ، وكان أكبر جامعة وأعظمها فى سائر الديار العربية الإسلامية . وبهذه الخلاصة التى اجتمعت فى الأزهر ، ثم انتشرت منه فى أرجاءِ مصر قديمًا وحديثًا استعد الشعب المصرى بطبيعته لأمر مقدور ، هو أن يكون زعيما للشرق فى عصر النهضة الجديدة ، لأن كل شعب من الشعوب العربية والإسلامية يرى فى هذا الشَّعْبِ صورة من نفسه مكملة بألوان أخرى من صور سائر الشعوب التى تمتُّ إليه بسبب من الدين واللغة والحضارة والثقافة والفكر والدم .

ونحن نأسف إذ نرى الناس إنما ينظرون إلى الأزهر نظرةً محدودةً ضيقة لا تتراحب ولا تنفذ إلى حقيقة هذا التاريخ القائم فى أرض مصر . فهم يعدُّونه معهدًا دينيًا ، ويكون تفسير كلمة الدين هنا على غير الأصل الذى يعرف به معنى الدين فى حقيقة الفكرة الإسلامية التى ختم الله بها النبوَّات والأديان على هذه الأرض . وهذا المعنى الجديد المعروف فى زماننا لهذه الكلمة كلمة « الدين » ليس إسلاميًا ، لأنه لا يلائم روح الإسلام فى شىء ... كلا ، بل هو يهدمُ أعظم حقيقة حية أتى بها هذا الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليجعل الذين آمنوا فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ويجعلهم الوارثين . وهذه الحقيقة الحية الجميلة هى جعل كل عمل من أعمال الإنسان المسلم فى الحياة عبادة تقربه إلى الله ... فليس البيْع والشراءُ ، أو تدبير أمور الناس فى الملك ، أو العلم والتعليم ، أو تربية الولد ، أو الخدمة التى يؤديها الرجل لمن يخدمه ليست كل هذه الأشياء الاجتماعية فى منزلتها من الدين الإسلامى ... إلا كالصلاة والصيام والزكاة وسائر الأعمال التى يفهم بعض الناس الآن أنها هى الدين حسبُ . فالأزهر الإسلامى هو الذى تتمثَّل فيه حقيقة الإسلام - أو يجب أن تتمثل فيه هذه الحقيقة - ، وتاريخه الماضى كان صورة صحيحة للحياة الاجتماعية الإسلامية بكل ألوانها وأنواعها ، مع ماكان قد عرض فيها من العيوب التى أدركت الشعوب

الإسلامية وجعلتها تنزل عن المرتبة الأولى التى كانت لها فى تاريخ الحضارات السالفة التى سبقت الحضارة الأوربية لهذا العصر . فلما هجمت علينا الحضارة الحديثة من أوربا بعواملها المختلفة ، وسياستها القوية التى تغلبت على كل سلطان فى الشرق ، ثم اندست العوامل الغربيّة فى الأمم الإسلامية ، وعملت الأيدى العدوّة عملها فى تمزيق الروابط بين طبقات الشعب ... رجع الأزهر إلى غيله يستتر فيه ، وقبع أهله عن صراع الحياة الجديدة صراعًا يراد منه الظفر ، وكذلك سار الناس ناحية وسار الأزهر ناحية أخرى ، وكان ذلك أول البلاء على الأزهر وعلى الشعب نفسه !

إصلاح الأزهر

وقد أحس كثير من المصلحين من أهل الأزهر وغير أهله - ممن يعرفونه أصلًا كبيرًا فى الحياة المصرية والعربية والإسلامية - بما تقتضيه طبيعة الموقف الذى صار إليه فى هذا العصر ، وبما توجبه حقيقة الدين الإسلامى ، فهبوا إلى إصلاحه والنظر فى شأنه مرة بعد مرة . وكان العمل لذلك شاقًّا كثير المتاعب غير قريب المنافذ ، فاضطربت الأيدى واختلفت الأغراض ، وسار هذا الزمن السريع بقوة واندفاع ، لا يملك معه المصلح الانطلاق فى آثاره على مثل سرعته واندفاعه وكذلك لم يزل الأزهر الآن فى منزلة غير المنزلة التى يوجبها له قيامه ألف سنة على التاريخ الفكرى والثقافى والعملى فى الحضارة الإسلامية .

وقد كتب الأستاذ « الزيات » - فى فاتحة العدد الماضى من الرسالة - كلمته الجليلة « فى سبيل الأزهر الجديد » يطالب الأزهر بالرجوع إلى المنابع الأولى للدين واللغة والأدب والعلم . وحُبُّ « الزيات » للأزهر ، ورغبته فى المبادرة إلى علاج الأدواء التى تلبست به من أمراض الأجيال السابقة ، هى التى حملته على أن يكتب كلمته لتظفر مصر « بجامعتها الصحيحة التى تدخل المدنية الغربية فى الإسلام ، وتجلو الحضارة الشرقية للغرب ، وتصفّى الدين والأدب من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة » .

نعم إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لم يقصّر فى اجتهاده أن يجعل

الأزهر مثابة للعلم الإسلامى الصحيح ، ولم يتخلف عن النصيحة له بما توحى به الرغبة الصادقة فى تحريره من آصارٍ [١] قديمةٍ عاقته عن بلوغ غايته التى يحق له أن يبلغها . فقد وضع الأستاذ الأكبر من عشر سنين نِظامه الجديد للكليات فى الأزهر وجعل أحد قسمى التخصص فى هذه الكليات موقوفًا على مادة من مواد الشريعة أو اللغة أو الأدب أو التفسير والحديث أو المنطق والفلسفة أو الأخلاق والتاريخ وعلم النفس وما إلى ذلك . وأمدّ هذه الكليّات العالية – فى دراستها لما خصصت له – بالكتب الأصول المعتمدة فى بابها ككتاب سيبويه ، وخصائص ابن جنى ، وسر صناعة الإعراب لابن جنى ، وتصريف المازنى ، وكتاب فيلسوف النحو رضى الدين الإستراباذى صاحب شرح الشافية ، وشرح الكافية ، وهما عمدة أصحاب النحو والتصريف . وكذلك جُعلت كتب عبد القاهر – دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة – ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال ، وأدب الكاتب والكامل والأمالى وغير هذه من أصول الأدب واللغة هى مادة الدراسة فى هذه الكليات .

وقد قام على التدريس فى هذه الكليات جماعة من خيرة من أنجبهم الأزهر فاستقلوا بتدريس هذه الكتب الجليلة خير استقلال ، فنرجو أن يظهر الأزهر الجديد بعلمه الجديد الذى استمده من الكتب الأصولِ ، وأن يعتمد فيما يستقبل من أيام نهضته كل الأصول الأولى فى تدريس الفنون المختلفة التى يقوم ببثها بين أبنائه ومريديه وطلبته . هذا ونرجو أن تحقق روح الأزهر – التى تتصل بالشعب المصرى وسائر الشعوب الإسلامية – معنى الإسلام الصحيح الذى يطالب المسلمين بالسيادة والقوة والغلبة ، ولا يكون ذلك إلا يوم يتصل الأزهر اتصالًا تامًّا بجميع ألوان الثقافات العالمية ، ليوجد للشعب المصرى والعربى والإسلامى ثقافة تضارع كل هذه الثقافات ، مبرَّأَةً من عيوبها التى فرضتها عليها البيئة غير الإسلامية التى نشأت تحت ظلالها وفى رعايتها .

وأنا أكتفى بهذا القدر من القول ، وسأعود قريبًا لأبدى بعض الرأى فى أنواع

---

(١) الآصار : جمع إِصْر ، وهو الثِّقْل الذى يؤود الإنسان .

من الإصلاح تراد للأزهر وغير الأزهر ، أرجو أن تنال بعض الرعاية ممن يتولون شأن هذا الإصلاح .

المجمع المصرى للثقافة العلمية

بدأت فى الأسبوع الماضى جلسات المؤتمر السنوى للمجمع المصرى للثقافة العلمية برياسة حضرة صاحب السعادة حافظ عفيفى باشا ، وهذا هو المؤتمر الحادى عشر لهذا المجمع العلمى الصامت الذى يجاهد فى إنشاء الثقافة العلمية العربية فى الشرق بما يسعه جهده وماله . والمجمع العلمى هو أهم ما يحتاج إليه الشعب العربى الذى ابتعد به الزمن عن متابعة النهضات العلمية المختلفة التى تجددت بالحضارة الأوربية الحديثة . وقيام هذا المجمع بنشر الثقافة العلمية – فى حدود طاقته – قد أوجد للأمة العربية ذخيرة عظيمة تقع فى عشرة مجلدات ، كلها مباحث علمية عظيمة مكتوبة باللغة العربية مع قلة الاصطلاحات العربية العلمية التى تؤدى المعانى العلمية الجديدة التى لم تقرر لها بعد مصطلحات ثابتة فى مادة هذه العلوم .

وهذا المجمع العلمى العظيم لا يَلْقَى – مع الأسف – ماهو حقيق به من الحفاوة والاحتفال فى الأوساط الأدبية والعلمية التى توجب عليها مهمتها الشاقة إمحاض النصيحة للأمم العربية ، بتشجيع القائمين بأعمالهم المجيدة فى صمت وسكون ورفق . ومن أعجب العجب أن تعقد المحاضرات والمناظرات الكثيرة التى تعتمد أكثر ما تعتمد على الثرثرة ومضغ الأحاديث والتمطق بمبذول الكلام ، وتجتمع لهذه المحاضرات والمناظرات فئات كثيرة من طبقات الناس ، وفى صدرهم كثير من أصحاب الأمر وعظماء الأمة ثم يعقد هذا المجمع مؤتمره مرة فى كل عام فلا يلقى من هذه الفئات ولا من هؤلاء العظماء ما هو أهل له من المتابعة والاهتمام أو المجاملة إن شئت .

وكان الظن أن تعمل وزارة المعارف والجامعة وسائر المعاهد والوزارات التى يتناول المجمع – بعض ما يخصها أو يقع فى حدود أعمالها – بالبحث والدرس والتحقيق والكشف . كان الظن أن تمهد هذه له سبيل إبلاغ صوته إلى أكبر عدد ممكن من المثقفين ، تشجيعًا له وللقائمين عليه ، وطلبًا للمنفعة التى تأتى من إثارة اهتمام هذه الجماهير بنتائج الأبحاث العلمية وأنواعها ، وضروبها المختلفة التى

يقوم المجمع وأعضاؤه على إعدادها ومتابعتها والعمل على نشرها ، لتكون سببًا من أسباب اليقظة العلمية التى تقتضيها النهضة الحديثة فى الشعوب العربية .

وقد جمعنى مرة مجلس فيه فئة من كبار الأساتذة فى بعض المعاهد العلمية العالية ، فلم أجد عند أحد منه خبرًا يعلمه عن هذا المجمع ، فما ظنك بعمله أو إنتاجه أو غايته التى أريد لها إنشاؤه وتأسيسه ؟ وهذا أمر يؤسف له ، ويوجب على المجمع وعلى كل ذى رأى أن يعمل على تنبيه الوزارات والمعاهد إلى قيمة هذا العمل الذى يقوم عليه المجمع ، وإلى توجيه أنظار الناس إليه بكل سبيل ، حتى يستطيع أن يؤدى إلى الناس مايرغب فيه من نشر الثقافة العلمية التى يحتاج إليها هذا الشعب فى كل أغراضه وأعماله ، وفى بعث الروح العلمية التى تكفل له القيام بالعبء المثقل الذى يريد أن ينهض به فى بناء الحضارة الجديدة التى يتهيأ الشرق لوراثتها عن الحضارات التى هى فى سبيل إلى الهلكة والتدمير والبوار .

هذا وقد بدأ المجمع مؤتمره لهذه السنة بالمحاضرة التى ألقاها الدكتور حافظ عفيفى باشا عن « الأصول العلمية الحديثة وتطبيقها على الزراعة » ، وقد عرض فيها لأهم مايشغل الأسواق المصرية فى هذا الوقت ، وهو نظام الحاصلات والأسواق الداخلية ، فأبان كل البيان عن وجه المصلحة التى يجب أن يقصدها القائمون على أمر الشئون الزراعية فى هذه الأوقات العصيبة المنذرة بأن الأزمات على الأسواق التجارية . ثم تبع ذلك بحث فى أهم ما يخافُ منه وما تخشى عواقبه فى أزمان الحربِ ، وهو تفشِّى الأمراض والأوبئة ، وما يجبُ على الشعب المصرىّ وحكومته أن تعمل على تفاديه بكل سبيل . فألقى الدكتور عبد الواحد الوكيل : « حاجة البلاد إلى تعديل خططها الطبية والصحية » ، وقد أبانت هذه المحاضرة عن هول الحالة الصحية التى تختفى فى كل ناحية من نواحى هذا الشعب المهمل المسكين .

آلهة الكعبة

كنت قرأت فى البريد الأدبى من عدد الرسالة ٣٥٠ كلمة للأخ محمد صبرى فى قصيدة الأخ الشاعر محمود حسن إسماعيل ، ينكر فيها أن « اللات ، والعزَّى ، ومناة » من آلهة الكعبة ، قال : « وليس واحد من هذه الثلاثة من أصنام الكعبة ، بل لم

يكن واحد منها داخل الكعبة ولا حولها » . ثم استشهد قول ابن الكلبى فى كتاب الأصنام ، حين ذكر مواضع هذه الأوثان الثلاثة . وقد كان اعترض بعض أصحابنا قبل ذلك – فى مجلس الأستاذ الزيات – بمثل ما اعترض به الأخ صبرى ، فرُمتُ أن أقول : إن وجود هذه الثلاثة فى الكعبة أو حولها ليس يَمْتَنِع : وذلك لأن ابن سعد ذكر فى طبقاته أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت – بعد فتح مكة – وهو على راحلته ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل كلما مر بصنم منها يشير إليه بقضيب فى يده ويقول : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ . فيقع الصنم لوجهه . وابن الكلبى لم يعد لنا فى كتابه الأصنام غير أسماء ثلاثين صنما ، وزاد زكى باشا عليها تسعة وأربعين صنما ، فهذه خمسة وسبعون [١] ، فأين هى من ثلاثمائة وستين ؟ ... وما كانت كل هذه الأمة من الأصنام إذن – إن لم يكن منها اللاّت والعُزّى ومَنَاة ، وهى أشهر أصنام الجاهلية ، وهى المذكورة فى القرآن فى سورة النجم ، وقد كان نزولها بمكة ، وما أظنها تذكر بأسمائها إلا وكفار قريش يعظمونها ، فإذا عظموها اتخذوها فى الكعبة وهى بيتهم المعظم ، كما كانوا يتخذون الأصنام فى بيوتهم ودورهم . ثم رأيت أخيرًا أن ابن سعد يذكر فى فتح مكة أن رسول الله بث السرايا إلى الأصنام التى حول الكعبة فكسرها ، منها : « العزى ، ومناة ، وسواع ، وبوانة ، وذو الكفين . فنادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَدَع فى بيته صنما إلا كسره » .

ثم جاء كلام أبى جعفر الطبرى فى تفسير سورة النجم ج ٢٧ ص ٣٦ يقطع الشك باليقين إذ يقول . « وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللات والعزّى ومناة الثالثة – أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها » ، وهذا هو المعقول ، وليس من المعقول أن تخلو كل هذه الأمة من الأصنام التى كانت حول الكعبة من تماثيل منصوبة للات والعزى ومناة الثالثة ، وهذا ليس يمنع أن تكون القبائل غير قريش مكة قد اتخذت لها أنصابًا نصبتها فى الأماكن التى ذكرها ابن الكلبى وغيره .

* * *

(١) كذا جاء بالأصول ، والصواب : تسعة وسبعون

الأغنياء ...

كانت ليلة السبت السالفة من الأسبوع الماضى ، فوقع فى دنيایَ أمرٌ مُفْزِعٌ كنتُ معه كمن عَمِى دهرًا من عمره ثم أبصر . فأخذتنى الحيرة أخذًا شديدًا ، وتضرَّبتْ نفسى كما يتضرَّبُ الماءُ فى مرجَله على معركةٍ من النار تشتعلُ من تحته وتتسعر ، وتقاذفَتْنى الهموم كما يتقاذفُ تيَّارُ البحر الأعظم موجةً هائمة من موجِهِ ، وتنزَّى قلبى بين ضلوعى كما تتنزَّى الكرَةُ مقْذوفة من علُ ، وهاجَ هَيجى واضطربَ أمرِى وتغوَّلَتْنى الأفكارُ الخائفة الحزينة المجرَّحة التى تَدْمَى أبدًا ، فلا تحسمُ الدَّم ، وانقلبتُ بِهَمِّى أدورُ فى نفسى دَوْرة المجنون فى دنيا عقله المريض المشعَّث . وهكذا قَضَّيتُ ليلَ أيامى ، وليس لمثل هذه الأيامِ نهارٌ .

ودعوتُ ربى جاهدًا ، وكنت من قبل أدعوهُ ، إنه هو البرُّ الرحيم ... ، وكنتُ أرى الدنيا كلها وكأنما ارتدتْ لعَيْنَىَّ غِلَالةً من سرابٍ تخفِقُ عليها وتميدُ وتتريّعُ ، وإذا الأرضُ غيرُ الأرضِ والناس غيرُ الناسِ ، وإذا كل شيْءٍ يجىءُ ويذهبُ ، ويبينُ ويَخفى ... ، وفقدتْ الأشياءُ معانيها فى نفسى ، فما أرى إلا بؤسًا وخَصاصة وجوعًا وعُرْيًا ، وإذا كلُّ شىء بائسٌ فقيرٌ جائعٌ عارٍ لا يستره شىءٌ ... اللهم إنى فوضتُ أمرى إليك وألجأتُ ظَهرى إليك ... ومضيتُ أنسابُ فى أيامِى البائِسَة ، حتى إذا كان الليلُ فى أَوَّلِهِ مُذ أمس ، أويتُ إلى بيت كتبى آخذُ كتابًا لا ألبثُ أُلقيه كأنْ بينى وبينه عداوةٌ أو حقدٌ قديمٌ . فضِقتُ ثم ضقتُ وخَنقنى خانقُ الضَّجر واليأسِ ، وغاظنى ما غلبنى على عقلى وإرادتى ، فأهويتُ بيدى إلى كتاب عزمتُ ألا أدعه ، وإذا هو : « إغاثة الأمة ، بكشف الغُمَّة ، للمقريزى » . وفتحتهُ وانطلقتُ أقرأ ، فما أجوز منه حرفًا أولَ إلا وجدتُ الألفاظَ تتهاوى فى نفسى وفى عقلى ، وكأنها تُقذفُ فيهما من حالقٍ ، حتى لَوجدتُنى أسمع لها فيهما صلصلةً

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد : ٣٥٧) ، ١٩٤٠ ، ص : ٧٧٧ - ٧٧٨

ودويًّا وهدًّا شديدًا شديدًا ، كأن فى نفسى وعقلى أبنية تنقضُّ وتتهدمُ فى كفِّ زلزلة .

وإذا بحر يموجُ لعينىّ أسمعُ هديرَه وزئيره وزمجرة أَمواجِه فى الريح العاتية ، وإذا هو أحمرُ كالدَّم يَفُورُ ويتوثَّبُ ، وإذا صرخةٌ تخفت زمجرة الأمواج ، وإذا هو هاتف يهتف بى : « قم إلى صلاتك ، فقد أظلك الفجر !! » . فانتبهت فزعًا وإذا أنا أقلب الصفحة التاسعة والعشرين من هذا الكتاب ، وإذا خطوط حمر قد ضربتها فوق هذه الأسطر : « ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء ، وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع ، فكان الأب يأكل ولده مشويًّا ومطبوخًا ، والمرأة تأكل ولدها ... فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذه أو شيء من لحمه . ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيأ ، فإذا هى لحم طفل . وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت » (*) .

أين يعيش أحدُنا وهو يقرأ ؟ هذه تسع ساعات يخيَّل إلىَّ أنى قضيت ثمانى ساعات منها وأنا أقرأ هذه الأسطر القليلة أُقلِّبها لعينى فتتقلَّب معانيها فى نفسى ، إذ كانت تنزع فى معناها إلى الآلام المتفجرة بدمى فى قلبى ، فلا يكون الحرفُ منها إلا أفكارًا تتَّسع وتتراحب وتتداعى وتتوالد ويَنْسَخ بعضها بعضًا . ولو ذهبتُ أكتب ماقرأته فى نفسى من هذه الأسطر ، وما تحدثت به النفس من حديث أَكَلَ ثمانى ساعات من أول الليل إلى مطلع الفجر ، لملأ ذلك ما يقع فى كتاب مفرد ، ولكن ...

لماذا لا تكون هذه القسوة المتوحشة إلا من أعمال القلوب المتحجرة فى بيوت الأغنياء والأكابر ؟ ولماذا يكون أقسى القسوة فى قلب المرأة الغنية ، فتكون هى أعظم استهانة بجريمة أَكْل ولَدِها الذى ولدَتْه ؟ ولماذا يكون الفقير والفقيرة

(*) كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » هو تاريخ المجاعات التى كانت بمصر ، وقد طبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر منذ أسابيع . وهذا الذى نقلناه من تاريخ المجاعة التى كانت بمصر فى الدولة الأيوبية سنة ٥٩٦ فقيل فيها : « سنة سبع افترست أسباب الحياة » (شاكر) .

دائمًا هما مِثالُ الرحمة والحب والعطف والحنان ؟ أليس الناس جميعًا - غنيُّهم وفقيرُهم - سواء فى هذه الحياة ؟ بَلَى ، ولكن ...

ألا إن هذا المال نعمة من نعم الله التى استخلف الإنسان عليها فى الأرض ، وفى الحياة الدنيا ، ألا وإن المالَ عِصامُ هذا الكون الممتلىء بأسراره العجيبة التى لا يُقضى من أعاجيبها عجب ، ألَا وإنه لَلنِّظَام الطبيعى الذى يجعل من قانونه سر الحياة الإنسانية التى لا تسمو إلا بالمنافسة والرغبة فيها والإصرار عليها ، ألا وإنه لأعجب شيء فى الحياة ، إذ يكون هو كل شيء ، ثم هو ليس بشيء على الحقيقة ، وإذ يكون فى وَهْم الفقير القلق سِرّ السعادة ، ثم يكون عند الغنى المسترخى فلا يعرف به ظاهر السعادة . ألا إنه العجب والفتنة ، إذ يكون سر الحياة الإنسانية المدنية على الأرض ، ومع ذلك فهو إذا مَلأَ الغَنِىّ أفرغه من إنسانيته ، وإذا فرَغَ الفقير منه امتلأَ إنسانية ورحمة وحنانًا ، ثم يكون بينهما أشياء فى هذا وفى ذاك تختلط وتضطرب ويرمى بعضها فى بعض حتى يصبح كل شيء فسادًا لا صلاح له .

« أكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت ! » و« أكثر مايفعل ذلك النساء ! » إنه ليس عجيبًا ولكنه مؤلم ، إنه ليس بعيدًا ولكنه مفزع ، إنه هو الحقيقة الدائرة مع معانى الثراء والغنى والترف والرفاهية ، ولكنها الحقيقة الضارية المتوحشة التى انطلقت من قيودها حين أزَمتها الحاجة والقحط والجوع ونداء المعدة التى تتلوّى أمعاؤها كما تتلوى الحية الجائعة على شهواتها المتجسدة فى فريستها . ليس هذا هو كل شيء ، وليس القحط وحده هو الذى يُضَرِّى عبيد المال فيأكلون بنيهم وبناتهم أكل الوحش الطاغى بطغيان حيوانيته التى تريد البقاءَ لنفسها ، ثم لا تعرف غير نفسها ، ولا تعبد إلا نفسها . إن كل أزمة تطلق فى أعصاب الأغنياء - إلا من رحم ربك - وحشًا آكلا طاغيًا مستأثرًا لا يرى إلا نفسه ولا يريد البقاء إلا لنفسه . فإذا وقع القحط بين صديقين أحدهما غنى كان صديقه طعامًا تفترسه الصداقة الغنية ! وإذا وقع القحط بين حبيبين أحدهما ثرىٌّ مترف تثاءب عنه يريد النوم لأنه شبع من حبه حتى تملّأ ! وإذا وقع القحط بين أخوين أحدهما غنى ، كان حق الرحم عليه أن يشرب ما بقى من دم أخيه يستولغ فيه حتى يَرْوَى !

إن الترف والنعمة والكفاية ، وأحلام الغنى وكنوز الثراء ، إن هى إلا الماحقات الآكلات التى تمحق العواطف الإنسانية النبيلة حين لا ملجأ إلا إلى الخشونة والشدة والصبر وحقيقة الفقر . إن الفقراء هم أكثر الناس رغبة فى النسل على ضيق رزقهم ، والأغنياء أقل الناس إقبالًا عليه على مايجدون من السعة . الفقراء أشد حزنًا على من فقدوا من أبنائهم وأحبابهم ، ولكن أولئك لا يحزنون إلا ريث يشعرون الناس أنهم حزنوا ، ولئلا يقول الناس إنهم لم يحزنوا على أحبابهم ... الأغنياء ، الأغنياء ... نعم هم زينة الحياة الدنيا ، ولكن مع الزينة الخداع ، ومع الخداع الضعف ، ومع الضعف القسوة حين تجد ما يتلين لها أو يتساهل أو يستكين ... أو يثق .

فمن صادق غنيًا فليحذر ، ومن آخى ثريًا فليتحصن ، ومن عامله فليرهب ، فإذا بلغ المرأة الغنية فأحبها فخيلت له أنها أحبته فوثق بها فقد هلك ، وإنما هو ملهاة من ملاهى الترف ، إذا فقدت لذة اللهو به نبذته لما به .

* * *

نجوى الرافعي

أيها العزيز !

« فى القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تَفْنَى وفى القلبِ تُحفَرُ القبورُ العزيزة التى لا تُنسى » هكذا قلت (**) « وعواطفى تشيِّع الميت الحبيب مطرقة صامتة » واليوم ماذا أقول ؟ أمَا إنك لتعلم - أيها الحبيب - أن الذى بينى وبينك دنيا تمشى الأحزان فى أرجائها نائحة باكية ... لستُ أكفر بأنعم الله علىّ أوعليكَ ... ، كلا ، كلا !! لقد ذهبتَ إلى ربك راضيًا مرضيًا فرحًا بلقائه ، مؤمنًا بما زيَّن فى قلبك من الإيمان ، وبقيتُ أنا لأبحث عن أحبابى بعدَك ، ... لأفقد لذَّة المعرفة التى يفيض فيضها من الصداقة والحب ، ... لأتلدَّدَ هاهنا وهاهنا حائراً أنظر بمن أثق ، ... لأجدَ حرَّةَ القلب وكَمد الرُّوح وألَم الفكر من حبى وصَداقتى ، ... لأسير فى أودية من الأحزان بعيدة : أمشى وحدى ، وأبكى وحدى ، وأتألَّم وحدى ... لا أجدُ من أنفُضُ إليه سرَّ أحزانى ، ...

ذهبتَ وبقيتُ ... لأتعلَّم كيف أُنافق بصداقتى بعضَ النفاق لأنهم يريدون ذلك ، ... لأُجيد مهنة الكذب على القلب لأنهم يجيدون ذلك ، ... لأتعلَّم كيف أنظر فى عيونهم بعينين لئيمتين يلتبس فى شعاعهما الحب والبغض ، لأنه هو الشعاع الذى يتعاملون به فى مَوَدَّاتهم ، ... لأفْنِيَ بقائى فى معانيهم المتوحشة إذ كانوا هكذا يتعايشون ، ... لأحطِّم بيدىّ بنيان الله الذى أمَرَنا بحياطته ، وأتعبَّد معهم للأوثان البغيضة الدميمة التى أنشأتها أيديهم المدنسة القذرة ، ... لأجنى الثمار المرّة التى لا تحلو أبدًا ، ولكنهم يقولون لى : هذا ثمَرٌ حُلوٌ ، فلماذا لا تأكل كما يأكل الناس ؟ ...

ذهبتَ - أيها الحبيب - وبقيتُ ... ، بقيتُ فى الحياة التى أوَّلها لذةٌ وآخرها لذْعٌ كأحرِّ ما يكون الجمرُ حين يتوهج ، بقيتُ للحياة التى تريدُ أن تسلُبَ القلبَ براءَةَ الطفولة لتملأهُ إثمًا وخداعًا وشهوةً ... بقيتُ على الحياة فى الأرض التى

(*) الرسالة العدد (٣٥٨) ، ٣ مايو ١٩٤٠ ، ص : ٨٢٤ - ٨٢٦

(**) الرسالة : العدد (٢٠٢) ، ١٧ مايو ١٩٣٧

تميدُ وترجفُ وتحتدمُ من تحتى ، لأنها تنكر الإيمان الذى يمد بسبب إلى السماء ... بقيتُ بقاءَ حبة القمح فى رمال الصحراء المجْدبة لا أجدُ مائى ولا ترْبتى ... ولا من يزرَعُنى ...

شدَّ ما اختلفتْ علىَّ أحداثُ الحياةِ من بعدِكَ أيها الحبيب ! كنتُ أشكو إليكَ ما أُلاقى من ظمأ الروح الهائمة ، وهى تطوف بحسراتها على ينابيع الحياة لا تنتهى ولا تستطيع أن ترِدَ ... كنتُ أبثُّك أحزانى وهى جالسةٌ توقِد النارَ على نفسى وتؤرِّثها بأفكارى القلقة التى لا تهدأ ولا تنقطع ... كنتُ أشكو إليك آلامَ الشَّوْكِ الذى تنْبِتُهُ فى قلبى الشُّكوكُ العاملةُ الناصبةُ التى جعلتْ همَّها تعذيبى بالحيرةِ والخوفِ والحرمان ... والحقيقةِ المؤلمة أيضًا ... كنتُ أجدُكَ حين ينبغى أن أَجدَك ، لأقول لك مايجبُ علىَّ أن أقول ...

شدَّ ما اختلفتْ علىَّ أحداثُ الحياة من بعدك أيها الحبيب ! وها أنذا أريدُ أن أجدَ بعدَكَ من أضعُ فى يديه الرفيقتين هذه الجروحَ الداميةَ النابضةَ التى أُسمِّيها قلبى ... أريدُ أن أضعَ أفكارِى التائهة فى بيداءِ الظنون المقفرة ، بحيثُ تجدُ مَن يتولى أمر إرشادها إلى رَوْضة اليقين الناضرة ... أريدُ أن أجدَ مَلْجئى المؤمن حينَ تطارِدُنى من الظنِّ صعاليكُه الكافرة ... أُريدُ أن أعرفَ لذَّة الصداقة والحبِّ حين لا أجدُ من الحياة إلَّا آلامَ صداقتى وحبِّى ... أُريدُ ... أُريدُ ! ... أُريدُ مَنْ أقول له : ها أنذا بعَذَابى وضَعْفى وخُضُوعى ؛ فيقول : وها أنذا بصبرى وقوَّتى وحبى لك ... أُريدُ من أقولُ له : هذه جروحى التى تَنْفُثُ الدَّمَ ، لا ترْقأُ ولا تستريحُ ولا تبرأُ إلَّا على وعى من دَمِها ؛ فيقول لى : وهذا طِبِّى الذى يحسمُ هذا الدم لتستريحَ وتبرأَ من أَلم النزيف ، يابُنىَّ ... !

(يابُنَىَّ ...) ، هذه طفولتى ، أريد من يحنو علىّ بها حنو الأم على صغيرها الذى هو كل أشواقها الرقيقة من قلب نبيل رقيق ... (يابُنَىَّ ...) ، هذه طفولتى ، أريد من يمسح بها أحزانى التى حيَّرت بصرى لأعرف من بعد طريق رجولتى التى تريد أن تعمل وأن تسير وأن تصل إلى سر أشواقها البعيدة الجميلة ... (يابُنَىَّ ...) ، هذه طفولتى ، أريد من يعرف أنى طفل وديع حين أؤوب من كدِّى وكدحى ،

فيتلقاني بين ذراعيه إلى قلبه لأشعر بحنان من الروح يطفئُ غلتي ، ويرسل فى أعصابى ريًّها من الحب ، الحب الذى هو فجر الحياة بنعومته ورقته وطهره ، الحب الذى يردُّ القلب المكدود الظامئ زهرة تتفتح فى جو من النور والندى والشباب ... (يابُنَيَّ) ، من يقولها لى يضع فى نَبْض أحرفها نبض الحب ...

أين أنت أيها الحبيب ؟ كنتَ أخى وصديقى ومن أستودعه سر قلبى المعذب فى تنُّور الحياة الموحشة التى يضطرم جوها بالصمت المتوهج والوحدة المستعرة ... كنت أخى وصديقى ، وأنا أبيد كما تبيد الأيام والليالى فى كهوف الحياة الدنيا ... كنت أخى وصديقى ، وعواطفى تزأر وتجأر فى باطنى كأنها وحش جريح متألم ثائر لا يرى مَن جَرحه لينتقم ... فالآن وقد جددت الدنيا أساليب تعذيبى عذابًا ضِعفًا من الآلام ... الآن وقد أوجدتنى الحياة ما أريده ، ثم وضعت بينى وبينه سدًّا يصف ما وراءه من أشواقى ويقف دونى فلا أنفذ منه ... الآن وأنا أشتعل وأتفانى من جميع نواحىَّ ... الآن وأنا أتوثب فى قيود مرخاة تمنحنى الحركة وتمنعنى دون الغاية ... الآن وأنا أمزق جو حياتى بزئيرى وأنيابى ومخالبى ، وأُحرقه بوجدى ولوعتى واشتياقى ...

الآن أين أنت أيها الحبيب ؟ يا أخى وصديقى .

انظر إلىّ - أيها الحبيب - من وراء هذه الأسوار المنيعة التى تفصل بين الحياة والموت ... الأسوار التى تمشى إليها الحياة كلها ساعة بعد ساعة دائبة ماضية لا تقف ، فإذا بلغتها ابتلعتها من حيث لا تشعر ولا تتوقَّعُ ... انظر إلىَّ - أيها الحبيب - وتكلَّم بكلامٍ من شعاع مضىء حىٍّ يُفهِمُنى حقيقتى الحية ، ويضىء لعينى هذه الظلمات التى تعترك بين يدى فى مدِّ عينى ... انظر إلىَّ - أيها الحبيب - واسكُبْ فى قلبى ورُوعى حقيقة الإيمان الحىّ الذى لا يموت ... انظرْ إلىَّ واصحبْنى فأنا الذى لا يصاحبُ الأحياء من الناس ، لأنهم لا يعرفون معنى الحياة إلا فائدة تلد فائدة ، كما يلد بعضهم بعضًا فى مَشيمَة من الكره والعنتِ وآلام المخاضِ وأمشَاجٍ من الدم يشْخَب من حولها ويتضرَّجُ ويقيحُ بعضُه فى بعض .

ولكن ... ولكن ما أكذب النَّفسَ على النفْس ! أنتَ هناك بحقيقتك الخالدة التى تحيا بأمر الله فى جو السماء ، وأنا هنا بحقيقتى الفانية التى تموت يومًا بعد يوم بأمر الله فى جو هذه الأرض ... أنتَ هناكَ وأنا هنا ، وبينهما البرزخ الذى لا تجوزه الروح إلا بعد أن تتطهر من أدران هذا الدم المتجسِّد فى أجلاد الإنسان ... أنت هناك وأنا هنا ، فكيف أنخلعُ من ثَوْرَتى التى أنا بها هنا ؟ كيف أنخلع من جسدى ؟ ومع ذلك ...

« ففى القلب تعيشُ الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تفنى وفى القلب ... تُحْفَر القُبُور العزيزة التى لا تُنسى لم أفقِدْك – أيها الحبيب – ولكنى فَقدتُ نفسى » .

ذكرى الرافعى

لستُ أدرى ! فأنا أذكر الرافعىّ . أعرفهُ أديبًا شاعرًا فيلسوفًا ... رجلًا قد انصرف بهمّه إلى الأدب والفكر يجدُ فيهما ما يَجِدُ ، ولكنى حين أذكره لا أجده فى نفسى إلا الصديق وحده . لم أعاشره طويلًا حتى أقول إنى أعِى للناس خبره وأعرف عنه ومن أمره ما لا يعرفه غيرى ، كلا لست أدعى ما ليس عندى ولكنى كنت أبدًا معه بحبى له وصداقتى ، وكان هو أبدًا يحوطنى بروحه فى أنفاس من حنانه وحبه . كنا روحين تناظرتا من بعيد وتناسمتا من قريب فعرفته وعرفنى . كان بيننا سرٌّ جامعٌ لا أدرى كيف أصفه ، ولكن كان من يعرفنى ويعرفه يجد آثاره ويرى من بعض بيناته ما لا أحبُّ أن أحدِّثَ به . ومع ذلك فأنا أقصر فى حقه ما لم يقصِّر أحد ممن توجبُ عليه الصداقةُ بعض واجباتها ، ولم يكن ذلك ، لأنى لا أريد ، بل لأنى لا أستطيع ولا أطيقُ فمازلتُ كلما ذكرتُ الرافعى – وقد مضت سنوات – أجد لذعة حُزْن فى قلبى تُرسلُ آلامها فى كلّ سابحةٍ من دَمِى .

ولكن الله لم يُخْلِ حقَّ الرافعى من رجُلٍ يقوم عليه ويُحسنُ النظر فيه ، فهيأ له الأخ « محمد سعيد العريان » ، يرد – بوفائه لذكرى الرافعى – كل ما وجب على أصدقاء الرافعى وأبنائِه وتلامذته ومُتَّبِعيه . فقد بادر « سعيد » بعد وفاة الرافعى فأنشأ يحدّث الناس بأخباره ما دَقَّ منها وما جلَّ ، ويضع بين أيدى الأدباء أكثر العوامل

التى يتكوَّن منها تاريخ الرافعى ، والتى كانت تعمل فى إنشاء أدبِه وتوجيه بيانِه . وفتح « الزيات » باب القول فى الرافعى له وعليه حتى اجتمعتْ من ذلك طائفةٌ من القول صالحةٌ لدراسة أدب الرافعىّ دراسة جيّدة لمن ينبعث نفسهُ لها . ولكن الأخ « سعيد » لم يرض أن يقنع بذكره هو عن الرافعى وجمعه فى كتابه الذى طبعه بعد وسمَّاه « حياة الرافعى » ، فدأب على إظهار ما لم يظهر من آثار الرافعى قديمها وحديثها ، وقد كان آخر جهد بذله فى ذلك سعيه لإنقاذ مؤلفات الرافعى كلها من الضياع . فانتدب لجمعها وتصحيحها ومراجعتها وطبعها بعد ذلك سلسلة واحدة تقوم بنشرها « المكتبة التجارية » . وقد كاد يفرغ من طبع أكثرها ، وأنا أعلم أن بين يديه الآن كتابًا من كتب الرافعى التى لم يتمها وكان أصولًا مبعثرة رديئة الخط كثيرة الاضطراب ، وهى أصول الجزء الثالث من كتابه الجليل « تاريخ آداب العرب » ، واستخراج هذا الجزء وحده دون سائر كتب الرافعى يعد عملًا عظيما ووفاء نبيلًا لرجل هو كسائر الأدباء : حياته حياة أدبه ، فإذا مات لم يجد فى هذا الشرق الغافل من ينفخ الحياة فى آثاره الأدبية مرة أخرى .

إن هذا التراث الذى خلفه الرافعى للأدب العربى ، قد جعله الله أمانة بين يدى « سعيد » فهو يؤدى اليوم إلى الناس هذه الأمانة وافية كاملة لم ينتقص منها شىء - إلا شيئًا يعجزه أن يهتدى إليه أو يقع عليه ، وغدًا يجد الناس بين أيديهم كل ماكتبه الرافعى حاضرًا لم يضع شىء منه وكذلك يجد من يريد سبيله إلى معرفة الرافعى من قريب وتقديره والحكم إما له وإما عليه .

مصر المريضة

ألقى الدكتور عبد الواحد الوكيل بك ، أستاذ علم الصحة بكلية الطب ، فى المؤتمر الحادى عشر للمجمع المصرى للثقافة العلمية محاضرة هى تصوير للآلام التى تعانيها الصحة فى مصر ، وتمثيل للحقائق المؤلمة المخيفة التى تعمل عملها فى هدم البناء الصحى للأبدان المصرية . وقد نشر صديقى الأستاذ « فؤاد صروف » قسما من هذه المحاضرة فى مقتطف مايو سنة ١٩٤٠ ، فأخذتها

وقرأتها وأنا أرجف بالرعب والفزع لما مثل لعينى من تلك الحقائق البشعة الشنيعة ، وهى على بشاعتها وشناعتها متفشية منتشرة تغزو مصر من جميع نواحيها غزوًا مهلكاً مبيرًا ، ثم لا تجد من يرده عنها من الجنود المجندة المقاتلة التى هى كل صناعة الطب وأسباب صناعته .

لقد عمد الدكتور الوكيل إلى الإحصاء الصحى فى مصر ، فبان منه أن البلاد إذا لم تتدارك أمر الصحة بأوثق العزم وأحكم التدبير وأسرع العمل ، فسوف تنتهى إلى فناء محقق يأكل القوة المصرية كما تأكل النار يَبْس (١) الهشيم . ونحن فى فاتحة عصر رهيب قد بدأ بالحرب المجتاحة ، تأتى معها الأوبئة والأمراض وتجر فى أذيالها أوبئة أخرى وقحطًا ومجاعة - إلا أن يشاء الله . والعالم كله يخشى ويتأهب ويستعد ، فهل عمدتْ مصر إلى جعل الوقاية الصحية تدبيرًا ممتدًّا مع أسوأ الفروض التى يمكن أن توحى بفرضها أوهامنا ومخاوفنا وتشاؤمنا من الأيام المحاربة والأيام التى تلْقى عن عواتقها أوزار الحرب بعد أن تأكل القوة بعضها بعضًا فى ميادين الوَغَى والقتال ؟

يقول الدكتور الوكيل : « ونحن إذا رجعنا إلى نسبة الوفيات العامة سنة ١٩٣٧ فى مصر وثلاثين دولة أخرى فى مختلف القارّات متدرجين من الأسوء إلى الأفضل ، اتضح لنا أن مصر فى رأس هذه القائمة ؛ ومن هذه البلدان : الهند واليونان وبلغاريا وفلسطين » ... لا ، بل أكثر من ذلك ، وهو أن الإحصاء يدل دلالة قاطعة على أن الأطفال هم ٥٥٫٨٪ من مجموع الموتى ، وأن هذه النسبة فى صعود متواصل حتى فى هذا العهد الذى نحن فيه . بل انظر إلى الأصل فالدكتور الوكيل يقول : إنا إذا أخذنا الأمراض المتفشيه كالبلهارسيا والأنكلستوما والرمد والسل والأمراض العقلية والملاريا والتيفوس والتيفود والدفتريا والأنفلونزا الحادة والحمرة وغيرها ، ثم جمعنا بعضها إلى بعض مرضًا مرضًا كانت مايربو

(١) اليَبْس واليابِس بمعنى .

على ٥٠ مليون مرض ، فإذا وزعت هذه الملايين على المصريين أصاب كل شخص ثلاثة أمراض فى وقت واحد .

وهذه النتيجة المؤلمة قد أفضت إلى هذه الغاية باهتمام القائمين على أمر الصحة والتعليم بالحضر دون الريف ، وبالذى كان من طغيان الجهل واستبداد الفقر بطبقات الشعب التى يتكون منها السواد الأعظم . وقد وضع الدكتور الوكيل مشروعه لمكافحة هذه الحالة ، فهل يمكن أن تكون الوزارات المختصة قد عرفت حق مصر فهبت إلى القيام بواجبها فى الدفاع عن البلاد لإنقاذها من براثن هذه الأعداء المتعادية المتخالفة علي قتال الروح والحياة فى الشعب المصرى ؟ ذلك ظننا ، واللَّهُ خيرٌ حافظًا وهو أَرْحَمُ الراحِمِين .

* * *

إلى أين ... ؟

- ١ -

جلست وصاحبى تحت جنح من الليل كأنه باز أسود قد طوى أفقًا من السماء فى كهف من جناحه . وطمس هذا الليل الدامس ذلك الشعاع الذى لا يزال يبرق به وجه صاحبى كلما سكن ظاهره واطمأن ... وبقيت نفسه من وراء ذلك السكون الوديع تتوقد بأفكارها المشتعلة ، وترسل لهيبها يتلألأ على محياه ويتموج . وكان إحساسنا بمعنى الغارة الجوية ، يثير النفس ثم يجثم عليها متثاقلاً بوطأته ، فلا هو يجعلنا نثور فيخف مانجد من ثقله ، ولا هو يتركنا نهدأ .

وبقى صاحبى صامتًا لا يتكلم ، ولكنى كنت أكاد أجد الألفاظ والمعانى وهى تعترك فى داخله وتتشاجر . أما إنى ما رأيته - أو قل ما أحسسته - كاليوم . لقد كان كالعاصفة من اللهيب مكفوفة فى محيطها ، تدور وتتراكض ، وكان هو هذا المحيط . لقد رحمته حتى كدت مرات أقوم إليه أضع يدى على رأسه ، أقول : ذلك مما يخفض عنه بعض ما يغتلى فيه من سعير الفكر . ولكنى كنت أهاب أن أشعره أنى قد نفذت إلى بعض أسراره التى يريد كتمانها . فسكت معه ساعة أحتال فى خواطرى لفض هذه الأغلاق التى يضربها على ضمير نفسه ، فلست أشك أن بعض الحديث إذ اشتكى خفف وأراح .

لم تكن لى حيلة معه ، ولكن طول الصمت بينى وبينه فى ظل هذا الليل الأسود كان هو مفتاح هذه الأقفال الكثيرة . وكان الحجاب الذى أسدله دجى الليل هو الحيلة التى جعلته يقلق ويتململ فى مجلسه يريد أن يستكتمنى وهذا الليل سرًا من القدر .

ثم سكت سكتة ظننت معها أن أنفاسه قد أبت عليه أن يتنفس بها . لقد كان يجاهد نفسه : كان هو يأبى أن يتكلم ، وكان الذى يجده فى صدره من الضيق يأبى عليه إلا أن يتكلم . كان نزاعًا هائلًا بين قوتين متحاربتين صارمتين عنيدتين

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٢) ، ١٩٤٠ ، ص : ٩٧٠ - ٩٧٣

متكافئتين ، لقد أَثْبَتَه ذلك حتى كاد يتمزق . إنى لأحس بل أسمع صوت التمزيق الذى يحدثه فى نفسه هذا الصراع المخيف الرائع بين إلحاح هاتين القوتين فى تنازعهما . ومضت الدقائق وأنا أعدها ساعات من عجلة النفس إلى تخفيف العذاب عن هذا الصديق البائس المحطم ، والذى يأبى عليه عناده إلا أن يتجلد .

ولكنه مالبث أن شق كثافة هذا الصمت المبهم بكلمة ضربت فيه :

لست أدرى !! لست أدرى !!

لقد سمعت لكلماته فى أذنى صليلًا كما يَصِلُّ الحجر الصلد على ضربة معول من الحديد الصلب . لقد بغتنى بصليلها حتى نسيت أفكارى فيه منذ أول الليل . ولكنى سرعان ما اجتمعت لحديثه وأردت أن أحتال للتخفيف عنه ما استطعت . فقلت : وكأنى أعلم خبء ما يشير إليه :

كلنا ليس يدرى . وهذه هى الحياة . إنك لا تستطيع أن تعرف الحقيقة حتى تخوض إليها الباطل خوضًا . إن الشك هو أعظم أعمال النفس الإنسانية ، فإذا ما ابتُلى به الإنسان فهو بين نهايتين : بين أن يهتدى فيلحق بالذروة فيستوى على عرش من عروش الحكمة ، وبين أن يضل ويتزايل فيتدَهْدَى على هذه الصخور الفكرية العاتية فيتحطم . وأىُّ ذلك كان ، فالمسألة كلها قدر محتوم ياصديقى ! رُفِعَتْ الأقلامُ وجفَّت الكتب .

لقد رأيت شرارتين تتطايران من عينيه فى جوف هذا الظلام ، ولكأنى اقتدحتُ بكلماتى من النار التى تكمُن فى تلك الصخرة الفكرية الململمة التى انطوت عليها ضلوع هذا الصديق المسكين ...

ثم رأيته يرتد مرة أخرى إلى صمته وصراعه ، ولكنى كنت أشعر به وهو يلين ويتخشع من كل ناحية . لقد كان هذا الصديق قاسيًا عنيفًا ، ولكنه كان رقيقًا أيضًا . وكان صبورًا ، ولكنه ربما استكان للجزع ، وكان مستوحشًا آبدًا ، ولكنه ربما ألف وطاوع وانقاد ، وكأنه لم يجمح مرة . وكان راسخًا شامخًا وطيد الإيمان ، ولكنى كنت أنفذ إليه أحيانًا فأجد الزلزلة التى فى قلبه قد جعلته يتزعزع ويتطامن ويضطرب بعضه فى بعض اضطراب الموج فى تياره .

لست أدرى ! ولكنى أريد أن أحدثك ، أريد أن أنبذ إليك من القول لتشركنى فى بعض الفكر ...

ثم سكت وسكن ، ولكنه أقبل على وقد جمع أطراف نفسه المبعثرة ، يقول :

... كانا صغيرين ، وكانت أيامهما الصغيرة لا تدرك معنى النظرات التى تلتقى فتتعانق ، فتتعقد عقدة لا تحل . وهكذا نسيهما الزمن فى معبده الآمن ، ثم انتبه يومًا فزفر بينهما زفرة واحدة فتفرقا . لم يدركا يومئذ شيئًا من معانى الفراق المهلكة التى تمحق النفس بالتأمل واللهفة والحنين ، بل نظرا ثم تواد‌عا ، ثم افترقا ثم نسيا . أو هكذا كان ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة نسيانًا ، بل كان عملًا من أعمال القدر الغامضة ، كان تعبئة للأحداث العظيمة التى تتهيأ فتصنع النفس الإنسانية صنعة جديدة ، لقد عرفت ذلك فيما بعد . وتسحَّبت حواشى الحياة بينهما ، حتى رقت أيامهما الأولى ثم جعلت ترق حتى استحارت أحلامًا من الذكرى المبهمة ترف على القلب رفيف النسمات : لا تُرى بل تُحَس ، ولا تمسك ولكنها تلقى عطرها فى القلب وتمضى . نعم لقد نامت تلك العواطف الناضرة الصغيرة فى مهد من النسيان ، ولكنها كانت تنمو أيضًا فى جو هذا المهد .

ومشى الزمن بينهما يقيم سدودًا وأسوارًا من السنين وأحداثها ، وكما كبرا وامتدّا من أيام العمر ، كبرت السماء التى تظلهما وترامت آفاقها ، واستحالت الأيام الصغيرة الأولى أشباحًا ضامرة لا تكاد تبين من دقتها وخفائها .

ثم فجأهما القدر فتلاقيا بعد دهر طويل كما يتلاقى نجمان فى ظلمة الليل ، يتناظران لمحةً وشعاعًا من بعيد لبعيد . هكذا عرفتُ . لقد كان هو يحسُّ فى بعض أيامه قبل ذلك اللقاء ، أن الفلك قد دار دورته فى القدَر ، وأن القوة المسخِّرة قد قذفت به فى نظام من الجذب جديد ، فلم يكد حتى لمح له شعاعها من بعيد يليح إليه بأضوائه وكأنما يقول : أقبل ... هلم إلىَّ ... هأنذا ، هأنذا !

ولم يلبث أن أتم هذا الفلك دورته ، فإذا هما يتناسمان فى جوٍّ عطرٍ تنفح من أردانه أنفاس الأيام الصغيرة الأولى ... أيام الطفولة التى تنمو فيها عواطف القلب

وتتفتح ، كما تنمو الزهرة فى أكمامها تحت السَّحر فى مهد الفجر بين روح وشعاع وندًى .

واجتمعا ... فإذا هى غادة مضيئة تزهر . ولكأن الزمن اختطفها كل هذا الدهر وتسلل بها فى بعض مصانعه العجيبة ، وجعل يجهد جهده بأنامله النابغة الدقيقة ، فهو يجلوها ويصقلها حتى إذا فرغ من فنه الذى احتفى لها به ، ردَّها إليه ينبوعًا من النور الضاحك المرح يترقرق لعينيه ممثلًا فى صورتها ... لقد شبت الصغيرة ، ولكن شبابها كان رقَّة وحنانًا فى أُنوثتها ، واستوت فكان استواؤها دقَّة فى فن من جمالها ، ونمت نموًّا وضّاحًا ، وكأنما كان يَغْذوها نور الكواكب ويُرْضعها روح الزهر ... لقد وجدها وهى تضوع وتلألأ من جميع نواحيها ... لقد كان يخيَّل إليه أن النسيم من حولها يطوف بها متعبِّدًا خاشعًا ثم يسعى إليه حاملًا نفحة من نفحات الجنة . فكان يحس دائمًا أن جوها ينتقل إليه فينفذ إلى قلبه ، فيقعد هناك يتمتم يحدِّثه بأخبارها أو يصفُ له منها مايُوعِب هذا القلب الحزين افتتانًا ولوعة وحنينًا .

لقد شبَّتِ الصغيرة ... ، فنَضَتْ عنها كل مطارف الطفولة ، وتجلَّت جَلْوة العروس فى زينة من الصبى والشباب . لقد خلعتْ كل قديمها ، ولكن شيئًا واحدًا بقى كما هو ، لابل بقى أقوى مما كان وأصفى . تلك هى روحها ، الروح القوية الآسرة المتسلطة . تغيَّر كل شيء إلا عيونها التى تشفُّ عن هذه الروح التى لا تتغير . فالنظرة الباسمة الخاطفة التى كانت تخضع بها تمرد ذلك الصبى العارم الصغير ، هى هى النظرة الباسمة الخاطفة التى هجمتْ منه على الرجل فأضاء وميضها له الطريق ، وحبسته بأمرها وسلطانها على هذا الطريق نفسه وفى وقت معًا ...

ثم نحا صاحبى بصره إلى قِطْع من الليل جاثم من عن يمينه وأطال النظر فى جوفه . ثم خيل إلىّ أنه قد جعل يصغى إلى همس الليل ، ويتسمع وسوسته الخافتة إلى رمال الصحراء ، وبقى زمانًا لا يكاد يتحرك ، ثم انتفض فى مكانه انتفاضة خفيفة ، ما رأيتها ولكن رعدتها جرت فى دمى وأوصالى قشعريرة عرفتها .

ثم عاد إليّ يتنهد ويقول :

هكذا هي ... أو هكذا كانت ... أما هو ...

وارتعشت الكلمات في نبراته وعلى شفتيه فأمسك وسكت ، وكأنه عزم ألا يتم ما بدأ من حديثه عن الرجل . فخفت أن ينقطع عني دون خبره ، وأردت أن أستفزه من حيث أعلم كيف أستنبط نبع حديثه ، فعجلت إليه أقول :

أما هو - ياصاحبي ! - فقد كان مجنونًا تنشيء له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التي لا حقيقة لها في حقيقتها هي ، و ...

فانقض عليَّ بصوته يقول :

كلا ، كلا ! لا تقل هذا . ليس الأمر كذلك . لا تعجل عليه . إنك لا تعرفه ، ولو عرفته فما أظنك تحسن فهم حياته التي يعايش بها الناس . سأحدثك عنه ، لقد علمت أنك تريد أن تحملني على ذلك ، ولا بأس إذن . لا أقول لك إني فهمته ، واستطعت أن أكشف لنفسي عن سر طبيعته ، كلا ! بل أقول لك إني لأحس بكل ما يعتلج في قلبه من آلامه ، وكأنها عندي هي كل آلامي إنه رجل قد امتلأ حكمة من طول ما جرب ، ومن عنف ما لقي من الأحداث التي نقضت بناء حياته مرة بعد مرة . نعم إنه لملء رجولته تجربة ، ولكن ... ولكني سأصفه لك على كل حال . سأحاول أن أعبر لك عن حقيقة معرفتي به . نعم ! هو إنسان غامض مبهم محير ، إذا صحبته رأيت من نقائضه التي تجتمع لك من أعماله وظواهره ، ما يلتوي بفكرك فيه من هنا إلى هناك ، حتى تجد وكأنما أنت تمشي منه في غمض من الأرض منكر قد درست صُواه [1] وعَفَت رسومه وجهلت معالمه . لا تهتدي فيه أبدًا إلى شيء تستطيع به أن تقول : هذا هو ! هذه هي الفكرة ... ، هذا هو الطريق !!

سكت صاحبي قليلًا وقد طرح فكره في مذاهبه ثم عاد يقول : فلنعد إلى حديثنا إذن ، لقد حملتني على أن أذهب بك بعيدًا ... كذلك كانت هي كما

---

(١) الصُّوَى : علامات تقام في الطريق يهتدي به المسافر .

وصفتها لك بل أروع مما وصفتها ، حين التقيا على غير موعد يتوقعه أحدهما ...
أما هو فكان يومئذ رجلًا ضربًا (١) متوقدًا ثائرًا عنيفًا ، لا يزال يتمزع من جميع نواحيه كأن فى تجاليد شخصه روح وحش شارد لا يألف الحياة ولا هى تألفه . كان فكرة شامخة عاتية عضلة تأبى أن تتهضم لأحد أو تستذل . كان كالبركان فى عنفوان فورته تتقلَّع به صواعقه وزلازله . وهكذا كنت أبدًا أعرفه ، ولكنه كان مع كل ذلك يحب أن ينطوى على هذه العواصف التى تتقصف برعودها بين جنبيه ، ومن أجل ذلك كنت أجد فى عينيه أحيانًا بارقًا ساطعًا يتداركُ ويَتلهّبُ ، حتى يجعل نظراته كأنها سياط من الأشعة يتضرم اللهب على عذباتها (٢) ... لا تعجب ، فأشهد لقد خيل لى مرارًا أن نظرته هذه إنما تكوى من يتعرض لها أو من يجلده بها ، حتى لأخشى أن تكون تترك فيه من آثارها أخاديد تنتفض كسَلَع (٣) النار على الجسد .

لا تعجل ، ولا تشطط . لقد تعلم أنه كان – مع كل هذا الذى وصفت لك – إنسانًا وديعًا رقيقًا . كان قلبه خلاصة صافية ممثلة من الحنان والشفقة . ولكنه أصيب بأحداث كثيرة جعلته ظنونًا حزينًا ، فهو لذلك يضن بما فى قلبه أن يطلع على حقيقته الكاملة أحد من الناس . لم أر – فيمن رأيت من الناس – من هو أبعد منه مذهبًا فى الاحتراس والحذر ، ومع ذلك أيضًا ، فلو أنك رأيته فى بعض ساعاته لظننت أنه رجل غُمْر (٤) يختدعه عن نفسه كل أحد ، ولكنه ليس كذلك . نعم ، لقد كان هشا أحيانًا بين يدى من يتناوله ... فإذا أُخِذ بالاعتناف والقسر ، انقلب الذى فيه ضاريًا لا يطيق ولا يطاق .

هكذا كان أول ما تلاقيا ...

ثم صمت صاحبى ، وخيل إلىّ أنه يضحك . لقد كان يخافت من ضحكه ، كأنما هو يسخر ، ورجع إلىّ بعد قليل فواصل حديثه : كيف قلتَ فى نعته ؟ كان

---

(١) الرجل الضَّرْب : الممتلىء حيوية ونشاطا ، هكذا وصف طرفة نفسه فى معلقته .
(٢) عَذَبَةُ السَّوْط : طَرَفُه .
(٣) السَّلَع : آثار النار بالجسد . (٤) الغُمْر : الغِرّ القليل التجارب .

مجنونًا تنشئُ له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التى لا حقيقة لها فى حقيقتها هى ... !! نعم ، ربما كان ذلك صحيحًا من بعض وجوهه ، ولكننى على يقين من أنك لا تكاد تعرف وجه الحق فى تأويل هذا الوصف . لا بأس ومع ذلك ، فأى هذا الناسِ ليس مجنونًا على الحقيقة من بعض نواحيه ؟ إنك لو جهدت فتتبعت تاريخ الإنسانية كله لم يخلص لك من أصحاب العقل الكامل إلا أفذاذ قلائل . ومع ذلك ، فليس أحد من هؤلاء الأفذاذ قد نجا من قذف الناس إياه بالجنون . ألا فخبّرنى أى الأنبياء – وهم فضائل الإنسانية الكاملة – برىء أن يقول فيه أهله وعشيرته : « إن هو إلا رجل به جِنة » أو « ساحر » أو « مجنون » ؟

إن من أعظم حقائق الحياة الدنيا أن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة العقل ، أى أنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه ! و ...

وصدَع السكونَ صوت صفير الغارة الجوية ، فانتزع صاحبى ثم قال :

– أليس هذا هو صوت جنون سكان العالم ؟ أليس كذلك ؟

« لها تتمة »

* * *

إلى أين ... ؟

- ٢ -

قال صاحبى بعد قليل من سكتة صفير الإنذار بالغارة الجوية : الآن وقد صم صدى هذا النذير البغيض ، ومات صوت البومة الدميمة التى قامت تنعق على الموضع الخراب من عقل هذا العالم ، فأسرعت الأيدى وتناهضت الأقدام ، وخفت الأحياء ليطمروا أشلاء النهار التى كانت مبعثرة فى طرقهم وبيوتهم على معركة الليل البهيم ، إنهم يدفنون هذه الأشلاء الوهاجة خشية أن تراها عيون العافية[١] من سباع الجو المنقضة بأنياب كرجوم الشياطين . آه ياصديقى ! ما أقبح هذا وما أفجره . ولكن دعنى من هذا ، فالآن أعود إليك .

لقد مثلت لك بعض صورتها هى وبعض صورته عند أول اللقاء . لم أكشف لك بعد عن حقيقة النفسين وهما تعملان بأسباب من القدر ، إن هذه الأسباب التى لا يُدرى متى أولها ، قد أخذت تلتوى عليهما فيما يستقبلان من أيامهما ، وثمت بدأ الإشكال ، وتراكبت العقد الجديدة على تلك العقدة القديمة التى التبست عليهما فى الطفولة ، فلست أدرى ، ولاهما أيضًا يدريان ، إلى أين المصير !

لمحها ولمحته فى يوم اللقاء الأول ، فوقفا طويلًا ينظران . وشخص البصر وكفت العين لا تطرف ، وكأن العين قد أرسلت إلى العين رسلًا من أشعتها لتبحث فى أعماقها عن معانيها الحائرة التى لم تستقر بعد على قرار مؤمن ، تتبين فيه كلتاهما صورة كلماتها القلبية التى تنبض فى موج الدم .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٣) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٠٠٧ - ١٠٠٩

(١) العافية : التى تعفو ، أى تطلب ما تأكل ، يوصف بذلك السباع وجوارح الطير ، وفى شعر النابغة « ترى عافيات الطير » ، والذى قصده أستاذنا هنا : الطائرات .

أما هو ، فقد أخذه ما يأخذ الغريق المشفى على هاوية من الهلاك الرطب الندى ، ثم يفتح عينيه ، فإذا هو ملقى على الشاطئ قد انتشلته من فزع الردى نجاة برحمة من روح الله . ولكنه لا يدرى من الذى رده إلى الحياة بعد ملابسة الموت؟ ولا كيف كان ؟ ولا أين هو ؟ ولا أى مكان هذا ؟ ...

وأما هى ، فقد أنكرته بادئ اللحظ ، ثم انكشف لعينيها الحجاب الكثيف الذى أرخاه الدهر الماضى بين أيامها وأيامه ... لقد عرفته وأثبتته معرفة . فأقبلت عليه تندفع بقوة الرد المتفلت من شد عشرين عامًا كانت تجاذبها دونه :

أنتَ ، أنت !! أين كنت ؟!

آه ، لقد نسيَ المسكين عندئذ أين كان ! إنه هنا ... !

أليس هذا كافيًا ؟ أليس هو كل شيء ؟ ... أما الماضى ، أما الحياة التى عملت فى بنيانه أعوامًا طوالًا كلها جهد وإرهاق ... ، كل ذلك ذهب وباد وامَّحى ، وكأن اليد التى تمحو ما تشاء وتثبت فى تاريخ الإنسان ، قد أمرَّت صفحتها على رقعة أيامه الماضية فغسلتها وطهرتها من سوادها ، وردت إليه وإليها صحيفة أيامه بيضاء نقية قد تهيأت أن ينمنم فيها القدر تاريخه الجديد ... أجل ! كان هذا هو الإنذار الأول من القدر لهذا المسكين أنه سينسى معها كل تجاريبه فى الحياة ، وأنها هى التى ستكتب له هذا التاريخ الجديد من القدر خيره وشره .

ومضت الأيام الأولى بعد هذا اللقاء البغت على ذكرى حاضرة تصارع وحوش الماضى التى وطئت بأقدامها عهود الصغر وملاعب الطفولة فطمست معالمها ومحتْ بعض آياتها . جعلت هى تتكلم ، وكأنها ذاكرة التاريخ الواعية التى لا تكاد تفلت شيئًا إلا أحصت دَقيقهُ وجليلهُ . حدّثته وذكّرته وأعادتْ عليه زُخْرفَ الصِّبا ووشيه من نسج حديثها ، أما هو فبقى صامتًا ينصت لها خاشعًا ضارعًا يسمع صدى الماضى الذى يتكلم فى سراديب النفس العميقة الممتدة الذاهبة بأساليبها الغامضة فى أقصى غيب الحياة .

كيف تدب الحياة فى أشياء الطبيعة التى تخيل للناس أوهامهم أنها مواتٌ ؟
كيف تستيقظ الأرواح النائمة فى غار مظلم قد أطبقت على منافذه صخورٌ صم من

جبال الزمن ؟ كيف تستقبل النفس – التى أحرقها الظمأُ المتضرِّم – شؤبوبًا [١] من الغيث يهمى عليها باردًا عذبًا زلالًا سائغًا يترقرق ؟ كيف وكيف ؟ لقد عرف هو كيف يكون ذلك كله حين تكلمت روحها فى ثنايا روحه المتغضِّنة بأحزانها ، وحين أخذت تناجيه بالذكرى ... ، ويتحدر فى صوتها ذلك اللحن الخالد الذى يتحدر مع الغيث من السماء يناجى الأرض الظامئة المقشعرة المجدبة ، فلذلك تهتز وتربو على مد أنغامه التى تفجر فى ذرَّات الثرى كل ينابيع الحياة .

واستجاشت هذه الساحرة الجميلة التى خرجت عليه من لفائف الغيب المحجب تلك النفس المصممة العنيدة فما زالت حتى انقشعت الغمامة الغبيّة التى كانت تحيط بنفسه عمرًا من قبل . إنه الساعة يسمع ويرى ويحس ، ويتغلغل فى الحياة بيأس شديد . لا ، بل كان فى أول أمره هذا مضطربًا حائرًا يدور بقوته حيث دارت به على غير هدى ولا صراط ، كان ربما خلا فاستوحش فارتاع ، فيحتمل كل أعباء الهم الذى يجده فى نفسه ، فيخرج يضرب فى البيداء المقفرة البيضاء فى مدّ البصر ، حيث لا يرى إلا صفاء السماء وبحر الرمل الساكن فى مهاد الأرض ... ، حيث لا يسمع إلا حنين الرياح ونجوى أشواقها الأزلية فى المَهْمَه القَذَف [٢] . يمشى ثم يمشى حيث يتصرف به القدر الغالب ، وهو لا يسمع مع ذلك إلا أنغام صوتها من حوله يتردد : أنت ، أنت !! أين كنت ؟

اشتعل القلب وفارت الروح ، فانطلق بعد الحيرة والضلال فى طريق سوىّ مؤيدًا بهذه الروح القوية التى سيطرت على كل روحه بالحب والحنان ، ومضى يعمل لها وبأسبابها نافذًا مقدمًا لا يمل . ولكن سمعه لم يزل على حالة من الإصغاء ثابتة ، كأنها إغماء أخذه كما تأخذ غمية الوحى إذا نزل فاشتد فاستبان ، ثم تنحدر رنات صوتها إلى قلبه فتجرى فى أنهار الحياة المتدفقة فى جثمانه بدمه ، فيرجع الدم ألحانها ترجيعًا موسيقيًا هفافًا آتيًا من أغوار القدر العميقة . نعم ، إنه لا يزال يسمع فى مخارم نفسه ومهاويها صدًى يتردد :

---

(١) الشُؤْبوب : الدُّفْعَة من المطر .

(٢) المَهْمَه : الصحراء . القَذَف : البعيد .

أنت ، أنت !! أين كنت ؟
فتجيبها الروح من أعماقها :
أنا هنا ، أنا هنا !! أيتها العزيزة !

* * *

هكذا بدأ وقد نام كل مافيه وخَضَع لسلطانها الذى لا ينتهى ولا يفتُر ، ثم دبَّتْ فى روحه اليقظة الجديدة فتجددت النفس المتغضنة ورقَّ شبابها ، واستجمت قواها الشاردة بعد فترة كإغفاءة النائم فى أنفاس الفجر الندى المتروّح بعطر الرياض النضرة . ولكنه عاد - بعدئذ - برجولته يتوحش ، فارتدّ إليه حذره الوحشى يتوجس خيفة ، وأخذه بذلك الرعب من كل مكان أين أنا ؟ وكيف كان هذا ؟ ولم خضعت ؟ وإلى أين أسير ؟ كل هذه أسئلة جعل صداها يتردد فى نفسه ، ثم يلقيها على الدهر الأصم ، فلا يجد جوابها جميعًا ولا تأويلها . ويومئذ جعل يصول صيال الوحش يريد أن يجد الغيل المفرد الذى يفرض فيه سلطانه على جوه وغابه ... ولكن وارحمتا له ! لقد حق ما قلت ياصديقى : المسألة كلها قدر محتوم ! رُفِعَت الأقلام وجَفّت الكتب !

أرأيت إلى ما وصفت لك منه أول ما تلاقيا ؟ أرأيت إلى ذلك الوحش الآبد الحذر الذى لا يألف الحياة ولا هى تألفه ؟ أرأيت إلى تلك الفكرة الباذخة العضلة التى تأبى أن تذلّ أو تتهضّمَ ؟ أرأيت إلى البركان المتقلع فى عنفوان فورته ؟ كل ذلك قد استحال بين يديها ، وتحت أشعة عينيها ، وفى مس أنفاسها ، شيئًا غير هذا كله . فكل ما توحش منه فهو عندها يألف وادعًا يلوذ بها خاشعًا متضرعًا ، وكل ما بذخ وسما وتعضّل فهو يتطامن لها ويرق ويتلين ، وكل ما تقصف منه وفار وغلى فهو ينساب إليها صبابة وحنينًا ولوعة .

* * *

وعندئذ سكت صاحبى بغتة كأن لسانه قد عقد عقدًا على ألفاظه ، ثم تنهد واحدة كأنما انهدّ بها ركن من جبله القائم فى ضمير نفسه . ورمى بصره فى هذا

الركام المتكاثف بعضه على بعض من ظلام الليل . لم أرد أن أستثيره من هدأته التى يستريح إليها بعد هذا الجهد الهائل الذى كان يتدفق به فى حديثه . لقد كان يعانى من هذا الحديث أشد مما يعانى الهارب السائر فى وحشة الليل الصامت فى غوْل الصحراء ، وهو هائمٌ على وجهه تطارده من ورائه شياطين العذاب التى تريد أن تنتشطه [١] إليها بخطاطيف هائلة من الرعب والفزع .

كنت أرق له وآسى عليه ، ويمنعنى من الحديث معه مخافتى أن يكون ذلك مما يصرفه عن بعض الفكر الذى يتعذب بوساوسه وخطراته . نعم ، إنه عذاب عقلى أليم ، ولكنه على ذلك مما يعطى النفس بعض راحتها من عذاب الشك والقلق والحيرة . والحياة كلها صروف متعاقبة يراد بها السمو بالنفس على وجه من وجوه الألم . والألم وحده هو الذى يستطيع أن يصقل النفس الإنسانية صقلًا رائعًا ، وبذلك يرد إليها حقيقة الإيمان المشرقة بالإطمئنان والتسليم . إنه حائر يشك فى حقيقة ما يقع عليه فكره ولكن هذا الألم الذى يصارعه صراعًا عنيفًا لا رحمة فيه ، هو نفسه الرحمة المهداة إليه ، ليؤمن بعد ذلك إيمانًا لا يداخله شيء من الشك أن قلبه لم يخطئ ، وأن أفكاره القلقة هى التى تخطئ وأنه ينبغى أن تقيد أفكار العقل الحائر بأغلال متينة من أفكار القلب المؤمن .

وتضربت فى همسات الليل أفكارى فيه ، وجعلت أستعيد فى نفسى كل ما قاله لأرى من تحته المعانى التى تتهارب وتختفى بطبيعتها فى ظل الألفاظ اللغوية المحدودة بمعانيها . كنت حائرًا فى فهم هذا الصديق الذى يحدثنى عن صديقه ، وما صديقه إلا هو . وكنت ألمح هذا الجبل وهو يتخلع من أعضاده التى ينهض عليها ثابتًا قارًّا متساميًا يهزأ بالتلال القصيرة التى تطمح إليه بأبصارها ، وجالت فى نفسى أفكار وأسئلة لا جواب لها . يارب ! أهكذا يضمحل الرجل ؟ وارتفع صوتى بهذا السؤال غير متعمد لذلك . فما هو إلا أن هبّ صاحبى من غفوة الفكر التى غشيته ، فابتدرنى يقول :

---

(١) تنتشطه : تنتزعه وتشدّه .

نعم ، هكذا يضمحل الرجل ! وما تريد أنت إلى ذلك ؟ إنك دائمًا تفجؤنى بتمثال يتكلم بأفكارى التى أتكلم بها فى غيب نفسى ، أى شىء هو الرجل ؟ هل تستطيع أنت أو من سواك أن يقرر للعقل حقيقة الرجل ، وأن يمتهد لفكرته أصلًا لا يزول ، فإن يخرج عنهما أو عن أحدهما انتفى فى العقل أن يكون رجلًا حق رجل ؟ هذا هو الغرور الذى يتهاوى فيه الناس ما داموا ناسًا يبغى بعضهم على بعض ، فطرة ركبت فى سر طبائعهم . إن هذا ليس اضمحلالًا وضعفًا بالمعنى الذى تتوهم ، إنه ليس من قوة فى الطبيعة إلا وفوقها قوة تحكمها وتصرفها ، وخضوع قوة لقوة أعضل منها ليس يعرف ضعفًا فيمن يخضع ، وإنما هو القانون الطبيعى الذى يستقيم به نظام العالم . إنه لا يقال للدوحة الفينانة العظيمة : أيتها المسكينة ، لماذا تخضعين لسلطان الفصل الذى تساقط به أوراقك ؟ أو لماذا هذا الحنين الدائب إلى قطرات من الغيث ، وهذا الجبل أمامك يسفح عليه ماء السيل ثم ينقطع أعوامًا فلا يظمأ إليه فيحن كمثل حنينك إلى قطرات من الماء انقطعت بضعة أشهر ؟ هذه طبيعة الدوحة ، فإذا انقلبت طبيعتها إلى غير هذا الناموس قتلها الظمأ وتركها حطبًا يابسًا لمن يستوقد .

آه أيها الصديق ! إنك لن تعرف الحقيقة حتى تستشعر قوة الآلام الملتهبة التى تترك الرجل يتزايل على الشوق والوجد واللوعة كما يتزايل جبل من الفولاذ قد تجوفته نار متضرمة من لهب جهنم . أبغنى قليلًا من الماء ثم أحدثك كيف اضمحل الرجل !

(لها تتمة)

* * *

إلى أين ... ؟

- ٢ -

[تتمة]

أخذ صاحبى كأس الماء فى يده ، وجعل يرشقها ببصره رشقًا حديدًا يلمح لمحًا تحت حواشى الليل ، فكنت أرى وهج مقلتيه يكاد يتطاير تطاير الشرار بينهما وبين الكأس ، وأدام نظره طويلًا إلى الماء وهو يقر شيئًا بعد شىء ويسكن ، فكأنى به كان يغمس نظراته الملتهبة فى برد الماء ، ليبترد من وقدة العاطفة التى تضطرم فى داخله . وبعد فترة عب من كأسه عب الظمآن استحر على كبده العطشى ، ثم فرغ فوجه إلىّ ، وقد برق وجهه ، أو هكذا تخيلت ثم قال :

آه ... ! ماكان أبصر ذلك الأعرابى الظريف الذى عطش وضل عن الماء فى بيدائه ، فلما رمى به السير فأفضى إلى بئر عميقة عادية [1] قد بعد ماؤها ، أجهد أن ينزف بدلوه من بعض مائها حتى بُلغ به وكاد يهلكه غؤور الماء ، وبعد لأى ما استطاع أن ينزح من مائها ما يرويه ، حتى إذا شرب وارتوى وأطفأ غلة الظمأ ، حمل تلك الدلو بين يديه ينظر إليها ويقلبها كأنها بَنِيٌّ من صغار بنيه يرقصه ويداعبه ويقول :

أى دلاة نهل دلاتى !! قاتلتى وملؤها حياتى !!
كأنها قَلْتٌ من القلات

فانظر كيف يفرح الرجل بأديم جاس [2] غليظ متغضن موات ! إنه يحبه ، ويحرص عليه ، ويرق له ، ويدلله دلالًا كأنه طفل يطفله ويرعاه . وماذاك إلا أنها أداة يتخذها ليطفئ بها الغُلَّة التى يُؤَرِّثها حر الظمأ ، لو هو فقدها فى مجاز [3]

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٤) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٠٤٤ - ١٠٤٦

(١) عادِية : قديمة ، كأنها من عهد عاد .

(٢) جَسِيَ الشىء : أصبح قديما يابسا متغضِّنا .

(٣) مَجاز : جاز المكانَ وبه : سَلكه وسار فيه .

البيداء المجدبة الظامئة ، فقد معها القدرة على الحياة ، ومع كل ذلك فما هى إلا أديم أصم ، وأداة لا خير فيها إذا لم يكن كل الخير من قوة الساعد التى تمتد فى رشاء يتطوح بين أرجاء البئر .

ما أبلغه من أعرابى ، لولا نقل حديثه من الدلو إلى المرأة !

« قاتلتى وملؤها حياتى !! »

إنها المرأة ياسيدى هى وحدها التى تستطيع أن تكون القاتلة المحيية فى وقت واحد . إن كل مافيها هو حياة محبها ، وكل مايكون منها - إذا أرادت - هو سبب من أسباب سلب هذه الحياة سلبًا جبارًا لا رحمة معه ولا هوادة فيه .

إن المرأة الحبيبة هى النبع الصافى النمير الذى يرى المحب الصادق فى كل قطرة منه حياة تتلألأ فى روحه بالمنى ، فإذا أرسلت هذه الحبيبة فى دمه قطرة واحدة من مائها - أى من حبها - أطفأت هذه الواحدة كل النيران الملتاعة التى تجفف بحرِّها ماءَ حياته . فإذا منعتْ عنه غيثها جعلتْ كل أفكاره وأحلامه وأمانيه تحتطب من الحياة ماتؤرِّث به تلك النار المبيدة التى لا تنفح نفحها على شىء إلا جعلته رمادًا أغبر . ويومئذ تتحول الحياة فيه إلى خمود بليد ، أو إلى حماقة مجنونة كما يعترض الرماد للريح العاصف تطير به فى كل وجه حتى يتفرق ...

ثم سكت صاحبى ... ، وخيّل إلىّ أن غمامة سوداء داجية من ذكرى أحزانه وآلامه قد أظلَّت عليه وتدانت أهدابها ، فهو يرفع يمينه إلى جبهته ، ثم يُمرها إلى ناصيته ، إلى يافوخه يضغط عليه . ويتنفس خلال ذلك أنفاسًا جاهدة ينتزعها انتزاعًا من أقصى منابع الحياة فى قرارة نفسه ... ما أقسى الذكرى إذا ضربت فى القلب بفأسها تحطمُ وتدمِّر وتنقضُ بناء الأيام الماضية ! إن غبار هذا الهدم ليرتفع ويثور حتى يملأ الجو النفسى بما يضجر ويخنق من ترابها ، وما أضعف الرجل إذا أخذت الذكرى تلح عليه إلحاح الكبرياء ، تتحدى الإنسانية والرجولة بأوهن الفكر ! الذكرى ... ! هذا شىء مخيف مفزع . إنها الشبح الذى يدب من بين القبور المهجورة التى تناثرت فيها أشلاءُ الموتى . إنها تقتل بالرعب ، فإذا أتت المحب ذكرى حبيبه ، فذاك شبح هائل يقتله بالرعب والحنين معًا .

أقول لنفسى : أيها الصديق البائس ! لماذا لا تعرف طريقك إلى النسيان ؟ لماذا تقف فى مقبرة أفكارك دائمًا فترتاع وتتألم ؟ لماذا لا تحاول أن تسخر من الحياة التى سخرت منك ؟ لماذا أنت حائر أيها الصديق ؟ وبقيت أتداول الهاجس من أفكارى فيه ، حتى شُغِلتُ به عنه . ثم جاءنى صوته من بعيد كأنه كان يتكلم فى بعض أحلامى تحت النوم :

اسمع ... اسمع يا صديقى ! لقد كنت أفكِّر فى بعض ما شغلنى عن تمام حديثى قبلُ . لقد سألتنى وساءلت نفسك أهكذا يضمحل الرجل ؟ أما إنى لا أستطيع أن أضعَ لك اللغة وضعًا جديدًا حتى أعبِّر لك عن كل خالجة من خوالج النفس الإنسانية حين تضطرب فتهتز فتطير هزاتها على مساقها ومجراها ، ثم تنشعب فتنتشر فتعمَل عَمَل الجيش المحارب فى هدم صفوف العدو وتفريقها وبَعْثَرة قواها المحتشدةِ للِّقاء احتشادَ البنيان المرصوص بعضه على بعض .

نعم ... لن أستطيع ذلك ، ولكنى سأصف لك بعض الصفة واستشعر أنت كيف يعمل ذلك فى هدم الرجل ويسرع فى تدمير رجولته أمام أنوثة طاغية تتحدى وتأخذ سلاحها الذى تتحدى به من رجولة عواطف المحب الذى يَرى أن تعاونَ القلبين بالحب ، وصبابة النفس إلى النفس الأخرى . هو تمام رجولته وتمام أنوثتها .

كان لقاؤهما تجديدًا غريبًا فى قديم نفسه ... لقد استطاعت هذه الساحرة الجميلة الفتانة - كما وصفت لك - أن تمحو ماضيه كله ، وأن تمزق صُحفَ أيامه المهملة التى كان القَدَر يكتب فيها تاريخه الأول . مزقت هذه الساحرة تلك الصحف ، وألقت بها فى النار التى أشعلتها فى قلبه بالحب . بدأ يحيا بها وبسحرها حياة رائعة فاتنة من أحلام الحب . وجعلت هى ... وجعلت هى ... آه ياصديقى ! هذا كثير كثير . إن ذكرى ذلك كله تؤلمنى ... إنها تعذبنى ... إنها تخِز قلبى بمثل السنان الحديد يقع وخزًا متتابعًا شديدًا يتفجر فى نزعه بالدم .. كيف أستطيع أن أقول لك الآن ما الذى كانت هى تفعل ! وماذا أقولك لك ؟ آه ... إن أنوثتها ، بل رقتها ، بل حنانها ، بل رحمتها ، بل إخلاصها ، بل حبها ... كيف يكون هذا ؟ بل ذلك الصوت المنغم الروى الممتلئ صوت الحنين

المتعذب ... صوت القدر الآتى من بعيد بأفراح السعادة ... صوتها ... صوتها ... ذلك الصوت المعبر عن نفسها بألحان تتجاوب وتسرى وتموج فى كل غيب من غيوب نفسه المتراحبة ... !

إن كل هذه العواطف التى يرسلها إليه صوتها وهى تتكلم كانت تعبُّ فيه عُبابها ، حتى يجد الأمواج النفسية تتقاذفه فى فرح بعد فرح ، ومن سعادة إلى سعادة ، ومن حلم إلى حلم ، كأنه ماض إلى جنّة الخلد فى زورق من اللذات الطاهرة الجميلة ، تحف به الملائكة تغنى لقلبه أناشيد المجد والخلود ... ! إنه سوف يسمو بروحه إلى ذلك الجو الذى يعطِّره النبل ، ويفيئه الحب ، ويننديه الحنان ، وتضيئه هى بسُنّتِها المشرقة ، وتسبح فيه النجوى أنغامًا حرة تهيم وتتعانق .

جعلت أيامه معها تتهدل ثمارها الناضجة المغرية ، وجعل يقتطف منها حيث أراد ، وجعلت هى تغذوه كل يوم غذاءً جديدًا هنيئًا يملأ روحه قوة وشبابًا وعزمًا . وجعل إحساسه بسحرها وفتنتها يغلو به فى إيمانه بعبقرية أنوثتها الكاملة . أجل ...، إنها أرسلت فى دمه الحياة الجديدة ، الحياة التى تجدد فكره فى أشياء الدنيا ، وتستفزه إلى فرض سلطانه على هذه الأشياء وكانت هى تنشىء لعينيه فى كل يوم بل فى كل ساعة دنيا مائجة ، من فنها البليغ الذى يعبر عن ضميره تعبيرًا بليغًا كبلاغة أنوثتها فانبثقت فى عينيه وفى قلبه ينابيع متفجرة من الأحلام الرقيقة ، والأمانى الطائرة ، تلك الأمانى التى تتنهد دائمًا على قلبه بأنفاس الفجر ...

امتلأت عيناه الحائرتان بأحلام الشباب ، وانبعثت القوة المتلهبة بالرغبة ، فهو ينظر ثم يندفع إلى أمانيه يريد أن يختطف حظه من السعادة السانحة سنوح الصيد المستطرد ، قبل أن تسبقه إليها أنياب الشقاء والألم والبؤس فتفترس منها وتنتهش . إنه يريد أن يظفر بسعادته ليتمتع بالحياة بعض المتاع ، ولكن ياصديقى ... إن هذه الغريزة المتحكمة فى الإنسان وفى أعماله - غريزة التمتع بالحياة - هى التى تذهب بالإنسان فى القدر مذهبًا بعيدًا إنها هى التى تجمل الحياة لعينى كل حى ، ولكنها هى هى نفسها التى تعمى المحب فلا يبصر تلك الهوة السحيقة التى فغرت

له أشداقها وأحدت أنيابها ، فلا يزال - إلا أن يعصم الله - يتهاوى فيها ما اندفع به إليها هواه .

ولكن كيف كان يملك صاحبى وإرادته فى البصر ؟ إنها كانت تعمل أبدًا - وهو لا يستطيع أن يدرك - على أن تبقى حبيبة أحلامه ولو قتلته . نعم إن بعض ضحكها كان يصفق بدلالها كأن أمواج شبابها تتلاطم فيه وتزخر ، شبابها ... !! شباب امرأة جميلة متكبرة معجبة ، شباب أنثى تحب ، وتريد أن تبقى أبدًا محبوبة يهيم فى أوديتها المسحورة من يحبها . ومع ذلك فقد كان يجد لما يلقاه منها فرحًا فى نفسه ، ونشوة فى روحه وعربدة فى دمه ، كان كالسكران بحبها لا يستطيع شيئًا ولا يملك إلا أن يخضع لذلك السلطان المرح الظافر المبتسم ، السلطان العنيف الذى يقبض على روح المحب بحنان طاغ مِن روح مَن يحب .

وعلى ذلك فإن هذا الرجل المسكين - على عنفه وصلابته وفحولته - لم يجد بُدًّا من أن يسلم لها قياد عواطفه التى تَصْبُو صبواتها إلى أناملها الرخْصَة الساحرة . كيف يقاوم الرجل الحب - مهما استصعب والتوى - امرأة مقدسة يحبها ، فهو يتصبب بروحه فى روحها ؟ استسلم لها ، ولكنه كان يشعر بعد هذا الاستسلام أن ليس فى هذه الدنيا شىء يستطيع أن يقهر إرادته ، أو أن يحول بينه وبين مايرمى إليه من أغراضه وإن بعدت . كان معنى خضوعه لها أنه يستطيع إذن أن يخضع الأشياء كلها لسلطانه ... وما أعجب هذا الحب ! أرأيت إلى ذلك الضرس الفولاذى الصليب المتكبر من الجبل الإنسانى فى صاحبى ذاك ... ؟ لقد كان يُرَى وهو يذل لهذه الساحرة أيامه ولياليه خاشعًا مستكينًا كأنه يهودى منبوذ فقير فى غربة موحشة !

ولكن لاتخطئ معنى الذل فى فحوى حديثى ، أعرفه صورة أخرى من الكبرياء المأسورة فى سجن امرأة محبوبة . إن إحساسه بحبه لها كان ضروبًا من فن الروح العاشقة . لم يكن يراها امرأة مجردة يحبها بحرارة القلب الملتهب بالرغبة أو بالحب . كلا ، كلا ، لقد كان يجدها أحيانًا فى أوهام عواطفه ومدّها أُمًّا ، فهو يريد من أمومتها المحبوبة أن تمهّد له فى قلبها تلك العاطفة الوثيرة اللينة

من الحنو والعطف . وهو يراها مرة أختًا يلتمس فى مس يديها ، وفى نبرات صوتها ، تلك العاطفة الساكنة ذات الأفياء والظلال ، عاطفة الأخت التى تضحى فى سبيل أخيها المنكوب ، ثم يرقى بها إحساسه فينظرها أخًا مخلصًا يشد أزره إذا انطبقت عليه قُحَمُ [١] العيش ومتالف الحياة . ثم إذا هى تارة أخرى روح من الأبوة المسددة ، الحازمة المصممة البليغة ، لا تزال تجد الرجل مهما أناف به العمر وشمخ ذلك الطفل العابس الغرير الطياش ، وهى مع ذلك كله الصديق الذى يحامى عنه إذا تعادت عليه الدنيا بأسرها ، الصديق الذى تبقى صداقته تطوف عليه تحرسه وترعاه . أتدرى بعد إلى أين تنتهى به هذه الألوان المختلفة من إحساسه بها ؟ لقد تنتهى فى بعض ساعاته معها أن يراها أستاذه ، فهو كأنما يجلس بين يديها ليأخذ عنها روائع الحكمة ، ويسألها عن سر الأبدية المحجب بالغيب ، ويلقى عندها كل أفكاره المعقدة فى الحياة ، يلتمس عند حكمتها الخالدة حل ما تَعَقَّد ، وأن تمنح أفكاره ذلك الهدوء الفلسفى الذى تسبغه الحكمة العالية على سَدَنتها وحفاظها .

ثم سكن صاحبى وغشيته فترة الحديث إذا تطاول به وامتد ولكنه ما لبث أن أقبل علىّ يندفع :

انظر ... انظر الآن كيف يضمحل الرجل . هذا هو فى مد عواطفه وهى تفور وتثوَّر بأمواجها فى الحب العنيف المتلاطم ، ثم إذا هى تطير عن أحلامه وتنفر من مجثمها السحرى ، وإذا هو منفرد لا يدرى كيف كان هذا ؟ ولِمَ ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ... ؟

إنها ذهبت وتركت الدنيا التى أنشأتها له مشرقةً زاهيةً ناضرة ، فإذا هى تطفأ وتخبو وتذبل . إن قوة رجولته قد ذهبت تطلبها عند قبور الذكرى ، فكيف لا يضمحلُّ الرجل ؟ كيف لا يضمحلُّ ؟!

* * *

---

(١) القُحَم : الأمور العِظام .

ويلك آمن ... !

أيام من الدهر حائرة فى أودية الزمن ، وساعات تخلع المصائب وتلبسها بين الثانية والثانية ، ورعب مظلم خيَّم على الأرض فلا تضيئه إلا شقائق النار وهى تفرى الجو ذاهبة وآيبة ، وحيرة سابحة فيها عقول البشر لا تدع قرارًا لفكر ولا خيال ، وسهام نافذة من البلايا تفتق نسج النفس الإنسانية فتقًا رغيبًا (١) يتعايا على الراقع والمصلح ... فياله من بلاء مطبق على العالم إطباق اليوم الصائف يسد بحَرِّه منافذ الأنفاس .

ما الحياة ؟ ما الإنسان ؟ ما العقل ؟ ما الحضارة ؟ إلى أين نسير ؟ كيف نعمل ؟ لماذا نعيش ؟ فيم نتعب ؟ تبًا لكل هذه الضلالات الداجية التى لا يبرق فيها نجم واحد يقول للإنسان : اتبعنى ، سوف تهتدى !!

هذه هى الحضارة الأوربية الحديثة قد انتهت بالناس إلى خلق هذا الإشكال الدائم الذى لا يحل ، وساقت الناس إلى مرعًى من الشك وبىء ، كلما ازدادوه غذاء زادهم بلاء ، فلا ينتهى من ينتهى إلا إلى هلكة تدع فكرة الحياة خرافة عظيمة قد اتخذت لها أسلوبًا تتجلى فيه ، فكان أبلغ أسلوب وأفظع أسلوب ، هذا الإنسان الذى يحمل من رأسه قنبلة حشوها المادة المتفجرة التى تهلكه وتهلك ما يطيف به أو يقاربه ، فلا هو ينتفع بنفسه ، ولا ينتفع العالم به .

لو سئل إنسان هذا القرن : ما أنت ؟ لقال : أنا اللعنة الملعونة التى تشأم نفسها وتشأم من يعترض انصبابها وسيلها . أنا الناب الذى ينقع فى الإنسانية سُمَّه حتى تبرد حياتها فى عضته . أنا الهالك المهلك ، هذه حياتى ، وهذا عقلى ، وهذه حضارتى ، ومن أجل هذا خلقت ، وفى سبيله أعيش ، وعلى قضائه أعمل ... !!

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٥) ، ١٩٤٠ ، ص: ١٠٨٤ - ١٠٨٦

(١) الرغيب : الواسع .

ولو نشر اليوم فيلسوف من محبى الحكمة والعاملين عليها الذين أفنوا أعمارهم فى طلب الخير والفضيلة والحق والجمال ، وجعلوا عملهم هداية الإنسان إلى أسبابها وسلكوا له سبلها ، ثم نظر إلى هذه الحقبة من عمر الإنسانية فما تراه قائلًا فى صفة الإنسان وما فيه من العون على دَرك هذه الحقائق ، والتحلى بها فى حياته ؟ أم تراه يعرف الصورة وينكر المعنى ؟

المدنية الأوربية الحديثة هى التى استطاعت أن تنفذ بالعقل فى ضمير الحياة تستنبط منه ناموس الحياة التى تدب على الأرض ومع ذلك فهى التى سلبت هذا العقل قدرته على الخضوع للروح لتمده بالنور المشرق الذى يستضىء به فى رفع الإنسانية درجة بعد درجة إلى مراتب الملائكة ، أى إلى مرتبة الروحانية الصافية التى تنهل أضواؤها على النفس والقلب والروح ، فتروى من فيضها ، وترث من ذلك نورًا ورحمة وسكينة ، وتنبت غرسها الإلهى الذى يجنيه الإنسان هداية وعدلًا وسعادة ، فتتضاعف به الحياة حتى يقوى الخير فيها ويضوى الشر .

لقد أخفقت هذه المدنية فى سعيها لخير الإنسان ، وأثبتت بكل دليل أنها مهما تكن أحسنت إلى الإنسانية فلم تحسن مرة واحدة أن تضبط نوازع النفس ، وتردها إلى الطريق الواحد الذى ينبغى أن تصدر عنه ، حتى تكون كل أعمالها نقية طاهرة متشابهة . ذلك الطريق هو طريق الروح الذى لا يتم لعمل تمام ولا يظفر بخلود أو بقاء ، إلا أن يكون فيه مس الروح وطهارة الروح ، وقدس الروح .

أطلقت هذه المدنية فى الدم الإنسانى كل ذئاب الشر والرذيلة ، فخرجت من مكانها جائعة قد سلبها الجوع كل إرادة تحملها على بعض الورع الذى يكف منها ، فعاثت فى إنسانية الإنسان حتى جُنَّ ، وتنزَّى فى الأرض وحشًا يجعل شريعته المقدسة تنبع أحكامها من معدته ، ومن أحكام هذه المعدة ومطالبها ، وكذلك انقلب النظام الاجتماعى فى العالم من نظام روحى عقلى سام ، إلى نظام اقتصادى تجارى ضار ، الآكل والمأكول فيه سواء ، لأن النية انعقدت فى كليهما على الافتراس ، وما الفرق بينهما إلا فرق القوة التى أعدت هذا للظفر ، وأسلمت ذلك إلى العجز ، فدفعت به إلى رحى تدور بأسباب من الطغيان والفجور .

وماهى شريعة المعدة فى هذه المدنية الاقتصادية التجارية ؟ هى شريعة السوق التى لا تعرف قيمة الشىء إلا فى ميزان من الطلب . فما طُلب فهو الجيد ، وما عُمِّىَ على الطالب فهو الردىء الذى لا قيمة له ، وكل شىء قائم فى جوهره على النزاع الذى لا تسامح فيه ، والأمر كله للغلبة : غلبة الأقوى ، لا غلبة الأعدل ، غلبة الحيلة لا غلبة الصدق ، غلبة البراعة لا غلبة الحق .

فهذه الشريعة هى شريعة إعزاز القوىِّ ، لأن القوة تسوِّغه أن يتسلط ، وإذلال الضعيف ، لأن الضعف تهالك به أن يتحكم ، وليس بين هذين مَعدلة ولا نصَفة ، وليس أحدهما من الآخر إلا كالثعبان من العصفور إذا عرض له ، فسلط عليه الرعب من عينيه ، فينتفض فى قبضة أشعتهما المفترسة المسمومة حتى يبرد دمه فلا يستطيع حركة ، ولا يتنغش بدنه بذَماء من الحياة . هى الشريعة التى تجعل إنسانها القوى مقبرة لإنسانها الضعيف ، فالقوى أبدًا آكل قد أَرَمَّت فى نفسه تلك الجيف التى انتهشها وألقى بها فى معدته ، فتجيفت وتعفنت ، وتصاعدت أرواحها المنتنة فى حياته ، فجعلته متسرِّعًا نفّاذًا كأنما يريد أن يهرب بنفسه من نفسه التى لا يطيق جوها ، لأنه جو خانق ، تطوف فيه أشباح الفرائس المسكينة التى بطشت بها أنيابه ومخالبه .

هذه الحضارة القابرة التى تدنست روحها بالرمم التى ضعفت أن تقاوم القوة ، لن تستطيع إلا أن تفسد العالم وتدنسه كما تدنست ، فإنه محال أن تكون الشريعة مدنَّسة نجسة ، وتأتى الناس بخير طاهر مبارك يغسل أدران الإنسانية التى تتجمع عليها يومًا بعد يوم ، ولا أن تخرج نفس الإنسان فيها مع الفجر ندية مشرقة رفافة تستقبل بفضائلها أعمال نهارها .

إن شريعة إعزاز القوىّ وإعلاء الأقوى ، وإذلال الضعيف وإسقاط الأضعف ، هى الشريعة الحيوانية التى لم تعل إلا بإذلال الروح والعقل وإسقاطهما ونبذهما ، هى شريعة البغى والعدوان على الروح بالروح الشيطانية ، وعلى العقل بالعقل المتمرد ، وكلما استحكم أمرها كانت الإنسانية ذاهبة إلى نبع نجس تنغمس فيه لتصدر عنه أقوى مما وردت - أى أنجس مما وردت .

إن الكون لا يصلح إلا على معنى الأقوى والأضعف ! هذا حقٌّ لا يمارى فيه إلا مكابرٌ أو مبطل أو أحمق . ولكن يبقى ذلك العمل الإنسانيّ الذى يثبت للإنسان معانى النبل المنحدرة فى روحه من نبل النور الأزليّ الذى بعث الحياة بعثًا فى نفسه وفى أعماله ، وبهذا العمل وحده يعرف الإنسان معنى السعادة فى السراء والضراء ، وفيما أرضى وما أسخط ، وتكون حاله فى الحالين واحدة ، وذلك بأن تتسع روحه بالواجب الاجتماعى الروحى الذى يتراحب بإنسانيته فى الكون كله ، فتقع اللذة منها موقع الألم ، وينزل الألم فى منزل اللذة ، وتمسح النظرة السامية عن الوجود كل الغبار الأرضى الذى يغطى محاسن الحياة وتنير الكلمة ظلمة النفس : الحمد لله فيما سر وما ساء .

والعمل الإنسانى المستمد روحه من الجزء الإلهى فى الإنسان هو العدل والمساواة ، وقد جعلت الحضارة الحديثة معنى العدل والمساواة صدقة يتصدق بها أغنياء قوم على فقرائهم ، وأقوياؤهم على ضعفائهم ، لا على معنى الصدقة فى إخلاصها لله ثم للإنسانية ولكن على معنى التخفف من تعب الغنى وتعب القوة .

أما حقيقة العدل والمساواة ، فهى عمل الإنسان الأقوى فى رفع الإنسان الأضعف إلى مرتبته ، فلا يزال هو يرتفع بقوته ، ولا يزال الضعيف يسمو معه لأنه معقود الأواصر به . وإذا كان ذلك هو القاعدة ، فالاجتماع كله سام ذاهب إلى السمو ، ولا يكون فيه معنى للطبقات إلا على معنى التدرج ، ولا يكون التدرج إلا على تماسك وتواصل ، وليس تماسك ولا تواصل إلا على حرص الأعلى على التعلق بالأدنى ، وكذلك لا يرتفع شيء من المجتمع لأنه أعطى القدرة على الارتفاع ، ولا يسقط الشيء الآخر منه لأنه لم يجد ما يتعلق إذ حرم هذه القدرة أو زويت عنه أسبابها .

وقد جعل الإسلام من أول أمره غرضًا للمسلم لا يرضى منه غيره ، ورد معنى الإسلام إليه ، فجاءهم رسول الله ﷺ بالقاعدة وقال للناس : اعملوا : فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه أزر بعض . والإيمان لا يعرف الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والمراتب الحيوانية التى طبعتها الطبيعة على تنازع البقاء وغلبة الأقوى ،

بل هو معنى يوحد الناس حتى ليس لأحد فضل على أحد إلا بقدر منه ، وحتى إن العبد المملوك العاجز ليرفعه إيمانه على مَنْ مَلَكه واستبد به واعتقد رقبته بماله ، إذا لم يكن هذا المالك قد استحق بإيمانه مرتبة هذا العبد .

وفى بعض الصحيح من حديث رسول الله ﷺ ما جاء هداية إلى هذا الأصل ، فقد روى عن المعرور بن سويد أنه قال : لقيت أبا ذَرّ بالربذة ، وعليه حلة وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك فقال : إنى ساببتُ رجلًا ، فَعَيَّرته بأمه ، فقال لى النبى ﷺ : يا أبا ذرٍّ ، أعيَّرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية !! إخوانكم خوَلكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم .

ولا ينتهى عجب متعجب من بلاغته ﷺ ، وكيف ينزل كلامه تنزيلًا فى معانيه ، تدور بها دورة دائمة لا تنتهى على نظام ثابت لا يتبدل . فقدَّم ﷺ الأخوَّة بين المؤمنين لأنها هى الأصل الذى لا يتم معنى الإيمان ولا معنى الإنسانية إلا به ، وردّ على هذه الأخوة ما يوجبه المجتمع من مراتب الناس على الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، ألا وهى الخدمة التى يقوم بها النظام الاجتماعى فقال : « إخوانكم خولكم » ولم يقل : « خَوَلكم إخوانكم » ، هذا مع أن أصل الخطاب إلى أبى ذر يتوجه إلى مقصود بذاته ، وهو خادمه أو غلامه الذى سبَّه ، فكان أول ما يسبق إلى اللسان ، وأقرب مايسرع إليه الوهم ، أن يتعين خادمه بالابتداء .

ثم انظر كيف قال : « جعلهم الله تحت أيديكم » ، « فمن كان أخوه تحت يده » ؟ وكيف حرَّر الإنسان من رِبْقَة العبودية القابضة على عنقه ، فجعله تحت يده يستظل ويتحرك فى هذا الظل ، ولم يجعله فى يده يتصرف فيه ويقبض عليه ويستذله ، فإن شاء حطمتْه قبضتُه . ثم دَرَج على هذا الأسلوب البليغ حرفًا بعد حرف حتى قال : « فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وذلك زكاة القوة التى بها مَلَكَ المالكُ ، واستخدم المستخدم . فإذ كان المؤمن قد قوى على تكليف ضعيفه أن يعمل ، فهو أقوى على أن يشاركه إذا عجز أو قعد به الضعف الذى أصاره إلى أن يرضى أن يخدم نفسه من كان أعلى يدًا وأقوى قوة .

فهذه هى شريعة الروح الطاهرة التى تتعطر من نواحيها برائحة جنة الخلد ، فانظر ما بينها وبين شرائع المعدة التى جعلت أحشاءها مقابر للضعفاء تأكل منهم لتتسع بمعنى الجريمة الحيوانية ، وتنقبض عن معنى الرحمة الإنسانية الإلهية .

فهل يمكن أن يتطهر العالم فيما يستقبل من أيامه على أساس هذا الهَدْى النورانى الذى جعل النظام الاجتماعى سموًّا بالإنسان كله على مراتبه كلها ؟ هل يمكن أن يفهم العالم حقيقة هذا التطهير التى أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله : « لا قدِّستْ - أى طهِّرت - أمةٌ لا يؤخذُ لضعيفها من قويها » ؟

ويلك آمن ... إن وعد الله حق .

* * *

هذه هى الساعة ... !

قامت الدنيا وأخذت تعد زينتها لأمر غير ما مضى من أمرها . إنها لابد أن تتبرج لعيون عشاقها ، ممن كتب لهم أن يشهدوا مشهدًا آخر من فصول الرواية الإنسانية التى تمثل فى ساحاتها . نعم ، فإن الحرب المهلكة التى لا تزال تقعقع من شواهقها حين تنقض ، أو تزحر وتئن تحت أثقال الوقائع - لا تلفت الحياة الدنيا عن عملها فى تلبيس العيش بالفتنة لمن يعيشون ، ولا عن تقديم اللذة لمن يشتهون ، وكأن هذه الحرب إن هى إلا تضخيم عظيم لعمل العامل فى إزالة التطرية (التواليت) عن وجه الغانية ، ونسف التطريف (المانوكير) عن بنانها ، وما سوى ذلك من إعداد الغانية الحسناء لتبدو مرة أخرى فى حلى وبهاء وزينة .

لا أتشاءم ولا أتفاءل ، فالقدر قد قضى على الدنيا قضاءه ، وما ندرى مايراد بنا منذ اليوم ! فرب شر نتوهمه كذلك قد احتقب [١] الخير ، ليرمى فى أرجاء الدنيا غرسًا جديدًا فى أرض جدد ثراها ما أصابها من تدمير وهدم . إن بعض القسوة فى الحياة يكون كتشذيب الشجر فى إبانه ، يقطع منه ليزداد قوة على إثبات وجوده وتقرير حقه فى البقاء ناميًا فينان يسمو وينتشر ويخضر ويثمر . وقانون الفطرة الذى تجرى أحكامه على الطبيعة لتتجدد ، لا يخطئ ابن الطبيعة يعمل فيه ، ليصنع له حياة جديدة تثبت أن وجوده على الأرض حقيقة نامية أبدًا ، إن يكن الماضى قد باد فى التاريخ ، فإن الحاضر يثبت إثباتًا عمليًا أنه مستمر فى الحاضر ، ويكون استمراره فى الحاضر دليلًا على امتداده إلى المستقبل . ويكون من جميع ذلك أن الحياة الدنيا مهما أصابها من شيء باقية ، ولا يمحوها إلا القانون الآخر الذى يجعل لكل أول نهاية ينتهى إليها . فإذا جاء أوان هذا القانون فقد بطلت حيلة المحتال .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٦) ٨ يوليو ١٩٤٠ ، ص : ١١٢٣ - ١١٢٥

(١) احتقب : حَمَل ، وأصله وَضْع المتاع فى الحقيبة تكون على مؤخر البعير ، ثم استعمل فى المجاز ، فقالوا : احتقب فلان الإثمَ .

إن الزَّمنَ الذى يمشى فى الأرض فَتَخضرُ منها مواطئ أقدامه ، هو نفسه الزمن الذى يدب عليها فيُسمع لدبيبه دمدمة مما يتقصف تحته من عمارة الدنيا وبنيان الحضارة ، وعلى مواطئ الزمن تتنزل الحضارات كلها أو تتهَدّم . ومن يوم أن تنهَّدَت الأرض بالحياة يبيدُ شىءٌ ويقومُ شىءٌ ، وما يزول منها ما يزول إلا ليحل عليها ما يحل ، لأن الحركة دليل الحياة ، فلا يثبت معنى الحياة إلا بها ، وما يتحرك من متحرك إلا لتكون لانتقاله نهاية إليها يتوجه ، وعندها يقف ، فإذا وقف فهذا آخر أنفاسه ، ثم يسكن سكون الموت .

فما بنا على ذلك أن نتشاءم أو نتفاءل ، وما التشاؤم والتفاؤل إلا حركة النفس الفارغة التى لا تجد عملها ، فهى تعمل فى إرهاق نفسها بما لا ينفعها ولا يعنيها ، وليس من عمل الإنسان ما هو أضر عليه من إجهاد نفسه فى باطل ، والجهاد بها فى غير طائل . فإذا أردنا اليوم أن ننظر فما ننظر إلا لنعرف الطريق التى يجب أن نقرر لجهودنا أن تمهدها لنا ولمن يأتى بعدنا على تدبير وسياسة .

والقدرُ اليومَ قد قضى بين الناس ، ووضع القضية لمن يختار ، فمن شاء أن يدخل فى عقد هذا وعهده دخل فيه ، ومن شاء أن يتخلَّف فقد رضى لنفسه على مَيْزة وبصيرة ، وما ينقض القدر قضاءه الذى أبرم ، فيأتى من يأتى ينوحُ بما ظُلم ، ويتوجَّع بما غُبنَ !!

ونحن قد لقينا من أحداث الدهر ما ردَّنا بعد عزٍّ إلى قرار هوان . وقد أَنَى [١] لنا أن نرفع أنفسنا من وهدة واطئة قد ربضت بنا فيها سلاسل من حديد الذل ، وقد حضرت ساعة ينبغى أن نفصل فيها بين عهد مضى وزمن يستقبل . فإذا قعدت عزائمنا ، وعميت أبصارنا ، فأنفسَنا نضيع ، وأرواحَنا نزهق .

جاءت هذه الحرب لتنسف تاريخًا شامخًا ثقيلًا قد اضطجع على حياة الشرق كما يضطجع الجبل على سفحه الرَّحْب ، فإذا تأخر الشرق وتهاون وتكاسل على ما عوَّده الموت الروحىُّ الذى كان فيه ، فقد سنَحتْ له الفرصة ثم ولَّت عنه ،

---

(١) أَنَى : حانَ .

وتركتْ يدَه ممتدَّة لا تمسكُ إلا أذيالَ الريح التى استَرْوَحتْ عليه بأنفاس الصيد ورائحته .

إن فى هذا الشرق لميراثًا نبيلًا من الأعمال والأخلاق والآداب والسياسات ، ولكن هذا الميراثَ المضيَّع المنسى لايجدى من خير على نائم قد أغمض عينيه عن الحياة ، استمتاعًا بحياة أخرى تعرضها له أحلام رخية تختال فى خياله . هذا الميراث المجهول فى حاجة إلى من ينفض عنه غبار القدم ، وأتربة الإهمال ، ويزيل عنه أدران الجهل والخمول ، ويجلوه مرة أخرى على أعين الناس مضيئًا مشرقًا يتوهج بأنواره كأحسن ما يتوهج .

لقد كانت الحضارة الأوربية الماضية ، وقامت على روح من الأثرة والبغى والاستبداد ، وفقدت كل معانى الروح السامية التى تبذل أكثر مِمّا تأخذ ، وتعتد الغنى من الاستغناء لا من الجمع والتعديد ، وتجعل حرية النفس فى ضبطها وإمساكها على المصلحة لا فى تسريحها وإرسالها على مد الشهوة . وقد كان للشرق مجد وحضارة ومدنية ، وتمم الإسلام كل الكمال لهذه الحضارة بما أقام للناس من شعائره وآدابه ، وجاء على الشرق زمان كان الإصلاح فيه ضربًا من إفساد الصالح ، وزيادة الفاسد فسادًا وخبالًا ، وكذلك ضاع كل شىء ، ورجع بنا الزمن إلى جاهلية جهلاء ، تقوم على التقليد لا على الإبداع ، وعلى المتابعة لا على الاستقلال ، وبالكبرياء لا بالتواضع ، وحتى ذكرى مجدنا السالف قد صارت عندنا نخوة جاهلية فى التعظم بالآباء والأجداد ، لا عملًا عظيما تعظمه أعمال الآباء والأجداد والوراثة القومية النبيلة .

والحضارة ليست هى العرض الظاهر من قوتها وبنيانها وفنونها وكل ما يقوم به نعت الحضارة ، بل الحضارة هى السر الذى يعمل فى إيجاد ذلك واستنباته ، وإخراجه على الأرض واستثماره : هى سر الحبة التى تنبت الدوحة ، والذرَّة التى تقوم بها المادة . فكل حضارة لابد لها من روح تعيش بها وتنمو ، وعلى ما فى هذه الروح من النظام والتدبير والنبل والسمو ، تنشأ الحضارة منظمة مدبرة سامية نبيلة . ونحن لا نشك فى أن الروح التى ورثها الشرق فى نواحيها ، والتى طهَّرها

الإسلام من نواحيها وأتمها ، وأحسن سياستها ، ونفى عنها خبثها – هى التى تستطيع أن توجد على الأرض حضارة تملأ الأرض عدلًا كما مُلئت جَورًا ، وتفيض بها رحمة كما فاضت غلظة ، وتجعلها طريقًا للإنسانية تخرج به من ظلمات الباطل والبغى والغرور إلى نور الحق والتواضع والمساواة . ويومئذ لا يقتتل الناس من أجل سلب الحق للزيادة فى أنفسهم وجنسياتهم ، بل يقتتلون – إن هم اقتتلوا – من أجل إعطاء الحق وردِّه على أهله مهما اختلفت جنسياتهم ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بما يحسن هذا ويسيء ذاك ، ويصبح القانون العالمى ، قانون الحق يستقر حيث ينبغى أن يستقر .

إن العالم الآن ليقتتل على غير غرض إنسانىٍّ كامل مقرّرٍ لا يشذ على غاياته ومبادئه أحد . إنه يقتتل على طعام يؤكل ، بل على هذا الطعام كيف يُؤكل . فليس لهذه المدنية الأوربية إلا معنًى جنسيٌّ مُتَعصِّبٌ تدافع عنه لنفسها لا للإنسانية كلها ، لا يشك فى ذلك إلا من طمس الله على بصيرته ، وقادته أهواؤه وغرائزه دون عقله وواجبه . وما هذا التوحش الحيوانىُّ فى هذه الحرب إلا نتيجة طبيعية للفكرة القومية المستقلة التى لا تريد إلا أن تستولى على أعظم مايمكن أن تضع يدها عليه لتستمتع بالحياة والشهوات والسلطان .

أما الإسلام – وهو روح الشرق من أقدم عصوره على اختلاف أديانه وأجناسه – فقد وضع كل مأثرة قومية جاهلية تحت قدمى صاحب الرسالة محمد ﷺ ، وسوّى بين الناس من أهله وبينهم وبين أهل ذمته وعهده ، واختار المسلمين ليكونوا شهداء على الناس ، فيكونوا قضاة يحكمون بالعدل لا يبغون ولا يجورون ، وجعلهم دعاة يدعون إلى مبدأ يتساوى عليه الناس ، فمن دخل فيه فهو منه ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وكتب عليهم القتال وأمرهم به ، وعظم الجهاد فى نفوسهم ، ولكنه قتال على دعوة إلى هذا المبدأ وجهاد فى سبيله وحرم عليهم العدوان ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها .

فالمسلم من دينه فى قانون إنسانى كامل ، لا يعمل للجنس أو الفرد أو السلطان والسيطرة ، بل يعمل لإعطاء العالم كله روح المساواة ، قد تحاجزوا

بينهم فى الشر ، وانطلقوا فى أيامهم يعملون على إثباتها فى تاريخ الدنيا بمبدئها لا باستبدادها ، وبغايتها دون لذاتها ، وبالسمو بها إلى الإشراف على نظام الدنيا والسمو بها ، لا بسيطرة القوة على إخضاع الدنيا وإذلالها ، وجعلها كالبقرة يُحلب درُّها لمن يملكها . فالقانون الإسلامى العظيم هو روح الحضارة التى يجب أن تسود العالم ، فإنها حين تسود عليه تجعل الحق هو السيد الذى تخضع له أعناق الناس ، لا يبغى بعضهم على بعض فى سبيل شهوات غريزية حيوانية مفترسة ، يغذوها الدم ويهيجها الدم ، فهى آكله لا تشبع وثائرة لا تقر .

والمسلمون اليوم هم جل الشرق ، وروح الشرق ، ولكنهم مسلمون قد أُفرغوا من معانى الإسلام وبقيت ألفاظه تعيش بهم . إن كل فضيلة من فضائل هذا الدين ، وكل عمل من أعماله قد انتزعت منه روحه ، فتعامَل الناس على ما خيَّلتْ ، لا يبالون ما أمروا به ولا ما نهوا عنه ، ففقد هذا الشرق الرأى العام الإسلامى الذى يكون تعبيرًا صحيحًا عن إرادة الإنسانية فى الاستعلاء والسمو . ولكن هذه الحرب قد تثير هذا العالم الراكد ، وتدفع فيه أمواجه الأولى التى غسلتْ وجه الأرض وطهرته من دنس الحياة المادية العابثة المعرْبدة ، فإذا كان ذلك فإن هذا الشرق قد أعد اليوم لأمر جلل ، وقد حفظ الله له تاريخه الذى ورثه كاملًا فيه الأسوة وفيه العبرة ، وفيه فلسفة الحياة الاجتماعية التى تجعل الفرد الواحد أمة كاملة لأنه هو ممثل الأمة ، وتنصبه حاكما لأنه يحكم نفسه أول ما يحكم ، وتهيئه جيشًا محاربًا فى سبيل الحق الأعلى للإنسانية ، لأنه يحارب نفسه أول ما يحارب فى إقرارها على إعطاء الحق لمن يستحقه من حقيقة نفسه .

فاليوم يوم الشرق إن اختار أن يبدأ حركته إلى الغاية التى أمر بالبلوغ إليها والوقوف عليها شاهدًا قاضيًا ، يدبر الأمر ويصرفه فى سيادة الحق كله على الباطل كله . ونحن لا ننسى ما صرنا إليه ، ولانغفل عما فرغت منه أيدينا من أسباب الغلبة التى تتحكم اليوم فى مصير الدنيا ، ولكن الإرادة تحكم الرجل الواحد ، تستطيع أن تحكم العالم كله ، وسبيل ذلك أنْ يكون كل رجل مريدًا إرادة صارمة لغرض مقصود بعينه ، فهذه الإرادة هى التى تفتق له الجو الإلهى الذى يعد الإرهاص للمعجزة الإنسانية .

ستكون أحداث ، وتتجدد على الناس نوازل ، وتسيل الكوارث من كل مسيل ، ولكن الشخصية الاجتماعية التى لا تختلف ولا تتدابر ولا تتعادى تستطيع أن تغرس فى أيام المحن غرس المجد الإنسانى السامى ، لتنبت شجرة يمتد ظلها ، ويترامى فيئها ، ويطيب ثمرها ، ولا يكون ذلك إلا بعد جهد ومشقة وعنت ، ومصابرة للنفس على لَأْوَاء الحياة التى فرضت علينا أن نتألم ، وأن نصاب ، وأن يبلغ منا العذاب مبلغًا يُجهد ويؤود .

فهذا أوان يستطيع الشرق أن يضرب الاستحكامات فى أرضه وفى أوطانه بأخلاق سامية عاتية ، فيها القدرة على النمو ، والقوة على البقاء ، وأن ينظم لحياته نظامًا يهدف بغاياته إلى مستقبل يبعد عنه أو يقرب على حياطة تحفظه أن يقع فيه ماوقع فى أيام البلبلة الأخيرة التى تبعت الحرب الماضية . نعم ، إن الشرق يفقد اليوم زعيمه الذى يهب من جماعاته كالأسد تنفرج عنه الأجمة الكثيفة عالىَ الرأس حديد النظرة ، تتفجر القوة من كل أعضائه ولكن ، أيمنع هذا أصحاب القلوب الحية التى تشعر بحاجتها إلى هذا الرجل أن تهزّ شعوبها هزًّا عنيفًا متتابعًا ، حتى ينفلتَ إلى المقدمة ذلك الأسد الرابض إلى الأرض فى قيوده الاجتماعية التى تقعد به عن الحركة للوصول إلى المكان الذى أعده له القدر ، ليبدأ بدأه فى إعداد الدنيا لاستقبال الدين الذى سيتجدد فى الدنيا ، لأنه هو سر الدنيا وسر القدر .

إن علينا أن نعمل ، فإن كان ما أردناه وما نتمناه ، فذاك عز الإنسانية ورضوان من الله ، وإلا فقد أدينا ما وجب ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

أخوك أم الذئب ... ؟

أجل !! هذا هو العالم المغرور الذى ظن خير الظن بمدنيته ، وأثنى عليها ثناء الأم على عذرائها ، ونفض عليها من تحاسين الخيال فنونًا كذُنابَى الطاووس ، وأدار عليها مجامر النّدِّ والمندل والعود من عطر الشهوات واللذات ، وأحاطها بالعبقرية العلمية التى توجد فى كل شىء شيئًا جديدًا يدخل على العقل إبليسًا صغيرًا ليُضل عن سبيل الحق ، ويضع فى الثمرة حلاوة تلذ ونشوة تسكر ، ثم زاد فأعطى المادة المتبدلة الفانية تدليسًا يجعلها فى فتنة الرأى ثابتة خالدة ثم غلا فجعل النفس تطلق أهواءها جميعًا لتحرز من لذات الحياة كفايتها ، إن كان لأهواء النفس كفاية .

هذا العالم المغرور يقف اليوم فى فئتين التقتا للقتال فى سبيل الأهواء الغالبة والشهوات المستحكمة . وفى هذا القتال تتكشف لمن أبصر حقيقة هذه المدنية ، وحقيقة أغراضها التى عملت لها وعمدت إليها ، وحقيقة الروح التى يتعامل بها الاجتماع الإنسانى الذى تعيش به هذه المدنية الأوربية التى تنكر من الحياة وتعرف وتدعى لنفسها إسقاط ما أنكرت وإقرار ما عرفت .

وفى كل يوم تتجدد أحداث الحرب ، فتتجدد معها أساليب الغرائز الوحشية المصبوغة رحمتها بأصباغ الافتراس ، وفى كل يوم يخلع الوحش عن مخالبه ذلك المخمل الناعم الذى دسها فيه ، ويهجم بطبائعه على فريسته ليعلن بذلك أنه هو الوحش : قانونه المنفعة ، وشرفه المنفعة ، وصداقته المنفعة ، وأدبه المنفعة ، ودينه المنفعة . فهو لا ينفك من منفعته فى مثل السعار إذا أخذ الوحش فاستكلب فهاج فطغى ، لا يهدأ حتى يطفئ هذا السعارَ ما يشفيه أو يرده أو يقدعه [1] ، وهو لا يرعى فى ذلك حرمة ، ولا يكفه شرف :

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٧) ، ١٩٤٠ ، ص : ١١٦١ - ١١٦٣

(١) يقدع : يَكُفّ

وكان كذئب السوء لما رأى دمًا
بصاحبه يومًا أحال على الدم [١]

وقبيح بنا – نحن الشرقيين – أن نغمض أعيننا عن النظر إلى هذه المدنية التى أخذت تنهار تحت قصف المدافع وهد القنابل وزلازل الحرب ، وأن ننام عن مستقبل أيامنا ، وألا ننفض هذه المدنية نفضًا لنأخذ منها وندع ، ولنعرف سوء ماتركت أنيابها فى جسم أوطاننا ، ونتبين حقيقة النفوس المسمومة التى أصبحت فى الشرق فاشية تعمل على إدماجه فى حضارة غريبة عنه ، ولا يطيقها إلا على نكد ولا يحتملها إلا عنتًا وإرهاقًا وغرورًا .

إن رؤوسًا من الناس فى هذا الشرق قد طالت بهم أيامهم حين أقبلت عليهم الدنيا ، فأخذوا على الرأى العام منافذه كلها ، وصرفوه ما شاءوا بما شاءوا كما شاءوا ، لم يغلب عليهم إلا ذلك الداء الوبيل الذى قبسوه من مدنية الغرب ، داء المنفعة . طلبوا المنافع لأنفسهم فاستبدوا فى غير ورع ، وتجبروا فى غير تقوى ، وعملوا على أن يكون سلطانهم فى الأرض كسلطان الله فى السماء : يمحو ما يشاء ويثبت ، علوًّا فى الأرض واستكبارًا ، قاتَلهم الله أنَّى يؤفكون ؟

إن الشرق لا يؤتى ولا يغلب إلّا من قبل أهله . هذه هى القاعدة الأولى فى السياسة الاستعمارية الماضية ، فعملت هذه السياسة على أن تنشر فى الشرق عقولًا قد انسلخت من شرقيتها وانقلبت خلقًا آخر ، وقلوبًا انبتَّتْ من علائقها ولصقت بعلائق أخر ، وبهذه العقول المرتدة والقلوب المرتكسة استطاع الاستعمار أن يمد للشرق طريقًا محفوفًا بالكذب والضلال والفسوق ، يختدعه عن الصراط السوى الذى يفضى به إلى ينبوع القوة الذى يتطهر به من شرور الماضى

---

(١) هكذا رواه أستاذنا رحمه الله ، والرواية المعروفة « وكُنْتَ كذئب » ، والبيت للفرزدق ، ديوانه : ٧٤٩ ، وهو مرويّ هكذا أيضا فى طبقات ابن سلام ١ : ٣٦٢ ، الأغانى ٢١ : ٣٠٦ (طبع الهيئة) ، وستأتى هذه الرواية فى مقال « لا تدابروا أيها الرجال » ، ص : ٣٦٠ . وأحال على الشىء : أقبل ، والذئب إذا رأى الدم على أخيه أقبل عليه يفترسه ، ويترك عدوهما .

وأباطيل الحاضر ، فيمتلك من سلطان روحه ما يستطيع به أن يهدم الأسداد التى ضربت عليه ، ويجتاز الخنادق التى خسفت [١] حوله .

لقد لقينا بهؤلاء العنت حين استحكم لهم أمر الناس فتسلطوا عليهم بالرأى وأسبابه ، فخلعوا بسوء آرائهم على الشرق ليلًا من الاختلاف لا يبصر فيه ذو عينين إلا سوادًا يختفى إذ يستبين . وكانوا له قادة فاعتسفوا به كل مضلَّة مهلكة تسلّ من قلب المؤمن إيمانه ، وتزيد ذا الريبة موجًا على موجه . فلما كتب الله أن يدفع مكر هؤلاء بقوم جردوا أنفسهم للحق ، رأوا أن يلبسوا للناس لباسًا من النفاق يترقون به إلى التلبيس عليهم ما حذقوا من المداورة ، وما دربوا عليه من فتن الرأى ، وما أحسنوا من حيلة المحتال بالقول الذى يفضى من لينه إلى قرارة القلوب ، حتى إذا استوى فيها لفها لف الإعصار ، واحتوشها من أرجائها ، ثم انتفض فيها انتفاض الضرمة على هبة الريح فى هشيم يابس .

وقد أقبلت اليوم على الشرق أيامٌ تتظاهر فيها الأقدار على أن تسلم إليه قيادة مدنيته الجديدة بعد طول الابتلاء وجفاء الحرمان ، وجاءت مع هذه الأيام فتنٌ يُخشى أن تضرب أوّله بآخره حتى لا يقوم شيءٌ هو قائمٌ ، ولا يبقى من أعلام الماضى إلا آثار التاريخ التى تقف شواهد على مامضى وآيات لما يستقبل . فإذا كان ذلك ، فإن الحكمة والحزم والجِد أن نميز الخبيث من الطيب ، وأن نختار لأنفسنا قبل البدء ، وأن يلى منا أمر القيادة من هو حق صاحبها والقائم عليها والمحسن لتصريفها وتدبيرها وسياستها ، وإلا انفلتت من أيدينا حبال الجمهور المتحفز ، فانتشر على وجوهه وتفرق ، وكأن ماكان لم يكن ، وكأن الفرصة قد عرضت لنا لتدع فى قلوبنا بعد ذلك حسرة لا تزال تلذع بالذكرى .

إن أكثر هؤلاء الذين وصفنا قد وجدناهم يمدون أعناقهم يتطاولون مرة أخرى للوقوف فى مقدمة الطلائع الشرقية ، ورأوا – من أجل ذلك – أن يماسحوا الرأى العام على بعض أهوائه وعلى طائفة من أغراضه ، ليستمر لهم ذلك المكان الذى

---

(١) خَسَفَت الأرض (من باب ضرب) : ذهبت وغارت .

حازوه من قبل ، وليكونوا فى الشرق الجديد ما كانوا فى أيامه السالفة . فهم يبدون له ما لا يعتقدون عليه نياتهم ، ويحدثونه حديث مَن طَبٌّ لمَن حَبّ [١] ، وهم كانوا قبلُ أعانوا عليه ، إذ أفسدوا صالح أعماله بالآثم من أعمالهم وآرائهم ، وهم كانوا عليه حربًا ، إذ نزعوا من يديه سلاح القتال فى سبيل حريته واستقلاله وانفراده بخصائصه التى ورثها وخص بها ، وعمل الجيل بعد الجيل فى تنقيتها له تنقية المدَرة [٢] من بين الحَب .

ليس اليوم أوان يترك الشرق عنانه فى الأيدى التى لعبت به وغررت ، ولا هو يوم التهاون فى القليل لأنه قليل ، ولا هو يوم إحسان الظن بمن يحتال للظفر بحسن الظن ، ولكنه اليوم الذى يتفلت فيه من كل ضلالة وعبث ، ومن كل مرتفق للنفع متشوّف [٣] للمصلحة ، ومن كل سبب من أسباب التدمير . فإذا فعل ذلك ، وأعطى كل ذى حق حقه ، وامتاز المجرمون ، وخلص له المخلصون واستعان بحرية اختياره على إقرار الناس فى مواضعهم وعلى مراتبهم ، فيومئذ يجد القدرة على انتزاع حريته من أنياب الغاصبين ، ويصيب مهاد الطريق إلى الغاية التى ينظر إليها بآماله وأشواقه نظرة العامل لا نظرة الحالم المتخيل .

وأخوف ما نخافه هو ما أوتى هؤلاء من الرفق واللين وحسن المجاملة ، وأنهم قد أحكموا معرفة الأسباب التى بها يأخذون بأيدى الناس وعقولهم ، وأنهم قد أوتوا نصيبًا من الصيت يتغلب بهم على ما يعترضهم أو يردهم ، وأن الناس أسرع اتباعًا لما ألفوا وحنينًا إليه ، وأن البلبلة التى تأتى مع الحروب وتمتد فى أذيالها ، تدع الناس حيرى غرقى يتلمسون فى كل شىء شيئًا يتعلقون به ، فإذا لم نأخذ من الآن فى جد من الأمر ، ولم نصرف جهودنا إلى اختيار الأصلح فى كل شىء ، فما بد من أن تنجلى العمايات بعد عن الدنيا لتطبق علينا عماية مصفقة كالظلام المصمت . ويومئذ نرتدّ على أعقابنا حسرى عُناة كأسوأ مامر بنا من زمن ، وتضيع الفرصة السانحة ونحن غرقى فى بحر طام قد نزح عنا شاطئه بعد الدنو .

---

(١) الطَّب : الخبير الحاذق بالشىء ، وأصله الطبيب الماهر .

(٢) المَدَرَة : الطِّين .

(٣) تشوَّف : تَطَلَّع إلى شىء بعيد .

فعلينا الآن أن نثق بأنفسنا غاية الثقة ، لأن الثقة بالنفس هى جيش الحرية ، وأن نشك كل الشك فى أصحاب الرأى ومن يتعرضون للإمارة عليه ، لأن الشك فى هؤلاء هو حارس الحرية ، وأن نشتد فى مطاردة الضلال والعبث ، لأن هذه الشدة هى سلاح الحق وسلاح الحرية . فإذا غلب علينا التهاون فى شىء من ذلك ، فإنها ثغرة تتدفق منها على الشرق مرة أخرى ضلالات وفتن كقطع الليل المظلم ، ويعجز أهله عن حمل أعباء الحضارة الجديدة التى اختارهم الله مرة أخرى للعمل عليها والقيام بها . فما بد من أن ينفض الشرقى بعينيه ورأيه كل بارقة وكل غمام ، مخافة أن تنزل الصواعق عليه من حيث ظن الغيث .

ليس فى الشرق قوًى تضارع تلك القوى الهائلة التى صبت من الحديد والنار وأسرار الكون ، وليس فيه ذلك الغنى غنى الاستبداد والجبروت والسياسة ، وليس فيه ذلك الجمهور العظيم من العقل العامل لإيجاد القوة فى كل شىء لاستخلاص المنافع من كل شىء ، ولكن هذا الشرق لا يزال يحتفظ بأعظم قوة تخضع كل هذه الأشياء لسلطانها الذى ينال النصر ما تعاون ولم يتفرق . وتلك هى قوة الروح ، وقوة الخلق ، وقوة الاستمرار إلى النهاية مصابرة لا ذلًّا ، وإيمانًا لا عنادًا ، وتسليما لا غفلة ، فعلينا أن نعرف فضائلنا التى توارثناها ، وأن ننفى عنها ما خالطها من خبث الجهالات القديمة التى تراكمت عليه فقعدت به أزمانًا طوالًا ، حتى استرخى نائمًا والناس يقظى .

إن الشرق إذا خلص من شر النفايات الطافية على سطحه ، وإذا وثق بسلطان الروح السامية التى لا تذل ، وإذا نهج النهج لا يتهيب ، فما بدٌّ من أن يحوز من القوة ما يضارع قوة المدنية الأوربية المتهالكة ، وأن يجعل فى هذه القوة من النظام الروحى النبيل ما يرد كل غائلة ويمنعها كل عدوان ، ويرفع الإنسانية درجات فى طريقها إلى السماء . وهذه أيَّامٌ فيها عِبَرٌ كثيرةٌ لمن يعتبر ، فإن حقائق المدنية الأوربية تستعلن كلها فى هذه الرجة العظيمة التى ترجف بالعالم ساعة بعد ساعة .

ولكن علينا أن نثق ، وعلينا أن نشك ، فإذا رفعت الثقة أسباب الشك ، فإن الخير كله آت على طول الجهاد وترك التهاون وعلى استجادة العمل ومرابطة

النفس عليه ، وعلى الأناة دون العجلة ، فإن الغَرس الصغير يكبر على التعهد حتى يؤتى الثمرة ، ومن استعان بأسباب الحق أُعين ، ولا يهلك الناس إلا من هيبة أو تهور .

* * *

يوم البعث

إن أحدنا لتستبد به فى بعض عمره فترات يجد فيها الحياة قد وقفت فى دمه كالجدار المصمت لا تميل ولا تنثنى ولا تتحول ، ويجد النفس متماوتة لا ترف رفة واحدة تشعر العقل أن الحى الذى فيه لا يزال حيًّا يعمل ، ويجد الدنيا كأنها بساط ممدود يمشى فيه بعينيه ، ولكن البساط لا يمنحه حركة من هموده وسكونه وانعدام الحياة ذات الإشعاع فيه . ويتمنى أحدنا يومئذ أن تحل بأيامه قارعة تملأ عليه الزمن ضجيجًا ونزاعًا ، عسى أن يتحول كل ما يجده من الفتور إلى نشاط ويقظة وخفة تبعث ميت نفسه من رمس الحياة الخاملة .

وهذا العارض إذا ألَمَّ جعل الأيام مقعدة تزحف فى زمانه زحفًا بطيئًا مرهقًا كأنها أمسكت على مرفأ الحياة بسلسلة ربوض ، ويجعل الحى يعيش فى كذب وباطل وفراغ من الروح ، أى فى حيرة وقلق وملل ، فإذا حار وقلق ومل ، جاءت أعماله كلها جسدًا لا ينبض نبض الحياة ، وكذلك يختلف ما بين الحى وعمله ، ويقف أحدهما من الآخر موقف المثَّال العاجز من تمثاله ، يقول له : أين أنا فيك أيها التمثال الغبى ؟ فيجيبه الصامت البغيض : أين أنت فى نفسك أيها الأحمق ؟

الحياة هى حركة الروح فى العمل ، فإذا خلا العمل ، فلم تتمثل فى كل أنحائه حركة الروح العاملة ، فذلك دليل على أن الروح مضروبة بالموت أو ما يشبهه ، وأنها قد فقدت شرطها ونعتها وحقيقتها ، وأنها إن عاشت على ذلك فستعيش فى قبر منصوب عليها فى تمثال إنسان . وإذا بلغ الإنسان ذلك أريقت كل إنسانيته على أيامه المقفرة فلا يثمر ، فإن يثمر فما يطيب له ثمر ، وإنما هو حسَك [1] وأشواك وحطب وكل ما لا نفع فيه إلا أذًى وبلاءً عليه وعلى الناس .

وكما يكون ذلك أمر الفرد الواحد ، يكون هو أمر الأمة من الناس ، والجيل

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٨) ، ١٩٤٠ ، ص : ١١٨٨ - ١١٨٩

(١) الحسك : عُشْبة تضرب إلى الصفرة ولها شوك يسمى الحَسَكُ أيضا ، مُدَحْرَج ، لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس إلا مَن فى رجليه خُفّ أو نعل .

من الأمم ، فإن الفرد هو خلاصة الجماعة وأصل الجماعة . فالأمة تصاب بمثل الفترة التى يصاب بها الواحد منها ، ولا يمنع ذلك أن يكون فى بعضها ما يخرج على ضرورة هذا العارض من الفتور الذى وصفناه . وعندئذ تتمنى الأمة أن تنزل القارعة لتهز الجو الذى تعيش فيه هزة مدوية مجلجلة ، ترمى فى سمع أبنائها الصوت الموقظ الذى يفزع عليه النائم ينفض عن نفسه الخمول والأحلام الهائمة والأمانى الباطلة المكذوبة .

وقد عاش الشرق من قرون طويلة وهو يجد الحياة من حوله فاترة ساكنة بليدة ميتة الظلال عليه ، وجاء بعض أبنائه من سراديب الفكر البعيدة يصرخون ليوقظوا الأحياء الذين ضُرِب على آذانهم بالأسداد ، وغشاهم النعاس عجزًا وذلًّا ومهانة ، ولكن هؤلاء رجعوا وارتدوا ، ولم يسمع الناس ، وإنما سمعوا هم صدى أصواتهم وهى تتردد فى قفر خراب موحش .

أما اليوم الذى نحن فيه ، فقد جاءت الشرق القارعة التى حلت بديار الناس وبدياره ، وهو يسمع صليل صواعقها بأعصابه كلها لا بآذانه وحدها ، وهو يفيق من نومة طويلة على ما لا عهد له بمثله . فهل يحق لنا أن نؤمل أن هذا الصليل المفزع سيجعل الشرق يلمُّ ما تشعث من حياته ليستقبل حياته الجديدة قد جمع قواه للنهضة والوثبة والانقضاض على أوثان المظالم القديمة التى نُصِبت فعَبَدَها مَن عَبَد ممن خشعوا وذلوا ، وطمعوا فى رحمة الطواغيت فما نالوا - على أوهامهم - إلا فُتاتًا من موائد هذه الطواغيت المتوحشة المستبدة الطاغية ؟

إن الشرق اليوم يجب أن يسأل سؤالًا واحدًا يكون جوابه عملًا صارمًا نافذًا لا يرعوى دون غايته ، وهذا السؤال هو أول سؤال ينتزع إنسانية الحى من الموت الفادح ، إذا كان الدافع إليه هو رغبة النفس فى تحقيق إرادتها تحقيقًا لا يبطل . من أنا ؟ هذا هو السؤال ؛ فإذا أخذ الشرق يسأل يحاول أن يصل إلى حقيقته المضمرة فى تاريخه ، فهذا بدء النصر على الأيام الخاملة التى غط غطيطه فى كهوفها المظلمة .

ولكن البحث عن الحقيقة هو أبدًا أروع شىء وأخوف شىء ، فإن السائل

شاك حائر ، فإذا لم يستعن فى حيرته بالسداد فى الرأى وطول التقليب وحسن الاختيار وبالله التوفيق ، فإن السؤال سوف ينزع به وَيَنْبُثُ [١] عليه ويأخذه ويدعه حتى تتحطم قوته على جبل شامخ قد انغرست فيه أشواك صخرية من الحصا المسنون ، ويرجع مجرَّحًا تدمى جروحه ، يتألم ويتوجع ويشتكى قد أعياه الصبر على الذى يلقاه من أوجاعه .

فحاجتنا فى البحث عن الحقائق التى يتطلبها هذا السؤال ، أن نتدرع بقوة اليقين مما نحن مقبلون عليه من مجاهله ومنكراته ، وأن نستجيش للنفس كل ما يزعها ويكفها عن الشك والتردد ، وأن نقبل على دراسة أنفسنا بفضيلة المتعلم المتواضع ، لا برذيلة المتعالم المتشامخ ، فإن بلاء التعلم والدرس هو كبرياء الحمقى وغرور ذوى العناد والمكابرة .

والأمر كله الآن بيد الشعب أفرادًا أفرادًا ، فإن العادة المستقبحة فى هذا الشرق أنه يكل كل أمره إلى حكوماته التى أثبتت بوجودها إلى اليوم أنه لا وجود لها فى حقيقة الحياة الشرقية . فالحكومات لا تستطيع أن تضع فى روح الشعب هذا الإلهام الإلهى السامى الذى يشرق نوره على الإنسانية فيجلى لها طريقها ، وينفى عنها خبثها ، ويغسلها بأضوائه المنهلة من أعراض البلادة وجراثيم التفانى والانقراض .

ليس لشرقى أو عربىٍّ بعد اليوم أن يقف مستكينًا يقول لحكومته : افعلى من أجلى ياحكومتى العزيزة !! بل يجب أن تكون كلمته : اعملى يا حكومتى فإذا أسأتِ فأنا الذى سيصحح أخطاء أعمالك الرديئة ! ويجعل كل أحد منا همه ساميًا إلى غاية ، وأمله معقودًا بغرض ، ويبيت ليله ونهاره يتَدارَس فى نفسه وفى أهله وفى عشيرته وفى شعبه ، وفى التاريخ النبيل ، وفى التراث المجيد حقيقة ما يجب أن يتعرَّفه من شُعَب هذا السؤال الواحد : من أنا ؟؟

والدعوة الجديدة إلى اليقظة الشرقية والعربية والإسلامية يجب أن تقوم على إثارة الشعب كله ليسأل كل أحد نفسه هذا السؤال : من أنا ؟ فالعالم والأديب والشاعر والفيلسوف والعامل والصانع وأعضاء الأمة على اختلاف منازعهم ونوازعهم يجب

---

(١) ينبث شَرَّه : يستخرجه .

أن يشعروا فى قلوبهم بحاجتهم إلى هذا السؤال ، وأنهم موكلون به لا يهدأون ، وأنهم دائمًا فى طريقهم إلى جمع الحقائق للجواب عن هذا السؤال الواحد .

أما قيام الدعوة على البحث عن طريق الإصلاح وأساليب الإصلاح وتحقيق ذلك بالطرق العلمية ... إلى آخر ما يقال فى هذا الباب من القول ، فما يجدى على الأمة شيئًا إلا ما أجدى قديم ما رددوه ولاكوه ومضغوه من الآراء التى عانوا وضعها ، فلما وضعوها ماتت فى المهد . وليس يمنع البحث عن مثل هذه الأشياء أن نكون أول ما نكون سباقين إلى الأصل الذى يجب أن تقوم عليه هذه الأشياء كلها .

إن الأمم لا يُصلحها مشروع ولا أسلوب من الحكم ، ولا بابٌ من الإصلاح ، وإنما يحييها أن يكون كل فرد فيها دليلًا - بما فيه من الحركة النفسية - على أن الحياة التى يعيشها هى إثباتٌ لوجوده . ولايثبت الوجود للحىّ إلا بقدرته على الاحتفاظ بشخصيته ، ولا يحتفظ المرء بشخصيته إلا أن يكون قد استوعب فهم ما يستطيع من حقيقة هذه الشخصية ، وهو لا يفهم هذه الشخصية إلا أن تكون كل أفكاره متنبهة لتحليل كل شىء يعرض له ، وذلك حين يكون كل همه فى البحث عن أشياء هذا السؤال الواحد : من أنا ؟

فإذا استطعنا فى هذه الساعة الهائلة من تاريخ العالم وتاريخ الإنسانية أن نجعل طبقات الشعوب الشرقية تثور ثورتها على الفتور والجهل والغباء والبلادة وقلة الاحتفال بالحياة ، وأن نجعل سلاح الثورة على أحسنه وأجوده وأمضاه فى هذا السؤال ، فقام كل أحد يسأل مَن أنا ؟ فتجديد الحياة فى الشرق حقيقةٌ لا مناص للعالم بعدها من الاعتراف بأنها واجبة الوجود على الأرض . وأما إذا انطلقت مع أحلام النوم وفلسفة الأحلام ، وجعلنا نلبس مُسُوح العلماء والمفكرين ، وجلابيب الوقار والسمت ... أى البلادة ! فقد هلك على أيدينا من كان حقه علينا أن نجعل هذه الأيدى خدمًا فى حاجاته ومرافقه .

إن من الهراء أن تأتى مجلس قوم من بلداء المهندسين قد اختلفوا فى الأرض : هل تصلح لوضع الأساس أو لا تصلح ؟ فتحدثهم أنت أن الرأى أن يتحولوا إلى مكان آخر من صفته ومن نعته ... مما يصلح عليه البناء ! فإن هؤلاء إذا بدأوا أمرهم بالاختلاف على ما يجدون عنه مندوحة ، فاعلم أنه لا فلاح لهم ، وإنما

الرأى أن تتحول أنت عن هؤلاء البلداء إلى من تجد عنده من الانبعاث إلى العمل ما لا يجد معه وقتًا يضيعه فى ترجيح بعض ما يختلف عليه على بعض آخر .

فالطريق الآن إلى الحياة الجديدة أن يتحول الشرق عن أصحاب الاختلاف والمنابذة وعلم الآراء التى يضرب بعضها وجوه بعض تناقضًا وتباينًا وافتراقًا ، وأن يصغى إلى حنين النفوس المتألمة التى تحن وتئن من أشواقها ، فيتجاوب حنينها نغمًا روحيًا فيه حركة الحياة ، وحرارة الوجد ، وأضواء الأمل . وعندئذ يستجيب القلب للقلب ، وتستمد الروح من الروح ، وتثور الأشواق الخالدة فى القلوب الطامحة والأرواح السامية ، وبذلك تستحث الحياةُ الحياةَ إلى الغاية التى يرمى إليها الشرق بأبصاره من تاريخه ومن وراء التاريخ .

إن عمل العامل فى أول الطريق غير عمله فى آخره ، فنحن سوف نبدأ - وسنبدأ بإذن الله - ، فعملنا الآن هو إنقاذ أرواح الملايين من الموت ومن الفتور ومن الكسل ، وليس عملنا أن نضع الأسس العلمية أو السياسية أو الأدبية لأرواح موات لا حركة فيها ولا انبعاث لها. وما جدوى علم لا روح فيه ؟ أو سياسة لا نشاط فيها ؟ أو أدب لا قلب له ؟

إن عمل من يريد أن يعمل اليوم هو أن ينفخ فى صور جديد يكون صوته فزعًا جديدًا مع الفزع الأكبر الذى نحن فيه ، حتى تنبعث الأمم الشرقية من أجداثها ثائرة حثيثة قد احتشدت فى ساحة الجهاد تلمع قسماتها بذلك اللهيب المتضرم الذى يتوقد بالأشواق ، وتلمح نظراتها لمحًا بالشعاع الظامئ المتوهج بالأمانى المرهقة المتسعرة ، وتتجلى فى كل عضو منها تلك القوة المعروفة فى العضلات المفتولة ، يخيل لمبصرها أنها تكاد تنفجر من ضغط الدم فى أنهارها وأعصابها لولا ما يمسكها من جلدة البدن .

يومئذ يكون جواب الشرق عن سؤاله : من أنا ؟ عملًا صامتًا لا يتكلم ، لأنه لا يضيع أيامه فى إسماع الزمن الأصم أساطيره الباطلة التى يرويها عن أحلام البلادة والجهل والخمول .

* * *

الحضارة المتبرجة

أعطيت هذه الحضارة الأوربية الحديثة أعظم روح من الفن كان فى الأرض من لدن آدم إلى يوم الناس هذا . وهذه الروح الفنية - على سموِّها فى بعض نواحيها إلى غاية ما يتسامى إليه الخيال الفنى - تتساقط وتتدنى وتنحدر من جوانبها إلى أدنأ مايبتذل من الفن العامى المثير لأشأم الغرائز الحيوانية فى الإنسان . وبهذه الرُّوح الفنية عالجت الحضارة الأوربية مشكلة الحياة السريعة الدائبة المثقلة بأعباء العمل ، فاتخذت لكل مَلَل راحة واستجمامًا بلغت بهما غاية اللذة الفنية ، تلك اللذة التى تجعل الأعصاب المجهدة إذا أوت إليها كأنما تأوى إلى بيت ذى رونق وزخرف وعطر وضوء يغمغم ألحانًا من الفن الموسيقى ، فإذا بلغته استنامت بإجهادها على حشايا الخز والديباج ، نعومة ولينًا ترسل فى الأعصاب لذة تمسح الجهد حتى يسكن ويخف ثم يتبدد .

وكانت المرأة هى فنُّ الفنِّ للإنسانية ، وهى الشاطئ الوادع لبحر الحياة المتموج ، وكانت الظل الرطيب فى بيداء موقدة تحت أشعة الشمس المحرقة ، وكانت هى السكن للقلب المسافر دائمًا فى طلب أسباب العيش والحياة . فجاء فن المدنية الحديثة فجعل الشاطئ بحرًا آخر يموج موجًا فنيًا مغريًا يجعل السباحة المجهدة فيه ضربًا من الراحة ، وتركت الظل الرطيب حرارة مستعرة تحرق ، ولكنها تحرق بلذة ، وفرشت السكن حتى مدته طريقًا بعيدًا مترامِيًا يسافر فيه القلب سفرًا بعيدًا فى أحلام وفتنة وجديد لا يتقادم .

وبدأت المرأة بدءها لتجعل الحضارة فنًّا جديدًا من تجميل الحياة للمكدودين . ثم جاءت الحرب الماضية ، فخرجت المرأة من وطيسها المتوقد قد استوت ولذَّت وطابت ، وتجدَّدت عقلًا وروحًا وجمالًا ، وشاركت أسباب

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٧٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٢٥٢ - ١٢٥٤

الحضارة فى إيجاد حل جديد لمشكلة الإنسان العامل المنطلق فى أعماله بسرعة وكدٍّ وإرهاق وعناء ، فاتخذت فن العقل السامى عبدًا تصرِّفه فى إنشاء لذات الحياة إنشاءً عبقريًا تخشع لسلطانه النفس خشوعًا راضيًا ، ثم تمشى فى جنّاته . تأْبى أن تجد راحتها إلا راحة فيها ذلك السحر الناعم الرقيق الفاتن ، الذى يصنعه بنان مؤنث يقول للأشياء كونى جميلة ، فتكون .

وأعطت العين للمرأة أشواقها المستبدة ، وزَينت المرأة للعين متاعها المتجدد ، فاستيقظت الغرائز كلها من هزة الأشواق وحب الاستمتاع ، وانحدرتْ فى دم الرجل قطرات الفتنة المؤنَّثة ، وسطعت فى كيانه كله نفحات العطر المعربد ، وألقت المرأة ظلها على كل شىء ألوانًا تتخايل بالفن المنسَّق البديع ، وصبغت كل شىء فى حلاوة أنوثتها ، حتى لم يبق للرجولة ولا للإنسانية هوًى فى الحياة إلا وهو من المرأة وإلى المرأة وفى سبيل المرأة .

وصارت المرأة هى المحور الذى تدور عليه الإنسانية فى فلك الشهوات الضارية التى تنزع منازعها فى حياة الإنسان باقتدار وقسر ، وسار العالم كله على ذلك حتى ما يُحس ذو شعور أنه يعمل من أجل المرأة ، مع أنه ما يعمل عامل إلا من أجلها . فهو فى نشوة متصلة لا تنقطع فى عمله ، لأن الغرائز المنتشية هى التى تحكم وتصرّف ، وبذلك لم يبق له من الفكر ما يستطيع به فى هذا الأمر أن يتبين حقيقة التيار المسكر الذى يتدافع به فى حياته .

أصبحت الحضارة الأوربية بعد ذلك فنًّا جميلًا يتوالى فيه زخرف الحسن مبعثرًا ومنتظمًا ، لأن الأعمال كلها قد احتملتها إرادة واحدة ، هى إرادة جعل الحياة أجمل مما هى لتكون أمتع للعين والقلب والنفس والغريزة ، مع إسقاط مطالب الروح السامية المتحررة من استعباد الشهوات .

ومن عجيب تصريف القدر فى الحياة أن يجعل أعظم شىء فيها هو أقل الأشياء حظًّا من الحياة ، فالروح التى هى أعظم ما وجد فى الحياة ، ترجع فى غمرة اللذات والشهوات وأمواج الغريزة الطاغية ، أقل ما وجد فى الحياة ، حتى ما يكون لها نصيب منها إلا ذلك الجو الأغبر القائم فى عزلة موحشة ، بعيدة عن

تحقيق لذاتها الروحانية الحلوة التى تبقى حلاوتها خالدةً فى الهرم بعد الشباب ، وفى العجز بعد القدرة ، وفى السكون بعد الحركة وفى الموت بعد الحياة . وتقف الروح متغضنة جافة متكسرة تنظر نظرة متألمة إلى ما يصيب الإنسان من اللذات الطارفة الطارئة التى تتحول فى نار الشهوات رمادًا بعد توقد واشتعال .

فاعتزال الروح فى هذه المدنية الأوربية قد جعل العالم يعيش ليحترق بأسرع ما يمكن أن يحترق ، وهذا هو العلة فى امتياز هذه المدنية بالسرعة والنشاط والتوقد ، واحتمالها متاعب الجهد المضنى فى سبيل استغلال أقصى ما يستطيع الإنسان من الإنتاج فى العمل ، ثم امتيازها بنظام الطبقات الذى تجهد جهدها أن تستره بتلك الزينة الفنية العلمية الظاهرة ، لئلا يكون معنى ذلك أن المدنية تريد أن ترتد بالناس إلى الحالة الطبيعية الوحشية اللئيمة التى ينتجها اجتماع همجى مستبد لا يعقل ، وإنما يكون فيه اللذة التى تسكر العقل ، والظلم الذى يثير العقل ، والأثرة التى تطغى العقل .

وجاء اشتراك المرأة اشتراكا عمليًا فى الحياة الأوربية العامة ليقذف الروح بعيدًا فى عزلتها ، ويدنى غريزة تشتاق إلى غريزة تشوق ، فكذلك بدأت الأنظمة الأدبية والاقتصادية والمدنية تخضع لسلطان الأشواق وحدها دون سلطان الروح والعقل ، وسلطان الأشواق هو الذى يكون غرضه دائمًا أن يضيق ويتخصص وينفرد بأسباب شوقه ، وسلطان الروح والعقل هو الذى يتراحب ويشمل ويعم ويوجد المساواة بين الناس ، مهما لقى من العنت والقسوة فى وضع النظام الذى يريد أن يجعل به الناس أحرارًا فى قيود من الإنسانية السامية المترفعة عن الذل كما تترفع عن بغى السطوة ، والتى تستنكر العبودية الخاضعة كما تستنكر الحرية الفوضى ، والتى تأبى تحكم طبقة فى طبقة كما تأبى ثورة طبقة على طبقة .

ولكن تبرج الحضارة الأوربية فى ذلك الخَلق الجميل الفتان ذى الحيلة والفتنة والسحر الذى يعيش فى صورة الأنثى ، قسر هذه المدنية على الخضوع لسطوة الشوق المتمرّد ، فقام النظام كله على هوى واحد إلى المرأة . فالعامل الذى يعمل يريد أن يستغل الحياة بين يديه لا ليعيش ويعيش معه أهله وبنوه وتلك الدولة

الصغيرة التى تسمى البيت ، بل هو يعمل ليجد أولًا تلك اللذة الحاكمة الممتعة التى يستمتع بها فى ظل تلك الدولة العظيمة التى تسمى المرأة .

وإذا بدأت الطبقة العاملة من الشعب تجد حوافز أعمالها فى شيء بعينه ، كانت كل أعماله من الأدنى إلى الأعلى لاتجد فى أعمالها إلا هذا الحافز الواحد ، وإذا تشابهت الحوافز تشابهت الغايات ، وما يفترق هذا عن ذاك إلا بأن لكل شيء أسلوبًا ، ومهما اختلفت الأساليب فى هذا فلن تختلف فى الدلالة إلا بمقدار الأصل العملى الذى يوجب هذا الاختلاف .

والمكان الذى نصت عليه عروس النفس الإنسانية فى هذه المدنية الحديثة ، هو الحافز وهو الغاية ، ولذلك تجد هذه المدنية قد تبرجت لأبنائها تبرج الفن العبقرى الحافل بأسباب التحكم المستمر فى أعمال كل حى . ولما كانت هذه الحوافز على تعددها إنما هى فى الحقيقة اختصاص فردى لكل واحد من الناس - لأن اللذة لا تقبل الشركة والتعدد - ولكل اختصاص عيب هو الأثرة ، والإصرار على التفرد ، ومعاندة الناس بعضهم بعضًا فى سبيل هذا التفرد - وقع التضارب والتعادى والانتقاض فى كل عمل ، وصار ما يبنى لا يكاد يتم حتى يلقاه ما يهدمه ، وبذلك كان نظام هذه الحضارة مع روعة ما يبنى يقابله نظام آخر فى الهدم والتدمير ، يخيف هذا بقدر ما يروع ذاك .

ولولا هذا التبرج الفاجر فى هذه المدنية ، ولولا هذه الشهوات التى انطلقت ترشف من مسكرات الفن المتبرج ، ولولا هذه الغرائز الجامحة فى طلب السيطرة لإدراك غاية اللذة ، لما كان النظام الاقتصادى الحاضر فى هذه المدنية هكذا مهدِّمًا مستعبدًا مستأثرًا باغيًا ، ولما تعاندت القوى الدولية هذا التعاند الذى أفضى بالعالم إلى الحرب الماضية ثم إلى هذه الحرب المتلهبة من حولنا اليوم ؛ وذلك فى مدى خمسة وعشرين عامًا ، لم يستجمع العالم خلالها قوته ، ولم يتألف ما تفرق ، إلا ليضيع قوته مرة أخرى ويتفرّق .

إن الحضارة فى هذه السنوات التى تبعت الحرب الماضية كانت ترفه عن المكدودين ترفيهها الحُلو الغنى المتبرّج لتعطى القُوى العاملة نشاطًا جديدًا من

النشوة ، أى من الحالة التى يفقد فيها العقل والروح قدرتهما على التحكم فى نظام الحياة . وأقدمت المرأة الأوربية إقدامَها الجرىء فجلبت زينتها من كل خيال ومن كل فن ومن كل سحر ، لتعين الحضارة على الحياة والبقاء فى هذا الجوِّ الذى اختارته وعملت له . وكان هذا الإقدام ضرورة طبيعية للمقدمات التى سبقت عصر الحرب الماضية ، ثم للحرب نفسها . فإن المرأة التى فقدت زوجها ، والفتاة التى أضلت حبيبها ، والبنت التى أضاعتْ قَيِّمها من أب أو أخٍ أو عمٍ ، ... وبقيت فى موج الحياة حَيرى متلَدّدة [١] ، لم تجد بُدًّا من الإقدام على الطريق المجهول بجرأة واندفاع وتهور ، فلما أوضعتْ [٢] فى الطريق المجهول وأسرعت خطاها جرى العالم وراءها يطلبها ، فلم تجد بدًّا من أن تأخذ منه أكثر ما تستطيع لتجتلب لزينتها أحسن ما تستطيع ، وتطارد الصيدُ للصائد فى كل وجه حتى اصطدم العالم كله هذا الاصطدام الهائل الذى لا يدرى إلى أين ينتهى ولا كيف ينتهى .

وستخرج المرأة من هذه الحرب أيضًا كثيرة فاتنة حائرة لا تجد أباها ولا زوجها ولا أخاها ولا حبيبها ، وستكون فى عينيها تلك النظرة الحزينة الضارعة التى تقول لك : أنقذنى ! أنقذنى !! أنا وحدى ، لا أجد من يعولنى ! وسينظر العالم الجديد إلى هذه المرأة بالرحمة والعطف والحنان ، كما نظر للّواتى كنَّ بعد الحرب الماضية . وستعمل المرأة يومئذ لتكتسب الرجل فى كل وجه ، ثم لا تلبث أن تُوجِد من بقايا العالم المتحطم سحرًا جديدًا لمدنية ساحرة ، وبذلك يرتد العالم إلى النظام الاقتصادى الفاجر المبنى على اللذة وطلبها والبحث عنها ، فتكون أنظمته كلها قائمة على الاستبداد والفجور فى الاستبداد .

ويومئذ يبدأ تحقيق نبوة رسول الله ﷺ فى أشراط الساعة وما يكون فى أعقاب الدهر ، إذ « يُرْفَع العِلْمُ ، ويكثر الجهل ، ويكثر الزنا ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » ، وحتى

---

(١) تَلَدَّد : وقف متحيرا لا يدرى أين يذهب .

(٢) أوضع : أسرع .

« ترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به » . وما يكون ذلك إلا يوم يتحقق للحياة المعنى الفنى المحض الذى لا يعرف قاعدة اجتماعية يحرص على تحقيقها للاجتماع ، والذى يرى الحرية انطلاقًا من قيد الأخلاق التى تقسره على مصلحة الجماعة دون لذة الفرد ، وتتبرج الحياة تبرجًا هائلًا يجعل العقل غريزة جديدة تشتهى ، والروح خلقًا منبوذًا حائرًا يطوف على هذه الفتن كما يطوف الصعلوك على مائدة ملكية . ويومئذ يُرْفَع العِلْمُ لأنه سيُستعبَدُ فى إيجاد اللذات ، وتفارقه الروح النبيلة التى لا يكون العلم إلا بها علمًا ، ولا يبقى فى الأرض إلا الجهل الأحمق الذى لا يعرف إلا السيطرة بحماقة ، والأثرة بكَلَب ، وتكون المرأة هى علم الحياة الجديدة الذى يمزق الرجولة القليلة فى جذب الشهوات العنيفة ، ويغرق الفضيلة فى طوفان المتعة الجميلة التى تبعث فى الأعصاب المجهدة نشوة مسكرة .

* * *

١ – اقتطف !

قرأت سؤال الأخ الفاضل « رشاد عبد المطلب » ، وكنت أرجو أن أكون مخطئًا ، كي أقرَّ له بخطأ ماجاء فى قولى : « وجعل يقتطف منها حيث أراد » ، وذلك لحسن أدبه ، ولطف سياقه .

والقول فى « اقتطف » إنها خطأ ، وإنها لم ترد فى كتب اللغة : كاللسان والأساس والقاموس والنهاية والمصباح ... إلى آخر هذه الجملة – قول قديم ، قد ذهب إليه المتأخرون من فضلاء المشتغلين باللغة فى عصرنا وما قبله بقليل .

ولو لم يرد هذا الحرف فى اللغة لوجب أن يوجد للغة وجوبًا بيانيًّا من عدة وجوه ، وليس هذا موضع تفصيل ذلك ولا هذا أوانه . وأنا لا أستطيع الآن أن أقف فى الطريق لأتلفت إلى ما ورائى مما قد مضى زمنه . وإذ كان لابد فى إقامة الدليل على صواب هذا الحرف ، من شاهد عربى ، فنحن نأتى به ، وذلك من قول نابغة بنى شيبان « عبد الله بن مخارق » :

تُشبِى القلوبَ بوجه لا كِفاء له ... كالبدر تَمَّ جمالًا حين ينتصفُ
تحت الخمار لها جَثْل تعكُّفُه [(١)] ... مثل العَثاكِيل سودًا حين تقتطف
لها صحيفةُ وجهٍ يُستضاء به ... لم يعل ظاهرها بَثْرٌ ولا كَلَفُ

وفى قديم الشِّعر من الرجز ما أحفظه ولا أُثبت موضعه : « يقتطِفْنَ الهاما » [(٢)] ، يصف السيوفَ . وبيت النابغة كافٍ فى الدلالة والشهادة ، وأدع ماوراء ذلك لمن يجعل همَّه اقتناص الكلمات الهاربة من معاجم اللغة .

وما دمنا فى ذكر شاهد من شعر نابغة بنى شيبان ، نقول : إن أبا الفرج الأصفهانى زعم أنه نصرانىٌّ ، لأنه زعم أنَه وجد فى شعره يحلف بالإنجيل

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٧٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٢٧١

(١) الجثل : الشعر الغزير . تعكفه : تُعطُّفه وتُعَوُّجه .

(٢) الهام : جمع هامة ، وهى أعلى الرأس .

والرهبان وبالأيمان التى يحلف بها النصارى ، وذلك كله وهمٌ فاسدٌ ، استغرّ به صاحب شعراء النصرانية لويس شيخو اليسوعيّ ، فاحتمله فيمن احتمل من شعراء العربية . وشعر النابغة ليس فيه حرفٌ واحدٌ مما زعم أبو الفرج .

هذا ، وأبوه « مُخَارِق بن سُلَيْم الشيبانى » صحابيٌّ جليلٌ روى له أحمد بن حنبل فى مسنده ج ٥ ص ٢٩٤ ، والنسائى ج ٧ ص ١١٣ ، وروى عبد الله (هذا الشاعر) وأخوه « قابوس بن مخارق » عن أبيهما . وكان عبد الله يكثر رواية الحديث ، ثم انصرف إلى الشِّعر ، وله فى انصرافه إلى الشِّعر خبرٌ .

٢ - باريس !

قرأت فى عدد الرسالة الماضى كلمة يذكرنى فيها صديقنا الأخ « زكى مبارك » ويزعم أنه قرأ فى « الدستور » كلمة بإمضائى ، عدها هو تعقيبًا على المقال الذى نشره فى « الرسالة » بعد سقوط باريس تحت أيدى الألمان .

ولو أحسن الدكتور زكى فأخرجنى من عداد من ذكر لكفى نفسه مؤونة الفكر فى أنى أتعقب كلامه . ولو كان ما قاله الدكتور زكى صحيحًا لكان للسان مقال غير الذى قلت . والذى كتبته كان حديثًا عامًّا لم أرد به أحدًا بعينه وخاصته ، وكثير غير الدكتور بكى باريس وناح ، فكيف يريد أن يخص نفسه دون سائر مَن أَعْوَل على هذه المدينة ؟

وإذن فسائر ماجاء فى كلمة الدكتور زكى ليس يعنينى . ولا هو مما أستطيع أن أشتغل به ، والمذهب الذى يجرى فيه الدكتور غير مذهبنا ، وبينهما من الفرق مايوجب علىَّ أن أصرف خطابه - فى هذا المكان من الرسالة - إلى من شاء غيرى . وللدكتور منى تحية ، وعليه سلام .

* * *

وزارة المعارف العمومية

غُذوان لطيف

حضرة المحترم ناظر مدرسة ... الثانوية

قررت الوزارة (أي وزارة المعارف) كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف للسنة التوجيهية في العام الدراسي الحالي ٤١/٤٠ ، والوزارة تطبع هذا الكتاب الآن بالمطبعة الأميرية ، بعد أن عهدت فى تهذيبه وتصحيحه وشرحه إلى حضرتى الأستاذين أحمد أمين عميد كلية الآداب ، وعلى الجارم بك وكيل دار العلوم .

« وقد ظهرت أخيرًا لهذا الكتاب طبعة أخرى قامت بنشرها المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، وهى طبعة فيها فحش وتحريف ونقص فى الشرح والتعريف بأعلام الرجال ، وغير ذلك من العيوب » .

فنلفت نظر حضرتكم إلى أن الطبعة التى ينبغى استعمالها والاقتصار عليها بالمدارس الأميرية والحرة هى طبعة الوزارة التى ستصدر من المطبعة الأميرية قريبًا .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام — السكرتير العام

١٩٤٠/١١/١١ — حسن فائق

* * *

وكان من قصة هذه النشرة الظريفة التى أذاعتها وزارة المعارف على المدارس الأميرية والحرة ، أنى نشرت كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف فى المكتبة التجارية الكبرى فى ١٩٤٠/١٠/١٤ ، بعد أن حققت أصله وراجعتُه على الأصول ، وشرحت ما يعرض للقارئ من غامضه ، وكتبتُ لأحمد بن يوسف ترجمة وافية جمعتها من بين سطور كتب التاريخ والتراجم ، إذ أن ترجمة أحمد

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٨٩) ، ١٩٤٠ ، ص ١٨٢٦ - ١٨٢٨

ابن يوسف لا تبلغ عشرة أسطر فى الكتاب الفرد الذى ترجم له ، وهو معجم الأدباء لياقوت الحموى .

وكان حقًّا على وزارة المعارف ، أو على الأصح ، كان من الأدب المتبع أن تشكرنى على الجهد الذى بذلته فى تصحيح هذا الكتاب . ولكن الوزارة أبت أن تكافئ الجميل من العمل بالجميل من القول ، وقذفت الكتاب وناشره وطابعه قذفًا جارحًا لا مسوغ له ، وإذ كنت أعلم علم اليقين أن ليس بينى وبينها عداوة مستحدثة ، أو حقد متوارث ، فقد أذهلنى اجتراء هذه الوزارة على الطعن فى الكتاب طعن المنتقم المتضرم المغيظ الذى يفقده الغيظ سلطان الإرادة الحكيمة .

والقارئ يعلم – ووزارة المعارف تعلَم أيضًا – أن القانون يقدُعها ويردها عن الطغيان كما يقدعنى ويردنى ، وأن هذه الجملة التى وضعتها بين الأقواس فى نشرة الوزارة ، إن هى إلا حشو لا معنى له ، وأن قد كان لوزارة المعارف مندوحة عنها ، وأن الكلام يستقيم بإسقاطها ، وأن أمرها لنظَّار مدارسها وأساتذتها وطلبتها واجب الاتباع . فإذا قالت الوزارة لهؤلاء إن الطبعة التى ستصدر من المطبعة الأميرية قريبًا !! هى الطبعة التى ينبغى استعمالها والاقتصار عليها ، فهذا كفاية وفوق الكفاية فى منع الأساتذة والطلاب !! من اعتماد طبعتى فى الدراسة .

ومع ذلك ، فمما لاشك فيه أن السنة الدراسية الحالية ، قد انقضى من عمرها أكثر من الثلث ولم تصدر طبعة وزارة المعارف . أفيكون ثمة بأس على الأساتذة والطلبة أن يوفروا من الوقت المضاع أشهرًا أخرى بالنظر فى نسختى ، حتى إذا ظهرت نسخة وزارة المعارف اتبعوها وألقوا نسختى ومضوا فى دراستهم فى كتاب الوزارة ؟ إنه مهما يكن فى نسختى من العيوب ، فلا يمكن أن يكون الأصل الذى طبعتُه من الكتاب غير الأصل التى تطبع عنه وزارة المعارف ، وما دام الأصل واحدًا ، والنص واحدًا ، فليس على الأساتذة والطلبة بأس . فهل تستطيع الوزارة أن تدَّعى أن نص الكتاب الذى طبعتُه – مهما يكن فيه من الخطأ والتحريف – غير النص الذى يطبعونه ؟ وبالطبع نقول : لا وكلا ، وليس معقولًا .

وإذن ، فالجميل الذى أوليته وزارةَ المعارف ، وإخوانَنا الأساتذة والطلبة ،

جميلٌ يوجب الشكر على من قدَّم له . وأنت تعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضًا - أن الأساتذة والطلبة مكلفون بشراء كتاب الوزارة كما اشتروا كتابى . فتكليف الأساتذة والطلبة بالاقتصار على طبعة الوزارة التى ستصدرها المطبعة الأميرية قريبًا !! إيجاب عليهم بشراء كتابها وطبعتها ، فليس يضير الوزارة على ذلك شىء ، مادامت ستنتهى إلى النهاية الطبيعية وهى بيع كتابها ورواجه بين المكلفين بدراسته .

ونحن نعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضًا - أن المفروض فى أمر هذه الكتب ، أن الوزراة لا تتجر بها للربح ، فإذا فُرِضَ وهذا مستحيل بعد أمر الوزارة للمدارس بالاقتصار على طبعتها التى ستصدر من المطبعة الأميرية قريبًا !! - أن بقيت جميع نسخ الوزراة معطلة موقوفة لا تباع ولا تشترى ولا ترهن !! كالأوقاف والحبوس ، لما كان فى ذلك شىء ، مادام الغرض من طبع هذا الكتاب قد حقق للطلبة والأساتذة على ماقد يكون فى طبعتى من العيوب .

وبعد الاقتصار على هذا ، أظن وزارة المعارف قد استطاعت أن تفهم الآن مقدار ما أساءت به ، مع صرف النظر عن المسئولية الأدبية والقانونية التى وقعتْ فيها فى نشرتها التى أذاعتها على المدارس الأميرية والحرة .

وسأدع المسئولية القانونية التى يكفلها القانون لى ولصاحب المكتبة التجارية الكبرى إلى أن يحين حينها وتأخذ طريقها الذى تقتضيه ، وأنصرف الآن إلى المسئولية الأدبية التى أغمضت فيها هذه الوزارة بغير رفق ولا حكمة ولا حرص .

إن عمل وزارة المعارف ليس إلا الإشراف على التعليم ، وكل أمر أو نهى يصدر منها يجب اتباعه على المدارس الأميرية والحرة ونظارها وأساتذتها وطلبتها ، هذا ما نعلمه - وأظن وزارة المعارف تعلمه أيضًا - وليس من عمل وزارة المعارف فيما نعلمه - وأظن هذه الوزارة تعلمه أيضًا - أن تكون حكمًا قاضيًا على ما يصدر من الكتب غير مرسوم برسمها واسمها ، وإن كانت هذه الكتب مما قررته الوزارة لمدارسها . وما دمتُ لم أُشر بحرفٍ واحدٍ فى كتابى إلى أنى قد نشرته لطلبة السنة التوجيهية للمدارس الأميرية والحرة ، فليس من حق وزارة المعارف أن تعرض للحكم عليه أو الطعن فيه على الأصح .

ومع ذلك فأنا وأنت نعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضًا - أن حكمها على الكتاب قد صار ، وأن هذا الحكم ليس نقدًا ولا شبيهًا بالنقد ، وإنما هو طعنٌ وتجريحٌ وطغيانٌ كلاميٌّ مُؤذٍ كان يجب على هذه الوزارة أن تترفع عنه .

ومع ذلك كله ، فالوزارة تقول إن هذه الطبعة التى نشرتها المكتبة التجارية الكبرى فيها « فُحْشٌ » ، هذا الحرف ، بهذا النص ، على هذه الصورة ، فى هذا الوضع ! فأنا أتحدّى هذه الوزارة فى هذا المكان وأطالبُها باستخراج « الفحش » الذى وقع فى طبعتى ، أين هو ؟ فإذا فعلتْ ، فسنرى أىُّ الفُحشين أفحش ، أهذا الذى تدعيه وزارة المعارف على كتابى ادِّعاءً ، أم الذى هو قائمٌ مقررٌ فى الكتب التى قررتها وزارة المعارف وطبعتها وأذاعتها ، وأمرت مدارسها بدراستها أعوامًا طوالًا ؟

وتقول وزارة المعارف إن فى طبعتى « تحريف » ؛ هذا الحرف ، بهذا النص ، على هذه الصورة ، فى هذا الوضع ! فأنا أتحدَّى هذه الوزارة أيضًا فى هذا المكان ، وأطالبها باستخراج هذا « التحريف » ، ليعلم من لم يكن يعلم أىُّ التحريفين أقبح ، ما أقع أنا فيه ، أم ماوقعتْ فيه هى فى الكتب التى صححتها وشرحتها وأذاعتها وقررت دراستها أعوامًا طوالًا ؟

ومع ذلك كله ، فأنا أقرر فى هذا المكان أن « الفحش » ! هذه واحدة ، وأن « التحريف » ! وهذه أخرى ، ليسا سوى دعوى من الوزارة لا برهان لها عليها ألبتة ، وأن الجرأة والطغيان قد بلغا مبلغًا فى هذه النشرة الرسمية ، وأن كتب وزارة المعارف قد عرضت لى صفحتها ، فإن شئت قضيت وإن شئت أمسكت .

أما ثالث أقوال الوزارة من أن الكتاب فيه « نقص فى الشرح » ، فليس صحيحًا بوجه من الوجوه ، إذ كان شرحى مختصرًا مبينًا عن وجه العبارة والمعنى ؛ وقاعدتى فى الشرح أن أدع نص أصحاب اللغة فى شرح اللفظ اللغوى ، إلى عبارة أعبر بها معنى الجمال على الوضوح والبيان . وبذلك أسقط من الكلام ماتحشو به وزارة المعارف كتبها من الشروح التى لا معنى لها ، وسأضرب فى كلمة أخرى أمثلة كثيرة أزعم أنها هى التى بغضت إلى الطلبة أكثر كُتب الأدب التى وزعتها عليهم ، وصرفتهم عن الاستفادة منها .

هذا ، ومن قرأ كتاب أحمد بن يوسف يعلم - ولعل وزارة المعارف تعلم أيضًا - أن الكتاب مجموعة من القصص القصيرة ، فى عبارة قريبة واضحة ليس فيها من غريب اللغة إلا القليل ، ورب غريب فيها يبين عنه سياق الحكاية ، فلا معنى لإرهاق نظر الطالب والتهويل عليه بالشروح المستفيضة التى تخوفه أو تثقل عليه . ورب شرح قصير موجز واضح يكون أعظم بركة على القارئ من تَعالُم غليظ ثقيل وتقعر .

وعندنا أن الأسلوب الذى جرت عليه وزارة المعارف فى شرح كتبها أسلوب غير منتج إلا أسوأ النتائج ، لأنه يصرف الطالب عن الاستمتاع بالنص ، وعن التقليب له والنظر فيه ، وعن التردد لطلب المعنى بالجهد القليل ، وتجعله حائرًا بين الكلام الذى يقرأ وبين الشرح الطويل الممل الذى تتدلى حواشيه على كل كلمة أو حرف من عبارة قصيرة قريبة المعنى دانية البيان ، وأن هذه الطريقة المضحكة هى التى تجعل الطالب لا يهتم كثيرًا بالإصغاء إلى أستاذه اعتمادًا على ما يتوهمه فى الشرح الطويل العريض من الإبانة الصحيحة عن المعنى ، فإذا فعل ذلك ، ثم رجع إلى كتابه وقرأ شرح الشراح وأصحاب الحواشى لم يفهم ، وربما أضله هذا الشرح عن بعض الصحيح من الفهم الذى فهمه قبل قراءة الشرح . وأنا لا أقول هذا عن رَجْم وَتَظَنٍّ بل أقوله وقد وقفت عليه من ملاحظتى لأكثر من عشرين طالبًا من أبنائنا الذين كتب عليهم أن يتعلموا العربية فى وزارة المعارف . ولست أشك أن أكثر أساتذة العربية فى المدارس الأميرية ، لو أتيح لهم أن يتكلموا لأظهروا هذه العيوب كلها لما يقاسونه مع الطلبة فى دراسة النصوص العربية التى شرحتها وزارة المعارف .

ومع كل ذلك ، فأنا أوافق وزارة المعارف على أن كتابى فيه نقص فى الشرح ! فهل يعيبه هذا ! إنما العيب أن يطول الشرح ويكثر ، وتلج لجاجته ، ثم يكون هذا الشرح تضربًا فى خطأ بعد خطأ ، وفى سوء فهم للعبارة ، وفى إبهام آت من قلة المعرفة بأساليب العرب فى كلامها . وأنا أتحدى وزارة المعارف أن تخرج من كل ما صححت من الكتب ، بل من كل ما أكتب ، شيئًا يدل على ذلك .

وما دامت الوزارة تأبى إلا أن تعتدى علىَّ فسأضع يدها على ضرب مدهش من الشروح التى وقعت فيها فيما طبعت من الكتب ، يدل كل الدلالة على أن الشراح لم يفهموا حرفًا واحدًا مما قرأوا ، وأنهم ينقلون من الكتب ما يصادفون من المعانى ، لا ما توجبه الجمل من معانى اللغة ، وأنهم لا يتذوقون الأدب إلا بالوظيفة وعن طريقها !!

أما النقص فى التعريف بأعلام الرجال - كما تقول وزارة المعارف - فلا أظن أحدًا قرأ كتاب أحمد بن يوسف ورأى ما فيه وعلم غرض مؤلفه منه ، إلا وجد من عيب وزارة المعارف لكتابى بهذا النقص - كما تسميه - أسلوبًا مضحكا فى النقد . أتظن الوزراة أنها تستطيع أن تعرف بفلان وفلان وفلان ممن ذكر فى هذا الكتاب فى سطرين أو ثلاثة ، ثم يكون هذا تعريفًا ؟ كيف تستطيع هذه الوزارة أن تعرّف قارئ كتابها فى سطرين أو ثلاثة : بإبراهيم بن المهدى ، وابن طولون ، وابن بسطام ، والمأمون ، وابن مدبر ، وخاله العشرى ، وابن أبى الساج ، وخمارويه ، وفلان وفلان ممن لا نحصى كثرة ؟؟ وهل تعتقد أن التعريف بأحد هؤلاء إن هو إلا ذكر سنة مولده أو سنة وفاته أو وظيفته فى الدولة ؟ وقضى الأمر الذى فيه تستفتيان ! هذه طريقة فى التعريف بالرجال مضحكة ، لا نلجأ نحن إليها ولا نقرها ، ونعلم أن لا فائدة فيها للطالب أو غير الطالب بتة . وستخرج طبعة وزارة المعارف التى تطبع بالمطبعة الأميرية قريبًا وسنعلم كيف فعلت ! وندلها على الصواب فى كل ذلك إن شاء الله .

وأخيرًا ... وأخيرًا ، أيها القارئ ، تقول وزارة المعارف بعد أن أنهكها تعداد عيوب كتابى ، وبلغ منها ، وكَدَّها ، وأَوْهَى مَتْنَها ، واستصفى نشاطها ، وحيَّرتها الكثرة التى لا تحصى من بلادتى وغفلتى وأخطائى ... أخيرًا تقول : وفى هذا الكتاب الذى نشرته : « غير ذلك من العيوب » : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٥] .

وأخيرًا أيضًا ، أشكر وزارة المعارف على حسن جزائها فى كتاب لم أتقدم به إليها ، ولكنى تقدمت به إلى قراء العربية ثم أشكرها على توصيمها لاسمى واسم

هذا الكتاب بالنشرة التى أذاعتها على مدارسها . وإذا كانت وزارة المعارف تجهل من أنا ، وماعملى ، وكيف هو – ووزارة المعارف تجهل أشياء كثيرة – فكل ذلك لا يبيح لها أن تتهجم على الناس بالسيئ من القول .

إنى أعلم كيف كتبت هذه النشرة ، ومن الذى أملاها ولأى غرض أمليت على من كتبها ، ومن المضحك أن يجوز إنسان كل درجته فى هذا الأمر تأتى من قبل وظيفته . أو أن يجرؤ إنسان كل علمه يأتيه من قبل شهادة نالها ، ثم من وظيفة قدر له أن يحرزها أو تحرزه ، ثم من ثالثة الأثافى التى هى أَلحظ أقول : من المضحك أن يجرؤ أحد هذين أن يدعى لنفسه من الحكم على عمل أعمله مستترًا وراء نشرة تصدرها وزارة المعارف وهو لو وضعته بين ثلاثتى التى أمسك بها هذا القلم لمزقت كل الوشى المصنوع الذى يكتسبه ويتجمل به ... ومع هذا فسوف نرى .

إمتاع الأسماع

قرأت – فى الرسالة عدد ٤١٢ – كلمة الأخ الصديق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن كتاب « إمتاع الأسماع » الذى ألّفه المقريزى ، وكان لى شرف تصحيحه وشرحه ، وإنى لأشكر للأخ الكريم ثناءه وحسن ظنه بأخيه . جزاه الله عنى أفضل الجزاء .

وقد استدرك الأخ الأستاذ بعض ما فاتنى من الخطأ ، فله الشكر على اهتمامه وحسن تهَدّيه ويقظة عينيه ، وإن صحّ لى أن أقول شيئًا تعقيبًا على استدراك الأستاذ ، فلست أزيد على أن التصحيح المطبعى صناعة وفنّ قبل أن يكون علمًا ورواية . وكل ما استدركه – إلا الفقرة الأولى يدخل فى باب تصحيح الأخطاء المطبعية ، فالأخيرة منها مثلًا ، وهى : « من هوزان » ص ٤٠١ مذكورة فى هذا الوجه نفسه مرات كثيرة على الصواب « هوازن » بتقديم الألف على الزاى – لا كما جاءت فى تصحيح الأستاذ نفسه « هوزان » كما فى الإمتاع !! – ولكن تَنَبُّه الأستاذ إلى مثل هذه الأخطاء يدل على دقة وبصر ، وأنه يحسن التصحيح المطبعى وذلك لما جُبِل عليه من الهدوء والوداعة .

وأما الفقرة الأولى من استدراكه ، وهى التى جاء فيها على هذا الرجز : ص ٢٢٢

« اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تـصـدّقـنـا ولا صَـلَّـيْـنـا

....

إن الأُلَى قد بغوْا علينا ....

وقوله : إن صواب الأول : « لا هُمّ لولا أنت ما اهتديْنا ، وإن صواب الأخير : « إن الألى لقد بغوا علينا » ، ثم تعجّبه من أن يفوتنى ذلك الاختلال فى وزن الرجز ، وأنا شاعر وعروضىّ ! فإنى أبرأ إليه من نسبة العروض ، فطالما أَفْسَد العروض ما بينى وبين أصحابى من الشعراء ، وليس الأمس ببعيد . ورواية الأول :

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٤١٣) ، ١٩٤١ ، ص ٧٤٢ – ٧٤٣

« اللهم لولا أنت ما اهتدينا » . هى الواردة فى الأصل ، وفى البخارى وفى مسلم (شرح النووى ، ج ١٢ ، ص ١٦٦) ، وفى أكثر كتب التاريخ والسير والحديث . وقد جاءت الرواية التى ذكرها الأستاذ فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٢ ص ٥١ ، وجاءت رواية أخرى : « والله لولا الله ما اهتدينا » فى البخارى ج ٥ ص ١٠٩ ، وأخرى : « والله لولا أنت ما اهتدينا » فى مسلم (شرح النووى) ج ١٢ ص ١٧٠ ، وقال النووى فى ذكر الرواية الأولى ج ١٢ ص ١٦٦ ما نَصُّه « كذا الرواية » ، قالوا : وصوابه فى الوزن « لاهم » ، أو « تالله » ، أو « والله لولا أنت » كما فى الحديث الآخر : فواللهِ لولا الله ... » .

رواية الأخير : « إن الألى قد بغوْا علينا » هى الواردة فى الأصل أيضًا ، وفى البخارىّ فى مواضع ، وفى مسلم ج ١٢ ص ١٧١ ، وفى أكثر كتب السير والتاريخ والحديث . وجاء فى مسلم ج ١٢ ص ١٧٠ : « والمشركون قد بغوْا علينا » ، وفى ص ١٧١ منه ما نصُّه : « وربما قال [يعنى رسول الله ﷺ] « إن الملا قد بَغَوْا علينا » ، وهى فى اختلال الوزن كالرواية الأولى التى أثبتناها . ومثلها فى ذلك أيضًا رواية من روى : « إن الأعادى بغوا علينا » .

وقد نصّ شُرّاح كتب السير ، وشراح البخارى على أن هذا الرجز ليس يتَّزِن (انظر العينى ج ١٤ ص ١٣٢ ، وابن حجر ج ٧ ص ٣٠٩) ، ولم يصححوه أو يبدلوه إلى مايتزنُ ، مما جاء فى الروايات الأُخر ، كالذى ذكر الأستاذ « إن الألى لقد بغوا علينا » ، وهى رواية ابن سعد ج ٢ ص ٥١

فإذا كان أصحاب العلم والدراية والبصر بالرواية لم يفعلوا ما أرادنى الأستاذ على أن أفعله – من حيث أنى عَرُوضى كما يقول ، فلى العذر تابعًا لهم ، مقتديًا بهم ، حريصًا على ألّا أبدِّل أو أُحرِّف ما اتفق عليه الأصل الذى أطبع عنه ، والروايات المتعددة التى جاءت فى أصحّ الكتب إسنادًا أو رواية بعد كتاب الله .

هذا ، والكلام عن مثل هذا الرَّجَز – ومايقع فى بعض أوزانه من الاختلال والاضطراب – يفضى إلى القول فى المواضع التى كان يُنْشَد فيها ، وكيف يكون إنشادُه ؟ ولِمَ يُتجاوز فيه عن الوزن ؟ ولو نظر الأستاذ الشاعر إلى صلة هذا الرَّجَز

بما كان من الصحابة فى حفر الخندق ، وحملهم التراب فى المكاتل ، وسيرهم مصعّدين ومصوِّبين ، متوافقين فى الإنشاد يمدُّون به أصواتهم مختلطة مرتفعةً ، لعَلِم عِلْمَ ذلك ، ولكفانا مؤونة الجرى وراءَ العروض ، أهو يتَّزنُ أو لا يتزن ؟ حتى يبلغ بنا ذلك إلى تبديل الروايات وتحريفها ، وقد جاءت عمن كان أعلم منا بالشعر والعروض .

وأخيرًا ، أشكر للأستاذ هذه الهمة التى دفعته إلى النظر والتنقيب ، والبحث والتنقير ؛ وأثنى عليه بما هو له أهل ، وأسأله أن يتغمَّد خطأ أخيه بما أعرفه من نبله وعلمه وفضله ، والسلام .

* * *

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

أيام حزينة

« قال عمر بن أبى ربيعة ... » : وجاء ابن أبى عَتيق [هو عبد الله بن محمد أبى عتيق بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق] ، فوالله لأن كنتُ بين ضِرْسين من الجبل يدوران علىَّ دَوَرانَ الرَّحَى ، أهونُ علىَّ من أن أكون لقيتُ هذا الرجلَ الحبيبَ !

كانَ رجُلًا ضَرْبًا خفيفَ اللّحم أحْمَر ظاهِرَ الدَّم كأنّ إهابَه شُعْلَةٌ تَشِبُّ [١] وتتلهَّب ، أفرعَ فينانَ الشَّعَر ، مخروطَ الوجه ، أزهَرَ مُشْرِقًا كأنّ بين عينيه نجمًا [٢] يتألّق ، يُقْبل عليك حُرُّ وجْهِه بعينين نَجْلاوين قد ظَمِئَ جَفْناهما حتى رقًّا ، يرسِلُ إليكَ طَرفَهُ فترى الضحكَ فى عينيه خِلقَةً لا تكلّفًا ، ما أَحسبنى رأيتُه مَرّةً إلّا خِلْتُه دُعابةً قال لها الله : كونى ! فكانَتهُ . وكأنى به قد دَخَل على أمّ المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق وهى تَكِيد بنفسها [٣] - فى مرضها الذى ماتت فيه - يَقُول : كيف أصبحت يا أمّاهُ ؟ جعلنى الله فِدَاكِ ! فتقول عائشة : أجِدُنى ذاهبةً يابُنَىّ ! فيقول : فلا إذَنْ يا أمَّ المؤمنين !! فتتبسم عائشة وتقول : حتى على الموت يا ابن أبى عتيق !! فيقول : أَرضاكِ الله يا أمَّاه ! لو جَاءنى الموتُ كأكرهِ ما يأتى على حىٍّ ، ماتركتُ له دُعابتى حتى يَستضحكَ ، فيرحَل بى عن الدُّنيا بوجْهٍ غير الذى جاء به !

فلو أنّ امرأً من عُرْض الناس لا أَعرفه ، جاءنى فزعم أنّ نجمًا فى السماءِ

---

* الرسالة ، السنة العاشرة (العدد ٤٤٩) ، ١٩٤٢ ، ص : ١٩٤ - ١٩٦

(١) الضَّرْبُ : الرجل الخفيف اللحم . الإهاب : الجِلْد .

(٢) الأفرع : الطويل الشعر .

(٣) تكيد بنفسها : تجود بها ، وذلك عند الموت .

بكى ، وأن القَمَر مَدّ إليه مثلَ اليَد فكفكف من عَبَراته ، لكانَ أقربَ إليّ منْ أنْ يأتى آتٍ يقول هذا ابنُ أبى عتيق يمشى فى الناس بعينين ضارعتين خاشعتين ذاهلتين يُعرفُ فيهما البُكاءَ !

رجل صالح تقى خفيف الروح نشوان القلب ، قد انحدر إليه من جده [عبد الرحمن بن أبى بكر الشاعر] ، حنين الشاعر حين يرى الدنيا كالغانية المنعّمة تتصبَّى له وتتقتَّل ، فيحن إليها بصبَوات الشباب المتوهّج ... وآب إليه من جده [أبى بكر الصديق] حَنَانُ التقى وهو يرى الدنيا كالناشئة الغريرة لا تزال تنشُدُ تحت جناحه دِفءَ الأبوّةِ فتأوى إليه وتتضوّرُ ، فهو يخفض لها من رحمة الوالد المتحنن ... فابن أبى عتيق من هذين الأبوين كالربيع : جمال وشباب ، ورقة وحنان ، وفرح لا ينتهى .

وكنتُ أجدُه فيما يتوقَّدُ علىَّ من الكُرَبِ كالغمامة الغادية : ظِلٌّ ورِىٌّ ، ثم لا يزالُ بى حتى أَنام إلى دُعابته ، فإذا آلامىِ تطوف بى من بعيدٍ كأنها أَحلام ، بعد أن كانت فى دمى جمرةً تتلذّعُ . ولقد أكونُ مما أستعصى عليه بأحزانى ، فأريدُ أذهبُ عنه نافرًا أبتغى أن أعكُفَ على آلامى كما يعكُفُ العابد على بُدّه [1] ، فما هو إلا أن يأخذَ ينشد :

مَتى تَرَ عَيْنَىْ مالكٍ وجِرَانَه ... وجنبيْه ، تعْلَم أنه غيرُ ثائِر [2]
حِضَجْرٌ ، كأمِّ التَّوْأَمينِ توكلَتْ ... على مَرْفِقَيْها مُسْتهِلَّةَ عاشِر [3]

فينشد أغربَ إنشادٍ وأعجبه ، ولا يزال يحرِّك ويشير ويمثِّل ، فوالله مامن ساعة أنشدنيها هذين البيتين ، وأقبل علىَّ يُرينى ما يأتى به ، إلا نَبَع الضحك من قلبى دفعة حتى ما أتماسك معه

فكيف به اليوم وقد سكنَ كأنه دمعةٌ خافتة تئنُّ تحت الزفراتِ ، يمشى إلىَّ

---

(١) البُدّ : الصنم الذى يُعْبَد ، وهو فارسى معرّب .

(٢) الجران : باطن عنق البعير ، واستعاره الشاعر للسخرية .

(٣) الحضجر : العظيم البطن الواسعه ، وهو حرف ساخر الجرس والحركة .

كأن أيّامه تطوفُ به ثاكلاتٍ نائحاتٍ ، يغض طرفه كأنما يُمسك عبرةً همَّتْ هاربة من الأسر ، يطأطئ هامته كأنما يقول للزمن : تَخَطَّ ، فلم يبق بينى وبينك عَملٌ أيها الجبّار ، يستكين حتى لإخاله يجمعُ أطرافَ نفسه لا يزاحمُ أفراحَ الناس بما يريدُ أن يتنفَّسَ من أحزانِه .

لك الله يا ابن أبى عتيق ! لقد كانتْ لك كالجدول النّامى النمير : هو سرُّ الأرض ، وسرُّ العود ، وسرُّ الزّهر ، وسرُّ العطر ؛ فلما جَفَّتْ عنك همدت أرضُك ، وظمئ عودُك ، وصوَّحَ [1] زَهرُك ، وتهاربَ عطرُك ... زوجةٌ كانت تستودع روحك مع كل شارق ، ما تتملَّى به أفراحك ولهوك ودُعابتك ، فتخرج إلى أحبابك لتحمل عنهم همومهم فتغرقها فى ذلك البحر الخِضَمِّ من الفرح والابتسام والرضى !

* * *

ودخل ابن أبى عتيقٍ فسلَّم سلام الذاهل المتوَلِّه ، ثم جلس كأنما هو يلقى عبئًا ثقيلًا كان يمشى به ، ثم نَظَر فى عينىَّ بعينين نديَّتين ترى فى غَوْرهما ذلك التنُّور المتضرِّم يتقاذفُ شُعَلَه فى ثنايا النفس وفى مسارب العاطفة . وأدامَ النَّظر لا يرفعه عنى كأنما يقول : انظرْ واعرفْ ولكن لا تتكلَّم ! فأشهد أنى افتقدتُ ما أقولُ أعزِّيه به أو أُرفِّه عنه ، بل كأنما أفرغَ بعينيه فى عينىَّ من أحزانه ، حتى أرانى أجد مسَّ النار فى صدرى وهى تستعر .

ولكنى خفتُ على صاحبى ورفيقى إن أنا سكتُّ له ، أن أكون قد خلَّيت بينه وبين همِّه ، وإن أحدنا لو قَعَد يمارسُ أحزانه يومًا بعد يوم لصرعتْه . أجلْ ! وإن الحزن ليهجُم على النفْس كالسَّبُع الضارى ، حتى إذا عَبَر إليها وقف يستأنس متلفِّتًا يريد ما يختلج أو يتحرَّك ، فما هو إلا أن يُهوِى إليه فيبطش به ، أو ينشِب فيه براثنه ينفُضه ثم يقضقضُه حتى يهمَد ، وإذا خُلِّى السبع لا يُذَاد ولا يُطْرد يبقى حتى يتأبّد ويستوحش . ولا يزال على عادته يستمرئُ كل ساعة فريسته يغمس فى دمها أو يَلِغُ ، ثم لا يكفُّ حتى تكفَّ الحياة عما ينبض أو يتنفَّس .

---

(١) صَوَّح : جَفّ وييس .

وأخذْت أزوِّر له الأحاديث فى نفسى . فلما هممت بها لم أقل إلا ما يقول الناس : عزاءك يا أبا محمد ! فوالله كأنما هِجْت بها الطير الجثوم ، وظل وجه ابن أبى عتيق يروح الدم فيه ويغدو ، وجعلت عيناه ترسلان على نظراتهما الدمعَ الذى لا يسفح ، والعَتْب [(١)] الذى لا يتكلم ، وظلّ صامتًا ، وراحت نفسى تنخزل عما أقدمت عليه ، ولكنه لم يلبث أن زَفَر إلىّ زفرةً خلت فى نفثاتها شررًا يتطاير . ثم قعد يتململ حتى قال :

إن أيامى - يا أبا الخطاب - قد استحالت تيهًا أمشى فيه على مثل هذه الجَمَرات ، ولقد كنت مما عَهِدتُنى ، والأيام من حولى عُرْسٌ لا أعدم فيها ما أُطربُ له . كنت إذا ما حَزِن بعض أيامى ، أجد من أفراح الماضى ما أهرب إليه بالذكرى ، وأتوهَّم من نشوة الآتى ما أترامى إليه بالأمل ، فكنت أعيش بفرحةِ أحضرُها أو تحضرُنى ، لا أخاف ولا أجزع ولا أتوهم فى الحياة إلا الخير . فأنا وقد أبتْ بغتات القدَر إلا أن تنتزع من كَفَّىَّ ماكنت أضنّ عليه ، فهيهات لها بعد اليوم أن تطيقَ انتزاعَه من فكرى . آهِ ... آهِ ياعمر ! كانت مِلْء عينى وروحى وقلبى . كنت أعيش تحت نسيمها كالنشوان ذاهلًا عن الألم مهما أمضّ ، مستصغرًا للكبير وإن فَدَح ، راضيًا باسمًا متحفِّفًا [(٢)] ... إذ كانتْ هى هى الأمانىُّ تتجدَّد مع أيامى علىّ وتتبلّج مع كل فجر فى قلبى ، ماكنت جزوعًا ولقد جزعت ! كيف قلت : عزاءً يا أبا محمد ! ها الله يا ابن أبى ربيعة .

كيف صَبرى عن بعض نفسى ! وهل يَصْبِرُ عن بعض نفسه الإنسان ؟

كانت بينى وبين الدنيا ، وكانت آية الرفق والفرح ، فكنت أرى الدنيا بعينيها مشرقةً من تحت غياهب الأحداث ، فالآن إذ نامت عنى ، كيف أرى إلا قِطعًا من الليل تغتالنى من كل وجه ، أو أشلاءً من الدياجى تجثم لى بكل سبيل ؟

ثم رأيت فى عينيه الملَل وهو يطوى على نظراته ما نَشَرتْهُ الحياة من همة

---

(١) العَتْب : الغَضَب .

(٢) متحفف : لم أجد هذا البناء فى المعاجم ، ولعل أستاذنا نحته من حَفّ ، بمعنى مَرَّ ، يعنى يمشى على رِسْله مهتزا طربا .

النفس ؛ وتخيلته – حتى كدت أتبينه – شبحًا ينساب فى ظُلمة الليل فردًا قد انخلع من الحياة وأسبابها ، فهو يضربُ فى حَشا الظلماء بسآمةٍ لا تهتدى ولا تريد أن تهتدى ، وقد كدت مما شجيتُ له أن أدع إليه الحديث حتى يَستتِمَّه ، ولكنى أعرف فى قلبه الرقَّةَ ، فخشيتُ أن يَمضِى به الحزن على غُلَوائه ، فقلت له :

مَهْ مَهْ يا أبا محمد ، والله ما أنكرتك منذ عرفتك ، ولكنى اليوم منكر لك أو كالمنكر ؟ أليس لك فى إيمانك وإيمان آبائك معتصم أيها الشيخ ؟ ما إسلامُك النفس للجزع وما غلوُّك فيه ؟ إن امرأً يؤمن بالله واليوم الآخر لخليق أن يستكين إلى قضاء الله استكانة الوليد إلى أمه . وإن أمرًا يختاره الله لامرئ هو أهدى سبيليه لا رَيب ، شَقِى بذلك أم سَعِد ، وما يمسك النفس على أحزانها للأمر من قدر الله إلا الشيطان . خبِّرنى يا أبا محمد ! هل ابتُلِىَ الناس فيما ابتُلوا به بما هو أفظع من فجيعتهم برسول الله ﷺ ؟ كلا ! فقد حزن الناس حتى أخذتهم آخذة ، وحتى أنكر أحلمهم حلمه ، وحتى إن بعضهم ليوسوس ، فقام إليهم جدُّك الصديق فرد الناسَ إلى أحلامهم ، وهو أشدهم حزنًا على صاحبه ورفيقه ؛ فعلَّم الناس أن الحزن للقلب وحده ، وأن العقل والجوارح إنما هى للعمل ، وأن هذا هو طريق الإيمان بالله وبقضائه : خيره وشره ، أفأنت من يَجور عن سنة الله وسنة المهتدين من آبائه يا أبا محمد ؟ كنتَ المرءَ الصالحَ الذى يرى الدنيا بعينىْ زائلٍ ، فما بالك اليوم تراها بِعَيْنىْ متشبث قد أنشب فيها أمثال البراثن من عقله وفكره ، فهو يتأبَّى أن يدور فى وهمه أنه مفارقها ؟

قال ابن أبى عتيق :

حنانيك ياعمر ! فوالله ما تعلمنى يا ابن أبى ربيعة إلا ما علمت . لقد عَجمتْ[1] منى الحوادث صخرة مُلمْلمة لا تضرع . كم سخرْت من الدنيا وأحداثها ، فجعلْت أطويها فى دُعابتى طَىَّ المُلاءة ! كنت أتخفَّفُ منها بنشوة

(١) عجمتنى : اختبرتنى فوجدتنى صلبا ، وأصله من عَجَم العود ، إذا عَضَّه لينظر أَصُلْبٌ هو أم رِخْو ، ثم استعاروه للشدائد .

أُحْدثها فى قلبى ، فلو كان عليه مثل الجبل من الهمِّ لطار فيها كما تطير خافية [١] من جناح ، ولكنى اليوم ... آه ! لقلَّ ماجرَّبتَ ياعمر ! أسلمتُ لله مُقْبِل أمرى ومُدْبِرهُ يصرِّفه كيف شاء . ولكنى أجدُ هذا القلب المُعَنَّى لا يزال يخفق بالذكرى ، أفأنت منكرٌ علىّ ياعمر أن أذكرها نسيمًا رَفْرَفَ بين الجوانح والقلب ؟ أنَّى لى أن أَلوِىَ النفس عن آثارها ، وما أكاد أرى شيئًا إلا خلته يحدثنى حديث الثاكِل : أنينٌ وحنين ؟ فأين المهرب ؟ دع عنك يا أبا الخطاب ! أَأَراكَ تَلْحانى [٢] على الجَزَع ، وما على ظهرِها أشقى ممن يُصبح ليفتقد فى نهاره حُلمًا ضَلَّ عنه مع الفجر ؟ كم خلوت إلى هذه النفس ألومُها كالذى تلوم ؟ وكم وقفت على هذا القلب أذكّره ما يذكرُ الناس منى ، فإذا الذى كان بالأمس قد أصبح وكأنه أديمٌ مرقوم قد تَفَرَّى [٣] عاثَ فيه البلى فمحاه . أريد ، ويالضلَّتى فيما أريد ! أنا كالسارى فى لُجّة الليل يلطم فى سوادها ، قد أضاع لؤلؤة يَبحثُ عنها بين الحصى والرمال ! ... لن أعودَ إلى الناس حتى أجد لؤلؤتى ياأبا الخطاب... لن أعود .

ورأيتُ الرجل ينتفض انتفاضة المحموم من هول مايجد ، فَرَحِمْته ، ولكنى آثرت أن أدور على بُنَيّاته ، عسى أن يَأْوِى لهن [٤] فيؤوب إلىّ كبعض ماكان ، قلت :

ظلمتَ نفسَك يا ابن أخى فظلمت من لا يلوذ إلا بظلك صغيراتٌ ضعيفات ضائعات : فمن لهن بعدك ؟ لو كنتَ وشأنك لهان الأمر ، ولكنك استُحْفِظتَ من لا يحفظه بعد الله إلا رحمتك ، ومن لا يغذوه بعد الطعام إلا حديثك ، ومن لا يضئ له وجه الدنيا بعد النهار إلا ابتسامك ، ومن إذا أهمل ضاع عليك ضيعة الأبد . إنهن بناتُك منها وبناتُها منك ، فوالله ماتذكرها ذِكرًا فى شىء هو أكرم وأحب وأرضى عندها منهن ، أجْمِلْ يا أبا محمد ، أجْمِل ! فرفع إلىَّ رأسه ونظر ، ثم ربا صدره بالزفرات وهو يقول :

---

(١) الخافية : الريشة تكون فى مؤخر جناح الطائر ، وهى لينة ضعيفة .

(٢) لحاه : لامه وعذله .

(٣) مرقوم : مُزَيّن مُوَشّى . تَفَرّى : تَشَقّق وتقطّع .

(٤) أوى له : رقَّ له ورحمه .

لقد كنت أخشى لو تمليتِ خشيتى !
عليكِ الليالى كرَّها وانفتالَها

فأما وقد أصبحتِ فى قبضةِ الرَّدَى
فشأن المنايا ، فلتُصِب من بَدَا لها

... لولا علمتَ ياعمر ! كيف - بربك - كنتَ ترانى أحبوهنَّ من قلبى خفقات لامعات باسمات ؟ كنتُ لو أطقتُ أن أجعل قلبى بينهن لهوًا يَتَلَعَّبْنَ به لفعلت ! فانظر إليك ماذا ترى ؟ ما شيء أجتلب به على قلبى ألمًا كنوافذ الإبر إلا رؤية هؤلاء الصغيرات الضعيفات الضائعات ، وإن إحداهن لتعدو إلىَّ تستأوى فأحملها ، فكأن قد والله حملتُ بها صخرة مسرفة [1] يُعيى حملها ، لولا بقية من رحمةٍ - ياعمر - لنفرتُ عنهن نفرةً واحدة لا أراهن ولا يريننى .

أفزعنى والله الرجل ، ولكنى فهمت عنه ما يأتى به . إنه لا يزال يراها بعينيه تحول بينه وبين صغاره . إنه يريدها ويريدهن جملةً واحدة ، فإذ ذهبت هى ، فكأنما ذهب منهن الذى كان يراه فيهن . يرحمك الله يا ابن أبى عتيق ! فأما إذ بلغ به حبها هذا المبلغ من اليأس ، فلا والله ماينجيه إلا أن يُحْتال ، فقلت له :

أأراك أُنسيت ذكر ربك يا أبا محمد ! أتُرانا نعيش فى هذه الأرض إلا بما نرجوه عند الله فى غيب الله ؟ فلولا مانمثله فى أنفسنا من الرجاء ، مانبض لامرئ عرقٌ مما يأخذُه من السَّأم . وأنت ، أفيغبى [2] على امرئ فى مثل عقلك أن يجعل من مفقودٍ يحبه رجاءً يستمسك به ؟ انظرها يا ابن أبى عتيق بين عينيك ، ولا تدع البَدن الراحل يَغلبُك على ما يحضرُك من روحها . إنك بعينيها ماعشت ، فلا تحسبنَّ أحزانك التى تبتغى أن تتسلَّب بها فى حياتك ، تجعلها تنظر إليك راضية مطمئنة .

لا تشكَّنَّ يا ابن أخى ، فوالله إن الجسد ليذهب إلى البلى ، وإن الرُّوح

---

(١) كذا فى الأصول . وظنى أن الصواب بالشين المعجمة ، أى ضخمة .

(٢) غَبِىَ الشيءَ وغَبِىَ عنه : لم يفطن له .

لتخلد ، فما تُرْضِى من يحبُّك بأمثل من أن تكون فى غيْبِه ماكنت فى مَحْضَرِه : « إن القلب ليحزن ، وإن العين لتدمع ، ولا نقول مايغضب ربنا » وصدق رسول الله [١] . وما ذلك إلا أن نقصر الحزن ، وأن نجعل أقوالنا وأفعالنا مرضاة لمن نحب وطاعة . ولا تستطيلنَّ ما بين الحى والميت ، فإنما هى ساعات قلَّت وإن أطلت لها . يا أبا محمد ! أرض ربك وأرض صاحبتك ، واجهد أن تكون كما أحبت لك ، فإنك عن قليل تلقاها ، فلا يلقاها منك إلا ما تعرفه دون ماتنكره ...

* * *

---

(١) قال ذلك عندما مات ابنه إبراهيم .

الطريق إلى الحق

كتب الأخ الصديق الأستاذ محمد مندور كلمة فى البريد الأدبى الرسالة (٤٨٨) بعنوان « اللغة والتعريب » ، عرض فيها مسألتين : إحداهما : مسألة الصواب والخطأ فى اللغة ، والأخرى : هو عنصر الثبات فى اللغة كما سماه . وقد دفعه إلى الحديث عنهما ما كان من تخطئة الأب أنستاس الكرملى إياه فى حرف من اللغة استعمله فى كلامه ، وهو « عثرت بالشىء » وهو يريد « عثرت عليه » وأحبُّ أن أقدم بين يدى كلامى بعضَ ما أعرفه عن « مندور » ، قد كنا زميلين فى الجامعة ، فكان أحد الشبان الأذكياء المدقّقين . وإن فيه من ثورة النفس ما أرجو أن يبقى له على الشبابِ والهَرَم . ثم عرفته من بعدُ مطلعا حريصًا على العلم قليل العِناد فيما لا خطر له ، ثم هو لا يزال يدأب إلى الحق فى غير هوادة ، فكل هذه الصفات تجعله عندى غير متعنّتٍ ولا مكابر ، ولكنى رأيت الأب أنستاس قد سلك إلى « مندور » طريقًا ، فاندفع كلاهما يطاعن أخاه بعنفٍ لا يهدأ . وأنا لا أحبُّ أن أدخُلَ بين الرجلين فيما هما بسبيله ، ولكنى أحرصُ على أن أدلَّ « مندورًا » على الحقّ الذى كنا ولا زلنا نميل إليه بكُلّ وجهٍ ، ونسعى إليه فى كل سبيل .

وينبغى لى أن أعرض للكلام على الفرق بين الحرفين « عثرت به » و « عثرت عليه » قبل أن أتحرّى إلى « مندور » طريق الحقّ فى المسألتين اللتين ذكرهما فى كلامه .

فأصل اللغة فى هذه المادة « عَثَر يعْثُر عَثْرًا وعِثَاراً » ، وهو فِعْل لازمٌ لا يتعدَّى إلى مفعولٍ ، ويَأتى هكذا غير مصاحب لحرفٍ من حروف الجرّ . ولكلِّ فِعلٍ فى اللغة مَعْنًى يقومُ بذاته ، ودلالاتٌ يقتضيها بطريق التضمُّن أو الالتزام .

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٤٩١) نوفمبر ١٩٤٢ ، ص : ١١٠٣ - ١١٠٦

فقولك « عثر الرجل » معناه « تهيأ الرجل للسقوط » : فالمراد بالفعل هو حدوث « حركة سقوط » الرجل ، ولا يقصد به السقوط نفسه ، أى أنه يدل بذاته على الحركة التى تسبق السقوط . وأما الدلالات التى يقتضيها الفعل فأولها : سبب حركة السقوط ، وهذا السبب عقلى محض يتضمنه الفعل ويقوم فيه مقام الفاعل « كالحجر » مثلًا . وثانيها : الفعل الذى فعله هذا السبب وهو « الصدم » ، وثالثها : الحالة التى تلحق الرجل من جرَّاء اصطدامه وهى التنبه والتماسك قبل السقوط . أما الدلالة الرابعة ...

فلو شئت أن تفسر « عثر الرجل » لقلت : « صدم الحجرُ الرجلَ فكاد يسقط » ، فكأن « عثر » قامت مقام الكلمات « صدم الحجر ... فكاد يسقط » . وأنت ترى أن « الرجل » هنا هو الذى وقع عليه الفعل (أى المفعول به) ، لأنه هو الذى صُدم فكاد يسقط . فلما كتم هذا الفعل « عثر » فاعله الحقيقى – وهو الحجر مثلًا – ، وكتم « الصَّدم » الذى هو فعل الفاعل الحقيقى ، نسب فعله إلى الرجل ، مع أنه ليس فاعلًا بل مفعولًا به . فهذا يدل على أنه ليس مريدًا للفعل (وهو العثرة) ، كما يكون مريدًا للفعل فى قولك : « قام الرجل » إذ أنه مريد هنا للقيام . وشبيهٌ به قولك : « مات الرجل » و « نام الرجل » ، فالرجل هنا – على أنه « فاعل » فى عبارة النحاة – ليس فاعلًا فى حقيقة المعنى بل هو « مفعولٌ به » لأنه غير مريد فى حالة الموت أو النوم .

فإذا صح لديك أن الرجل غير مُريد للعثرة فى قولك « عثر الرجل » ، رأيت الدلالة الرابعة لهذا الفعل وهى أن الشىء الذى فعل العثرة – وهو الحجر مثلًا – كان صغيرًا لم يتبيَّنْه الرجل ، أو لم يتوقع وجوده فى المكان الذى كان فيه ، فلذلك كاد يسقط على غير إرادة من الرجل لذلك .

وإذا تأملت قليلًا رأيت أن قولك « عثر الرجل » لا يراد به الإخبار عن حدوث الصدم ، بل المراد أن تصور هيئة الحركة التى جاءت بعد الصدم ، وهى حركة السقوط . ولذلك بنى مصدرها على هيئة المصادر التى تدل على عيوب الحركة فى أصل الخلقة كالتى تكون فى الدابة وغيرها من كل ما يمشى أو يتحرك .

وذلك هو وزن « فِعال » كالشِّماس ، والجماح ، والنفار ، والشراد ، والهياج ، والطماح ، والحران ، والعضاض ، والخراط ، والضراح ، والرماح ، والفرار . فأنت ترى من ذلك أن المصدر قد نظر فيه إلى أن المراد فى الفعل هو حركة السقوط لا الصدم ، فإن الصدمة ليست عيبًا ، وإنما العيب فى هيئة الحركة . وكثيرًا ما يستعمل العثار للخيل يقال : « عثر الفرس » أو غيره من الدواب .

هذا ... وحروف الجر التى تأتى لمصاحبة الأفعال إنما تأتى لمعان يتعين بها للفعل معنى لم يكن ظاهرًا فيه قبل دخولها ، بل ربما اضطر الحرفُ الفعلَ أن ينتقل من الحقيقة إلى المجاز ، لذلك تسمى حروف المعانى .

ثم إن كل حرف من هذه الحروف له معنى أصلىٌّ يقوم به ، ثم تتفرع منه معان أخرى لا تزال متصلة إلى المعنى الأول بسبب . فالباء مثلًا هى فى حقيقة معناها تدل على إلصاق شىء بشىء أو دنوه منه حتى يمسه أو يكاد . ففى قولك « ألصقت شيئًا بشىء » تقع الباء فى معناها الأول وهو الإلصاق الحقيقى . وفى قولك « مررت بزيد » تكون مجازًا لأنها تدل على الدنو والمقاربة الشديدة ، كأنك ألصقت مرورك بالمكان الذى يتصل بمكان زيد . وينتقل الحرف من معناه الحقيقى إلى معناه المجازى بدليل من الفعل الذى يشترك معه فى الدلالة . ولذلك تخرج من معناها الحقيقى إلى معنى السببية أو التعليل أو المصاحبة أو الاستعانة مما يذكر فى باب معانيها ، ولكنها فى جميع ذلك تدل على الإلصاق الحقيقى أو المجازى .

فإذا جاءت الباء بعد فعل يقتضى معناه بذاته أو بدلالته معنى من الإلصاق ، تعين لها أن تكون واقعة فى معناها الحقيقى ، ويكون دخولها مبالغة فى إظهار معنى الإلصاق . وذلك كقولك : « أمسكت الشىء » ، و« أمسكت بالشىء » فالباء هنا تزيد فى معنى الفعل تقوية الإمساك إذ أن الإلصاق مما يدل عليه هذا الفعل بدلالة التضمن أو الالتزام .

فإذا قلت « عثر الرجل بحجر » فمعناه كما بيَّنا آنفًا « صدم الرجلَ حجرٌ فكاد يسقط » . والباء قد دخلت على الفاعل الحقيقى للعثرة وهو « الحجر » ، فهى إذن

مكملة لمعنى الفعل ، ولم تأت لتعدية الفعل إلى مفعول ، كالذى يكون فى قولك « ذهب الرجل » و « ذهب الرجل بمحمدٍ » .

فإذا كان الفعل دالًا بالتضمن على الصدم ، والصدم يقتضى الإلصاق ، وجاءت الباء مكملة لمعنى « عثر » تجرُّ وراءَها الفاعل الحقيقى للصدم ، فالباء إذًا ستزيد فى معنى الفعل ، وذلك بأن تُظْهِر الصدم - المقتضى للإلصاق - بعد أن كان مكتومًا فى الفعل ، ويُقوِّى ذلك أيضًا ظهور الفاعل الحقيقى للعثرة بعد أن كان مكتومًا فى « عثر » .

فقول الأستاذ (مندور) إنه أراد بقوله « عثرت بالشىء » أنه لاقاه اتفاقًا غير ممكن ، لأن الباء وافقت الفعل فزادت فى الإبانة عما يضمره من دلالة « الصدم » الحقيقى ولم يكن فيها من المخالفة مايحمل هذا الفعل على الميل إلى المجاز (أى إلى الصدم المجازى) . وليس من شك فى أن قوله « لاقاه اتفاقًا » مجازٌ فى تأويل « عثر بالشىء » ، فإذا كانت الباء إنما تزيد حقيقة الفعل قوة وبيانًا ، فكيف إذن تصيرُ بعد ذلك مجازًا بغير عامل يحملها إلى المجاز ؟

وقد يستخدم مع هذا الفعل حرف آخر هو « فى » ، فتقول « عثر الرجل فى ثوبه » إذا كان واسع الثوب طويل الذيل ، فهو يطأ بعض ذيله كلما مشى ، فتشد الوطأة الثوب عليه ، فيميل كأنه يتهيأ للسقوط فيتماسك .

فهذا الحرف « فى » يدل فى أصل معناه علي الظرفية الزمانية أو المكانية ، وينسحب بها على سائر معانيه . وهو بذلك يدلُّ على استقرار لا على حركة كالحركة التى تكون فى الإلصاق . ولما كان الفعل يدل دلالة ظاهرة على حركة السقوط وجاء الحرف « فى » يطالب الحركة بالاستقرار ، أسرع الفعل إليه . وذلك أنه حين يقول لك « عثر الرجل » لم تكد تجاوز تصوُّر حركة السقوط حتى يفجؤك بقوله « فى ثوبه » ، فيطالبك بإقرار هذه الحركة ثم تصورها فى جوف الثوب . وهذه السرعة التى يتطلبها الانتقال تضعف دلالات الفعل التى كان يدل عليها مستقلًا بذاته أى فى قولك « عثر الرجل » مجردا ، وهى كما ذكرناها آنفًا : فاعل حركة السقوط ، وفعله وهو الصدم ، وحالة التنبه والتماسك قبل السقوط ، وعدم التوقُّع أو الاتفاق .

فدخول « فى » على « الثوب » أبعدتْ عن أوّل التصور أن يكون الثوبُ فاعلَ الصدم المؤدى إلى حركة السقوط ، وبذلك أيضًا أضعفت دلالة الفعل على « الصَّدْم » ، إذ أن « الصدم » لا يشبه أن يكون من فعل الثوب ؛ فيتغير ما يتضمنه الفعل « عثر » من الدلالة ، وتضمن وَطْء الثوب المفضى إلى شدِّه .

ولما كان لابسُ الثوب الطويل ينبغى له أن يعلم أن طوله يؤدى إلى وطء ذيله فيعثر ، اختفت من الفعل - إلا قليلًا - دلالة الاتفاق من غير تعمد . ولذلك تستطيع أن تقول « جاء فلان يعثر فى ثوبه » ، ولا تستطيع أن تقول « جاء فلان يعثر بثوبه » ، لأن الأولى قد ذهب منها الاتفاق من غير تعمد ، فجائز أن تستمر ، وأما الأخرى فمحتفظة بالاتفاق من غير عمد ، فهى لا يمكن أن تستمر .

ومع ذلك فهذا الحرف « فى » لم يستطع أن يغير من حقيقة « عثر » لأنه دانٍ منها ، أو هو مستقر لها ، إذ سوف تنتهى حركتها إلى استقراره .

وأما « على » فحرف يدل على الاستعلاء فى جميع معانيه دلالة مطلقة ، والاستعلاء المطلق لا يوجب الإلصاق كما فى الباء ، ولا يوجب الاستقرار كما فى « فى » . فاستعمالها مع « عثر » سيحدث فى معناها أثرًا جديدًا ينقلها من حال إلى حال .

فحين تقول « عثرت على الكرسى » يقتضيك فيها معنى « عثرت » - وهو تهيؤك للسقوط وتماسكك دون السقوط - ألا تجعل معنى « على » استعلاءَ ملاصقًا كما فى قولك « وقعت على الكرسى » ، وذلك لأنك لم تسقط بل كدت ثم تماسكت . وإذن فالحرف « على » هنا يدل على الاستعلاء المطلق الذى يقتضى نَفْى الملاصقة كقولك : « فضلت فلانًا على فلان » .

والاستعلاء المطلق مناقض كل المناقضة لمعنى « الصدم » لأن الصدم يقتضى الملاصقة ، فلما جاءت « على » خلعت عن الفعل « عثر » كل ما كان يتضمنه من معنى الصدم الحقيقى (لا المجازىّ) ، ولما خلعته عن الفعل خلعته أيضًا عن الفاعل (الكرسى) الذى كان فعله الصدم الحقيقى (لا المجازى) . ولكن هذا الفعل لا ينفكُّ من أحد دلالاته وهو « الصدم » سواء أكان حقيقيًّا أم

مجازيًّا ، فإذا خلعت « على » عنه الصدم الحقيقى بقى الصدم المجازى مكتومًا فيه قائمًا مقام الصدم الحقيقى ، وإذا كان ذلك فلا بد من حدوث تغير فى الفعل وفى معناه ، لأن الصدم قد انتقل من معناه الحقيقى إلى معناه المجازى ، والصدم وفاعله سببان فى « عثر » التى تدل على حركة السقوط . فإذا صار الصدم من الحقيقة إلى المجاز - وهو أحد مقومات حركة السقوط - فلابد من أن تصير « عثر » إلى المجاز أيضًا لأنها صارت مسببة عن مجاز .

فأنت ترى أن هذا الفعل لم ينقله من الحقيقة إلى المجاز إلا حرف واحد هو « على » الذى يدل على استعلاء مطلق يناقض معنى الصدم الحقيقى الذى كان ثابتًا فى الفعل بدلالة التضمن أو الالتزام .

وعلى ذلك لا يزال هذا الفعل مع « على » يدل على حركة السقوط المجازية ، ويتضمن بدلالة الالتزام فاعل هذه الحركة ، وفعله وهو الصدم المجازى ، ثم حالة التنبه والتماسك قبل هذه الحركة ، ثم عدم التوقع أو الاتفاق ، وهذا بعينه ما يريده الأخ « مندور » بقوله فى تأويل « عثرت به » أنه لاقاه اتفاقًا .

وانظر الآن إلى سليقة هذه اللغة فإنها إذا كانت قد جعلت مصدر « عثر وعثر به » و « عثر فيه » عِثارًا بوزن « فِعال » الدال على عيوب الحركة ، أو على الحركة نفسها : كالمِزَاح والضِّرَاب والنِّزَال ، والصِّرَاع ، فإنها تجعل مصدر « عثر عليه » عثورًا على وزن « فُعول » الذى يدل أكثره على مجرد الحركة ، كالنزول ، والسقوط ، والقعود ، والجلوس ، والشرود ، والنفور ، والجموح ، والطموح ؟ وبذلك خالفت بين المصدرين مع اشتراك الوزنين فى معنى الحركة ، لأن الفعل انتقل من الحقيقة إلى المجاز .

وفى الآيتين من كتاب الله : المائدة (١١٠) ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ ، وآية أصحاب الكهف (٢٠) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ جاء الفعل بالمعنى المجازى الذى يقتضى حركة السقوط المجازية ، والصدم المجازى ، وحالة التنبه والتماسك قبل حركة السقوط . وعدم التوقع أى الوقوف على الشىء بغير طلب أو بحث أو كشف .

ولكن الأخ مندور يقول : « ولم أرد (العثور عليه) أى الإطلاع الذى يدل على علم ومعرفة وبحث وجهبذة لا أدعيها » . والذى أوقعه فى هذا التأويل قول أصحاب اللغة « عثر على الأمر عثورًا » اطلع ، فتفسيرهم مقصر عن الغاية كل التقصير لأنه يدل على جزء واحد من الدلالات التى يتضمنها الفعل ، وهى حالة التنبه التى تلحق الرجل من الصدمة فينظر ويتبين ما صدمه ، وأهملوا بقولهم (اطلع) المعنى الأصلى للفعل « عثر » وهى حالة السقوط المجازى ، والصدمة المجازية ، وعدم التوقع . وهذا نقص مخل فى عبارة كتب أصحاب اللغة .

وأنا أقرر أنَّ أكثر ما فى كتب اللغة عندنا من تفسير الألفاظ إنما هو تفسير مخل فاسد ، لأنه قد أهمل فيه أصلِ الاشتقاق ، وأصل المعنى الذى يدل عليه اللفظ بذاته كما رأيت هنا . وإذا أُهْمِل هذان فقد اضطرب الكلام واضطربت دلالاته ، وأوقع من يأخذ اللغة بغير تدبر فى حالة من التعبد بالنصوص كتعبد الوثنى للصنم . وأيضًا فهو يوقع بعض النابهين من الكتاب فى أوهام ليست من الحق فى شيء ، يحملهم عليها تكرار هذا التفسير الفاسد فيسلمون به على غير تبين ، كما رأيت فى تفسير قولهم « عثرت عليه » أنه « اطلعت عليه » ، فإنك حين تقول : « عثر على الكلمة فى الكتاب » فلست تقولها إلا حين تريد أن تصور الكلمة كأنها فاعل الصدم ، وتصور رؤيتها كأنه صدم لك ، وهذا الصدم يستدعى تنبهك فتتماسك وتنظر إلى ما صدمك ، وإن هذا كله كان بغير طلب أو بحث وإنما جاءك اتفاقًا على غير تعمد كان منك .

هذا وأنا لم أقصد ببحثى هذا إلى اللغة ، بل قصدت إلى الدلالة على طريق الحق إلى فهمها . وأحب أن أظهر من يقرأ كلامى هذا على أننى لا أجعل مفردات اللغة كل الهم فى عملى أو عمل غيرى . ويقينى أن أكثر من يطيق التدبر والتأمل يستطيع أن يصل إلى فهم اللغة فهمًا صحيحًا نافعًا معينًا على حسن العبارة ودقتها فى البيان عن المراد ، وهو لم يتكلّف إلى ذلك إلّا قليلًا من الجهد وأحسبنى قد سلكت إلى أخى مندور طريق العلم إلى غاية الحق ، وهى غايته التى أعلمه لا يعمل إلّا لها ، وسواء عليه بعد ذلك أكان الحق له أم عليه .

أما مسألة الخطأ والصواب فى اللغة ، ومسألة عنصر الثبات فيها ، فنتركها إلى العدد التالى من الرسالة ، ولأخى مندور تحيتى وشكرى .

* * *

أدباء ... !

قرأت فى مجلة الثقافة العدد «٢٠٩» كلمة تحت عنوان « الصحافة والأدب فى أسبوع » ، فرأيت كتابًا من صديقى الشاعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل إلى صديقى أيضًا ... الأستاذ (ق) . وفى هذا الكتاب ذكْرُ بعض أصحابنا وذكرى ، ويصفنا الصديق الأستاذ الشاعر بصفات جميلة محببة كاللجاج ، والتهاتر ، والكسل ، والجبن ، والغفلة ، والتخلف عن سير الزمان ، ويدعونا إلى ملازمة الصمت على رفوفنا الجامدة حتى يتحرك بنا أو ينسانا الزمان ! ... وهو كذلك

لا أدرى ! فقد سمعت أن الأوائل قالوا : « عقل المرء مخبوءٌ تحت لسانه » ، وأنهم قالوا :

إذا لم يكن للمرءِ عقْلٌ يَكفُّه
عن الجهل ، لم يَسْتَحْيِي وانهتَكَ الستر

وللصديقين منِّى تحية المخلص المعجب بأدبهما وبيانهما .

* * *

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٤٩٦) ، ١٩٤٣ ، ص : ١٩

من مذكرات ابن أبي ربيعة

جريرة ميعاد

« قال عمر أبي ربيعة ... » : ركبتني الحمى ثلاثا حتى ظننت أن الله قد كتب عليّ أن أذوق حظى من نار الدنيا قبل أن أردَ على نار الآخرة . وكنت أَجِد مسها كلذع الجمرات على الجلد الحيّ ، وأجدنى كالذى وضع بين فكّيْه ضرسًا من جبل فهو يجرشه جرش الرَّحى ، وظللت أَهْذِى وابن أبي عتيق يتلقف عنى ماكنت أسِرُّ دونه ، حتى إذا قَصَرتْ عنى وثاب إلى عقلى قال ابن أبي عتيق : ويلك ياعمر ! والله لقد فضحتها وهتكت عنها سترها ؛ أما والله لو قد كنت أخبرتنى قبل الساعة لاحتلت لها ، ولوقيتها مما عرضتها له . قلتُ : ويبَك يا ابن أبي عتيق ! من تعنى ؟ قال : من أعنى ؟ مازلت منذ الساعة تهذى باسمها غير معجم ! إنها الثريا ، واليوم ميعادها ، ولقد مضى من الليل أكثره ومابقى منه إلا حُشاشة هالك !

ووجم الرجل واعترانى من الهم ماحبب إلى الحمى أن تكون خامرتنى وساورتنى حتى قضت على ، وطفقتُ أنظر بعينىّ فى بقايا الليل نظرة الثكلى ترى فى حواشى الدُّجى طيف ولدِها وواحدِها . وتمضى الساعات علىّ كأنما تطأنى بأقدام غلاظ شداد لم تدع لى عضوًا إلا رضَّتْهُ . وابن أبي عتيق يذهبُ ويجيء كأنما أصابه مس فهو يرمينى بعينه صامتًا يتحزّنُ لما يرهبُ من فجاءات القدر بى وبها . ثم أقبل على يقول : خبرنى يا عمر أين واعدتها من داركَ هذه ؟ فوالله لكأنما ألقيِ فى سمعى لهبًا يتضرَّمُ ، فلم أسمع ولم أُبصر ودارت بى الأرض ، فما أدرى بم أُجيب ، فلقد واعدتها منزلًا كنتُ أحتفى به لميعادها ، قد استودعته سرى وسرها ، فما أدرى ما فعل به أهل الدار ، وقد ربضتْ بى الحمى بمنأى عنه . ولا والله ماشعرت أن الفجر قد صدع حتى سمعت الأذان كأنه ينعَى إلىّ بعض نفسى ، فما تماسكت أن أنتحبَ . وابتدر إلى صاحبى يكفكف غَرْبَ [1]

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٥٥٠) ، ١٩٤٤ ، ص ٦٩ - ٧٢

(١) غَرْب كل شيء : حَدُّه .

أحزانى . وقال : خَفِّض عليك ياعمر ، فإن هذا يهيضُك إلى ما بك . وما تدرى لعل الله يحدث بعد عسر يسرا . قم إلى وضوئك أيها الرجل ، واستقبل بوجهك هذه البنية ، وادع الله جاهدًا أن يستر ما هتكت ، فإنهنَّ النساءُ لحمٌ على وضمٍ إلا ما ذُبّ عنه [١] .

فما كدتُ أفرغُ من صلاتى حتى جاءت جاريةٌ صغيرةٌ تعدو قد أنزفَها الجرى ، ورمتْ إلىّ كتابًا فى سَدَقةٍ من حرير يفوح منها العطر ، وقالت : سيدتى تقول لك : فى هذه شفاءٌ من داء . واستدارت وانطلقت تسعى . فنظرتُ وشممتُ ونشرت الحريرة المطوية عن كتاب مطوى طىّ العَجَلةِ ، وإذا فيه : « جئنا لميعادِك ، فإذا شبحٌ نائمٌ فى بُرْدِك فرميتُ نفسى عليه أُقبِّلُه ، فانتبه وجعل يقول : اعْزُبى عنى فلست بالفاسق أخزاكما الله . ودفعنى فعدوتُ أفرُّ بنفسى من فضيحة تنالنى فيكَ وما شعرتُ أنك محموم حتى أنبأتنى بذلك أختى ، فويلى عليك وويلى منك ياعمر ! » . فألقيتُ الكتاب إلى ابن أبى عتيق ، وأستعفى به أن يدبر منذ اليوم ما أتقى به خَبْءَ الليالى ، فنظر إلىَّ بعينين زائغتين من سهر وسهاد وقال : والله ياعمر لكأنى بك قد ركبتَ إلى بلائك وبلاءِ الثريَّا حين قلتَ :

تشكَّى الكُمَيْتُ الجَرْىَ لمَّا جهدته ... وبيَّن لو يستطيع أن يتكلما [٢]

وما أدرى كيف أحتال لك فى أمرٍ قد انفلتت من يديك أعنَّته ، فدعِ الأمر لله يدبره ، ووطن نفسك على الثقة ، ولا تجزع لبغية إن جائتك ، والق من يلقاك بالفضيحة كأتم ماكنت بشاشةً ورضًى وسكينة ؛ فأنت خليق أن تنقذها مما ورطتها فيه . وإياك والتردد ، فإنه مدرجة النكبات . ولقد عهدتك صَنَع [٣] اللسان ، فإن لم ينفعك اليوم لسانك فلا والله لا نفعك . قلت : جزاك الله عنى خيرًا يا ابن أبى عتيق ، ماضرَّنى كتمانى دونك ما أكتم إلا اليوم ، ولو كنت أعلم

---

(١) الوَضَم : الخشبة أو ما شابهها التى يقطع عليها اللحم . وهذه العبارة من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) الكميت : الفَرَس لونه بين الحمرة والسواد .

(٣) الصَّنَع : الماهر الحاذِق .

الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . ويلى من نفسى ثم ويلى منها ! واعلم أنه ما يكربنى أن يلقانى من أحتال له وأصرفه ، وإنما يكربنى أمر الثريا وهى تقضى الساعات قد ألقى الهَمّ فى دمها ناره وفى فكرها ظلمته ، ولا والله ما أستطيع أن أحتال لرسول يُلِمّ بها فيقول لها بعض ما تسكن إليه .

قال ابن أبى عتيق : فهلَّا حدثتنى عنها ياعمر ؟ فلقد صحبتك ما صحبتك وما أدرى من خبر الثريا وأمرها إلا ما أتسقّطه [١] من حديث الناس . قلت : وما تبغى إلى ذلك ؟ أما كفاك ما تعرف من أمر سائرهن ؟ وإنى لأراك كالمنهوم الذى لا يشبع ، فلو كنت مثلى لقلت عسى أن تكون لك فى نفسك حاجة ، ولكن الله عافاك مما ابتلانى به ، فدع عنك الثريا وأخبارها . فورب السموات والأرض وما فيهن ما أمنت على سرها نفسى ، فكيف بى إذا بُحْتُ لك ؟ قال : إذن فصِفْها لى كيف تراها ؟ قلت : أما إنك على ذلك ، لشديد الحرص شديد الطمع . وما تبغى إلى امرأة من النساء تسمع من نعتها وحليتها وصفاتها ؟ لولا أن كنت اليوم شاهدى لما حدثتك بحرف . يقول الناس : ما فعل الله بابن أبى ربيعة ؟ ما زال يمد عينيه إلى كل غادية ورائحة حتى أفضى إلى الثريا ، فتعلق منها بنجم لا يناله وإن جَهِدَ . وإنها لعرضة ذلك جمالًا وتمامًا ، وإنى لخليق أن أفنى فيها نور عينى وقلبى . ويقول الناس : ما الثريا ؟ إن هى إلا امرأة دون من نعرف من النساء حسنًا وبهاءً . وقد والله كَذَّبَتْهم أعينهم ، وإنى لبصير بالنساء خبيرٌ بما فيهنَّ ، ولئن كنت قد عشت تبيعًا للنساء أنقدهن نقد الصيرفى للدينار والدرهم [٢] فأنا أهل المعرفة أحقِّق جيادها وزيوفها بأنامل كالميزان لا يكذب عليها ناقص ولا وافٍ .

ما يضيرك يا ابن أبى عتيق أن ترى الثريا أو لا تراها ، فإنك لا تراها بعينىَّ ، وإنما أنت من الناس تضل عن جمالها حيث أهتدى إليه ، وتسألنى كيف أراها ؟ فوالله إن رأيتها إلا ظننت أنى لم أرها من قبل ، فهى تتجدد فى عينىَّ وفى قلبى مع كل طرفة عين ، ولئن نعتها لك فما أنعت منها إلا الذى أنت واجده حيث سِرْت

---

(١) تسقّط الحديث : أخذه شيئا بعد شىء .

(٢) نَقْد الصيرفى للدينار والدرهم : تمييزه لما هو صحيح ولما هو زائف .

عن النساء : غادة كالفنن [١] الغَضّ يميد بها الصبا وسكر الشباب ، لم ترْبُ رَبْوَة الفارعات [٢] ، ولم تجف جفوة البدينات ، ولم تضمر ضمور المهزولات ، ولم تُمسح مسحة الضئيلات [٣] ، ولم تقبض قبضة القصار القميئات ، فتمَّ تمامها بضَّة هيفاءَ أُملودًا [٤] ، خفاقة الحشا هضيمة الكشحين مهفهفة الخصر ، تتثنى من اللين كأنها سكرى تترنح . فلو ذهبت تمسها لمَسْست منها نَعمة وليانًا وامتلاء ، قد جُدِلَت كلها جَدْل العصب ، فهى على بنانك لدنة تُرْعد من لُطفها واعتدالها . وانظر بعينى يا ابن أبى عتيق ، تُبصر لها نحرًا كذَوْب الفضة البيضاء قد مسها الذهب ؛ فلا والله ماملكت نفسى أن أعب من هذا الينبوع المتفجر إلا تُقًى لله أن أدنِّسه بشفتين ظامئتين قد طالما جرى عليهما الكذب والشِّعر . أما وجهها فكالدرة المصقولة لا يترقرق فيه ماء الشباب إلا حائرًا لا يدرى أين ينسكب إلا على نحرها الوضاء ، يزينه أنف أشمُّ دقيق العرنين لطيف المارِن [٥] ؛ فإذا دنوت إليها فإنما تتنفس عليك من روضة معطارٍ أو خمرٍ معتقةٍ ، فاذهب بنفسك أيها الرجل أن تزول عن مكانك كما يقول صاحبنا جميل :

فقام يجرُّ عطفية خُمارًا ... وكان قريب عَهْدٍ بالمَماتِ

ودَعْ عنك عينيها يارجل ، فلو نظرتْ إليك نظرة لَوَجَدْتها تنفُذ فى عينيك تضئ لقلبك فى أَكنّته مساربَ الدم فى أَغْوار جوفك ، ولتركتك كما تركتنى أسير بعينين مغمضتين ذاهلتين إلا عما أضاءتْ لك فى الحياة عيناها . فإذا دنتْ إليك فكُنْ ما شئت إلا أن تكون حيًّا ذا إرادة تطيق أن تتصرف ، وذَرْ كل شىء إلا عطر أنفاسها وضياءَ وجهها ، وغمامةً تظلل روحك النشوى طائفة عليك بأطراف شعرها المتهدِّل كحواشى الليل على جبين الفجر ، وخذْ بنانًا رخْصًا مطرَّفًا [٦] كثمار العُنّاب تغذوها يدٌ بضة بيضاء يحار فيها مثل ماءِ الصفا ، فلقد قبّلتها يومًا

---

(١) الفَنَن : الغُصْن المستقيم .
(٢) الفارعات : الطويلات ، أى ليست مفرطة الطول .
(٣) أى ليست صغيرة العجيزة .
(٤) الأملود : المرأة المتثنية الناعمة .
(٥) المارن : طرف الأنف .
(٦) المطرف : مُخضَّب الأظافر .

قُبلةً ظننت أن قد أطفأت بها غليلى فزادتنى غُلَّةً وصدًى ، فما نفعنى فى نار هذه الحمى إلا ما لم أزلْ أجد من بَرْدِها وطيبها وعذوبتها على شفتى حتى اليوم . ولا والله إنْ [١] رأيتُ كمثلها امرأةً إذا حدثت ، فكأنما تسكب فى روحى سرَّ الحياة يهمس عن شفتين رقيقتين ضامرتين كأنّ الدم فيها مكفوف وراء غلالة من النعمة والشباب . فآه من الثريا ! لقد حجبت عنى كل نجم كان يلوح لى فى الدياجى يُلهمنى أو يُغوينى ... وَىْ ، ما دهاك أيها الرجل ؟

ورأيت ابن أبى عتيق يتخطانى بعينيه ينظر إلى الباب من ورائى ، قد انتُسِف وجهه وغاض من الدم كأنما يرى هَوْلًا هائلًا قد أوشك أن ينقض عليه ، وما كدت أرد الطرف حتى سمعت من يقول : السلام عليكما يا عمر ! وأنت يا ابن أبى عتيق ما لك تنظر إلىّ كالمغشى عليه لا ترفُّ منك عاملة ولا ساكنة ؟ وما بك يا أبا الخطاب ! أترى الحمى كانت منك على ميعاد ؟ لقد أقبلت أمس من سفرى ، وكان الليل قد أوغل فتلقانى ولدك جوانٌ فأنبأنى أن الحمى قد وردتك فأردعت [٢] عليك أيامًا فنهكتْك حتى خيفت عليك بُرَحاؤها [٣] ، وأن ابن أبى عتيق جزاه الله عنا وعنك خيرًا أبى إلا أن يتعهدك بمرضك حتى تبرأ وتستفيق ، وإنى لأراك بارئًا يا أبا الخطاب .

فوالله لقد سكنتْ نفسى لما أتم كلامه وسكتَ ، وأدنى يده يجسُّنى جسَّ المشفق ، ورأيت ابن أبى عتيق يثوب كأنما كان فى كرب يغتُّه [٤] ويعصرُه ثم أرسله فعاد إليه الدم . فهذا أخى الحارث (هو الحارث بن أبى ربيعة أخو عمر) سيد من سادات قريشٍ شريفٌ كريم عفيفٌ ديّنٌ ، ما رآه امرؤ إلا دخلته الرهبة له حتى تتعاظمه . فما زاده أن كانت أمه سوداء من حَبش إلا رفعةً ومكانًا . ولقد كان عبد الملك بن مروان ينازع عبد الله بن الزبير أمر الخلافة ، وكان ابن الزبير

---

(١) إن : هنا حرف نفى .

(٢) أردعت : من الرُّداع ، وهو وَجَعُ الجسم أجمع .

(٣) بُرَحاؤها : شِدَّتها .

(٤) الغَتُّ والعَصْر بمعنى ، وفى حديث المبعث « فأخذنى جبريل فغتَّنى » .

قد ولَّى الحارث بعض الولايات ، فلما جاءه النبأ بولاية الحارث قال : أرسل عوفًا وقَعَد ! ولا حُرّ بوادى عَوْفِ [١] . فابتدر من المجلس يحيى بن الحكم وقال : ومن الحارث يا أمير المؤمنين ؟ ابن السوداء ! فقال له عبد الملك : خسئتَ ، فوالله ما ولدتْ أمةٌ خيرًا مما ولدت أمه !

ثم صرف الحارث وجهه إلى ابن أبى عتيق وهو يتسم له وقال : أما زلت يا ابن أبى عتيق بحيث قال صاحبك فيما بلغنى من شعره إذ يقول لك ؟

لا تلمنى عتيقُ حسبى الذى بى ... إنّ بى ياعتيق ما قد كفانى

إنَّ بى داخلًا من الحب قد أبْـ ... ـلَى عظامى مكنونُه وبرانى

لا تلمنى وأنت زيَّنتها لى ... أنت مثل الشيطان للإنسان

فقال ابن أبى عتيق : هُديت الخير ، فوالله إن أخاك لشاعر يقذف بباطله ، ولقد وقعت فى لسانه ولقيت من دواهيه . ثم نظر إلىَّ الحارث وقال : أما وقد لقيتك بخير ياعمر ، فإنى منصرف إلى وجهى ، وبالله إلا ما تقدمت إلى أهل بيتك أن يعدوا لى المنزل الذى نزلته بالأمس حتى أعود ، وإنى أرى الريحان قد ذبل فَمُرْهم أن يستبدلوا به ، وأن يطيِّبوا الفراش ويجمروه . وقل لطائف الليل أن لا يلم بنا ؛ فلسنا من حاجته ولا هو من حاجتنا . فما تمالكت أن قلت له : ويحك ! أفهو أنت ؟ قال : أجل هو أنا أيها الفاسق ! قلت : إذن فوالله لا تمسُّك النار أبدًا وقد ألقت نفسها عليك وقبَّلَتك . فقام مغضبًا يفور وقال : اعزُبْ ، عليك وعليها لعنة الله !

وانطلق الحارث واستفقت من غشيَة الحُمَّى وما نزل بى من الغم لما فاتنى من الثريَّا . وقال ابن أبى عتيق : قد والله أسأت فما ترانى كنت أحدثك من جوف الليل أنهاك أن تجزع لبغتة إن جاءتك ، فوالله لشدَّ ماجزعت وخانتك نفسك وأرداك لسانك ! ولبئسما استقبلت به أخاك ! ولقد كنت أقول لك إن التردد

---

(١) لا حُرَّ بوادى عوف : مَثَلٌ ، يضرب لكل مَن ناوأ مَن هو أشدّ منه قوة وأعز سلطانا فخضع وذلّ .

مَدْرَجَة النكبات فإذا جرأة لسانك مَدرجَة إلى كل بلاء ، وإلا [١] والله لا تفلح أبدًا أيها الرجل .

فلقد اضطرب عليَّ أمرى حتى ما أدرى ما أقول ، ثم سكَّنت نفسى وقلت له : أفرخ روعك يا ابن أبى عتيق ، ولتعلمن اليوم دهاء عمر ، فأرسل فى طلب ابنتى « أمَة الوهاب » والحقْ أنت الحارث فردّه على . وانطلق ابن أبى عتيق ، ولم ألبث حتى جاءتنى أمَةُ الوهاب ، فقلت لها : يابنية ! أشعرت أن عمك الحارث قد نزل بنا الليلة ؟ قالت : كلا يا أبَهْ ! قلت : إذن فانطلقى إلى هذه الغرفة التى إلى جوارى وتباكى وانتحبى ما استطعت حتى أنهاك . ففعلت ، وجاء الحارث وابن أبى عتيق ، فقلت له : جعلت فداءك ! مالك ولأمة الوهاب ابنتك ؟ أتتك مسلمة عليك فلعنتها وزجرتها وتهددتها ، وها هى تيك باكية . فقال : وإنها لهى ! قال : ومن تراها تكون ؟

فانكسر الحارث كأنما اقترف ذنبًا لا يعفو الله عنه إلا رحمة من عنده ، وقال : فما بالك وما كنت تقول ؟ فقال ابن أبى عتيق : ذاك هذيان المحموم يا ابن أخى ، ولو أنت كنت الليلة إلى جانبه لسمعت من بوائق [٢] لسانه ما تصطك منه المسامع . وإنى لأظن الحمَّى هى التى خيلت له حتى أُنطقته ببعض تكاذيبه . قال الحارث : والله لشد ما يغمنى أن يدع عمر كل خير فى الدنيا ، وكل ثواب فى الآخرة ، وأن يحبط أعماله بما يسول له شيطان نفسه وشيطان شعره ، فيهتك عن الحرائر ما ستر الله . ولقد طالما نهيتك ياعمر عن قول الشعر فمازلت تأبى أن تقبل منى ، أتراك فاعلًا لو أعطيتك الساعة ألف دينار ذهبًا على ألا تقول شعرًا أبدًا . قلت : قد رضيت ! قال : فهى منذ الساعة فى ملكك .

قال عمر بن أبى ربيعة : فما أخذتها منه إلا لأهديها إلى الثريا عطرًا ولؤلؤًا وثيابًا من تحف اليمن . أما الشعر فوالله لا أتركه لأحد ، رضى الحارث عنى أو غضب .

---

(١) كذا بالأصول ، والسياق يقتضى أن تكون : ولا .

(٢) البَوائق : الدواهى .

الحرف اللاتينى والعربية

ربَّ رجل واسع العلم ، بحرٍ لا يزاحم ، وهو على ذلك قصير العقل مضلّل الغاية ، وإنما يعرض له ذلك من قِبَل جُرْأته على ما ليس له فيه خبرة ، ثم تهوُّره من غير روية ولا تدبر ، ثم إصرارُه إِصْرارَ الكبرياء التى تأبى أن تعقل . وإن أحدنا ليقدمُ على ما يُحسنُ ، وعلى الذى يعلم أنه به مضطلع ، ثم يرى بعد التدبر أنه أسقط من حسابه أشياء ، كان العقل يوجبُ عليه فيها أن يتثبت ، فإذا هو يعود إلى ما أقدمَ عليه فينقضه نقض الغَزْل .

ومن آفة العلم فى فن من فنونه ، أن يحملَ صاحبه على أن ينظر إلى رأيه نظرة المعجب المتنزّه ، ثم لا يلبثُ أن يفسده طول التمادى فى إعجابه بما يحسنُ من العلم ، حتى يقذفه إلى اجتلاب الرأى فيما لا يُحسِن ، ثم لا تزال تغريه عادة الإعجاب بنفسه حتى ينزل ما لا يحسن منزلة ما يحسن ، ثمّ يُصرّ ثم يغالى ثم يعنُفُ ثم يستكبر ... ثم إذا هو عند الناس قصيرُ الرأى والعقل على فضله وعلمه .

فمن ذلك أنى قرأت فى عدد مجلة « المصور » ١٠١٥ بتاريخ ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٣ حديثًا لصاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا عن « الإسلام والحروف العربية » فرأيته يفتتح حديثه بهذه الكلمة ، إذ يقول لسائله :

« إنى لا أُعَنِّى نفسى البتة بالإطلاع على ما قد يقال من هذا الهراء الذى هو أهونُ علىّ من الغبار الذى يمس ردائى وحذائى ، فما بالك أنت تهتم بما لا أكترث له ؟ » .

وعبد العزيز فهمى رجل كنا نعرفه بالجد والحرص والفقه وطول الباع فى القانون ، وكنا نظنه رجلًا محكم العقل من جميع نواحيه ، لا يتدهور إلى ما ليس له به عهد ، ولا يرمى بنفسه فى غمرات الرأى إلا على بصيرة وهدى . فلما قال

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٥٦٢) ، إبريل ١٩٤٤ ، ص : ٣٠٨ - ٣١٠

ما قال عن الحروف العربية فى المجمع ، ونشرت الصحف قوله ورأيه ، قلنا : عسى أن يستفيق الرجل ويعودَ إلى سالف ما عهد فيه من الحكمة والمنطق ، وأن يكون ما قال خالصًا لخدمة العربية ، فإن يكن فى رأيه شىء من الصواب فسيحقق الجدل الذى يدور بينه وبين الناس فضيلة رأيه على الآراء ، وإن يكن أخطأ فهو خليق أن يرجع إلى صواب الناس غير معاند ولا لجوج .

كان هذا ظننا فيه ، فلما قرأت فاتحة حديثه التى رويتها قبل ، علمتُ أن الرجل لن يستفيق ، ولن يعودَ ، ولن يعقلَ ما يقول الناس - وماظنك برجل من رجال القضاء - رجلٍ مارس العقلَ والفهم وتقليب الرأى ، والتثبت من الحجج المتضاربة الموهمة ، والحرصَ على أدق الصغائر لا تخدَعُه عن عَدْله وإنصافه ؟ ماظنك برجل هذه صفته يزعم أنه لا يطّلع ، بل لا يعنّى نفسه بأن يطلع على آراء خصمه ! ثم ماذا ؟ ثم ترى هذا القاضى العادل ، بعد أن شهد على نفسه وأقرَّ أنه « لا يعنّى نفسه البتة بالاطلاع على ما قد يقال » ، يصف هذا الذى لم يطلع عليه ولم يقرأه ولم يتعب فيه ، بأنه « هراء » ؟! فمن أين عَلم ؟ وكيف حكم على شىء لم يقرأه ؟ ثم يزيد فيقول إن هذا الهراء الذى لم يقرأه ، أهون عليه من الغبار الذى يمس رداءه وحذاءه ! ثم يبالغ فيعنف سائله ويتعجب له ويسخر منه ، ويقول له : ما بالك أنت تهتم بما لا أكترث له ؟

وهذا التسلسل العجيب الذى كنا لا نظنه مما ترضى عنه بصيرة رجل مفكر ، فضلًا عن قاض حريص ، فضلًا عن رأس من رؤوس القانون ، فضلًا عن نابغة من نوابغ مصر ، قد كان ، ورضى عنه عبد العزيز فهمى باشا ، وجعله حجته ومنطقه فى حومة الرأى والجدال . ولعلَّ الغضبَ هو الذى احتمله حتى أضلَّه عن مواطئ حجته ، ثم تركه يتضرّبُ فى كلامه ، حتى اقترف من اللفظ والمنطق ما لا يليق به .

ونحن سنرضى أن نكونَ فى الغبار الذى يمسُّ رداء الباشا ، وفى الغبار الذى يمس حذاءه ! ونسأل الله أن يجعله بركة للناس وخيرًا ، وأن يسبغ عليه من نعمه ما هو له أهل ، وأن يسدد خطاه حيث ذهب ، فحيثما اهتدى الباشا كنا من الغبار الذى يهتدى بهَدْى حذائه ! وسواء علينا بعد ذلك أقرأ هذا الهراء أم لم يقرأه !

نحن نسلم للأستاذ الجليل بما يقول عن صعوبة الحرف العربى المكتوب ، وبأنه يعوق القراءة ، وأنه يجعل العربية أبعد متناولًا عن عامة الناس ، نسلم له بهذا ، ثم ننظر كيف يكون الرأى الذى اعتسفه مظنة للتسهيل ، ومدعاة لنشر العربية ! وكيف يكون هو الذى يخرج الحرف العربى الغامض إلى البيان والوضوح، فلا يكون مضللًا ولا معوقًا ، فإنه زعم أن « ليس لدى المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية وقت فائض يصرفونه فى حل الطلاسم » ! هذا هو محصول رأيه .

فما هذا التضليل الذى زعم ؟ لقد قال من قبل إن الذى دفعه إلى هذا الرأى هو تيسير الكتابة العربية ، « لأن حروف هذه اللغة ليس بينها حروف حركات ! وكثيرًا ما يحدث فيها التصحيف والتحريف لهذا النقص . فمهما تعلمها الإنسان فلابد أن يخطئ فى قراءتها ، وقد عالج الأقدمون هذا المشكل الكبير بوضع الشكل ، ولكن هذا الشكل قد أفلس ، بل كان مجلبة لزيادة التحريف والتصحيف » .

ودليل الاضطراب لم يزل يظهر فى هذا المنطق كما ظهر فى حديث محرر المصور ، وهو سؤال وجواب لا عنت فيهما ، فأول الوهن وأول الفساد فى هذا المنطق أننا رأيناه فى اقتراحه قد أبقى الحروف المعجمة (المنقوطة) ، وقصر ما ادعاه من التضليل والعسر على (حروف الحركات) . وهذا عجب . فالإعجام (النقط) هو فى التصحيف والتحريف بمنزلة الشكل أو أقل منه قليلًا ، فكان لزامًا أن يبحث مسألة الحروف المعجمة ، ويخلص العربية منها ليدرأ عنها التصحيف والتحريف ! ولكنه لم يفعل ، ولم ؟ لا ندرى !

ومع ذلك ، فلنفرض أننا أدخلنا ما سماه (حروف الحركات) فى كلام عربى مكتوب باللاتينية ، ثم لنفرض بعد ذلك أنه قد أجدى ونفى التضليل من هذا الوجه . ولكن يبقى أن ننظر : أينتفى التضليل البتة ، أم هناك نوع آخر من التضليل يجره هذا العمل ؟ وأى التضليلين أهون شأنًا ؟ فإذا تساويا بطلت الحجة المرجحة ، وإذا غلب أحدهما كان الانصراف إلى أخفهما ضررًا هو الوجه الذى

لا معدل عنه . أليس هذا هو منطق الناس ياصاحب الحروف اللاتينية ، أم تراه ينبغى أن نسير على هَذْى منطقك ؟!

فخذ إليك مادة من العربية مثل « قام » ، ثم اجعلها فعلًا ، ماضيًا ومضارعًا وأمرًا ، وألحق به ما يلحقه من الضمائر ، وأدخل عليه ما يدخله من قبل أوله وآخره مثل « فليقمهنَّ » وفى التثنية والجمع ، والخطاب والغيبة ، ثم أخرج جميع مشتقاته من الأسماء ، وألحق بها ما يلحقها ، وضعها فى حالة الإضافة إلى الاسم الظاهر والضمائر ، فى التثنية والجمع أيضًا ، ثم اجمع الأسماء على اختلاف صور الجموع الممكنة فيها ، ثم افعل ذلك بالمادة حين يزاد فيها مايزاد مثل « أقام وقوّم واستقام » ، وصرّفها فى الوجوه التى ذكرناها ، وتبين حركات الإعراب فى سياق الكلام ، وضع كل ذلك أمامك مكتوبًا بالحرف العربى ، ثم بالحرف اللاتينى ذى الحركات التى تجعل الكلمة مرسومة كمنطوقة . ثم انظر إليهما ، فهل تستطيع ، غير معاند ولا لجوج ، أن تميز بين كلمة وكلمة ، وأن تتبين الشبه بين هذه المتقاربات من مادة واحدة فى اللغة ؟ نحن قد جرينا على أسلوب صاحب اللاتينية ، فجربنا ذلك بأنفسنا فما اهتدينا ولا أدركنا ، وصارت الكلمة الواحدة التى لا تخطئها العين فى العربية ، ولا تخطئ الشبه بينها وبين صواحباتها ، كلمات لا يُدرى ماهى ! وهذا شىء قائم على الحس والتجربة والعيان (*) .

فإذا عرف ، من لا يستكبر عنادًا ولجاجًا ، أن ذلك مما يُضِلّ ويعمى ، نظر فإذا هو يرى أن أول التضليل فى رسم العربية باللاتينية ، أن يضيع على القارئ تبيّن اشتقاق اللفظ الذى يقرؤه ، فإذا عَسُر عليه ذلك صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذى لانسب له ، وصار فرضًا عليه أن يعمد إلى رسم المادة الواحدة من اللغة فى جميع صُورها التى تكون فى السياق العربى ، ثم عليه أن يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية ، ثم عليه أن يحفظ معانى ذلك كله . فإذا كان هذا شأنه فى المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها ؟ يومئذ تصبح العربية أجهَدُ لطالبها من اللغة

(*) لقد تجنبنا أن نرسم على الكلام العربى فى هذه المادة ، ووجوه التصريف واللواحق ، لأنها يسيرة على القارئ فهو يستطيع أن يستخرجها جميعًا ويرسمها لنفسه وينظر أى مخرقة يرى ! (شاكر) .

الصينية . نعم ، وإذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف ، فقد ضل عن العربية كلها ، لأنها لم تُبْن إلا عليهما . وهى من هذا الوجه مخالفة لجميع اللغات التى تكتب بالحرف اللاتينى ، لأن الاشتقاق والتصريف يعرضان لها من قبل بناء الكلمة كلها ، حتى تختلف الحركات على كل حرف فى كل بناء مشتق أو مصرَّف ، ثم يزيد على ذلك ما يدخل على الكلمة من جميع ضروب الحروف العاملة وغير العاملة ، ثم عِلَل الإعراب والبناء والحذف ... إلى آخر ما يعرفه كل مبتدئ فى العربية .

فإذ كان هذا هكذا ، وكان التضليل كائنًا ، وكان هذا التضليل واقعًا فى أصول الاشتقاق والتصريف ، الذى يردّ القارئ إلى أصل المادة اللغوية ، وإذا كان الضلال عن أصل المادة ضلالًا عن معناها ، فأى السبيلين أغمض وأضل : سبيل عُسْر القراءة لعدم (حروف الحركات) ، أم سبيل امتناع الفهم لامتناع الاهتداء إلى أصل الاشتقاق ؟ ونحن لا نشك فى أن كل رجل ذى بصيرة حسن المنطق ، سيجد فى هذا وحده من المشقة والعسر ، وما لا يدع اختيارًا فى الاعتراف بالضلال المطبق الذى تجلبه الكتابة بالحرف اللاتينى ، وأن التصحيف والتحريف الذى يدخل الحرف العربى أهون بكثير من الاختلال والفساد والمضلة والعبث التى يجرها الحرف اللاتينى .

وإذن فغاية المشروع الذى انتحله ، أن ييسِّر نطق الكلمة المكتوبة فى حال إفرادها ، غير ناظر إلى سهولة الاهتداء إلى الاشتقاق الذى هو أصل العربية ، وأراد أن يأمن الخطأ فى الإعراب ، والتحريف فى ضبط الكلمة ، فنسى كل شىء ، ولم ينظر ماذا يجلب مشروعه من التضليل والتشويه والتعسير والاستحالة ، والغموض الأعمى الذى لا يهدى إلى شىء فى هذه اللغة العربية ! وهذا وحده عجب أى عجب .

هذه واحدة ، ثم زعم الباشا أن الحروف العربية تعوق القراءة ، فمهما تعلمها الإنسان فلابد أن يخطئ ! وأن هذا المشكل قد عالجه الأقدمون بوضع الشكل ، ولكن هذا الشكل قد أفلس ، بل كان مجلبة لزيادة التحريف والتصحيف !

هما علتان ، ثم علتان ملفقتان قد غلغل فيهما البطلان ، ونخرتهما المغالطة

فى الصميم وفى المنطق . ونحن لن نناقش اليوم هاتين العلتين إلا من وجه واحد يظهر به فسادهما ، أما سائر الوجوه فندعها حتى يحين وقتها ومكانها من الكلام . فالخطأ عندنا لا يعود إلى صعوبة الحرف المكتوب ، وإنما يعود إلى القارئ المخطئ نفسه ، وهذا هو وضع القضية عندنا : إذا كان المتكلم حين يتكلم يستطيع أن يسوق كلامه على العربية الصحيحة غير مخطئ ، فمحال أن يخطىء فيها عند القراءة مهما اختلف الخط عليه سهولة وصعوبة ، لأن النطق سابق للقراءة ، فالذى لا يخطئ وهو يتكلم (أى كأنه يقرأ من حرف غير مكتوب) ، لا يتأتى له أن يخطئ وهو يقرأ حرفًا مكتوبًا ظاهرًا مميزًا ببعض الدلالات . وإذا عولج بعض العسر بوضع الشكل على الحروف ، فالخطأ عندئذ أشد استحالة لوجود دلالات صريحة لا تقل فى إفصاحها وبيانها عن حروف الحركات التى أرادها صاحب هذا المشروع اللاتينى ، ومن ثم فهى ليست مجلبة لزيادة التصحيف والتحريف كما زعم . أما قوله ، فى خلال ذلك ، إن الشكل قد أفلس ، فهذا حكم باطل فى قضية باطلة بطبيعتها ، وما دامت القضية فى أصلها لا تصح على الوضع الذى لفقه ، فالحكم نفسه لم يدخل إلا زيادة فى التلفيق . لقد نسى صاحب الحروف اللاتينية أن الإعراب فى العربية شىء يختلف اختلافًا كبيرًا عن سائر اللغات المكتوبة بالحروف اللاتينية ، وأن الخطأ فيه لن يكون من قبل الكتابة سهلة أو صعبة ، بل هو راجع إلى المتكلم أو القارئ من قبل الضعف والقوة والعلم والجهل ليس غير .

وأما ثالثة الأثافى ، كما يقولون ، فهو زعمه أن « ليس لدى المسلمين ، وغيرهم من أهل البلاد العربية ، وقت فائض يصرفونه فى حل الطلاسم » ! فأى طلاسم ؟ أهى الطلاسم التى تدخل على كل حرف من الحروف فى المادة الواحدة ، ألوانًا من الحركات تكتب بين كل حرف وحرف ، وفى أواخر كل كلمة ، وتقف فواصل متباينات بين حروف مادة واحدة من لغة بنيت على الاشتقاق وعلى الاختصار ، وجاء فيها الجموع المختلفة ، والصفات والأبنية ذوات المعانى ، والبناء للمجهول ، وأحكامُ المعتلّ فى التصريف ، واختلاف

المصادر وأسماء الزمان والآلات ، والترخيم والنسبة ، والإضافة والتقاء الساكنين ، وأحكام الإعلال والإبدال والإدغام ، إلى آخر هذا كله ، ممّا يغيّر الأبنية والأطراف والأوساط ، هذا إلى كثير من أحكام النحو الأخرى التى تفزع من يتتبعها إذا هو أراد جدال صاحب الحرف اللاتينى ! أهذه هى الطلاسم أم تلك ؟ وأيهما أفسد لوقت المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية ؟ بل أيهما أضرَى وأشنع فتكًا وشراسة ؟ بل أيهما الذى يغول العقل لا الوقت وحده !

ولكنها فتنة ! فتنة اغتر بها شيخ صالح ، فاستغلها من لا يرى للعربية حقًّا ولا حُرْمة ، ولولا بعض حسن الظن لقلنا :

لا تأمنوا قومًا يَشبُّ صبيُّهم　　　بين القَوابِلِ بالعداوة يُنشَعُ [1]

فَضِلَتْ عداوتُهم على أحْلامِهم　　　وأبتْ ضِبابُ صدُورِهم لا تُنْزَعُ [2]

إن الذين تَروْنَهم إخوانَكم　　　يشفى غليلَ صدورهم أن تُصْرعُوا

وأى مصرع ياصاحب المعالى ! علّمك الله الخير وهداك إليه وسددك وحفظك .

* * *

---

(١) القوابل : جمع قابلة ، وهى التى تستقبل الولد عند الولادة . يُنْشَع : يُرَبّى .

(٢) الضِّباب : الحقد الكامن فى الصدور .

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

صديق إبليس

« قال عمر بن أبى ربيعة » :

« لم أزلْ أرى كَلْثَم « هى بنت سعد المخزومية زوجة عمر » أجزلَ النساء رأيًا وأصلبهنَ مكسِرًا (١) ، وأقواهُن على غيرة قلبها سلطانًا ، حتى إذا كان مُنذ أيام رأيتُ امرأة قد استعلن ضعفها ، وتهتَّك عنها جَلَدُها ، وعادتْ أنثى العقلِ يُغْويها الذى يغريها .

« وإن أنسَ لا أنسَ يوم احتلتُ عليها حتى دخلت إليها ، وقد تهيأت لى أجملَ هيئة وزينت نفسها ومجلسها ، وجلست من وراء السترْ ؛ فلما سلمتُ وجلستُ ، تركتنى حتى سكنت ، ثم رفعت السترْ عن جمال وجه يخطفُ الأبصارَ ، ثم رمت فى وجهى تقول : أخبرنى عنك أيها الفاسق ! ألست القائل كذا وكذا ؟ تعنى أبياتًا لى ، فمازلتُ أفتِلُ فى الذِّرْوَة والغاربِ (٢) ، وهى تَنِدُّ علىّ وأنا مقيم عندها شهرًا لا يدرى أهلى أين أنا ، ولا أدرى ما فعل الله بهم . ولا والله ما مرّ علىَّ يوم إلا حسبتها امرأة قد خلقتْ بغير قلب ، لما ألقاه من عنادها وامتناعها ، وإنى لآتيها بالسِّحْر بعد السحْر من حديث تحنُّ عليه العوانس المعتصماتُ فى مَرَابئ الزمن ، وأنا يومئذ شاب تتفجَّر الصَّبْوة من لسانى ، ويتلألأ الغزلُ فى عينىَّ ، وهى يومئذ غادة غريرة لو نازعها النسيم ، فيما أُرى ، لاستقادتْ له من دَلِّها ولينها وغضارة العيش . ولبثت شهرًا أقول وأحتال وأستنزلُ عُصْمها (٣)

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٦٠١) ، ١٩٤٤ ، ص : ٣٧ - ٤٠

(١) يقال رجل صُلْبُ المَكْسِر ، على المدح والثناء ، وذلك إذا كان باقيا على الشدة لا يلين ولا ينخزل .

(٢) هذا مَثَلٌ . الذروة : أعلى السنام. والغارِب : مابين السنام والعنق ، وأصله أن يكون البعير مُصْعَبا . فيحكّ صاحبُه سنامَه وغاربَه ، ويفتل الوبَر بينهما بأصابعه حتى يؤنسه بذلك ، ويخدعه حتى يمكن منه فَيخطمه .

(٣) العُصْم : من الوُعول ما فى ذراعيه بياض ، وهى تسكن أعالى الجبال .

برُقى السحر ، حتى إذا قلت قد دانتْ ، انفلتت مصعِّدَة قد تركتنى شاخصًا أنظر إلى صيد قد طار ، ثم أطرق ناظرًا إلى سحر قد بطل . فلما اشتد ذلك عليّ استأذنتها فى الخروج إلى أهلى ، وقد يئست منها ومن هواها ، فما سمعت حتى قالت : « يمينَ الله أيها الفاسق ! بعد أن فَضَحتنى ؟ لا والله لا تخرج أبدًا حتى تتزوجنى ! » فتزوجتها وهى أحبُّ النساء إلىّ أن أتزوَّج ، ومازلتُ معها وأنا لا أنكرُ منها شيئًا ، وأقول الشعر تأخذه الألسن لتشيعه إلى الآذان ، وأدخل بيتى فألقاها فلا أسمعُ منها قلتَ وقلتَ ! فيكرُبنى إغفالُها لما يبلغها من الشعر ، فألجُّ على النسيب ، وأذهب كل مذهب فى التشبيب ، وأتبعُ النساء بعينىّ وقلبى ، وأقولُ ، فلا والله ما نَبَضَ لها قلب ولا تحركت لها جارحة ، ولقد أدخُل عليها فإذا هى تلقانى ضاحكة لاهية ، حتى أقول : لعلها لم تسمعْ ! فأنادى مولاى وأملِي عليه ، وهى بحيث تسمعُ ما أملِي ، وأتخلل الإملاء بالشكوى والحنين وأرفع بهما صَوْتى ، ثم أنهضُ ألقاهَا فما أرى وجْهها يربَدُّ أو يتمعَّر [١] ، فكان ذلك غَيظى وشِقْوَتى ، لا تزيدُهما الأيام إلا اتقادًا . ويْلُمِّه كيلًا بغير ثمن ! كم ذا أُغِيرُها فلا تغارُ !

وأقبلتُ ذلك اليوم ، بعد مرجعى من الكُوفَة بشهر أو أكثر ، فاستقبلنى جُوان (هو ولد عمر من كلثم) فقال : « يا أَبَهْ . أُمى ، مافعلت بها ؟ » . قلت : « أُمك ! بخير يابُنيَّ وَعداهَا السوء » . قال : « كلَّا يا أَبَهْ ، وما أدرى ما بها ، غير أنى ظللتُ أيامًا أستخبرها ، وهى خالية ، عما يريبها أو يؤذيها ، فلا أسمعُ منها إلا ما تنشده من شعرك .

كُنَّا كَمِثلِ الخمْرِ كان مِزَاجها ... بالماء ، لا رَنْقٌ ولا تكديرُ
فإذا وذلك كان ظِلَّ سَحَابة ... نَفحَتْ به فى المُعْصراتِ دَبورُ [٢]

« ثم تنظر إلىّ وتقول : ياجُوان ، امضِ لشأنِكَ ، ولا تَنْسَنى فى صلاتِك ، فوربّ هذه البنيَّةِ ، لقد حملتُك ووضعتُك وأنا أدعو الله أن يُجنّبنى الشيطانَ ، وأن

---

(١) تمعَّر : تغيّر وتقبّض غَضبًا .
(٢) الدبور : ريح حارة تهب من جهة الجنوب .

يجنّبَ الشيطانَ ما يرزُقنى ، فكنتَ أنتَ يا بُنىّ دَعوتى ، فادعُ ربَّك ياجُوان لأمك التى حملتك وهنًا على وَهن .

فابْكِ ماشئتَ على ماانقضَى   كل وَصْلٍ مُنْقَض ذاهبُ
لو يردُّ الدمعُ شيئًا ، لقد   ردَّ شيئًا دمعُك الساكِبُ

فأقول : « يا أماه لقد أفزعتِنى ! » فتقول : « اذهبْ يا بُنىّ « لو تُرِكَ القَطَا ليلًا لَنام » [١] . ثم تشيخ وتنصرفُ ، ولا والله ماقدرتُ منها على أكثر من أن أسألها فتجيبنى بمثل ما أخبرتُك . فبالله ، يا أَبَهْ ، لاتدع أمى تموتُ بحسرة تتساقط عليها نَفْسُها ! ارحمها يرحمك الله .

ويذهبُ جُوان ويَدَعُنى لما بى ، ويأخذنى ماحَدُث وما قَدُم ، وكيف ولم أُنْكِرْ منكِ يا كلثمُ شيئًا منذ رجعت من غيبتى بالكوفة ؟ وإنى لأَدْخُلُ عليها فتُدَاعبُنى وتضحك لى وتذهبُ بى فى لهوها مذاهبَ ، ولا والله إنْ وقعتُ منها على مَسَاءة تضمرها أوهمّ تكتمه ، وكأن الحياة قد منعتْ دونها غِيَرَ النفس فهى لا تتغير . وهذا جُوان يقول ، فلئن صَدَقَ لقد كذبتنى عيناى وكذبَ علىّ قلبى ، وإن كلثم لَتلهُو بى وتتلعّبُ وأنا فى غفلة عن كُبْر شأنها وأساها ! وأذهب من ساعتى أدور فى الدار أنظر ، فإذا كلّ شيء أراهُ قد لبس من همّ نفسى غلالة سوداء نشأت بينى وبينه ، وإذا أيامنا المواضى قد بُعثتْ فى أَسْمال هلاهيل تطوف متضائلة فى جنباتِ البيت وهى تنظرُ إلىّ نظرة الذليل المطرَّد المنبوذ ، وإذا كلثم قد خرجت إليهنّ كاللبؤة المُجْرِية [٢] رِيعتْ أشبالُها ، وإذا أنا أسمعُ همهمة كأنين الجريح تنفذُ فى أذنىّ من حيثما أصْغَيتُ ، وماهو إلّا أن أرانى فى فراشى قد توكأتُ على مرفقى ، والغشيةُ التى أخذتنى تنقشعُ عنى شيئا بعد شيء . وبعد لأيٍ ما ذكرت ماكان من حديث جُوان كما كان ، فنهضت من مكانى أَطلب كلثم فى غِرَّتها حيث هى من البيت .

وقصدت مقصورتها فإذا هى قد أجافت الباب [٣] ، فذهبت أفتحه وإنّ يدى

---

(١) هذا مَثَلٌ ، يضرب لمن يتنبه لنوازر الشر فيأخذ حذره .

(٢) المُجْرِية : ذات جِرْو ، وهو ولدها .   (٣) أجاف البابَ : رَدَّه عليه .

لتأبى علىّ أن تمتد خشية أن أطلع منها على ما يسوؤنى ، وهى أحبُّ إلىّ من أن أراها مغمومة أو مكروبة على غير ما عودتنى وعودتها . فأستأذنها من ورائه قالت « مهلًا يا أبا الخطابِ ، وبخير ما جئت » . فقلت لنفسى « كذب والله جُوان وما كان كاذبًا » . فلما فتحتْ لى الباب رأيتُ سُنَّة وجه كالسيف الصقيل يبرق شبابًا ورضى ، وقالت « مرحبًا بكِ ياعمر ، لو رأيت الساعة جاريتى وهى تدخلُ على ساعية تجرى تقول : سيدتى أَدْرِكى مولاى فقد سمعت الناس يتناشدون من شعر قاله اليوم ، وإذا فيه .

ليس حُبٌّ فوق ما أحبَبْتُها   غير أن أقتل نفسى أو أُجَن

فاحفظيه ياسيدتى من روعة المصيبتين . فقلت لها : لقد وقى مولاك السوءَ أن ليس بينه وبين الناس إلا لسانه ! ولا يقتل مولاك نفسه أو يجنّ حتى يقتل الحمام نفسه على هَدِيله (١) أو يجنُّ » .

لم أدر ما أقول ، فقد كانت كلماتُ جوان قد تشبحّتْ لعينىَّ ودوَّت فى أذنى ، فما أطقتُ صبرًا أن أسألها : « مايقولُ جوان ؟ زعم أنك لا تزالين مهمومة لأمر يستخبرك عنه فلا تخبرينه ، ولقد مضت السنون بينى وبينك ، ولا والله ما علمتُ إلا خيرًا ولا رأيت إلا خيرًا ، وما قال إلا ما يجعلنى آسَى على ماكان منى إليك مما ساءك أو رابك » . وماكدتُ أتمُّ حتى رأيتها تنتفض كالرشأ المذعور أفزعته النبأة (٢) ، وبرقَت فتخاذلت وغَرِقَ صوتها فما تنطقُ فخاصرْتها (٣) ومشيت بها إلى مجلس فى البيت وجلست أتحفَّى بها حتى تهدأ . وبعد قليل ما قالت : « أما إذا كان هذا يا أبا الخطاب فوالله إنْ كتمتُك شيئًا » .

ثم أطرقت ساعة ، وأنا أنفُذُها ببصرى أطلب غيب ضميرها ، ثم رفعت إلىَّ بَصَرها ونظرت نظْرَة المرتاب ثم قالت « إنى مُحَدِّثُتك يا أبا الخطاب عما كان

---

(١) الهديل : فَرْخ – زعموا – كان على عهد نُوح عليه السلام فهلك ضيعة وعطشا ، فيقولون إنه ليس من حمامة إلا وهى تبكى عليه .

(٢) النبأة : الصوت الخفىّ ، يَنُمّ عن الصائد .

(٣) خاصرتها : أخذت بيدها فى المشْى .

كيف كان . هذه جاريتى ظمياءُ تدخل علىَّ كالمجنونة منذ أيام تقول : « سيدتى ، يمين الله أن تكتمى علىَّ ما أقول » . فأقول : « أمنتِ ياظمياء ! ما يروعك » ؟ فتقول : « لا والله ما يروعنى إلا أن أدع مولاتى توصم بين نساءِ قريش وبنى مخزوم ، ويتحدث أهل مكة أن أم جوان قد لقيت من البلاءِ كذا وكذا » . فأقول : « ويبك ياظمياء ! انظرى ماتقولين ! » . فتقول : « لا والله إنْ هو إلا الحقّ ، أرأيت إلى تلك البيضاء الصهباء ذات العينين التى مازلت تجيئنى منذ أيام ، لقد قالت لى فى عُرض حديثها : يا ظمياء لقد جئت مكة من بلادٍ بعيدة ، وإنى لأسمع الناس على الطريق يذكرونها ويذكرون بيت الله الحرام ، فما ازددت إلا شوقًا أن أرى بيت الله الحرام ، وأن أرى الناس يجاورون هذا البيت العتيق ، وما وقع فى قلبى إلا أن أرى دنيا لم أرها ، وقومًا كتب الله لهم أن يكونوا أطهر وأتقى الناس لله . ولقد خرجتُ من بلادى وهى أبغضُ إلىَّ لما أرى من فجور أهلها وانغماسهم فى كل إثم وباطل ، وكنت أرى أشد أهلنا فجورًا ولجاجًا أولئك الشعراء . ثم دخلت بلادكم وطوّفت فيها ما طوّفت حتى إذا انتهيت إلى أرضكم هذه ، لم أزل أعرف الشعراء فيكم أَفْجَر وأفسق وأضلّ » .

« فما أطقت أن أصبر يامولاتى حتى قلت : « مَهْ ياصهباء ، وكذبتِ . وأين بنو الأصفر [١] من بنى يعرب ؟ فإن شاعر العرب ليقول ، وإن قلبه لأطهر من أن يدنسه ما يدنس به شعراؤكم أنفسهم يابنى الأصفر . وهذا مولاى وهو أغزل العرب لسانًا ، وما علم أحد عليه سوءًا . قالت صهباء : ما أحسن ما رباك أهلك ياظمياء ! وأحسنى ماشئت ظنك فى مولاك . قلت : تبًا لك . وإنك لَتُريغين [٢] إلى مولاى منذ اليوم ، فلا والله لقد كذبتِ وخسئت أيتها الصهباء الطارئة التى لا مولى لها . فقالت صهباء : كذبتُ وخسئتُ ! ما أصدق ماقال مواليك « من دَخل ظَفار حَمَّرَ » [٣] ! وإنك لغريرة ياظمياء ، وأنا الصهباء الطارئة من بنات الأصفر لَأُخَبِّرَ منك بغيب مولاك عمر . قلتُ : كيف قلتِ ؟ قالت : إنه الحق ، وإن لمولاك غيبًا

(١) بنو الأصفر : هم الرُّوم .

(٢) أراغ إلى فلان : طلبه سرا فى خفاء للإضرار به .

(٣) ظفار مدينة يمنية كانتِ لِحِمْيَر . وحَمَّر : تَعَلَّم الحِمْيَرِيَّة ، وهذا مَثَلٌ .

عميت عنه عينك وعين مولاتك ، وهو أحرص عليه من أن يطلع على خَبئه أحد قلت وأنَّى لك أيتها الغريبة ؟ قالت : دعى عنك ، فهو الذى أحدثك .

« ثم دنتْ مِنّى كالتى تُسِرُّ إلىّ ، وقالت : ماكذبتُك أيتها الحُلْوَة الغريرة ، فهذا مولاكِ قد ذهب إلى الكوفة منذ زمن ، ألم يكن ذلك ؟ وهذا مولاكِ قد نزل بأفسق خلق الله وأخْبثهم عبد الله بن هلال الحميرىّ الذى يزعُم أنه صديق إبليس وخَتَنُه [1] وصاحب سرّه ، وإذا هذا الفاجر يخرجُ إليه قَينتينِ من أجمل خلق الله وأَحسنه يغنيانه بشعره حتى ذهبَ عَقْلُه ، وإذا هو يديرُ مولاك يوما بعد يوم على أن يُفتَتَن بهما ، حتى إذا بلغ منه ما أراد ضمن له أن تكونا بالطائف بحيث لا تراهما عينُ بشر . لا تنظرى إلىّ كالمرتابة ، فهذا الخبيث ابن هلالٍ قد ألقى الطاعة إلى إبليس حتى عظُم أمره عنده فهو يُخْدِمُه [2] ويُناطقه ، وحتى لقد ترك له صلاة العصر تقربًا إليه ، وحتى أباحه إبليس أن يأمر الشياطين تتلعَّب ببنى آدم ، ومن شرطه عليه أن لايزال أبدًا يجمَعُ بين الرجال والنساءِ فى الحرام . وهو رجل كما يقول مولاى ...» . قالت ظمياء : وإن لك لمولى ياصهباء ؟ قالت صهباء : دَعِينى حتى أتمّ ياظمياء .. هو رجُل قد أوتى من القُوَّةِ على السِّحْر والقدرةِ على تلبيس أنظار الناس ما لم يجتمع لأحد من شياطين السَّحرة قبله ، فلو هو مسَّ وجه امرئ بمنديله الأزرق ذى الوشيِ لم تأخُذْه عينُ بشر . وهكذا هو يفعل بمولاك وصاحبتيه حتى لا يراهم الناس . قالت ظمياء : وإنَّ هذا يكونُ ؟! قالت صهباء : نعم ! وليس فى الأرضِ أحدٌ يطيق أن يَدْرأ شرّ هذا الشيطان الخبيث إلا مولاى . فقالت لها ظمياء : ولكن أنَّى لمولاك ياصهباء أن يكونَ عَرَف الذى خبرتنى به إن كان ما تقولين عن مولاى مما سمعته منه ؟ قالت ظمياء : فدنت منّى ونظرتْ فى عَينىَّ بعينين مذعورتين يخفِقُ فيهما مثل شقائق البرق ، ثم قالت : ما من شىء يفْعَله هذا الخبيث ابن هلالٍ حيث كان إلّا كانَ عند سيّدى خبرُه . فقالت لها ظمياء : وَيْبى ! أحقًّا قلت ياصهباءُ ؟ قالت : وَىْ ، أو كنتُ كاذبةً عليك وما أنا

---

(١) الخُتُونة : المصاهرة ، والخَتَنُ : أبو امرأة الرجل ، وأخو امرأته وكل من كان من قِبلِ امرأته .

(٢) يُخْدمه : جعل له خَدَمًا .

وأنت إلّا من هذه الجوارى الغريبات المستضعفات ؟ ومالك تكذّبينى وإنْ عندى من برهانِ ذلك مالاً قِبلَ لك بردّه . قالت ظمياء : بالله ! قالت : بالله ، فاذهبى إلى صِوَان سيّدك فى هذه الغرفة التى إلى جوارنا ، وأخرجى من بين المِطْرف السابع والثامن من ثياب مولاكِ ماتجدين !

[قالت كلثم امرأة ابن أبى ربيعة] :

« فهبَّت ظمياء فدخلت إلى صِوَانك (تعنى عمر) فأخرجت شيئًا رجعتْ به إلى صهباء . ثم إذا هى تدخلُ علىّ وتقصُّ قصة ماكان ، فأمرتها أن تأتينى بصهباء لأسمع ماتقول ، فروت لى كل ما حدثتك به يا أبا الخطّاب .

(قال عمر بن أبى ربيعة) :

« فما تمالكت أن قلت لكلثم : ماتقولين ؟ وأى شىء هذا الذى كان بين مطرفى السابع والثامن ؟ فقالت كلثم : رُويد ياعمر ، إما أن تدعنى أتمّ وإلّا والله لا سمعتَ منى شيئًا حتى يقطَع الموت بينى وبينك . قلت : ويحك ، فأتمى .

قالت كلثم : « ثم إنى سألت صهباء عن سيدها ومولاها فقالت إنه رجل صالح يسيح فى الأرض ، وإنه قد جاء فَحجَّ حِجَّتَهُ وهو على سَفَرِه بعد قليل يضرب فى البادية حيث يشاء الله . قلت لها : أو يعلم مولاك من أمر ما تحدثينى عنه أكثر مما قلتِ ؟ قالت : لا أدرى يامولاتى ، فإنه ربما دعانى ويجعل يحدثنى ويحدثنى حتى أقول لن يَسْكُت ، وما هو إلا كخاطفة البرق حتى يقطع فلا يتكلم . فربما عدت فسألته فلا والله ما يزيد على أن ينظر إلى ويبتسم . قلتُ لها : أو تستطيعين ياصهباء أن تأتينى بمولاك ، ولك عندى مائة دينار ؟ كلا لا نلت من مال مولاتى شيئًا ، ولكنى سأديرُه حتى يأتيك لما أرى فى وَجْهك من الخير والسَّعْدِ .

* * *

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

صديق إبليس

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

« وذهبت صهباء وبقيت أترقَّبُها ثلاثة أيام ولياليها وهى لا تجىء ، حتى إذا كانت ليلة خرجتَ إلى الطائف آخر خَرْجة ، جاءتنى صهباء فى جِنْح العَتمَة ودخلت هى وظمياء . قالت : لقد أطاع مولاى مرضاتك ، فإن أذنتِ جئتُ به الساعة . قلت لها : لبِّثى حتى يأوىَ جوان . فلما كان بعد هدأة الليل وفقدنا الصوت ، ذهبت صهباء ساعة ثم جاءت . وَدَخَل عَلىَّ رَجُل أسمر طُوالٌ نحيل البدن مَعْروق الوَجْه أبيض اللحية أشعثُ أغبر ، كأن عينيه جمرتان تَقِدان فى وقْبَين[1] غائرين كأنهما كهفان فى حِضْن جبل ونظر فى عينى فوالله لتمنيتُ أن الأرض ساخَتْ بِى ولم أنظر فى عينيه ، فما هو إلّا أن سلَّم حتى سمعت نغمةَ صوتٍ شجى كحنين الوالهة ، فوالله لتمنيت أن يتكلم ما بقيتُ . ولم أدر ما أقول ودَهِشْت وهلك صوتى ، فنظرت فإذا هو يبتسم إلىَّ ثم يقول : « يا أم جوان ! لقد سعيت إلى بيتك وما سعيت من قبل إلى بيت إلا إلى هذه البَنِيَّة « يعنى الكعبة » . وقد جاءتنى فتاتى صهباء تحدثنى عما كان منها إليك ، وقبيحٌ بامرئ أفزع قلبًا ساكنًا أن يدعه أو يطمئن ، ولو كنتُ أعلم أنها مفتوقة اللسان ، ما حدَّثتها بشىء أبدًا » . قالت كلثم : فكأن الله جعل لى قوة سيلٍ جارف فقلت له : كذبت يارجل وكذبت بنت الأصفر ، ووالله لئن لم تأتنى ببرهان ما تقول ، لتركت شيبتك هذه أباديدَ[2] فى أكفّ صبيان مكة . ووالله لو صدقت لأسترنَّك

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٦٠٢) ، ١٩٤٤ ، ص : ٦٠ - ٦٢

(١) الوَقْب : النُّقْرة فى الصخر يستنقع فيها الماء .

(٢) أبادِيد : متفرِّقة ، قِطَعًا قِطَعا .

ولأكفينَّك ماعشتُ . فقال : « جزاك الله خيرًا يا أم جوانٍ أما إذ كذبتى فآيتى أن تذهبى فتستخرجى من جوف حقيبة عمر الحمراء بين جلدها ومفرشها كتابَ عبد الله بن هلال الفاسق بخط يده ، قد جعله تميمة لزوجك أن لا يراه أحدٌ إذا خرج إلى مأوى الفتاتين بالطائف ، ومعه منديلُ ابن هلال الأزرق ذو الوشى ، يمسح به وجْهَه قبل أن يرحل » . فما كذَّبت أن طِرْتُ إلى ما زعم ، فوالله لقد صَدَق وبَرَّ .

« قال عمر » ، قلت : ماتقولين ؟ قالت : صه ياعمر فوالله لقد صدق وبرّ ، وقلت له : أيها الشيخ ! أفأنت تعلَمُ أين تجد هاتين الخبيثتين ؟ قال : لا . قلت : فما تزعمُ فتاتك من أن لا شيء يفعله الخبيث ابن هلالٍ إلا كان عندك خبره ؟ قال صدقتْ . قلت : فكيف لا تعلم ؟ قال : إنه أخبث وألأم وأضل وأدهى وأقرب إلى إبليس وبنته يَيْذَخْ ذات العرش من أنْ أُطِيق معرفة ما انقطع بينى وبينه . قلت : وما يَيْذخ ذات العرش ؟ قال : إنها ابنة إبليس التى اتخذت عرشها على الماء حولها سودٌ غلاظ يشبهون الزُّطَّ ، حفاة متشققو الأعقاب ، ولايصل إليها إلّا من قدّم لها القرابين من حيوان ناطق وغير ناطق ، وترك لها من الصلاة والصوم ، وقدم إليها من الذهب والفضة واللآلىء حتى ترضى ، فإذا فعل ما تريد وصل إليها فسجد تحت عرشها ، فتُخدِمه [(١)] من يريد وتقضى حوائجه . قلت : وما علمُك بهذا أيها الشيخ؟ قال : ذاك شيء قد كان ، والله هو التواب الرحيم . قلتُ : قد كان ! قال : نعم أما اليوم فلا ، وما يأتينى بأخبار اللعين الزنديق ابن هلال إلا صاحب من الجن قد آمن بإيمانى ، ولكنه محجوبٌ عن الأسرار . فقالت أفلا تكرمنى أيها الشيخ فتسأل صاحبكَ أن يحتالَ ليعرف ؟ قال : لا أدرى ! ولكن ائتينى بطستٍ أُناطِقْ صاحبى .

« فأتيته بطستٍ فكبَّه ، وأخرج من كُمِّه غلالةً سوداءَ فنشرها عليه ، وأَمَر بالفتائل فأطفئت ، وطلب جمرات فى طبقٍ فلما تم ذلك أخرج عُودًا من المندلى فطيَّر دُخَانه ، وجلس حتى وإن عينيه لتبِصّان [(٢)] فى الظلماءِ ، وجعل يتمتم

---

(١) تخدمه تجعل له خَدَمًا .

(٢) تبِصّ : تَلْمَع .

ويدندن ويُهَمْهِم حتى كدتُ أنشقُّ ، ثم قال : يازوبعة ! فإذا صوتٌ يأتى كأنما يخرجُ من جوف بئرِ شَطونٍ [١] يقول : لبَّيك يا أبا الحسن ! وقال : أتدرى أين أنا ؟ قال : بلى دَرَيْتُ ! قال : لقد حضرنى من الأمر ما تَعْلم ، أفأنت بمُدْركى بمأوى قينتى ابن هلالٍ ؟ قال : لقد علمتَ ما لى ببيذخَ طاقة إيمانى بالله ورسوله ! قال : أفلا تحتال ؟ قال : تبًّا لك ! أترومنى أن أَرتَدَّ إلى الكفر بعد الإيمان ؟ قال يازوبعة ! أَمالك مِنْ صديقٍ ترفقُ به حتى تستلَّ منه السرّ ؟ قال زوبعة : هذا فراقُ بينى وبينك أيها الخبيث . ووالله ماتركتَ السِّحْرَ إلّا وفى قلبِك رَجْعَةٌ إليه . خسئتَ أيها الفاجر ! » . وإذا الطستُ يتحرَّك فينقلبُ فأرى كمثل شرارة النار تنطلقُ مُدَّة ثم تخْفَى . قال الشيخ : يا أمّ جوان ، لقد رأَيت ، ومالى من حيلةٍ . قلت : احتَلْ لى وقاكَ الله السوءَ ، ولا والله لا تخرج من هذه الدار حتى تعطينى المواثيق بأن تفعلَ ما أريد . قال : أم جُوَان ، وكيف بعذاب الله ؟

« قالت كلثم : فوالله ما إن سمعتُ مقالته حتى خانتنى قدماى فوقفت أبكى ويرفضُّ دَمْعى كلذْع الجمْر ، ورأيت الدُّنيا قد أطبقت علىَّ ، وماهو إلّا أن أَنشِجَ بالبكاء . فدنا الشيخُ وأسر إلىَّ أَنْ أبْشرى أمَّ جُوان ، فلا والله ما أدعُك أبدًا حتى يطمئن قلبك ، واصبرى غدًا تأتيك الصَّهْباءُ . وما أفقتُ حتى رأيتُنى كالمأخوذة وظمياءُ تنضَحُ وجهى بالماءِ . وبقيت الليل كلَّه أطويه ساعةً بعد ساعةٍ حتى أصبحَ الناسُ ، وقلبى يجِفُ ، ودمعى ينهلُّ ، وكأنّ فى سَمْعى دويَّ النَّحْل ، حتى إذا قام قائم الظهيرة جاءتْ صهباء ، فقالت : يقول لك مولاى إنه يَبْغِى رَفْرفَيْن من الديباج ، وعشرة أثواب من الإبريسَم ، وبُرْدين كذّابين [٢] من الخزّ ، وخمسين لؤلؤة لم تثقب . فما كذّبتُ أن أعطيتها ما طلبتْ . وغابت يومين ثم جاءتنى مع العشى وقالت : يقول لك مولاى : لو أطاقَ أن لا يكلّفك لفَعَل ، ولكن الأمرَ قد

---

(١) بئر شطون : بعيدة القَعْر .

(٢) الرفرف : البِساط ، وكل ما كان مِن دِيباج فهو رفرف . كذَّابيْن : يأتى مفرده أكثر مايأتى بصيغة المؤنث ، والكذَّابة : ثوب يُصْبَغ بألوان ، يُنَقَش كأنه مُوَشّى ، وفى حديث المسعودى : رأيت فى بيت القاسم كذَّابتين فى السقف ، لذا أظن أن صواب الكلمة بالتاء ، أى مؤنثة .

استعصى عليه بعد توْبته ، وإن يَبْذَخ (بنت إبليس) لتتقاضاه كِفاءَ ما عَصَاها فى طاعة الله . وإنها قد طلبت أن يذبحَ لها من الذبائحَ ما يسيلُ على جنباتِ الغَوْرِ (مسكن الجن) حتى ترضَى . قلت : كم يريد مولاك ؟ قالت : بين المئتين والثلاثمئة . فوالله ما كذّبتُ أن أعطيتُها . فما غابت إلّا يومًا أو بعضه حتى جاءت تطلبُ المنديلَ الذى أعصبُ به رأسى ، فما كذّبتُ أن أعطيتُها . ثم جاءتنى من الغَدِ عند الأصيل ، فقالت : يقول لك مولاى لا تصلى العشاء الآخرة الليلةَ حتى يُؤذِنَك . فوالله لقد كبر على ولكنى أطعتُه ، وإذا أنا أسمعُ فى سُدْفَة [1] الفجر صوتًا كالمتحدِّر ما بين جبلين يقول : قُومِى إلى صلاتِك . فقمتُ فصلَّيْتُ وما كدتُ حتى أذّن الفجر . فلما كانَ بعد أيامٍ جائتنى صهباءُ تقول : أبشرى ! سيأتى مولاى الليلة . قلت : مرحَبًا به من ضيف . فلما دَخَلَ الليل وسكن الناس ، جاءَ الشيخ لميعاده فسلّم وسكتَ ثم قال : انظرى إلىّ يا أم جوان . فنظرت فى عينين كالنار المشعلة فى الليلة الدّامسة ، وجعل يُمر يده بين عينىَّ وعينيه ، فكلما احتجبتا عنى أظلمت الدنيا فى عينى ، وإذا وقعت عينى فى عينه أضاءَ مابينى وبينه كالسراج المتوهج ، فوالله ما شعرت إلا وظمياءُ تنضحنى بالماءِ حتى أفيق . قلت : ياظمياء ! أين الشيخ ؟ قالت : لقد أذنتِ له أن ينصرف بعد أن أعطيته من المال ماطَلَب .. قلت : تبًا لى أين كان عَقْلى ؟ وكم أعطيته ؟ قالت : ألف دينار ذَهَبًا ، وواعدَك أن يأتيك بعد سبعة أيام بمأوى الخبيثتين .

« قالت كلثم : وهذا اليوم ميعاده ، ووالله لئن صدقتنى ياعُمَر لقد حفظتك ماعشتُ فى قلبى » .

« قال عمر بن ربيعة » : « فوالله ماكنت أدرى ما أقول ، إلا أنى قلت لها : أَصْدُقُكِ ؟ لقد ضللتِ إذن أيتها الحمقاء » . قالت : « أنا حمقاء أيها الفاجر الفاسق ! ثم قامت إلى صوانها فاستخرجت منه شيئًا ونشرته لعينى ، فإذا سَرَقةٌ [2] من حرير أبيض عليها صورتان ، فما تأملتها إلا كانتا والله قينتى ابن هلال حيث رأيتهما وسمعتهما بالكوفة ، ولقد كانتا فى السَرَقة أجمل وأفتن وأحبَّ إلىَّ مما

---

(١) السُدْفَة : الظلمة .

(٢) السَّرَقة : أجود أنواع الحرير .

كانتا . قلت : إنهما والله ياكلثم قينتا ابن هلال ! قالت : وصدق الشيخ أيها الفاجر ! أتَدَع حرائر بنى مخزوم إلى الخبيثات الدنيئات من بغايا الكوفة ، تخالف إليهن تحت الليل والسِّحر والكفْر وعبث الشيطان بك وبعقلك .

[قال عمر] : وإذا جوانٌ بالباب ينظر إلى الصورتين ، ثم يتقدم ويقول : ما بك يا أمَّاه ! فتقول : هذا الخبيث الفاجر يدع الحرائر من بنى مخزوم ملطَّمات [١] ويختلف إلى زوانى الكوفة يقتادُهن إليه الخبيث ابن هلال بالسحر والطلاسم . وهذا منديله يمسح به غبارَ وجهه لا يراه الناس ساعيًا إلى فجوره .

[قال عمر] : وجعلت تقص على جوان قصة ماكان ، وهى تنظر إلىَّ كاللبؤة المُجْرِية ريعت أشبالها ، فما كادت تفرغ حتى جاءت ظمياء مُعْجَلةً تقول : مولاتى ، صهباء بالباب . قالت كلثم : إيذنى لها . فما كدت أراها حتى فزعت قائمًا إليها وأخذتُها بغدائرها : « وإنك لأنتِ أيتها الشيطانة . فانقضَّتْ علىَّ كلثم تذودنى عنها وتقول : دعها أيها الفاجر قلت : إنها فِتَن جارية الخبيث الفاجر عبد الله بن هِلال ولطالما خدمتنى بالكوفة ! أليس كذلك يافتن ؟ قالت : أراك ياسيدى فما أنا إلا جارية بائسة مسكينة يركبنى هذا الشيطان بخبثه وخبائثه . قلت : وأين ابن هلال صديق إبليس ؟ قالت : ماتدركه يامولاى ! فقد ارتحل الليل وتركنى والثَّقَل . قلت : وما جئتِ تبغين ؟ قالت : أرسلنى أطلب المال من مولاتى .

قالت كلثم : دعها ياعمر الآن ، لقد ضللتُ إذن مافعلتُ ، ووالله لقد خدعنى الشيطان ابن هلال . أين كان .

فقال جوان : والله يا أمَّه ! لقد كان فجور أبى بخَبِيثتيْن من بغايا الكوفة ، أحبَّ إلىَّ من شِركك بالله وكفاك . قُومى يرحمك الله فتوبى إلى الله مما كان من ضلالك وكفرك .

* * *

---

(١) ملطمات : إما عنى بيض الوجوه ، وأصل ذلك فى الفرس إذا سالت غرته فى أحد شِقَّىْ وجهه ، وذلك من علامات الكرم . وإما أراد أن وجوههن (وسائرهن بالطبع) تفوح بالمسك ، وهى اللطيمة .

من وراء حجاب

أخى الأستاذ الزيات :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، فقد أكرمتنى ودعوتنى لكتابة مقالتى لعدد الهجرة من الرسالة ، فجعلت أماطل الساعات كعادتى حتى تضطرّنى إلى مأزقٍ أجد عنده مفرًّا من حمل القلم ، والإكباب على الورق ، وترك الزمن يعدو علىَّ وأنا قارٌّ فى مكان لا يتغير وزمان لايتحول . فلما كارب الوقت وأزفت الساعة ، فزعت إلى ذلك الكتاب القديم الذى طال عهد « الرسالة » به ، وهو « مذكرات عمر بن أبى ربيعة » ، حملت الكتاب حريصًا عليه ، ووضعته على المكتب بين يدىّ ، وترفقت بصفحاته وأنا أقلبه كما يقلب العاشق المهجور تاريخًا مضى من آلام قلبه . ووقعت على ورقة حائلة اللون قد تخرّمها البِلى ، وإذا فيها هذه الأبيات الثلاثة ، لم ينل منها شىء ، لا تزال ظاهرة السواد بيّنة المقاطع :

« فصروف الدهر فى أطْباقه ... خِلْفَةٌ فيها ارتفاع وانحدارُ [1]
بينما الناس على عليائها ... إذ هوَوْا فى هوَّة منها فغاروا
إنما نَعْمَة قوم مُتْعة ... وحياة المرء ثوب مستعارُ »

لم أدر لِمَ نقل « عمر بن أبى ربيعة » هذه الأبيات فى مذكراته ، فإنها قائمة وحدها ليس قبلها ولا بعدها شىء يدل على ما أراد من ذكرها، فجعلت أداور الأوراق لعلى أبلغ مبلغًا من توهُّم خبرها الذى سيقت من أجله ، وجعل معناها يداور قلبى ويساوره حتى كفَّت يدى عن الحركة ، وسكن بصرى على مكانها ، وأحسست كأن القدر قد نام فى ظلالها كالمارد الثمل طرحه طغيان السكر حيث

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٥٣) ، يناير ١٩٤٦ ، ص : ٨ - ١١

(١) أطباقه : أحواله المختلفة . خِلْفة : يخلف بعضها بعضا ، يتعاقب فيها الخير والشر ، والغنى والفقر ، والصحة والمرض .

استقر ، وأطاف بنفسى جو من السكون والرهبة والجلال ، وأخذت أستغرق فى تأمل هذه الحياة المتكررة المتطاولة الدائبة منذ عهد أبينا الشيخ آدم رحمه الله إلى يوم الناس هذا . فآنست فترة [١] تأخذنى ، ثم نعسة تتغشّانى ، وسبحت فى غمرة طويلة لذيذة لا عهد لى بمثلها منذ عَقَلْتُ .

وإذا أنا أفضى من غمرتى إلى ميدان فسيح أخضر الجوانب متراحب الأرجاء ، وإذا مسجد بعيد يستقبلنى كأحسن ما رأيت من مسجد بناءً وبهاءً ، قد تباعدت أركانه وتسامت فى جو السماء مآذنه ، ويبرق بابه ويتلألأ شعاع الشمس عليه . فقصدت قصده ، ولم أكد أدنو حتى رأيت جموعًا غفيرة من الخلق يستقبلون الباب خارجين ، فى ثياب بيض وعمائم بيض كأنها غَمامٌ تزجّيه الرياح [٢] . فوقفت وسألت أول من لقيت : ما الذى جمع الناس ؟ قال : إنه الشيخ أيها الفتى . قلت : فمن الشيخ يرحمك الله ؟ قال : غريب والله ، إنه الشيخ أبو جعفر الطبرى إمام أهل السنة ، وشيخ المفسرين ، وعمدة المحدِّثين ، وثقة المؤرخين ، ردّ الله غربتك يافتى . قلت له : جزاك الله خيرًا ورضى عنك وأرضاك ، أترانى أدركه الساعة ؟ قال : هو رهين هذا المسجد لا يبرحه ، فادخل تلقه .

ولم أزل أحتال للدخول وأمواج الناس تتقاذفنى عن الباب حتى كدت أيأس من لقاء الشيخ ، وظننت أنى لو بقيت دهرًا لم تنقطع هذه الأمواج المتدفقة من باب المسجد . وظللت أزاحم حتى بلغ منى الجهد ، وانتهيت إلى صحن المسجد وقد انفضّ جمع الناس ، ولم يبق فيه غيرى . وجعلت أسير أتلفت وانظر فى مقصورة بعد مقصورة ، حتى رأيت بصيصًا من ضوء فى مقصورة بعيدة ، فلما وافيتها ، وكانت الشمس قد آذنت بغروب ، رأيت مسرجة معلقة وحجرة واسعة ، وآلافًا مؤلفة من الكتب قد غطت الجدران . فاستأذنت ثم سلمت فلم أسمع مجيبًا ، فدخلت ، وإذا فى جانب منها شيخ ضافى اللحية أبيضها جميل الوجه ، قد اتكأ وأخذته سنة من نوم ، وقد مالت عمامته عن جبين يلمع كأنه سُنَّة مصقولة من ذهب ، وبين يديه كتب وأوراق مبعثرة أو مركومة ومحابر وأقلام .

---

(١) فترة : ضَعْف وفُتُور .

(٢) تزجّيه : تدفعه وتسوقه .

سرقت الخطو حتى قمت بين يدى هذا الشيخ النائم ، ثم جلست وجعلت أقدم ثم أحجم أريد أن أمسك شيئًا من ورقه لأقرأه ، ثم عزمت فأخذت ما وقعت عليه يدى ، فإذا هو تتمة تاريخ أبى جعفر الطبرى الذى كان سماه « تاريخ الأمم والملوك » ، وكان الجزء الذى فيه يبدأ من سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف من الهجرة (سنة ١٣٦٥ هجرية الموافق لسنة ١٩٤٦ م) ، فانطلقت أقرأ تاريخ هذا الزمن وما بعده . وعسير أن أنقل لك كل ماقرأت ، فسأختارلك منها نتفًا تغنى ، كما كتبها الإمام أبو جعفر ، وبعضها منقول بتمامه ، وبعضها اختصرت منه حتى لا أطيل عليك . قال أبو جعفر :

[ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

فمن ذلك ماكان من إجماع المجلسين الأمريكيين على فتح أبواب فلسطين لشذَّاذ المهاجرين من اليهود . وكتب إلىَّ السُّدّى ، وهو مقيم هناك فى أمريكا ، أن موقف الرئيس ترومان الذى كان ادَّعاهُ من إيثاره العقل على الهوى فى هذا الأمر ، إنما كان حيلة مخبوءة أراد بها أن يغرر بالبلاد العربية والإسلامية ، ثم يفاجئها بحقيقته . وهو فى ذلك إنما يعمل للظفر بمعونة اليهود فى الانتخاب الآتى للرياسة . ولما كان هواه هو الذى يُصرِّفه ، فقد علم أنه طامع فى الرياسة حريص عليها ، وأن اليهود فى أمريكا هم أهل المال ، أى أهل السلطان ، أى هم الأنصار الذين إذا خذلوه فقد ضاع . قال السدّى : وقد سمعت بعض أهل العقل والرأى فى أمريكا يستنكرون ماكان منه ومن قرار مجلسيه ، ويرون أن الديمقراطية اليوم قد صارت كلمة يراد بها التدليس على عقول البشر ، ليبلغ بها القوى مأربه من الضعيف المغرور بهذه الرقية الساحرة التى يدندنون بها فى الآذان . وقد أخبرنى الثقة أن الرئيس ترومان قد أَوْحى إليه بعض بطانة السوء أن العرب والمسلمين قومٌ أهل غفلة ، وأن دينهم يأمرهم بالصبر ويلح فيه ، فهم لا يلبثون أن يستكينوا للأمر إذا وقع ، ولا يجدون فى أنفسهم قوة على تغييره أو الانتقاض عليه ، وأن الزمن إذا تطاول عليهم فى شيء ألفوه ولم ينكروه . فإذا دام دخول اليهود فلسطين وبقى

الأمر مسندًا إلى الدولة المنتدبة (وهى بريطانيا) ، وانفسح لحمقى اليهود مجال الدعوى والعمل والتبجح ، وألح على العرب دائمًا إجماع الدنيا كلها (أى الديمقراطية) بأن الدولة اليهودية فى فلسطين حقيقة ينبغى أن تكون وأن تتم كما أراد الله ، فيومئذ يلقى العرب السَّلَم ، ولا يزالون مختلفين حتى ينشأ ناشئهم على إلف شيء قد صبر عليه آباؤه ، فلا يكون لأحد منهم أدنى همة فى تغيير ما أراد الله أن يكون ، مما صبر عليه آباؤهم وأسلافهم - وهم عند العرب والمسلمين - أهلُ القدوة .

وفى هذه السنة كتب إلىَّ السُّدّى أيضًا يقول إنه لقى أحد كبار الدعاة من اليهود ، وكان لا يعرفه ، فحدثه عن أمر اليهود فى فلسطين ، فقال له الداعى اليهودى : لا تُرَعْ ، فنحن لابدّ منتهون إلى ما أردنا ، رضى العرب أم أبوْا . وما ظنُّك بقوم كالعرب خير الحياة عندهم النساء ، وقد قال نبيهم : « حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجعلتْ قُرَّة عينى فى الصلاة » ، ولقد سلطنا عليهم بنات صهيون ، وهن من تعلم جمالا ورقة وأبدانًا تجرى الحياة فيها كأنها نبع صافٍ يتفجر من صفاة شفافة كالبلَّوْر . وهن بنات صهيون دلال وفتنة ، وعطر يساور القلوب فيسكرها ويذهلها ثم يغرقها فى لذة يضن المرء بنفسه أن يصحو من خُمارها أو نشوتها ، منصرفًا عن أمر الدنيا كله لا عن الصلاة وحدها التى جعلت قرة لعين نبيهم . فهن فى فلسطين ، وهن فى الشام ، وهن فى مصر والعراق وتونس والجزائر ومراكش ، ولولا تلك البقعة العصية التى لا تزال نخشى بأسها على ضعفها وقلتها وفقرها - أعنى الحجاز وما جاوره - لقلت لك : لقد قضينا على هذه العرب ، وعلى هذا الدين الدخيل الذى سرق منا التوحيد وادّعاه لنفسه ...

[ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

فمن ذلك ماكان من اجتماع ملوك العرب وأمرائهم ووزرائهم بعد الحج من

السنة التى قبلها ، اجتمعوا فى مدينة رسول الله ﷺ ، وقرَّ قرارهم على أن يعلنوا للناس جميعًا وينذروهم بما رأوا وبما أجمعوا عليه :

الأول : أن ميثاق الأطلسى ومواثيق الدول الكبرى كلها تغرير بالضعفاء وتلعب بعقولهم .

الثانى : أن فلسطين ستجاهد ، ومن ورائها بلاد العرب والمسلمين جميعًا تظاهرها بالمال والولد .

الثالث : أن الفتك والغدر والاغتيال ليس من شيمة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاغتيال الشنيعة المنكرة التى اقترفها اليهود ينبغى أن تقابل بالصدق والصراحة لا بالغيلة والغدر .

الرابع : أن الأمم العربية والإسلامية تعلم أن ليس لديها اليوم من السلاح مايكفى لقتال الأمم المعتدية التى تظاهر اليهود بالمال والسلاح ، ولكنها ستقف كلها على بكرة أبيها صفًا واحدًا تقاتل بما تصل إليه يدها من مقاطعة ومنابذة وكبرياء . وأنها تفعل ذلك ما استطاعت ، ولكنها لن تظلم يهوديًا ولا نصرانيًا ولا أحدًا من أهل الأديان ، ولن تضطهد بريئًا ولا لاجئًا ، وأنها لن تقنع بشىء بعد اليوم إلا بجلاء المعتدين والمستعمرين من بلادها ، وجلاء اليهود عن أرض فلسطين ، ومن شاء أن يبقى فيها من يهود ، فله ما لنا وعليه ما علينا .

الخامس : أن الأمم العربية الإسلامية قد عزمت على أن تبدأ منذ هذا اليوم فى انتخاب مجلس عام تمثَّل فيه جميعًا ، وهذا المجلس هو الذى سيضع الدستور العام للدول العربية والإسلامية ، حتى إذا تمَّ وحّدت هذه الدول سياستها الداخلية والخارجية ، وصارت يدًا واحدة فى العمل ، لتقاوم بذلك اتحاد الأمم الديمقراطية الغربية ، التى لم تزل تريد أن تجعل الشرق سوقًا وأهله عبيدًا .

[ثم دخلت سنة ثمان وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

ففيها أراد اليهود فى بعض البلاد العربية أن يظاهروا إخوانهم فى فلسطين ،

فأجمعوا على جعل يوم السبت كله منذ الصباح يوم عطلة فأغلقوا دكاكينهم ، ورفعوا عليها أعلام الدولة الصهيونية المجترئة ، واجتمعوا فى بِيَعهم وجمعوا مالا كثيرًا بلغ عشرين مليونًا من الجنيهات لمساعدة المصانع التى كادت تغلق أبوابها من جرَّاء المقاطعة التامة التى أحسنت الأمم العربية توجيهها وتدبيرها .

ومما كان من ذلك فى هذه السنة اجتماع المؤتمر العام لنساء العرب فى دمشق ، وقد قرّرن أن تعود المرأة إلى بيتها عاملة على إنشاء جيل من البنين والبنات لم تفسده الشهوة التى استبدت بالناس فى تقليد ذلك الفجور القبيح الذى عملت يهود على نشره فى بلادهنّ من زينةٍ وتبرجٍ ورقص وتحلُّل من أخلاق السلف ، وذلك لكثرة ماوقع من حوادث هدمت بيوتًا عزيزة وأسرًا كريمة ، وأفضت إلى ضروب من المآسى لم يطق أحد عليها صبرًا .

وفيها أيضًا أجمعت الصحف العربية والهندية الإسلامية والتركية والفارسية مقاطعة الإعلان اليهودى . وكل صحيفة تخالف هذا الإجماع يُمحى اسمها واسم رئيس تحريرها ومحرّريها من سجل نقابة الصحافة ، ولا تفسح لأحد منهم فرصة حتى يعمل فى صحيفة أخرى بعد هذه المخالفة .

[ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

اشتعلت نيران الحروب فى الشرق كله ، واجتمع رؤساء الدول العربية والإسلامية فى مكة المكرمة ووحّدُوا قيادة الجيوش العربية ، ولكن لم يلبث سفير بريطانيا فى مصر وسفير أمريكا أن أرسلا برقية إلى المجتمعين فى مكة يطلبون وقف الحركات الحربية التى سموها (ثورة) ، ورغبوا إلى ملوك العرب ووزرائهم أن يتمهّلوا حتى يصدر تصريح مشترك من الدولتين الكبيرتين ، على شريطة أن تمتنع البلاد العربية من متابعة السياسة الروسية التى تتظاهر بمؤازرة العرب والمسلمين .

وبعد أيام صدر هذا التصريح ، وهو ينص على أن للعرب ما أرادوا من وقف

الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وعلى العرب أن يتولوا بأنفسهم مفاوضة يهود فلسطين على السياسة التى يريدونها ، وأن بريطانيا وأمريكا لن تتدخَّلا فى الخلاف الناشب بين الفريقين ، وأن الدولتين الكبيرتين ستمنعان كل مساعدة تُرسل من بلادهما إلى فلسطين من مال أو سلاح ...

[ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

تمَّ استخدام الذرَّة وانفلاقها فى كل شيء ، وحدث فى زراعة البلاد انقلاب عظيم ، إذ أصبح من اليسير استنبات نبات الصيف فى الشتاء ، ونبات الشتاء فى الصيف . وقد بدأ ملوك العرب أعظم عمل فى التاريخ ، وهو استخدام أسلوب جديد يحوّل الرمالَ العاقرة إلى أرض خصب وافرة الزَّرع ، وقد نفَّذ هذا فى جزء كبير من صحراء جزيرة العرب . أما فى مصرَ والسودان ، فقد تَمَّ توزيعُ ماء النيل وضبطُه حتى لا يضيع من مائه إلا أقل قدر ، وبذلك أتيح لمصر أن تُنشىء ثلاثة فروع جديدة شَقَّتها فى الصحراء الشرقية حتى أفضت إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) ، وصار ما بينها أرضًا مَرِيعة ذات خصب . وبذلك سيتاح لمصر أن يبلغ عدد سكانها أربعين مليونًا من الأنفس فى أقل من عشرين سنة .

ومما كان من ذلك نهضة عامة فى سياسة البلاد العربية ، جعلت الرأى العام العالمى يناصر القضية العربية مناصرة تامة فى أكثر بقاع الأرض ...

[ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

كثرت حوادث الاغتيال والفتك فى كثير من البلاد العربية والأجنبية ، وقُتل من العرب وأنصار العرب من سائر الأمم خلق كثير ، واستفحل الشرّ استفحالا عظيما ، حتى ثارت الصحف الإنجليزية والأمريكية وطالبت حكوماتها بإعلان قرار واحد بأن الرأى العام والسياسة العامة فى سبيل السلام تقتضى أن تُبذل النصرة الكاملة للعرب وللقضية العربية ، وأن تتعاون الدول على ردّ العدوان الصهيونى

الذى صار طغيانًا شديدًا فى جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغى على الدول جميعًا أن تضحى فى سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهى قيود اليهودية التى جعلت كل الأمم ترسف فى أغلالها ...

[ثم دخلت سنة ثمانين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

كتب إلىّ السُّدِىّ يقول : إن أمريكا قد قررت إجلاء اليهود من أرضها كلها ، وأن تستصفى أموالهم ، ولا يبقى فيها إلا علماء اليهود وحدهم إن شاءوا . ومن المنتظر أن تفعل بريطانيا وسواها من الدول مثل مافعلت أمريكا .

وفيها ثار العمال اليهود فى فلسطين على أصحاب المصانع اليهودية ، وذلك من جرّاء بوار أكثر التجارة اليهودية التى نهكتها المقاطعة العامة فى بلاد العرب والمسلمين ، ولقلة الأجور ، ولكن الحكومة اليهودية ضبطت الأمر وبذلت الأموال ، وجنّدت جيوشًا عظيمة العدة والعدد . وحدثت أحداث عظيمة فى أكثر بقاع الأرض . حتى وقع التنابذ بين الدول الكبيرة التى لا يزال لليهود فيها سلطان عظيم .

وأخوف ما يُخاف أن تقع فى هذه السنة حرب عالمية تستخدم فيها جميع الأسلحة الجديدة التى يخشى أن تكون على العالم دمارًا وخرابًا .

* * *

واستيقظ الشيخ من غفوته ، ونظر إلىّ نظرة المتعجب ، وقال من أنت ؟ وماتفعل ؟ فانتبهت فزعًا ، وإذا أنا أقرأ فى تفسير الشيخ أبى جعفر الطبرى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

* * *

تهجم على التخطئة « السلام عليكم » :

إلى أخى البصام :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، فقد رأيتك تستغرب هذه التحية المباركة[١] التى يهديها الرجل إلى أخيه ، وأتاك هذا الاستغراب من أن قومًا زعموا أن « القاعدة » هى أن نبتدئ الكتاب بـ (سلام عليك أو عليكم) ، بدون (ال) التعريف ، فإذا جاء الختام قلنا : (السلام عليك أو عليكم) ... وأن بدء الكتاب بقولنا (السلام عليكم) خطأ شائع فى هذه الأيام !! إلخ . واستدللت بقول الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فى أكثر من ثلاثين موضعًا على وجوه مختلفة . وصدق الله الذى يقول فى سورة مريم : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا ﴾ بـ (ال) التعريف ، وصدق الله الذى يقول فى سورة طه لموسى وهرون : ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ بـ (ال) التعريف أيضًا . فلا تستغرب ياسيدى !

ولا تستغرب أيها السيد الكريم إذا علمت أن أهل القبلة جميعًا كانوا ، ولا يزالون ، وسيظلون إلى آخر الدهر ، يقول الرجل منهم إذا انتهى من سجوده وقعد للتشهد : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . ولا تستغرب إذا أنت قرأت فى صحيح البخارى فى باب (مايتخير من الدعاء بعد التشهد ليس بواجب) : « حدثنا مسدَّد ، قال حدثنا يحيى ، عن الأعمش ، حدثنى شقيق ، عن عبد الله قال : كنا إذا كنا مع النبى ﷺ فى الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان . فقال النبى ﷺ : لا تقولوا ، السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٥٩) ، فبراير ١٩٤٦ ص : ١٩٩ - ٢٠٠

(١) وذلك فى مقاله : إلى الأستاذ الفاضل محمود محمد شاكر ، الرسالة ، العدد ٦٥٨ ، فبراير ١٩٤٦ ، ص : ١٧٠ - ١٧١

عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد فى السماء ، أو بين الأرض والسماء - أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله . ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو » . وكذلك فى باب (التشهد فى الآخرة) من صحيح البخارى .

ولا تستغرب ياسيدى أيضًا إذا مر بك وأنت تقرأ فى مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٤٣٩ من حديث عمران بن حصين : « أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليكم ، فرد ، ثم جلس فقال (يعنى رسول الله) : عشْرٌ . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد ، ثم جلس ، فقال : عشرون . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد ، ثم جلس ، فقال : ثلاثون » . أقول : يعنى رسول الله ﷺ : عشر حسنات ، وعشرين حسنة ، وثلاثين حسنة . وكل ذلك بـ (ال) التعريف أيضًا .

ولا تستغرب ياسيدى إذا رأيت فى مادة (سلم) من لسان العرب : « ويقال السلام عليكم ، وسلام عليكم ، وسلام ، بحذف عليكم . ولم يرد فى القرآن غالبًا إلا منكّرًا .. فأما فى تشهد الصلاة ، فيقال فيه معرَّفًا ومنكّرًا ... وكانوا يستحسنون أن يقولوا فى الأول : سلام عليكم ، وفى الآخر : السلام عليكم ، وتكون الألف واللام للعهد ، يعنى السلام الأول » . ومن هنا أتى من لا يُحسن العربية ، وقلّ إطلاعه على كتبها وفقهها - والاستحسان هنا منصبٌّ على ماكان فى التشهد - فإنه ، كما ترى عنى بالأول ، ماكان فى التشهد ، وبالآخر السلام الذى يُخرجُ من الصلاة . وهذا شىء قال به بعض فقهائنا وأئمتنا استحسنوا من عند أنفسهم أو مما روَوا .

ولا تستغرب ياسيدى إذا وقفتَ يومًا على قول الأخفش « ومن العرب من يقول : سلام عليكم ، ومنهم من يقول السلام عليكم . فالذين ألحقوا الألف واللام حملوه على المعهود والذين لم يلحقوه حملوه على غير المعهود » . ثم عاد فقال : « وفيهم من يقول : سلام عليكم ، فلا ينوّن » ؛ ثم ذكر العلة فقال « حمل ذلك على وجهين : أحدهما حذف الزيادة من الكلمة كما يُحذف الأصل على نحو « لم يك » ، والآخر أنه لما كثر استعمال هذه الكلمة ، وفيها الألف واللام ،

حذفا لكثرة الاستعمال كما حذفا من اللهم ، فقالوا : لهُمّ » . وكأنه جعل « السلام عليكم بالتعريف هى الأصل الذى كثر استعماله » .

فلا تستغرب إذا نظرت فرأيت أن الذى جاء فى مقالتى ليس خطأ ولا مجاراة على خطأ . ولا تستغرب إذا أنا قلت لك : إن أدعياء اللغة إنما يُؤتَوْن من سوء التقدير لما يقرأون ، ومما انطوت عليه قلوبهم من حب التعالم على الناس بشىء يدعونه ويلتمسون له الحجة ، حتى ما يدرك أحدهم فرق مابين « سلام عليك » و« سلام » و« سلامًا » ، كما جاءت فى كتاب الله فى أكثر من ثلاثين موضعًا ، وبين ماجاء فى كتاب الله أيضًا من قوله ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ ، وقول رسول الله الذى تلقاه المسلمون عنه فى تشهد الصلاة وفى التحية .

واعلم ياسيدى أنى قنعت لك ولنفسى وللناس بالنقل مجردًا ولم أتبعه ببيان الفروق فى المعانى ، وما ينبغى وما لا ينبغى ، ولا تحرَّيت لك ولا للناس أن ألج بهم موالج فى دقيق العربية وغامضها تدل على أن من نقلتَ أنتَ عنه هذا القول قد تمحَّل [(١)] وتهجَّم على ما لا علم له به ، وعلى ما لا يحسنه ولا يجيده !

فلا يغرنْك التبجح بالعلم ، ولا تقنع من المتحذلقين بما يسمونه « القاعدة » ، فلعلها باطل مزور ، وكذب مختلق ، واجتراءٌ على العربية هى من سوآته براءٌ ، ولعل دليلهم يكون هو الدليل على بطلان ما يزعمون كما رأيت . وفى هذا مقنع وهدًى .

والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

(١) تمحل : سَعَى إلى الشىء وطلبه وتصرَّف فيه .

وأيضا تهجم على التخطئة !

إلى أخى البصام :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فيخيل إلىَّ – والله أعلم – أنك رجل واسع المعرفة ، مغرًى بالتحصيل ، دقيق البصر ، تطلب الكلام وإسناده ووجهه ومكانه وضوابطه . وحسب طالب المعرفة أن يكون كمثلك .

وقد طلع علىَّ مقالك فى الرسالة [١] ، فما أدرى والله من أى أمريك أعجب ؟ من واسع معرفتك ، أم من حسن تهديك إلى مواطن الشبهة فى كلامى . أم لعلى أعجب من استجلابك للحجة بعد الحجة فى تخطئة شىء كان الناس فى غنى وراحة عن اضطرابهم بين صوابه وخطئه ؟

ومختصر القول هو أنك تريد تقول إن الكتاب ينبغى أن يبدأ كما بدئ فى بعض كتب رسول الله ﷺ وكتب أصحابه بقولك : « سلام عليك » فإذا كان الختام قيل : « والسلام عليك » ، وأن من بدأ الكتاب بقوله : « السلام عليك » فقد أخطأ . أفهذا شىء من أدب الكتابة واتباع السُّنة وحسب . أم هو قاعدة توجب الاتباع نحوًا ولغة ورواية ، فيكون من بدأ بقوله : « السلام عليك » معرفًا فقد أخطأ فى حق النحو واللغة والرواية ؟ وكلامك كله يدل على أن البدء بالسلام المعرَّف خطأ من قبل النحو واللغة والرواية . أليس كذلك ؟

فإذا كان ذلك كذلك ، فقد رويت لك قول صاحب اللسان فى مادة (سلم) : « ويقال السلام عليكم ، وسلام عليكم ، وسلام بحذف عليكم » ، وهذا ولا ريب قول اللغة والرواية والنحو فيما رواه لنا الرواة ، فى تحديد بدء السلام (الذى هو التحية) . هذه واحدة .

ثم ذكرت لك قول الأخفش الذى رددته على ، وقلتَ إنه لايعتدّ به (هكذا) ، لأنى لم أذكر مصدره الذى نقلتُ عنه ، وفيه تصريح بيِّن كتصريح

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٦٤) ٢ مارس ١٩٤٦ ، ص : ٣٣٣ – ٣٣٦

(١) العدد ٦٦٢ ، مارس ١٩٤٦ ، ص : ٢٨٣ – ٢٨٤ .

صاحب اللسان ، ثم زاد فأَظْهَرَنا على العلة فقال إن « سلام عليكم ، حذفت منه الزيادة (وهى الألف واللام) كما يحذف الحرف الذى هو من أصل الكلمة فى قولنا : (لم يك) ، وعلة أخرى هى أنه لما كثر استعمال « السلام عليك » بالألف واللام حذفا لكثرة الاستعمال . وهذا تقرير يدل على أن اللغة والنحو والرواية تجعل الأصل فى السلام المبدوء به هو التعريف .

فإن شئت أن تعرف أين وقع هذا الكلام عن الأخفش فاطلبه فى ص ١٥٢ ج ١ من كتاب تهذيب الأسماء واللغات للنووى وفى غيره أيضًا . هذه ثانية .

فإذا شئت أن تزداد علمًا فخذ كتاب « المخصص » لابن سيده ج ١٢ ص ٣١١ واقرأ قوله : « فأما قولهم : سلام عليك ، فإنما استجازوا حذف الألف واللام منه ، والابتداء به وهو نكرة ، لأنه فى معنى الدعاء ، ففيه وإن رفعتَ معنى المنصوب » . يريد كأنك تدعو فتقول : « سلاما » . وقوله « استجازوا » دليل على أن الأصل هو التعريف بالألف واللام فى ابتداء التحية ، وأن الحذف ترخُّص منهم ، وهو شبيه بقول الأخفش . هذه ثالثة .

فإن شئت أن تضرب الأمثال لنفسك بالشعر كما ضربتها لى ، فأقرأ قول جريرفى ديوانه ص ٤٤٣ وفى النقائض ج ١ ص ٢١٢ .

يا أمّ ناجِيةَ السّلامُ عليْكُم قبلَ الرواحِ وقبلَ لوْمِ العُذَّل

هذه رابعة .

وإن شئت أن تقرأ قول لبيد في الخزانة ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٨ وفى ديوانه :

إلى الحَوْلِ ثم اسْمُ السلامِ عليكُما ومن يَبْكِ حوْلًا كاملًا فقد اعْتذَر

فافعل ، تجد قولهم أن كلمة (اسم) مقحمة ، وتقدير الكلام فيما يقول النحاة : « ثم السلام عليكما » ، وتجد أيضًا فى إحدى الروايات « إلى سنة ثم السلام عليكما » . هذه سادسة [1] .

فانظر لنفسك هل أخطأ كل هؤلاء وأصبت أنت ؟

---

(١) كذا فى الأصول ، وحقها أن تكون : هذه خامسة .

واعلم مشكورًا أن المقام فى هذا كله مقام ابتداء لا مقام ختام مسبوق بسلام منكر غير معرف .

وأما نص ابن قتيبة فهو كلام بين لا غموض فيه ، فالرجل يقول لك : « تكتب فى صدر الكتاب : سلام عليك ، وفى آخره السلام عليك » ، ولم يقل لك إنه « ينبغى » ، ولا أن القاعدة « أن تكتب فى صدر الكتاب كذا ... » ، وهو إنما ذكر هذا فى كتابه فى (باب الهجاء) لا فى باب أدب الكتابة كما ترى ، ولم يأمر الرجل ولم ينه ، ولم يقل لك إن من قال فى أول كتابه « السلام عليك » معرفًا فقد أخطأ ، كما شئت أنت تقوّله . وأما ماذكره من أمر التعريف ، فإنه أراد أن يعلمك لِمَ عُرّف ثانيا وقد جاء منكرًا وهو أول ، وكان حقه أن يأتى فى الآخر منكرًا مرفوعًا كما جاء فى الأول فقال لك : « لأن الشيء إذا بدئ بذكره كان نكرة ، فإذا أعدته صار معرفة ، وكذا كل شيء . تقول : مر بنا رجل ، ثم تقول : رأيت الرجل قد رجع ، فكذلك لما صرت إلى آخر الكتاب ، وقد جرى فى أوله ذكر السلام عرفته أنه ذلك السلام المتقدم » ، ويريد أن يقول إن التعريف هنا « للعهد لا للجنس » . هذا كل ما فى كلام الرجل لم يوجب شيئًا ولم يمنع شيئا .

وأما الآية التى فى سورة مريم من قول عيسى عليه السلام ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ ... ﴾ ، وما جاء من قول الزمخشرى فيها : « قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله يعنى فى قول الله تعالى ليحيى : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ ... ﴾ فذلك تفسير من الزمخشرى لمعنى (ال) فى قول من قال إن التعريف هنا للعهد . وأبى الزمخشرى أن يكون كذلك ، لأن العهد ههنا باطل عنده ، فالسلام المذكور فى قصة يحيى كان من قول الله سبحانه قبل مولد عيسى ، وهو آت فى أول السورة فى الآية (١٥) ، ثم مضى بعدها [واذكر فى الكتاب مريم] وذكر الله سبحانه قصتها ، حتى أفضت إلى كلام عيسى وهو فى المهد إذ قال : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ ... ﴾ فى الآية (٣٣) فبيْنَ السلام الأول والثانى (١) انقطاع فى المدة (٢) وانقطاع فى السَّرْد (٣) واختلاف فى مُبْتَدِئ السلام ومُلْقِيه ، فالأول من الله والثانى من عيسى . هذا وسلام عيسى فى الآية الثانية المعرف فيها السلام ، ابتداء ولا ريب .

ومن أجل ذلك ذهب الزمخشرى إلى أن التعريف ههنا للجنس لا للعهد (وهذا كما ترى يخالف كل المخالفة ما أراده ابن قتيبة فى كلامه) . ثم ذكر الزمخشرى نكتة البلاغة فى التعريف فقال إن تعريف الجنس هو الصحيح لا تعريف العهد «ليكون تعريضًا باللعنة على متهمى مريم وعلى أعدائها من اليهود» . وهى عندى تعليل ضعيف جدًّا من الشيخ رضى الله عنه ، وكان خليقًا به أن يصرف عنه وجهه . ولولا أنه كان مولعًا بنكت البلاغة لما وقع فى مثل ما وقع فيه . وإن شئت أن تزداد فقهًا ومعرفة بما قلت فاقرأ تفسير الشهاب الخفاجى والألوسى والقونوى وأبا[1] حيان وكتاب الأنموذج للرازى وتدبر ما فيها كل التدبر .

وأما قوله فى الآية الأخرى من سورة طه : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ إن معنى التعريف ههنا التعريض بحلول العذاب على من كذب وتولى ، فهذا جيد وحسن لقوله تعالى فى الآية التى فيها : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ . هذا أيضًا طلب لنكت البلاغة ، وتبيان لأن التعريف ههنا للجنس . ولكن الزمخشرى لم يقل لك ، ولا غيره فيما أحسب يقول لك : إن تعريف الجنس ينبغى أبدًا أن يكون متضمنا معنى تعريض بشىء كالعذاب أو الويل أو الهلاك أو سوى ذلك كله .

ولو كان ذلك كذلك أيها الصديق لكان قصر تعريف الجنس على التعريض عجبًا من العجب المضحك ، فانظر إلى قولك «سلام عليك» التى كان أصلها «سلامًا عليك» منصوبة بفعل محذوف ، التى عدل بها من النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات معنى السلام واستقراره ، مع بقائها فى معنى الدعاء ، فأنت إذا عرفتها تعريف الجنس فقلت «السلام عليك» اقتضت التعريض ، فعندئذ تقول لى كما قلت : «وبديهى أيها الأستاذ أنك لا تعنى بقولك (السلام عليكم) فى بدء كتابك الأول تعريضًا بأحد إذ لا حاجة إلى التعريض» .

---

(١) كذا فى الأصول ، والصواب : أبى ، إلا إذا كان أستاذنا رحمه الله أراد : واقرأ أبا حيان وكتابَ الأنموذج .

فخذ عندئذ أختها وهى قولهم « حمد لله » التى كان أصلها حمدًا لله » منصوبة بفعل محذوف ، والتى عدل بها من النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات معنى الحمد واستقراره ، مع بقائها فى معنى من معانى الشكر والدعاء . فإذا عرفتها تعريف الجنس فقلت : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أفيقتضى ذلك تعريضًا أو توبيخًا أوتهكمًا !!! ألا يكون هذا عندئذ عجبًا من العجب المضحك .

ومن أجل تعريف الجنس ما أتعب الزمخشرى نفسه فى آية مريم وفى آية طه . وفى سورة الفاتحة من تفسير قوله : « الحمد لله » فاقرأه هناك وتدبره كل التدبر .

وأما مسألة حديث التشهد فأراك جُرْت فيها على الحق . ولقد قلت فى مقالك : « أما أهل القبلة فتشهُّدهم بعد الصلاة مختلف عليه ، فمنهم من يقول (سلام عليك) ومنهم من يقول (السلام عليك) » . وقبل كل شىء ، فتشهُّد أهل القبلة لا يكون « بعد الصلاة » وهو « من الصلاة » ومن تركه أو بدّل فيه بطلت صلاته . هذه واحدة ، وأما الثانية ، فاختلاف أهل القبلة ليس يقال كما رويتَ ، فالصحابة جميعًا والتابعون من بعدهم ، وأئمة المذاهب من عرفت منهم ومن لم تعرف ، مذهبهم تعريف السلام فى التشهد كله إلا (ابن عباس) من الصحابة ، والشافعى من أصحاب المذاهب ، فإنه ارتضى تشهد ابن عباس وآثره لأنه عنده (هو) أتم الروايات وأكملها ، ولكنه لم ينكر التعريف ، ولا استنكره المزنىّ ولا سواه من أئمة مذهبه . فلو أنت عنيت نفسك فرجعت إلى شرح البخارى كابن حجر (ج ٢ ص ٢٦١ وما بعدها) والعينى (ج ٦ ص ١٠٩ ومابعدها) لعرفت أن الصحابة والتابعين مجمعون على روايته بالتعريف فى التشهد جميعًا ، ولرأيت أن أكثر الصحابة قالوا فى حديث التشهد إن رسول الله ﷺ كان يعلمهم التشهد كما يعلمهم السورة من القرآن ، ولرأيت النووى وهو من أصحاب الشافعى يقول : « قوله السلام عليك أيها النبى ، يجوز فى السلام فى الموضعين حذف اللام وإثباتها، والإثبات أفضل » . أبعد هذا ياسيدى تطالبنى بأن أطلعك أنت « على نص يوثق به يشير إلى أنهم منذ زمن الرسول (ﷺ) يقولون فى

التشهد : السلام عليك أيها النبى » ! عسى ولعل ، ولعل أهل القبلة أخطأوا جميعًا وأصبت أنت ! بما أوتيت من التدقيق والتحقيق والفحص وطلب المواثيق !!

وأما إنكارك الحديث على ماخَيَّلَتْ [١] لك ، وأنه مما لا يستشهد به أهل اللغة والنحو ، واحتجاجك على ذلك بشيء اقتطعته من بحث فى خزانة الأدب ج ١ ص ٦ ، ولم تتمه على وجهه بالتدقيق والتحقيق والفحص وطلب المواثيق كدأبك وعلى عادتك ، فهذا باب وحده لو ارتطمت فيه لم تعرف مخرجك منه . وما الذى ألجأك إلى هذا أيها العزيز ؟ ألأنى أتيتك بحديث المسند ج ٤ ص ٤٣٩ وفيه النص على أن المسلمين كانوا يبدأون التحية بقولهم « السلام عليك » ؟

والحديث الصحيح الذى استخلصه رواتنا رضى الله عنهم ، فنفوا عنه كذب الكاذبين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين حجة فى اللغة والنحو ، ولو زعم لك زاعم أنه لا يكون حجة فى اللغة ولا فى النحو فاعلم أنه مبطل ، وأنه غافل لا يدرى ما يقول . ولو رجعت إلى الخزانة التى نقلت عنها (وحسبك ولا أزيدك) علمت أن صاحبك نقل الذى نقلت لى فى كلامك ، وأنه رجل عالم طالبُ حق لا مغرور بباطل ، فقد ذكر وجوه اعتراض المبطلين فى الاحتجاج بالحديث ثم نقضها حجة حجة ، وصرح بأن تدوين الأحاديث وضبطها وقع فى الصدر الأول من الإسلام قبل أن تفسد اللغة وترتضخ الألسنة باللكنة الأعجمية ، كما يعلم ذلك من درس تاريخ رواية الحديث وتدوينه حقّ دراسته ، ثم صرح فى آخر كلامه بأن لا فرق بين جميع روايات الحديث مهما اختلفت ألفاظها ، فى صحة الاستدلال بها فى اللغة والنحو . وكنت حقيقًا أن تقرأ كلَّ هذا قراءة طالب العلم ، فلا تسألنى أن أغلق باب الاستشهاد بالحديث ، من أجل كلمات رويتها لم تحسن وضعها فى مواضعها .

وإلا فحدثنى أيها العزيز لم ترى علماء اللغة ، كصاحب اللسان ، وابن الأثير ، والزمخشرى صاحبك وصاحب كتاب الفائق ، وسواهم ممن عرفت ومن لم

---

(١) على ما خيَّلت : على غَرَر من غير يقين ، وأصله مثل ، وتمامه : على ماخيلت وَعْثُ القَصِيم .

تعرف - يملأون كتبهم استشهادًا بالحديث على معانٍ لم توجد فى غير الحديث ، ولو طلبت لها شاهدًا من الشعر أو غيره لم تجد . فإما أن يكونوا هم المبطلين ، وإما أن تكون أنت على حق ، فنبطل من أجلك نصف اللغة ونصف النحو وأشياء أخرى كثيرة .

ثم انظر إلىّ أيها الصديق ! ألست أنت الذى تقول هذا ، وتقول لى أيضًا فى صدر من كلامك معلّما ومنبّها ومقرعًا إنه « فاتنى أن الحديث لا يستشهد به أهل اللغة والنحو » . هو أنت أنت الذى لم يلبث فى آخر كلامه أن يأتى بشىء يناقض هذا كل المناقضة ، فنقلت كتاب رسول الله إلى المقوقس ، وهو من الحديث ومما رواه المحدثون ، وكتابه إلى كسرى ، وهو من الحديث ، وكتاب أبى بكر إلى المرتدين ، وهو من رواية أهل الحديث ، ثم أردفت ذلك بقولك : « ومعلوم أن هذه الكتب مُدَوّنةٌ ويستشهد بها اللغويون والنحاة » ؟! ياعجبا كل العجب ! فمن الذى روى لك هذه الكتب ؟ أليسوا هم الذين رووا لك الحديث ، وحديث التشهد ، وحديث السلام فى المسند ؟ وأين دوِّنت هذه الكتب إلا فى الكتب التى دوّن فيها الحديث ؟ ومافرق ما بين تدوين الحديث وتدوين هذه الكتب ؟

وإن كنت قد ارتضيت هذه « الكتب المدوَّنة » حجة يوثق بها ، فخذ كتاب الزمخشرىّ صاحبك ، وهو المسمى بالفائق ج ٢ ص ٣ ، اقرأ فيه وفى غيره أيضًا : « من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد . السلام على من آمن بالله ورسوله ...» إلى آخر الكتاب ، ولم يعترض الزمخشرى أيضًا على هذا البدءِ ، ولم يقل إنه خطأ فى اللغة ولا فى النحو .

ثم خذ صاحبك الطبرى ج ٣ ص ١٥٦ الذى نقلت منه كتاب رسول الله إلى المقوقس ، وكتاب أبى بكر ، وصاحبك « كتاب صبح الأعشى » ج ٦ ص ٤٦٥ ، الذى نقلت عنه كتاب الرسول إلى كسرى ، ثم اقرأ هداك الله : « لمحمد النبى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد . السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ... » إلى آخر الكتاب .

فهل قنعت أيها العزيز بما سقت إليك ؟ وأمحضك النصح أن لا تتبع تلك

الناجمة التى نجمتْ بين أهل اللغة تريد أن تتبجح بالعلم والمعرفة والفقه ، فتأتى صواب الناس ترميه بالخطأ على الشك والتوهم وسوء التأويل وفساد الفهم . واعلم أن العربية تعلِّم العقل ، فمن شاء أن يطلبها بحقها فليصبر عليها صبر المؤمن . وأنت امرؤ فيك خير فلا تُضيع ما آتاك الله بالعجلة والتسرّع ، فتثبت قبل أن تحكم . وتدبر قبل أن تقطع ، واستقصِ قبل أن تستوثق ، وانظر لنفسك قبل أن تزلّ بك قدمٌ . واعلم أن شرّ أخلاق الناس اللجاجة ، وشرُّ اللجاجة لجاجة العالِم ، وشر لجاجة العالم لجاجته فيما لا يعلم أو فيما لا يحسنُ ، وأن نصف العلم قولُ المرء فيما لا يدرى : لست أدرى . فالفهمَ الفَهْمَ فيما تلجلج فى صدرك هداك الله وأعانك وسدّد خطاكَ . والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

هـــــــزل ... !

يخيل إليّ أن بين قلمي والليل صبابةً أو هوًى قديمًا . فطالما رأيتني أعقد الرأى والعزمَ نهارًا على شيء أجعل الكتابة له قيدًا إذا جَنَّ الليلُ ، فما أكاد أحملُ القلم وأبدأ حتى أرى القلم ينقض عليَّ رأيي وعزمي ويمضى إلى حيث شاء كما شاء ، فما يُبقي من آية النهار المبصرة شيئًا إلا طمسَهُ أو أزاله أو نكَّر من معارفه ، وما أظنّ إلا أن كل كاتب قد ابتُلِيَ من قلمه بمثل الذى ابتُليتُ به أو بشيء يقاربه . ومن أعسر شيء ألقاه من القلم أني ربما بدأتُ الكتابة ، فإذا هو مِطواعٌ حثيثٌ لا يتوقف ، وإذا كلمةٌ مرسلةٌ إليه ليقيدها ، فإذا هو كالفرس الحرون قد ركب رأسه وأبى إباءً ، فلا أزال أترفقُ به واستحثُّه وأُديره بين أناملى لِيَلِينَ ما استعصى من طباعه ، ولكنه يأبى إلا لجاجة وعنادًا ، ثم ينزع إلى وجه غير الذى أردتُ ، وإذا أنا مضطر أن أعود من حيث بدأ هو لا من حيث أردتُ أنا أن أبدأ ، وعندئذ يمضى على هواه وعلى ماخيّلتْ . فقد عرفت ذلك من عاداته قديمًا ، فما يكاد يفعل ذلك حتى أثوبَ إلى ورقة أخرى فأبدأ الكتابة من حيث أراد ، وأمرى لله . أفتراني أخطئ إذا أنا زعمت أن لقلم الكاتب شخصية مستقلة بل منفصلة تكاد أحيانًا تغلب حامله على رأيه وعلى تقديره وعلى عزائمه ؟ أم الإنسان المفكر صاحب العقل شيء آخر غير إنسان الكاتب حامل القلم ؟ فهو حين يفكر يُعطى أفكاره الحرية والسَّعة والحماسة مايجعلها أقدر على التصرف فى وجوه الرأى وشعابه ونواحيه ، فإذا حمل القلم ليملى عليه بعض أفكاره ، واستقل قلمه بالفكرة بعد الفكرة يزنها ويقدرها على قدر عقله لا على عقل حامله ، فربما عرض له أن ينبذ منها أو يتنقَّصها أو يتجافى عن طريقها فيسدُّ عليها المسالك ويضرب عليها بالأسداد ، ثم يشرع إلى وجه غير الذى يُرَاد له ؟ أم الإنسان إذا فكر ثم أراد أن يكتب وحمل القلم صار هو نفسه شخصًا آخر غير الإنسان المفكر بغير قلم

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩١) ، سبتمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٠٧٥ - ١٠٧٧

محمول ؟ كل ذلك ممكن ، ولكنه على كل حال مَتْعَبةٌ وشقاءٌ لحامل القلم مابعده شقاء ولا تعب .

وأعرف رجلا من أصدقائى الكتاب ، إذا حمل القلم وكتب كلمات ألقى قلمه ضجرًا يائسًا متململا من عُسر المدخل الذى دخل به على ما أراد ، فإذا عاد عاد القلم إلى جماحه وتعذره ، ولا يزال كذلك مرة بعد مرة حتى يرى قلمه قد رضى وأطاع ومضى إلى آخر حرف فى المقالة غير متوقف ولا متلعثم ، وقد قال لى : إنه ربما مضت الأيام على ذلك الحِران ، مع أنه يعلم مستيقنًا أن الفكرة كانت قد اختمرت واستوت وتهيأت له من قبل أن يحمل القلم بأيام ، وأنه كان يظن أنه لن يحمل قلمه حتى يراه قد انساب انسيابًا لا يعوقه شىء ، فإذا فرغ من كتابة ما أراد لم يجد أنه زاد قليلا ولا كثيرًا عما كان فكَّر فيه وعزم على كتابته . فأى سر هذا الذى ينطوى عليه القلم حتى يكون هو المتصرف الذى لا يردّ لما أرَادَهُ أمر ؟ قد تقول : إنه الحالة النفسية التى يكون عليها الكاتب ؛ وقد تقول : إنه الجو الذى تعيش فيه الكلمات التى يبتغى استنفارها من مكامنها ؛ وقد تقول أشياء كثيرة من هذا وأمثاله ، ولكن يبقى أنك لا تكاد تميز بعدَ الكتابة شيئًا من الاختلاف عما كنت قد فكرتَ فيه وأدرته فى نفسك وعرفت أنه قد أطاع لك ، فمن أين جاء هذا التوقف العجيب الذى تعتاده بعض الأقلام ؟!

وأنا قد جربت نفسى ، فرأيتنى إذا أردت أن أكتب أحيانًا شعرًا يدور فى قلبى ويلح على خاطرى ، فأمسكت أى الأقلام وقعت عليه يدى ، فإذا هو عصىٌّ عنيدٌ لا تلين له سنٌّ - أو قناةٌ على مايقولون - فإذا ألقيتُه وحملتُ القلم الذى اعتدتُ زمانًا أن أكتب به الشعر ، أو الذى اعتاد هو أن يكتب لى الشعر ، انطلق على سجِيته طيِّعًا رفيقًا سهل المقادة حسَن التهدّى إلى قِبْلة الشعر . فأحبُّ الآراء إلىَّ أن أجعل للقلم شخصية منفصلة تعين الكاتب أو تعانده ، فذلك أشبه بالسلطان العريض العظيم الذى فرضته الأقلام على الحياة ، والذى لولاه لعاش الإنسان ومات وكأنه لم يوجد قط .

* * *

كنتُ أردتُ أن أكتب شيئًا عن المتنبى وعن حكمته وبصره بالحياة وبالناس وبما يعتلج فى القلوب على اختلافها ، وذلك لحديث جرى بينى وبين أحد ضيوف مصر من أهل العراق . وأردت أن أقارن بين ما يسمونه شعر الحكمة ، وبين حكمة المتنبى فى شعره ، وأين وقع منه سائر الشعراء ؛ فما كدت أبدأ حتى عرضت لى أبيات المتنبى التى يقول فيها :

إنما أنفسُ الأنيس سباعٌ	يتفارسنَ جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شيءٍ غِلابًا	واغتصابًا لم يلتمسه سؤالا
كل غادٍ لحاجةٍ يتمنى	أن يكون الغَضَنْفَرَ الرئبالا

وذكرت عندئذ ذلك البيت الذى أحيتْه أم كلثوم حين غنت فى شعر شوقى :

وما نَيْل المطالب بالتمنِّى	ولكن تُؤخذ الدنيا غِلابا
وما استعصى على قومٍ منالٌ	إذا الإقدام كان لهم رِكابا

وأردت أن أعرض للفرق بين القولين ، وبين العبارتين ، وبين القوتين ، وبين البيانين . فأى دقة وأى هداية كانت لهذا الرجل الفذ الذى لو احتلت على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلا فى كلامه لأفسدت معنى البيت وقوته وعبارته وبيانه ! فخذ مثلا لفظ « الأنيس » ، وتخير ما شئت من حروف اللغة وضعه حيث وضع المتنبى لفظه ، واقرأ وانظر وتدبر ، هل يليق أو يسوغ أو يلين أو يستقر فى مكانه من البيت ؟ ضع مكانه « الإنس » أو « البشر » أو « الناس » أو « الأنام » أو ما شئت ، سواء استقام الوزن أو لم يستقم ، تجد الفرق بين الاختيارين عظيما واسعًا . فهو قد اختار اللفظ والبناء الذى يدل دلالة على المؤانسة والرقة والتلطف وإظهار المودة والظرف وحلاوة الشمائل ولين الطباع ، ليظهر لك أنها تخفى تحت هذا كله طباعًا وحشية ضارية مترفقة حينًا وباغية أحيانًا ، فمهد للصورة التى أرادها باللفظ الذى لا يستغنى عنه فى دقة الصورة وحسن بيانها . فأين هذا من ضعف شوقى الذى لم يزد على أن جمع كلمات رُصّ بعضها إلى بعض لا حاصل لها ولا خير فيها . وما قيمة ذكر الركاب ، مع الإقدام والاستعصاء والمنال ؟ وأما

البيت الأول « وما نيل المطالب » ، فهو كلام عامى دائر على الألسنة ، ولا فضل فيه ، بل هو أشبه بتقرير ضعيف عن معنى ليس بشىء .

وعندئذ عرض لى أنا أن هذا الفعل من شوقى هَزْلٌ للمعانى ، وهزل فى طِلابها ، وهزل فى إدراكها على وجهها . وإذا هذا القلم يسألنى – أو يأبى إلا أن يذكرنى – بأن الهزلَ الذى كان فيه شوقى خير من كل هذا الهزل الذى أصبحنا وأمسينا نعيش فيه . فالدنيا تجدُّ من حولنا ونحن نهزل ، ولا نكاد نجد من كبار رجالنا أحدًا قد نهض به جَدُّه وجِدُّه فى ناحية إلا وقد سقط به هزله فى ناحية أخرى . وأن أشدّ البلاءِ من مثل هذا الرجل أن يُلبس عليه حتى يظن أن هذا الهزل هو أجدُّ الجدّ ، لأنه ظن أنه ما بلغ إلا بجدٍّ كان فيه طبيعة مغروزة فظن حتى صار ظنه حقًا عنده .

ولسنا نحب أن نطعنَ على الرجال بالحق فضلا عن الباطل ، ولكن بلادنا فى كل مكان من مصر إلى الشام إلى لبنان إلى فلسطين إلى العراق إلى بلاد الهند إلى أندونسيا إلى الجزائر وتونس ومراكش ؛ قد أحست شعوبها أن ساعة الجِدِّ قد آذنت ودنتْ ، وأنها ساعة إذا أفلتت فلن تعود إلا بلاء وعناء وشقاء . ومع ذلك فالرجال والزعماء وأصحاب الرأى أيضًا ، وهو أشد البلاء ، وقد ركَّبُوا فى رؤوسهم أُذنًا من طِين وأُذنًا من عجين – كما يقول المثل العامى – فما يسمعون حسيس النار التى تشتعل فى صدور أبناء هذا الشرق إلا كحشرجة الميت ، فهم يعالجون أمورنا على صورة من اليأس والملل ، كأنما يرجون الظفر بأى شىء كان ، ماداموا يحسبون أنهم إذا رفعوا لأعين الناس هذا الذى ظفروا به ، وقالوا لهم لقد ظفرنا لكم بخير ما ترجون ، صدّقهم الناس وصفقوا لهم ومشوا فى ركاب مجدهم ، وجأروا إلى الله بالشكر على ما أنعم على أيديهم . فهم ليسوا طُلّاب حق ضائع بل طُلَّاب مجدٍ كاذب ، يظنون أنهم يختمون به أعمالهم الصالحات .

فأى هزل كهزل رجال الهند مثلا ، وهم الذين عركوا ساسة الإنجليز مئة وخمسين عامًا أو تزيد ، ولقوا من خداعهم وكذبهم وتغريرهم وقسوتهم وشناعة أحقادهم ما لا ينسى مواجعه إلا غِرٌّ غافل ؟ وإذا الذين كانوا بالأمس نار الثورة

وضِرامها قد رضوا أن يستمتعوا بالحكم ويصيروا وزراء فى شعب مستعبد تدوسه أقدام الغاصبين ، وهو لا يزال يسمع منهم أن الهند جزء لا يتجزأ من هذه الإمبراطورية التى لا تغيب الشمس عن أملاكها - فأى هزل أسخف وأبعد فى الغفلة والسذاجة وسوء تقدير من هذا الحكم ؟ وفيمَ يدلس هؤلاء على إخوانهم الذين يعرفون كما يعرفون من خبايا النيات البريطانية التى تدسّ لهم السمَّ فى الدَّسم ؟ أو لم تكفهم العِبْرة التى لا تزال أختهم مصر ترفل فى أغلالها منذ سنة ١٩٢٤ إلى يوم الناس هذا ، حين قَبِل رجال الثورة أن يكونوا للناس حُكامًا تحت ظلال الغَصْب والاحتلال ؟

وأى هزل أشد على النفس الشاعرة مرارة وغضاضة من رجال قاموا من غفلتهم ومنامهم يسمعون الشعب كله ينادى الجلاء ووحدة وادى النيل ، أى ينادى بالحق الطبيعى الذى لا يحتاج إلى تفسير ولا بيان ولا شروط ، والذى ظلت مصر صابرة تهمس به أحيانًا وتصرخ به أحيانًا أخرى منذ سنة ١٨٨٢ ، وإذ هم يطالبون بالذى يطالب به الشعب ، ولكنهم لا يلبثون قليلا حتى يرضوا لأنفسهم أن يدخلوا من باب المفاوضة مع البريطانيين ، فلما دخلو داروا فيها كما تدور بهم ، وهم كانوا أولى الناس بأن يعرفوا بعد طول التجربة ماعرفه الشاب مصطفى كامل إذ قال لهم : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، لأنه أدرك المفاوضة معناها أن ينزل الضعيف عن أكثر حقه للقوى الطائش الباغى ؛ فما ظنك به وهو ليس بقوى طائش باغ وحسب ، بل أيضًا منصور مظفر قد خرج من الحرب وهو يظن أن الدنيا له وأنه وإن كان ضعيفًا بين الأقوياء ، إلا أنه هو الجبار العظيم [بين][1] الضعفاء ؟ وأنه سوف ينال من الأقوياء والضعفاء بحيلته وسياسته ما لا ينال بالعنف ، فلذلك آثر طريق المفاوضة ، واتخذ أعوانه لينيموا الشعب إليها حتى يهدأ ويسكن ويظن أنه بالغ ما يريد ؛ لأن الدنيا تغيرت ، ولأن العالم فى حاجة إلى نظام جديد ليس بينه وبين القديم شبه . وظلت المفاوضات أشهرًا وهى تسير فينا على

---

(١) زدت هذه الكلمة ليستقيم السياق ، فمكانها مطموس فى الأصول .

عكازتين كأنها هى الأخرى من ذوى العاهات الذين خَلّفتهم الحرب عُرْجًا وظُلَّعًا أو شرًا من ذلك . فأى هزل هذا ؟ أى هزل هذا الذى يؤمن به رجال يخالهم الناس من أصحاب العقل والحكمة وسداد الرأى فى المعضلات ؟ وماذا فعلوا منذ بدأوا إلا أن قدَّم الإنجليز مشروعًا وقدموا مشروعًا ؟ ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا . فهم إنما يتقارضون كلامًا لا يغنى عنهم ولا عن مصر . وفيم يتفاوضون ؟ ألا إن الحق بيّن والغصْب بيّن ، فقولوا لأصحابكم الذين تفاوضون إن مصر لا تريد إلا تحقيق هذه الكلمات : « الجلاء ووحدة وادى النيل » . إننا نريد مصرنا وسوداننا . إننا لا نريد منكم إلا أن تدعونا وشأننا ، اخرجوا من بلادنا ، فارقونا . قولوا ذلك وعلِّموا الشعوب بإيمانكم وإصراركم أن تكون أشد إصرارًا وإيمانا وأوفى شجاعة وأقدر صبرًا ، وإلا فسوف يأتى يوم يجدُّ فيه الشعب جدَّه ، فإذا الذى ظننتم أنه مجد لكم هو أبغض شىء إلى الشعب ، واعلموا أنه لا مجدَ إلا بِفعَال ، والهزل مَخْبَثة للفَعال ، فجدّوا إذن وعودوا إلى الإنجليز من حيث بدأوا بكم .

إن هذا الذى يحدث فى الهند وفى مصر حسرة للنفوس تطوى تحتها أسوأ مغبّة ، فهل من رجال ينقذون بلادهم من شرّ هذه الموبقة المستطيرة ؟ إن الحكام والمفاوضين طُلاَّبَ المجد لن يذوقوا لذة المجد حتى يكون الشعب هو الذى يذوق لهم طعمه ، فإذا استكرهه ، فلا تخدعنهم الحلاوة التى يجدونها فى ألسنتهم ، فإنها مرارة الدهر وذلّ الأبد ، ورحم الله المتنبى :

مَن أطاق التماس شىء غلابًا واغتصابًا لم يلتمسه سؤالا

فعلام المفاوضة ، وفيم السعى إلى الحكم ؟

* * *

بين جيلَين ... !

انتفض شعر المتنبى فرمى إلىّ بهذين البيتين ، وهما على بساطة لفظهما كالجبلين الشامخين فى تاريخ الحياة الإنسانية :

سُبِقْنَا إلى الدُّنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جَيْئة وذُهوبِ
تملَّكَها الآتى تملُّك سالبٍ وفارقها الماضِى فِراق سَليبِ

أفليس لمَلك الموت من عَملٍ إلا إخلاء الطريق للقادم ، حتى يتاح له أن يغدوَ ويروح فى الأرض التى ورثها عن السابق الذى مهَّد له بمواطئه سبيل الحياة !! ولعلّ ملك الموت يَحارُ أحيانًا حيْرَة تديرُ رأسه فى الأمر الذى حمل أوزاره ، وكُلِّف بقضائه ، ولعله يرى أحيانًا أنه يزيلُ خيرًا كثيرًا ليخلُفه شرٌّ كثير ، فهو تَرَدُّدُ المتحسّر على ذاهبٍ هو [أَوْلَى] [١] بالبقاء من قادم ، ولكنه يقضى قضاءه الذى لا يجد عنه مَنْدُوحَة ولا مهربًا ؛ وهو ككل صاحب صناعة قد أَلِفها ودرِب بها ولا يجيدُ سواها ؛ فهو يعيش بها على الرضى وعلى السخط ، على الفقر والغنى ، وعلى الفتور والنشاط ؛ وهو كسائر الخلق مُيَسَّرٌ لما خُلق له ، ولو تُرك له أن يختار لاختار قديمًا كثيرًا على جديد كثير ، ولآثر ناسًا على ناس وحياةً على حياةٍ . ولقد أرثى أحيانًا لهذا المخلوق البائس الذى يسَّرهُ الله لصناعة الإفناء والإهلاك ، فإنه ولا ريب يرى ما لا نرى ويحس ما لا نحس ، ولربما كلِّف أن يقبض الروح من زهرة ناضرة لم تكد تستقبل الحياة . فهو يذوب لها رقة وحنانًا لما سوف تتجرّعه من غُصصه وسكراته وحشرجته ومكارهه ، فكيف يقسو على من هو بالرحمة أولى ، وبالبقاء أخلق من أُخرى لم يُبق فيها العمر المتقادم إلا الأعوادَ والأشواك والجذورالتى ضرَبت فيها الآفاتُ ، وبَرِم بها البِلَى من طول مُرَاغمتها له على العيش !

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩٢) ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ص : ١٠٩٩ - ١١٠١

(١) لم يبق من الأصل إلا هذين الحرفين : لى ، فجعلتها كما ترى .

وكيف يفعل هذا البائس حين يعلمُ أنه قد دنا أجلُ عقل عبقرىّ لم يتمّ عمله لخير هذه الحياةِ الإنسانية ، فهو مأمور أن يطفئ نوره ليخلُفَه عقل دَجُوجىّ لا يأتى إلا بالسواد والإظلام ؟ أتُرى أنامله ترتجف من الإشفاق والضنّ والبُقْيا على هذا السراج الذى أُمر أن يقطع عنه أسباب الحياة ؟ أم تُراه يفعل ذلك وهو مسلوب العقل والإرادة والإحساس كأنه قائد من رجال الحرب الحديثة ، لا عقل له إلا الحرب ، ولا إرادة له إلا الحرب ، ولا إحساس له إلا الحرب ، فهو كله حرب على الجنس البشرى شِيبه وولدانه ورجاله ونسائه ، لا يرحم صغيرًا ، ولا يوقّر كبيرًا ، ولا يشفق على أمٍّ ولا ذات جنين ! أم تراه يعلمُ ما لا نعلمُ من خَبْءِ هذه الحياة الدنيا ، وأن جليلها الذى نجلّه ونوقره هو أولى الشيئين بالمهانة والتحقير ، وأن الحقير الذى نزْدريه كان أولاهما بالتجلّة والتوقير ؟ فهو إذن يؤدى عمله راضيًا عن نفسه وعما يعمل ، لا تزعجه الرحمة لما لا يستحق رحمة ، ولا يُمسك يده الإشفاق عما لايستأهل إلا الإرهاق والتعذيب . وكأننا نحن إنما نحبُّ ونبغض ونرضى ونكره على قدر إدراكنا وما بلغ ، لا على منطق الحياة المتطاولة الآماد والآباد ، فنرى الأشياء متصلة بمصالحنا ومنافعنا ، ومحصورة فى حاجات أنفسنا وآمال قلوبنا ، لا متماسكة ممتدَّة فى كهوف الأمس السحيق ، وسراديب الغد العميق .

فلو أن هذا المَلك كان ميسَّرًا لإدراك الحياة ومعانيها بمثل العقل الذى ندركها نحن به ، وكان كمثلنا فى تقدير الأقدار على قياس الحاجات والآمال الراهنة محجوبًا عن الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، لرأيناه يحرص أحيانًا على أن يُبْقى على بعضنا ويعجل أحيانًا فى القضاء على بعض آخر نظنُّ ويظنُّ معنا أنه لا معنى لبقائه فى هذه الدنيا ليكون زِحامًا من الزِّحَام لا عمل له إلا أن يَعُوق المتقدم ، ويعثرُ به الماشى ، ويتفلَّل من جرائه حدُّ الماضى المتعجل ، ولكان الناس يومئذ يأتون إلى الدنيا ليجدوها ممهَّدة من نواحيها لا يلقى لاحِقٌ عَنَتًا من وجودِ سابق ؛ ولا يصادف إلا طريقًا خاليًا لا يضطره إلى جهاد ولا حيلة ولا حذر ، ولا يحمله على النظر والتأمل والهمة إصلاح الفاسد والفكر فى أسباب

الفساد ، وبذلك يتعطل العقل وتقف الإرادة ويستنيم المرءُ إلى الراحة حين يرضى عن عمل من سبقه من الذين أبقى الموت عليهم لأنهم أهلٌ للحياة . وكذلك تنقطع مادة الحياة ، ويتفانَى الخلق بالرضى والقناعة كما يتفانون اليوم بالتسخُّط والطمع . بيد أن موت الرضى والقناعة شرٌّ كله لأنه عقيم لا ينتج ، أما موت التَّسَخُّط والطمع فهو إلى الخير أقرب ، لأنه يبقى البقية الصالحة التى تستمرُّ بها الحياة متجددة على وجه الدهر .

ومن أجل ذلك قُدّر للآتى القادم على الدنيا أن يأتى منذ يولد وفى إهابه حبّ التملك والتسلط والأثرةِ والعناد واللجاج فى صغير الأمر وكبيره ، وكذلك الطفل . وقُدّر للذاهب الراحل عن هذه الدنيا أن يدلف إلى الغاية ، وقد نَفَض عن نفسه أحب أشيائها إليه فهو يؤثر الزُّهد والإيثارَ وسعة العقل وقلة المبالاة فى كبير الأمر وصغيره ، وكذلك الشيخ . فإذا الآتى مُتَمَلِّك سالب ، وإذا الماضى مفارق سليب .

فهذا هو تاريخ الصراع بين أجيال الناس كلهم ، والأمم جميعها ، والآراء بأسرها ، والمذاهب برُمَّتها ؛ إلى آخر هذا الحشد الحاشد مما يقع عليه الخلاف فى هذه الحياة الدنيا ، وليس يكون فيها شىء إلا كان مظِنَّة للخلاف . وهذا الصراع المُفنى هو نفسه سرُّ القوة المحْيية ، وهذا الجهاد المتواصل فى طلب الغلبة والظهور ، والنصر بين السالب والمسلوب هو الحياة . وهذا العناء الشديد الذى يلقاه الشباب حين يحتدم الصدام بينهم وبين أهل السنّ من قدماء الأحياء هو تكملة الإنسان الجديد الذى يريد أن يتملك مواطئ أقدام الإنسان القديم الذى كتب عليه أن يرحل ويُفسح الطريق لمن هو أولى منه بالعيش وعليه أقدر : وقديمًا قال القائل :

لكلّ جديد لَذَّةٌ ، غيرَ أننى وجدت جديدَ الموت غير لذيذ

فيأتى الآتى إلى جديد الحياة ، فإذا هو بها مشعوف لهيفٌ ، وإذا هو نفسه جديد ، فهو معجبٌ بجديد نفسه ساخرٌ من قديم غيره ؛ وإذا سرُّ كل « آت » هو جدّته الموفورة ، وسرُّ الضعف فى كل « ماض » هو جدّته البالية . وللجديد نخوة

ونشوة وإرباءٌ [١] على القديم ، وفى القديم هيبة وذهول وتقصير عن الجديد ، والصراع بين القديم والجديد هو صراع على الحياة وعلى البقاء وعلى الخلود ، ولذلك لم يخلُ وجه الأرض قط من نِزَال دامٍ مفزع بشِع بين هذين الجبارين : الجبار الآتى الذى يريد أن يستأثر بالحياة ، والجبار الراحل الذى يلتمس لجبروته الخلود . ولا تزال الدنيا دنيا ما اصطرع هذان الجباران ، فإذا سكن ما بينهما فقد انطفأت يومئذ جمرة الحياة ، ولم يبق إلا رمادها .

ونحن اليوم أحوج ماكنا إلى حدّة الصراع بين الجبارين : جبار الشباب وجبار الهرم ، لأن الحياة التى حولنا تريدنا على ذلك ، إذا أغفلنا مطالب الحياة الإنسانية نفسها ، والتى لا بقاءَ لها إلا على مكاره النزاع والنزال والمصاولة . ولكن يخيَّل إلىَّ أن جبارنا هذا الشابَّ لم يعرف بعْدُ أن اتخاذ الأهبة للقتال شىء لا غنى عنه لمن يريد أن تكون له العزّة والغَلبة ، وأنه ينازل جبارًا سبقه إلى الدنيا فعرفها وخَبرها واستعدَّ لها ، وصرف همه إلى درسها وتمحيصها ، وأنه قد بذل فى إبان شبابه من جُهد التحصيل والاستعداد ، ما غفَل هو عن مثله بين اللهو والعبث والآراء غير الممحصة ، وأخْذ الدنيا على أهون وجهيها وأيسرهما ، وعلى أن الصدق فيما قاله أسخف قائل : « اضحك يضحك لك العالم » !!

ليس معنى الصراع بين الجديد والقديم : هو أن ينازل أصغر الخصمين وأقلهما تجربة ، أكبرهما وأوفاهما تجربة ، وهو يضمر له فى نفسه الإزْراءَ به والتحقير له والاستهانة به وبسابقته فى الحياة ، كلا ، بل هو يحرص أشد الحرص على فهم خصمه ، وعلى معرفة حيله ، وعلى درس قوته ومواطن الضعف فيها ، وعلى أساليب معالجته للأشياء التى حازها بالنصر والغلبة على من سبقه . وذلك يقتضيه أن يجعل صدر أيامه وريِّق شبابه وقفًا على الدرس والتحصيل ورياضة النفس ، وتربية القُوَى ، وتعهُّد نفسه فى مراشدها وتجنيبها مغاويها ، فإذا فعل كان أهلا لمن ينازله ، وكان خليقًا أن يكتب له النصر عليه ، ولكن شاء الله أن يسلك جبارنا الشاب أضلَّ الطريقين .

---

(١) إزْباء : زيادة .

فماذا كانت العقبى ؟ بقينا إلى زمن نرى فيه الشيوخ الذين أكلَ الدهر جِدَّتهم ، وأبلى هممهم ، وأفنى حوافزهم ، وقطع دابر الحماسة من نفوسهم ، هم الذين يتولون تصريف الأمر فى غدِنا تصريفَ العاجز ، ويدبرون سياستنا للمستقبل تدبير الذاهل ، ويسيرون بهذا الشرق كله إلى رَدَغةٍ [١] موحلة يرتطم فى أوحالها الشيب والشبان جميعًا . وإلا فأين الشباب المبشر بالخير المهدى إلى طريق الرشاد ، ليكون لشيوخنا إذا عجزوا عَضُدًا ، وإذا قصَّروا باعًا ، وإذا سقطوا خلفًا ؟

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحدَا

ومعاذ الله أن أكون ممن يُخْلى هذه الأمم من رجال شبان يدخل فى أطواقهم أن يغيروا وجه هذا الغد الذى نستقبله ، ومعاذ الله أن يلمّ بى اليأس ويتداخلنى القنوط ، فإنى لأرى فيهم رجالا لو هم صرفوا عامًا أو عامين فى التأهب لصراع الغد ، أى لصراع الحياة ، أى لإنقاذ بلادنا من خَوَر الشيخوخة ، وجبن الهرم ، وعجز السنِّ ، وضعف الكِبَر الطاحن ، ومن غرور هذه جميعًا بسالف تجربتها واحتناكها ، لأدركنا البغية التى يظن شيوخنا أنها محال ، وأنها طَفْرة ، وأنها جرأة وتقحُّم ، وارتماء فى مهاوى الهلاك .

أو ليس من أكبر العار فى هذا الزمن أن يكون الشرق الذى بلغ بفتيانه قديمًا ما بلغ ، هو اليوم مبتلى بفتيانه أشد البلاء ؟ أليس من الخزى أن يعرف أحدنا كيف تعاون شبابنا قديمًا وكهولنا وشيوخنا على فتح الدنيا ، فإذا خَلَفهم يتعاونون جميعًا شيوخًا وشبانًا وكهولا على ترك بلادهم وأرضهم لقمة سائغة لكل طامع ، ولحمًا ممزقًا بين يدى كل جزّار وإن هان ؟

إن علينا نحن الشباب أن نوقر شيوخنا ونجلَّهم ونستفيد من تجاربهم ، وعلينا أن ننازلهم ونصارعهم ، ونأخذ من أيديهم المرتعشة ما يستقرُّ فى راحاتنا الثابتة التى لا تخافُ ولا تتهيب . علينا أن نأخذ حقنا أخْذ الكريم المقتدر ، من أقران نصارعهم ليموتوا موت الكريم البذّال . وعلى هذا الصراع بين جيلينا يتوقف أمر

---

(١) الرَّدَغَة : الطين .

الخير الذى نبتغيه ، والاستقلال الذى نجاهد فى سبيله ، والعزة التى نسعى إلى اقتحام أهوالها .

وعلى شيوخنا أن يعلموا أنه لابد لهم من شباب شديد الأسر يشد أزرهم إذا ضعفوا ، ويخلفهم إذا هلكوا ولكنهم غفلوا زمانًا فتركوا النشء ينشأ بين أحضانهم، فلم يسدّدُوه ولم يعاونوه ولم يعدُّوه لغدهم ، وقلبوا آية الحياة وبدَّلوا معناها ، فكانوا هم الصبيان حين تخلقوا بأخلاق الصبيان ، وأصرُّوا على حبّ التملك والتسلط والأثرة والعناد واللجاج فى كبير الأمر وصغيره !

هذه الأيام تمضى بنا سِراعًا ، فلنقدّر لغدٍ ، فإن مستقبل الشرق معقود بنواصى شبابه ، فإذا نَفَضَ عن نفسه غبار الكسل والمجانة واللهو ، كان إلى النصر أسرع ساعٍ ، وعلى الدنيا الجديدة أكرم وافدٍ .

* * *

اسلمي يامصر ... !

ظللتُ سنوات معتزلًا أو كالمعتزل ، وما اعتزلتُ إلا لأن الحياةَ أرادتنى على ذلك فأطعتها ، وليتنى مافعلتُ ! ثم جاءت أيام حتى كادت تقتلعُ جذور الحياة من أغمض أعماقها فى نفسى وفى قلبى وفى سائر بنيانى وحواسّى ، فانتبهت كالذاهل وأنا لا أدرى أحىٌّ أنا أم ميت ، وإن كان لم يشعر بما أشعر رجلٌ أو رجلان أدركا ما أنا فيه من مِحنة وشقاء . ثم انجلت الغمة وارتفعت الغشاوة ، وبدأتُ أرى الدنيا كما ينبغى لمثلى أن يراها ، فأقبلتُ عليها أتفحصها كأنى أقرأ تاريخًا جديدًا [لم يكن] [١] لى به علم ولا خَبر . ومن يومئذ آثرت أن أُغفل شأن الشعراتِ البيض التى تلتمع على فودىَّ نذيرًا وبشيرًا ، وقلت لنفسى : كذب والله علىُّ بن جبلة الخزاعى . فإنى لأجد الشعرات البيض أخفَّ على قلبى محملا وأشهى إلى نفسى من كل ما استمتعت به فى صدر شبابى ، وكيف أشجَى بشىء قد جعله الله بديلًا من جنون الصِّبا وعُرَامِ الشباب [٢] . وأنا أسوق هنا أبيات علىّ بن جبلة ، وإن كان لاحاجة للمقال بذكرها ، لأنى أعتدُّها من أجود الشعر وأرْصنه وأحسنه تمثيلًا لمقدم الشيب ، وأدقه تصويرًا لإحساس الفزع الذى تتجرَّعه النفوس الشاعرة فى يوم الكريهة - يوم المشيب . قال يذكر الشيب وقد بلغ الأربعين :

ألقى عَصاه ، وأرَخى من عمامته
وقال : ضَيفٌ . فقلت : الشيبُ ؟ قال : أجلْ !
فقلتُ : أخطأت دار الحىّ ! قال : ولِمْ ؟
مضتْ لك الأربعون التّمُّ ! ثم نزَلْ

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩٤) ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ص : ١١٥٧ - ١١٥٩

(١) زيادة من عندى ليستقيم السياق ، ومكانه فى الأصل متآكل ، ولم يظهر إلا حرف النون موصولا بآخر هكذا : ـن .

(٢) عرام الشباب : قوته وعنفوانه .

فما شَجِيتُ بشيء ما شَجِيتُ به ،

كأنما اعتمَّ منه مَفْرِقى بجَبَلْ

ولست أُنكر أن عُلوّ السن بالمرءِ أمر ينبغى أن يلقى له باله ويتعهده حتى لا يؤخذ على سهوة وفى غفلة ، وأن الشيبَ هو النذير العريان . ولكن ما بالشيبِ من عارٍ ، فنحن إنما خلقنا لنحيا ونموت ، فلتكن حياتنا كلها كما بدأَتْ جهادًا متصلا جريئًا فى سبيلِ الغاية التى نفخ الله فينا من أجلها الروح . وقبيح بامرئٍ علمته الأيام ووعظته الأُسَى [1] – منذ كان أبوه الشيخ آدم إلى يوم الناس هذا – أن يجزَع أشفَّ جزَعٍ من منهل لم ينج سابق من ورُوده ، ولن يَنْجُوَ من وروده لاحق .

وليت شعرى ماذا يضيرنى من شيبة فى شعراتٍ ، إذا كان قلبى لا يزال غَضًّا جديدًا كأنه ابن الأمس القريب ؟ ولو قد كان ذلك ضائرى لقد هانت الحياة هوَانًا يجعلها أسخف وأخفّ وأضأل من أن أحفل بها أقل حفل . وكذلك عقدت عزمى على أن أضربَ فى مسالك الحياة حيث لا يعوقنى وقار غثٌّ ، ولا حنبلية متزمّتة ، وحيث أخبرُ الحياة على وجهها الذى هى عليه اليوم ، لأعرف ما الذى ستكون عليه غدًا . فأسرعت إلى حلقات الشباب ممن تجاوزوا العشرين وأشرفوا على الثلاثين ، لأرى كيف يفكرون ، وانظر كيف يعملون ، وأعرف ماذا يدبرون ، وأعلم أين يستقبلون ، فرأيت ونظرت وعرفت وعلمت ، فأشفقتُ وأمَّلتُ ، وخفتُ ورجوتُ ، ولكنى على ثقة من أن رحمة الله أوسع من أن تضيق بأمة ضَلَّت فى بيداءِ هذه الحياة ، وقد خرجتْ تضرب فى جوانبها مطموسة البصر إلا ما شاء الله .

كان من أهم ما شغلنى أن أسمع ماذا يقولون عما يشغل الناس جميعًا فى هذه الأيام ، وأن أناقشهم فيما يقولون حتى أعرف خبء نفوسهم وضمائرهم ، وأن أنقل ما استطعت شيئًا مما يعتلج فى هذه القلوب الشابة التى تريد الحياة الحرة الكريمة – أى تريد الفطرة التى فطر الله الناس عليها . وينبغى لكل صاحب قلم أن

---

(١) الأُسَى : جمع أُسْوَة ، وهو ما يأْتَسِى به الحزين يتعزى به ، وهى أيضا القُدْوَة .

يحرص أشد الحرص على بيان مايرى وما يُراقب ، فإن الجيل الماضى الذى صارت إلى يديه مقاليد الحكم فى مصر غافل كل الغفلة عن الآمال والآلام التى تساور القلوب المصرية الشابة ، وجاهل كل الجهل بالمولود الجديد الذى ولد فى أرض مصر وشبّ ونشأ واستوى وكاد يبلغ مبالغ الرجال . يقول قائل الشباب :

« لقد خرجت مصر كلها ، عالمها وجاهلها وغنيها وفقيرها ، تنادى يومًا ما باسم « الجلاء » وباسم « وحدة وادى النيل من منبعه إلى مصبه » وباسم البلد الواحد الذى هو « مصر والسودان » . والشعوب أو الجماهير إن شئت ، لا تعرف تفاصيل التاريخ ولا يهمها أن تعرف ، بل هى تحس وتدرك وتتمنى وتسعى وتفعل كل شيء بالإلهام الذى يسدّده الفطرة المستقيمة ، وهذه الفطرة المستقيمة إذا نظرت إلى شيء استوعبت لُبّه وطرحت نُفايته . ولقد نظر الشعب المصرى بفطرته المستقيمة فرأى دولة طاغية تحتل سماء بلاده وأرضها وبحارها ، بل تحتل أرزاقها المقسومة لأهلها من طعام وشراب ، وتشاركها فى نسمات الهواء بل تضيق عليها أيضا ، وتحرمها النفحة بعد النفحة من هذه النسمات ، وإذن فهى تمنع عنها ما هو مباح للوحوش فى مساربها ، والبهائم فى مراعيها ، والطير فى مسابحها . وإذن فلابد من أن تظفر بما يظفر به أدنأ الخلائق وأهونها على الناس وعلى الله ربّها وربهم وإذن فالشعب لن يعرف إلا كلمة واحدة هى : « الجلاء » ، ولا ينادى إلا بشيء واحد هو : « اخرج من بلادى أيها الغاصب » ، ولا يعرف من التاريخ ولا من السياسة ولا من البراعة والحذق فى الدهاء إلا أن هذا غاصب واقف بالمرصاد يغتاله ويغتال أسباب حياته ، ويرمى به فى الرغام ليعيش هو فى رغد وفى بحبوحة .

« قام الشعب فأسمع من كانت له أذنان ، فإذا فئة من محترفى السياسة ، ومن كل محتال عليم اللسان ، ومن كل وجيه زيّنَه ماله وغناه ، ومن كل ذى صيتٍ رفعته الأقدار بالحق أو بالباطل - قد هبُّوا جميعًا مع الشعب يقولون بمثل الذى يقول ، فظنَّ الشعب أنهم قد صدقوا بعد ماضٍ كذَبَ على التاريخ وعليهم فرضى عنهم وأعانهم ، ولكن لم يلبث إلا قليلا حتى رأى الوادى يموج عليه بالحيّات

والأفاعى والعقارب ، وكل لدَّاغ ونفَّاث وغدَّار ، فانتبه فزعًا يطلبُ النجاة مما تورط فيه من ثقة بأقوامٍ لم ينالوا يومًا ما ثقته ، ولا حمّلهم أمانته ، ولا رضى عن أعمالهم ولا سلَّم إليهم مقاليده إلا مرغمًا أو مغرَّرًا أو مخدوعًا . ثم بقى الشعب يترقب نهاية هذه المفاوضات العجيبة التى نالت فيها مصر كل شىء إلا الجلاء ، وحازت كل خير إلا الاستقلال ، ورأت كل عجيبة إلا عجيبة ارتحال الجيوش البريطانية ذات الزى العسكرى أو الزىّ المدنىّ » .

ويقول قائل الشباب : « إننى لا أعرف تاريخ القضية المصرية على الوجه المعقّد الذى يدلِّسُ به الساسة علينا ، ويدخلون المخافة والذعر فى قلوبنا . ولا أعرفُ من تاريخ هذه القضية إلا أن بلادى كانت توشك أن تكون قُبيل سنة ١٨٨٢ إحدى الدول العظمى فى العالم ، ثم إذا بأوربة كلها تتألّبُ على هلاكها وقتلها ، والولوغ فى دمِها بتحريض دولة واحدة قد امتلأ قلبها جشعًا وحقدًا . فلما ظفرت بما أرادت ، ذَادَتْ كل دولة عن طريقها . ورمت مصر غدرًا وخيانة فاحتلتها فى سنة ١٨٨٢ ، وحسدتها الدول ، وخافت مغبة احتلالها لأرض مصر ، فتألبت عليها وطالبتها بالخروج منها ، فوعدت أن تجْلُو عن أرض مصر جلاءً ناجزًا بعد أن تستقرّ الأمور ويتوطَّد سلطان العرش المزعزع ! وقامت مصر تطالب بالجلاء فوعدت أيضًا بالجلاء ، وظلت بعد ذلك تَعد وتَعِد وتَعِد وهى لاتمل وعدًا ولا تحققه ، إلى أن كانت سنة ١٩٤٦ ، فإذا هى تعلن الجلاء إعلانًا تامًّا صريحًا بيّنًا واضحًا ناجزًا سريعًا ، وتبدأ تجلو ، ولكن من غرفة إلى غرفة ، ومن سرير إلى سرير ، ولكنها لا تخرج من باب الدار إلى لَقَم الطريق [١] .

« ثم إننا نرى هذه الفئة التى اختالت فى ثياب « الزعامة » ومجدتها الصحافة وسمتها باسم « الزعامة » قد دخلت فى المفاوضات بينها وبين البريطانيين باسم مصر ، ومصر منها براءٌ ، فإذا بريطانيا تزعم للشعب أنها جَلت عن مصر ، فأخلت القلعة ، أخلتْ فندق سميراميس ! وكانت فيه القيادة العليا البريطانية للجيش البريطانى فى مصر ، وأخلت كذا ، وستجلو عن كذا ، لكنها تأبى فى المفاوضات

---

(١) لَقَمُ الطريقِ : وسطه .

إلا أن تبقى فى مصر لتشارك مصر فى الدفاع عن أرض مصر العزيزة – على بريطانيا بطبيعة الحال !

« أفتظن هذه الفئة أن الله قد سلب الشعب المصرى فطرته السليمة ، حتى تخدعه كل هذه الترهات الباطلة التى يرسلها كهنة السياسة من كهوف المفاوضات على وادِيه المحرَّم ؟ لئن ظنوا فقد خابت ظنونهم وباءوا بأخيب الرأى وأبعده عن مواقع الصواب . إن الذى بيننا وبين بريطانيا قد بان وتكشَّف لكل ذى بصر . نعم لقد مضَى على مصر دهر وهى مخدوعة بالمفاوضة ، مخدوعة بقدرة السياسة على نيل الحقوق المهضومة ، ولكن لم يبق فى مصر بعد اليوم شابٌّ فى قلبه ذرّة من إيمان بالحرية ، فى عقله ذرة من حسن التقدير وصدق التفكير ، إلا وهو يعلم صدق العِلْم أن المفاوضة معناها كذب القوىّ على الضعيف ، وذلة الضعيف بين يدى القوىّ . ونحن ننظر صابرين إلى هذا العبث الدائر بين رجال قد أحدُّوا أنيابهم ، وأعدُّوا مخالبهم ، رجال قد عرَّضوا مقاتل أُمتهم لهذا الضارى المفترس ليقضم منها حيث شاء كما شاء ، ثم يقول للفريسة : لقد أعددت لك الأطباء والممرضين ليضمدوا جراحك ويحقنوا دمك ، ويدفعوا عنك عادية الرَّدَى ! وكذلك تكون شفقة الأسود الرحيمة !

« إن القضية المصرية أبسط قضيّة على وجه الأرض : غاصب قد أقرّت الدول جميعًا منذ سنة ١٨٨٢ أنه غاصب معتدٍ ، ومغصوبٌ لا يزال يصرخ منذ ذلك التاريخ ، ويقول لأهل الدنيا : أنقذونى . فما معنى الدخول فى المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ؟ إن العالم كله مطالب بإخراج بريطانيا من مصر ، ونحن لا نحب أن نفاوض بريطانيا ولا ينبغى لنا أن نفعل ، بل الذى ينبغى هو أن نفاوض الدول كلها إلا بريطانيا فى شأن إخراج هذا الغاصب وإجلائه عن برّنا وجوّنا وبحارنا ، وفى صدِّه عن عُدوانه على أعراضنا وعلى طعامنا وعلى أرزاقنا وعلى أخلاقنا وآدابنا وثقافتنا ...

« إن بريطانيا دولة قوية ما فى ذلك شك ، ولكننا أقوى منها لأننا أصحاب حق . فليعلم هؤلاء المفاوضون أن مصر لن تقبل الدنيّة فى مستقبلها ومستقبل

أجيالها ، وليعلم هؤلاء المفاوضون أنهم لا يملكون التصرف فى رقاب أهل مصر الحاضرين ، ولا فى رقاب الأجيال الآتية ، وأنهم وإن كانوا مصريين كراما ، إلا أن مصر خالدة على وجه الدهر ، وهى أكرم منهم على أبنائها ورجالها الآتين . ونحن الشباب الناشىء نعرف أننا لن ننال لأنفسنا ولبلادنا حقها وحريتها إلا بالحزم والعزم وترك التهاون ، والإقلاع عن هذه الخبائث التى يسمونها المفاوضات ، ونسميها نحن المساومات . ونحن الشباب الناشىء نعرف أن الحياة لا معنى لها إذا خلتْ من الشرف والكرامة ، وأن الشرف والكرامة عندئذ هى الموت . فلنمت كِرَامًا صادقين ، فذلك خير من أن نعيش أذلَّاء مستعبدين . ولتعلم هذه الفئة أنها تسير بمفاوضاتها فى وادٍ ، وأن الشباب يسير فى وادٍ غيره ، فليحذروا مغبة ما يفعلون ، وخير لبريطانيا أن تفهم هذا ولا تتجاهله ، فربما جاء يوم لا ينفعها فيه هذا التجاهل ، وكان خليقًا أن ينفعها الفهم وحسن الإدراك » .

هذا حديث الشباب أيها الشيوخ ، فاحذروا غدًا ، فإن القوة التى تتجمع فى الصدور قد أوشكت تنقض السُّدود التى رفعتها بريطانيا وشيدتها وجعلتكم عليها قُوَّامًا وحُرَّاسًا . أيها الشيوخ شاركوا الشباب قبل أن يأتى يوم لا يُغنى عنكم عقلكم ولا استبصاركم ولاتَلَبُّسُكم بأثواب السياسة ومُسُوحِ الحكمة وعمائم الوقار . وذلك يوم قد دنا أوانه .

* * *

بعض الذكرى .... !

كان ذلك منذ عشرين سنة ، وكنت فتى لا يملُّ الدُّؤوب والسعى ، وكانت أول مرة أدخل فيها بيت ذلك الشيخ [١] الضئيل البدن المعروق اللحم ، الذى ينظر إليك أبدًا كالمتعجب . وكان الذى سعى بى إليه حبٌّ قد ملأ قلبى له ، وإجلال قد أخذ علىّ العهد أن أفى لهذا الشيخ ما حييت وفاءَ الذكرى ووفاء العلم ووفاء الاقتداءِ ؛ وكنت يومئذ قد حضرت بعض دروسه فى مسجد البرقوقى ، وقرأت عليه شيئًا من كتاب أبى العباس المبرّد ، وكان يعدُّنى كبعض ولده لسابق معرفته بأبى رحمهما الله . وكنت يومئذ سقيم الجسم خفيف اللحم نحيل التجاليد ثائر الشَّعر ، فإذا لقيته فربما كان يقول لى : « كأنك آيبٌ من سفر بعيد أيها الفتى » . فكنت أفهم عنه ، فإذا انقلبت إلى الدار عدوت إلى المرآة لأرى ماذا حمل الشيخ على مقالته التى لم يزل يقولها لى ويدى على يده أو فى يده ، فما أرى سوى وجه شاحب ضامر ، وعينين غائرتين كأنهما تنظران إلى شىء بعيد فى جوف وادٍ سحيق عميق . فأقول لنفسى : هذا جُهْد التحصيل وكدُّ النفس فى قراءة هذه الأسفار القديمة التى تباعدت معانيها وتقادمت عهودها .

طرقتُ بابه فى ذلك اليوم على غير ميعاد ، ففتح لى صغير من حَفَدته وقادنى إلى غرفة الشيخ ، فإذا هو جالس على حشيّة على بساط كالح من تقادم الأيام ، وعلى يمينه خزانة كتب مطويّة فى جوف الجدار ، وأمامه صينيّة صفراء من نحاس فيها أداة القهوة ، وعلى يساره كتب مركومةٌ ، وفى يمناه قلم يكتب . فلما سمع حسّى رفع إلىّ بصره وسكن ، وظلّ كذلك ساعة وأنا بين يديه يأخذنى ماقرُب وما بَعُد من هيبته ، وجعل ينظر إلىَّ فأطال النظر ؛ ثم لم يلبث أن قال بصوت خافت ماكنت لأتبينه لولا أنى عرفت الذى يقول وكنت أحفظه ، وهى هذه

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩٦) ، نوفمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٢١٣ - ١٢١٥

(١) هو إمام العربية وحامل أمانتها شيخ أستاذنا سيد بن على المرصفى رحمهما الله .

الأبيات من شعر بعض الأعراب :

رأتْ نِضْوَ أسْفَارٍ ، أُميمةُ ، شاحبًا
على نضو أسفارٍ ، فجُنَّ جنونُها [١]

فقالت : « مِنَ اىِّ الناس أنت ؟ ومن تَكُنْ
فإنك راعى صِرْمةٍ لا يَزِينُها [٢] ! »

فقلت لها : « ليس الشُّحوبُ على الفتى
بعارٍ ، ولا خيرُ الرجال سمينُها

عليك براعى ثَلَّة مُسْلَحِبَّةٍ
يَرُوحُ عليه مَخْضُها وحَقِينُها [٣]

سمينِ الضَّواحى ، لم تُؤَرِّقه ليلةً
– وأنعمَ – أبكارُ الهموم وعُونُها [٤] »

وكان الشيخ حسنَ التقسيم للشعر حين يقرؤه ، فيقف حيث ينبغى الوقوف ، ويمضى حيث تتصل المعانى ، فإذا سمعت الشعرَ وهو يقرؤه فهمته على مافيه من غريب أو غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض ، فكأنه يمثله لك تمثيلا لا تحتاج

(١) نضو أسفار : مهزول قد أذابت لحمه الأسفار ولوحته البيد ، يعنى بالأول نفسه ، وبالثانى بعيره .

(٢) الصرمة : القطيع من الإبل والغنم .

(٣) الثلة : جماعة الغنم ، مسلحبة : أى منبطحة فى مراعيها قد اطمأنت شبعًا وريًّا . والمخض : اللبن الذى يستهلك فيه زبده فلا يكاد يخرج منه زبد ، وهذا أطيب ألبان الغنم وأمرؤها على البدن . والحقين : هو اللبن يجمع فى السقاء ويصب رائبه على حليبه ، فهو غذاء حسن ، وذلك كله كناية عن طيب مطعم هذا الراعى وحسن مشربه ، فهو فى خفض ونعمة .

(٤) الضواحى : مابرز من الإنسان كالمنكبين والكتفين ، يريد ممتلئ البدن من الراحة والدعة وسكون النفس . والأبكار : جمع بكر ، وهى المرأة لم تتزوج بعد . والعون : جمع عوان ، وهى المرأة كان لها قبل ذلك زوج . أما قوله : « وأنعم » فهى كلمة معترضة أراد بها أن قد طال على ذلك الراعى ما هو فيه من خفض ورغد وراحة ورفاهية حتى ربا وسمن وزاد ، فلم يشغله شىء يضنيه أو يأكل من بدنه .

بعده إلى شرح أو توقيف ، وكان فى صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والاقتدار ، وفى نبراته حين ينشد الشعْر معنى الفهم للذى يتلوه عليك ، فلا تكاد تخطئُ المعانى التى ينطوى عليها ، لأنها عندئذ ممثلة لك فى صوته . والصوت الإنسانىّ هو وحده القادر على الإبانة عن المعانى الخفية المستكنَّة فى طوايا النفوس أو فى أحاديث النفوس .

وربَّ رجل أو امرأة تسمع كلامه أو كلامها وأنت لا تعرف عن أحدهما شيئًا ، فيخيّل إليك وأنت تسمع أنك قد نفذت على نبرات هذا الصوت إلى أعمق الأعماق المدفونة فى هذه النفس الإنسانية التى تحادثك ، وهذا شيءٌ لا يكون إلا فى ذوى النفوس الصادقة الصافية البريئة من حشو الحياة وسفْسافها ، وهذه النفوس وحدها هى القادرة على أن تجعل الصوت بمجرَّده لغةً مبينة عن أغمض المعانى التى تعجزُ لغات البشر عن حملها وأدائها .

وأنت محتاج حين تسمع « لغة الصوت » أن تكون يقظ النفس حىَّ الإحساس ، نفَّاذًا إلى المعانى المتلفِّعَة بالغموض ، حسن التيقظ للنبرات التى تدل على ضمير اللفظ ، سريع الخاطر فى إدراك هذا الموج المتلاحق من الحركات المختلفة . فإذا كان الذى تسمعه كلامًا يُتلى أو يُنشد كالشعر مثلا ، وكان الذى ينشده قد عاش ساعة فى معانيه حتى تلبَّس بها ونطق لسانه معبّرًا عن لسانها وعن لسان قائلها الأول ، كان عليك أن تكون ليّنًا طيّعًا سريع التبدُّل جرىء النفس فى غمرات العواطف ، حتى يتاح لك أن تعيش أنت نفسك فى هذه المعانى ساعة تتلى عليك وعندئذ تغشاك غمرة لذيذة تدبُّ فى غضون نفسك ، فتحسُّ كأنك تُبعث بعثًا جديدًا فى حياة جديدة حافلة بالصُّور التى قلما يدركها العقل إلا مُشوَّهة مشيَّأةً [١] متخالفة التركيب ، فلا يزال يجهدُ فى تلفيق أجزائها حتى لايبقى من أصولها الحيَّة الصريحة الصادقة شىء البتة . فإن استطعت يومًا أن تجد فى نفسك أنك مستطيع أن تكون على هذه الصفة ، فقد فهمت الشعر ونفذت إلى أغواره ، وإن عجزت عن بيان ما فيه .

---

(١) المُشَيَّأُ : المختلف الخلْق المُختَلّه القَبيح .

وفى الناس ناسٌ ، وقليلٌ ماهمْ ، قد أجادوا « لغة الصوت » إجادة بارعة ، وإن كانوا فى أكثر الأحيان لا يدركون أنهم يحسنون منها شيئًا ، وذلك لطول ما انطوَوْا على أنفسهم حتى غمروها فى بحر النسيان . وربما سمعتَ أحدهم وهو يتكلم ، فما يكاد ينطق حرفًا أو حرفين حتى تحسَّ كأن كل معانى نفسه تنسربُ فى نفسك واضحة بيِّنَة ، وأنك قد عرفت منه ما يكاد يخفيه عن الناس جميعًا ؛ لأنه متكبر أو قانط أو هيَّاب جزوع ، وهذا الضرب من الناس هم أشد خلق الله حرصًا على إخفاء آلامهم ، وأبعدهم رغبة فى الاستمتاع بالعذاب الذى يقاسونه ، لأنهم يظنون أنهم بذلك قد حازوا النصر على آلامهم ، وعلى الناس أيضًا ؛ إذ استطاعوا أن يواروا عنه خبءَ ما فى نفوسهم الحزينة المعذبة .

* * *

لما سمعتُ الشيخ رحمه الله ينشد تلك الأبيات ، تمثَّلت لعينى تلك المأساة الخالدة بين الرجل الصادق والمرأة التى أحبَّها ، وكانت تطمع أن يكون لها كما خيّلَت لها أوهامها ، وأن يأتيها بتحقيق أحلامها – أى أحلام حواء منذ كانت حواءُ على اختلاف العصور وتباين الحضارات . فهذا أعرابيٌ محب لصاحبته « أميمة » التى ذكرها فى شعره ، فدارت به الأيام فى فيافى الحياة ملتمسًا ما يحقق به أمانى هذه المرأة المحبوبة ، ثم عاد إليها وقد أذابت البيد منه ما أذابت بظمئها وشمسها وجوعها ومخاوفها . فلما رأته شَاحِبًا مهزولا رثًّا أسوأ حالا مما عهدته ، أنكرته وقد أثبتته معرفة . فجنَّ جنونها لأنها محبةٌ قد أخطأت فى الرجل الذى تحبُّ كل ماكانت تؤمله ، وخانها ماكانت تتمثله فى أحلامها من صحة وشباب وأناقة وجمال . وما أسرع ما تتنكر المرأة إذا خاب ظنها وتبددت أحلامها ، وفاجأتها الحقيقة العارية بالشىء الذى يخالف ماكانت تتوهم !

كانت المفاجأة صارخة فى نفس أميمة ، فلم تلبث أن غلبتها تلك الطبيعة المتقلِّبة الغدَّارة التى طال عهد المرأة بها ، فأظهرت كأنها لا تعرفه ولم تلقَه ساعة من دهر . وجرى على لسانها ذلك الحديث الذى يرويه لنا المحبّ ، فقالت : مِن

أيّ الناس أنت ؟ ولم تقف عند هذا فأبدت الفزع منه لئلا يخونها ما فى حنايا ضلوعها فيظهر على لسانها فعادت تقول : ومن تكنْ ؟ ولكن أنَّى للمرأة الضعيفة التى زلزلت المفاجأةُ بنيانها أن تكتم حقيقة نفسها ؟ لقد كانت منذ هنيهة تسأله سؤال الجاهل من هو ومن يكون ، فإذا بها تنهار من شدة ما تعانى من اهتزاز كيانها ، فتقول له مقالة الناقد الساخر ، محاولة أن تبدى عن احتقارها وازدرائها لما ترى ، فزوَتْ عنه وجهها وهى تقول : لو كنت رَاعِيَ إبل لكنت خليقًا أن تنكر النفوسُ والأَعْيُن ما ترى من حقارتك وبذاذتك [١] ، فكيف ترجو أيها المحب المغرور أن تكون حسنًا فى عين من تحبُّ ، وأن تكون زينًا لامرأة أحبتك ؟ وهكذا المرأة – إلا من عصم الله ...

فهم الشاعر المحبُّ مرمى كلامها فأنف لنفسه ، فانطلق يسخر منها بعد أن تكشَّف له ضمير المرأة الغادرة . فقال لها : ليس الشحوب على الفتى بعارٍ ، ولا خير الرجال سمينها ، وإذا كان شحوبى قد ساءك وآذاك حتى أنكرت منى ما تعرفين ، فنعم ولك العُتْبى علىَّ . عليك بمن يزينك . اطلبى لنفسك راعى غنم قد اطمأنت به وبها الحياة ، فعاش خافضًا وادعًا لاهمَّ له إلا بطنه ، حتى امتلأ وتضلّع وغدا سمينًا بضًّا جميلا كأحسن ما تأملين ، فأنتن أيتها النسوة إنما تحببن من الرجال الزينة وحدها ، كأنكنَّ إنما تتخذن الرجال حليًا لا أصحابًا ولا أزواجًا . وهكذا المرأة ، هى لضعفها تؤثر لحياتها كل ظاهر يدلُّ على القوة فهى تؤثر البدن القوى على البدن الضعيف ، وتؤثر اليسر على الخصاصة ، وتؤثر القناعة على الطموح ، وإن كان قلبها يؤثر بالحب ذلك الضعيف الفقير الطمَّاح الذى أضرَّ به الكدح ، ولكن قلب المرأة هو آخِر ما تهتم له إذا جاءها بمن لا ترضاه لحياتها ؛ فالمرأة مفتونة بكل مايدل على القوة الظاهرة ، ولا تكاد تبالى شيئًا بالقوة المستكنَّة كالعلم والعقل والجهاد والصبر ؛ لأنها تريد أن تحيا حياة مطمئنة محفوفة بما يحسدها عليه النساء سواها لا أن تحيا مجاهدة فى عذاب حبيب مجاهد .

---

(١) البذاذة : رَثاثَة الهيئة .

ومنذ سمعتُ الشيخ ينشد تلك الأبيات ، وقفتُ على كلمة فى هذا الشعر لا أزال أعجب لها وهى : « أبكارُ الهموم وعُونُها » « أبكار الهموم » ! يالها من كلمة عبقرية ! إن مزيَّة هؤلاء الأعراب البُدَاة على سائر من نطق بالعربية هى هذه الجرأة العجيبة التى تنقضُّ على اللغة فتنفضُها نفضًا وتختار من ألفاظها كلمة تضعها حيث تشاء ، فلا تراها تقلق فى مكانها أو تضطرب ، وهم بذلك يختصرون المعانى كلها فى كلمة واحدة يخبأون فيها أحلامهم وخيالهم وأحاسيسهم وأسرار قلوبهم ، كما خبأ هذا الأعرابى كل ماكان فى نفسه فى « أبكار » ، ودلَّ بها على المعانى التى كانت تضطرم فى قلبه حتى أضنته ومسحت وجهه بالشحوب ، وعرقت لحمه بالهزال ، وصيَّرته إنسانًا مُنكرًا فى عين من يُحب .

فهذا الأعرابىُّ الجرىء ، والمحب المزدَرَى ، والساخر المستخفُّ عندئذ بالناس وبالنساء وبالحياة ، قد أراد أن يُعْلِم « أميمته » الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأً غضًّا ناضرًا ناعمًا لم تؤرِّقه هموم النفس ولم يُضرَّ به الكدح فى بوادى الأحلام والآلام والآمال ، فإنه غنىٌّ عنها ، وعن سائر نساء العالمين – وأن أمثالها لسنَ له بهمٍّ ، وأن له من حاجات نفسه وهمومها « أبكارًا » كأبكار النساء و« عونًا » كعونها ، فهو راض بها وبما يلقى فى سبيلها من أرقٍ وسُهادٍ . وأراد أن يُعلمها أنه لا يأسى على مافاته من بِكْرٍ ولا عوانٍ ، فإن للنفس الشاعرة همومًا « أبكارًا » لم تمسسها يدٌ ولا فكرٌ ولا حُلُم ، تجد النفس المحبة فيها مايجد المحبّ فى العذراء الحييَّة العصيَّة من فتنة وجمال ونضرة وشباب ، ولا يزال يداورها ويحاورها ويشقى بالسعى فى طِلابها شقاءً لذيذًا له فى القلب نشوة أو سُعار ، وهى « أبكار » لا تزال عذراء على وجه الدهر لا تغيِّر منها الأيام شيئًا ، ولا تُنيل الطالبَ المحبَّ إلا متاع الحبّ المجرد من شهوات الأبدان ، بل هى تغتذى بالأبدان فتضنيها وتنهكها لتبقى هى أبدًا أبكارًا .

وللنفس أيضًا هموم « عُون » قد أصاب الناسُ منها ما أصابوا ، ولكن بقيت منها للنفوس الشاعرة بقية فاتنة بما فيها من دلال وكبرياء وقدرة على الامتناع عند

الإمكان ، ونُبْل فى الخضوع والتسليم عند العجز ، فهى تداور صاحبها وتحاوره حتى تشقيه شقاءً لذيذًا ثم تُنِيلُه مايشاءُ حتى يرضى .

ولقد عجبتُ للشيخ يومئذ وهو يكرّر : « لم تؤرِّقه ليلة ، - وأنعمَ - أبكارُ الهموم وعُونُها » فقد كان فى صوته ما جعلنى أنسَى أنى لم أزلْ واقفًا أنصِتُ لدبيب هذه الحياة فى جو الغرفة ، ثم خرجتُ من عنده ولا يزالُ صَدى صوته يردِّد فى نفسى تلك الكلمات المصورّة المبدعة : « أبكارُ الهموم وعُونُها » .

* * *

نافقاء اليَرْبُوع

لى صديق ، أطال الله بقاءه ، يعيش فى الدنيا وهو خارج منها . هذا غاية نَعْته وصِفته : « يعيش فى الدنيا » وهو حريص عليها ، لاحرصَ البخيل الذى يجمع المال ، ولا حرصَ المستمتع المستهتر باللذات ، ولا حِرْصَ الطامح الطامع فى الخلود ، كلا هو حرصٌ على حِدتِه وعلى حِياله لا يُشبهه فى الناس إلا القليل . هو حِرْصٌ على التعجُّب منها ومما فيها ، وهو حرصٌ على النظر فى الأشياءِ والحيرة فى فهمها ، واضحة كانت أو مبهمة ، وهو حرْصٌ على استيعاب الحياة كما هى عند الناس من نُظرائه ومن غير نظرائه . ولا يخرجُ من كل هذا الحِرْص الشديد على الدنيا التى تحت عينيه إلا بطول التساؤل وبتنازُع الحيرة ، وبالخوف مما كان ومما لم يكن . هذه واحدةٌ .

وعجيبٌ أنه أبدًا مولَعٌ بهذا الحرص وَلوعَ المحبّ بحبٍّ جديد . وهو نفسه يعلم أنه حرص عقيم لا يجدى عليه شيئًا فى معرفة الدنيا ولا فى التثبُّت من شىء من أحوالها ، ولكنه يزدادُ به على الأيام وَلُوعًا وكلفًا وغرامًا حتى يستهلك نفسه فى السؤال والبحث والتقصّى عن أشياءَ لا تغنى عنه شيئًا ، ولا يغنى عقله فى إدراكها ، ولا يغنى قلبه فى الإيمان بشىء منها . وهو يأبى أن يُلْقى عن كاهله هذا العبءَ الثقيل الفادح ، وإن كان يثق كل الثقة بأنه شىء لا جدوَى من حَمْله ، ولا من الصَّبر على بلواه . هذه ثانيةٌ .

وثالثة الأثافىّ ، كما قال أسلافنا ، أنه إنسان حىُّ النفس قابلٌ للتلقّى ، فكل شىء من حوله يثير فى نفسه الفضول ، وينشُر عليه ذلك الحرصَ الشديد على المعرفة ، مجديةً كانت أو غير مجديةٍ ، لا يبالى ، فإذا هو كالمغموم إذا اعترضه مايعوقُه عن الاستقصاءِ. وأشدُّ من ذلك هولًا أنه لا يكادُ ينسى شيئًا مما ائتمنَتْه نفسه على استقصائه ، إذا قطعه ذلك العارض البغيض إلى نفسه ، فإذا عادَ إلى

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩٨) ، نوفمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٢٦٩ – ١٢٧٠

ما لابدَّ له منه عاد أشدَّ رغبة فى النفاذِ والاستقصاءِ والبحث . فهو بذلك مُعَانٌ على الحرصِ على الدنيا وما فيها بالذى انطوت عليه جوانحه ، وبالذى فطرت عليه نفسه ، فهو لا يرى خلاصًا ، أو لا أرى أنا له خلاصًا ، من هذه العادة المتمكنة ، أو هذه الخصلة الكامنة فى أعمق أعماق طبيعته .

فهو بهذا الذى وصفت : « يعيش فى الدنيا » ، ولكنه « خارج منها » بشىءٍ آخر ، وإن كان متصلا بهذا كله أشد الاتصال . فهو لا يكادُ يعبأُ بنفسه شيئًا ، بل هو لا يعرف أن له نفسًا موجودة ، أو أصحُّ من ذلك أنه يشك كل الشك فى وجود نفسه ، فهو أبدًا مختلَسٌ من نفسه بالبحث عن نفوس الناس . وهذه مَثْلبة الفضول ، فإنها تمنعُ المرءَ عن التأمل فى نفسه ، فإذا أراد أن يتأملها فكأنما يتأمل شيئًا غريبًا ليست بينه وبينها وشيجةٌ أو آصِرةٌ أو عاطفة . ومن أجل ذلك تراه يدور من حياته هو فى مثل الحلقة المفرغة لا يدرى من أين بدأ ولا أين انتهى ، ولا يعرف أهذا هو الحق فى فهم نفسه أم الحق سواه . ويذهب ويعود فى البحث ولكنه لا ينتهى إلا إلى شىء واحد هو أنه لا يدرى .

كنتُ على وشك أن أكتب شيئًا حين أسرع هذا الصديق إلى التلفون ليسألنى هل قرأتَ جريدة « المصرى » ، وماجاء فيها من الذى سمّته « النص الحرفى لمشروع اتفاقية صدقى – بيفن ، ولبروتوكول الجلاء والسودان » : وذلك فى عدد الأحد ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وكنت قد فرغت لساعتى من قراءته ومن التعجب لما جاء فيه . وأنا لا أستطيع أن أطمئن إلى نصٍّ مخْتَلس لا أدرى أحقٌّ هو أم باطل ، ولكنى قرأته فإذا لم يكن هو النص فكأنه هو ، لأنه أشبه مُعْوَجٍّ بحقيقة العوَج . ولا أظن أن الإنجليز يبلغ بهم صدق الطبيعة أن يقولوا فى السياسة شيئًا على وجهه وعلى استقامته . فلذلك خُيّل إلىَّ أن فى هذا النص طرفًا من الحقيقة الدالة على طبيعة الاعوجاج فى ألسنة هؤلاء الساسة الإنجليز ، ولست أعجل إلى مثل هذا النص المختلس فأقول فى عبارته قولا ، فإن العجلة فى مثل هذا شىءٌ لاغناء فيه ، كما لا غناءَ لك فى إقناع الإنجليز بأن الحق الذى لك هو حقك ، إذا كان الإنجليزى يرى أنه ليس حقًّا لك ، وإن ظاهرتْك الدنيا كلها على حقك .

ونحن منذ كانت سنة ١٩١٩ أخذنا نجهل كيف يعامَلُ هؤلاء الناس ، فإن ذلك الخَطَل الذى ضَرَب على آذاننا وأبصارنا وقلوبنا ، والذى يسمونه « المفاوضة » قد جرَفنا فى عُباب مُتلاطم من الحيرة والضلال ، فما نكاد نبصر ولا نعى ولا نعقل شيئًا من حقيقة هذا الشعب الإنجليزى أو ساسته الذين يتصرفون فى أمور الدنيا كأنهم وارثوها وأصحابها الذين تلقَّوْا مقاليدها من يَدِ الله القدير العزيز . وكنت أظنُّ أن التجارب قد حنَّكت رجالنا فعرفوا مواعيد هؤلاء القوم ، وأدركوا كيف تكون مواثيقهم منذ علا أمرهم فى الأرض ، وكيف كان تاريخ معاهداتهم منذ كان لهم شأن فى هذه الدنيا يكتبون من أجله المعاهدات . بيد أن ذلك لم يكن ، لأن رجالنا يستضعفون أنفسهم ، ويظنون أن هذا الشعب لا يمكن أن يظفر بحقه إلا بمداورة الإنجليز والترفق فى معاملتهم ، حتى ينالوا من أيديهم ماتيسَّر ! وهذا عجبٌ ! بل هو غفلةٌ ، بل هو كدْح أحمقُ فى سبيل لا شىء . فقل لى بربك كيف يستطيع إنجليزى أن ينزل لنا عن شىء هو يريدُ أن يؤمن بأنه حقٌّ له ، وإن كان حقًّا موروثًا متحدّرًا مع أصل البشرية كلها ، وهو الاستقلال والحرية ! ...

خلق الله فى دوابّ الأرض دابة يسميها العرب اليَرْبُوع تكثر فى بلادهم ، وهى نوعٌ من الفأر قصير اليدين جدًّا ، وله ذنب كذنب الجُرَذ يرفعه صُعُدًا ، وفى طرفه شبه النَّوَارة ولهذا اليربوع أسلوب فردٌ فى حياطة نفسه وأموره ، حتى إنه يتخذ لعشيرته رئيسًا يقف حارسًا على جِحرَة اليرابيع يحميها ، فإذا قَصَّر فى الحراسة ، وهجم على اليرابيع من جراء غفلته وإهماله هاجمٌ أفزعها أو أضرَّ بها ، انقلبت على ذلك الرئيس فقتلتْه وأقامت غيره مقامه . ويتخذ كل يربوع منها جِحرَةً يلوذ بها ، ويجعلها سبعةً لها سبعة أبوابٍ . فيبدأ أول ما يبدأ بالجحر الذى يسمونه « الرَّاهطَاء » فيغطيه بالتراب حتى لا يبقى منه إلا على قدْر ما يدخل الضوء منه إلى جحره هذا ، ثم يحتفر جحرًا يسمونه « الحَاثِيَاء » يحثو عنده التراب برجليه ليخفى مدخله ثم يحتفر آخر يسمُّونه « الدَّامَّاءُ » لأنه يُدَمِّمه بتراب نَبِيثَته [١] حتى لا يَنْفذَ

---

(١) النبيث : التراب الذى يستخرجه من الحَفَر .

منه عدُوّ ، ثم ينشىء جحرًا آخر يقالُ له « العانقاءُ » يملؤه ترابًا ، فإذا فجأه ما يخاف اندَسَّ فيه إلى عنقه . ثم يَحْفر « القاصِعاء » وهو جحرٌ يسدُّه سدًّا محكمًا لئلا يدخل عليه منه حيّة أو دابة . ثم يحفر « النافقاءَ » ويجعل على فَمه غشاءً رقيقًا ، فإذا أُخِذ عليه بقاصعائِه عدَا إلى هذه النافقاء فضربها برأسه ونفق منها ومرق خارجًا . ثم يجعل سابع سبعةٍ جحرًا يقال له « اللُّغز » يجعله بين القاصعاءِ والنافقاءِ ، يحفره مستقيما إلى أسفل ، ثم يعدلُ به عن يمينه وشماله عُرُوضًا تعترض ، يُعَمِّيه ليخفى مكانه بذلك الإلغاز ، فإذا طلَبه طالب بعصًا أو سواها نَفَق من الجانب الآخر .

أفرأيت إلى كل هذه الحيطة وكل هذا التدبير ! فإن تعجبْ فإنك واجد فى الخُلُق الإنجليزى أكثر من هذا مداورةً وتَفَلُّتًا وإلغازًا ومراوغه . والإنجليز أنفسهم يعلمون أنهم كذلك وأنهم يخفون فى سرائرهم ما لو اطَّلعْت عليه لاستصغرت من احتيال هذه الدابة ما استكبرت . ومن أراد أن يدخل على الإنجليز جِحرَتهم وقع فى مَتاهة لا يدرى معها من أين ولا إلى أين . فمن العجيب الذى لا ينقضى عجبه أن يظن رجالٌ من رجالنا أن فى طوقهم أن يراوغوا الإنجليز فيستولوا على جحراتهم المحتفرة فى طبائعهم وأخلاقهم وعقولهم .

إن معنى المفاوضة والمعاهدة بيننا وبينهم هى أن يسعى الإنجليز جهدهم حتى تطمئن إليهم ، فإذا فعلت أخذوا بيدك وقادوك إلى مثل جحرة اليربوع ، فيدخلون بك من واحدٍ إلى ثان إلى ثالث ، حتى إذا خُيل إليك أنك قد تمكنت منهم « نفقوا » من نافقائهم بأسهل مما كنت تتصوَّر . وهكذا شهدنا وعرفنا وخبرنا منذ احتلّوا بلادنا فى سنة ١٨٨٢ ، فوعدوا الدنيا كلها - لا نحن وحَسْب - بالجلاء الناجز ، ولكنه ظلَّ وعدًا إلى هذا اليوم .

وجاءونا اليوم يعدوننا أيضًا أن يَجْلوا عنا بعد عام أو عامين أو ثلاثة - أىُّ ذلك كان . فمن الذى يصدق هذه اليرابيع ! ومن شفيعهم وضمينهم فى كل هذا ؟ أهو الخطُّ المكتوب ، أم اللفظ المنطوق ، أم سوابق العهود المؤكدة والمواثيق الغليظة !! إنها لغفلةٌ أن يرى امرؤ نفسه أقدرَ على خديعة هذه اليرابيع من قدرتها هى على خديعته . وليس يعلم شيئًا من ظن أن الإنجليز ينفضون أيديهم من شىء

هو كائن فى أيديهم . الإنجليز يرابيعُ بالطبع والممارسة ، حتى إن « النِّفَاق » الذى علمته فى أخلاق اليرابيع ، قد صار أيضًا خُلُقا من أخلاقهم يشهدون هُمْ به على أنفسهم ، ويشهدُ عليهم به تاريخهم منذ كان لهم التاريخ . وهذا النفاق المطبوع هو الذى جعلهم أقدر شعوب الأرض فى كل شئون السياسة . وما مواعيدهم ، ولا معسول ألفاظهم ، ولا روعة دعوتهم إلى الحرية ، ولا كمال إخلاصهم فى تحرير الجنس البشرى من غوائل النازية ، ولاصبْرهم على المكاره فى سبيل المثل الأعلى للإنسانية - كل ذلك ليس ببعيد عنا فى زمن الحرب الماضية . لقد نطقوا بكل شيء ، ولكنهم لم يحققوا شيئا مما نطقوا ، فكيف نرضى لأنفسنا أن نؤمن بأنهم فاعلون معنا شيئًا لم يردّهم خجل ولا حياء عن نكث مثله وإخلافه ، بل أكبر من ذلك أنهم فعلوا نقيضه ودافعوا عن فعله بمثل القوة والبلاغة التى كانوا يزيّنون بها لأمم الأرض أن تُعينهم فى أيام محنتهم وبلواهم !

ومن عجائب الإنجليز أنهم يعلمون علمًا ليس بالظن أنهم معتدون متغطرسون ظالمون ، يأكلون الحقوق أكلا لا يرعون فيه حرمة ولا ذمة . ومع ذلك فهم من طول ممارستهم للنفاق قد انتهوا إلى أن أقنعوا أنفسهم بأن هذا الاعتداءَ وهذه الغطرسة وهذا الظلم ليس له وجود حقيقىّ ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أنهم وحدهم دون سائر العالمين أهل العدل والنَّصَفة والتواضع ، وأنهم هم الذين جاءوا إلى الدنيا ليردوا الحقوق إلى أهلها ، وأنهم هم القُوَّام على هذه الرسالة السامية . ولذلك ترى كلام رجالاتهم كلامًا نَيِّرًا مضيئًا فاتنًا ساحرًا إذا عرضوا لمعنى الحرية وما أطافَ بها ، ويُخيل إليك أن إيمانهم بهذه المثل العليا إيمان لا يعتوره نقصٌ . وهذا حق ، ولكنهم إذا جاءوا إلى تنفيذ مايقولون رأيتهم أهل بغْى وعُدْوان فيما ترى ويرى الناس ، ولكنهم هم يصرُّون على أن هذا هو الحق الذى لا محيصَ لك ولا للناس عن الأخذ به ، تقول : وإن كان بغيًا وعدوانًا ، فأقول : وإن كان بغيًا وعدوانًا !

والإنجليزى يرى أن هذه الأمانة التى حُمِّلها هى الأمانة ، وأنه مؤدِّيها على وجهها ، فإن أنت خالفته وزعمتَ له أنه يجورُ عليك جورًا عبقريًّا قال لك : إنك

شديد المُماكَسَة (١) مولَعٌ بالجدال ، ويحاول أن يبسُط لك الأمر بسطًا حتى تقتنع بأنه غير ظالم ، بل هو العادل الذى لا يعرف العدل أحدٌ سواه . ومن شاء أن يناقض هذا الذى أقوله فلينظر إلى حُجَّة هذا الشعب فى موقفهم أو احتلالهم للهند . وفى احتلالهم لمصر من أجل الهند . فالهند مستعبدة ظُلمًا وجورًا ، وهم يريدون أن يحللوا بقاءهم فى مصر ، لأن فيها قناة السويس ، وهى التى تؤدى أو تسهل الطريق إلى بلاد الهند . فإذا خرجت القناة من أيديهم كان ذلك وبالا مستطيرًا على مصالحهم فى الهند ! فينبغى عندهم أن ترضى مصر بالأمر الواقع ، وهو بقاؤهم حراسًا على القناة ، لئلا تضيع مصالحهم فى البلاد التى استعبدوها واستذلوها وأفقروا أهلها وأكلوا أموالها وأعروْا ذَرَاريها ، وهتكوا الستور عن أحرار نسائها . ياله من منطق ! وهل فى طاقة أحدٍ أن لا يقتنع برأيهم فى حفظ كيان هذه الإمبراطورية الضخمة ! كلا بل ينبغى أن يُطيع العالم وأن يَسمع . فلو أن الإنجليز فرَّطوا لهوَى العلم البريطانى إلى الرغام فى أرض الهند ، ولبقيت الهند عارية لاتجدُ هذا الدفءَ الحلو اللذيذ ، ولا هذا الظل الوارف الناعم الذى ينشره عليها علم بريطانيا !

فحدثنى أيها الصديق ماذا تريد بعد ذلك أن أقول لك فى هذه المعاهدة التى تريد إنجلترا أن توقعها مصر راغمة أو راضية ! دَعْ عنك الحيرة ، ودع عنك تقلب الرأى ، واختر لى أنت رأيًا أصير إليه . وإلا فإنى أقول لك كما قلت دائمًا : إن المعاهدة بيننا وبين بريطانيا ، هى أن ندخل معها فى جُحر اليربُوع حتى إذا استقرَّ بنا المقام قليلا « نفقتْ » كما يمرق اليربوع من نافقائه إذا سُدّت عليه المسالك !

* * *

(١) المماكسة : المشاكسة . والمماكسة أصلها فى البَيْع وهى انتقاص الثمن واستحطاطه والمنابذة بين المتبايعين .

ساعة فاصلة ... !

إذا المرءُ لم يحْتَلْ وقد جَدّ جِدّه — أضاع وقاسَى أمرَه وهو مُدْبِرُ
ولكن أخو الحزْمِ : الذى ليس نازلا — به الخطْبُ إلا وهو للقصْدِ مبصرُ
فذاك قريع الدهر ، ماعاش ، حُوّلٌ — إذا سُدَّ منه مَنْخِرٌ جاشَ مَنخرُ [(١)]

وأىُّ خطب !! فنحن أمة قد عاشت أكثر من أربع وستين سنة تجاهد عدُوًّا لدودًا ، واسع الحيلة ، كثيرَ الأعوان ، ينفثُ سمه حيث مشى ، ويُخفى غوائله ليكون فتكه أخْفى وأنكى وأشدَّ . فاتخذ لنفسه من صميم هذا الشعب رجالا خدعهم عن عقولهم ، وزيَّن لهم أن يعملوا فى الدسيسة للأرض التى أنبتتْ عليهم شحومهم ولحومهم وحملتهم على ظهْرها هم وآباءَهم وأبناءهم وذَرَاريهم ، وأظلَّتهم سماؤها بالظلِّ الوارف الظليل ، وسكَبَتْ فى نفوسهم سرَّ الحياة ، وسقاهم نيلها بدَرّهِ الذى اشتدَّت عليه أبدانهم وأحوالهم ، ومهّد لهم من المتاع ما أطغاهم ، وكان خليقًا أن يملأ قلوبهم شكرًا ، وألسنتهم حمدًا وثناءً . وزاد فأطلق فى جنَبات هذا الوادى أسرابًا من صعاليك الأفاعى الأجنبية ، أَخافت الوَادِعِ ، ولدَّغت السليم ، وذادَتْ عن سُهول هذا الوادى كل حىٍّ من أبنائه حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبتْ وضاقت عليهم أنفسهم . ولم يزل ذلك دأبنا ودأب عدوّنا حتى أتاح الله الحرب العالمية الأولى فاستعلن من ضغينته وبغضائه ما اكتتم ، وأعلن الحماية على أرض مصر . فلما خرج ذلك العدوّ من لأوائها [(٢)] منصورًا مظفَّرًا ، لم يبال الشعب المصرى العزيز بسطوة ولا بأسٍ ولا قوةٍ من حديد

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٧٠٠) ، ديسمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٣٢٣ - ١٣٢٦

(١) قريع : فعيل فى معنى مفعول ، وهو الذى قرعه الدهر بنوائبة مرات حتى جرَّب وتَبَصَّر . حُوَّل : الواسع الحيلة ، يفتنُّ فيها ، فلا يُؤْخَذ عليه طريق .

(٢) اللأواء : الشِّدَّة .

ونارٍ ، فثار ثورته العجيبة فى أوائل سنة ١٩١٩ ، وما كان يخيّل للعدو الباغى أن ذلك شيءٌ ممكن ، وبعد لأى ماتحقّقَ من أنه شعب حديدُ العزم لا تُرْهبه القوة الباطشة ولا العدوان الغشوم . فاحتال له حيلة أخرى يفرّق بها بين الرجل وأخيه ، والأب وبنيه ، والأمّ وفلذات أكبادها ، فرمانا بالداهية الدَّهياءِ التى جعلت الناس يختلفون بينهم على غير شيء إلا الحُكم والسلطان ، وتدسَّس إلى قلوب الرجال شيطانٌ مريدٌ هو : تلك الحزبية والعصبية للأشخاص ، فكادت تنقض بناءَ هذه الأمة حجرًا حجرًا .

ثم كان من رحمة الله أن جاءت الحرب العالمية الثانية ، فخرج منها عدوُّنا مرة أخرى منصورًا مظفرًا ، فلم يبالِ الشعب المصرى وخرج يقول له : « اخرجْ من بلادى ، ورُدَّ علىّ جنوب الوادى » وكادَ يكون ماكان فى سنة ١٩١٩ ، ولكن العدو كان أسرع حيلة وأرشق حركة ، فنَصَّبَ رجالا منّا ليحملوا بلادهم على سبيل مضَلَّة . فكانت هذه المفاوضات الخبيثة التى ظلَّت تدور شهرًا بعد شهرٍ إلى غير نهاية إلى يومنا هذا ، بيد أن الشعب نفسه ظل هادئًا متربصًا طوال هذه الشهور وهو عالمٌ أن المفاوضة كلامٌ لايغنى فتيلا ، وأن « الجلاءَ » حقٌّ لا ينازعه فيه أحد ، وأن ضَمَّ السودان إلى أخته مصر حقٌّ لن يعوقه عنه بطشٌ ولا جبروت ، وأن الحرية حقُّ البشر منذ يولدون إلى أن تُطمَّ عليهم القبورُ . ومضت الأيام والشعبُ يسمع لجَاج المفاوضة وهو غيرُ راضٍ ، ولكنه استنكف أن يحولَ بين طائفة من أبنائه وبين ما يظنون فيه الخير لبلادهم ، فتركهم يعملون ليعرفوا أخيرًا ما عرفه هو بفطرته النقيّة : أنْ لا خير فى مفاوضة الغاصب القوىّ حتى يردّ على المغصوب الضعيف ماسلَبَ منه ، وأن الإباء هو خُلُق الأحرارِ ، وأن العزْمَ هو المنقذ من ضلال السياسة ، وأن اجتماع الكلمة على الجهاد فى سبيل الحق هو الخلاصُ وهو سبيل الحرية .

وقد انتهت الآن هذه المفاوضات وجاءنا المشروع الذى يرادُ لنا أن نصدّق عليه ونقبله ، فللأمة حقُّها اليوم أن تقول كلمتها ، ولكل مصرىّ أن يقول كلمته ، وليس لهيئة المفاوضة ولا لرئيس الوزارة أن يفتاتَ على حقّ الشعبِ بشيء

لا يرتضيه الشعبُ ، فإن هذه ساعة حاسمةٌ فى تاريخ الشعب المصرىّ ، بل ساعة حاسمة فى حياة أبنائنا الذى يدبُّون على الأرضِ ، وحياة النّسْل المصرى الذى يسرِى فى الأصلاب حتى يأتى قدرهُ وإنه لهوْلٌ أى هول أن ينفرد رجُلٌ أو فئة من رجالٍ بالتصرُّف فى هذه الأنفُس البشرية كأنهم أصحابها وخالقوها والنافخو الحياة فى أبدانها . فالله الله أيها الرجال فى مصاير بلادِكم وأبنائِكم وورثة المجد القديم الذى يطالبهم كما يطالبنا بأن نعيش أحرارًا فى بلادنا ، وبناةً لأمجادِنا ، وحَفَظةً على تاريخ أجدادنا . وليأذن لنا أولئك الذين يظنون أنهم كما قال الشاعر :

وعلمتُ حتى ما أُسائل واحدًا　　　عن عِلْمِ واحدة لكى أزدادها

وليأذن لنا أولئك الذين يظنون أنهم مالكو رقابِ هذا الشعب بمالهم أو جاههم أو سلطانهم ، وليأذن لنا أولئك الذين هانت عليهم أنفسهم فضاقوا ذرعًا بإباء هذا الشعب أن يكون ككلْب الرُّفقة يشركهم فى فضلة الزّادِ ، فإذا ضجروا به قالوا له اخسأ أيها الكلب ، وليأذن لنا المخلصون من الكُتاب الذين يظنون أن التساهل والتغاضىَ لا بأسَ به ما دُمنا لا نملك أسطولا ولا طائراتٍ ولا سلاحًا ولا قنابل ذرّية ، وأنه لذلك لابد لنا من أن نحالف حليفًا قويًا ينصرنا إذ بُغى علينا ، ويردّ عنا إذا زحف عدو إلينا – ليأذن لنا أولئك جميعًا أن نتكلم بلسان مصر المظلومة المهضومة ؛ فإنها هى وحدها التى ينبغى أن تنطق وتقول ، فإن قولها هو القول الفصْل ، لا قول العلماء الذين يرون أن لا علم إلا علمهم ، ولا قول أصحاب المال والسلطان ، ولا قول المتهاونين الذين يرضون من نيل الحق أيسر ما ينال .

إن هذه المعاهدة الجديدة التى تمخضت عنها المفاوضات الطويلة تقوم على أربعة آساس :

الأول : أن الجلاء سيتم بعد ثلاث سنين .

الثانى : أن تعد مصر بأن تقوم مع إنجلترا بالعمل الذى تتبيَّن ضرورته فى حالة تهديد سلامة أى دولة من الدول المتاخمة .

الثالث : مجلس دفاعٍ مشترك يقرّر الرأى فى الذى سموه « تهديد السلامة »

وجعلوا له حق تنظيم الأسباب التى تسهّل مهمة اشتراك الجيش المصرى مع الجيش الإنجليزى فى الحرب .

الرابع : أن تكون الأهداف الأساسية فى مسألة السودان هى تحقيق رفاهية السودانيين وتنمية مصالحهم وإعدادهم « إعداد فعليًا » للحكم الذاتى ، وممارسة حق اختيار النظام المستقبل للسودان ، وإلى أن يتم ذلك بعد التشاور مع السودانيين تظل اتفاقية سنة ١٨٩٩ سارية وكذلك المادة ١١ من معاهدة ١٩٣٦ - هذا محصَّل ماتقوله المعاهدة الجديدة .

ومصر تقول إنها لا تثق بالمواعيد الإنجليزية المتعلقة بالجلاء فقد بلثْ ذلك أكثر من ستين عامًا فلم تر إلا شرًّا ، وإنها لا تريد أن تُقِرَّ ساعة واحدة للإنجليز بالبقاء الشرعى فى بلادها فكيف ترضاه وتوقع عليه وتعترف بشرعيته ثلاث سنوات طوالا . ونقول إن تحديد السنوات خداع وبيل العواقب غير مأمون البقاء فإنها لا تدرى ماذا عسى أن يكون غدًا أو بعد غدٍ ، وإن الإنجليز قادرون إذا شاؤوا على الجلاء فى أقل من ستة أشهر جلاء كاملا عن كل بقعة من بقاع هذا الوادى ، فالإطالة مُرَادَةٌ لنفسها لأسباب جهلها من جهلها وعلمها من علمها . وقبيح بامرئ ذاق الذل من وعود الإنجليز ستين عامًا أن يجهل شيئًا عن مثل هذا الوعد المدخول المكتم بالأسرار .

أما الأساس الثانى : فإن مصر تقول إن بلاء البلاد المتاخمة لمصر هو كبلائها مِثلا بمثل . فالإنجليز هم الجاذب الداعى إلى أن يعتدى عليها معتدٍ طاغٍ يريد أن يضرب إنجلترا فى مكامنها ، كما كانوا سببًا فى عدوان الألمان والإيطاليين على مصر فى الحرب الأخيرة السالفة . فلماذا يريد الإنجليز أن يتخذونا أعوانًا وأنصارًا على إذلال جيراننا ، وأن يجعلونا نعترف ضمنًا بأن لهم حق الدفاع عن هذه البلاد التى سلطوا عليها بَغْى استعمارهم ؟ ولماذا تسفك مصر دماء أبنائها فى سبيل المحافظة على هذه الإمبراطورية التى ملأت رحاب الأرض جورًا ؟

ثم إن هذا العدوان إذا وقع ، فهو النذير العريان بالحرب العالمية الثالثة ، والمعتدى فيه معروف منذ اليوم للإنجليز ولغير الإنجليز . والأسباب الداعية إلى

انفجار هذا البارود راجع إلى أسباب أخرى غير الرغبة فى التوسُّع . وهو جشع الاستعمار القائم اليوم فى هذا الشرق الأوسط والشرق الأدنى والهند . يوم يقع هذا العُدوان فالدُّنيا كلها ستهبّ هَبة رجل واحد ، ولا يدرى أحدٌ منذ اليوم كيف يكون الأمر غدًا وأين تكون مصلحته ، فعلام تريدنا إنجلترا أن نتعجّل ، وأن ندخُلَ نحن فى حروبها التى ضرَّمتْ نيرانها منذ كانت ، وأن نفرض على أنفسنا منذ اليوم قيدًا لعلّ غدًا يأمرنا أن نعود إلى خلافه حتى لا نكون طعمة للمنصور إذا كانت إنجلترا هى الخاسرة ؟ أليس يقول لنا ذلك المنصور يومئذ ، لقد قاتلتمونى وحاربتمونى فأنا أستحلّ دياركم وبلادكم وأقداركم بحكم الفتح ؟ فماذا تقول مصر يومئذ ؟ ومن زعَمَ أن سياسة الدنيا سوف تجرى غدًا على النهج الذى جرت عليه حتى اليوم ، فقد أنكر عقله وأنكر تلك القوى العاملة التى تؤثر فى سياسات العالم . ثم لماذا تريد إنجلترا أن تكون قيّمةً على مستقبلنا ونحن شعبٌ حىٌّ حرٌّ يريد أن تكون بلاده ملكا له ليتوخى لها مراشدها التى ينبغى أن يتوخاها ؟ وإذا كان الإنجليز يؤمنون بأن مصلحتنا غدًا ستكون فى أن نكون معهم يدًا واحدة ، فعلام الجزع إذن ؟ أو يظنون أننا نخرج غاصبًا من بلادنا ثم ندعها نُهْبى تتعاورها أيدى لصوص الأمم فلا نؤازرهم فيما نرى أن لنا فيه منفعة وصلاحًا ؟ اللهم إن الإنجليز يعلمون أننا على حق فى هذا كله وأنهم هم المبطلون ، وإنما يريدون بهذا النص أن يمكثوا فى بلادنا سادة يستضعفوننا ويمنعوننا أن نفعل فى بلادنا ما نريد ، أى أن نظل أمة لا جيش لها ، ولا مصانع فيها ولا قوة لها ، وأن تظل « مجالا حيويا » لها ولأشياعها وأفاعيها من نفايات الأمم وحثالات الشعوب ، وأن يكون وجودهم بيننا معوانًا لهم على تفريق كلمتنا وتشتيت قلوبنا ، وأن يظل المصرى يحس بهذا الإحساس القبيح الذى يوهن القوى ، وهو أنه غريب فى بلاده .

أما الأساس الثالث : فهو باطل كله لأنه مبنى على الثانى ، ولأنه شىء لا مثيل له فى تاريخ معاهدات الدنيا كلها ، ولأن أخطاره على مصر أخطار موبقة ، فإن كلمة القوى هى العليا ؛ فإذا قلنا لإنجلترا إننا نرى كذا وكذا ، وقال إنجليز هذا المجلس : كلا إن هذا ليس لنا برأى ! فمن يكون الفَيْصل بيننا يومئذ ؟ أليست

هى قوة الإنجليز نفسها ؟ وإذا كانت مصر تخرج اليوم من استعباد خمس وستين سنة ، فهل تظن أن الرجال المصريين الذين سيضمهم هذا المجلس ، سوف يكونون أو يختارون إلا ممن ترضى عنهم إنجلترا وتقول إنها تستطيع « العمل معهم » ؟ هل يظن غير هذا عاقل ؟ يالهذه من سخرية بنا وبعقولنا وبعقول كل من يقرأ هذه السفسطة الإنجليزية ! .

أما الأساس الرابع ، فإن مصر لم تعترف قط باتفاقية سنة ١٨٩٩ ولن تعترف بها ، وهذه المعاهدة تريدنا أن نعترف بها ، وتريدنا أيضا أن نرضى سَلفًا عن أبشع المبادئ التى لاعقل فيها . وهى بتر جنوب مصر عن شمالها . فالسودان ليس أمّة نحن مستعبدوها بل هى جزء من مصر من أقدم عصور التاريخ ، وهى أهم لمصر من مصر نفسها بشهادة عقلاء الساسة من إنجليز وغيرهم . ولو فرضنا أن فئة أضلتها الأموال الإنجليزية والوعود البريطانية والأكاذيب الملفقة ، قامت من السودان وقالت : إنى أريد أن أكون أمة وحدى ودولة وحدى ، فهل يُقبل هذا إلا إذا قبلت إنجلترا مثلا أن تقوم إسكتلندة – وبين الإسكتلنديين والإنجليز من الفروق مالا يوجد مثله بين مصر والسودان – فتقول : سوف أكون أمة وحدى ودولة وحدى . أفترى إنجلترا تقول يومئذ نَعْمَ ونُعْمَةُ عَيْنٍ [1] وتخلى بينهم وبين ما يريدون ، أم تخضعهم يومئذ بقوة السلاح وبالحديد والنار كعادتها فى كل بقاع الدنيا ؟ ونحن ولله الحمد ليس بيننا وبين السودان مثل هذا ، بل السودان كله ، إلا من طمس مالُ الإنجليز قلبَه ، كلمة واحدة على أنه جنوب مصر لا أنه أمة وحده أو دولة وحده . إن مصر لا تستطيع أن تفرط فى بتر السودان من جسمانها ، فإن فى ذلك هلاكها وهلاك السودان جميعًا . فليقلع عن هذا الرأى كل من غفل عن حقيقة الوطن المصرى أو الوطن السودانى ، فمعناهما سواء .

بقى شىء واحد هو أن إنجلترا قد خرجت من هذه الحرب فى المرتبة الثالثة من دول العالم . فإذا جاءت الحرب الثالثة فإنجلترا خارجة منها لا محالة كما

---

(١) نُعْمَة العين : قُرَّتُها . وما ذكره أستاذنا بعض حديث سيدنا رسول الله ﷺ ، وتمامه « إذا سمعتَ قولا حسنا فرُوَيْدًا بصاحبه ، فإن وافق قولٌ عملاً فنَعْمَ ونُعْمَةَ عَيْنٍ آخِه وأَوْدِدْه » .

خرجت فرنسا – أى إنها سوف تخرج ولا تملك غير الجزيرة البريطانية إن بقيت لها ، فعلام نربط مصايرنا بمصير مُظْلِم يُفزّع أهله منذ وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ؟ وكان ينبغى أيضًا أن لا يغيب عن أذهان أولئك الأذكياء أن هذه الفرصة إذا أفلتت لن تعود ، فإن إنجلترا اليوم لا تملك أن ترغمنا على شيء ، وإنها لتهددنا وتبدئ وتعيد فى تهديدها ، ولكننا إذا صبرنا وعزمنا وأبينا ميسمَ الذل الذى تريد أن تَسِمَنا به ، فهى لن تملك إلا التسليم بلا قيد ولا شرط . فكان عليهم أن يكونوا أبصر بخير هذه الأمة المجاهدة المصرية ، وأجرأ على تلك الأمة الإنجليزية ، ولو فعلوا لرأوا عجبًا ، فإننا إنما أُتينا من قبل الخوف والهيبة والعجز عن إمضاء العزيمة على وجهها ولكن لم يفت الأوان بعد ، فاحملوا على أنفسكم أيها المفاوضون المصريون واملأوا قلوبكم إيمانًا بالله ، وإخلاصًا للوطن ، وأجمعوا رأيكم وارفعوا النير عن هذا الشعب بالإباء والأنفة والحميّة ، ورفْض المفاوضة والمعاهدة ، فإن إنجلترا لن تملك يومئذ صرفًا ولا عدلا ، فإن لم تفعلوا فالله من ورائكم محيط . واحذروا غضبة الشعوب فإن لغضباتها مواسم ككيّ النار هى ذل الدهر وسُبّة الأبد .

* * *

احذَرِى أيتُها العَرَب

اليوم ، لقدْ أحدّ الجزّار شفرته وشمّر عن ساعديه ، وأقبل على الذبيحة يريدُ أن ينحرَها نحرًا فذًّا ، وهى راضيةٌ عنه داعية له ، مستسلمة بين يديه ، مقرّةٌ له بأن ذَبْحها هو نجَاتُها ، وأن شفرته هى كما قال الراجزُ فى دَلْوه :

« قاتِلَتى وملؤُها حياتى » !! (١)

وبالأمس – فى سنة ١٨٨٢ – وطئت إنجلترا أرضَ مصر لتدعم ما تزعزع من أركان عَرْشِها ، كما زعمت وزعم لهَا من لا يتورّع ولا يتحرَّج ، ومنذ ذلك اليومِ والسكّين ماض فى تمزيق أشلاء ذلك البَدَن المخدَّر بالأكاذيب وبالغفلة وبالجهل وبالخيانة ، والذى كان يُسَمَّى العالمَ العربى والعالم الإسلامىّ . ومامضى إلّا قليلٌ حتى طارَتْ أشلاءُ هذا البدن بِدَدًا متفرقة مفَصَّلَةً ، ذهبتْ مصر وحدها ، وذهب الشامُ وَحْدَه ، وذهب العراق وحده ، وذهبت مراكش وحدها ، وذهبت طرابُلس وحدها ، وذهبت تركيا وحدها ، وقطعت عُنُق الخلافةِ ، وقضى الأمرُ .

واليوم يوشِكُ أن يكون ماكان بالأمسِ ولكن على أسلوب آخر : أن تُحْشَد هذه المِزَقُ المقطعة حَشْدًا جديدًا لتساق إلى يوم الحشر ، لتساق مَخدَّرة بالأكاذيب وبالغفلة وبالجهل وبالخيانة مَرَّةً أخرى إلى الهُوّةِ المضطرمة التى لا تُبْقى على حىٍّ ، إلى الحرب الثالثة .

* * *

هذه إنجلترا تريدُ مرّة أُخرَى أن تعود بحِيَلها ورجالها وأعوانها وصنائعها ، وبمداوراتها وسياساتها ، لتضرب الضربة الأولى كما ضربتْها فى سنة ١٨٨٢ ، وتخضع أعناق المصريين شاهدَهم وغائبَهم لأحكام معاهدةٍ عجيبة ظاهرها فيه

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٧٠٢) ، ديسمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٣٧٩ – ١٣٨١

(١) مر هذا الرَّجَز فى مقال « إلى أين ؟ تَتِمَّة » ، ص : ١٨٨

الرحمة (أى الدفاع عن مصر والشرق) وباطنُها من قِبَله العذَاب أى نكال الحرب الثالثة . ولن تفرغ منها - إذا قدّرَ الله أن تفرغَ ، ولا قَدَّر - حتى تحملها لتدور بها على أمم العرب واحدةً بعد واحدةٍ ، لتنال منها صَكًّا مكتوبًا ، بالأسلوب الإنجليزى ولا ريب ، يجعلها جميعًا فى قبضة الأسد البريطانى ليوم الحَشرِ ، فعندئذ تسوقهم جميعًا كعادتها إلى المجزرة الكبرى مُقدَّمين فى الصفّ الأول ليكونوا قُرْبانًا لجبّار الحروبِ ، ووقاءً للدَّم الإنجليزى أن يُهْرَاق منه فى حروب الإمبراطورية البريطانية إلّا ما لا بُدَّ منه تَحِلَّةَ القسم [١] وردَّ العين الحاسدة ، كما حدث فى الحرب الأولى والحرب الثانية ، حيث لم يُسْفَك من الدم الإنجليزى إلا الأقل ، وحملَت العبءَ كله تلك الأنعام البشرية التى جُمِعت من الأسْود والأبيض ، من بقاع إفريقية وأرجاءِ الهند ومن نَواحِى هذه الإمبراطورية التى تقبّل الشمسُ مواطئَ أقدامها حيثما دارت فى مَدَارها .

فاحذرى أيتها العرب ... احذرى .

إن السياسة البريطانية هى السياسة البريطانية ، أى هى الجشَعُ المحتالُ المخادعُ الذى يستَلُّ منك أعزَّ ماتحرصُ عَلَيه بالشدِّ والإرخاء والترغيب والترهيب والظهور والاختفاء ، حتى تنهارَ النفوسُ وتسكُنَ من جَهْدٍ أو إعياء . انظرى ماذا فعلتْ ، أو ماذا كانت تريد أن تفعلَ بمصر . شهرٌ بعد شَهْرٍ بعد شَهْرٍ والدُّنيا كلُّها من حولنا تعج عجيجًا بالمفاوضة والمعاهدة وبالأخذ والردّ ، وبالموافقة والمعارضة ، وباللين والشدة ، وبالسكينة والصخب ، حتى دارت الرؤوس على أعناقها ، وتحيَّرت العيون فى حَمَاليقها ، وتشتَّت منارُ الهُدَى وخيفَ على صاحب الرأْى أن يزول عن رأْيه ، ومازالت إنجلترا تمدُّ للطامعين مدًّا وهُمْ يسعَوْن وراءَ ألفاظها الخلَّابة حتى أعيتْهم ، وكادت لهم كيدًا شديدًا حتى أطغَتْهم فطغوا ، وأرادوا أن يضربوا على عقول هذه الأمة وألسنِتها بالقهر والعنف والاستبداد حتى تدَعَ العقلَ واللسانَ ، وتقبلَ منهم ما أرادوا هم أن يفرضوه علينا فرضًا .

---

(١) تحلّة القسم : أى بقَدْر تحلته ، أى وقتا يسيرا .

ولكن يأبى الله أن يكونَ لهذا الكيد كله قرارٌ ، فهذه الفئة التى ظنَّت أنها سوف تخدعُ إنجلترا عن نياتها الملفَّقة فى الألفاظ الكاذبة ، قد جاءَها البرهان الساطِعُ القاطِعُ ، بأن هذه الدولة « المفاوضة » تضع الألفاظَ على قدرِ ماتريدُ ، لا على قدر ما يريدُ مفاوضُها أن يفهم . فإذا خيَّلتْ له نفسُه أنه فاهمٌ من النصِّ ليقول لها ويبين عن فحوى ألفاظها أرسلت عليه شيئًا يردّه إلى صوابه . فبالأمس كان المفاوض المصرىّ يزعم لمصر أنه جاءها « بوحدة وادى النيل » ، وأن النصّ المتعلق بالسودانِ كان خيرًا كلّه ، وأنّ وأنّ ... فما أصبح الصباحُ حتى طلع عليه شىءٌ من أشياء بريطانيا يقول له : جاوزتَ حَدَّكَ فاستبْقِ ، وإن بريطانيا لا ترضى هذا التفسير المصنوع من جانب واحد ، وأن السودان وديعة فى اليد البريطانية ، والودائع مستردَّة ، والخيانة فيها تفريطٌ لا يليقُ بالشرف البريطانى ! فنحنُ فى السودان أمناءُ عليه ، ولن ندعَه لمصر العادية الباغية تفعل فيه ما تشاءُ كأنه جزءٌ مِنها !! بل لابُدّ لنا من أن نبقى هناك حرَّاسًا حتى يبلغ السودان رشده بعد السنين التى يقتضيها بلوغه الرُّشْد ! وعندئذ يكون للسودان أن يختار بعد أن يكون قد تهيأ لحكم نفسه بنفسه .

هذه هى السياسة الصريحة المتكشفة ، وهذه هى بريطانيا على حقيقتها ، وهذه هى ألفاظها المكتوبة مفسرة فى تصريح حاكم السودان . فليت شِعْرى ما الذى يظنُّه امرؤ فى نَفْسه ذَرةٌ من الإيمانِ بحقّ الإنسان فى الحرّية . ما الذى يظنه كائنًا بعد ذلك فى تفسير نصوص المعاهدة التى يُرَادُ لنا أن نرتبط بها مع هذه الإمبراطورية ؟ ومهما تكنْ نصوصُ المعاهدة ، ومهما يُقَلْ فى تسويغها أو تقريظها ، وسواءٌ أكانتْ هذه المعاهدة المعروضة اليوم أم غيرُها ، فهل يحِلُّ لمصرىٍّ أو عربىٍّ أن يأْمَنَ على بلادهِ بعد هذه الخَديعة التى لا تعرفُ وَرَعًا ولا حياءً ؟!

وليس هذا فحسب ، لقد قال حاكم السودان ما شاء ، فماذا كان جواب الحكومة المصرية على هذا التصريح العجيب !

كان الجواب أن ينشر رئيس الوزراء كلمة يحتج فيها على تصرف حاكم

السودان ، وأنه قد تجاوز حدود وظيفته من حيث هو حاكم إدارى ، ومن حيث هو موظف مصرى بريطانى معًا ! أيكون حقًّا حاكم السودان هو المسئول عن تصريحه ، وهو ينسبُ ما يقول إلى الحكومة البريطانية بلسانه ! هذا ، ومن الغفلة أن يظن ظانٌّ أن رجلا إنجليزيًا يدير شيئًا من أمور هذه الإمبراطورية يجرؤ أن يتكلم من ذات نفسه بالنيابة عن حكومته ويوقعها فى ورطة سياسية كهذه الورطة . إذن أفما كان أولى وأجمل وأكرم وأنبل وأشجع أن يوجه الاحتجاج رأسًا إلى الذى أنطق هذا الرجل بما نطق به وأن يقال لهذه الحكومة البريطانية « المفاوضة » إنك أنت الملومة لا هذا الرجل ! ولكن هكذا كان .

فما الذى سيكون غدًا أيها الرجال المدافعون بأقلامكم وألسنتكم إذا جاءتكم لجنة الدفاع المشترك ، وجاء البريطانى ، ونطق لسانه بما لا تطيقه هذه الأمة ولا ترضى عنه ؟ أتظنون أن موقف الرجال المصريين الذين سيختارون ليكونوا أعضاء فى هذه اللجنة ممن تستطيع أن « تعمل معهم » ، سوف يكون أكرم أو أولى أو أشجع من موقف رئيس الوزارة السابق حيال تصريح حاكم السودان ؟ ستقولون كما قلتم : هذا مطعنٌ فى الضمير الوطنى المصرى ... وكلَّا ! ليس هذا مطعنًا ، فإن الرجال الذين سيختارون لهذه اللجنة سيكونون ممنِ « صُنِعوا على عين بريطانيا » منذ احتلت مصر فى سنة ١٨٨٢ إلى هذا اليوم . ولأن يقال إن هذا الذى نقول مطعنٌ خير من أن تُلقى مصر كلها تحت أقدام بريطانيا وفى تنُّور حروبها ، لتكون دماءُ أبنائها فداءً للدم البريطانى الطاهر المقدس .

* * *

أيتها العرب احذرى ... احذرى هذا المصير الذى يراد لمصر لا قدر الله أن تصير إليه . ولئن كان هذا يومنا نحن ، فغدًا يومكم ليُعرض عليكم مثل الذى عُرض علينا ، لتكون لكم « لجنة دفاع مشترك » كلجنتنا نحن ، فاحذرى أيتها العرب ، ولا تقرى بينك وبين بريطانيا معاهدة أبدًا ، فإن بريطانيا تريد بجمعكم اليوم على مثل هذه المعاهدة ، كالذى أرادته بكم جميعًا يوم وطئت أقدامها أرض مصر فى سنة ١٨٨٢ ، تريد أن تمزقكم بعد أن تكونوا وقودًا لنيران الحرب الثالثة .

أيتها العرب احذرى ... فإذا كنت نازلة فى ميدان الحرب الثالثة فانزليها حرة لتموتى حرة ، ولكن لا تُلقى بفلذات الأكباد فى أتون الحرب المسعورة ، ليكونوا هناك عبيدًا ويموتوا عبيدًا ، كما تريد المعاهدات الإنجليزية بنا وبأبنائنا وبناتنا وأوطاننا .

أيتها العرب احذرى ... لقد لبثتْ إنجلترا تدس لكم وعليكم وتنشِّئُ فيكم أجيالا من الخلق صاروا لها صنائع وأعوانًا ، أرادوا ذلك أو لم يريدوه ، وعرفوه أو جهلوه ، وعين إنجلترا بصيرة نفاذة فهى تختارهم وتمهد لهم ، وتحمِلهم بسلطانها وبحيلتها وبتهديدها حتى ترفعهم إلى الذروة التى تجعلهم أهلا للمكانة فى بلادهم ، ثم لا تزال تعمل هنا وهناك بأنامل بصيرة قادرة متدسسة حتى يتم اختيارهم ، فيتولوا هم زمام هذه الشعوب المسكينة ، ثم تقول لهم كما قال الأول :

فعِشْ فيما يليك بغير قصدٍ ... فإنى عائشٌ فيما يلينى

وإذا هؤلاء المساكين الذى ارتفعوا إلى غير أقدارهم ومنازلهم يكيدون لأممهم من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون ، وإذا سياسة الأمم الناهضة فى أيد لا تُحسن إلا العيث والفساد ، ومصايرها على ألسنة لا تُحسن إلا التغرير والدهان والممالقة .

أيتها العرب احذرى .. ودعى المفاوضة والمعاهدة بينك وبين بريطانيا حتى ترد إليك كل حقوقك كاملة غير منقوصة ولا متهضّمة ، فإذا فعلتْ فانظرى فى مراشدك . أما إذا قال لك هؤلاء : وماذا تفعلين أيتها العرب إذا لم تفاوضى إنجلترا وتعاهديها ؟ إذا ألقوا إليك هذا السؤال العاقل الحكيم الذى يفرض عليك أن تتركى نصيبًا من الحرية من أجل كواذب الآمال والوعود ، فاعلمى أن هذا التعاقل « الشديد » فسادٌ فى الطبائع التى تلقيه عليك :

يرى الجبناءُ أن العجزَ عقلٌ ... وتلك خديعةُ الطبع اللئيمِ

وأنتم أيها الكتاب العرب : هذه أمانة القلم تعرض اليوم عليكم . وهى أثقل الأمانات ، فاحملوها بحقها أو دعوها بحقها ، فإن الأيام أسرع مُضيًّا من البرق فى حواشى الغمام . ومن حمل أمانته فعليه أن ينذر قومه قبل أن يأتى يوم لا تغنى فيه النُّذر ، وقبل أن يأتى يوم لا يردّ فيه البكاءُ على فائت !

* * *

من استرعَى الذئب ظَلم

فى سنة ١٩٢٧ عرفت رجلًا إنجليزيًا ، فنشأت بينى وبينه مَوَدّة ، وكان رجلًا حريصًا على أن يعرف أشياء كثيرة على وجهها الصحيح ، وكان صادق اللسان فيما يبدو لى منه . وإن كنت قَلِقَ الشكّ فى صدق اللسان الإنجليزى ! وكانَ لطيف المعشر طلق المحيًا ، فيه دُعابة رقيقة لا تبلُغُ العُنْفَ ولا يتجاوز بها حدَّها . وبقينا معًا سنة كاملةً ؛ فكان كأكمل الناس أدبًا ، وأَزْكَنهم [١] عقلًا وأبعدهم عن الملاحاةِ والمغاضبة وسوءِ العشرةِ . كان إذا تقصَّى مِنِّى أمرًا أخلصتُه القول ، فقد ظننتُ أنى جرَّبْتُه وعرفته ونفذت فى طوايا ضميره . وكان هو يحدّثنى فلا أشكُّ أبدًا أنه كسائر أهل جلدته ، بل كان خَلْقًا غير الخلقِ فيهم ، فهو يقول ويعنى ما يقول ، وليس كأمثالهم يَتَسَلَّل من إهابٍ ليدخلَ فى إهابٍ . ولم أزل أطمئنّ إليه وإلى حديثه وإلى بثِّه ما فى نفسى ونفس بلادى مِنْ شعورٍ ، فكان لايتردَّدُ فى إعطاءِ الحق لمن له الحقُّ ، ولا يرضَى أن يكونَ ظالمًا ولا متعنتًا ولا مدافِعًا بالعصبية أو الكبرياءِ أو المماراةِ .

وفى سنة ١٩٢٨ جاءت امرأتُه من بلادها ودعانى مرَّاتٍ فما لبثتُ أن رأيتُ هذا الرقيق الوديع المنصِف ينقلبُ خشنًا جريئًا على الباطل جائرًا فى الحكومة ، مُتعنّتًا فيما كان بالأمسِ يعطى النَّصفةَ فيه ، وإذا هو شديد اللَّدَد تيَّاه الخصومِة ، وإذا هو ينسلخُ من إهاب ليدخلَ فى إهابٍ كفعل سائر قومه ، فكانَ ذلكَ آخر عهدى به ، وكان من عاقبته أنى كرهتُ هذه الإنجليزية العجيبة التى يقال فيها ما قال الشاعر : « كالعُرِّ يكمُنُ حينًا ثم ينتشرُ » [٢] . فإنّ مجيءَ امرأته أعداهُ كما يُعْدى الجَرَب ، فثار ما كمن فيه منه ثم اسْتَشْرى ، فإذا هو وافِدُ قومٍ هُم ما هُمْ .

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٧٠٤) ، ديسمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٤٣٥ - ١٤٣٨

(١) أزكنهم : أفطنهم وأكثرهم فهما .

(٢) العُرّ : الجَرَب .

وفى هذه السنة التى انتفض عليه فيها عُرُّ قومه ، جلسنا يومًا نتحدّث فجرى الحديث إلى ذكر السودان ، فقال لى إن قضية مصر فى مسألة السودان ليست إلا دعْوَى لا خير فيها ، فإن هذا النِّيل الذى تزعمون أنه يربط بين مصر والسودان رباطًا لا انفصام له لا ينفعكم فى إقرار الحجة لدعواكم أن مصر والسودان أمَّة واحدة أو ينبغى أن تكون أمة واحدة . وقال : أرأيت إلى نهر الدَّانوب ، كيف يجوزُ فى العقول أن يَدَّعى مُدَّعٍ ممن يعيش على مدّه أنه يُوجِب توحيد الأمم التى عليه لتكون أمة واحدة ؟ أو ليسَ إذا قام شعبٌ من شعوب الدانوب فادَّعى بمثل ما تدّعون ، فإن الواقع كله يبطلُ حجَّته ، والعقل يوجب أنْ يشكَّ المرءُ فى صحة إدراك هذا الشعب ؟ فهذه هذه ، فليس ينفعُ قضيَّة مصر أن تدَّعى أن النيلَ بينكما هو الرباط الذى يوجب أن تصيرَ مصر والسودان أمة واحدةً . والعجبُ العجابُ عندى أنَّ حديث السودان كان قد جرى بيننا قبل أن يمسَّه عُرُّ قومه ، فلم يقتصر يومئذ على أن يسكت ؛ بل كان قد وافقنى على ماذكرتُ لهُ من حجة فى قضية السودان ، فإذا هو قد نسى كُلّ هذا بعد أن ارتدَّ إلى سِنْخه [١] وطبيعته ... وهكذا الإنجليز .

ومضى الزَّمنُ ، وإذا بنا نسمع إحدى البَبَّغاوات [٢] التى سُلِبَت العقل وكُسِيَت الريش الجميل ، تردّد هذا القول المدخول الفاسدَ من جميع نواحيه ، ولو كان قائله إنجليزيًّا لهانَ الأمرُ ، وهو هيّن على كل حالٍ ، ولكنه مع أشَدّ الأسف سُودانىٌّ بالمولد والإهابِ ، أما قلبُه فقد بيع بالمزادِ فوقع فى قبضة الرَّجُل الذى رفعتْه إنجلترا بين عشية وضُحَاها من وهدة البؤس والحرمانِ ، وكان فيهما رجلًا فاضلًا ، إلى ذروة الغِنَى والجاه ، فأصبح بعدهُما جانحًا إلى النقصان ساعة بعد ساعة .

زعمت الببّغاء أنّ ليس فى الدنيا شيءٌ يقال له وحدة وادى النيل ، كما أنه ليس فى الدنيا شيءٌ يقال له وحدة نهر الدانوب ، وأنّ الذى يُبْطِلُ هذه يُبْطِلُ تلك

---

(١) السنخ : الخليقة والسجيّة .

(٢) يعنى الأستاذ هنا يعقوب عثمان .

في مقام الاحتجاج ، ويخرجُ من هذا إلى أن السُّودان ينبغى أن يكون أمّة وَحْدَه ، وأن مِصْر أو أثرياء مصر ! « ينصبون فخاخًا تخفى أغراضهم الحقيقية ببراعة بالغة خلف الثوب اللامع من الدين واللغة والتاريخ ، وهو الثوب الذى اصطنعوه بأيديهم » . هكذا قالت الببّغاء التى يزعمون أنها رئيس تحرير جريدة النيل وعضو فى وفْد حزب الأمة فى لندن لهذا التاريخ !

فهذه الببّغاء تجمع إلى نقيصة الترديد والتقليد نقائصَ كلّ واحدة منها شرٌّ من الأخرى هى الجَهْلُ بمعنى ما يقول ، والكذب على أهل السُّودان ، والجرأةُ فى التهجُّم على الناسِ بما ليس يعلم ، والتدليسَ فى التاريخ ، والعبثُ بمصير أمّته المصرية السودانية ، وشرُّهنّ جميعًا ما يلوحُ فى خَبِيء كلامِه مِنَ العَدَاوة البغيضة التى يؤرّثها هو والمستأجرون من أمثاله بين مصر والسودان .

وقِصّةُ هذا الدانوب الذى يحتجُّ به ذلك الإنجليزى ثم احتجَّت به الببغاء الملقَّنَة ، قِصّةٌ فاسدة المبنَى والمعنى ، والإغماضُ فى الاحتجاج بها دالٌّ على ضيقِ التصوّر وقلة العقْل وجُثُومِ الجَهْل فى جمجمة قائلها . فهذا النهر ينحدر من منابعه فى بادن مخترقًا ألمانيا ثم النمسا ثم هنغاريا ثم يوغوسلافيا ثم بلغارْيا ثم رومانيا حيث ينتهى إلى مصبّه فى البحرِ الأسودِ ، فهو مشترك بين ست دُولٍ كُلّ واحدة منها لها خصائصها ، حتى يبلُغ التباين بينها مبلغًا ليس بعده شىءٌ ، فى اللُّغة والعادات والآداب والتاريخ وأسباب الحياة كُلها تقريبًا . هذه واحدة .

أما الثانية فهذا النهر واقِعٌ فى قلبِ أوربة ، وهذه الدول كلها قائمةٌ على حِفافَيه متاخمة لدُوَل أُخرى تُحيط بها شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ، فهو ليس نهرًا فى صحراء جرداءَ كما نرى فى نهر النيل الذى يحده من الشرق صحراء ، ومن الغرب صحراء ومن الشمال بَحْر ينتهى إليه مصبه ، وفيه دلتا مصر .

وأمّا الثالثة ، فهو أنه ليسَ نهرًا تقوم على جوانبه الزراعة فى خطٍّ ضيّقٍ فى بلدٍ واحدٍ كالذى تراهُ فى نيل مصر والسودان ، بل لعلّ أكبر فوائده هى النَّقْل لا الزراعة وحدها .

وأما الرابعة فهى أن هذا النَّهْر يمرُّ فى دُوَلٍ ستٍّ قوامُ حياتها الصناعة لا الزراعة

وحدها . أما نهر النيل فالزراعة هى قوامُ حياة أهله وسبَب أرزاقهم ، والذى فيه من مادة الخِصْب يوجب أن يكون نهرًا للزراعة واستصلاح الأراضين البور التى تَحُفُّ به من شرق وغرب .

وأما الخامسةُ فهى أن إقامة السُّدود على نهر الدانوب لايمكنُ أن يرادَ بها إلحاق ضَررٍ بالأرضين التى تقع على مُنحَدره ، فإذا أرادَ ذلك مُرِيدٌ وعزمَ على أن يضر بلد بمنع ماءِ الدانواب عنه فقد وقعت الواقعة بين ستِّ دُوَلٍ كُلها متأهِّب للحرب فى سبيل ردِّ هذا البَغْيِ . فهو كما ترى أمر مستحيل بطبيعته .

وهناك قول كثير ولكنْ حَسْبُنا هذا لمن يريد أن يَفْهم فهمًا ، لا أن يردّد الأقوال ترديد الببَّغاوات التى تُبَاع وتشترى للأغراض الخبيثة التى تريدها إنجلترا بهذه الببغاوات المسكينة . فهذه المقابلة السخيفة بين مسألة الدانواب ومسألة النيل لاتدلّ على شيء إلا على جَهْل الناطق المردّد لها ، ولاتقوم حُجّة إلا على خُبْث النيّات التى أخذت تندسُّ لتفرِّق أوصال هذا الوادى وتزايل بين روابطه التى لن تنفصم ، بإذن الله .

ونحن نحمد الله على أن الأحرارَ أهلَ السودان ليس لهم برأيٍ أن يقطعُوا أَرحامَهُم ، ويُخربوا بُيوتهم بأيديهم ، ويمزِّقُوا هذه الوشائج الممتدّة من أقصى عُهُودِ التاريخ إلى يومنا هذا . فنحن نسوق الحديث إلى هذه الببغاوات التى تنتسب إلى الشعب الأبِىّ الحرّ لعلها تفيء إلى الحقِّ ، وإلى الذين يهادنون فى الحق الأبْلج [١] مخافة أن يقالَ إن مصر تريد أن تبسط سلطانها على السُّودَان فى زمن تنادى فيه الأمم بالحق الأبلج أيضًا فى تقرير المصير . ولولا أن هذا كله تدليسٌ خفيٌ يُراد أنْ تروّعَ به القلوبُ ، ثم يتغلغلَ خُفْيةً إلى معانٍ بعيدة يُراد بها قتل السودانِ ومصر جميعًا ، لكان الردّ عليه هو إهمالُه وازدراؤه .

إن هذا النيل الجارى بين الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من أقصى الجنوب إلى أدنى الشمالِ يُوجِب أن نكون أمةً واحدةً ، فليس مثله كمثل

---

(١) الأبلج : الأبيض الواضح .

الدانوب . فإنه إذا قُدِّر للسودان أن يكونَ وحده مستقلًّا ، وهذا أبعد البعيد ، أو تحت سلطان إنجلترا ، وهو الشيء الحادث والذى يُراد الإيغالُ فى إقراره بفصله فصلًا تامًّا عن مصر ، فإن الخطر الدَّاهم والداهية المصبوبة تكون على مصر جاثمة حاضرةً فى كل أوانٍ ، فإن أسهل السَّهل أن تُضارّنا إنجلترا فى ماءِ النيل ، وأن تمنع عنا رِفْده متى شاءت وتتخذه سلاحًا مخوفًا مفزعًا وحشيًّا للتهديد والإرهابِ بقطع مادَّة الحياة فى مصر بل فى الشرق الأوسط ، فإن قحط مصر هو قحط الشرق الأوسط ، بل قحط جُزْءٍ عظيم من حوض البحر الأبيض المتوسط . فإذا كان ذلك فبمن نستنجد ؟ ومن أين نؤمِّل النُّصْرة ؟ برمال الصحراء الشرقية وسوافى[1] الصحراء الغربية !! إنه إذا كان مثل ذلك فى أى مكانٍ من الدانوب لهبَّتْ أممٌ بأسرها – أمم صناعية – تدفع البَغْى دفعًا رادعًا رادًّا للحق مانعًا لاستمرار هذا البغي . أما مصر ، فماذا تصنعُ أيها المأجورون للدسيسة الإنجليزية ! أتدافع برجالٍ هدَّهم الجوعُ والظمأ والوباءُ ؟ تعست الحماقة !

ولو كانت إنجلترا هى الأمة التى تسكن هذا الجزء من وادى النيل المسمى باسم مصر ، لما تردَّدت ساعة واحدة من أجل هذا وحده أن تفتح السودان فتحًا وتنتهبه انتهابًا ، وتحتج لفعلاتها فيه بكل حجةٍ . لأن النيل حياة إذا جاء بمَدِّه ، وموت إذا أمسك سَيْبه . وهذه إنجلترا نفسُها ليس لها حُجة فى البقاء الذى تريده فى الشرق الأوسط وفى قناة السويسِ وفى نواح أخرى كثيرة ، إلا أنها إذا خُلِّيتْ جلبت على الإمبراطورية كل شرٍّ ، وقطعت شُرْيان الحياة الذى يمدُّها بالطعام والمال والقوة والسلطان . أفيجوز فى العقل أن تحتج إنجلترا بذلك فى سبيل أن تبقى عند قناة السويس وفى فلسطين ، ولا نحتجُّ نحنُ بأضرارٍ محققةٍ إذا كان فى السودان إنسانٌ واحدٌ فى يده قدرةٌ على الإضرار بمصر إضرارًا يصيب أبدان أهلها وأرواحهم ، ثم أبدان ملايين أخر من أهل الأمم التى تجاورنا ونستعين بها وتستعين بنا .

---

(١) السوافى : ما تحمله الرياح من الرمال فتلقيه .

ونحن لا نقول هذا ولا نسوق الحجة على هذا الوجه لندعى - كما يُراد لنا اليومَ أن ندَّعى - إنَّ لِمِصْر حقًّا فى استعمار السودان أو احتلاله أو الوصاية عليه أو غير ذلك من الأباطيل المضللة ، بل لنقول إنَّ هذا وحده يوجبُ عقلًا أن يكون وادى النيل كلُّه دولةً واحدة ، لها حكومةٌ واحدة ، وتشريع واحدٌ ، ونظامٌ نيابى واحدٌ ، شأنُ السودان فيها كشأن أَسْوَان ، وقنا وجرجا ومديريات مصر كلها ، فإن موقع أية مديرية من هذه المديريات كلها هو من الناحية الجغرافية كموقع السودان ؛ فلو جاز أن يُفصل السودان اليوم عن مِصر بحجة ، فهذه الحجة تنطبق كل الانطباق على أسوان ثم قنا ثم جرجا إلى أن تبتلع النيل كله . وأيضا فإن مكان السودان كمكانها من الناحية التاريخية والأدبية والأخلاقية والدينية . وإذن فالنيل يحدث بلسانٍ لا يكذبُ بأنه لا يمكن أن يتجزَّأ إلا إذا جاز التجزؤ على هذه المديريات حتى تُصبح كلّ واحدة دولة قائمة برأسها . والشعب الذى يسكن أسفل الوادى (المعروف باسم مصر) ، والشعب الآخر الذى يسكنُ أعلاه (المعروف باسم السودان) ، شعبٌ واحدٌ ناطقٌ بلسان عربيٍّ مبين لا يعرف نفاق اللسان الإنجليزى ولا تكاذُبه وخداعَه ، بأنّه أيضًا لا يستطيع أن يتجزأ ، ولا هو قابل للتجزّؤ .

ولقد استزلَّ الشيطانُ بعض ساستنا ؛ فأخذوا يقولون إنَّ مِصر لا تريد أن تستعمر السودان ، بل تريد أن تمنحه الاستقلال الذاتى ! فحِلًّا حلًّا [(١)] أيها الرجال ، فإن هذا ما يريده الإنجليز ، إنهم يريدون أن تقرُّوا بألسنتكم ما الحق شاهدٌ على بُطْلانه ، وهو أن الشعب المصريَّ شيء ، والشعب السودانى شيءٌ آخر ، ويريدون أن تقولوا إن النيل ممكنٌ أن يتجزَّأ ، ولو بعضَ التجزّؤ ، فإن هذا حسبهم منكم اعترافًا وتقريرًا . فتوبوا أيها الساسة من هذا الإثم ، ولا يُرهبكم حقُّ تقرير المصير ، ولا مجلس الأمن ، ولا هيئة الأمم المتحدة ، فإن هذه الرهبة باطِلٌ كلُّها . توبوا أيها السَّاسة ، ولا تخافوا من أكذوبة الدانوب ، فهو النهر الوحيد

---

(١) حِلاًّ : أى مَهْلًا .

الذى تتعدَّدُ الدُّول على حفافيه ، وهو نهر ليس له قيمة زراعية . واعلموا أنه لا يكاد يوجد فى الدنيا كلها نهرٌ زراعيٌّ وَاقِعٌ مجراه فى أكثر من أمةٍ واحدةٍ ، وهذه الأمة الواحدة يكون لها كل السلطان عليه من منبعه إلى مصبّه . لا تخافوا أيها الساسة وتوبوا وتبرأوا مما قلتم ، وخيرٌ لكم أن تدرسوا طبيعة النيل والأضرار المخوفة من تمزيقه ، وأن تعرفوا ماذا تريدُ إنجلترا بفصل السودان عن مِصر وضمّه إلى الجزء المفضى إلى جنوب إفريقية والجنرال سمطس ، فهناك البلاء الأعظم .

أيها المصريون السودانيون : إن النيل هو إفريقية كلُّها فاحذروا أن تضيعوا أوطانكم ، وتُلْوُوا [١] بأمجادِكم ، وتضعوا أعناقكم فى نير العبودية السرمدية إذا احتوشتكُمْ [٢] العناصر الغريبة عن إفريقية النائمة التى بدأت تستيقظ من غفوةٍ طالت عليها الآباد . احذروا كذب البغاة الطغاة المفسدين فى الأرض ، واحذروا بغاواتهم وصنعاءهم فإنهم الحارقة الآكلة إذا استمكنوا منكم وأوضعوا [٣] خِلالكم يبغونكم الفتنة ويَسُومونكم ذُلا مستورًا ببهرج الاستقلال وتقرير المصير . لاتخافوا مجلس الأمن ولا هيئة الأمم إذا قدمتم إليهم قضيَّة فيها كلُّ دليل لا يبطله شىء من تاريخ ولا عقلٍ ولا مصلحةٍ .

وأنتم يا أخواننا وأهلنا وعشيرتنا فى السودان احذورا الدولة التى تريد استقلالكم ، وتريد أن ترعاه لكم ، كما رعت غيره من قبل !! فإن « مَنْ استرعى الذئبَ ظَلَم » [٤] .

* * *

---

(١) أَلْوَى به : أَوْدَى به وأهلكه .

(٢) احتوشتكم : اجتمعوا عليكم وأخذوكم من كل جانب .

(٣) أوضع : أسرع .

(٤) هذا مَثَلٌ .

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

حديث غد ...

(قال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة) (**) : خرجتُ فى صفر من سنة أربعين أريدُ المدينة أزورُ فتيانًا من أصحابى بها ، وأتحسَّس الأخبارَ أخبار الفتن المشئومة التى توزَّعت قلوب المسلمين ، وأنظر ما فعل بُسْر بن أبى أرطاة بِمُهاجَر رسول الله ﷺ ، فقد بلغنا أنه أحدث فيها أحدَاثًا عظامًا .

غادرت مكة يوم غادرتها وهى كالتنُّور المتوقِّد ، فقد ذابت عليها الشمس ، واحتدمَ وَهجُها وبقينا نتنفس بين أخشبيها (١) لظى من فيح جهنم ، حتى يحس المرء كأنّ الدمَ يفورُ فورانًا فى عروقه ، وقد خدر النهارُ من حوله فلا ريحٌ ولا روْحٌ ، فلكلّ نَفَسٍ لذعة فى الخياشيم والصدر تنشف الرِّيق حتى يكادُ اللسان ينشقُّ من فرط جفافه ، وحتى يكاد يظنُّ أنه الجنون . ما أصبرنا يا أهل مكة على صياخيدِها (٢) ، وما أحبها إلينا على شدة ما نلقى من لأوائها ! بورِكتْ أرضًا وتعالى من حرَّمها وتقدَّست أسماؤه .

كان النهارُ حرًّا ماحقًا منعنا التأويب ، فكان سيرُنا كله إدلاجًا (٣) تحت غـواشى الليل إلى أن يُسْفِرَ الفجر وطرفًا من النهار . ولشدَّ ما أعجبنى الليل وراعنى حتى تمنَّيتُ أيّامئذ أن الدهر ليل كلُّه ، فقد كنت أسرى تحت سماءٍ زرقاء ملساءٍ صافية كأنّ النجومَ فى حافاتها وعلى صفحتها دُرٌّ يتلألأ على نحرِ غانيةٍ وأنا تحت

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٠٥) ، يناير ١٩٤٧ ، ص : ١٤ - ١٧

** كتب عمر هذه الكلمات وهو فى السابعة عشرة من عمره ، فقد كان مولده ليلة الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين يوم مقتل عمر بن الخطاب (شاكر) .

(١) الأخشبان جبلا مكة المطيفان بها ، وهما أبو قبيس والأحمر .

(٢) الصياخيد : جمع صَيْخود ، شدة حَرّ الشمس .

(٣) التأويب : الرجوع بالليل ، يعنى لا ينزلون ليلا وإنما يسيرون الليل كله ، وهو الإدلاج ، لأنهم لا يستطيعون السير نهارا لشدة حر الشمس .

أنفاسها كالشارب الثمل . وكيف تفعل هذه البيداء بنا وبقلوبنا ؟ قيظٌ يسلخُ جلد الحية ويذيبُ دماغ الضبِّ ، لا يلبث أن تنفحنا بعده بنسيم هفافٍ كأن الليل يتنفس به ليخفف عنا بلاء نهارنا ، ويفوح من بُرُود الليلِ شَذا الأقاحيّ (١) فيفغم(٢) الفضاءَ كلَّه أحيانًا حتى يخيل إليّ أن البادية المجدبة قد استحالتْ روضةً تنفث أزهارُها الطيبَ من حيث استقبلتُ ، فأجد لها روحًا على كبدى وراحة فأعبُّ من أنفاسها عبًّا حتى أقول لقد سَكِرتُ من غير سُكرٍ . ثم ما أندى رويحةَ الفجر على قلوب السارينَ فى هذه المهامه السحيقة المتقاذفة (٣) ! فإن عبيرَها وبَرْدها والنور المشعشع على أرجائها يجعلك تحسُّ حسًّا لا يكذب بأنك تحيى فى لذاذات لا ينقضى منها أربٌ ولا يستحيل لها مذاقٌ . ولقد حبب إلى الخروجُ إلى البادية كلما وجدتُ فى نفسى طائفًا من سآمة أو مللٍ ، فيا بُعدَ ما بين الحاضرةِ وجوّها الكامِد الجاثم ليلا ونهارًا ، وبين هذه الرِّحاب المتمادية التى يبثُّها النهارُ لواعجه وحرقه ، ويأتى الليل فيناجيها نجوى خافتةً بما فى ضميره العميق المشتمل على أسرار الحياة برِّها وفاجِرها ، وتقف النجومُ على أرجاء سمائها مصغياتٍ مشرقات زاهرات كأنما يومِضُ بعضُها لبعضٍ فرحًا بما سمعتْ من تلك الأسرار المصونة المكتمةَ .

* * *

كلما أوغلنا فى البادية وفى قلب الليل ازددتُ فتنةً بليالى الصحراء وتهامُس رمالها وتَناجى كواكِبها ، وأسمعُ للَّيل هَمْهسةً كأنها أحاديثُ قُلوبٍ عاشقة قد تدانى بها السِّرارُ ، فتمضى الساعات والعيسُ ماضيةٌ بنا فلا نملّ ولا نكلُّ ولا نحسُّ وحدة ولا مخافةً ، كأنّا قد دخلنا الحرم الآمنَ الذى لا يراع اللائذ به . وجعلتْ نفسى تتجدَّد وتتطهر كأن برد الليل قد غسلها فما تشوبُ نقاءها شائبة .

---

(١) الأقاحى : جمع أقْحُوان : نَبْت طيب الريح ، حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر ، تُشبَّه به ثغور النساء .

(٢) يفغم : يملأه برائحة طيبة .

(٣) المهامه : جمع مهمه ، وهو الصحراء . المتقاذفة : البعيدة .

وبعد ليال أفضتْ بنا المسالك إلى « الرَّبَذَةِ » التى بها قبر أبى ذرّ الغفارى رضوان الله عليه ، فلم يبق بيننا إلى المدينة سوى ثلاثة أميال ، وأدركنا الفجر وإننا لعلى مشارفِها ، فقلنا نعوجُ بها فنصلى الفجر ثم نرتحل حتى نبلُغ المدينة فى نهار يومنا هذا . فلما أنخنا جمالنا وقمنا إلى الصلاة ، سمعت صوتَ قارئ قد تأدَّى إلينا من بعيدٍ ، فتلمَّسْته حتى تبينتُ صوتًا رَاعِدًا تقيًا كأنه الجبالَ والرمالَ والدنيا كلَّها تهتزُّ على نبراته القوية العنيفة الصادقة ، وكأنه يمضى فى إهاب الليل المهلهل فيفْريه فريًا ويمزقه بِمُدَى من النور ، وكأنه يسيلُ فى البطحاءِ كالسَّيل المتقاذفِ فتموج فيه رمالها كأمثالِ الجبالِ نُسفتْ من قراراتها ، وكأنّ ألفاظهُ هَبَّاتُ عاصفةٍ تفضُّ دُرُوع الليل فضًّا ، وكأنّ نغماتِه أنوار مشعشعة تخالطُ هذا كلَّه فتملأ الفجر فجرًا من نُورِها ونور ألفاظها ومعانيها . وأول ما تبيَّنْتُه حين دنوت منه بحيث أسمع قراءته : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ، إلى آخر الآيات ، فلما أخذ يكبر سمعت التكبير يملأ جنبات الأرضِ كلها مترددًا ظاهرًا كأن لم يبق فى الدنيا شىءٌ إلا كبر بتكبيره .

فرغ الرجل من صلاته ووضع عمامته وبقى حيثُ هو قليلا ثم قام ، فأضاءَه لى ذَرْوٌ [١] من نور الفجر الناهد من قبل المشرق ، فإذا رجل فى السبعين من عمره وافر اللحية أبيضها ، أسمر شديد السمرة طوالٌ جُسامٌ فارعٌ كأنه صعدة [٢] مستويةٌ ، أصلعُ الرأس شديدُ بريق العينين ، نظر إلينا نظرةً وحيًى ثم انفتل راجعًا إلى فسطاط مضروب قريب من حيث كان يُصلِّى . رأيته وهو يمشى كأنه قائدٌ يحسُّ

---

(١) ذَرو : القليل من الشىء . والناهد : الذى بدأ فى الظهور .

(٢) الصعدة : القناة تنبت مستوية ، ولما كان الرمح يُصْنَع منها سُمِّى صَعْدَة .

كأن الجحافِلَ من ورائه تمشى على أثره . وبعد قليل جاءنا رجل كأشدِّ من رأيتُ من الناس نَفاذَ بَصَر ، فحيَّانا وقال : من الناس ؟ قلت : عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى . قال : ابنُ العِدْلِ [١] ؟ رحم الله أباك ، فقد شهد معنا المشاهد بعد عام الفتح . قلت : فمن يكون الرجل الذى أوى إلى فسطاطه يرحمك الله ؟ قال أو ماعرفته ؟ إنه محمد بن مَسلمة الأنصاريّ صاحبُ رسول الله وصاحب أبى بكر وعمر . قلت : فما جاء به ، وقد سمعنا أن رسول الله نهى عن أن يرتدَّ المرءُ أعرابيًا بعد الهجرة ، وأنه ذكر ثلاثًا من الكبائر منها « التعرُّبُ بعد الهجرة » ، فيعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجرًا . قال : صدقت يابُنّى ، ولكن لذلك خبرٌ :

كانَ محمد بن مسلمة فيمن ثبت مع رسول الله يومَ أُحُد ، فأعطاهُ رسول الله سيفًا وقال له : « إنه ستكون فتنة وفُرقة واختلافٌ ، فإذا كان ذلك فأت بسَيْفِك أُحُدًا فاضربْ به عُرْضَه حتى تقطعه ، واكسر نبلك واقطع وتَرَك ، واجلس فى بيتك حتى تأتيك منيّة قاضية أو يد خاطئة ، فإن دَخَلَ عليك أحدٌ إلى البيت فَقمْ إلى المخدَع ، فإن دَخَلَ عليك المخدع فاجثُ على ركبتيك وقل : بؤ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاءُ الظالمين » . وقد فعل حين كانت هذه الفتن بين علىّ ومعاوية فكسر حدّ سيفه وقعد فى بيته ، وأطاعَ نبيَّه وعصى الشيطان الذى استزلَّ هذه الناس التى يقتل بعضُها بعضًا . ولقد قضى فى مكانه هذا ثلاث سنواتٍ يدعو ربه أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين التى جعلت تتفانى على دُنْيا فانيةٍ ، وعسى ربُّك يستجيبُ لدعاءِ هذا الرجل الصالح فتحقن الدماءُ وتوصَل الأرحامُ ويعزُّ بهم دين الله فى هذه الأرض .

(قال عمر) : فسألتُ الرجل أن يستأذن لى على أبى عبد الرحمن محمد بن مسلمة ، فذهبَ ثم جاء يُومئ إلىّ أن أقْبِل . فدخلت على أبى عبد الرحمن

---

(١) كانت قريش تلقب عبد الله « العدل » ، لأن قريشًا كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها من ماله سنة فكان وحده عدلا لقريش جميعًا فى ذلك ، وكان تاجرًا موسرًا .

فسطاطه فإذا فيه سيف مُعلَّقٌ على جانب منه ، فلما سلَّمتُ ردّ التحية وقال : مرحبًا بك يا ابن أخى ! ماجاء بك ؟ قلت : زائرٌ إلى مدينة رسول الله يا أبتاه . فدعانى أن أجلس ، فوالله لقد أخذتنى للرجل هيبَةٌ ماوجدتها لأحد ممن لقيت من صحابة رسول الله ، ولا من أمراءِ المسلمين ، وكانت عيناهُ تَبِصّان فى سُدْفَة (١) الفسطاط كأنهما قِنْديلان يلوحانِ فى ظلامٍ بعيدٍ . وجعلتُ أنظر يمينًا وشمالا فلا ألبث أن أثبت نظرى على سيفه المعلق ، فلما رأى العجَب فى عينىّ قال : لعلك تقول ، لقد كسر سيفه ، وهذا السيفُ معلقٌ بحيث أرى ! ثم قام واستنزل السيف واخترطه (٢) فإذا هو سيفٌ من خشب .

ثم قال : لقد فعلت ما أمرنى به رسولُ الله ﷺ واتخذتُ هذا أُرْهِبُ به الناس .

* * *

(قال عمرُ بعد حديث طويلٍ) : قلت له : يا أبتاه والله لقد آنستنى وأدنيتنى وأطلقت لسانى فلو سألتك ! قال : سل ما بدا لك يا ابن أخى . قلت : لقد حدَّثتنى عن قتلك كعب بن الأشرف اليهودى ، وعن قتل يهودَ أخاك محمودًا رضى الله عنه ، فهلا حدثتنى عن إجلائك يهودَ عن جزيرة العرب فى زمان عُمَر ؟ فقال :

رحم الله الرجل ، فقد كان شديدًا فى الحق حافظًا للعهد ، ولكن يهودَ قومٌ غُدُرٌ ، أساءُوا الجوار وخانوا العهد وتآمروا على المسلمين ، فعزمَ عمرُ على أن يجليهم عن أرض العرب ليقطعَ غدرهم ويحسم مادة النفاق فى هذه البقعة المباركة . فأرسَلَ إلىّ وقال « لقد عهد إليك رسول الله مراتٍ أن تجلى يهود ، فأنا أتبع سنته وأعهد إليك أن تجلى لى يهود عن أرض العرب ، فلا تظلمهم ولا تؤذِهم ، ولكن لا تدعْ منهم صغيرًا ولا كبيرًا ولا طفلا ولا امرأة حتى تستوثق من جلائهم بجموعهم عن أرضنا . ولئن عشت لأُجْلِيَنَّهم عن كل مكانٍ كبَّر فيه

---

(١) تبصان : تلمعان . السدفة : الظُّلْمة .

(٢) اخترط السيف : استلّه من غمده .

المسلمون لله ، فإنهم أهل فسادٍ ونفاقٍ وخَبَث » . فخرجتُ إلى طوائف اليهود في خيبر وسقتهم مستقبلًا بهم الشام ، فلما بلغنا غايتنا أقبل عليّ رجل من ولد الحارث أبي زينب اليهوديّ ثم قال لي : لقد كنت مسترضعًا فينا يا أبا عبد الرحمن ، وكنت أنت وابن الأشرف رضيعي لَبَانٍ ، فما لبث أن جاء هذا الدين واتبعتم ذلك النبيّ حتى قتلت أخاكَ ورضيعَك ، وها أنت تخرجُنا من ديارنا وأرضِ أجدادنا ، وترمينا في ديار الغُرْبة ، فهلا كنت تركت كل ذلك لغيرك أيها الرجل ! فقلت له : يا أخا يهودَ ، لئن كنت قتلتُ رضيعي فقد قتل قَوْمُك أخي محمود بن مسلمة غدرًا ، وعرضتم لحرم رسول الله بالتشبيب والبذاءة والسّفَهِ ، وأردتم أن تغدروا بنبي الله وتدلوا عليه صخرة لتقتلوه ، أفتظنّ يا أخا يهودَ أنّا تاركوكُم تعيثون في الأرض فسادًا ، وتكفرون النِّعم ، ولا ترعونُ حرمة ولا ذِمامًا ولا عهدًا ، وتتآمرون على المسلمين تحت الليل ، وتعدون عليهم غارّين آمنين ؟ ووالله لقد صبر عليكم عُمَر صبرًا طويلًا ، ولو كان حَزَّ رقابكم جزاءً بما تصنعون لقلَّ ذلك لكم .

قال ابن الحارث : لشدَّ ما تِهْتُم علينا أيها الناسُ ، فوالله ليكونن لهذا اليوم الذي أذللتمونا فيه وفضحتمونا وأجليتمونا عن أرضنا وأرض آبائنا يوم مثله يكون لنا عليكم ، فقد جاء في كتبنا أنه سوف يجيء يوم تدخل فيه اليهودُ على أبناءِ يعرب هؤلاء فتذيقهم بأسًا شديدًا وعذابًا غليظًا ، حتى ترى اللُّقمة في يد المسلم قد أدناها إلى فيه فإذا على رأسه رجالٌ من أشدّاءِ يهود تنفِّره حتى يدعَها لهم . ولتدخلنّ نساؤنا على نسائكم حتى لا تبقى امرأة منكم إلا نامت بشرٍّ ليلةٍ ممّا تَلْقى من نسائنا ، ولنسوقنكم كما سقتمونا حتى نجليكم عن ديار آبائكم وأجدادكم ولنفعلن الأفاعيل حتى تكون لنا الكلمة العليا ونحن يومئذ أحق بها . والله ما نصبر على ما آذيتمونا إلا انتظارًا لما يكون غدًا كما قال لنا أنبياؤنا . وكأني أنظر إلى غدٍ ، فأرَى وجوه الأحباب من بني إسرائيل قد سقطت عليكم من كل فج كأنهم جرَادٌ منتشرٌ تأكل يابسكم وطريَّكم ، ولا تدعُ لكم موطئ قدم إلا كان تحته مِثْل جَمْرِ النار . وإنكم لتقولون إن الله قد ضرب علينا الذلة والمسكنة . فوالله لئن

صدقتمُ اليوم إذْ أَمِر أمرُكم (١) ، لتعرفنّ غدًا أننا شعب الله الذى لا يرضى له الله بالذلة والمسكنة ، ولقد كنَّا ملوك الأرض فدالت دولتنا كما دالت من قبلها دول ، ولكن الله بالغُ أمره يوم تدولون كما دُلْنا ويعودُ الأمر إلينا ، فنحن قوم أولوا بأس شديد ، ونحن أهل الكتاب الأوّل ، ونحن أتباع الحقّ . فإذا جاء ذلك اليوم يا أبا عبد الرحمن فستعلمون أيُّنا أشدُّ تنكيلا . فوالله لنتخذّنكم لنا أعوانًا على أنفسكم ، ولنضرِبَنّ غاديكم برائحكم ومقبلكم بمدبركم ، ولنوقعنَّ الفتنة بينكم حتى يُصْبح الرجل مِنكم مؤمنا ويمسى كافرًا ، وليكوننَّ لنا من أنفسكم رجالٌ يخْربون بيوتهم وبيوت آبائهم وهم عنا رضوان ولنا مطيعون !

قال محمد بن مسلمة : فسمعتُ الرجل يقول قولًا كبيرًا ، فقلت له : لئن صدقَ أنبياؤُكم فكانَ ذلك ، فما صدقوا إلا ليصدقوا رسول الله فى خبرِه ، فأنتم اليوم أشتاتٌ مبعثرون فى جنبات الأرض ، وليزيدنكم ربُّكم فُرْقةً وشتاتًا ، فإذا جاء ذلك اليوم فدخلتم علينا أرضَنا وعلا أمركُم فى حيث يشاءُ الله منها ، فلكى تتم فيكم كلمةُ الله وليعذّبكم وليستأصل شأفتكم من أرْضه ، ولتكونوا عبرةً للطاغين من أمثالكم ، فقد قال الصادق المصدّق رسول الله : « تقاتلكم يهودُ فتسلَّطون عليهم حتى يقول الحجرُ : يا مسلم ! هذا يهودىّ ورائى فاقتله » ، فوالله ليكوننَّ ذلكَ كما أرادَ الله ، ويومئذٍ يعضّ طُغاتكم وطواغيتكُم أطراف البنان من النَّدم ، فالعربُ هى ماعلمت يا ابن الحارث لا ينامُ ثائرها (٢) ولا يُخْطم أنفها بخطامٍ .

(قال عمر) قلت : يا أبا عبد الرحمن ! وإن ذلك لكائنٌ ؟ قال : يابنى ، ما علمى بالغيب ! ولكنه إذا جاء فليقضِيَنَّ الله بيننا قضاءَه ، ويكونُ يومئذ فناؤهم على أيدينا ، فأمرُ المسلمين إلى ظهور ، وأمر يهود إلى حُكم الله الذى ضرَب عليهم الذِّلة والمَسْكَنَة إلا بحبلٍ من الله وحبل من الناس . والله يحكم لا معقّب لحكمه .

* * *

---

(١) أَمِرَ أمركم : اشتدَّ وقوِىَ .　　(٢) الثائر : الذى لا يُبْقى على شىء حتى يُدرك ثأْرَه .

مصر هى السودان

دخلت المسألة المصرية السودانية فى ساعة حاسمة لابد فيها من العمل والتسديد والحزَامة والتصميم ، وأصبح لزامًا على أهل الرأى ورجال السياسة أن ينزعوا الخوف من قلوبهم ويطرحوا التردّدَ جانبًا ، ويقبلوا على المعركة مستبسلين لا يخافون . وقد صار أمر مصر والسودان إلى مصير ليس فى تاريخ مصر والسودان أسوأ منه ، فكل نكولٍ عن أداء الواجب وعن التنبيه والتحذير خيانة لوادى النيل لا يغتفرها لنا آباؤنا ولا أحفادنا من بعدنا . وإذا أضعنا اليوم حق مصرَ والسودان علينا ، فقد ضاع كلُّ ماترجوه بلادُ العرب والمسلمين من أطراف الصين إلى أقاصى المغرب الأقصى ، وإذا الفرصة السانحة قد أفلتتْ من يد هذه الأمم إلى غير رجعة . فمسألة مصر والسودان ليست إذن مسألة مفردة برأسها بل هى أمّ المسائل العربية والشرقية جميعًا ، وموقفنا حيالها هو المحكُّ لكل ما يرجوه الشرق ويؤمله .

بيد أن مسألة مصر والسودان قد أصابها من البلْبلة على مر السنين الطوال ما يُخشى معه أن يدعَ للعدوّ منفذًا يتدَسسُ منه إلى إحداث الفرقة والتنابذ ، وقد بدا شيءٌ من آثارهما فى العهد الأخير بعد أن استطاعت الدولة الخدّاعة أن تستميل قلوب نفر من أهل المطامع ورجال السوء فى السودان وغير السودان . فلابُدّ إذن أن نبدئ ونعيدَ فى بيان الحقيقة التى لا تطمس نورها الأكاذيب الملفَّقة ، ولا يُطفئ رونقها طول الإهمال والترْك . وإنا لنأسف أن قد مضى على كبار ساستنا زمانٌ وهم يظنون أن علاج المسألة المصرية مفصولة عن السودان هو الطريقُ إلى نيل الحق من غاصب وادى النيل ، فأصبح الناس وإذا هم يرون ضلال الساسة الغابرين فى بتر قضية وادى النيل وشطرها إلى شطرين سموها باسم المسألة المصرية والمسألة السودانية . ولو هم عملوا ، منذ ولَّاهم الله سياسة هذه الأمة ،

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٠٨) ، يناير ١٩٤٧ ، ص : ١٠٤ - ١٠٦

على أن القضية واحدةٌ ، وتجزئتها مفسدة للجزءين كليهما ، لسار تاريخ مصر والسودان غير هذا السير الخبيث الذى ساقتنا بريطانيا فى سراديبه المضللة المظلمة .

إن الجزء المسمى بمصر من هذا النيل المنحدر من منابعه إلى مصبه فى البحر الأبيض المتوسط ، جزءٌ يسيرٌ من مجرى هذا النيل ، وهو واقع فى صحراء جرداء لولا هذا الجزء من النيل لاتَّصلت رمال الجانب الشرقى والجانب الغربى من الصحراء وتصافحت على مسيله. وهذا الجزءُ الخصبُ بمدّ النيل ، خط ضيق محصور أكثره بين الجبال والرمال ، ولا يرجو أهله منه خيرًا إلا باسم النيل وبماء النيل وبركة النيل . فإذا حبس النيل ماءه أو منع بركته ، أو وُجد على الجزء الجنوبى منه (وهو السودان) من يحبس ماءه ويمنع بركته ، انقلبت هذه الأرض المصرية نقمة على أهله وشرًّا وبلاءً . والتاريخ يحدِّث منذ قديم الأزمان بأنه ما امتنع ماء النيل أو قلَّ إلَّا حدثت فى مصر المجاعات والقحوط التى أهلكت الحرث والنسل ، حتى اضطُرّ أهل مصر فى كثير من أزمان القحط أن يأكل الرجل لحم أخيه وولده من شدة المَتْرَبة التى حاقت بهذا البلد الخصيب . فالنيل هو كل شيء فى بلدٍ لا تمطره السماء إلا غبًا [١] ، وليس فيه ما يُغنى أهله عن أن يجعلوا مادة حياتهم وأرزاقهم مما تخرجه الأرضُ التى يكدحون فى زراعتها كدحًا شديدًا ، والتى لا تنفع فيها زراعة إلا إذا استوفت حظَّها من ماء هذا النيل .

وقديمًا قامت فى هذا الجزء الأدنى من النيل أممٌ وحضارات لا تزال آثارها باقية إلى هذا اليوم ، وكان أوْلى بقيام هذه الأمم والحضارات الجزء الأعلى وهو السودان ، لولا أن أهل الزمن الماضى فرُّوا من وقدات الشمس المحرقة فى السودان إلى هذا الجزء الأدنى فأقاموا الحضارات على حفافيه ، ولكنهم مافعلوا ذلك إلا وهم مطمئنون إلى أن الجزء الأعلى ليس فيه دولة قائمة يمكنها أن تردَّ هذا النيل عن مجراه إلى قرارة هذا الوادى الذى سُمى « مصر » . ولو كان هناك

---

(١) الغب : المرّة بعد المرة دون اتصال ، يعنى قليلا .

شيء مثل ذلك لرأينا ، كما رأينا في شأن الوجه القبلي والبحري ، رجالا ينصبون أنفسهم لضَمّ الشمال إلى الجنوب وتوحيدهما حتى لايكون في الأرض الواحدة دوَلٌ متقسّمة يناوئ بعضها بعضًا ، فلا تقوم لواحدة منهما قائمة ، ولا يكون لواحدة منهما مجدٌ أو حضارة أو تاريخ ، وبذلك بقى النيل الأعلى (السودان) فى سَلْم دائما ، إذ لم تكن فيه دولة مناوئة ، وبقيت صلته بمصر كصلة أى بلدٍ من بلاد الدنيا يكون فى أرضها جزء متروك لم يُعمر بالهجرة أو الاستصلاح والاستثمار . وهذا الترك لا يدلُّ على اقتطاع هذا الجزء ، بل على أن الحاجة لم تدفع بعدُ إلى استصلاحه أو استثماره . هذا هو التاريخ القديم فى العلاقة بين جزئى النيل « مصر والسودان » .

ومضى التاريخ على هذا إلى أن جاء العصر الأخير ، فقام شمال النيل « مصر » ليضم الجنوب « السودان » ، كما قام الشمال من أمريكا لضم الجنوب إليه ، وكما قام جزءٌ من بريطانيا نفسها ليضمَّ إليه بلاد الغال وأرض إسكتلندة . ولو بقى شمال أمريكا منفصلًا عن جنوبه ، وبقيت بلاد الغال وبلاد إسكتلندة على أحوالها التى كانت عليها منذ قرون ، لما كان فى الدنيا شيءٌ يسمى الولايات المتحدة ، ولا شيء يسمى بريطانيا . وإذن فضَمُّ السودان إلى مصر بالحرب لا يمكن أن يسمى « فتحًا » بل هو ضمٌّ فحسب ، فلذلك يخطئُ بعض الساسة الذين يحتجون فى المسألة المصرية السودانية بهذا الشيء السخيف الذى يسمونه « حقُّ الفتح » . وكل ما هنالك هو أن هذا الجزء المتروك من أرض مصر أو أرض السودان - كما تشاء - كان لابد فى ضمه من بعض الحرب حتى تستقر الحال ويستتبّ النظام ، كما حدث فى كل بلاد العالم منذ أقدم عصور التاريخ ، فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وهذا شيءٌ بديهيٌّ لا يحتاج إلى زيادة .

ويتبع هذا الخطأ فى الاحتجاج بحق الفتح خطأ آخر أقبح منه ، وهو احتجاجُ من يحتجُّ بما أنفقت الأرض الشمالية على الأرض الجنوبية من الأموال ، وهذا أيضًا فاسدٌ كل الفساد . فكل دانق أنفقته مصر فى السودان هو حق السودان على مصر ، كحقِّ أى قرية فى أرض مصر ، وكحق كل شارع أو مديرية . فينبغى إذن

أن ننفى من احتجاجنا كلَّ شيء يسمى نفقات أنفقت فى السودان ، فإن كل ذلك هو حق السودان الذى إذا قصَّرْنا فى أدائه وجب عليه أن يطالبنا به بالكلام أو بالسيف أو بكليهما . ومن المؤلم أن يكون هذا الأسلوب الذى جَرَى ولا يزال يجرى على ألسنة بعض الساسة ، هو خديعة بريطانية قديمة لم نزل ننزلق فى مداحضها ونزلُّ ، حتى كادت تكون نكبة عقلية ألمَّتْ بهؤلاء الساسة .

فلا بد إذن من وضع هذه الحجج حيث ينبغى أن توضع فى زوايا الإهمال ، وأن ينظر الساسة إلى الحق الطبيعى الذى يجب لمصر على السودان ، والذى يجبُ للسودان على مصر ، وأنا أقدِّم فأقول إن حق السودان على مصر هو الأصل ، وهو الحق الأعظم ، وهو الحق الذى لا يمكن مصر مهما بلغت من قوة ومجد وحضارة أن تتنصَّل منه أو تتبرأ ، فإذا فعلت ، فذاك هلاكها وضياعها فى هذا العصر وإلى الأبد البعيد .

إن السودان كما كان قديمًا ، وكما هو الآن ، هو حياة الأرض التى تسمى باسم « مصر » ، فزراعتها وتجارتها ومالها وأهلها وتاريخها وحضارتها ، كل ذلك فضلٌ أتى به النيل . والنيل فيما بعد أسواره إلى منابعه واقع فى الأرض التى تسمى السودان ، فإذا أبى السودان أن يُفْضِلَ على مصر بالقدر الكافى من ماء النيل ، فقد حدثت المجاعات ، وهلكت الزراعة وبارت التجارة وذهب المال واندثرت الحضارات وانطمس التاريخ ، ولم يبق فى الدنيا دولة تسمى نفسها الدولة المصرية ، بل مكان فى الصحراء يقال له مصر ليس إلا ، مُجَردًا من كل ما تكون به دولة أو أمة . فالحقيقة التى ينبغى أن لا نتمارى فيها بالعصبية أو الكبرياء هو أن السودان هو سيّد هذا الوادى الذى يمدّه النيل بمائه ، وإذن فالسودان هو أحق الشقيقين باسم الدولة ، فإما أن يسمى وادى النيل كله باسم الدولة المصرية برضى أهل السودان ، أو أن يسمى هذا الوادى باسم الدولة السودانية برضى أهل مصر . فهذا هو الوضع الصحيح للمسألة المصرية السودانية .

ومن البيّن الذى لا خفاء فيه أن السودان كَنْزٌ كله ، بمائة ومعادنه وغاباته وحيوانه وكل شيء فيه ، والذى فى مصر من ذلك لا يعدل واحدًا من ألف من

هذه القوى الطبيعية المكنوزة فى أرضه وجباله وسمائه . وهذه القُوَى هى التى تجعل لصاحبها السيادة العليا على الذى يستمدُّ من فضلها . فمصر تستمد من قُوى السودان جزءًا يسيرًا وهو الماء ، وتستمدّه برضى أهل السودان ومسالمتهم وأخوَّتهم ، فمن العبث إذن أن تدَّعى مصر « سيادة » على السودان ، بل الحقيقة التى لامراء فيها هى أن سيادة السودان هى العليا ، وأن مصر جزء من السودان ، وهو جزء عظيم خصب صالح للاستثمار فى الزراعة وغيرها استثمارًا عظيما ، فمن مصلحة السودان أن يُفْضِل الماء على هذا الجزء لتزدهر زراعته وحضارته ويكون للسودان ذخرًا من القوة يضارع القوة التى فيه . والسودان محتاج إلى هذا الإفضال لأن المنطقة الصالحة للزراعة فى مصر أعظم وأجدى من المنطقة الواقعة فى الجزء المعروف اليوم باسم السودان . ومن هذا تعرف كيف دبَّر الله لهذين الشطرين العظيمين أن لايجد أحدهما مَنْدُوحَة تغنيه عن صاحبه ، وتفرض على كل واحد منهما أن يتشبث بصاحبه ، فإذا تنابذا وتنافرا وتدابرا وتقاطعا ، حاق بهما جميعًا مايحيق بكل أخوَين متنابذين متدابرين ، وهو الهلاك والضياع الذى تُخاف مَغَبَّتَه .

وأنا لا أظن أن فى الدنيا شيئًا هو أوضح للعقل السليم من هذا الذى ينبغى أن يكون بين مصر والسودان ، أى الحقوق الطبيعية التى يفرضها وجود هذين الشطرين المتجاورين : شطر لابقاء له وحده وهو مصر ؛ وشطرٌ هو القوَى الكامنة التى تعطى البقاء للشطر الأول ، وذلك هو السودان . والشطر الأول منهما « مصر » هو الذى مهد الله له سبيل القوة والتاريخ والعلم فكان فى الوجود أسبق الشطرين إلى قيام الدولة فيه ، والشطر الآخر باقٍ ساكنٌ قارٌّ ... شيخ وقور رزين لا يفارق خَلْوَته إلا بسيب من العطايا والمنح التى يرسلها إرسالا إلى الشطر الأول ليحيى ويقوى ويكون سلطانًا فى أرضه ، وتاريخًا فى الزمن ، وحضارة فى العالم ، ولكن الشيخَ هو سرّ السلطان والتاريخ والحضارة - هو السودان . وذلك حسْبُه .

وقد كتب الله لمصر أن تكون كما هى الآن ، وأن تكون دولة فى الدول لها سلطان ظاهِر ولها عمل فى بعض السياسة ، ولها آمال فى تحرير نفسها وتحرير العرب وتحرير الشرق من بُغاة الاستعمار فى أوربة وأمريكا وروسيا ، فكيف يجوز

فى عقل عاقلٍ أن تدع أباها الذى يمدها بكل هذه القوة ينخزلُ عنها وينفصل ليقع فى يد الدولة المستعمرة المعروفة فى الناس باسم بريطانيا ؟ إن مصر هى السودان ، ولا مصر بلا سودان ، وإذا كانت إنجلترا نفسها تدّعى أن الهند لازمة لها ، وقناة السويس لازمة لها ، وكذلك روسيا فيما تدّعيه ، وكذلك أمريكا فى دعوى مصالحها فى الأرض والبحر والجوّ ، فكيف يجوز فى عقل عاقل أن يُراد لدولة ترجو أن تكون دولة فى هذه الدنيا العريضة المتراحبة - وهى ليست إلا خطًّا محرومًا حظَّ الحياة وأسباب البقاء - بانفصال السودان المفضل المتكرّم عليها بأسباب القوة التى تمكنها من أن تكون دولة ؟

إن واجبنا اليوم هو أن نموت فى سبيل السودان ، لأن السودان هو حياتنا ، ونحن بِضْعَةٌ منه ، فدفاعنا عنه وموتنا فى سبيله هو دفاع الولد البارّ عن أبيه ، والذى لا حياة له ولا عزّ ولا مجد إلا بحياته وعزه ومجده . نحن لا نريد سيادة على السودان بهذا المعنى العامىّ الجلْف ، فإن السودان هو سيّد هذا الوادى ، ولكننا نريد أن تبقى مصر حيَّة قوية فى كنف السودان أبينا ومادة حياتنا . إننا لن نفرّط ساعة فى السودان لأن الدولة المصرية ليست شيئًا ، ولن تكون شيئًا فى هذا الوجود إلا بالسودان . ولو أنصف القَدَرُ وأنصف الناس ، لكان ينبغى أن تسمى « الدولة المصرية » الدولة السودانية . أما بريطانيا فهى تريد السودان ، لأنها تدرك هذا كله حق الإدراك وتعلم أنها إذا بقيت فى السودان ، تحكمتْ فى حياة مصر كلها ، وزادت عليه ما فى السودان من كنوز لا تزال مطمورة تحت تاريخ الحياة الإنسانية المتقادمة منذ أبعد الآباد . فليحذر السودان ولتحذر مصر ، فإن مصر هى القوة الحقيقية لأهل السودان ، والسودان هو الحياة الحقيقية لمصر . فإذا انفصل أحدهما عن الآخر ماتا كلاهما بين أنياب الوحش الذى لا تشبع نهمته ولا تسكن ضراوته .

* * *

لا تدابَروا أيها الرجال !

زعموا أن رجلا ضلّ له بعيرٌ فأقسم لئن وجده ليبيعنَّه بدرهم ، فأصابه ، فقرن به سِنَّوْرًا وقال للناس : « أَبيع الجمل بدرهم ، وأبيعُ السنور بألف درهمٍ ، ولا أبيعهما إلا معًا » . فقيل له : « ما أرخصَ الجملَ لولا الهرَّة ! » فذهبت مثلا !

والظاهرُ أن بعض ساستنا لا يفتأون يفعلون فِعْل هذا الأعرابيّ ، كأنما كُتبَ عليهم أن يتحدَّوْا دائمًا إرادة هذا الشعب المسكين المصفّد فى الأغلال الوثيقة ، وكأنما كُتب عليهم أن يختلقوا العِنادَ اختلاقًا حتى يضيِّعوا عليه كل فرصة سانحة لنيل حقوقه المهضومة منذ قديم الأيام ، وكأنما كُتبَ عليهم أن يتعيَّشوا بنكَبَات هذا البلد وآلامه . وإلَّا فليحدثنا هؤلاء الساسة فيم يختلفون اليوم ، وعلامَ يتدابرون تدابُر الذئاب التى قال فيها القائل :

وكنتَ كذئب السَّوْء ، لما رأى دمًا
بصاحبه يومًا ، أحالَ على الدَّمِ ! [(١)]

لقد ظلَّت المسألة المصرية السودانية منذ أكثر من نصف قرن وهى تتخبط فى أساليب السياسة البريطانية وتكاذيبها وخُدَعها وتغريرها بعقول الرجال ، وتكاثرت النكَبات على مصر والسودان ، واتخذت بريطانيا صنائع لها لبسوا ثوب الصديق وهم ألدُّ عدوٍّ وأبشعُه وأخلاه من الشرف والمروءة ، ولم تزل مصر والسودان تجاهد بطبيعتها الحرة الصريحة المكنونة فى صدور أهل هذا الوادى الحر النبيل ، فغلبت الشرّ وقهرَته ، واستعلنتْ على أَنين ماتكون وأكمله ، فانتهينا من ذلك الوباء الفتاك الذى كان ينخر فى جسم هذا الوطن ، والذى كان يتهادى عليه من سماهم الناس « زعماء » - انتهينا من وباء « المفاوضة » ومن حصر المسألة المصرية

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧١٢) ، فبراير ١٩٤٧ ، ص : ٢١٨ - ٢٢٠

(١) البيت للفرزدق ، وقد مر فى مقال « أخوك أم الذئب » ، ص : ٢٠٦

السودانية فى حيازة بريطانيا وشرف تاجها وَوُعودها المبذولة بألفاظٍ من سراب . وهذه النتيجة وحدها هى حَسْبُ مصر والسودان من جهادِهما ، فإنه لم يكن من المعقول أن يقف مغصوب ضعيف ليفاوض غاصبًا قويًّا مفاوضة الندّ للندّ كما كان « الزعماء » يزعمون ! ووالله ماندرى كيف كان يجوز ذلك فى عقولهم « الزعيمة » ؟ وكيف كانوا يخدعون الناس عن عقولهم « المزعومة » !! ولكنه كانَ ، وعلم أسرار ذلك عند الله خالق الزعماء !

ثم خرجنا من بلاء المفاوضة إلى عرْض قضيتنا – قضية مصر والسودان – على مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة لتحكم بيننا وبين بريطانيا المغتصبة الجريئة على حقوق خلق الله ، وعلى الإيقاع بين الأمم والشعوب ، وعلى خلق المشكلات التى لا وجود لها ، كما فعلت فى فلسطين ، ثم تظاهرها بعد ذلك بأن حلّ هذه المشكلات هو همُّها ، وهو تعبٌ صبّه الله عليها وحمَّلها إياه ، وهى كانت تتمنى لو زعمتْ أن الله لم يصبَّ عليها هذا التعب ولم يحمّلها عبء حله وتصريفه حتى تبلغ إرضاء المختلفين فى هذه المشكلات !! وهى تريد أن تخدع الأمم فى مجلس الأمن أو فى هيئة الأمم المتحدة بهذا الكذب الأبلق [1] ، وعندها من أفانين الدعاية وأساليب الصحافة ، ومن رجال القلم واللسان ما يعينها على إجازة هذا الكذب الصِّرف إلى عقول الرجال فى مجلس الأمن أو سواه . وهى تعلم أن هؤلاء الرجال قليلا ما يعرفون من سيئاتها ومظالمها وبغيها وجرائمها وآثامها فى هذا الشرق الذى ابتُلى بها وبخداعها .

وظنى بساستنا ، هداهم الله ، أنهم يعرفون هذا حق المعرفة ، فإن لم يكونوا يعرفونه فقد نُبهوا مرارًا ويومًا بعد يوم ، فهم الآن على أتم علم بما يُخاف وما يُتجَنَّبَ فى ساعة العُسرة التى نحن فيها منذ فتح الله مغاليق القلوب المُصْمتة فأدركت أن المفاوضة عبث لا يُجدى ولا يغنى ، وإنما هو الجهادُ العامُّ فى سبيل نيل الحق المغصوب . فما معنى هذا التدابُر إذن ؟

---

(١) الأَبْلَق : يعنى الواضح ، وأصل البَلق ارتفاع التحجيل (أى البياض) إلى فخذىْ الفرس .

معناه أن هؤلاء الساسة قوم تصرفهم أهواؤهم ، لا حقوق هذا الوطن الذى أعطاهم حق الحياة فيما أعطى ، ومعناه أيضًا أنهم قوم جَمدوا على سياسة لا يحسنون غيرها ولا يفهمون الأشياء إلا على أسلوبها . وهو أخسُّ الأساليب ، ومعناه أيضًا أنهم يجهلون معنى خروجنا من أسر المفاوضات وارتفاعنا بقضية وادى النيل إلى مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة . ولو همْ نفوْا من صدورهم هذه الشحناء القديمة البغيضة لأدركوا موقف مصر والسودان حق الإدراك . فالأمم لا ترتفع إلى مجلس الأمن أو هيئة الأمم إلا فى القضايا التى تهدد السِّلم العالمى ، أى التى يخشى أن تجرّ إلى حرب مبيدةٍ بين الأمم ، فإذا ارتفعت أمتان إلى المجلس أو الهيئة لكى يحكم بينهما ؛ فمعنى ذلك أنهما قد بلغا مبلغًا يمكنُ أن يسمى « حالة حرب » كما يقولون اليوم ، وإذن فاحتكامنا إلى مجلس الأمن معناه أن ههنا « حالة حرب » يرادُ من مجلس الأمن أن يتداركها . فإذا كان ذلك كذلك فهل فى عقل عاقل أن تكون أمة فى ساعة أشبه بساعة حرب ، فإذا رجال من قادتها يقومون ليتنابزوا بالألقاب ويتكايلوا بالتهم ، ويتدافعوا بالبغضاء ، ويبسطوا ألسنتهم فى حديث الماضى الذى عفَّى عليه الزمن حين عفَّى على أسبابه وهى المفاوضات التى كان قوم يستأكلون بها كراسى الوزارات ومقاعد البرلمان ؟

ألا فليعلم هؤلاء جميعًا أننا لا نريد أن ننصر قومًا على قوم فما بنا إلى أحد منهم حاجة ، وأننا إنما نريد لهذا الوطن أن يخرج من المحن منصورًا مؤزّرًا ظافرًا بالحق المسلوب . إن مصر والسودان قد أعلنت على بريطانيا - باحتكامها إلى مجلس الأمن - مايمكن أن يسمى حربًا بغير سلاح ، فكل مصر سودانى هو اليوم جندى منوط به حراسة الثغرات التى يتدسس منها العدوّ الأكبر وهو بريطانيا ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا زعيم ولا تابع ، فأهل هذا الوادى جميعًا يدٌ واحدةٌ وسواسيةٌ كأسنان المشطِ فى التكليف الذى كلفوا به ، وعلى كل منهم أن يبذل ما وسعه من النصيحة والمشورة اللذين سيتولون الدفاع عن حق الوطن فى ذلك المكان الذى سنحتكم إليه .

وخيرٌ لأولئك الذين يقولون : إن فلانًا هذا لا يصلح لعرض القضية المصرية

السودانية على مجلس الأمن أو هيئة الأمم أن ينزعوا هذا الإفك من ألسنتهم فإنه مضَلة ومفسَدة وخذلان للوطن لا لفلان أو فلان ، وخير لهم أن يقضوا الليالى الطوال فى درس الحجج التى سنتقدم بها لإقناع رجالٍ يجهلون كل الجهل تاريخ النكبة البريطانية التى صبَّها الله على رأس مصر والسودان ، وخير لهم أن يستخرجوا آثام بريطانيا وضروب بغْيها فى مصر والسودان ، وفى الهند ، وفى فلسطين ، وفى سائر بلاد الشرق ليعرضوها جملة واحدة تصريحًا أو تلميحًا ليكشفوا لرجال مجالس الأمن عن فظائع بريطانيا وأفعالها البشعة منذ سلطها الله على هذه البلاد ، فإن أكثر التاريخ الذى يقرؤه هؤلاء مكتوب بأقلام بريطانية وأهواء بريطانية . وإلا فحدثونا مَن مِن رجال مجلس الأمن ، فضلا عن شعوب هؤلاء الرجال ، عرف ألوان الخساسات التى ارتكبت فى دنشواى ، وفى فلسطين أيام الثورة العربية ؟ إننا لن نذهب إلى مجلس الأمن وحده بالقضية المصرية السودانية بل سنذهب إلى كل فرد فى روسيا وأمريكا وسائر الشعوب المشتركة فى مجلس الأمن . وإننا لن نذهب بالقضية المصرية السودانية وحدها ، بل سنذهب بجميع قضايا الشرق الذى ذاق نكال بريطانيا أكثر من قرن ونصف قرن . إننا نريد أن نُدخل قضيتنا وسائر قضايا الشرق فى كل بيت وفى كل نادٍ وفى كل مصنع ، وفى كل مكان فيه إنسان يعقل - كما تفعل بريطانيا الغادرة بباطلها الذى تنفثه فى كل حنيّة من حنايا هذا العالم ، متظاهرة بأنها المدافعة عن الحق وعن الحرية وعن العدالة وعن رفع مستوى الشعوب !! ويا له من كذب لا يفله إلا الحق الأبلج [١] ! فأين نحن من هذا كله ؟ أين ؟ أفى البغضاء وتعداد المساوئ الماضية ، وبسط الألسنة فى المطوىّ من الأحداث القديمة ؟ إننا لن ننال شيئًا إذا فعلنا إلا الخزى والعار وعرض فضائحنا على أعين الناس !

إننا أيها السادة محاربون ، فافعلوا فعل المحاربين فى ساحة القتال ، لا فعل المتشاتمين على قارعة الطريق . واذكروا هذا الوطن ، فهو أحقُّ بالذكرى من ضغائنكم وإحنكم [٢] وثاراتكم . اجعلو هذه كلها دَبْرَ آذانكم وتحت أقدامكم ،

(١) الأبلج : الأبيض الواضح .

(٢) الإحَن : جمع إحْنَة ، وهى البغضاء .

فإن الوطن يأمركم بهذا فأطيعوه ولا تطيعوا داعى الشهوات وكراسى الحكم ومقاعد البرلمان فكلها عرض زائل ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وهى هى التى تتقدم إلى مجلس الأمن بقضيتها ، لا فلان هذا ولا فلان ذاك ؛ فالكلمة الآن لمصر التى أنتم أبناؤها ، لا لأحدٍ منكم على حياله . فأجمعوا أمركم ، ولا تحملنكم الكبرياء على تزييف القول إرضاءً لشهوات أنفسكم ، فإنكم إن فعلتم كِدْتم لبلادكم وأوطانكم وشرقكم كيدًا لا يكيده عدوّ حقود ولا شامت باغٍ لكم أهوال المصائب . وماذا تريد بريطانيا إلا اختلاف الكلمة وتفرّق الوحدة ؟ ألم تدركوا بعد ماذا كان يريد كهفُ [1] بريطانيا بيفن حين زعم أنه لم يعرف أنه أخطأ إلا يوم عزمت مصر والسودان على رفع قضيتها إلى مجلس الأمن ، فإنه زعم أنه أخطأ إذ أدار المفاوضات بينه وبين حكومة أقلية !! وياسبحان الله ! إنه لم يُرد من تلك الأكثرية التى يعرّض بها إلا أن تكون خصومة ولدَدًا على حكومة الأقلية ، وأن يستثير دفائن الأحقاد ويفتَّ من عضد الأمة التى سوف ترغمه وترغم بريطانيا على احترام إرادتها وحقها . فإن لم يكن فى الاتحاد والتناصر إلا قتل هذه الكلمة وما ترمى إليه ، حتى يحمل الرجل حسرتها إلى الأبد – لكان ذلك واجبًا مفروضًا وخيرًا مرغوبًا فيه . وكيف جاز فى العقول – أعنى عقول بعض الساسة – أن الأمر أمر حكومة أقلية أو أكثرية !! لا أدرى ، ولكنه كان .

ومع كل ذلك ، فالأمر كله تدليسٌ سخيف ، ففى البلاد المنكوبة المهضومة الحقوق ، لا رأى لأكثرية ولا أقلية بل الرأى للشعوب وللبلاد ، أى للشعب من حيث هو تاريخ ماضٍ وتاريخ حاضر وتاريخ مستقبل ، فحكومة الأكثرية لو هى خانت الأمانة وفرطت فى حقوق البلاد ومهرت ووقعت وأسلمت المقاليد وعقدت المعاهدات وأقرها البرلمان وأجاز كل ماجاء فيها من تفريط – فذلك كله باطل ، لأن الحق ههنا حق طبيعىٌّ متوارث فى البشرية كلها ، لا يغيّر رأى الأكثرية شيئًا من حقيقته وجوهره ، ولا تمتلك الدولة القائمة فى أرض البلاد المحتلة أو المهتضمة أن تتنزل عن هذا الحق لأحد ، فنزولها عنه عملٌ باطل من أصله .

---

(١) يقال : فلان كهفُ بني فلان : أي ملاذهم ووَزَرُهم .

وإذن فالذى يقيّد الأكثرية ، ويؤيدها هو حق الشعب وهى بحرصها على هذا الحق تسمى أكثرية لا بغيره . فلو جاءت الأقلية وفعلت مايدل على أنها حريصة على هذا الحق الطبيعى المتوارث الذى لا يمكن حكومة أن تتنازل عنه لأحد ، فهذه الأقلية بمنزلة الأكثرية ، لأنها هى المطالبة بالحق الطبيعى ، وهذا شىء بيّنٌ واضح ، اللجاجة فيه شهوة وعبث .

أو ليس عارًا أن يكتب المرء مثل هذا لقومٍ كان لهم جهاد فى سبيل بلادهم ؟ إنه لعار . ألم يكن لهؤلاء أسوة حسنة فى سورية ولبنان حين وقفت صفًّا واحدًا كالبنيان المرصوص ، على ماكان يومئذ من اختلاف أشد وأعنف من اختلاف رجالنا ؟ بلى قد كان .

أيها الرجال ! إن العالم كله ينظر إلينا ، وإن قلوب الشرق كله تخفق إشفاقًا علينا وحبًّا لنا ، وإن الأمم الجريحة التى مزّق الوحش البريطانى أوصالها قد كفَّت عن الأنين لتسمع صوتكم وهو يُدوِّى فى جنبات الأرض لتنسى عندئذ آلامها وأوجاعها ، وإن فلسطين – وآه لفلسطين – إن الجزع ليأكل قلوب أبنائها مخافة أن تزل أقدامنا ، وهم قد ناطوا بنا رجاء قلوبهم . فرفقًا أيها الرجال ولا تخذلوا شعبًا مجاهدًا كتب عليه أن يقاتل أنذال الأمم .

أيها الرجال ! لا يغرنكم هذا الوحش البريطانى ، فإنه يضرب بقوائمه وهو كالصريع فذَفِّفوا [١] عليه باتحادكم ، وأجهزوا عليه بتناصركم ، وانسوْا ما مضى وخذوا عُدَّتكم للذى سيأتى ، فإنه النصرُ لمصر والسودان بإذن الله مذِلِّ الجبابرة ، ومُرْغم الطغاة الغادرة ، وناصر الأمم المتآزرة .

* * *

---

(١) ذَفَّف على الصريع والجريح : أجْهز عليه .

إنه جهاد لا سياسة !

عجبتُ أشدَّ العجب حين قرأتُ فى الأسابيع الماضية خبر وساطة سورية ولبنان وغيرهما من بلاد العرب والتى أرادوا بها اجتلابَ التفاهم بين بريطانيا ومصر والسودان . ومعنى ذلك أن البلادَ التى دفعتها الغيرة والصداقة والقُربَى إلى هذه الوساطة ، تَعْنِى أو تظنُّ أو تؤمِّل أن تكون المفاوضةُ بيننا وبين بريطانيا خيرًا من الارتفاع إلى مجلس الأمن أو الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ، ليقضى بيننا فيما اختلفنا فيه !

وللعجب من مِثْل هذا الفِعْل وجوهٌ كثيرةٌ . فمن ذلك أننا ظللنَا نُفاوض هذه الدولة المتغطرسة سنين طوالاً مغرَّرِين بالمفاوضة ، فما أجدتْ علينا إلا ألوانًا من البلاء ، وعلمتنا ضروبًا من كَذِب الألسنة واحتيالها وخداعها ، وعرفنا أن بريطانيا تراوِغُ ما استطاعت المراوغةَ ، وتتجنَّى ما أطاقت التجنِّى ، ولا نكسبُ نحنُ من ذلك شيئًا إلا الفرقَة والتدابُر والتنابُذ والتشاتُم ، وهى كلُّها من مبيدات الأمم . نعم ، وكانت العبْرة التى لا عبْرة بعدها أن القوم الذين ظلُّلوا أكثر من خمسة وعشرين عامًا يُصرُّون على أن المفاوضة هى خير طريقٍ لاستنقاذ حقوقنا من الأيدى الغاصبة ، هم هُم القوم الذين عرفوا أن لا جدْوى من المفاوضة ، فقطعوها وآثروا أن يرفعوا الأمر إلى هيئة دولية تحكُم بيننا . هذا فضلا عن أن صريح الرأى ، وصريح الدلالة ، وصريح التجربة ، تُوحى جميعًا بأن بريطانيا لم تستفد قطُّ من شيء فى هذا الشرق المبتلى بها ما استفادت من مبدأ المفاوضة . فهو الذى أتاح لها فى مصر مثلاً أن تُطفئَ جمرة الشعب المصرى التى ظلَّت تتوهَّج فيما بعد سنة ١٩١٩ ، حتى صدق فيها قول المتنبى :

وكم ذا بمصر من المضحكاتِ ولكنه ضحكٌ كالبُكَى

فمن هذه المضحكات المبكية ، ما كان من تغرير المفاوضين الذين جاءوا

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧١٤) ، مارس ١٩٤٧ ، ص : ٢٧١ - ٢٧٣

بمعاهدة ١٩٣٦ ، والذين استطاعوا أن يصبُّوا فى آذان الشعب من الكلام الفاتن حتى احتفل بها احتفاله المذكور على أنها « معاهدة الشرف والاستقلال » !! ومن ذلك أن ترى شعبًا قد أُوذى وامتُهِن وحقّر على يدِ فئة من طُغاة العسكريين فإذا هو يحمل ممثل هذا الشعب بعدَ قليل على الأعناق ! ونحنُ لا نذكر هذا رغبةً فى ذكره ، ولكن الذين توسَّطوا ينبغى لهم أن يعرفوا هذه الفظائع التى أورثتنا إياها مبادئ المفاوضة وما يتبعُها .

ومن العجب أيضًا أن سورية ولبنان تعلم حقّ العلم ، وتعلم بالتجربة التى جربتها مع الفرنسيين ، أن المفاوضة لا تجدى ، وأنها لم تنلْ حقَّها إلا حين كانت يدًا واحدةً تطالب بحقها المغصوب ، فلم تقبل معاهدة ولا شروطًا ولا وعودًا تعد بها فرنسا ، وأصرَّت على ذلك إصرارَ الكِرامِ القادرين ، فإذا فرنسا تجلو بجيوشها جميعًا عن كل بقعةٍ من بقاعها ، وكل مكتب من مكاتبها . فالذين يعرفون هذا فى أنفسِهم ، إذا هم أتوْا خلافه أو أرادوا غيرهم على إتيان خلافه ، إنما يزيدون العجبَ عجبًا ولا ريبَ .

أما العجبُ فهو أن هذه الدول التى بذلت وساطتها نسيتْ موقف بريطانيا فى مسألة السودان كل النسيان ، وغفلت عن السرّ الذى دفع بها إلى إيثار التشدّد على المساهلة ، والصراحة على المواربة . وذلك أنها لا تريدُ أن تفصِل السودان عن مصر مُكايدةً لها أو انتقامًا منها ، بل لأنها لا تريدُ الجلاءَ عن مصر كلَّ الجلاء ، وهى تعلم أن السودان هو مصر ، فبقاؤها فيه هو بقاؤها فى مصر سواءً بسواء . ولكن بريطانيا لا تريدُ أن تفضح نفسَها بالإصرار على البقاءِ فى أرض مصر ، فاخترعت قصة الدفاع عن مصير السودان واستقلاله أو تهيئته للحكم الذاتىّ وأنه لابُدَّ لذلك من أن تبقى فيه حتى يتهيَّأ ويستعدَّ ، وأن تمنع مصر الباغية من العدوان على السودان !! وهذا كله تدْليسٌ بيِّنٌ ، وكنا نرجو أن يعرف المتوسِّطون حقيقة هذه المسألة على وجهها فيكفُّوا عن الوساطة التى تعودُ بنا إلى المفاوضة - أى إلى تعذيب الشعب المصرىّ السودانىّ سنين أُخَر ، وإلى بقاءِ العالم كله جاهلا بعدالة قضية مصر والسودان على وجهها الصحيح .

وأما أعجبُ العجبِ : فهو أنهم نسوا ما تُلاقى فلسطين على يد البريطانيين اليوم ، من إرخائها الحبْل لنذالة الإرهاب اليهودى ومعاونتها فى هجرة اليهود بأساليبها الخدَّاعة ، واحتمالها فى ذلك الأمر ما لم تكن تحتملُ قليلا أو كثيرًا من مثله حين ثارتِ العربُ على ظلمها وبغيها وعدوانها هى وأشياعها من يهود . وهل ننسى ، نحن العرب ، لم وعدت بريطانيا شُذَّاذَ اليهود الذين ضربَ الله عليهم الذلة والمسكنة ، بأن ينشئوا فى فلسطين وطنًا قوميًّا ، ثم معاونتهم لهم فى ذلك ، ثم إغضاءَها عن جشع اليهود بعد ذلك وطلبهم إنشاءَ « دولة يهودية » تقوم فى قلب الأوطان العربية التى تحيط بها من كل ناحية ؟

إن الوساطة لا تكون حقًّا إلا حين تتوسَّط بين شريفين كريمين يُحْسِنان تقدير الوساطة . فما الذى رأته سورية ولبنان وسواهما من الشرف والكَرم فى تاريخ بريطانيا فى بلادِ العرب حتى تركب هذا المركب الوعر ؟

الجواب : لا شىء ، بل النقيضُ هو الصحيح .

* * *

وأنا لا أكتب هذا عتابًا ولا ملامةً ، فأنا لا أشك فى أنهم جميعًا إنما أرادوا الخير ، وظنُّوا الخير ، وعملوا للخير ، ولكن غير ذلك كان أولى وأدلَّ على فهم الحقائق .

لقد وقعت الحربُ العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) فإذا الشعوب العربية فِرَق مقطَّعة بين الدولتين الباغيتين فرنسا وبريطانيا ، وكان رأى العرب مفرَّقًا ضائعًا فى فوضى الاضطراب الذى أعقبَ الحرب ، ومع ذلك فقد قامت الثورات فى كل مكان مطالبة بالحقوق الواضحة التى لا جدال فى وضوحها ، فأنكرتها علينا بريطانيا وفرنسا ، ولكنَّا مع ذلك ثُرْنا وبقينا نثور فى كلّ مكانٍ .

ثم جاءتنا الحرب العالمية الثانية ، فإذا رَأْى العرب مُجْتمعٌ غير مفرَّق كما كانَ بعد الحرب الماضية ، وبدأنا نثورُ فإذا الثورات قد خمدت بعد قليلٍ ، وإذا نحنُ نوشِكُ أن نتفرق بعد اجتماع . ولعلّ هذا رأى غريبٌ مع ما نرى من قيام الجامعة العربية ، ومن تصريحها فى مناسبات كثيرة بأنها تؤيد مطالب مصر

أو مطالب غيرها من الأمم العربية بالإجماع . بيد أن السبب الذى من أجله أخشى تفرُّق الكلمة هو ما رأيت من أمثال هذه الوساطات التى تردّ كلُّها إلى سبب واحدٍ ، هو أن الرأى العربيّ لم يدرُسْ القضايا دراسة مستوعبةً ، ولم يتخذ لنفسه خُطَّة بيّنةً واضحةً فى كل قضية . وأظنُّه لو فعل ذلك لنفى من قلبه خاطرَ هذه الوساطات بين أقوام العرب ، وبين الدول المتغطرسة التى لا أمانة لها ، ولا هدفَ لها إلا استعباد هذا الشرق بأساليب « مطابقة لمقتضى الحال » .

وإنه لأولى بنا جميعًا ، نحن العربَ ، أن نصارح بالعداء كلّ أمة من أمم الطغيان الاستعمارى ، وأن نحذرَ كلَّ الحذر مزالق السياسة وأساليبها الخدَّاعة ، فإننا أمم مجاهدةٌ ، وينبغى أن تظل مجاهدة حتى تنال حقها فى كل مكان ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . والمجاهد مُقاتلٌ ، لا صاحب سياسة ومُوَاربة ومداراةٍ ، فإن ضررَ هذه الثلاثة على الشعوب المجاهدة أكبَر من أن نَغْفُل عنه أو نتهاون فيه .

وأنا أتعجَّبُ أحيانًا : لماذا لا تتعاونُ الدول العربية جميعًا والدول الشرقية الخاضعة للاستعمار ، فتهبّ هبَّة رجل واحد ، وتقاطع هذه الدول الباغية ، وتقول لها : إنى لن أتعاون حتى أنالَ كلّ حقوقى كاملة غير منقوصة ! وهذا شيءٌ ليسَ بغريبٍ بعد قيام هيئة الأمم المتحدة التى يزعمون أنها أنشئت للمحافظة على سلام العالم ، والتى تنقض مبادئها كل حجة تقالُ فى مسألة مخافة العُدْوان على هذه الأمم بعد خروج الجيوش المحتلة من أراضيها ، ولو فعلنا ذلك ، وأبينا أن نُلْقى السَّلَم حتى تحلّ هذه القضايا الكثيرة التى عقَّدتها بريطانيا وأشياعها من الدول المستعمرة ، لكان قريبًا أن ننال كل ما نريد ، ولكان ذلك معوانًا للشعوب العربية والشرقية على الشُّعور بقوَّتها وعزتها واجتماع كلمتها ، ولكان ذلك وِقاءً لنا من أن نكون كما نحن الآن : خداعٌ يُراد بمصر ، وخداع يُرادُ بالسودان ، خداع يُراد بالمغرب ، وخداعٌ يرادُ بالهند وما جاوَرَها .

إنه ليس عجيبًا . بل الدلائل على صدقه وعلى صلاحه ما رأينا من نتائجه بعد قيام الجامعة العربية التى لا تزال فى أول نشأتها . فالجامعة العربية على قلة وسائلها

وقلة تجربتها ، قد جعلت العالم الغربى كله يتنبَّه إلى أن فى الدنيا شيئًا من القوة لا يَنفع فى الخلاص منه سلاحٌ فتَّاك ولا غطرسةٌ حربية . فإذا اجتمعت الكلمةُ فى الشرق كله ، وهبَّت الأمم الشرقية كلها مرة واحدة لاستيقظ العالم كله على صوت هذه الضجة المدوِّية ، ولطالبت الأمم الغربية نفسها بدراسة هذه المسائل المعقَّدة وفهمها على وجهها الصحيح ، لا على الوجه الذى ظلَّت بريطانيا وسواها من حكومات الاستعمار تعمل جهدها سنين مطاولة على تدليسه وبثِّه فى صحافتها وكتبها وإذاعاتها . فلا سبيل إلى ردّ هذه الأكاذيب جملة واحدة إلا بأن نشعر العالم جملة واحدة بما نريد ، فيتنبَّه ويستعدُّ للمعرفة ، فنتخذ عندئذ كل وسيلة إلى إفهامه عدالة قضايانا ، ونكشف له عن الأكاذيب التى أذيعتْ عليه من قبْلُ ، ونفضح أساليب سياسة الاستعمار فى تشويه الشعوب وقضايا الشعوب .

هذا رأىٌ ، وطريقة العمل له ميسرة وواضحة . وهو شىءٌ كبيرٌ ، ولكن صاحب الحقّ الذى يستهوِل الإقدام على بيان حقه بالأساليب التى ينبغى اتخاذها وإن عظمت ، لن ينال شيئًا إلا العجز ، وتراكم العجز بعد العجز ، ثم ضياع حقِّه إلى الأبد .

ولقد بدأت مصر والسودان تخرج بقضيتها عن محيط المفاوضة إلى الاحتكام إلى الدول الممثلة فى هيئة الأمم المتحدة ، فينبغى على كل عربى وشرقىّ أن يحرّضَها على ركوب هذا الطريق وإن شق مسلكه ، وينبغى على كل دولة عربية وشرقية أن تقف صحافتها وإذاعتها صفًّا واحدًا للجهاد فى سبيل مصر والسودان – أى فى سبيل فلسطين وليبية ومراكش والجزائر وتونس والهند وما وَالاَها ، أى فى سبيل الدفاع عن حقوق جميع الشعوب التى ذاقت مرارة الاستعمار ونكاله أجيالا أو أعوامًا . والعاقبة للمجاهدين الصابرين على لَأْوَاء [1] الجهاد وبأسائه .

* * *

---

(١) اللأواء : الشِّدَّة .

الخيانة العظمى ... !

كثرت لجاجة الصحف البريطانية ومراسليها فى مسألة مصر والسودان ، ولا تزالُ تلحُّ فى ترديد الأقوال التى تشكك فى عرض قضية الجلاء عن وادى النيل - مصره وسودانه - على مجلس الأمنِ أو أية هيئة دولية يكون من حقّها أن تنظر مثل هذه القضية ، ولم تزل هذه الصحف ومراسلوها يدسُّون كلمة « العودة إلى المفاوضة » دسًّا عجيبًا حيث يحتاج إليها الكلام وحيث لا يحتاج ، وهذه عادة قديمة وأسلوب عتيق كسائر أساليب بريطانيا فى الخُدَع التافهة التى تسمِّيها سياسة . ولسنا ندرى على أىّ أساسٍ يبنى هؤلاء المراسلون ، أو الموحون إليهم ، كلامَهم وثرثرتهم هذه . ولكن الشيء الذى لا نشكّ نحنُ فيه ألبتّة ، والذى ينبغى أن تعرفه بريطانيا ومن ترسلهم إلى مصر والسودان ليحملوا إليها أنباء هذه البلاد - هو أن الشعب المصرىّ السودانىّ قد قال كلمته منذ اليوم ، وقد قَضى على كل سياسىٍّ يخرجُ على إجماع الشعب بالخيانة العظمى كما تفهمها الشعوب - لا كما تفهمها الحكومات . وقد انعقد إجماع الشعب على اختلاف الأحزاب التى ينتمى إليها :

١ - بأن لا مفاوضة بيننا وبين بريطانيا بَتةً وقولا واحدًا .

٢ - وأن الجلاء كلمةٌ يرادُ بها أن تجلوَ بريطانيا عن وادى النيل لا عن مصر دون السودان .

٣ - وأن طلَب الجلاء ينبغى أن يعرضَ على هيئة دولية لها شرفٌ تخافُ أن يُثْلَم ، ولها مكانة تتحرَّج عن سقوطها فى أعين البَشَر .

٤ - وأن التجربة قد دلَّت على أن بريطانيا خِلْوٌ من هذين الشرطين ، وهما شرطان لابُدَّ منهما لمن نرتفع إليه بقضيتنا أو من نفاوضه فيها .

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧١٦) ، مارس ١٩٤٧ ، ص : ٣٢٧ - ٣٣٠

٥ - وأن كل دعوةٍ يُراد بها أن نعود إلى المفاوضة فى حقٍّ من الحقوق المكفولة لسائر البشر ، ليست إلا خيانة توجب على مُرتكبها ما توجبه سائر الخياناتِ من قصاصٍ .

٦ - وأن مصروالسودان أمةٌ واحدة ، سوف تتولى بنفسها عقاب كل خائن .

هذا مختصر ما ينبغى لبريطانيا وساستها أن يعلموه علم اليقين .

أما مراسلوها وجواسيسها الذين كُلِّفوا بأن يحملوا إليها الأنباء التى تهتدى بها فى سياستها التى تخصُّ مصر والسودان فقد كذبوها أفحش الكذب ، لا لأنهم يريدون الكذبَ على أُمَّتهم البريطانية ، كلّا ، بل لأنهم جهلوا كلَّ الجهل طبيعة الشعب المصرى السودانى ، وخدعتهم الظواهرُ عن حقيقة النار المضطرمة فى أحشاء مصر والسودان ، منذ استيقن شعب مصر والسودان أنّ بريطانيا أمة من أخلاقها الغَدْر والوقيعة وإخلاف الوعدِ والتلوُّن فى ألفاظٍ من بهرج الكلام وزائفه ونحن لن ننصبَ أنفسنا لإفهام هؤلاء القوم ما طبيعة شعب مصر والسودان ، ولكنَّا سنحدثهم عن مسألة المفاوضة نفسها كيف كان من أمرها ، ولهم بعد ذلك أن يحكموا بما يشاؤون ، فإن إخراجَ الغُرور من رأسِ المغرور أعسر من ردّ النور إلى عيْنَى الأكمه [١] ؛ ولا سيَّما إذا كان غرورًا بريطانيًّا متغطرسًا .

ففى أوائل القرن الماضى قام فى مصر فتىً ينادى فى جنبات هذا الوادى : « بلادى ! بلادى » فهبَّتْ مصر والسُّودان تتلفَّت مستجيبة لهذا الداعى النبيل الصوت ، الحبيب النداء ، القوىّ الإيمان . لقد كانت مصر والسودان هى التى تنادى مصر والسودان ، فهى دَمُه ، وهى أعصابه ، وهى نفْسه ، وهى جنانه ، وهى لسانه ، وهى حقيقته التى صار بها هذا الفتى يُدعى بين الناس « مصطفى كامل » . ثم أوحت مصر والسودان إلى فتاها أن يقذفَ فى وجه بريطانيا ذاتِ البأس بكلمتها الخالدة : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، لأَن حقيقة مصر والسودان المستقرَّة فى بنيان هذا الفتى كانت تعلم من سرّ ضميرها أن هذا هو الحق ، وأما كلّ شىء

(١) الأكْمَه : الذى يُولَد أعْمَى .

سواه فباطلٌ وقبضُ الريح ، كما قال سليمان . نظرت مصر والسودان إلى هذا الفتى الضئيل المعْرُوق وهى تبكى من فَرْطِ لهفتها وتخوُّفها ومن فرط ما كانت تشعرُ به يومئذ من العجز الذى استهلكها وأثقلها عن أن تكون مثله توقُّدًا ونشاطًا وقوة وحياةً ، ولكنها آمنت به ورضيتْ عنه وجعلت دمعها شهادةَ الإيمان بحقّه وحقّها الذى أجراه الله على لسانه

ونجمت يومئذٍ فئة من خلق الله الذين شاءَ برحمته وحكمته أن يجعلَ مصر والسودان لهم منبتًا ومَباءةً كما جعلها منْبتًا ومباءةً لسائر الهوامِّ وخَشَاش الأرض وهَمج الجوّ ، وقامت بريطانيا تتعهَّد هذه الفئة وتغذُوها وترضعُها من دَرِّها بُغيةَ أن تشتدَّ فتكون سباعًا وجوارحَ وأعوانًا لها على الفتك بهذا البلد الأمين ، وماهو إلا قليلٌ حتى خرجَ منها خلقٌ يعْوى فى وجه الفتى وينبَحُ ويهرُّ هريرًا لا ينقطعُ ، ولكن مصر والسودان أبتْ إلا فتاها فأطاعتْه وأنكرت تلك الفئة التى نبتت أبدانها على شىء غير نيلها وتربة هذا النيل .

ثم قبض الله إليه فتى مصر والسودان ، فخرجت مصر والسودان فى جنازته تبكى الصوت الذى ردَّد الكلمة الخالدة المنبعثة من سرّ أحشائها : « بلادى ! بلادى ! لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، خرجت مصر والسودان حتى سباعُ بريطانيا وعُواتها ونُبَّاحُها يبكون أيضًا ، لأن فى دمهم شيئًا من مصر كان يحنّ بهم إلى صوت بلادها ومأتمها ونواحها .

بقيت مصر تذكُر فتاها ، وتسمع صدى كلماته من حيثما تلفَّتت ، حتى جاءت الحرب العالمية الأولى وخشعتِ الأصواتُ لهدّ القنابل ودوى الرصاص ، فما كاد يسكتُ ناطق الحرب حتى انبعثت مصر بالقوة الدافعة التى جيَّشَها فى قلبها هذا الفتى الشاب ، وصرخت فى وجه بريطانيا الظافرة : « حقّى ! حقّى ! أيتها الغاصبة » . لم تَهبْ بأسها ولا سطوتها ولا جبروت الظفر المسكِر الذى ثملت بنشوته .

ثم كان شىءٌ لا ندرى كيف كان !!

كان منطق الحوادث يقضى بأن تردّد هذه الجماهير الثائرة كلمة مصر والسودان الخالدة : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، ولكنها اقتصرت يومئذ على

ما يتضمن ذلك النداء الحكيم الذى نادى به فتى مصر فجعلت تقول : « الاستقلالُ التامّ » ، وخرجت بريطانيا تُقتّل بالرصاص جمهورًا ثائرًا مطالبًا بحقه مستبسلا فى سبيله ، فكلما انطلقت رصاصة انطلقت معها صيحةٌ واحدة من حناجر أمة بأسرها : « الاستقلال التام » ، فكأنها رأتها تغنى عن كلمتها : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » . فهما عندها كلمتان مترادفتان .

وألحّت بريطانيا فى التقتيل والفتك والعُدوان والبغى ، وألحت مصر والسودان فى الجرأةِ على باطل بريطانيا مطالبة بحقها وهو « الاستقلال التام » ، ولم يكن يدورُ بخلدها شىء إلا هذا النداءُ وحده ليلا ونهارًا وبكرة وعشية ويومًا بعد يوم ، ولم يكن يجرى فى وَهْم الشعب الثائر المطالب بالحق أنَّ أحدًا سوف يقول : تعالى أفاوضكِ يا بريطانيا ! فيَحذر عندئذ حذره ويعود إلى ندائه الأول الذى هو الكلمة المستكنة المضمرة فى دَمِ هذا الشعب الذكىّ على قلة علمه ، القوى على ضعفِ حيلته .

ثم كانَ شىء لا ندرى كيف كان !!

كان زعيم هذا الشعب الثائر « سعد زغلول » ، وكان رجلا شيخًا ، ولكن ناهيك به من شيخ ، وكان خطيبًا حسبُك من خطيب ، كان يسمعُ الهمهمة التى تدور فى دم الشَّعب ولا تجد لها بيانًا ، فيصوغ لها بيانًا من عنده ويلقى به إلى الشعب فإذا هو يسمعُ كل ما فى ضميره مترجمًا فى ألفاظٍ حية تتردَّد فى أذنيه . وفُتِن الشعب بسعدٍ ، بلسانه الذى ينطقُ بأسراره التى تتحيَّر فى دمه ولا يعرفُ كيف يبينُ عنها ، وأسلم القياد لرجل يهديه ويرشدهُ ويعبِّر عنه ، ويلطم بشيخوخته الوقورة الصاحية شبابَ بريطانيا الظافرة الطائشة السَّكرى براحِ النصر .

ثم كان شىء الله يعلم كيف كان !!

فإذا هذا الشعب المأخوذ بسعد ، الفائر بالثورة فى طلب حقه المتَهَجّم على بريطانية العاتية ، المائج من منبع النيل إلى مصبه يطلبُ الحرية من قيوده وآصاره [1] فتتلقَّاه أسنّة الرماح البريطانية ويتخطّف أرواحه رصاصُ الوحوش ذاتُ

---

(١) الآصار : جمع إِصْر ، وهو الثِّقَل ، وما يقعد بالإنسان فلا يستطيع حِراكا .

المدنية العريقة منذ كان أرسطو إلى هذا اليوم !! إذا بهذا الشعب المنادى بالاستقلال التام يسمعُ دعوةً إلى مفاوضة بريطانيا لا يدرى أحدٌ كيف جاءت وكيف تدسست إليه ، وإذا سعدٌ هو المفاوض ، فمشت مصر فى آثار زعيمها ثقةً به وتسليما لهُ ، ورجتْ لحكيمها الشيخ أن يرتدَّ إليها باستقلالها التام ...

كان هذا ولا يدرى أحدٌ كيف كان !!

ولكن بقيتْ فى مصر والسودان بقيَّة لم تزلْ تسمع صدَى كلماتِ الفتى الأوَّل ، فهبَّت تصرُخ فى وجه الشعب المطالب بالاستقلال التام !! حذَار حذارِ ، وألحَّت فى صراخها ولكن مات صوتها فى دوىِّ الأصوات المطالبة بالاستقلال التام ! وفى موْج الجماهير ، وفى أزيز الرصاص وهديره وقصفه . وأخيرًا وقف رجلٌ يسخر من كلمة مصر الخالدة : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » سُخريةً لاذعة ملفَّفة فى ثوب الدُّعابة المحبَّبة إلى هذا الشعب منذ قديم الأزمان ، والذى يُدَاعب ويحب الدُّعابة ولا ينساها وهو فى حبل المشنقة ، أو فى سياقِ الموت . وكانت هذه الدُّعابة أفْعَل من رصاص بريطانيا وحِرَابها ونذالتها جميعًا فى قتل كلمة مصر والسودان : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، حتى صار من يقولُ بها معدودًا عند أصحاب العصبيات الجاهلية فى عداد المجانين والموسوسين والبلهِ والملاحيس .

نعم كان ذلك ولكن لا ندرى كيف كان !!

ولكن بقى شيءٌ واحدٌ جهلته بريطانيا وجواسيسُها ، وجهله كل مِفراحِ طيَّاش من أصحاب العصبيات الجاهلية التى غلبت على قلوبهم وأعمت أعينهم . ذلك الشيء الواحد هو أن المفاوضات ظلَّت تجرى منذ بدأت إلى أن كانت سنة ١٩٣٦ ، والشعب يتبَعُ المفاوضة بقلبه عسى أن يرجع إليه الرجال المفاوضون بحقِّ مصر كاملا غير منقوصٍ ، وهو من ورائهم يدفعهم دفعًا رجاء أن ينفعهم ذلك فينتفع بنفعهم . ولكن ... ولكن مرة أخرى ، وفى الثالثة كان الشعب يفعل ذلك مجتمعًا ، فلو سألتَ كل رجل وكل أنثى وكل طفل أيضًا : « هل ترجو من وراء هذه المفاوضات خيرًا ؟ » فهو قائل لك : « يا سيدى ، ياما جرَّبْنا » ثم يمضى لشأنه يائسًا تكادُ دماؤه التى تجرى فى عروقه تبكى من الحسرات التى تقطِّع قلبه وتنهش ضمير حياته !

هكذا كانت مصر والسودان برغم المفاوضات الدائرة ، وبرغم مطالبة الشعب مجتمعًا أحيانًا بهذه المفاوضة . كانت الدّماءُ تجرى فى الأبدان المصرية السودانية وتُهَمْهِم وتدمدمُ ، ولكن الرجُل الذى يفهم معنى هذه الهمهمة الخفيّة لم يكنْ موجودًا ، وهى لا تستطيع العبارة عن نَفْسها بلسان ناطقٍ مبين . وبقينا جميعًا ننظُر ، لأن عبارة أمثالنا لن تؤدّى إلى شىء ، إذ لم يكن لأحدٍ يومئذٍ من قوة الاستجابة لنداء الدم المصرى السودانى ، ولا من استعداد الأبدان والعقول التى تجرى فيها هذه الدماء ، ما يجعَل لكلمة مصر الخالدة « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » صدًى يتردّدُ فيستجيب له الوادى كُلّه كما استجاب للفتى الأوّل مصطفى كامل ، وبقيت الأبدانُ العاقِلَةُ (والتى هى الشعب بأفراده) فى ناحية ، والدّم الذى يجرى فى هذه الأبدان نفسها فى ناحيةٍ أخرى – وجعلَ الله بأسَنا بيننَا ، فكانت إرادة الله ولا رادّ لما أراد .

ثم كان شىءٌ ونحن ندرى كيف كان .

فقد سكنتْ زمجرة المدافِع ، وعجيج القنابل الذرية ، وقامَ رجالٌ يريدون مفاوضة بريطانيا ، ولكنهم لم يلبثوا إلّا قليلًا حتى سمعوا صوت الدَّمِ المصرى السودانى ينطقُ من كُلّ ناحيةٍ « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » فتمّت المعجزة التى كان كل امرئ يترقّبها ، وكان لمصر والسودان النَّصْر بعد الهزيمة المنكرة الأولى ، وظهرت كلمةُ الحقّ حتى صار أكفَرُ الناس بها هو أشدَّهم إيمانًا ، وأجودَهم فى سبيلها بروحه وحياته ، وعادت مِصْر والسودان إلى حقيقتها المستكنّة فى سِرِّ القلوب والدماءِ والأحشاءِ ! « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » : كلمة حكيمة صريحةٌ قويّة ، ظاهرة المعنى ، بيّنة الطريق ، كريمة المنْبت لأنها بنت مصر والسودان – لا يسخرُ بها بعد اليومِ أحدٌ إلا كان دَمُه هو أوّل من يسخرُ منه ويزدريه ويلعنُه ويبرأ من الانتساب إليه .

هذا ما كان من أمر المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ، فليفهمه من شاء كما شاء . وليقُل أصحاب الغرور المتغطرس ، وليقل أشياعُهم من المضللين : هذا شعرٌ ، وهذه عاطفةٌ ، ولكنّها ليستْ بحقيقة معقولة أو تحليل متّزنٍ . ونقول :

نعم ! إذا شئتم ، ولكنّ الشعوبَ هى العواطف أوّلًا ، وعواطف الشعوب أصدقُ حُكْمًا من عقول الساسة !

وأخيرًا ، ليعلم من لم يكن يعلَم من المتغطرسين أو من الساسة العقلاء الذين أظلّتهم سماءُ مِصْر ، أن دم الشَّعب قد نطقَ بالكلمة المتحيّرة فيه ، وأجمعَ عليها ، وكتبَ على نَفْسه أن يَنْفِى الخبثَ عن مصر والسودان . ومعنى ذلك أنّ كل من خرج على إجماعه فقد خانَ وادى النيلِ خيانة عُظْمى ، وأنّه رهنٌ بالقِصاصِ ، وأن قصاصَ الشعوب أبقى على وجه الدهر من قصاص الحكومات .

والكلمة الآن لِمِصْر والسودان ، لا لفلان الزّعيم ولا لفلان السياسىّ – فمن شاء أن يخالف عن كلمة مصر والسودان فليتقدّم ، ولينظر ما هو لاق فى غد أو بعد غدٍ .

* * *

الجلاءُ الأعظَم

أكتب هذا وكُلّ ذرةٍ فى ثَرَى مصر وفى جَوّها وفى مائها تَتَلَفَّتُ حوَاليها لتنظُر إلى الضجَّة التى خفقت فى جَنَبات الأرض المصرية لليوم المشهود - يوم الجلاءِ عن مُدُنِ الوجهين القبلى والبحرى إلا ما استثنته بريطانيا غصْبًا وافتئاتًا . نعم هو الجلاءُ - جلاءُ الجندى المتغطرس الذى كان يمشى على أَديم مصر تيَّاها مستكبرًا متعاليًا ليذلَّ الشَّعب الذى احتقره وازدراه على قوّته وعلى سلطانه ، ولم يعبأ به وَلا بثيابه ولا بكبريائه . وكيف يفعل ذلك وهو الشعب الفقير الذى يسير فى الطريق حافيًا فى أسمالٍ ؟ وكيف يفعل ذلك وهو الجاهلُ الذى لا يقرأ ولا يكتبُ ولا يعلمُ من أمر الدُّنيا إلّا ماحضر بين يديه ؟ وكيف يفعل ذلك وهو الشعب الذى هَزَمته بريطانيا فى موقعة التل الكبير سنة ١٨٨٢ ، ثم انساحت جيوشها فى أَرضه تأخذُ ما تأخذ وتدعُ ما تدعُ وهو ساكنٌ قارٌّ راض بالمذلّة التى كتبها اللّهُ عليه ؟ هكذا كانَ يمشى كل جندى بريطانى على أرضِ مصر هو يحدّث نَفْسه بهذا كله ، والمصرىّ ينظر إليه نظرةً ليس فيها الحقد ولكن فيها الاحتقار ، ويبتسم إليه ابتسامة ليس فيها الرضى ولكن فيها السخريةُ ، ويصافحه مصافحة ليس فيها الترحيب ولكن فيها الإيمان بأن الذى أَمامه إنسانٌ مغرورٌ يظنُّ أن الدنيا باقيةٌ له ، وهى الدنيا التى تداولتها من قبله القرون والأُمم فزالوا وبادوا ، ونالها من بعدهم من كانوا لهم تبعًا أو عبيدًا .

هكذا كان ينظر الشعبُ الجاهل الفقير المهزوم بزعمهم نظرة الفيلسوف الذى قَنِع بما عنده فاستغنى عما عند الناسِ ، شعب فقيرٌ ولكنه عزيزٌ ، شعب جاهل ولكنه مؤمنٌ ، شعب مهزوم ولكنه مترفعٌ عن دنايا الأَخلاقِ .

* * *

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧١٨) ، إبريل ١٩٤٧ ، ص : ٣٨٣ - ٣٨٥

نعم هذا الجلاءُ ، ولكن هل يقنع هذا الشعب به ؟ وهل يزيلُه الفرحُ بما تمَّ عن الهدَفِ الذى رَقى إليه ؟ إنّ بريطانيا قد عَلِمَتْ أن لا قِبَل لها بإبقاء جنودها مفرقةً فى مُدُن مصر فتكون قَذى فى العيون يحدث آلامًا تنبه النفوس يومًا بعد يوم إلى عُدْوانها وبغيها ، فآثرتْ أن تحمل جنودها وتجمعهم فى مكانٍ بعيد عن عيون الشعب ، تريدُ أن تجعل مثل هذا العبث مِنَّةً يحملها الشعبُ المصرى ، فيكفَّ عن مطالبتها وعن كشف عيوبها وسيئاتها وخَبثها . فلما رأت أن هذا الشعب العجيب قد فرح بجلائها عن بعض أرضه ، ولكنه لم يكفَّ عن مطالبتها ، ولا عن إماطة اللثامِ عن رذائلها ، قامت صُحُفها تزعم أن الصحف المصرية قد شنّت على بريطانيا « حملة سِبَاب » فى نفس المكان الذى أشارت فيه إلى مسألة الجلاء إشارة عابرة . وهذا دليلٌ على أن موقف الشعب قد غاظها غيظًا شديدًا وأنها كانت تؤمل أن تخدعنا بهذا الجلاءِ من أماكن فى أرض مصر إلى مكان واحد حصين فى أرض مصر أيضًا ، فلما كان غير الذى أرادت زعمت أنها « حملة سباب » .

ومن الذى يسبُّ ؟ أمصر المسكينة التى احتملت وقاحة جيوشها وقوّادها منذ سنة ١٨٨٢ ، وصفاقة رجالها الذين جاءوا ليحكموا هذا الشعب بالقوة والبطش من أمثال كرومر وكتشنر واللنبى ولويد ومايلز لامبسن ؟ أهى مصر المسكينة التى تسب اليوم بريطانيا وقد سمعت سفاهة الصحافة البريطانية على شعبها وهو يوصف بالرعاع ، وسباب الصحف البريطانية للطلبة المصريين الذين كانوا يخرجون من مدارسهم للجهاد فى سبيل وطنهم وبلادهم

إن مِصر حين تصف أعمال بريطانيا بالسفاهة والوقاحةِ والصفاقة - لا تسب بل تقرر حقائق وتسميها بأسمائها التى خلقت لها ، ولم تخرج فى ذلك عما وصفها الرجال المحايدون الذين وقفوا ينظرون إلى أعمال بريطانيا فى مصر والسودان . فالشعب المصرى لا يسب بريطانيا وإنما تسبُّها أفعالها وأفعالُ رِجالها . وإذا أرادت بريطانيا أن لا تسمعَ المسبّة من الشعب المصرى ومن سواه فى أقطار الأرضِ ، فلتقلع عن سياستها التى توجب لها هذه الصفات ، والتى تدفع

أممًا كثيرة غير مصر والسودان إلى أن تصفها بأشد مما وصفتها به مصر والسودان .

والعداوة التى بيننا وبين بريطانيا قائمة ما بقى فى أرض مصر من منبع النيل إلى مصبه جندى بريطانى واحد ، ولن نكفّ عن عداوتها وعن ذكر سيئاتها إلا إذا جلت جلاءً تامًّا عن كل مكان انتزعته من بلاد مصر والسودان بالكذب والمكر والخديعة والتدليس ، ولن تكفّ ألسنة مصر عن وصف أعمالِ بريطانيا بأسمائها التى خلقت لها إلا إذا كفّت هى عن عُدوانها وأعطت كل ذى حق حقه . إنها عداوة باقيةٌ بيننا وبينها حتى تدعَ لنا أرضنا ، وتدع للعراق أرضه ، وتدعَ لفلسطين العربية أرضها ، وتقاوم معنا كل باغٍ أعانته هى فيما مضى على بغيه وعدوانه ، كالذى كان من أمرها فى مسألة تونس ومراكش والجزائر وليبية وبلاد إفريقية التى أطلقت فيها يَدَ فرنسا وإيطاليا ليطلقوا لها يدَها فى مصر وفى سوى مِصر .

بل إن جلاء الجنود البريطانية لن يكفى وحده أن يكون مَدعاة لنسيان تاريخ بريطانيا وأفعالها ، لقد دخلت بريطانيا بلادنا وبلاد سوانا ، فاستعانت بشذاذ الأمم الذى لا يجدون فى بلادهم ما يأكلون ، وجاءت بهم إلى مصر والسودان وكل أرض كتب الله عليها أن تبتلى ببريطانيا وسياستها الاستعمارية ، وحمت هؤلاء الشذاذ وشدت أَزرهم وملكتهم الأموال والأرزاق ، ونفخت فى قلوبهم كبرياءَ الحقيرِ الذى علا بعد ضعةٍ ، ومدت لهم مدًّا طويلا حتى صاروا سادة علينا وهم يأخذون ما فى أيدينا - أى يسرقون ما فى أيدينا . أتت بالشذاذ من كل أمة وجعلتهم جاليات وأقليات وفرضت على نفسها حمايتهم فيما تزعم ، واستنكفت لهم أن يتقاضوا فى محاكم البلاد التى آوتهم بعد تشرد ، وميزتهم عن أبناءِ البلاد فى كل شىء حتى فى معاملاتها التجارية ، حتى صارت لهم قوة المال وفجور المال وطغيان المال ، فعاثوا فى الأرض فسادًا ، يفسدون بيوتنا ، ويتعالَوْن عنا ، ويحتقرون أبناءنا ورجالنا ، ويسخرون من آدابنا وعقائدنا ، ويطعنون فى أخلاقنا ، ويشتموننا فى الطرقات وهم فى حمى بريطانيا ذات المجد والشرف !!

وأكبر من ذلك أنها حَمت هؤلاء الشذاذ حماية أخرى ليكونوا لها جنودًا فى

ثياب مدنية ، فأقطعتهم المدارس ينشئونها حيث يشاؤون ، وجاءت بدنلوب ليضرب التعليم المصرى ضربات قاضية لا تزال إلى اليوم باقية لا تدرى وزارة المعارف كيف تخلص منها . وإذا هذه المدارس تأخذ أبناءنا من بيوتنا ، فتضعهم بين جدرانها ، وتنفث فيهم سمَّها ، وتحقِّر لهؤلاء الصغار بلادهم وأهلهم ، وتمتهن لغتهم حتى كانت تمنع طلبتها عن أن يتكلموا بالعربية بتة ، ولا فى أوقات الفسحة ما بين الدروس ، فإذا فعل ذلك طفل منهم عوقب أشد العقاب ، وداروا به على الفصول كأنه مجرم قد ارتكب أشنع جريمة يعاقب عليها القانون . وبقيت بريطانيا الممثلة فى دنلوب ونظام دنلوب ورجال دنلوب تحمى الوباء وهذا البلاء حتى استفحل ، وخرج جيل من أبناء مصر نفسها ينظر إلى بلاده كأنها أرض غريبة يحتقرها كما رأى أن الأجنبى يحتقرها ، وكما رأى زميله الأجنبى يزدريها .

وأكبر من ذلك أيضًا أنها أخذت هؤلاء المساكين الذين أضلّتهم مدارسهم الأجنبية فآوتهم ونصرتهم ثم مكّنت لهُمْ وصاروا لها أشياعًا يثنون عليها ويفضلونها على سائر أهل الأرض وعلى أهل بلادهم . واتخذوا لذلك كل أسلوب يدل اتخاذه على أن بريطانيا لا تتورع عن أن تجعل أخسَّ الطبائع البشرية والشهوات الإنسانية سلاحًا تقاتل به الشعب الذى اعتدت عليه واستبدت به . فصار الشعب المصرى يسمع مصريًّا مثله يبسط لسانه فى تاريخ شعبه وفى أخلاق شعبه غافلا عن السبب الأول الذى كان داعيًا إلى انهيار هذا الشعب ، ألا وهو بريطانيا وشُذّاذها .

فكل هذا وكثير سواه كان احتلالا أدبيًّا ضرب على مصر والسودان كما ضرب عليها الاحتلال العسكرى ، فنحن لن نكتفى بأن يزول الاحتلال العسكرى بجلاء الجنود ؛ بل لابد من إجلاء ما ورَّثناه الاحتلال العسكرى من نُظم ومن شيع ومن عادات ومن أخلاق ؛ حتى لا يكون المصرى والسودانى غريبًا فى بلاده ، مُمْتَهَنا فى أرضه ، مضروبًا بالفقر والجهل والهزيمة فى دياره .

ذلك هو يوم الجلاء الأعظم : يوم يعود إلينا أخونا المصرى السودانى المقيم فى بريطانيا « يعقوب عثمان » ليقول لبلاده إنى أخطأت فاغفرى لى زلتى

وتجاوزى عن خطيئتى ، ويوم يخلع الشباب المصرى السودانى من فتيان وفتيات كل الزينة التى أضفتها عليهم مدارس الليسيه الفرنسية ، وفكتوريا الإنجليزية ، والمدارس الأمريكية ، ويخرجوا إلى أهليهم خاشعين خاضعين نادمين يعتذرون من الآثام التى ألموا بها أو قارفوها فى حق بلادهم وفى حق آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم وأسلافهم وأعقابهم .

بل يوم يخرج المهدى عن أمواله لمصر والسودان ، ويعفّر وجهه فى ثرى النيل الأعظم ، ويستغفر الله مما كسب من الإثم فى حق مصر والسودان ، أرض آبائه وأجداده ، بل فى حق أبيه الذى لم تتورع بريطانيا عن إهانة عظامه وهو ميت لا يملك دفعًا عن نفسه .

إنه يوم الجلاء الأعظم - يوم يقف كل مصرى سودانى أيامه وساعاته للتكفير عما فرط منه ، ويوم يعمل جاهدًا فى إزالة كل أثر للاحتلال فى نفسه ، ويوم يخرج إلى الطريق ليميط الأذى عنه استعدادًا لمقدمِ الأجيال الحرة التى ترث أرضًا طاهرة لم تلوثها غفلة القرون الماضية أو ضعفها أو استكانتها أو رضاها بالذل والمهانة طمعًا فى مال زائل ومجد حائل .

إنه يوم الجلاء الأعظم ، يوم لا يسمع ثرَى مصر لسانًا أعجميًا من أهله أو من غير أهله ينطق بغير اللغة التى ينطقها الشعب المصرى السودانىّ ، ويوم لا يخرج المصرى السودانىّ فتتحداه تلك الطوائف من شذّاذ الأمم ناطقة بغير لسانه وساخرة من لسانه .

إنه يوم الجلاء الأعظم ، يوم يستطيع المصرى السودانى أن يقف على ثرى أرضه مطمئنًا لأنه حرٌّ من أحرار ، وينظر حوله متلفتًا يمنة ويسرة فلا يرى إلا وجوهًا عربية وبلادًا عربية تضم الأحرار أبناء الأحرار .

* * *

نحن العرب ...

إنى لأسألُ نفسى ، كما يسألُ كل عربى نفسه : « إلى أين يسار بنا تحت لواء هذه الحضارة البربرية الحديثة ؟ » وجواب هذا السؤال يقتضى العربى منا أن يلمح لمحًا فى طوايا النفوس وخبايا السياسات ، ويقدمَ الحذر بين يديه ، ليكون على بينة من رأيه ومن مصيره أيضًا . ولعل القارئ قد فوجئ لإقحام هذا الوصف للحضارة الحديثة بأنها حضارة بربرية ، ولكن لا يعجل بالعجب مما لا عجب فيه فإنه حق بيّن لا تخطئه العين البصيرة .

نعم ! إنها حضارة لم يوجد لها مثيل بعدُ فى التاريخ كله منذ كان آدم إلى يومنا هذا . حضارة قد نفذت إلى أسرار المادة فكشفت عنها كشفًا يسّر للبشرية أن تقبضَ على زمام الحياة وتصرِّفها فى حيث شاءت وإلى حيث تريد ، وجعلت الإنسان يشعر شعورًا لاخفاءَ فيه بأنه قادر على أن ينشىء التاريخ إنشاءً ، ويبنى الوجود بناء جديدًا ، ويملأ ظلام الليل وضياء النهار حياة وقوة وجلالا ، وينفث فى الأشباح روحًا ويكسوها لحمًا ويعطيها من مقدرته ما يجعلها كائنًا متصرفًا بشىء أشبه بالعقل والإرادة . ونعم ! إنها حضارة قد قامت أركانها على علم جم يعجز المتأمل عن إدراكه وبلوغ آفاقه ، علم تدسس إلى ضمير الأرض والسموات فاسترق السمع إلى نجواه وإلى خواطره فقبس منها قبسًا مضيئًا أنار ظلمات هذا الوجود الذى لا يعلم ما انطوى عليه إلا الله الذى يعلم الخبءَ فى السموات والأرض . ونعم ! إنها حضارة أزرت بالحضارات كلها وجعلتنا نشعر بالقوة التى طواها الله فى هذا « العالم الأصغر » حتى مكن له أن يكون سيد « العالم الأكبر » غير منازع .

نعم : إنها حضارة مجيدة عاتية ، أحيت الإنسانية ورفعت شأنها ، ولكنها على ذلك كله حضارة بربرية طاغية قد امتلأت فسادًا وجورًا وحماقة وفجورًا ،

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٠) ، إبريل ١٩٤٧ ، ص : ٤٣٩ - ٤٤١

حضارة بربرية رفعت الإنسانية من ناحية العقل ، ولكنها قتلت ضميرها ومزقت شرفها ، وجعلتها تشعر بقوة غير شريفة ولا صالحة ولا أمينة فى أداء حق الإنسانية عليها .

والعربى منا إذا نظر اليوم فينبغى أن ينظر أولا إلى هذه « البربرية » من الناحية التى لها مساس به وبحياته وبتاريخه على هذه الأرض ، ليعلم إلى أين تريد هذه الحضارة أن تسوقه ؟ وأى بلاء تريد أن تبتليه به ؟

إن تلك الدول التى صارت دولا فى تاريخ هذه الحضارة البربرية وبمعونتها تريدنا على أشياء وتريد بنا أشياء لابد لكل عربى أن يراها بعين لا تغفل . هذه الدول التى ادعت ولا تزال تدعى أنها خاضت غمار الحرب المبيدة الثانية دفاعًا عن حرية البشر فى الحياة ، وعن رفع مستوى المعيشة فى هذه الأرض ، ترتكب كل يوم من ضروب الخيانات والغدر والنذالة ما لم يشهد التاريخ مثله ، كما لم يشهد مثل حضارتها هذه البربرية .

هذه أمريكا وبريطانيا وروسيا وفرنسا جميعًا ولا نستثنى تزعم كل يوم أنها تغضب للحق ، حق الناس فى الحرية ، وتثور استنكارًا للمظالم التى تفرض على الشعوب العاجزة عن دفع الظلم ، وأنها تحوط الإنسانية من أن يدنسها باغ أو طاغ بجبروته وبطشه ، وهى جميعًا لا تزال تملأ جنبات الأرض عجيجًا وضجيجًا إذا رأت ضيما أصاب شعبًا من الشعوب ، وتتنبل كل منها بالدفاع عنه وبالذياد عن حقه المهتضم ، ونرى أمريكا خاصة ومن دونها جميعًا تذيع بين الناس وتشيع أنها حامية الحضارة ، وأنها حامية الناس من البغى ، وأنها لم تخض غمار الحرب إلا لهذا وحده : أن تحمى الحضارة من الدمار ، وأن تحمى الناس على اختلافهم من البغى . وكذلك تفعل بريطانيا أيضًا ، وهكذا تزعم روسيا ، وهكذا تتبجح فرنسا .

ولكن – هذه فلسطين فلذة أكباد العرب قد شهدت أنذال الأمم يطأون ديارها منذ سكنت الحرب العالمية الأولى ، ثم أخذوا يسيلون عليها سيلا منذ ذلك اليوم يريدون أن يجلوا العرب عن بلادها ليحتلوها وينشئوا فى ربوعها دولة يهودية ، فإذا بنا نرى أمريكا تعينها بالمال واللسان والقلب ، ونرى بريطانيا تغريهم

بما يريدون وتصبرُ على إذلالهم لها صبرًا لم يعرفه قط تاريخ بريطانيا التى كانت تسمى رجال العرب المجاهدين « رجال العصابات » ، ونرى روسيا وفرنسا تلوذان بالصمت المطبق لا تقول ولا تنبس ولا تتحرك دفاعًا عن الحضارة ، ولا دفاعًا عن الهضيمة التى تراد بالإنسانية ، كما تحركت من قبل .

وهذه تونس والجزائر ومرّاكش تجرى فيها المذابح الوحشية التى لم يعرف التاريخ مثلها . فتسيل دماء أربعين ألف عربى ما بين عشية وضحاها ، بين سمع سفراء الدول وبصرها ، فلا نرى أمريكا ولا بريطانيا ولا روسيا تثور أو تغضب أو تقول ، وتمضى فرنسا الباغية تنفذ سياستها فى تدمير شعوب برمتها . تدمر حضارتها وماضيها وقواها وتستل الأرواح من أبدانها بالسلاح غدرًا وغيلة ، وتمتهن الرجال وتسب الأديان وتفتك بالأحرار ، ويرى ذلك ويسمعه سفراء أمريكا وبريطانيا وروسيا المدافعات عن الحرية وعن الحضارة وعن الإنسانية .

نعم ، وهذه فرنسا أيضًا تقيم الولائم للسباع والوحوش فى جزيرة مدغشقر ، فتفتك بأهل الجزيرة فتكا لا رحمة فيه ولا هوادة والعالم كله يسمع ، والإشاعات تتناقل خبر المجازر وتسميها « إخماد ثورة » وتقف بريطانيا صامتة عليها الوقار ، وتدير أمريكا ظهرها قد شغلتها هيئة الأمم المتحدة التى تنظمها للدفاع عن حريات البشر ورد البغى عنهم ! وتنكب روسيا على إصلاح معايش خلق الله ورفع الضَّيْم عنهم بالمساواة بينهم فى حقوق الحياة !

وهذه بريطانيا ترتكب شر الأفاعيل فى السودان وفى إفريقية ، وتقول لأمريكا وفرنسا وروسيا إنى أريد أن أكفل لهؤلاء الناس استقلالهم ، أريد أن أرد عنهم اعتداءَ بنى جلدتهم الطامعين فى استعمارهم ، وأريد أن أترفق بهم حتى أرفعهم من حضيض الجهالات لكى يصبحوا شيئًا فى تاريخ هذه الإنسانية ، فهى تقتل منهم كما تقتل السائمة ، وتدعهم عراة بل تجبرهم على أن يظلوا عراة ليخرجوا لها من ثمرات الأرض ما يرفع مستوى معيشتهم . وتعرف ذلك أمريكا وفرنسا وروسيا فيقولون لها أن نعم ، ولك الشكر ، ونعم ما تفعلين !

وهذه أمريكا تنطلق من معزلها مرة واحدة لتقول للعالم إنى أحمى الضعفاء وأجبر كسر المحتاجين ، وأعين على نوائب الحق ، وأدفع الظلم عن الناس ، وأرفع الضيم عن المضيم ، وترى كل هذا ويراه سفراؤها ورجال جامعاتها فى الشرق ، فلا تكون نصرتها لنا إلا بأن تذهب إلى جزيرة العرب وإلى إيران وإلى بلاد كثيرة من بلادنا لتأخذ البترول ، وتقول لنا سأعطيكم من المال مبلغًا ضخمًا ترفعون به مستوى معيشتكم ، فلا تحملوا المصالح الأجنبية فى بلادكم على محمل سيئ أيها الرجال العقلاء . أما مسألة مصر والسودان ، وأما مسألة مراكش وتونس والجزائر وهذه المذابح والمجازر ، وأما مسألة فلسطين وما فيها من الجور والبغى والعدوان والنذالة ، وأما مسألة العراق وسائر البلاد العربية ، فذلك كله أمور تتم على وجه آخر إذا جاء حينها ، وأنا لا أستطيع أن أتدخل فى شئون الدول ، بل الأمر كله متروك لهيئة الأمم المتحدة إن شاء الله ، فاطمئنوا .

هكذا يرى العربى فعل هذه الدول القائمة على الحضارة والمدافعة عن تاريخ الإنسانية وعن شرفها وعن حريتها : فإذا رأتنا نقول لها الحق ، غضبت وزعمت أننا قوم نتعصب على الأجانب بجهلنا وغباوتنا وحماقاتنا الموروثة ، وصدقوا ، فنحن جهلاء أغبياء ، لأننا صدقنا يوما أن روسيا هبت لتدفع الظلم عن الطبقات المهضومة الحقوق ، وأن بريطانيا ثارت لتدفع الشر عن الإنسانية المهددة بالجبروت والطغيان ، وصدقنا فرنسا أنها هى الداعية إلى العدل والمساواة والإخاء ، وصدقنا أمريكا أنها البريئة المدافعة عن حقوق البشر وتساويهم فى هذه الحياة لا فرق بين صغير الأمم وكبيرها ، أو ضعيفها وقويها ، إننا جهلاء وأغبياء ، لأننا أبحنا بلادنا للأجانب ليرفعوا لنا مستوى العلم والثقافة ، ومستوى العيش والحياة ، فأكرمناهم وآويناهم وخُدعنا بهم ، وحرصنا على أن نجعلهم لا يشعرون بأننا نريد أن نكون حربًا عليهم ، فأنشأوا ما أنشأوا من مدارس ومتاجر وأوغلوا فى بيوتنا وأراضينا فسرقوا منا قلوب أبنائنا وأموال أغنيائنا وفقرائنا ، واستبدوا بالأمر دوننا ، وتركونا لا نستطيع أن ننفذ فى بلادنا ما تنفذه كل دولة من القوانين والأحكام . فإذا أردنا نحن أن نفعل شيئا قليلا مما تفعله الدول لحماية أرضها وأموالها ، ثاروا علينا من الشرق والغرب ومن يمين وشمال يرموننا بالتعصب ،

ويمنون علينا أنهم هم الذين رفعوا مستوى معيشتنا ، وهم الذين علمونا كيف نلبس وكيف نأكل وكيف نشرب .

فهل يحل منذ اليوم لعربى أن يصدق أكاذيب هذه الأمم الباغية فى دعواها ومزاعمها ؟ هل يحل لعربى أن يثق بأن أهل هذه الحضارة التى اشتملت على روائع الفن والعلم والفلسفة ، قد صاروا حقًّا أهل حضارة تستحق أن تسمى حضارة لأنها قربت المسافات بالطائرة التى تخطف فى جو السماء خطفًا ، ومست موات الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وألقت السحر فى بنان الإنسان فإذا هو طبيب يدفع عوادى الموت عن رجل فى النزع ليس بينه وبين الموت حجاب ؟ هل يحل لعربى أن يصدق شيئًا من هذا كله وهم يكذبون على خلق الله العرب ويغررون بهم ويخدعونهم ويقتلونهم ويذبحونهم بلا رحمة ولا شفقة ولا ضمير يفزع من كل هذه الجرائم البشعة فى تاريخ الإنسانية !

تعس العلم وتعس الفن وتعست الفلسفة ، وتعست هذه الحضارة البربرية ، إذا كان هذا خلقها وهذا ضميرها ! وما نفع العلم والفن والفلسفة إذا هى خلطت لنا نحن العرب بالكذب والوحشية حتى فى الأعمال التى يصفونها بأنها علمية خالصة [١] . إننا على ضعفنا وجهلنا وفقرنا أكرم نفوسًا ، وأعلى أخلاقًا ، وأنبل قلوبًا من أهل هذه الحضارة البربرية التى لا يثور أهلها إلا لحاجة فى نفوسهم ، والذين لا يفزعون مما ترتكب أيديهم من الوحشية فى بلادهم وفى بلاد غيرهم من البشر .

ليعلم أهل هذه الحضارة فى أوربة وأمريكا ، وينبغى أن نعلمهم نحن فى بلادهم وبين ظهرانينا أننا لن نهاب بعد اليوم أن نكاشفهم بعداوة عربية ، لا كعداوتهم هم . تلك العداوة الممزوجة بالرقة والخداع والكذب والتغرير ، إنها عداوة طالب الحق الذى ينتصف لعدوه من نفسه ، وينتصف لنفسه من عدوه ، والذى لا يغمط حقًّا ولا ينكر معروفًا ، ولكنه لا ينسى أن عدوَّه هو عدوه !

---

(١) يحسن بالقارئ أن يقرأ مقالة فى مجلة الكاتب المصرى شهر إبريل سنة ١٩٤٧ بعنوان « بين السياسة والعلم » للدكتور سليمان حزين ، فهى تكشف عن استخدام العلم أحيانًا فى أحط الأساليب السياسية (شاكر) .

ولقد سمع أحد رجالنا ، هو ابن شبرمة ، يومًا عروة بن المغيرة وهو ينشد هذه الأبيات :

لا أتقى حسَك الضغائن بالرُّقى فعْل الذليل ، ولو بقيت وحيدا[(١)]
لكن أعد لها ضغائن مثلها حتى أداوى بالحقود حقودا
كالخمر خير دوائها منها بها تشفى السقيم وتبرئ المنجودا[(٢)]

فقال : لله در عروة ! هذه أنفس العرب .

فهذه نفوسنا ، لن تهادن من يعادينا عداوة طويت على الضغائن الصغيرة المحتقرة ، فإذا أنابو وانتصفوا لنا من أنفسهم ، وعرفوا قبح ما أَتَوْا وشناعة ما ارتكبوا ، فيومئذ نصافحهم مصافحة العربى الذى لا يضمر الغدر ولا الغيلة ولا الفتك ، ولا يعرف الكذب ولا المخاتلة .

* * *

(١) الحسك : نَبْتَة تضرب إلى الصُفْرة ولها شوك يُسَمَّى الحَسَكُ أيضا ، لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس إلا مَنْ فى رجليه خُفّ أو نَعْل ، هذا هو أصل استعماله ، ثم استعمل فى الضغن والعداوة والبغضاء .

(٢) المَنْجُود : الذى أخذه الكَرْب حتى أشرف على الهلاك .

الحكم العدل

يسمع كل عربى ويقرأ أن بلاده فى حاجة إلى « الدعاية » لها فى بلاد الأجانب ، وبخاصة فى أمريكا التى صارت اليوم ملتقى الأمم التى يسمونها الأمم المتحدة . وصارت هذه الكلمة حلوة على ألسنة رجال الصحافة العربية وعلى ألسنة رجال السياسة العربية ، فكلهم يقول لك أو يكتب لك إننا تعوزنا « الدعاية » لبلادنا فى الخارج . ولا بأس فى أن يستحلى رجال الصحافة ورجال السياسة كلمة يديرونها على ألسنتهم ، ويجدون فى طعمها وفى نبرتها وفى جرسها لذة تحملهم على ترديدها واللجاج بها ، ولكن البأس كل البأس أن يفضى استحلاء هذه الكلمة إلى استحلاء صب الملامة والتأنيب على أنفسنا ، ونحت أَثْلاتنا [1] بالتعنيف على ما نرتكب من تقصير فى حق أوطاننا . ولو كان ذلك التقصير حقًّا محضًا لا يعتوره رأى ينقضه ، لكان كثرة اللجاج فيه عملا لا خير فيه البتة . ومع ذلك فلنفرض أنه حق محض ، فما وراء ذلك ؟

نعم إنه لحسن أن نظهر الناس على وجه الحق فى مطالبنا ، وعلى بشاعة الظلم المضروب علينا ، وحسن أن ندعو الناس إلى سماع حجتنا ؛ وحسن أن نزيل من أوهام أولئك الخلق ما علق بعقولهم عنا ؛ وحسن أن نبدى لهم حقيقة أنكروها أو أنكرتها علينا السياسات فصدقوا السياسات وكذبوا أعينهم وأسماعهم . كل ذلك حسن ، ولكن ليس بالحسن أن نأخذ الأمور من أقفائها لا من وجوهها ، وأن ندع الرأى البين إلى الرأى الخفى ، وأن نغفل الحقيقة الواقعة ونبصر الرجاء الذى لا يدرى المرء أيتحقق له أم لا يتحقق .

فمسألة « الدعاية » تكاد اليوم تكون منصبة كلها على الدعاية فى « أمريكا » ، إذ لا سبيل إلى الدعاية فى روسيا بحال من الأحوال ، وبريطانيا هى طرف النزاع

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٢) ، مايو ١٩٤٧ ، ص : ٤٩٦ – ٤٩٨

(١) أثلاتنا : جمع أثلة ، وهى أصل كل شيء .

فى مسألة مصر والسودان ومسألة فلسطين وفى سائر المسائل الشائكة التى يعانى العرب منها ما يعانون ؛ وكذلك شأن فرنسا فى مسألة بلاد تونس ومراكش والجزائر ، فلم يبق إلا أمريكا ، وهى التى يدور حديث رجال الصحافة ورجال السياسة فى وجوب الدعاية لقضايانا فى أرجائها .

فلننظر إذن إلى جدوى هذه الدعاية علينا هناك ، وفى إمكانها قبل جدواها ، وفى حقيقتها قبل جدواها وإمكانها .

فأمريكا لم تزل تزعم منذ الحرب الماضية أنها نصير العدل والحق ، وأنها عدو البغى والعدوان ، وأنها صديق الأمم المستضعفة ، وأنها تبغض أشد البغض كل الاستعمار ، أى أنها الحكم العدل الذى لا يرى بغيًا ولا عدوانًا ولا مظلمة إلا نبض قلبه إشفاقًا ، وتحركت دماؤه اشمئزازًا وأنفة ، وأبى إلا أن يكون كما أراده الله أن يكون حكما عدلا لا يرده عن إقرار الحق والعدل جهد يبذله ، ولا دم يريقه ، ولا مال ينفقه فى سبيل الحق والعدل والحرية .

وهى لا تزال تحقق ذلك – فيما ترى بكل ما آتاها الله من قوة وحيلة ومعرفة ، فهى تتدسس إلى قلب روسيا لتكشف الغطاء عن هذا الوحش الباغى المستقر بين جنبيها ، والذى يخشى أن يكون أشد بغيًا وعدوانًا من الفريق الأول الهالك « ألمانيا » . وهى تتسلل إلى خفايا السياسات فى أرجاء أوربة لتظهر العالم على أساليب روسيا فى العمل لإدخال كل أوربة فى حوزتها وتحت سلطانها ، وهى ترسل جيوشًا لا تحصى من الخبراء والمخبرين ليستطلعوا طلع الحقائق التى تسترها روسيا فى كل حنية من حنايا هذه الأرض ، وهى تؤوى إليها كل شريد أو طريد ناله عسف الروس وبطشهم وتفسح له صدرها ، وتفسح له الصحف أيضًا حتى يقول للناس ماذا تحاول روسيا أن تخبأ عن الناس ، وكيف تفعل روسيا بالناس ، إلى آخر هذا كله .

بل أعظم من ذلك أنها لم تتردد لحظة واحدة فى أن تبذل كل البذل لتركيا واليونان حتى يتاح لهما أن يصدا عن نفسهما بلاء الروس وبطشهم واضطهادهم ، وأن تكونا جبهة مزودة بالقوة التى تعينهما على الجرأة فلا يروعهما تهديد الروس

ولا تخويفهم . ولم تتوان صحف أمريكا عامة عن أن تجعل مسألة تركيا ومسألة اليونان من أعظم المسائل التى تشغل الرأى العام حتى يتهيأ للكونجرس أن يؤازر حكومته فى سياستها التى أرادتها لدرء خطر الروس عن هذين البلدين .

كان هذا كله ليس يشك فيه أحد ، ورأت أمريكا أنها إنما تؤدى بذلك حق الإنسانية عليها ، وتؤدى حق المكانة التى تبوأتها عند الناس ، وتؤدى ما يجب على الحكم العدل الذى لا يبغى إلا إقرار الحق والعدل ، وإزهاق الظلم والجور .

ولكن ما الذى فعله هذا الحكم العدل فى شأننا نحن العرب ؟ كان أول ما فعله أنه طلب باسم الحق والعدل أن تبيح فلسطين أرضها لصعاليك الأمم فتؤويهم وتمهد لهم أن يقيموا فى قلب بلاد العرب دولة يهودية تفعل بهذه العرب ما تشاء ، وسكتت باسم الحق والعدل عن المحرضين من يهود بلادها على انتزاع الأرض عامرها وخرابها من يد العرب لتكون فى يد صعاليك اليهود ، وغفلت باسم الحق والعدل عن شعب يسكن هذه الأرض منذ آلاف السنين تريد اليهودية أن تفقره وتذله وتنتزع منه أرض آبائه وأجداده بالجور والعدوان والنذالة الحديثة التى تسمى قوة المال . ثم أرسل الحكم العدل رسلا من عنده ليدرسوا القضية مع طائفة أخرى من البريطانيين ، فخرجت رسل الحكم العدل وهى ترى أن العرب أمة متأخرة ، وأنه لابد لليهود من أن يستعمروا هذه الأرض ليرفعوا عن هذه الأمة المتأخرة أساطير الجهل وغشاوة البؤس – ولو أفضى ذلك إلى أن يخوضوا فى الباطل خوضًا حتى يبلغوا الحق !

ثم جاءت مسألة مصر والسودان ، فإذا نحن نموج ونضطرب ونفزع من هول الغدر البريطانى وهذه المظالم الاستعمارية ، وإذا الحكم العدل يصم آذانه ويستغشى ثيابه باسم الحق والعدل حتى لا تروعه صرخات المظلومين والبائسين ، وإذا صحافته تضن بكلمة واحدة أن تقولها فى إنصاف هذا الشعب من الظالمين والباغين عليه ، بل لعل أكثرها ذهب إلى خلاف هذا وألح فيه .

وليس يقول أحد وهو يَجِدُّ إن هذا الحكم العدل يجهل قضية فلسطين ؛ ولو هو كان يجهلها حقًّا لكان أول ما تفرضه عليه هذه الحكومة التى تبوأها فى

العالم أن يرسل إلى فلسطين رجالا من أهل سياسته ، ورجالا من أهل صحافته ليدرسوا وينبشوا وينقبوا ويكشفوا خفايا الدسائس اليهودية والبريطانية كما يفعلون فى روسيا وفى أوربة وفى سواهما من بلاد الله . وليس يقول أحد وهو يَجِدُّ إن هذا الحكم العدل يجهل قضية مصر والسودان ، فلو كان حقًّا يجهلها لفعل مثل ذلك حتى يتاح له أن يقف على أسرار هذه القضايا ليحكم بين الناس بالعدل والقسطاس ما دام مصرًّا على أنه حكم عدل لا يبغى من وراء عدله إلا إقرار الحق وإزهاق الباطل . ولو فعل لرأينا الصحف فى بلاده تملأ الدنيا عجيجًا وضجيجًا وبحثًا وتنقيبًا وكشفًا عن خفايا السياسات كما تفعل فى مسائل روسيا وأوربة .

لا ، بل أكثر من ذلك أن لهذا الحكم العدل رجالا طالت إقامتهم فى مصر والسودان ، وفى فلسطين والشام ، منهم رجال الصحافة ومنهم رجال الجامعتين الأمريكيتين ورجال المدارس الأمريكية ، ومنهم رجال الشركات ومنهم غير هؤلاء ممن يُذْكَرون بأسمائهم ومن لا يُذْكَرون . فماذا يفعل هؤلاء جميعًا ؟ أى معروف يسدونه إلى البلاد التى طالت إقامتهم بين أهلها فعرفوهم وخبروهم ؟ أليس فيهم إنسان واحد فيه قدرة على أن يعرف خفايا الدسائس اليهودية والبريطانية فى بلاد مصر وبلاد الشام وفلسطين ؟ أليس لأحد منهم لسان ينطق بالحق دفاعًا عن أمم يكتم الاستعمار حقها ويبطش بها بطشًا وحشيًّا لا رحمة فيه ؟ كلا بل فيه ، ولكنهم حرب علينا ولا يريدون أن يقولوا لبلادهم ، وكأن بلادهم لا تريدهم أن يقولوا - وإلا ففيم صمتهم ، وفيم ممالأتهم لبريطانيا ويهودها وأفاقيها جميعًا من حثالات الأمم ؟ أم ترانا لا نستحق عدل الحكم العدل ؟ أم نحن لسنا بأهل لأن تقال فى حقوقنا كلمة تجعل الحكم العدل يتنبه إلى أن فى الدنيا شعبًا تبلغ عدته أكثر من مائة مليون وعشرين مليونًا من الأنفس البشرية قد ضربه الاستعمار اليهودى والبريطانى والفرنسى ضربات مبيرة مبيدة بغير شرف ولا ورع ولا إنسانية .

أيقال إن رجال الجامعات والمدارس ، وهم أهل العلم والثقافة والأدب ، ليسوا سوى جماعة يعيشون فى سراديب العلم والفلسفة لا يعرفون ما يجرى على

أديم هذه الأرض ؟ وأنهم لا يخالطون أحدًا ولا يخالطهم أحد ؟ وأنهم رجال مقنعون بالأثواب الجامعية من فرع الرأس إلى أَخمص القدم ، فهم عمى لا يبصرون إلا نور العلم ، وصم لا يسمعون إلا نداء الحقائق الخالدة فى الفلسفة ؟

كلا كلا ! إنهم يسمعون ويبصرون ، ولكنهم لا يريدون أن يبينوا عما يسمعون وعما يبصرون ، فإذا أبانوا فلن يبينوا عن الحق ، بل يبينون عن خلافه مما سمعوه من أعوان بريطانيا وأشياع يهود ، ويطعنون فينا كل طعن ، ولا يرون بأسًا من تعظيم أخطائنا وإخفاء صوابنا أو حقنا . بل يمنون علينا أن فعلوا لنا وفعلوا ، وهم يعلمون علم اليقين أننا لو قد كنا أحرارًا فى بلادنا لفعلنا لأنفسنا ما لا يستطيعون هم ولا سواهم أن يفعلوه لنا .

ثم فليخبرونا : أنحن الذين يجب علينا أن نتولى الدعاية لبلادنا فى بلادهم ؟ أيجب علينا أن نذهب إلى الحكم العدل الذى يرسل إلى بلاد الله سوانا من يعرف خبايا أسرارها ، فنقول له بألسنتنا إن حجتنا كذا وكذا ، وفضائلنا كذا وكذا ، ونعدد له مناقبنا ووجوه حقنا ومظالم عدونا ، فإذا به يسمع لنا ويقنع بما نقول نحن ، وينسى كل ما تقول بريطانيا واليهود ، وإذا الرأى العام الأمريكى قد أصبح معنا !!

كلا ليس هذا بمنطق ولا حق ، بل الحق هو أن الحكم العدل هو الذى يجب عليه أن يتتبع حقائق القضايا ويرسل رجاله ورجال صحافته ليعرفوا ويسألوا ، ويجب عليه أن يطالب المقيمين من أهله فى بلادنا أن يقولوا الحق غير متجانفين ولا باغين ولا تابعين للأهواء والعصبيات ، وأن يتولى هو وصحافته بيان الحق فى ذلك كله حتى يستطيع أن يحكم بالعدل ، وإلا كان حَكَمًا لا يصلح للحُكْم .

أما دعاتنا الذين يحرضوننا على « الدعاية » لأنفسنا فى بلاد الحكم العدل ، فليعرفوا أن الصحافة هنا لن تقبل منا أن ننشر ما نشاء إلا أن ندفع عليه مالا كثيرًا ، وهم ينشرون لنا على أنه « إعلان » لا أكثر ولا أقل ، وأن القارئ سوف يقرؤه على أنه إعلان لا أكثر ولا أقل . فإذا كان لنا أن نرجو خيرًا من الحكم العدل ، فهو يوم يلين قلبه ويرق ويشعر أننا أهل لأن ترفع عنا المظالم ، ويومئذ يرسل إلينا من يسألنا

ويستخبرنا ويعود لقومه قضاة الحق أن أنصفوا مظلومًا طال ظلمه ، وأما قبل ذلك فلا . وإن كان هذا لا يمنع أن نبذل من الجهد ما نرجو أن يوقظ الحكم العدل من سباته الذى طال كما طال ظلمنا . وقبل ذلك فلنحذر أن نلوم أنفسنا على تقصير لم يكن ، لأنه ليس تقصيرًا بل هو معرفة للحقيقة الظاهرة وهى أن الحكم العدل لا يريد أن يكون معنا نحن العرب دون الناس جميعًا - حكما عدلا .

* * *

هى الحرية

قالوا فى قديم الأمثال : « ليس المتعلق كالمتأنق » ، فالرجل الذى أنعم الله عليه بسعة العيش ، وأرخَى باله من هموم الحياة ، مطيق أن يتأنى فيما يختار لنفسه متذوقًا ومتخففًا حتى يرضى ، أما الذى قَدَر اللهُ عليه رزقه فهو كالسهم فى الوتر المشدود ترمى به يد الحاجة إلى هدف يتخايل له أو يتحقق ، وهو لو أراد لما أطاق إلا الذى فعل لأنه مدفوع بالاضطرار . ورب سارق لم يجد من السرقة بُدًّا لأنه دفع إليها بحاجة طبيعية لا يطيق أحد خلافها ، وهو التعلق بالحياة والإبقاء على النفس ، فهو يريد أن يطعم الغريزة التى تلهب أحشاءه بالجوع المهلك . ومهما تكن روادع نفسه ، ومهما تكن قوتها ، فهو منتهٍ إلى ساعة لا يجد عندها إلا أن يمد يده ليأخذ شيئًا يمسك عليه رمقًا يوشك أن يتبدد . وما مد الرجل يده ، ولكن الحياة هى التى مدتها ، فهو خليق أن لا يكون عندئذ مسئولا عما فعل . وكذلك الشأن فى أحداث كثيرة تكون فى هذه الحياة الدنيا وفى هذا الناس ، فإن المجتمع الإنسانى يعنف بأبنائه أحيانًا ويعتسف بهم أضل المجاهل ، لأنه لا يبالى بأن يكفل لأبنائه جميعًا حاجتهم التى لا غنى لأحد منهم عنها ، ولأنه يغفل فى فورانه عن الطبائع الأولى التى تتطلب زادها من الحياة ، والتى إذا فقدت هذا الزاد لم تبق على شىء ، ولم تَرْعَ شيئًا ، ولم تَرْعَوِ عن شىء . وهذا ضلال قديم فى نظام المجتمع الإنسانى ، أراده الأنبياء بالإصلاح ، وأراده عقلاء المفكرين بالتغيير ، فأدركوا شيئًا ووقف بهم العجز عن كثير ، لا من عجز فى هدايتهم أو آرائهم ، بل من عجز المجتمع عن أن يدرك سمو الأغراض التى رمى إليها الأنبياء والمفكرون .

وفى عصرنا هذا أمثال كثيرة على تغلغل الفساد والجهل والعسف وقلة المبالاة

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٤) ، مايو ١٩٤٧ ، ص : ٥٥٢ - ٥٥٤

فى قلب المجتمع الإنسانى . أمثال يكون فيها الأفراد هدفًا منصوبًا لاضطهاد جماعة الأمة أو الشعب ، وأمثال تكون فيها الأمة هدفًا لاضطهاد جماعة الدول أو الشعوب .

فليس فى الأمم اليوم أمة لا تتداعى وتتنادى باسم الحرية : حرية الفرد ، وحرية الفكر ، وحرية العقيدة ، وحرية التجارة إلى آخر هذا الحشد من الحريات ، فهى بذلك تقرر جميعًا أن الحرية أكبر أغراضها ، وهذا طبيعى ، لأن الحرية هى إحدى الطبائع المستقرة فى الإنسان الفرد ، وهو يطلبها طلبًا حثيثًا ملحًّا ، حتى ولو اضطر أن يستعبد نفسه لعمل يكدح فى سبيله طول حياته ، ولكن غايته من هذا الكدح هى أن يتحرر من الكدح وهذا إحدى عجائب الطبيعة البشرية .

نعم إن الحرية غاية الفرد التى يسعى إليها وهو وحيد فى مشاعره وفى بعض وجوده ، ولكنه إذا صار فردًا من جماعة كان للجماعة سلطان على هذه الحرية وتصرفها ، وهو شىء من حقها أيضًا . ولكنها إذا أرادت أن تتعسف وتحرمه حريته فقد أساءت من حيث أرادت الإحسان ، ولا تكون الجماعة رشيدة حتى تعرف أن الحرية حاجة طبيعية لابد للفرد من الاستمتاع بها على وجه من الوجوه ، فلابد إذن من أن تتيح أوسع ما يمكن من مجال تتصرف فيه الحرية على الأسلوب الذى يجعلها وافية بحاجته الطبيعية . ومن هنا يأتى الفرق بين نظام ونظام ، فيكون هذا بغيضًا مملولا ، وذاك محببًا مألوفًا .

والأمم اليوم فى جماعة الدول بمنزلة الأفراد فى الجماعة ، فلا بد للنظام الذى يريد أن يكون محببًا مألوفًا من أن يتيح للأمم جميعًا أوفر قسط من الحرية يتيح لها أن تتصرف على الأسلوب الذى يجعل الحرية وافية بحاجتها الطبيعية ، فإذا لم تفعل ذلك جماعة الدول انتقضت الأمم المسلوبة حريتها ورأت ذلك النظام بغيضًا مملولا ، وكرهته وكرهت أهله ، وصارت حربًا على الجور والعسف حتى تنال حريتها وتستمتع بها طبقًا لحاجتها الطبيعية . ومن أجل ذلك فيما زعموا ، أنشأوا هيئة الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية .

ولكن ماذا نرى من فعل جماعة الدول اليوم ؟ إنها جميعًا قد أنكرت بأسلوب

يجمع بين الخسة والمكر والنفاق ، أن تكون فلسطين المضطهدة أمة عربية مستقلة حرة كما تشاء الفطرة الإنسانية ، وأرادوها أن تكون يهودية تفتح أبوابها لأنذال أمم الأرض ، فهم يتدسسون إليها من كل حدب ومن كل فج ، وهم يزمعون أن يغزوها بأجساد يهودية تتساقط من الطائرات على أرضها ، وأرادوها أن تظل ساكنة هادئة مطيعة حتى تمتلئ جنباتها بالأنذال الذين يريدون أن يحولوها عن عربيتها إلى يهوديتهم .

وهذه الأمم التى كانت ، ولا تزال تتداعى وتتنادى باسم الحرية ، تسمع وتبصر ، فيسكت بعضها ويمالئ بعضها ، ويعاضد بعضها ، وتأذن جميعها للصهيونية الخبيثة أن تزرع بذورها الخبيثة فى الأرض الطيبة . فإذا قامت العرب تناديهم باسم الحرية حاوروها وداوروها وتنذلوا معها بكل أساليب الخسة والخداع والنفاق ، لأنهم يريدون أن لا تكون الحرية حقًّا لهؤلاء العرب ، ويريدون أن تكون يهود عونًا لهم على سلب هذه الحرية من العرب ، ولن يبلغوا بإذن الله ما يريدون .

ثم هذه مصر والسودان ظلت أكثر من خمس وستين سنة وهى تتفزع من ثقل النير المضروب عليها ، فلما جاءت الساعة التى لا تطيق معها صبرًا على ضروب الذل والهوان التى لقيتها من احتلال جيوش بريطانيا ، ومن احتلال شذاذ الآفاق الذين نزلوا أرضها فرتعوا فى نواحيها كما يرتع السوس فى الصوف فى الصيف ، كما يقولون ، ولما جاءت الساعة وطلبت الفطرة الإنسانية فى مصر حاجتها من الحرية التامة التى تتنادى بها تلك الأمم ، لاذت تلك الأمم بالصمت ولجأت إلى الخداع وتلفعت بالنفاق ، ويوشك أن تنكر على مصر والسودان حقوقهما فى هذه الحرية العامة التى ينبغى أن تستمتع بها البشرية كلها أممًا وأفرادًا .

بل أعجب من ذلك أنها لجأت إلى أدنأ الأساليب يوم أرادت تفريق كلمة المصريين بأن يوقعوا الشقاق بين أهل دينين ظلا أجيالا يتعاشر أهلهما بالمعروف . فلما سقط فى أيديهم وأخفق سعيهم وحبطت أعمالهم ، انحازوا إلى أسلوب آخر هو تسليط جماعة من المرتزقة يقال لهم المراسلون الصحفيون ، يذيعون عنا كل خبيث بكل لسان لا يرعون حرمة ولا ذمه ولا عهدًا . وحرضوا أيضًا أعوانهم من

الأجانب الذين عاشوا فى مصر طويلا أو قليلا ، ليجلسوا فى المجالس ويذيعوا أن بلادنا وبلاد العرب جميعًا تسىء اليوم إلى الأجانب . ويعنون بذلك أنه منذ جلا الإنجليز عن جزء من مصر ، صار المصريون وحوشًا مفترسة تعتدى على الأجانب وتهينهم وتزدريهم قولا وفعلا . وكل ذلك يتناقله المراسلون الصحفيون من المرتزقة ، ويرسلونه ليذاع فى الصحف فى جنبات الأرض . ونحن نعلم علم اليقين أن هذا ليس من فعل المرتزقة أنفسهم ، بل هو من حث بعض الدول وإغرائها لهم بأن يقولوا هذا ويذيعوه ويتناقلوه بينهم وبين من يلقون .

هذا ، والأجانب أنفسهم قد عاشوا فى مصر مع بريطانيا خمسًا وستين سنة ، وهم يمتهنون المصريين ويسيئون إليهم فى أنفسهم وأموالهم وأرضهم وعقائدهم ، حتى ألفوا هذا النوع من الغطرسة ، فلما جئنا اليوم نأباها عليهم كما تأباها بريطانيا وأمريكا وكل بلد قل شأنه أو ارتفع ، تصاخبوا علينا ، وراحوا يبسطون ألسنتهم وأفعالهم فينا وفى أخلاقنا وعاداتنا ، فإذا أراد أحدنا أن يكفكف من شر أحدهم ، انطلق يزداد صخبًا وجلبة يستصرخ الدنيا كلها على هؤلاء المتوحشين الذين يسمون المصريين . ومع ذلك فمصر منذ عشر سنوات هى مصر اليوم لم يزد ما كان يلقاه الأجانب أمس فيها من رد وقاحتهم وجرأتهم علينا ، على الذى يلقونه اليوم من ذلك ، ولكنهم سمعوا ألسنة هؤلاء المرتزقة تذيع عنا الأباطيل ، فانطلقوا يتصايحون علينا كأننا صادرنا أموالهم وأجليناهم عن بيوتهم ، ونصبنا لهم المشانق ، وأعملنا فيهم استئصال الشأفة كما كان يفعل طاغية ألمانيا باليهود !!

ثم تأتى المرتزقة من المراسلين فتزعم أن بلادنا قد أصبحت متطرفة فى الحماسة للحرية ، وأن كلمة « مصر للمصريين » قد أصبحت أهم كلمة فى مصر ، ويقوم صعلوك منهم يقول : « ولذلك لا يعجب المرء كثيرًا حينما يراهم (يعنى المصريين) قد ضلوا الطريق ! ولكننا نعجب حينما نتساءل : إلى متى سوف يستمرون فى اندفاعهم الذى لا يكبح جماحه من أجل الحرية ؟ » .

ونحن نأسف لأن الشعب المصرى لا يزال هادئًا صابرًا على كل هذه الوقاحة

التى يصبهاَ علينا مرتزق بين ظهرانينا ، ونأسف لأن حكومتنا المصرية لا تزال هادئة صابرة ، بل مجاملة أشد المجاملة لهذا النوع من المرتزقة . وكان خليقًا بأية حكومة فى الدنيا - لا حكومة مصر - أن تعرف أولئك الذين أذاعوا أنباء غير صحيحة فى طائفة من المسائل التى تتعلق بمصر ، وأن تقول لهم إنكم كذبتم ، فإما أن تكفوا عن إذاعة هذه الأكاذيب ، وإما أن تغادروا بلادى . ثم ترفع كل الأدلة التى تفضح كذب هؤلاء الكذابين من المرتزقة إلى حكوماتهم ، وأن تبرىء ذمتها من دخيل لا يرعى أدبًا ولا خلقًا ، ولا يعرف قدره ولا أقدار الناس !

إننا نطلب الحرية وسننالها ، وسنكون أحرارًا فى بلادنا نسوسها بالسياسة التى نرتضيها لأنفسنا . ونحن لن نرضى لأنفسنا إلا الإنصاف ، ننصف أنفسنا ، وننصف من يعاشرنا من الأجانب . ولكن إذا ظن الأجانب أن هذا الإنصاف الذى لهم ينبغى أن يكون على ما تعودوه منذ خمس وستين سنة ، من امتهان المصريين ومن الغطرسة عليهم ، ومن بقائهم طبقة واحدة ترى أنها أنبل منا ، وأشرف منا ، وأحسن عقلا منا ، وأولى بثروتنا منا ، وأحرى بالامتياز من كل مصرى يعيش على أرض مصر - فيومئذ سوف ننصفهم أيضًا ، ولكن بما نرضى به نحن غضبوا أو رضوا ، وضجوا أو سكتوا .

أما الدول التى تتنادى باسم الحرية ، والتى تنكر على مصر والسودان ، وعلى فلسطين ، وعلى العراق ، وعلى بلاد المغرب كلها - أن تكون أممًا حرة ، فلتفعل ما تشاء ، لأن هذه العرب لن تهادن إلّا مَن يهادنها ولن تجامل إلا من يجاملها ، ولن تعاون إلا من يعاونها ، ولن تمد يدها إلا إلى من يمد لها يدًا نقية من الغدر والفتك والنفاق .

الحرية حق طبيعى ، فنحن بالغوه ومدركوه شاءت الأمم أم أبت . والقوة الدافعة إلى طلب الحرية غريزة فطرية ، فنحن خاضعون لها حتى تحقق غايتها شاءت هذه الأمم أم أبت . والإنصاف طبيعة فينا ، فنحن سننصف أنفسنا وننصف من يعاشرنا ، رضى بذلك من رضى وكرهه من كره . وهذا كله شىء ليس لنا فيه خيار ، لأننا كدنا نموت ونريد أن نحيا . ونحن نتعلق فى حياتنا هذه كالجائع

المشرف على الهلاك حين يتعلق بكسرة خبز ورشفة ماء ، هى الحرية ، وأما هم فيريدون أن يتأنقوا ويتنبلوا ويتفاصحوا باسم الحرية التى يريدون بها حريتهم هم مقرونة بالاعتداء على سواهم من الشعوب المتعلقة بالحرية أمثالنا نحن .

وسوف يأتى على الناس يوم وتظهر العرب ، وتعلم هذه الأمم كيف تكون الحرية ، ثم تقودها إلى هذه الحرية مرغمة كما يُقاد الجمل .

* * *

قضى الأمر ...

قضى الأمر ، وانتهت الحكومة القائمة عن ترددها ، وألفت الوفد الذى سيذهب إلى مجلس الأمن ليعرض موضوع الخلاف الذى بيننا وبين بريطانيا . وعن قليل سيسمع العالم كله لقضية مصر والسودان ، ويصغى إلى حجتنا التى ستلقى إليه ، وإلى حجج بريطانيا فى دفاعها عن الذى تدعيه . ولو كان الأمر أمر عدل وإنصاف وبعد عن التحيز وأنفة من الظلم ، لما بالينا أن ندعو حكومتنا أو شعبنا إلى خطة سوى عرض القضية كما هى ، بلا حاجة إلى تتبع سوءات بريطانيا وعورات أفعالها . ولكن لا عدل ولا إنصاف ، بل هو التحيز والظلم . هذا ما ينبغى أن نتوقعه بعد الذى كان من موقف الأمم الغربية والأمة الروسية من أعظم قضايا الشرق وأوضحها برهانًا وأبينها حجة ، أعنى قضية فلسطين .

ولسنا نقول هذا تثبيطًا لوفدنا أو لشعبنا ؛ كلا فإن القضية المصرية السودانية قضية للجهاد لا للسياسة . فلنفرض أن الأمم ظلمتنا وتحيزت لبريطانيا فجارت علينا وضلعت [١] معها فلن يضيرنا ذلك ، بل هو الداعى الأعظم إلى الاستماتة فى الجهاد إلى أن ننال حقنا غير منقوص ولا مهتضم . ولكن هذا الأمر المخوف أو المتوقع يوجب علينا أشياء لا مناص لنا من المحافظة عليها والحرص على أدائها .

فقد كان من سياسة بريطانيا قديمًا أن تمزق وحدة هذا الشعب وتوقع بين أبنائه العداوة والبغضاء وقد فعلت ، فصارت أحزابنا أحزابًا تسيّرها شهوات رجال يتطلعون إلى مناصب الحكم كما يتطلع الظمآن إلى الماء أو سراب الماء وكان من سياستها أن تلاين وتساير حتى يصبح السودان شيئًا قائمًا بذاته أو كالقائم بذاته ، ففعلت . وكان من سياستها أن تغرى شهوات قوم من أهل السودان بالحكم

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٦) ، يونيو ١٩٤٧ ، ص : ٦٠٨ - ٦٠٩

(١) ضلعت معها : مالأتها وساندتها .

أو السلطان ، ففعلت ، وانقسمت فئة من أبنائه مضللين بوعود كاذبة لن تتحقق ، وخرجت عن بقية الشعب مؤزرة بالمال ففجرت ومردت ، وبريطانيا من ورائهم تنفخ فى نيرانهم حتى يأتى اليوم الذى يجعلونهم فيه حربًا على بلادهم وهم يظنون أنهم يعملون لخيرها وفلاحها . تم ذلك كله لبريطانيا ، ولكننا مع ذلك لا نبالى به قليلا ولا كثيرًا ، لأننا نعلم أن هذا الشعب المصرى السودانى شعب كريم ذكى الفؤاد ، تجتمع قلوبه عند المحنة يدًا واحدة على عدوه الباغى إليه الغوائل .

بيد أننا الآن فى ساعة غير التى كانت بالأمس ، فالقضية المصرية السودانية سترفع عن قليل إلى مجلس الأمن ، أى مجموعة من الدول لبريطانيا عليها فضل ، أو لها عليها تأثير . والزمن الذى ستعرض فيه لن يطول كما كانت تطول سياسة بريطانيا . وإذن فقد أصبح واجبنا نحن أن نتآزر ونتداعى ولا ندع هذه الفرصة تفلت منا ونحن عنها غافلون .

ليكن الوفد الذاهب إلى مجلس الأمن وفدًا لم تجتمع له الصفات التى تنبغى أن تجتمع لوفد مصر ، وليكن رئيس الحكومة الذى سيرأس الوفد رجلا غير الذى كانت ترجوه بعض الأحزاب ، وليكن أعضاء الوفد رجالا غير الذين كنا نتوقع أن يكونوا – ليكن كل ذلك ، ولكن أليسوا مصريين سودانيين يجاهدون ما استطاعوا فى سبيل حق مصر والسودان فى الحياة الحرة التى تنبغى أن تكفل لكل حى ولكل أمة ؟ أليسوا رجالا منا قد انبروا للمحاماة عنا فى مجلس يخشى أن يكون أقرب إلى عداوتنا منه إلى صداقتنا ؟ أليس مطلبهم هو مطلب مخالفيهم من سائر الأحزاب فيما يخص قضية مصر والسودان ؟ بلى ، وما أظن أحدًا من مخالفيهم يستطيع أن يقول خلاف هذا أو يدعى نقيضه .

وهذا المجلس الذى هو أقرب إلى العداوة منه إلى الصداقة لن يفرق بين مصرى نختلف عليه أو مصرى نتفق عليه . وبريطانيا لن تكون أقل عنفًا ولجاجة إذا كان الذى يرتفع بالقضية إلى مجلس الأمن إنسانًا اتفق المصريون والسودانيون عليه ، لأنها تريد بكل ما تبذله أن تأكل حق هذا الوادى وتحيف على مستقبله ، لا تبالى بما يسمى أقلية أو بما يسمى أكثرية . وإذن فالعقل قاض علينا بأن نلقاها

ونلقى مجلس الأمن يدًا واحدة وعلى قلب رجل واحد أيًا كان هذا الرجل . ونحن نعلم أن هذه دعوة قد كثر الداعوان إليها فباءوا بالخيبة مرة بعد مرة ، ولكن كان العذر عندئذ قائمًا ، فإن الحكومة لم تكن قد ارتفعت إلى مجلس الأمن بعد ، وكان هناك مجال لشهوات الأحزاب أن ينال أحدها فضل التقدم للدفاع عن حقوق مصر والسودان . أما الآن فقد قضى الأمر ، فمصر والسودان تطالب أحزابها بحقها عليها ، فإذا أحجم أحدها ، أو أحد رجالها ، عن الذى تقضيه عليه حقوق الوطن ، فذلك « خائن » ، خائن بالمعنى الصريح التام الشامل الذى تنطوى عليه هذه الكلمة .

وكلمة الخيانة كلمة عظيمة نأنف أن يتصف بمعناها مصرى سودانى لأنها تصم صاحبها بأنذل ما يكون فى طبيعة البشر ، وهى جريمة لا تغتفر ، وجزاؤها جزاء لا يحد . ولا نظن أحدًا أحب أن يعرض نفسه لها راضيًا عامدًا قط ، بل الظن أنه إنما يخطئ وجه الصواب فيقع فى أقبح العيب ويخوض فى أشنع العار . وقد جاءت الساعة التى توجب على كل مصرى سودانى أن يقف ساعة ساكنًا هادئًا مفكرًا متورعًا خشية أن يقع فى هذه الخطيئة أو يلم بهذا الإثم ، وأن يحرر نفسه لحظة من شهواتها الجامحة ، وينفض عن قلبه غبار أعوام من الأحقاد الحزبية والسخائم الوزارية ، ليتطهر لوطنه ولبلاده ، وليستهدى بهدى الوطن فى ساعة المحنة . إنها أعظم خطيئة يقارفها مصرى سودانى منذ اليوم ، لأنها خذلان لوطنه فى ساعة يرى فيها الأعداء يتناهشونه من كل مكان ، ويريدونه بالشر من كل ناحية ، ويكيدون له أخبث الكيد فى كل أرض .

ولن يضير أحدًا أن يكون له رأى يخالف هؤلاء الرجال الذاهبين إلى مجلس الأمن فى شئون لا علاقة لها بمجلس الأمن ، فيدع عناد الرأى إلى مناصرة الحق - بل إلى مناصرة وادى النيل فى حقه الطبيعى الذى لا يعرف الرجال وآراءهم وسياساتهم ، بل يعرف حقه على أبنائه من أى رأى كانوا ، وفى أى زمن ولدوا ، وعلى أى دين نشأوا . أقول هذا وأنا غير يائس من أن تجتمع كلمة هؤلاء المختلفين على هذا الحق البيّن الذى لا ينازع فيه عاقل .

وأنا أدعو « الكتَّاب » الذين أنتسب إليهم بهذا القلم ، أن يجتمعوا على رأى واحد ، ويقوموا مرة واحدة لدعوة الشعب إلى الطريق الحق ، وأن يبرئوا أقلامهم من الأحقاد الصغيرة التى أنشأتها بينها بريطانيا يوم مزقتنا أحزابًا ، ليملأوها بالحقد الأعظم على العدو الأعظم الذى لم يدع لنا عرضًا إلا هتكه ، ولا فضيلة إلا لوَّثها ، ولا كرامة إلا تهجم عليها بالتحقير والتشنيع . وإنما أوجه دعوتى إلى الكتَّاب ، لأنهم هم أصحاب الرأى الأول ، وهم بناة الأمم ، وهم حياة الشعب ، وهم القوة التى تؤازر الضعيف حتى ينال حقه ، وتلطم الجبار حتى يدع الحق لأهله . إن التبعة الملقاة على كواهل الكتَّاب ، هى أعظم تبعة ألقيت على مصرى سودانى فى هذه الساعة ، فهى أعظم من تبعة الوفد الذاهب إلى مجلس الأمن ، لأنه بدونها لا يستطيع أن يواجه هذه الأمم مواجهة النّد للنّد ، ومواجهة صاحب الحق لظالمه ، ومواجهة المؤمن بقضيته للكافر بهذه القضية . ولو فعل الكتَّاب ما يوجبه عليهم حق مصر ، فلن يستطيع مخالف أيًا كان أن يفتَّ فى عضُد الذاهبين بقضيتنا إلى مجلس الأمن ، وليس اليوم يوم لهو ولا لعب ولا شهوات ، بل هو يوم الجد والصبر والزهد ، وظنّى بالكتَّاب أنهم أسرع الناس إلى معرفة مفصل الصواب فى كل أمر ، فلن يخطئوا أن يعرفوا ذلك وثرى مصر والسودان يهمس لهم داعيًا مؤلبًا حافزًا على العمل لتحرير بلادهم من نير العبودية .

وأنا مؤمن بأننا سننال حقوقنا كلها كاملة ، شاء مجلس الأمن أم أبى ، وبأننا صائرون إلى ساعة تجتمع فيها القلوب المصرية السودانية على كلمة واحدة ، شاء رؤساء أحزابنا أم أبوا ، وبأن المستقبل قد بانت لنا معالمه ، فإن عميت عنه عيون قد تقادم عليها الزمن فخبا ضوؤها ، ففى الوادى عيون ناظرة مبصرة لم تطمس نورها حزازات الماضى ولا شهوات الحكم ، وأنهم هم الذين سيحكمون على الرجال حكما لن يرد ، إنهم مصر والسودان أيها الساسة ، فاحذروا مصر والسودان وأحكامها عليكم ، فمن وضعته فهو الموضوع إلى يوم الفصل ، ومن رفعته فهو المرفوع إلى آخر الدهر !

* * *

أسد إفريقية

إلى أسد إفريقية الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى .

السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبعد :

ملأت فضائلك البلاد ، ونقبت
في الأرض ، يقذفها الخبير إلى العَمِى
فكأن مجدك بارق فى مزنة
قِبَل العيون ، وغرة فى أدهم (١)
واليوم مُقْذٍ للعيون بنقْعِه (٢)
لا يهتدى فيه البنان إلى الفم
لم يبق غير شفافة من شمسه
كمضيق وجه الفارس المتلثم

فأنت ، أبقاك الله ومتعك بالعافية ، قد كنت فى تاريخ العرب الحديث نفحة علوية من مجد آبائنا الغر الميامين ، وكنت فى ضمير كل عربى صدى للأمانى البعيدة التى لا تزال ترددها دماؤنا فى أبداننا العربية الحية ، وكنت قبسًا من فضائل أسلافنا يحدث عن نفسه بلسان عربى مبين ، وكنت برهانًا جديدًا لأهل البغى على أن العربى لا يذل أبدًا ولا ينام على الضيم يراد به . ثم كتب الله لك بعد عشرين سنة من الأسر أن تعود كما كنت عربيا حرًّا حَمِىَّ الأنف ذكى الفؤاد ، تأنف لأمتك وعشيرتك أن يروا ميسم ذلهم وهوانهم على جبين أكرمه الله بالنصر مرة ، وامتحنه بالأسر تارة أخرى . فعش فى حمى مصر أيها الرجل أميرًا على

٭ الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٨) ، يوليو ١٩٤٧ ، ص : ٦٦٣ - ٦٦٥

(١) المُزْنَة : السحابة البيضاء المحملة بالماء . الغُرَّة : بياض فى جبهة الفَرَس . الأدهم : الأسود .

(٢) النَّقْع : الغبار ، وأكثر مايستعمل فى الغبار الذى يُثار فى المعارك .

قلوب مليون نسمة من العرب وأربعمئة مليون من المسلمين ، وجزاك الله عما قدمت للعرب أكرم جزاء وأوفاه .

كنتُ يومئذ فى العقد الثانى من عمرى شابًا ينبض بين جنبيه قلب يتلفت إلى مجد آبائه ويحن إلى تاريخهم حنينًا طويلا كأنه لوعة ثكلى على وحيدها ، وكانت مصر كلها لا تزال ترسل الصرخة إثر الصرخة طالبة أن تنال فى الحياة حريتها التى استلبها البغاة الطغاة شياطين الأرض ، وكانت الدماء فى أبداننا تريد أن تطفى ظمأ الأرض المصرية بما يجرى على ظهرها من دماء الشهداء حتى تمحوا عار الاحتلال عن هذه الأرض المطهرة ، ولكن زعماءنا أبوا إلا السلم وطمعوا أن ننال حقنا بالمفاوضة ، أى بخديعة الغاصب حتى ينخدع لنا فيترك لنا ما سلب .

ثم أصبحنا يومًا فإذا بنا نسمع عن « أسد الريف » الذى هب من غابه ونفض نواحيه وزمجر واجتمع للوثبة ، وإذا هو يضرب يمينًا وشمالا لا يدع للأسبان متنفسًا حتى اضطرهم إلى أقبح مواطن الذل تحت قدميه ، وأوردهم شرائع العار شَلًّا [(١)] وطردًا حتى سجدت له تلك الجباه المتغطرسة فى حمأة من الضراعة والذل .

كانوا يريدون أن يسوموا أهل مراكش أن يسجدوا لهم فى مثلها ، فأبيت إلا أن تعرفهم أقدارهم تحت هاتين القدمين الطاهرتين النبيلتين ، فأتم لك الله النصر عليهم كما شاء .

ثم أراد الله أن يعرفنا ويعرفك أن أنذل من النذل ناصره على نذالته ، فهبت إليك تلك الدولة الأخرى المعروفة باسم فرنسا ، وهى يومئذ ثانية أمم الأرض فألبت عليك جيوشها وجحافلها « وبيتانها » [(٢)] ؛ وفزعوا إلى نصرة الأسبان المهزومين ، وظلوا يستجيشون عليك ، أنت الضعيف الفرد ، كل ما آتاهم الله من بسطة فى العلم وقوة فى البأس ، حتى غلبوك على أمرك ، ثم خدعوك ، ثم غدروا بك ، ثم نفوك على عادتهم من فساد الطوية وحقارة الفعل . فأصبح كل عربى

---

(١) الشَّلّ : السَّوْق العنيف الشديد .

(٢) بيتان : مرشال فرنسى مشهور ، كان قائد جيوش فرنسا ، ثم استسلم لجيوش المحور ، وكوّن حكومة فيشى .

على ظهر الأرض يحس أنه الأسير المنفى المغدور به ، وانطوت قلوبنا على بغض لا ينام لهذه الأمم التى لا شرف لها ولا ذمة ولا عهد .

ثم تقضت الأعوام وشارفتُ الأربعين ، وإذا أنت حر طليق فى أرضى وبلادى ، فما كدت أسمع ذلك حتى انطوت أيامى وعدت كما كنت فى نحو العشرين ، شابًّا يحس دماءه تغلى لهذا النبأ كأننى انطلقت من الأسْر وخرجت من المنفى لأعيش حرًّا طليقًا كما تعيش أنت اليوم فى مصر . ومصر هى أم المروءات ، فإن ساء ذلك فرنسا أمَّ الغدر والخيانة ، فإننا لن نفارق أخلاقنا وأخلاق آبائنا لكى نعينها على آثامها ومساوئها ، بل سنرد عليها بغيها مهما لقينا فى ذلك من سوء أخلاقها وقبح فعالها .

ونحن لا نعلم علمًا يقينًا ماذا فعلت بك هذه الأمة الحريصة على ابتذال عرضها بين الأمم ، أيام كنت فى مَنْفاها ، ولكن كفانا طول الاستقصاء أن نعلم أنها حرمت على تلك الألسنة العربية الصغيرة فى أبنائك أن تعرف منطق آبائها وأسلافها ، فقد اضطرتها بجبروتها وقسوتها أن تتجافى عن الكلمة العربية التى تمثل للعربى أمجاد أمته فى ألفاظ من نور هذه اللغة الشريفة . وسيقولون إنك أنت الذى أردت لأبنائك أن ينشأوا على ذلك اللسان الفرنسى ، ولكن كذبوا فما من عربى يطيق أن يدع أبناءه الأحرار فى أسر لغة أخرى غير اللغة الحرة التى عاش عليها آباؤهم وأجدادهم . ولست أشك فى أنهم قد اتخذوا لذلك كل وسيلة حتى لم يدعوا لك حيلة تدفع بها عن قلبك حسرة الأب العربى وهو يرى أبناءه ينشأون غرباء عن لسان أمهاتهم اللاتى أرضعنهم بدَرّ عربى حر آبٍ للضيم طالب للعزة والشرف والنبل .

وقد أراد الله غير ما أرادوا ، فها أنت اليوم بين أهلكِ وعِشيرتك من أهل مصر ، وهؤلاء أبناؤك هم أهلنا وإخوتنا ، وهذه مصر بلادهم لهم فيها ما لنا ، فعن قليل يهدم اللسان العربى ذلك اللسان الفرنسى ، ويرتد العربى عربيًّا كما أراد الله له أن يكون ، كما ردك الله حرًّا كما أراد لك أن تكون . وأما فرنسا فقد رد الله غيظها فى صدرها حتى يأكل منها ما بقى مما تستطيل به على الناس .

لا تأس أيها الرجل على ما فات ، فإن فى الذى لقيه الناس من بعدك لعزاء لك

عما لقيت فى منفاك ، وإن الذى أنت فيه اليوم لهو نعمة مَنَّ الله بها عليك لتحمل مرة أخرى سيف الجهاد فى سبيل أمته التى أنزلت بها فرنسا من بطشها ومظالمها ما لا قبل لأحد بالصبر على مثله . وقد ردك الله إليها لترى رأى العين ماذا فعل بعدك هؤلاء القوم بقومك ، ولتشهد مصارع الأحرار من أنصارك ، ولتملأ قلبك من القوة التى تفل الحديد وتنسف الجبال وتجتاح الجيوش - قوة الإيمان بالله الذى لا يخذل من نصره ونصر أولياءه بالحق فى يوم الجهاد .

إن فرنسا لم تدع فى تونس والجزائر ومراكش مكانًا إلا نفثت فيه من سمها ، أو ضربت فيه بإبرتها (١) ، أو تدسست إليه بغدرها وجهالتها . إنها أمة لم ترع ذمة للإنسانية ولا للمروءة ولا للشرف ولا لشىء مما يصير به الإنسان حيًّا متميزًا من سائر الوحوش والضوارى - أمة تفترى على الناس افتراء مقيتًا ثم تتبجح على الناس باسم الحرية والإخاء والمساواة ، أمة من الأذلاء لم يكد الغازى يغزو بلادها فى الحرب الماضية حتى ألقت سلاحها وسجدت على مواطئ قدميه تمسح عنهما غبار الغزو ضارعة متذللة ، أمة لم تأنف آلاف مؤلفة من أبنائها أن تطلب التجنس بالجنسية الألمانية يوم أصابتها هزيمة واحدة فى أول حرب تهزم فيها ، ولم تستنكف نساؤها أن تفتح الأغلاق للغزاة غير متورعات ولا كريمات .

إننا أيها الأمير نبغض هذه الأمة كأشد ما يبغضها دمك الذى يجرى فى عروقك ، لأننا إخوة جمعتنا رحم واحدة هى العروبة ؛ ونحن لا نخصها وحدها بهذا البغض ، بل نبغض كل أمة على غرارها قد استحلت مرعى البطش واستطابت ثمار البغى والعدوان .فنحن العرب لم نولد لنعيش ، بل ولدنا لنعيش أحرارًا فى الدنيا ، ولنعلم أهل الدنيا معنى الحرية ، وكيف تكون الحرية . ولئن قعد بنا اليوم عجز عن تعليم هذه الناس ، فعن قريب سوف يأذن الله لنا بأن نأخذ بالأسباب التى تتيح لنا أن نعلمهم ما خلقنا من أجله ، وعن قريب تنقشع عن عيون كثيرة ضلالات كثيرة أوهمتها أن العرب أمة متخلفة قد نفض الزمن منها يديه فصارت كَلًّا وعالة على أهل الأرض .

---

(١) وكذلك تفعل العقارب ، فسمّها فى إبرتها .

إن العربى من أمثالك هو الذى سيشهد تراب هذه الأرض فى يوم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا ، أن فضائل البشرية كلها لم تزل حية على فطرتها الأولى فى هذه القلوب الزكية المطهرة ، قلوب العرب ، وأن العالم سيكون أسرع تقبلا للمعانى العربية فى الحرية والإخاء والمساواة من تقبله لتلك المعانى الفرنسية التى تلفعت بالجشع واللؤم والغدر والخداع ، وأن العربى هو وحده الذى يستطيع أن يحقق على هذه الأرض معنى الحرية والإخاء والمساواة لأنه حر بالفطرة لم يألف ذلا قط ، ولأنه أخ لمن آخاه لأنه لا يعرف الغدر ، ولأن الناس عنده سواء لأنه لا يفتات على أحد ولا يفترى على سواه من الناس .

وأنت أيها الأمير سيف من سيوف الله ، ونحن جند من جنود الله فعش بيننا سيفًا مصلتًا مسلولا على أعناق البغاة والطغاة والظلمة ، حتى يأتى اليوم الذى كتب الله لك أن تكون فيه ذبحًا لعدونا وعدوك ونصرًا لأمتنا وأمتك ، ومخرجًا لبلادنا وبلادك من ظلمات الأسر إلى نور الحرية .

والسلام عليك ورحمة الله

* * *

شعب واحد ، وقضية واحدة !

يقول العربى الأول :

وحولى من هذا الأنام عصابة	توددها يخفى ، وأضغانها تبدو
فما العيش إلا أن تصاحب فتية	طواعن ، لا يعنيهم النحس والسعد
إذا عربى لم يكن مثل سيفه	مضاء على الأعداء أنكره الجد
يضارب حتى ما لصارمه قوى	ويطعن حتى ما لذابله جهد[١]

فهذا العربى الذى اكتنفته عصابة شر أخرجت له أضغانها ، قد كاد يمثل لنا أمر العرب كلهم فى أيام الناس هذه . فما من أمة من الأمم الغربية وأشباهها إلا أحاطت بنا عداوتها من كل جانب ، تسر ذلك حينًا وتستعلن به أحيانًا كثيرة . وليتها رأت ذلك حسبها من وغر الصدور ، بل جاوزت ذلك إلى الاستخفاف بمئة مليون من الناس خلق الله ، تنظر إليهم كما ينظر السيد إلى عبده ورقيقه ، وتعاملهم كما تعامل المرأة الطاغية أَمَة جعلها الله تحت يدها ، فهى تسومها الخسف كأشد ما يبغى الضعيف حين يستمكن له سلطان وبطش . وقد مضت العبر بأن هؤلاء القوم لا يكادون يفهمون إلا اضطرارًا ، وبالقهر والغلبة ، كما لم يفهم السادة يوم استبدوا أن الرقيق لن يصبروا طويلا على الذل ، حتى جاء اليوم الذى حمل الرقيق على المركب الوعر فثاروا واستنقذوا حريتهم قوة واقتدارًا . وكذلك نحن لن نبلغ شيئًا فى إفهام أولئك القوم أن عملهم سئ العاقبة ، مهما توسلنا إلى إفهامهم بالدعاية والمناشدة ، بل لن نبلغ شيئًا إلا يوم يستوى لدينا بحق معنى الموت ومعنى الحياة الحرة ، فضلا عن معنى الموت ومعنى الحياة الذليلة .

فمن العبث إذن أن ندعو هؤلاء القوم إلى سواء بيننا وبينهم ، لأن القوة قد

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٠) ، يونيو ١٩٤٧ ، ص : ٧٢٢ - ٧٢٤

(١) الذابل : الرمح الأسمر الصلب .

أسكرتهم فأطاشت حلومهم ، وتركتهم لايدركون إلّا ذلك المعنى الخسيس للحياة ، معنى الفائدة العاجلة بغير نظر إلى عدَل ولَا نصفة . وهم قوم تقوم حضارتهم على تزييف الشرور حتى تبدو فى صورة الخير ، وتدليس شريعة الوحش حتى ترى شريعةِ إنسان أنعم الله عليه بالعقل والعاطفة ليوازن بينهما موازنة تجلب عليه السعادة فى الدارين . ومن العبث أن تحتال عليهم بما يسمونه « السياسة » ، فالقوى وحده هو الذى يعرف كيف يستفيد من « السياسة » أما الضعيف فاعتماده على السياسة وبال مستطير الشر ، يهدمه ويصرعه ، ويمكن لعدوه أن يفترس منه حيث شاء وكيف شاء .

فلا مجاز لنا نحن العرب إلا أن نعرف أنفسنا ، وأن ندرك حقيقة حياتنا ؛ وأن نؤمن بأن القوى لا ينال بقوته بل باستسلامنا ، وأنه لا يحيف علينا ببطشه بل بتهاوننا واستصغارنا لشأن أنفسنا ؛ وأن أجهل الجهل أن يظن ظان أن مئة مليون من خلق الله يمكن أن يفنوا على بكرة أبيهم بسطوة ساط أو بغى باغ ، وأنهم هباء لا يزن فى ميزان القوة جناح بعوضة ، وأنهم غنم مسيرون يُهاهِى [(١)] بهم راع عنيف تسوقهم عصاه إلى حيث أراد . نعم لا معدى اليوم لكل عربى من أن يحس فى قلبه مؤمنًا بما يحس ، أنه خُلِقَ لعصيان أمر الرعاة الطغاة ، وأنه مأمور من عند مَن خَلَقَه أن يثبت فى مكانه لا يطيع عصا الراعى ولا زمجرته ولا زئيره ولا إرهابه ، وأنه مكلف يحمل أمانة من لدن دبت على الأرض قدم عربية ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من عجم ومن عرب .

فالعربى اليوم هو أعظم الناس حملا للتكليف ، لأنه يحمل وزر ما هو فيه من ضعف ينبغى أن ينفض عن نفسه آصاره [(٢)] ، ويحمل حق أجيال مقبلة توجب عليه أن يعمل ويمهد لها فى هذه الأرض ، ويحمل أيضًا أمانة آباء وأجداد وأسلاف مهدوا له هذه الدنيا التى يسكنها من أطراف الهند إلى أقصى مراكش ، ومن حدود تركيا إلى أقصى السودان . هذا ، وهو يعيش فى عالم عدوّ له قد قبض

---

(١) يُهاهِى : يَزْجُر .

(٢) الآصار : جمع إِصْر ، وهو الثِّقَل الذى يُعجز الإنسان فلا يستطيع حِراكا .

على زمام الكون ، واستولى على عناصر القوة ، ونال أسباب السماء وأطاعته نواحي الأرض ، فأى تكليف أشق من التكليف الذى يحمله هذا النبيل المسكين الذى يعيش فى الدنيا مشردًا مضطهدًا مجهولا مهضوم الحق يوميًّا بملفقات العيوب ؟

وأول ما يجب على هذا العربى منذ اليوم أن يضع بين يديه صورة أرضه التى توارثها عن آبائه بالحق الذى لا ينازعه فيه منازع إلا مستطيلا أو متهجمًا : أرض تبلغ مساحتها مساحة قارتين من قارات الدنيا ، ثم يقول لنفسه : هل يستطيع أحد أن يبيدنى ويبيد أهلى وعشيرتى ويستأثر بهذه الأرض يفلحها أو يعمرها أو يقيم فيها للإنسانية حضارة أو دولة ؟ وهل يستطيع أحد أن يقسرنى قسرًا على ما لا أريد أن أفعله مما يحب هو أن يتم له ؟ وهل يستطيع أحد أن يأخذ قلبى من بين جنبى ليصرفه فى هواه كما يشتهى أو يريد ؟ وجواب ذلك كله « كلا ! » ولا ريب . ففيم إذن أخدم نفسى لمن لا يريد إلا إذلالى ، والفتَّ فى عضدى ، وأكل أرضى وما أنبتت من نبات وحيوان وإنسان ؟

فهذا شأن الفرد الواحد ، فما ظنك إذن بمئة مليون يكونون على قلب هذا الفرد الواحد ، يدًا واحدة ، ورأيًا واحدًا ، وعملا واحدًا ، وإصرارًا على أن لا ينازعنا أحد فى حق نحن أصحابه وحماته والمكلفون بحياطته ورد العادية عنه ؟ فإذا آمن العربى بهذه العقيدة التى لا مناص له عن الإيمان بها ، فهل يدور فى وهمك أن أحدًا يجرؤ على غصب العرب على ما لا يريدون ، أو حملهم على شيء يصرون إصرارًا على أن لا يقبلوه ؟

إن قضية العرب قضية واضحة بينة المعالم : هى أننا لا نريد إلا أن تكون بلادنا جميعًا مستقلة حرة ، لا يحتل عراقها جندى واحد ، ولا تخضع جزيرتها لسلطان ملوك البترول ، ولا ينال نيلها من منبعه إلى مصبه سلطان بريطانى أو غير بريطانى ، ولا تقع شامها ولبنانها تحت سطوة غاصب ، ولا يعيث فى أرجاء مغربها فرنسى خبيث القول والفعل مجنون الإرادة . وهذا كله شيء لا يملك كائن من كان أن يجبرنا على خلافه أو على الرضى به .

ونحن العرب قد أصبحنا دولا لكل دولة منا سياسة يخشى أن تكون ناظرة إلى

استجلاب منفعة خاصة ببلد دون بلد ، ويخشى أن تكون كلمتنا فى قضية العرب لا تزال محصورة فى دائرة أصحاب الأقلام دون أصحاب الحكم والسلطان ، ويخشى أن تكون أعمالنا مفرقة لا تجتمع إلى نهاية واحدة فى وقت واحد . وإذن فلابد منذ اليوم أن نسن لأنفسنا سياسة جديدة فى كل شأن من شئون العرب ، تجتمع بها كلمتنا وأهدافنا وأعمالنا حتى تبلغ الغاية جملة واحدة ، ويدًا واحدة وفى وقت واحد . وينبغى أن لا نرضى منذ اليوم أن تفرق قضية العرب وتجعلها قضايا ممزقة : هذه قضية مصر والسودان ، وتلك قضية فلسطين ، والأخرى قضية طرابلس وبرقة ، والرابعة قضية تونس ، والخامسة قضية الجزائر ، والسادسة قضية مراكش ، والسابعة قضية العراق .. بل إن هذه القضايا كلها قضية واحدة لا تنفك منها واحدة عن أختها أبدًا .

والعمل لهذه القضية الواحدة ينتظم أفراد العرب ، من ملوك إلى وزراء إلى ساسة إلى أصحاب الأعمال إلى جماعات المثقفين إلى عامة الناس ، ويحمل عبئها كتاب العربية لأنهم هم اللسان الناطق بما يعتلج فى صدور هذه الفئات كلها ، وهم المسددون لخطوات الشعب ، وهم بناة المبادئ والمدافعون عنها والداعون إليها ، وهم الذين يحملون الحكومات العربية على انتهاج خطة واحدة ، وعلى الإيمان بمبدأ واحد ، وعلى الوقوف فى ساعة العسرة موقفًا لا ترتد عنه قيد أنملة لإيمانها بأن العرب قوة لا تلين لغامز [١] ، وبأنهم أهل أرض تقع فى قلب العالم لا يطيق معتد أن ينال منها نيلا ، إذا ثبتت له كعادة آبائهم وأجدادهم فى الدفاع عن الحوزة والحمى .

ونحن العرب نجهل اليوم أننا قوة كأقوى ما فى هذه الأرض ، يجهل ذلك أفرادنا متفرقين . وتجهله حكوماتنا موزعة الأهواء والأهداف ، ويجهله ساستنا بما كتب الله عليهم من محنة هذه السياسة . فنحن اليوم أحوج ما كنا وما نكون إلى معرفة حقيقة هذه القوة ، وإلى إدراك ما تقتضيه هذه القوة أيضًا .

---

(١) الغامز : غَمَزَ العُود : جسَّه ، لكى ينظر أين يلينه ويقيمه .

فالرجل الذى يعرف أنه قوى ينبغى أن يجعل قوته عملا ظاهرًا لا يرتد مخافة إرهاب أو نكبة أو شر يلاقيه . فإذا شاء رجال العرب وأماثلهم أن يصبحوا فى تاريخ العرب مجدًا لا ينكسف ضوؤه أبد الآبدين ، فليستلهموا تاريخ أسلافهم الذين خرجوا من أرضهم وديارهم شعثًا غبرًا جياعًا ، ولكنهم خرجوا أيضًا مؤمنين بأن كلمة الله هى العليا ، وأن حقهم ، وإن قل ناصره ، أقوى من باطل سواهم وإن كثر أعوانه والعاملون له . وعليهم أن يزأروا زئير الأسد فى غابه ، حتى يستيقظ النائم ، ويتأهب الأعزل ، ويجتمع المتفرق ، وعليهم أن يحاصروا عدوهم بالمدافعة عن حقهم ، قبل أن يحاصرهم بالتهجم على حقوقهم ، وعليهم أن يعلموا علم اليقين أن العربى حين يمد يده إلى سيفه ، فهو يمدها إلى قوة زاخرة لا تزال تنحدر إليه منذ آلاف السنين بمدد لا ينضب من العزة والشرف والمجد الذى تناله يد المتطاول .

إننا قوة لن يتجاهلها أحد مهما بلغت قوته إلا كنا شجى فى حلقه ، لا مجازًا وبلاغة ، بل هى الحقيقة المجردة عن كل مبالغة .

* * *

إننا قوة سوف تجبر بريطانيا وروسيا وأمريكا وسائر أمم الغرب على أن تعرف أن العرب ، قد أفاقوا فى العصر ، وأنهم قد عزموا على أن ينالوا حقهم أو أن ينتزعوه انتزاعًا من كل من تسول له نفسه أن يهتضم حقوق الناس ويأكل أموالهم ويعيث فى بلادهم فسادًا وطغيانًا وشرًا . إننا نحن العرب أمة واحدة فى دول متعددة ، وسنكون أمة واحدة تحمى حقوق الضعفاء من أى الناس كانوا . إننا نحن العرب أمة قوية وإن ظن الناس بنا الضعف ، ونحن أصحاب هذه الرقعة من الأرض ، سوف تكون خالصة لنا دون الناس لا تشاركنا فيها دولة بريطانية ؛ أو دولة صهيونية أو دولة فرنسية .

وعن قريب سوف تقول حكومات العرب كلمتها ، وسوف يجتمع رأينا على أننا لن نرضى بأن نجعل قضيتنا أجزاء يتلعب بها هذا ويلهو بها ذاك ، إنها قضية واحدة ، يرفعها شعب واحد ، مطالبًا بحق واحد ، هو أننا أحرار فى بلادنا .

* * *

هذه بلادنا

هذه بلادنا : العراق ، وسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، وشرق الأردن ، وجزيرة العرب ، واليمن ، ومصر والسودان ، وبرقة ، وطرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش - هذه بلاد العرب التى ينطق أهلها اللسان العربى ويدين أكثرهم بالإسلام ، فهما من أجل ذلك جبهة واحدة ممتدة من الشرق إلى الغرب ، وتملأ رحابها أكبر قارة على وجه هذه الأرض . وهى جميعًا أرض بكر لم ينبش العلم ذخائرها المدفونة تحت ثراها الغنى ، ولم تنل يده إلا قليلا مما تقله أرضها من حيوان ونبات ، ولم تنفطر روحها بعد عن الإنسان الجديد الذى انساح فيها من قبل يوما ما ، فملأها عدلا وكانت ملء جنباتها ظلمًا وعدوانًا وبغيًا وكفرًا بالله ، ثم بالطبيعة البشرية المطهرة من أدران الحقد والأثرة والجشع وقلة الإنصاف .

فلنلق نظرة عليها جميعًا بلدًا بلدًا ، لنر ماذا فعل الله بأهلها ، وماذا كتب عليهم ، وماذا قدر لهم .

فالعراق أغنى مشارف الجزيرة العربية وأكرمها تربة ، وقد نزلت عليه بريطانيا محتلة وسامته الخسف سنين حتى عقدوا معه معاهدة لم تمنع بريطانيا من التدسس بسلطانها إلى جميع مرافقه ، فهو لا يستطيع أن يؤدى حق أرضه عليه كما يجب ، وسلطان بريطانيا هناك سلطان جائر عنيف لا يزال كما كان على أول عهد الاحتلال ، ويخشى أن يزداد فيه سلطانها وسلطان شريكتها ووارثتها أمريكا ، بما جد من شئون النفط والبترول وما إليهما .

وأما سورية ولبنان ، فقد جلت عنهما فرنسا جلاءً تامًا على أثر الأحداث العالمية التى جاءت مع الحرب الماضية ، فاستردتا استقلالهما بغير قيد ولا شرط . ولكن يخاف عليهما ما يخاف على سائر البلاد العربية من تسرب السلطان

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٢) ، يوليو ١٩٤٧ ، ص : ٧٧٧ - ٧٧٩

البريطاني والسلطان الأمريكي ، وطغيان هذا السلطان بالضرورة الملحة الملزمة ، إذا قدر لهما أن تظلا محاطتين من جميع النواحي بالمواقع التي فيها لهذا السلطان أثر قوي .

وأما فلسطين ، فهي الأرض المظلومة المضطهدة التي أراد بغي بريطانيا وأمريكا أن يجعلاها وطنًا لأعوانهم من نسل إسرائيل ، ومعنى ذلك أن تصبح فلسطين كهف الجشع البريطاني الأمريكي ، يعمل له وفيه جيل من خلق الله الذين عرفوا بالخسة وقلة المبالاة وعدم الورع فيما يأتون وما يذرون ، وهم ولا ريب يؤيدون سياسة بريطانيا وأمريكا في فرض سلطان القوة وسلطان المال على هذه البقعة من الأرض المقدسة ، وعلى كل مكان آخر يحيط بها من قريب أو بعيد .

وأما شرق الأردن ، فقد كفتنا المعاهدة التي عقدت بينه وبين بريطانيا أن نقول فيه قولا يصفه بأفضل مما وصفته هذه المعاهدة ، وهو أنه أرض بريطانية في قلب البلاد العربية .

وأما جزيرة العرب ، فقد تدفق عليها سلطان بريطانيا وأمريكا من كل مكان ، لأنه فرض أن آبار البترول تكاد تكون حقًّا خالصًا لهما ، يدفعان في سبيل أخذه مالا قليلا زهيدًا ، ثم ينقلانه إلى بلادهما ليكون ذخيرة من ذخائر القوة التي تحرك الآلات ، وتنتج المصنوعات وتمد أمريكا وبريطانيا بكل أسباب القوة والغلبة في هذه الدنيا الجديدة التي لا حظٌّ فيها إلا للقوى الغاصب . واستقلال جزيرة العرب أصبح اليوم مهددًا بتغلغل نفوذ ملوك البترول الذين يخدمون ولا شك سياسة بلادهم على أي وجه كانت هذه السياسة .

وأما اليمن فلبريطانيا هناك بعض السلطان ، ويخشى بعد قليل أن يتدسس إليه سلطان أمريكا أيضًا وتصبح اليمن مضطرة إلى الخضوع لما خضعت له جاراتها العربية من سلطان هؤلاء الأقوياء .

وأما مصر والسودان ، فمن الذي يجهل سلطان بريطانيا في أحد شقيه ، وهو مصر ، إنه سلطان قد ظلت السياسة البريطانية تمهد له منذ ستين عامًا بكل أسلوب

من أساليبها فى اتخاذ الصنائع ، وإضعاف الأخلاق ، وابتزاز الأموال ، وفتح أبواب الهجرة لصعاليك الأمم ، وقذف الأرض بكل سخافة من سخافات المدنية ، وحجبها عن كل جد وكل عمل يراد به خير هذه البلاد . وأما السودان ، فلم يزالوا به حتى كادوا ينتزعونه جملة واحدة ، وحتى قسموه إلى جنوب وشمال ، وحتى حرموا على أهل الشمال أن يخالطوا أهل الجنوب ، وحتى حرموا على أبنائه أن ينالوا قسطهم من العلم والحرية والتجربة فى هذه الدنيا المملوءة بالعلم والحرية والتجربة .

وأما برقة وطرابلس فقد انتهت بهما الحرب إلى أن صارتا تحت سلطان بريطانيا المباشر ، ولا يدرى أحد ماذا يجرى فيهما هناك الآن على وجه التحقيق ، ولكنهما على كل حال تحت سلطان بريطانيا وشريكتها أمريكا .

وأما تونس والجزائر ومراكش فهى أسوأ بلاد العربية كلها حالا بوقوعها تحت سلطان فرنسا . وفرنسا هذه أمة أهل جبروت وحماقة وجهل ، فهى تتخذ العسف وتصطنع القسوة فى كل عمل تعمله فى تلك البلاد . ولكن ليس يدرى على وجه التحقيق ما الذى تضمره بريطانيا وأمريكا لفرنسا وحكمها فى تلك البلاد . أتريد حقًّا أن تؤازر [(١)] فرنسا مرة أخرى على استعادة بعض مجدها وسلطانها فى هذه الدنيا ، وبذلك يزداد طغيانها وبغيها على أهل تونس ومراكش والجزائر ؟ أم تراهما يريدان أن يحتالا حتى يزيلا فرنسا عن تلك البلاد ليفرضا معًا عليها سلطانًا بريطانيًّا أمريكيًّا - إما متعاونتين وإما منفصلتين ؟ ومهما يكن من شىء فالذى فيه هذه البلاد اليوم ، أو الذى يخشى أن يقع عليها غدًا هو أن السلطان الأجنبى هو السائد فيها قوة واقتدارًا .

فأنت ترى غير مرتاب أن هذه الأمة العربية التى تعيش فى كل هذه البلاد العربية ، قد أصبحت هدفًا لأطماع دولتين متحدتين فى أغراضهما وأهدافهما : هما بريطانيا وأمريكا . فهل يشك فى هذه الحقيقة أحد ؟ كلا ولا ريب ، وإذن

---

(١) كذا فى الأصول ، وحق الكلام التثنية ، أى : أتريدان حقًّا أن تؤازرا ، ألا تراه قال بعد : « أم تُراهما يريدان أن يحتالا ... » .

فنحن أمة واحدة مقسمة اليوم إلى أمم متعددة تواجه فى الميدان جبهة واحدة لها أغراض لا تختلف ولا تفترق . وهذه الجبهة الواحدة لم تزل تتعاون بأسلوب بعد أسلوب فى تنفيذ أغراضهما فى كل بلد من بلادنا ، وتتآزران على فرض سلطانهما مجتمعًا أو مفترقًا ، وتتوسلان إلى ذلك بالوسائل التى تتاح لكل منهما فى كل بلد من هذه البلاد .

فالآن وقد تبين أننا أمة واحدة مقسمة إلى أمم ، وأننا نلقى عدوًّا واحدًا هو بريطانيا وأمريكا مجتمعتين يضربان بسلاحهما غدرًا هنا وهناك وثمة بلا رحمة ولا شفقة ولا إنسانية ، فقد أصبح لزامًا علينا وفرضًا لا مخلص لنا منه أن ننظر إلى الحقيقة الواحدة التى لا يختلف عليها إلا من نزع الله من قلبه البصيرة الهادية إلى سُبل الرشاد ، ألا وهى الاتحاد التام فى لقاء هذا العدو .

ومنذ سنوات أجمعت طائفة من أمم العرب على تكوين الجامعة العربية ، واشترطوا فى الأمة التى تصير عضوًا فى هذه الجامعة أن تكون مستقلة . ومعنى ذلك هو الاستقلال المعترف به دوليًا ، لا الاستقلال الحقيقى ، فإنهم لو طلبوا ذلك لما كان فى الجامعة العربية عضو واحد من هذه الأمم التى ذكرنا . فالجامعة العربية كما هى الآن لا تفى البتة بحاجة العرب ، ولا تقوم على الأساس الصحيح الذى ينبغى أن تقوم عليه . نعم إن الجامعة العربية لم تقصر فى الدفاع عن حق العرب جميعًا تقصيرًا تُلام عليه ، وهى تبذل غاية جهدها فى صد عدوان المعتدين عليها ، وتبذل أقصى جهدها فى أم المشاكل العربية ، وهى مشكلة فلسطين التى سوف تكون يومًا ما ، أول شرارة تنطلق فى تاريخ العرب الحديث لتنير لنا الطريق السوى الذى ينبغى للعرب أن يسلكوه .

ولكن لابد منذ الآن أن تعمل الجامعة العربية على ضم سائر البلاد العربية الأرض واللسان ، لتكون شعوب هذه البلاد كلها جبهة واحدة ، ذات سياسة واحدة ، وأهداف واحدة ، وقيادة واحدة ، حتى نلقى فى الميدان ذلك العدو الواحد المتآزر على هلكة العرب ، وهو بريطانيا وأمريكا . وإنه لا معنى لأن تبقى فلسطين وتونس ومراكش والجزائر وبرقة وطرابلس غير ممثلة فى جامعة الدول

العربية تمثيلاً صحيحًا كسائر الدول العربية ، فإن مهمة الجامعة هي أن تعمل على أن تجعل هدفها الأول أن تتخذ كل وسيلة لضم شتات العرب فى هذه الدنيا ، كما فعل اليهود من أهل الأجناس المختلفة فى توحيد قيادتهم وجعل قضيتهم قضية واحدة ، وهم معتدون على أرض ليست لهم ، ونحن أهل أرض واحدة نملكها نحن العرب ملكا لن ينازعنا فيه أحد . وليس من الرأى ولا من الحكمة أن نترك هذا العدو الواحد يلقانا فى أكثر من جهة واحدة وهو صاحب القوى الطاغية الباغية ، وأن نظل نحن متفرقين ليس يجمعنا نظام واحد تحت قيادة واحدة تعمل لهدف واحد هو تحرير البلاد العربية كلها جملة واحدة من هذا النير المضروب عليها . وكما قلت من قبل إننا شعب واحد ، وقضيتنا قضية واحدة ، فلا معنى لأن نجعل هؤلاء يتلعبون بنا ، ويقسموننا ويفرقون بين قلوبنا ، ويشغلوننا حينًا بهذه القضية ، ثم يعملون فينا حتى نيأس ، فإذا بقضية أخرى تستنفد جهودنا ، ثم أخرى ثم رابعة . كلا ! هذا فساد فى الرأى وضلال قديم قد جربناه فألفيناه وبالا علينا ونقضًا لقوانا وتمكينًا للعدو من أنفسنا .

إنه لابد من تجديد النظر فى شأن الجامعة العربية ، فإن العرب قد هبوا بعد هذه الحرب من رقدة طالت عليهم ، وهم مقبلون على العالم شُعثًا غُبرًا كما أقبل آباؤهم من قبل ، وهم ينظرون إلى مدنية عظيمة قد بلغت غايتها وهى اليوم فى سبيل الانحدار إلى الهوة العميقة التى طمرت فيها مدنيات سالفة لم تكن أقل منها شأنًا ولا أضعف خطرًا . وينبغى أن تعلم جامعة الدول العربية ، أو الجامعة العربية ، أن عملها ليس سياسة محضًا بل هو أيضًا حض وتحريض وبعث لهذا الجيل من الناس المعروف باسم العرب ، حتى تتم يقظته وحتى يعرف أى شيء يستقبل وأى شيء يستدبر ، ليرث هذه المدنية التى أوشكت أن تزول عن وجه هذه الأرض .

إنه قول جرىء ، ولكنه حق ملء السمع والبصر ، حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلنأخذ أهبتنا قبل أن تأتى الساعة التى نضطر فيها إلى العَجلة التى كان لنا عنها مندوحة ، إن كل عربى قد فرض عليه واجب هو أقدس الواجبات فى هذه الدنيا – ألا وهو الأمانة التى يرث بها الأرض ويكون فيها

خليفة يصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك الدماء ولا يأكل حقوق الناس بالبغى والعدوان . والجامعة العربية إذا بُنيت على هذا الأصل وقامت على هذه الفكرة ، فقد أدت للبشرية أكبر خير أُدى إليها على وجه الدهر ، وقد استنقذت حضارة الإنسان من الهلاك المحقق على يد الجنس الأوربى ، بل لعلها لم توجد فى هذا الوقت من هذ العصر إلا لتؤدى هذه المهمة وحدها بعد أن تجمع شمل العرب وتقف بهم صفًّا واحدًا يقاتل طغيان عدوها المستبد الذى يلقاها بسلطانه الجائر ، ويقاتل أيضًا ذلك السلطان الذى انفجر من ملتقى القارتين ، أوربة وآسية ، لكى يكون دمارًا لنفسه وللحضارة الأوربية الفاسدة الضحلة .

ونحن العرب – فيما أرجو – لن نباع منذ اليوم فى سوق الرقيق التى يسمونها « هيئة الأمم المتحدة » ، فقد عرفنا بالتجربة كيف فعلت هذه الهيئة فى مسألة فلسطين وسواها من عربدة القوِىّ الذى أطارت صوابه نشوة السلطان المُسكر .

* * *

شهر النصر

كان محمد ﷺ ، قبل أن ينبأ [١] رجلاً من العرب ، ثم كان أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث [٢] فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود مثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . ومن يومئذ صار هذا الرجل من العرب رسول الله الذى وجبت على الناس كافة طاعته والامتثال لأمره فيما نهى عنه وما أمر . وذلك أول الإسلام الذى نفض العرب من بواديهم حتى ملأوا الأرض عدلا وإيمانًا وتكبيرًا باسم الله العلى الأعلى .

وقد فجئه الحق وهو بغار حراء فى يوم الاثنين لثمانى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، فيومئذ نزل أول القرآن إذ قال له الملك : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زمّلونى زمّلونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى ! » فقالت خديجة : « كلا ، والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لَتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

فكان كما قالت رضى الله عنها ، فلم يخزه ربه الذى أرسله بالحق ليهدى الناس إلى صراط مستقيم . وذلك أول الإسلام .

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٤) ، يوليو ١٩٤٧ ، ص : ٨٣٥ - ٨٣٧

(١) ينبأ : أى قبل أن يحمل إلى الناس نبأ ربه .

(٢) تحنَّث : تعَبَّد واعتزل الأصنام .

ثم كانت سنة ثنتين من الهجرة ، ففى يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان كانت غزوة بدر الكبرى ، وهى الوقعة العظيمة التى فرق الله فيها بين الحق والباطل ، وأعز الإسلام ودمغ الكفر وأهله ، وكانت فيصلا فى تاريخ الإسلام . ويومئذ حقق الله للمؤمنين ما وعدهم إذ يقول : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ثم قال الله تعالى يمن على المؤمنين ما أكرمهم به : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

فكانت بدر الكبرى هى المنة العظمى على البشر جميعًا ، إذ أتاح الله يومئذ للمسلمين أن يسيحوا فى الأرض ، وأن ينصروا الله وأن يجعلوا كلمته هى العليا ، وأن يردوا العرب إلى شريعة أبيهم إبراهيم عليه السلام وهى الحنيفية السمحة ، فانكشفت خلائق العرب بنبلها وكرمها وعدلها وصفائها حتى لم يبقَ على ظهر الأرض من بلغته الدعوة ، أو من رأى هؤلاء الأحرار المؤمنين حتى تبع قبلتهم وآثرهم بالحب ، فمكّن الله للعرب أن يفتحوا الأرض ويثلوا العروش ويملكوا ما أظل ملك كسرى وقيصر فى ثمانين عامًا ، وأقاموا حضارة قامت على العدل والمساواة والإنصاف والتسامح ، وعلى رعاية أهل الأديان وحياطتهم ، وعلى رد بغى الباغين وعدوان المعتدين من أى مِلة كانوا .

كان الإسلام فيصلاً حقًّا فى تاريخ الأديان ، وكان أول أمره فى يوم الاثنين لثمانى عشرة ليلة خلت من رمضان ، وكانت غزوة بدر الكبرى التى نصر الله فيها أهل الإسلام من العرب فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان . ثم شاء الله أن يدور الزمن دورته على مجد العرب وحضارة العرب ، وأن تكون مصر والسودان مناط آمال العرب فى هذا العصر ، وشاء ربك أن ينعقد إجماع مجلس

الأمن على أن تعرض قضية مصر والسودان فى يوم الثلاثاء بعد أن تخلو من رمضان ثمانى عشرة ليلة من سنة ١٣٦٦ من الهجرة ، وهو اليوم الموافق للخامس من أغسطس سنة ١٩٤٧ من ميلاد المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام . إنها إن شاء الله بشرى الحق بأن الله قد كتب لقضية مصر والسودان أن تخرج من معمعة مجلس الأمن مؤيدة بنصر الله ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ . فهذا شهر مبارك قد عوّد الله فيه العرب والمسلمين أن ينصرهم على عدوهم ، وأن يمكّن لهم فى الأرض ، وأن يؤيدهم بالنصر فى ساعة العسرة حيث هم قليل مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس ...

ولا يستهينن أحد بخطر هذه القضية ، فإن مصر والسودان هى قلب إفريقية أولا ، ثم هى قلب العالم العربى ، ثم هى قلب العالم الإسلامى كله . فالنصر الذى سوف تناله إن شاء الله على بريطانيا هو نصر لهذه الثلاثة واجتماع لكلمتها ، وتاريخ جديد لحياة إفريقية وحياة العرب وحياة الإسلام .

إنها ساعة فاصلة فى تاريخنا ، فعلى كل مصرى سودانى أن يعد عدة الجهاد ، وأن يملأ منذ اليوم كنانته ، وأن ينصر هذا الوفد الذى سافر إلى أمريكا بيده وقلبه ولسانه ، وهذا فرض واجب لا يكاد يسقط عن أحد منا من ذكر أو أنثى . فإننا فى ساعة يصنع فيها التاريخ ، ولن يخطئ المخطئ المتعمد ، أو يولى المقاتل المتهيب إلا كان ذلك فتًّا فى أعضاد المجاهدين الذين رموا بأنفسهم فى وطيس المعركة .

ونحن نناشد زعماء الأحزاب الذين تعوّدوا الخلاف والنزاع أن يكفوا غرب ألسنتهم عن إخوانهم الذين سبقوهم اليوم إلى جهاد عدوهم ، وأن يوجهوا قدرتهم على الطعان إلى نحور القوم الذين اغتصبوا حقنا وآذونا وضربونا بالذل والهوان أكثر من ستين عامًا ، ولم يرعوا فينا شيئا من إنسانية أو شرف . وكل كلمة تنال من وفدنا إلى أمريكا هى ضرب من التخذيل يسوء مصر والسودان ، ويسر بريطانيا التى تحاول اليوم أن تملأ الدنيا علينا كذبًا ، فلا نكونن إذن حربًا على أنفسنا ، وعونًا على اهتضام حقها ، ونصرًا لأعدائنا على أنفسنا .

* * *

وحقيق بمصر والسودان فى هذه الساعة الفاصلة التى شاء الله أن يوافق تاريخها الساعات الفاصلة فى تاريخ العرب والإسلام – حقيق بها أن تتوجه إلى الرجل العربى الشريف الأصل الكريم المحتد الطاهر النسب ، والذى إن شاء كان النصر الأعظم الحاسم لقضية مصر والسودان ، وكانت كلمته القضاء الفصل والحجة الدامغة لأباطيل بريطانيا ودعواها ، الرجل الذى هو ثانى اثنين [١] فى السودان ، فشق الإنجليز ما بينهما بالدسيسة والوقيعة والتخذيل حتى فرقوا بين الأخوين .

فإلى الرجل الذى مثلت بريطانيا بجثمان أبيه الطاهر ، وإلى الرجل العربى المسلم الذى يؤدى حق ربه وحق عباده خاشعًا متخشعًا لله ، وإلى المصرى السودانى الذى أراد الله أن يمتحنه بأعظم المحن فى هذه الساعة الفاصلة فى تاريخنا ، وفى هذا الشهر المبارك من شهور الإسلام – إلى السيد المهدى :

إنك أيها الشريف رجل من العرب ثم رجل من المسلمين قد أكرمك الله وأيدك وبارك لك وأعانك ، والرجل العربى المسلم لا يتخلف عن نصرة الحق بل هو كما قال له ربه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ . والرجل العربى المسلم لا يلدغ من جحر مرتين ، وبريطانيا قد لدغتنا جميعًا مرارًا كثيرة . أليس زعمها أنها حريصة على استقلال السودان وكفالة حرية أهله فى تقرير مصيرهم ، هو نفسه ما كان يوم دخلت مصر زاعمة أنها لا تريد استعمارا ولا اعتداء ، وأنها إنما تريد تثبيت العرش صدقة وتبرعًا ، فإن استتب عادت إلى بلادها وجلت عن بلادنا ؟ فهل فعلت أيها السيد الشريف العربى المسلم ؟ إنى لأنزهك عن أن تخدع بكذب بريطانيا فهى أكذب من هذه الحياة الدنيا وأغدر :

وخلائق الدنيا خلائق مومس	للمنع آونة وللإعطاء
طورًا تبادلك الصفاء ، وتارة	تلقاك تنكرها من البَغْضاء

فهذه بريطانيا العدو المحتال الذى من شيمته أن يوقع بين المتحابين ليحطم

---

(١) يعنى بالآخر : السيد الميرغنى .

بأسهما جميعًا . وهذه مصر التي ربطها الله بالسودان منذ أقدم الأزل والتي هي قطعة من السودان يراد بترها منه ، فإلى أيهما أنت أقرب ، وفى هوى أيهما أنت أرغب ؟

إننا ندعو الله الذى هدانا وهداك إلى الإسلام أن يهديك إلى الحق ويسددك وينصرك ، وأن يوفقك إلى ما يتمناه قلب كل مصرى وسودانى : أن تكون ناصر الإسلام وقاهر الأعداء ومُحِقّ الحق ومبطل الباطل ، فتضع يدك فى يد أخيك السيد الميرغنى وتخرجا على بريطانيا مرة أخرى واحدة تعلنان أن مصر والسودان أمة واحدة وأن بريطانيا كاذبة فيما ادعت علينا وعليكم ، وأن لا حياة لأحدنا إذا اقتطع عن صاحبه . افعل هذا أيها السيد الشريف العربى ، تكن أعظم مجاهد فى تاريخ إفريقية وتاريخ العرب وتاريخ الإسلام . افعل هذا فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، والذى نصر الله عباده ببدر وكانوا يومئذ مستضعفين فى الأرض يخافون أن يَتَخَطَّفهم الناس . افعل هذا أيها الشريف العربى تنل بكلمة واحدة مجد الأبطال ومجد الملوك ، ويصبح اسمك هدى ومنارًا لكل عربى وكل مسلم ما بقى على الأرض عربى أو مسلم . إننى أدعوك باسمى وباسم الصداقة التى كانت بينك وبين أبى رحمة الله عليه . أدعوك دعوة رجل صائم لله وأدعو الله أن يهديك ويؤيدك بنصره ويمكّن لك ، وفى هذا الشهر الطاهر المبارك يرجو المسلم أن تستجاب دعوته : فاللهم أعنا وانصرنا بالهدى . اللهم خَذِّل عنا أعداءنا . اللهم أنقذنا وارحمنا وكن عونًا لنا ولإخواننا فى الدين والعروبة .

أيها الشريف العربى ، إننا وقوف نترقب ، ونتوق ، ونتلهف . وظنى فيك أنك فاعل ما أراد الله من نصرك لأهله ، وأنت أهل الخير ومعدن الكرم وابن الصناديد الأماجد من بنى قَحطان . السلام عليك أيها الرجل سلام أخ وابن أخ .

* * *

فى الماضى

كنت أتمنى أن يكون لى مكان هذا القلم الأصم قلم حى نابض يصحبنى حيثما سرت ، ويلهمه الله من دقة الحس ما يجعله يتلقف كل خاطرة تومض فى أعماق نفسى ، ويشعر بكل هاجس يعتلج فى سر ضميرى ، وإلا فإن الكاتب ذا القلم أعجز من أن يطيق لمّ هذا الشعث المنثال المتتابع من الخواطر والهواجس التى تنتابه وتعتريه وهو يرى أو يسمع أو يفكر . وفى هذا اليوم بعينه كنت أشد الناس ضراعة فى التمنى أن لو أتاح الله لى مثل هذا القلم النابض الحى حتى يأخذ عنى وعما يحيط بى ، ويسجله قبل أن تمسحه عن قلبى يد الدقائق والساعات التى جعلها الزمن رصدًا على الأفكار تمحوها بالنسيان ، أو تطمسها بالفتور ، أو تعفيها بتراب الحوادث التى تجد فى كل لحظة من لحظات العمر .

* * *

خرجت أنا وصديقان لى ، هما الأستاذ علّال الفاسى الزعيم المراكشى الصابر على لأواء [١] الجهاد فى سبيل بلاده ، والأستاذ يحيى حقى القصاص المبدع فى زمن ليس للإبداع فيه قيمة ولا قدر ، وكان الذى دعانا إلى هذا الخروج فنان كهل قد ودع الصبا ولكنه تشبث بعطره ونفحاته وتوهجه ، فلا تزال تشم من فنه حين يتحدث عنه شذًا لطيفًا من عنفوان الصبا والشباب ، وذلك الفنان هو الصديق الأستاذ حسن فتحى المهندس الذى أبى أن يتعبد للهندسة ، بل أرادها أن تكون عبدًا له يخدم فنه الذى يعيش فيه ويعيش به .

كان يوم الأحد السادس عشر من رمضان سنة ١٣٦٦ يومًا قائظًا ومدًّا [٢]

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٦) ، أغسطس ١٩٤٧ ، ص : ٨٦٠ - ٨٦٢

(١) اللأواء : الشدة والبأس .

(٢) المدّ : الماء ، يعنى رطوبة الجو .

يجعل العرق ثقيلا كثيفًا يضجر النفس ويأخذ بالأنفاس ، فلما ركبنا السيارة ، وتخففنا من بعض ثيابنا ، واستقبلتنا لفحات الهواء الساخن ، انتعشت القلوب ودبت فيها الحركة ، على سكونها وفتورها من شدة الصيام وحاجة الأبدان إلى الماء فى مثل هذا اليوم ، وعندئذ بدأ الفنان يتحدث عن الوجه الذى يقودنا إليه فطاف علينا من حديثه مثل الظل حتى نسينا أننا فى رمضان فى يوم قائظ تحت الشمس . إنه ماض بنا إلى أثر عربى قديم فى ناحية « بيت القاضى » يقال له « قاعة محب الدين الشافعى » وتعرف أيضًا بقاعة « كتخدا » . فلما أوشكنا على دخول القاهرة القديمة شممت روائح مصر الإسلامية ، وتمثلت لعينى خوالى أيامها ، ورأيت كأن هذه الجموع التى تسير فى الطرقات كأنما انبعثت من الماضى البعيد بلباسها وشمائلها وآدابها رائحة غادية تحت عينى ، وكان حديث الفنان يُحْيى هذه الصور فى نفسى حياة جديدة ، حتى كدت إخالنى أحدثها وأسمع رجع حديثها ، وأرى الثياب الفضفاضة ، والعمائم البيض ، واللحى المرسلة ، والسمت الوقور ، والمشية الهادئة ، وكأن كل شىء قد انقلب فجأة فصار ماضيًا لم تمسخه يد الحضارة الغربية الحديثة ، ولم تمح من بهائه وروائه ذلك الجمال الوديع اللطيف المطمئن القانع بالحياة كما شاء الله أن تكون .

ثم نزلنا من السيارة ، وفتح لنا باب القاعة التى صارت فى عداد الآثار ، فما كادت قدمى تطأ بلاطها الضخم حتى أحسست كأن قلبى ينتفض من فجاءة الذكرى ، وكأنى دخلت دارى التى ألفتها وعشت فيها ، وسمعت فى أرجائها غمغمة الحديث وقهقهة الضحكات ، والتى سعيت فى نواحيها طفلا وشابا وكهلا حتى نشأت لها فى قلبى مودة لا تبليها الغربة ، ولا تطمس آثارها الرحلة فى أرجاء الدنيا ، وتطارح الزمن المشِت المفرق بين الأحباب والأحباب . ففى هذا المكان عهدتنى أجلس على أريكة موشاة بالثياب المطرزة ، وأستقبل هذه « الفسقية » الجميلة التى أراها فى وسط القاعة ، مزينة أرضها بالرخام الملون المرسوم على أشكال تستريح إليها العين راحة لا يعدلها شىء من متاع هذه الأرض . ومن هذا المكان عهدتنى أرى تلك الحلية الهائلة التى كأنها محراب

الدهر ، مصنوعة منمقة ، قد أجلّها وأدقها الصَّنَع الماهر الذى لم يعبأ بالزمن كيف يمضى ويتصرم ، بل كان كل همه أن يتقن الفن الجميل الثابت الذى يريك الإبداع فى صورة حية باقية تشعرك بأن الحياة هى الاستمتاع بفن الحياة لا بأشياء الحياة . ومن هذا المكان كنت أرسل طرفى إلى القبة العالية التى تتوسط السقف كأنها هامة مفكرة كل أفكارها أحلام جميلة سامية لم تتدنس بالمطامع الدنية التى يكدح فى سبيلها الإنسان على أديم هذه البسيطة .

وجعل صديقنا الفنان يحدثنا وهو يتدفق من نواحيه عن روعة هذا الذى نرى وعن جلاله وعظمته ، وعن هذه الضخامة الهائلة فى البناء ، وكيف استطاع بانيها الفنان أن يحفظ النسب بين ضخامتها وبين سائر ما فى القاعة كالأبواب وغيرها حتى لا يشعر الإنسان بالرهبة والمخافة والارتياع ، بل يشعره بأنه مالك هذا كله والمستولى عليه والمستمتع به ، فهو يروض الفخامة والضخامة حتى تكون أليفة مستأنسة محببة إلى رائيها وصاحبها ، فجعل الأبواب بين بين لا تطول قامة الرجل إلا قليلا ، ولم يجعلها هى أيضًا عالية ضخمة فخمة ، فيحس المرء عندئذ بالقلة والذلة والغربة والوحشة فى البيت الذى هو سكن النفس ومكان ارتياحها ؛ وكنت أسمع هذا ونحوًا منه ؛ ولكن لم يأخذنى منه شىء ، فإنى كنت أسمع همسات من هنا وهنا ومن ثم ، هى همسات الآباء والأجداد تذكرنى بما أضعناه من فن نحن أنشأناه وتعهدناه وقمنا عليه وأتقنا دقيقه وجليله ، ثم رحنا نستعير أشياء الناس نتشبع بها ونتصنع ، على غير هدى ولا بصيرة ولا فن ، وأكاد أقول ولا حياة ، فنحن أحياء ولا أحياء ، لأننا نستعير حياتنا ولا ننشئها إنشاء ، ونتزين بزينة مسلوبة نحن فيها كالصعلوك الأشعث الأغبر فى ثياب ملك . كنت أسمع حديث الأسلاف ، وأسمع فى صوت صديقنا الفنان وهو يشرح ويبين بكاء وحسرات وتنهدات وآلامًا كأنه وقف يؤبن أعزّ أحبابه متجلدًا خاشعًا بين أقوام لا يحسون ما يحس ولا يشعرون بما يشعر به . إنه خليق أن ييأس ، ولكنه يجاهد حتى ينتزع الأمل من بين دواعى اليأس ، يريد أن يستنقذ الدرة المضيئة قبل أن تلفها الأمواج الطاغية العاتية وتذهب بها إلى حيث لا رجعة .

كنت كالمأخوذ لا أريد أن أفارق هذا الملك الذى أعيش فى رحابه . إنها قاعة صغيرة ، ولكنها قد اتسعت حتى رأيتها تشمل كل هٰذه الأرض المصرية لأن كل شيء فيها منتزع من طبيعة الأرض وجوّها وسمائها وأيامها ولياليها واختلاف فصولها ، ومن طبائع أهلها وشمائلهم ونوازع قلوبهم ومن كل شيء يقول أنا مصرى عربى . وأخيرًا فارقتها على رغم ، ولم أدر حتى انتهينا أو انتهت بنا السيارة إلى قاعة أخرى أو أثر آخر بنى بعد جيل من زمان هذه القاعة ، فكان الفرق بينًا . فقد أخذ الضعف يغزو القوة ، ولكن القوة أبت إلا أن تتبدى كما هى برغم هذه الطوارئ التى تنتابها أو تعمل فيها . فههنا أثر الضعف الإنسانى إذا بدأ الإنسان يشعر بأنه غير حر وغير مريد للحرية ، وأنه مروع فى حياته بشيء لا يملك له دفعًا ولا ردًا ، فهو يتخاذل وكذلك يتخاذل فنه ويتخاذل بناؤه . وهو حائر لا يدرى ما يأتى وما يذر ، فإذا فنه حائر لا يدرى ما يأتى وما يذر ، وهو مختلط الإرادة ، وإذا فنه مختلط يأخذ بأسبابها الأولى ولكنه لا يلبث أن يحيد عنها إلى شيء ليس منه ولا من خاص طبائعه . ومع كل ذلك فإن النفحة الخالدة لا تزال عالقة به تجعله قوة صريحة مصممة مريدة للبقاء .

ثم خرجنا إلى آخر أثر زرناه وهو « بيت السحيمى » ، وهو بيت كامل - لا قاعة ولا جزء من بيت - وأخذنا نطوف فى أرجائه ونواحيه ، فهذه غرفة الضيوف ، وهذا مصلى الرجال ، وهذا مكان الطعام ، وهذه غرفة استقبال النساء ، وهذه غرف النوم ، وهذا مصلى النساء ، وكلها موزعة على مساحة الأرض فى الطابق الأسفل والأعلى على نظام هندسى فيه شيء من التحرّر من أسر الهندسة الدقيقة ، فتكاد تشعر بأن بانيه لم يكن يبالى أن يتقيد بشيء ، بل يريد أن يكون حرًا طليقًا يفضى من مكان إلى مكان كما يشاء له هواه . وكنت كلما دخلت منها مكانًا أحسست بشيء فيه ينادينى ، فلما دخلنا القاعة الأولى هتف بى الهاتف إلى الصلاة ، فقمنا نصلى ، فكأنى ما صليت فى دار قط سوى هذه الدار . إن فى البناء روح إسلامية عجيبة ، فيه ورع وصدق ومحبة وتخفف من ثقل هذه التكاليف الداعية إلى الكدح والطمع والعدوان ، وفيه ألفة لم أحس بمثلها قط ، ولم أشعر إلا يومئذ أن أصدقائى الذين معى هم أصدقائى لا معارفى ، ألقاهم بوجه

وأستدبرهم بوجه ، ولم أجد إلا يومئذ تلك اللذة المنعشة بالأخوة تجمع بين الرجلين على اختلاف الدار والنشأة ، وخفق قلبى خفقة كأنه يقول لعلال الفاسى : مرحبًا بك من أخ جمعت بينى وبينه أخوة هذا الدين النبيل الذى جعل أهله أمة واحدة فكانت خير أمة أخرجت للناس .

ومضينا نطوف بالدار العجيبة ، فكأنى كنت أسمع حس أهلها وهم يتنادون ، وأراهم وهم يسعون وأشهد إماءهم وعبيدهم وهم يطوفون عليهم ، وأرى الضيوف وهم يتسامرون . فلما دخلت غرفة استقبال النساء ، ورأيت الذوق اللطيف والنوافذ عليها المشربيات الدقيقة الصنع ، والخزانات القائمة فى الجدران بنقشها البديع ، ورأيت « الصفَّة » التى يلمع رخامها وتتحلى بزينة من رسومها الدقيقة وأعمدتها القائمة كأنها ساق غانية راقصة ، ورأيت ذلك الزجاج الملون بالألوان الهادئة الناعمة ، وهذا الجو الساطع بالغنى والنعمة ، الساكن بالوقار والطمأنينة ، الناعم بالرقة والجمال ؛ عندئذ أخذنى مثل الحلم فرأيت ربة الدار فى حليها الأنيق وثيابها الموشاة ، وضفائرها المرسلة ، ووجه ينير فى جنبات هذه القاعة بالنبل والكرم والحفاوة بضيوفه من الأصحاب والأحباب ، وسمعت حديثهن المتخافت باللفظ المرقق والصوت الناعم المنغم ، وانتهت إلى ضحكاتهن الحيية التى كأنها ابتسامة مشرقة من وراء نقاب . رأيت الماضى ينبعث كله بفضائله ورذائله ، ورأيتنى أعيش ساعة أتنسم نسمات من حياة أجدها فى دمى ، كما يجدها كل مصرى وعربى فى دمه ، ولكننا كدنا ننساها بطول الترك وقلة العمل على استحيائها واستنقاذها واستعادتها ، حتى نتعلم منها كيف نكون أحرارًا فى التعبير عن سر طبائعنا الكامنة فى أعماق قلوبنا وضمائرنا . إن هذا الفن الذى أوحت به حضارة لها أصول لا تزال قائمة فى نفوسنا ، وفى تربة أرضنا ، وفى جو سمائنا - ينبغى أن ينبعث جديدًا مرة أخرى بما يلائم حاجتنا ، وبما يعيننا على تمييز أنفسنا بين الناس فلا ندخل فى غمار حضارات الأمم التى لا يجمع بيننا وبينها وطن ولا خُلق ولا دين ولا أدب ولا جنس ولا دم ولا شىء مما يتقارب به الناس أو يختلفون ، وتمنيت عندئذ أن أفيق من أحلامى فأجدنى قد رجعت إلى دارى فإذا هى تنفحنى

بهذه النفحات التى تحيي النفس لأن فيها شيئًا من سر هذه النفس . فلما خرجنا من بيت السحيمى حقّق الله طرفًا من هذه الأمنية .

لقد حملنا صديقنا الفنان إلى داره ، وهى فى عمارة كسائر عمارات القاهرة فى ظاهرها ، وهو يسكن منها شقة كسائر الشقق التى يسكنها سائر المصريين ، بيد أن المصريين يعيشون عبيدًا لهذه الهندسة الغربية الغريبة عن بلادهم ، ويسكنون فيها إلى أنماط من الحياة ليست لهم وليسوا منها فى شيء . أما هو فما كاد يفتح لى الباب حتى هبت تلك النفحة المسكرة من الماضى المنبعث حيًّا نابضًا كأحسن ما تنبض الحياة . لقد رفعت هذه الأبواب الحديثة الثقيلة ووضعت مكانها الستائر من النسيج العربى الشرقى بألوانه وتقاسيمه وفنه ، ووضع مكان بعضها أبواب مشبكة ، وأقيمت هنا وهنا المشربيات الدقيقة ، وبسطت الأرض بالبُسُط العربية الرسم المصرية الصنع ، وهذه الأرائك والمناضد والقناديل وكل شيء يجعل البيت عربيًا هادئًا مطمئنًّا فى وسط هذه المعمعة الطاحنة الفوارة التى تسحق طبائعنا ، وتمسخ قلوبنا ، وتحيل أذواقنا ، وتجعلنا عالة على الأمم ، نأخذ منها عارية [١] لا تزيدنا حضارة بل تزيد بؤسًا وشقاء وحيرة ونفورًا وقلقًا فى هذه الحياة وفى هذه الأرض ، وفى هذه الطبيعة التى تكتنفنا من حولنا ، وفى هذه الطبائع التى تستولى على دخائلنا وضمائرنا .

هذا بيتى ! هكذا قال لى قلبى ، فاطمأننت وكان الصوم والتعب قد بلغا منا جميعًا ، فآوينا إلى مضاجعنا ، فلما قمنا إلى إفطارنا ، وأضيئت القناديل (بالكهرباء) ورأيت ظلال المشبك على الجدران وطالعتنى المشربية من ناحية البيت ، رأيتنى أحيا فى هذا الغموض الهادئ بقلب جديد نابض مؤمل فى الحياة ، مستبشر راض عنها غير يائس منها . وتمنيت لكل مصرى أن يقضى فى الماضى يومًا من كل أسبوع حتى يجدد حياته ، وحتى يتاح لنا بذلك أن نجدد لأنفسنا فنًّا وعيشة وسيرة وحضارة ليست مسلوبة ولامنتزعة ولا مستعارة من أحد من خلق

---

(١) العارية : الشيء المستعار .

الله ، بل هى فننا نحن وعيشتنا نحن وحضارتنا نحن ، تألفها نفوسنا وقلوبنا ، ويعرفنا الناس بها وتكون علمًا علينا ، وتدل على أننا نصنع الفن فنجيد ، ونبنى الحضارة فنبدع كما أبدع آباؤنا رضى الله عنهم . يوم واحد تعيشه فى الماضى وتحس أنك قد عشته وتملَّيت بالعيش فيه ، لهو ذخيرة لا تنفد تعينك على فهم طبيعة الأرض التى تسكنها ، وعلى الوصول إلى كنه ما تنطوى عليه نفسك ، وهو بعث للهمة الراقدة وإحياء للقوة الكامنة ، وتحرير لنا من أسر التعبد للمدنية الغربية على غير هدى وفى غير طائل . يوم فى الماضى يحرر المرء من أسْر الحاضر ، فإذا نالت النفس حريتها فهى خليقة أن تعرف طريقها إلى تحرير أمة من استعباد أمة أخرى ، أرادت أن تفرض عليها إرادتها وحضارتها معًا . ونحن مقبلون على اليوم الذى ينبغى أن تملأ قلوبنا حرية مستمدة من أصولنا البعيدة ، لا حرية مستعارة من الأمم المعاصرة ، فلنرجع إذن إلى الماضى قليلًا ، ففيه المدد الذى لا ينفد والمَعِين الذى لا يغيض .

* * *

عبر لمن يعتبر

في اليوم الخامس من أغسطس ١٩٤٧ ارتفعت مصر والسودان بقضيتها إلى مجلس الأمن تطلب النصفة من بريطانيا التى اعتدت على استقلالها واحتلت أرضها من منبع النيل إلى مصبه ، ووقف رئيس وفد مصر والسودان « محمود فهمى النقراشى باشا » يميط اللثام عن السياسة البريطانية منذ سنة ١٨٨٢ ، وكان لابد له من أن يكشف طرفًا من سوءات هذه الدولة التى قام كيانها على استعباد الشعوب وإذلالها واهتضام حقوقها . وكان الذى كشفه شيئًا ضئيلًا إذا قيس بما كان يمكن أن يقال أو يكشف من الأساليب الخبيثة التى دأبت بريطانيا على التذرع بها إلى عدوانها الوحشى على الأمم فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الميلادى . وكان رئيس وفد مصر والسودان يذكر الماضى ويروى عن التاريخ أصدق رواية فى أعف لفظ ، فأبى له أدبه أن يصف أفعال بريطانيا باللفظ الذى ينبغى أن توصف به ، والذى سوف يصفها به التاريخ بعد أن تسقط هذه الدولة من عداد الدول التى يكون لها فى هذه الأرض سلطان يقوم على القوة الغاشمة ، والدعاية الكاذبة ، وعلى التضليل والافتراء والعبث بعقول الناس .

ولم يكد النقراشى يفرغ من عرض قضية بلاده على أعضاء مجلس الأمن ، حتى هبَّ مندوب بريطانيا السير « ألكسندر كادوجان » يروى لمندوبى مجلس الأمن تاريخ هذا العدوان البريطانى رواية ملفقة مبتورة حشوها العبث بالتاريخ ، والاستهانة بالجنس البشرى ، والاستخفاف بعقول الذين يسمعون روايته المدلسة عن تاريخ حقبة من الدهر يستطيع كل مندوب ممن يسمعونه أن يفتح بعدها أى كتاب من كتب التاريخ الصحيحة ، فيعرف مقدار السخرية التى سخر بها هذا الرجل من سامعيه . وكان يسوق هذه الرواية المزيفة بأسلوب الواثق المطمئن بل

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٨) ، أغسطس ١٩٤٧ ، ص : ٩١٥ - ٩١٨

بأسلوب الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولا ريب فى أن السير « ألكسندر كادوجان » هو أول من يعلم أن الذى يقوله باطل كله ، ولكنه رجل من ساسة بريطانيا - أى رجل من أعظم الممثلين الذين يجعلونك تحس أن المسرح قد انقلب تحت عينيك حقيقة واقعة .

ونحن لن نعلق على ما قاله « النقراشى باشا » ولا على ما قاله « السير كادوجان » ، فالحق أبين من أن يحتاج إلى إيضاح لمن أراد الحق والتمسه وحرص [على] [١] التثبت منه ، ولست أظن أن أحدًا من مندوبى أمم مجلس الأمن يخفى عليه وجه الحق فى الذى سمع من الرجلين . فإن كان بناء مجلس الأمن قائمًا على العدل والإنصاف وإيتاء كل ذى حق حقه ، فقد نالت مصر إذن حقها من غاصبها كاملا غير منقوص ولا مشروط بشرط . وإن كان مجلس الأمن هو سوق الرقيق الحديثة التى أنشأتها الأمم الغالبة لكى تبيع خلق الله وتشتريهم على الهوى ، فإن مصر والسودان سوف تعلّم هذا المجلس علمًا جديدًا لم يكن يتوقعه من أمة ضعيفة أضعفها الاستبداد البريطانى على مدِّ خمسٍ وستين سنة - لأنها أمة قوية قد علمها هذا الاستبداد أن الحقوق تنال بالجهاد المر ، وبالدم المهراق ، وبالإيمان الذى لا يتضعضع .

ولقد كان فيما قاله « النقراشى » وفيما قاله « كادوجان» عِبَرٌ لمن أراد أن يعتبر ، ونحن العرب أحوج الناس اليوم إلى الاستفادة من العبر المواضى ، فإن جهاد مصر والسودان حلقة من حلقات الجهاد الذى كُتِبَ علينا منذ احتلت بلادنا بريطانيا وفرنسا وسواهما من الأمم التى استعانت على ضعفنا وغفلتنا بقوتها ويقظتها وجشعها الذى لا يشبع ولا ينطفئ .

فأول هذه العبر أنه ينبغى للمجاهدين فى سبيل بلادهم أن يحذروا كل الحذر من الخوف ، فإن الخوف آفة الجهاد ، وما ساور الخوف قلبًا إلا انتزع منه البصيرة التى هى رائد كل مجاهد . وما نفى الخوف امرؤ من قلبه إلا زلزل بجرأته قلب

---

(١) يتعدى هذا الفعل بـ « على » ، فزدتها .

خصمه وجعله يضطرب بين يديه وإن كان أقوى منه بأسًا وأشد صولة . وقد نفى « النقراشى » الخوف من قلبه ، فوقف « كادوجان » بين يديه مضطرب الحجة حتى لم يجد لنفسه مناصًا من أن يلجأ إلى الأكاذيب القديمة التى ألفتها بريطانيا وبرعت فى تزويقها وتزويرها تريد بذلك أن تسحر عقول الناس . ولو كان الساسة العرب قد حرصوا على أن يكون هذا موقفهم فى كل أمر وفى كل عهد وفى كل ساعة ، لما أتيح للاستعمار البريطانى والفرنسى أن يبقى ضاربًا بجذوره فى بلادنا إلى هذا اليوم من أيام الناس . فهذه جراة اللسان ، فعلى ساستنا منذ اليوم أن يتبعوا ذلك بجرأة أخرى هى جرأة العمل ، ولو فعل الساسة أفعالهم بجرأة وشمم وإباء على الضيم ، لما رأينا اليوم بلدًا كمصر والسودان يعج بالمستهترين من الأجانب والمشردين وصعاليك الأمم ، يستولون على أمواله وأراضيه وأخلاق بنيه باسم حرية المهاجرة وحرية التجارة وحرية العمل . لقد أظلهم الاستعمار البريطانى بظله وحماهم حتى بات المصرى والسودانى غريبًا فى بلاده ، يأكله كل طارئ ، ويدعه جوعان عريان منبوذًا فى بلاده وتحت سمائه .

وعبرة أخرى هى أن التساهل مخافة العواقب شر كله . فقد رأى بعض ساستنا أنهم إنما يفعلون خيرًا كثيرًا لبلادهم إذا تساهلوا لبريطانيا فى بعض الحقوق ، ظنًّا منهم أن ينالوا من وراء ذلك حقوقًا أخرى هى أولى بالتقديم والنظر والاهتمام ، فكانت العاقبة أن دخلنا مع بريطانيا فى الدائرة المغلقة التى يسمونها « المفاوضة » . فإذا نحن نضيع حقوقنا كلها جملة واحدة ، وإذا بريطانيا تريد أن تحتج علينا اليوم بما تساهل به أولئك الساسة فى حقوق بلادهم ، فتأكل علينا حقنا كله حين تريد أن تمنعنا من أعظم الحقوق البشرية وهى الحرية . وتريد أن يقطع قلب مصر بقطع السودان عنها ، لأن قومًا من الساسة غفلوا زمنًا طويلا عن رفض كل اتفاق لا يشمل السودان كما شمل الجزء الشمالى من وادى النيل وهو مصر ، فارتضوا أن يعلقوا مسألة السودان ويأخذوا من عبث بريطانيا ما زورته لهم وخدعتهم به ثم هى اليوم تمن علينا أنها أعطتنا تلك الفضلات التى لا يعبأ بها إلا الذليل الخانع المقيم على الضيم .

وعبرة ثالثة هى أن زعماء الثورة على العدو ينبغى أن يظلوا أبدًا زعماء الثورة ، لا رؤساء حكومات تحت ظل حماية مقنعة تسمى استقلالًا كذبًا وتضليلًا فى العرف الدولى . فكان ينبغى لهؤلاء الزعماء أن يظلوا بمنجاة من إثم الحكم تحت ظل الاستعباد البغيض وأن يكونوا دائمًا أيقاظًا لا تنيمهم شهوة الحكم ، وبذلك يضمنون لبلادهم أن تظل يدًا واحدة على العدو ، وأن تظل يقظة متنبهة لا يخدعها لفظ « الاستقلال » عن الخبث الذى انطوى عليه وأن يصارحوا الشعب دائمًا بالحقيقة التى لا تستر ، وهى أنه صار « مستقلا » فى العرف الدولى ، وأن يكشفوا له ما استطاعوا عن خدع الاستعمار الذى يعبث بهم . وإلا فأى خديعة كانت أكبر على هذا الشعب من خديعة الناشئة فى المدارس والبيوت ، وهم يقرأون ويسمعون أن مصر دولة مستقلة ، وهى اليوم تقف لتقول للناس على رؤوس الأشهاد فى مجلس الأمن إن الاستقلال الذى ضمنته بريطانيا !! كان استقلالا مزيفًا ، لأن الجنود البريطانية كانت لا تزال تحتل بلادنا ولأن السفير البريطانى كان ينصب الحكومات المصرية ويقيلها كما يشاء وتشاء دولته المستعمرة لبلادنا . لقد ظن أولئك الرجال أن هذه سياسة وكياسة وحسن تدبير ، فإذا هى غفلة وحماقة وسوء تقدير . ولولا يقظة هذا الشعب الأبى الكريم ، لما استيقظ هؤلاء الزعماء البتة ، ولمضوا إلى الغاية فى التنازع على الحكم وشهوات الحكم وفتن الحكم ، فالشعب هو الذى انتهى بنا إلى مجلس الأمن لا الزعماء ولا أولئك الساسة .

وعبرة رابعة هى أنه ينبغى لزعماء الثورة أن لا يقبلوا البتة مفاوضة الغاصب على حق من حقوق البلاد ، فإن حقوق الحرية مترابطة لا ينفك بعضها من بعض ، ففيم يفاوض الإنسان إنسانًا قد سلبه حقوقه ؟ إنها كلمة واحدة : « هات حقى » ، ولا تدع المطالبة بالحق كاملا حتى يتركه لك أو تموت دونه . وما دام الغاصب لا يستطيع أن يفنى شعبًا بأسره ، فالشعب هو الظافر المنصور فى النهاية ، مهما لقى من عذاب وتنكيل واضطهاد وبؤس .ولو كان هذا من فعل مصر والسودان منذ سنة ١٨٨٢ لما انقضت سنوات بعد سنة ١٩١٩ سنة الثورة ، حتى كان الغاصب قد أسلم إلينا حقوقنا كاملة بلا معاهدة ولا مفاوضة . ولكن زعماء الثورة رموا بأنفسهم فى المفاوضات ، فكانت العاقبة أننا بقينا نفاوض بريطانيا سبعة عشر

عامًا ، فإذا هى تعطينا معاهدة سنة ١٩٣٦ تحت الضغط والقهر والتهديد ، وإذا هذه المعاهدة احتلال تام ، ولكنه سمى فى العرف الدولى « استقلالا » .

وعبرة خامسة هى أن الذين يدخلون المفاوضات ويعقدون المعاهدات تحت ظلال السيوف ، وبضرورة التهديد والقهر ، كان ينبغى عليهم أن يكونوا ناسًا غير زعماء الثورة ، أما زعماء الثورة حين يفعلون ذلك ، فهم بين رجلين : إما مدلس كذاب يخدع الناس ويقول للناس هذه معاهدة الشرف والاستقلال ، وهى ليست سوى معاهدة للاحتلال الدائم ، وإما رجل ضعيف الرأى منخوب الفؤاد يوقع على المعاهدة ثم لا يجرؤ أن يقول لشعبه إن هذا الذى وقعت عليه احتلال لبلادكم فاحذروه وارفضوه وثوروا فى وجهى ووجه من رضيه معى . وهذا الثانى لن يستطيع أن يقول ذلك ، فهو مضطر إذن إلى التلفف والتلفيق والسكوت وادعاء الشجاعة حين يقول : « هذه معاهدة لولا القهر والتهديد لما وقعتها » ، ويقولها فى غمرة تلك الأمواج الهائلة من الخداع والأكاذيب التى اصطلح على نشرها بين الشعب الغافل المنكوب زعماء من أنفسنا ، وساسة من أخبث ساسة بريطانيا فى هذا القرن . ياله من عبث أيها الساسة المخادعون ! وتبت أيديكم يوم وقعتم وثيقة أراد بها الغاصب إذلالكم وإذلال بلادكم فقبلتموها ، وهو اليوم مُصِرّ على أخذ بلادكم بما جنت أيديكم من شرور تلك المعاهدة الخبيثة التى زعمتم أنها فرضت عليكم فرضًا . وقد كانت لكم مندوحة عن قبولها لولا الضعف والخور والجبن وشهوة الحكم التى استولت على قلوبكم .

وعبرة سادسة هى أن بريطانيا وكل دولة مستعمرة من هذه الدول الأوربية لا تتورع عن اتخاذ كل وسيلة تبلغ بها غايتها ، فمن أجل ذلك ينبغى للشعب أن يعرف منذ الساعة الأولى رجاله ورجال عدوه ، وأن يَسِمَ الخونة بسِمَة لا تزول ، وأن يتناقل هذا التاريخ عامًا بعد عام وجيلا بعد جيل فى البيت والمسجد والمدرسة والمجالس ، فهذا وحده هو الكفيل بأن يعرف الشعب حقيقة كل زعيم تسول له نفسه أن يستغل غفلة الناس أو ذعرهم أو لهفتهم فيغرر بهم فى مزالق السياسة الاستعمارية ، فإن مصر والسودان ظلت أعوامًا تأبى أن تعترف باتفاقية سنة

١٨٩٩ التى فرضتها بريطانيا على مصر والسودان على يد رئيس وزراء كان خليقًا أن يخون بلاده ، ثم جاء الموقعون على معاهدة سنة ١٩٣٦ فقبلوا أن يكون لهذه الاتفاقية الباطلة التى لم تعترف بها مصر قط - ذكر فى معاهدتهم الوبيلة الخبيثة . فلو كان الشعب يومئذ على ذكر لما كان من شئون الخونة السابقين وما فعلوه ، لما جازت عليه الكلمة الملعونة فى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ولثار يومئذ على هؤلاء الزعماء لأنهم أهدروا كل جهاده الماضى ، وكل ما أراق من دماء وأضاع من جهود ، وأنفق من سنين بنص موبوء فى معاهدة موبوءة .

ولن نفرغ من ذكر العبر الكثيرة التى توحى بها هذه الساعات فى المعركة الفاصلة بيننا وبين بريطانيا فى مجلس الأمن وفى كل عبرة من هذه العبر خير كثير يرجى أن لا يفوت العرب إذا حذروا وانتبهوا وآثروا السلامة مما وقعنا نحن فيه . ومن حسن الحظ أن أكثر زعماء العرب اليوم من مراكش وتونس والجزائر وليبية وفلسطين والعراق هم اليوم أشد إحساسًا من أسلافهم بالتبعة الملقاة على كواهلهم ، وأقوى إيمانًا بالحقوق الإنسانية من بعض زعمائنا فى الماضى ، ولكن ينبغى لهم أن يجتنبوا كل الاجتناب أن يقبلوا مفاوضة الغاصبين أو معاهدتهم أو الدخول معهم فى حديث السياسة والكياسة واللباقة ، فإن هذا وإن أفاد قليلا ، فإنه شر مستطير على مستقبل الشعب فى الشئون السياسية ، وفى النواحى الأخلاقية . وحسب هؤلاء الزعماء العرب ما جربته مصر من مطاولتها والمد لها أكثر من تسع وعشرين سنة باسم المفاوضات والمعاهدات ، حتى فقد الشعب كثيرًا من إيمانه بحقوقه ، ولولا أن الله أتاح لنا هذه الحرب الأخيرة لتنفض عن عيوننا النوم والتخدير الذى أصابها باسم المفاوضة لظللنا إلى اليوم نيامًا تجرنا بريطانيا وراءها طمعًا منا فى أن ننال شيئًا من حقوقنا بمفاوضتها ومعاهدتها .

أيها الزعماء العرب لا تخونوا بلادكم : أى لا تفاوضوا بريطانيا أو سواها من الدول المستعمرة ولا تعاهدوها ولها فى بلادكم ظل من سلطان ، ولا تخافوها ولا تخشوا لها بأسًا ولا قوة واحرصوا على أن تبقى شعوبكم عالمة بحقيقة ما يحيط بها بكل أسلوب تستطيعونه ، وإياكم والحكم فإنه الفتنة المبيدة والآفة

الحالقة [١] والبلاء المبين . لقد كان لكم فينا عبرة فاعتبروا ، وقفوا منذ اليوم أيقاظًا لا تغفلون ، فربَّ ساعة سوف تأتى علينا وعليكم فنناديكم للجهاد ، فهبوا معنا واحذروا أن يكون بينكم زعيم يسول لكم أن الخير فى الرضى والتراضى والتساهل ، فإن ذلك هو الوبال ، وهو آخرة العرب إن فعلتم ، إن مصر والسودان قد بدأت أول الجهاد ؛ فاستعدوا أيها العرب !

* * *

(١) الحالِقة : المُهْلِكة .

اتقوا غضبة الشعب !

أجلت قضية مصر والسودان فى مجلس الأمن إلى يوم الثلاثاء التاسع من سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، بعد أن تمتعت بريطانيا بالخذلان الذى كان مثله أبعد شىء عن بالها منذ عشرات سنوات وحسب . فقد تعودت بريطانيا أن تأمر أو تدسَّ فيطاع أمرها أو دسُّها ، وتخرج ظافرة من كل معركة تدور بينها وبين أمة من الأمم التى ابتليت بشرها الذى لم تنطفئ له جمرة منذ نجمت قرون هذه الدولة فى تاريخ العالم الحديث . ونحن نسأل الله أن يتمَّ الخيبة على هذه الدولة الطاغية بانهيار نظامها الاقتصادى ، ليخلص العالم من الأخطبوط الفاجر الذى ضمَّ فى أحشائه وبين جوارحه دولا برمّتها من الهند إلى العراق إلى مصر والسودان إلى جنوب أفريقية - إلى عالم كان يتمدّحُ شعراؤها بأن الشمس لا تغيب عن ملكه ، وأنها هى التى حملت أمانة الجنس الأبيض و (عبءَ الرجل الأبيض) فى تحضير الأجناس الملونة ، أى استعبادها وظلمها ، وإغراء فرنسا وبلجيكا وهولندة وسواها من أقزام الدول باستعباد جزء من هذه الشعوب ، تسومها الخسف بكل نذالة تدخل فى طوق هذه الأمم .

إن مجلس الأمن هو اليوم بين اثنتين : إما أن يُشهد العالم كله على أنه أقيم على حق ، وأنه حافظٌ وازعٌ ينهى الطغاة عن الإيغال فى طغيانهم ، وإما أن يشهد العالم كله على أنه سوق حديثة للرقيق والنخاسة أقيمت لتتاجر بعباد الله بلا حياء ولا ورع . فكان تأجيل قضية مصر فى هذه المرة ، بعد المناقشات التى دارت فيه دليلا على أن مصر والسودان قد استطاعت شيئًا ما أن توقظ طرفًا من ضمير هذا المجلس ، ومن ضمير الأمم التى اشتركت فيه ، واستطاعت أيضا أن تجعل بريطانيا مغمورة فى ركام الفضائح والفظائع التى ارتكبتها فى مصر والسودان ، والتى تصر على المضى فى ارتكابها بكل جرأة لا تستحى .

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٤٠) ، سبتمبر ١٩٤٧ ، ص : ٩٧٢ - ٩٧٤

ونحن نحب أن نثنى ثناء خالصًا من قلوبنا على الرجل المصرى السودانى ، الذى لم يزعزعه تهديد بريطانيا وترويعها ، ولم ينل من قلبه الخوف ، ولم تثنه عن الهدف الأعظم حِيَل ولا أشراك ولا جدال ولا تغرير ، فانطلق يبين عن أهداف مصر والسودان وعن حقوقها وعن البلاء الذى نزل بها بيانًا شفى صدور المصريين والسودانيين جميعًا . إننى لم أعجب بهذا الرجل لأنه سياسى بارع ، ولا لأنه قانونى ضليع ، ولا لأنه خطيب مفوّه ، ولا لأنه رئيس حكومة - كلا بل لأنه أول رجل بعد أن ذهب مصطفى كامل - وقف وحده فى عرين الأسد البريطانى ليسمع الدنيا كلها أن هذا الأسد البريطانى قد اعتدى عليه وبغى وطغى وظلم وتجبر ، وفعل الأفاعيل الخسيسة التى أراد بها استعباد مصر والسودان . إنه الرجل المسئول الوحيد الذى قام فى مجلس دولى يطعن بريطانيا العظمى طعنا متداركا غير راحم ولا مشفق ولا هياب ، وهو يعلم أنه يطعن بهذا الطعن دولا كثيرة من أعضاء هذا المجلس . لقد كان محمود فهمى النقراشى رجل مصر ، لأنه كان وطنيًا يتكلم بلسان الجروح التى مزقت جسد أمته ، لا بلسان السياسى المحتال الذى يريد أن يرضى هذا ويتجنب غضب ذاك . وهذا وحده هو السّرّالأعظم الذى جعل قضية مصر والسودان أعظم قضية عُرِضَت على مجلس الأمن وأخطرها ، وهذا وحده هو الذى أوقع التخاذل فى الصفوف التى جمعتها بريطانيا ، وظنت أنها سوف تنصرها فى باطلها نصرًا مبينًا ترجع بعده مصر والسودان خاشعة خاضعة تحت ظلال الخذلان الذى أمّلت بريطانيا أننا سوف نمنى به .

لقد ضرب النقراشى مثلا خالدًا فى تاريخ مصر الحديث فدل بذلك على أنه رجل يركن إليه فى ملمّات الأحداث . مرت على مصر والسودان حقبة كان الذى يقول فيها بمثل قالة النقراشى فى مجلس الأمن يُعد رجلا مخبولا خياليًّا تسخر منه الصحف والمجلات ، وتزدريه جماهير من المخدوعين ، ويتخذ هدفًا لكل دعابة تجرى بها ألسنة الهازلين من أحلاس [1] النوادى والقهوات . إن هذا الرجل جدير

---

(١) الأحلاس : الملازمون . جمع حِلْس ، وأصل الحِلْس : كل شيء وَلِيَ ظهر البعير والدابة تحت الرَّحْل والقَتَب والسرج ، ومن ثم قيل للمقاتل الذى لا يبرح الحرب ، والفارس الذى يلزم ظهر الفرس : حِلْس ، فيقال : هم أحلاس الخيل .

بأن يرفع اسمه منذ اليوم حيث لا تنال مكانه أسماء الدجالين والمنافقين الذين ظهروا فى تاريخ السياسة المصرية منذ سنة ١٩١٩ إلى يوم الناس هذا . فحسبه فخرًا ومكانة أن يكون هو الذى استطاع أن يجمع إرادته وعزمه وحزمه ، فلم يصرفه خوف أو إغراء عن تحقيق كَلِمَة مصر والسودان الخالدة ، وعن إعلان هذه الكلمة فى أرجاء الدنيا ، وهى : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » .

* * *

ويقابل هذا الرجل الصادق رجال آخرون من صنائع بريطانيا - كانوا من صنائعها القدماء منذ تحركت مصر والسودان فى سنة ١٩١٩ تطالب الدولة الباغية باستقلالها ، وتريق دماءها وتبذل مهجها ، ويأتى أحدهم فيكون سيفًا مسلولا على أعناق إخوانه المصريين يتعسف بهم عسف الجبار المارد ، وإن كان هو فى نفسه ليس بجبار ولا مارد إلا كما كان أبو حية يسمى قضيب الخشب الذى يحمله سيفًا هندوانيًا [(١)] - وإنما كان جبروته وتمرده يومئذ من جبروت بريطانيا وتمردها - فهو دمية تلعب بها لا أكثر ولا أقل .

لقد قام النقراشى يعلن ملأ الأمم فى نواحى الأرض ، أن هذه ساعة فاصلة فى تاريخ مصر والسودان ، وأنه قد عزم على طرد الإنجليز من بلاده ، وأنه لن يقبل مهادنة ، ولا مفاوضة ولا مراوغة بعد اليوم ، وأن بلاده توشك أن تنفجر ، وأن البلاء على الأبواب لن يمنعه ضغط الدول الأعضاء فى مجلس الأمن ، وأن مصر والسودان قد أبت إلا طرد بريطانيا من بلادها كلها بلا مهلة ولا تريث ولا مواعيد ، ووقف مندوب بريطانيا يصر إصرار البغاة الطغاة على أن المعاهدة تخول له احتلال أرضنا ، ويستدل مرة بعد أخرى بالذى كان فى مفاوضات صدقى - بيفن وكأنه يريد أن يقول إن صدقى قد قبل ما يأتى هذا الرجل - يعنى النقراشى - فينكره ويرفضه ، ويكذب على مصر والسودان فيدعى أنها تريد طرد بريطانيا وجلاءها جلاءً تامًّا ناجزًا عن أرض وادى النيل كله ، على غير ما تدل عليه مفاوضات صدقى - بيفن .

---

(١) هو الهيثم بن ربيع ، من شعراء الدولتين . وكان أهوج بخيلا جبانا كذابا . وكان له سيف ليس بينه وبين الخشبة فرْق ، يسميه « لُعاب المنية » .

وفي خلال ذلك يقف صدقى باشا الذى اتخذته اليوم بريطانيا حجة على مصر ، ليقول إن خير الوسائل لنيل حقوق مصر والسودان من بريطانيا هى المفاوضة ، كأن هذا الرجل لم يعلم بعد أنه ظل يروح ويغدو ويتلاعب هو وتتلاعب بريطانيا ، وكانت العاقبة أن أفضى الأمر به إلى الاستقالة ، بعد التكذيب الخبيث الذى كذبت به بريطانيا كل شيء قاله فى تفسير بروتوكول السودان . لقد كان العذر متسعًا لامرئ سواه إن قال بمثل الذى يقول به . ومتى يقول هذا الرجل هذا الكلام ؟ يقوله فى ساعة الحرب التى شنتها مصر والسودان على بريطانيا !

إننا لا نبالى كثيرًا ولا قليلا بما يقوله هذا الرجل وأمثاله ، وليس من همنا أن نقف عنده لنفنّده ، بل همنا أن نبين أن وراء كلامه معنى آخر ، هو أن بريطانيا لما أحست بتباشير الخذلان الذى سوف تناله فى مجلس الأمن ، وعرفت أنها لن تستطيع أن تواجه العالم بالأباطيل التى كانت تواجه بها المفاوضين فيرهبونها ويخشون بأسها ، فلجأت عندئذ إلى قدماء صنائعها فى وادى النيل ليخذلوا قلوب الناس ويخوفوهم ويوقعوا بينهم يبغونهم الفتنة ، ويكون ذلك فتًّا فى عضد النقراشى ، وتمهيدًا لانقلاب يحدثونه مرة أخرى بالقهر والتهديد ، وبخيانة من يستحلى موارد الخيانة لبلاده – لمال يناله ، أو جاه يحرزه ، أو أبهة يختال فيها ، أو أمل يمنى بإدراكه على يد بريطانيا صاحبة النعم الجزيلة والآلاء التى لا تنفد !

إن بريطانيا تبذل الآن كل جهدها فى ردّ مصر والسودان عن الطريق الذى لا طريق غيره لمن أراد أن ينال حقه ، وأن يجعل هذا الحق ذِكْرًا مذكورًا فى قلوب الأبناء والأحفاد حتى لا تنطمس معالمه ، وحتى لا ينخدع الناس عنه بقليل مدلس عليهم كما حدث فى تاريخ مصر والسودان منذ سنة ١٩٢٤ إلى هذا اليوم ، حتى بلغ البلاء أن صار الناشئة يقولون : « مصر والسودان دولة مستقلة » ، وكلهم يعلم ويرى ويشهد بعينيه الغزاة فى ثيابهم يروحون ويغدون فى الشوارع والطرقات ، ويغشون دور الملاهى ويقيمون المدارس المعادية لروح مصر والسودان فى قلب بلادنا ، ويحمون لصوص الأجانب ، وينصرونهم على أبناء البلاد بكل ما استطاعوا .

ومصر والسودان لن ترتد مرة أخرى إلى طريق « المفاوضة بين مصر وبريطانيا » ولن ترتد إلى تعليق مسألة السودان وجعلها مسألة قائمة على حيالها ، ولن ترتد إلى الاعتراف بالورقة الباطلة التى كتبت فى سنة ١٨٩٩ لتشرك بريطانيا مصر فى حكم السودان . فإذا كان صدقى باشا قد علم من الثقة الذى أوعز إليه أن هذه الخطة هى الباقية ، وأنها هى التى سنصير إليها بعد انهزامنا فى مجلس الأمن ، وأنه لا محيص لمصر والسودان من المفاوضة قبل الجلاء عن وادى النيل كله - فقد كذب الذى أوعز إليه بذلك . وليعلم صدقى باشا أن الرائد لا يكذب أهله[١]، وأننا نحن أصدق حديثًا من الذين يعتمد هو على حديثهم ، فمصر والسودان قد علمت اليوم علمًا ليس بالظن أن مفاوضات صدقى - بيفن ، كانت زلة وقى الله شرها ، وأن الله سخر النقراشى ليقيل مصر والسودان من تلك العثرة المردية ، وأن مصر والسودان قد عزمت أمرها على أن لا تضع يدها فى يد بريطانيا ما دام لها على أرض وادى النيل ظل تستظل به أفاعيها ، وثعالبها ، ووحوشها وصنائعها أيضًا .

وخير لصدقى باشا ومن كان على شاكلته أن يعلم أشياء كثيرة ، فلا يغرر بنفسه فى مهالك بريطانيا التى تطأ بأقدامها كل من يخدمها إذا رأت فى ذلك خيرًا ينفعها . خير له أن يعلم أن الزمن الذى كان هو فيه أحد أبطال السياسة ، قد انقلب كله وذهب وعفَّى عليه الذى عفى على مآرب كثيرة . وخير له أن يعلم أن الجيل الذى يعيش فى هذه الأيام غير الجيل الذى كان يرهب سوط الجلاد ويخاف وسْمَ السياط على أبدانه ، وخير له أن يعلم أن العِلْمَ القليل الذى كان يناله الرجل فيتبجَّح به ويخيل إليه أنه صار عقلا وحده ، قد حل محله عقل كثير لا قبل لأحد بدفعه بعد اليوم . وخير له أن يعلم أن الدُّرة التى تتوهج اليوم بالإخلاص لمصر والسودان ، خير من كل الدُّرّ القديم الذى زيفته بريطانيا وملأت قلبه نعمة وجاهًا وسلطانًا ، وخير له أن يعلم أن دَمَ أى صعلوك مصرى سودانى مخلص

---

(١) هذا مَثَلٌ ، يضرب للذى لا يكذب إذا حَدَّث . وأصل الرائد هو الذى يُرْسَل فى البحث عن الكلأ والمرعى ، فإذا لم يَصْدُق قومه فقد غرَّر بهم وأهلكهم .

لبلاده ، قد صار أكرم على مصر والسودان من دماء السادة الذين سادوا بالخيانة والنفاق والخداع . وخير له أن يعلم فى أول ذلك كله وآخره أن احتقار مصر والسودان ، وازدراء هذا الشعب النبيل ووصمه بأنه لم يبلغ بعد المرتبة التى تخوّله أن يتبوأ مكانه فى العزة والكرامة - لن ينفع بعد اليوم صاحبه والمتحدِّث به ، والعامل على تثبيته فى أذهان من يحدثهم . وخير له أن يعلم أنه لا يزيد على أن يكون فردًا من أفراد هذا الشعب لا أكثر .

ليس من همّى مرة أخرى أن أتناول قول صدقى بالنقد أو التفنيد ، ولكن كل همى أن أدُلّ ناسًا من خلق الله الذى نبتت لحومهم ، وجرت دماؤهم ، وامتلأت بيوتهم خيرًا من ماء النيل الذى يجمع مصر والسودان ، على أن شعب مصر والسودان قد حزم أمره على أن يستأصل شأفة الماضى كله ويقطع دابر المنافقين المختالين بغير سلطان أتاهم ، وأنه قد أجمع عزمه على أن يحطم سلاسل الاستعباد كلها ، وأنه لن يقف دون غايته لرهبة أو رغبة ، وأنه عرف أن الساسة قد خدعوه زمنًا طويلا فأيما سياسى من القدماء ، ممن كان من صنائع بريطانيا أو من المخدوعين بشرف بريطانيا ، تسول له شياطين نفسه بعد اليوم أن يظن أنه أهدى من النقراشى وأعظم وأقدر ، وأنه بالغ ما لم يبلغه النقراشى بالمفاوضة والمساومة على حقوق مصر والسودان فمصيره أن ينال من بأس هذه الأمة الناهضة المتدفقة العارمة شرًّا كثيرًا كان أحوط له أن يلوذ منه بملاذ كريم ، هو يستظل بظل الأمة التى ولدته وأنشأته وكرمته بالانتساب إليها . فإذا أبى أحدهم إلا أن يطلب لنفسه مجدًا بدعوة بلاده إلي المفاوضة أو خيانة بلاده بقبول عون بريطانيا له حتى يبلغ الوزارة كما بلغها بعضهم من قبل على أسنة الحراب البريطانية ، فإنه سيعلم يومئذ أن الشعب المصرى السودانى أشد منه ومن بريطانيا بأسًا وظلما ومصابرة على الجلاد ، وسيعلم أنه قد قدر فخاب فامتحن امتحانًا شديدًا كانت له عنه مندوحة .

أيها الساسة القدماء ! احذروا غضبة الشعب ، فلكل شعب غضبة كالنار المشعلة تأكل الأخضر واليابس ، وهذا أوان غضبة مصر والسودان بعد أن يبس الثرى بيننا وبين بريطانيا .

* * *

مؤتمر المستضعفين

كانت جلسة مجلس الأمن فى يوم الأربعاء ١٠ سبتمبر ١٩٤٧ هى الحكم الفاصل فى قدر هذا المجلس وفى بيان قدرته على فض النزاع الذى ينشب بين الدول صغيرها وكبيرها . وكان ظن الذين دعوا إليه وأنشأوه - أو كانت دعواهم - أن هذا المجلس قد أنشىء ليكون فيصلا فى الخصومات التى يخشى أن تفضى إلى حرب ، وأنه هو المهيمن على السلام وحفظه فى هذا العالم المائج المتدافع . فجاءته قضية مصر والسودان ، وليس فى قضايا الدنيا كلها ما هو أوضح منها وأبين، ووجه العدل فيها ظاهر لكل ذى عينين عمشاوين فضلا عن عينين بصيرتين، ومع ذلك كانت كل جهود هذا المجلس العجيب أن يقول للمتخاصمين : اذهبا فاطلبا شيئًا تصطلحان عليه ! وليس فى الدنيا ماهو أعجب من هذا ، متخاصمين أعجزهما أن يجدا للصلح مكانًا بينهما ، فيقول لهما الحاكم الوازع : اذهبا فاطلبا صلحًا !!

ونحن لا نريد أن نطعن فى هذا المجلس ، ولا أن نقول إنه شيء لا قيمة له ولا غناء فيه ، ولا أنه أوشك أن يصبح سببًا فى فساد العالم ودافعًا جديدًا لتقريب ساعة الحرب ، ولا أنه كشف عن قدر من العجز يحل للناس معه أن يطلبوا حله ويسرّحوا وفود الأمم المشتركة فيه إلى بلادهم ، لا نريد شيئًا من هذا ، بل نرى أنه مجلس لابد من بقائه على ما هو عليه ، ولابد من ذهاب كل دولتين متخاصمتين إليه ، فإنه يتيح للمظلوم أن يفضح ظالمه ويكشف عن آثامه التى يسترها عن العالم بالأكاذيب والتمويه . ولكن كل ما نريده هو أن يتفضل هذا المجلس بأن ينفى عن نفسه نقيصة الغش والخداع ، فإنه أنبل وأعظم من أن يرتضيهما لنفسه ، فقد زوّر عليه الذين أنشأوه فوضعوا له اسمًا لا يناسب جلالة قدره ولا حقيقة معناه ، وألصقوا به شيئًا ليس من الإنصاف أن يلصق به ، وهو المحافظة على الأمن

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشر (العدد ٧٤٢) ، سبتمبر ١٩٤٧ . ص : ١٠٢٨ - ١٠٣٠

العالمى الذى يقتضى أول ما يقتضى أن تتساوى الدول المشتركة فيه فى السيادة على الأرض التى يشملها اسم الدولة ، حتى لا يقع التنازع بين سيادة وسيادة ، فيختل التوازن ويصير الأمن العالمى مهددًا بالزوال .

ونحن نقترح أن يسمى هذا المجلس « مجلس الأجاويد » ، وقد اخترت هذه التسمية لقصة سمعتها : ففى الشطر الجنوبى من وادى النيل المعروف عندنا باسم « السودان » ، والمعروف عند بريطانيا وأشياعها باسم السودان المصرى الإنجليزى ، ألف الناس إذا تخاصموا أن يلجأوا إلى جماعة من أصحاب الرأى يسمونهم « مجلس الأجاويد » ، فيأتى المتخاصمون فيذكرون أسباب خصامهم ، وتنظر الجماعة فى أمر هذا الخصام ، ثم ترى رأيها فتقول لأحد المتخاصمين : أكرمنا وانزل عن كذا ، وتقول للآخر : وأنت فأكرمنا أيضًا وانزل عن كذا . ولا تزال تأخذ من هذا ومن ذاك ، فإن قبل المتخاصمان أن ينزل كل منهما عن شيء وينزل خصمه عن مثله ، فذاك ، وإلا رفعت الجماعة يدها عن الأمر كله وقالت للمتخاصمين : لقد نفضت يدى ، فاذهبا فاصنعا ما تشاءان !

فمجلس « الأجاويد » هذا أشبه شيء بمجلس « الأمن » لولا أن الأول طابق اسمه مسماه ، وأن الآخر كذب اسمه على مسماه . فمن الحسن كل الحسن أن يغير هذا المجلس اسمه ويبقى هو ، لأنه مكان يتاح للدول فيه أن يعرف بعضها بعضًا على حقيقته بغير تدليس ولا تجمل ولا مواربة . وهذا فى نفسه غاية مطلوبة ومنفعة لا مراء فى أنها خير ينبغى الحرص على إدراكه وتحصيله ، بل نقول أكبر من ذلك : إن تسريح وفود الدول المشتركة فى هذه المجلس شر ينبغى اتقاؤه ، لأنه يحول بين الدول وبين إدراك هذه الغاية المطلوبة والمنفعة العظيمة .

وندع مجلس « الأجاويد » وما وحل فيه من عجز وضعف واحتيال على تفادى الحزم ، ومن فراره عن وجه الحق فيما يعرض عليه من الخصومة ، فإنه لم يخلق لمثل ما نطالبه به حين نذكر حقوق مصر والسودان أو سواهما من أمم الأرض . ندعه لننظر فى خاصة أمرنا نحن دون أن نعبأ شيئًا بما فعل هذا المجلس ، أو سوف يفعله .

وملخص تاريخ القضية المصرية السودانية ، كما يعرفه كل أحد ، هو أن مصر والسودان كانت فيما قبل سبتمبر سنة ١٨٨٢ دولة واحدة لها حدود معروفة معترف بها فى المحافل الدولية كلها لا ينازعها فيه منازع . وفى سبتمبر سنة ١٨٨٢ اتخذت بريطانيا ما كان من أمر الثورة العرابية التى قام رجالها للمطالبة بحقوق الشعب الدستورية ، ذريعة للتدخل فى شئون مصر الداخلية ، وكانت نيتها مبيتة على العدوان على استقلال مصر والسودان ، وإخضاع هذه الدولة للسيطرة البريطانية الاستعمارية التى كانت يومئذ فى عنفوان شدتها . فتم لبريطانيا ما أرادت ، وانتهكت حرمة الشرائع الدولية ، وادعت أنها أرادت تثبيت عرش خديوى مصر فى ذلك الوقت محمد توفيق . ولما رأت أن الدول الأوربية المستعمرة قد بدأت تناوئها ، زعمت أنها لن تلبث إلا قليلا حتى تجلو عن أرض مصر والسودان مرة واحدة فى أقرب وقت مستطاع ، حددته أحيانًا وتجاهلت تحديده أحيانًا أخرى . وظلت تماطل وتتعسف وتؤوّل ، وتكذب وتفترى على مصر والسودان أخس افتراء ، وهى فى خلال ذلك تهدم كيان هذه الدولة المصرية هدمًا تامًا بحجة الإصلاح حينًا ، وبحجة المحافظة على « حقوق » الأجانب فى مصر وعلى مصالحهم .

فلما جاءت الحرب العالمية الأولى ، انتهزت بريطانيا هذه الفرصة وأعلنت الحماية على مصر والسودان دون أن تعبأ شيئًا بحقوق شعب مصر والسودان ، وهى مطمئنة إلى سكوت الدول الحلفاء على فعلها فى هذه الساعة الحاسمة من تاريخ العالم . ثم انتهت الحرب وهب الشعب المصرى السودانى يطالب بريطانيا باستقلاله ، ولكن بريطانيا لم تلبث أن وجدت منفذًا لتفريق كلمة هذا الشعب ، فلوحت للزعماء بأنها تريد إنصاف مصر والسودان ، وظلت تستدرجهم حتى قبلوا مبدأ مفاوضة بريطانيا فى حقوق مصر الطبيعية ، فأقبل هؤلاء الزعماء على مفاوضة بريطانيا منذ ذلك الوقت ، فكانت زلة وخيمة العواقب فى تاريخ مصر والسودان ، ولو لم يكن لها من الشر إلا أنها أفضت إلى تعليق مسألة السودان من كل المفاوضات إلى سنة ١٩٣٦ ، لكان ذلك حسبها من البلاء الذى ليس بعده بلاء .

ولما حدثت مفاوضات سنة ١٩٣٦ الخبيثة ، وانتهت بمعاهدة الاحتلال التى فرضت على مصر فرضًا تحت ظل الاستبداد والتهديد والتخويف ، وقعت زلة أخرى أكبر من زلة المفاوضات نفسها ، وهى ذكر الورقة الباطلة المعروفة باسم اتفاقية سنة ١٨٩٩ - فكان ذكرها كأنه اعتراف بشرعيتها ، واجتماع كل هذه الأخطاء واحتشادها منذ سنة ١٩٢١ إلى هذا اليوم ، هو الذى مكّن لبريطانيا أن تقف فى مجلس الأمن لتتكلم بالكلام الذى لا معنى له إلا أنه تزوير للحقائق ، ولكنه تزوير اعتمد على هذه الأخطاء نفسها . فلولاها لما كان لبريطانيا كلام يقبله عقل عاقل ، ولشق عليها أن تدلس فى الحقيقة البينة ، وهى أنها دولة معتدية حكمها كحكم سائر الدول المعتدية فى الدنيا . ومع ذلك ، فإن شيئًا من هذا لم ينفع بريطانيا ، فالدول قد علمت ولا ريب أن بريطانيا معتدية بعد أن كشف النقراشى القناع عن الفضائح التى كانت مكتومة عن الناس وعن الدول ، وبعد أن أبان فارس الخورى عن أساليب بريطانيا فى قهر الدول الضعيفة وابتزاز حقوقها .

فلما أحجم مجلس الأجاويد عن أن يقطع برأى فى مسألة مصر والسودان ، وخاف أن يمس كرامة بريطانيا الدولة الشريفة النبيلة إذا هو حكم لمصر والسودان بالحق ، وتنزه عن وصف بريطانيا العفيفة الطاهرة بأنها دولة معتدية على حقوق الدول المسالمة - رجعنا من حيث بدأنا فى سنة ١٨٨٢ ، أى أننا وقفنا وحدنا لنقول للعالم مرة أخرى ، هذه دولة معتدية ، فلابد من رد اعتدائها ودفع عدوانها وبغيها بأى وسيلة تتاح لنا . فينبغى إذن أن ننذر بريطانيا إنذارًا لا رجعة فيه ، بأن تسحب جنودها من كل بقعة كان يرفرف عليها علم مصر والسودان فى سنة ١٨٨٢ دون نظر إلى معاهدات سابقة أو عرف جار ، أو اتفاقات باطلة . فإذا فعلنا فقد نبذنا إليه على سواء [١] ، وأعذرنا أنفسنا أمام هذا العالم الجشع من الدول المستعمرة .

---

(١) هذا بعض من كلام الله تعالى ، جاء فى سورة الأنفال ، آية : ٥٨ : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ ، أى ناجزهم بالحرب ، وأَعْلِمهم قبل حربكِ إياهم أنك قد فَسَخْتَ العهد بينك وبينهم ، بما كان منهم من ظهور أمارة الغدر والخيانة منهم ، حتى تصير أنت وهم على سَواء فى العلم أنك محارب لهم .

ونحن شعب لا طاقة له بحرب بريطانيا بالسلاح ، لأنها ظلت خمسًا وستين سنة تنزع من أيدينا كل سلاح ، وتضعف جيشنا بكل أسلوب ، وتحيط بنا من كل مكان ، حتى لا نجد لأنفسنا منفذًا نستطيع أن نستجلب منه السلاح الحديث الذى يعيننا على حربها . هذا حق ، ولكنه على وضوحه ليس بشىء ، فإن الأمة التى تريد استقلالها وتحرص عليه لن تمنعها قلة السلاح من أن تفعل شيئًا كثيرًا تستطيع به أن تنال ما تريد . وبريطانيا لن تستطيع أن تفنى هذا الشعب المصرى السودانى إذا هب لقتالها مجردًا من كل سلاح إلا سلاح العزيمة والتضحية وبذل المهج وإرخاص النفوس والدماء فى سبيل الوطن .

وبريطانيا ترى أن من مصلحتها أن يستقر السلام فى هذا الشرق الأدنى ، وهى تتخذ هذا حجة لبقائها فى مصر والسودان وفلسطين والعراق ، فينبغى أن نبحث عن الأسلوب الذى يفسد عليها هذا السلام الكاذب الذى تنتهك هى حرمته باحتلال أرض هذه الشعوب ، والعالم العربى كله يعلم أن مصر والسودان هى قلب بلاده فإذا ظل هذا القلب ضعيفًا مأسورًا فى قيود الاستعمار فالعالم العربى عاجز عن أن يفعل شيئًا فى سبيل النهضة التى تجيش بها صدور أبنائه ، وهو أيضًا عرضة للبقاء الطويل تحت نير الاستعباد الأوربى الفاجر المتعصب ، وهو أيضًا لحم على وضم [١] ينال منه كل طارئ وأفاق ما يشاء ، ويصب عليه من ازدرائه واحتقاره ما تسول له نفسه الخبيثة ، لأنه يعلم أنه قوى فى حماية هذه الدول الطاغية المستعمرة جميعًا . فلزام إذن على هذا العالم العربى كله أن يهب هبة واحدة للجهاد - من أقصى مراكش إلى حدود العراق بغير استثناء - متخذًا كل وسيلة من المقاطعة إلى المحاربة الظاهرة والخفية جميعًا .

وهذا الغرض السامى يتطلب منا أن نجمع شملنا ، لا فى مصر والسودان وحدهما ، بل فى كل مكان من هذا العالم العربى ، وفى كل ناحية من نواحى

---

(١) لَحْمٌ على وَضَم . هذا مَثَلٌ . الوَضَم : كل ما وُضِع عليه اللحمُ من خشب أو غيره لتقطيعه ، ويضرب مثلا للذلة والضعف . وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إنما النساءُ لحمٌ على وَضَم إلا ما ذُبَّ عنه » .

العالم الإسلامى . وينبغى أن يتجرد منا جميعًا رجال يجوبون هذه الدنيا لتأليب الشعوب العربية والإسلامية على عدوان هؤلاء المعتدين ، ولعقد المودة بيننا وبين الشعوب التى أظهرت مودتها لنا ودفاعها عنا . وينبغى ألا يفزعنا شىء فإننا مأكولون ، والمأكول لا يبالى أن يأكله هذا أو ذاك ، وجرأته هى وحدها الكفيلة بأن تضمن له ضربًا من الحرية فى الاختيار . ومع ذلك فعسى أن يحدث شىء لم يكن أحد يتوقعه ، فننال حقنا كاملا دون أن نطوق أعناقنا بمنة يمتنها علينا شعب أو دولة . وحسبنا أن بريطانيا تريد أن يستقر هذا الشرق وهذا العالم الإسلامى حتى توغل هى فى عدوانها ، فلنمنعها هى وأشياعها مما يريدون .

هذا العمل الجليل لا يغنى غناءه إلا إذا تعاونت الحكومات العربية والإسلامية معًا ، وتعاونت شعوبها أيضًا مع هذه الحكومات تعاونًا شاملا كاملا لا ثغرة فيه ، فأول ما ينبغى أن تقوم مصر والسودان فتدعو إلى عقد مؤتمر عام لكل الشعوب الصغيرة المجاهدة فى سبيل الحرية والاستقلال ، وأن يتولى هذا المؤتمر العام تحديد الخطط التى ينبغى أن نسير عليها حتى نبلغ هذه الغاية التى تُقِضّ مضجع بريطانيا ورأس أشياعها أمريكا لنسارع إلى دعوة هذا المؤتمر العام إلى عقد أول اجتماع فى أقرب فرصة مستطاعة ، فإن الإرجاء مفسدة للجهود وإضعاف للقوى وإضاعة للوقت ، والإسراع لا يضر بل هو أنفع شىء ما دام الهدف الأسمى هو أن نزعج بريطانيا وأمريكا أولا ، وأن نتفق على الخطط العامة التى تكفل لنا نيل حقنا من هذه الشعوب المستعمرة العادية على استقلالنا وحريتنا .

وهذا المؤتمر لا يتعارض قط مع عمل الجامعة العربية ، لأنه محدد الهدف ، ولأنه يقوم على أساس واحد هو الاتفاق على أساليب الجهاد كلها ، وعلى حشد القوى التى تعين عليه ، وعلى اختيار الفئة الصالحة للتجول فى أرجاء العالم لإثارة الشعوب العربية والإسلامية ودعوتها إلى أخذ حقها دون مساومة أو مفاوضة وعلى تحديد أعمال القائمين بالدعوة فى كل مكان ، وعلى التمهيد لعقد الصلات بيننا وبين الشعوب التى تناصرنا على نزع ربقة الاستعمار عن أعناق الأمم المستضعفة فى كل مكان ، مهما اختلفت ألوانها أو أجناسها أو أديانها .

إن هذا المؤتمر ضرورة لازمة ألجأتنا إليها بريطانيا وأمريكا وأشياعهما من الدول الشريفة النبيلة التى قامت لنصرة الحق والعدل والمساواة ! وبريطانيا وأمريكا وأشياعهما لا يريدون أن يدركوا أن هذه ساعة حاسمة فى تاريخ العالم العربى والإسلامى ومن يعيش معهما من الأمم التى وقعت تحت سيطرة الاستعمار ، وهم يماطلون ويراوغون ويتملصون من الفروض التى كتبوها على أنفسهم فى ميثاق الأمم المتحدة ، وهم يأبون أن يعترفوا بأننا شعوب تريد أن تعيش حرة لأن هذا هو حقها فى الحياة ، فينبغى إذن أن نجيّش كل قوانا وأن نعد العدة لإقناع هاتين الدولتين ومن يلوذ بهما بأننا قوم نأبى أن نعيش عبيدًا فى دنيا لم يخلقها خالقها إلا لتكون أرضًا للأحرار ، وأننا أمم لها من الحقوق مثل ما لبريطانيا وأمريكا وأشياعهما ، وأن الله لم يخلق هؤلاء الناس ليسودوا العالم ويستعبدوا أهله بالظلم والعدوان والكذب والتغرير .

إننا لا نريد عدوانا على أحد ، ولكننا قد أبينا أن نقبل العدوان من أحد كائنًا من كان ، وبالغًا من القوة والبطش والجبروت ما بلغ . وقد أعذر من أنذر .

* * *

لا هَوَادة بعد اليوم

لا يحل لعربى منذ اليوم أن يرفع يده عن سلاح يعده لقتال عدو قد أحاطت به جيوشه من كل ناحية . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يدع ثغرة من ثغور العدى إلا سدها بنفسه أو ولده أو صديقه . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يضع عن عاتقه عبء الكد والكدح التماسًا للراحة أو الدعة . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يتواكل ويقول لنفسه : لقد تعبت ، وما يضرنى أن أترك هذا لفلان فهو كافيه . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يقول : غدًا أفعل ما حقه أن يفعل اليوم . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يخدع نفسه عن حرب دائرة الرحى بيننا وبين اليهود وأشياعهم من أمم الأرض . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يكتم الحق عن أهله أو عن عدوه ، ويقول هذه سياسة وكياسة وترفق . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يمالئ قومًا يكاشفونه بالعداوة والبغضاء ونذالة الأخلاق . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يقبل من رجال السياسة تأجيل شىء من قضايا العرب ، فهى كل مترابط لا ينفك منها شىء عن شئ .

لقد عرف كل عربى وكل مسلم على ظهر هذه الأرض ما آلت إليه القضية المصرية السودانية فى مجلس الأمن ، وعرف كل عربى وكل مسلم ما صارت إليه قضية فلسطين فى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ، فهل بقى بعد هذا مجال لناظر حتى يقول : سوف أحتال بالسياسة حتى أنال ما هو حق لى ؟!

إن بريطانيا وأمريكا وسائر الدول التى تدير لهما الساقية ، قد كشفت عن طواياها بما لا يدع لأحد علة يتعلل بها أو يتشبث ، فقد قالوا الكلمة الصريحة الواضحة بأنهم عدوٌّ لنا وحرب علينا ، وأنهم يبغون أن يحطموا هذا الجيل العربى ، وأن يسلطوا على رقابه أنذال اليهود وأوباش الاستعمار ، وأنهم يعتقدون أننا قوم لا نصلح لأن نحكم أنفسنا بأنفسنا ، أو أننا أمم قُصَّر لم نبلغ رشدنا ولا يظن بنا

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٤٤) ، أكتوبر ١٩٤٧ ، ص : ١٠٨٤ - ١٠٨٦

بلوغ الرشد . فهذا ترجمة موقف الدول المعادية حيال قضية مصر والسودان وحيال قضية فلسطين .

وسر هذه العداوة – ولا نكتم الحق – هو أن أوربة وأمريكا جميعًا لا يزالون يعيشون فى أنفسهم إذا ذكر العرب فى أحقاد صليبية لم تستطع المدنية ولا استطاع العلم ، ولا استطاعت سهولة المواصلات ، ولا استطاعت كثرة الهجرة والرحلة ، أن تنفيها عن قلوبهم ، بل لعلها زادتهم أضغانًا على أضغان ، ولا تزال أوربة وأمريكا تقول : خطر الإسلام وخطر العرب ، كما كانوا يقولون الخطر الأصفر والخطر الأسيوى . وإذا كان بعض ساستنا الذين لقوا ساسة الأوربيين والأمريكيين قد انخدعوا بظاهر من القول حين سمعوا أحاديث أولئك المرائين المنافقين من ساسة أوربة وأمريكا ، وظنوا أن لين القول دليل على صدق العقيدة ، حتى أجروا فى أحاديثهم ذكر « عطف أمريكا على العرب » و « عطف بريطانيا على العرب » ، فقد ضلوا ضلالا مبينًا . إن أوربة وأمريكا لا تعرف العطف على العرب ، بل هى العدو ، وهى البلاء المصبوب علينا ، وإلا فكيف تعطف بريطانيا على العرب وهى التى لا تزال تفعل الأفاعيل فى مصر والسودان ؟ وكيف تعطف أمريكا على العرب وهى التى خذلت مصر والسودان فى مجلس الأمن ؟ وكيف تعطف بريطانيا وهى التى ورَّطت الدنيا كلها فى مشكلة فلسطين ، ثم تجىء فتطلب من هذه الدنيا أن تحل لها المشكلة ؟ وكيف تعطف أمريكا وهى التى تمد اليهود بالمال والقوة والسلاح والدعاية ؟ وكيف وهى التى تبيح لشركات النشر والإذاعة والصحافة أن تدلس وتكذب وتخدع فى شأن العرب ، ولا تجد منكرًا ينكر ، ولا لسانًا يدافع ، ولا قلمًا يشمئز من هذه الوسائل التى تطفح بالغدر والبغى والنذالة ؟!

إنهم جميعًا يظاهرون علينا اليهود ويظاهرون علينا الاستعمار ، ويفعلون ذلك علانية لا يستخفون ، ففيم نحتال نحن بالمداورة أحيانًا خشية أن نثير علينا هؤلاء المظاهرين ومخافة أن نُرْمى بالتعصب ؟ فيم نخاف ونحن فى معمعة هذه الحرب التى تشنها علينا بريطانيا وأمريكا بالاستعمار وباليهود ؟ ولم نخاف أن نتعصب

لحريتنا واليهود يتعصبون لعدوانهم جهارًا ؟ إن العرب قد عاشوا على ظهر هذه الأرض أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فكانوا أمةً وسطًا لم تظلم ولم تضطهد ، بل نصرت المظلوم وآوت المضطهد ، ورفعت النير عن رقاب الأمم مجوسها ونصاراها ويهودها ، حتى جاء أمر الله وذهبت ريحهم وغلبت عليهم الأمم . فتاريخ العرب كله دليل على أن هذا الجيل من الخلق يأنف أن يظلم وأن يضطهد ، ولكنه يأنف أيضًا أن يقبل الظلم والاضطهاد ، فإذا رد الظلم عن نفسه ودفع الاضطهاد عن حماه ، وحمى حوزته دون عدو باغ ، أو توقى شرًّا يوشك أن يتوغل فى قلب حياته ، فما يفعل ذلك عن تعصب أو حقد أو جهالة ، بل هو الحق ووسائل الحق !

وإذا كان فيما نفعله ، أو فيما يجب أن نفعله ، شيء يؤخذ على أنه صرامة وشدة وحنبلية متزمتة ، فبما اضطررنا إليه فعلناه . وإليك مثلا هذه الدول العربية التى بدأت تضج ضجيج البعير آذاه العبء الفادح من غول الاستعمار الأدبى والسياسى والاقتصادى ، والتى بدأت تعرف أن كل باب من أبواب الحياة قد وقف عليه ديدبان من اليهود أو من الأجانب الطارئين ، ليذودوا العربى عن الانتفاع ببلاده التى هى له ملك متوارث منذ أقدم عصور التاريخ - يذودونه عن الانتفاع بتجارة بلاده ، لأن شياطين التجارة ومردتها فئة من هذه اليهود وهذه الأجانب ، ويذودونه عن الانتفاع بمعادن أرضه ، لأن أبالسة الحديد والنار هم أصحاب المناجم فى أرضه وبلاده ، ويذودونه عن الانتفاع بقوى شعبه ، لأن خزان المال من اليهود والأجانب يضربون العمال بالفقر والذل والبؤس ، ولا يدعون لهم متنفسًا ، ولا طريقًا إلى بلوغ المستوى الذى يحق لهم بجهودهم التى يجودون بها ، فتكون لليهودى والأجنبى غنى ومالا وثروة وعجرفة وتغطرسًا على هذه الأمة العربية ، ونكبة وبلاءً واستعمارًا كأنه جوامع [1] من غليظ الحديد مضروبة فى أوتادها الراسخة فى جوف الأرض العربية . هكذا هو ، فماذا تفعل هذه الدول ؟

---

(١) الجوامع : جمع جامِعَة ، وهى القَيْد ، سُمِّيت بذلك لأنها تجمع اليَدَيْن إلى العُنُق .

أليس من الحق لكل بلد عربى أن يسن قانونًا لأهله أو قانونًا لحكومته إذا استطاع – أن يحرم على كل يهودى وأجنبى أن ينشىء شركة إلا إذا كان كل عامل فيها وكل موظف من أهل البلد ، وأن تكون أرباح الشركة لا تزيد على قدر معلوم ، وأن يكون الدخل وقفًا على البلاد التى يستثمر فيها جهوده ، فلا يخرج مالا ولا يختزنه فى مصارف بلاد أخرى غير البلاد التى استوطنها ، وزعم أنه جاء ليسدى إليها خيرًا بعلمه أو فنه أو صناعته أو تجارته ؟

أليس من الحق لكل بلد عربى إذا هو رأى هذه الأجانب وهذه اليهود تملأ عليه الجو ، وتأتيه مهاجرة من كل مكان هجرة حرة غير مقيدة أن ينظر لنفسه ومصالحه ، ويعرف أن هؤلاء خطر ينبغى درؤه واتقاؤه بكل وسيلة ؟ فإذا منعنا الهجرة أو قيدناها فأى تعصب فى هذا ؟ وإذا كنا نعلم علم اليقين أن هؤلاء الطارئين هم من حثالة اليهود وحثالة الأجانب ، وأنهم أرذل خلق الله أخلاقًا وأقلهم علمًا وأخسهم نفوسًا ، فأى تعصب فى أن نقول للعالم كله إننا نأبى أن نؤوى هذه الحثالة القذرة فى بلادنا وبين أهليها ، وأن نمنعهم أن يتدسسوا إلى حمى أعراضنا بنذالاتهم وفجورهم وعهرهم وبالخبث التى انطوت عليه دخائلهم ؟ وإذا كنا نعلم علم اليقين أن هذه الحثالة الخبيثة ، وهذه الرمم الإنسانية تفعل فى شوارعنا وطرقاتنا ما لا تستطيع أن تفعل مثله فى بلاد غير بلادنا التى وقعت تحت بطش الاستعمار قرنًا أو بعض قرن ، فأى تعصب فى أن نسن قانونًا يوجب ترحيل هؤلاء الطارئين ، أو يوجب نزع الجنسية المصرية أو العربية أو السورية عن هذه الفئة التى جاءت دخيلة على بيوتنا وديارنا وأخلاقنا ؟

إن من حق البلاد العربية أن تفعل ذلك ولا تبالى بنقد منتقد ولا هجوم متهجم ، ولا إقذاع مبطل ولا سفاهة مدخول السريرة خبيث الطوية . كلا إنه ليس حقًّا لها وحسب ، بل هو فرض لا مناص من أدائه والقيام عليه وحياطته كل الحياطة ، إن هذه اليهود وهذه الأجانب هى ذرائع الاستعمار ، وهى أداة البطش التى سلطها الاستعمار على رقابنا ، وهى الخبيثة المردية التى تفشَّى داؤها حتى أَوْهَى القوى وأوهن العزائم ، وأكلنا لحمًا طريًا وتركنا عظامًا نخرة .

وها نحن الآن مقبلون على حرب بيننا وبين اليهود ، وحرب بيننا وبين الاستعمار ، وكلاهما حرب لا هوادة فيها ولا مفر منها ، فكيف يجوز فى العقول أن ندع العدو بين ظهرانينا يعيث فسادًا وخيانة وتجسسًا ، بل يأخذ من أموالنا ويرد على أموال عدونا ، فيضعفنا ويقويه ، وينهكنا وينميه ، ويوهننا ويضريه ؟ إن من القوانين الدولية فى زمن الحرب أن تضع الدولة يدها على أموال أعدائها جملة واحدة ، فتستثمرها فى حقها وبحقها لتكون لها قوة وعتادًا ، ومن القوانين الدولية أن تقبض الدولة على أبناء الدولة المعادية فتأسرهم فى المعتقلات حتى تضع الحرب أوزارها ، خشية أن يفجروا فى الأرض ويكونوا عيونًا عليها ، وبلاء فى داخلها ، و « طابورًا خامسا » فى شعبها ، فهل شك أحد فى ذلك أو استنكره أو بغض إلى دولته فعل ذلك ؟ كلا ! وإذن فكيف يجوز للعرب منذ اليوم ، وقد شرعوا فى الجهاد وعزموا على أن يحطموا أغلال الاستعمار ، وأن يقوضوا عرش اليهودية الباغية ، أن يتهاونوا فى الضرب على يد هذه التجارة اليهودية فى قلب بلادهم ، أو أن يهادنوا هذه الشرذمة الوبيئة التى تعيش بين ظهرانيهم ، أو أن يبيحوا لأعوان الاستعمار من شذاذ الأمم والأفاقين أن يسرحوا حيث شاءوا من بلادهم ، وأن يستولوا على مايشاؤون من أموالهم وأرزاقهم ، وأن يدخلوا فينا ليكونوا عيونًا علينا فى هذه الحرب التى تدور بيننا وبين يهود ، وبيننا وبين الاستعمار والمستعمرين .

ومن الذى حمل اليهود على الهجرة إلى مصر مثلا ؟ أليست هى الفكرة الصهيونية ؟ ومن الذى حمل الأجانب على الهجرة أيضًا إلى بلادنا ؟ أليس هو الاستعمار ؟ فكيف ندع الصهيونية والاستعمار يجوسان خلال الديار ونحن فى مَغْمَعان [1] القتال ؟ وأنا أضرب مثلا لم أزل أتتبعه منذ قامت اللجنة التى وكل إليها كتابة تقرير عن فلسطين ، ومنذ رفعت قضية مصر والسودان إلى مجلس الأمن .

---

(١) المَغْمَعان والمَغْمَغة بمعنى .

فمنذ ذلك الحين وأنا أنظر وأتسمع ، وأتفرس الوجوه ، وأتوسم الشمائل ، فإذا هذه اليهود وهذه الأجانب قد خفتت أصواتها ، ولانت أخلاقها ، وهذبت غطرستها ، وحلت لنا ألسنتها ، وابتسمت لنا وجوهها . ولم أكن أجهل أن ذلك كله نفاق ورياء وخديعة يظنون أنها تخدعنا عن طوايا قلوبهم . فلما كان من أمر القضية المصرية السودانية ما كان ، وظهر من مستور اللجنة المزورة ما ظهر ، إذا هذه الأصوات الخافتة قد صارت نعيقًا ، وإذا الأخلاق اللينة قد صارت عرامًا ، وإذا الغطرسة المهذبة قد انقلبت فجورًا متمردًا ، وإذا الألسنة الحلوة قد صارت مرًّا زعاقا [١] ، وإذا الوجوه المبتسمة قد شاهت بالتجهم وإذا الشمائل المؤدبة قد صارت عجرفة وطغيانًا ، وإذا هذه الخلائق الفاجرة تمشى على أرضنا تيهًا وخيلاء كأنها جنس وحده ونحن عبيده وأذلاؤه ، وإذا نظرات الازدراء وكلمات التحقير تقال على مسمع منا ومنظر بلا حياء ولا أدب ولا خلق ، وإذا كلمة « عربى » تتردد مرة أخرى على ألسنة هؤلاء الأنذال الجبناء فى كل مكان بعد سكوتهم عن النطق بها خوفًا وفزعًا أن يكون قد دنا موعد نصر العرب فى قضية فلسطين وقضية مصر والسودان . هذا كله شيء تتبعته أنا ومن أعرف ، بلا زيادة ولا دعوى كما تفعل هذه الخبائث من يهود وشذاذ الآفاق .

إنها الحرب المبيرة أيها العرب ، فلا تكن يهود التى ضرب الله عليها الذل والمسكنة والتشرد فى جنبات الأرض ، أحمى منكم أنوفًا وأشد منكم حفاظًا ، وأقوى منكم حمية ، وأجرأ منكم قلوبًا ولا تكن يهود أيها العرب أشد محافظة على باطلهم منكم على حقكم . واعلموا أيها العرب أن الذى بيننا وبين يهود والذى بيننا وبين الاستعمار دم لا تطير رغوته ولا ينام ثائره ، وقد جدت الحرب بكم فجدوا يا أبناء إسماعيل ويا بقية الحنيف إبراهيم ، ولا يهولنكم مال اليهود ، ولا بطش بريطانيا ، ولا مخرقة أمريكا ، فإن الحق لله ، وكلمة الله هى العليا .

* * *

---

(١) زُعاق : يقال ماء زُعاق ، إذا كان مُرًّا غليظا لا يُطاق شربه من أُجوجته .

حديث الدولتين

الآن حَصْحَصَ الحق ، ولم تبق فى نفس ريبة تحجبها عن رؤية الحقيقة سافرة بينة واضحة تكاد تنطق وتقول هأنذا فاعرفونى ؛ فهذه بريطانيا أمّ المكر والدسائس قد دخلت أرض فلسطين العربية ليقول قائد جيشها يومئذ حين وطئت قدماه المدنستان هذه الأرض المطهرة : « هذه آخر حرب صليبية » ، فكان ذلك إعلانًا عما اعتمل فى نفوس أولئك الغزاة من سخائم الحقد والضغينة والعصبية الجاهلية الموروثة ، ثم لم تلبث هذه الدولة أن نكثت عهودها للعرب ، وكانت قد قطعت هذه العهود على نفسها لتستجر معونة العرب لها فى الحرب العالمية الأولى . ولم يكن ذلك فحسب ، بل إنها كانت تكيد للعرب من وراء حجاب فقطعت عهدًا آخر يناقض عهودها للعرب ، وكان هذا العهد لرجل غير مسئول من الأفاقين الصهيونيين المتعصبين . فلما دخلت فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى أظهرت أنها دولة لا تستطيع أن تنقض عهدها فإن العهد هو شرفها الشامخ الباذخ النقى الطاهر ، فمن أجل ذلك أصرت على أن تحمى اليهود الذين جاءوا من أرجاء بلاد الله ليحتلوا أرض فلسطين . وظلت وكالات الأنباء تطمس حق العرب فيما تنشره الصحافة ، وتجلو باطل اليهود جلاء منيرًا حتى انخدعت الدنيا كلها بالترهات التى تحوكها هذه الشركات الصهيونية .

وثار العرب يطلبون حقهم ويريدون طرد هؤلاء الدخلاء من أرض الآباء والأجداد ، فوقفت بريطانيا تذود عن باطل اليهود فتفتك بالعرب فتكا وحشيًّا ، تعذب طلاب الحق وتهينهم وتشردهم لا ترعى حرمة لطفل ولا شيخ ولا امرأة ، وضربت الغرامة على القرى والدساكر والبلاد لأهون سبب ، وهى فى أثناء ذلك ترخى للأفاقين من اليهود وتغريهم بالعرب وتمهد لهم فى الحكومة حتى يستولوا

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٤٦) ، أكتوبر ١٩٤٧ ، ص : ١١٤٠ - ١١٤١

على السلطان ، وتحميهم من شر العرب وبأسهم ، وتسلطهم على رقاب المسلمين والنصارى أهل فلسطين . وجعلت صحفها وشركات أنبائها تذيع على العالم الأكاذيب ، وتصور العرب فى صورة المعتدين الباغين ، وتسمى الأحرار من أبناء إبراهيم وإسماعيل عصابات ولصوصًا وفتاكا ، وترميهم بالبهتان والكذب ، وتستر عن العالم كله فظائع ما ترتكبه فى حق الأحرار المجاهدين .

وظلت بريطانيا على ذلك الطغيان الفاجر تعمل بالدسيسة والوقيعة والكذب والتغرير ، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ، فقام الأبالسة من رجال السياسة البريطانية يفتلون فى الذروة والغارب [1] من هذه العرب حتى لانوا وانخدعوا بأن بريطانيا سوف تنصفهم وتعطيهم حقهم يوم تضع الحرب أوزارها ، وهى فى خلال ذلك تجند اليهود فى جيوشها وتزودهم بالسلاح وتدخلهم فلسطين وتظهر الكراهة لما تفعل ، وتبطن الغدر فيما تريد ، فاحتشدت من اليهود جيوش جرارة فى فلسطين باسم الديمقراطية والدفاع عنها ، وباسم الاضطهاد الذى أنزله النازيون بهم فى أوربة ، وبغير ذلك من الأسباب الكثيرة التى تعلقت بها السياسة البريطانية .

ووضعت الحرب أوزارها ، واشتد ساعد اليهود ، وهم أهل المال وحُرّاسه ، فأعانوا بريطانيا ، ثم لم يلبثوا أن كشفوا القناع فى أمريكا وهم فيها القوة الظاهرة فى انتخاب رئاسة الجمهورية وأصحاب الشركات والأموال فى نواحى الاقتصاد الأمريكى ، وهم شياطين الصحافة والمستولون على إعلاناتها وشركات أنبائها ورجال تحريرها ، فإذا أمريكا تندفع فى طريق الصهيونية غير عابئة بالحق الظاهر ، ولا بمصالحها فى بلاد العرب ، ولا بكرامتها بين الأمم ولا بسمعتها فى دواوين التاريخ . وإذا هى أشد بغيًا على العرب من بريطانيا ، وإذا صحافتها أشد جلافة من الهمجى الذى لم يهذبه تأديب ولا تثقيف .

---

(١) فَتَل فى الذروة والغارب : مَثَلٌ . والذِّرْوَة : أعلى السنام ، والغارِب : مابين السنام والعنق . وأصله أن يكون البعير مُصْعَبا ، فيحك صاحبه سنامه وغاربه ، ويفتل الوَبَر بينهما بأصابعه حتى يؤنسه بذلك فيلين وينقاد فيستمكن منه فيخطمه .

هكذا كان أمر بريطانيا وأمر أمريكا ، وإذا هيئة الأمم المتحدة ترسل لجنة إلى فلسطين لتضع تقريرًا ، وإذا هذا التقرير فجور ليس بعده فجور ، ولا عجب فإنها لجنة كانت أول أمرها ضالعة مع اليهود ، فقسمت أو أشارت بأن تقسم فلسطين قسمة جائرة بين العرب واليهود . أما العجب العجاب فهو أن نرى بريطانيا العظمى ذات السلطان والبأس والبطش ، تذل لعدوان اليهود على جنودها وعلى جلد ضباطها وشنقهم واختطافهم وتعذيبهم ، ثم يأتى قرار التقسيم الذى اقترحته اللجنة ، فإذا بريطانيا تزعم أنها سوف تجلو عن فلسطين وتدع العرب واليهود لكى يحلوا هذه المشكلة المستعصية على ساسة بريطانيا العظمى أيضًا !! ...

فماذا تريد بريطانيا بهذا الانسحاب المفاجئ بعد أن كانت هى سر النكبة التى نزلت بساحة العرب مسلمهم ونصرانيهم فى فلسطين وفى سائر بلاد العربية ؟

لا جرم أنها تريد أن يقع القتال بين العرب واليهود ، وتخرج هى سالمة من هذا الصراع ، وهى فى خلال ذلك سوف تعطى اليهود من المعونة والسلاح ، ويجهد أسطولها خفية فى تهريب الأفاقين إلى فلسطين .

أما أمريكا فهى تضحك الثكالى بسياستها فى هذه المشكلة ، فهى تلجأ إلى هيئة الأمم المتحدة ويقوم مندوبها فى اجتماع اللجنة الخاصة ببحث مشكلة فلسطين ، ويكشف القناع عن سياسة هذه الدولة المحدثة فى السياسة ويقول إن حكومته تؤيد مشروع تقسيم فلسطين ، وتؤيد سياسة الهجرة التى اقترحتها لجنة التحقيق فى تقريرها ، وليس هذا فحسب ، بل تتبرع هذه السياسة الأمريكية فتقترح تجنيد قوة دولية من المتطوعين بواسطة هيئة الأمم المتحدة ، لكى تتولى الإشراف على تنفيذ قرارات الجميعة العمومية .

فماذا تريد أمريكا بهذا التدخل المفاجئ ، بعد أن كانت بمعزل عن الغلو فى السياسة الاستعمارية ، ولها مصالح كثيرة فى بلاد العرب تعمل جاهدة على تثبيتها وتوطيدها ؟

لا ريب فى أنها تريد أن تحل محل بريطانيا فى حمل خبائث الاستعمار بعد أن شاخت أمُّ الخبائث ، ولا ريب فى أن نفسها تسول لها أن اليهود أهل جد

وعمل وإتقان وأصحاب مال وافر وأنهم إذا تم لهم إقامة دولة يهودية فى قلب البلاد العربية ، فذلك إيذان باستيلائهم على الميادين الاقتصادية كلها ، وأن يهود إذا فعلت ذلك ضمنت لأمريكا الحق الأول فى السياسة الاقتصادية فى الشرق الأوسط كله . وإذن فأمريكا تريد أن تلتمس أسبابًا للتدخل فى مسألة فلسطين ، فهى تؤيد اليهود مستهينة بمصالحها فى بلاد العرب ، لكى يقع القتال بين العرب واليهود ، وتنتهز هى الفرصة فتعين اليهود بالمال والسلاح والرجال ، ثم تلعب هى وبريطانيا لعبًا خبيثًا فى هيئة الأمم المتحدة لكى يجندوا جيشًا دوليًا لتنفيذ مشروع التقسيم بالقوة ، ويكون قوام هذه الجيش من أهل العصبية الصهيونية الذين استشرى أمرهم فى بلاد أمريكا . ويومئذ تدخل أمريكا الشرق الأوسط كله بصك توقعه لها هيئة الأمم المتحدة – أى سوق الرقيق الدولية .

وإذن فالأمر كما ترى بيّن كإسفار الصباح ، وهو أن هاتين الدولتين الاستعماريتين تتخذان أسلوبين مختلفين فى الظاهر متفقين فى الباطن ، يفضى إلى حمل العرب على قتال يهود . ونِعم ما أرادا .

ونحن العرب نقبل منهما هذا التحريض الخبيث ، لأننا نريد أن نقاتل اليهود قتالا لا هوادة فيه ، فإن دماءنا ليست أغلى من حريتنا وشرفنا وديننا . ولعل أمريكا قد سمعت لأولئك الأفاقين اليهود الذين يزعمون لها أننا نهدد على غير طائل وإنما هى جعجعة ولا طِحْنَ لها [١] ، فآثرت أن تكشف سوءتها وقبيح نيتها للعرب وتصالح اليهود وتتملقهم وتحطب فى حبالهم . فلتعلم أمريكا ولتعلم بريطانيا أنا لسنا كاليهود ولسنا كسواهم من الذين يجرؤون لأنهم يحملون أسباب الغدر والخيانة والإبادة ، فلو لقوا أعداءهم وجهًا لوجه لفروا واندحروا صاغرين . إن العرب ليريقون دماءهم فى سبيل الحرية والشرف والنبل وإن كانت كثرة السلاح مما يعوزهم ، وفرق بين النذل الجبان والشريف الشجاع ، فهذا يكون أقل السلاح حصنًا له وحافزًا ومحرضًا ، وذلك إذا رأى حملة صدق انتثرت نفسه وطار قلبه

---

(١) الطِّحْن : المطحون ، وأصله مثل هو : أسمع جَعْجَعَةً ولا أرى طِحْنا .

وألقى عدته وسلاحه وأغمض فى الأرض هاربًا . فهذه يهود وهذا نحن أيها المخدوعون ...

إن بريطانيا وأمريكا وصحافتها قد استعلنت لنا بأحقادها فلنعلن نحن أحقادنا . وإن يهود قد استغرت بقوتها وبمعونة بريطانيا وأمريكا ومظاهرتها لعدوانها علينا ، فلا تأخذنا بعد اليوم رحمة بيهود ، فقد رحمناهم يوم اضطهدوا ، وآويناهم أيام شردوا ، وأفسحنا لهم بلادنا وقد طردتهم الأمم المسيحية القديمة طرد الكلاب الجربى ، ولكنهم أنكروا ذلك ونسوه ، وعضّوا اليد التى مسحت آلامهم وجروحهم على مر العصور . ونعم ما فعلت يهود ، فإنها قد أيقظتنا من غفلتنا ، ويسرت لنا أن ننقذ العالم عاجلا أو آجلا من عربدة هذا الجيل الذى طهر الله أسلافه ، وصب لعنته على الأخلاف لعنة باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ...

* * *

بَلْبَلَة

لستُ امرءًا قانطًا ولا متشائمًا ولا يائسًا من خير هذه الأمة العربية ، بل لعلنى أشد إيمانًا بحقيقة جوهرها وطيب عنصرها وكرم غرائزها ، بل لعلنى أشد إيغالا فى الإيمان بأنها صائرة إلى السؤدد الأعظم والشرف السرى والغلبة الظاهرة إن شاء الله ، وأنها هى الأمة التى أرصدها بارئ النسم لرد العقل على هذه الإنسانية المجنونة فى هذه الحضارة الهوجاء . فالعرب مذ كانوا هم الجوهرة التى أطبقت عليها صحراء الجزيرة ، فما زالت تكتمهم فى ضميرها وتحنو عليهم وتمنعهم من كل فساد داخل حتى صفا ماؤهم ورق شبابهم وأضاؤوا من جميع نواحيهم . فلما جاءهم محمد بن عبد الله بشيرًا ونذيرًا وهاديًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، صار كل رجل من صحابته نجمًا يهتدى به الضال ويأتم به المسدَّد . ويومئذ تمت المعجزة الكبرى فى تاريخ العالم ، فانطلقت هذه الفئة الصالحة من عباد الله كأنها السيل المتدفع ، وكأنها الرياح العاصفة ، وكأنها الأشعة المتلألئة ، وكأنها قدر الله ، فدكّت حصون الروم ، وثلّت عروش الفرس ، ودوّخت جبابرة الأمم ، حتى ورثوا أرض الله وأقاموا فيها الحق والعدل بالميزان والقِسْط ، وجاءت سلالتهم فجددت حضارة الدنيا ، وإذا الذين كانوا بالأمس بداة جفاة غلاظًا فيما يرى الناس من أهل الحضارات السالفة ، هم الناس وهم العلم وهم أصحاب الإمرة فى كل فن وعلم وسياسة وتدبير ملك . إنها لمعجزة لم يوفها مؤرخ حقها من المجد والقوة والظهور .

فهذا الجيل من عباد الله مطوى على صلاح كثير وخير عميم وقوة خارقة ، لا أظن أن الزمن قد ذهب بها ومحقها ، فلذلك أرانى وملء قلبى الإيمان بأنه سوف ينتهى إلى الغاية التى كتبت له فى تاريخ هذه الإنسانية . وعسى أن يكون

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٤٨) ، نوفمبر ١٩٤٧ ، ص : ١١٩٩ - ١٢٠١

زمن ذلك كله قد أتى وأظل ، فإنى أسمع نشيش الحياة وهى تتخلق فى مرجل الوجود وقد أحاطت به النيران المجنونة المتضرمة من كل مكان . ولكن لابد لتحقيق ذلك كله من عمل يتولّاه رجال من هذه الأمة ، فينفخون فى الضرم حتى تستعر النار الخالدة لتنفى عن هذا الجيل كل خَبث ألمَّ به من أدران الحضارة التى يعيش فيها عالمنا اليوم . غير أنى أخشى أن يكون الإهمال والعجلة وقلة المبالاة وأخذ الأمور بالاستخفاف ، مما يفضى إلى فوات الفرصة التى أمكنت ، ويقضى على هذا الأمل الذى يضىء لنا من بعيد ينادينا إلى ما فيه خيرنا وخير هذا الناس .

ويخيل إلىّ أننا نعيش اليوم فى عصر بلبلة واختلاط ، وهذا شىء قد أصاب أممًا كثيرة من قبلنا ، فلم يعقها ذلك عن إدراك الغايات التى حرصت على السعى إليها وعلى بلوغها . بَيْدَ أنه لابد لأمة أرادت أن تخلص من هذه البلبلة أن يتجرد من رجالها ونسائها فئة لا ترهب فى الحق سطوة ولا بطشًا ولا اضطهادًا ولا تدخر دون مطلبها جهدًا ولا عزيمة ، ولا يثنيها إخفاق ، ولا تلفتها فتنة ، ولا يصرفها الفرح بقليل تناله عن الكدح فى سبيل ما ينبغى أن تناله .

وقد أراد الله لمصر أن تكون فى هذا العصر قدوة العرب ومجتمع أمرهم وكعبة قصادهم ، وهذه البلبلة فى مصر أشد ظهورًا وغلبة منها فى غيرها من بلاد العرب ، فأخوف ما نخافه أن تظل مصر غافلة عن شر هذه البلبلة فتعدى سائر العرب بالأسوة والقدوة ، فينتشر الأمر انتشارًا يعجز المخلصين أن يلموه . فبين ظهرانينا اليوم ألوف من الطلاب العرب قد جاءوا من كل قطر لينهلوا من علم مصر ، ويعودوا إلى بلادهم ليجاهدوا فى سبيلها ، فإذا أعدتهم هذه البلبلة فسوف يحملونها معهم إلى بلادهم فيفرقوا المجتمع من كلمة أممهم ، ويرتكس الأمر حتى يصبح ولا علاج له . هذا ، وأنت لا تعدم صدى البلبلة فى الصحف والكتب والمجلات المصرية التى أخذت تزداد انتشارًا واتساعًا ، فكيف لا يخشى أن يعم هذا البلاء كل بلاد العرب ويتغلغل فى نواحيها ؟ ويومئذ نصبح طعمة للأمم الضارية التى تحيط بنا من كل مكان ، وتحد لنا أنيابًا عصلا تنهشنا بها يوم يتاح لها أن تنقض على هذه الفريسة التى لا تدفع عن نفسها .

فمن شر هذه البلبلة ، ما ترى من سوء تدبير الأحزاب السياسية المصرية ، فهى قائمة على نزاع دائم فى سبيل الحكم ، يكيد بعضها لبعض ، ويأكل بعضها بعضًا ، ولا يرعى أحد لأحد حرمة . وتنشىء هذه الأحزاب صحافة يكون هم محرريها للتشهير بمن يخالفهم فى الرأى والمذهب ، فيدلسون الحقائق ، ويكتمون الحق ، ويفترون على الناس الكذب ، ويلوون ألسنتهم بالحديث ويحرفون أعمال من يعادونهم تحريفًا لئيما مستهجنًا ، كل ذلك ابتغاء مرضاة رؤساء الأحزاب وأصحاب الأمر فيها . هذا ، على أن هذه الأحزاب قد نشأت أو أنشئت بغير أهداف مُبيّنة للناس تعاهدهم على أن تسعى إليها ، وبغير برنامج لإصلاح هذه الأمة التى لم تجد لها نصيرًا من أبنائها ، وبغير نظام ينفى عن الحزب الدخلاء والملوثين وذوى الأغراض الخبيثة .

ثم يأتى بعد ذلك نوع من الصحافة يتلبس بالورع ، ويتظاهر بالتقوى ، ويتخشع بالبراءة من التعصب ، ويبدى للناس أنه طالب خير للناس ، وأنه مريد لنفع هذه الأمة وعامل على ترقيتها وتهذيبها وهو فى خلال ذلك يدس لها سمًّا زعافًا ومنية قاتلة ، شيئًا فشيئًا ورويدًا رويدًا وساعة بعد ساعة ، حتى لا تمجه الألسنة لأول مذاق ، ثم إذا بان طعمه شيئًا لم تستنكره ، ثم يستمر حتى إذا دام قليلا ألفته وربت عليه ، ثم إذا زادته شيئًا لم يكن إلا طيبا مستساغًا ، ثم إذا الناس يطلبونه أو يخيل إليهم أنهم يطلبونه لأنه مما يتصل بأدنأ الغرائز الحيوانية والشهوات البهيمية ، ويجند لكل هذا الخبث جمع من الكُتاب الذين ضلوا عن حقيقة أنفسهم ، وطائفة من الشباب الذين أفسدتهم المدارس الأجنبية والجامعات الغربية عن هذه الأمة ، وهذا الضرب من الصحافة الخبيثة هو البلاء المستطير الذى لم يجد إلى اليوم من يكشف عن طواياه الخبيثة وأساليبه القاتلة ، وعن دبيبه فى رأى هذه الأمة العربية دبيب الضلالة فى قلب الغرير المفتون .

ثم يأتى بعد ذلك كتاب وعلماء ورجال من أصحاب الرأى ليس فى قلب أحد منهم تقوى لله ولا خشية للإثم ولامحبة للحق ، فيرى أحدهم الرأى الفطـير [١]

---

(١) الفطير : كل شيء أُعْجِل عن إدراكه واستحكامه فهو فطير .

فلا يلبث أن يمسك القلم فيجرى السواد على بياض الورق ، فإذا هى مقالة أو كتاب أو رأى أخبث منه صاحبه والناطق به ، فيأخذه المبتدئ المتطلع ، فيعتقده كأنه لقطة نفيسة بغير تحقيق ولا تمحيص ، فإذا سمع رأيًا يخالف ما قرأ لهذا الكاتب البليغ أو الأستاذ الكبير أو الفيلسوف القدير ، أنكره وأدبر عنه ، فيزيده هذا الإنكار لجاجة ، وتزيد اللجاجة عنادًا ، ويملأه العناد كبرًا ، فيعمى عن الحق وهو بين ، ولا يزال يهوى فى العناد حتى يصير ذلك عادة فى مسألة بعد مسألة ورأى بعد رأى ، وإذا هو عند نفسه أكبر من أن يأخذ عن فلان لأنه يخالفه فى الرأى .

وتزيد الدولة هذا الأمر ضراوة واستعارًا ، فتولى الأمور غير أهلها ، وتضع الناس فى غير منازلهم ، وتكرم فلانًا بإلحاقه بوظيفة كذا لأنه من أشياع الحزب الذى يتولى الحكم ، فإذا خافت عليه أن ينتزع من مكانه إذا جاءت وزارة أخرى ، ألحقته بعمل لا يقبل العزل . فإذا جاء وزير للمعارف مثلا وله أصحاب مِن شيعته ممن عرفوا بشىء من الأدب ألحقه بالمجمع اللغوى مثلًا تكريمًا له ، فيريد هذا الرجل أن يحقق معنى هذا التكريم على ما خيلت ، فينبرى لإبداء الرأى فيما لا يحسن ، ويكشف عن عورة من الجهل لا تستر . وليتها كانت رأيًا بدا له فكان صاحبه الأول ، كلا ، بل هو يعمد إلى آراء أماتها الذى أمات الخرافات والأساطير فيخيل إليه أنه - وهو الأديب المؤلف الكاتب - مستطيع أن يحيى هذه الرمم البالية برأيه وحجته وحسن معرضه ، فكيف تكون مغبة هذا الجهل على شاب ناشىء يقرأ ملفقات السخف المدلس ، وليس عنده قدرة على تمحيصه .

ويأتى آخر يلقيه وزير صديق مثلا على كرسى الجامعة ليدرس العلم لطلاب العلم ، فإذا هو عازم على أن ينشىء علمًا جديدًا لطلابه ، فيبحث فى تجاريب عقله عن أشياء يخيل إليه أنها فن جديد وبلاغة جديدة وعلم لم يصل إلى إدراكه سابق ولن يناله لاحق إلا بالتلقى عنه والوقوف بين يديه . ويخرج هذا الأستاذ جيلا من مساكين الطلاب لا يحسنون شيئًا إلا التعصب له والتسمى باسمه والتشبه به فى فساد الرأى وقلة العلم وضعف الملكة . ويجتمع منهم ومن شيخهم فئة تتهجم على العلم بغير علم ، فإذا أراد أحد أن يقف فى سبيلها تناعقت باسم حرية الرأى

وحرمة الجامعة . فكيف تكون العاقبة إذا خرج مثل هؤلاء على الشباب الناشئين بأمثال آرائهم المقيتة الجاهلة ، وعلى رأس كل منهم تاج مكتوب عليه « دكتور فى الآداب » أو « دكتور فى الفلسفة » أو « دكتور فى التاريخ » ؟ وكيف يسلط هؤلاء على عقول ناشئة العرب ، يفتنونهم بالألقاب والأسماء ، وبتعاون هذه الفئة المضللة على نصرة بعضهم لبعض ؟

فإذا بقى الأمر على ما ترى فى أمر زعمائنا ، وفى أمر سياستنا ، وفى أمر اجتماعنا ، وفى أمر أدبنا ، وفى أمر صحافتنا ، وفى أمر مدارسنا وجامعاتنا : فكيف نرجو أن نصل إلى غايتنا ؟ وكيف يتاح لهذه الشعوب العربية الكريمة أن تتأهب للمعركة الفاصلة فى تاريخ العرب ؟ وكيف تجتمع كلمة العرب على بلوغ الهدف الأعظم ، وهو هدف يرمى إلى إنقاذ الإنسانية كلها من ردغة الخبال [١] التى ألقت بها فيها حضارة ضخمة ، ولكنها قد حشيت شرًّا كثيرًا وخبثًا ؟

ولو شئنا أن نتقصى ظواهر هذه البلبلة فى أشياء كثيرة مما يتعرض لها الشعب مرغمًا أو مريدًا أو مخدوعًا لأطلنا ، فما من شيء إلا وقد اختلط فيه الأمر على غير هدى . وإذا شئت أن تقدر سوء ما جنينا من شرها ، فجالس من شئت من طوائف الشباب وجاذبهم الحديث ، واستدرجهم إلى المناقشة فى رأى أو علم أو فن ، تسمع العجب العاجب من الخلل فى موازين الأشياء ، والحيرة المطبقة فى تقدير ما يقع تحت أبصارهم وأسماعهم ، والعجز المضطرب عن ضبط الرأى ، والضعف المطلق عن القيام بحق العقل والإدراك . وأكبر من ذلك كله أنهم أصبحوا لا يرون صاحب رأى إلا وهو دونهم ، فلا يسلم من انتقاصهم ونقدهم ، فإذا صححت لهم وأردت أن تقيمهم على الطريق استكبروا وأعرضوا ، فكيف تأتى أنت فتعلم حامل شهادة الحقوق أو الطب أو الأدب أو الفلسفة شيئًا يستيقن هو فى نفسه أنه قد فرغ منه وعلمه علمًا ليس بعده إلا العروج إلى سماء الخلود .

وكذلك الأمر فى طبقات أخرى من العلماء إلى الأدباء إلى رجال القلم إلى

---

(١) ردغة الخبال : مضى تفسيرها . وأصل الردغة : الطين .

أصحاب الصناعات إلى عامة الناس . وهذا شيء مخوف مدمر للجهود التى بذلتها طائفة من السلف القريب فى تسديد خطى هذا الشعب وترقيته وتهذيبه وتطهيره من الجهل والبلادة والغفلة . وإذا طال ذلك ولم نعالجه فى مدارسنا وجامعاتنا وصحافتنا ، وفى دور التسلية ، وفى أندية المجتمع ، فالعاقبة الوخيمة بالمرصاد لمن أهمل وأضاع وترك الأشياء تمضى فى غير عنان وعلى غير هدى .

ونحن الآن أحوج ما نكون إلى صحافة جديدة حرة لا تخاف شيئًا ولا تخشى ، تدل على مواضع العيب لا للطعن والتشهير وسب هذه الأمة ، بل لعلاجها والدفاع عنها ونصرتها على نفسها . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى شباب من الكُتاب وشيوخ من المحنكين يخلصون الرأى لهذه الأمة ، فلا يدعون الفرصة تفوت ويحملون الشعلة الجديدة إلى الجيل الجديد الذى لم يلوثه العناد والكبرياء واللجاجة والمراء . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى طائفة ممن خبروا الحياة وعرفوها ليكونوا شهداء على مدارسنا وجامعاتنا وصحافتنا ، تستعين بهم الدولة على نهج جديد يمنع عن جماهير الشباب وطوائف الأمة كل ما يزيد هذه البلبلة إيغالا وضراوة .

إن الزمن يمضى مضاء حثيثًا كالنار فى الهشيم ، فإن شئنا أن نحيى وأن نستعد للذى أعدنا الله له من الظهور فى الأرض ، وإصلاح ما اختل من شئونها ، فعلى كل قادر أن يجمع أمره ، وأن يدعو أصحابه ، وأن يلم الشعث المتفرق ممن يظن فيهم خيرًا ، لكى يتعاونوا جميعًا على رد هذا البلاء بالرفق فى مواضع الرفق ، وبالبأس فى مواضع البأس ، وبالبتر حيث لا يجدى شيء إلا البتر بلا هوادة ولا رحمة ...

* * *

لسان السياسة البريطانية

دعت السفارة المصرية فى لندن إلى مأدبة عشاء تكريمًا لأعضاء الغرفة التجارية المصرية الإنجليزية ، فى يوم الخميس ٦ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وكان من المدعوين السير ستافورد كريبس وزير التجارة البريطانية ، فقام السير ستافورد وألقى على الحاضرين خطبة من أخطر الخطب التى تناولت شئون مصر السياسية والتجارية ، وقد نشرت الصحف البريطانية هذه الخطبة فى الصدر ، وترجمتها أكثر الصحف العربية ، ومع ذلك فلم أجد أحدًا علق عليها بما ينبغى أن يقال فى تفسيرها وتأويل مراميها .

كان من أول مرامى السير ستافورد أن يبين بأجلى بيان أن « التعاون الثقافى » و « التعاون التجارى » بين مصر وبريطانيا كفيلان بأن ينتهيا على مر الأيام إلى حل النزاع السياسى الناشب بين الدولتين ، وهو يرجو أن ينسأ الله فى أجله حتى يرى هذا الحل الموفق بين المتنازعين . وقال إن هذا النزاع بين مصر وبريطانيا ليس سوى « خلاف » يسير فى تاريخ طويل حافل بعلاقات المودة ، وبالذكريات الجميلة بين البلدين فيما يعتقد . وزعم أنه على يقين من أن الصلات التجارية والروابط الثقافية إذا هى سارت على نهج موافق ينفى عنها كل ما يزعج أو يثير الخواطر ، فإنه سوف يعيش بإذن الله حتى يرى حلا موفقًا مرضيًا يفض ذلك الخلاف السياسى اليسير ، ويومئذ تخرج الدولتان منه وقد أصبحت الصلات التى بينهما أقوى ، وأصبحت المودة أصدق ، وأصبحت النفوس أسلم . وزعم أيضًا أن هذا الضرب من الصلات والروابط سيظل هو الغالب بين الأمتين على كل خلاف سياسى . ثم امتلأت جوانب هذه الخطبة بإشارات خفية إلى أسلوب بريطانيا فى الاستبداد التجارى الذى اعتصرت به الحياة من أمم كثيرة غير مصر والسودان ،

---

* السياسة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٥٠) ، نوفمبر ١٩٤٧ ، ص : ١٢٥٨ – ١٢٦٠

وإلى التهديد الملثم بأن بريطانيا مضطرة إلى تحطيم هذا التعاون إذا أصرت مصر على إنفاذ قانون الشركات الذى أصدرته منذ عهد قريب ، ثم لم ينس السير ستافورد كريبس الوزير البريطانى عادة قومه فى المن الخبيث البغيض المتلفع بالعواطف الإنسانية النبيلة ، فزعم أن عطف بريطانيا على مصر فى محنة الكوليرا كان مبعثه العطف الإنسانى البالغ والرثاء العميق ، لا الدافع السياسى أو الحافز التجارى . وفى الخطبة كثير من أمثال هذه التلفيقات العجيبة .

زعم السير ستافورد أن الروابط الثقافية والتجارية كفيلة بحل ما سماه « خلافًا » سياسيًا ، وهو يرمى بهذا إلى تحقير هذا « الخلاف السياسى » الطارئ ، لأن تاريخ العلاقات البريطانية المصرية فيما يدعى حافل بعلاقات المودة وبالذكريات الجميلة !! فهل سمعت أذن بأغرب من هذه الدعوى ؟ إن أجمل الذكريات بيننا وبين بريطانيا هو احتلالها أرض مصر والسودان أكثر من خمس وستين سنة ، وسعيها الحثيث فى فصم عُرَى مصر والسودان فصما لا مجاملة فيه ولا هوادة . إن هذا الخطيب السياسى يعلم أنه يلقى خطبته فى دار السفارة المصرية التى دعت لتكريم أعضاء الغرفة التجارية المصرية الإنجليزية ، ولكنه يتجاهل هذا ويستهين بالمنزلة السياسية التى ينبغى أن تكفل لدار السفارة المصرية ، فيقف ليحط من قدر النزاع السياسى بين مصر والسودان وبريطانيا ، ويسميه « خلافًا يسيرًا » ، كأن حرية شعب واستقلال أمة ليس شيئًا يقام له وزن بإزاء ما يسميه العلاقات التجارية والروابط الثقافية ؟ ونحن نعجب لِمَ سكت رجَال السفارة عن رد هذا التحقير للهدف الأعظم الذى أراقت مصر والسودان فى سبيله ما أراقت من دماء ، وجادت فى سبيله بالأموال والأرواح والأبناء ، وصبرت فى الجهاد من أجله على مُرّ الحياة وبَأْسائها صبرًا طويلا كله آلام وتباريح ؟

إن كل حرف فى خطبة السير ستافورد كان كأنه يقهقه ساخرًا من هذا الشعب الذى يريد أن يعيش حرًّا فى بلاده ، فكيف فات من سمع هذه الخطبة من المصريين أن يقف ليعلم السير ستافورد أن النزاع السياسى بيننا وبين بريطانيا هو الحياة وهو الحرية ، وهو الهدف الذى لن تلفتنا عنه مودة نشأت من رابطة ثقافية أو علاقة تجارية ؟

ثم ماذا يعنى السير ستافورد بقوله إن العلاقات التجارية والروابط الثقافية كفيلة بحل هذا النزاع السياسى ؟ إنها كلمة يلقيها وهو يقدّر كل ما وراءها من سياسة بريطانيا فى إذلال شعوب الأرض التى وقعت تحت سلطانها الجائر . فعلاقة بريطانيا التجارية بالبلاد الضعيفة هى أن تجعل رؤوس الأموال مستثمرة فى البلاد فى يد فئة من الخونة أو فئة من الأجانب ، وبذلك تضمن لتجارتها ميدانًا هى صاحبة الكلمة الأولى فيه وتضمن أن يكون لهذه الفئة من الخونة أو الأجانب السيادة التامة على الشعب المستذل البائس الفقير الجاهل ، وتضمن أن لا تقوم لهذا الشعب قائمة ما دامت هذه الفئة هى صاحبة القوة المدمرة فى الحياة ، وهى قوة المال ، وتضمن أيضًا ناسًا من هؤلاء الخونة وهؤلاء الأجانب يقولون للبلد الفقير الجاهل البائس الذى سُلب قوة المال : لم لا تفعل أنت مثل الذى نفعل ؟ وهم يعلمون أنه غير مطيق أن يفعل ، لأن قيادة أخطبوط القوة المالية فى أيديهم هم لا فى يد الشعب المسكين . وليس فى الدنيا شىء هو أوضح من هذه السياسة اللئيمة ، فإن مصر والسودان كادت فى بحر سنوات معدودة أن تكون أقوى دولة على شاطئ البحرين الأبيض والأحمر ، وأعظم دولة فى إفريقية ، وذلك فى عهد محمد على ، وأدخلت من ضروب الإصلاح والتدبير فى مجتمعها وفى سياستها وفى صناعتها وزراعتها ، ما لا غناء فى ترديده الآن ، فأبت بريطانيا أن ترى دولة قوية تنازعها سيادة الشرق الأوسط ، كله ، فألبت عليها الدول حتى حطمت أسطولها فى نفارين ، ثم تخونتها من أطرافها حتى انكمشت فى أضيق رقعة ، ثم انتهت إلى احتلال مصر والسودان مرة واحدة فى سنة ١٨٨٢ . ومنذ ذلك اليوم وبريطانيا تدعى أنها جاءت لإصلاح أمرنا ، فإذا هذا الإصلاح قاصر على أن تطلق يد الخونة والأجانب فى مال مصر وثرواتها ، وأن تحرم الشعب المصرى من كل خير ، وتضطهده وتقاتله بأخبث الأسلحة ، ثم تتركه جائعًا عاريًا جاهلا لا يطيق أن يدفع عن نفسه . فأى خير جنيناه من هذه العلاقات التجارية بيننا وبين بريطانيا إلا الذل القاتل والإذلال المهين ؟

وما الذى فعلته بريطانيا منذ سنة ١٨٨٢ لهذا اليوم ؟ إنها لم تأل جهدًا فى

فتح باب الهجرة للأفاقين واللصوص والمجرمين من كل جنس وملة ، وأطلقتهم على هذا البلد الأمين يعيثون فى أرجائه فسادًا ، وحمتهم بامتيازاتها وامتيازات الدول ، ويسرت لهم أن يعيشوا عيشة البذخ والرفاهية إلى يوم الناس هذا . وقد ذكر السير ستافورد أن مصر كانت فى زمن هذه الحرب الأخيرة « تستمتع برخاء غير طبيعى فى عدة وجوه ، على حين كانت بريطانيا على النقيض تمامًا ، فقد كانت مجبرة على الإنفاق عن سعة فى الخارج خلال فترة الحرب ، لحماية نفسهاوحماية الديمقراطية فى العالم » ، وهو يعلم أحسن العلم أن هذا الرخاء لم تعرفه مصر ولا المصريون ، ولا السودان ولا السودانيون ، بل عرفته الجاليات من الأجانب الذين عاشوا فى مصر أو الذين وفدوا على مصر . وهو يعلم أحسن العلم أن الذين تسميهم بعض الصحف تندرًا بأغنياء الحرب ، وترمز إليهم برجل مصرى يلبس لباسًا محدثًا عليه ، ليسوا سوى فئة قليلة إذا قيست بالآلاف المؤلفة من الأجانب الذين عقدوا الأموال وجمعوها وصاروا شيئًا بعد أن لم يكونوا إلا حضيضًا موطوءًا ، وأنا أعرف مئات من هؤلاء الأجانب كانوا يعيشون قبل الحرب عيشة الكفاف بل عيشة الصعاليك ، فإذا كلهم قد أصبحوا من الثروة والعزة بحيث إذا رأيت أحدهم ظننت أنه قوة إلهية تمشى على الأرض المصرية لتستذل هذا الشعب المصرى ، وكأنها لم توجد ولم تخلق إلا لهذا وحده . وبقى الشعب المصرى أسوأ حالاً مما كان فيما قبل سنة ١٨٨٢ ، فما الذى فعلته بريطانيا ؟ وما دعواها فى إصلاح هذه البلاد ؟

وهذا كله بين لكل مصرى ، وهو أشد بيانًا ووضوحًا فى عينى السير ستافورد كريبس ، ومغالطته فى الحقائق التى يعلمها لا هدف لها إلا أن تدل على أنه سياسى بريطانى حقًّا ؟!

ثم ما هذه الروابط الثقافية التى يرجو أو يزعم أو يحقق السير ستافورد أنها كفيلة بأن تغطى هذا النزاع بين الدولتين : بين الدولة المتغطرسة المستبدة التى تحتل بلادنا ، وبين الشعب المسكين الذى ظل خمسًا وستين سنة يجاهد فى نيل استقلاله والتمتع بحرية الدولة المستقلة ؟ لقد أغنانا السير ستافورد عن طلب الدليل

بأن ذكر عدد الطلاب الذين أكرمت بريطانيا وفادتهم فى هذه السنة ففتحت لهم أبواب جامعاتها . ولسنا ندرى كيف يرجو السير ستافورد أن يكون هؤلاء الطلبة الذين درسوا فى بريطانيا عاملا فى حل النزاع السياسى بين مصر وبريطانيا ؟ ولكنا نعلم يقينًا أنه ما من شاب نعرفه ذهب إلى بريطانيا وعاد إلى مصر وهو مصرى القلب واللسان إلا وهو مظلوم مضطهد فى هوة من هوى النسيان ، وأنه ما من شاب نعرفه منهم عاد إلى مصر وهو يبرأ منها بلسانه وقلبه وجوارحه إلا كفلته بريطانيا ومهدت له حتى يتبوأ المنزلة التى تنبغى لمثله . ونحن لا نحب أن نسمى أحدًا باسمه ، ولكنى أعرف أن آلافًا غيرى يعرفون أحسن مما أعرف ، وعندهم من خبر ذلك أوثق مما عندى . أفهذا هو التعاون الثقافى الذى رمى إليه السير ستافورد ؟

لا ريب فى أن هذا هو التعاون الثقافى الذى يعنيه ، وهو لا يلقى بالا كثيرًا إلى شيء غيره من ضروب التعاون الثقافى لنشر العلم والمعرفة . بل إن بريطانيا نفسها لم تعن منذ دخلت مصر والسودان إلا بهذا الضرب وحده ، وما أظن أحدًا يجهل ما كان من أمر البريطانيين يوم دخلوا مصر فمزقوا مدارسها ، وعملوا عمل الحريص على نزع كل شيء يفضى إلى تعليم الشعب المصرى من يد المصريين ، وأصروا على أن يأتوا بداهية من دهاتهم هو دنلوب ، ليضع برامج التعليم المصرى . فكانت العاقبة أننا بقينا إلى هذا اليوم نرتطم فى الأوحال التى قذفنا بها دنلوب ، ونعيى عن إصلاح التعليم بعد الذى ابتلى به ، وبعد تلك الفئة من الرجال الذين أنشأتهم الثقافة البريطانية وأنشأهم دنلوب على ما يريد وأعطتهم بريطانيا مقاليد التحكم فى وزارة المعارف المصرية .

ولم يقف الأمر عند شأن التعليم بعدئذ ، بل سار على هذا النهج فى كل عمل فى الوزارات المصرية ، منذ كان وزير الاحتلال مصطفى فهمى باشا إلى هذا اليوم إلا من عصم الله . ومع ذلك فالفساد الذى لحق الإدارة المصرية كلها من جراء هذا الضرب من التعاون الثقافى ، قد تغلغل وضرب بجذوره فى كل شيء حتى فى الاجتماع المصرى . وكل هذا بين لا خفاء فيه . ولنا عودة إليه إن شاء الله .

ثم إن تعجب فاعجب لهذا الغضب الرقيق والعقاب الحلو الذى جرى على لسان السير ستافورد كريبس من جراء « تهور » الحكومة المصرية فى سن قانون الشركات . إن هذا القانون لا يكاد يعد شيئًا إذا قيس بقوانين الشركات وغير الشركات فى بريطانيا نفسها ثم فى سائر بلاد العالم ، ولكن السير ستافورد يغضب هذا الغضب الرقيق ويعاتبنا هذا العتاب الحلو ، لأن هذا القانون ينال شيئًا قليلا من الأجانب الذين يعيشون فى مصر . وكيف لا يعاتب ولا يغضب علينا ، والأجانب هم الناس ، وهم مصر ، وهم أصحاب المصالح الحقيقية كما كانت تقول بريطانيا قديمًا .

إن الذى يريده السير ستافورد ، أو الذى تريده بريطانيا ، شىء واضح هو أنه لا يحل للشعب المصرى أن يفكر ساعة واحدة فى أن يسن فى بلاده قانونًا يقيد حرية الأجانب أو يحد من ضراوتهم وفجورهم ، وإلا فعلى هذا الشعب المصرى أن يحتمل تبعة هذه الجرأة وهذه الوقاحة التى تدفعه إلى الحد من سلطان سادته وأصحاب الكلمة العليا فى بلاده . ولذلك رأينا الصحف البريطانية تغمز وتلمز أيضًا حين صدر قانون إقامة الأجانب فى مصر ، مع أن مثل هذا القانون فى بريطانيا نفسها يجعل الأجنبى يعيش فى أرضها وعليه مَلَكانِ يكتبان كل شىء حتى ما توسوس به نفسه . ولكننا لا نستطيع أن نسن فى بلادنا قانونًا كقانونهم وإلا فإننا متعصبون يضطهدون الأجانب ، وهذا التعصب كفيل بأن يقضى على كل نهضة فى بلادنا ، وكفيل بأن يزعزع ثقة الأمم فينا ، وكفيل بأن يمنع عنا مدد بريطانيا الصالحة التقية الورعة !!

إن هذه الخطبة التى ألقاها السير ستافورد كريبس هى خلاصة موجزة لأسلوب بريطانيا فى إذلال الشعوب ، وإذلال شعب مصر خاصة ، فعسى أن لا يفوت الحكومة المصرية أن توغل فى شرحها وتتحسس سائر مراميها ، لكى تعرف أن ساعة الجد قد دنت ، وأنه ليس بيننا وبين بريطانيا إلا العداوة المكشوفة ، وأن علينا أن نعمل رضيت بريطانيا أو أبت ، وعلينا أن نصابرها وأن نحتمل الضنك والبأساء فى سبيل إنقاذ مصر والسودان من براثن هذا الوحش الضارى .

* * *

لبيك يافلسطين !

لقد عزمت الأمة العفيفة النبيلة الورعة ، وهي بريطانيا العظمى بلا مراء ، أن ترفع يدها عن فلسطين ، وأن تجلو بجنودها عن هذه الأرض المطهرة ، وأن تترك الأمر لأصحاب البلاد ، هكذا ، يصرفونه على ما توجبه مصالحهم !! وفي هذا الوقت نفسه قامت روسيا السوفيتية الغامضة تؤازر أمريكا الصريحة في صهيونيتها على تقسيم فلسطين تقسيما لا يدرى المرء كيف يصفه ، أهو حماقة ، أم جور ، أم صفاقة ، أم نذالة مركبة في طبائع الأمم الجشعة ؟ ثم رأينا بريطانيا هبت تستنكر هذا الذى تبيته روسيا وأمريكا لفلسطين .

هذا ملخص ما يدور في أمر فلسطين دون تزويق أو تدليس . ونحن لا نريد أن نبخس بريطانيا حقها في هذا الموقف الذي تقفه من مسألة فلسطين ، ولكنا أيضًا لا نريد أن نلغي تصرف العقل فنصدق أن هذه الأمة البريطانية تفعل هذا حُبًّا للعرب ، وحفاظًا على حريتهم ، ورغبة فى معونتهم ونصرتهم . فإنها هى التى نفثت فى هذه الصهيونية الخبيثة من روحها منذ دخل الرجل الصليبى « ألنبى » أرض الآباء المطهرة ، وهى التى ضمنت لهؤلاء الصعاليك إنشاء وطن قومى فى فلسطين ، وهى التى أغضت عن تسلل هؤلاء اللصوص إلى بلاد ليست لهم ، وهم الذين نكّلوا بالعرب تنكيلا لم يشهد التاريخ أفجر منه ولا ألأمَ أيام ثورة العرب عليهم وعلى جلائهم من اليهود ، وهى التى استعانت باليهود فى الحرب العالمية الثانية ودربتهم وجندتهم وفتحت لهم أبواب الأرض المقدسة ، وهى التى أعانت تهريب اليهود وحمتهم ووقفت تعبث فى مراقبة الهجرة اليهودية ، وهى التى صبرت على إذلال اليهود لها وعلى جلدهم جنودها وضباطها واغتيالهم وخطفهم واتخاذهم رهائن ، هذه بعض فضائل بريطانيا وشيء من نبيل مواقفها فى مسألة فلسطين !!

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٥٢) ، ديسمبر ١٩٤٧ ، ص : ١٣١٣ - ١٣١٥

وبعد أن فعلت كل هذا طلبًا للأجر والحسبة من الله خالقهم وخالق الصهيونيين ، زعمت أنها ولاشك نافضة يدها من هذا الأمر ، وجالية بجنودها عن هذه الأرض ، وتاركة الناس أحرارًا يدبرون شئونهم بأيديهم ! فكيف يفهم العقل من كل هذا أن بريطانيا تعترض على مسألة التقسيم لأنها تريد خيرًا للعرب ، وتحافظ على وعودها لهم ، وتعمل على رد شر اليهود ومن يعاونهم عن هذه الأمة المسكينة ؟! كيف ياشياطين السياسة ؟!

إن لها من وراء كل هذا التنكر للتقسيم أربًا آخر لا ندرى ما هو على التحقيق ، ولكنا إذا عرضناه على أفاعيل بريطانيا منذ كانت بريطانيا ، فلن نعدم الشك فى نيتها ، ولا الاهتداء إلى موضع الدَّخَل [1] فى تصرفها ، ولا آيات الكذب فى دعواها . وقبل هذا وذاك ، لا يستطيع قلب عربى أن يطمئن إلى أن بريطانيا وأمريكا ، وهما الدولتان المتعاونتان على الخير والشر ، تختلفان فى هذه المسألة بعينها ، إلا أن يكون اختلافهما تعمية وتدليسًا لشيء هو أجدى عليهما وعلى الصهيونيين اليهود من اتفاقهما ! وليكن الأرب المكنون بعد ذلك ما يكون !

ونحن العرب لا نحب أن نلقى إثم هذه الصهيونية الجائرة على أمريكا وروسيا للذى نراه اليوم من موقفهما وتشددهما وحرصهما على تقسيم فلسطين ، لا لأنهما أمتان بريئتان ، بل لأن الدوافع التى تحملهما على هذا الحرص وهذا التشدد إنما جاءت بعد أن فعلت بريطانيا فعلتها ، وأصَّلت لهذه الخبائث أصلا قويًا فى الأرض المطهرة ، ونزعت من يد العرب كل حول وطَوْل فى تصريف شأن بلادهم ، وبعد أن تكرمت بريطانيا على العالم كله بإحداث مشكلة لا حل لها إلا الحل الذى تفصم به كل عقدة خبيثة تستعصى على المحاول .

إننا لا نريد أن نخدع مرة أخرى بنفاق بريطانيا وأكاذيبها وتصنعها لأعين الناس بالبراءة وحب الخير والحرص على الوفاء بالعهود وإنجاز المواعيد ، وبريطانيا تريد أن تذهب فى أمر فلسطين مذهبًا جديدًا لتكون شهيدًا جديدًا يستنزل العطف

---

(١) الدَّخَل : الخداع والفساد .

والمحبة من قلوب العرب ، وتريد أن تقف هذا الموقف لأنها تريد أن تخدع مصر والسودان ، وتخدع سورية ولبنان ، وتخدع العراق والباكستان ، وتخدع كل ناطق باللسان العربى فى مشارق الأرض ومغاربها . ولكننا لن ننخدع مرة أخرى أيها الشهيد الذى استحل دم الأحرار فى مشارق الأرض ومغاربها .

هذه بريطانيا ، وأما أمريكا ، فقد طالما ذهبت فى الدفاع عن الحرية مذهبًا كريمًا ، ولكن ذلك شيء كان ثم انقضى ، فأمريكا اليوم دولة تصرفها الأحقاد الكثيرة ، وعلى رأس هذه الأحقاد إصرارها على التعصب البغيض إصرارًا لا هوادة فيه ، حتى فى قلب بلادها . ثم يلى ذلك تحكم اليهود وتسلطهم على رؤوس أموالها ، وعلى شركاتها ، وعلى مجتمعها ، وعلى رجال سياستها . فالشعب الأمريكى اليوم أُلعوبة تلهو بها الصهيونية اليهودية وترفعها وتخفضها كما تشاء ، ولسنا نحن الذين نقول هذا ، بل هذا ما تقوله فئات من الأحرار الأمريكيين أنفسهم ، ولكن هؤلاء الأحرار لا حول لهم ولا طَوْل ، لأن كل شيء هناك فى قبضة اليهود ، ولأن رئيس الولايات المتحدة ، أيًّا كان هذا الرئيس ، لا يكاد يصل إلى كرسى الرئاسة إذا خذلته اليهود وأعرضت عنه فى الانتخابات ، فهو بالاضطرار يدور حيثما داروا به حتى يصير رئيسًا للولايات المتحدة ، فإذا صار رئيسًا ، فهو فى قبضة اليهود أيضًا طمعًا وخوفًا واضطرارًا . وتظن أمريكا ، أو يظن ساستها ، أنهم إذا ناصروا إنشاء الوطن اليهودى ، أو الدولة اليهودية ، فهم بذلك سوف يخلصون من قبضة هذا الوحش اليهودى ، وأنهم يومئذ قادرون على أن يطردوه من بلادهم ويقولون له : هذه بلادك فاذهب إليها . وهذا تسويل من شياطين اليهود ، وباطل من أباطيلهم يدندنون به فى آذان هؤلاء الساسة ، فاليهود يريدون أن ينشئوا الدولة اليهودية ، لا ليسكنوها ويتركوا البلاد التى أكرمتهم وأضافتهم وخلطتهم بأنفسها ، كلا بل يريدون بهذه الدولة أن يسيطروا على قلب العالم ، وهو الشرق الأوسط ، وأن يحتفظوا بسيطرتهم فى سائر بلاد الله كما هى ، ليكون لهم السلطان فى الأرض ، والغلبة على الأمم جميعًا مسلمها ونصرانيها ، فكلاهما عدو لها ، وهى تحمل لهما جميعًا عداوة لا تفتر ولا تموت . والذين يستنكرون

أن يكون هذا هدف اليهود ، لم يقرأوا شيئًا من كلام الصهيونيين ، ولم يعرفوا أن هؤلاء اليهود يطمعون طمعًا لا يشكون فيه ، وهو أن الخلافة فى الأرض ستكون لهم ، وأن هذا الشعب المختار ، هو الذى اختاره الله لسيادة الدنيا واستعباد البشر غير اليهود ! فأمريكا مخدوعة هى وساستها ، إذا ظنت أنها بمناصرتها لهؤلاء السفاحين اليهود ، سوف تكسب شيئًا إلا ذل الحيرة والاضطراب .

وأما روسيا الغامضة ، فسلطان اليهود فيها ليس أقل منه فى أمريكا ، وهم الذين يسولون للروس أنه إذا أنشئت فى فلسطين دولة يهودية ، وإذا ناصرها الروس حتى تكون ، فمعنى ذلك أن روسيا سوف تجد منفذًا لها إلى قلب العالم ، أى إلى الشرق الأوسط وأن اليهود لن يخذلوا المذهب الشيوعى ، بل سيفسحون لدعاته المكان ، ويجعلون فلسطين مأوى لهم وملاذًا وكهفًا ، وأن تعاون الروس واليهود سوف يخلص روسيا من سلطان بريطانيا وأمريكا فى هذه الرقعة من الأرض ، وأن اليهود فى حاجة إلى معونة إحدى الدول الكبرى ، فإلا تعنهم روسيا وهى أقرب إليهم من أمريكا وبريطانيا ، فباضطرار ما يبسطون أيديهم إلى أمريكا وبريطانيا ويعاهدونهما على الخير والشر فى التسلط على هذا الشرق الأوسط . وروسيا دولة تصرفها فكرة غالبة كفكرة اليهود هى الاستيلاء على أغنى بقاع الأرض ، لتستطيع أن تنشر مذهبها ، وأن تتوسل بهذا المذهب إلى هدم الكيان الاجتماعى فى الأمم ، فإذا تم لها ذلك استطاعت أن تحكم هذه الأمم وتصرفها على ما يشاء لها هواها . فهى يومئذ صاحبة السلطان الأعلى ، وهى القوة المدمرة وهى الظافرة فى الميدان الاجتماعى والسياسى ، وهى يومئذ قد أمنت أن تخشى لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة بأسًا أو قوة .

هذا تفسير هذه المشكلة المعقدة التى تريدنا بريطانيا ، وتريدنا أمريكا ، وتريدنا روسيا ، على أن نكون فيها كالشاة المذبوحة لا تألم السلخ . فتبًّا لهم جميعًا ، والله المستعان .

بقى شىء آخر لا يخطئه أحد إذا فكر فيه ، وهو أن هذه الدول جميعًا تعلم علم اليقين أنها ترتكب جريمة من أبشع الجرائم فى تاريخ الإنسانية ، جريمة لم

ترتكب مثلها أمة من الأمم المتوحشة فضلا عن الأمم الجاهلة ، فضلا عن الأمم المثقفة التى تدعى أنها حارسة الحضارة الإنسانية والقائمة عليها - تلك هى إقحام شعب على شعب آخر ليجليه عن بلاده ، وليستذله ، وليستعبده . إن هذه الدول جميعًا تعلم أن هؤلاء اليهود هم أبشع خلق الله استبدادًا إذا حكموا ، وهى تعلم أنهم خلق قد خلت نفوسهم من كل الشرف والنبل والمروءة ، وأنهم خلق تملأ قلبه العداوة والبغضاء والحقد على البشر جميعًا ، وأنهم خلق لا يتورع عن شيء قط يرده عن اقتراف أحط الآثام فى سبيل مايريد - إنها تعلم هذا وأكبر منه وأشنع ، ومع ذلك فهى تريد أن تطلق هذه الوحوش الضارية من غابات الجهل والعصبية والحقد ، لتعيث فى هذا الشرق الأوسط كله بفجورها وبغيها وضراوتها، فتهدم ما تهدم ، وترتكب ما ترتكب ، باسم الحضارة والمدنية والثقافة ... فيالها من جريمة ! يالها من جريمة أيتها الأمم الحارسة لتراث الحضارة الإنسانية !!

ثم بقى شيء وراء ذلك كله ، ينبغى لكل عربى أن يعلمه ، ولا سيما أولئك الذين يتعرضون اليوم لسياسة هذا الشرق العربى ، وهذا الشرق الإسلامى كله - هو أن إقدام هذه الدول الثلاث على مناصرة المجرمين الصهيونيين تنطوى على معنى قد استقر فى أنفسهم وغلب عليها ، وهو احتقارهم للعرب وازدراؤهم لهم ولمدنيتهم ودينهم وحضارتهم واجتماعهم ودولهم وملوكهم ، وقديمهم وحديثهم ، وأن هذا لبان ارتضعوه منذ كانت الحروب الصليبية ، وأن الثقافة والعلم وسهولة اتصال الأمم بعضها ببعض ، كل ذلك لم يغير شيئًا من عقائد الصليبية الأولى فى هذا الشرق العربى ، وكل ذلك لم ينفع شيئًا فى نزع السم الذى اختلط بالدماء وجرى فى العروق مع نسمات الهواء ومضغات الغذاء . وأنه لولا هذا الداء القديم ، وهذه العلة المستعصية ، لما ارتضت هذه الدول أن تبدى كل هذه الجرأة على الحق فى مشكلة فلسطين ، بل لوقفت كما وقفت من قبل فى مسألة دانزيج وغيرها مناصرة لحق الناس فى الحرية كما تزعم . هذا معنى لا يفوت عربيًا مسلمًا كان أو نصرانيًا ، لأن هذه الدول تتصرف بأحقاد جاهلة عمياء ، لا ببصر وتمييز وعدل .

وغاب عن هذه الدول جميعًا شىء واحد ، هو أن هذه الأمم التى يصبُّون عليها أحقادهم المرذولة وسَخائمَهم العتيقة ، قد لقيت من قبل أشد مما تلقى اليوم ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تخرج على الدنيا طاهرة نبيلة لا تحمل حقدًا ولا ضغنًا ، فانتشلت الحضارة الإنسانية من أوحال الجهل العميق الذى كانت تعيش فيه أوربة وأمريكا وروسيا ، ورفعت النار لكل مهتد حتى اهتدى .

إن هذه العرب لاتنام على ذل أبدًا ، فلتعلم هذا روسيا ، ولتعلمه بريطانيا ، ولتعلمه أمريكا ، وليعلمه الأفاقون من اليهود .

لقد نادت فلسطين غير نيام ، نادت أيقاظًا يحملون بين ضلوعهم تلك الشعلة الخالدة فى تاريخ الإنسانية ، والتى نحن القوَّام عليها والقائمون بها ، والتى نحن لحاملوها حيثما سرنا فى الأرض – شعلة الإيمان بالله الواحد القهار – إن كل سلاحٍ سلاحٌ مفلولٌ إذا لقى سلاحنا ، لأننا لا نقاتل بالتدمير والخراب ، بل بالتعمير والإنشاء ورد الحقوق على أهلها وإن كانوا قد ظلمونا ونكلوا بنا من قبل . ولتعلم هذه الأمم العدو لنا جميعًا أن المعجزة التى كانت يومًا ما ، سوف تكون مرة أخرى يوم نبعث من ظلماء هذه الحوادث سراعًا إلى نجدة أمتنا فلسطين ، فتنبشق الأرض عن جنود الله القدماء :

عن كل أروَعَ ترتاعُ المنونُ له ... إذا تجرد ، لا نِكسٌ ولا جحِدُ [(١)]

يكاد حين يلاقى القِرْن من حنَق ... قبل السِّنان على حوْبائه يرِدُ

قلوا ، ولكنهم طابوا ، وأنجدهم ... جيش من الصبر لا يفنى له عدد

إذا رأوْا للمنايا عارضًا لبسوا ... من اليقين دُروعًا مالها زَرَدُ [(٢)]

هذه ليست خطابة ولا حماسة أيتها الأمم ، بل هى الحق ، وهى عادتنا وعادة الله فينا ، والله غالب على أمركم وأمرنا ، ونحن جند الله فى الأرض على رغمكم ، وإن سخرتم أو كذَّبتم !

* * *

(١) النِّكس : الضعيف الجبان .

(٢) الزَّرَدُ : حَلَقُ الدِّرْع .

فلسطين :

ثلاثة رجال

أحب أن أقدم بين يدى كلامى هذا كلمة أو كلمتين لابد منهما : الأولى ، أن أبتهل إلى الله أن يبرئ قلوبنا من الجبن والخور والبخل ، وأن يؤيدنا بالصبر والقوة ، وأن يرفع عنا غضبه ومقته ، فقد كتب علينا الجهاد فى سبيله بما استطعنا . وأحب لكل كاتب وقارئ أن يتوب إلى الله مما اكتسب من إثم يده أو قلبه أو لسانه ، ليتجرد إلى الجهاد وهو طاهر مصمم لا تلفته الدنيا عن الدفاع عن الحق .

والثانية : أنى كنت كتبت عن قضايا العرب وعن فلسطين ، فكنت لا أزال أذكر الإسلام وأشفعه بذكر نصارى الشرق ، لأنى أعدهم منا ومن أنفسنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا . وكنت أرى أن نصارى الشام والعراق قد بذلوا من الجهود فى قضايا العرب ما صرح عن مكنون أنفسهم وعن إخلاصهم الذى لا يدفع ، وأنهم جزء لا يتجزأ من العالم العربى ومن العالم الإسلامى ، وكنت أتخوف أن يقف قبط مصر مترددين عن المشاركة الصريحة فى جهاد العرب والمسلمين فى مسألة فلسطين ، ولكنى أشهد الله اليوم أن قبط مصر قد ملأوا قلوب العرب والمسلمين غبطة بهم وإكبارًا لهم ، وحرصًا على مودتهم حرصًا لن يعمل فيه بعد اليوم دس ولا كيد ولا وقيعة . إنه لا يحل لامرئ مسلم أو عربى بعد اليوم أن يرتاب أو يتشكك فى نبل هؤلاء الإخوان الذين نصرونا فى ساعة العسرة لا تدفعهم إلى هذه النصرة رغبة ولا رهبة .

وسأسجل فى هذه الكلمة مآثر لرجلين من أجلِّ النصارى شأنًا ، لأنهما وقَفَا فى الجهاد موقفًا يوجب علينا أن نخلد ذكرهما فى تاريخ العرب وتاريخ

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٥٤) ، ديسمبر ١٩٤٧ ، ص : ١٣٦٨ - ١٣٧١

المسلمين ، ولا سبيل إلى جزاء هذين الرجلين إلا بأن نرفع ذكرهما فى هذه الساعة وإلى أبد الدهر ، لأنهما قطعا السبيل على كل خبيث من شياطين السياسة القذرة التى انبعثت فى أوربة وأمريكا ، وعلى شياطين اللؤم الصهيونى الدنىء .

أما الأول فهو الشيخ الجليل الصادق غبطة بطريرك الأقباط الأرثوذكس الأنبا يوساب ، فقد اجتمع المسلمون والعرب فى المسجد الجامع الأزهر فى يوم الجمعة ٢٢ المحرم سنة ١٣٦٧ ، فإذا الناس يفاجأون بمقدم القمص متياس الأنطونى سكرتير غبطته مندوبًا من قبله ، ومعه إخوانه من رؤساء الأقباط فى مصر ، القمص جرجس إبراهيم رئيس الكنيسة القبطية الكبرى ، والقمص عبد المسيح سعد ، والقمص مرقص غالى . ودخول هؤلاء الأربعة الكرام إلى المسجد الجامع فى ساعة الجمعة ، ونيابتهم عن غبطة البطريق الأعظم فى شهود هذا اليوم المشهود وخطبتهم الناس فى هذا المسجد ، ومشاركتهم فى أكبر مؤتمر إسلامى فى مصر ، قد دل دلالة صريحة على أن الأنبا يوساب البطريق الأعظم ، هو رجل قد نور الله قلبه بالحق ، وآتاه من الفطنة والصدق والأمانة فى دينه وخلقه ما يجعل عمله هذا أمانة فى عنق كل مسلم وعربى ، يحميها ويدفع عنها ويعتز بها ويكرم أصحابها فى عامة أمورنا وخاصتها . وقد فعل ذلك من تلقاء نفسه غير متردد ، فدل ذلك على أنه رجل سياسى مخلص ، وعلى أنه يدرك تمام الإدراك كل ما يحيط بهذا الفجور الصهيونى من الخبائث ، وعلى أنه يأبى أن يدخل بين أقباط مصر ومسلميها مفسد يبغى الوقيعة .

ومن قبل ما وقف هذا البطريق الأعظم موقفًا رد كيد البريطانيين فى نحورهم ، وذلك فى حادثة الزقازيق التى دبرتها بريطانيا لإفساد مابين المسلمين والأقباط ، فلولا حكمة هذا الرجل النبيل ، لكان هذا الحادث البغيض سببًا فى اشتعال نار الفتنة التى أشعلت بريطانيا مثلها من قبل لتفرق كلمة الأمة تفريقًا يجعل بعضها لبعض عدوًّا . ونحن نحمد الله إذ جعل فى إخواننا القبط رجلًا كهذا الرجل الجليل ، يقف حارسًا يقظًا على أمته وأمتنا ، يرد عنها كل مكيدة . وما دام فى الأقباط هذا الرجل وأمثاله ، فالمسلمون والعرب جميعًا لا يبالون بعد اليوم أن

يبذلوا مهجهم فى الذود عن إخوانهم ، وفى حمايتهم ، وفى الدفع عن كل شيء يسوءهم ، ما بقى على ظهر هذه الأرض مسلم يؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر . إنه دَين فى أعناقنا للقبط ، نسأل الله أن يهبنا القدرة على أدائه وإن أبَوْا هم أن يقبلوا عن هذه المأثرة جزاء .

وأما الرجل الآخر فهو كصاحبه يتلألأ قلبه بنور الإخلاص والإيمان ، تكلم فأبان عن نفس حرة أفزعت « اليهود المسئولين فى مدينة الإسكندرية » أى يهود مصر ، فأقبلت طائفة منهم تريد أن تثنى هذا الرجل الجليل عن إذاعة حديثه ، فأجابهم بأنه ما قال ما قال إلا وهو يعتقد أنه قول صريح سليم ، وليس إقحامًا للدين فى السياسة ، وأنه يقصد حماية التراث المقدس للمسيحية ، وأنه إنما يتكلم عن عقيدة وإيمان بما يقول . ذلكم هو الرجل النبيل غبطة البابا كريستوفورس الثانى بطريرك الإسكندرية وإفريقية للروم الأرثوذكس .

وقد جاء فى هذا الحديث أن غبطة البطريق الأعظم للروم قد دهش لإنشاء دولتين فى فلسطين ، ودهش أيضًا من أن تكون أمريكا والاتحاد السوفيتى هما الداعيتين إلى هذا التقسيم . ثم قال :

« إنه لتزداد دهشتنا أن تعمد الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه المحاولة الجريئة رغم أحداث التاريخ الدالة على فساد هذه الفكرة وخطرها . ولهم العبرة فيما حاوله الإمبراطور جوليان الرومانى . لا ندرى كيف فكرتا فى وضع الأراضى المسيحية المقدسة فى حماية أولئك الذين رغبوا دائمًا ، جماعات وأفرادًا ، فى أن يعيشوا حتى يروا اليوم الذى لا يسمع فيه ذكر للمسيح . وهل يستطيع إنسان أن يتصور اليهود حرسًا وحماة للأمكنة المقدسة . وهم الذين سيعمدون إلى تدنيسها بمجرد السيادة فيها ؟

« ونحن نرى أيضًا أنه لا يمكن أن يسمح للفاتيكان أن تكون له السيادة فى فلسطين ، فإن الحروب الصليبية قد برهنت على فساد هذه الفكرة . ولهذا فإننا نحن الروم الأرثوذكس نرى فى حالة إلغاء الانتداب الدولى على الأراضى المقدسة ، أو عدم وجود دولة عربية مكان هذا الانتداب ، أن تعطى للمسلمين

حماية هذه الأراضى ، لأنهم منذ مارسوا حكمها فى هذه القرون الطويلة ، برهنوا على أنهم جديرون بثقتنا » .

وهذا كلام أقل ما يقال عنه إنه كلام رجل مؤرخ عالم بصير لا يدفعه إلى ما يقول هوًى لشىء ولا رهبة لمكروه . فإن غبطة البابا كريستوفورس قد قضى طفولته وشبابه فى فلسطين ، قد عرف بنفسه شعور اليهود ضد العرب وضد الأرض المقدسة ، كما قال متكلم بلسان البطريركية الرومية .

وقد أثبتُّ حديث البطريق الأعظم بتمامه لأنه سوف يصبح وقائله جزءا لا يتجزأ من تاريخ الإسلام ، ولأننا نحن المسلمين نحب أن نحمل المنن فى أعناقنا فنحافظ عليها ونرعاها وندافع عنها ونجزيها أحسن الجزاء ، إن حديث هذا الشيخ الأجل سوف يصير من تاريخنا يرويه أربعمائة مليون عربى ومسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهو حديث يفسر كل ما كنا نقول به من مشايعة الدول الأوربية والأمريكية للصهيونية الفاجرة ، قائمة على الصليبية الحمقاء . فهم يحاربوننا حربًا صليبية لا يستثنون فيها مسلمًا ولا نصرانيًّا فى الأرض الإسلامية والعربية وقد كان بعض الناس يعيب علينا هذا الرأى ، ولكن حديث البطريق الأعظم قد كشف الغطاء عن كل ذلك ، ومهد للتاريخ أرضًا جديدة يدرس فيها هذا الصراع بين أهل الشرق العربى الإسلامى من مسلمين ونصارى ، وبين الغرب الصليبى من نصارى ويهود . ولكن نصارى الشرق غير نصارى الغرب ، فهؤلاء قوم ملئت قلوبهم أحقادًا صليبية مظلمة لا عقل فيها ولا ضمير لها ، أما نصارى الشرق فهم يعرفون تمام المعرفة أن نصارى الغرب قوم مفترون جاهلون متعصبون يريدون أن يدنسوا هذه الأرض المقدسة باليهود عداوة للمسلمين غير ناظرين إلا بالعين الصليبية البغيضة ، لا بعين الإنصاف والحق كما ينظر نصارى المشرق . وحسبنا هذا البيان من البطريق الأعظم ، فإنه حسنة لن ينساها له مسلم إلى أن تقوم الساعة .

وقبل أن أنتهى إلى ذكر الرجل الثالث أحب أن أنبه القارئ ، وأنبه قومى العرب فى كل مكان ، وفى مصر خاصة ، إلى أنه ما كاد « يهود مصر » يعلمون

نبأ إذاعة هذا الحديث فى الصحف حتى تبادروا إلى غبطته يريدون أن يثنوه عن نشره وإذاعته . فما معنى هذا الذى يفعله اليهود الذين خلعنا نحن عليهم الجنسية المصرية ؟ وماذا تقول حكومتنا فى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يكونوا أعوانًا للصهيونية فى قلب بلادنا فى هذه الساعة ؟ أو يحدث هذا فى مصر فى الأسبوع الماضى ، وإذا بنا نقرأ اليوم (٨ ديسمبر سنة ١٩٤٧) أن الشرطة العراقية ألقت القبض عند الحدود العراقية السورية على ثلاثة يهود عراقيين من موظفى شركة الزيت العراقية ومعهم جهاز إرسال لاسلكى . فما معنى هذا ؟ ليعلم اليهود أن العرب لن يقبلوا أن يكون للطابور الخامس عمل فى بلادهم .

وننتهى من هذا التعليق لنضم إليه خبر الرجل الثالث الذى ينبغى أن يعرفه العرب والمسلمون ، فقد أفضى سيادة حاييم ناحوم أفندى الحاخام الأكبر للطائفة الإسرائيلية فى مصر بالتصريح الآتى :

« إنى أرى أن مركزى بوصف كونى رئيسًا دينيًا وروحيًا لأبناء الطائفة الإسرائيلية ، يحول بينى وبين الخوض على صفحات الصحف فى أى مناقشات مهما كان نوعها أو الغرض منها . ولكن إزاء كثرة ما وجه إلينا من أسئلة واستفهامات أرى أن واجبى يحتم على أن أتوجه إلى السائلين وإلى جموع الأمة المصرية الكريمة بكلمة أرجو أن تكون حدًّا فاصلا لهذا الموضوع : فأبناء الطائفة الإسرائيلية التى أتشرف برياستهم الدينية هم جزء لا يتجزأ من الأمة المصرية ، يشعرون بشعورها ويتألمون لألمها . فكيف إذن يحاول البعض التشكيك فى عواطفهم نحو أبناء بلدتهم المصريين . إن دستور البلاد يكفل لنا جميع الحقوق الممنوحة لأبناء مصر الكريمة سواء بسواء ، ولذلك فإن واجبنا نحو بلادنا يجعلنا نعمل بشعورنا كمصريين . وقد أصدرت أمرى إلى رجال الكنائس الإسرائيلية بإقامة الطقوس الدينية ليعظوا فيها أبناء الطائفة على أن يتضافروا مع إخوانهم المصريين فى هذا الظرف العصيب » .

ونحن نشكر الحاخام الأكبر ، ولكن ليعلم سيادته أنه قبل أن يتوجه إلينا بكلام يكون « حدًّا فاصلا » ينبغى أن يعمل هو وأبناء طائفته عملا يكون « حدًّا

فاصلا » ، وهذا مع الأسف لم يحدث قط ، وأخشى أن أقول إنه لن يحدث قط .
ثم ليأذن لنا سيادته أن نوجه نظره الكريم إلى الذى ذكرناه وذكرته الصحف ولم يستنكره أحد من يهود مصر ، وهو ذهاب بعض المسئولين من اليهود فى ثغر الإسكندرية كى يثنوا البطريق الأعظم للروم الأرثوذكس عن إذاعة حديثه . أهذا أيضًا إقحام للدين فى السياسة .

وليأذن لنا سيادته أن نقول له إننا نعيش فى أرض مصر ، واليهود يعيشون معنا فيها لا فى المريخ ، وأننا نعلم علمًا يقينًا أن جمهورًا كبيرًا من شباب اليهود فى مصر ، يجرى بينهم الحديث وبين المصريين ، فلا نجد أحدًا منهم يكتم مشايعته لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، بل يفرح بها ويصر على التصريح بأنها خير لبلادنا ، وأنه ينبغى علينا نحن العرب أن نعاون على إنشاء هذه الدولة ، وأن نعيش معًا فى سعادة وأمن ورخاء !!!

وليأذن لنا سيادته أيضًا أن ننبهه إلى أن هذه الساعة التى جاش فيها العالم الإسلامى والعربى ، ليدفع عن فلسطين الجور الذى أرادت هيئة « الأمم المتحدة » التى تصرفها روسيا وأمريكا وبريطانيا ، هى ساعة فاصلة فى تاريخ العرب والمسلمين ونصارى الشرق جميعًا ، وليأذن لنا أن ننبهه أيضًا أن النار المشتعلة الآن تفصح كل الإفصاح عن المعنى الذى ينطوى عليه تقسيم فلسطين ، فكيف ذهب عن فطنة سيادته أن يذكر كلمة واحدة صريحة تفصح أيضًا كل الإفصاح عن استنكاره واستنكار طائفته لهذا التقسيم الجائر الذى أرادت أن تفرضه على العرب هيئة الأمم المتحدة ؟

وليأذن لنا سيادته أيضًا أن ننبهه إلى أن الصهيونية تدعى أنها تتكلم باسم يهود العالم جميعًا ، وأن جميع الدلائل إلى اليوم تدل على أن كثرة يهود العالم منضمة إليهم ، فما هو الضمان الذى يقدمه لنا سيادته حتى تطمئن قلوبنا إلى أن يهود مصر ليسوا كيهود سائر العالم ؟

وليأذن لنا سيادته أيضًا أن ننبهه إلى أن الصهيونية قد أذاعت منذ القديم أنها تريد أن تستولى على أرض إسرائيل كلها من الفرات إلى النيل ، وأن هذا مطبوع منشور فى كتبهم ، وأنه حين ذاع نبأ التقسيم وقف مفلوك صهيونى يستنكر

التقسيم ثم يرضى به على مضض ، لأنه الخطوة الأولى التى تفضى إلى استيلائهم على أرض بنى إسرائيل كلها من الفرات إلى النيل ، وأنا لا أظن أن مثل هذا مما يغيب عن الرجل الفاضل العالم أحد أعضاء المجمع اللغوى العربى [١] .

وليأذن لنا سيادته أن نذكره بوصية الله لنا فى محكم تنزيله إذ يقول : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ ، فالمسلمون والعرب جميعًا سوف يقاتلون من يقاتلهم من الصهيونيين ، أما سائر اليهود فلن يعتدى عليهم مسلم ولا عربى ماداموا فى ذمتنا ولا يؤلبون علينا . فهل يأذن سيادته بأن يعلم أن المسألة ليست مسألة سياسية نريد أن نقحم الدين فيها ، بل هى مصير العرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ وهل يأذن لنا أن نسأله أن يدفع عن يهود مصر كل شك وريبة بأن يصدر بيانًا صريحًا عن موقف يهود مصر فى مسألة التقسيم ؟ وهل يأذن لنا سيادته أن نطالبه ونطالب أبناء ملته من يهود مصر بأن يفعلوا فعلا صريحًا واضحًا يدل على أن عواطفهم هى عواطف الأمة المصرية تشعر بشعورها وتتألم بألمها ؟ وهل يأذن لنا سيادته أن نقول له إن هذا الذى يجرى الآن ليس « ظرفًا عصيبًا » كما جاء فى كلامه ، بل هو أوضح من ذلك ، هو حرب بيننا وبين يهود العالم وكل من يناصرهم من الأمم ، وأنها حرب سوف تستمر إلى أن يستقر الحق فى قراره ولو طالت مئة عام ؟ أفليس من الحكمة إذن أن يتخلى الحاخام الأعظم عن العزلة التى يريدها لنفسه ويدخل هو وأبناء طائفته فى الجهاد الذى كتب علينا نحن العرب من مسلمين ونصارى ويهود لكى ندفع عن بيت المقدس أدناس الصهيونية ؟

هذه كلمة مجاهد عربى يتقدم بها إلى الحاخام الأعظم تعليقًا على حديثه الذى سوف يبقى مذكورًا فى تاريخ الإسلام والعرب ، لم أعمد فيها إلى شرح أشياء أعرفها حق المعرفة ، انتظارا لما يكون من عمل سيادة الحاخام الأكبر . وليعلم سيادته أن الأحداث أسرع من لمحات البرق فى السحاب المتراكب ،

---

(١) يشير الأستاذ شاكر رحمه الله إلى الحاخام حاييم ناحوم .

فليبادر إلى الخير مبادرة من عرف وجه الحق فلم يحجم به عن الجهاد خوف ولا فزع ولا إرهاب . إن عمل الحاخام الأكبر هو « الحد الفاصل » الذى ينتظره اليوم أربعمائة مليون مسلم قد استيقظوا وأدركوا أن يهود العالم قد أعلنوا عليهم الحرب ، فلن يخدعهم بعد اليوم شيء عن الطريق الذى سار فيه آباؤهم من قبل ، فنصرهم الله وأيدهم وهزم أعداءهم وأعلى كلمتهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

* * *

إياكم والمهادنة

« ما هكذا تُورَدُ يا سَعْدُ الإبْل ! » (١)

إنما حملت أمانة هذا القلم لأصدع بالحق جهارًا فى غير جَمْجَمَة ولا إدهان . ولو عرفت أنى أعجز عن حمل هذه الأمانة بحقها لقذفت به إلى حيث يذل العزيز ويمتهن الكريم . وقد قصرت نفسى إلى هذا اليوم على مجلة « الرسالة » لأنها ملاذ الأقلام الحرة التى لا تثنيها عن الحق رهبة ، ولا تصدها عن البيان مخافة . وقد جاء اليوم الذى لم يعد يحل فيه لامرئ حر أن يكتم قومه شيئًا يعلم أنه الهدى ، فمن كتمه فى قلبه فقد طوى جوانحه على جذوة من نار جهنم ، تعذبه فى الدنيا ويلقى بها فى الآخرة أشد العذاب . وأنا جندى من جنود هذه العربية ، لو عرفت أنى سوف أحمل سيفًا أو سلاحًا أمضى من هذا القلم لكان مكانى اليوم فى ساحة الوغى فى فلسطين ، ولكننى نذرت على هذا القلم أن لا يكف عن القتال فى سبيل العرب ما استطعت أن أحمله بين أناملى ، وما أتيح لى أن أجد مكانًا أقول فيه الحق وأدعو إليه ، لا ينهانى عن الصراحة فيه شىء مما ينهى الناس أو يخدعهم أو يغرر بهم أو يغريهم بباطل من باطل هذه الحياة .

والأمر بيننا وبين يهود سافر كإشراق الصباح لا يغطيه شىء ، ولا تعمى عن جلائه عين ، فهو الحرب الضارية التى لا ترحم . فمن شك فى هذا فإنما يشك عن دَخَل (٢) وفساد لا عن يقين خطأ يلتمس فيه العذر . والحرب معنى معروف

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٥٦) ، ديسمبر ١٩٤٧ ، ص : ١٤٢٣ - ١٤٢٦

(١) هذا مَثَلٌ ، يُضْرَب لِمَنْ قَصَّر فى ما أُسْنِد إليه . وهو يُقْرَن غالبا بشطره الأول وهو :

* أَوْرَدَها سَـــعْدٌ ، وسَعْدٌ مُشْتَمِلْ

(٢) الدَّخَل والفساد بمعنى .

للبشر منذ كانوا على هذه الأرض ، ولها أساليب لا يجهلها خبير بها ولا غير خبير ، ومَن جهل هذه الأساليب أو تجاهلها أو دعا قومه إلى اطراحها والإغماض عنها فإنما يدعوهم إلى الهلكة والفناء والخزى وذل العصور والآباد . فكل كلمة تقال منذ اليوم فى أمر هذه الحرب فهى إما تحريض على القتال، أو تثبيط عنه . وكل امرئ منا محاسب بما يقول علا شأنه أو سفل ، فإن الحرب لا تعرف شريفًا ليس لسانه بشريف ، ولا تتنكر لمغمور يضئ عنه بيانه أو عمله .

وقد قرأت فى هذه الأيام الأخيرة وسمعت كلمات لا يرفعها أو يشفع لها أن يكون قائلها فلان أو فلان . فإن قيادة هذه الحرب لن تكون لمن يهادن فى الحق الأبلج [1] ، أو يجامل فى المحنة المهلكة . فمن ذلك أنى سمعت الأئمة على منابر المسلمين تذكر الناس بأمر فلسطين وما حل بها وما يراد فيها ، ثم تعقب على ذلك بتذكير الناس بأن فى بلادهم مواطنين من يهود - هم كما يقولون - أهل ذمة ، لهم ما لأهل الذمة والمعاهدين من الأحكام فى ديننا ودين نبينا . وقرأت أيضًا بيانًا من « هيئة وادى النيل » أذاعه رئيسها سعادة محمد على علوبة باشا يقول لنا فيه : « إن لكم مواطنين من اليهود فى مصر ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم . وقد شاعت حولهم شائعات السوء فقيل إنهم يمدون الصهيونية بالمال ، وإنهم يضنون بمالهم فلا يساهمون معكم فى رد عدوان الباغين . ونحن على يقين من أن إخواننا اليهود فى مصر - وهم أصحاب الملايين - سيبذلون من مالهم للعروبة فى محنتها كما تبذلون ، وسيسارعون إلى تكذيب هذه الشائعات ببذلهم وعطائهم لا بأقوالهم وتصريحاتهم » .

ولست أدرى ما الذى يحمل هؤلاء القوم على ركوب هذا المركب فى تغطية عيون الناس عن أفاعيل يهود منذ كان لهم على هذه الأرض مكان يسرحون فيه ؟ فإذا كانوا يريدون أن لا تقع الفتنة بين يهود مصر وبيننا ، فكفاهم أن يذكروا أن العرب والمسلمين منذ كانوا لم يضطهدوا هذا الجنس من خلق الله إلا عقابًا

(١) الأَبْلَج : الواضح ، وأصله الأبيض .

لشيء جنته أيديهم ، ثم يتركونهم وادعين لا يمسهم شر ولا عنت تحت ظل هذه الدول العربية والإسلامية . وإذا كانوا يريدون أن يفتوا الناس بأن يهود هم أهل ذمة لهم ما لأهل الذمة فى أحكام الإسلام ، فقد أخطأوا . ولا يستطيع متأول أن يتأول على دين الله أن هؤلاء اليهود أهل ذمة أو معاهدون كما توجب أحكام الإسلام لمن يوصف بهذه الصفة . وكان حسب هؤلاء أن يأمروا الناس بالتطوع للقتال والتبرع بالمال ، وأن يصفوا لهم هذه الحرب الملعونة التى تشنها علينا العصبية الصليبية من أوربة وأمريكا ، وأن ينفضوا قلوب الناس حتى يتدروا مراكزهم فى صفوف المقاتلين ، فإن الحرب كما يقولون جدها جد وهزلها جد . فإذا كان هذا العبث مقبولا يومًا ما ، فإنه اليوم فت فى عضد الأمة المسكينة التى أحاطت بها الأمم لتأكلها « أكل الضروس حلت له أكلاؤه » [1] . فليقلع هؤلاء الواعظون عن عظة فيها الهلاك لأقوامهم ، والذل لأبنائهم ، والعبودية لبلادهم .

أما النداء الذى أذاعه علوبة باشا فقد أفزع كل حريص على خير أمته وبلاده . وكيف لا يفزع امرؤ يقرأ نداء موجهًا إلى عامة الشعوب العربية ثم شعب مصر خاصة وفيه هذه الثقة المطلقة بأن اليهود برآء من كل قادحة تقدح فى إخلاصهم للقضية العربية !! وفيه هذا اليقين الذى لا يتزلزل بأنهم سوف يجودون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل فلسطين العربية !! ويأتى هذا البيان من رجل معروف الاسم ، مشتغل بالقضايا السياسية والوطنية والعربية ، ينظر إليه الشباب نظرة التوقير والإجلال لما يقول .

ونحن لا ندرى هل وقف على شيء غاب عن الناس جميعًا وعرفه هو ، فاستيقن أن ظاهر أمر يهود مصر غير باطنهم ، وأنهم إنما يرسلون الأموال إلى الصهيونية ذرًّا للرماد فى عيون الناس ، وأنهم يتولون تهريب الأسلحة إلى الصهيونية رحمة بالعرب ودفاعًا عن قضيتهم ، وأنهم يجمعون الشبان اليهود ليبثوا فيهم الدعوة إلى الهجرة إلى أرض الميعاد ، ليدخلوا فلسطين ويكونوا عونًا للعرب على إخوانهم من اليهود الصهيونيين !!

---

(١) الضَّرُوس : الأكُول . الأكلاء : جمع كَلَأ ، وهو العُشْب .

حسبكم أيها الساسة القدماء ! لئن ظننتم أنكم بأمثال هذا الكلام تستطيعون أن تلينوا الصخر من قلوب يهود مصر حتى ينحازوا إليكم ، ويكونوا لكم أعوانًا على أبناء جلدتهم ، فقد خاب ظنكم وخاض بكم الأباطيل المركومة . إنه ما من يهودى على ظهر هذه البسيطة إلا وهو صهيونى متعصب يخفى تحت ذلته ومسكنته غوائل الغدر والفتك . إن يهود العالم على قلب رجل واحد : يريدون أن يلتهموا هذا الشرق العربى كله ، ويكونوا سادته وكبراءه والحاكمين بأمرهم فى كل ثنية من ثنايا أرضه . لا نقول لكم اقرأوا كتب الصهيونية لتعلموا ، بل اقرأوا كتابهم الذى يدينون به ، واسترقوا السمع فيما يجرى على ألسنتهم وهم يتخافتون بينهم ، وادخلوا بِيَعَهم ، وانظروا فى وجوههم ، وتفرسوا فى سمتهم وشمائلهم وحركاتهم ، فيومئذ تعلمون أن تحت هذه الصفحة البريئة المتلألئة أخطبوطًا سفاحًا قد قتله الظمأ إلى دمائكم ولوَّعه الشوق إلى فرائس أموالكم وبلادكم . وليس بسياسى من لم يعرف عدوه معرفته بنفسه التى بين جنبيه . وليس بسياسى من كتم هذه المعرفة عن قومه فى ساعة القتال والحرب . ولا تظنوا أن يهود تنخدع لكم عن أنفسها حتى تنالوا منها شيئًا تعلم أنه خذلان لدينها وعقائدها وأهوائها ومطامعها منذ كان لهم فى هذه الأرض مجال يتحركون فيه .

إن الذين نشروا هذا النداء إنما يخادعون أنفسهم وأهليهم عن حقائق ما يجرى على أعينهم وبمنظر منهم ومسمع ؛ وهذه صحف تنشر كل يوم من خبائث يهود فى أرض مصر ما يفزع ، وتضع أيديكم على الجريمة وهى تنشأ فى قلب بلادكم ، فكيف يتاح لكم أن توفقوا بين ثقتكم بغيب مكنون فى قلب اليهود ، وظاهر يأتيكم من أفعالهم علانية غير مستور أو محجوب ؟ نحن لا نريدكم أن تحرضوا الناس على الفتك باليهود ، فالعربى أنبل نفسًا من أن يفتك ويغدر . بل نريدكم أن تدعوا هذه العظات والسياسات المتعفنة جانبًا ، وأن تلقوا إلى قومكم بالحقائق مجردة من كل مهادنة أو مراوغة ، حتى يعلم شباب العرب أن فى قلب بلادهم قوى يخشى أن تغلب عليهم وتنتزع منهم أمرهم ، وتفت فى محصدات [١]

---

(١) المحْصَدات : القوية الشديدة ، وأصله فى الحِبال إذا أُحْكِم فَتْلُها .

عزائمهم ، ولتستولى على الأمد [١] قبل أن نطيق نحن صدقًا أو عدلا فيما كتب علينا من هذا القتال المر .

أيريد أن يعلم من كتب هذا النداء أشياء قد غابت عنه ؟ فليعلم أن يهود مصر يبذلون اليوم آلافًا مؤلفة من الأموال لشراء قطع متجاورات من الأرض فى مشارف مصر ، يدفعون فيها من المال ثلاثة أضعاف ثمنها أو أكثر . وليعلم هؤلاء أن يهود مصر قد فرغوا منذ عشر سنوات من الاستيلاء على تجارة الجملة كلها فى أرض مصر . وليعلم هؤلاء أن هذه الفئة القليلة من يهود قد استطاعت فى زمن الحرب أن تتغلغل فى نواح كثيرة من أعمال لم يكن ليهود مصر بها عهد . وما من شىء من هذا كله إلا وهم يأتونه على هدى وبصيرة وتدبير محكم ، ناظرين إلى شىء واحد ، هو أن الدولة اليهودية سوف تكون فى فلسطين ، وأنهم يومئذ مطالبون بأشياء يؤدونها لدولتهم ، وهى أشياء مفهومة معروفة ، الغرض منها أن تخفق راية يهود على هذه البقعة من الأرض ممتدة من شاطئ الفرات إلى ضفاف النيل .

أيها الناس لا تستهينوا بأمر يهود ! انظروا ماذا كان من أمرهم منذ عشرين سنة ، ثم انظروا إلى خبرهم اليوم ، من كان يظن أن لليهود شأنًا أو خطرًا فى هذه الدنيا منذ عشرين سنة ، إلا من هدى الله ؟ ثم انظروا اليوم إلى هذه الفئة القليلة من سكان هذه الأرض كيف استطاعت أن تغلب على عقول الأمم والساسة ، وأن تغطى على الحق وهو مشرق كعين الشمس ، وأن تدفع أكبر دولة فى الأرض وهى أمريكا إلى ارتكاب أبشع جريمة فى تاريخ الإنسانية ، وأن تدلس على الرأى العالمى كله حقائق هذه الجريمة ، وأن تشترى بأموالها القلوب والأمم والناس والأفراد . انظروا إلى هذا كله قبل أن تتكلموا ، واتقوا غضب الله قبل أن تزل ألسنتكم بالوعظ المهلك لأنفسكم وأهليكم .

ألا تخافون أن تكون هذه القوة المدمرة التى ذكرتموها فى ندائكم – قوة أصحاب الملايين – وسيلة لتسلط يهود يومًا ما على ساستكم ورجالكم وحكوماتكم ، وأن تكون تهديدًا لكم ولأممكم بالمجاعات والاضطرابات

---

(١) الأَمَد : الغاية والمقصد .

الاقتصادية والسياسية ، وأن تكون أسلوبًا من أساليب تأليب الأمم عليكم فى هذه المحنة حتى تعطوا المقادة ليهود وأنتم صاغرون ؟ أيها الساسة لا تستهينوا ، فمن استهان بعدوه فقد فرط ، ومن استهان بعدوه فقد مكنه من مقاتله ، ومن استهان بعدوه فقد منحه فرصة للفتك به .

واعلموا أنها الحرب بيننا وبين يهود . والحرب لا تلهو . وهذه الفئات التى تقيم فى أوطان العرب من اليهود سوف تكون يومًا ما « طابورًا خامسًا » ، بل هى اليوم كذلك . واعلموا أن اليهود قد مرنوا على أساليب التجسس وتحسس الأخبار فى هذه الحرب ، وأنهم كانوا أعوانا للأمم المقاتلة فى حرب الأعصاب ، وأنهم قوم مردوا على النفاق منذ قديم الآزال ، فكيف تأمنون جانبهم ، وتطالبون قومكم أن يأمنوا جانبهم ؟

ثم أراكم تدعون يهود للتبرع بأموالها فى سبيل قضية العرب ، بل أن يبذلوا أموالهم لتقاتلوا بها أهلهم وعشيرتهم ، فبئس الشيء تطلبون . إن أول ما فى هذا الجهل بالطبيعة البشرية ، ثم غاية الجهل بطبيعة هذه الفئة من يهود التى ظلت أكثر من ألفى سنة تنطوى على نفسها ، وتحافظ على روابطها ، وتجعل دينها هو قوميتها ووطنها ، لا وطن لها ولا قومية إلا اليهودية صرفًا خالصة لا تشوبها شائبة من محبة وطن له أرض وسماء ، إلا أرض الميعاد - إلا فلسطين - إلا أرض إسرائيل من شاطئ الفرات إلى ضفاف النيل .

ثم ألا تخافون أن يتبرع لكم هؤلاء اليهود بآلاف من أموالهم أو أموالنا على الأصح ، يخادعونكم بها ثم يهربون إلى قومهم الملايين ، يعينون بها عليكم ، ويكسبون بها غفلتكم عنهم وعن حركاتهم وأعمالهم ودسائسهم فى قلب بلادكم ؟

أيها الساسة اطلبوا سياسة أخرى غير هذه تكفيكم شر يهود . إننا لا نريد منهم مالا ، ولا نريد منهم حبًا للأوطان التى أظلتهم وحمتهم ، ولا نريد منهم رجالا يقاتلون فى صفوفنا ، وإن ديننا لينهانا عن أن نقبل منهم شيئًا ، اطلبوا أيها الناس سياسة أخرى تضمن لكم أن تعرفوا خبء يهود ، وأن تصطنعوا من الأسباب ما يكفل لكم قطع أيديهم وألسنتهم عن التدسس والتجسس والمكيدة والغدر . لا تأمروا الناس بالفتك بهم ، بل نحن العرب نحمى الذمار حتى عدونا نحمى ذماره ، ولكن دبروا

أمركم وسنوا من القوانين ما ينهى يهود الأوطان العربية عن الغدر بهذه الأوطان التى حمتهم وهم مشردون مضطهدون قد مزقهم الناس كل ممزق .

إن العالم العربى اليوم قد استيقظ من غفوة طالت ، وهو اليوم لا يسمع للساسة القدماء إلا كما يستمع المقاتل البطل إلى صيحات الجبان المذعور ، فليعلم هؤلاء أنه أولى بهم أن يمنحوا الشباب من حكمتهم وتجاريبهم وعقلهم ما يهديهم ويقويهم ، لا أن يعظوهم بالمواعظ التى تحفر تحت أقدامهم هوة مظلمة بعيدة القعر ليس يسمع فى أرجائها إلا هماهم الموت وهو يدب والغًا فى دم أو منشبًا مخالبه فى فريسة . ارحموا الناس وارحموا أنفسكم أيها الرجال .

* * *

ويحكم هبُّوا !

أيتها العرب !

أيها المسلمون !

إنكم لا تُغْلَبون اليوم عن قلة ، ولئن كتب الله عليكم أن تُغْلَبوا فإنما تغلبون بإثم ما اقترفت نفوسكم ، وما اجترحت أيديكم ، وما فرطت عقولكم ، وما نسيت قلوبكم ، وما أضعتم من حق تؤدونه لأنفسكم وأسلافكم وذريتكم ، ووالله ما أراكم تغلبون عن جهالة ، فقد وهبكم الله عقولا راجحة ، ونفوسًا حرة ، وعزائم قد أذلت لكم أعناق الأمم منذ كان لكم فى الأرض شأن يذكر .

وإن الله مبتليكم بمحنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ، بل هى محنة لعامتكم وخاصتكم فى نواحى الأرض ، فإن أحكمتم الرأى وصدقتم العزم ، وعرفتم عدوكم من صديقكم - ولا أرى لكم فى هذه الدنيا صديقًا - فقد آن لكم أن تنهجوا للبشرية منهجًا مستقيما وصراطًا سويًّا . فلا تقولوا إنما نحن ضعفاء ، فالضعيف من ظن فى نفسه الضعف وإن كان أقوى الأقوياء ، ولا تقولوا إنما نحن جهلاء ، فالجاهل من استهزأ بالعلم وتهاون فى طلبه وإن كان أعلم العلماء ، ولا تقولوا إنما نحن فقراء ، فالفقير من جهل أن الله قد آتاه العزم والجلد والعقل ، وإن كان أغنى الأغنياء . فاصدقوا أنفسكم وثقوا بالله الذى امتحنكم بهذه المحنة ، فإنه ناصركم على عدوكم ، ومخرج لكم من خبء أنفسكم خيرًا كثيرًا قد غاب عنكم وعن الناس دهرًا طويلا . وإياكم والخوف ، فإنه الآفَةُ الملتهمة ، وما استشعر الخوف عزيز إلا ذَلَّ ، ولا قَوِىٌّ إلا خار ، ولا أَبِىٌّ إلا تضرع لكل خسف يراد به .

انظروا ! فهذه فلسطين قد اجتمعت الأمم على أن تمكن فيها لأنذال يهود مكانًا يتبوأه طغاة المال وطواغيت الفجور وأبالسة الشر ، وقد أخذوا يمدونهم بالمال والسلاح ليقهروكم وتكون لهم الكبرياء فى هذه الأرض .

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٥٧) ، يناير ١٩٤٨ ، ص : ٢١ - ٢٣

وانظروا ! فهذه دولة الباكستان قد اجتمعت فيها كلمة المسلمين على أن يكونوا أمة عدتها مئة مليون ، فإذا عباد البُدِّ [(١)] (بوذا) قد دمروا عليهم من كل مكان يذبحونهم ويقتلونهم ويفتكون بالنساء والأطفال ، ويهتكون أعراض الحرائر ، ويدخلون على المصلين فى مساجدهم فيضعون السيوف فى رقابهم والخناجر فى ظهورهم ، ويغتالون الآلاف من الآمنين ، والدنيا كلها تسمع وتبصر ، فلا تجد فيهم منكرًا ولا مستبشعًا ولا معترضًا على ضراوة عباد البُدّ .

وانظروا ! فهذه أندونيسيا تُجْمِع هيئة الأمم المتحدة على تركها فريسة للطغاة البغاة من شرذمة الخلق الذين يسمون بالهولنديين . ويزعمون لكم أن مجلس الأمن قد أمر بوقف القتال ، فإذا هولندة تضرب صفحًا عن حكم هذا المجلس ، وتوغل فى تقتيل هؤلاء المساكين بالنذالة المعهودة فى المستعمرين الذين لا يفرقون شيئًا بين هؤلاء البشر وحيوان الغاب ، بل لعلهم بحيوان الغاب أرحم ، وعليه أحرص ، إبقاء على جلده أو فروه مما يرتفقون [(٢)] به فى صناعة أو تجارة .

وانظروا ! هذه بلاد المغرب من حدود مصر إلى أطراف المغرب الأقصى قد ضربت عليها فرنسا بالأسداد ، وحمت عنها كل بارقة من خير ، وسامت أهلها عذاب التقتيل والاضطهاد ، وسلبتهم كل قوة تتيح لهؤلاء الأبطال الصناديد أن يعيشوا فى بلادهم عيشة الكفاف ، وشردت كل من دعا قومه إلى المطالبة بالحق المغصوب ، وأراغت [(٣)] أن تجعل هذه البلاد الشريفة ذيلا ملحقًا بالجمهورية الفرنسية .

وانظروا فهذه مصر والسودان قد فغر لها الوحش البريطانى فاهُ يريد أن يقضم السودان قضمة واحدة ليجعله قطعة من أوغندة وجنوب إفريقية ، ويدع مصر ترعة إن شاء منع عنها الماء حتى يقتل أهلها جوعًا وظمأ ، وقد قضى فى ديارنا أكثر من خمس وستين سنة حتى هدم كيانها . وسلط عليها لصوص الأجانب واليهود ،

---

(١) البُدُّ : الصَّنَم .

(٢) يَرْتفِقُون : يَنْتَفِعُون .

(٣) أراغت : طلبت .

حتى ما تكاد تجد مصر حيلة فى سن القوانين التى تحمى بلادها من استبداد اللص الطارئ بصاحب البلد المقيم .

انظروا لكل بلد تنطق فيه العربية ، أو يذكر فيها اسم الله مقرونًا باسم محمد ﷺ ، تروا حربًا تشن على أهل العربية والإسلام بلا هوادة ، وبأوقح الأساليب وأخفاها :

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

إنها الحرب . إنها المذابح ! إنها الحالقة [١] التى أجمعت أمم أوربة وأمريكا أن تستأصل بها قوتكم وتجعلكم عبيدًا أذلاء فى أرض الله . إنها الفتن المظلمة التى أطبقت عليكم من كل مكان ، فجعلت فيكم رجالا ونساء وخلقًا كثيرًا صاروا عدوًّا لأنفسهم وبلادهم وإخوانهم ، جهلا وعنادًا وتقليدًا وسوء رأى .

إنه لم يبتل قوم فى تاريخ هذه الدنيا بمثل ما ابتليتم به ، فقد مضت القرون وأنتم فى غفلة عن عدو قد استفحل أمره واستوت قوته واستمر مريره [٢] ، فدخل عليكم بلادكم فاستعبدكم فيها وحاربكم بعلمه وجهلكم ، وقوته وضعفكم ، واجتماع كلمته وتخاذلكم ، فلما أفقتم من الغفوات الطويلة لم تجدوا فى أيديكم مالًا ولا سلاحًا ولا علمًا ، فليس لكم منذ اليوم إلا الشىء الذى هو أقوى من المال والسلاح والعلم : الإيمان بحقكم ، والصبر على لأواء هذه الحرب الضروس . فآمنوا واصبروا ، فإن قوة الإيمان وحدها تدمر حصون البغى ، وتدفعكم إلى طلب المال والسلاح والعلم ، وتطهر قلوبكم من كل ضعف ، ولا تأسوا على قتيل فى هذه الحرب ، فإن كل دم يراق من دمائكم إنما هو غيث تغاثون به يغسل عنكم أدرانكم ، ويسقى ثرى جف ، فينبت لكم أبطال الوغى وصناديد القتال فى كل ميدان من ميادين هذه الحرب .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

اطلبوا المال من وجوهه ، ودبروا أمركم فى حياتكم ، فإن المال قوة غاشمة

---

(١) الحالقة : المُهْلِكة .

(٢) استمر مريره : استحكمت قوته ، وأصله من إمرار الحَبْل ، وهو فَتْلُه فتلا محكما .

تضارع أقوى قوى الطبيعة التي لا يقف دونها شيء . واطلبوا السلاح من حيث استطعتم ، فإن السلاح ناصر من لا ناصر له إلّا قوته فأنشئوا المصانع والمعامل وأخفوا أمركم حتى لا يطلع عليه العدو الذى يعيش بين ظهرانيكم من الأجانب واليهود . واطلبوا العلم حيث استطعتم ، فالعلم حياة ابن آدم ، لا حياة له بدونه ، وهو عون المال والسلاح والحافظ عليهما والقائم بأمرهما . وكل طالب علم فهو مجاهد فى سبيل الله وفى سبيل أهله وبلاده ، فلا تفتروا عن طلبه . وليعلم كل طالب عِلْم أو مال أو سلاح أنه إنما يفعل ذلك لأمرين : أولهما تحقيق معنى الكرامة الإنسانية ، والآخر تحقيق الحرية لبلاده وأمته .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

لست أكتب لكم لتقرأوا ، ولكنى أنذر قومى فى ساعة لا ينبغى للمرء فيها إلا أن يصدق أهله . أنذركم بعداوة الأمم لكم ولمجدكم وتاريخكم ، فربيوا لهم أضغانكم وغذوها وحوطوها ونشئوا صغاركم على بغض هذه الأمم التى حشدت لكم عصبية الجاهلية ، وعصبية الصليبية ، وعصبية الاستعمار ، وعصبية الألوان . أرضعوا كل مولود لبان الأضغان والأحقاد على هؤلاء الطغاة ، وأمروهم أن يعيشوا فى هذه الأرض لشيء واحد هو أن يقاتلوا أهل البغي والعصبية حتى تستأصلوا هذه الشأفة الخبيثة من أرض الله التي أورثهم إياها قائمين بالقسط والعدل والرحمة وإيتاء كل ذى حق حقه . وإنه لا ينجيكم من هذه البلية إلا أن تتمرسوا بصدق العداوة ، فهي التي توقظ فيكم كل عزيمة غافلة ، وتهديكم إلى مواطن الضعف في نفوسكم ، وإلى مكامن الغدر في نفوس أعدائكم ، ومن جهل مواطن الضعف في نفسه كان خليقًا أن يصاب منها ، ومن عمى عن مكامن الغدر في نفس عدوه كان قمينًا أن يرتكس [١] فى مهاويها . لقد فضح الصبح أعداءكم وأضاء لكم عن خبايا قلوبهم ، فلا يكن أمركم عليكم غمة ، فأنتم بين اثنتين : إما المكاشفة بالعداوة السافرة في غير مداورة أو سياسة ، وإما أنْ ترضوا لأنفسكم أن تصيروا

(١) يرتكس : يَرْتَدّ .

طعمة لهذه الأمم الباغية على الشرذمة اللئيمة من إسرائيل . وما أظنكم ترتضون الثانية فليس لكم إلا الأولى .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

لقد انقضت دهور وأنتم تساقون إلى قدر لا يعلم غيبه إلا الله ، فاستبد بكم قوم أولى ضرار وبأس شديد ، فأفسدوا قلوب جمهرة من أبنائكم وذراريكم ، فنشأت تحت ظلال هؤلاء الطغاة ناشئة من أنفسكم تعاظم أمرها ، وصار لها فيكم مكانة تتبوأها . وكل ذى مكانة أو سلطان أو ثروة فهو ملئ بأن يخدع الجماهير وهم أسرع إلى طاعته ومتابعته فيما يخدعهم به ، فاحرصوا على ألَّا تتبعوا الرجال على أسمائها بل اتبعوا الهدى وإن جاءكم على يد المحتاج الراغب ، وتبينوا المدلس عليكم من الناصح لكم . ولا تقولوا هؤلاء سادتنا وكبراؤنا ، فما أضل البشر إلا سادتهم وكبراؤهم . ولا ترددوا إن رأيتم معوجًا أن تقوموه مهما بلغ من الشأن ، فإن تقويمكم إياه أبقى له وأجدى عليه . ولا تخروا على آراء السادة والكبراء صُما وعميانًا ، بل اسمعوا نبضات القلوب ، فرب لسان ينطق بالخير وهو ينبض بما فيه فسادكم وفساد أمر بلادكم . وأبصروا وتبصروا ، فإنه لا يعطى المقادة إلا السائمة التى تقودها عصا الراعي لا العقل والإدراك . احملوا سادتكم وكبراءكم على وضح الصراط ، فكل ضال منهم سوف يضل خلقًا منكم كثيرًا ويورده موارد الهلاك .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

إنها ساعة في تاريخكم ليس بعدها إلا النصر أو الهزيمة ، وكل امرئ منكم يحمل تبعة لا يسقطها عنه عذر ، ولا يعذره فى أداء حقها شيء . وأنتم أربعمائة مليون نسمة لا عصابة قليلة في الأرض ، فإن كنتم صفًّا واحدًا وبنيانًا مرصوصًا ، فاعلموا أنه لن يغلبكم شيء ، ولن تهد هذا البنيان قوة مهما بلغت على ظهر هذه الأرض ، فتماسكوا وتقاربوا وتعاونوا ، ولا تدعوا ثغرة يدخل منها عليكم عدوكم لينقض هذا البنيان الذى بناه آباؤكم وأسلافكم في آلاف السنين ، وأنتم الأعلون إن شاء الله ، وليهود الذلة والمسكنة مضروبة عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

لا تهابوا أهل العصبية الصليبية فى أمريكا وأوربة ، ولا تثقوا بأحد منهم ، ولا تهادنوهم فى حقكم ، ولا تناصروهم كما ناصرتموهم من قبل فغدروا بكم وتألبوا عليكم وامتهنوكم وقابلوا حقكم بالازدراء ، والتحقير فى هيئة الأمم المتحدة ، وأنكروا كل يد أسديتموها إليهم ، ومزقوا أوطانكم ، وسلطوا عليكم فواجر أممهم ، وأرادوا أن يدمروا أوطانكم ، وأن ينشئوا لجراثيم اليهود وكرًا خبيثًا فى الأرض المقدسة فى سرارة [1] بلادكم . فإن فعلتم فيومئذ يعلم هؤلاء الأخباث والأشرار أن العرب وأهل الإسلام وأهل دين المسيح فى الشرق ، كلهم على قلب رجل واحد يريدون أن يقيموا فى هذه الأرض شريعة الإنسان العادل لا شريعة الوحش الضارى فى ظلمات الأدغال والغابات .

ياساسة العرب !

إياكم وخداع الناس ، ولا تخادعوا ربكم الرقيب عليكم ، فيوشك أن يحل عليكم غضب من ربكم ثم غضب الناس عليكم ، ولا تبيعوا تاريخكم وتاريخ آبائكم وذريتكم بعرض زائل ومجد مزيف ، واعلموا أن قومكم قد ثاروا من مضاجعهم ليطلبوا حقهم بحد السيف ، فلا تكونوا مخذلين ولا واعظين ولا متهاونين . واعلموا أنها الحرب ! شذاذ الأمم وصعاليك اليهود بين ظهرانيكم ، والبغاة الطغاة عن أيمانكم وعن شمائلكم يلتمسون الفرصة ليمحقوا العرب والمسلمين ويطحنوهم طحنًا .

فهبوا جميعًا إلى الجهاد فمن نجا فقد فاز بالنصر وبرضوان الله عليه ، ومن قتل فقد فاز بالشهادة وجنة الخلد والذكر الذى لا يفنى . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .

* * *

(١) سَرارَة الشيء : أكرمه وخياره .

لا تَمَلُّوا

شدَّ ما فزعتُ حين قرأتُ فى صدر الأهرام (الاثنين ٥ يناير ١٩٤٨) نبأ تلك المحاولة الجديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب (أى مراكش) . وقد آثر الموحى بهذا المقال أن يسمى هذا الأمر « محاولة جديدة » ولكننى أعلم أنها ليست سوى « حيلة » أخشى أن تغرر بكثير من قراء العربية ، لقلة اطلاعهم على أنباء هذا الشعب الأبى السجين الذى ضربت عليه فرنسا نطاقًا من الكتمان والصمت ، لم يضرب على شعب قط فى هذه الدنيا ، ولا فى بلاد السوفيت . وأنا أحب أن أكشف الغطاء عن هذه « الحيلة » التى يُرادُ بها تضليل الناس عن حقائق كالشمس ظاهرة لكل من متعه الله بنعمة البصر . وأحب أن أصفى [(١)] هذا الكلام لقرَّاء « الرسالة » لأنهم همُ الفئة الحية التى تقرأ لتعلم وتعمل بما تعلم .

فهذا الشيء الذى سماهُ بعضهم « محاولة جديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب » ، ليس شيئًا سوى محاولة من فرد واحد يعاونه قليلٌ من الناس على إحداث خرق فى إجماع أمة كاملة ، وصدع بنيان مرصوص لم أعلم فيه إلا خيرًا وتماسكا وبقاء على كلمة الحق التى لا تزول ، وهى « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » إن كان ثمة حاجة إلى مفاوضة أو معاهدة .

وبلاد المغرب ثلاثة : تونس ، والجزائر ، ومراكش ، وفى كل قطر من هذه الأقطار الثلاثة حزبٌ له الكثرة الساحقة ، بل لا يكادُ يوجد فيه أقلية حتى نقول إن لهذا الحزب كثرة ساحقة ، بل الحزبُ هو الأمة ، وهو التعبير الصادق عنها . وهذه الأحزابُ لا يمكن أن تسمى أحزابًا بالمعنى المعروف فى مصر والذى كان وليد الاحتلال البريطانى الذى فرَّق الكلمة وباغض بين القلوب .

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٥٨) ، يناير ١٩٤٨ ، ص : ٤٥ - ٤٨

(١) أصفيتُهُ الودَّ : أخلصته مما يكدره ويهجنه .

ففى تونس الحزبُ الدستورى ، ورئيسه الحبيب بورقيبة . وفى الجزائر حزبُ الشعب ، ورئيسه أحمد مصالى الحاج ، ومندوبه فى مصر والسودان هو الشاذلى المكى . وفى مراكش حزبُ الاستقلال ورئيسه محمد علال الفاسى . وفى المنطقة الخليفية عن مراكش حزبُ الإصلاح ورئيسه عبد الخالق الطريس . وهذه الأحزابُ هى المعبرة عن بلاد المغرب كلها ، ورؤساؤها جميعًا مقيمون الآن فى مصر ، وجميعهم على رأى واحد قد أذاعوه فى كل وقت وفى كل بلد ، وهو « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » وهم جميعًا لا يزالون إلى هذه الساعة على هذا الرأى لم يتحوَّل عنه أحدٌ منهم ، ولن يتحوَّل بإذن الله . وإجماعُ هؤلاء الرجال هو إجماع أمم المغرب كلها ، شعوبًا وأفرادًا . وهؤلاء الرجال هم الذين شرَّدتهم فرنسا أو إسبانيا وَسجنتهم ونفتهمْ واضطهدتهم ، وباعدَت بينهم وبين أهليهم وحلائلهم وأبنائهم ، وأرادت أن تقصم أعوادهم فلم تجد إلا بأسًا ومضاءً ومصابرة وجهادًا فى سبيل الحق الأول لكل شعب وهو الحرية والاستقلال . وهؤلاء الرجال هم الذين بقوا إلى اليوم لا ينخدعون بما انخدعت به أمم من قبلهم من مفاوضات ومعاهدات ومحادثات ، وسياسات خربة خراب ذمم اليهود . ومن هؤلاء الرجال وحدهم يؤخذ حديث ما بين فرنسا والمغرب ، وعلى هؤلاء الرجال وحدهم يعتمد ، وإلى هؤلاء الرجال وحدهم تُلْقِى شعوب تونس والجزائر ومراكش بالمقادة ، بعد أن جرَّبتهم وعرَفتهم واطمأن قلبها إليهم وإلى ما يأتون وما يذرون . وهم قوم لا يفتات عليهم ، ولا يقضى على شعوبهم وهم غُيَّب . وهم رجال يعملون ولا يدَّعون ولا يتظاهرون ،ولا يخادعون الناس بشىء لم يكن ، أو بسلطان لهم لم ترضه بلادهم وشعوبهم ، وهم قائمون على الدعوة إلى تحرير بلادهم ، ولهم مكاتب فى مصر والشام ، وفى فرنسا وإنجلترا وأمريكا ، لم تزل تتكلم بالكلمة الواحدة التى لا حِوَلَ عنها وهى : « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » .

فما هو إذن « حزبُ الشورى والاستقلال » الذى اتخذ لنفسه رئاسته محمد ابن الحسن الوزانى هداه الله ، واحتمل ثقل النيابة عنه محمد العلمى العربى سدَّد الله خطاه ، إنه حزب كما تسمى الأحزاب ، ولكنى أعلم ويعلم كل من وقف

على حقيقة النبأ فى بلاد المغرب ، أنه حزب لا يتبعه من شعب مرّاكش أحد إلا من شذ عن إجماع أمة قد جاهدت منذ سنة ١٩١٢ وظلت تقاتل فرنسا وإسبانيا إلى سنة ١٩٣٣ ، لم تضع السلاح إلا بعد أن فنيت صفوة المجاهدين ، وقلَّ الزاد وعزَّ السلاح وحوصروا حصارًا شديدًا أكثر من إحدى وعشرين سنة كاملة .

وما أظن أحدًا نسى جهاد البطل الذى أذلَّ هامات الإسبان والفرنسيس حتى خدعوه وأمّنوه ثم غدروا به ، وهو الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى .

إن هذا الحزب الذى قدَّم إلى المقيم الفرنسى الباغى الجنرال جوان « مذكرة ضافية لتعمل حكومة باريس على تحقيق ما ورد فيها بما يحفظ حسن العلاقات مع فرنسا » لا يعبر البتة عن عزيمة شعب مراكش ، بل يعبر عن رأى رئيس الحزب ونائبه وحدهما . فنحنُ نعلم علم اليقين أن حزب الاستقلال ، وحزب الإصلاح فى مراكش ، هما صاحبا الرأى الأول والأخير فى هذا الأمر الذى يتعلق بإجماع الشعب المراكشى ، وأن الأمة المراكشية كلها من وراء كلمتها : « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » ، ونحن نعلم أن جلالة محمد الخامس ملك مراكش يعلم أن الشعب مجمع على أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال ، وأنه هو نفسه الذى يتولى قيادة الدعوة إلى أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال .

وقد استطاع نائب حزب الشورى هذا ، أعنى الأستاذ العلمى أن يوجه نظر الصحافة المصرية إلى هذه البدعة التى مضت عليها شهور منذ قام محمد بن الحسن الوزانى داعيًا إلى الاتفاق مع فرنسا أو على الأصح مظهرًا رغبته فى الاتفاق مع فرنسا ، بعد ابتعاده عن حزبه الذى نشأ فيه ، وهو حزبُ الاستقلال الذى يرأسه محمد علال الفاسى . وقد نجح الأستاذ العلمى مرتين ، ولكن هذه الأخيرة هى أشدهما خطرًا . ولو علمت الصحافة المصرية أن شأن حزب الشورى الذى ذكرناه ، لا يكاد يكون شيئًا فى بلاد مراكش ، لطوت هذه الصحيفة مرة واحدة ، ولرجعت حديثها عن شأن مراكش إلى رؤساء حزب الاستقلال وحزب الإصلاح وسائر الأحزاب المغربية فى تونس والجزائر ، ولو فعلت لعلمت أن هذه « المحاولة الجديدة » ليست سوى محاولة رجل زعيم حزب ، نعم ، ولكن بغير شعب .

وكان حقًّا على هذه الصحف المصرية أن ترجع إلى مكتب المغرب العربى لتقف منه على حقيقة ما تقول . وكان حقًّا عليها أن تعتبر هذا الحزب بأشباهه عندنا من الأحزاب التى لا شعب لها إلا رئيسها ، وكان حقًّا على هذه الصحف أن تعرف أن سائر رؤساء أحزاب المغرب مقيمون فى مصر منفيون عن بلادهم فكان لزامًا أن ترجع إليهم قبل أن تنشر أشياء تمزق أصحاب الحق على أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال . وكان حقًّا عليها أيضًا ، إذ نسيت أن تفعل هذا ، أن تفكر فى شأن حزب الشورى المفاوض الجديد ، فهو مقيم تحت ظل السلطان الفرنسى هناك فى مراكش ، وهؤلاء سائر رؤساء الأحزاب المغربية مشردون منفيون مهاجرون إلى مصر ، لكى يخدموا بلادهم ويجاهدوا فى سبيلها وهم بنجوة من سلطان فرنسا فأى هذين أولى بأن يكون هو المطالب بحق بلاده ؟ وأيهما أولى بأن يؤذن له ويُستمع ؟ وأيهما أصدق تعبيرًا عن رغبة الشعب الذى ظل إحدى وعشرين سنة يقاتل فى كل بقعة من بقاع المغرب وحيدًا مجهولا حتى تفانى شيوخه وهلك كهوله وذُبِحوا ذَبْحَ فتيانه ، وورَّثوا أبناءهم أحقادًا لا تموت على فرنسا وعلى الطغاة من أشباهها .

وهؤلاء الزعماء الذين ذكرناهم آنفًا هم بقية السيف ، وهم المشردون المعذبون ، وهم العاملون الصادقون الذين آثروا الجهاد على أموالهم وأنفسهم وأهليهم وذراريهم ، وخرجوا يطوفون فى الدنيا ليؤلبوا العالم كله على بغى فرنسا وطغيانها وعدوانها وظلمها ، وقد تركوا وراءهم شعوبًا تدين لهم بالطاعة ، ولا ترضى أن تدين لأحد سواهم ، لأنهم إنما يعبرون عن سر عزائمها ونياتها ، أى عن الجهاد فى سبيل بلادهم بلا هوادة ، وإلى أن ينالوا حقهم كاملا لم تتخوَّنه [١] مكايد الاستعمار وخُدعه . وقد اتعظ هؤلاء الأبطال الصناديد بما لقى بعض إخوانهم من أمم الشرق ، حين زلقَت أقدامهم فزلوا فى المهاوى المظلمة المتشعبة التى تسل القوى من نفس سالكها ، ألا وهى هوّة المفاوضات والمعاهدات والمحادثات ، التى ابتدعتها شياطين الاستعمار الذين يعرفون باسم ساسة بريطانيا ، ففرقوا بين الأخوين ، وباعدوا بين العشيرتين ، ومدوا المطامع لخائنة الأعين ، [٢]

---

(١) تخوّنه : تنقَّصه .　　(٢) خائنة الأَعْيُنِ : ما تُسارِق من النظر إلى ما لا يَحِلّ .

فهب فريق من هنا يقاتل فريقًا من أهله هناك ، ووقفت بريطانيا بينهما تنظر وتضحك وتسخر ، وتحرك هذه الدمى إلى أن تنقطع الحبال فتهوى فى الهوة السحيقة الملعونة ، هوّة المفاوضات والمعاهدات والمحادثات . لقد عرفوا ذلك فأبوا أن يكونوا طعامًا لمستعمر جبّار يريد أن يتلعّب بهم ، فاختاروا ما هو أهدى لأممهم وأبقى فى وحدتها ، وأشد لقوتها ، وأنأى بها عن العداوات بين بعض الشعب وبعض . لقد عرفوا أن قيادة الثُّوار ، تقضى عليهم أن ينظروا إلى خير هؤلاء الثُّوّار قبل أن ينظروا إلى خير أنفسهم ، وعرفوا أن الذى هم مقدمون عليه هو الجهاد الذى لا ينتهى حتى ينتهى هذا الاستعمار البغيض ، وأن الأمم المجاهدة فى سبيل حقها ينبغى أن تظل مجاهدة حتى تنال حقها ، وأنه ينبغى أن ينشأ الجيل من شباب الأمة بعد الجيل ، وهو يرى أمامه مجاهدين لا يفترون ولا يضعون السلاح ، فذلك أحرى أن يملأ قلب الجيل حميّة وأنفة ورغبة فى بلوغ الكمال فى العلم والمال والسلاح ، حتى يجاهدوا كما جاهد آباؤهم وإخوانهم من قبل . وعرفوا أن المهادنة فى مثل هذا إنما هى مهادنة تورث الشعب ضعفًا ، وتمكن للدساسين والخبثاء أن يتخافتوا بينهم فى الدعوة إلى ما يفت القوى ويضعضع العزائم ، فلا يلبث أن ينفض عن المجاهدين من تخاذل وآثر الراحة على لأواء الجهاد . وعرفوا أيضًا أن الشعب الثائر غير الشعب الذى يتبحبح فى مسارح السلم ، فأولهما ينبغى أن يظل ثائرًا لا يعرف اللين أو التسليم أو الأخذ بيد والإعطاء بالأخرى . وفيم يلين أو يسلم أو يأخذ بيد ويعطى بأخرى ؟ أفى الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ؟ أنبئونى أى شيء من هذه الثلاثة يتجزَّأ حتى يقبل اللين أو التسليم أو الأخذ بيد والإعطاء بأخرى ، وهو جوهر المفاوضات والمعاهدات والمحادثات .

لقد عرف هؤلاء النفر الذين رضى الله عنهم ورضيت عنهم أممهم ، أن الذى بينهم وبين فرنسا هو الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ، فعلى فرنسا أن تسلم وأن تلين وأن تعطى بيد ولا تأخذ شيئًا ، لأنها لن تأخذ إذا أخذت إلا ذلك الذى أعطت . وهذا بداهة العقل ، وبداهة النفس الطيبة ، وبداهة الفطرة الإنسانية التى لا تنخدع بزيف الكلام ومزوَّقه . إما الحرية والاستقلال ، وإما الصراع فى سبيل الحرية والاستقلال ، ولا مفاوضة على شيء ينبغى أن يتم جميعًا أو لا يتم البتة على

نقصان وتخوُّن وتمزيق ، ولا معاهدة لحرّ على ترك شيء من حريته لغاصبه وسالبه والمهيمن عليه بالطغيان والجبروت ، فهو إن شاء منع وإن شاء أعطى .

كلا ، إنه الحق فلا معاهدة ولا مفاوضة ولا محادثة إلا بعد الاستقلال وجلاء آخر جندى فرنسي وإسبانى عن أرض المغرب كله : تونس والجزائر ومراكش . وإن فى البلاء الذى ابتليت به مصر والسودان والعراق وشرق الأردن وسواها من البلاد ، لعظة لكل امرئ أضاء فى قلبه الإيمان بالحرية والكرامة الإنسانية .

وما الذى يريده حزب الشورى الجديد فى مراكش ؟ أيريد أن تلقى بلاد المغرب على يده ما لقينا من بلبلة وضياع وهلاك وضعف ؟ أيريد أن يرى الشعب المراكشى أحزابًا يأكل بعضها بعضا ، ويتشاحن ضعيفها وقويها على مناصب الحكم ؟ أيريد أن يرى كل أسرة فى بلاد المغرب قد مزقتها الأهواء وعصفت بها عواصف الشهوات الخفية إلى متاع قليل من متاع هذه الدنيا من مال أو سلطان ؟ أيريد أن يرى الشعب يتلهف تلهف البائس المسكين على فتات ما تجود به عليه فرنسا فى معاهدة يقال له اليوم إنها « معاهدة الشرف والاستقلال » ثم يقال له بعد غد إن هذه المعاهدة نفسها « حماية بالثلث » ؟ أيريد أن يرى بعد قليل شباب بلاده وهم يتطاحنون على أسماء رجال لو انكشف الغطاء عنهم لكانوا سوأة فى كيان الشعب لو عقل لسترها كما كان يئد أهل الجاهلية بناتهم خشية الخزى والعار ؟ أم يريد أن يرى هؤلاء الشباب وهم لا يثقون بأحد من رجالهم بعد كشف الغطاء عن فضائحهم ، فيكونون حربًا على بلادهم يطعنون أنفسهم كل طعنة نجلاء بقولهم : « إننا شعب لا يصلح للاستقلال » ؟ أيريد هذا الشعب الذى لقيته أمم من قبلهم فاوضت وحادثت وعاهدت ، فخرجت من ذلك كله منهوكة مجرحة معذبة تمتهن أشرف شرفها بأخس قول وأرذله ؟ ..

حاشا لله أن يريد حزب الشورى لبلاده مثل هذا . وأنا أعرف الوزّانى منذ أكثر من عشرين سنة ، فأنا أسأله بالعهد الوثيق أن يفيء إلى ما فيه مرضاة الله ، وما فيه خير بلاده وخير أمته ، وأن يدع فرنسا بشرِّ النظرين [1] ، لا يقربها إلا

---

(١) بشر النَّظَرَيْن : أى بشر الأمرين فى الاختيار . وفى الحديث « مَن ابتاع مُصَرَّاة فهو بخير النَّظَرَيْن » ، أى خير الأمرين له ، إما إمساك المبيع أو ردُّه ، أيهما كان خيرا له واختاره فَعَله .

مقاتلا مجاهدًا رافعًا باسم بلاده وحريتها واستقلالها وكرامتها . وماخُلق الإنسان إلا للجهاد فى هذه الحياة حرًا كريمًا ، فإذا سلب الحرية وذيد عن الكرامة ، فعليه أن يجاهد فى سبيلهما جهادًا متطاولًا هو وأبناؤه وذراريه لا تداخلهم سآمة ولا ضجر ولا ملل مستعينًا بالله الذى ينصر المستضعفين في الأرض وينصر الذين لم يملوا الجهاد فيلجأوا إلى المهادنة أو المفاوضة .

أيها الإخوان الصناديد ! جاهدوا وصابروا ورابطوا ولا تملوا حتى يأتيكم نصر الله ، ولا تعجلوا على ربكم فإن الله لا يمل حتى تملوا ، فإذا مللتم فيومئذ يحيق بكم ما حاق بكل من هادن فى حقوق بلاده .

* * *

كلمة أخرى

قرأت كلمة الأستاذ محمد العربى العلمى فى عدد الرسالة (٧٥٩) يردّ على ما كتبته فى قضية الاستقلال الذى تطالب به بلاد المغرب ، ومن حق الأستاذ أن يردَّ ، ومن حقه أن يعلمنى ما أجهل ، ومن حقه أن يرشدنى إلى وجه الصواب فيما زعمت أو رأيت ، كلّ هذا من حقه ، ولكن ليس من حقه أن يخرج الكلام عن جادّته ، أو أن يستنبط منه أشياء ليست فيه كقوله إنى عرضت للوطنيين من أهل المغرب « فاتهمت زعماءهم وأهل الرأى فيهم بالسفه والغفلة والتخاذل والتهاون فى حقوق البلاد أو ما يشبه ذلك من أنواع التهم » . فهذا شىء مردُّه إلى ما كتبتُ لا إلى ما يقول به الأستاذ العلمى . والسفه والغفلة وما يشبه ذلك من أنواع التهم !! كلمات كبيرة لا يحلّ للأستاذ أن يدّعى أنى أردتها بغير برهان من نص كلامى الذى كتبته .

ثم كرر الأستاذ العلمى أن الذى جاء فى كلمتى إنما هى أشياء أُلقيت إلىّ فحكيتها بلا تحقيق ولا روية ، أو ألقيت إلىّ فاعتقدتها كل الحقّ وأغفلت ما وراءها . وأظن أيضًا أن هذا شىء غير لائق به أن يقوله ، فضلا عن أن يكتبه . ولم أكن أظن أن الأستاذ العلمى يجترئ على أن يصفنى بأنى أُذُن تصرفه عن الحق صداقة صديق أو عداوة عدو ، ولكنه فعل ، فلا أقل من أن أجزيه بالصفح عنه إكرامًا لصديقى الأستاذ محمد بن الحسن الوَزّانى ، فهو رسوله وسفيره والنائب عنه .

ثم رأيت الأستاذ أكرمه الله يزعم أنى بما كتبت إنما كنت أحاول أن أحدث فى الائتلاف الوطنى المغربى « ثلمة » وأن ألقى حوله « بذرة من بذور الشقاق » . وهذا شىء كثير ، ولكنى أعود فأصفح عن الأستاذ ، لا لشىء إلا لأنى أترك الحكم فى هذا الأمر لمن يقرأ فيفهم ، وما أظن أحدًا ممن يطلع على ما كتبت يستطيع أن يقول إنى « حاولت » هذا الذى زعمه الأستاذ .

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٠) ، يناير ١٩٤٨ ، ص : ١٠٣ - ١٠٥

ثم رأيت الأستاذ يقول : « ولعلى لا أكون فضوليًا إن زعمت أن الذين ذكرهم الأستاذ شاكر من زعماء تونس والجزائر ليسوا معه على الرأى الذى نسب إليهم » ، وأنا لم أنسب إليهم شيئًا قالوه إلا قولهم « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » ، وليس يهمنى أن يكون الأستاذ العلمى فضوليًا أو غير فضولي ، ولكن الذى يهمنى ويهمّ قراء الرسالة وسائر العرب والمسلمين هو أن الذى حكيت عن زعماء تونس والجزائر صحيح قد اتفقوا عليه وقيدوه بالكتابة كما جاء فى بيان سُمُوّ الأمير الجليل محمد بن عبد الكريم الخطابى الذى نشره فى صحيفة الأهرام . وقد جاء فيه أن الأمير أعزّه الله خابر جميع « رؤساء الأحزاب المغربية ومندوبيها » فاتفق رأيهم على تكوين « لجنة تحرير المغرب العربى » من كافة الأحزاب الاستقلالية فى كل من تونس والجزائر ومراكش على أساس مبادئ الميثاق التالى : ثم جاء فى نص هذا الميثاق « د - لا غاية يسعى لها قبل الاستقلال - هـ - لا مفاوضة مع المستعمر فى الجزئيات ضمن النظام الحاضر - و - لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال » . وقد وقع هذا الميثاق جميع من ذكرتهم فى كلمتى ومن لم أذكرهم من رجال الأحزاب المغربية فى تونس والجزائر ومراكش ، ومن بينهم الأستاذ محمد العربى العلمى ، والأستاذ الناصر الكتانى نيابة عن حزب الشورى والاستقلال .

والعجيب الذى لا يقضى منه عجب هو أمر الأستاذ العلمى ، فقد كتبت كلمتى للرسالة بعد أن قرأت فى الأهرام (الاثنين ٥ يناير ١٩٤٨) تحت عنوان « محاولة جديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب » ، وقد جاء فى هذا النبأ ما نصه : « ويقول الحزب فى مذكرته إنه يعتزم تحقيق المطالب الوطنية وهى استقلال البلاد - فى نطاق وحدته الجغرافية والسياسية ، وفى دائرة ملكية دستورية - من طريق المفاوضات ، والاتجاه بالمغرب فى مرحلة انتقال تسمح له بأن ينظم شئونه تنظيمًا حرًّا وبأسرع الطرق إلى تحقيق سيادته التامة واستقلاله المضمونين بمعاهدة تحالف وصداقة تبرم فى ظل الحرية والمساواة بين المتحالفين . ويمكن تهيئة الجو السياسى الملائم لتحقيق ما تقدم ، بأن يعلن رسميًا باسم فرنسا حق الشعب المغربى فى تدبير شئونه فى وقت قريب ، وبأن تعتبر مصالح المغاربة ذات أسبقية فى بلادهم ، مع الصيانة التامة لسيادة البلاد واستقلالها الوطنى » .

هذا ما جاء فى المذكرة التى قدمها حزب الشورى والاستقلال إلى الجنرال جوان المقيم الفرنسى ، وهو صريح فى النص على تحقيق « استقلال البلاد من طريق المفاوضات » ، وهذا هو الذى دفعنى إلى كتابة ما كتبت عن حزب الشورى والاستقلال ، وهو الذى دفعنى إلى أن أتوسل إلى الصديق محمد بن الحسن الوزانى « أن يفئ إلى ما فيه مرضاة الله ، وما فيه خير بلاده وخير أمته ، وأن يدع فرنسا بشرّ النظرين ، لا يقربها إلا مقاتلا مجاهدًا رافعًا باسم بلاده وحريتها وكرامتها واستقلالها » ، كما جاء فى آخر كلامى . وقد تحدث الأستاذ العلمى إلى مندوب الأهرام بما يطابق هذا المبدأ ، بيد أنى رأيته فى اليوم الثانى يوقع على ميثاق لجنة التحرير الذى ينص نصًا صريحًا على أنه لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال . فهذا تناقض بين لا ينقضى منه العجب ، كما لا ينقضى عجب القارئ حين يقرأ كلمته فى الرد علىَّ فيراه يقول إنى أزعم « أن زعماء تونس والجزائر فى القاهرة يرون رأى علال الفاسى فى القعود وعدم المفاوضة » ، ثم قوله إنه يؤكد لى « أن فكرة لا مفاوضة هذه إنما نشأت منذ قريب لا أجد داعيًا لاشتغال قراء الرسالة بها » ، ومعنى ذلك أنه يرى أن عدم المفاوضة قعود عن الجهاد ، وأن كلمة « لا مفاوضة » كلمة مستحدثة لا عهد لحزب الاستقلال ولا لحزب الشورى والاستقلال بها ، ثم يختم مقاله بأن يؤكد لى بأنه « لن يدخل فى أية مفاوضات إلا بعد إعلان الاستقلال » !! فهذا تناقض مُرٌّ شديد المرارة .

وأنا لا أكتب هذا لأرد على الأستاذ العلمى ، فإن هذا التناقض العجيب المر الشديد المرارة ، جعلنى أرى أن لا فائدة من الرد ، ولكنى آثرت أن أعرض على القراء شيئًا كنت أخشى أن يفوتهم الاطلاع عليه ، وهم فى حاجة إلى الاطلاع على مثله .

وأما ما جاء فى كلامه من ذكر فلان وفلان من رجال المغرب ، فلست أنبرى ، ولا يحق لى أن أنبرى ، للدفاع عنه ، لأنى كما قال الأستاذ : « غير متفطن إلى أنى أتحدث عن بلاد لم أرها ، وليس لى من أسباب العلم بها وبأهلها إلا القليل أو ما دون القليل ! » .

بقى شيء واحد يشق على مثلى أن يرضى عنه ، وهو إقحام الأستاذ لأسد الريف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى فى معرض هذا التناقض المر الشديد المرارة . فهذا البطل الذى نشأنا منذ الصغر ونحن نمجد اسمه ، ونسمو بأبصارنا إليه ، ونحوطه بقلوبنا وإيماننا ، ونجعله المثل الأعلى للعربى الأبى الذى لا يقبل ضيمًا ولا يقيم على هوان ، هو نفسه الذى علمنا بفعله لا بلسانه أنه « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » . فقد هبّ أسد الريف وانطلق يجاهد بالسيف ، وأبى أن يسلم للفرنسيس والإسبان شيئًا إلا سيفه بعد أن تقطعت أسباب الجهاد بالسيف ، وأعرض عن كل مهادنة بينه وبين الفرنسيس والإسبان ، واحتمل بلاء النفى والتعذيب صابرًا راضيًا مستعينًا بالله على أعدائه . أفلم يكن مما يرضى الفرنسيس والإسبان أن يهادنهم هذا الأسد ويفاوضهم ويأخذ منهم شيئًا ويسكت عن أشياء ؟ بلى ، لقد كان يرضيهم ولا شك ، ولكنه لم يفعل ، فمعنى ذلك كما فهمناه وكما فهمه الناس هو أن أسد الريف يرى رأيًا واحدًا هو أن « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » ، ولذلك احتمل ما احتمل ، وصبر صبر المؤمنين الذين لا يفتنهم عن الحق عذاب ولا نفى ولا تشريد . وإذا لم يكن الأستاذ العلمى قد فهم هذا من بطولة أسد الريف ، فليحدثنا إذن ماذا فهم ؟ وفيم كان صبر أسد الريف وبطل العرب على البلاء الغليظ عمرًا طويلا تحيا فيه رجال وتموت رجال ؟ وفيم كان جهاده وقتاله واحتماله رؤية أبنائه وهم يسقطون فى ميدان الوغى بين يديه ؟ أفعل كل ذلك ليفاوض ، فيأخذ شيئًا ويغضى عن أشياء ؟ حاشا لله .

أما الأستاذ محمد بن الحسن الوزانى ، فأنا لم أرده بإساءة كما أراد الأستاذ العلمى أن يقول ، بل كان كل كلامى منصبًا على المبدأ الذى جاء فى المذكرة المرفوعة إلى المقيم الفرنسى الجنرال جوان ، وهو مبدأ المفاوضة فى الاستقلال ، وهو مبدأ فاسد لن يسكت قلمى عن هدمه وتقويضه ، ولو قال به أعز الناس على وأكرمهم فى قلبى ، وهو عندى مذهب أقلية ، ولو قالت به أمة بأسرها . وسأبقى ما حييت أدعو الأمم التى ابتليت بالاستعمار إلى مبدأ واحد هو أن « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » ، فهو عندى مذهب أكثرية ، ولو لم يقل به إلا فرد واحد طريد شريد لا يجد فى الأرض مكانًا يؤويه ، أو عشيرة تنصره ، أو أذنا تسمعه . وكل حزب يدعو إلى المفاوضة ، فهو عندى حزب بغير شعب ولو تبعته الجماهير

المضللة ، وكل زعيم يدعو إليها فهو زعيم بغير شعب ، وإن استطاع أن يجمع الألوف تصرخ من ورائه مؤيدة وناصرة ، وقد كتبت هذا مرات فى قضية مصر والسودان ، وفى قضية العراق ، وفى قضية الهند . فكل ما جاء فى كلامى عن حزب الشورى والاستقلال ، فهو مبنى على هذا الأصل ، وأظن أن الأستاذ الوَزَّانى يعرف هذا مما قرأه من كلامى منذ قديم ، وأظن أنه فهم من كلامى عنه غير الذى فهم الأستاذ العلمى ، وأظن أنه لم يغضب حين قرأ ما كتبت مثل الغضب الذى احتمل الأستاذ العلمى حتى كتب ما كتب ، مما كان ينبغى أن ينزه عنه قلمه البليغ الجرىء .

وأنا أختم هذه الكلمة بأن أدعو صديقى محمد بن الحسن الوَزَّانى إلى صراط الحق ، إلى أن « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » ، وأتوسل إليه مرة أخرى أن ينسى نفسه ، وأن يملأ قلبه إيمانًا بالحق الأعظم ، وهو حق شعبه وبلاده فى الاستقلال والحرية والكرامة ، ذلك الحق الذى لا يتجزأ ولا يقبل مفاوضة ولا مهادنة ، وأدعوه إلى الجهاد الشديد فى سبيل هذا الحق الذى لا تستطيع فرنسا ولا إسبانيا ولا بريطانيا ولا الدنيا كلها مجتمعة أن تمحو منه شيئًا أو تغير منه قليلا أو كثيرًا .

أيها الزعماء كونوا يدًا واحدة ، ولتكن دعوتكم واحدة ، واصبروا فى جهادكم ، ولا تفاوضوا عدوكم فى حق شعوبكم ، ولا تخاذلوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا فتذهب ريحكم ، واعلموا أن المفاوضة ليست سوى ملل من طول الجهاد ومشقته ، وأن الملل من كواذب الأخلاق ، وأن الزعيم لا يكون زعيما إلا بأخلاقه ، وقوام أخلاقه الصدق فى كل شىء – فى العداوة والصداقة ، وفى الحب والبغض ، وفى الرضى والغضب . سدد الله خطاكم ، ومهد لكم سبيل الهدى ، وطهر قلوبكم من كل كذب لا خير فيه .

* * *

١ – الفتنة الكبرى

بادرت إلى قراءة كتاب « الفتنة الكبرى » الذى صنفه الدكتور طه حسين ، لأنه أول كتاب له عن رجل من رجال الصدر الأول من الإسلام ، وهو « عثمان بن عفان » أمير المؤمنين وخليفة رسول الله ﷺ ، وأنا أعرف للدكتور مكانه من العلم والتحقيق ، وحسن تأتيه فى تخريج الكلام ؛ فمن أجل ذلك أيقنت أنه سيملأ هذا الكتاب علمًا يضارع قدر هذا الرجل ، ويوازن خطر الفتنة التى اضطرم سعيرها فى آخر خلافته ، وانتهى باغتيال خليفة رسول الله اغتيالا لم يعرف تاريخ الإسلام أبشع منه ولا أفظع . وقلت لنفسى قبل أن أتجاوز الكلمة الأولى من الكتاب : إن طه خير من يصور للناس هذه الأحداث المختلطة المضطربة ، وخير من يهديهم فى شعابها إلى مفصل الرأى ومقطع البيان . وقديمًا ما ضل الناس فى بيداء هذه الفتنة المظلمة ، وقديمًا ما أخطأ الكتاب فهم هذا الحادث الجلل ، وقديمًا ما حار الناس فى أمر المسلمين الذين ذبحوا خليفتهم كما تذبح الشاة المظلومة ، وقديمًا وحديثًا ما خاض الناس ، فما خاضوا إلا مضلة لا يهتدى فيها سار إلى علم يفضى إلى جادة واضحة أو إلى غاية معروفة .

رميت بنفسى وعقلى فى هذا الكتاب ، وأنا على مثل هذه الثقة التى وصفت ، وبمثل هذا الأمل الذى أملت ، فما كدت أفرغ حتى رأيت الكتاب كله يختلج بين يدى . ولست أحب أن يعرف القارئ لم اختلج الكتاب . فهذا حديث طويل لو بدأت أقصه لما عرفت أين أنتهى ، فأنا طاويه عنه ؛ لأنى أوثر أن أدع قلبه حيث هو من الاستقرار والأمن والرضى ، وأنا أفعل هذا وإن شاء هو أن أنشر هذا الذى طويت ، وأفعله وإن كره لنفسه هذا الاستقرار والأمن والرضى . وحسب القارئ أن ينظر معى إلى موضعين فى هذا الكتاب ، لم ينقض عجبى منهما ولن ينقضى عجبه حين يقف على خبرهما .

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦١) ، فبراير ١٩٤٨ ، ص : ١٣٤ – ١٣٨

وأسبق القلم فأزعم أنى أسلم جدلا ، كما يقولون ، بأن كل الذى أتى به الدكتور طه صحيح فى جملته وتفصيله ، وأن الصورة التى أراد أن يصور بها تاريخ عثمان رضى الله عنه وتاريخ أصحابه ومعاصريه صحيحة أيضًا فى جملتها وتفصيلها ، وأزعم فوق ذلك أنى لا أخالفه فى شىء منها خلافًا ما ، وأنى لو كتبت تاريخ عثمان ، وتاريخ الفتنة ، لم أقل إلا بما قال إذ ذكر هذه الفتنة الخبيثة فقال ص ١٠٩ « فالفتنة إذن إنما كانت عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء » . وأنت خليق أن تنظر فى هذا التكرار لهذه الصفة « فتنة عربية » و « عامة عربية » لتعلم ماذا يريد بهذا التكرار ، وما الذى يريد أن ينفيه من شركة أحد غير العرب فى دم عثمان ، وأنت خليق وحرى وجدير بأن تفعل هذا وأن تتأمل فتطيل التأمل ؛ لأنك سوف تلقى بعد قليل شيئا جديدًا كل الجدة ، وحسنًا كل الحسن ؛ فما تكاد تمضى صفحات حتى ترى بابًا فى ص ١٣١ يبدأ هكذا :

« وهناك قصة أكبر الرواة (المتأخرون) من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدرًا لما كان من الاختلاف على عثمان ، ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة المسلمين لم تمح آثارها بعد ، وهى قصة عبد الله ابن سبأ الذى يعرف بابن السوداء . قال الرواة : كان عبد الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء ، حبشى الأم ، فأسلم فى أيام عثمان ، ثم جعل يتنقل فى الأمصار يكيد للخليفة ويغرى به ويحرض عليه ، ويذيع فى الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم فى الدين والسياسة جميعًا » . ثم يقول : « وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف فى البلاد الإسلامية أيام عثمان ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحكامًا ، فنظم فى الأمصار جماعات خفية تستتر بالكيد ، وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة ، حتى إذا تهيأت لها الأمور ، وثبت على الخليفة فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور منذ قليل على أن يصف الفتنة بأنها « عربية » ، وبأن العامة الذين كانوا شرار هذه الفتنة كانوا « عامة عربية » أى أنه

ليس لهذا اليهودى الخبيث عبد الله بن سبأ يد فيها ، وأن ليس لليهود عمل فى تأريث نارها . وهذا تخريج بين جدًا ، لا يخالفنا فيه أحد ولا الدكتور طه نفسه فيما نعلم . ثم يمضى الدكتور فى حديثه ليقول بعقب ذلك : « ويخيل إلىّ أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافًا شديدًا . وأوّل ما نلاحظه أنا لا نجد لابن سبأ ذكرًا فى (المصادر المهمة) التى قصت أمر الخلاف على عثمان ، فلم يذكره ابن سعد حين قص ما كان من خلافة عثمان وانتقاض الناس عليه . ولم يذكره البلاذرى فى أنساب الأشراف ، وهو فيما أرى (أهم المصادر) لهذه القصة وأكثرها تفصيلا . وذكره الطبرى عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » . وأُرانى مضطرا أن أنقل لك أيضًا ما قاله الدكتور بعد ذلك فى ترجيح رأيه وبيان حجته قال :

« ولست أدرى أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن ؟ ولكنى أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان المسلمون فى عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ... ولو قد أخذ عبد الله بن عامر أو معاوية هذا الطارئ الذى كان يهوديًّا فلم يسلم إلا كائدًا للمسلمين ، لكتب أحدهما أو كلاهما فيه إلى عثمان ، ولبطش به أحدهما أو كلاهما . ولو قد أخذه عبد الله بن سعد بن أبى سرح لما أعفاه من العقوبة التى كاد ينزلها بالمحمدين (محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى حذيفة) لولا خوفه من عثمان ... ولم يكن أيسر من أن يتتبع الولاة هذا الطارئ ، ومن أن يأخذوه ويعاقبوه » ثم يقول فى ص ١٣٤ : « فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط . ولنكبر المسلمين فى صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء ، وكان أبوه يهوديًّا وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهوديًّا ثم أسلم لا رغبًا ولا رهبًا ولكن مكرًا وكيدًا وخداعًا ، ثم أتيح له من النجح ما كان يبتغى ، فحرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه » . ثم يقول : « هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغى أن تقام عليها أمور التاريخ » . هكذا يقطع الدكتور الرأى جملة واحدة !!

هذا هو الموضع الأول ، أما الموضع الثانى فهو أشد الأشياء علاقة بهذا ، ولكن الدكتور قطعه عنه قطعًا كريمًا فترك صفحة ١٣٤ ومضى على وجهه فى هذا البحث الجليل إلى أن بلغ ص ٢٠٩ لكى يقول : « وهنا تأتى قصة الكتاب الذى يقول الرواة إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر ، فكروا راجعين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها » ، ثم اختصر قصة الكتاب اختصارًا وقال : « كل هذا أشبه بأن يكون ملهاة سخيفة منه بأن يكون شيئًا قد وقع . والأمر أيسر من هذا . تلقى أهل الأمصار وعدًا من إمامهم فاطمئنوا إليه ، ثم تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ! فأقبلوا ثائرين يريدون أن يفرغوا من هذا الأمر وأن لا يعودوا إليه حتى يفرغوا » . ثم تبين للدكتور أن إلغاء هذا الكتاب الذى أرسل إلى والى مصر يأمره بقتل رؤوس الوفد الذى جاء من مصر ، ليس يحل الإشكال فى عودة الوفد بعد أن فصل عن المدينة راجعًا إلى مصر ، وتبين له أيضًا أن الغرض الذى ذهب إليه من أنّ أهل الأمصار تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ، أى أنه كذب عليهم باللفظ الصريح ، شىء غير مستساغ ، فإنه سأل نفسه كيف تبينوا أنه كذب عليهم فلم يعرف كيف يجيب ، فألقى الغرض كما هو وزاد عليه أنهم أقبلوا ثائرين ، « فلما بلغوا المدينة وجدوا أصحاب رسول الله قد تهيأوا لقتالهم ، فكرهوا هذا القتال وانصرفوا كائدين ، حتى إذا عرفوا أن هؤلاء الشيوخ قد ألقوا سلاحهم وأمنوا فى دورهم ، كروا راجعين فاحتلوا المدينة بغير قتال » . ولكن رَأْى الدكتور طه ، وهو خير من يرى الآراء ، أن هذا الغرض مدخول كله إذا لم يعزز بغرض آخر ، ففكر وقدر ، ثم نظر ثم قال : « وأكاد أقطع بأن قد كان لهم من أهل المدينة أنفسهم أعوان دعوهم وشجعوهم ، ثم أعلموهم بما عزم عليه أصحاب النبى ، ثم أعلموهم بعودة المدينة إلى الهدوء والدعة ، ثم انضموا إليهم حين حاصروا عثمان » . وهذه كلها كما ترى فروض وتخيل ، وإقرار أيضًا بما أنكره فى أمر عبد الله بن سبأ من تنظيم (الجماعات الخفية) التى تتستر بالكيد ، فهو ينكر هذا المبدأ هناك ويقره هنا !! ثم يمضى الدكتور فى فروض ، فرضًا من بعد فرض ، حتى يريك كيف تعقدت الأمور فجأة إلى أن كان مقتل عثمان ، ولكنه يختصر

ذلك اختصارًا غريبًا عجيبًا لم أعرف له مثيلا فى كل ما كتب الدكتور وفرض وادعى ثم جزم الرأى وقطع به ، مما يعرفه أكثر قراء العربية الذين قرأوا للدكتور منذ أول نشأته فى الكتابة .

ولست أحب أن أقف بك عند شيء إلا عند هذين الموضعين فأنا أكره الإطالة فى تفلية كلام الدكتور ، خشية أن لا أنتهى ، فإن تحت كل حرف مما كتب علمًا كثيرًا لابد من تفليته وغربلته ورده إلى وجوه الحق التى زال عنها إلى سواها ، وأنت ترى أننا اضطررنا اضطرارًا إلى الإطالة بالنقل ، لئلا يفوت عليك شيء من لب حديث الدكتور وعلمه . وقد بدأ الدكتور حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ فذكر أن « الرواة المتأخرين » أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها ، وأنها لم ترد فى (المصادر المهمة) ، وأن (ابن سعد) لم يذكرها وأن البلاذرى لم يذكرها فى أنساب الأشراف (وهو فيما يرى الدكتور أهم المصادر) ، وأن الذى ذكرها هو الطبرى « وأخذه عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » كما يقول الدكتور .

١ - وبدء الدكتور بقوله : « الرواة المتأخرين » فيه إيهام شديد ، متعمد فيما يظهر !! فإن الطبرى ليس من الرواة المتأخرين ، فهو قد ولد سنة ٢٢٥ ومات سنة ٣١٠ ، فهو معاصر (البلاذرى) وفى طبقة تلاميذ (ابن سعد) صاحب الطبقات .

٢ - أن سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبرى والبلاذرى ، وهو فى مرتبة شيوخ (ابن سعد) ، فقد مات فى زمن الرشيد ، أى فيما قبل سنة ١٩٠ من الهجرة . فلا يقال عنه ولا عن الطبرى أنهما من « الرواة المتأخرين » كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه .

٣ - أن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبرى من (المصادر المهمة) ، فليت شعرى ماهى المصادر المهمة التى بين أيدينا ؟

٤ - أن الدكتور طه يعلم أن كتاب ابن سعد الذى بين أيدينا كتاب ناقص ، وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر . والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر فى ٨٤ صفحة ، ولأبى بكر فى ٣٣ صفحة فلما جاء إلى عثمان ، والأحداث فى خلافته هى ما يعلم الدكتور طه ويعلم الناس ، لم يكتب سوى ٢٢ صفحة ، فلما ذكر على بن أبى طالب والأمر فى زمنه أفدح لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة . هذا على أن فى الكلام على طريق ابن سعد فى تراجم الرجال شيء آخر غير كتابة التاريخ ، فإنه لم يذكر فى هذا الفصل إلا قليلا جدًّا مما ينبغى أن يكتب لو أنه ألف كتابه فى التاريخ العام لا فى الترجمة للرجال . وهذا شيء يعلمه الدكتور طه حق العلم ولا ريب .

٥ - أنه كان من حجة الدكتور فى نفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين أن البلاذرى لم يذكره ، وهو فيما يرى (أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا) : ثم عاد فنفى أيضًا خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره . ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبرًا ما حجة فى نفيه ، ثم ينفى أيضًا خبرًا آخر قد ذكره ولج فيه ؟

وهذه الخمسة أشياء كنت أستحى أن أحدث الدكتور بها أو أناقشه فيها ؛ لأنها من الوضوح والجلاء بحيث لا تخفى على رجل مثله خراج ولاج بصير بالعلم أحسن البصر . ولكن بقى شيء واحد أحب أيضًا أن يتاح لى يومًا ما أن أعرفه ، وهو : هل كان فى نص البلاذرى قديمًا ذكر عبد الله بن سبأ اليهودى ثم سقط أو أسقط من الكتاب ؟ وهذا لا يتاح لى إلا إذا وقفت على نسخة قديمة وثيقة من كتاب أنساب الأشراف ، فإن هذه النسخة التى بين أيدينا إنما طبعت فى أورشليم ، وطبعها رجل من طغاة الصهيونية ، وقدم لها مقدمة لم تكتب لا بالعربية ولا بالإنجليزية بل باللغة العبرية ! وليأذن لنا الدكتور أن نشك أكبر الشك فى ذمة هذا اليهودى الصهيونى الذى طبع الكتاب فى مطابع الصهيونية فى أورشليم . فقد رأينا من قبل رجلا آخر حاطه الدكتور طه يومًا ما برعايته وعنايته واستقدمه إلى الجامعة المصرية ، وكان يسمى نفسه « أبا ذؤيب » إسرائيل ولفسون ، (وهو الآن فى فلسطين يجاهد فى سبيل الصهيونية) ، فألف كتابًا فى تاريخ اليهود فى بلاد

العرب ، وطبع فى مصر ، وقدم له الدكتور طه مقدمة أثنى فيها عليه ثناء بالغًا ، ومع ذلك فقد وجدنا فى الذى نقله من الأخبار والأحاديث تحريفًا وبترًا وانقطاعًا من نصوص محفوظة معروفة . أفلا يجوز لنا على الأقل أن نشك فى أن اليهودى الآخر طابع كتاب البلاذرى ، يفعل مثل هذا ؟ إننا على الأقل نشك ونتوقف . هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى ، قد يترك المؤلف فيها شيئًا فى مكان ، ثم يذكره فى مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر فى المكان الأول ، وهذا شيء يعرفه الدكتور كما نعرفه وأحسن مما نعرفه ، أفلا يجوز أن يكون البلاذرى قد ذكره مثلا فى ترجمة (عمار بن ياسر) أو (محمد ابن أبى بكر) أو (محمد بن أبى حذيفة) أو رجل ممن اشترك فى هذه الفتنة ؟ وهو يعلم أن الذى وجد من كتاب البلاذرى قسم ضئيل جدًّا طبع منه جزء فى ألمانيا سنة ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر هو الذى فيه ترجمة عثمان فى سنة ١٩٣٦ ، ثم طبع جزء آخر فى سنة ١٩٣٨ قال الناشر فى مقدمته المكتوبة بالعربية إن هناك حوادث جرت فى عهد يزيد بن معاوية ، هى وقعة كربلاء وموت الحسين « ولم تذكر فى ترجمة يزيد ، بل ذكرهما فى تراجم بنى أبى طالب ، وذلك حسب ما اقتضاه نظام الكتاب وفقًا لتسلسل الأنساب » كما قال بنص كلامه . أفلا يجوز إذن أن يكون البلاذرى قد أدمج أمر عبد الله بن سبأ فى مكان آخر كما فعل فيما لاحظه وذكره هذا اليهودى ؟ كل هذا جائز ، ولكن الدكتور حين يريد أن ينفى شيئًا لا يبالى أن يجتاز كل هذا ويغضى عنه ، ليقول فيه بالرأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف .

ثم كيف نسى الدكتور أن من لم يرو خبرًا ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ؟ بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيلا له ، وهو الذى روى عنه أنه قال لأصحابه : « أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره قال : ثلاثون ألف ورقة . فقالوا : هذا مما تفنى فيه الأعمار قبل تمامه . فاختصره لهم فى ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال لهم : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحوًا مما ذكره فى التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : إنا لله !! ماتت الهمم ! » .

ومن قرأ كتاب الطبرى فى تاريخه أو تفسيره علم أن هذا حق ، وأن الرجل كان فارغًا للعلم لا يلفته عنه شىء قط ، ولا يدع شاردة ولا واردة إلا تقصاها وحققها ورأى فيها الرأى الذى لا يكاد ينقض . والفرق بينه وبين البلاذرى لا يخطئه بصير بهذا العلم فليس من الحجة فى شىء أن يقال (فى عصرنا هذا) : إن البلاذرى لم يذكر هذا ، فيكون ذلك كافيًا فى الرد على ماذكره الطبرى . وهذا شىء بين لا يحتاج إلى جدال كثير .

وإذن فالدكتور قد اشتط وركب مركبًا لا يليق بمثله حين نفى خبر عبد الله ابن سبأ ، وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى قد رأيت من تهافت أسلوبه فى البحث العلمى ؛ وإذن فالدكتور قد خالف سنة العلم والعلماء فى نفى الأخبار وتكذيبها بلا حجة من طريقة أهل التمحيص ، بل تحكم تحكما بلا دليل يسوقه عن فضيلة البلاذرى وتقديمه على الطبرى ، وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب ، وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معًا . وإذن فيحق لنا أن ننقل هنا كلمة للدكتور طه نفسه قالها عندما ذكر أصحاب محمد ﷺ ، وذكر الخلاف الذى كان بينهم ، وذكر أو زعم أنهم تراموا بالكبائر وقاتل بعضهم بعضًا ، وزعم أنه لا ينبغى لنا أن يكون رأينا فيهم أحسن من رأيهم هم فى أنفسهم ، فقال فى ص ١٧٢ من كتابه :

« ينبغى أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الأخبار التى نقلت إلينا ما كان بينهم من (فتنة) واختلاف . فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامى كله منذ بعث النبى ، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن ، هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازى وسيرة النبى والخلفاء . فما ينبغى أن نصدقهم حين يروون ما يروقنا ، وأن نكذبهم حين يروون ما لا يعجبنا ، وما ينبغى أن نصدق بعض التاريخ ونكذب بعضه الآخر ، لا لشىء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا » .

وهذا حق ، ولكن الدكتور يحتج به فى معرض الطعن فى الصحابة ومعرض القول فى نسبة الأخطاء الماحقة إلى أصحاب محمد ﷺ ، ثم يعود فيسقط هذا

الرأى ، ولا يبالى به ، ويخالفه أشد المخالفة فى معرض رد الرواة الذين رووا لنا خبر الفتنة الخبيثة التى تولى كبرها عبد الله بن سبأ اليهودى . ولماذا يفعل ذلك لا ندرى ، بل الحق أننا ندرى ولكننا نأبى أن نتعجل القارئ بحكم لم نأت فيه بالبينة التى تدفع كل أقوال الدكتور فى قضية هذا اللعين ابن السوداء ، فللقارئ علينا حق لا يحل لنا أن نخونه فيه ، وحقه هو أن يرى حجج الدكتور كلها أولا ، ثم حججنا متابعة ثانيًا ، ثم نعطيه الحكم ليأخذه أو يدعه على هدى وبصيرة .

وموعدنا المقال الآتى بإذن الله .

* * *

٢ - الفتنة الكبرى

وإذن ، فقد أراد الدكتور طه أن يقول إن الفتنة الكبرى التى أفضت إلى قتل عثمان إنما كانت « فتنة عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء » فى ص ١٠٩ فمن أجل تحقيق هذه الكلمة الكبيرة ركب كل مركب فى تصوير الحياة الإسلامية الأولى بعد الفتوح بالصورة التى تنتهى به إلى هذا الغرض وحده دون سواه ، وهو الغنى والمال والسلطان ، وتزاحُم الأغنياء على الغنى والمال والسلطان ، وحسد العامة العربية لأصحاب الغنى والمال والسلطان . وأنا - كما قلت آنفًا - لن أحاول أن أنقض هذه الصورة ، ولن أعمل عملا فى الرد عليها إلا بمقدار ما ينبغى فى سياق التحقيق التاريخى لناحية من نواحى هذه الفتنة . ولكن الدكتور كشف عن هدف آخر حين جاء معرض هذه الفتنة ، فنفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى ، وخبر الكتاب الذى كتب فيه الأمر بقتل رؤوس وفد مصر . وهذا الهدف هو أن ينفى عن اليهود الشركة فى دم عثمان ، والتحريض على قتل الإمام ، فركب مركبًا وعرًا خالف فيه أسلوب العلماء فى جرح الأخبار ، وكذب الرواة فى شىء بغير برهان ، وصدقهم فى شىء آخر بغير برهان أيضًا ، وهو نفسه ينعى فى كتابه على « الذين يكذبون الأخبار التى نقلت إلينا ما كان بين الناس من فتنة واختلاف » ، فقال فى ص ١٧٢ : « فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامى كله منذ بعث النبى ، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن ، هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازى وسيرة النبى والخلفاء . فما ينبغى أن نصدقهم حين يروون ما يروقنا ، وأن نكذبهم حين يروون مالا يعجبنا . وما ينبغى أن نصدق بعض التاريخ ونكذب بعضه الآخر ، لا لشىء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا » . بيد

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٣) ، فبراير ١٩٤٨ ، ص : ١٩٣ - ١٩٦

أن الدكتور طه نفسه ، قائل هذا الكلام ، قد فعل ذلك فكذبهم حين روى الرواة ما لا يعجبه ، وحين رووا ما يؤذيه ، وفعل ذلك أيضًا فصدقهم حين رووا ما يروقه ، وحين رووا ما يرضيه . فإن الذين رووا أخبار الغنى والمال والسلطان ، هم الذين رووا أخبار عبد الله بن سبأ اليهودى وأخبار الكتاب الآمر بقتل وفد مصر ، فلم أخذ شيئًا بغير برهان ، ونفى أخاه بغير برهان ؟

والشيء البيِّن هو أن الدكتور الجليل أراد كما قال فى ص ١٣٤ أن يكبر المسلمين فى صدر الإسلام « عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء وكان أبوه يهوديًّا ، وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهوديًّا ثم أسلم لا رغبًا ولا رهبًا ، ولكن مكرًا وكيدًا وخداعًا » . وهذا قصد حسن ونية جميلة ، ولكن الحق أحسن منهما وأجمل . وليس يجمل بنا ولا بالدكتور طه أن يغالط فى الحق لشيء يراه هو أو نراه نحن حسنًا جميلا . والتاريخ لا يكتب بالتحكم ، وإنما يكتب بالرواية ، ثم بالاستدلال ، ثم ببذل الجهد فى سد الفجوات ، وسبيل ذلك أن تأخذ من الماضى أسبابًا وعللا وحوادث ذات خطر ، فإن استقامت أن تمتد معك إلى الحاضر الذى تؤرخه ، فهى حقيقة بأن تكون شيئًا من التاريخ يوشك أن يكون حقًّا كله أو بعضه .

ولست أحب أن أعلم الدكتور طه ، ولكنى سأضع بين يديه حقائق لا يدخلها الريب أبدًا ، ثم أسأله أن ينظر فيها ، وأن يحكم هو بينى وبينه . وسأختصر القول اختصارًا ، فإن أكثر مادة هذا الحديث مما لا أظن بالدكتور أن يجهله أو يغفل عنه .

فلنعد إلى حديث قديم كان قبل البعثة بقليل ، وكان شديد الخطر فى تاريخ العرب ، وكان يوشك أن ينتهى إلى حدث جليل فى تاريخ مدينة رسول الله ﷺ . فقد كان يسكن هذه البلدة الكريمة بنو أم واحدة وأب واحد من قبائل الأزد بن الغوث : أمهما قيلة ، وأبوهما حارثة بن ثعلبة ، وهؤلاء هم الأوس والخزرج ، وكان يعيش بينهم هذا الجيل من اليهود الذى سكن جزيرة العرب ، أو سكن المدينة ، فكان من خبر ذلك شيء لم يكن مثله مثلا بين بنى هاشم وبنى أمية ،

وهو الحرب المتطاولة بين هذين الحيين اللذين ولدتهما أم واحدة وأب واحد ، ويسكنان معًا بلدة واحدة . وظل هذا القتال بين الحيين متجدد النيران إلى أن كان « يوم بُعاث » ، وهو كما قال ابن سعد ج ٣ قسم ٢ ص ١٣٥ :« آخر وقعة كانت بين الأوس والخزرج فى الحروب التى كانت بينهم ... وكانت هذه الوقعة ورسول الله ﷺ بمكة قد تنبأ ودعا إلى الإسلام ، ثم هاجر بعدها بست سنين إلى المدينة » .

ونشأة هذه العداوة العجيبة بين الأخوين : الأوس والخزرج ، واقتتالهما هذا القتال المر العنيف حقبًا متطاولة ، ودخول اليهود فى الحلف ، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، لا يصيبهم من أذى القتال بين هذين الحيين الأخوين إلا القليل ، وتداعيهم باسم اليهودية إذا حزب الأمر ، فيكونون يدًا واحدة على هذه العرب ، ليس له معنى إلا أن تكون هذه اليهود هى التى أرَّثت الحرب والعداوة بينهما لتؤثِّل فى هذه الأرض أموالا وآطامًا وحصونًا تكون لها عدة وقوة ، وتظهرها على أهل البلاد المالكين لها ، وتصرف وجه هؤلاء القوم عن الزراعة والتجارة وتثمير الأموال ، وتبقى يهود هى صاحبة الزراعة والتجارة وتثمير الأموال بالربا ومآكل السحت [(١)] . وهذا عمل يهود فى كل جيل ، وفى كل أمة ، وفى كل زمان إلى يوم الناس هذا .

ثم لا يلبث أن يلقى رسول الله ﷺ رهطًا من الخزرج عند العقبة ، وكانت يهود كما قال ابن إسحاق ، قد عَزُّوهم ببلادهم ، أى غلبوهم عليها واستأثروا بها ، فلما دعاهم رسول الله إلى الإسلام قالوا له : « إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك » . فيؤلف الله قلوب الأوس والخزرج ، وهم الأخوان ، على الإسلام فيفشو فيهما فُشوًّا ظاهرًا . ولا يلبث رسول الله أن يهاجر إلى المدينة ، فلا يبقى حى من الأوس والخزرج إلا دخله الإسلام وظهر فيه . فيمر

---

(١) السُّحت : كل حرام خبيث ، وما خَبُث من المكاسب وحَرُم فلَزِمَ عنه العار وقبيح الذِّكْر .

شأس بن قيس مِن يهود بنى قينقاع - وكان شيخًا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج ، فيغيظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فيقول : « قد اجتمع ملأ بنى قيلة (يعنى الأوس والخزرج) بهذه البلاد ! لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار . فيأمر فتى شابًّا من يهود أن يجلس إليهم فيذكر « يوم بعاث » وما كان قبله ، وينشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . فيفعل هذا اليهودى ، فإذا الجماعة المؤتلفة على الإسلام تتنازع وتتفاخر ، فيتواثب رجلان من الأوس والخزرج ، فيقول أحدهما لصاحبه : « إن شئتم رددناها الآنَ جذَعة » [1] ، ويغضب الفريقان جميعًا ويقولون : « قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة (يعنون مكانًا بعينه) ويتداعون : « السلاحَ السلاحَ » . ويخرجون إلى موعدهم ، فيبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فيخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى إذا جاءهم قال : « يا معشر المسلمين ! الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ؟ » فيعرف الأنصار ، أوسهم وخزرجهم ، أنها نزغة من الشيطان [2] وكيد من « عدوهم » ، فيبكون ويتعانقون ، ثم ينصرفون مع رسول الله سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس اليهودى . (عن ابن إسحاق وغيره) .

وأنا لست أروى لك هذا إلا لتقف على كيد يهود كيف كان ؟ ولتعرف كيف كان ترفقهم إلى إثارة العداوة بين هذين الحيَّين منذ قديم ؟ ولتنظر لم كانوا يحبون أن تظل هذه العداوة حية متوقدة ليأكلوا من ثمراتها مالا وغلبة وسلطانًا على العرب ؟ ولتقارن هذا كله بما لا يزال يجرى إلى أيامنا هذه على يد هذه الشرذمة الخبيثة من بنى إسرائيل !

---

(١) جَذَعَة : أى كما كانت وكما بدأت ، أى الحرب .

(٢) كذا فى الأصول بالعين المهملة ، والصواب بالمعجمة . نزغ بينهم ينْزَغ : أَغْرَى وَأَفْسَد ، وفى محكم التنزيل ﴿ وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بالله ﴾ .

ثم ينزل الله جلت أسماؤه فى أمر هذه الفتنة يخاطب المسلمين الذين كان رسول الله بين أظهرهم ، لم يمت بعدُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وإذن ، فنحن لا نستطيع أن نكبر أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج عن أن يطيعوا فريقًا من اليهود حتى كادوا يردونهم بعد إيمانهم كافرين ، ولا أن ننزههم عن ذلك وهم تُتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله ! كما فعل الدكتور طه حين أراد أن ينزه أهل الصدر الأول من الإسلام فى سنة ٣٥ من الهجرة بعد أن قبض الله إليه نبيه بأكثر من عشرين سنة ، وبعد أن نشأت ناشئة من الشباب لا يدَّعى أحد أنهم جميعًا كانوا أحرص على إيمانهم من أصحاب محمد وأنصاره الأولين . وهذا خبر واحد رويته ، فإن شئت أن أروى الأخبار كلها لما وسعنى كتاب أشرح فيه أمر هذه الفتن التى أرَّثتها اليهود فى عهد رسول الله ﷺ ، ولا يسعنى أن أنص على كل آيات كتاب الله التى نزلت فى أخبار هذه الفتن . وحسبى أن أذكر من نسى أن أخبار المنافقين والآيات التى نزلت فيهم ، كانت كلها فى المدينة لا فى مكة ، وأن ذلك دليل على أن النفاق كان حيث تكون يهود ، وأن « الأعراب » لم يذكروا إلا فى السور المدنية مقرونًا بالنفاق والمنافقين ، وأن قول الله تعالى فى سورة براءة ﴿ الأعرَابُ أَشد كُفرًا ونفاقًا ﴾ نزلت فى بنى أسد وغطفان ، وهم كانوا حلفاء يهود فى الجاهلية وفى زمان الإسلام ، وهذا شيء أرجو أن يتذكره الدكتور حتى نعود إليه .

ولم يكن كل هذا المكر والكيد والإيقاع عملا جاء عفو الخاطر من يهود ، ولا كان مأتاه من إساءة لحقتهم من حلفائهم الأوس والخزرج من المؤمنين غير المنافقين ، بل هو شر انطوت عليه يهود لا يزايلهم ولو أحسن المسلمون إليهم ، وهو حقد وضغينة وكفر وعدوان على أهل هذا الدين ، وهم كما وصفهم الله أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا بمحمد صلوات الله عليه . ودليل ذلك أن رجالا كثيرًا

من الأوس والخزرج كانوا يواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فكانوا يصافونهم المودة بهذه الأسباب ، ويستنصحونهم فى أمورهم دون أن يشكوا فيهم أو يتوجسوا منهم خيفة . فأنزل الله فى محكم كتابه ينهاهم عن فعل ذلك : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ . وهؤلاء « الذين قالوا آمنا » هم الذين نزلت فيهم الآية السابقة قبل هذه فى سورة آل عمران : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وهذه الآية وسبب نزولها يدل دلالة صريحة على أن أهل الإسلام الأول ، كانو لا يزالون يعدون الحلف بينهم وبين يهود حلفًا صادقًا لا غش فيه ، وأن يهود كانت تظهر المودة وتخفى أشد العداوة وأشد الغيظ على هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وأنهم كانوا يتخافتون بهذه العداوة ، وأنهم كانوا يخدعون هؤلاء المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر ، حتى إذا صدَّقهم بعض المؤمنين عادوا فأظهروا الكفر ليفتنوهم ويخدعوهم عن دينهم . فإذا صح هذا ، وهو صحيح ، ورسول الله بين أظهرهم ، فهو أحق بالصحة فى سنة ٣٥ من الهجرة ، لا نكبر أهل الصدر الأول من الإسلام عن أن يقعوا فى مثله وفى أشد منه .

ويستطيع الدكتور طه ، ويستطيع كل من أطاق القراءة ، أن يقرأ كتب السير والمغازى منذ هاجر رسول الله من مكة إلى المدينة ، إلى يوم دعاه ربه إلى الرفيق الأعلى ، فسيجد أنه لا تكاد تنتهى وقعة بدر الكبرى بالنصر الأعظم لجند الله حتى يسلم رأس النفاق عبد الله بن أُبى بن سلول وجماعته من المنافقين ، وكانوا أعوان يهود ، ومن يومئذ ينفجر النفاق ويستشرى خطره ، حتى تنزل فيه الآيات الكثيرة ، وحتى يطلع الله رسوله على خبايا نفوسهم وعلى أعيانهم . ومن يومئذ

يجاهر بعض اليهود بنقض العهد الذى كتبه رسول الله بينه وبينهم عند مقدمه المدينة ، فيكون مقتل اليهودى أبى عَفَك ، ثم تكون غزوة يهود بنى قينقاع ، ثم استعانة أبى سفيان بن حرب بيهود بنى النضير ينقلون إليه أخبار نبى الله . ثم يكون ما كان فى يوم أُحد من خروج عبد الله بن أبى بن سلول المنافق مع رسول الله حتى إذا بلغ رسول الله أُحُدًا انخزل ابن أبى فى كتيبة أشياعه وهو يقول : « أيعصينى ويطيع الولدان ؟ » ، ثم يهزم المسلمون ، فإذا عادوا إلى المدينة شمت بهم عبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه المنافقون ، وأظهرت اليهود القول السيء ، يقولون : ما محمد إلا طالب ملك ! ما أصيب هكذا نبى قط ! أصيب فى بدنه ، وأصيب فى أصحابه . ثم لا تمضى خمسة أشهر حتى يحاول يهود بنى النضير قتل رسول الله غدرًا حين جاء منازلهم ، فأتمروا أن يطرحوا عليه صخرة من فوق البيت الذى هو تحته ، فجاءه الوحى بما هموا به . ثم يخرج أبو رافع سلام ابن أبى الحقيق اليهودى بعد أشهر إلى « غطفان » ومن حولهم من مشركى العرب ، يغريهم بقتال رسول الله ﷺ . ثم ...

ولا تزال تمضى من حدث إلى حدث ، ومن غدر إلى غدر ، ومن نفاق إلى نفاق ، واليهود رأس ذلك كله ، والعاملون عليه ، والموغلون فيه ، إلى أن تنتهى إلى خبر اليهودية التى وضعت السم فى الشاة ودعت رسول الله ﷺ وهو بخيبر ، فأكل من شاتها ثم نبئ أنها مسمومة فلفظها .

فما معنى هذا كله ؟ معناه أن اليهود لم يفتر لهم لسان ولا يد ولا غش ولا غدر ولا خديعة ولا ضغن منذ ظهر أمر رسول الله ﷺ ، وأن هذه الشحناء لم تكن عن إساءة لحقتهم من الذين آمنوا بل كانت عصبية يهودية محضًا ، وخليقة مركبة فى طباع هذا الجنس من البشر ، وأن النفاق كان طرفًا من دسائسهم ومتنفسًا لأضغانهم على أهل هذا الدين ، وأن الله قد وصفهم وصف الحق إذ يقول تباركت أسماؤه : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا

مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وهذه الصفة التى وصفهم الله تعالى بها ، لم تنقطع ولن تنقطع ما بقى على الأرض مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . وسترى فى الكلمة الآتية كيف استطاع اليهود أن يفسدوا على المسلمين أمورًا كثيرة ، وأن يثيروا فتنة كادت تذهب بالإسلام كله لولا أن الله قد وعد عباده أن يظهر هذا الدين كله ولو كره الكافرون .

* * *

٣ – الفتنة الكبرى

كان من البيّن – كما رأيت قبلُ – أن يهود الحجاز قد شبوا فى الجاهلية نار العداوة بين بنى أم واحدة وأب واحد ، يسكنون بلدة واحدة ، وهم الأوس والخزرج ، فتمادت الحرب بين الأخوين أحقابًا من زمن الجاهلية حتى كادوا يتفانون فى يوم « بُعاث » الذى كان قبل هجرة نبى الله ﷺ إلى المدينة بست سنين . وكان الذى كان بين هذين الأخوين أمرًا جللًا شديدًا على بعض عقلاء الأوس والخزرج ، إذ صاروا إلى ما وصفهم به أصحاب بيعة العقبة الأولى من الأنصار إذ قالوا لنبى الله : « إنا تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بيننا » ، ويهود يومئذ « قد عَزُّوهم ببلادهم » أى غلبوهم عليها واستأثروا بها ، كما قال رجال من الصحابة وكما قال أكثر رواة التاريخ القديم . وكان بعض اليهود يحالف الأوس ، وبعضهم يحالف الخزرج ، ولكنهم كانوا يدًا واحدة إذا جد الجد ، فيخرجون من معارك هذين الأخوين لا يصيبهم شرٌّ كثير أو قليل ، بل كانوا يقولون لهم : « إن نبيًّا مبعوث الآن قد أظل بزمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإِرَم » وشغلت الحرب والعداوة هذين الحيين ، فانصرفوا عن الزراعة واستولت عليها يهود ، وشغلتهم عن التجارة فاستبدت بها يهود ، وشغلتهم عن حماية أرضهم فعاثت فيها يهود . وأخذت يهود تبنى فى المدينة وما جاورها آطامًا وحصونًا كثيرة متفرقة ، وتجمع فى هذه الحصون ما استطاعت من السلاح والحلقة [1] وعُدة الحرب ، وهى شىء كثير جدًّا كما ظهر ذلك بعد فتح هذه الحصون والآطام على يد رسول الله وأصحابه من المهاجرين والأنصار . ولم يكن ذلك من فعلهم فى المدينة وما جاورها وحسب ، بل كان مثله أيضًا فى جنوب الجزيرة ، فى اليمن وتلك البقعة من نجران وصنعاء إلى ناحية البحرين ، كانوا

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٥) ، مارس ١٩٤٨ ، ص : ٢٥٤ – ٢٥٧

(١) الحَلْقَة من الناس : الجماعة ، يعني تعد الرجال للحرب ، أو أراد بالحلقة مطلق السلاح .

يقيمون الحصون والآطام ويجمعون فيها السلاح فيكثرون الجمع ، وينشئون لأنفسهم مدنًا أو شبه مدن فى هذه النواحى كلها ، هى لهم خالصة لا يساكنهم فيها أحد .

نعم ، ينشئون المدن والحصون والآطام ويجمعون السلاح ، ويحالفون من جاورهم من الأعراب والبدو ، ويوقعون بين حلفائهم العداوة والشر ، فى المدينة وفى غير المدينة من جزيرة العرب . فماذا كانت تريد يهود بإعداد كل هذه العدة من البناء والسلاح وإيقاد البغضاء ، وصرف وجوه الناس عن أسباب الحياة إلى معترك الحرب ؟ كانت تريد فى المدينة مثلا أن تسقط البلاد فى أيديهم خالصة لهم ، بعد أن يتفانى الأوس والخزرج فى حروبهم التى يؤرّثونها بينهم ، كما رأيت ذلك من فعلهم يوم رأى شأس بن قيس اليهودى ، ما رأى من صلاح ذات البين بين الأوس والخزرج بالإسلام ، فيرسل إليهم فتى من يهود يناشدهم ما تقاولوا من الشعر فى حروبهم ، فتكاد الحرب تقع بين الأوس المسلمين والخزرج المسلمين ، لولا أن أدركهم رسول الله فردّهم إلى عقولهم وأطفأ كيد اليهودى شأس بن قيس . ومن قارن بين فعل يهود قديمًا وفعلهم حديثًا فى فلسطين ، ومن إقامتهم الحصون والآطام والمدن فى المدينة وغيرها من الجزيرة ، وما فعلوا من إنشاء المدن والحصون والمستعمرات حديثًا فى فلسطين ، عرف أن هذه شيمة يهود منذ قديم ، وهذا هو أسلوبهم قديمًا وحديثًا حذوك النعل بالنعل . وإذن فقد كانت تريد يهود أن تنشىء دولة فى المدينة شمالا وفى اليمن جنوبًا كما تريد اليوم أن تنشىء دولة لليهود فى فلسطين ، وفى غير فلسطين أيضًا .

هكذا كان أمرهم فى الجاهلية ، ثم يرسل الله رسوله ويهاجر إلى المدينة فلا يكاد يفعل حتى يمتلئ تاريخ الإسلام منذ ذلك اليوم بأخبار اليهود وفتنتهم وتأريثهم العداوة بين العرب المشركين والعرب المؤمنين ، وبسعايتهم فى تأليب الأحزاب على رسول الله ، وبغدرهم ونكثهم ودسائسهم ، لم يكفوا ساعة عن التماس غرة المؤمنين والمؤمنات ، وعن ابتغاء الوقيعة بين المؤمنين أنفسهم . ويمتلئ تاريخ الإسلام منذ ذلك اليوم أيضًا بأخبار المنافقين ، وقد أجاد الله لنا

صفتهم فى كتابه ، وبين لنا أحسن البيان صلتهم باليهود وإيواء اليهود لهم ، ويكثر ما نزل من الآيات فى شأن اليهود والمنافقين جميعًا ، مقرون ذكرهما معًا . وتكون أول سورة نزلت من القرآن فى المدينة هى السورة التى تذكر فيها (البقرة) ، يقول الطبرى فى تفسيره ج ١ ص ٨٤ بإسناده عن ابن عباس : « إن صدر سورة البقرة إلى المئة منها نزل فى رجال سماهم بأعيانهم وأنسابهم من أحبار يهود ومن المنافقين من الأوس والخزرج ، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم » . ثم ماذا ؟ ثم تكون آخر سورة نزلت بالمدينة ، أو آخر سورة نزلت من القرآن ، هى سورة « براءة » أو سورة « التوبة » ، تلك السورة التى فضحت اليهود والمنافقين وهتكت عن سرائرهم ، وكشفت عما كانوا يبيتون من القول ومن الكيد ، والتى يقول الله فيها : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ ، والتى سماها بعضهم « الفاضحة » و « المُخْزِية » و « المُنَكِّلَة » و « المُشَرِّدَة » و « المُدَمْدِمة » دلالة على ما جلبت على اليهود والمنافقين من الفضيحة والخزى والتنكيل والتشريد والدمدمة . ثم تكون هى السورة التى يذكر فيها « الأعراب » الذين حول المدينة من حلفاء يهود ، ست مرات .

تنزل أول سورة من القرآن [١] ، فإذا هى فى اليهود والمنافقين ، وتنزل آخر سورة من القرآن فإذا هى فى اليهود والمنافقين ومَن حول المدينة مِن الأعراب حلفاء يهود ، وينزل ما بينهما من القرآن فى عشر سنوات متواليات يصف ما كان من أمر هؤلاء ، وينذرهم ، ويكشف عن دسائسهم وكيدهم ، فإذا بك ترى تاريخ الإسلام فى هذه الحقبة – منذ هاجر رسول الله إلى أن توفاه الله – حافلا بالغدر والكيد والتأليب ونكث العهود ونقض المواثيق . ويكون أول ذلك أن تسلم طائفة من أحبار يهود سماهم أصحاب السير والتاريخ ، يسلمون نفاقًا فى عهد رسول الله ﷺ (كما فعل كعب الأحبار وعبد الله بن سبأ وغيرهما فى عهد عمر وعثمان) ، فكانوا يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم

---

(١) يعنى أستاذنا أول سورة نزلت بالمدينة .

ويستهزئون بدينهم ، ويحدثنا ابن هشام عنهم فيقول : « فاجتمع يومًا فى المسجد ناس منهم ، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا » ، فهل تجد أوضح ولا أبين من هذا فى صفة المتآمرين حين يجلسون يتخافتون بينهم أمرًا يكيدون به ويبيتونه ؟ ويظل هذا حال المنافقين وحال اليهود معًا إلى أن يدعو الله إليه رسوله . يأوى المنافقون إلى أشياخ من اليهود يتآمرون يومًا بعد يوم عشر سنوات متواليات ، ويكون على رأس هؤلاء المتآمرين رجال كأمثال رفاعة بن زيد ابن التابوت اليهودى الذى أظهر الإسلام وأبطن النفاق ، فيسميه المسلمون « كهف المنافقين » ، لأنهم كانوا يخلون إليه ، ويتآمرون فيه بليل ، ويستودعون ظلام هذا الكهف السميع البصير سرَّ تآمرهم وخفى كيدهم . ورسول الله فى خلال ذلك كله يجاهدهم ويرجو هدايتهم ، ويظل يفعل ذلك ثمانى سنوات غير قانط ولا يائس ، يصلى على من مات من المنافقين ويستغفر لهم ، فإذا طال ذلك أنزل عليه ربه فى سورة « براءة » آخر سورة نزلت ، أشد آية فى القرآن خاطب الله بها عبده ونبيه محمدًا ﷺ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ثم ينهاه أشد النهى فيقول : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ . كلمات قاطعة وأوامر حاسمة كحد السيف !!

عشر سنوات والقرآن ينزل على رسول الله فى المنافقين واليهود مقرون ذكرهما معًا !! عشر سنوات تقرأ تاريخها فى كتب السيرة فلا تمضى صفحة واحدة إلا وفيها ذكر لليهود والمنافقين معًا ، عشر سنوات واليهود والمنافقون معًا يؤلبون على رسول الله القبائل ويفتنون المسلمين ، ويدبرون الكيد للمؤمنين والمؤمنات ولرسول الله ، حتى كان ما كان من اليهودية التى دست له ولأصحابه السم فى الشاة فينبأ ﷺ بما فعلت ، فيلفظ بضعة اللحم من فمه ﷺ .

ثم ماذا ؟ ثم يحدثنا أصحاب رسول الله ﷺ ، ويحدثنا منهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فيقول : « كان آخر ما تكلم به ﷺ أن قال :

« أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » . آخر كلمة ينطق بها ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ! آخر كلمة تجرى على لسانه وهو يلبى دعوة ربه إلى الرفيق الأعلى ! ويروى الرواة هذه الكلمة ، ويأتى علماؤنا أحسن الله جزاءهم فيقفون عند هذا الحديث ينظرون ما سر هذا الأمر الحازم القاطع ؟ إنهم لا يهتدون إلى سر ، ولا يقفون على خبر ، إلا أن يقولوا جميعًا كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه الأموال ص ٩٩ : « وإنما نُرَاه قال ذلك ﷺ لنكث كان منهم ، أو لأمر أحدثوه بعد الصلح » . رويدكم أيها العلماء ! إنه تأويل متهافت ، ولا تجعلوا الظن أصلا فى التأويل . لقد كان أولى بكم أن تسألوا أنفسكم : أى نكث ذلك الذى كان من يهود الحجاز ومن أهل نجران ؟ وكيف ذهب خبره فلم يرو لنا ؟ وأى أمر ذلك الذى أحدثوه بعد الصلح ؟ وكيف غاب عنا خبره ؟ ولكن غفر الله لكم وجزاكم خيرًا إذ لم تقطعوا برأى تدلسونه على الناس كما يفعل أدعياء العلم وكذبة العلماء فى عصرنا هذا ، بل قلتم جميعًا كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام : « إنما نراه » (بضم النون) أى إنما نظنّه ظنا . ولكن ما قيمة الظن فى أمر كهذا الأمر ؟ وكيف تريدون أن تفسروا حديثًا بظن من الظنون لم تأت به رواية ، ولم يعرف له خبر يؤيده من حوادث التاريخ ؟

كلا أيها العلماء ! إنها آخر كلمة تكلم بها رسول الله وهو معرض عن الدنيا مقبل على الآخرة ، آخر كلمة ينطق بها لسان نبى الله الذى لا ينطق عن الهوى . كلًّا ، فالأمر أعظم وأجل وأخطر مما تظنون . إنها كلمة من كلمات النبوة ! إنها تنبيه من الله على لسان نبيه إلى أحداث ستكون ، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسى كافرًا . لقد كشف الغطاء ويتجلى لرسول الله غيب ما سيكون ، فرآه وهو على فراش الموت كما رآه المؤمنون عيانًا من بعد : فتنة ماحقة فى الحجاز وما جاورها ، وفى نجران وما أطاف بها . نار مشعلة فيما حول المدينة من الحجاز ، وأخرى مستعرة فيما حول نجران من اليمن . إنه يقولها ﷺ لا لشىء كان بل لشىء سيكون ، يراه هو ولا يراه أصحابه رضى الله عنهم .

ولقد نزل الموت برسول الله ﷺ كأشد ما ينزل حتى دعا بقدح من ماء ،

يدخل يده فيه ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : « اللهم أعنى على سكرات الموت . اللهم أعنى على كرب الموت . ادن منى ياجبريل ! ادن منى ياجبريل ! ادن منى ياجبريل » وعنده ﷺ خميصة (ثوب من خز) يأخذها فيلقيها على وجهه ، حتى إذا اغتمّ بها وضاق ألقاها عن وجهه وهو يقول « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ويقول أيضًا : « لئن بقيت لا أدع بجزيرة العرب دينين » ، وتكون آخر كلمة يتكلم بها وهو فى مثل ما ترى من كرب الموت : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » : أى أدركوا النار قبل أن تشتعل ، أنقذوا العرب من فتن لا تبقى ولا تذر ! احذروا يهود الحجاز ، واحذروا أهل نجران خذوا عليهم طريق الفتنة وأخرجوهم قبل أن يخرجوكم ويسفكوا دماءكم أيتها العصابة القليلة المؤمنة ! ويقبض الله إليه نبيّه قبل أن يقول لهم فى هذا الأمر قولا لا يضلون بعده ، وتبقى هذه الكلمة بغير تفسير حتى يقول العلماء فى سرها ما قالوا رجمًا بالغيب .

ثم ماذا ؟ ثم لا تكاد تتم بيعة أبى بكر حتى تنفجر الردة فى أماكن بعينها من جزيرة العرب ، فتقول عائشة بنت أبى بكر الصديق أم المؤمنين قولا يروى لنا ، لم يلق إليه أحد بالا إلى يوم الناس هذا : « توفى رسول الله ﷺ فنزل بأبى ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ! اشرأب النفاق بالمدينة وارتدت العرب وصار أصحاب محمد كأنهم معزى مطيرة ، فى حُش ، فى ليلة مطيرة ، بأرض مَسْبَعَة [(١)] . فوالله ، ما اختلفوا فى واحدة إلا طار أبى بحظّها وغنائها عن الإسلام » . ويحدثنا أيضًا عروة بن الزبير بن العوام : « وقد ارتدت العرب إما عامة ، وإما خاصة فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم ﷺ ، وقلتهم وكثرة عدوهم » .

وخليق بى وبك ، أن نقف قليلا عند هذا . نقف حيث وقف بنا أمر رسول الله أن : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » ،

---

(١) الحُشّ (وبفتح الحاء أيضا) : البستان ، أو مجتمع النخيل . المَسْبَعَة : الأرض الكثيرة السباع .

نقف حيث وقفت بنا آخر كلمات تكلم بها ﷺ ، وحيث وقف بنا قوله وهو فى كرب الموت « لئن بقيت لا أدع بجزيرة العرب دينين » ، وحيث وقف بنا قول أم المؤمنين عائشة : « اشرأب النفاق بالمدينة وارتدت العرب » ، وحيث وقف بنا حديث عروة : « ارتدت العرب ... ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى » . ثم نأخذ جميعًا نقرأ تاريخ حروب الردة فى كتب القدماء من المؤرخين ، وماذا قالوا فى أسبابها ، ونقرأ تاريخها أيضًا فى كتب المحدثين من المؤلفين والمؤرخين ، ونقرأ أيضًا كتب المستشرقين الذين يجلّهم الدكتور طه ويرفع بذكرهم رفعًا شديدًا فماذا نجد ؟ نجد غموضًا شديدًا كأننا نسير فى ليلة مظلمة فى بطن واد عميق ، عن يمينه جبل شامخ وعن يساره جبل شامخ قد أطبقا عليه جميعًا . وإذا الردة فى كتب القدماء أخبار مجموعة كما اتفق لهم أن يجمعوها ، لم ينظر أحد فى أسبابها ، ولا فى الحوافز التى أغرت العرب بها ، ولا فى أمر المرتدين وصفتهم وعلاقة بعضهم ببعض ، ولا فى وجه الشبه الذى يجمع بينهم قبل أن يرتدوا . وإذا الردة فى كتب المحدثين أخبار أيضًا حاول أصحابها أن يرتبوها ما استطاعوا ، فلما نظروا فى أسبابها ، وفى حوافزها ، وفى صفة أهلها وفى علاقة بعضهم ببعض ، وفى وجه الشبه الجامع بينهم قبل أن يرتدوا – إذا بهم يخلطون خلطًا شديدًا كأنهم يبحثون عن درة فى بحر من الوحل . وإذا المستشرقون يملأون كتبهم كعادتهم بالجهل الذى يضرب بعضه فى وجوه بعض .

نعم ، نقرأ تاريخ الردة فى كل هذه الكتب جميعًا ، فإذا هى خالية جميعًا من ذكر اليهود ومن ذكر المنافقين إلا كلمة شاردة ككلمة عائشة وكلمة عروة بن الزبير بن العوام تعرض فى كتب القدماء ، وإذا المحدثون من المستشرقين الخائضين فيما ليسوا له بأهل ، لا يكادون يذكرون اليهود والمنافقين فى حرب الردة ، وإذا هذا عجب من أعجب أمرهم ، فهم أشد ولعًا بالبحث عن الأسباب واستقصائها ونبشها من أن تخفى عليهم هذه الحقيقة البينة التى بين أيديهم ، حقيقة اليهود والمنافقين وما كان لهم من خطر فى تاريخ الإسلام منذ هاجر رسول الله إلى أن قبضه الله إليه !! وإذا بك ترى المؤلفين من رجالنا قد ضلوا إلى حيث

أضلهم أساتذتهم من المستشرقين ، فغفلوا عن تعليل الردة كيف كانت ؟ وكيف بدأت ؟ ومن بدأ بها ؟ وكيف تم أمرها ؟ ولم يسأل واحد منهم نفسه . أليس من العجيب الذى لا يقضى منه عجب أن يقضِى نبى الله عشر سنوات منذ هاجر إلى المدينة حتى قبضه الله إليه ، فلا يمضى يوم واحد لا يلقى فيه أشد البلاء من كيد يهود ، ومن كيد أشياعهم وصنائعهم من المنافقين ، ثم يظل رسول الله هذه السنوات العشر وهو يقاتل اليهود ويقاتل مكايدهم فى الأوس والخزرج ، وفى القبائل ، وفى الأعراب حول المدينة ، ثم يظل رسول الله يتلقى الوحى عن ربه هذه السنوات العشر ، فإذا أول سورة تنزل عليه وهى البقرة ، أكثرها فى ذكر اليهود والمنافقين وبيان حالهم وصلة بعضهم ببعض وائتمارهم جميعًا بالمؤمنين الذين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله . وإذا آخر سورة تنزل عليه ﷺ وهى براءة كلها فى صفة اليهود والمنافقين ، وفى الكشف عن أقوالهم ودسائسهم وكذبهم وخداعهم حتى فضحتهم ونبأتهم بما تخفى صدورهم من الكيد والغيظ والنفاق ، ثم يكون آخر ما يتكلم به ﷺ وهو فى كرب الموت : « لئن بقيت لا أدع فى جزيرة العرب دينين » ، وأمره لصحابته : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب» ، ثم يقبض الله إليه رسوله ويبايَع أبو بكر ، وما هى إلا أيام قلائل حتى تشتعل نيران الردة فى أماكن بعينها من جزيرة العرب شمالا وجنوبًا وشرقًا وغربًا - أليس من العجيب الذى لا يقضى منه عجب أن لا نجد بعد هذا كله شيئًا فى كتب القدماء أو المحدثين - أو المستشرقين إن شئت - ذكرًا لليهود والمنافقين فى أمر الردة ؟ أهكذا ينتهى فجأة من تاريخ العرب ذكر اليهود والمنافقين بموت رسول الله ﷺ ؟ أيجوز فى العقول أن تظل يهود وأشياعُها من المنافقين تكيد للإسلام ولرسول الله وللمؤمنين والمؤمنات عشر سنوات كاملة متتابعة يومًا بعد يوم ، فإذا لحق رسول الله بالرفيق الأعلى (فى سنة ١١ من الهجرة) نزعوا أيديهم من كل كيد ، وبرئوا من كل حَدَث كان بعد ذلك فى تاريخ الإسلام - برئوا من الردة (فى سنة ١١ من الهجرة) ، وبرئوا من مقتل عمر (فى سنة ٢٣) ، وبرئوا من الفتك بعثمان بن عفان رضى الله عنه (فى سنة ٣٥) .

ولكن كيف غاب عن أصحاب رسول الله ﷺ معنى قوله : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » ؟ وكيف غفل قدماء علمائنا عن معنى هذا الحديث وفيم قيل ؟ وكيف ذهل المؤرخون القدماء عن أن يربطوا بين تاريخ الردة وبين تاريخ اليهود والمنافقين ؟ وأخيرًا كيف كانت الردة فى الإسلام ؟ وما آثارها التى تخلفت عنها ؟

هذا حديث أحدثك به إن أنسَأ الله فى أجلى حتى ألقاك فى مكانى من هذه الصفحات .

* * *

الفتنة الكبرى

اطلعت على الكلمة التى نشرت فى هذا العدد تعليقًا على مقال لى عن كتاب الدكتور طه حسين عن الفتنة « الكبرى » فلما قرأته آثرت أن لا أضيع على قراء الرسالة صفحات فى نقد كلام الدكتور شوقى ضيف ، فعجلت بكتابة هذه الكلمة .

وليأذن لى الدكتور طه حسين أن أوجه الكلام إلى الدكتور شوقى ضيف ، فى بعض ما جاء فى رده علىَّ .

فأول ذلك أن الدكتور شوقى قد أطال فى كلام أكثره موجود فى كتاب الدكتور طه . كأنه أراد أن يشرحه ، وكان وكنا فى غنى عن مثل هذا الشرح .

والثانية أنه أطال أيضًا فى الأسباب الموجبة لنفى قصة عبد الله بن سبأ ، ونحن لم نقل أننا نثبتها برواية الطبرى وحسب ، بل قلنا إن الدكتور طه زيف القصة بأسباب لا تستقيم ، وهذه الأسباب مذكورة فى مقالى ولم يتنبه الدكتور شوقى إلى ضعفها وتهافتها . أما إثباتنا لها فسيأتى فيما بعد بطريق آخر غير الذى ظنه الدكتور ضيف .

والثالثة أنه ذكر عن ياقوت شيئًا فى شأن تفسير الطبرى وتاريخه ، وهو أن الطبرى روى فى تاريخه أشياء عن رجال ليسوا بثقات ، وأنه لم يرو عنهم مثل ذلك فى تفسيره لمكانهم من التهمة فى رأيه . وشرح ذلك أن للطبرى رأيًا فى قوم ليسوا بثقات ، فنزه التفسير عنهم لأنه أمر دين تجب فيه الحيطة الشديدة ؛ أما التاريخ فليس لمثل هذه الحيطة فيه مكان . وموازين المحدثين والمفسرين فى رد الرجال وتجريحهم لا يمكن أن تطبق على أهل التاريخ وسواهم من أُدباء ورواة . ولو صح ذلك لأسقطنا رواية التاريخ كله ، ورواية الأدب كله ، ورواية اللغة كلها ، وأظن أن

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٣) ، فبراير ١٩٤٨ ، ص : ٢١١

الدكتور ضيف لم يعط هذا الأمر حقه من النظر والتدبر . ولست فيما أظن أيضًا مكلفًا بشرح أصول هذه الفنون لكل امرئ لم يطلع عليها أو لم يعرفها حق المعرفة ، إلا أن يسأل سؤالًا منزهًا عن مواضع اللجاجة فى الانتصار لفلان أو فلان .

والرابعة أنه تسرَّع فى ذكر أشياء نعفيه من نقدها ، لأنها تطول وشرحها يطول أيضًا . ولكنى على ثقة من أن الدكتور طه يعرفها كما أعرفها ، وتبين موضع الغمز فيها .

ومهما يكن من شىء ، فإنى كتبت ما كتبت عن « الفتنة الكبرى » ولم أتممه بعد ، ولعل الأستاذ لو صبر قليلا لرأى ما يرضيه أو يقنعه . أما العجلة فلا تأتيه بشىء إلا تراكب الخطأ على الخطأ ، ونحن إنما نكتب لنزيل الأخطاء لا لنراكمها بعضها على بعض .

وليعذرنى الأستاذ إذا رأى أنى لم أبين له البيان الشافى فى مسألة الرواية فى التاريخ والحديث والتفسير ، وكيف تكون وما شروطها ، وما ينبغى أن ينظر إليه الباحث مرة ، ويتجاوز عنه أخرى فى هذه الأشياء ، فإن شاء أن يتحرَّاه على وجهه ، فليسأل الدكتور طه نفسه ، فهو يدله على المصادر التى تعينه على بيانها إن شاء الله ...

* * *

هذا زماننا

أراد جماعة من الذين كتب الله عليهم أن يرتزقوا باصطناع السياسة ، أن يعقدوا معاهدة بينهم وبين بريطانيا يقضون بها فى أمر العراق على ما خيلت لهم أنفسهم وأنفس البريطانيين ، ووقف بيفن يتعجبُ ممن زعم أنه يضع توقيعه الكريم على معاهدة فيها بخسٌ لحقوق العراق ! وليس هذا بعجيب من ساسة بريطانيا ، فقوام السياسة البريطانية هو الخداعُ ، والإصرار على الخداع ، وتسويغ الخداع ، حتى يبلغُ الأمر مبلغ الصَّفاقة المهذّبة فى عرف الساسة البريطانيين . ولسنا نلوم بريطانيا ولا ساستها على هذا المذهب القبيح ، فهم إنما يترفقون إلى غاياتهم بما وسعهم من الدهاء والمكر ، ولكنّا نلوم أولئك المتبجحين ممن راموا أن يكونوا أهل سياسة فى هذا الشرق العربى أو الإسلامى ، إذ يخادعون أنفسهم ويخادعون أهليهم عن فساد بين فى أمر هذه المعاهدات ، وهم بذلك إنما يدمّرون شعوبهم بما فى أنفسهم من العجز واللجاجة وقلة المعرفة بسياسة الشعوب التى انبعثت من رقدتها مطالبةً بالحياة الحُرة الكريمة . ومصداق هذا ما وقع فى العراق ، فلم يكد يظهر طرفٌ من سر تلك المعاهدة الخبيثة التى أرادت بريطانيا أن تكبل بها العراق ، حتى هبَّ الشعب الأبى هبة واحدة فقوض أركان تلك المعاهدة على رؤوس « بناة الإمبراطورية » ، وعلى رؤوس أذنابهم من الساسة المرتزقة ، فدل ذلك دلالة بينةً على عجزهم ولجاجتهم وقلة معرفتهم بسياسة الشعوب الناهضة المريدة للحياة والحرية .

وما الذى كانت تريده بريطانيا من تلك المعاهدة الباغية ؟ كانت تريد أن تجعلها مثالا يحتذى فى معاهدات تعقد بينها وبين مصر والسودان ، ولبنان وسورية وجزيرة العرب واليمن وسائر بلاد هذا الشرق فجاءت ثورةُ العراق فزلزلت

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٢) . فبراير ١٩٤٨ ، ص : ١٦٠ - ١٦٢

قواعد هذا الوهم المنتشر الذى سوَّلت لبريطانيا نفسُها أنه بناء جديد تقوم على أساسه سياسة الإمبراطورية البريطانية الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية . جاءت هذه الثورة فكانت سُنّةً جديدةً فى توجيه سياسة العرب توجيهًا غفل عنه المرتزقة من السياسيين القدماء فى هذا الشرق ، وجاءت فكانت برهانًا جديدًا على أن الشرق العربى والإسلامى لن ينام مرة أُخرى على خُدَع البريطانيين وخيانة المرتزقة من السياسيين ، وعلى أن الحياة التى دبَّت فى العرب لن تتسكع مرَّة أخرى فى أوصال هذا الكيان القوى العميق المتراحب ، بل سوف تتدفّق فى نواحيه كلها إلى أن يستوى عوده على الهيئة التى تجعله كيانًا صحيحًا فى هذا الكون الذى يغلى من حوله بالثورات السياسية والإجتماعية والاقتصادية والعلمية .

ليس هذا فحسب ، بل علينا منذ اليوم أن ننظر ماذا كانت تريد بريطانيا بعقد هذه المعاهدات ؟ كانت تريد أن تجمع دول العرب على معاهدات يكون لها فيها الغنم وعلينا الغرم ، أى أن بريطانيا كانت تريد أن تستعبد العرب جملة واحدة وتسيرهم فى أغراضها على نظام متفق لا تشذ عنه دولة عربية واحدة ، سواء أكانت مستقلة استقلالا صحيحًا أم كانت مستقلة استقلالا مشوبًا بالعبودية للإمبراطورية البريطانية ، ومعنى ذلك أيضًا أنها تعلم أن العرب سوف ينتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا أمة واحدة ، فهى تريد أن تسبق الزمن وتجمع هذه الكتلة الواحدة فى قبضة يديها حتى لاينتشر عليها الأمر . وهذا غرض بين جدًّا ، ودوافعه أشد وضوحًا واستبانة . فهل آن لنا أن نتنبه إلى الوضع الصحيح الذى ينبغى أن تكون عليه مطالب العرب فيما هم بسبيله من إحراز حقوقهم كلها جملة واحدة ؟

لقد كتبت منذ سبعة أشهر كلمة فى هذه المجلة بعنوان « شعب واحد ، وقضية واحدة » ، وذلك فى العدد ٧٣٠ بتاريخ ٣٠ يونية سنة ١٩٤٧ قلت فيها : « إن قضية العرب قضية واحدة بينة المعالم : هى أننا لا نريد إلا أن تكون بلادنا جميعًا مستقلة حرة لا يحتل عراقها جندىٌّ واحدٌ ، ولا تخضع جزيرتها لسلطان ملوك البترول ، ولا ينال نيلها من منبعه إلى مصبه سلطان بريطانى أو غير بريطانى ، ولا تقع شامها ولبنانها تحت سطوة غاصب ولا يعيث فى أرجاء مغربها فرنسى

خبيث القول والفعل مجنون الإرادة » ثم قلت فى آخرها : « وعن قريب سوف تقول حكومات العرب كلمتها ، وسوف يجتمع رأينا على أننا لن نرضى ، بأن نجعل قضيتنا أجزاء يتلعب بها هذا ويلهو بها ذاك . إنها قضية واحدة ، يرفعها شعب واحد ، مطالبًا بحق واحد ، هو أننا أحرار فى بلادنا » . وأنا لا أنقل هذا لأعرض على الناس شيئًا مما كنت توقعت ، بل لأقول إن السياسة البريطانية قد علمت علم هذا كله ، فهى تريد أن تسبق الزمن لتضعنا فى الإِصْر [١] الشديد الذى يسمى بالمعاهدات ، ولتستعبدنا فى أغراضها ، ولتنتقم منا ومن تاريخنا ، ومن قديمنا وحديثنا . وأقول إن ساسة الشرق وساسة العرب لا يزالون يعيشون فى غفلة الخيانات القديمة التى تولى كبرها رجال ظنوا أنهم زعماء هذه الشعوب ، أى أنهم قد ملكوا رقابها فهم يتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه ، وذهبوا يفاوضون بريطانيا فيأخذون منها شيئًا وينزلون لها عن أشياء كثيرة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، فتبت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، فقد جروا الشرق كله إلى مضلة لا يهتدى فيها سارٍ إلى علم .

ولكن الشعوب العربية كانت أشد منهم قوة ، وأهدى إلى مواطن الحق ، فما كادت تشب الثورة فى العراق حتى نادى أهل العراق بالجلاء الناجز « عن جميع البلاد العربية » ، وهذه الكلمة الشاردة هى كلمة الحق التى سوف ينتهى أمرنا إليها ، أبى السياسيون القدماء أم رضوا . فالبلاد العربية من العراق إلى الجزيرة إلى الشام إلى لبنان إلى فلسطين إلى مصر والسودان ، إلى تونس والجزائر ومراكش ، أمة واحدة ، والاستعمار فيها واحد ، ومطالبها واحدة . فينبغى إذن أن تصاغ قضية العرب على هيئة واحدة ، لا فى السياسة الخارجية وحسب ، بل فى موقفنا جملة واحدة فى وجه الطغيان الاستعمارى كله ، سواء جاء بهذا الاستعمار بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا أو روسيا أو هولندة أو أية دولة على ظهر الأرض .

وينبغى أن تعدل سياسة الدول العربية جملة واحدة ، فتطالب بمطلب واحد

---

(١) الإصْر : القَيْد .

لا تقبل فيه هوادة ولا تخضيعًا ولا مساومة ، هو جلاء الاستعمار عن بلاد العرب كلها . ولقد سبق الشعب العراقى حكومته إلى هذا الرأى ، فنحن نرجو أن يحمل الشعب العراقى حكومته على أن تصرح بهذا المطلب تصريحًا رسميًا فى بيان تصدره بطلب الجلاء الناجز عن جميع البلاد العربية ، وتتعهد بأن لا تقبل مفاوضة ولا محادثة ولا مخابرة ولا مهادنة فى هذا المطلب أبدًا . فإذا فعلت العراق ذلك ، فعلى سائر الحكومات العربية أن تصدر مثل هذا البيان الشامل الذى لا يفرق شيئًا بين الوطن العربى كله ولا بين المستعمرين أيا كانوا .

إنى أدعو الجامعة العربية ورجال السياسة الأحرار أن لا يفرقوا فى الدعوة إلى الحرية ، أدعوهم أن لا يفرقوا قضية العرب أجزاء كل جزء منها يخضع لسياسة تضعف أو تقوى فى يد من يتولاها . فقد فهمت بريطانيا هذا ، فأرادت أن تنشىء مثالا يحتذى فى المعاهدات التى تعقد بينها وبين العرب ، وأرادت أن تحمل فرنسا وأسبانيا على الاتفاق على أسلوب جديد يصطلحان عليه فى الاتفاق مع بلاد المغرب العربى ، يسير على أساس السياسة التى تريدها بريطانيا فى اعتبار العالم العربى جملة واحدة تسخَّر فى ركاب الاستعمار البريطانى والفرنسى والإسبانى . فواجب الجامعة العربية وواجب الحكومات العربية أن تسبق هذه السياسة اللئيمة سبقًا يكفل للشعوب العربية أن تعرف الوجه الذى تسير فيه . فلا مناص إذن من أن تتفق كلمة الدول العربية على أن لا تعقد إحداها معاهدة قط مع إحدى الدول المستعمرة ، وعلى أن لا تقبل تقسيم القضية العربية إلى أجزاء ، وعلى أن تكون دعوتها ودعوة شعوبها صرخة واحدة مجتمعة فى وجه الاستعمار على اختلاف ألوانه وأسبابه والقائمين به ، وهى الجلاء الناجز عن بلاد العرب جميعًا ، ثم عن بلاد الإسلام كلها فى نواحى الأرض . فإذا توانت حكومات العرب ، وإذا تلجلجت الجامعة العربية ؛ فمغبة ذلك أن تفوت على هذه الشعوب زمنًا يطول أو يقصر ، كانت خليقة أن تبلغ فيه ما تريد من نيل الحرية الكاملة ، والاستقلال الناجز التام .

إن ضعف القائمين بالسياسة العربية ، لا ينتهى إلا إلى ضياع الوقت وضياع

الحقوق . ونحن لا نطالب المستعمرين بشيء ، لأنهم لا يملكون شيئًا هم قادرون على أدائه . إنهم مغتصبون ، ونحن ثوار على هذا الغصب ، وهم طغاة ونحن لا نقبل هذا الطغيان ، وهم يملكون أسباب القوة المادية ونحن نملك أسباب القوة الروحية ، وهم ظُلَّام ونحن لا نرضى بهذا الظلم ، وهم يتحكمون بالاستعمار والاستعباد ، ونحن نتعالى عن الاستعمار والاستعباد . فهذه القوة التى انطوى عليها حقنا ، يقابلها ضعف ينطوى عليه افتياتهم علينا . ومصير ذلك كله إلى الغلبة والنصر إذا أحسن رجالنا الاستعداد لهذه الموقعة الفاصلة فى تاريخ البشر .

لم يبق شيء فى تاريخ البشر يحمل طابع الفساد والبوار والدمار ، إلا هذا الجشع الذى يحمل أمم الغرب على أن يضعوا أيديهم على كنوز العالم ؛ ليقاتل بعضهم بعضًا فى حرب مبيدة مدمرة . وقد عرف هذا الغرب أن الشرق كنوز كله ؛ فهو يجاهد أن يستولى عليها بما استطاع من الحيلة ومن اللؤم ، ومن إهدار الكرامة الإنسانية ، ومن قلة المبالاة بإفساد هذا الشرق وإفساد أهله حتى ينال منه منالاً يكفل له حرية التصرف فى كنوزه . فعلينا أن نقف حُراسًا على كنوزنا لا نبيحها بعد اليوم لأحد . وعلى رجال السياسة منا أن يغيروا مناهجهم السياسية تغييرًا تامًّا يقوم على أساس واحد ، هو أننا لن نعاون هذا الغرب على الفجور فى الأرض ، وأننا نمنع عنه مادة الفساد التى يريدها لتدمير حضارات العالم ، وأننا قد عزمنا أن ننشيء مدنيّة جديدة وحضارة جديدة لا تقوم على الجشع ولا على الاستبداد . وأننا أحرار فى بلادنا كل الحرية وإن اجتمعت دول العالم كله على إنكار هذه الحرية . ولا يصل العرب والمسلمون إلى هذا إلا بشيء واحد هو أن تجتمع الكلمة فى الأرض العربية والأرض الإسلامية على هذا الشيء الواحد ، وهو أن لا مفاوضة ولا معاهدة ولا مخابرة ولا مهادنة ، وأن الشرق لن يستقر على قرار حتى تجلو الجنود المستعمرة عن أراضيه كلها ، وأن كل عون للاستعمار فى هذا الشرق من الأجانب واليهود الصهيونيين قد كتب عليهم أن يخرجوا من بلادنا إلى حيث شاءوا ، وأننا لن نقبل دون هذا شيئًا يصرفنا عن الغرض الأعظم ، وهو تجديد حضارة العالم على أسس من العدل والحق والمساواة والحرية . هذا هو المطلب الأعظم الذى ينبغى أن توجه إليه سياستنا كلها ، لا تخدعنا عنه خطرفة

السياسيين المتهالكين الذى يقولون للشرق : أنت عاجز ، فمن لك ببلوغ هذا المطلب البعيد المغرق فى الخيال !

كلا ، ليس الشرق عاجزًا بل هو أهل لما حُمِّل ، وإن تراءى للناس على غير الحقيقة المستكنة وراء هذا الطوفان من الفقر والجهل والفساد . فإذا عزم العرب وعزم رجاله وقواده أن يفعلوا ، فلن يحول بينهم وبين ما يبتغون شىء جل أو تفاقم . بيد أننا اليوم فى حاجة إلى الأخذ بهذا المبدأ الواحد ، وإلى إزالة أولئك السياسيين القدماء عن مكان القيادة فى بلادنا ، وإلى تقدم الفئة الصالحة إلى هذه التبعة الجليلة لتحملها حملا لا يعجزها ولا يصرفها عنه خوف ولا تردد . ولقد سبق العراق ، وسوف تتبعه سائر البلاد العربية والإسلامية ، ولن نلبث قليلا حتى نرى فى هذا الشرق عجائب القوة العظيمة التى انطوت عليها جوانحه ، فلا بد من أن تفسح الحكومات الطريق للعمل القوى الماضى الذى لا يرتد عن غايته ، ولابد من أن تدفع الشعوب عن نفسها طغيان السياسيين المخادعين المنافقين ، ولابد من أن يتولى العرب بأنفسهم حل هذه القضية الواحدة بالصبر والمقاطعة ، وبالعزم والجلاد وبالتضحية الكبرى فى سبيل إنقاذ البشر من فتن كقطع الليل المظلم ، ومن فساد جارف كالسيل المتدفق ، ومن طغيان قذر قد ارتطم فيه هذا العالم القديم الذى قام على أسس فاجرة من الجشع .

أفيقوا أيها الناس ، واستيقظى أيتها الحكومات ، وتقدمى أيتها الجامعة العربية باسم العرب إلى حمل التبعة العظيمة والزمن أسرع منكم ، فبادروه بالعمل والصرامة ، وبالصدق والإخلاص ، فإن حياتكم وحياة أممكم معقودة بشىء واحد ، هو ثباتكم على المبدأ الأعظم ، وأخذكم بالقوة التى استودعها الله فى قومكم وغفلتم عنها أجيالا طوالا . هبوا فقد أَنَى [١] زمنكم وأعدَّكم الله لشىء أنتم بالغوه فى الناس وفى أنفسكم .

* * *

---

(١) أَنَى : حان ودَنا .

الحرية ! الحرية !

أصبحت الجامعة العربية حديث العرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، قد ناطوا بها كل آمالهم فى بلوغ غاياتهم وإدراك ما تتمناه قلوبهم وضمائرهم ، وحسب الجامعة أن تكون قبلة أربعمائة مليون عربى ومسلم فى دنيا كلها عدوّ لنا يبغينا الغوائل . ولكن لا حسب ، فليس من الحق أن نترك الجامعة تسير وحدها فى الطريق دون أن ترتفع أصوات طلاب الحق تؤيدهاوتسددها وتشير عليها بالرأى بعد الرأى ، فإن رجال الجامعة رجال من أنفسنا ، قد رضيت العرب أن تعهد إليهم بقيادة هذه الشعوب المطالبة بالتحرر من قيود الاستعمار التى ضربت علينا ونحن فى غفلة عن الدنيا الضارية التى أرسلت علينا وحوشها ترتع فى حمانا ، وتستأثر بخير بلادنا ، وتنال منا نيلا شديدًا .

وقد آن أوان تغيير ما كان وما سار عليه العمل فى السنوات الماضية . فالجامعة ترى كما يرى كل عربى ومسلم منذ وضعت الحرب العالمية الماضية أوزارها ، أن أوربة الجائعة التى لا تشبع ، قد خرجت من تحت أنقاض الحرب المدمرة وهى أشد ضراوة ووحشية مما كانت قبل الحرب وفى زمان الحرب . وأنها تريد أن تلتهم كل شىء فتشبع ونجوع نحن ، وتعبث ونئن نحن ، وتستغرق فى الترف وناعم العيش وإن أغرقتنا نحن فى الضنك وبؤس الحياة . فهذه روسيا تريد أن توغل حيث أطاقت وحيث تيسر لها أن تتوغل . وهذه بريطانيا الكاهنة العتيقة العاتية تريد أن تتلو زمازم [(١)] كهانتها على شعوبنا لتنيمَنا مرة أخرى على الخسف الذى نمنا عليها أجيالا طوالا . ثم هذه ثالثة الثلاثة أمريكا التى لا ينطفئ أُوار ظمئها إلى البترول ، تريد أن تستنفد كل شىء ما استطاعت ، لتنعم هى به

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٣) ، فبراير ١٩٤٨ ، ص : ٢١٤ - ٢١٦

(١) الزمازم : جمع زَمْزَمَة ، وهو كلام المجوس بصوت خفيّ ، لا يستعملون اللسان ولا الشفتين ، وإنما يديرونه فى خياشيمهم وحلوقهم فيفهم بعضهم عن بعض .

وبكل ما يطيق العلم أن يحدثه من ترف أو قوة ، فتدخل مع بريطانيا فى الحلف الاستعمارى ، لا تبالى أن تناقض تاريخ الأحرار القدمـــاء من رجالها وبناة مجدها .

وترى الجامعة كما يرى كل عربى مسلم ، أن الشرق العربى والشرق الإسلامى لم يقرَّ له قرار منذ سكنت نار الحرب ، فقد انبعثت أندونيسيا تريد الحرية فلم يبال بها أحد ، وانبعثت الهند تريد الحرية فأناموها بأن أدخلوها فى نظام الدومنيون ، وهبت مصر والسودان تجادل عن حقها فى مجلس الأمن فأصمت الأمم الداعية إلى الحرية آذانها ، وعلقوا القضية فى هيكل الوثنية الحديثة التى تعبد إله الشهوات ، وثار العراق يريد أن يحطم قيود الذل فأرادت بريطانيا أن تختدعه عن نفسه فأبى إباء الأحرار ، وماج المغرب العربى فى تونس والجزائر ومراكش ، فضربت عليه فرنسا حكم الجبروت وألقت بينه وبين العالم أسدادًا من فولاذ الظلم والطغيان ، وسكت العالم الجديد عن هذا البغى اللئيم الذى ليس له رادع من نفسه ولا من الناس . وفارت مدغشقر فأطفأ المستعمرون تلك الأرواح المستعرة بأسنة الحراب . وأخيرا كشفت روسيا وبريطانيا وأمريكا وسائر الدول الصليبية قناع النفاق والرياء ، فقضت أن تطلق على فلسطين أنذال البشرية من يهود ، ليطردوا العرب من أرض آبائهم وأجدادهم منذ كان للعرب على هذه الأرض تاريخ ، فأجمعت الأمم الإسلامية على أن ترد على العدوان وإن اجتمعت الدنيا كلها على تحقيقه ومناصرته .

ترى الجامعة العربية كل هذا كما يراه كل مسلم وعربى ، ولكنها لا تزال تسير فى أمر هذه الثورة الجامحة - التى يريد بها العرب والمسلمون أن يطهروا أنفسهم من الاستعباد ، وأن يطهروا أرض الله من البغى والعدوان - سيرةً لم يسرها قبل مطالب بحق يعلم أنه حق لا نزاع فيه . فهى تشغِل نفسها مثلًا بقضية فلسطين وحدها - على خطر شأنها - وتنسى ما يجرى فى مراكش وتونس والجزائر ، وما يحدث فى العراق ، وماهو كائن فى مصر والسودان ، وما لا يزال يحدث فى أندونيسيا وسائر البلدان والأمم المطالبة بالحرية . ولعلها تقول إنها تنظر فى الأهم

ثم المهم ، وإنها لا تريد أن تخرج عن الأصل الذى وضعت له والذى يدل عليه اسمها وهو « جامعة الدول العربية » ، لا جامعة العرب ، ولا جامعة الإسلام ، ولا جامعة الشرق . وهذا حق ، ولكن ما الذى يحسبها [١] على هذا وحده ؟ وما معنى أن تقصر أمرها على الدول العربية « المستقلة » فى ظاهر الأمر ؟ إن هذه الدول العربية « المستقلة » ليست مستقلة فى حقيقة الأمر ، وإلا ففيم ثورة مصر والسودان ؟ وفيم ثورة العراق ؟ وفيم غليان شرق الأردن ؟ فليس من الرأى أن تظل الجامعة العربية مقيدة بأشياء هى حبر على ورق ؛ بل ينبغى أن تضم إليها رجالا من تونس والجزائر ومراكش ، وينبغى أن تضم إليها رجالا من سائر الدول الإسلامية والشرقية ممن لهم مع العرب صلات لا يمكن أن تقطعها هذه القواطع المزيفة ، وينبغى أن تعلن الجامعة العربية أنها قد أخذت على عاتقها أن تدافع عن حرية العرب وحرية المسلمين ، وينبغى أن تكون هى المؤتمر العام الذى ينضم إليه كل ناشد للحرية فى هذه الأرض مهما اختلفت الأجناس والأديان .

بل ينبغى أن تجمع الجامعة العربية فى يدها أمر السياسة العربية والإسلامية جملة واحدة ، وأن تضع المبادئ التى يجب على كل أمة تنضم إليها أن تعمل بها ، وأن تكون هى المعبرة عن النداء العام الذى تنادى به هذه الأمم والشعوب وهو : الحرية ! وينبغى أن تسير فى ذلك كله مرة واحدة ، فلا تفرق قضية الحرية إلى قضايا كل واحدة منها تعالج على أسلوب يخالف أخاه أو يتخلف عنه .

إن روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا وسائر الدول المستعمرة ، أو أذيال الدول المستعمرة ، قد اتفقوا جميعًا على العرب والمسلمين وأهل الشرق ، ففيم نتأخر نحن أو نحجم أو نتلجلج؟ ولم لا نعمل جميعًا جملة واحدة ، ويدًا واحدة ، وفى وقت واحد ، وأى عائق يعوق المطالبين بالحرية والناشدين لها عن اجتماع الكلمة على هذا الحق الذى لا يملك أحد أن يمنحه أحدًا ، لأنه عطية الله ونعمته ، ليس لأحد أن يسلبه ؟ وكيف يسلبه وهو قوام هذا البنيان الإلهى ؟ فإذا خلا هذا البنيان

---

(١) كذا فى الأصول ، والأوفق أن تكون : يَخْبِسُها ، كما يتضح من الكلام الآتى بعد .

من الحرية ، فقد خلا من الحياة وانهدم ، وكان أنقاضًا تسعى على أرض تلفظها ، وتستظل بسماء تلعنها .

إن جامعة الدول العربية ، إنما تتكلم اليوم باسم الشعوب العربية لا باسم الحكومات وحدها . فلتعلم الجامعة أن الشعوب قد سئمت هذه السياسة العتيقة البالية ، سياسة المداورة والمحاورة ، سياسة الظنون الخداعة ، سياسة المغررين الذين يحسبون أن سينالون حقوقهم بالمفاوضات والمحادثات والمخابرات والمخادعات . فلتحذر إذن أن تقف دون الغاية التى تسعى إليها شعوبها ، ولتخط الخطوة الواسعة التى خطتها الشعوب فى سبيل درك الحرية وانتزاعها من يد الجبابرة الظالمين . إنها اليوم أعظم قوة فى هذا الشرق العربى والإسلامى ، فلزام عليها أن تنطق بإرادة هذه الشعوب مجتمعة ، لا بإرادة حكومات تغرَّر بها السياسة ، ولا بإرادة أفراد مهما بلغ سلطانهم فهو دون سلطان الشعوب التى يمثلونها ، بل ينبغى أن تكون الجامعة هى الرقيب الذى لا ينام على إرادة هذه الحكومات وعلى إرادة هؤلاء الأفراد ، طبقًا لإرادة الشعوب وحدها .

إنى لا أزال أنذر الناس أننا نعيش اليوم فى زمن غير الزمن الذى ألفوه منذ خمس سنوات وحسب ، فاليقظة التى تدب اليوم فى كيان الشعوب العربية والإسلامية أضخم وأعظم وأقوى مما يخطر ببال أحد ، إنها القوة التى لا يقف دونها سلطان ولا طغيان ولا بأس . نعم ، إن النظر العابر الخاطف لا يكاد يدل على هذه الحقيقة ، ولكن النظرة المتأنية المتعمقة تستطيع أن تحس بهذه الحركة الجياشة التى فار فائرها تحت هذا الظاهر الساكن المطمئن . وإنما يغفل من يغفل عن إدراك هذه القوة ، لأنه ألف شيئًا مضى ، فقاس عليه شيئًا جديدًا يراه وهو متأثر بهذا الماضى ، ولأنه مسوق فى عنان هذه السرعة الخاطفة التى يجرى بها عالمنا الحاضر إلى الغايات التى لا يعلم غيبها إلا عالم غيب السموات والأرض . ولكن الجامعة العربية قد فرض عليها أن تنظر النظرة المتأنية العميقة لتدرك هذه الحقيقة التى لا تخفى ، ثم تقيم سياستها على هذا الأصل وحده دون الأصول الأخرى التى ورثتها عن السياسات العتيقة ، سياسة المفاوضات والمخادعات ، وسياسة الأخذ والإعطاء ، وسياسة تقسيم القضية الواحدة – قضية الحرية .

إني أنذر الحكومات ، وأنذر الجامعة العربية بأن هذه اليقظة القوية العنيفة سوف تنكشف عن قريب ، وأنها إذا لم تجد الحكومات ، ولم تجد الجامعة العربية ، قد تهيأوا للسير فى خطاها . فهى ستدمرهم جميعًا ، ويخشى يومئذ أن تنقلب هذه اليقظة فتنة هوجاء لا قائد لها تعصف بهم جميعًا عصف الرياح بهشيم النبات . فليتق الله كل عامل منا ، ولينظر إلى غد ، وليعرف حقيقة هذه الشعوب ، وليأخذ نصيبه من التبعة التى ألقاها عليه مكانه من الناس ومن الشعوب .

إن قضية الشعوب العربية والشرقية والإسلامية « قضية واحدة » ، فاكتبوا هذه الكلمة فى كل مكان ، ورددوها بكل لسان ، واهدروا بها هدير الأمواج فى هذه البحار المظلمة ، فإنها كلمة النجاة لكم ولشعوبكم وللناس جميعًا .

إن ساعة الخطر الأعظم قد دنت وتطابقت علينا عقاربها من هنا ومن ثم ، وإن بريطانيا أولا ثم أمريكا وروسيا وأذيالهم من أمم الاستعمار الصليبية ، تدرك هذه الحقيقة كل الإدراك ، فهى تريد أن تمزق شمل هذه القوة قبل أن تجتمع وتبدو جملة واحدة . فبريطانيا تريد أن تشغل كل قبيل منا أو كل دولة بشأن من شئونها التى تثير جماهير رجال السياسة القدماء ، أولئك الرجال الذين نشأوا فى أحضانها ، أو فى أحضان استعمارها الخبيث . وأمريكا تريد أن تشغل كل أمة منا باللعنة الماحقة التى تقوم عليها قوتها وهى البترول ومنابع البترول ، تشتريه من هذه الأمم الفقيرة بأبخس الأثمان ، فتنقله إلى بلادها فيكون أرخص ثمنًا من البترول الذى تستخرجه من نفس أرضها ! وتخدع هؤلاء المساكين بالدولار تعطيه ، وهو ليس عطية ، بل محنة وبلاء واستعبادًا للإنسان الفقير الذى يظن أن المال هو كل شىء فى هذه الدنيا . وأما روسيا فهى تعمل جاهدة على أن تأتى هذه الشعوب من طريق فتنتها عن الهدف الأعظم وهى الحرية ، وتوجهها إلى الفتنة الخبيثة توقدها بين الغنى والفقير ، والمالك والمستأجر ، والعامل وصاحب المال ، حتى إذا صرفت الوجوه عن حقيقة الحياة - أى عن الحرية - دخلت فاستقرت وتحكمت واستبدت ، وفعلت بنا ما فعل هؤلاء الديمقراطيون : زعموا أنهم يدافعون عن الحرية ثم سلبونا حريتنا ، وتدعى روسيا أنها تريد المساواة بين الناس ؛ فإذا دخلت

بيننا حرمتنا هذه المساواة . إن هذه الدول جميعًا على اختلافها واختلاف مصالحها قد اتفقت على مصلحة واحدة هى أن تقتلنا ، ثم يأتى بعد ذلك تنازعهم واقتتالهم على أسلاب هذا القتيل .

فالجامعة العربية هى التى كتب عليها منذ اليوم أن تقف حيال هذه القوى مجتمعة لتردَّها عن هذا الهدف اللئيم الذى تسعى اليه ، فلتجمع فى لسانها ضمير هذه الشعوب المستهدفة للخطر الأعظم ، ولتنطق بالكلمة الواحدة التى تعبر عن هذا الضمير ، وهى أن قضية العرب والشرق والإسلام قضية واحدة ، قضية لا تتجزأ لأن الحرية لا تتجزأ . والجامعة العربية تعلم - أو ينبغى أن تعلم - أنها إذا نطقت بهذه الكلمة وجعلتها أصل سياستها التى لا نقبل فيها مهادنة ولا مفاوضة ولا مجادلة ، انبعث من ورائها قوة أربعمائة مليون نسمة تهتف من ورائها هتافًا يهدّ الجبال الراسيات ، ويشتت بأس الأمم الطاغية بسلاحها ومدمراتها وجبروتها وبغيها ويهودها أيضا . إنهم أربعمائة مليون يهتفون بلسان واحد فى وقت واحد : الحرية الحرية !

إنها قضية واحدة أيتها الجامعة ! إنها قضية واحدة أيتها الحكومات ! إنها قضية واحدة أيها الملوك والأمراء ! فأجمعوا أمركم وتنادوا جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها - من حدود الصين إلى بلاد المغرب الأقصى ، ومن أطراف الشام إلى جنوب إفريقية . تنادوا بالكلمة الواحدة التى تزلزل هذه الأرض التى امتلأت جوانبها بغيًا وظلمًا وفسادًا ، تنادوا بحرف واحد وبلسان واحد ، وفى وقت واحد : الحرية ! الحرية ! ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

* * *

لمن أكتب ؟

بينى وبينها أيام معتقة كأنها خمر فى دِنان الزمن ، فإذا ما قدّر الله لنا أن نجتمع يومًا ، طارت بلبى نشوة ترمى بى إلى عالم ساكن ناضر ناعم النسمات ، فأفارق بها عالمًا صاخبًا محترقًا لافح الرياح عاصف الأعاصير . واجتماعنا هو إحدى الأمانى التى يقول فى مثلها الشاعر :

أمانى من سعدى رِواءٌ ، كأنما
سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

وإذا اجتمعنا وتنهدت بيننا الأحاديث ، فربما فاجأتنى بالسؤال لا أتوقعه ، فيردنى سؤالها إلى نفسى ردًّا عنيفًا لا أملك معه إلا أن أديم طرفى إلى هذا الوجه الذى يخفى وراءه نفسًا ثائرة ، ولكنها ساكنة على ثورتها سكون الجبال الراسيات . ولست أدرى أتلك إحدى لطائف الحيل التى تحب أن توقظنى بها من غفوة الأحلام ، أم تلك يقظة دائمة فى نفس لا تطيق إلا أن تكون متيقظة حين يدعوها الهوى إلى إغفاءة تريحها من ثورة نفسها واضطرابها ؟ وأى ذلك كان ، فهى قد أخذتنى أخذًا شديدًا حين استوت فى جلستها وقالت : حدثنى ، لمن تكتب هذا الذى تكتبه ؟ إنهم جميعًا نيام يغطون ، فلو قذفتهم بالشهب أو الصواعق لناموا على وقعها أو إحراقها .

فلما أفقت على سؤالها ، جعلت أردده فى نفسى وأنا أملأ عينى من صفاء هذه الينابيع التى تترقرق فى وجهها وفى عينيها . وأخيرًا قلت لها : لن أجيبك إلا حيث تقرأين كلامى ، ودعينا لما بنا ، فإن لقاءنا ساعةٌ فرت إلينا من هذا الفراق السرمدى .

* * *

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٦) ، مارس ١٩٤٨ ، ص : ٢٧٤ - ٢٧٦ .

لمن أكتب ؟ لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب ؟ ولم أكتب ؟ ولكنى أحس الآن من سر قلبى أنى إنما كنت أكتب ، ولا أزال أكتب ، لإنسان من الناس لا أدرى من هو ، ولا أين هو : أهو حى فيسمعنى ، أم جنين لم يولد بعد سوف يقدَّر له أن يقرأنى ؟ ولست على يقين من شىء إلا أن الذى أدعو إليه سوف يتحقق يومًا على يد من يحسن توجيه هذه الأمم العربية والإسلامية إلى الغاية التى خلقت لها ، وهى إنشاء حضارة جديدة فى هذا العالم ، تطمس هذه الحضارة التى فارت بالأحقاد والأضغان والمظالم ، ولم يتورع أهلها عن الجور والبغى فى كل شىء ، حتى فى أنبل الأشياء – وهو العلم .

لم يخامر قلبى يأس قط من هذه الفترة التى نعيش فيها من زمننا ، ولم يداخلنى الشك فى حقيقة هذه الشعوب ، وإن كانت لا تزال تعيش فى بلبلة جياشة بأخلاط من الغرور والخداع والعبث ، وفى أكفان من الفقر والجهل والمخافة ، وفى كهوف من الظلم والاستبداد وقلة الرحمة . كل ذلك شىء أراه وأعرفه ، ولكنى أستشف تحت ذلك كله نقاء وطهرًا وقوة تدب فى أوصال هذا العالم الذى أوجه إليه كلامى ، وهو خليق أن يتجمع للوثبة فى الساعة التى كتب له فيها أن يهب مرة واحدة تذهل الناس كما أذهلتهم من قبل ، وهو خليق أن يكون سر الحياة الجديدة التى تضرب عروقها إلى عصور بعيدة فى تاريخ البشر . ولعل هذه المحن التى أحاطت به من خارج ، والتى استبطنته من داخل ، هى حوافز البعث الجديد ، وهى نار التمحيص التى تنفى خبثه كما ينفى الكير خَبَث الحديد .

أنا أعلم أن رجال السياسة عندنا لا يزالون أَوْزاعًا [١] من خلق الله لا ندرى كيف نشأوا ، وعلى أى شىء قامت شهرتهم ولا إلى أين تمضى أهدافهم ، وهم فوق ذلك كله قد لوّثوا ضمائرهم وعقولهم وأخلاقهم وعزائمهم بأشياء لا يمكن أن تؤدى إلى خير وهم قد أشربوا فتنة بأخلاق الساسة الطغاة الذين ابتلى بهم

(١) أوزاع : الفِرَق والجماعات من الناس ، يكون متفرقين غير مجتمعين .

الغرب وامتحنت بهم الحضارة الغربية . ولست أشك ساعة فى أنهم لا خير فيها البتة ، مهما دل ظاهر تدليسهم أو تدليس الصحافة بأسمائهم على أنهم يفعلون خيرًا أو أنهم سوف ينتهون إلى خير ولست أرتاب البتة فى أن الخير كل الخير هو فى زوالهم جملةً واحدة من مكانهم ، لكى يتسنى لهذه الشعوب العربية والإسلامية أن تهتدى إلى الحق فى حياتها وفى جهادها وفى أهدافها .

وأنا أعلم أن رجال العلم من أى أقسامه كانوا ، لا يزالون يتعبَّدون أنفسهم لكثير مما لا نفع فيه لأممهم ، بل لعلهم لا يزالون يترفعون عن هذه الشعوب الفقيرة الجاهلة ، والتى هى شعوبهم ، ظنًّا منهم أنها شعوب لا تستطيع أن تبلغ ما بلغ الناس فى العلم ، فضلا عن أن يدركوا سوابق العلماء فى هذه الفترة من زماننا ، فضلا عن يسبقوا أمم الحضارة الحاضرة فى ميدان هذه العلوم . وهم فى خلال ذلك - إلا من عصم الله - يبسطون ألسنتهم بسطًا شديدًا فى أعراض هذه الشعوب ، فيقرفونها بكل مَسَبَّة ، ثم يصرفون وجوههم إلى أوربة وأمريكا وغيرهما كأنما هم منها ومن صميمها ، لا من هذه الشعوب البائسة التى ظنوا أن الموت كتاب محتوم عليها .

وأنا أعلم أن أكثر أهل السلطان فى هذا الشرق ، لا يزالون يعيشون فى عزلة لا يبالون قليلا ولا كثيرًا بما فيه خير بلادهم ، وأنهم يحتقرون جماهير الشعوب احتقارًا ينسرب فى خاصّ كلامهم كما ينسرب فى أكثر أفعالهم . وهم فئة قليلة فتنتها النعمة والترف واللذاذات ، حتى ما تبالى أن تصب على أممها ضروبًا من المظالم كان ينبغى أن تترفع عن ارتكابها ، لا رحمة بالناس ، بل مخافة من الناس ، فالشعوب إذا هاجها ما يهجيها لم تبق على شىء وإن كان فى بقائه خيرها .

وأنا أعلم أن أهل الدين - إلا من رحم ربك - قد رَمْوا بدينهم ظِهريًّا ، وإن لبسوا لباسه وتشبهوا على الناس وغرَّوهم باسم هذا الدين . وهم يأكلون باسم الدين نارًا حامية ، وهم قد فقدوا بفقد آداب هذا الدين كل شىء يجعل لهم عند الناس مكانة ترفعهم عن الشبهات ، وبذلك أصبحوا كالعامة التى تحتاج إلى من يقودها ويهديها .

وقصارى ما يقال هو أن الحياة فى هذا الشرق على اختلاف نحله ومذاهبه وأديانه وأحزابه ، قد صار كأهل سفينة جُنَّ أكثر من فيها ، وكلهم يريد أن يقود السفينة كما خيلت له طوائف وساوسه وأوهامه ، مستبدًّا بما يرى من الرأى . ولكنى مع ذلك لن أيأس ساعة من أهل الخير ، لن أيأس من رجل أو رجال توقظهم هذه البلوى المحيطة بالجماعة ، فيدفعها حب الحياة وحب الخير إلى نفض غبار القرون عن أنفسهم ، ثم تنشط من عقالها إلى قيادة هذه الناس بقوة تنفث فى هؤلاء جميعًا رُوحًا مسدِّدة هادية تبرئهم مما أصابهم ، وتستنقذ منهم من يصلح للبقاء والعمل فى جيل جديد ، له هدف معين ، وله طريق لا يفارقه ، وله همة جياشة تجعله يطوى المسافات المترامية طيًّا حتى يصل إلى غايته لم يلحقه كلل ولا سآمة ولا إعياء .

فأنا أكتب لرجل أو رجال سوف يخرجون من غمار هذا الخلق ، قد امتلأت قلوبهم بالقوة التى تنفجر من قلوبهم كالسيل الجارف ، تطوح بما لا خير فيه ، وتروى أرضًا صالحة تنبت نباتًا طيبًا .

ومهما كان من أمر تلك الطوائف التى ذكرتها ، ومهما كان رأيها فى هذه الشعوب التى تنتمى إليها ، ومهما عدت شعوبها سائمة ترعى أيامًا معدودة حتى تتخطفها أرماح الأجل ، فمن هذه (السائمة) سوف ينفرد رجل يقود الشعوب بحقها لأنه منها : يشعر بما كانت تشعر به ، ويألم لما كانت تألم له ، وينبض قلبه بالأمانى التى كانت تنبض فى قلوبها . وهو وحده الذى يعرف كيف يرفع عن عيونها حجاب الجهل ، ويطرح عن كواهلها قواصم الفقر ، ويملأ قلوبها بما امتلأ به قلبه من حب هذه الأرض التى تعيش فيها مضطهدة ذليلة خائفة .

إنه الرجل الذى قد خُلطت طينته التى خلق منها بالحرية ، فأبت كل ذرة فى بدنه أن تكون عبدًا لأحد ممن خلق الله على هذه الأرض ، فهو يشرق من جميع نواحيه على أجيال الناس كلها كما تشرق الشمس ترمى بأشعتها هنا وهنا ، ولا يملك الناس إلا أن ينصبوا لها وجوههم وأبدانهم ليذهب عنهم هذا البرد الشديد الذى شلهم وأمسك أوصالهم عن الحركة . وهو يسير بينهم فتسرى نفسه فى نفوسهم ، فتموج الحياة فيهم بأمواجها التى لا يقف دونها شىء مهما بلغت قوته أو جبروته .

ألا إن الشرق العربى لينتظر صابرًا كعادته هذا الرجل . وإنى لأحس أن كل شرقى قد أصبح اليوم يتلفت لا من حيرة وضلال ، بل توقعًا لشىء سوف يأتى قد أنَى [١] زمانه ، ففى كل نفس منه خاطرة تختلج . وهذا الإحساس فينا هو الذى يحملنى على الإيمان بأن ذلك كائن عن قريب ، وأننا قد أشرفنا على زمن قد كتب الله علينا فيه أن نجاهد فى سبيله ، ثم فى سبيل الحق والحرية والعدل ، لأننا نحن أبناء الحق والحرية والعدل ، قد ارتضعنا لبانها منذ الأزل البعيد . وكل ما دخل علينا فى القرون الماضية من المظالم والأكاذيب والاستبداد ، لم يستطع أن يخفت ذلك الصوت الذى تتجاوب به نفوسنا باسم الحق والحرية والعدل .

إن هذه الشعوب التى تُرَى اليوم كأنها على بلادها أسمالٌ بالية ممزقة ، قد بدأت تحس أن عليها أن تتجدد أو أن تزول ، وطبيعة الحياة تأبى لها أن تزول ، فهى لابد أن تتجدد . وهذا الدافع وحده سوف يمهد للرجل المنتظر أن يزأر زئيره فتصغى له آذان الملايين من أبناء الشرق ، ثم تنطلق من مجاثمها إليه مجيبة لندائه ، فإذا انطلقت إليه أرسالاً [٢] ، فيومئذ لن يقف فى طريقها أولئك الساسة المنافقون ، ولا أولئك العلماء المتبجحون ، ولا أولئك الديَّانون المخادعون ، بل سوف يصيرون تبعًا ، وقد طال ما خيلت لهم نفوسهم أنهم الرؤوس والسادة .

فأنا إن كتبت ، فإنما أكتب لأتعجل قيام هذا الرجل من غمار الناس ، لينقذنا من قبور جثمت علينا صفائحها [٣] منذ أمد طويل . وليس بيننا وبين هذا البعث إلا القليل ، ثم نسمع صرخة الحياة الحرة العادلة يستهل بها كل مولود على هذه الأرض الكريمة التى ورثناها بحقها ، ليس لنا فى فتر [٤] منها شريك .

* * *

---

(١) أنى : حان ودنا .
(٢) أرسالا : جماعات ، واحدة بعد الأخرى .
(٣) الصفائح : حجارة عِراض توضع فوق القبور ، المفرد صَفِيحة .
(٤) الفِتْر : مسافة مابين السبَّابة والإبهام .

على حد منكب

قلت قديمًا فى الرسالة [١] إن الشيخ إبراهيم اليازجى ومن لف لفه كالمعلم الشرتونى ، هم أصحاب حشد وتخليط فى جمع اللغة . وآفة الحشد والاستكثار ترك التبصر ومجافاة التمحيص . ثم يأتى الناس بعد ذلك فيأخذون هذا الحشد على ثقة وأمن ، فتزداد بلبلة الناس فى شأن اللغة . فما كل أحد يصبر على تتبع الكلام المبعثر فى الشعر والنثر ، ثم جمعه وتأليفه ، ثم النظر فى أصوله ومبانيه ، ثم تمحيص المعانى المختلطة ورد كل قرينة منها إلى أختها .

وقد قرأت فى عدد الرسالة (٩٠٨) ما نقله الأستاذ محمود أبو رية من كتاب نجعة الرائد لليازجى : (هو منه على حد منكب : أى منحرف عنه دائم الإعراض) وما عقبت به الرسالة من قول أقرب الموارد : (وفلان معى على حد منكب : أى كلما رآنى التوى ولم يتلقنى بوجهه ، وهو كقولهم : فلان يلقانى على حرف) . وأستطيع أن أوسع لليازجى والشرتونى فى هذا الموضع مكان العذر ، فقد نقلا ، ولكنهما لم يتنخَّلا الكلام ولم يمحصاه . والذى أوقعهما فى هذا الوهم ، هو حب الاستكثار ، ثم اطمئنانهما إلى شيخ قديم كان من أئمة العربية ، ولكنه كان أيضًا عريض الدعوى ، جريئًا على التوهم ، كثير التخليط فى اجتهاده ، بل كان يدلس فيما يكتب ، إذ كان يأتى بالشىء يوهمك أنه مما نقله عن الرواة قبله ، وهو فى الحقيقة مما اخترعه بسوء رأيه وقلة معرفته بغامض كلام العرب - ولا أعنى غريبه ، فهو كان قيما بالغريب حفظًا ونقلا . وهذا الشيخ القديم هو الخطيب التبريزى شارح الحماسة . ويدل شرحه للحماسة على

---

* الرسالة ، السنة الثامنة عشرة (العدد ٩١٠) ، ديسمبر ١٩٥٠ ، ص : ١٣٨٥ - ١٣٨٧

(١) مضى هذا المقال بعنوان « الهجرة » ، الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٦) ، ١٩٤٠

ما ذكرت من صفته ، وعلى شىء آخر ، هو ضعفه الشديد فى فهم دقائق الشعر العربى . ثم على شىء آخر أيضًا ، هو أنه مشغول بالنحو وما إليه وبالإغراب فى بيان وجوهه المختلفة . وهذه الكلمة التى نقلها اليازجى والشرتونى عنه ، هو صاحبها ، وهو مدعى هذا المعنى لها ، ولم ترد فى شعر قديم ، ولا نثر معروف ، على الوجه الذى توهمه التبريزى واحتال له . وإنما أتى الشيخ من سوء فهمه لما تولى شرحه من شعر الحماسة .

جاءت الكلمة فى شعر للبعيث بن حريث بن جابر الحنفى ، أحد بنى الدُّوَل ابن حنيفة بن لجيم ... بن بكر بن وائل ، وهى أبيات جياد مختارة ، يذكر فيها طروق طيف صاحبته على بُعْد الزيارة ، ثم مسيره فى البلاد ، ثم يفخر بنفسه وبمحاماته دون عشيرته وذبه عن مآثرها ومجدها ، يقول فى مطلعها :

خيال لأُمّ السَّلْسَبيل ودونها ... مَسيرةُ شهرٍ للبريد المُذَبْذَبِ ![1]

حتى يفخر بما فعل فى نصرة رجلين من قومه هما (يزيد) و (عبس) ، كانا استصرخا به فى مُلِمَّة من ملمات الحروب ، فنصرهما وحامى عنهما ، واستنقذهما ، وهم يومئذ جميعًا فى غربة عن ديار عشيرتهم ، قال البعيث فى ذلك :

وإن مَسِيرى فى البلاد ومنزلى ... لبالمنزل الأقصى إذا لم أُقَرَّبِ[2]

ولست ، وإن قُرِّبْتُ يومًا ببائع ... خَلاقى ولا دينى ابتغاء التحبُّبِ[3]

ويَعْتَدُّهُ قوم كثير تجارةً ... ويمنعنى من ذاك دينى ومنصبى

دعانى يزيد ، بعد ما ساء ظنه ، ... وعَبْسٌ ، وقد كانا على حَدِّ مَنْكِبِ

وقد علما أن العشيرة كلَّها ، ... سوى مَحْضَرِى ، من خاذلين وُغيَّبِ

فكنتُ أنا الحامى حقيقة وائل ... كما كان يَحْمِى عن حقائقها أبى

---

(١) المذبذَب : المُتَعَجِّل .

(٢) أقرَّب : أُكرَّم وأُدْنى .

(٣) الخلاق : الحظ والنصيب من الصَّلاح .

ويظهر لى أن البعيث كان قد خرج هو وصاحباه (يزيد وعبس) إلى خراسان فى ولاية أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، ومن أجل ذلك قال : « ومن دونها مسيرة شهر للبريد المذبذب »

قال التبريزى فى شرح البيت : « أى أشرفا على الهلاك . هذا إذا رويت بفتح الكاف . يقال : أصابه نَكْبٌ من الدهر ومَنْكَب ونَكْبة ونُكُوب كثيرة . ومنه حافر نَكِيب ومَنْكُوب : إذا أثَّر فيه حجر أو غيره . ويروى (على حد منكِب) بكسر الكاف . يعنى أنهما كانا مهاجِرَيْن له . يقال : فلان معى على حد منكِب : أى كلما رآنى التوى ولم يتلقنى بوجهه . وتنكَّب عنى : أى اجتنبنى . والمنكب من كل شيء جانبه وناحيته . ومثله قولهم : فلان يلقانى على حرف . وفى القرآن ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ﴾ . ويجوز أن يريد بقوله : (بعد ما ساء ظنه) بعد تسلط اليأس والقنوط من الحياة » [(١)] .

والذى حمل التبريزى على التفسير الذى اجتهد فيه ، وادعى فيه دعوى ليس عليها بينة من نفس الشعر ، ولا من كلام العرب ، بعد أن قارب المعنى الصحيح فى الشعر بقوله « أى أشرفا على الهلاك » - أنه أتى من سوء فهمه الذى بدر إليه فى معنى قوله : « دعانى يزيد بعد ما ساء ظنه وعبس » فتوهم أنه أراد (بعد ماساء ظنه فى) ، ثم ازداد فى توهمه فزعم مهاجرَة كانت بين البعيث وصاحبيه عبس ويزيد ، لكى تتسنى له المداخل إلى دعواه فى تأويل الكلام على وجهٍ توهمه واخترعه ، ثم أثبته بقوله « يقال : فلان « معى على حد منكب » . وهو شيء لم يقله غير التبريزى نفسه ، بالمعنى الذى فسره به ، وكان من حيرته أن عاد فى آخر شرحه يقول : « ويجوز أن يريد بقوله (بعد ما ساء ظنه) أى بعد تسلط اليأس

---

(١) كلام أستاذنا عن التبريزى فى تهجمه على المعانى وانشغاله بالنحو حق لا مراء فيه . ولكن أستاذنا هنا افتات على التبريزى وظلمه ، فهذا الشرح لم يختلقه التبريزى ، وإنما نقله عن المرزوقى بنصه (الحماسة بشرح المرزوقى ١ : ٣٨٠ - ٣٨١) ، وهذا شأن التبريزى دائما ، فقد اهتدم شرح المرزوقى حين كتب شرحه على حماسة أبى تمام ، وزاد عليه فى مسائل النحو والإعراب واشتقاق الأسماء . فالمرزوقى هو الذى اجتهد ، وهو عندى عريض الدعوى ، جرىء على التوهم ، كثير التخليط فى اجتهاده .

والقنوط من الحياة » ، كأن الأول الذى فهمه هو الصواب وكأن هذا الثانى جائز على تمريض [١] .

وأخطأ التبريزى فيما فهم من قول الشاعر (ساء ظنه) ، أخطأ أيضًا فى هذا التفسير الذى قال إنه (يجوز) أن يكون من وجوه تأويلها ، فالعرب حين تأتى بقولها (ساء ظنه) فى مثل هذا الموضع ، إنما تريد بالظن : ذميم الخواطر التى تخامر نفس المحارب حين يحمر البأس ، إذ يحدث نفسه بالهرب والفرار حبا للحياة وحرصًا على الأموال ، فيرتكب أخلاق اللئام والأنذال والجبناء فى ترك المحاماة عن الأعراض مخافة الموت المطبق . فمن ذلك قول أشابة بن سفيان البجلى .

ومُسْتَلْحَمٍ يدعو ، وقد ساء ظنه ، ... بمهلكة ، والخيلُ تَدْمَى نُحورُها
كررت عليه ، والجياد كأنها ... قنًا زاعِبىّ ، لم تَشِنْها فُطورُها [٢]
فنهنهتُ عنه أولَ الخيل ، إننى ... صبور ، إذا الأبطال ضجَّ صَبورُها

والمستلحم : من قولهم : استلحم (بالبناء للمجهول) أى روهق فى القتال واحتوشه العدو من هنا وهنا . فهو يدعو باسم عشيرته ، وقد حدث نفسه بالفرار . وهذا البيت هو نفس معنى بيت البعيث . إلا أن هذا قال : « بمهلكة » ، والآخر قال : « وقد كانا على حد منكب » بفتح الكاف . وهو أيضًا ما قاله التبريزى أولا ، ثم أخذه حب الاجتهاد ، فظن ظنًّا خطأً جعله رواية للبيت ، بكسر الكاف ، ثم توهم وتصنع الاجتهاد ، ثم ادعى ما ادعى .

وقول زفر بن الحارث الوالبى (المؤتلف : ١٣٠)

وإنى بذات الرِّمْثِ لم أُلْفَ عاجزًا ... ولا ورَعًا يوم التهايج أعزلا [٣]
منعتُ ابن ورّاد وقد ساء ظنّه ... وأنقذت من تحت الأسنة نوفلا

---

(١) تمريض : تَوْهِين وضعف .

(٢) القنا : الرماح ، ورمح زاعبىّ : إذا هُزّ تدافع كله كأنه يجرى فى مقدمته . الفطور : الشقوق ، أى ليس لها شقوق أصلًا فتشينها .

(٣) الوَرَع : الجبان .

بل لقد قال عروة بن الورد يتمدح بنصرته قومه (بنى عوذ) حين اشتد القتال عليهم بماوَان فقال :

تدارك عوذًا ، بعدما ساء ظنها ، بماوَان ، عِرْقٌ من أُسامة أزهرُ

يعنى نفسه حين نصرهم ، وقد أوشكوا أن يفروا عن أعدائهم . ويقول موسى ابن جابر الحنفى (عم البعيث صاحب الأبيات المذكورة آنفًا) :

وَجُدْتُ بنفس لا يُجاد بمثلها
وقلت : اطمئنى ، حين ساءت ظنونُها
وما خير مال لا يقى الذمَّ رَبَّهُ
بنفس امرئ فى حقها لا يهينها

أى حين خطر له أن يفر من حومة القتال

هذا أول سوء قصد التبريزى إلى المعانى . أما ثانيهما فما استخفه من الفرح باجتهاده ، حتى عجل فلم يقف على كلمة « حد » ولم يحاول أن يفهمها ، إلا على الوجه الذى بدر إلى عقله ، وهو الحد الفاصل بين شيئين . بيد أن العرب تقول : « حد الظهيرة » و « حد المطر » و « حد الخمر » و « حد الموت » وكثير من مثل ذلك ، وتعنى بالحد الشدة والبأس والصلابة والعنفوان . وقد قال موسى ابن جابر فى أول كلمته التى ذكرناها آنفًا :

ألم تريا أنى حميت حقيقتى
وباشرت حد الموت ، والموت دونها

وقد روى هذه الأبيات أبو تمام فى حماسته ، وشرحها التبريزى نفسه ، فشغله الاجتهاد فى إعراب « دونها » مرفوعة ، عن تمحيص العبارة ، وعن الوقوف على معنى « حد الموت » ، وفر إلى النحو والعروض يسود الصحف بوجوه تأويلها . ونسى أن يفسر « حد الموت » ، وهى سورته وشدته وتلهبه فى المعترك وهذا هو المعنى الذى جاء فى قول البعيث « حد منكب » : أى سورة النكبة وشدتها فى القتال ، ولم يعن الحد الفاصل بين شيئين .

وأما ثالث الثلاثة ، فإنه عجل كعادته ولم يتثبت من معنى « على » فى قوله « على حد منكب » فمعنى « على » فى مثل هذه العبارة ينظر إلى معنى « فى » أو « عند » ومن ذلك قول الحطيئة :

وإن قال مولاهم ، على جُلِّ حادث
من الدهر : ردُّوا فضل أحلامكم ، رَدُّوا

أى عند حادث جليل ينزل بهم . وكذلك قول الفرزدق :

على ساعة ، لو كان فى القوم حاتم
على جوده ، ضنت به نفس حاتم

أى : فى ساعة شديدة ، لو شهدها حاتم لضن بالماء على أصحابه .

ورحم الله إمام العربية شيخنا المرصفى ، فإنه لم يعرج على سوء فهم التبريزى واستطالته فى الدعوى ، وقد قرأت عليه أبيات البعيث هذه أيام قراءتى عليه شرحَه لحماسة أبى تمام . وقد جاء فى المطبوع من شرحه عند ذكر هذا البيت : « على حد منكب » بفتح الكاف ، مصدر ميمى من نكبه الدهر ينكبه بالضم نكبًا : أصابه بنكبة . يريد ، وقد أرهقهما العدو فبلغ منهما كل مبلغ » .

هذا ، ومعنى الأبيات الثلاثة الأخيرة أن عبسًا ويزيد حين حمى القتال ، حدثتهما نفسهما بالفرار وهما فى سورة نكبة كريهة مستأصلة ، فدعوا - كعادة العرب فى الاستغاثة والتداعى عند القتال - فقالا « يآل بكر بن وائل » ، وقد عجلا فظنا أنهما يدعوان عشيرتهما ، وبينهما وبين العشيرة « مسيرة شهر للبريد المذبذب » ، إذ كانوا فى خراسان كما قلت آنفًا ، لا فى ديار قومهما وكانت هذه الدعوة وسوسة من وساوس النفس الأمارة ، فالعشيرة كلها كما يعلمان ، علما ليس بالظن ، غائبة بعيدة ، والقليل الذى حضر منها خاذل لهما مشغول بنفسه ، إلا أنا ، فإنى حاضر لم أغب ، وإذا دعيت فلا أخذل من دعانى . فإذا دعوا فقالا « يآل بكر بن وائل » فهما لم يدعوا أحدًا سواى أنا وحدى

فكنت أنا الحامى حقيقة وائل   كما كان يحمى عن حقائقها أبى

فالبيت الثانى « وقد علما أن العشيرة كلها » بيان واعتذار عن كذبه فى قوله : « دعانى يزيد ... وعبس » وهما لم يدعواه باسمه هو ، بل هتفا باسم عشيرتهم « بكر بن وائل » ومن أجل هذا المعنى قال البيت الأخير الذى بلغ به غاية الفخر بنفسه ، وحق له . فقد كان سيدًا شريفًا شاعرًا ، وكان أبوه حريث سيدًا شريفًا شاعرًا ، وكذلك كان سائر أعمامه وبنى أعمامه .

وفى البيت رواية أخرى جادلت عنها كتبى فى هذين اليومين ، فلم أهتد إليها لطول الترك والنسيان . وهى « وقد كانا على حَزٍّ منكَب » . أى فى ساعة نكبة شديدة . والحز والحزة اليسير من الوقت ، لأنه من معنى الحز وهو القطع . يقولون : « على أى حزة أتانا فلان ! » أى فى أى وقت ضيق حرج أتانا ! ويقولون : « جئتنا على حزة منكرة » أى فى ساعة منكرة شديدة . « وكيف جئت فى هذه الحزة ؟ » . ويقول أبو ذؤيب ، يذكر جفاف الماء فى شدة الحر ، وانقطاعه حين لا يطاق الصبر عنه

حتى إذا جَزَرَتْ مياه رُزُونِه ، وبأىِّ حَزٍّ مُلاوة تتقطَّعُ !! (١)

يقول : فى أى ساعة منكرة شديدة ينقطع الماء ، حين لا يستطاع الصبر عنه ! فهذه الرواية تؤيد تفسيرنا ، وتنفى عنه تحريف التبريزى وانتحاله واختراعه واجتهاده وأرجو أن يفسح لى القارئ العذر فى الإطالة ، كما أفسح الناس لتخليط التبريزى والناقلين عنه .

* * *

(١) الرُّزُون : جمع رَزْن ، وهى نُقْرَة فى الصخر يتجمع فيها الماء .

ذو العقل يشقى [1]...

لولا أني أكره خلائق السوء ، لما حملت هذا القلم لأرد به على هذا الذى تكلف مؤونة الجدال عن صاحبه [2] ، ولولا أنه كتب ما كتب فى الرسالة ، وهى مألف قديم يحن إليه هذا القلم ، لما غلبنى على ما أدبت به نفسى من هجر صغائر الأمور . ومن خلائق السوء عندى أن يجهد كاتب قلمه فى نقد ما أكتب ، ثم أغفل رده إلى الحق إن أخطأ ، أو متابعته على الصواب إذا أصاب . ومهما يكن رأيى فيما كتب الأستاذ ، فإنى أجد الحق يلزمنى أن أعود إليه بالتذكير والإبانة ، غير متلجلج فى استنقاذه مما تورط فيه ، ولا مستنكف أن يكون فى بعض كلامى هذا تكرار لما قلت ، مما أرجو أن يكون إنما غفل عنه غير متعمد إن شاء الله .

وأنا أقدم بين يدى الأستاذ الفاضل ، معذرتى فى أن أسامحه فيما وصف به ما كتبت ، وما وقر فى نفسه وأبان عنه بقوله إنى اندفعت فى سياق منبرى ، أسرد الأدلة الخطابية ، وأستثير النوازع العاطفية . وكان خليقًا به قبل أن يقول ما قال ، أن يعرف أسلوبى فيما أكتب ، ثم ينظر إلى بعينى مبصر متحقق : أصحيح أنى ألجأ إلى الخطب المنبرية ، والأدلة الخطابية ، والنوازع العاطفية ، أم الحق أنى أتحرى أمرًا أنا مسئول عنه بين يدى ربى ، أو على الأقل : أعتقد أنا أنى مسئول عنه بين يديه سبحانه ؟! وإذا كان كثير من الناس قد نسوا أنهم محاسبون يوم القيامة ، فإنى لم أنس بعد ، وأسأل الله أن يعيننى على أن لا أنسى ، وإن عد الأستاذ الفاضل هذا الكلام أيضًا خطبة منبرية ، أو استثارة عاطفية !

ولعل قراء الرسالة ، لم يقرأوا ما كتبت فى مجلة « المسلمون » [3] ولست

---

* الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٤) ، مارس ١٩٥٢ ، ص : ٢٤٢ - ٢٤٥

(١) بعض من بيت معروف للمتنبى ، وهو :

ذو العَقْلِ يَشْقَى فى النَّعيم بعَقْلِهِ ۝ وأخو الجَهالةِ فى الشَّقاوَة يَنْعَمُ

(٢) الذى تكلف مؤونة الجدال هو الأستاذ محمد رجب البيومى فى مقاله بمجلة الرسالة ، العدد ٩٧٣ ، السنة العشرون ، فبراير ١٩٥٢ ، ص : ٢٢٣ - ٢٤٥ . وأما صاحبه الذى جادل عنه فهو الأستاذ سيد قطب .

(٣) العدد الثالث ، ٣٩ ، السنة الأولى ، ص : ٢٤٧ - ٢٥٥

أحب أن أعيد عليهم ما كتبت هناك ، ولكنى أحب أن أبين لهم عن أصل هذا النزاع الذى نازعنيه الأستاذ الفاضل . وذلك أنى رأيت كاتبًا بسط لسانه بسطًا عريضًا فى دين جماعة صحبوا رسول الله ﷺ ، هم : معاوية بن أبى سفيان ، وأبوه أبو سفيان ، وأمه هند بنت عتبة ، وعمرو بن العاص . ثم أدخل معهم سائر بنى أمية . وزعمت فى هذه المقالة أيضًا أنى لن أناقش منهجه التاريخى : « لأن كل مُدَّع يستطيع أن يقول : هذا منهجى ، وهذه دراستى » وقلت : « وأيضًا فإنى لن أحقق فى هذه الكلمة فساد ما بنى عليه الحكم التاريخى العجيب ، الذى استحدثه لنا هذا الكاتب ، بل أدعه إلى حينه » وقلت : « بل غاية ما أنا فاعل : أن أنظر كيف كان أهل هذا الدين ينظرون إلى هؤلاء الأربعة بأعيانهم ، وكيف كانوا – هؤلاء الأربعة – عند من عاصرهم ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم » .

وأظن أنى بهذه الكلمات قد حددت كل التحديد غايتى فيما أكتب . أظن ذلك ، وأظن أيضًا أن لكل كاتب بعض الحرية !! فى أن يحدد ما يريد لنفسه فى سياق ما يريد أن يكتب . وبخاصة إذا كان يريد أن يعرف الناس بشىء هم قد غفلوا عنه ، وبخاصة فى زمن أصبح العلم فيه لجاجات تكتب كما تكتب مقالات الصحف اليومية فى المنازعات الحزبية ! وبخاصة فى أمر فيه نذير شديد من الله سبحانه ! وبخاصة إذا كان هذا الكاتب يؤمن بأن الإنسان مسئول بين يدى ربه عن كل ما يقول وكل ما يكتب وكل ما يفعل !

بيد أن الأستاذ الفاضل ظن أنه كان يجب علىّ أولا غير هذا . إذ ظن أن صاحبه نقد معاوية نقدًا تاريخيا ، فطالبنى أن أبين أن الوقائع التى ذكرها فى كتابه غير صحيحة ، ثم زاد شيئًا آخر عجل إليه فزعم أنى لا أستطيع أن أفعل شيئًا من ذلك ، لأن صاحبه نقلها من كتب التاريخ ولم يخترعها اختراعًا ، ولأنها معروفة لدى الصغير والكبير ؟! فأظن أنا أيضًا أنى بينت عن طريقى فى الكلمات التى نقلتها آنفًا ، وأنى سوف أترك هذا إلى حينه . فلست أدرى لم يعجل الأستاذ الفاضل كل هذه العجلة على امرئ مِثْلى ، فيضربه بالعجز عن ذلك قبل أن يبين

عن حجته ؟ فهذه العجلة هى هى التى أُنْكِرها على صاحبه ، وأنكر أن تكون أدبًا يتأدب به العالم أو المتعلم ، ومن الحق على كل عاقل أن ينهى نفسه عنها ، وأن ينهى من يرتكبها ، لأنها مخالفة لكل أصل من أصول العلم والتعلم ، ولأنها تورث مرتكبها نفس الداء الذى أتى منه صاحبه الذى تهجم على ضمائر خلق الله ، فكاد يقطع قطعًا جازمًا بنفاق معاوية وأبى سفيان وهند وعمرو بن العاص وسائر بنى أمية ! من أين يعلم أنى عجزت أو أنى سوف أعجز ؟ لا أدرى !

ومثل هذا فى الجراءة ما أتبعه من أسئلة إذ يقول :

« من الذى ينكر أن معاوية حين صير الخلافة ملكا عضوضًا لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وحى الجاهلية ؟

« ومن الذى ينكر أن بنى أمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها ، وما كان الإسلام لها إلا رداء تلبسه وتخلعه حسب المصالح والملابسات ؟ ...

« ومن الذى ينكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه على المسلمين مدفوعًا إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام !

« ومن الذى ينكر أن معاوية قد أقصى العنصر الأخلاقى فى صراعه مع على ، وفى سيرته فى الحكم بعد ذلك إقصاء كاملا لأول مرة فى تاريخ الإسلام ، وقد سار فى سياسة المال سيرة غير عادلة ، فجعله للرشوة واللهى [(١)] وشراء الضمائر فى البيعة ليزيد ؟

« هذه وأمثالها أمور مسلمة فى التاريخ ، لا يستطيع الأستاذ شاكر أن ينكرها بحال . ونحن نعجب كثيرًا حين نجده فى مقاله يلبس مسوح الوعظ والإرشاد ...»

نعم ياسيدى الشيخ ! نعم ! فإنى لمحدثك عمن ينكرها : أنا أنكر هذا كله وينكره المؤمنون من قبلى . وإذا كنت أنت وصاحبك تسلمان بها ، فأنا لا أستطيع أن أسلم بها . وتقول : هذه دعوى ليس عليها بينة ! فأقول : نعم ، هى فى هذا

---

(١) اللُّهَا : جمع لُهْوَة ، وهى أفضل العطايا وأجزلها .

السياق ليس عليها بينة ، إلا أن آتيك بالدليل على بطلان ما ذهب إليه صاحبك الذى توليت الدفاع عنه . بيد أنك أسأت حين عجلت إلى شيء لم تعرف ماذا أقول فيه ، وكيف أستطيع أن أتناوله بالنقد والتمحيص . ولو أنت صبرت حتى تعرف ، لأتاك البيان عما أنكرت وما عرفت من أخبار صاحبك ، التى وصفتها بأنها متلقفة من أطراف الكتب ، لا أقول بلا تمحيص وحسب ، بل أقول أيضا بالحرص الشديد على تتبع المثالب القبيحة ، وبالحرص المتلهف على اجتناب المناقب الفاضلة ، وبالغلو الأرعن فى سياق المثالب وفى تفسيرها ، وفى تحليلها ، وفى استخراج النتائج من مقدمات لا تنتجها ، كما يقول أصحاب المنطق .

وأنا أحب أن أخلع معك مسوح الوعظ والإرشاد خلعا لا رجعة بعده ! فتعال أيها الشيخ إلى غير واعظ ولا مرشد ! تعال حدثنى وأحدثك ، ودعنى ودعك من : « قال الله تعالى » و « قال رسول الله ﷺ » فإنهما فى زماننا هذا - من مسوح المتدينين بلا دين ! دعنا نعرف الكتب التى بين أيدينا لا نرفع بعضًا ونضع بعضًا ، لأن هذه كتب تاريخ لا يوثق بها ، ولأن هذه كتب أصحاب دين ووعظ وإرشاد يوثق بها ! ثم ننظر بعدئذ بالعقل المجرد ماذا يكون ؟!

ودعنى أيها السيد أعيد عليك ما قلت فى مقالك : « ونحن نقر أن معاوية كان حسن السيرة على عهد عمر ، فولاه أعمال دمشق ، ولكنه قلب المِجَنّ للتعاليم الإسلامية بعد مصرع عثمان ... » ولا أسألك من أين علمت أنه كان حسن السيرة على عهد عمر ؟ ولكنى أسألك : ألست تعلم أنه قد نشب الخلاف بينه وبين على ؟ فتقول : نعم ولابد . ثم أسألك : ألست تعلم أنه كان لهذا شيعة ولذاك شيعة ؟ فتقول : نعم ، ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن كل شيعة قد غلت فى صاحبها وتعصبت له ؟ فتقول نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن الأمر حين انتهى إلى معاوية واجتمع عليه الناس فى عام الجماعة إذ أسلم إليه الحسن أمر الخلافة - لم تزل شيعة على باقية فى الناس كشيعة معاوية ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن الخلاف بين الشيعتين ظل مستعرًا مدة بقاء معاوية ومن بعده ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن الحسين بن على قتل فى

عهد يزيد بن معاوية ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن مقتل الحسين وما تبعه من الحوادث فى عهد يزيد بن معاوية قد أوقد نار العداوة بين شيعة على وشيعة معاوية ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن شيعة كل منهما قد انتشرت فى الناس بما بينهما من العداوة ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن من هاتين الشيعتين العالم والجاهل ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن كل عالم أو جاهل كان يحدث عن خبر شيعته وخبر شيعة عدوه ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك ألست تعلم أن هذه الأخبار ربما كان فيها الصحيح والسقيم والصادق والمكذوب كما يكون فى كل شيعتين متنابزتين ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن الأمر سار على ذلك إلى ما بعد انقضاء دولة بنى أمية ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أنها استمرت إذن على ذلك منذ سنة ٤٠ من الهجرة إلى وقت تدوين الكتب ، أى فى أواخر القرن الأول ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أنه ليس فى أيدى الناس كتاب مكتوب قبل ذلك العهد ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن طريق القوم كان هو الرواية فحسب ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم عندئذ أن العقل يوجب أن تعرف راوى كل خبر حتى تتبين من أى الشيعتين هو ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أنه ظلم قبيح أن تأخذ الخبر لا تدرى من رواه ، فتطعن به فى أحد الرجلين ، معاوية أو على ، وأنت لا تأمن أن يكون كذبا صرفا ؟ فتقول : نعم ولابد .

فإذا صح كل هذا عندك ولم تشغب علىَّ فيه ، فإنى أراك رجلا صالحا ، فهل تظن ، ولا أقول هل تحقق عندك ، أن هذا الطَّعَّان فى معاوية وأهله ، قد ميز هذا كله قبل أن يكتب ما كتب ؟ فإن كان قد صح لك ، فأنا أحب أن أعلم كيف صح لك ، حتى أتبعك على الحق . وإن لم يكن صح عندك ، وهو لم يصح عندى بعد ، فدعنى عند قولى لك : أنا أنكر هذا كله وينكره المؤمنون من قبلى واذكرنى دائما بأنى لا أعد أمثال هذه الروايات المجردة من رواتها ، وفى مثل هذا الموضع المشتبه من العداوات ، شيئًا يمكن أن أسلم به . فإنى لا أحب أن

أستهلك عقلى فى العبث والجهالات . واعلمْ أنى لا أنقاد لما لا بينة عليه ، وأن للعقل شرفًا لا يرضى معه بالتدهور فى مواطئ الغفلة وسوء الأدب . ولو أنت لم تعجل لكان البيان آتيك بعد قليل عن الذى أستطيعه من ذلك وما لا أستطيعه ، غفر الله لك ، أقولها خالصة من قلبى ، بلا مسوح وعظ أو إرشاد !

وأنا أخذتك من أهون المآخذ فى طريق العقل ، فهناك طرق أخرى أشق وأصعب فى تمييز هذا العبث لم أدفعك إليها ، وأرجو أن تصبر حتى تعرفها يوما ، أو أن تحاول أنت أن تصل إليها بما أوتيت من حسن العقل ، فإن المحاولة خليقة أن تفضى بك إليها . ولكن شرطها أن تدع العصبية لآراء الرجال ، وبخاصة إذا كان هؤلاء الرجال ممن يبنون أقوالهم على الغلو والتسرع وسوء الفهم ، وقبح المقصد ، ومعاندة الحق لهوى فى النفوس يعلمه الله وحده ، ولكن يدل مطلعه على أنه هوى . فإذا فعلت استطعت أن توفر على نفسك مطالبتى بنقد الحوادث التاريخية التى رواها صاحبك « نقدًا موضوعيا » ! ومع ذلك فسأفعل حيث كتبت كلامى ما يرضيك . ولكن على شرط أن أجد عندك ما أحب لك من حسن الظن فيك : أن تعرف أن النقد الموضوعى الذى زعمت ، ينبغى أن يسبقه التحقق من صحة هذه الحوادث تحققًا ينفى كل ظنة . وأستطيع أن أظن أنى قدمت لك فى هذه الكلمة ما يجعلك تقف من هذه الروايات التاريخية ! موقف المتردد على الأقل ، أنفة لعقلك وأدبك أن يزلا حيث زل من دافعت عنه .

أما الموضوع الذى نصبت له كلامى فى مجلة « المسلمون » فهو سب الصحابة ، وأظن أن الأستاذ يوافقنى على أن كلام صاحبك خرج أولا عن أن يكون تخطئة لمعاوية ، ثم خرج عن أن يكون طعنًا فيه ، ثم خرج عن أن يكون سبا . خرج من هذه المراتب الثلاث إلى مرتبة رابعة ، هى أن معاوية برىء من الإسلام ، والإسلام برىء منه . فأدنى مراتب هذا القول أن يكون منافقًا ، وآخرها أن يكون كافرًا بما جاء به الرجل الذى آمن به المسلمون وأمروا أن يسموه « رسول الله ﷺ » .

ومن العسير أن أكتب فى هذا الموضوع الآن دون أن أتوشح بذيل من ذيول

« مسوح الوعظ والإرشاد » ، فليأذن لى الأستاذ قليلا أن أَرُدَّ فضلة من الثوب الذى خلعت حتى أستطيع أن أوضح له :

زعمت ياسيدى أن لى رأيًا ، فقلت إنى أثرت هذه العاصفة وحجتى الوحيدة : « أن كل صحابى رأى الرسول وسمع عنه قد اكتسب مكانة تحرم على كل إنسان أن ينقد أخطاءه أو يظهر أغلاطه » . ويلك ! نسبت إلى شيئًا لم أقله قط كما ستعلم بعد . فلا تنس إذن أن مثل هذا جائز أيضا أن يكون وقع من مثلك قديما ، فنسب إلى معاوية شيئا لم يقله كما نسبت أنت إلى شيئا لم أقله . ولكنى كنت أحسن حظا من معاوية رضى الله عنه ، فإن كلامى مكتوب منشور ، أما معاوية ، فقد روى الناس عنه شيئا ذهب أصله ، لأنه لم يكتبه كما كتبت . صدقنى ، فلست أدرى من أين فهمت هذا الكلام الذى ترجمته ؟ ولكن عذرك باد ظاهر ، فإن دفاعك عن صاحبك دليل على أنك على الأقل تفكر كما يفكر ، وهذه الطريقة هى نفسها طريقته التى أدعوك إلى فراقها حتى لا تهلك عقلك فيما لا يجدى . والذى قلتُه بعد الخطبة المنبرية التى زعمتها ، والتى بدأتُها بقول رسول الله ﷺ « لا تسبوا أصحابى ... » هذا نصه : « وليس معنى هذا أن أصحاب محمد رسول الله معصومون عصمة الأنبياء ، ولا أنهم لم يخطئوا قط ولم يسيئوا ، فهم لم يدعوا هذا ، وليس يدعيه أحد لهم . فهم يخطئون ويصيبون ، ولكن الله فضلهم بصحبة رسوله ، فتأدبوا بما أدبهم به ، وحرصوا على أن يأتوا من الحق ما استطاعوا ، وذلك حسبهم ، وهو الذى أُمِروا به ، وكانوا بعد توابين أوابين كما وصفهم فى محكم كتابه . فإذا أخطأ أحدهم ، فليس يحل لهم ، ولا لأحد ممن بعدهم ، أن يجعل الخطأ ذريعة إلى سبهم والطعن عليهم . هذا مجمل ما أدبنا به الله ورسوله . بيد أن هذا المجمل أصبح مجهولاً مطروحا عند أكثر من يتصدى لكتابة تاريخ الإسلام من أهل زماننا ، فإذا قرأ أحدهم شيئا فيه مطعن على رجل من أصحاب رسول الله سارع إلى التوغل فى الطعن والسب بلا تقوى ولا ورع . كلا بل تراهم ينسون ما تقضى به الفطرة من التثبت من الأخبار المروية ، على كثرة ما يحيط بها من الريب والشكوك ، ومن الأسباب الداعية إلى الكذب فى الأخبار ،

ومن العلل الدافعة إلى وضع الأحاديث المكذوبة على هؤلاء الصحابة » ، (مجلة المسلمون عدد ٣ ص ٢٤٧) .

وأنا أكره أن أنقل كلاما لى من مكان ، ولكنك استكرهتنى على نقله ، حتى لا يقع فى عقل أحد من قراء الرسالة ، أنى مستطيع أن أقول هذه القالة المنكرة القبيحة بكل مسلم : إن للصحابة مكانة تحرم على كل إنسان أن ينقد أخطاءهم أو يظهر أغلاطهم . هذه ياسيدى كلمة قبيحة جدا ، وأقبح منها أن تجعلها ترجمة لكلام مكتوب باللغة العربية التى تكتب بها وتقرأ فيما أظن ، ثم تنسبها إلى امرئ يعرف حق الكلام ويلتزم مقاطعه ومطالعه وحدوده ، وما يوجبه اللفظ من المعانى ، وما يتناوله من دقيق الاستنباط . وأنا أشهد كل قارئ أنى لم أقل ماقوَّلتنيه ، وأدع له حق الحكم بينى وبينك أن يكون فى كلامى حرف واحد يدل على أنى أردت بعض هذا المعنى الذى ترجمته كما ترجم صاحبك تاريخ معاوية ومن معه من الصحابة وتاريخ سائر بنى أمية . أفتظن أن قولى إنه لا يحل لأحد أن يجعل « خطأهم » ذريعة إلى سبهم والطعن فيهم معناه أنهم لا يخطئون ، أو أن أخطاءهم لا تنقد ؟ وأين ذهب عمرى إذن ، إذا كنت لا أعلم أن الصحابة أخطأوا ، وأن علماءنا رضى الله عنهم ، قد بينوا أخطاءهم حتى فيما هو من أمور دينهم ؟ ولكن فرق كبير بين أن تذكر عمل الصحابى أو قوله ، وتأتى بالبرهان على أنه مما أخطأ فيه ، وبين أن تجاوز ذلك إلى الطعن فيه ، ثم إلى سبه ، ثم إلى إخراجه عن الدين ، كما فعل صاحبك . وهذا فرق ليس بالخفى فيما أظن ؛ ولا أظنك إلا تورطت فيه من شدة أثر صاحبك عليك ، حتى خدعك عما أنت خليق أن تكون من أهله . هذه واحدة أرجو أن تكون راجعًا عنها منتفيا من سوء أثر صاحبك عليك فيها .

وأخرى تبين فيها سوء أثر صاحبك عليك : وهى تحديدك ، فيما تزعم ، لمعنى « الصحابى » واستدلالك بالكلمة التى جاءت فى الخبر عن عبد الله بن أبى « معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه » . فهذه كلمة ذكرها ، يخشى أن تدور على ألسنة المشركين الذين لا يميزون مؤمنًا عن منافق ، وكلهم عندهم من أصحاب محمد ﷺ ، لا أن رسول الله يسمى المنافقين أصحابًا له !!

وكيف وقد نزل عليه من ربه نفاقهم وكفرهم ، ونهاه أن يصلى عليهم ، وبينهم له بأعيانهم ، فمعاذ الله أن يسمى رسول الله أحدًا من المنافقين الذين يعلمهم « صاحبًا » . فمن سوء الأدب أن يقول مسلم : « فعبد الله بن أُبَيّ من أصحاب محمد كما ينطق الحديث » ؛ ومن قلة المعرفة بالعربية أن يقولها قائل ، ومن التسرع البغيض أن يلجأ إليها باحث ، ومن ضعف المنطق والفهم أن يحتج بها محتج . فهى حكاية قول يخشى أن يقولوه ، لا تسمية له باسم الصحبة . أعوذ بالله من الخطل ! ورحم الله العرب ولسانهم !

أما ما حاول الأستاذ أن يجعله تحديدًا لمعنى الصحابى ، وهو ثلاثة أرباع مقاله ، فأظننى لم أفهمه ، ولم أدر ماذا كان يريد أن يقول ثم أخطأه . وأظن أنه أراد أن يقول فى كل ما كتب : أن الصحابى هو الذى رأى رسول الله ﷺ وسمعه وآمن به ولازمه ومات على إيمانه ، ولم يرتد . ولم يشهد له رسول الله بنفاق أو لم يُذْكَر فيه حكم خاص من رسول الله . وهذا حق ، إلا أن الأستاذ أدخل شرط الملازمة ، وهو باطل من وجوه كثيرة ، لا أطيل بذكرها . ومع ذلك فإنى أؤكد أن معاوية ممن صاحب رسول الله منذ رمضان سنة ثمان من الهجرة إلى أن توفى بأبى هو وأمى ﷺ فى ربيع الأول من السنة الثانية عشرة من مهاجره إلى المدينة . وأما أبوه أبو سفيان فقد ولاه ﷺ نجران وصدقات الطائف ، ورسول الله لا يولى منافقًا !! وأما عمرو بن العاص ، فلا أظن الأستاذ يستطيع أن ينكر هجرته ومصاحبته وبلاءه فى الإسلام ، وأما هند فأسلمت يوم أسلم زوجها أو بعده بيوم فى سنة ثمان من الهجرة . وهجران الأستاذ لمعرفة تاريخ هؤلاء الأربعة ، عادة اكتسبها من الكتب التى يقرؤها ، كتب تُكْتَب بلا بينة ولا حذر ولا معرفة .

ولا أظن أنى قرأت كلاما لم أفهمه ، كالذى قرأته فى مسألة الصحابة ، وإن كان الأستاذ بالطبع يظن بكلامه غير ما أظن ، ولكنى أنصحه مرة أخرى أن يلتمس العلم فى كتب من يُلْتَمس عندهم العلم . وإذا كان يخشى على دينه - ومعذرة من ارتداء مسوح الوعظ والإرشاد - فليأخذ أمر دينه عن ثقة فى تمييز الصحيح من

الزيف ، والحق من الباطل ، وليدعْ أصحاب الأهواء حيث رضوا لأنفسهم منازلهم من مزالق الهوى . وليستغفر ربه من الكلمة الكبيرة التى قالها حمية لصاحبه وغضبًا أنه « قد يوجد فى القرن العشرين من هم أفضل بكثير من بعض من عاصروا الرسول العظيم » . والظاهر أن الأستاذ لا يعيش فى هذا القرن العشرين عيشة العارف البصير . والظاهر أيضًا أنه محتاج إلى معرفة كثير مما خفى عليه من شؤون أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن أمر دين الله الذى أكمله للمؤمنين ، وأتم عليهم نعمته ، ورضيه لهم ولنا دينًا . ونصيحة أخرى إلى الأستاذ أن يضع عن يده عبء القلم ، فإنه ثقيل ثقيل . ولولا الحياء من أن أترك كلامه ومنطقه فى الكتابة بلا مجيب ، لخففت عنه ثقل الكتابة ، وثقل الفكر ، وثقل القلم جميعا ، بالصمت عما جاء به ودهوره [1] فى أمور قلت معرفته بها ، ويعجز فكره عن معاناتها والسلام .

* * *

(١) دَهْوَرَ كلامَه : قَحَّم بعضَه في إثر بعض من غير فكر ولا رويَّة .

أعتذر إليكَ .. !

أكتب هذه الكلمة محزون النفس لشيء اجترمته ، كان أولى بي أن أصبر حتى لا أزل عليه . وذلك أني قرأت كلمة في بعض المجلات يقول فيها كاتبها : « فإذا مُنِع الفقير حقه ، فله أن يقاتل عليه ، لأنه الله يأمر بقتال الباغين ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ، ولا شك أن مانع الحق باغ » . فاحتملتني العجلة وسوء الظن ، أن أرى الكاتب قد استدل بالآية في غير مكان الاستدلال بها . فساء قولي في الرجل بين جماعات من الناس ، إذ لم يقع لي إلا أن الآية في اقتتال طائفتين من المؤمنين ثم بَغْيِ إحدى الطائفتين على الأخرى . ولما سكن بي الليل أمس (السبت ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧١) حاك في قلبي شيء لم أدر ماهو ، وألح على أني اكتسبت في أيامي هذه إثمًا أخشى أن لا أفلت من عقابه . وارتفعت لعيني هذه الآية بختامها « إنَّ الله يُحِبُّ المُقْسِطِينَ » ، فرأيت من العدل والقسط أن أرجع إلى تفسيرها ، وإلى أقوال الأئمة في قتال أهل البغي ، فعرفت ما لم أكن أعرف ، أن بعضهم قد استدل بها في مثل ما استدل عليه الكاتب الفاضل ، وإن كان لطريقة الاستدلال عندهم نهج غير نهجه ، وقيد فيما أطلقه . وإذا أنا قد ظلمته ظلما لا ينبغي . فلم أزل منذ تلك الساعة أستغفر الله لما فرط مني وما جرى من لساني من الكلم السيء ، واستغفرت له بما أسأت إليه بظهر الغيب .

فلما قرأت الرسالة في صباح ليلتي (الأحد ١٣ جمادى الآخرة) ، كنت أوشك أن لا أحمل القلم مرة أخرى للرد على الكاتب الفاضل في مقاله : « أجل .. ذو العقل يشقى » [1] . ولكنني وجدت السبيل قد تيسر لي أن أعتذر من سيئة اكتسبتها في الإساءة إلى رجل بظهر الغيب ، لنفس الداء الذي نهيت الأستاذ عنه ، وهو العجلة . وأنا لم أقصد نُهْيَتَه إلا لما فيه خير له ولي إن شاء الله .

---

* الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٦) ، مارس ١٩٥٢ ، ص : ٣٠٤ - ٣٠٥

(١) مجلة الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٥) ، مارس ١٩٥٢ ، ص : ٢٧٣ - ٢٧٤ ، والكاتب هو الأستاذ محمد رجب البيومي .

وقد تبين لى بعد قراءة كلمته أنى أخطأت أيضا فى الذى كتبت به إليه ، فوقعت بما كتبت فى نفس ما نهيته عنه . وما كان أغنانى عن هذه الخصلة السيئة التى تجلب على غضب أستاذ فاضل ، لم أسمع به ولم أعرفه ، ولا أظنه يعرفنى . والأستاذ الفاضل بلا ريب هو عندى أكبر مما ظن فى نفسه ، وإذا كان هو قادرًا على أن يضن بكرامته ، فالواجب على أنا من قبله أن أضن بكرامته . وإذا كانت كرامته تأبى أن تنزل منزلة يُوَجَّه إليه من أجلها شىء يقدح فيها ، فأنا أيضا أنزهه عما ظن فى كلامى من « الشتائم والتنقص والسباب » . وإذا كان كلامى الطويل العريض ، كما وصف ، ليس فيه شىء يقنع المنصفين ، وليس هو إلا فقرات مبعثرة مضطربة أسوقها مساقًا مهلهلا لا يعرف الدقة ولا الحدود ، وإذا كان كل ما أقوله لا أبغى منه إلا إرسال الكلام فى الهواء ، وإذا كنت عنده لست مؤرخا ، ولم أخط كتابا فى التاريخ ، وأنى أدخلت نفسى فى قوم لست منهم ، فأظن أن واجبه على الأقل أن يلغى كل ما أقول بمرة ، فإن من الشقاء له أن يتعقب كلام كاتب هذا شأنه .

وأنا لا أستطيع صادقا أن أُفْهِم الأستاذ الفاضل شيئا مما أقول ، فقد عرفت هذا بالتجربة ، وإذا كان مما يرضيه أن أقول له إنى مخطئ فى كل ما قلت قديما ، وما أقوله الآن ، وما سوف أقوله إلى أن يكف لسانى وقلمى عن اللجاجة وإرسال الكلام ، فأنا أقول له : إنى أخطأت ، وسوف أخطئ ، ولن يسمع منى إلا ما أنا مقر على نفسى بأنه خطأ محض . وأزيده أنى عاجز كل العجز عن مقاومة حجته ، وعن دفع براهينه ، وعن التصدى لما يحسنه من العلم . بيد أنى أعود فأسأله أن يتغمد سوء أدبى بفضله ، وإذا كان قد استخرج من كلامى سبابا وشتائم ، فأنا أعيذه أن يكون غرضا لها ، وأعتذر إليه ، وأستغفر الله مما أزلفت إليه من إساءة ، وله أحسن الأسوة فى أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن بعض السفهاء لم يتورعوا قط عن سبهم والطعن فيهم ، بأقبح اللفظ . فأين يقع مثلى من هؤلاء ! فإنى مهما ملكت من السباب والشتائم والبذاءة وسوء الأدب ، فلن أبلغ بعض ما بلغوا من هؤلاء الصحابة ، فلا عليه منى ومن سبابى وشتائمى . وليعلم الأستاذ الفاضل ، إن

كان لا يعلم ، أن هؤلاء السفهاء فى الدنيا كثير ، فإذا كان يغضب لكل سفاهة من سفيه ، فإن شقاءه سيطول بغضبه ، فدع السفهاء وليقولوا ما شاءوا ، وكن أنت ضنينا بكرامتك ، فإنها أعز وأغلى من أن تبذل على الألسنة . وتقبَّل إن تفضَّلتَ عذرى وشكرى واحترامى وتقديرى ، وعجزى عن مخالفتك ، وحبى لرضاك ، وقد بلغت منى فى مقالك ما شئت ، وناصيتى بيدك ، وفى المثل : « ملكت فأسجح »[١] . فافعل مؤيدا منصورا ، والسلام .

* * *

(١) يُضْرَب فى العفو عند المقدرة . والإسجاح : حُسْن العَفْو .

كلمة تقال ... !!

أخى الأستاذ على الطنطاوى

سلام عليك . يقال فى المثل : « كُرْهًا تَرْكَبُ الإبلُ السَّفَرَ » وقد استطعت أنت أن تُكْرِهِ القلم إلى ما أردت أن أنزهه عنه . فلولا ما أضمرتُ من قديم المودة لك ، ولولا ما عرفت من صدقك ، ولولا أننى أجلك عن أن تكون عجولا إلى غير صواب ، ولولا أنى أكره أن تأخذ عنى شيئًا لم أقله بلسانى ، لولا ذلك كله ، لكان أبغض شىء إلى أن أستكره نفسى على غير ما رأيتُ أنه أجمل بى وأصون . وإنك لتعلم ، أيها الصديق القديم ، أنى أكره أن أزداد من الشر ، أو أن أتزود من لجاجة الباطل . والكتابة فى زماننا هذا شر مستحكم ، وباطل لجوج متوقح . وقد اقتحم وَعْرَها من لا يحسن المشى فى سهولها ، وتشهَّاها من لو أنصف نفسه لحال بينها وبين ما تشتهى ، واتخذها صناعة من لو عقل لأعفى نفسه من مزاولتها . ولكن هكذا كان ، ورحم الله الطائى إذ يقول لمحمد بن عبد الملك الزيات :

أبا جعفر ، إن الجهالة أُمُّها
وَلودٌ ، وأُمُّ العلم جَدَّاء حائلُ [١]
أرى الحَشْوَ [٢] والدهماء أضحوا كأنهم
شعوب تلاقت دوننا وقبائلُ
غَدَوْا ، وكأن الجهل يجمعهم به
أبٌ ، وذوو الآداب فيهم نَواقِلُ [٣]

وأنت تعلم أن من أنصب النَّصَب ، أن تتصدى لإفهام من لا يفهم عنك ،

• الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٩) ، إبريل ١٩٥٢ ، ص : ٣٨٣ - ٣٨٤

(١) الجداء : التى جف لبنها ، لكبر سنها . والحائل : التى لا تحمل .

(٢) الحشو : مَن لا خير فيه ، ولا عنده عقل يميّز به شيئا عن شىء .

(٣) نواقل : جمع ناقلة ، وهى شِبْه الزيادة يلحق بالصميم ولا يحتاج إليه .

فإذا بلغ الأمر أن تراه ينتصب لجدالك ، فاذكر قول من قال : إذا أردت أن تفحم عالما فأَحْضِرْه جاهلا . وقد لقيت أنا من شر ذلك ما لقيت ، فآثرت أن أسلك سبيلى لا يشغلنى عنه متعلق بأذيالى ، إرادة أن يصرفنى عن الوجه الذى أردت .

ولقد قرأت كلمتك فى الرسالة ، فأسفت أشد الأسف ، لأنى عرفت منها أنك لم تقرأ ما كتبتُه فى مجلة « المسلمون » وفى أربعة أعداد منها . ولو كنتَ قرأتها لما كتبت ما كتبت ، لأنى لا أشك فى ذكائك وحسن فهمك ، فأنا لم أتعرض فى شيء منها لبنى أمية أو بنى العباس ، ولا لحكمهم ، ولا لسياستهم ؛ فعجبت أشد العجب كيف يمكن أن تكون معى أو على فى أمر لم أقل فيه كلمة ، ولا يعلم أحد ممن كتب رأيى فيه ، ولا كيف أقول إذا أنا تعرضت للبيان عنه ؟ فمن أجل ذلك عجبت ، لأنك لم تنصف على عادتك من الإنصاف .

وأنا محدثك باختصار عن هذا الذى كتبته . أصل ذلك كله أنى رأيت من كتب من المُحْدَثين فى شأن تاريخ الماضين من أسلافنا ، يكتب أو يتحدث بأسلوب أقل ما يقال فيه أنه مشوب بالحماقة الشديدة ، مختلط بالجهالة المتراكبة ، فى معرفة أصول التاريخ ، مغموس فى حمأة من الافتراء والتطاول ، مستنقع فى أهواء سيئة رديئة . وزعمت أن للناس أدبا وأسلوبا فى كتابة التاريخ ، وأن للمسلمين خاصة أدبًا وأسلوبًا فى التاريخ ينبع من أصل دينهم ، فى العدل ، وفى حسن النظر ، وفى الأناة فى طلب الحق ، وفى كف اللسان عن التهجم بالقول السيء على عباد الله بلا بينة ، وفى التناهى عن اقتفاء المرء ما ليس له به علم ، وفى التثبت من الأخبار قبل تصديقها . وهو أدب كما تعلم كان قديما فى كتبنا ، ولكن حضارة هذا القرن قد نشرت وباء شديد الفتك ، ذهب بأكثر هذا الأدب ، وأخذت فى طريقى أضرب المثل على هذا بكاتب رأيته لم يتورع عن سلب الناس دينهم ، ولم يخش الله فى نفى الإسلام عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، وفى تصوير أعمالهم بصورة أعمال المنافقين ، وفى أخذ الروايات الباطلة وجعلها دليلا على الغميزة فى إيمانهم ، وفى رد الروايات الثابتة الصادقة بروايات كاذبة ادعاها مدع من الرافضة ، إلى غير ذلك مما سأبينه فيما أكتب فى مجلة

« المسلمون » وزعمت أن هذا ليس ديدن هذا الكاتب وحده ، بل صار ديدنا لأكثر من يكتب الآن فى شىء من تاريخ هذه الأمة المسلمة ، حتى صار الطعن فى صحابة رسول الله أمرًا مرتكبا بلا حذر .

وما دمت لم أزد فى كلامى على هذا ، فلست أدرى بعدُ ما الذى يحملك على أن تخذلنى أو تنصرنى فى أمر لم أنطق بعد فيه بكلمة ! نعم ! قد يكون رأيى فيما أبديت أنت فيه رأيك ، مخالفا لك ، ولكنى لم أتكلم بعد فتعرف حجتى فيه . بل لعلى إذا كنت لك مخالفا ، ثم عرضت عليك خلافى لك ، أن تكون أسرع إلى موافقتى منك إلى الخلاف علىّ ، حين ترى فيما أقول صوابا يرضيك . أليس هذا جائزا ، وممكنا أيضا ؟ فإذا رأيتنى بلغت فى سياق مقالاتى فى « المسلمون » إلى ذكر دول الإسلام ، فعندئذ فقل ، فأنا أقبل منك ما تقول . واعلم أنى لا آنف أن أصير إلى الحق إذا عرفته . ولقد عشت على هذه الأرض زمانا طويلا ، واعتقدت منذ عقلت آراء كثيرة ، ثم تبين لى أن الحق فى خلافها ، فرجعت عنها جملة ، ولم أبال بما كنت أرى . ولعلك أنت خاصة تعلم من ذلك ما لا يعلمه غيرك .

وأنا أحب أن ترجع إلى ما كتبته فى مجلة « المسلمون » ولا تأخذ كلام أهل اللجاجة ، فإنهم أوهموك ، فيما أظن ، أنى قلت شيئا ، والحقيقة أنى لم أقل بعد فيما تناولته أنت شيئا ، وأنا أعيذك أن تتورط ، فى هذا الشر الذى نجاهد جميعا فى دفع الناس عنه ، وهو أخذ الأقوال بلا بينة ، وبلا حجة ، وبلا برهان . ولك منى تحية كنت أحب أن تبلغك ، على غير هذه الراحلة المكرهة على ارتكاب طريق دنسته الأقدام ، والسلام .

* * *

فيم أكتب !

إلى أخى الأستاذ الزيات

السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فقد دعوتنى فاستجبت لك ، رضى بك وعنك . بيد أنى أجبتك ساخطا على نفسى ، والجمرة الموقدة أبرد مسا من سخطة امرئ على نفسه . كنت عزمت أن أدع هذا القلم قارا حيث هو ، فى سِنَةٍ لا تنقطع ، يعلوه صدأ لا ينجلى . وظللت أيامًا أسأل نفسى : فيم أكتب ؟ فيم العناء والنصب ؟ علام أزهق أيامى فى باطل لا ينقشع ؟

* * *

بقى ما كتبته لك آنفًا معلقًا يومًا كاملا ، حتى خلتنى مخلفًا لك موعدى . والساعة ذكرت أمرًا : ذكرت أنى ختمت مقالاتى المتتابعة فى الرسالة ، منذ خمس سنوات تقريبا ، بسؤال آخر : « لمن أكتب ؟ » [١] . وقلت يومئذ إنى لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب ؟ ولم أكتب ؟ ولكنى أحس من سر قلبى أنى إنما أكتب ، ولا أزال أكتب ، لإنسان من الناس لا أدرى من هو ، ولا أين هو . أهو حى فيسمعنى ، أم جنين لم يولد بعد سوف يقدر له أن يقرأنى ؟ ووصفت يومئذ شراذم الساسة الذين لوثوا تاريخ الحياة الإسلامية والعربية ، فى حيث كان الإسلام وكانت العرب . ووصفت رجال العلم المتعبدين لسادتهم من أهل الحضارة الفاسدة التى تعيش بالمكر والحقد والفجور . ووصفت أصحاب السلطان فى الشرق ، وهم حثالة التاريخ الإنسانى ، ووصفت أهل الدين ، إلا من رحم ربك ، الذين يأكلون بدينهم نارًا حامية . وزعمت أنى لن أيأس من رجل أو رجال توقظهم هذه البلوى المطبقة المحيطة بنا ، فيدفعهم حب الحياة وحب الخير ، إلى نفض غبار القرون عن أنفسهم .

---

* الرسالة ، السنة الحادية والعشرون (العدد ١٠١٨) ، ٥ يناير ١٩٥٣ ، ص : ٩ - ١١

(١) عدد الرسالة : ٧٦٦ فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٧ ، ٨ مارس سنة ١٩٤٨

ثم ذكرت هذا الرجل الذى طواه الغيب إلى ميقاته ، فأنا أكتب له حتى يخرج من غمار هذا الخلق ، وينفرد من هذه (السائمة) ، ليقود الشعوب بحقها لأنه منها : يشعر بما كانت تشعر به ، ويألم لما كانت تألم له ، وينبض قلبه بالأمانى التى تنبض به ضمائر قلوبها . رجل خلطت طينته التى منها خُلِقَ بالحرية . فأبت كل ذرة فى بدنه أن تكون عبدًا لأحد من خلق الله . يسير بين الناس فتسرى نفسه فى نفوسهم ، وتموج الحياة يومئذ بأمواجها ، ثم لا يقف دونها شيء مهما بلغ من قوته وجبروته . وزعمت أن الشرق العربى والإسلامى ، ينتظر صابرًا كعادته هذا الرجل ، وأننا قد أشرفنا على أمر قد كتب الله علينا فيه أن نجاهد فى سبيله ، ثم فى سبيل الحق والحرية والعدل ، لأننا نحن أبناء الحق والحرية والعدل ، قد أرضعنا الدهر بلبانها منذ الأزل البعيد .

ثم ختمت كلامى بهذه الفقرة : فأنا إن كتبت ، فإنما أكتب لأتعجل قيام هذا الرجل من غمار الناس ، لينقذنا من قبور جثمت علينا صفائحها منذ أمد طويل . وليس بيننا وبين هذا البعث إلا قليل ، ثم نسمع صرخة الحياة الحرة العادلة ، يستهل بها كل مولود على هذه الأرض الكريمة ، التى ورثناها بحقها ، ليس لنا فى فِتْرمنها شريك » [١] .

كتبت هذا يومئذ ، والناس فى ظلمة ليل بهيم . ومنذ ذلك اليوم والأحداث فى الشرق العربى الإسلامى آخذ بعضها برقاب بعض . وحركت الأحداث المتتابعة نواعس الآمال ، فهبت تمسح من عيونها النوم المتقادم . ثم حملقت فى أكداس الظلام المركوم ، فأوهمتها اليقظة أن الظلام من حولها يومض من بعيد ببصيص من نور . فتنادت الصيحات بانقشاع الظلم : وافرحتاه ! وصرخت وأنا فى محبسى : واحسرتاه ! أعمى رأى الظلام نهارا !

كانت الدنيا يومئذ ظلامًا ، ونعرفها نحن ظلاما . والمعرفة دائما تفضى إلى خير . ثم أصبحت الدنيا أشد ظلاما . ونتوهمها نحن نورا ينبثق . والتوهم مفض

---

(١) الفِتْر : مسافة مابين السبّابة والإبهام .

أبدا إلى أفحش الشر . المعرفة بناؤها على الصدق ، والتوهم عماده الكذب . ولا فلاح لشيء إلا بالصدق وحده .

لقد طرأت على هذا العالم العربى والإسلامى طوارئ ، فإذا لم يصدق نفسه فلا نجاة له . واحتوشته (١) الأمم المفترسة بأساليبها الظاهرة والخفية ، فإذا لم يصدق النظر فلا خلاص له . لست قانطا ولا مقنطا . كما يتوهم من يحب أن يتوهم . ولكنى أرى بلاء نازلًا بنا . ونحن نخوضه كأنه رحمة مهداة . وبئس ما نفعل ؟ وبئس مطية الأعمال الكذب .

من حيث أتلفت أرى وجوها تكذب ، ووجوها مكذوبا عليها . وأسمع أصواتا تخدع ، وآذانا مخدوعة بما تسمع . وأقرأ كلاما غمس فى النفاق وفى التغرير غمسا .

وألمح فى عيون المساكين ممن قرأوه غفلة تتلألأ بفرحة ولكنها فرحة لا تتم عليها إلا بالعمى المطبق عن الحق والصواب . إن هذا كله إعداد للمجزرة الكبرى . حيث تذبح الآلاف المؤلفة منا بمدى حداد اسْتُخْرِج حديدها من معدن القلوب المضطغنة بالعصبية ، المنهومة بالمنفعة . وأَمْهاها (٢) ماء الحقد الصليبى الوثنى ، وأرهفت بلذة الفتك الذى لا تطفأ ناره .

إن الذى نعيش فيه اليوم حياة قد مهد لها جبابرة الدهاة ؛ لا أقول منذ عام أو عامين ، بل منذ أكثر من مئتى عام . حطم كل شيء قليلا قليلا حتى خر البناء كله . ثم انبعثت من تحت الأنقاض حيات خبيثة تلبس إهاب البشر . غُذِيَت بالسم الذعاف حتى صارت لحمًا وسما . لا لحمًا ودمًا ؛ ولا يعنيك أو يعنينى أن ننظر : أهى تعرف نفسها وتدرك أنها مسخت أفاعى فى مِسْلاخ (٣) إنسان ، أم تراها لا تعرف ولاتدرك ؟ ليس يعنينى هذا ولا يعنيك ؛ بل يعنينا – ويعنيها هى أيضًا – أن نصدق المعرفة أنها حيات تنفث سمها فى حياة الناس ؛ فى حياة الغافلين النائمين . فمن استعصى عليها فتكت به ؛ ومن أطاع لسمها مسخ كمثلها

---

(١) احتوشته : أحاطت به من كل جانب واجتمعت عليه .

(٢) أمهاها : أَحَدَّها وصقلها .

(٣) المِسلاخ : الجِلْد .

حية تسعى . فإذا قدر لهذه الحيات أن تبلغ الغاية التى مسخت لها ؛ فلن يتم ذلك حتى تكون الأرض العربية والإسلامية كلها خرابًا من البشر الأحرار ؛ خرابا تعمره العُمَّار من أفاع وحيات وأصلال [١] .

من مخافة هذا اليوم كنت أكتب قديمًا ماستطاع هذا القلم أن يكتب ، ثم وجدتنى فجأة فى موج متلاطم من الضلالات ، تتقاذفه ضلالات العلم المكذوب ، وضلالات الرأى المدلس ، وضلالات السياسة الخداعة . وإذا الأرض من حولى تعج بترتيل مظلم مخبول ؛ وإذا السماء من فوقى تهتف بتسبيح كالح مزور ؛ وإذا صوتى يضيع فى سمعى ؛ فهو إذن فى أسماع الناس أضيع ؛ وتردد فى صدرى شعر الحكمى ؛ فاستمعت له وسكت :

مت بداء الصمت خير ... لك عن داء الكلام
إنما السالم من ... ألجم فاه بلجام

فلما دعوتنى فأجبت ، انقلبت أسائل نفسى : فيم أكتب ؟ فيم العناء والنصب ؟ علام أزهق أيامى فى باطل لا ينقشع ؟ إن بينى وبين الأسماع والأبصار والقلوب ، حجابا صاخبًا من غماغم الدجاجلة ، وهماهم الأفاكين ، وثغاء أهل [٢] الغش ، وضغاء [٣] أخدان النفاق ... ويذهب قولى باطلا ويضيع صوتى مختنقا ، ولم أجن عندئذ من حياتى إلا شقاء يقول فيه القائل : « إن الشقىَّ بكل حبل يُخْنَقُ » ، حتى حبل الحق والصدق ! حتى حبل الحق والصدق ! .. وإنك لتعلم : أن لو أنى عرفت للكتابة ثمرة ، لما توقفت ساعة ، ولما أبطأت دون ما وجب على .

بأى لسان أستطيع أن أفتق للناس أسماعا غير الأسماع التى طمها الكذب المسموع ؟ وبأى قلم أستطيع أن أسلخ عن العيون غشاوة صفيقة لبسها بها

---

(١) العُمّار : أراد بها أستاذنا الحيَّات التى تسكن البيوت ، وفى حديث قتل الحيات « إن لهذه البيوت عَوامِر » ، أى حيَّات ، ثم فصَّل أستاذنا أنواعها من أفاع ، وحيات ، وأَصْلال ، وهذه الأخيرة جمع صِلّ .

(٢) الثُّغاء : صوت الغَنَم والظباء وما شاكلها .

(٣) الضُغاء : صوت الذئب والثعلب والحيات ، واستعير للإنسان .

الكذب المكتوب ؟ وبأى صوت أستطيع أن أنفذ إلى قلوب ضرب عليها نطاق من الكذب المسموع والمكتوب ؟ بأى لسان ، وبأى قلم ، وبأى صوت ؟ ولكنه ، على ذلك كله واجب ، وإن كان جهدا لا ثمرة له ! وهو كذلك ، وإذن فليس لى أن أسأل نفسى : فيم أكتب ؟ ولم هذا العناء والنصب ؟ وعلام أزهق أيامى فى باطل لا ينقشع ؟

وإذن فقد كُتب على أن أنصب وجهى لهذا الشقاء الصَّيْخود ، لا أبالى أن أحترق ، ولا أحفل أن أعود سالما ، ولا آبه لما يصيبنى ، مادام حقا علىّ أداؤه .

إنها أيام بلاء ومحنة من عدونا حيث بلغ منا كل مبلغ ، ومن أنفسنا ، حيث صار كل امرئ منا عدو نفسه وعقله ، عدو تاريخه وماضيه ، عدو مستقبله من حيث يدرى ولا يدرى . إنها أيام ضلال وفتنة ، تدع الحليم الركين حيران بلا حلم ولا ركانة ، تدع البصير المهتدى أعمى بل بصر ولا هداية ، تدع الصادق الحازم غفلا بلا صدق ولا حزامة . ولكنها على ذلك كله ، كُتِبت على الحليم الركين ، وعلى البصير المهتدى ، وعلى الصادق الحازم - أن يعيش فى شقائها بلا ملل ، وأن يكون فيها كما قال شاعر الخوارج ، عمران بن حطان ، فى أهل الدنيا :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجُوَّعُ

فمنذ حملت إليك هذا القلم ، استجابة لدعوة لم أجد ردها من الأدب ولا من الوفاء فى شيء ، عرفت أنى سوف أكتب كما كتبت قديما ، لأتعجل انبعاث رجل من غمار أربعمائة مليون من العرب والمسلمين ، تسمع يومئذ لحكمته الأجنة فى بطون أمهاتها ، وتهتدى بهديه الذرارى فى أصلاب الآباء والأمهات .

ولكنك بعد ، قد أنزلتنى بحيث يقول القائل :

حيث طابت شرائع الموت ، والمو
تُ مرارا يكون عذب الحِياضِ

فأنا إن شاء الله بحيث أحببت لى أن أنزل ، والسلام

* * *

أبصر طريقك [١]

منذ ظهر دين الله فى الأرض ، وتدافعت أمواجه شمالا وجنوبا وشرقًا وغربًا ، وضرب تياره أسوار العالم المحيط به ، وطهر بلادًا كثيرة وغسلها مما فيها من الشرك والكفر والإهلال لغير الله سبحانه ، أخذت تتجمع فى أطرافه عداوة لا تنام ، وبقيت هذه العداوة تنازل جنود الله عامًا بعد عام فى ثغور الإسلام . ثم احتشدت هذه العداوات المتفرقة فى الثغور حشدا واحدا ، بدأت به الغزوات المتلاحقة التى عرفت فى التاريخ باسم الحرب الصليبية . وظلت هذه الحروب مشبوبة قرونا طويلة ، وأداتها السلاح والجيوش والمواقع .

ثم انتهت حرب السلاح والجيوش ، إذ وضع العالم الإسلامى سلاحه ، بل أصح من ذلك ، أن العالم الإسلامى يومئذ لم يكن معه سلاح يضعه أو يرفعه . وإذا كان فيه سلاح ، فهو سلاح لا يغنى عنه فى لقاء هذه الأسلحة الجديدة التى جاءت مع الغزاة . ومن يومئذ انتقلت الحرب الصليبية من ميادين القتال إلى ميدان آخر : هو الحياة نفسها !

كانت خطة الحرب الصليبية الجديدة ، هو دك الحياة الإسلامية كلها : تدك بناء هذه الحياة ، وتدك علمها ، وتدك آدابها ، وتدك أخلاقها ، وتدك تاريخها ، وتدك لغتها ، وتدك ماضيها . وفى خلال ذلك ينشأ بناء جديد لهذه الحياة ، بعلم غير العلم الأول ، وأدب غير الأدب ، وأخلاق غير الأخلاق ، وتاريخ غير التاريخ ، ولغة غير اللغة ، وماض غير الماضى . ويأتى يوم فإذا الهزيمة واقعة كما وقعت فى الميادين . ويصبح العالم الإسلامى وليس معه من الحياة التى كان بها عالما

---

* الرسالة ، السنة الحادية والعشرون (العدد ١٠٢٠) ، ١٩ يناير ١٩٥٣ ، ص : ٨٩ - ٩١

(١) جاءت هذه العبارة فى عجز بيت لمُضَرِّس بن رِبْعِىّ :

* أَبْصِرْ طَرِيقَكَ لا يَشْخَصْ بكَ البَصَرُ *

صحيحا ، إلا بقايا لا تغنى عنه ، كما أصبح يوما فى ميدان الحرب ، ومعه بقايا أسلحة لا تغنى عنه شيئا .

جاءت الغزوات الصليبية الجديدة متلاحقة سريعة نفاذة تنشر طلائعها الأولى فى كل مكان ، مزودة بالفهم والإدراك والمعرفة ، بطبيعة هذا الميدان الجديد ، فتلقى قوما قد سلبوا الفهم والإدراك والمعرفة لطبيعة هذا الميدان . ولكنهم كانوا بفطرتهم يعلمون أن هذه الطلائع عدو لهم ، فقاومهم من قاومهم بما تستثيره الفطرة من بغض العدو والشك فيه ، وإن جاء فى ثوب المسالم والناصح . وتهاوى آخرون ، فوقعوا فى حوزة العدو ، إذ غرتهم مسالمته وخدعهم نصحه ، وظلت هذه الحروب دائرة بيننا وبينهم أكثر من مئة وخمسين عاما ، فى سكون وصمت ، ولجاجة وحرص ، وقوة وحذر ، ومعرفة وبصر ، حتى بلغ العدو منا مبلغا لم يكن فى أول الأمر يظن أنه يبلغه . فقد تهاوى البناء كله فجأة . وأصبحت الحياة الإسلامية أطلالا يناديها الفناء فتجيب بلا مقاومة ولا عناد .

ذهب كل شيء يكون للحياة البشرية قواما وعمادا : ذهب العلم والأدب والأخلاق واللغة والتاريخ ، وجاءه الغزاة بما يحل مكانه من علم وأدب وأخلاق ولغة وتاريخ . ذهب الذى كان ينبع نبعه من كتاب الله ، ومن حياة الأمة المسلمة، وسنة رسوله ، وجاء الذى ينبع نبعه من الحياة الوثنية القديمة ، ومن المسيحية المحدثة ، ذهب الذى كان يتحدر إلينا كما تتحدر الوارثات من أصلاب الآباء إلى أصلاب الأبناء ، وجاء الذى يتحدر إلينا كما يتحدر السيل الجارف لا يبقى ولا يذر . ذهب شيء وجاء شيء ، فتغير نظرنا وفكرنا ، وتغير إدراكنا ومعرفتنا ، وتغير شعورنا وإحساسنا ، وتغير لساننا وبياننا . فعدنا ننظر فى الكتاب الذى هو كتابنا ، وأخبار النبى الذى هو نبينا ، وآثار الماضين الذين هم آباؤنا ، فأنكرنا ما وجدنا فى ذلك كله ، فطرحه منا من طرحه وراء ظهره ولم يبال به ، وتهيب منا من تهيب فوقف لا يدرى ماذا يفعل ، وبقيت طائفة لا تطرح ولا تتهيب ، فطلبت مخرجا من هذا الشيء الذى تنكره إنكارًا خفيفا ، وهو فى هذه الصورة التى جاء عليها من التراث الماضى . فرأت المخرج فى تجديد التراث

الماضى تجديدا مقاربا ، يطابق الحياة الجديدة من وجوه ، وينكر الحياة القديمة من وجوه أخرى .

ومن يومئذ انقسم العالم العربى والإسلامى إلى طائفتين : طائفة منكرة لا تعبأ شيئا بالحياة الماضية كلها ، وطائفة لم يبلغ بها الإنكار أن لا تعبأ ، فالتمست تجديد الحياة الماضية على أسس جديدة . وإذا هذه الأسس التى تريد أن تؤسس عليها ، هى فى جوهرها مستمدة كلها من الحياة التى أنشأها الغازى الصليبى بين ظهرانينا .

* * *

هذه صورة مصغرة للحياة فى العالم الإسلامى الحاضر . لا يدركها المرء حتى يعلم أن العالم الإسلامى مقبل على خطر أبشع من خطر الغزو الصليبى الأول بالسلاح ، مقبل على هزيمة منكرة تكون عاقبتها تبديل الإسلام تبديلا كاملا حتى لا يبقى له من ظل الحق إلا ما بقى من ظل المسيحية الحقة فى العالم المسيحى الحاضر .

ودعاة هذا التبديل ، علموا أو لم يعلموا ، قد تعاووا فى كل مكان باسم الدفاع عن الإسلام ، وباسم إحياء الإسلام ، وباسم تجديد الإسلام . وهم يعملون جاهدين على أن ينشروا دينهم الجديد - كما ينبغى أن يسمى - بجميع الوسائل التى يظنون أنها تفضى بهم إلى الدفاع عن الإسلام أو إحيائه أو تجديده . وهم على مر الزمن ، سوف يتركون آثارا عميقة فى حياة العالم الإسلامى الحاضر ، وسيتبعهم تابعون يقتفون آثارهم ، مبعدين عن النهج الأول الذى بنى عليه هذا الإسلام الذى يدافعون عنه أو يحيونه أو يجددونه ! بل إن هؤلاء أنفسهم قد كانوا خلفاء لجيل سبق من قبلهم ، أعمته الحياة التى بهرت عينيه وزلزلت عقائده ، فطلب كما يطلبون ، الدفاع عن الإسلام وإحياءه وتجديده ، على أسس لم يستمد أصلها من الحق الذى فى دينه ، بل من أصل بعيد هو الحياة التى يحياها العالم الصليبى الذى غلب وقهر وظهر مجده فى هذه الأرض .

إن هذا الوباء الذى يجتاح العقل الإسلامى والحياة الإسلامية ، قد نفذ إلى

كل ركن فى هذا العالم ، وسارت حُمَيَّاه سَوْرَة مستبدة بكثير من رؤوس الدعاة . وانطلقت الألسنة مسرعة تريد أن تبنى بناء عقليا جديدا لهذا الإسلام الذى تهدم بناؤه القديم ، فما تجد لسانا إلا وهو يرسل طوفانا من الكلام بلا حذر ولا توقف ، وكل لسان يرى فى الذى يرسله مادة صحيحة لبناء هذا العالم المتهدم . وأصبح كل داعية إماماً يقتدى به . والمقتدون به لا يعلمون شيئا إلا أن هذا السيل المرسل عليهم ، ليس إلا أصلا صحيحا من أصول هذا الإسلام الذى يدعوهم إليه . وكل داعية يظن نفسه ينبوعا يروى الظامئين ، يسألونه فيجيب ، فيطوفون به طواف الوثنى بالصنم . مادة علمهم أن يستمدوا منه ما يجود عليهم به . ولا يجد أحدهم متسعا أن يلتمس علمه إلا من فيض لسان هذا الإمام الداعى . والإمام مشغول بالتماس المعانى التى يفيضها عليهم ، وهم لا يسألونه من أين يأتى بها . وكل داعية مشغول بإعداد المادة لمن يتبعه ، لا يحذر ولا يخاف ولا يتحرى . وكل داعية مشغول عن الداعية الآخر ، لا ينظر فى أمره ولا يتعقبه ولا يقول له من أين جئت بهذا . بل لعله يغفل عن أفسد الفساد فى قوله وفعله ، وأقبح القبح الذى يبثه فى أتباعه ، لأنه يقول لنفسه إننا مشغولون جميعا برم هذا البناء الذى تهدم ، بل ببناء شيء هو خير من الذى تهدم . وكل داعية منهم هو فى الحقيقة منكر للحياة الأولى للإسلام ، ولكنه يريد أن يقاوم الفناء بأن يستخرج من نواحى هذه الحياة ما يقنع هو به ، ويقنع بعض الناس به : إن فى ماضى الإسلام ما يمكن أن يكون مماثلا للحياة الحاضرة ، أو تصحيحا لبعض أخطاء الحياة الحاضرة . بيد أنه لا يصل إلى ذلك إلا بنظره هو ، وتفكيره هو ، بصورة يرتضها هو ، ولا يبالى أن يكون استدلاله فى غير موضعه ، ولا أن يكون فكره قد فسر الأشياء على غير ما ينبغى أن تكون عليه ، أو على غير ما كانت عليه .

فأعمال هؤلاء الدعاة ، ليست فى الحقيقة إلا ضربا من هذيان هذا الوباء المقرون بالحمى ، ليس له أصل إلا فورة الدم فى المحموم . فإذا استمر أمر الإسلام على هذا الذى نراه ، فقد انتهى كل شيء . وإذا قدر لهذا العالم الإسلامى أن تعتزل طائفة منه هذا الخبل الخابل ، لتعيد النظر فى الأصول الصحيحة لدينها ،

والتى لقى بها هذا الدين عالم الشرك والكفر فدكه ومزقه ، وأقام فيه بناءً قاوم الفناء ثلاثة عشر قرنا ، فيومئذ تبدأ المرحلة الأولى لجهاد طويل شاق ، يتحدى طواغيت الكفر بإيمان صحيح ، لا تشوبه شائبة من هوى أصحاب الأهواء ، بل هو طاعة الله ورسوله ، لا يغنى غيرها شيء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأعود فأقول : من ظن هذا تشاؤما وتثبيطا فليظن ما شاء له الظن ! وليس يغنى عن الأعمى شيئا أن تقول له أنت مبصر بعينين لماحتين ، ولا عن المغروس فى حومة الهلاك أن تقنعه بأنه خالد ليس للموت عليه سلطان .

* * *

باطل مشرق

لم أكد أفرغ لنفسى ، وأنفض عن فكرى مثاقل الهم الفادح الذى أتحمله إذا كتبت فى شأن هذه الأمم المسلمة – حتى دخلتْ فى خلوتى أيام وليالٍ ، تعلمنى أن الباطل المشرق ، صنو الباطل المظلم البهيم . بل إن الباطل المشرق أضرى وأفتك بالبشر من صنوه وأخيه المظلم . للباطل المظلم ردة ، كَرَدَّة الوجه القبيح (١) ، يزوى لها الناظر ما بين عينيه ، ويرد بصره معرضا عما يرى فيه من قبح . أما الباطل المشرق المضيء ، فله فتنة تنادى ، كفتنة وجه الحسناء الخبيثة المنبت ، تأخذ بعين الناظر ، فيقبل عليها ملقيا بنفسه فى مهالك هذا الجمال الآسر ، وإذا المنبت الخبيث درة مستهلكة فى هذا التيار المترقرق من فتن الحسن والهوى .

وهذه الرقعة المتراحبة من حدود الصين إلى المغرب الأقصى – والتى تسكنها أمم ورثت اسم الإسلام ، فنسبت إليه ؛ ووصفت به – تعيش اليوم فى بريق متلالئ من هذا الباطل المشرق . فمنذ أكثر من مئتى سنة ، ضربها الغازى الصليبى المستعمر ضربة رابية (٢) ، حتى خرت عاجزة ، ثم ظل يضربها حتى همدت أو كادت . وفى خلال ذلك كان الغازى يستحييها بحياة غريبة عنها حتى يأتى يوم تتبدل فيه من حياة كانت إلى حياة سوف تكون . وكذلك يقضى قضاء ساحقا على أسباب الحياة الأولى ، الحياة التى كانت تعرف بالحياة الإسلامية .

ثم جاء اليوم الذى ظن فيه هذا العالم أنه ارتد إلى الحياة مرة أخرى . ونعم ، إنه ارتد إلى حياة مرة أخرى ، ولكن أى حياة ! ما على الآلاف المؤلفة التى تدب فى أرجاء هذا العالم من مثل هذا السؤال ؟

---

* الرسالة ، السنة الحادية والعشرون (العدد ١٠٢٢) ، ٢ فبراير ١٩٥٣ ، ص : ١٦٤ – ١٦٦

(١) الرَّدَّة : يقال فى فلان رَدَّة ، أى يرتدّ البصر عنه من قبحه ، وأصل الرَّدَّة تَقَاعُس فى الذقن .

(٢) رابية : شديدة .

إن حب البقاء فى الحى الفرد ، أقوى من العقل ، أقوى من حب المعرفة ، أقوى من حب المال . فإذا ظفر بالبقاء على أمه الأرض ، فقلما يبالى بشيء غير هذا البقاء . ولكن الحياة الإنسانية مجتمعة لا تستقيم بحب البقاء وحده . فالاجتماع الذى يضم هؤلاء الأحياء المتشبثين بالبقاء ، يحدث لهم ضروبا جديدة من الأمانى والآمال والمطامح ، تغلب هذا الحب الخفى للبقاء المجرد فى الفرد ، وتنشيء فيهم حبًا لبقاء آخر : هو بقاء حياة الجماعة ، من حياة أنشأها الإلف والتعود ، وحياة تنشئها الأمانى فى حياة أتم وأكمل وأمجد . والنزاع بين حياة الإلف والتعود ، وحياة الأمانى فى الكمال والمجد ، نزاع عنيف ، وهو على عنفه أمر غامض فى نفوس عامة أفراد المجتمع ، لأنه يقوم على أمانى مبهمة دائما فى أول أمرها . ولا تستبين هذه الأمانى إلا فى فئة قليلة ، تملك من القدرة على النظر ، وعلى التأمل ، وعلى البيان عن نظرها وتأملها ، قسطا يتيح لها أن تحاول التعبير عن هذه الأمانى ، تعبيرا يخرجها من حيز الأمر المبهم إلى حيز الأمر البين .

فمن هذا المدخل يدخل على الجماهير أحد رجلين : إما رجل عاقل صادق يحسن النظر والتأمل والبيان ، وإما رجل ذكى قادر يموه عليهم بالنظر والتأمل والبيان . أحدهما عارف يصدق الناس ولا يبالى ، والآخر دجال يلعب بالناس ولا يبالى . أحدهما لا يأخذهم إلا بالوسائل التى تقوم على الصدق والعدل والحق ، والآخر يأخذهم بكل وسيلة لا يعبأ بصدق ولا عدل ولا حق . أحدهما يعلم الناس معنى هذه الأمانى المبهمة فى أنفسهم ، كما ينبغى لكل تَعَلُّم ، من جهد ومشقة وحذر وبصر . والآخر يعلمهم معنى هذه الأمانى المبهمة فى أنفسهم ، بما يستثيره فيهم ، وما يستغله من نزوعهم وتلهفهم ، لا يأبه لشيء إلا لما يستخفهم إلى اتباعه وطاعته وتمجيده .

فالحرية مثلا سوق تهوى إليه نفوس المستعبدين . كلمة مبهمة تعيش فى سر نفوسهم كالقبس المكفوف ، لو كشف غطاؤه لأضاء . فالرجل الصادق يعلم النفوس معنى الحرية ، ويكسبها من وسائل تعلُّمها ما لا بد لها منه من صدق وعزيمة وجد ومشقة وبصر ، حتى تتهاوى الجدران التى تحول بينها وبين

الانطلاق ، وتنفض الأغلال الثقيلة الغليظة التى تعوق الحى عن إدراك حريته . أما الدجال ، فهو لا يزال يصرخ فيهم باسم الحرية ، ثم لا يمنح الناس من وسائلها إلا كل وسيلة لا تغنى شيئًا فى كفاح الجدران والأغلال ، بل ربما زادت الجدران صفاقة وقوة ، والأغلال ثقلا وغلظا وفداحة . فهذا هو الباطل المشرق ، لأنه يأتى الناس من حيث تهوى أفئدتهم معنى مبهما غامضًا كريما ، فيموه هذا المعنى بما شاء من تمويه ، ليسير الناس وراءه كما هم عميًا صمًّا ، لا ليعلِّم الناس حقا يطلبونه ويحرصون عليه ويزدادون معه على الأيام بصرًا وإدراكا .

وهذا العالم الإسلامى الذى يموج اليوم موجه ، ينبح فى نواحيه هذا الباطل المشرق ينبح فى السياسة ، وفى العلم ، وفى الأدب ، وفى الفن ، وفى الأخلاق ، وفى جماع ذلك كله : فى الدين . هو عالم مستغل ، يستخفه الدعاة والدجاجلة ، يهتبلون غفلته فى هذه الحياة التى ظن أنه ارتد إليها بعد همود ، ويختلسون نفضة هذا الشوق المضطرم إلى أمان مبهمة غامضة . ويتولى قيادته فى كل شأنه ألسنة لا تبالى ، تستفزه إلى المغامرة فى سبيل الحياة الماجدة الطيبة التى تجيش فيه . تستفزه بالنداء الصارخ باسم هذه المعانى المبهمة فى ضميره ، وتعطيه وسائل وأساليب يظنها معينة له على إدراك ما يشتاق إليه ، وهى فى الحقيقة مفضية به إلى التمرغ فى حمأة الجهالة والعبودية والغرور الكاذب ، إلى أن يقضى الله فى الناس بأمره وقضائه .

وأخطر هذه الألسنة التى تستفز هذا العالم ، هى الألسنة التى اتخذت كلمة الإسلام لغوًا على عَذَباتها [١] - لا لأنها أعظم شأنًا وأعز سلطانا من الألسنة الأخرى ، ألسنة المموهين باسم الحرية ، واسم العلم ، واسم الفن ، واسم الأخلاق ، بل لأنها تعمد إلى كتاب أنزله الله بلاغا للناس ، وحكمة أوحيت إلى رسوله لتكون نبراسا للمهتدين ، فتحيلهما إلى معان من أهواء النفوس التى لا تعرف الحق إلا فى إطار من ضلالاتها وأوهامها . ثم يتبعهم التابعون الجاهلون اتباعا ، هو

---

(١) العذبات هنا : أطراف الألسنة ، وأصل العَذَبَة : طرف السَّوْط .

سَمْعٌ وطاعة ، لكن لغير الله ورسوله ، بل للزور المدلس على كتاب الله وسنة رسوله . وإذا هؤلاء المتبعون يعدون هذه الضلالة دينا ، ويظنون هذا الدين الجديد إحياء للإسلام . وإذا هم يأخذون دينهم من حيث نهوا أن يأخذوا . يأخذونه عن مبتدع فى الدين برأيه ، محيل لنصوصه بفساد نشأته ، مبدل لكلماته بهوى فى نفسه ، محرف للكلم عن مواضعه بما يشتهى وما يحب ، مختلس لعواطف الناس بما فيه من حب اتباعهم له ، خادع لعقولهم برفعة الإسلام ومجد الإسلام ، وهو لا يبغى الرفعة والمجد إلا لنفسه .

ولقد أنبأنا معاذ بن جبل رضى الله عنه بصفة ما نحن فيه إذ قال يوما لأصحابه : « إن من ورائكم فتنا يكثر فيها المال ، ويفتح فيها القرآن ، حتى يأخذه المؤمن والمنافق ، والرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، والعبد والحر ، فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن ؟ ما هم بمتبعى حتى أبتدع لهم غيره . فإياكم وما ابتدع ، فإن ما ابتدع ضلالة . وأحذركم زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلال على لسان الحكيم . وقد يقول المنافق كلمة الحق . قال له يزيد بن عميرة أحد أصحابه : ما يدرينى رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال معاذ : بلى ! اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التى يقال لها : ما هذه ؟ ولا يثنينَّك ذلك عنه ، فإنه لعله يراجع . وتَلَقَّ الحق إذا سمعته ، فإن على الحق نورا » .

وقد فُتِح القرآن ، فأخذته الألسنة كلها من مؤمن ومنافق ، ومن صغير وكبير ، وكل يقول برأيه لا يختشى ولا يرهب ولا يتقى . وظهر فى كل أرض من يقول لنفسه : ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن ؟ ثم يعود من نحسه وشؤمه ، يجمع كل خسيسة من البدع التى تميل إليها نفوس الجاهلين الغافلين ، وتهوى إليها أفئدة الذاهلين المفتونين بالحب لكل جديد مبتدع . وهو فى كل ذلك يعلم أن المبتدع فى كل شىء له لذة الجدة ، ويعلم أن الناس يشتاقون إلى أمر مبهم فى نفوسهم ، هو استعادة مجد دينهم ، ونشر كلمته فى الأرض ، فلا يبالى أن يشرع لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فيؤتيهم ما يطابق ما يراه من أشواقهم ، ويزين لهم أن بلاغ ما يشتاقون إليه قريب ، إذا هم اتبعوه إلى الغاية . وأن شرط بلاغه أن يعطوه

السمع والطاعة له ولمن يصطفيهم من شيعته ودعاته . فإذا تم أن تجتمع عليه طائفة من الناس ، وظهر بهم أمره ، وظنوا أنهم بلغوا بعض ما مناهم لسانه ولسان شيعته ودعاته ، قالوا إن الإسلام هو هذا الذى ندعو إليه ، وإن طريق الحق طريقنا وحده ، وإن الإسلام فى غير الإطار الجديد الذى وضعناه فيه ليس من الحق فى شىء ، وإن هذا الفهم الجديد للإسلام هو خلاص المسلمين من هذه الذلة التى ضربها عليهم الغازى الصليبى . ثم تنشق رَدَغَة هذا الخَبال [١] ، عن صنوف مختلفة من الفساد المهلك ، تجعل تاريخ الماضى كله ضربًا من الحياة الفاسدة ، لا ينبغى لأحد من الناس أن يتلفت إليه إلا تلفت المزدرى المستنكف . وعندئذ يصبح الدين فى أذهان الجماهير المتبعة ، رسالة جديدة لها رسولها وحواريوها ودعاتها وشهداؤها . وإلى بيان هذه الرسالة تعود الجماهير ، لا إلى كتاب الله ولا إلى سنة رسوله ، نعم ، بل إلى تفسير هذا الكتاب وهذه السنة كما يراها لهم طواغيتهم من كهوف التبديل والتحريف والتأويل بالهوى والضلالة . وعندئذ يتم تبديل معنى الإسلام فى الناس ، ويتم للدجال أن يبتدع بهواه إلى طب فى أهوائهم كتابًا غير كتاب الله . ولولا أن الله قد ضمن لنا حفظ نص كتابه ، وحفظ نص البيان عنه فى سنة رسوله لفعل هذا وأشياعه ما فعل أسلافهم ممن بدلوا كتب الله وحرفوها ، ومحوا منها وأثبتوا ، ونقصوا فيها وزادوا .

لولا هذا الذى نخافه ، بل هذا الذى كان مما نخافه ، لما عددت هؤلاء أشد خطرا من الألسنة التى تموه على الجماهير الجاهلة الغافلة باسم الحرية ، واسم العلم ، واسم الفن ، واسم الأخلاق . فطريقهما فى الحقيقة واحد ، ومنشؤهما واحد ، ونتائجهما واحدة ، فى التغرير بالناس ، والعبث بعقولهم ، والإفساد لفطرتهم ، واللعب بعواطفهم ، وإيهامهم أن نجاتهم من عبودية الغزاة أمر قريب لا يكلفهم إلا أن يسمعوا لمن يقول لهم : كونوا أحرارا ، فإذا هم سادة أحرار كما ولدتهم أمهاتهم !

---

(١) رَدَغَة الخبال : جاء فى الحديث « مَن قال فى مؤمن ماليس فيه حبسه الله فى رَدَغَة الخبال » ، أى عُصارَة أهل النار ، كما قيل فى تفسيره ، وأصل الرَّدَغة : الطِّين .

اللهم إنى أبرأ إليك مما نحن فيه . اللهم إنى أخوف الناس مما خوفهم منه عبدك ورسولك إذ يقول : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » . اللهم إنى أقول كما قال صاحب رسولك معاذ بن جبل : « الله حكم قسط ، هلك المرتابون ! » .

* * *

غرارة ملقاة

إليك عنى ، أيتها النفس ، فأنا وأنت كما قال عبيد بن الأبرص :

إذا أنت حَمَّلتَ الخَؤون أمانةً فإنك قد أَسْندتها شَرَّ مُسْنَدِ

وقد أبيتِ عليَّ أن أكتب ما كنت أريد ، لأنك أردتِ أن تكونى لى على غير عهدى بك منذ ساعات قلائل . فدعينى أحدث عنك بما أسررت من مضمر أو مكنون .

ما كدت أجلس إلى مكتبى حتى تبعثرت خواطرى ، وتهاربت منى أفكارى ، وانتشرت على عزيمتى ، وتفرقت عنى إرادتى ، وتطايرت فى الآفاق سواكن نفسى ، وغادرتنى همتى ، وكأنى غرارة ملقاة على مدب الحياة . وربما هجس فى نفسى الهاجس ، فما أكاد أقول : هذا هو ! حتى أجدنى على جناح أمر آخر ، وإذا بينهما مسيرة ما بين مشرق الشمس ومغربها . فأين المفر ! وكيف القرار ! لا أين ولا كيف ! بل ألتمس مذهبا لا غاية له ، لعلى واجد فيه بعض ما أسرى به حيرتى : أن أقيد ما يعن لى - أم ينبغى أن أقول : أن أقيد ما أعن أنا له - على عجل ، وبلا ترتيب ، وكما يتفق .

ولكن ما نفع هذا لك أنت أيها القارئ ؟ هل يعنيك شيئا أن تطلع على حيرة نفس فى ساعة من حياتها ؛ أم هل يجدى عليك أن تطلع ؟ بل مالى ولك ! أترانى أكتب لأنفعك ؟ ما أسخف هذا ! وماذا عندى مما تنتفع به ؟ كيف أستطيع أن أدعى أنى أنفع بالذى أكتب آلافا من القراء مثلك ؟ وأنى لى علم هذا السحر : أن أجمع فى أسطر معدودات حاجة كل نفس ؟ أو ليس من السخف ، ومن الغرور أيضا ، أن يزعم امرؤ أنه يملك القدرة على نفع أحد ، فضلا عن آلاف ؟ وما أملك إلا أن أصارحك بأنى ما كتبت قط إلا لنفسى وحدها ، ثم لا ألبث أن أعرض عليك ما أكتب - لا لأعلمك أو أنفعك ، بل لتعرف كيف يفكر إنسان مثلك !

---

* الرسالة ، السنة الحادية والعشرون (العدد ١٠٢٥) ، ٢٣ فبراير ١٩٥٣ ، ص : ٢٨٩ - ٢٩٢

وكيف يخطئ وكيف يصيب ! وكيف يصدق وكيف يخون ؟ فإذا كان ذلك كذلك فلا بأس عليك إذن ، إذا تصفحتنى فى ساعة من شتاتى وحيرتى ، كما تتصفحنى فى ساعة هدأتى وسكينتى .

* * *

كيف ! هل يمكن هذا ؟ هل يمكن أن يصبح الإنسان غرارة ملقاة على مدب الحياة ، ثم هى إنسان يحس بالحياة وأحيائها يمرون عليه غادين أو رائحين . هذا واطئ يطؤه ، وهذا مقتحم يقتحمه ، وهذا ذاهل عنه وفى عينيه نظرة المتأمل ، وهذا متلفت إليه يرمقه كالمتعجب ! وكلهم لا يبالى . وهو أيضا لا يبالى أن يكون ما كان : غرارة ملقاة على مدب الحياة والأحياء .

وما دامت الغرارة الملقاة تحس بالحياة وأحيائها يمرون عليها غادين أو رائحين ، أفليس هذا حسبها من الحياة وأحيائها ؟ وما الحياة ؟ هل الحياة إلا إحساس محض ؟ إحساس بالألم ، وإحساس باللذة . إحساس بالرضى ، وإحساس بالسخط . إحساس بالجمال ، وإحساس بالقبح . إحساس بالنور ، وإحساس بالظلام . إحساس بالشبع ، وإحساس بالجوع . إحساس بالحلو ، وإحساس بالمر . إحساس بالشذا الطيب ، وإحساس باللخن [١] الكريه . إحساس مجرد مرهف نافذ لا يعوق نفاذه شيء . إحساس حر كشعاع الشمس .

أو هؤلاء الغادون والرائحون أعرق فى حس الحياة من الغرارة الملقاة على مدبها ؟ وما الحركة التى تسير بهم غادين أو رائحين ؟ أهى تزيد الإحساس وتضاعفه ، أم هى تنقص منه وتتحيفه ؟ أو ليست الحركة شاغلا يشغل عن تجريد الإحساس وإمحاض للمحسوس ؟ وأيهما أنفذ : غرارة ملقاة يستغرق حسها نابض الحركات حتى تظل حية هامدة ، أم غاد ورائح ، تتخوَّن [٢] الحركة من حسه حتى يكلّ مرهفه ويفل مضاؤه ؟

* * *

(١) اللَّخَن : نَتْنُ الريح عامة .

(٢) تتخوَّن : تنقص .

بل كيف يستغرق الحس الحركة ؟ يا عجبا كل العجب ! إنه أمر لا يكاد يدركه إلا من مارسه فى سريرة نفسه . لذة لا توصف ، ولكنها تعقب أحيانا ألما لا يستقر . لذة تتملَّى بها وحدك ، وإذا هى تنسرب بك إلى جنة مونقة تدلت عليك بأثمارها . أما الألم ، هو الذى يلذعك إذا روعك عن استغراق حسك طارق لم تكن تتوقعه .

أجدنى أحيانا فى أمر والناس معى ، ثم يستغرقنى عنهم حس أنفرد به ، وإذا أنا معهم ولست معهم . ثم ينبرى سائل فيسألنى عن شيء غير الذى أنا فيه ، فأنتبه كالمذعور ، ويختلط على ما أنا فيه بما سئلت عنه . وعندئذ أرى كل شيء يفر منى كأنى ما عرفته من قبل ، ويأخذنى ما قدم وما حدث ، ويخرجنى التنبه قسرا من استغراق الحس إلى حركة لم أتهيأ لها ، وتتضارب على لسانى كلمات لم أردها ، وأقول ذاهلا ، ما لو تأنيت قليلا حتى أستقر لما قلته . إنه قول منزعج عن حقيقته ، لو اطمأن لاستقام على وجهه . فمن لى بمن يحس بما أحس به ، حتى يتفق حسى وحسه ، ثم يقظتى ويقظته !

* * *

أمن الممكن حقا أن تجعل إنسانًا يحس بما تحس به ؟ باطل محض . الحس عمل متصل لاينقطع ، بعضه يأتى فى أعقاب بعض . أجل ، ليس من الممكن أن تفرغ نفس إنسان من ماضى إحساسها ، وتفرغ نفسك من سالف إحساسها ، كى تبتدئا معا ، وتسيرا معًا إلى النهاية . هذا مستحيل . وإذا استحال ، فيستحيل معه أيضا أن تجعل إنسانًا يحس بما تحس به . نعم قد يستقيم فى بعض الكلام أن تقول لأخيك : « إنى أحس بما تحس به » ، ولكنك تعنى عندئذ أنك توجهت بإحساسك إلى شيء كان إحساسه قد توجه إليه . أما لو ظننت أن إحساسك به مثل إحساسه ، فهذا باطل . وألفاظ اللغة تضلل من لا يتوقى مجاهلها .

* * *

كل امرئ منا عالَم وحده ، لأنه يحس إحساسا واحدا لا يشركه فيه أحد من بنى جلدته ، وكل امرئ منا هو فى أصل طبيعته يعيش فى خلوة تامة – فى غرفة

مغلقة الأبواب . وإذا فسدت عليه هذه الخلوة ، فسد إحساسه بالحياة وأحيائها . وإذن ، فمن الإثم والعدوان ، أن تحتال على أحد ، متوهما أنك قادر على أن تجعل إحساسه بالأشياء كإحساسك . إنك آثم لا محالة . إنك تفسده وتفسد عليه حياته . إنك تعنف به حتى يخرج من خلوة الفطرة من حرية الحس . نعم ، بل أنت تتلذذ باستلحاقه فى إحساسك ، تتلذذ بخضوع سر حريته لسطوتك ، تتلذذ تلذذا بشعا باستعباده !

* * *

باطل الأباطيل أن يحس جماعة من البشر بإحساس واحد . إنه خلط قبيح . إنه إذلال كل فرد لطاغوت مكذوب يقال له الجماعة . كل امرئ منا له حس منفرد ، يجرد للإحساس لشيء واحد ، هو ما انطوت عليه هذه الحياة الدنيا ، كما فطرها فاطر السموات والأرض ومن فيهن . والذى يجمع البشر فى هذه الحياة ، هو هذه القضية المركبة : حس ينفرد به كل امرئ منهم ، يتجرد للإحساس بعالم واحد يتعايشون فيه . العالم الواحد هو الذى يربطهم ، لا تطابق إحساسهم تطابقا تاما أو غير تام .

والإنسان ليس مدنيا بالطبع ، كما يزعم الزاعمون ، بل هو مدنى بالضرورة . والضرورة هى هذا العالم الواحد الذى نعيش فيه ، والذى لا فكاك منه إلّا بحسام المنية . هذا العالم الذى يأسرنا ، هو وحده الذى يربط بيننا ، وهو وحده الذى يؤلف بين هذه الأحياء المُحِسَّة به ، وكل حى منها منفرد بإحساسه ، مستقل به وحده .

لا يتطابق حِسَّان بإحساس واحد أبدا ، بل يتطابق حسان على الإحساس بشيء واحد ولا مفر . وهما قضيتان مختلفتان فى أصلهما ، مختلفتان فى نتيجتهما .

* * *

أنبل جهدك أن توقظ إنسانا حتى يحس ، وسبيلك أن تفطن إلى شيء واحد : هو أنك أحسست بهذا الشيء أو ذاك . فإذا فطن له وتهيأ أن يحس به ، فذلك

حسبك وناهيك . غايات الغايات : أن توقظ حسه لكى يحس . والذى لا ريب فيه ، أنه سيحس بغير الذى أحسست . هذا غاية جهد أعلم العلماء وأبلغ الأبيناء ، وهو الأمانة التى كتب عليه أن يؤديها بما آتاه الله من علم وبيان ، فإذا جاوز هذا إلى أن يحتال عليك ويختلك ويماسحك ، ثم يتلصص إلى خلوتك ليضع فيك إحساسه ، لكى تبلغا « اتحاد الإحساس » فاعلم أنه لم يزد أن أفسدك وشوهك . فاحذره . إنه يستعبدك ! إنه يميت إحساسك ! إنه يتركك تقلد الحس وأنت لا تحس ، كالببغاء تقلد الكلام وهى لا تتكلم !

هذا إثم يرتكبه كثير من الجماعات ومن أصحاب المذاهب . يزعمون إصلاح الناس ، وحقيقة فعلهم تخريب الناس ، وإماتة الإحساس الحى ، واستعباد الحس الحر المنفرد فى كل نفس . إنه تدمير الفطرة فى سبيل الجماعة ، أو فى سبيل المذهب ، أو فى سبيل الدولة ! حذار من فتك هؤلاء الفتاك ، إن جاؤوك فى ثياب النساك .

* * *

صورة الإنسان واحدة ، مذ كان الناس على الأرض . الآلاف بعد الآلاف منذ أقدم الدهر . بنية واحدة بها يعرف الجنس أنه « إنسان » ، ولكنهم متباينون ، فلا يتشابه إنسانان أبدا . وكذلك الحس أصل واحد فى كل إنسان ، ولكن يتباين الحس ، فلا يتشابه حسان أبدا ، ولا يتطابق إحساسان ألبتة .

لا حيلة لأحد حتى يستطيع أن يدمج إنسانا فى إنسان ولو رام ذلك أحد لدمرهما جميعا . أما الحس ، فبالختل يتطابق ، وبالخداع يندمج ، ختل هو القسر ، وخداع هو الاعتساف . ولا يتم ذلك إلا بتشويه الحس وتدميره . والذى هون على الناس أمر هذا التشويه والتدمير ، هو أن من الممكن أن يعيش المرء حياته بحس مدمَّر خَرِبٍ ، وإن كان مستحيلا أن يعيش بصورة مدمرة خربة .

ومن هوانه على الناس ، أن يفعله غير متحرج أكثر الآباء والأمهات ، وأكثر المعاهد والمدارس ، وأكثر الجماعات والمذاهب والدول . يدمرون حس الإنسان بالختل والخديعة ، حين يزعمون إصلاح الناس بتطابق إحساسهم واندماجه . يدمرون الحس لأنه باطن ، ولأنه لا قوام له يحول بينهم وبينه ، كما يحول قوام صورة الإنسان الظاهرة بينهم وبين ما فعلوه فى شقيقها وقرينها .

الحياة إحساس محض ، والحس حر مطلق ، فأيما مذهب أو جماعة أو دولة ، حاولت أن تدمج بالختل حسا فى حس ، وأن تطابق بالخديعة إحساسا فى إحساس ، فلا غاية لها إلا استعباد أحرار الحياة ، وتدمير سر النشأة ، وتخريب بنيان الله بأخس الأسلحة : بالكذب والمكر والتغرير والختل والخديعة والعبث . إنهم يريدون أن يجعلوا المذهب أو الجماعة أو الدولة ، طاغوتًا يعبده المضللون داعين متضرعين ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أليس هذا بحسبك بعد الذى أفضت فيه . وقد عرضت لك جانبا من خواطر نفس حائرة تتصفحها ، فتفكر وتدبر ، واحذر ما يقول القائل :

فبينما الأمر تُزْجِيه أصاغِرُه ... إذ شمَّرت فَحْمة شَهْباء تَسْتعِرُ
تَعْيَى على من يداويها مكايدُها ... عمياءُ ، ليس لها شمس ولا قمرُ

* * *

الناسخون الماسخون

كانت صناعة النَّسْخ فى العصور الإسلامية الأولى يُعهد بها إلى رجال من أهل العلم والأدب يسمُّون « الورَّاقين » ، وكان يشترط فيهم التضلُّع بالعلم الذى ينقلون كتبه وينشرونها ، كما يشترط فى الراوية أن يكون من أهل البصَر بالشعر . ولذلك كان لكل عالم « ورّاقٌ » كما كان لكل شاعر « راوية » . فلما جاءت عصور الانحطاط طمع بهذه الصناعة غير أهلها ففسدت الكتب وكثر خطأها .

ومن هذا القبيل الأغلاط الواقعة فى نسخة كتاب (التيجان فى ملوكِ حمْير) لابن هشام . فقد شكا العلاّمة الشيخ عبد العزيز الراجكوتى الميمنى (فى الزهراء ٣ : ٣٠٠) من كثرة تصحيفها . ولما أراد أن ينقل منها لقراء الزهراء أشعار الرُّبَيّع ابن ضُبَع استطاع بمراجعة كثير من الكتب أن يصحح بعض تلك الأخطاء وبقى بعضها . وقد اقترحتُ على صديقى السيد محمود شاكر أن يبحث عن شعر الربيع فى كتب الأدب واللغة ليصحح مابقى من الأغلاط ، فلما أعياه الأمر [١] بعد سهر طويل بعث إلىَّ ببطاقة هذا نصها :

سيدى محب الدين [٢] ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

---

* الزهراء ، الجزء الرابع ، سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ ، ص : ٢٤٥ .

(١) لا يعنى محب الدين رحمه الله أن الأستاذ شاكر لم يجد شعر الرُّبيع عامة ، وإنما شعرا معينا أعيى الميمنى رحمه الله إقامته . فالأستاذ أجلّ من أن يجهل الرُّبَيّع وشعره . وللربيع ترجمة فى المعمرون : ٨ - ٩ ، سمط اللآلى ٢ : ٨٠٢ - ٨٠٣ ، أمالى المرتضى ١ : ٢٥٣ - ٢٥٦ ، الإصابة ٢ : ٢١٩ ، التيجان ١١٨ - ١٢٣ ، الخزانة ٣ : ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٢) محب الدين بن أبى الفتح محمد عبد القادر صالح الخطيب ، ولد بدمشق وتعلم بالآستانة . حضر إلى القاهرة ١٩٠٩ وعمل فى جريدة المؤيد ، ثم قصد العراق فاعتقله الإنجليز سبعة أشهر ، ثم ذهب إلى مكة المكرمة عند إعلان الثورة العربية ١٩١٦ فحكم عليه الأتراك بالإعدام غيابيا . ثم استقر فى مصر سنة ١٩٢٠ وعمل محررا فى الأهرام ، وأنشأ مجلتىْ الزهراء والفتح ، وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها ، ونشر كتبا كثيرة من تأليفه . توفى ١٩٦٩ .

فلو أنَّ (ذا القَرْنيْن) طَالَتْ حياتُهُ   وأبْصر ماقد جمَّعَ ابنُ هِشامِ

وأبْصَـر أقـوال الـرُّبَيـع وشعـرَهُ   سَوَادًا مُجَنًّا فى دُجى وظلَام

لَـحَيَّرَهُ مـاحَبَّر (ابنَ مُـحَمَّـدٍ)   فبات على شَوْكٍ ضجيعَ سَقام

وهَلْ سَقمٌ إلا (مَصادِرُ) لم تُنِلْ   مُرادًا ولـم تُطْلبْ بأىّ مرَام

ففى الهند أعْيَتْه ، فهلُ أنا قادرٌ ؟   فلستُ إذا ما لم أُصِبْ بِمُلام

وآخرُ عَجزِ المرءِ بَعْدُ تَنَصُّلٌ   وآخرُ ما أهدى إليك سَلامى

* * *

إكمال ثلاثة خروم

من كتاب التنبيه على أوهام أبي على فى أماليه

طلب إليّ منشئ هذه المجلة أن أجرّد من (اللآلي شرح أمالى القالى) أوهامَ أبى عليّ التى سقطت من نسخة (التنبيه) المطبوعة أخيرًا مع (الأمالى) فى مطبعة دار الكتب العربيّة ففعلت ذلك ، وقد اتبعتُ فى الإشارة إلى مكان التنبيه مااتبعتْه دار الكتب فى ذلك .

إن السقط الذى نبّه إليه الأب أنطون صالحانى اليسوعى فى مقدمته كان فى مكانٍ واحد وذلك فى الوجه ٦٧ من الأصل المخطوط أى فى ١٢٩ من التنبيه المطبوع . وقد انتبه رجال دار الكتب إلى مكان آخر وذلك فى الوجه ١٢٧ من التنبيه ، وانتبهنا نحن إلى نقص ثالث وذلك فى الوجه ١٣٠ بين التنبيه الواقع فى الوجه ٣١٠ والواقع فى ٣٢٦

– ١ –

فأما الذى انتبه إليه رجال دار الكتب فتكملته :

قال أبو النجم :

طار عن المهر نَسيلٌ يَنْسُلُهْ عن مُفْرَعِ الكتفين حُلْوٌ عَطلُهْ [١]

أى عنقه . يقال فرس حسنُ العَطَل أى العنق ولا أعلم هذين الشطرين فى رجز رؤبة .

– ٢ –

وهذا ماسقط من (التنبية) ونبه إليه الأب صالحانى :

قال وأنشد أبو على (ص ٢٦٨ س ١٦) :

* مجلة الزهراء ، السنة ١٣٤٦ هـ ، ١٩٢٨ م ، ص : ٣٦٢ – ٣٦٧ . وكل الشروح الواردة فى الهوامش للأستاذ شاكر . وما راجعته ذكرته مقرونا باسمى .

(١) فى رواية اللسان « حر عطله » .

أبرَّ على الخصوم ، فليس خَصْمٌ ولا خَصْمان يغلبُه جدالا
ولَبَّس بين أقوام ، فكلٌّ أعدّ له الشَّغازِب والمِحَالا

(ع) هما لذى الرمة يمدح بلالا . وصلتهما :

وكلهم ألدّ أخو كِظاظٍ أعدّ لكل حال الناس حالا

أبرّ على الخصوم .. إلخ

قضيت بمدّة [1] فأصبت منه فُصوصَ الحق فانفصل انفصالا [2]
وحُقَّ لمَنْ أبو موسى أبوه يوفّقه الذى نَصَب الجبالا

هكذا صواب إنشاده واتصال أبياته . وقوله « ولبّس » إنما هو ولبْسٍ وهو معطوف على قوله :

ومُعْتَمِدٍ جعلتَ له ربيعًا وطاغيةٍ جعلتَ له نَكالا

أى رجل اعتمدك لِخَلَّة كنت له حيًا بمنزلة الربيع

(ص ٢٧٥ س ١٦) وأنشد أبو على :

فَخْرَ البَغِيّ بحِدْجِ ربَّـ ـتِها إذا ما الناس شلُّوا

(ع) إنما هو « إذا الناس استقلوا » يريد استقلالهم وارتحالهم للنُجْعة ، فأما الشَّل والطرد فإنما يكون عند الفزع والخوف ، ولات حين إعجاب ولا فخر .

قال الراجز :

عاينَ حيًّا كالحِرَاجِ نَعَمُهْ يكون أَقْصَى شَلِّه مُحْرَنْجِمُهْ

يقول إذا شلّ الناس وطردوا نَعَمَهُمْ ناجين هاربين يكون أقصى شلّ هذا بروكه فى مواضعه لعزة أصحابه ومنعتهم . وهو لدخسوس بنت لقيط – وقد تقدمت من

---

(١) ويروى قضيت بِمِرّة أى بأحكام .

(٢) فصوص الحق مفاصله .

هذا الشعر أبيات – تقوله للنعمان بن فَهْوس [١] لما فرّ يوم جبلة .

وقبل البيت :

إِنَّـكَ مِـنَ تَـيْـمٍ فَـدَعْ　　غَـطَـفَـانَ إِنْ سَارُوا وحَـلُّـوا

لا مِـنْـكَ عِـزُّهُـم ولا　　إِيَّـاكَ إِنْ هَـلَـكُـوا وذَلُّـوا [٢]

فَـخْـرَ الـبَـغِـيِّ بِـحِـدْجِ رَبَّـ　　ـتِـهـا إذا الـنـاسُ استقلُّوا

هكذا رواه أبو عبيدة : تقول فخرك بعزّ غطفان ومآثرهم كفخر هذه الأمة بحدج ربتها إذا استقل الناس ، تريد أنك لست منهم وليسوا منك .

(ص ٢٧٩ س ٢٣) قال أبو على : « قال أبو زيد : قلت لأعرابية [بالعيون] [٣] :

مالك لا تصيرين إلى الرفقة ؟ قالت : إنى أخزَى أن أمشى فى الرفاق ! »

(ع) قال أبو زيد فى نوادره « قلت لأعرابية [٤] بنت مائة سنة : مالك لا تصيرين إلى الرفقة ؟ [٥] فقالت : [٦] أخزَى أن أمشى فى الرفاق ! » وبهذه الزيادة تكمل فائدة الحديث .

(ص ٢٨٢ س ١٦) قال أبو على : « الجِسْئُ : صلابة تمسك الماء وعليها رمل فلا تَنْشِفه [٧] الشمس » هكذا روى عن أبى على « تنشِفه » بكسر الشين . والمعروف عن أبى زيد وغيره نَشِفَت الأرضُ الماءَ تنشَفُه بكسر الشين فى الماضى وفتحها فى المستقبل .

(ص ٢٨٣ س ٣) وقال أبو علي : « وفد رجُل من بنى ضِنَّة على عبد الملك ابن مروان » وذكر الخبر . قال : وفي العرب ضِنتّان : ضِنّة بن سعد هُذيم ، وضنة

---

(١) فى الأصول بالفاء ، والتصحيح من النقائص ٢ : ٦٥٦ ((عادل جمال)

(٢) فى النقائض : عدُهم .. أباك ، وأراها أوفق (عادل جمال) .

(٣) لم تذكر الكلمة فى الشرح وقد ذكرت فى الأصل ونوادر أبى زيد .

(٤) الذى فى النوادر بزيادة « بالعيون » .

(٥) فى النوادر « مالك لا تأتين أهل الرفقة ؟ » .　　(٦) فى النوادر « إنى » .

(٧) راجع المطبوعة الجزء الثانى ص ٢٨٢ فقد شكلت « تنشفه » بضم التاء وفتح النون وتشديد الشين المكسورة ، وهو خطأ فى الضبط على مايبين من كلام البكرى .

ابن عبد الله بن نمير (ع) هو ضنة بن سعد بن هُذيم بن زيد بن ليث بن سُود بن أسْلُم [١] بن الحاف بن قضاعة . وفى العرب ثلاثة ضنّات غير الذى ذكر وهى : ضِنّة بن الحَلّاف بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد ، وضنة بن العاصى بن عامر ابن مازن بن الأزْد ، وضنة بن ثعلبة بن عُكابة بن صَعْب بن على بن بكر بن وائل .

(ص ٢٩٠ س ٣) وذكر أبو على خبر النفر من طئ مع سواد بن قارب الخبر بطوله وتفسيره وفيه « لقد خبأت دِمّة ، فى رمّة ، تحت مَشِيط [٢] لمةً » .

(ع) اختلفت الرواية عن أبى على فى هذه اللفظة فرواه بعضهم (دِمّة فى رمّة) بالدال فى الأول ورواه آخرون « رمّة فى رمّة » بالراء بلفظ واحد فيهما ، وفى تفسير أبى على : الدِمّة : القملة . فهذا يصحح رواية من رواه بالدال . قال اللغويون : الدِمّة : القملة ، وقيل النملة الصغيرة ، ومن ذلك الدميم والدمامة . وأما الرمة بالراء فلا أعلم أحدًا قال إنها القملة ، وإنما الرمة فى بعض اللغات الأرَضة ، وقال أبو حاتم : الرمة النملة التى لها جناحان .

(ص ٢٩١ س ٢٢) وأنشد أبو على :

« ما إن رأيْنا مَلِكًا أغارا ... أكثرَ منه قِرَةً وقارا »

(ع) هما للأغلب العِجلىّ وبعدهما :

« وفارسًا يستلب الهجارا »

وهذا الذى نقل أبو على في القرة هو قول أبي عبيدة وقال : الوقير والقرة : الغنم ، والقارُ : الإبل . وقال غيره فى قول العجلى « القرة من الأثقال » يجعله من الوِقْر . يقول : ما إن رأيت ملكًا أكبر جيشًا منه وأكثر أثقالًا . قال : وأى مدخل للغنم فى جيوش الملوك . وأنشد فى ذلك للعجاج :

---

(١) كل من فى العرب « أسلم » بفتح الألف واللام إلا هذا فإنه بفتح الألف وضم اللام .

(٢) ضبط فى المطبوعة « مشيط » على التصغير ، وهو خطأ وصوابه على زنة كبير كما ورد فى اللآلي أيضاً .

« لما رأتْ حليلَ عينَيَّهْ وِلِمَّتى كأنها حَلِيَّهْ

قالت : أراه قرةً عَلَيَّهْ »

أى ثقلا

(ص ٢٩٦ س ١٨) وأنشد أبو علىّ للأعشى :

« تروح على آل المهلَّب جَفْنةٌ كجابِيَة الشَّيخ العراقى تَفْهَقُ »

قال : وكان أبو محرز خلف يروى « كجابية السَّيْح العراقىّ » ويقول : الشيخ تصحيف .

(ع) قد تقدم القول فى هذا البيت ووصلناه وذكرنا المذهبين فى كلا الروايتين ، وليس هو كما أنشده أبو على وإنما هو :

« نَفَى الذمَّ عن آلِ المحلّق جفنَةٌ كجابِيَة الشَّيخ العراقىّ تَفْهَقُ »

– ٣ –

﴿ وهذا ما نحسبه ساقطًا من آخر الكتاب ﴾

(ص ٣١٦ س ١٠) وفيها (أى قصيدة قيس بن ذريح) :

« يظل نهارُ الوالهين نهارَه وتَهْدِنُه فى النائمين المضاجعُ

سواىَ ، فَلَيْلِى من نهارى ، وإنما تُقَسَّمُ بينَ الهالكين المصارعُ »

ورواهما غير أبى على :

« نهارى نهار الوالهين صبابَةً ولَيْلِىَ تَنْبو فيه عنى المَضاجعُ

وقد كنتُ قبل اليوم خِلْوًا وإنما تُقَسَّمُ بين الهالكين المصارع »

وهذه الرواية أحسن وأجود اتساقَ لفظٍ ومعنى ، لأَن البيت الأول فى رواية أبى على مضمن واللفظ مستكره ومتكلف .

(ص ٣٢١ س ٩) وأنشد أبو علىّ :

أَيُغْسَلُ رأسى أو تَطيبُ مَشاربى ووجهُكَ مَعْفورٌ وأنت سَليبُ

سيبكيكَ مَن أمسى يُناجيكَ طرفُه ... وليس لمَنْ وارى الترابُ نسيبُ
وأني لأستحيي أخي وهو ميِّتٌ ... كما كنتُ أستحييه وهو قريبُ

(ع) أنشد ابن أبى الطاهر هذه الأبيات لبنت على بن الربيع الحارثى ترثى أباها ، والبيت إنما هو :

وأنى لأستحيي أبى وهو ميتٌ ... كما كنت أستحييه وهو قريبُ

لا « أخى » كما أنشده أبو على ، وبعده :

إذا ما دعا الداعى عليًّا وجَدتُنى ... أُراعُ كما راع العَجُولَ مُهيبُ
وكم مِن سَمِيّ ليس مِثل سَمِيّه ... وإن كان يُدْعَى باسْمِه فيُجِيبُ

(ص ٣٢٤ س ١) وأنشد أبو على قصيدة أولها :

يا عين بكّى لمسعود بن شدّادِ ... بكاءَ ذى عَبَراتٍ شَجْوُه بادِى

وقال : إنها تنسب إلى عمرو بن مالك وإلى أبى الطمَحان وإلى رفاعة بنت شداد ترثى أخاها مسعود بن شداد .

(ع) هو عمرو بن مالك بن يثربى النخعى ثم الكعبى جاهلى ، وأبو الطمَحان قد تقدم ذكره ونسبه وهو مخضرم .

وقد خلّط أبو على فى هذا الشعر كل التخليط فأدخل فيه بضعة عشر بيتًا من شعر أنشده ابن الأعرابى فى نوادره لجَبَلَة بن الحارث يرثى مسعودًا العدوى لم ينسب منها أحد بيتًا واحدًا إلى الشعراء الذين ذكرهم أبو على . وأول شعر جبلة ابن الحارث :

« يا مَنْ رأى عارِضًا قد بت أرقُبه
يَسْرِى على الحَرَّة السَّوداء والوادى »

الخمسة الأبيات على الاتصال كما أنشده أبو على ثم الباقية تسعة مفترقة من تضاعيف الشعر قبل هذا .

* * *

من خط البغدادى *

اطلعت على الكلمة التى نشرها العلامة السيد محمد راغب الطباخ وذكر فيها ماكتبه البغدادى بخطّه ، واطلعتُ على ما كتب عن مخطوطات البغدادى فى الخزانة ، الطبعة الحديثة التى صدرت من المطبعة السلفية ، فذكرنى ذلك بكتابين كتبهما البغدادى بخطّه وهما موجودان الآن فى دار الكتب المصرية :

الأول سفر السعادة للسخاوى فى اللغة .

والثانى فُرْحَة الأديب لأبى محمد الأعرابى الأسود الغُنْدُجانى فى نقد السيرافى فى شرحه على كتاب سيبويه .

وهما فى مجلد واحد (تحت الرقم ٧٨ مجاميع م) بدار الكتب وقد ذكر البغدادىّ الكتابين فى مقدمته . ذكر الأول فى ص ٣٤ : س ١٤ وذكر الثانى فى ص ٣١ س ٤ .

* * *

* مجلة الزهراء ، السنة الخامسة ، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م .

مقاليد الكتب

أدب الجاحظ

تأليف حسن السندوبى – طبع بالمطبعة الرحمانية – صفحاته ٢٤٧

نال الجاحظ من عناية الكتاب فى هذا العهد مالم ينلْهُ أديب أو عالم آخر من علماءِ العرب وأدبائهم . ولا غرو فقد قيل أن الفيلسوف ثابت بن قرّة الصابىء الحرّانى قال « ما أحسدُ الأمة العربية إلّا على ثلاثة أنفسٍ أولهم عمر بن الخطاب والثانى الحسن بن الحسن البصرى (وهو من شيوخ المعتزلة) والثالث أبو عثمان الجاحظ » . وقال ابن العميد : كُتُب الجاحظ تعلم العقل أولًا والأدب ثانيًا » ، وقال كذلك « ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس أما الفقه ... وأما الكلام ... وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبى عثمان الجاحظ » . وقال ياقوت – بعد ماذكر أن ابن الأخشيد أقام بعرفات ينادى : يرحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبى والمتنبى لأبى عثمان الجاحظ على أى وجه كان – « وحسبك بها فضيلة لأبى عثمان أن يكون مثل ابن الأخشيد ، وهو هو فى معرفة علوم الحكمة وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت حرام ... » . وقال أبو القاسم الإسكافى « استظهارى على البلاغة بثلاثة : القرآن وكلام الجاحظ ، وشعر البحترى » . وجعل ابن دريد « كتب الجاحظ من متنزهات القلوب » لما ذكرت أمامهُ متنزهات الدنيا أو متنزهات العيون كما دعاها .

وقد اطلعنا فى خلال الشهرين الماضيين على كتابين من الكتب الحديثة فى الجاحظ الأول كتاب شفيق جبرى – وقد ذكرناه فى مقتطف أكتوبر الماضى – والثانى الكتاب الذى بين أيدينا الآن . وعلمنا أن خليل مردم بك وضع كتابًا فى الجاحظ كذلك ولكننا لم نره .

وعندنا بعد مطالعة كتابى السندوبى وجبرى أن الأول عنى بإيراد سيرة

---

* المقتطف ، المجلد ٨١ ، نوفمبر ١٩٣٢ ، ص ٤٩١ – ٤٩٣

الجاحظ وآرائهِ فأنت تخرج منهُ بصورة واضحة (انظر الصورة) لشكلِه وتعليمهِ ورزقهِ وبسطة جاههِ ومقامهِ الأدبى ورأيه فى المعتزلة والكتب التى صنفها والمؤلفات التى نسبت إليه . وعنى الثانى عناية بدرس أدب الجاحظ وطريقتهِ فى البحث والتحقيق والنقد وتحليل شعوره الدينى ونواحى أدبهِ من الضحك إلى التهكم إلى الصنعة إلى الفن وغير ذلك . فإذا استعملنا التعبير الغربى قلنا أن الأول تاريخ خارجى للجاحظ والثانى تاريخ داخلى . وكل منهما مكمّل للآخر .

* * *

وقد حقق المؤلف مولد الجاحظ فرأى أن يعتمد النص الذى جاءَ به الجاحظ قال (صفحة ٢٠) نقله إلينا ياقوت فى معجمهِ فقد روى أنهُ قال : أنا أسنُّ من أبى نواس بسنة ولدت فى أول سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) ووُلِد فى آخرها » وليس بعد هذا – فى رأى المؤلف – نصٌّ يعتدُّ بهِ .

ثم أظهرنا فى الفصل الثالث على صورة من أساليب التعليم فى ذلك العصر قال :

« فقد كان الرجل يبعث بولده إلى كتاب الحى فيتعلم فيهِ مبادىء القراءة والكتابة ، ويشدو شيئًا من قواعد النحو والصرف ، ويتناول طرفًا من أصول الحساب ، ثم يستظهر كتاب الله الكريم استظهارًا تامًّا مجوّدًا مرتلًا ، وهو فى خلال ذلك يتردد مع أترابه على القاص فيسمع منهُ أحداث الفتوح ، وأنباء المعارك ، وأخبار الأبطال ، ومقاتل الفرسان ، ومفاخرات الشجعان ، وسير الغزاة والفاتحين ، ممزوجًا ذلك بالمواعظ والعبر وإيراد أحوال الصالحين وأطوار الزهاد والنساك والمتقين . وبعد أن يأخذ من كل طرف من هذه المعلومات نصيبهُ الكافى يولى وجهه شطر حلقات الدرس بالمساجد العامة ، والمعاهد الجامعة ، والمدارس الخاصة فيقوم من حلقة الفقيه إلى حلقة المحدِّث ، ومن مجلس اللغوى إلى سارية النسَّابة ، ومن حضرة الأخبارى إلى دارة المتكلِّم ، ومن معهد المنطقى إلى مجمع الفلسفى ، ومن محفل الأديب إلى قاعة المهندس ، ومن بين يدى المفسِّر إلى حظيرة الأصولى ، ومن غرفة الراوية إلى بيت الشاعر ، ومن ديوان

الكاتب إلى صاحب النجوم ، ومن الأسطرلابى إلى الجغرافى ، ومن مشهد الموسيقار إلى مقعد المغنى ، ومن عند المزمار إلى دكانة الوتار . الصبيان والبنات فى ذلك سواء ، وإن كانت الغالبية فى الصبيان دون أخواتهم . حتى السجون ، فقد كان لأهلها حظ من التعليم وكان لهم معلمون يدخلون إليهم فى أوقات معينة » .

* * *

وقد تلقى الجاحظ علومهُ على شيوخ البصرة والكوفة وممن أخذ عنهم علومهُ الأصمعيُّ وأبو زيد الأنصارى وأبو الحسن الأخفش وممن تلقَّى عليه العلم المبرد صاحب الكامل .

ويقال إنهُ كان وهو فى دور الطلب يعانى الاتجار فى الخبز والسمك بسيْحان (نهر بالبصرة) وسواءٌ صحّ هذا الخبر أم لم يصحّ فقد درج الجاحظ فى بحبوبة من اليسر والرخاء واتسعت موارد رزقه ... فلا عجب أن يعلو على أمثاله فضلًا وفهمًا ، وأن يقدم للغة العربية هذه المصنفات التى وضعها فى كل ضربٍ من ضروب العلم وفنٍّ من فنون الآداب على كثرتها وجليل شأنها . فإن العطايا واللُّهى [١] تفتح اللَّها ، على شريطة الاستعداد الفطرى والكفاية الظاهرة (ملخصًا من الفصل الرابع) وقد أشار مصطفى صادق الرافعى إلى ذلك فى مقالته عن شوقى فى هذا الجزء) .

* * *

ومما عرض لهُ المؤلف ولم يدعمهُ بإسناد قولهُ إن الجاحظ أتى مصر قال (صفحة ٧١) ووقعتُ فى كتاب الحيوان على أنهُ وفد مصر وأقام بها زمنًا وأجرى بها اختبارات فيما عثر عليهِ من حيوانها » . وحبذا الحال لو أشار إلى الفقرة التى نُصَّ فيها على ذلك أو يُحَصَّل ذلك من معناها . ولكنهُ كان شديد الحَذر لما ذكر أن الجاحظ كان يلمُّ بالفارسية – قال أجل ليس هناك نصٌّ صريح يملأُ يد الباحث

---

(١) العطايا واللُّهَى بمعنى .

فى هذا الشأن ولكن هناك من العبارات والألفاظ مايدفع إلى استنباط هذا الرأى ... وقال كذلك بعد ماذكر شاهدًا على قولهِ ... فمسألة عرفان الجاحظ باللغة الفارسية تستنبط بالقوة من خلال سطور كتبهِ ولا تؤخذ بالنصّ .

وترى أنهُ كان شديد القسوة لما بيَّن أن كتاب « التاج » ليس من مؤلفات الجاحظ (١٤٥ - ١٥٢) فبعد ما أورد نص تقدمة صدَّر بها الجاحظ كتابًا لهُ ونص تقدمة « التاج » وهما موجهتان إلى رجل واحد قال : « فأىُّ امرىء لهُ مسكة من عقل أو أثارة من الذوق أو بقية من أدب أو لبابة من فضلٍ ، يستطيع أن يقول أن كاتب ذلك التقدمة هو كاتب هذه ؟ » . ولعلَّ بلاغة العبارة ساقتهُ فى تيار وقعها فانساق .

وفى الكتاب فصل مسهب أُحْصِيَت فيه كل مؤلفات الجاحظ والمؤلفات التى نسبت إليه وفَصْلان بسط فيهما مذهب المعتزلة ورأى الجاحظ فيهِ ، وفصول أخرى تحتوى على نوادره ومختارات من نثرهِ وشعرهِ .

وفى حواشى الصفحات ترجمات موجزة للأعلام الذين ورد ذكرهم فى المتن .

* * *

نقول وياليت المؤلف توسع فى بعض الفصول توسعًا ينقع الغلة كالفصلين اللذين أفردهما لمعارف الجاحظ وإحاطتهِ وتحقيقهِ للعلم فإنهما شديدا الإيجاز ، ولكنهُ قد يفعل ذلك لدى نشره كتاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين » .

* * *

الصاحب بن عباد

ورثة هذا اللسان العربى هم الآن أقلُّ خَلَفٍ شوقًا إلى نشر التاريخ المطوىّ لمن سلف من آبائهم ، وأبعدهم عن معاناة المشقة فى استقصاء أخبار من غبر من علمائهم وأئمتهم وهداتهم ومن فتح ومن قاد ومن حكم ومن استوزر من أسلافهم ، فلذلك نكِروا التاريخ العربى إذ لم يعرفوه ، وركَّتْ أساليبهم إذ كان الأدب العربى على جانبى التاريخ العربى وفى طريقهِ ومن بين يديه ومن خلفه . ولا عَجب فقد كانت البلاغة لعهدهم هى ميزان الرجال ، ومقياس العقل ، وقسطاس الحكمة . وما عق هذا الخلف أبوّة من غبر من أسلافهِ إلّا لأسباب أخذت عليه طريقهُ ، ولو أن جلها ليس مما يبرر هذا العقوق أو يُعذر منه .

ولقد انْتُدِب لمداواة هذا العقوق رجالٌ من الأدباء والشعراء فبذلوا ولم يضنوا ، وأخرجوا فى رجال الأدب والتاريخ كتبًا تعرّف الناسَ بهم وبأدبهم وأخلاقهم وفضائلهم وما سوَّغوا من الحكمة . وما رزقوا من الفضل . فمن ذلك ماكتب الأديب الجليل « خليل مردم بك » عن « الجاحظ » و« ابن المقفع » و« ابن العميد » و « الصاحب بن عباد » . والثلاثة الأولى من كتبه قد نشرت من أشهر وتداولها الناس . ونشر حديثًا كتابه عن « الصاحب بن عباد » فاستوفى ترجمته ما استطاع ، وجمع شتات ما وصل إلينا من أخباره ، ثم أبدى فى ذلك من صواب الرأى والدقة والتوثق قبل الحكم ما يشهد بأمانته وعدله . وفى الكتاب من رسائل « الصاحب » ومن شعره مالم ينشر مستقلًّا بعد .

وأسلوب كتابه هذا ، هو الأسلوب الجيد فى عرض التراجم التى يقصد من كتابتها تعريف الناشئين بمن مضى من أسلافهم ، حتى لا يقفوا منهم موقف الجهل إذا ماعرض ذكرهم فى حديث أو كتاب . على أنهُ لا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب هو أوسع ما يكتب عن الصاحب ، فإن أكثر ما كتب هو وما ألَّف ، أو ما كتب عنه أو قيل فيه ، قد استبد به الضياع . ولا يبعد أن يطلعنا القدر يومًا

---

* المقتطف ، المجلد : ٨١ ، نوفمبر ١٩٣٢ ، ص : ٤٩٣ - ٤٩٤

ما على أثر من آثار الصاحب أو آثار من عرض لذكره والكلام عنه يبدل الحكم عليه أو ينقص منه أو يزيد فيه .

وأهم أبواب كتاب « الصاحب بن عباد » هو القول فى « أسلوبه وخصائصه » من ص ١٢٩ - ١٥٧ قد وفق المؤلف فى الكلام عن الأسلوب ولم يستوف خصائص الأسلوب حقها حتى تستطيع بعد أن تقرأه أن تعرف مايميز أسلوب « الصاحب » من أسلوب أستاذه « ابن العميد » على أن للمؤلف عذرًا بينًا فى هذا فإن آثار « الصاحب » و « ابن العميد » قد ضاعت ولم يبق إلّا أقلها مما لا يعين على التحديد والحصر والإبانة عن مواضع التمييز . والكلام على خصائص أساليب الكتاب من أمثال الصاحب وابن العميد هو أهم ما يكتب عنهم وأجداه على العربية وطلابها إلَّا أنه فيما نرى أشقها وأبعدها مطلبًا ، ولن يوفق إليه إلّا من استكمل العُدَّة وتهيأ له الطبع الرقيق والبصر النافذ وواتته الأسباب بظهور جزء من الكتب الضائعة والمغمورة وأعانه العلم المستفيض بأخبار الكتَّاب وأخبار عصورهم ومن سبقهم ممن أخذوا عنه أو نهلوا منه .

وأما بعد ، فإن كتاب خليل مردم بك عن الصاحب هو من أحسن مايعرِّف الناس بلسان من الألسنة البليغة ووزير من الوزراء النابهين فى القرن الرابع للهجرة .

* * *

أبو نواس

تأليف الأستاذ « عمر فروخ »

أستاذ الأدب العربى فى كلية المقاصد الإسلامية ببيروت

رأت « مكتبة الكشاف » وصاحبها الأخ « مصطفى فتح الله » ببيروت أن تصدر سلسلة متتابعة من كتب فى الأدب العربى ، وبدأ لها الأستاذ الأديب « عمر فروخ » بالقول فى « أبى نواس : الحسن بن هانىء » شاعر الخمر والمجون . ويقول المؤلف : « هذه دراسة شبه مفصلة فى شعر أبى نواس ، تتناول ترجمته ، ثم البيئة التى نشأ فيها ، والعناصر التى ساعدت على توجيه شعره إلى مستقره ، ثم نقد لأبواب شعره ... » .

ونقول : قد تعجل المؤلف الأديب فى دراستهِ شعر أبى نواس ، وكان يجدر بهِ أن يقف طويلًا قبل أن يتقدم ، ليأخذ عدته وأداته وما يصلح من أمره . أو ما تراه كتب عن موت أبى نواس والمرض الذى مات به أكثر من صفحة وكتب عن (فلسفة أبى نواس ومذهبه فى الحياة) أربعة أسطر لم يزد فيها على أن جعل فلسفة الرجل فلسفة حيوان مستكلب قَطِم [(١)] تَتَسَعَّر شهوته . ولقد طوى المؤلف القول فى ترجمة هذا الشاعر العظيم ليظهر لنا نواحى شاعريته ومآتى هذه الشاعرية ، وآفاق نبوغهِ ومطلع هذا النبوغ ، فكان حقيقًا – ولم يفعل – بأن يكشف لنا عن العصر الذى كان فيه أبو نواس ، ذلك العصر الذهبى فى تاريخ العرب حين كان الرشيد « هارون » يقول للسحابة المُخْلِفَة « أمطرى حيث شئت » [(٢)] ، وحين كان الرجل من الناس يتنقل من مجلس الوقار يدرس فيهِ الكتاب الكريم ، إلى مجلس الأدب والظرف ينشد فيهِ الشعر ، ومن مجلس الحكمة والطب تدرس فيهِ الفلسفة بأنواعها ، إلى مجلس أبى العِبَر وأمثاله يؤتى فيهِ بالكلام الملفق من رطانة العجم

---

* المقتطف ، المجلد ٨٢ ، فبراير ١٩٣٣ ، ص : ٢٤٠ – ٢٤١

(١) القَطِم : الذى يتشهى النِّكاح هنا .

(٢) تتمة القول : « فسوف يأتينى عطاؤك » .

وحماقات المغفلين ، ومن دار الجد والجدل فى علوم الأوائل والأخذ والرد فى مذاهب القوم من المعتزلة وأهل الرأى وأهل السنة وغيرهم ، إلى دار الخلاعة والمجون وشرب الخمر وأنواع الشرور الإنسانية . وحين كانت بغداد تموج بالقادمين إليها من كل فج ، فيهم الفارسى والهندى والشامى والمصرى والأندلسى والترك والديلم والقيان الجميلات ، والإماء المستطرفات اللبقات ، والمغنيات والأديبات ، وحين كانت الفتنة والوقار والهدى والضلال ، وبغداد تغلى كغَلْى المرجل ، وأبو نواس الشاعر الماجن اللسن الخبيث فى مثل هذا الموج يروح ويغدو .

هذا هو مَحَكّ كل مؤلف يكتب عن أهل ذلك العصر على الطريقة المستحدثة فى الأدب العربى . وفى هذا يتبين القارىء كيف درس الأديب وكيف فهم وكيف تأثر بشعر الشاعر واهتز له وأقبل عليهِ وأعجب به واستوضح نبوغه فشهد له وفضله واستخرج محاسن شعره ثم كتب عنه . وبغير هذا يكون كل كتاب قد استوعب ترجمة الرجل منهم على طريقة التأليف الأولى أجدى وأقوم .

على أن الأستاذ الأديب « عمر » قد ألم بحياة أبى نواس إلمامًا لا بأس به فيهِ الفائدة للناشئة ، ينبه كل غافل منهم إلى الأديب العربى ومافيهِ من درر القول وكرائم الشعر ويدعوهم إلى وصل ماضيهم بالحاضر الذى يعملون على تشييده وبنائهِ . وقد رد الأستاذ القول الذى لج فيهِ بعض المحدثين بأن أمثال أبى نواس من الشعراء أهل المجون والخلاعة والتهتك يمثلون العصر العباسى عصر الرشيد الذى كان يموج بأئمة الدين كأبى يوسف صاحب أبى حنيفة وكبار الفقراء من أعلام الصوفية أصحاب النسك والورع .

أما لغة الكتاب وأسلوب المؤلف ففيهما ضعف نرجو أن تبرأ منهُ بقية مؤلفاته إن شاء الله ، وفى الكتاب سهو كثير ونخص بالذكر والتنبيه قوله « إن أبا الفرج صاحب الأغانى افتتح الجزء السادس عشر من كتابه « بأخبار أبى نواس وجنان خاصة » والصواب أنهُ الجزء الثامن عشر . وأيضًا ، فقد ذهب المؤلف إلى القول بضياع ترجمة أبى نواس من كتاب الأغانى كما ذهب إلى ذلك ابن منظور

الأنصارى صاحب « لسان العرب » فى كتابه « أخبار أبى نواس » . وأرجح الرأى عندنا أن قول أبى الفرج فى مفتتح الجزء الثامن عشر من الأغانى « أخبار أبى نواس وجنان خاصة ، إذ كانت أخباره قد أفردت خاصة » إنما عنى به « جمع ديوان أبى نواس » الذى ذكروه فى مؤلفات أبى الفرج .

* * *

ضحى الإسلام

تأليف « أحمد أمين » الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

– أخرجته لجنة الترجمة والتأليف والنشر بمصر

من أجلّ الكتب العربية التى أخرجت للناس فى هذا العام كتاب « ضحى الإسلام » ، وصل بِهِ صاحبه الأستاذ « أحمد أمين » ماكان بدأ فى كتابه « فجر الإسلام » ، وبه نقع المؤلّف غُلّة شقىَ بها أدباءُ هذا العصر زمنًا طويلًا ، ويخيَّلُ إلىَّ أن الأستاذ « أحمد أمين » رجل قد أوتى من الصبر والجَلَد والمثابرة وقوة العزم ونشاط الفكرة نصيبًا وافيًا سابق به المجتهدينَ من أهل عصره حتى سبقهم وأربى عليهم . وعامة الناس لا يعرفون ماذا يلقى الباحث فى التاريخ العربى والأدب العربىّ من عناءٍ وعنتٍ يبلغان منهُ الجُهْد . فالباحث إن لم يؤتَ مثل ما أوتى هذا الرجل انقلب إلى نفسه بأخسّ النصيبين وأوكس الحاجتين . ذلك بأن التاريخ العربىّ خاصة قد انفرد دون ما دوّن من تواريخ الأمم الخالية بالنقص فى ناحيتين : أولاهما ، انطمار آثار جاهلية الجزيرة العربية فى اليمن والعراق والحجاز والشام وخُفُوتُ أخبارها وقلّةُ ما دُوّن منها على تشتتهِ فى كتب الأدب وكتب التاريخ ، والأخرى ، اعتماد المؤرخ العربى على الرواية فلم يعنَ بالتعليق عليها وتوضيح ماغمض من أسرارها . ونعتقد أنهم كانوا يستطيعون ذلك لو تعمدوه ، وقد تبيّن هذا لنا مما نراه لهم من القول فى ترجيح رواية على رواية إذا التبس الأمر . وثالثة لا ذنب للتاريخ ولا للمؤرخ فيها ، تلك هى ضياع أكثر الكتب العربية التى ألفت فى عصر الرشيد والمأمون أو عصر تدوين العلم . وابتلينا نحن من بعد ذلك ببليتين : أولاهما أنْ لم يُنْتَدَبْ أحد من أهل هذه اللغة إلى التنقيب عن آثار هذه الأمة العربية التى طويت فى أرضها بين يَمِنها وشامها وحجازها وعراقها ومصرها ومغربها وما سوى ذلك ، والأخرى ، أن لم يخفَّ أحدٌ إلى دراسة كتب العرب ولمّ شتاتها واستخراج ما خفى من أساليب العرب وأحوالها وعاداتها فى الاجتماع

* المقتطف ، المجلد ٨٢ ، مارس ١٩٣٣ ، ص : ٣٦٠ – ٣٦٥

والأدب واللغة حتى جاءَ فى هذا العصر أصحاب الألسنة الأعجمية من دول أوربا بأقوالهم فى تاريخنا وأدبنا وديننا بالكلام الجيد تارة ، والفهم الملتوى والتعليل الفاسد تارة أخرى .

فأنت حين ترى « أحمد أمين » يبتدر صادقًا إلى هذا التاريخ فيتقلّب فيما بقى من دارسات طلوله وفيما وصلنا من كتبه ماشاءَ الله أن يتقلّب ثم يخرج فيقصُّ عليك من أخباره وقد نَفَضَ عنها غبار القرون وأحداثها ، وما إن ترى من أهل هذه اللغة إلَّا نائمًا أو متيقظًا كنائم أو صاحب مكيدة مخدوعًا عن رأيه وقلبه ، وإلّا أعجمى اللسان والقلب يلتوى فهمه ولا يستقيم غرضهُ يتعرّض لتاريخ هذه الأمة فيصيب ويخطئُ ، ويظهر فضلا ويدس مكيدة ... أنت حين ترى هذا وترى ما فى دراسة التاريخ العربى والأدب من عناءٍ وعنتٍ لا يتأتى لك بعدُ إلَّا أن تحْمَدَهُ وتشكر له ما أسدى إلى أمته من جميل . هذا وقد وضع المؤلف كتابهُ فى أربعة أبواب فى كل باب فصول ، وفى الجزء الذى بين أيدينا الباب الأول منهُ : فى الحياة الاجتماعية فى العصر العباسىّ من (سنة ١٣٢ - ٢٣٢ هـ) واجتزأ منها بما له أثر قوىٌّ فى العلم والفنّ . والباب الثانى : فى الثقافات المختلفة دينية وغير دينية . وأرصد باب « الحركات العلمية » وباب « المذاهب الدينية » ليجعلهما من نصيب الجزء الثانى الذى وعد بتقديمه إلى القراء قبل أن يفرغوا من قراءَة هذا الجزء . فوفاءً بحقّ هذا الكتاب الجيد نبذل جهدنا فى الكلام عنهُ والتعرُّض لما فيهِ موجزين إن شاءَ الله وبالله التوفيق .

تحرير القول فى الأحوال الاجتماعية والعلم والفنّ وأثر أحدها فى الآخر من أعسر ما يتعرض له الكتَّاب فإن الجليل من أحدها له من التأثير مثل الذى لحقيره ، وإن من صغير أحوال المجتمع لما يزيد فى العلم والفن أو ينقص منهما ، وإن من حقير العلم والفن لمَا يزيد فى أحوال المجتمع أو ينقص منها اذ تترافد هذه الثلاثة . حتى إذا ما أردت أن تعرف أيها الذى أثّر تأثيرًا قويًّا أو ضعيفًا وأيها الذى تأثّر التوى عليك المسلك ووقعت فى الحيرة واضطربت اضطراب من ضلّ بهِ دليلُهُ . فمن أجل ذلك ما ينكُصُ كثير من المؤلفين عن تناول هذا إلّا فى الندرة . وغاية ما

يمكن المؤلف فيعمل ليتلافى هذا النقص وخاصة فى التاريخ العربيّ أن يتسقّط أخبار الحياة الاجتماعية من قصيدة لشاعر أو كلمة لخطيب أو وصف أو قصة فيؤلف بينها ثم يمنحها من خياله وفكره مايتمم به النقص الذى وقع فيها ويضع عليها من زينتها ما يظنُّ أنها كانت تتجمل بهِ ثم يعرضها لك بعد عرضًا خلابًا رائعًا حتى لتحسّ وأنت تقرأ ما كتب أنك قد انتقلت من عصرك الذى أنت فيهِ إلى عصرٍ مثل هذا العصر العباسيّ الذى تناوله « ضحى الإسلام » ، وأنك تعيش فى جوّ من الحياة العباسية فيها سحرها وجمالها ولها روعتها وجلالها ويترقى إليك المؤلف خلال ذلك بما يحقق من علاقة هذا الاجتماع بالعلم والفن وأين أثر كلٍّ فى صاحبه غير تاركك فتنسى أنك تعيش فى ديار الدولة العباسية . فإذا أراد أن يحقق القول فى موضوع بعينه كالرقيق مثلًا أفرد له خاصة مايخرج فيهِ رأيه بأدلته وبراهينه وحججه وما ينتهى إليهِ من أخباره زَيْفها وصحيحها .

ونحن نعتقد أن المؤلف قد قصّر فى هذا الباب على جلالة ماكتب فيهِ . وإن القيد الذى وضعهُ من الاجتزاء بما لهُ أثر قويٌّ ... فى العلم والفن من الحياة الاجتماعية قد أضاع بهجة هذا الباب . وقد كان يستطيع أن يحتفظ بشرطهِ هذا مع شيءٍ من التوسع فى صفة بعض بلاد الدولة العباسية وأهمها بغداد حتى يحس القارىء وكأنهُ ارتحل فوافى بغداد يرى من أطرافها الأسوار والقباب العالية على أبوابها ، بينها الأبراج عليها حراسها وحجابها فى أزيائهم وملابسهم ، والتماثيل على رؤوسها تلوح وتلمع . حتى إذا دخل بغداد رأى القصور بين البساتين والأنهار فإذا دخلها رأى الدهاليز والممرات والمخترقات والصحون فيها الصور الفاتنة على أعمدة الرخام ، والمجالس فيها الفرش الجميلة والأبسطة المطرزة بالألوان الغريبة ، والشعْرَ المنقوش على أطرافها وأوساطها . ورأى صور الفيلة والخيل والجمال والسباع والطير على ستور الديباج المذهبة . ورأى الخليفة فى أبهته وجلاله ومن يحيط بهِ من حاشيته من أجناس الأمم فى اللباس العجيب . ورأى العلماء والشعراء والحجاب تروح وتغدو ، ورأى زىّ القضاء وزى الشرطة وزىّ الكتابِ وزىّ الوزراء وزى الأعراب من الشعراء وهم ينشدون مديحه فى صوت البدوىّ الجافى

مع حلاوة المخرج وحسن الأداء . ورأى شعراء الحضر يمدحون بالشعر فيه الغزل وفيه الحكمة وفيه السياسة والتحريض والدعوة إلى التوفيق أو التنبيه إلى الدسيسة . ورأى الجدَلَ فى مجلس الخلافة بين العلماء من فقهاء ونحويين ولغويين ، ورأى أولياء العهد فى ملاعبهم ومجالس علمهم ، والندماء فى لباس الشراب والمغنين فى الأقبية الخراسانية بأيديهم المزاهر والأعواد ومن كل آلات الطرب ، بينهم القيان الجميلات والإماء الأديبات ، والشراب يدور بِهِ الولدان والفتيات بزينتهنّ وحسنهنّ . فإذا خرج إلى البساتين رأى الأفراس المطهمة عليها الذهب والفضة فى أيدى الشاكريين (السوَّاس) عليهم البزَّة الجميلة ثم رأى حيرَ الوحش (حديقة الحيوان) تخرج الوحوش منها تقرب الناس وتأكل من أيديهم ، والفيلة المزينة بالديباج والوشى مع أصحابها من فيالة السند ، والسباع بأيدى السباعين فى رؤوسها وأعناقها السلاسل والأغلال ، ورأى البرك من الماء فيها مجالس للخليفة بألوانها وصورها وجمالها وأخرى من الرَّصاص القلعىّ تتوهج فى شعاع الشمس كالفضة المجلوة والنخيل من حولها ملبَّسًا بالشبه المذهب وأشجار الأترجّ عليها الزينة تنفح عطرها وشذاها . والأشجار المصنوعة من الذهب عليها عصافير الفضة تحركها الريح فيخيل إليك من حسنها أنها أشجار حية . وتخرج إلى أسواق بغداد يفوح طيبها ومسكها ومندلها وبخورها وصندلها ويتلألأ الذهب والفضة فى نواحيها وأرجائها والنساء والقيان والمغنيات والشباب والشيوخ والفقر والغنى وأهل التصوف ومن كل أمة وجنس من رومها وعربها وفُرسها وسودانها وحبشها وظرف أهل بغداد وأحاديث مُجانها وخُلعائها وتنادر ظرفائها ، والأعرابىُّ فى صوفهِ والحضرى فى خزّهِ وحريرهِ ، والنعال السبتية بأصواتها وألوانها ويسمع من وراء الجدران ألحان الجوارى وهن يتغنينَ فى بيوتهنّ ويضربنَ بالدف والعود والمزهر والناى ، وليل بغداد والسمر والغناء والموسيقى والمساجد والأذان وأصوات التكبير ودوىُّ قرّاء القرآن فى جوانبها ومواعظ الوعاظ وبكاء الناس من هول يوم القيامة وأهل الحديث والمعتزلة والفقهاء والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ... إلى غير ذلك مما يطول ذكره ولا يفرغُ منهُ . والذى ذكرنا هو من أحوال الإجتماع

فى بلاد الدولة العباسية وقد أثّرت فى العلم والفن وأثر فيها العلم والفنُّ فلو أن المؤلف عرضهُ عرضًا خلابًا فاتنًا لما ترك من بعده مقالًا لقائلٍ .

ومثل هذا العرض لابدّ فيه من تضافر أمرين . الأول : كثرة المادة التى يريد أن يبنى عليها المؤلف كتابه ، وتهيئتها قبل البدء ، ومعرفة المواضع التى يجب أن يكون فيها التحقيق العلمي وماهو بسبيله من إثبات أثر الاجتماع فى العلم والفن أو أثرهما فيه بحيث لايفسد جفاءُ التحقيق جمال الوضع وحسن الوصف . والثانى : قلمٌ سيالٌ عنيفٌ متزن يمده خيال واسع محيط وفكر متوقد لا يخبو كالشعلة من النار كلما احتطب لها ازدادت توهجًا واشتعالًا حتى ترسل الكلمات فى تيار جارف من القوة والرهبة ليحطم بذلك مابين القارىء وبين العصر الذى يدرسه من أسوار وحوائل . وقد تهيأ الأمر الأول للأستاذ « أحمد أمين » كما دلنا على ذلك كتابه ، أما الآخر فكأنى به شيخ محنك قد حطمتهُ السن يضع الكلمة بعدها الكلمة فى هدوء ووقار . لأنهُ لا يخرجها إلّا بعد أن يزنها فى الميزان المهيأ من تجاربه وما لقى من أحداث دهره فمن أجل ذلك ما تجده كثير الاستعانة بما ليس للقارىء بهِ حاجة كقوله فى المواضع الكثيرة « فى عصرنا الذى نؤرخه » فكأنهُ يخشى أن يكون قارئه قد نسى أنهُ يقول مايقول عن العصر العباسىّ .

وبعدُ فهذا أهم مانقوله عن الكتاب من جهة وضعه وعرضه وبقيت أشياء قد عرضت لنا حين القراءة على ضيق الوقت والتباسنا بالعجلة وهذا حين نحقق ماعرض لنا من ذلك .

١ – نقل المؤلف من رسائل الجاحظ فى ص ١١ قوله « من ذلك : أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهندياتُ وبناتُ الهندياتِ ، والأغوارُ . واليمن أشهى النساءِ عندهم الحبشياتُ وبناتُ الحبشياتِ » ووضع نقطة الفصل بعد « الأغوار » ممّا يدلُّ على أنها معطوفة على « الهندياتُ وبنات الهندياتِ » وعلقَ على الأغوار بقوله « الغُورَة بالضم : بلدةٌ عند باب هراة ، وبلا هاء ، ناحية بالعجم . « والصواب » والأغوارَ واليمنَ أشهى النساء عندهم ... إلخ ، يعنى أهلَ تهامةَ والحجاز واليمن « قال الأزهرى : الغَوْرُ : تهامة ومايلى اليمن . وقال الباهلىّ : كل

ماانحدرَ سَيلُه مُغرّبًا عن تهامَة فهو غورٌ » وأهلُ الأغوار واليمنِ أشهى النساءِ عندهم الحبشيَّاتُ لكثرة ورودهنّ عليهم لقرب الحبشة منهم . وقد ورد فى الخبَرِ عن رسول الله ﷺ أو أحد أصحابه فى تفضيلهنَّ على غيرهنّ أنّ « هُنّ أنقى أرحَامًا » أو كما قيل .

٢ - ذكر المؤلف فى معرض الكلام عن خطأ الأعراب وكذبهم فى اللغة ص ٣٠٠ « أكاذيب الأعراب » وعنى بها مايختلقونهُ فى اللغة وذكر أن أبا العباس المبرّد عقد بابًا فى كتابه الكامل سمَّاهُ « أكاذيب الأعراب » والصوابُ أن البابَ الذى عقدهُ أبو العباس فى الكامل هو « تكاذيبُ الأعراب » ج ١ ص ٣٥٦ وعنى به مايتزيَّدُون فيه من الكلامِ ومايختلقونهُ من الأوهام كالذى قال أبو عبيدة فى قول الراجز :

« أهدَّموا بيتك لا أبا لكا وأنا أمشى الدألَى حوالكا »

هذا يقوله الضب للحِسْل (وهو ولد الضبّ حين يخرج من بيضته) أيامَ كانت الأشياءُ تتكلَّم ..! وكالذى نقله صاحب « ضحى الإسلام » فى ص ٣٧ عن كتاب الكامل نفسه من قوله « تكاذبَ أعرابيّان ... الخ » .

٣ - قال المؤلف فى ص ٣٠١ « وألف ابن خالويه كتابًا سمّاهُ « ليس فى كلام العرب » بيَّن فيه ألفاظًا تستعمل ولم يصحَّ سماعُها من العرب . وليس الأمر كذلك فالكتابُ بين أيدينا وقد طبع سنة ١٣٢٧ هـ بمطبعة السعادة . ذكر فيه ابن خالويه ما شذّ عن القاعدة من كلام العرب وابتدأ كل فقرةٍ بقوله « ليس فى كلام العرب » وبها سمى الكتاب . وذلك كقوله مثلًا فى ص ٥ « ليس فى كلام العرب ، أفْعَل فهو فاعل إلّا أعشبت الأرض فهى عاشب ، وأورس الرمثُ فهو وارس ، وأيفع الغلام فهو يافع ، وأبقلت الأرض فهى باقل ، وأغضى الرجل فهو غاضٍ ، وأمحل البلدُ فهو ماحل » . ولدار الكتب فى فهرستها خطأ أكبر من هذا فقد وصفوا هذا الكتاب بقولهم « هو كتابٌ فى الكلماتِ التى دخلت على العربية من الفارسية وغيرها وليست منها » ... !! وليس فى الكتاب كلمة فارسية ولا (ملطية) .

٤ - فى ص ٣٩٥ تحريف فى آيةٍ من كتاب الله وقعت هكذا : ألم تر إلى الإبل كيف خلقت . والآية من سورة الغاشية ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .

٥ - قال المؤلف فى ص ٨٣ « وقد كانت المملكة البيزنطية تحرّمُ على من ليس نصرانيًا أن يتملك رقيقًا نصرانيًا ، ولكن المسلمين أباحوا ... !! لليهود والنصارى أن يتملكوا الأرقاء ولو كانوا مسلمين » . ولا ندرى كيف كان ذلك وكيف يكون ؟ وأى دليل وقع للمؤلف على هذا القول ؟ والله تعالى يقول فى سورة المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وكيف يبيح المسلمون ذلك ، ومن الذى أباحَهُ ؟؟

٦ - من أهم ماترك المؤلف مِمّا له أكبر الأثر فى العلم والفن والاجتماع أيضًا كَثْرةُ الورق فى بغدادِ حين أتوا به من الصين وغيرها وكانت له تجارة واسعة جدًّا فى العصر العباسىّ ، فقد انتشر الورّاقون فى بغداد وكثرت عندهم الكتب وكثر النُسّاخُ والكتّاب وسهل على الناس أن يقرأوا الكتب بالكراءِ من دكاكين الوراقين . ولقد أحدث ذلك من النهضة فى العلوم والفنون أكثر مما أحدث الرقيق وغيرهم فى بلاد الدولة العباسية . ولعلّ المؤلف أخره إلى حين القول فى الحركات العلمية « فهو به أشبه » أو كما يقول . هذا ، والكتاب لا يزال بموضع العناية فإن اتسع الوقت لنا فى تحقيق ما رأينا فيه عدنا إليه والله المستعان ؟

* * *

الشريف الكتانى

جائتنا هذه الرسالة البليغة فى وصف الشريف الكتانى الذى زار مصر فى طريقه إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج من حيث هو عالم من أكبر علماء الفقه الإسلامى وأديب واسع الاطلاع عميق الفهم جمع خزانة من أنفس المخطوطات العربية وأثمنها فى داره بفاس . فنشرناها شاكرين

هما رجلان ألان الله لهما من صخرتى أوّلَ مارأيتهما : السيد الجليل « محمد نصيف » كبير جُدّة وعماد الحجاز والأملُ الممتدُّ فى جزيرة العرب ، وهذا السيّد المباركُ محقّق العلم الإسلامىّ وعمدة التاريخ العربىّ « محمد عبد الحىّ بن عبد الكبير الكتانىّ الإدريسىّ » واحد فاس ، وكبير مراكش ، والعلمُ الشامخُ بين أعلام الأمّة الإسلامية فى هذا العصر مابينَ الصينِ إلى رباط الفتح من المغرب الأقصى .

وما عَسَاىَ أقولُ فى رَجُل ... كلما أمسكتُ القَلم لأكتبَ عنه تهيَّبْتُهُ من غير خوفٍ كما يتهيَّبُ المؤمنُ قَالةَ الحقِّ تحيكُ فى قلبه ، خشيةَ أن يجورُ فيها لسانُه ، أو أن يعدل بها سامعها عن وجهٍ قصد إليه . وأنا حين أكتبُ هذه الكلمة – بعد أن لازمت الرجل أيامهُ ولياليه فى القاهرة ، وأخذت عنهُ ، وقبست من نوره وعلمهِ وخُلُقِهِ الغضّ ، واستنشيت ريًّا شمائله – أجدنى كالذى انتقل بروحه من عالمٍ كثيفٍ فيهِ من ثِقَل المادة مايهيض جناح الطائر ، إلى عالم من الرُّوحانية المصفَّاةِ التى ألقت أوزار المادة إلى مَثَارها ومعدنها من الأرض ، وحلَّقت فى جوّ السماء بين نسمات النفْحة الإلهية وفتنة الجمال العلوى ... الجمال الذى ينتظم الكون كله بأفلاكه وكواكبه ودقة تدبيره وحكمة أمره .

رجلٌ منضَّر الوجه كالوردة الزاهية فيها سرُّ الجمال الإلهىّ الذى لا يذبُل ، مشرق الجبين كنور الفجر الصادق الذى لا يتكذَّب ، وضّاح الثنايا كالأُقحوانة [١]

• المقتطف ، المجلد ٨٢ ، إبريل ١٩٣٣ ، ص : ٤٨٣ – ٤٨٦

(١) الأقحوانة : نَبْت له نَوْر ، حواليه ورق أبيض .

المبتسمة فى ربيعها من الطلّ والندى ، صافى العينين كالماء النمير فى مجرى من البلور ، كثّ اللحية محفوف الشارب أهدب الأشفار أبلج الحاجبين فى شعرهما وَطَفٌ [(١)] ، ضخم الهامة سابق الهيبة بادى الحنان ، فى جسمهِ بسطة تذكرك بما تقرأ فى صفة على بن أبى طالب رضى الله عنهُ . هذا هو السيد الشريف « الكتانى » عالم الشريعة الإسلامية وهذه صفتهُ أول ما تكتحل عيناك بطلعته .

هو فى الثامنة والأربعين من عمره ، ولكن تطالعك هذه السنوات القلائل من عينيه بالكِبْرة الملطفه بشباب القلب ، المخففة بحياة النفس العزيزة المتألمة المثخنة بالجراح من أحداث الدهر وعواديه . ينظر إليك حينًا نظرة العالم المتمكن الأمين المتثبت الذى شغله العلم عن الحياة المادية الغليظة ، فتحملك نظرته هذه من مجلس بسيط وديع إلى بحر من العلم يفتنك هدوءه كما يروعك اصطخابه إذا ازدحمت فيه أسباب الحركة العلمية . وينظر إليك حينًا وهو يستمع هادئًا نظرة المشفق الحريص الذى يودُّ أن يراك مصيبًا لم تخطىء . وأنت لا تزال فى مجلسه بين أنواع من النظرات لها معانيها ، ولهذه المعانى أسبابها ، ولهذه الأسباب بواعثها ، ولهذه البواعث محركاتها ، وهذه المحركات خفايا من وراء النفس ، منقمعة مكتومة لا تنفذ إليها إلّا نظرات أروع وقّاد قد ابتلى دقائق النفس الإنسانية بالممارسة والذهن المتوقد الذى يرى من آيات الله آيات من البلاغة الإلهية التى تمس الروح مسة تيار كهربائى ترعَش به أعصاب الإنسانية وتنتفض .

أنت من مجلسه فى مجلس الحافظ لسنة رسول الله ﷺ ، والفقيه الذى قلب آيات الفقه الإسلامى بالبصر والبصيرة ، والمؤرخ الذى انفتق له السور [(٢)] عن تاريخ العرب والأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، والألمعى ذى الدهاء الذى ركّبت الأحداث فى نفسه آلة إحساس دقيقة تحس بالبعيد إحساسها بالقريب ولا تكاد تخطىء إلّا بمقدار مافى النفس الإنسانية من أسباب الخطأ الذى لا تنفيه إلّا

---

(١) الوَطَفُ : كثرة شعر الحاجبين .

(٢) يريد الأستاذ بذلك – فيما أظن – أن الحائط الذى أقامه الزمن قد انشق أمام بصيرة الرجل ، فأزال ما تراكم عليه من غبار الأمد ، فبدا تاريخا مشرقا واضحا .

العصمة التى لم يقضِ الله لأحد من الناس أن يبلغها . وهو وراء ذلك أحد المتصوفة الذين عرفوا حقيقة التصوف لا أوهامه التى ملأ بها الدخلاء ساحة التصوف ، وأحد الذين يَزِنون العلم الحديث وما نشأ عنه من أحوال الاجتماع بميزان يفرق بين الخير والشر والحق والباطل ، فهو يطلع عليهِ اطلاع المتبصر الذى لا يرضى لنفسه أن يكون من الغوغاء أتباع كل نظرية هوجاء لا قرار لها على حال .

ولهذا الرجل إحساس علميٌّ عجيب ، فهو لايكادُ يسمعُ بأديب أو فقيه أو عالم أو فيلسوف إلّا حنَّ إليهِ وقلقَ إلى رؤيتهِ ، ورغب فى التحدث إليه وسبر غوره ، فلا تصرفهُ شواغله وهو فى دار الغربة عن أن يقدم أهل العلم - أيًّا كانوا - بالزيارة بل تراه يبدؤهم بها . ويرحل من بلد إلى بلد لأن فيهِ عالمًا جليلًا قد قرأ آثاره أو سمع بهِ . وأنت فظُنَّ كيف تقدّرُ رجلًا من أقصى المغرب بفاس ، لا يذكر أمامهُ اسم عالم أو غيره فى مصر أو الشام أو الجزيرة العربية أو العراق أو الهند أو الأفغان أو الترك إلّا عرفهُ وقصَّ لك من أخباره وعدّدَ لك من كتبه . ومن هؤلاء الناشىء والمغمور الذى لا يعرفهُ أهل بلده على حين أنهُ منهم بمنزلة البنان من راحته . بل ... يسمع اسم الرجل يراهُ أمامه فيطمئنُ قليلًا ثمّ يسأله من أى بلدة هو فما يجيبُ حتى يسأله عن علماءِ هذه البلدة من مات منهم ومن حيّ وعن كتبهم كيف كان مصيرها ، ثم يعدّدُ لهُ بعضَ ما أَلّفُوا ... ويذكر له روايته عنهم إن كان رَوَى عنهم شيئًا من حديث رسول الله ﷺ أو غير ذلك .

فمن أجل هذا الإحساس العلميّ المركّب فيهِ أتيح له أن يجمع مكتبة فى داره بفاس تُعَدُّ من أغنى المكاتب الخاصة وأنفسِها فى العالم العربيّ كلّهِ ، فيها من النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد فى غيرها . وهو لا يكاد يسمع بكتابٍ نادرٍ حتى يسارع إلى استنساخهِ أو تصويره بالفوتوغراف . وهاهو قد نزل مصر فجمع من شوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سمع دور كتبنا وبصرها ثم غفلت عنها . ويجلس هذا الرجل فى نُزُله فيأتيهِ الوراقون بالمخطوطات حديثها وعتيقها فما يفتح أحدها حتى يعرف ما الكتابُ ومن صاحبهُ ويفرح بالكتاب النادر فرح الذى ضنَّ عليهِ الزمن طويلا ثم جاد . وبالله أشهد صادقًا لكأنى أرى الكتاب

بين يديهِ يكاد يحنُّ إليهِ حنين القلب الممزق المفطور إلى سبب من أسباب سلوته وراحته ، ولكأنى أراهُ يمسك الكتاب براحته كما يمسك أحدنا الشىء فيهِ من آثار قلبهِ وحبهِ وآماله ورغباتهِ ما فيه ، ويلقى عليهِ نظرةً عاطفة تكاد تحييهِ من عطفها وحنانها وحدَبها وأشواقها .

هذا هو الرجل العالم المتيم بالكتب ، الذى يطّلع جاهدًا على آثار الناس وما ينشرون فى الكتب والصحف والمجلات ويعى أسماءَهم ويسأل عنهم ويرغب فى رؤيتهم ويرحل إليهم بادئًا بالزيارة . وفى هذا الرجل رجل آخر قد جعلت من عينىَّ جاسوسًا مقتدرًا نفاذًا يتتبع نظراته وحركاته ومايبدو على وجههِ وجبينهِ من آيات التغيُّر والتبدل حتى عرفتهُ أو كدت .

حدثتا عنهُ فقالتا : هذا رجل فى عِظَم هامتهِ واتساع جبينهِ والتماع عينيهِ دليل على قوة مستحكمة شديدة . وهذه القوة – مع مافيها من شدة – هادئة وادعة مسالمة ، تتريث مفكرةً ، فلا تظهر ولا تستعلن إلَّا ساعة الجد حين تعلم أن قد دنا أوانها ، وأن موضع الفصل قد استبان ، وأنها لن تخطىء . وهو رجل فى أسالة خدّه ورقّة نظرته شاهد على طيب الخُلق ، ودماثة الكنف ، وحسن العشرة ، وكمال الحنان والعطف ، وهو رجل فى تفاجّ [١] ثناياه وانطباق شفتيهِ وطول صمته – إذا لم يدعَ إلى كلام – وعمق نظراته فى هذا الصمت برهان على الصبر فى كل ملمة ومع كل أحد . قالتا : ثم هو رجل حلْوُ النفسِ صادق مخلص أمين على ما يؤتمن عليه رضىُّ الشمائل فى كل حين ... أما تراه يبتسم ابتسامةً رقيقةً لا تكاد تخلص إلا عن قلوب الأطفال المبرَّئين أو الكرام الصالحين فإذا ضحك اهتزَّ جميعه لأن ضحكته تصدر عن قلبه الطيع الكريم الذى يتحكم فى كل عضو من أعضائه . وهو بعد رجل كتوم يحمل الآلام بين جنبيه وهى تمزق قلبه وتفتك فيه . ينظرُ النظْرة المترامية فى مفاوز الماضى البعيد فيرجع بالذكرى الأليمة ، وعلى نظراته معنى البكاء الذى لا يجد فى الدمع ترجمانًا أو معينًا . وهذه وحدها نظرة

---

(١) التفاج : التباعد ، وهو فى الثنايا مدح .

لو ألقيت على جبل أصم لا يألم لوجد لها مسًّا كمسّ الرحمة فى القلب الرقيق . ويخيل إليك وهو يغضُّ من طرفه ويرخى جفنيه أن الصبر والجلد والرجولة الصادقة أرادت بذلك أن تخفى عنك نظرات هى أحاديث أيام ، أشفق على نفسك أن تسمعها أو تلمَّ بها .

وتراهُ حين يتكلم حتى فى العلم يفيض حنانًا ورقة وكرمًا ووفاءً ثم يشتدُّ بعد تمهل حتى يأخذ عليك نفسك هيبة ووقارًا من ورعه وتقاهُ ، ثم تتعرَّف فيه إذا خالطته ذهنًا قد اجتمعت له أسباب الإحاطة بأحوال الناس فى كل أمة وجيل ثم يدق يكاد يغمض عليك إذا لم تلق إليه بسمعك وبصرك وقلبك جاهدًا متفهمًا . وإن تعجب فعجب لهذا الرجل الذى اتسع أفقه حتى ألّف ما أناف على مائتى كتاب فيها موضوعات عجيبة لم يسبق إليه بمثل تحقيقه ودقته على الأسلوب الذى يفهمه عن أهله ومن عرف مذاهب القوم فى كتبهم ومؤلفاتهم .

كلمة مقتضبة فى رجل بحر كريم الأصل والمنصب سليل جدنا رسول الله ﷺ وصفوة من هذه الأمة العربية التى تدفقت فى الأرض تدفُّق السيل من رؤوس الجبال فأنبتت فى كل أرض نباتًا حسنًا زكا مغرسهُ وطاب ثمرةُ . كلمةٌ نصلُ بها أرحامًا تقطعت أو كادت فى زمن توالت علينا أحداثه واستمرَّتْ علينا عواديه وتركنا لُطماءَ .

يأشَرُ الفارغُ الخليُّ ، ويأسى مُتْرَعُ الصَّدْرِ منْ جوَى ملآنَهْ

* * *

نابغة بنى شيبان

إن العربية لتُزْهى بما تخرجه دار الكتب من المطبوعات كما تزهى الحسناء بجمال وحيدها بعد أن استفتحت الله على عقمها فجاءها بأسباب راحتها وفزعها فى وجهٍ معًا . فنحن بنا لدار الكتب مثل الذى بالحسناء لوحيدها من الحب والعطف والرعاية لأنها واحدة جادت لنا بها أيام كزَّة بخيلة . وبنا أيضًا مثل الذى بها من الخوف والفزع أن يستفزَّها الحدَبُ إلى الغرور ، وإن يستخفها التغاضى إلى الإهمال والتعالى وترك الواجب الذى لا يستحلُّ خلافهُ . وقوة ما استقر فى قلوبنا من الحدب عليها والتوجه إليها وما يعتلج فى صدورنا من الخوف والفزع تدفع بنا إلى العناية بما تنشره ، ومؤاخذتها على الكبائر والصغائر تنزيهًا لها وتبرئةً . وهذا « ديوان نابغة بنى شيبان » – آخر ما طلعت علينا به – نقول فيه كلمة تنفعها إن شاء الله .

﴿ تحقيق نسب النابغة ودينه ﴾ نقلت دار الكتب فى تصدير هذا الديوان كلمة أبى الفرج الأصبهانى فى أغانيه « ج ٦ ص ١٤٦ مطبوعة الساسى » التى يقول فيها أن النابغة من شعراء الدولة الأموية « وكان فيما أرى نصرانيًا لأنى وجدتهُ فى شعرهِ يحلف بالإنجيل وبالرهبان وبالأيمان التى يحلف بها النصارى » اهـ . ولم تعلق دار الكتب على هذا بكلمة ، فكأن الديوان لم يطبع فيها ، ولم يهتم بشرحه القائمون بأعمال التصحيح فيها . ذلك ، لأن هذا الديوان الذى بين أيدينا ليس فيهِ قَسَمٌ واحد بإنجيل أو رهبان أو يمين من الأيمان التى يحلف بها النصارى ، بل فيهِ مايدل على أن صاحبه مسلم عريق لم يضرب إلى نصرانية ولا يهودية ، كما سنبين بعد .

وتقول دار الكتب فى التعليق على نسب النابغة إنها نقلته من الأغانى « بعد تصويب الأسماء الخاصة (كذا) بنسبه » ومعنى ذلك أنها رجعت إلى ترجمة أبيه « مخارق » ثم جده « سليم » إلى آخر ذلك فصححت التحريف الذى كان واقعًا

---

* المقتطف ، المجلد ٨٢ ، إبريل ١٩٣٣ ، ص : ٤٩٦ – ٤٩٨

فى نسبه . وهذا النابغة هو عبد الله بن مخارق بن سليم ... الشيبانى » من بنى ذهل بن شيبان ولد ربيعة بن نزار . فلو كانت قد رجعت إلى ترجمة أبيه - كما يفهم من كلامها - لعلمت أن « مخارق بن سليم ... الشيبانى » صحابى ترجم له شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى فى كتابه « التهذيب » ج ١٠ ص ٦٧ وفى « الإصابة » ج ٦ ص ٦٨ وابن الأثير فى « أسد الغابة » ج ٤ ص ٣٣٥ وأفرد له إمامنا الجليل أحمد بن حنبل مسندًا فى كتابه « المسند » ج ٥ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ وروى من حديثه النسائى فى سننه ج ٧ ص ١١٣ . قال ابن حجر فى التهذيب « مخارق بن سليم الشيبانى أبو قابوس ، روى عن النبى ﷺ ... وروى عنهُ ابناهُ قابوس و« عبد الله » . وقد ترجم أصحاب كتب التراجم - التى بين أيدينا - لابن[1] قابوس لأن اسمه ورد فى بعض الكتب الصحاح الستة ، ولم يترجموا لعبد الله لأن اسمه لم يرد فى أحدها ولعلهم لم يعنوا بروايته لانصرافه إلى قول الشعر ومدح الخلفاء فقلت روايته للحديث وقام بها أخوه قابوس . وما نظن إلا أن أبا الفرج قد وهم فى قوله بنصرانيته - ولأبى الفرج أوهامٌ مثل هذه كثيرة - ولعلّ الذاكرة طوحت بهِ إلى نصرانية نابغة بنى الديان الحارثى من أرض نجران . وإلّا فكيف يكون نصرانيًا مَن يقول « الديوان ص ١٧ » .

ويزْجُرُنى الإسلامُ والشيبُ والتُّقى ،
وفى الشيبِ والإسلامِ للمرءِ زاجرُ »

وهذا نصٌّ لا نحتاج معهُ إلى الاستشهاد ، بكثير مما ورد فى شعره من خُلُق الإسلام وأيمانه وتجانفه عن الشرك والخبائث كبيرها وصغيرها .

﴿ شرح الديوان ﴾ علقت دار الكتب على غريب هذا الديوان ونشكُرُ لها عنايتها بذلك ، ولكنْ ماكان أشد أسفنا حين رأينا هذا الشرح محشوًّا بالأغلاط الواضحة التى نودُّ أن ننزّهها عنها فمن أمثال ذلك قولهم ص ٣ فى شرح الكلمة

(١) كذا فى الأصول ، والصواب : لابنه .

تَعرُقُ : « تَعْرُق : تأكلُ ما على اللحم من عَظْمٍ وتأخذه « كله » ولا ندرى كيفَ يكون هذا اللحمُ المكسُوّ بالعظامِ وكيف يؤكل . وقالت فى شرح قوله .

« وما الناسُ فى الأعمال إلّا كبالغٍ يُبَنّى ومُنْبَتٌّ النياط حسيرُ »

« فمُسْتَلَبٌ منهُ رياشٌ ، ومكتسٍ ، وعارٍ ، ومِنْهُمْ مُتْرِبٌ وفقير »

المتربُ : القليل المال . فيكون معنى البيت الأخير أن الناس منهم مكتسٍ وعارٍ وفقير ، لأن قليل المال هو الفقير لاشك . ونصُّ اللُّغَةِ « تَرِبَ تَرَبًا ومَتْرَبة : حَسِير وافتقر فلزق بالتراب ، وأَتْرَب : اسْتغنى وكثُرَ ماله فصار كالتُّرَاب – كثرةً – هذا هو الأعرف وقيل – وهذه لفظة التضعيف عندهم – قَلّ ماله . والمُتْرِب الغنيُّ إمّا على السَّلْب وإمّا أن ماله مثل التُّرَابِ » . فالمعنى (منهم غنى وفقير) .

وقالت فى شرح قوله يصف شعور النساء :

« وفـروعٍ كـالـمَـثَـانـى زانـهـا حـسـنُ جَـمِـيـرِ »

الجمير : الطيبُ . ونحن لا نعرف للبيت معنًى بهذا الشرح . وكلمةُ اللغة أن الجمير : هو الشّعْر ماجُمّر منهُ وجمرت المرأةُ شعرها جمعته وعقدته فى قفاها ولم ترسله ، والجمائر الضفائر واحدتها جَميرة . والجميرُ من الزينة ولا شكَّ عند النساء .

ونكتفى بهذه الأمثلة من الخطأ وقلة العناية والإهمال والاستهانة بأمر القراءِ والأدباءِ .

الشعر العربى : وقبل أن أفرغَ من كلمتى هذه أُبدى تألمى من أحد الكتَّاب المشهورين فى زرايته على دار الكتب بطبعها الكتب القديمة من مثل « ديوان جران العود » و« نابغة بنى شيبان » . ونقول لهذا الكاتب الفاضل أنهُ ما حَمَلهُ على الزراية بالشعر العربىّ إلا تباطؤه عن الجد فى فهم أساليب لغته التى يكتب بها ، وأنهُ إذا وجد ثقلًا على نفسه الرقيقة فى قراءَة شعر العرب المتقدمين فليس ذلك من ذنب الشاعر ولكن من ذنبه هو وذنب الذين وضعوا برنامج تدريس العربية فى مدارسنا المصرية . ونرغب إليهِ إذا كان هذا رأيهُ هو أن يكتمهُ عن الناس لئلا

يصدهم عن الاهتمام بآثار أجدادهم التى لا يبنى الأدب العربىُّ الحديث إلّا على أساسها . ونقول أن الذى يفهمُ الشعرَ ويفهم أنهُ هو صورة النفس إنْ صافية فصافٍ وإن غليظةً فغليظٌ لا يقول بمثل هذه المقالة أبدًا ، فمما لاشك فيهِ أن النفوس من آدم إلى اليوم هى النفوس البشرية التى لا تتغير أبدًا ، وأن الأدب فى كل العصور هو صورة هذه النفوس على اختلافها . وليس أدب اليوم هو الأدب الذى لا يُرْغَبُ فى غيره حتى يكون ماسبق مما نعدهُ أدبًا وشعرًا كلامًا من مَنْطِقٍ لا نفهمهُ ولا نرغب فيهِ . ونعدُ بأنْ نظهر فى هذه المجلّة روائعَ من الشعر القديم الذى انطلقت ألسنة هؤلاء الكتاب المشهورين بانتقاصه والنيل منهُ والله الموفق .

* * *

مقاليد الكتب

١ – كتاب « حافظ وشوقى »

تأليف الدكتور « طه حسين » مطبعة الاعتماد سنة ١٩٣٣

الدكتور طه حسين رجل غير مجهولٍ حتى نعنّى أنفسنا ونعنّى القراءَ معنا بالقول فى آثاره الأدبية الكثيرة والتى استفاضت فى هذه المدة الأخيرة أكثر من ذى قبل . وكتابهُ هذا فيهِ آراءٌ لهُ كثيرة مشهورة لأنهُ مجموعة مقالات نشرت قديمًا وحديثًا أحبّ الدكتور طه أن يذيعها بين الناس فى كتاب يسهل تناوُلهُ إذ كانت مشتّتةً فى الجرائد والمجلات التى نشرت فيها . وليس هذا الكتاب كما يُفهم من عنوانِه – كتابًا فى حافظ وشوقى ليس فيهِ غيرهما . لا ... بل كما سمّيت مختارات أبى تمام بالحماسة لأن الباب الأول من أبوابها الكثيرة هو باب الحماسة فكذلك سمى الدكتور كتابه هذا باسم « حافظ وشوقى » بالمقالات الأخيرة فيهِ عَن حافظ وشوقى ، ولأنهُ صدر بعد الحدَثِ الذى اشتغل بهِ العالَم العربيُّ بموت هذين العَلَمين فى الأدب . ومقالات الدكتور طه التى فى هذا الكتاب لا تحتاجُ إلى كلامنا فإنما هى مقالاتُه التى أحبهُ كثيرون من أجل آرائه فيها وتحامل عليهِ آخرون من أجل هذه الآراء . فليس من الرأى أن نتناول هذا الكتاب فى باب المكتبة لأن ما فيهِ من الآراء يحتاجُ فى نقده إلى إطالة وتوسُّع تضيقُ بهما هذه الصفحات القلائل .

* * *

---

* المقتطف ، المجلد ٨٢ ، مايو ١٩٣٣ ، ص : ٦٢٧

٢ – كتاب الرثاء

في شعر أبي تمام ، والبحترى ، والمتنبى – تأليف أديبة فارس – مطبعة الاعتدال بدمشق الشام

هذا الكتاب – رسالة اجتازت مؤلفتها امتحان شهادة الآداب العليا بالجامعة السورية سنة ١٩٣٢ . وقد أجادت الآنسة الأديبة « أديبة فارس » فهم الشعر الذى تعرضت لهُ فاختارت من شعر أبى تمام قصيدته فى رثاء ولده التى أولها :

كان الذى خفت أن يكونا إنَّـا إلـى الله راجـعـونـا

ومن شعر أبى عبادة البحترى قصيدة فى رثاء خليله جعفر المتوكل الخليفة العباسى المقتول وأولها :

مـحـلٌّ عـلـى الـقـاطُـولِ أخـلَـقَ دائِـرُهْ
وعادت صُروف الدهر جيشًا تُغاورهْ

ومن شعر أبى الطيب المتنبى رثاءَه لجدتهِ الذى أوله :

ألا لا أُرى الأحداث مدحًا ولا ذَمًّا فما بطشها جهلًا ولا كفُّها حلما

وقد وضعت المؤلفة الموفقة القصائد تامة فى أول رسالتها مع ترجمة مختصرة لكل شاعر من هؤلاء الثلاثة ثم اتبعت ذلك بكلامها وفهمها وبحثها فى الرثاء ماهو وقد أجادت . ثم أخذت كل قصيدة بمفردها فنظرت فيها وفى بلاغة الرثاء فيها نظرًا جيدًا وتكلمت على أبيات كلٍّ منها وموضع الإحساس فى أبياتها وعارضت بين الشعراء الثلاثة معارضة صادقة . والذى يفرحنا من هذه الرسالة أن مؤلفتها امرأة ، ثم امرأة متعلمة ، ثم أديبة ، ثم ناقدة . وقلَّ أن تجدَ فى النساء الأديبات اللواتى يفرغنَ للأدب ولذاتِه وهمّه أيضًا . وللآنسة أديبة فارس ، أسوة بجدَّتها سُكَيْنة بنت الحسين رضى الله عنها التى استخذَى لنقدها وبصرها بالأدب فحول الشعراء من الأولين كعمر بن أبى ربيعة ونُصَيْب الأسود وجميل العذرى وكثيِّر عزَّة الخزاعى وغيرهم من شياطين الشعر . وللآنسة « أديبة » فكرٌ جيد فى فهم الألفاظ

---

* المقتطف ، المجلد ٨٢ ، مايو ١٩٣٣ ، ص : ٦٢٧ – ٦٢٨

العربية ومواقعها من الكلام وأين هى من معانيهِ المقصودة التى توافقها . وهذا أول أثر نراه لها فنسألها أن لا يستغرَّها ثناؤنا على كتابها هذا أن تطلب الاستزادة لتصحيح الرأى وتقويم الفكر واللسان والقلم . فإن هذه اللغة الدقيقة العجيبة التى اختارها الله من لغات الناس لكتابهِ المُحكَمِ صعبةٌ شرود لا يصبر على معارفها ومجاهلها إلّا من أُوتىَ جَلَدًا لا يستضعف ، ورزق من دقة الإحساس نصيبًا وافرًا لا ينفد . وهذه الكتب العربية التى انقطعت بيننا وبينها الأسباب فاستعجمت على كثير منا تحتاج إلى اجتهادٍ وجدٍّ حتى يعرف طالبها أسلوبها وما تنطوى عليهِ من معانى الجمال والفن كما يقولون الآن . ولنا أكبر الأمل فى هذه الأديبة الناشئة أن تكون من اللواتى يذكرهن تاريخ العربية من النساء بأجمل الذكر .

* * *

٣ – كتاب الخط الكوفى *

تأليف الأستاذ يوسف أحمد مدرس الخط الكوفى بمدرسة تحسين الخطوط الملكية بالقاهرة

لقد أتى على الخط الكوفى القديم زمنٌ والناس لا يعرفون منهُ إلا اسمهُ ، ويرونهُ فى المساجد ولا يحسن أحدهم أن يعرف ألفهُ من يائِه . ومن المخزيات أن لا تعرف الأمة آثار آبائها وأسلافها ، فانظر أى شىء هو حين لا تعرف الخط الذى بهِ تعرف ماهى آثار آبائها وأسلافها . وكان من فضل بعض الناس علينا أن نشروا آثار أسلافنا ، وكان من فضل الأستاذ يوسف أحمد على العربية ثم علينا أن رمى بنفسهِ فى ظلمة الآثار البالية حتى استنارت بعلمهِ فى معرفة أصول الكتابة الكوفية القديمة وتولى قراءة مابقى لدينا من آثار آبائنا العرب . وهاهو قد أخرج للناس الكتاب الصغير الجِرْم العظيم الفائدة جعلهُ موجزًا وذكر فيهِ رأى مؤرخى العرب فى أصل الكتابة العربية ثم اشتقاقها من الخطوط سابقتها وماحدث من التغير والتبدل والتدرُّج فى الخط الكوفى وماتلاهُ من أنواع الخطوط العربية وأردف ذلك بأمثلة

---

* المقتطف ، المجلد ٨٢ ، مايو ١٩٣٣ ، ص : ٦٢٨

وصورٍ كثيرة للخط الكوفى . ونأمل أن يخرج المؤلف كتابًا مفصلًا فى هذا وماذلك على مثله بعزيز .

* * *

٤ – صلاح الدين وشوقى *

تأليف ، محمد إسعاف النشاشيبى ، مطبعة بيت المقدس بالقدس سنة ١٩٣٢

الكلمة الأولى فيهِ عن شوقى رحمهُ الله وقد قيلت فى تأبينهِ ببيت المقدس والأخرى عن صلاح الدين فخر الإمارة الإسلامية والحكم الإسلاميّ ورجل العدل والأمانة وقيلت فى مدينة حيفا من فلسطين يوم ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ وذلك فى ذكرى موقعة حطّين فى الحرب الصليبية . والكلام يتوجه فيهما – كما قال صاحب الكلمة – إلى نصارى الغرب الذين يسومون الشرق سوء المعاملة لا إلى مواطنينا من أهل الكتاب من نصارى العرب . وفى الكلمتين المذكورتين روح إسعاف النشاشيبى بعروبتها وإخلاصها للعرب والشرق ، واللغة العربية الصحيحة التى توفّر على دراستها فأجادها وصار من بلغائها وخطبائها .

* * *

٥ – كتاب الشخصية *

تأليف السيدة « للى ألن » ترجمة الآنسة « دلال صفدى » مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٩٣٢

يعنون بكلمة « الشخصية » ماكانت تعنى العرب قديمًا بكلمة « السؤدد » و« السيادة » وذلك أن يكون فى خلق الرجل من المروءة وبعد الهمة والتواضع والإخلاص والورع عن دنيّات الأمور والحلْم والتغابى لا عن غباء والصمت لا عن عِيّ مايسود بِهِ فى بيتهِ ثم عشيرته الأقربين ثم الذين يلونهم حتى يكون سيدًا مطاعًا فى أمة أو أمم أو عقلًا محترمًا فى جيل أو أجيال . وكانوا قديمًا يطلبون الأخلاق التى هى طريق السؤدد لأنها من المروءة ، وقد ألفوا قديمًا كتبًا كثيرة فى ذلك .

---

* المقتطف ، المجلد ٨٢ ، مايو ١٩٣٣ ، ص : ٦٢٨ – ٦٢٩

واليوم تهتم أمم الأعاجم من أوربا وأميركا بالبحث عن أصول تكوين الشخصية وكيف يتيسر للرجل من الناس أن يكوّن لنفسهِ شخصية وقد ألفوا فى هذا كتبًا كثيرة خلتْ من مثلها العربية فى هذا العصر . ولم أقف إلّا على كتابين بالعربية فى موضوع الشخصية وثالثهم هذا الكتاب الذى ألفتهُ امرأة وترجمتهُ امرأة . وعلى صغر هذا الكتاب فإن لهُ فائدة كبيرة . وقد ترك فى نفسى أثرًا قويًا لا أقول لأنهُ جيد جدًّا ولكن لأنهُ أثار فى نفسى الرغبة فى الاستزادة من هذا البحث . ولولا ضيق المقام وأن أبواب نقد الكتب فى مجلاتنا لا تحتمل الإطالة والتوسع لاتّسع لى مجال القول فى تفصيل الرأى فى معنى الشخصية حديثًا ومعنى السؤدد قديمًا والفرق بين الطريقين وأىّ السبيلين أهدى وأقوم ولاستطعنا أن نبين الرأى فى تأثير المدنية الأوربية الطاغية فى العلوم والآداب والأخلاق ... إلى آخر مايقال فى هذا الشأن .

ونقول فى هذا الكتاب أن ترجمتُه لا بأس بعربيتها من آنسة ، ونودُّ أن نرى لها آثارًا قوية خيرًا من هذا الأثر وبخاصة فى مثل هذا الموضوع « الشخصية » الذى يرجع أكثره إلى المرأة فإنها هى مربية العالمِ من المهْدِ إلى اللحْدِ وهى المدرسة التى يتخرج عليها عظماءُ الرجال وقد قيل لأُم معاوية بن أبى سفيان حين رزقت بولدها معاوية « ليسودنَّ قومه » فقالت : « ثكلْتُهُ إن لم يسدْ إلّا قومه » فما هدأت فتنة دم عثمان رضى الله عنهُ حتى وضع معاوية يده سيدًا مطاعًا على أعظم أمة فى ذلك العصر ... وذلك بفضل أُمّهِ وما أخذتهُ بهِ من أدب حتى ضرب بهِ المثل فى المروءة والحلم .

* * *

٦ – كتاب أمير الشعراء شوقى *

جمع وترتيب « محمد خورشيد » أستاذ الأدب العربى بمدرسة النجاح بنابلس مطبعة بيت المقدس

كان شوقى وقد (ملأ الدنيا وشَغَل الناس) كما قالوا فى المتنبى ، فلما ذُهب

* المقتطف ، المجلد ٨٢ ، مايو ١٩٣٣ ، ص : ٦٣٠

بِهِ وانطفأ السراج وأظلم البيت ، امتلأت الدنيا بِهِ مرة أخرى وقد خلت من شخصِهِ وشغل الناس بذكره فاضطربوا وخاضوا بالقول فيهِ ونُشِر ما قيل فيهِ فى جرائد العربية ومجلاتها فى أنحاء العالم وصارت شتاتًا لا يجمعهُ الحصر قام كثير من الناس يجمع شتات ما قيل فى شوقى ، فأول ماوصل إلينا من ذلك هذا الكتاب وقد جَمَعَ فيهِ جامعه ما اختار ممّا نشِرَ عن شوقى ونسبَ ما اختارهُ إلى الجرائد والمجلات التى اختاره منها فكانت همة مشكورة لهُ وقدَّمهُ بمقدمة جيدة فى شوقى وحياتهِ .

* * *

مقاليد الكتب

١ – حاضر العالم الإسلامي

تأليف « لوثروب ستودارد الأميركي » ترجمة الأستاذ « عجاج نويهض »
وعليه حواشى أمير البيان شكيب أرسلان .
مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٥٢

أوكس الأمم اليوم حظًّا فى التعارف والتآلف ، الأمة الإسلامية التى ألَّف الله بين قلوبها وألسنتها بالقرآن حين أنزله على رسوله وأيده ونصره ، وجمع للمؤمنين من بعده أطراف الأرض تجبى إليهم ثمراتها وأرزاقها ، وجعلهم أئمة يهدون إلى الحق وبه يحكمون . وأنت إذا نظرت إلى العالم الإسلامى اليوم ورجعت إلى تاريخ هذا العالم فيما تصرَّم من أيامه لوجدت تَخَلُّفاً عظيماً بيننا وبين أولئك السلف الذين هداهم الله إلى أسباب السعادة فاستمسكوا بها واعتصموا بحبلها فجمعهم الله على قلب رجل واحد . فكان الرجل فى أقصى الصين تمتد أخوّته إلى أخيه المسلم فيما تَطَوَّح عنه من بلاد المغرب الأقصى ، فكان الصينىّ المسلم ينزل أى أمة من الأمم التى تدين بالإسلام فلا يجد الجنسية تفصل بينه وبين العربى أو المصرى أو الشامى أو المغربى بل كانوا جميعاً إخواناً فى الله وكانت الدولة فى أى أمة من أمم الإسلام تتلقى هؤلاء الناس وتقوم عليهم وتفسح لهم كما تفسح للذين تربوْا فى ظلها ونشأوا فى أرضها ، فكان المسلم من أهل الشام يتولى فى بلاد مثل المغرب التدريس والوزارة وكثيراً من مرافق الدولة أو يقوم عليها . ولا يفرق بينه وبينهم هذه الفتنة السوداء التى ظهرت حديثاً – فتنة الجنسيات . وكانت أخبار كلّ أمة من الأمم الإسلامية معروفة عند جاراتها وغير جاراتها فيما تقاذف من الأرض ، هذا مع بطء المواصلات فى ذلك العصر ، وقلة أسباب الاتصال والتعارف ، إذا قيست بما فى هذا العصر من بريد وطباعة وطائرات وبرقيات سلكية ولاسلكية وغير ذلك من أسباب الاتصال التى جعلت العالم كله كأنه أمة واحدة . أما اليوم فإن الكثير من شباب العالم الإسلامى لا يكاد يعرف عن أقرب جاراته إليه إلَّا نتفًا من الأخبار لا تفى بفائدة ، ولا يجتمع من مجموعها

---

* المقتطف ، المجلد ٨٣ ، أكتوبر ١٩٣٣ ، ص ٣٥٩

ما يمكن أن يسمى علماً أو معرفة ، وليس ذلك من شيء إلّا هذه النزعات الفردية التي مزقت العالم الإسلامى ، وهذه الجنسيات البغيضة التي قضت على الحياة السعيدة بين أمم الشرق الإسلامى . وإنك لترى كثيراً من شباب الشرق يعرف أخبار فرنسا وانجلترا وألمانيا وأميركا وغيرها من بلاد لا يربطُه بها دم ولا لغة ولا دين ، فإذا ذكرت الأمم التى تربطُه بها الدم وتجذبُه إليها اللغة ويميل بِهِ إليها الدين والعقيدة وَقَف مِنْ ذكرها موقف الغريب الذى أخذته الدهشة وأذهلتهُ الحيرة . والسبب فى هذا التدابر العجيب – بعد الاتصال والإخاء – هو ما أشرنا إليهِ من ظهور فتنة الجنسيات ، ثم انصراف الشباب منا عن تتبع أخبار الأمم الشرقية عامة والإسلامية خاصة ، ثم قلة عناية الصحف بأخبار هذه الأمم ، ثم هذا الكسل الذى اعترى أهل الشرق فصرفهم عن التزاور والتعارف ، هذا مع أن الرحلة هى أهم أسباب المحبة بين الناس وأحسن طرق المعرفة وأجلُّ الأعمال خطراً فى بسط النفس والفكر والامتداد بهما إلى طلب السعادة والخير والمنفعة التى تعمُّ ولا تقف عند الحدود الضيقة التى نصبتها الشهوات المدنية .

* * *

ظهر كتاب « حاضر العالم الإسلامى » للمرة الأولى سنة ١٣٤٣ من الهجرة ، وكان الشباب يغلى فى دمى غليان المرجل ، وكنت أحب أن أتسقط أخبار الأمم الإسلامية ما استطعت ، وكنت أؤمل آمالاً كثيرة يُمِدُّها خيالى وتزينها أحلامى ، وكان يقوم على تهذيب نفسى وتشذيب آمالى وأحلامى رجل أحب أن اعترف بفضله علىَّ ، وهو الأستاذ « محب الدين الخطيب » الذى طبع كتاب « حاضر العالم الإسلامى » بمطبعتهِ للمرة الأولى . فكان هذا الأستاذ الجليل أول من هدانى إلى قراءة هذا الكتاب ، وما عليهِ من تعليقات شيخ الكتّاب الأمير شكيب أرسلان ، واستفدت من تعليقاته عليهِ أكثر مما استفدت من كلّ كتاب قرأتُه إلى هذا اليوم ، فلما ظهرت هذه المطبوعة الثانية ورجعت إلى قراءتِه مرة أخرى انفسح لى مجال الفكر فيهِ أكثر من ذى قبل وكأنى ما قرأت منهُ حرفاً قبل هذه المرة وذلك لأن الأمير شكيب استوفى أبوابه وحشد لها علماً كثيراً لا يقوم بِهِ غيره ، ولا غرو ، فإن هذا الرجل قد سلخ من عمره خمسين عاماً أو تزيد فى تتبع

الحركات السياسية والدينية والعلمية والأدبية والتجارية التى نشأت وترعرعت فى العالم الإسلامى وبثَّ فيها قلمه روحاً عظيمة تركت آثاراً فى كل بلد إسلامى . وهذا الكتاب الذى بين يدى هو - فيما اعتقد - أجل ما عمل الأمير وما ترك من أثر ، ولا نزال فى حاجة إلى قراءته وتدبره والرجوع إليه إذ هو الكتاب الوحيد فى العربية الذى يجمع بين دفتيه أخبار العالم الإسلامى وما ألمَّ به وعمل السياسة فى إرهاقه وتحطيمه وتمزيقه . وليس أحوج إلى قراءة هذا الكتاب من شباب العالم الإسلامي الذين انصرفوا عن دراسة شؤون الدول الإسلامية والشرقية ، ولم توافهم الصحف بأخبار وافية صحيحة عن هذا العالم . وأنا فى كلمتى هذه لا أميز بين مسلم ومسيحى ، فإن الإسلام قد أظلَّ النصرانية واليهودية فى الشرق بظله الرطب زمنًا طويلاً وكانوا جميعاً فى أمنٍ وعزّة لا يلحقهم حيف ولا تمسهم الذلة وكان أمن الإسلام أمنهم وعزّه عزّهم ، ولم يكن هناك استعمار يجعل الأقليات فى بلاد الإسلام زناد بندقيته التى يرمى بها الجامعة العربية الإسلامية . إن التاريخ لا ينسى أن الجيوش الإسلامية التى قاتلت الصليبيين من أهل الغرب كانت تجمع تحت لوائها المقاتلة من النصارى واليهود وغيرهم ، وأن التاريخ لا يستطيع أن يذكرنا بشكوى كانت لنصارى الشرق من المسلمين وأحكامهم ، ألا وإنَّ موقف الأقلية المسيحية فى سوريا لخير مثل مضروب لذلك العهد المضىء بالعدل والمساواة والحق .

ليس للعالم الإسلامى معلمة (دائرة معارف) يوثق بها فى هذا العصر إلَّا هذا الكتاب . ولم نأخذ على هذه المطبوعة شيئًا من النقص إلَّا أشياء قليلة ، فالمطبوعة الأولى من الكتاب كان التخالف فيها بين حروف الأصل المترجم وتعليقات الأمير بيّناً . أما في هذه المطبوعة فالأصل والتعليقات كلها من حرف واحد . وأيضاً ، كان فى المطبوعة الأولى فهرس دقيق للأعلام والمواضيع خلت منهُ هذه المطبوعة . وكان صواب الرأى أن يكون الفهرس فى هذه أوفى منه فى الأولى وأوسع ، على أن هذا لا يقلل من قدر هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه شرقى يريد أن يشعر يوماً بالعزة والكرامة والعلو فى ظلال الحرية والاستقلال .

ذكرى الشاعرين

جمعها ورتبها « أحمد عبيد » صاحب المكتبة العربية بدمشق
– مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٥٢

كان فى عصور الحكومة العربية التى أقامها الإسلام فى الشرق وأظلَّ بها ما ترامى بين مشرق الشمس ومغربها من أمم ألَّف بين قلوبها وألسنتها وثقافتها وعلمها ، قومٌ قد اتخذوا الورق والكتب تجارة درَّت عليهم رزقاً مباركاً ، وسمى الناس هؤلاء القوم « الورَّاقين » . فكانت دكاكين هؤلاءِ الورَّاقين مجامع تضمُّ صفوةً من العلماء والشعراء والمحدثين والفقهاء والنساخين والأدباء لا يزالون يردون عليها ويصدرون منها ما بين طرفى النهار فى طلب الكتب أو بيعها أو نسخها . وكانت مجالس هؤلاءِ المثقفين فى هذه الدكاكين لا تخلو من مناظرة أو مطارحةٍ أو جدلٍ ، أو ذكر خبر ، أو رواية حديث ، أو إظهار حكمة . فنشأ من بين هؤلاءِ الورَّاقين رجال من أهل العلم ألّفوا وقعدوا للدرس وقالوا الجيد وبذُّوا كثيراً من أهل العلوم التى فرّغوا قلوبهم لها مع تجارتهم . والأديب « أحمد عبيد » هو خلف من أولئك السلف الذين جمعوا إلى التجارة بالكتب علم ما فى هذه الكتب ، وله آثار جيدة وشعر طيب ولا يزال يطالعنا كل عام أو عامين بكتاب مما ألّف أو جمع أو اختار .

وآخر كتبه « ذكرى الشاعرين » حافظ وشوقى ، جمع فيهِ أكثر ما كتب الأدباءُ فى مصر والشام والعراق والمغرب عن هذين الشاعرين قبل وفاتهما وبعدها . وجمع أكثر المراثي التى قيلت فيهما ، وأضاف إلى بابى الكتاب مختارًا من شعر حافظ وشوقى أكثره لم ينشر . وفى هذا الكتاب ترى كيف اهتزَّ العالم العربى لموت هذين العلمين ، وكيف أفاض الكتَّاب والشعراءُ فى ذكر آثارهما ومناقبهما وكيف أنطقت الفجيعة كل صامت وأوهت كل بليغ . ولا يشك أحد فى أنه لم يُكِنَّ الوفاءَ للشاعرين فى جمع ماكتب عنهما وحسب ، بل الوفاءُ فى تتبع ما أحدثا فى الشعر العربى من جديد ، وأقاما من بنيان كان قد تهدَّم فى عصور اللكنة والنبطية المريضة التى كانت لسان الشعراء فى القرون الأربعة قبلهم ، غير أن

هذا العالم العربيّ قد ابتلى بالتقصير فى تاريخ دولهِ وآدابهِ ، وبالنكول عن الأغراض السامية التى كان آباؤُهم يتبادرون إليها تبادر الجياد الكريمة فى حلبة السباق . ومع هذا فشكرنا للأخ « عبيد » – الذى جمع ماكتب عن هذين الفحلين العظيمين – لا يقدَّرُ إذا قيس بأسفنا لهذا الصمت الذى أعقب وفاتهما . وعمل الأخ « عبيد » قد جعلنا نشعر بأن الأمة العربية التى مزَّق الاستعمار أوصالها بدسيسة العصبيات من فرعونية وآشورية وبربرية وفينيقية قد بقى فيها ذلك الوفاءُ الذى امتازت بهِ على تطاول العصور ، وأملنا أن يكون عمله هذا فاتحة لدراسة هذين الشاعرين دراسةً وافيةً يقوم بها من يجد فى نفسه القدرة على تتبع بيانهما وسحرهما وفنهما وإظهار ماكان لهما من الفضل على البيان والفكر والفنّ .

ماضى الحجاز وحاضره

الجزء الأول : تأليف « حسين بن محمد نصيف »

بجدة الحجاز مطبعة خضير

كان غيرى أحقُّ بالكتابة عن هذا الكتاب ، فإن للأخ « حسين » ووالده عندى نعماً مشكورةً مابقيت . وأنَّ الصداقة التى بينى وبينه لتجعل بعض أخطائِهِ فى نفسى بمنزلة من الصواب . وكان كتابةُ هذا تامًّا أيام أن كنت فى الحجاز وقد عرضهُ علىَّ وحال بينى وبين تمام قراءَتِهِ أو التثبت عند النظر فيهِ حوائل جمَّة .

وهذا الجزء من الكتاب وثيقة تاريخية عظيمة القدر فى تاريخ الحجاز من ولاية الحسين بن على بن محمد بن عون الرفيق فى شوال سنة ١٣٢٦ إلى دخول عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل السعود (ملك الحجاز ونجد) جدة فى صباح الخميس ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤ ، ويزيد قدر هذا الكتاب حين يصل إلى تاريخ المعركة التى كانت قائمة بين الأسدين العربيين ، والتى انتهت بانهزام الحسين وخروجهِ من بلاده إلى حيث عاجلته منيته رحمه الله وعفى عنهُ . ولولا هذا الكتاب الذى بين أيدينا اليوم لكان من الصعب على أحد من أهل البلاد العربية النائية أن يصل إلى أخبار صحيحة عن الحرب الحجازية الأخيرة ، أو أن يصل بين تاريخ الحجاز قبل عهد الحسين وتاريخه بعد حكم ابن سعود . وقد اتّبع

صاحب الكتاب طريقة جمع الوثائق التاريخية كلها . إلَّا قليلاً مما لم تصل إليهِ اليد أو ما طوتهُ الضرورة . ولعل الطبعة الثانية لهذا الكتاب ستكون إن شاء الله أوفى وأتمّ وأوسعَ ، فإن نقص القليل من وثائق التاريخ يلدُ خطأً كثيراً فى التاريخ ، وبخاصة فى تاريخ الحجاز الذى لم نجد أحدًا من أهله دوّن عن عصوره القريبة شيئًا يعتمد عليهِ أو يرجع إليهِ مع أنهُ مناط آمال كثير من دعاة الجامعة العربية ، وموئل من موائل الحرية ، ومشعر من مشاعر الله التى تضم أشتات الأمم وأخياف الناس فتؤلف بين أبدانهم كما ألَّف الله بين قلوبهم بالإيمان .

ونحن نقدّر جمع الوثائق التاريخية تقديراً أكبر من غيرهِ مما يكتب فى التاريخ ، وذلك لأن تصرُّف المعاصرين لعهد من العهود يوجّه التاريخ إلى وجوه ملتوية إذ يكون العامل المؤثر فيها هو الهوى والعصبية والميل إلى فئة من الفئات ، وهذا عمل غير صالح يضع الخلف فى مضطرب واسع لا يستطيعون فيهِ تحقيق التاريخ على وجه الصواب . ولذلك كان التاريخ العربىّ القديم على كثرة الرواية فيهِ واضطرابها أحفل التواريخ بالمادة التى تهدى إلى الحقيقة فى تاريخ عصر من عصوره . وليس يعتمد التاريخ على فصاحة المؤرخ وبلاغتهِ وحسن أدائهِ ، بل العمدة فيهِ المادة التى يحشدها المؤرخ فى بيانهِ عن عصر يؤرخُه ، ثم قدرة هذا المؤرخ على حسن الأداء ، ودقة الوضع التى يؤلف بها بين الروايات بعد تصحيح ما صحّ منها وتزييف ما زُيف . و« ماضى الحجاز وحاضره » سيكون مادة عظيمة للمؤرخ الذى ينزع الهمة يوماً ما لتاريخ الجزيرة العربية فى عصر النزاع بين الحسين وابن سعود ، ذلك العصر الذى كان فاصلاً بين شكلين من الحياة والفكر ، لايزال الناس فى شكٍّ من ترجيح أحدهما على الآخر .

الوحى المحمدى

تأليف الأستاذ الجليل السيد محمد رشيد صاحب المنار

– مطبعة المنار سنة ١٣٥٢

من أجلّ النعم التى أنعم الله بها على الإنسان نعمة العقل ، وأجل ما ينعم بهِ على هذا العقل بساطة التفكير والرجوع فيه إلى الحرية والإنصاف والاعتدال

والسماحة ، وأسوأ ما يعترى هذا العقل من الأدواءِ التى تزيد فى شقاء الإنسان ، هذا التعقيد الذى يسمونهُ فلسفةً تدليساً على العقل نفسه . والحقيقة التى يجب على كل إنسان أن يعتقدها فى نفسه وقلبه أن التفكير البسيط الواضح الهادىء الجرىء المتثبّت هو أعلى درجات الفلسفة وأشرف منازل الحكمة . وكانت حكمة الأولين وفلسفتهم تعتمد فى مجموعها على هذه البساطة ، وذلك لصفاء القلوب وتفرُّغها لطلب الحقيقة من ناحية ، ثم قلة العلوم وانضمامها من ناحية أخرى . فلما اتسع العالم فى الحضارة ونهض العلم واستبحر حتى وصل إلى الحالة التى نراها اليوم ، اتسعت الشهوات وغلبت على القلوب وشغلتها عن طلب الحقيقة والتفرُّغ لها والتوت بها فى مسالك الضلال والغىّ ، وصعب على عامة الناس الإحاطة بالعلوم كلها . ثم لما ظهرت أشباه المعجزات فى العلم الحديث استكبر الإنسان وأخطأ الرأى فى نسبة هذه العجائب إلى قدرة العقل وحده دون توفيق الله ومشيئته ، فزاغ كثير من الناس وضلوا واستفتحوا أبواباً من الزندقة والجحود والشبهات قلَّ أن يجدى فى أغلاقها جدال أو خصومة .

وإذا نظرت إلى الأرض وجدت الاضطراب والتقلقل والحيرة مقرونة بالتهتك والفجور والبغى ووجدت سيلًا من الفتن يزأر ويخور فى كل مكان ، ووجدت الناس من ههنا وههنا يجرون ويدبّون ويتلفّتون كأن ليس منهم إلَّا لصٌّ أو مسلوب أو مجنون . ونعوذ بالله ، فإنَّ هذا بلاءٌ عظيم لا يدرى معهُ كيف المخرج ولا أين المفرُّ . ألا وإن الأيدى موضوعة على مفاتيح العلوم ، وكلما أدير مفتاح فى بابهِ ثم فتح الباب وبدت العجائب لعيون الناس جدَّدت هذه العجائب فينا رغبات وشهوات تمنع القلوب من الاطمئنان والاستقرار . وكيف يطمئنُّ امرؤٌ لا يزال قلبهُ معلقًا فى مدرجة الرياح الهوج ولا يزال تتناوحهُ تلك الرياح بالقوة الطاغية التى تعصف بالعالم فما تفتأ تدوى القنابل والرصاص والرعود والبروق فى كل زاوية من هذه الأرض التى يقولون عنها متمدنة حرة . إن العالم ليغلى بشروره وحسناتِه على كثرة الشرور وقلة الحسنات ، أفينكر هذا حقٌ على ظهر الأرض فى أيامنا هذه ؟ أينكر أحد أننا على حافة ميدان قد حشدت له الأمم والعقول من كل مكان ؟

أو ينكر أحد أن هذا الميدان لا يحدُّ بحدود سياسية أو حربية ؟ ألا وإن القتال قد وقع في كل مكان حتى البيوت التي هي موضع الأمن في عرف الإنسانية ، أو ينكر أحد أن العلم الحديث على جلالة قدره وعظم ما آتى من النعم لم يستطع أن يؤتى قلبًا واحدًا نعمة الراحة والاطمئنان ؟

أخذت الأرض زخرفها وازَّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فلم يبق بعد الآن إلَّا أن يعرف الإنسان أنهُ – مع قدرته على الأرض وتصريف قواها واستخراج كنوزها – غير قادر على أن يستجلب لقلبهِ ساعة من الأمن يرضى فيها عن نفسه وترضى نفسه عنهُ . ألا وإن أهل الأرض جميعًا في هذه الحيرة لينظرون إلى الغيب نظرة اليائس الذى كان لهُ أمل ثم قطع به ، ولماذا قطع بهذا الأمل ؟ ذلك لأن الناس حكّموا في قلوبهم كل شهوة من شهوات المال والنساء والغلبة والفوز ولم يضبطوها بشيءٍ من ضوابط الحياة ، فأصبحت الحياة كلها عدوان وتقاتل وتنابذ وشهوة . وليس للحق وحدوده بين الناس قدر تقف كل هذه الشهوات دونه ، ثم ها نحن نفقد الإمام الذى يقود العالم إلى الخير والسعادة والراحة ، ولا يستطاع أن يكون في كل عصر إمام يقود الناس ، فكان العقل أن يكون كل امرئ على نفسه إماماً يهديها إلى الخيرات ، وليس يوجد هذا في امرئٍ إلا أن يكون عنده كتاب يهديهِ ، يستجيب لأمره ، ويقف مع نواهيه ، ويمشى مع أوامره ، ويكون هذا الكتاب هو الحق المبين الذى ميّز للإنسانية خيرها وشرها وصرَّفها على قدر من الحكمة والصواب يؤول بها إلى المحبة والرضا والحرية والسعادة والاطمئنان .

وهنا يختلف الناس بين الكتاب الوضعى الذى لايعرف أول الرأى فيه من آخره ، وذلك هو كتاب العقول الإنسانية بفلسفتها وحكمتها وضعفها واختلافها ، وبين الكتاب الذى يقول عنه من يؤمن به أنه وَحْى من رب العالمين يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وليس يقع هذا الخلاف إلَّا من غموض أمر هذا الوحى إلى بشر من الناس تلقى إليه من ربه كلمات يبلغها للناس حتى يكونوا مؤمنين . ولا يفضُّ هذا الخلاف بين الناس إلَّا أن يستقرَّ في القلوب صدق الوحى وصدق وقوعه لمن اختير من بين البشر ليكون نبيًا أو رسولًا يهدى

إلى الحق ويدعو إلى صراط مستقيم ، ولمثل هذا قام الأستاذ الجليل الشيخ محمد رشيد رضا فأخرج للناس كتابه هذا الذى بين أيدينا عن الوحى ، وعن الوحى الذى نزل على « محمد » رسول الله ﷺ خاصة ليثبت أن الوحى صدق لا يُشَكُّ فيه وأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وأحبُّ أن ألقى القَلَم من يدى لأن الاسترسال فى نقد هذا الكتاب وإظهار حسناته وتعقب بعض كلماته التى سبق بها قلم المؤلف تغرى بالإفاضة حتى يبلغ ما نكتب عنهُ مثل الكتاب الذى أمامنا ، وأنه لَمِنَ الخير لكل من يطلب الحقيقة أن يدرس الوحى فى هذا الكتاب فلعله يجد الحق فيقنع به ويتعلق بآياتِهِ .

* * *

مقاليد الكتب

١ – ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم

تأليف أمين محمد سعيد

مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بالقاهرة سنة ١٣٥٢

« ملوك المسلمين » ... !! لا أكاد أسمع هذه الكلمة حتى تتطوح بى الذكر إلى الأيام السوالف من عصور المجد والقوة والحضارة والعلم والأدب ، وانتقل بين درجات التاريخ حتى أصل إلى عهد السعادة والرحمة والأخوة والعدل بين الناس ، يوم كان المسلمون أمة واحدة تسير بها كلمة الحق فى كل وجه – ظافرة ظاهرة – إلى سبيل الهدى والرشاد ، ثم أرتد على عقبى إلى ما آل إليهِ الأمر من فرقة فى الجماعة وانقسام فى الرأى واختلاف فى الحق حتى وضعت فينا وحوش الاستعمار أنيابها ومخالبها ممزقة مابقى من جسم قد أكلته العلة وذهب بهِ الداء ونخر فى عظمه السوس ، حتى لم يبق من أعضاء هذا الجسم مايقول ها أنذا سليم فانظرونى ... دع هذا ، وعد إلى مانحن فيهِ .

يغطى المسلمون الآن رقعة رحبةً من الأرض بعيدة الأطراف مقسمة فى أمم كثيرة ولكل شعب مسلم من هذه الأمم ملكٌ أو إمام أو سلطان أو والٍ تعود إليه أمورها ، ومما يؤسف له أن أكثر هذه الشعوب يجهل بعضها بعضًا على أن الأصل الذى وضع عليه دينها هو التعارف والمودة والأخوة والنصرة والتعاون ، أجل ، إن بين ملوك هذه الشعوب وولاتها من المعاهدات والصلات ما تثبته الوثائق إلَّا أن هذا لا ينفى أن جهل هذه الشعوب بأحوال جاراتها كائن لا سبيل إلى المراء فيه ، فمن من شباب هذه الأمم يلم بأخبار ما ترامى من بلاد الإسلام أو ما دنا ويتبع ما يقع فيها من الأحداث العظيمة ويكون على بينة من أمرها حافظًا لأخبارها متصلًا بثقافتها فى أدبها وعلمها شاعرًا بشعورها فى آلامها وأحزانها . إن الحوادث تثبت لنا كل يوم أن الأمم الإسلامية متدابرة متقاطعة إلَّا قليلًا منهم . فمن

---

* المقتطف ، المجلد ٨٣ ، نوفمبر ١٩٣٣ ، ص : ٤٨٤ – ٤٨٥

الإحسان إلى أنفسنا وأوطاننا وتاريخنا ومجدنا أن يقوم بعض أهل الخبرة والمعرفة بتقريب ما تباعد بين هذه الأمم بنشر الكتب التى تضع أمام قارئها صورة من هذه الأمم جميعها ليلم قارئو كل أمة بما عليه أحوالها وما هى فيه . وبالأمس القريب ظهر كتاب « حاضر العالم الإسلامى »[١] للأمير شكيب أرسلان ، فقام بفرض من أعظم الفروض ، واليوم يظهر هذا الكتاب فيتمم كتاب الأمير فى ناحية من نواحيه . ونحن نشكر للمؤلف ما تفضل بِهِ على قراء الأمم الإسلامية ، وما بذل من جهد فى الترجمة لملوك هذه الأمم فى هذا العصر وما عانى فى جمع المعاهدات والوثائق التى تربط بعضها ببعض والتى تربطها بملوك الأعاجم من دول أوربا وغيرها . وقد سلك المؤلف مسلكًا حسنًا فى ترجمة هؤلاء الملوك فهو يقدم لكل أمة بلمحة موجزة فى موقعها الجغرافى وحكمها السياسى وتعداد سكانها على اختلاف أجناسهم ومللهم ثم يبدأ فى ترجمة الملك من الملوك أو الأمير من الأمراء فيذكر مولده ونشأته وعهده وتاريخ السياسة فيه ونظام حكمه وما عقد من المعاهدات ذاكرًا نصوصها ، وكان فى عمله هذا سابقًا مشكورًا .

هذا ، ولا مندوحة لى من أن أنظر فى الكتاب نظرة العربى الذى لا يحب أن يخدع نفسه وقومه ، ألا وإن خداع النفس من أباطيل الحياة وأدوائها التى تنهك البدن وتذهب بالشباب والقوة والحذر . قسم المؤلف كتابه إلى قسمين أولهما « الدول الإسلامية المستقلة » وذكر مصر والعراق وبلاد العرب واليمن وتركيا وإيران وأفغانستان ، والثانى : « الدول الإسلامية المحمية » وذكر سوريا وشرق الأردن وحيدر آباد وأسبانيا والمغرب الأقصى وتونس ولحج وحضرموت ومسقط والكويت والبحرين . وأنا لا أدرى لماذا يخدع المرءُ نفسهُ فيعمد إلى بلاد يأكل الاستعمار مالها وأبناءَها ويقتل أنفسها ويريق دماءها ويفتك فيها بما ملكت يداه من أساليب السياسة فيعدها فى جريدة البلاد المستقلة وهى لا تبلغ أن تكون دولة قد رفعت على منازلها أعلام « الحماية » . إن البلاد التى وقعت فريسة للحماية

---

(١) هذا الكتاب من تأليف لو ثروب ستودارد ، ترجمه إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض ، وعليه حواشى شكيب أرسلان . وقد عرضه الأستاذ شاكر رحمه الله ص ٦٤٥ - ٦٤٧ .

تشعر دائمًا أنها فريسة فتسعى إلى الخلاص جهدها وتوجه كل قوة فيها إلى ذلك فإذا خشى الاستعمار تمام يقظتها واستفحال قوتها خدعها عن نفسها بالاستقلال المقيد بقيود ثقيلة من الذهب فيشغلها بقيودها الذهبية عن آمالها وأمانيها . ثم نأتى نحن فنخدع أنفسنا بأن نعدها مستقلة ... اللهم إن هذه الأمم مخدوعة من ناحيتين من ناحية العدوّ ومن ناحية أنفسها . أو كان المؤلف يعدم حيلة للخلاص من هذا ؟ أكان يضيرهُ شيئًا أن يترك الكتاب على نظامه هذا غير مقسم ذاكرًا تلك الحقيقة بأى أسلوب شاءَ ، وإن كنا نؤثر التصريح ، ولا نرى غيره رأيًا .

* * *

٢ – ابن عبد ربه وعقده

تأليف : جبرائيل سليمان جبور
أحد مدرسى الأدب العربى بجامعة بيروت الأميريكية
المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٣٣

كان شيخنا سيد بن على المرصفى رحمه الله يستجيد كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ويعده فى أجل كتب الأدب العربى ، ولا أدرى كيف مضى بى الزمن ولم أسأله عن هذا الكتاب سؤال الطالب الذى يريد أن يوقفه شيخه على عيون الكتب ، ويدله على أسرارها ، إلّا أنى سمعته مرة – وقد ذكر هذا الكتاب – يشكو من كثرة الخطأ والتحريف والخلط الذى وقع فيه من النساخ . ورحلت عن مصر إلى الحجاز فى أول سنة ١٣٤٧ وعقدت النية على قراءة هذا الكتاب لتصحيحه وضبطهِ ولم أوفَّق إلّا لقراءته للمرة الثانية دون أن أصححه أو أضبطه ولكننى كنت أجد المشقة فى قراءته لكثرة الخطأ الواقع فى نصوصه ، وأظن أن كل من قرأ هذا الكتاب وجد منه مثل الذى وجدت .

فلما ظهر هذا الكتاب « ابن عبد ربه وعقده » عدت إلى قراءة ما تيسر منهُ لأكون على بينة مما يكتب المؤلف فوجدت فيهِ كثيرًا من الخطأ مما فاتنى فى القراءة السابقة فتمنيت كما تمنى الأستاذ فى كتابه هذا أن تقوم جماعة من الأدباء بجمع أصول هذا الكتاب ومقابلة بعضها ببعض لتصحيح العقد الذى يوضع بين أيدى الأدباء بعد طبعه طبعًا متقنًا جيّد التصحيح .

وابن عبد ربه لم يعرف إلَّا بعقده هذا حتى أصبح هذا الكتاب مما لا يستغنى عنهُ أديب عربىّ لإيجازه وحسن ترتيبه وجمال اختياره ، ومع هذا فإنك لا تجد لابن عبد ربه ترجمة فى كتاب من الكتب التى بين أيدينا قد استوفت حياة هذا الرجل حتى ابتدر الأستاذ « جبور » وأخذ يجمع تراجم ابن عبد ربه من كتب التراجم ما طبع منها وما لم يطبع ، وطفق يتسقط أخباره فى سطور من الكتب

* المقتطف ، المجلد ٨٣ ، نوفمبر ١٩٣٣ ، ص : ٤٨٥ – ٤٨٧

حتى اجتمعت لديه مادة عظيمة ، ثم أرسل فيها رسلًا من ذكائه حتى ضمَّ أشتاتها وألّف بينها على أسلوب جيد فى ترجمة أمثال ابن عبد ربه فقسّم كتابه إلى خمسة أقسام :

الأول : فى المصادر التى أخذ منها ، والثانى : فى ترجمة حياته ، والثالث : وهو أكبرها : فى الكلام عن العقد ، والرابع : فى نثره ، والخامس : فى شعره . ويدور هذا الكتاب على التعريف بالعقْدِ أكثر مما يدور على ترجمة ابن عبد ربه فقد نقل فيهِ طائفةِ من العقد فى أكثر أبوابه مما يعرف القارىء به ويصوره له . وقد بثّ فى خلالها آراءً جيدةً ، وأخرى مما يعترى كلّ مؤلف من التطوح أو الخطإ . وكان العهد بينى وبين رئيس التحرير أنْ استوفى هذا الكتاب نقدًا وتمحيصًا إلّا أنى رأيت بعد ذلك أن أنقض هذا العهد لما فيهِ من المشقة وما يستنفد من الجهد وما يتطاول بالكتابة . هذا ولأنّ الكتاب فى مجموعه جيد متقن ، ولعل مؤلفهُ سوف يستدرك فيهِ بعدُ ما فاته الآن فقد قال فى مقدمته أنهُ لم يستقص « البحث فى درس ابن عبد ربه كما يريد أو كما يجب أن يكون » وقال « وكل ما فى درسى هذا أنهُ محاولة ، إن لم أكن قد وفقت فى كل نتائجها ، فإنى أرجو أن أكون قد وفقت فى الطريق أو المنهج الذى سلكته فيها » . وليس ما وقع فيهِ الأستاذ مما يشق على مثله أن يتداركه إذا تبين لهُ وجه الصواب وأهم ما يلزمنا أن ننبه إليهِ هو حشده الشواهد التى لاخطر لها فيما يستشهد لهُ مثال ذلك أنهُ حين تكلم عن تشيع ابن عبد ربه لآل البيت رضوان الله عليهم قال ص ٦١

ولم تكن هذه النزعة (يعنى التشيع) عند ابن عبد ربه من القوة أو الشدة بحيث تظهر لأول وهلة فى عقده ، إذ قد تقرأ الفصول الطوال من العقد دون أن تشعر بها – إلى أن قال – غير أنا إذا قرأنا العقد وأنعمنا النظر فى هذه المواقف التى يذكر فيها عليًا وأولاده وآله نرى أثر هذه النزعة عنده – وندر أن يذكر عليًا دون أن يلحق الاسم « يرضى الله عنهُ » . وهذا استدلال ضعيف ، فما من مسلم يذكر عليًا أو غير علىّ من صحابة الرسول ﷺ إلّا قال « رضى الله عنهُ » إلّا طائفة قليلة ممن خرجوا على إجماع الأمة الإسلامية فى تقديم الصحابة وخاصة النفر الأربعة

من ولاة الحق وهم الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم . وبما أن ابن عبد ربه ليس من هذه الطائفة فلا وجه للاستدلال على تشيعه بهذه الحجة الواهية . ونرجو أن يرجع الأستاذ إلى حُجَجه التى أوردها فى هذا الباب فإن أكثرها مما لا يصحُّ أن يتخذه مثله حجة على تشيع ابن عبد ربه . والحق فى الفصل الذى عقده لتشيع ابن عبد ربه وسماه فى آخره « التشيع الحسن » أن ابن عبد ربه كان كسائر المسلمين الذين يحبون رسولهم ﷺ ومن تبع سبيل الحق من أهل بيته ويوقرون الخلفاء الأربعة الراشدين ويجلونهم ويحبونهم ويترضون عنهم .

بقى بعد هذا أن نسأل الأستاذ ألا يحمل فى نفسه علينا إذا قلنا – مع تقديرنا لكتابه هذا – إنه تعجل فلم يعن باختيار الألفاظ والتركيب الفصيح العبارة ، ولا نحب أن نوقفه على شىءٍ منها فما نظن أن صواب الرأى فيها بعيد عنه « ومن زينة الحسناء لباسها » .

* * *

٣ – رحلة إلى بلاد المجد المفقود

تأليف مصطفى فروخ والصور بريشته
مطبعة الكشاف ببيروت سنة ١٣٥٢

الأندلس ... كلمة واحدة توقظ فى دم كل عربى تاريخًا من المجد والجمال والعلم والأدب وتوقد فيه نيرانًا من الألم والغيظ والغضب والحسرة ، كلمة واحدة تراها ضاحكة فى التاريخ ، كلمة واحدة تراها حاملة راية النصر والدماء تسيل على جوانبها وتحت أقدامها ، كلمة واحدة تحمل أسباب الحياة إلى العالم فتحمل فيه ألوانًا من العذاب والظلم والفتك والاعتداء ، كلمة واحدة مرَّت على التاريخ كما يمرّ الحلم اللذيذ الفرح المحفوف بالجمال والشباب وروائع الخيال ثم توقظ التاريخ من حلمه تلك الجلافة البربرية الضارية التى أتت بها دواوين التحقيق فى أبشع الصور وأقبح المطالع وأفظع الوجوه ... لك الله أيتها الأرض العزيزة التى ضمت درر التاج العربى ونفائس الإرث الإسلامى وروائع الجمال الإنسانى ، لك الله يا أرض الأمجاد من بنى مروان .

هكذا تدول الدول ويتحطم المجد ويخبو الشعاع لتقوم فى كل قلب دولة من الذكرى ويُبنى فى كل فؤاد بنيان من الحسرة وتشتعل فى كل مهجة نار من الألم ، ويرحل الراحلون ليقفوا على بقايا الأطلال ودارسات الرسوم ليبعثوا فى القلوب الذكرى ويجددوا فى الأفئدة بنيان الحسرة ويورثوا المهج نيران الألم .

أجلت قراءة « الرحلة إلى بلاد المجد المفقود » ظنًّا منى بأنها كالكتب التى تصدر عن الرحلات فى ضعفها وفتورها وجمودها وقلة روائها وذهاب مائها ، فلما قرأتها عدت على نفسى بالملامة أن لم أكن بادرت إلى قراءتها من أول يوم ، فقد اجتمع للأستاذ « فروخ » فى هذا الكتاب من دقة الوصف وبراعة البكاء على أطلال المجد العربى وصحة النظر الاجتماعى والإحاطة بكثير من تاريخ البلاد التى رحل إليها – الأندلس – ولطافة الملاحظة ، ما عدمته كثير من الرحلات التى قرأناها

---

* المقتطف ، المجلد ٨٣ ، نوفمبر ١٩٣٣ ، ص : ٤٨٧ – ٤٨٨

وكانت أشبه بجريدة الإحصاء أو سجلّ الوفيات والمواليد . ولولا مايشوب بعض جملها من ضعف التركيب لكانت من أغلى الدرر فى كتب الرحلات التى يراد بها إيقاظ الإحساس النبيل فى نفوس أصحاب المجد الغابر وإرهاف الشعور السامى فى قلوب طُلّاب المجد ومجدّدى حضارة العرب من أبناء هذه الأمة العربية .

بقى أن نلوم الأستاذ « فروخ » على استهانته بتأريخ ما يذكره من الحوادث بالتاريخ العربى الهجرى ذلك لأننا إذا تابعنا أصحاب الفتنة على ما يفتنوننا به من زخرف القول فى الاقتصار على التاريخ الميلادى فى تاريخنا لاختلط على شبابنا التاريخ ، وماظنك بألف وثلاثمائة سنة كتبت كل كتب التاريخ العربى فيها بالتاريخ الهجرى ، أيسهل أن نقلب التاريخ الهجرى فى الكتب العربية إلى تاريخ ميلادى ؟ على شبابنا أن يعود سمعه وبصره وذاكرته على التاريخ العربى ولا يضعه بمنزلة أدنى مما تنزل الذكر الجميلة من قلبه ، وعلى شبابنا أن يحترم رمزًا للمجد العربى يكاد يكون هو الباقى فى حياتنا من الحياة العربية . هذا ولو أن الأستاذ فروخ اتخذ تاريخه التاريخ الميلادى لكان ذلك هيّنًا ، ولكنه خلط فى الكلمة الواحدة بين التاريخ الميلادى والتاريخ الهجرىّ وفى ذلك من وضع العثرات فى طريق القارىء ما فيه . أما ما فى الكتاب من الخطأ التاريخى الذى تنبه له بعض الكُتّاب فذلك ما نرجو الأستاذ أن يبرّىء كتابه منه فى الطبعات التالية .

ثم لعلَّ الأستاذ « فروخ » سيواصل رحلاته إلى أطلال المجد العربى ويخرج لنا الدرر التى طغى عليها تراب النسيان ، وستر جمالها كيد الكائدين وعنتُ المعنتين فالأمم العربية الآن تحتاج إلى من يذكّرها بمجد أسلافها وعزّ آبائها وحضارة أجدادها لتجد فى نفسها مضض الحسرة وفى الحسرة الألم وفى الألم الشعور وفى الشعور الحياة والطموح والشوق إلى الفوز والغلبة .

* * *

٤ – تنبيهات اليازجى على محيط البستانى جمعها وحل رموزها

« الدكتور سليم شمعون » و « جبران النحاس »
مطبعة صلاح الدين باسكندرية سنة ١٩٣٣

كان الشيخ إبراهيم اليازجى علمًا من أعلام الأدب العربى ، ولا تزال آثاره وكتبه من أدق الكتب وأحسنها ترتيبًا وتحقيقًا ، ويظهر من كثير من كتبه أنهُ كان من أكابر أذكياء عصره وبلغائهم ومحققيهم فى اللغة والأدب حتى أصبح فى مقدمة الذين أحيوا الأدب العربيّ وجددوا روائعه وأمدُّوه بأسباب النهضة والحياة . وقد كان جيد الاستدراك على أخطاء معاصريه حتى عدّ من ثقات نقّاد اللغة . إلَّا أن أكثر ما استدركه على كتب اللغة التى ألفت فى العصر الأخير لم يظهر منها إلَّا القليل ، ولعل ذلك يرجع إلى أنهُ لم يقيده بالكتابة كما بين الأُستاذ « جبران نحاس » فى مقدمة هذا الكتاب قال « ولكنهُ كان أثناء مطالعته إذا استوقف نظره لفظٌ أشار إليهِ بنقطة على الهامش وهو فى الغالب يرسم خطًّا تحت ذلك اللفظ ، وربما عنّ له شيءٌ مما فات المصنف (يعنى البستاني صاحب محيط المحيط) فاستدركه ، ولكنهُ لم يتكلف مثل هذا الاستدراك إلَّا فى ما ندر » .

وكنا نودّ أن نقول رأينا فى « محيط المحيط » الذى جمعت تنبيهات اليازجيّ عليهِ فى هذا الكتاب ، إلّا أن هذا المجال يضيق عما نتكلف له . وفى تنبيهات اليازجيّ كفاية للمطلع والمراجع . عمد الأستاذ جبران النحاس والدكتور شمعون فى كتابهما إلى الإشارات التى وضعها اليازجى على نسخة من « محيط المحيط » فحاولا أن يتبصَّرا موضع النقد أو الاستدراك الذى أراده اليازجيّ وقد وُفقا إلى كثير من الصواب لولا الإطالة فيما لا تجدى الإطالة فيهِ وتشتت البحث فى بعض المواضع ، ولعلهما سيستدركان ذلك فى بقية الأجزاء التى ستصدر تتمة لهذا الجزء – وقد استوفيا فيهِ حرف الألف وحسب . ونرجو أن يصحبهما التوفيق فى عمل يجدان فى كل خطوة منهُ عقبات يزلُّ لها الجلدُ القوى .

* * *

* المقتطف ، المجلد ٨٣ ، نوفمبر ١٩٣٣ ، ص : ٤٨٨ – ٤٨٩

مقاليد الكتب

١ – أنتم الشعراء

تأليف أمين الريحانى – مكتبة الكشاف ومطبعتها – بيروت سنة ١٩٣٣

يقول الشاعر المجيد بشارة الخورى :

الهوَى والشبابُ والأملُ المنـ	ـشود توحى فتبعث الشّعْرَ حيًّا
والهوَى والشبابُ والأملُ المنـ	ـشودُ ضاعتْ جميعُها من يديَّا
يشرَبُ الكأس ذُو الحجا ويبقّى	لِغَدٍ فى قَرارة الكأسِ شيًّا
لم يَكُنْ لى غدٌ فأفرغتُ كأسى	ثَم حطَّمْتها على شَفَتيَّا
أيها الخافقُ المعذَّبُ يا قلْـ	ـبى نزحتَ الدُّموعَ من مقلَتيَّا
أفحتمٌ علىَّ إرسال دَمعى	كلما لاح بارقٌ فى مُحيَّا
ياحبيبى لأجْل عينيك ما ألْـ	ـقى وما أوَّلَ الوشاةُ عليَّا
أأنا العاشق الوحيدُ لتُلقَى	تبعاتُ الهوَى على كَتفيَّا

فتكون هذه الأبيات الرقيقة سببًا فى إثارة الريحانى على الشعراءِ المعاصرين الذين يحبسون شعرهم على البكاءِ والنحيب والحسرة والألم وإظهار الضعف عن تحمل الهوى . ويكثر الجدلُ بين الأدباءِ عن هذا الشعر الباكى الضعيف ويتقسمون الرأى بين راض ومستنكر . ويسخر الريحانىّ فى كتابه هذا من الشعر الذى يحبسهُ أهله على الضعف والتخنث والبكاء والتقليد ويهيب بالشعراء إلى القوة والفتوة والرجولة والتجديد .

ونحن من قبلنا لا نحبُّ أن نجادل فيما لا يلذُ الجدل فيه إلّا العناد والكبرياءَ والتعصب للرأى أو للهوى ولا نبالى أن يقول الناس أصبنا أو أخطأنا إلّا أن يكون ميزان الصواب والخطأ العدل والحق والإخلاص والقسط الذى لا يرجح بالناقص ولا يشيل [(١)] بالوافى .

---

* المقتطف ، المجلد ٨٣ ، ديسمبر ١٩٣٣ ، ص : ٦١٣ – ٦١٤

(١) شال الميزان : ارتفعت إحدى كَفَّتيْه .

الشعراء الخُلَّص الذين لا يطلبون بشعرهم شهرة ولاصيتًا ولا دعوى مستطيلة هم ناسٌ من البشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم إلَّا أنهم من الأمم بمنزلة مقياس الحرارة (الترمومتر) الذى يؤثر فيهِ تقلُّب الجوّ تأثيرًا ظاهرًا بيّنًا يثبته العدد فلا موضع فيه للجدل إلَّا أن يكون هذا المقياس فى ذاتِه مختلًّا فاسدًا لا يدلّ على حقيقة الجوّ الذى يحيط به وبذلك يصبح مقياسًا لنفسه لا للناس . والحقيقة لا تعرَف إلَّا من المقياس الصحيح الذى لا خللَ فيه فالناس جميعًا مفتقرون إليه ، أما المقياس الفاسد فلا يرجى له خير إلَّا أن يحطَّم أو يهمل وما بأحدٍ إليه حاجة . وهذا مثل الشعراءِ فى كل أمة من الأمم .

ونحن من قبلنا أيضًا لا نستنكر على شاعر أن يرقّ حتى يضعف ويبكى ويئن ويتوجع من آلام الهوى وتباريح الصبابة ماكان ذلك الشاعر صادقًا لا يتباكى ، محبًّا لا يتصنع لأن الشاعر - كما سلف - رجل من الناس ربما كان له من أسباب الهوى ما يدنفه ويبكيه ، وهذه الأسباب تكون له جوًّا يحيط بهِ خاصةً فهو يتأثر بهِ على كل حال . إلَّا أن هذا الشاعر نفسه رجل من أُمَّة يكون لها من أسباب القوة والسيطرة والعزة مايكون لها ، أو رجل من أمة بها من الضعف والفتور والذلّ والاستعباد والمهانة ما تضرب به الضربات الشداد بمعاول الظلم والجَبرية والعدوان والشر الاستعمارى القبيح الدنىء . فلابدَّ للشاعر من هذه الأمة أن يكون لسان الأمة الذى يتكلم بأوجاعها وآلامها وأن يكون من جهة أخرى قائدًا من القوَّاد يقف فى قلب الجموع المسكينة خطيبًا تنفذ كلماته إلى القلوب لتحركها وتنعشها وترمى فيها بالحياة والشباب والنشاط وبذل النفس وغلبة الرأى على الشهواتِ والأهواء . وأن لا يكلَّ ساعةً عن الجهاد والدعوة إلى الطريق السوىّ . فإذا خلا الشاعر قليلًا قليلًا إلى نفسه وغلبتهُ الحياة الفردية والأهواءُ الخاصة فليقل ما شاءَ بمقدار لا يُلين منهُ ولا يضعف من قوى جنده ، وليستجمَّ لنفسه بما يجعله أقدر على الجهاد حين يعود إلى الميدان بين المتألمين والمحطَّمين والباكين مما يصيبهم من وحوش الاستعمار والعدوان التى توسعهم نهشًا وتمزيقًا وافتراسًا .

هذه سبيل الشعر لأمتنا العربية فى أمرنا هذا من أيامنا هذه . أما أن يأخذ أحدنا

شعر الشاعر العربى فلا يجد فيه إلّا الضعف والتخنث والبكاء والذلة والضراعة والحبُّ المريض فذلك أمر لا تقبله النفوس العزيزة التى تستشعر العزة والنخوة والمروءة ، وأما الفتنة التى فتن بها الناس من قولهم الشعر العالمىّ والشعر الإنسانى والشعر ... اللهم إنى أعوذ بك من سوء المنقلب ... فهذا الكلام لا معنى لهُ فى حياة الأمم الضعيفة المظلومة التى لا قائد لها ولا إمام .. أيغنّى العصفور الضعيف للثعبان الفاتك ليسحره بألحانه وتغريده . ألا إن لحم العصفور أشهى إلى الثعبان من لحنهِ ... وما فى ذلك إلّا سوءُ التقدير وأفن الرأى (١) وقلة الحيلة .

إن الأرض العربية تطالب شعراءَها وأدباءها وكتّابها وأصحاب الرأى فيها أن يتخذوا ألفاظهم فى شعرهم وأدبهم وكتابتهم وآرائهم من النار والحديد والبراكين والدوىّ والرُّعود المجلجلة فعسى أن يهبَّ هؤلاء النوَّام من سباتهم وأن يرجعوا عن غفلتهم ويعلموا أن الأمر جدٌّ وأن الحياة صراعٌ وأن عدة هذا الصراع هو الإيمان والصبر وبذل النفس وكبح الشهوات واطّراح الجبن والخور . فإذا خرجنا من الميدان بالنصر والظفر فلنطلب نفع الإنسانية فى كل بقعة من بقاع الأرض ولنمحُ آثار المظالم والعدوان والفجور والبغى ولنغن ما وسعتنا الألحان وماواتتنا الأغاريد .

وسنعود قريبًا إلى التوسع فى هذا القول حين نبتدىء - بعون الله - كلامنا عن الشعر الوطنى فى هذه المجلة يوم نجد من شعرائنا إقبالًا على إرسال شعرهم الوطنى كما أمّلنا ذلك فى النشرة التى كتبناها فى أول مقتطف نوفمبر الماضى والله المستعان .

---

(١) أَفَنُ الرأى : فساده وَضَعْفه .

٢ – تاريخ مصر الإسلامية

تأليف إلياس الأيوبى – مطبعة الرغائب بالقاهرة سنة ١٣٥٢

ظهر هذا الكتاب ، وكثر الحديث عنهُ فثارت الهمة لقراءته والنظر فيه وبخاصة لأنهُ تاريخ أغمض العصور التى مرّت بمصر وذلك لضياع أكثر الكتب المؤلفة فى هذا التاريخ الواقع مابين سنة ٢٠ من الهجرة إلى سنة ٢٥٤ منها . وأخالف ما درجتُ عليه فى الكتابة وأقول إنى أخذت هذا الكتاب فقرأتهُ أحسبهُ شيئًا فإذا هو ليس بشيءٍ ، وأقول هذه الكلمة وأنا أحمل أوزارها وأثقالها وما يشاءُ القارىء من أوزار وأثقال . فأنا – ياسيدى القارىء – لم أقرأ هذا الكتاب إلّا وقد عقدت النية على أنهُ تاريخ مصر من أيام الفتح العربىّ إلى أول عهد الدولة الطولونية لا على أنهُ أوهام فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى عهد الدولة الطولونية . وقبل أن نبدأ ينبغى لنا أن نعرف ماهو التاريخ وكيف يكتب .

يعتمد مؤرخ كل أمة من الأمم على دعامتين ، فإحدى الدعامتين هى دعامة الرواية والأخرى دعامة العقل . والرواية هى مادة التاريخ الذى لا يمكن أن يسمى تاريخًا إلّا باجتماعها وحشدها . والعقل هو المصنع الذى تنقى فيهِ هذه المادة وتجلى ويؤلّف بين المتقارب ويفرّق بين المتباين من أجزائها وعناصرها . فإذا اعتمد المؤرخ على الرواية دون العقل كان مايكتبهُ تاريخًا إلّا أنهُ تاريخ أعرج ، فإذا اعتمد على العقل دون الرواية لم يكن مايكتبهُ تاريخًا ، فإن اعتمد على العقل وقليل من الرواية كان مايكتبهُ نوعًا من الكلام لا يسمى تاريخًا بل يسمى أوهامًا فى التاريخ . ولا يخرج التاريخ الصحيح إلّا من مصانع العقل القوىّ المشرق الذى اجتمعت له المادة التاريخية المحشودة المصححة . ولا أظن أن مؤرخًا مهما بلغ من قوة العقل وإشراقه يستطيع أن يولِّدَ لك من بعض الروايات المنسوبة إلى التاريخ تاريخ أمة قد ملأت الأرض علمًا وحضارة وأدبًا . هذا ... فإذا اعتمد المؤرخ على الهوى دون العقل مع قلة الرواية وضعفها وتهالكها فكيف يكون تاريخه ؟ إذا

---

* المقتطف ، المجلد ٨٣ ، ديسمبر ١٩٣٣ ، ص : ٦١٥ – ٦١٨

أردت أن تعرف ذلك فاقرأ هذا الكتاب المسمى « تاريخ مصر الإسلامية » وتأويل ذلك .

تقول مقدّمة الكتاب « وكنت كلما أتصور تمكُّنى (كذا) من إنجاز فكرتى ، وأتخيل عملى أمامى تامًّا : فأرانى أصبحت أول مؤرخ مصرى جدير بهذا الاسم (كذا) وأرانى قد أنشأت ، حقيقة ، فى أحضان قومى روحًا مصريةً بحتةً – لا عربية ولا تركية ، ولا مسيحية ولا يهودية ولا إسلامية – روحًا مصرية متشبعة بالمبادىء القومية العصرية ، ومثقفة بالثقافة العصرية الحقة التى تستمد منها الحضارة العصرية قوتها وجمالها ... إلخ » وذكر كلامًا رمى فيهِ مؤرخى العرب جميعًا بالجهل والتدليس وغلبة الهوى حين كتبوا سيرة الرسول ﷺ فقال :

« ... جعلوا فيما كتبوه من سير للنبىّ الغلبة للخرافة على الحقيقة ، مقلدين فى ذلك المتقدمين من مؤلفى المصريين والكلدانيين واليونان والرومان (تأمل) الذين رووا حوادث تأسيس الدولة المصرية والكلدانية واليونانية والرومانية ... إلخ » وأستعتب القارىء فى نقل هذه الجملة أيضًا : « وإنى إذا كنت – على عكس ذلك – رأيت نفسى مضطرًّا أحيانًا إلى حرق ما قد قدستُهُ زمنًا طويلًا فيما مضى ، فذلك لأنى إنما رميت بكتابى إلى إحياء الشعور القومى المصرى البحت فى نفوس قرائى ، كما قدمت ... لا لأنى أرغب فى جرح شعور أحد أو إحساس أحد أو فكر أحد » . ولعله قد سقط من الأصل « بل أريد أن أجرح شعور التاريخ وإحساس التاريخ وفكر التاريخ » .

لا يدرى القارىء ماذا أقاسى من الألم المبرح فى نقد هذا الكتاب وما ذلك إلَّا لأنى إذا كتبت عنهُ فإنما أكتب عن مؤلفه وقد أصبح من مادة التاريخ فآنف أن أنازل من لا يدافع عن نفسه ، ولأن الكتاب فى أكثره إفسادٌ للتاريخ وتدليس عليه ولأن مواضع النقد فيه كثيرة لا أدرى ماذا آخذ منها أو أدع فى هذه الورقات . ولكنى أستعين الله على ما ألاقى من الألم فى الكتابة عن هذا المؤلِّف .

لم يعتمد كاتبنا فى تاريخه إلَّا على كتب قلائل ليست شيئًا فى المكتبة العربية الزاخرة بكتب التاريخ ، وهى كتاب المقريزى وابن إياس وابن وصيف شاه وتاريخ

التمدن الإسلامى لزيدان والكندى وابن الشحنة فى روضة المناظر وقليل غير ذلك من كتب الأدب . هذا فلو نظرت إلى كتاب (فتح العرب لمصر) الذى ألّفه الأعجمىّ الدكتور (بتلَرْ) الإنكليزى لوجدته يعتمد فى تاريخ حِقْبَة من الزمن لا تبلغ خمس سنوات على عشرين ومائة كتاب فى التاريخ ثلثها من كتب التاريخ العربى والبقية من كتب الأمم فى التاريخ . فلو أن (بتلر) أراد أن يكتب تاريخ مصر الإسلامية من سنة ٢٠ لسنة ٢٥٤ لاعتمد على أضعاف هذا من كتب التاريخ . وذلك لأن التاريخ لا يكون شيئًا إلّا إذا حشدت له المادة العظيمة ونظرت فيها بالنظر الصائب ، وربَّ كلمة شاردة فى ذيل ورقة تفتحُ للمؤرخ بابًا من الفهم يجعل الغامض واضحًا بيّنًا والمتباعد قريبًا دانيًا وتصل بين حافتى هوّة فى التاريخ فتمكن المؤرخ من اجتيازها .

هذا أمر المادة التاريخية نفسها ، فلننظر ماذا فعل المؤرخ بالمادة التاريخية القليلة التى اجتمعت له حين ألف كتابه . عَمِدَ المؤلف إلى هذه المادة القليلة التى لا يستقيم بها تاريخ فقرأها وأراد أن يتفهمها فأخطأ فى كثير وأصاب فى قليل وقرَّ ذلك فى نفسه ، ثم أوّل بعض هذه المادة تأويلًا لا يقبله عقل ولا تاريخ حتى يستطيع - كما يقول - « أن ينشىء - حقيقة - فى أحضان قومه روحًا مصريةً بحتةً - لا عربية ولا تركية ، لا يهودية ولا مسيحية ولا إسلامية - » ، فلذلك سَخِرَ بالعرب وساق الرواية العربية القوية فى أسلوب من السَّخَر بالعرب والإزراء عليهم والغض منهم ومن أفذاذ رجال الفتح . وأنت إذا قرأت الفصل الذى سماه « كيف فتح العرب مصر » لم تجد فيه حقيقة غير هذه حين يذكر « عبادة بن الصامت » رضى الله عنه حين بعثه عمرو على رأس النفر العشرة إلى المقوقس فتقدم عبادة وكان عبادة أسود ضخمًا من الرجال فهابه المقوقس لسواده « وقال : نحُوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى ، فقالوا جميعًا ، إنهُ أفضلنا رأيًا وعلمًا وخيرنا والمقدَّم علينا وإنما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه » . فيقول المؤلف تعقيبًا على هذا .

« ولسنا ندرى من أين أتى عبادة بن الصامت العلم !! » ... ونحن والله

لا ندرى أيضًا ، ولا نعلم إلّا ممن شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ وكان له من الرأى ما أجلَّه به قومه ، بلى وأنه رجلٌ من أفذاذ الأمة التى أشرقت بنورها على الأرض فأخرجت الناس من الظلمات إلى النور . ولسنا ندرى لماذا ينكر صاحبنا العلم على عبادة ، وهم لم يقولوا أنه أعلم العالمين بل قالوا هو أفضلنا رأيًا وعلمًا وهم أدرى بأنفسهم منا بها . وقد كانوا رحمهم الله يقدّرون أنفسهم قدرها فيقدّم الرجل الشريف العبدَ الحبشى العالِمَ على نفسه وأهله ، وما كان فيهم من يتصدر ليقول عن نفسه أنهُ أكبر عالِم أو أتقى رجل أو أفضل مخلوق أو أوّل مؤرخ لمصر جدير بهذا الاسم . وقد أطلت ليعلم القارىء كيف يطمس الهوى على قلوب الناس إذا حرفوا العلم أو التاريخ بأعنته ، والهوى - كما قال ابن عباس رضى الله عنه - إله معبود ... والكتاب كله على هذا النمط من الإزراء على العرب والعبث بالإسلام ، وما يريد المؤلف من كل هذا إلّا إنشاء روح مصرية لا عربية ولا إسلامية كما يزعم ، لا تقرير الحقيقة التى يجب على كل إنسان أن يطلبها أنَّى كانت ، والمؤلف نفسه فى حيرة من العرب والإسلام وتغلغل كلٍّ منهما فى مصر فتراه أحيانًا يدور حول نفسه يريد المخرج ولا مخرج حتى أنهُ لم يستطع أن يمحو ذكر الإسلام - والعرب - فيما سمّى بِهِ كتابه فألقى عليه هذا العنوان الذى يتبرأ مما تحته ... « تاريخ مصر الإسلامية » .

ولنفتح فى الكتاب أى صفحة يكون من نصيبها التمزيق ، بسم الله ، فهذه ص ١٨٠ يقول المؤلف فى رأسها أن ابن عباس روى عن النبى ﷺ « إنما ضلَّ من كان قبلكم بالكتابة » ، وأطال الكلام بعد ذلك على هذا الحديث الذى لانشك فى وضعه حتى قال « وأهملوا - يعنى العرب - تدوين كل ماجادت به قرائحهم فى بابى الشعر والخطابة ذاتها لتفضيلهم الحفظ على التدوين ، بل أهملوا تدوين العلم الإنسانى البحت عينه - على قلته - (كذا وتأمل) وقضوا قرنهم الأول وبعض الثانى (كذا قال المؤلف) وهم يتناقلونه بالتلقين ، ولم يدوّنوا القرآن نفسه بعد أن أحجم أبو بكر مدة عن ذلك قائلا « كيف أفعل أمرًا لم يفعله رسول الله ، ولم يعهد إلينا فيه عهدًا » ... إلّا لما خافوا أن تذهب الحروب والفتوحات بحفَّاظه فيضيع » انتهى .

ولا ندرى هل يعلم المؤلف أن من الصحابة ناسًا يسمون « كتَّاب الوحى » كانوا يكتبون لرسول الله ﷺ مايوحى من القرآن لرسول ﷺ قد فادى أسرى يوم بدر ، فكان شرط مَن لا مال عندهُ أن يعلّم عشرة من الغلمان الكتابة . قالوا فيومئذٍ تعلّم الكتابة زيد بن ثابت كاتب الوحى وأن رسول الله ﷺ قد أمر عبد الله بن سعيد بن العاص أن يعلّم الناس الكتابة بالمدينة ، وأنهُ قد ورد فى الاستيعاب لابن عبد البر والإصابة لابن حجر أن الشَفَّاء أم سليمان بن أبى حثمة علمت حفصة (وهى زوجه) الكتابة وقال لها « علمى حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة » . وإن القرآن كان مكتوبًا جميعهُ على عهد الرسولُ ﷺ كتبه له كتّاب الوحى وكتبه لنفسه من كان يحسن يكتب من الصحابة وهم كثير ، وإن قول أبى بكر « أفعل أمرًا لم يفعله رسول الله » إنما هو عن جمعه بين دفتين أعنى فى كتاب أو مجلة كما يقولون وليس ذلك لأن أبا بكر كان يعاف الكتابة والتدوين . وتأويل ذلك أن أبا بكر لما عافت نفسه ما قال بهِ من جمع القرآن دعا زيد بن ثابت وقال له (نرويه من حديث زيد بن ثابت) « إن هذا – يعنى عمر – قد دعانى إلى أمر فأبيت عليهِ وأنت كاتب الوحى فإن تكن معهُ اتَّبَعْتكما وأن توافقنى لا أفعل . فاقتصَّ أبو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرتُ من ذلك وقلت يفعل ما لم يفعل رسول الله ﷺ إلى أن قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ فذهبنا ننظر فقلنا لا شىء والله ماعلينا فى ذلك شىء . قال زيد فأمر أبو بكر فكتبته من قطع الآدم وكسر الأكتاف والعُسُب » . وهل يعلم المؤلف أن هناك مصاحف تنسب إلى أصحابها من الصحابة كابن مسعود ومصحف أُبىّ ومصحف زيد كانت مكتوبة على عهد الرسول ﷺ وعرضها أصحابها العرضة الأخيرة عليهِ قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ﷺ .

هذه صفحة لم نعمد إليها من الكتاب وها أنت تراها كيف مزّقت شرَّ ممزّق وذريت قطعها فى الهواء . وهذه المجلة لا تتسع فى هذا الباب لأكثر من هذا ولكن ليكن القارىء على يقين من أن كلَّ ورقةٍ من هذا الكتاب هى هذه الورقة الممزّقة . ولله الأمر من قبلِ ومن بعد .

٣ – آلاء الرحمن فى تفسير القرآن

تأليف محمد جواد البلاغى النجفى

الجزء الأول – مطبعة العرفان بصيدا – سنة ١٣٥٢

كان القرآن الكريم ولا يزال مادة البلاغة العربية بل مادة العقل العربى بل مادة الحياة الإنسانية العالية بآدابها وعلمها وفقهها وأحكامها ودولتها . نزل بِهِ الوحى على محمد ﷺ فجمع الأمة بعد شتاتها وافتراقها على كلمة واحدةٍ فى قلب رجل واحدٍ أينما سارت سجدت لها العروش ودانت لها الملوك وخضعت لها الرقاب واستقبلتها القلوب وانقادت لها النفوس وعلا بها الحقُّ وأضاء بها الوجود حتى إذا تمت لها المعجزة فى إخضاع العالم للحق وإخراجه من ظلمات الباطل إلى نهار الحق بدأت طبيعة الحياة تفعل فعلها وتفتن فتنتها فمدَّت الشبهات أعناقها ، وظهر الخلاف بين الناس إلَّا أن الشبهات كانت لأول عهدها خفية قليلة وكان الخلاف ضعيفًا متقاربًا ثم بدأ الجدل واللجاج والعناد الإنسانى البغيض حتى استحكمت الشبهة وكثر الخلاف واتسع مابين أصحاب الرأيين وتعصب هذا وتنطع ذاك فخرجت الفِرَق المتعادية والنِّحل المتخاصمة وبقى كل فريق يطلب النصر لرأيهِ لا للحق وبذلك اضطرب الحبل وفسدت الأمور واستحلَّ القتال وضعفت الدولة . وهذه صورة يتكرر ظهورها فى التاريخ . ومن يتتبع أحوال الفِرَق وأسباب نشأتها وأطوار نموّها وضعفها يعلم أن الخلاف أو الشبهة التى يُبْنَى عليها المذهب ليست إلَّا كبوة عقلٍ واحدٍ فى رجل من أصحاب الرأى انساق فى آثارها وجرَّ وراءَه أمة من الناس تعصبوا ، فأكبُّوا معهُ . ولا بأس أن ننقل هنا كلمة للجاحظ عن إبراهيم النظام رأس الفرقة المشهورة من المعتزلة بالنظامية . قال فى كتابه الحيوان ج ٢ ص ٨٣ « وكان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ فى باب الصدق والكذب ... وإنما كان عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسهِ على العارض والخاطر والسابق الذى لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاص ، ولكنه كان

---

* المقتطف ، المجلد ٨٣ ، ديسمبر ١٩٣٣ ، ص : ٦١٨ – ٦٢٠

يظنُّ الظنَّ ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره ظنًّا ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت » اهـ . وهذه صفة رؤوس الفرق جميعًا فى كل ملةٍ وفى كل علم .

قدمنا هذه الكلمة بين يدى هذا الكتاب ، لأن مؤلفه من علماء الإمامية ، وهم فرقة من أهل الإسلام افترقت فيما بعد إلى فرق كثيرة وأصل عقيدتها إمامة علىّ رضى الله عنهُ وبقاؤها فى عقبه ، وللكلام على الإمامية وتفصيل مذهبها ذيول طويلة ليس هذا موضع ذكرها والذى يهمنا أن هذه الفرقة كان لها فى الإسلام شأن عظيم وألّف فى الردّ على مذاهب أهلها من الكتب شىء كثير . وقد قرأنا عنها مذاهب عجيبة لا يقرها عقل . ولم يصل إلى أيدينا من كتبهم إلَّا ماقرأناه من النصوص المنقولة عن كتبهم فى الردّ عليهم فسرّنى كثيرًا أن أرى بين يدىَّ تفسيرًا لعالم من علماء هذه الفرقة ، وإن أجد هذا التفسير قد قرّب مسافة الخلف بين ماقرأتهُ عن الإمامية وبين عقيدتى وعقيدة أكثر المسلمين . وهنا لانجد بدًّا من الإشارة إلى أن أهل الفرق والمذاهب لا يزالون فى غفلةٍ عن الحياة . فهم يتقسمون أمرهم بينهم والعدوّ من ورائهم وأمامهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم يعد العدَّة ويتوثب للفريسة الغافلة ولا مخرج للعرب بعد اليوم إلَّا أن يرجعوا إلى حكم الله إذ يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ . ولا بدَّ أيضًا من أن يرجعوا إلى كتابهم وسنة رسولهم مخلصين لا يؤولون ولا يحرفون الكلم من بعد مواضعه وأن يتركوا وراءهم ظهريًّا أقوال رؤوس الفرق وأئمتها فإنهم أصل البلاءِ ومادة الشر ، ولا حياة لأمة على الأمر الذى لا يحوى الخلاف فيه إلَّا الفرقة والخصومة والشنآن [1] والعداوة المتوارثة ونسأل الله أن يجعل آخر أمر المسلمين والناس جميعًا كأوله ألفةً وارتباطًا وصفاءً وعملًا خالصًا لله لا للشهوات والأهواء .

* * *

---

(١) الشنآن : البُغْض .

مقاليد الكتب

١ – ابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى)

(تأليف محمد عبد الله عنان – مطبعة دار الكتب العربية –
سنة ١٣٥٢ وسنة ١٩٣٣)

نشأ ابن خلدون فى بيت من بيوت المجد قد نزح من الأندلس الجميل إلى تونس الفيحاء ، ونما فى بيت من العلم والرياسة ، والشرف والسياسة ، وصبغ بصبغة الجيل الذى عاش فيه ، فلما استوى على سوقه وجد ما بين يديهِ من دول الأندلس والمغرب كالنساءِ الضرائر ، لا تفتر واحدة عن الكيد لصواحباتها . وكان صدر هذا الشاب (ابن خلدون) يغلى بأمانيهِ وأوهامهِ ومطامعهِ ، فرأى فيه أهلهُ ومن يحيط بهم من أهل الشرف والرياسة ، وهو فى سن العشرين ، بارقة من النبوغ والعبقرية والسيادة ، وتداول الناس أمره حتى سمع بهِ أبو محمد بن تافراكين فاستدعاه لكتابة (العلامة) [١] عن السلطان أبى إسحاق فكان ذلك أول اتصاله بالحياة السياسية فى دول المغرب والأندلس ، والتى خاض (ابن خلدون) فيما بعد غمرتها وتلظى بها وأصلى فيها أو شبَّ نيرانها ، وكان لها فى تاريخ حياته أثر بيّن ، حبيبٌ حينًا وبغيض أحيانًا . ومكث ابن خلدون فى عمله هذا حتى نزعت به همته إلى الرحلة من تونس سنة ٧٥٣ إلى (قَفْصَة) ثم إلى (بسكرة) فنزل ضيفًا على صاحبها (يوسف بن مزنى) ومن هناك قصد الرحلة إلى (أبى عنان) بتلمسان ولكنهُ لم يمض فى طريقه حتى لقيه (ابن أبى عمرو) صاحب (بجاية) فصرفه عن أبى عنان وحمله معهُ مكرّما إلى (بجاية) فكان فيها حديث الناس حتى بلغ ذكره (أبا عنانٍ) وكان لهُ مجلس من العلماء فرأى أن يستدعى (ابن خلدون) لما بلغه عنه فحمله على خير محمل سنة ٧٥٥ وأتمَّ بهِ مجلس العلماء واختصَّه بالكتابة

* المقتطف ، المجلد ٨٤ ، يناير ١٩٣٤ ، ص : ١٠٩ – ١١١

(١) ذكر (العَلاَمَة) الأستاذ عنان فى كتابه ولم يفسّرها . وكان الأَوْلَى تفسيرها ، لأنها شىء قد دَرَس ، قلّما يفهم أحد ما يُعنى بها . والعَلاَمَةُ عندهم فى ذلك العصر هى « الحمد لله والشكر لله » تُكتب فى كتاب السلطان أو مرسومه بالقلم الغليظ بين البسملة وما بعدها من الكلام (شاكر) .

والتوقيع بين يديه . وكان أصحاب (أبى عنان) من أكثر أهل البلاد حسدًا وغيرة ، فكادوا لهُ كيدًا عظيمًا لما رأوا من حظوتِه عن السلطان ، فلم يجد صاحبنا بدًّا من التقحم فى غمرات الدسائس والمكايد ، ولعلها وافقت هوى من نفسه ، فبرع فى الدس والكيد والتلوُّن وإثارة الفِتن حتى اضطرمت فى عهده البلاد نارًا من الفتنة كان هو مثيرها حينًا ومطفئها أحيانًا . واستمر أمره على ذلك فيما تقلَّب فيه من أمر الدول المغربية والأندلسية . وليس سبيلنا هنا أن نترجم لابن خلدون ولكنَّا قدَّمنا هذه الكلمة لما كان للدسائس من الخطر فى حياة هذا الرجل ، وقد استقصى ذلك الأستاذ عنان فى كتابه بإيجاز وعرضه على القارىء عرضًا جميلًا . كان هذا الرجل ذكيًّا قادرًا بليغًا دقيق العبارة جيد الإفصاح عن ضمير نفسه ، مشرق الفهم رحب الإدراك ، يقع لهُ الأمر من الأمور فيفصّله ويبيّنه ويوضحهُ ويجمع إليه القرائن ويجيد القياسَ بين شيء وشيء مما يحدثُ لهُ أو لغيره من الناس فوضَعَ من ذلك فى ذهنِهِ شيئًا كثيرًا ، هو الذى اجتمع لهُ حين ألّف مقدمته المشهورة فى الشرق والغرب ، فأخرج فيها من الحقائق ، والنظريات والأُسس فى حياة الدولة ما لم يجمعهُ كتاب عربيٌ قبلهُ . وما ذلك إلا لأنهُ كان – كما أسلفنا – (بليغًا ، دقيق العبارة ، جيّد الإفصاح عن ضميره نفسهِ) .

وأكثر الناس على أن ابن خلدون هو أولُ من اهتدى – من العرب – إلى هذه الحقائق العظيمة التى أثبتها فى مقدمته ، فهذا صحيح من ناحية ، هى أنهُ أول من دوَّنها جميعها بين دفّتى كتاب ، ولكنّى لا أشكُّ أن أهل السياسة والرياسة فى الدول العربية فى الشرق والغرب كانوا يجيدون ما أجاد ابن خلدون من هذا العلْم ، وكانوا يعرفون ذلك حقَّ المعرفة ، وهناك أدلة كثيرة على ذلك ليس هذا موضعُ إيضاحها وتفصيلها . وأنا لا أظنُّ أن رجلًا مثل (لسان الدين بن الخطيب) الوزير الأندلسيُّ البارع فى السياسة والأدب كان يجهل من هذا ما علمهُ ابن خلدون ، بل أرجح الظنّ عندى أن (لسان الدين) كان على شرف من هذا العلم يكاد يفوق به صديقه ابن خلدون إلا أن ما تهيأ لابن خلدون – من البلاغة التى لا صنعة فيها ومن دقة العبارة ومن جودة القياس ، ومن براعة الإفصاح عمَّا يترجرج فى نفسه وضميره – لم يتهيأ لسان الدين بن الخطيب فقد كان هذا شاعرًا كاتبًا

بليغًا على أسلوبٍ غير هذا الذى كان لابن خلدون ، ولم يكن لسان الدين بأقل من ابن خلدون فى إشراق الفهم ورحب الإدراك ، ولكنه كان أقلّ منهُ فى القياس بين النظائر التى كانت تحدث لهُ وهو وزير الدولة أو التى كانت تجدُّ فى الجوّ السياسىّ المتلبّد بغيوم من الدسائس والفتن والأهوال الرائحة الغادية على الدولة وأهلها .

نقل الأستاذ عنان ، قول جمبلوفتش « لقد أردنا أن ندلّل على أنه قبل أوجست كونت ، بل قبل فيكو الذى أراد الإيطاليون أن يجعلوا منهُ أول اجتماعىّ أوربىّ ، جاءَ مسلم تقىٌّ فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراءٍ عميقة وماكتبه هو مانسميه اليوم علم الاجتماع » . واستوقفتنى هذه الكلمات زمنًا طويلًا ترامى فيهِ الفكر ، واستيقظ فى القلب ذلك الإحساس بالظلم والغبن والتجاهل الذى لقيه الفكر العربى فى هذه الأزمان وما قبلها .

إن القرآن نزل على رسول الله ﷺ وحيًا لا شكَّ فيهِ ، بآيات بيّناتٍ فيها حاجة الإنسان المدنىّ العامل الظافر بالسعادتين فى الدنيا والآخرة ، وكان هذا القرآن مادّة العلم العربىّ على القرون ومنهُ استقى ابن خلدون وغير ابن خلدون من علماء هذه الأمة الإسلامية ومنه خرج التشريع العظيم الذى ملأ الأرض عدلًا وكان منهُ ما نسميه علمُ الفقه . ففى هذا العلم تجد علم الاجتماع مفرَّقًا فى مسائله وأحكامه ، ومن رجع إلي كتب الأئمة (المتقدمين خاصة) وجدَ من أُسُس علم الاجتماع ما لا يدعُ شكًا فى نفس أحد من أن ابن خلدون إنما استخرج أسسه (وأسس غيره مما أتى به فى مقدمته) من هذا المورد الذى لا ينفد . ولابدَّ من أن نقول إن القرآن أتى بأسس هذه العلوم مختصرة غير مفصلة وإن الرسول فى حديثه بيَّن بعضها وترك بعضًا للفكر الإنسانى لئلَّا يضيقَ وينحصرَ ويخمد إذا أتاهُ بالتفاصيل كلّها . هذا وليس من المعقول أن يوحىَ الله إلى رسولٍ من رُسله بكلّ شؤون الحياة مفصلة ولئن فعل ، فمن ذا الذى يحفظها ، كما حفظ القرآن والحديث ؟!

من العلوم الإسلامية علم مجهول لا تجد فيه إلا كتبًا قلائل مما نجا من عبث

الأيام وجهل علماء المتأخرين بقدره وخطره ، ذلك هو علم (القواعد) ألّف فيه كثير من الأئمة ، وخير ما ألّف فيه كتاب القواعد (للعزّ بن عبد السلام) وكتاب (ابن رجب) . ففى هذا العلم تجد من روائع الفكر العربى فى علوم الاجتماع والحياة مايبهرك ويفتنك ، وأرجو أن أوفّق قريبًا إلى كتابة كلمات عن هذا فى هذه المجلة .

هذا وحقُّ كتاب الأستاذ عنان أكثر من هذه الكلمة ، لأنهُ بذل فيه من الجهد فى المراجعة والتثبّت والنظر ما عهد فيه ، ولولا أن أحدنا إذا أمسك قلمه للكتابة انفتحت له الأبواب من كل ناحية ، وتطلب كل باب منها مقالة أو أكثر لتركنا النفس على غُلوائها ، وعرضنا للقارىء تفصيلا لما أوجز الأستاذ عنان ، ووقفنا عند كلّ ما يثير فى النفس أفكارها وآراءها وخيالها وآلامها من الظلم والغبن والتجاهل التى نزلت بالفكر العربى .

* * *

٢ – قلب جزيرة العرب

تأليف « فؤاد حمزة » المطبعة السلفية ومكتبتها سنة ١٣٥٢ – ١٩٣٣

قام كثير من الأعاجم الأوربيين ، وجاسوا خلال الجزيرة العربية ، ودرسوا – على قدر ما وفقوا إليهِ – أمر هذه البلاد ، وألّفوا فى ذلك كتبًا كثيرة تشهد لهم بالفضل والبراعة والسبق إلى ما تأخر عنهُ أبناءُ هذه البلاد وأحبّاؤها من أحفادها الذين رحل أجدادهم منها إلى بقية البلاد التى تنطق بالعربية الآن كمصر والشام والمغرب وغيرها . وقد وضع بعض العرب كتبًا عن الجزيرة العربية إلّا أنها لاتفى بحاجة الأمم العربية المتباعدة ، ولا تكشف لهم عن سرّ هذه الجزيرة ، ولا تقوم صلةً بينهم وبينها .

وقد أثار هذا الأستاذ فؤاد حمزة لتأليف كتابهِ (قلب جزيرة العرب) على أتمّ ما رأى من طريقة لتعريف أبناءِ العربية ببلاد العربية ، والأستاذ فؤاد أقرب من ننتظر منهُ الإجادة فى غرض كهذا لأنهُ عربيٌّ يخلص لهذه البلاد ، ثم لأنهُ قد سلخ أعوامًا طوالًا فى قلب الجزيرة (بلاد نجد) وفى الحجاز الذى فاء إلى حُكم ابن سعود النجدى ، ثم هو قد تقلّب على رمالها كما تقلب فى سياستها وأمور دولتها . فإذا كتب فى حال هذه الجزيرة فى أيامنا هذه كان أقرب إلى الإجادة ممن يدخلها سائحًا يخرج منها كاتبًا أو مؤلفًا .

وقد بدأ كتابه بذكر طبيعة الأرض العربية ، وتكوينها الجيولوجى وما فى هذه البلاد من أنهار وبحيرات وغير ذلك من سهولها وجبالها وجوّها وأمطارها وسيولها الكثيرة . وهذا بابٌ واسع جدًّا كان على المؤلف أن يستوفيه لولا ما فى ذلك من المشقة والتعنت ، والحاجة التى لا تتمُّ من الآلات الحديثة التى يصعب نقلها واستعمالها ، وبخاصة إذا كان الذى يقوم بذلك فرد برأسهِ لا أعوان له ولا أنصار . وقد كان من الفرض على الأمم العربية أن تتعاون على ذلك ، إلا أن المآرب السياسية قد عاقت ذلك وأخّرته إلى أجل نسأل الله أن لا يجعله بعيدًا . ثم أتبع

---

* المقتطف ، المجلد ٨٤ ، يناير ١٩٣٤ ، ص: ١١١ – ١١٢

هذا بالكلام على الحالة الاجتماعية فى الجزيرة ، وهذا كسابقه ممالابدَّ لهُ من التوسع حتى يقع فى مجلدات ولكن المؤلف أوجزه على خير ما يكون الإيجاز وعرض فيه للقارىء أهم ما يفكر فيه أو يخطر على باله وأجاد فى ذلك إجادة الخبير الذى شاهدَ وسمعَ وفهمَ كلَّ ماشاهدَ وماسمع بعين عربية وأذن عربية وقلب عربىّ ، ونقول ذلك لأن كثيرًا ممن كتبَ من الأعاجم إنما رأى بعين أعجمية وسمع بأذن أعجمية وتلقف ذلك بقلب أعجمى حتى كثر الخطأُ فى كلامهم ، ثم لأن السياسة كان لها يد ورجل أيضًا فيما كتبوا ودوّنوا من شؤون هذه البلاد الاجتماعية والسياسية .

ويلى هذين البابين ، باب قد استكمل بهِ المؤلّف نقصًا كبيرًا فى فرع من علوم العرب ألا وهو « الأنساب » . فإن علم الأنساب (أنساب القبائل وغيرها) كان من أهم ما امتازت بهِ الأمة العربية ، وقد ألّف المتقدمون فى ذلك الكتب المطوّلة ، واستقصوا فيها أنساب العرب قبيلة قبيلة وبطنًا بطنًا وفخذًا فخذًا ولم يتركوا صغيرًا ولا كبيرًا فى هذا الباب إلّا ذكروه ، ففى هذا الباب حشد المؤلف ما فى الجزيرة الآن من القبائل وفروعها على قدر ما أتيح لهُ ، وتوثّق لذلك من أهل البلاد وعلماء الأنساب فيها وردَّ ما استطاع من هذه القبائل إلى أصولها من القبائل العربية الأولى ، وبذلك وصل بين هوّتين فى تاريخ النسب العربىّ ، وكان أسبق من أخرج للناس هذه الأنساب التى أهملها مؤرخو هذا العصر . فلما انتهى المؤلف من التعريف بالقبائل التى تسكن البادية العربية الآن أوجز تاريخ الحكم الذى مرَّ بهذه الجزيرة حتى انتهى إلى الدولة القائمة الآن – دولة عبد العزيز بن السعود وآله .

هذه ترجمة ما فى الكتاب من العلم ، وبقى علينا أن نقول الكلمة فى قدر هذا الكتاب وغيره من الكتب التى من بابته . فالأُمم العربية الآن تمزقها السياسة الاستعمارية التى تتولى كبرها وتحمل أوزارها أمم الأعاجم من الأوربيين . وقد بلغوا مبلغًا عظيمًا فى التمزيق والتفريق بالدسائس حينًا وبالتعليم الفاسد حينًا ، وبالنكبة القاصمة التى تدفّق علينا سيلها وسماها الناس الجنسيات وتهافتوا عليها كما يتهافت الفراش على حتفه من النار . ولابدَّ للأمم العربية فيما بين الصين إلى

أقاصى الغرب أن تعلم أن الجنسيات فتنة لا يراد بها إلا الشرَّ للعرب أولًا وللشرق الغنى ثانيًا ، أن تعلم أن حياتها فى النصرة والتعاون والتآزر ، وأن تعلم أن لا حياة لواحدةٍ منها ما دامت الأخرى لا تزال على (المشنقة) الاستعمارية ، وأن تعلم أن لا سبيل إلى الحرية إلَّا بالعلم الإنسانىّ الذى يتلقفهُ قلبٌ عربىٌ ليبقى عربيًّا لا ليتحوَّل من عربيتهِ إلى أرجوحة بين العربية والأعجمية . وما من سبيل إلى ذلك إلَّا بإيقاظ الإحساس العربىّ فى كل قلب ، وعقد الآمال على المادة العربية والمجد العربى ، وما من سبيل إلى إيقاظ هذا الإحساس إلا بالتعارف والتكاشف ، وسبيل التعارف الآن هى هذه الكتب التى تكشف للعرب عن خفايا بلادهم وتصل ما تقطَّع من أواصرهم بالمعرفة وفى المعرفة المحبة ، وفى المحبة التآلف ، وفى التآلف التناصر ، وفى التناصر الحرية والاستقلال .

وهذه الجزيرة العربية – على مافيها من الضعف – هى مادة هذا التناصر ، وهى مهوى قلوب الأمم العربية والإسلامية وهى معقدُ الآمال ، وهى حصنُ العرب وإليها تحشد القوى الأعجمية وتدبر الدسائس ، وفيها تلقى الفتن ، وتوقد نيرانُ العداوة بين أهليها ... لأن الأعاجم الأوربيين يعلمون من ذلك ما يتجاهله أبناء العربية أو ما يتورطون فى تجاهله وإنكاره . فعمل الأمم الناطقة بالعربية على التعارف والتكاشف هو عملها إلى الحرية والمجد والظفر بالأمانى والآمال .

* * *

الينبوع

نظم الدكتور أحمد زكى أبى شادى

فى أواسط القرن الرابع بدأ الشعر العربى ينزل درجات ، وكان فى سقوطه يتحسن بأثواب من جمال اللفظ يوارى بها سوآته ويستر عُرَرَه ، وكان الشعراء يتعملون فى استخراج أنواع من البديع والاستعارة والمجاز والإشارة واستوفوا بذلك غاية بعيدة فى تركيب الألفاظ وترتيب الكلام . وبقى الشعر يسفل بعد ذلك حتى نجحت فى القرن الماضى طائفة من الشعراء ردَّت إليهِ شبابه ، وأعادت عليهِ جدته . إلَّا أن هذا الشعر لم يكن بالذى يرضى هذا الجيل الحاضر من الأدباء ، فخرج عليه جماعة ممن تثقفوا بآداب الأعاجم من دول أوربا فبدأت هذه الجماعة تبتدع لنفسها طريقة فى الشعر وذلك بإجادة المعانى وتحسينها وتحقيقها والتوسع فى النظر إلى أوائلها وأواخرها وتابعها ومتبوعها وعلاقاتها بالنفس وآثارها فى القلب إلى غير ذلك من الأغراض . ثم ترى بعضهم قد أهمل اللفظ واستجادته واختياره ، ولم يلقوا بالًا إلى الصيغ العربية التى لا يفهم الكلام إلَّا بها ، ولا ينعقد المعنى إلَّا عليها . وأغلب الظن أنهم يظنون أن هذه العبارة التى ينشئونها تؤدى المعنى الذى أرادوه ، فيلقون بها دون روية أو تثبت ، فإذا جاء القارىء ليفهم الكلام على عربيته لم يخرج بشىء ولا يجدى عليه إلَّا أن يتوهم مراد الشاعر توهمًا . غير أن الحقيقة التى لا ينكرها أحد أن كثيرًا من هؤلاء الشعراء قد انطوت أشعارهم على كثير من جليل المعانى ولكنهم أفسدوها بضعفهم فى البيان وقلة عنايتهم بالأساليب العربية الجميلة التى يطابقون بها بين المعنى الذى أرادوه والصور التى تنشئها هذه الأساليب فى ذهن القارىء البصير . ونحن لا نرى للشعر معنى إلّا بهذه المطابقة بين المعنى المراد والأسلوب المتخذ أداة للتعبير عنه ، وإلَّا فإن المعانى الشعرية لا تزال قائمة فى أنفس الشعراء من أول عهد الإنسانية إلى هذا اليوم ، ولا يتقدم شاعر على شاعر إذا تساويا فى المعانى ، إلَّا بالبصيرة البيانية النافذة التى تقع بهِ على الألفاظ والأساليب التى تطابق المعانى القائمة فى نفسهِ .

---

* المقتطف ، المجلد ٨٤ ، مارس ١٩٣٤ ، ص : ٣٨٠ - ٣٨١

هذه كلمة موجزة أردنا أن نقدم بها لذكر ديوان صديقنا (الدكتور أحمد زكى أبى شادى) الذى سماه (الينبوع) . ورأيى فى شعر أبى شادى أنه جيد المعانى ، فربما أراد هذا الشاعر معنى جليلًا ولكنهُ لا يأخذ نفسهُ بالمطابقة بين المعنى الذى أراده والأسلوب الذى يعرضه فيه ، وهو يعلم ذلك فى شعره فيحتج له ويدافع عنه . ولعلّ الرافعى أراد ذلك حين قال فى كلمة سمعتها منهُ أن أبا شادى (مبتدع طريقة) . وذلك أن أبا شادى قد صار فى شعره على وحى الخاطر (كما يقولون) دون التنقيح والتصفية والاختيار وجعل هذا مذهبًا من المذاهب التى يسلكها الشعراء . وأنا لا أفتات على الرافعى فى مراده من هذا الوصف . ولكن ذكرتهُ كما سمعته فإن أخطأت فى تأويلى فذلك مِن قِبَلى لا مِن قِبَله .

هذا وقد قرأت ديوان أبى شادى الجديد فوجدت فيه نفسه بنشاطها ، وقلبه بشبابِهِ ، عقله بتوثبِهِ ، وعلمه بتنوعِهِ ، فهو أكثر شعرائنا استخراجًا للمعانى ولأغراض المعانى . وأنت إذا أخذت أحد دواوينه أعجبك من شأنه هذا التنوع فى الأغراض التى يرمى إليها بشعره ، وهو فى هذا كثير المعانى الجيدة ، وقد تقع له الألفاظ العالية والتراكيب القوية مما يدلنا على أنه لو توفَّر على الأخذ بأساليب لغته لأخرج لنا فى الأدب العربى أدبًا باقيًا قويًّا ناضرًا جميل الظاهر والباطن .

ويجدر بنا هنا أن ننقل كلمة للجرجانى فى الوساطة فهو يقول عن نظم الشعر ونقده « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ، ترك التكلف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف بِهِ ، ولست أعنى بهذا كل طَبْع ، بل المهذب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة . وأُلْهِم الفصلُ بين الردىء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح » . فهذه الكلمة نسوقها إلى الشعراء ، فإن الشعر إذا كان متكلفًا فى استجادة اللفظ واختيار المعانى لم يكن شيئًا ، وخير الشعر هو المرسل على سجيةٍ ، الآتى مِن طَبْع ، ولكن شرط الطبع والسجية هو هذا الذى قاله الجرجانى فى كلمتِهِ ، ولو اجتمع هذا لشعرائنا لكان لنا من شعرهم فنٌّ تستروح له القلوب وترف عليه الأرواح .

* * *

النثر الفنى فى القرن الرابع

تأليف الدكتور زكى مبارك : جزآن .
مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٢ يطلب من المكتبة التجارية

مما ابتُلى بِهِ النُقَّاد فى هذا العصر كثرةُ الكتب وضيق الوقت فما أظن أن ناقدًا ينصف نفسه وقرّاءَ كلامِهِ يدّعى أنهُ حين يضع بين يديه كتابًا كالنثر الفنى الذى نتكلم عنه بعدُ ، ويأخذ فى قراءَته وتتبُّعه يستطيع أن يكتب عنهُ كلمة وافية فى ساعة أو ساعتين أو يوم أو يومين ، ثم هو بعد ذلك لا يستطيع أن يجعل كل مايريد أن يقوله فى صفحات ثلاث من مجلة كهذه المجلة ، فربما كانت كلمة واحدة مما عرض فى الكتاب تستنفد فى نقدها أو نقضها كلمات تضيق بها عشر صفحات . هذا ماتردد فى نفسى حين حملت القلم لأكتب عن كتاب النثر الفنى فى القرن الرابع .

ولا يعنينى فى هذه الكلمة أن أقول إن فى الكتاب كيت وكيت من الأبواب والفصول فإن المطابع قد سهلت على كل أحد أن يطلع على ما شاء من الكتب مبتذلها وعزيزها ، وإنما يعنينى أن أقول كلمة عن أهم ما عرض فى هذا الكتاب من الآراء التى ينبغى للقارىء أن يمحصها قبل أن يأخذ بها أو يعتقد فى نفسه أمرها أو صحتها .

فمن أوّل ذلك قول المؤلف فى ص ٣٣ من الجزء الأول « هل كان للعرب نثر فنى فى عصور الجاهلية ، وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والأمثال ؟

« لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبى ولا سياسى قبل عصر النبوة ، وأن الإسلام هو الذى أحياهم بعد موت ونبههم بعد خمول . وهذا الاتفاق يرجع إلى أصلين : فهو

---

* المقتطف ، المجلد ٨٤ ، إبريل ١٩٣٤ ، ص : ٥١١ - ٥١٤

عند مؤرخى الإسلام والمسلمين تأييد لنزعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذى خلق العرب خلقًا وأنشأهم إنشاءً ، فنقلهم من الظلمات إلى النور ، ومن العدم إلى الوجود . وهو عند مؤرخى اللغة العربية ، وآدابها يرجع إلى الشك فى كثير من النصوص الأدبية التى أُثرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وسجع وأمثال » .

ولا أريد فى هذه الكلمة أن اعترض على صاحب الكتاب فى وصفه النثر بقوله (الفنى) ولا أن أطالبه بحكمة هذا الوصف وإن كنت قد جهدت أن أجد لها معنى يقوم عذرًا لهُ فى وضعها فأعيانى الطلب . والواقع أنى قرأت الكتاب فلم أعثر فيهِ على حدٍّ أو تعريف لما سمّاه النثر الفنى ، وكلما أردت أن أجمع له حدًّا أو تعريفًا من معنى كلامهِ وجدت فى غيره من معانى كلامه ما يتفارط عنده ماجمعت لهُ من الرأى . وكان صواب التأليف غير ذلك ، لأنهُ جعل هذه الكلمة (النثر الفنى) موضع الجدَل بينه وبين خصومه فى الرأى من المستشرقين ومن تابعهم فى هذا الشرق العربى . وما يقوم الجدل عليه ويقصد القول فيه ، لا يصح أن يكون موضع شك أو غموض أو إبهام أو اضطراب .

يقول صاحب الكتاب « هل كان للعرب نثر فنى ؟ » ونحن نجيب عن هذا السؤال بما نضمنه ما نوافقه فيه وما نخالفهُ عليهِ . فقد كان العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب إلَّا قليلًا من أهل المدن كمكة والمدينة (يثرب قديمًا) وأطراف اليمن ومشارف الشام ونواحى الحيرة ، وهؤلاء الكتاب لم يكن لهم تأثير بيّن فى الأمة العربية لأن جماعة العرب لم تكن لذلك العهد (قبل الإسلام) تعرف الكتابة والخط ولا كان من هممهم ذلك ، ولو افترضنا أن هذا العدد القليل الذى وصف بالكتابة كان يكتب وعنينا أنهُ كان يؤلف ، بقى الأمر على ماهو عليهِ إذ كانوا - على ذلك - يؤلفون لمن لا يقرأ ولا يكتب . ومع هذا فقد كان العرب يتخذون الكتابة فى بعض الأغراض كالعهود والرسائل العظيمة الخطر كالذى يروون مما كتبه لقيط بن يعمر الإياديّ إلى قومه إيادٍ بالحيرة يحذرهم كسرى (سابور ذا الأكتاف) وكان قد أجمع على غزو إيادٍ فأرسل لهم لقيط - وكان كاتبًا بديوان كسرى - قصيدتهُ المشهورة التى يقول فيها :

ياقوم لا تأمنوا إن كنتمُ غُيُرًا　　　على نسائكم كسرى وما جمَعا
قوموا قيامًا على أمشاط أرجلكم　　　ثم افزعوا ، قد ينال الأَمْنَ مَنْ فزعا

ويقول فى آخرها :

هذا كتابى إليكم والنذير لكم　　　لمن رأى رأيهُ منكم ومن سمعا

وقد ورد فى ذكر العهود المكتوبة شعر جاهلى كثير منه قول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى فى الحرب التى كانت بين بكر وتغلب .

واذكروا حلف ذى المَجاز وماقُـ　　　ـدِّم فيه العهود والكفلاءُ
حَذَرَ الجور والتعدى وهل ينقُـ　　　ـضُ مافى المَهارق الأهواءُ

ويعنى بالمهارق كتب العهود والمواثيق التى كانت بين بكر وتغلب أيام الهدنة والصلح .

فنحن لا نستطيع أن ننكر أن العرب كانوا يكتبون ويتراسلون فى بعض الأحايين ، ولكننا نستطيع أن ننكر أنهم كانوا يصنفون الكتب ويؤلفون الرسائل فى الأغراض الكثيرة . ويجب على المفكر فى هذا الأمر أن يعلم أن كلام العرب فى محاوراتهم ومجالسهم وخطبهم كان هو الكلام المتخذ فى الرسائل والعهود وغير ذلك إذ أن هذه اللغة العربية التى بين أيدينا والتى نزل بها القرآن والتى كان يتكلم بها الرسول ﷺ وصحابته رضى الله عنهم كانت إلى القرن الثانى والثالث من الهجرة تؤخذ من أفواه العرب البداة . فلا يعقل بعد ذلك أن يكون فى الجزيرة العربية كُتاب قد تفرغوا للكتابة حتى نسأل هل كان هناك (نثر فنى) أو لم يكن فإن هذا السؤال يقتضى أن يكون فى الجزيرة فئة قد تجردت للكتابة فعلت على غيرها من عامة الناس فى الأسلوب البيانى . هذا والرسول نفسهُ ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يعد أفصح العرب ، وكان من أصحابهِ من يجيد الكتابة كعُمَر وعلىّ وزيد وعثمان رضى الله عنهم ومن يتدبر هذا يجد أن النثر على المعنى المعروف عندنا لم يكن مما تتطلبهُ العرب وتتفرغ له وتتفوق فيه وإنما كان كلامهم كله مرسلًا على سجية واحدة إلّا الشعر فإن الذى ميزه هو الوزن والقافية .

* * *

أما قول صاحب الكتاب أن مؤرخى الإسلام اتفقوا على أن العرب لم يكن لهم وجود سياسى أو أدبى قبل النبوة فهذا قول مرسل لاحد له ، وهو كلام لم يقل بِهِ أحد من العلماء وإنما كانوا يعنون بما يصفون بِهِ العرب من الجهل والضلال ما يتصل بأمر الدين والتوحيد وإلَّا فإنهم قد استشهدوا فى تفسير القرآن نفسه بنوع من كلام العرب وهو الشعر . أما المسألة السياسية والكتلة الدولية فإنهم يعنون بذلك أن لم تكن أمة متآزرة ذات حكم واحد وسيادة متصلة من أعلى الجزيرة إلى أسفلها بل كانت قبائل متنازعة يأكل بعضها بعضًا حتى جاء أمر الله ونزل القرآن على محمد ﷺ ليكون مبشرًا ونذيرًا وهاديًا إلى الله بأمره وسراجًا منيرًا فألّف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانًا وقاتلوا فى سبيل الله حتى فتحوا الأرض واستولوا على ملك كسرى وقيصر . وليس فى هذا موضع للجدال ... ولا اتفاق – كما يقول صاحب الكتاب – يرجع إلى أن مؤرخى الإسلام يقولون ذلك تأييدًا لنزعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذى خلق العرب خلقًا وأنشأهم إنشاءً فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن العدم إلى الوجود ... هذا على أن القرآن قد أخرج العرب حقيقة من الظلمات إلى النور .

ثم إن المؤلف أراد بعد ذلك أن يجعل القرآن أثرًا جاهليًا « فإنه – نسأل الله المغفرة – من صور العصر الجاهلى ، إذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره » ص ٣٨ فلو كان ذلك كذلك فما فعل القرآن بالعرب حتى أخرجهم من الظلمات إلى النور وكيف يجىء ما هو من عند الله مطابقًا لتصورات العرب وتقاليدهم على ما فيها من الطبيعة البشرية الضعيفة الهالكة الجاهلة . وهذا القرآن الذى يعدُّهُ صاحب الكتاب أثرًا جاهليًا هو الكتاب نفسه الذى أعجز عرب الجاهلية جميعًا وتحداهم وطالبهم وسخر منهم ووضع من آلهتهم وحقَّرها وأثار أحقادهم وأضغانهم . ولو كان هذا القرآن قريبًا من كلامهم أو شبيهًا بِهِ لما عجز بعض بلغائهم عن الإتيان بمثل سورة من سورهِ كما طالبهم بذلك وتحداهم . ونحن لا ننكر أن كل ما فى القرآن من لفظ إنما هو من ألفاظ العرب كما أن أكثر الألفاظ كتّابنا الآن بل كتّاب القرن الرابع الذى يتكلم عنه صاحبهُ إنما هى ألفاظ عربية ،

ونحن لا نعدُّ أسلوبنا أو أسلوب القرن الرابع فى النثر مقاربًا أو شبيهًا بالنثر الجاهلى فكذلك القرآن من النثر الجاهلى بهذه المنزلة ، فألفاظ القرآن هى الألفاظ العربية ولكن نظمه وسياقه وبلاغته ومواقع كلماته المعجزة لا صلة بينها وبين أى كلام من كلام البشر فى جاهلية أو إسلام .

ولماذا يعدُّ صاحب الكتاب هذا القرآن من النثر الجاهلى ، ويتخذه دليلًا على وجود النثر فى الجاهلية مع أن الحديث النبوىّ وكلام الصحابة المروىّ بالأسانيد الصحيحة الثابتة هو أقرب فى الأدلة وفيهِ بغية صاحب الكتاب . فأنت إذا قرأت السيرة وجدت كثيرًا من كتب الرسول إلى القبائل والأمم وؤلاة جيوشهِ ووجدْت أكثر من ذلك فى كلام أبى بكر وعمر وعلى وعثمان وغيرهم من أهل الجاهلية الذى أسلموا واتبعوا الرسول النبىّ الأمىّ ﷺ .

القرآن كتاب الله ، فإذا أردنا أن نبحث عن الأدلة عن النثرِ الجاهلىّ فهو فى كلام الصحابة والرسول نفسه .

هذا ونحن نعتذر إلى القراءِ عن تقصيرنا فى الكتابة عن كتاب النثر الفنىّ فإنّ لهذا موضعًا آخر إن شاءَ الله .

* * *

مقاليد الكتب

١ – ديوان عبد المطلب

قامت بطبعه ونشره مطبعة الاعتماد سنة ١٩٣٤
وقف على طبعه الأستاذ محمد الهوارى وشرحه
وصححه الأستاذان (إبراهيم الأبيارى) و(عبد الحفيظ شلبى)

كان عبد المطلب رحمه الله – على كثرة ما يعاودهُ من الأمراض – فتيًّا تسمع لحديثه رنّات مجلجلات كأنما يتكلم وحده فى بيداءَ تتداعى أصداؤها ، وكانت الكلمات العربية الخالصة تتحدّر من لسانِه ومن بين شفتيهِ وعليها ميسم العرب الخُلَّص إلَّا فى قليل من الحروف ، وذلك القليل هو حرف (الضاد) فإنى كنت أسمعهُ ينطقه على لهجتنا (أعنى أهل مصر) كأنهُ دالٍ مفخمة [١] ، وكان الرجل فى إحساسه بوداد أصدقائه كأنما خلقت أعصابه كلها من المادة التى يُخْلَق منها القلب الرقيق الوفىُّ ، ولذلك كان أهون الناس عداوةً على الرغم مما ترى من شدتهِ وجفائهِ فى الخصومة ، ولذلك أيضًا كان أحسن الناس تقديراً لمعاصريه من الأدباء لا يداخله فى ذلك حسدٌ . هذا الإحساس الرقيق وحده كان هو موضع الشعر فى عبد المطلب ، فإذا صعب على أصحابنا من الأدباء أن يعدُّوا شعر عبد المطلب كله من عالى الشعر فى هذا العصر ، فليس منهم من يستطيع أن ينسى أن رجلًا من الرجال اسمهُ عبد المطلب رحمة الله عليه كان كما خلق إنسانية من الشعر لا إنسانًا من الشعراء .

وأنا حين أقرأ شعر عبد المطلب لا أشك ساعة فى أمرين . أما أحدهما : فكون هذا الشعر ليس من النمط العالى الذى تقوم بهِ البلاغة العربية فى هذا العصر وإن كان هو من حيث العربية وعلومها من جيد الكلام وجزلِه ورصينهِ ومحكمهِ .

---

* المقتطف ، المجلد ٨٥ ، يوليو ١٩٣٤ ، ص : ١١٤ – ١١٥

(١) أما النطق العربى الصحيح (للضاد) فهو قريب الشبه بالظاء مع اختلاف المخارج فإن مخرج الضاد من أول حافة وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر وهذا الحرف يستطيل فى النطق به حتى يتصل بمخرج اللام وهو الحرف الوحيد الذى يسمى (المستطيل) لما فيه من القوة بالجهر والإطباق والاستعلاء . (شاكر) .

فإن اتساع الفكرة فى هذا الزمن ثم بساطتها ثم خفاءِ موضع الفلسفة العالية فيها ، ثم تغلغل النظرة الفلسفية إلى أعماق الحقيقة الحية فى الكون هو رأس ما يمتاز بهِ كبار الأفذاذ والبلغاءِ فى عصرنا هذا . وهو النوع الذى لم تعرفهُ العربية إلَّا فى القليل من شعرائها ، وفى القليل من شعر هؤلاء الشعراء . وليس فى العربية من هذا النوع إلَّا معجزتان : إحداهما القرآن ، والأخرى ماصحَّ من حديث الرسول ﷺ ففيهما وحدهما تبلغ الفكرة فى نفسها ، ثم بتعبيرها وألفاظها ، ثمَّ بشمول معانيها لجميع الحقائق الواشجة بها ، ثم بسريانها من ألفاظها وكلماتها مسرى الرَّوْح العطر فى جوّ السَّحَر ، ثم فوق ذلك كله البساطة واللين والتقارب والتعاطف بين هذه المعانى كلها – نقول يبلغ هذا كلهُ مبلغًا يكون منه ما هو كنسيم الجنة فى طيبه ونعمته ، ويكون منه ماهو كحزّ المواسى فى علائق القلوب ، ويكون منهُ ما هو كالنار تستعر وتتلذع ، ويكون منهُ ما ينتظم البنيان الإنسانى البليغ المتفهم فيهزُّه هزّ الزلزلة أعصاب الأرض وبهذا كان القرآن معجزًا لا يأتيه الباطل من بين يدية ولا من خلفه ، وبمثله كان حديث الرسول ﷺ هو ذروة البلاغة البشرية التى تتقطع دونها أعناق الرجال ..

* * *

أما الأمر الآخر الذى لا أشك فيه حين أقرأ شعر عبد المطلب ، فهو هذه الحياة التى تترقرق فى شعره وإن كان هذا الشعر نفسهُ على النمط الذى يسمونه (التقليدى) ، فهو يصف الإبل ويتغزل لافتتاح القصيدة ثم يتخلص من غزلِه إلى المدح أو أى غرض كان من أغراض الشعر إلى غير ذلك من الملامح التى يحفظها هذا الشعر الحديث لشعر آبائنا رحمهم الله فى عصورهم الماضية . فالعجب أن يكون عبد المطلب وهو الرجل العربى الذى احتفظ بعربيته فى القرن العشرين يحاكى شعر أجدادنا وأجداده ولا يخرج الشعر من فكره فاترًا ميتًا بل يخرج وهو يتحرك وينبض وكأنهُ شعر عصره الذى كان يمكن أن يقال فيه هذا هو العجب . وهو عندى الدليل الوحيد على ماكان فى نفس عبد المطلب رحمة الله عليه من أسباب الشعر ومادته الحية .

فكانت مقدرة هذا الرجل الشاعر فى نقله صورة من القرون الماضية وحياتها إلى القرن العشرين ... نقل هذه الصورة ولم يدعها كما أتته بل أرسل فيها من شاعريته ، ما أحياها ونفخ فيها الرُّوح حتى لايشك المرءُ فى أنها لا تزال حية بين يديه مع اختلاف الأزمان عليها وتطاول العصور بها . ومن هنا كان يسمى نفسه بالشاعر البدوىّ لأنهُ هو الذى استطاع فى شعره أن يعطينا صورة حية من إنسانية قد مضت ونفذَ بها الأجل فى ثوب من العربية الفصيحة التى لا عجمة فيها ولا فساد .

* * *

هو هذا الشاعر البدوى كما بدا لنا قبل أن نقرأ ديوانهُ مجموعًا وبعد أن قرأنا ديوانهُ مطبوعًا فمن شاءَ أن يختار لدراسة الشعر القديم أستاذًا يهديه فليرجع إلى ديوان عبد المطلب فسَيَسْهُل عليهِ بعد ذلك أن يحسّ بجمال الشعر البدوىّ حين يقرؤه لامرىء القيس وغيره من شعراء الجاهلية ومن جاءَ على آثارها . وليعذرنا القارىء إذا بدا له أنّا لم نختر لعبد المطّلب ما نثبته فى هذه الكلمة ، فإن باب الكتب فى هذا الشهر لا يحتمل أكثر مما كتبنا ، وليرجع إلى الديوان نفسه وليقس على ماقلناهُ فسيجد ذلك صوابًا - إن شاءَ الله .

* * *

٢ – مرشد المتعلم

تأليف السير (جون آدمز) أستاذ التربية بجامعة لندن سابقًا – وترجمة الأستاذ (محمد أحمد الغمراوى) خريج المعلمين العليا وجامعة لندن والمدرس بكلية الطب – من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر بدار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤

الأستاذ الغمراويُّ كما عرفتهُ من سنين رجل موفق فيما يتعمده من الأمور ، مرتَّبُ الحديث كأنما يحدثك عن كتاب ، واسع الفكرة بسيطها حتى ليخيل إليك أحيانًا يتكلَّمُ بكلام يتداولهُ الناس لا عمل للفكر الدقيق فيهِ ، ولكنك إذا راجعت نفسك فيما تسمع رأيت التوفيق معانًا بالترتيب ، مقدَّرًا بالفكرة ، محفوفًا بالبساطة والحرية والجمال . وإذا أردت أن تتبيَّن ما وصفنا لك فاقرأ كتابًا يؤلفهُ رجلٌ يدرّس الكيمياء ويريق عليها من شبابه ، فى باب يتباعدُ ما بينهُ وبين الكيمياء وهو الأدب . اقرأ كتابهُ الذى ألّفهُ فى ردّ الرأى الذى أذاعهُ الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلى فسترى كيف (يحلل) هذا الكيميائى كتاب الدكتور طه ويصنف لك فى (تحليله) أنواع الجراثيم الفكرية التى وقعت فيهِ ، ويقيدها لك بسلاسل من العلم ، ويضع لك الدواءَ الذى يذهب بها ويميتها ونحن لا نقول هذه الكلمة لننتصر برجل على رجل ، بل نقولها لأن الحقيقة تفرض علينا أن نقول ذلك وأن ندعو – ما تعرَّضت الفرصة – إلى قراءة هذا الكتاب الذى لا غنى لأحد من الأدباء عنهُ لأنهُ هو الكتاب الذى أدخل فى الأدب دقة التحليل الكيميائى ومزج بين الفكرة العلمية المتلبِّثة المتَثَبِّتَة وبين الفكرة الأدبية الخيالية الجامحة وأخرج منهما (مزيجًا) شافيًا لما انتشر عندنا من الأمراض الأدبية الكثيرة .

قلنا إن الغمراوى رجلٌ موفّق فمما رأينا من توفيقه اختياره كتاب (مرشد المتعلم) للترجمة فإن المتعلمين فى مصر وغيرها من بلاد العربية بل الذين يعدُّون أنفسهم من شيوخ المثقفين وكبار النابغين !! هم أحوجُ الناس فى الإرشادِ إلى مثل هذا الكتاب . ولعلّ كثيرًا من الذين يسمعون قولنا هذا أو يقرأونه يكبر عليهم أن

* المقتطف ، المجلد ٨٥ ، يوليو ١٩٣٤ ، ص : ١١٦ – ١١٧

يكون ذلك كذلك . ولكن هذه هى الحقيقة لا تحجبها عنا إلَّا كبرياء النفس المتعالية . لقد كان القدماء من آبائنا رضوان الله عليهم يتخذون من شيوخهم أمثلة يسترشدون بها ، وكانوا أقدر منا على ذلك لشدة تعلق الطالب منهم بشيخه من العلماء فهو يتشبه به ما استطاع ، يسأله عن أشياء من صغائر العلم وأدب طلبه ، يستحى أحد طلبتنا الآن أن يسأل عنها أباه أو أخاه أو أستاذه . ثم أن العلماء من المتقدمين كانوا يعمدون إلى طريقة بارعة فى التدريس وهى التى يسمونها (التوقيف) ومعناها أن يدلَّ الشيخ ولده أو مريدهُ من الطلبة على أصول الشىء الذى يتلقاه عنه ويبسطها له ويدربه عليها ، ثم يتركه يقيس عليها ثم يصحح له قياسه إن أخطأ . ولا يذهبنَّ بأحد أن هذا يشبه ما يسمونه الآن (بالتطبيق) فإن الفرق بينهما بيّن وليس هنا موضع تفصيل ذلك .

فهذا التوقيف الذى كان يقال فى الأيام الماضية ، لا يقيد بالكتاب قد جاء فى كتاب السير جون آدمز طرف بارع منه حاوٍ لأكثر ما يحتاج إليه المتعلم صغيرًا وكبيرًا أو كما يقولون (من المهد إلى اللحد) ، فهذا هو الباب الأول من التوفيق فى ترجمة هذا الكتاب .

ثم يلى ذلك الباب الثانى من التوفيق وهو فى طريقة الترجمة ، فإن المترجم حين تعرض لها لم ينسَ ماينساه جمهرة المترجمين فى هذا العصر ، وهو مقدار التخالف بين الأمة التى ألف لها ثم فيها الكتاب وبين الأمة التى يترجم لها وفى بلادها هذا الكتاب بعينه . وهذا أمر حتم على كل من يتصدّر للترجمة ، فربَّ مضرة استجلبها المترجم على قارىء كتابه بنسيان مقدار هذا التخالف بين الأمتين . ولكن الغمراوى أمسك المفتاح بيده وأداره فى الكتاب كله فتسنت له وللقراء من بعده مغاليق الرأى ، وكانت الفائدة أجل وأعظم وأوفى . وسيرى قارىء الكتاب حين يتمشى فى صفحاته المثمرة كيف وفق الغمراوى كل التوفيق حين ترجم هذا الكتاب .

أما التوفيق الثالث فهو أسلوب المترجم فى كتابه وهذا أمر يفرغ من الاقتناع بهِ كل من يقابل صفحات من الأصل الإنكليزى بأخواتها من الترجمة .

أما خير ما وفق إليهِ المترجم فهو الفصل الأخير وهو الملحق بالفصل السابع من أصل المؤلف وفيه ذكر كتب المراجع فى العربية . وذلك أن الفصل السابع عند مؤلف الكتاب كان فى كتب المراجع الإنجليزية فاستدرك الغمراوى ما يفوت غيره واستوفى بابًا هو أول ما رأيته مما كتب عن المراجع التى يحتاج إليها طالب العلم العربى . لم يترك مؤلف هذا الفصل بابًا من أبواب العلم العربى المتداول بين الناس إلّا ذكر لك فيه طرفًا من الكتب الأولى التى لا يستغنى عنها متعلم أو متخصص فى علم بعينه . ونحن لو ذهبنا نستقصى توفيق هذا الرجل فى ترجمة كتابه أولا ثم فى الفصل الملحق ، وذكرنا من الحوادث والأخبار التى تذكرناها حين قرأنا فى فصوله ، مما يدل على حاجة كبار المثقفين منا إلى الاسترشاد به لأدخلنا الضيم على صفحات نقد الكتب من هذه المجلة . فقصارى ما نعمل هنا أن نحمل شكر الأمة العربية إلى هذا المترجم البارع ثم نسأل الله أن يزيده فيما هو بسبيله توفيقًا وهدى ، وأن يهدى قراءنا وأدباءنا إلى الاستفادة من (كتاب مرشد المتعلم) فإن فيه – إن شاء الله – رى النفس ، وهدى العقل ، واطمئنان القلب إلى طريقة محكمة فى التحصيل والتفكير .

* * *

٣ – مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام

تأليف الأستاذ محمد بن عبد الله عنان .

طبعة ثانية بدار الكتب المصرية سنة ١٣٥٢ – سنة ١٩٣٤

ظهر هذا الكتاب من عدة سنوات فلقى من الانتشار وأُلقى عليهِ من المحبة ما لا تبلغه كثير من الكتب العربية التى تطبع فى بلادنا . وسبب ذلك على الأرجح ما لهذا الغرض بعينه من الشوق فى قلوب الناس من أهل الشرق . فطغيان الحياة الأوربية التى تنقل إلينا على ظهور البواخر كل يوم وعلى ظهور الآدميين وعقولهم وشهواتهم بما فيها من الفساد والضعف والانحلال ، وبما فيها من العلم والقوة والنبوغ أيضًا ، .. هو من أهم ما يحفز أكثر المثقفين المفكرين إلى درس المواقف التى كانت سبب التحاجز بين أمم الغرب والأمة العربية المسلمة ، تلك المواقف التى جعلت للتاريخ الإسلامى صورة ينساها أبناء الإسلام ، ويحقق النظر فيها علماء الأمم المسيحية ليأخذوا منها العبرة الباقية على مدى العصور واضحة جليلة مفصحة مبينة .

المواقف الحاسمة التى وقفت من سيل المسلمين بدينهم ومرَّنت الأمم المسيحية على خُلُق المسلمين وآدابهم وعاداتهم وشيء من دينهم ، كانت ولا تزال مادة للتاريخ الحى الذى يجب على كل شرقى أن يوجد العناية بهِ فى نفسه إن كان لا يجدها ، وذلك لما فيها من مفاخر السلف العاملين ، وفى هذه المفاخر أصول للقدوة والاتباع فيها إنقاذ الحياة الشرقية من الفوضى والجهل ، واستخلاصها من براثن الاستعمار الذى لا يدع للقوىّ قوة يفزع إليها ، ولا للضعيف عدة يستنصر بها .

ولعلَّ أول مَن اعتنى مِن كتّاب العصر الحديث بهذا هو الأستاذ محمد عبد الله عنان فقد كتب كتابه هذا باذلًا أقصى الجهد فى تحقيق ما هو بسبيله من التاريخ على قدر ما يكون فى طاقته مخلصًا فى ذلك كل الإخلاص . ولهذا

* المقتطف ، المجلد ٨٥ ، يوليو ١٩٣٤ ، ص : ١١٧ – ١١٨

الإخلاص يغتفر له من يقرأ كتابه بعض الزلات . ولهذا نفسه كان هو أول من رجع على فصول كتابه بالتعقيب فنقّح منها وزاد فيها ماصحَّ له من العلم . وهذا وحده فخر عظيم للأستاذ يجعله دائمًا فى طليعة من يريد العلم للعلم ، لا للشهرة والاسم .

ولا نزيد قراءنا تعريفًا بالكتاب وكاتبه ، فالكتاب قد أخذ قسطًا وافرًا من الشهرة فى الأمم الشرقية والعربية ، والكاتب له فى قلوب الشرقيين مكانة ومودة . ويبقى علينا أن ننبه إلى شيء جديد وهو أن هذا الكتاب يكاد يختلف اختلافًا كبيرًا عن الطبعة الأولى منه ، لما فيه من الفصول التى أضيفت له ، وما دخله من التغيير والتنقيح حتى أصبح كتابًا مستقلًّا يضارع الطبعة الأولى منه . فلا غنى لمن يملك الطبعة الأولى عن اقتناء الطبعة الثانية ، ونرجو أن يوفق الأستاذ فى طبعته الثالثة إلى إضافة فصول جديدة وإدخال تنقيح جديد فى أبواب كتابه ، فما من كلمة يكتبها أحدنا اليوم وإلاّ ويصبح وقد بدا له فيها . وهذا هو السر فى تجدد العلم . وهو سرُّ العقول النابغة التى لا تفتر ولا تمل .

* * *

« ملوك الطوائف ، ونظرات فى تاريخ الإسلام »

تأليف دوزى (المستشرق) وترجمة الأستاذ كامل كيلانى .
نشرته مكتبة عيسى الحلبى وشركاه سنة ١٣٥٣ و ١٩٣٤

دوزى مستشرق معدود فى الطبقة الأولى من الأعاجم الذين صرفوا قلوبهم إلى دراسة العربية ومافيها من الكتب . و« بعد » فقد كتبنا فى مقتطف مارس سنة ١٩٣٣ أن الأمة العربية ابتليت ببليتين : أولاهما ، أنهُ لم ينتدب أحد من أهل هذه اللغة إلى التنقيب عن آثار الأمة العربية التى طويت فى أرضها بين يمنها وشامها وحجازها وعراقها ومصرها ومغربها وما سوى ذلك ، والأخرى : أنهُ لم يخفَّ أحد إلى دراسة كتب العرب ولمِّ شتاتها واستخراج ما خفى من أساليب العرب وأحوالها وعاداتها فى الاجتماع والأدب واللغة حتى جاءنا فى هذا العصر أصحاب الألسنة الأعجمية من دول أوربا بأقوالهم فى تاريخنا وأدبنا ودينا بالكلام الجيد تارةً والفهم الملتوى والتعليل الفاسد تارةً أخرى .

فهذا الكتاب الذى ترجمهُ الأستاذ كامل كيلانى وتنَصَّل من الإثم فيه بقوله « إذا كان العلاّمة فخر الدين الرازى يقول فى مقدمته لشرح « الإشارات » لابن سينا : « إن التقرير غير الردّ ، والتفسير غير النقد » فما أجدرنا أن نقول « والترجمة غير النقد » . نقول هذا الكتاب قِسْمان : الأول ماكتبهُ دوزى عن ملوك الطوائف والآخر فصول من كلام دوزى فى تاريخ الإسلام . والأول أهونهما خطرًا وأقلهما خطأً والآخر ماهو إلَّا تركيب فاسد قد اجتمع لهذا المستشرق من (استخراج) فاسد من كتب التاريخ الإسلامى وغيرها وترقى فيها بالخديعة الكتابية إلى تأليف كلام يشبه التحقيق العلمى وما هو منه فى شىء . وهذه عادة هذه الفئة من المستشرقين الذين يتعرضون لتاريخ الإسلام ورجاله ، لا يتورعون عن عرض آرائهم فى أسواق الكتب ثم لا يبالون إلَّا بالنسج الذى نسجوه غير ناظرين إلى الحقيقة العلمية .

ولقد قرأت هذا الكتاب ووقفت على ما فيه من مواضع الخطإِ وأحصيت عليه

---

* المقتطف ، المجلد ٨٥ ، أكتوبر ١٩٣٤ ، ص : ٢٥٢ - ٢٥٤

الآراء التى ترفق فى عرضها وأخذ يلوكها مرة ثم مرة مجمجمًا غير مصرّح ، وكنت على عزيمة تبيانها للقارىء ولكنى رأيت أن ذلك مما يستنفد معنا فى هذا الباب من المجلة صفحات كثيرة ، ثم وجدت أن الأستاذ « محمد أمين هلال » قد سبقنى وكتب فى جريدة البلاغ مقالات دقيقة اطلعت على الرابعة والخامسة منها ، وقد وقف فيها عند ما وقفت عليهِ ودافع كلام هذا المستشرق بالحجة الصحيحة ، وأوثر أن أنقل إلى القارىء هنا جزءًا من كلمة الأستاذ « محمد أمين هلال » التى نشرت فى بلاغ (الثلاثاء ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ - ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٤) لما فيها من الفائدة .

« يظهر أن اتهام رجال العرب الفاتحين - خصوصًا فى الدولة الأموية - بالوثنية والحنين إلى عهودها كان صدًى لما كان يشيعه أعداء الإسلام من أنهُ دين وثنى وأن المسلمين جماعة من الوثنيين تغلبوا على الأرض المقدسة ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص ولقد رأينا هذه الأقوال الكاذبة ينشرها دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة إبان الحروب الصليبية ، فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قصُّوا على قومهم أن أعداءَهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة ومجاملة .

« ونحن إذا تخيرنا من بين خلفاء الأمويين - الذين يتهمهم العلّامة دوزى ببغض الإسلام - أبغضَ هؤلاء الخلفاء وأبعدَهم عن قلوب المسلمين وهو يزيد بن معاوية مثلًا نجده كان يعمل للإسلام ويأمر قواده بذلك فقد حدثنا التاريخ أن عقبة ابن نافع عامل يزيد لما فتح بلاد البربر وسار إلى السوس الأقصى حتى وصل إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) قال « يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدًا فى سبيلك » وأنه لما سار إلى (تهوذا) ورآه الروم فى قلة طمعوا فيهِ فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام ثم تكاثروا عليه وقتلوه .

« ورأينا قتيبة بن مسلم عامل الحجاج بن يوسف « المشهور بغطرسته وقسوته » يخطب فى الناس ويقول لهم : إن الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد لكم المال استفاضة والعدو قمعًا ، ووَعَدَ نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ ووعد المجاهدين

فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ * ثم أخبر عمن قتل فى سبيله أنهُ حى يرزق فقال ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ * فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمض ألم وإياى والهوينا !

« وقتيبة هذا هو الذى تلقاه ملك الصَّغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب ودعاه إلى بلاده وكذلك فعل ملك كفتان وأنصف له مِن مَلِك أَخْرُون وشُومان [1] وكتب إليهِ الحجاج يقول : إذا غزوت فكن فى مقدم الناس وإذا قفلتَ فكن فى أخرياتهم وساقتهم ، حتى فتح بلادًا واسعة نشر فيها الإسلام فأخرجت العظماء من كتّاب المسلمين وفقهائهم ومحدّثهم وعلمائهم .

« وهذا أشرس بن عبد الله السلمى عامل هشام بن عبد الملك على خراسان أرسل لأول عهده إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك إلى الإسلام وحين كتب إليه أمير سمرقند إنهم لم يسلموا إلَّا تعوذًا من الجزية . قال له مَن اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه . وقد روى عن يوسف بن عمر عامل هشام على العراق أنهُ مع إسرافه فى العقوبة كان طويل الصلاة ملازمًا للمسجد ضابطًا لحشمه وأهله . وكان يصلى الصبح ولا يكلم أحدًا حتى يصلى الضحى . ولقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب .

---

(١) كفتان ، أَخرون ، شُومان ، بلاد بالصغانيان وبالقرب منها وراء نهر جيحون . ولم أجد من ضبط الموقع الأول ، أى : كفتان ، وذكرها الطبرى جميعا فى غزو قتيبة خرسان فى حوادث سنة ٨٦ ، جـ ٦ ، ص ٤٢٥ (طبعة دار المعارف) .

« وهذا قل من كثر من موقف خلفاء الأمويين وعمالهم إزاء الإسلام وعملهم على نشره والترويج له فى غير عنف ولا شطط ، أفبعد هذا يقول عنهم قائل « إن تلك الأقلية العربية التى اضطرت إلى الإسلام اضطرارًا وأكرهت على الدخول فى هذا الدين إكراهًا ، عرفت كيف تثأر لنفسها حين سنحت لها فرصة الانتقام فتقاضت ثمن ذلك الفوز مضاعفًا وشفت غلة صدورها المكتومة » أ هـ .

هذا وكنا نراه لزامًا على مترجم الكتاب الأستاذ كيلانى أن يتعرض لهذه المواضع ولا يتنصل منها ، نعم نحن نقول معه أن الترجمة غير النقد ، ولكن ذلك صحيح حين يترجم للعلماءِ دون غيرهم ، أما حين يظن فى كتاب مترجم أنهُ مما يقع فى أيدى الناشئين ، فلا ... إن أبناءَنا فى المدارس المصرية من ثانوية وعالية لا يعرفون عن مثل عمرو بن العاص إلَّا أنهُ فتح مصر ، وعن عمر بن عبد العزيز أنهُ كان خليفة وعن فلان وفلان مثل هذا أو أقل ، فكيف نترك مثل هذه الآراء الفاسدة غذاءَ ألباب الذين يريدون من أبنائنا أن يقرأوا كتابًا سهلًا دانى الثمرة . وهم لا يعلمون من التاريخ دقائقه ولا من الإسلام إلَّا كلمات حفظوها لا تبلغ بهم درجة من العلم فيهِ . والمترجم الذى يقول فى مقدمة كتابة للقراء إنى قد آثرت نقل هذه الفصول من دوزى « لتبيان وجهة تفكير عالم أوربى كبير ، وهى – وإن خالفت آراءَنا أحيانًا فى بعض مناحيها – جديرة أن تقرأ بعناية فائقة » الذى يقول هذا يجب عليهِ أن ينقد المغالطات والمفاسد بعناية فائقة كذلك فى زمن قد اجتمعت فيهِ على التاريخ الإسلاميّ عناصر الفساد والإفساد من كل ناحية . بل فى زمن نحن نتهيأ فيهِ لإعادة المجد الضائع والحق المغتصب بفقه ما كان عليهِ أسلافنا فقهًا صحيحًا لا يميل إلى الخرافة ولا يشطُّ مع التقليد والتورط والفساد . أقول هذا وأنا أشكر المترجم على ما أضافهُ إلى قليل علمنا عن آراء هذه الفئة المستشرقة التى نفعت العربية نفعًا كبيرًا بحفظ كتبها ونشرها حين أضاعتها أبناؤها وعموا وصمُّوا ثم عموا وصموا ، ولولا رحمة الله بمن نشأ فينا وأحيا بعض مجد العربية لغمرتنا الموجة الطاغية التى وقانا الله بعض شرّها .

* * *

الإسلام والحضارة العربية

تأليف الأستاذ كرد على . لجنة التأليف والترجمة والنشر .
مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ الجزء الأول

اللهم إنى أسألك السّداد ... وبعد فلو ذهبت استقصى للقارىء ما نما بنفسى وأنا أقرأ فصول هذا الكتاب لخرجت بهِ من حدّ عرْض فكرة الكتاب إلى بسط فكرتى عن الإسلام وحضارتهِ والعرب وثقافتهم التى اختبأت فى دمائهم وعقولهم وألسنتهم من أقدم عصور التاريخ ثم تنفست بالإسلام كما يتنفّس الفجر ضوءًا وحياةً وهمةً وشبابًا وأنا هنا أجمع بين الأمرين على مايحفُّ بذلك من عنتٍ ومشقة .

والمؤلف الجليل الأستاذ كرد على يقصُّ على القارىء فى مقدمته قصص كتابه فيقول « لما قرر المجمع العلمى العربى « يعنى بدمشق » انتدابى إلى تمثيله فى مؤتمر المشرقيات الذى عقد فى مدينة ليدن من بلاد القاع فى صيف ١٩٣١ رغَّب إلىّ أعضاؤه المفكرون أن أُلْقِى فيه جملة أعرض فيها لما لا يزال يسرى على أسلات أقلام [(١)] بعض مؤلفى الغرب ، ولا سيما علماء المشرقيات ، من أمور نابية عن حد التحقيق والنصفة ، كلّما ذكروا الإسلام وأهله والعرب ومَدَنيتهم » . ثم يقول .

« وسبيل هذا الموجز الآن ، تصحيح هفوات من أساؤا وما برحوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم ومدنيتهم ، وذكر ما أثرته الحضارة العربية فى أمم الغرب والشرق ، وما منى بهِ الإسلام ، لما غيَّر أهلُه ما بأنفسهم ، من خصماء غير رحماء ، نالوا من روحه وجسمه ، فالتاثت أحواله ، وتنكرت معالمه ، والإلماع إلى ماقام بهِ المسلمون بعد طول الهجعة ، يلوبون [(٢)] على استعادة مجد أضاعوه ، وعلقوا اليوم يقطعون إليهِ أشواطًا ، حتى لم يبق أمامهم غير مراحل لبلوغ الغاية » .

---

* المقتطف ، المجلد ٨٦ ، يناير ١٩٣٥ ، ص : ١٠٩ – ١١١

(١) أَسَلات الأقلام : أطرافها .

(٢) لاب (كقال) : استدار حول الماء وهو عطشان للوصول إليه ، واستعمله هنا على سبيل الاستعارة .

فى هذا الكفاية لمن يريد أن يكون رجلًا عربيًا من نسل ذلك الشعب العجيب الذى بدّد جيوش الأمم الطاغية فى أول أمر الإسلام ، وأنشأ على أنقاضها اجتماعًا إسلاميًا عربيًا كلهُ محبةٌ وعطفٌ وعدلٌ . وفى هذا الكفاية وفوق الكفاية للذين يتولون أمر التعليم فى الأمم العربية ليهبّوا من غفلتهم ، وينظروا إلى مايحاط بهِ مجدهم من كيدٍ وقتالٍ .

إن العار أن يقضى الشاب من أول نشأته إلى آخر خروجه من دراسته – أعوامًا طوالًا يدرس فى أثنائها تاريخ نابليون وأمته ، وفلانًا وفلانًا من أفذاذ الأمم الغربية ، وهو لا يعرف من ماضى أمته العربية إلّا نتفًا تذهب مع الأيام . هذا الماضى الذى يصوره الذين يتعرضون للتاريخ من مستشرقين يقولون غير ما يعلمون أو يقولون فيما لا يعلمون ، أو عربٍ قد فسدت قلوبهم على تاريخهم فهم يستقيدون لآراء عن تاريخهم كلها بهتانٌ وتدليس . هذا الماضى الذى يصورون فى صورة مسخٍ تاريخى هائل قد خرج على الدنيا كما يخرج الوباء ثم انقشع عنها فأعقبها صحة وعافية أو كما يقولون !!

إلّا أن الضلالات التى أحاطت بالتاريخ العربى والإسلامى لهى من أسوإ الضلالات وأشدها وأعصاها على العلاج . فإذا لم يتنبه العرب والمسلمون إلى تاريخهم تنبه المريد إلى ما يريد انماثوا فى الأمم ذات الهمم كما ينماث الملح فى الماء وأضحوْا بددًا لا يجتمع لهم شمل ولا يؤول آخرهم إلى مجد أول يلوذ به أو يستعصم .

هذا وقد استوقفنى من كلام الأستاذ كرد على الذى رويته آنفًا قوله يذكر « ... ماقام به المسلمون بعد طول الهجعة يلوبون على استعادة مجد أضاعوه ، وعلقوا اليوم يقطعون إليه أشواطًا حتى لم يبق أمامهم غير مراحل لبلوغ الغاية » !!

إنى لأقرأ هذه الكلمات فتتمثل لعينى (خريطة) العالم العربى الإسلامى من أقصى الشمال إلى أدنى الجنوب ومن مشرق الشمس إلى مغربها ، وأعرض قول الأستاذ على أمةٍ أمةٍ من بلادنا فلا أجد قوله يرتاح إلى واحدة منهنَّ . هذه هى السلاسل وهذه هى القيود ، وهذه بعض الأمم تمرح فى طول من سلاسل الحديد

طرفها بيد المستعمر فيخيل إلى الناظر أن ما بهذه الأمم من المرح والنشاط هو انحلال من السلسلة وما هو به إن هو إلّا بعض الغفلة التى نحن فيها إلى الأذقان مقحمون . إن الأشواط التى قطعتها هذه الأمم فيما يسمى حضارة أو ثقافة هى غير الأشواط التى يجب أن نقطعها إلى الحضارة والثقافة ، وإن السبيل التى مضينا فيها غير السبيل التى فرض علينا سلوكها إن أردنا أن نبلغ غاية يقال لها « لم يبق أمامنا غير مراحل » .

أين الأمة الإسلامية العربية التى يريدها الأستاذ على ما فهمنا من فحوى كلامه ... ؟ أين الرجل العربى المسلم الذى يرتفع فى الجو كما ترتفع الطائرة التى تحمل أسباب الموت ودلائل الحياة ثم ينقضُّ كما تنقضُّ القذيفة من عليائها فلا تذر من شيءٍ إلا أتت عليه فجعلتهُ هشيمًا تذروه الرياح .

إن أمامنا مراحل أولها مهد الطفل العربى الرضيع . وآخرها هذا القبر فاغرًا فاه يلتقم ماتمضغه الحياة من الأبدان العربية ذات السيادة والحضارة والإخلاص والعدل .

فانظر إلى هذا المهد الذى لا يخرج منهُ إلّا الضعيف والمهزول والأعزل الذى لا سلاح لهُ فى الحياة ، وهذا الذى ينام على هدَّاتِ الجبال وقصف الرعود وخواطف البروق ، وهذا الذى يمشى حيران ليس لهُ هادٍ ولا دليلٍ ، وهذا العود الخرِع الجميل الذى يتثنى ويتبرج « تبرُّج الأنثى تصدَّت للذَّكر »[(١)] كما يقول ابن الرومى .

ثم انظر إلى هذه المدرسة التى لا يخرج منها إلّا الأدعياءُ وأشباهُ الأدعياء ممن استودعوا جماجمهم عقولًا غير عقولهم ، وأذهانًا غير أذهانهم ، وصاروا أتباعَ كلّ ناعق .

ثم انظر إلى هؤلاءِ وقد ساروا فى سبيل الحياة والعمل كما يسيرُ ذوو العاهات

---

(١) هذا صدر البيت ، وتمامه :

تَبَرَّجَتْ بَعْدَ حَياءٍ وخَفَرْ تَبَرُّجَ الأُنْثَى تَصَدَّتْ للذَّكَرْ

فمنهم الأعرج والأكتع ومقطوع الساقين ، والأعمى الذى لا يهتدى والفيلسوف الذى لا يعقل ...!؟ .

ثم انظر وانظر ... هل ترى إلّا أقوالًا ملفقة لبست ملابس الفلسفة والعلم والأدب ، وتكلمت بها أفواهٌ تتعاقل على الناس وليس لها من ورائها عقلٌ مستوٍ قد قرّر معنى المجد أو الحرية أو الإخلاص أو المعنى الذى يتبع الإنسان أينما سار أو حلّ ، ذلك المعنى العظيمُ الذى لا يغفلُ عنهُ إلّا من لا حياة فيه ألا وهو الموت .

إنى لأبكى ..... وآسى ... و ... إلخ حين أذكرُ هذا ، واعلمُ أنى أتكلم بمثل هذا عن أمةٍ أنا منها وهى منى ، وإنى ليحزننى أن لا أجدَ مندوحة عن القول ، ثم لا أجدُ معدًى عن استقصاءِ التصريح فى هذا القول . فإن الدنيا كلها تسيرُ وتعدُّ من أسباب القوة والجبروت ونحن لا نجد لدينا من أسباب ذلك إلّا ألسنة ... !! وما تنفع الألسنة فى زمن ألسنته غير هذه التى خلقها الله وسوّاها من لحمٍ ودَمٍ .

إذا أردنا أن نكتب هذه الكلمة التى كتبها الأستاذ فنقول « قد قطعنا أشواطًا ونحن إلى الغاية ولم تبق إلّا مراحل » فإن أمامنا أهوالًا وأهوالًا لابدّ من ملاقاتها والتمرُّس بها تمرُّس المصارع المفتول الساعدين بالأسد الهصور الجائع الذى يريدان يملأَ معدتهُ ليتضلع من طعامهِ ويبسط إهابهُ العضل فى ضحى الشمس تمامًا لمتاعهِ ولذتهِ .

البيتُ العربىُّ الإسلامىُّ الذى يخرج رجلًا يقفُ فى مهبّ الريح يملأُ رئتيهِ من الهواءِ النقى استعدادًا لطلب العيش الذى هو المجد .

والمدرسة العربية الإسلامية التى تخرج رجلًا كالأسطول المدرع بالعلم والفلسفة والخُلُق والقوة البدنية والمكتسبة والتى هى الحرية .

والاجتماع العربى الإسلامى الذى يفرضُ على كل رجل أن يعمل ثم يعمل فى غير وهن ولا ضعف باذلاً روحهُ الفردة فى غير شح ولا بخل لتنالَ الأرواحُ جميعها الحياة المتوَّجة بالمجد والمحفوفة بالحرية والتى هى السيادة .

إن لكل أمة تطلب مجدها وحريتها وسيادتها أسلوبًا متبعًا وسبيلًا مقررة

لا عوَجَ فيها ولا أمْت [١] ، فلنطلب لأنفسنا أسلوبًا وسبيلًا ولننشىء بيوتنا ومدارسنا واجتماعنا نشأة أُخرى غير هذه التى نحن عليها من التقليد المريض الذى ذهب بشبابنا واستهلك مادة الحياة فينا .

هذا التاريخ الذى يصححهُ الأستاذ كرد على فى كتابه هو أولُ ما يجبُ على البيت والمدرسة والصحافة والاجتماع أن تصححهُ فى أذهان الأطفال والشبان والمثقفين من الرجال والنساء . وهذا الأسلوب الاجتماعى الذى نعيش فيه يجب أن يغير من أوله إلى آخره حتى يصبح رجولةً عارفةً متثبته لا تهزل ولا تغفل . وهذا الموج الزاحف علينا من أقطار الأرض بالفتن والبدع لابد من تقديم الحيطة له فى العقول والأبدان . وإلاّ فنحن إلى هلاك لا إلى غاية لم يبق منها إلّا مراحل .

إنى لأرى فى هذا الكتاب الذى بين يدى أنواعًا من الفكر وألوانًا من القول كلها يؤدى إلى مثل الذى نقول به ونعمل له ، وهو دليل نافع لكل من يريد أن يقف على حقيقة مايحيط بأمته من الكيد والطمع ... ولا أرى لعربى فضلاً عن متعلم فضلًا عن مثقف وفضلًا عن رجل يطلب المجد والحرية مندوحة عن الاستفادة منهُ مع التاريخ الذى يردُ شرعته من أصوله وكتبه .

إن أمامنا المراحل كلها إلى غاية المجد فلنبدأ بتكوين ما يؤدى إليها وإن فى حقائق ما يحيط بنا لحافزًا إلى العمل والإخلاص والنهوض والمبادرة إلى ما ليس منهُ بُدٌّ . وإن فى التاريخ العربى لعبرة وإن فيه لأمثالًا من المجد والعدل ، وإن فيه لصورًا من الحرية يجب أن يتمثلها كل عربى – مادام حيًا – بين عينيه أنى سار وحيثما نزل وفى هذا الكتاب أطرافٌ من كل ذلك . فلعلّ الله يحدث لنا من بعد هذا ذكرًا فى العالمين .

* * *

---

(١) العوج والأمت بمعنى .

وَحْيُ القلم

لمصطفى صادق الرافعى : جزءان : ٨٠٨ صفحة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٥ - سنة ١٩٣٦

الرافعى كاتب حبيب إلى القلب ، تتنازعهُ إليه أسباب كثيرةٌ من أخوة فى الله ، ومن صداقة فى الحب ، ومن مذهب متفق فى الروح ، ومن نية معروفة فى الفن ، ومن إعجاب قائم فى البيان ومن هنا ومن ثمّ لا أدرى من أين تبدأ ولا أين تنتهى . فأنا حين أريد القول فى صداقتهِ أو فى إيمانهِ أو فى حبه أو فى بيانه أو فى فنهِ أجدنى كالمهموم إذا ابتدأ لهُ همٌّ تداعت إليه الهموم من كل جانب ، فأضع القلم وأرفعهُ وأديره وأتلوى بهِ لأن المعانى تتلوى بى فى سبيل مَضَلَّة ، فأرانى أتحاشى القول خشية الغلوَ أو خوف التقصير . وقد تكلفت شططًا وحملت نفسى على ما لا تطيق وأنا أكتب عن « وحى القلم » ، لئلاًّ أغلو فى الرافعىّ فيقال : معجب غلا بهِ إعجابهُ ، أو أقصر فيهِ فيقال : صديق شقيت به أصحابه .

كانت سنة ١٣٤١ - سنة ١٩٢٣ - فقرأت للرافعىّ كتابةُ « المساكين » فنازعتنى نفسى إلى مراسلتِه لأصل ما بينى وبينه ، فكتب إلىَّ كتابًا رقيقًا كنور الفجر ، ثم مضت الأيام ولقيت رجلًا كهلًا قد اشتعل الشيب فى رأسه ، خفيفًا قد أخذت منهُ الأيام ، صامتًا قد أسكتهُ الفكر ، ثم قيل هذا الرافعى . فيوم ذاك عرفتهُ ، فإذا هذا الكهل شباب مشتعل يتوهج ، وإذا هذا الخفيف قوة مستصعبة مستمرة لا تلين ، وإذا هذا الصامت لسانٌ عربيٌّ مبين . ثم هو بعدُ صديق أنت من صداقته فى مثل الروضة تفيء إلى ظلها ، وتستنشى شذاها ، وتصاحبها وتصاحبك فتمسح عن قلبك الحزن بالرضى والفرح ، ما لا تمسح صداقة الناس ممن ترى وتعرف .

وهنا سر الرافعى كلهُ ، سره فى فكره ، وسره فى علمهِ ، وسره فى بيانهِ ، وسره فى فنهِ وذاك هو سر المؤمن إذا ارتفعت عن قلبهِ الحجب ، وسقطت عن عينهِ الغشاوة ، وارتفع بهِ الإيمان عن أشياء الأرض إلى أسرار السماء ، فلا تجد

---

* المقتطف ، المجلد ٩٠ ، فبراير ١٩٣٧ ، ص : ٢٥١ - ٢٥٣

الدنيا منهُ ما يحده أو يطغيهِ أو يلفتهُ ، فهو بصيرة تنفذ ، وقوة تعمل ، وإخلاص يجلو ، وجمال يحب . وهذا هو سر الأسلوب الذى انفرد بهِ الرافعى .

والرافعى كاتب قد استولى على الأمد فى مادة الكتابة ، فاللغة عنده مادة للتعبير لا مادة للحفظ والاستعمال ، فهو قد قرأها قراءة البصير ليرى الفروق الخفية بين اللفظ ومرادفهِ وليعلم حق اللفظ من العبارة ، وحق العبارة من الألفاظ ، فيظن بعض من لا قدرة لهُ أن الرافعى يريد الإغراب على الناس فى كلامهِ ، واستجلاب الغريب من اللغة للتفاصح ، وما بهِ ذلك ، وإنما هى المعانى ... المعانى عند الرافعى هى التى لها حق اختيار الألفاظ من لغتهِ . وهو لا يأخذ ألفاظهُ من المعاجم وإنما يأخذها من سليقته التى صقلتها المعاجم . وقد أكثر الناس من نقد الرافعى زمنًا ووضعوا عليهِ من أوهامهم غشاءً آذاهم ولم ينفعهم ، وحجتهم فى ذلك هذه اللغة التى أحيا الرافعى مواتها ببيانهِ . وما اللغة ؟ أهى الألفاظ قائمة بالمعانى التى وضعتها لها المعاجم ووقفت عندها ؟ إن هذه ليست بشىء ، وماهى إلا أداة كالسيف . فالسيف على جودتِه لا يعمل إلا أضعف العمل ، فإذا أخذتهُ أنت وجعلت تتدرب بهِ وتمرن ساعدك عليهِ ، وعرفت كيف تجيد الضريبة وتصيب المقطع ، كان لهُ أقوى العمل ، لأن السر فى ساعد منتضيهِ وبصره وحيلتهِ لا فى حدِّه وعارضَيْه .

واللغة لا تقوم بغير فكرة ، والرافعى قد استولى على أصولها ، بقوة الإدراك وشموله وترامبه ، وبالقدرة على الإبانة عنها باللفظ المتصل الماضى الذى لا ينقطع دونها ، وبسمو الخيال وتراحبه واستطالته . فالرافعى يدمن على الفكرة الواحدة إدمان الفيلسوف الصابر الثابت بين إدارتها وتطبيقها وبسطها وردها إلى أصول مقررة فى الحياة ، ثم لا يزال يجمع بينها وبين قرائنها ، ويحدد فرق ما بين القرينين ماظهر من ذلك وما استتر ، ثم يصحح النظر فى الأصل الذى يردُّ إليهِ أفكاره تصحيح الحكيم المقرر حتى لا يقع بينها التدابر والاختلاط والفساد . ولا يزال على ذلك يقيد ويطلق ويأخذ ويدع بقانون طبيعى فى نفسه ، فلا يترك الفكرة إلّا وقد ولدت لهُ صغارًا من الأفكار فيها من الجمال والسحر والقوة الكامنة

ما للطفل الصغير الوديع الجميل ، وإذا الفكرة الأولى التى أدمن عليها أمٌّ فيها هيبة الأُمومة العاملة المخلصة وحنانها وروعتها ووقارها .

وهناك أسرار الفن فى بيان الرافعى فمنها إدراك الجمال السامى غير المبتذل ، فهو يدرك الجمال فى الجميل لأنه يعرف أسرار جمالهِ ، ويدرك الجمال فى القبيح لأنهُ يعرف أسرار قبحهِ . فالجمال عندهُ فى السر والجوهر وأصل البناء لا فى العرض ، وكذلك الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة وما إلى ذلك ، هى كلها عند الرافعى موضوع للأسرار فهو لا يقف عليهاوقفة المتشبّث بل يهزها من أصولها ليخرج أسرارها ، فإذا فعل كتب صفة الشيء الحى بكلام حى فيهِ قوة المقاومة والقدرة على البقاء ، وكل الأسباب التى تضمن لهُ الحياة الفنية والبيانية .

ثم لا يقف الرافعى عند ذلك بل لكل هذا مكان آخر يصل إليهِ فيصهره ويذيبهُ ثم يرده فى صورة فذة ، ذلك هو الإحساس القوى المشبوب . فهو يأخذ الفكرة بلغتها وعقلها وسرها من إحساسهِ هو لا من إحساس الناس ، حتى إذا آمن بها إيمانًا لا مطعن فيهِ استعان بإيمانه القوى على انشائها إنشاءً مبتدعًا خاصًّا موسومًا بسمة صاحبهِ ، تلك السمة التى تسمى « أسلوب الرافعى » .

كلُّ ذلك بعض العمل البيانيّ الذى يتدفق من لسان هذا الرجل . وإن لهُ خاصّة عجيبة إذا تكلم فى الاجتماع العربيّ الإسلاميّ فى هذا العصر مابين خُلُق وعلم وعمل ودين ، هى هذه الروعة المستعلنة المنصبَّة على معانيها كنور الشمس. وسرُّ هذه أنهُ يحسُّ ويفكّر وينقد ويبيّنُ بقوة ثلاثة عشر قرنًا من التاريخ الإسلامى ، ويحسُّ بإحساسها ، ويدرك أفكارها ، ويعرف أسرار فضائلها ورذائلها ، وأسباب قوتها وضعفها ، وقد أحاط بكثير من أصول القانون الطبيعيّ الذى يجمعُ ويفرّق ويضبط وينشر ، ويزيد وينقص فى هذه الأمة الرابضة فى قلب الشرق .

أما الرافعيّ المحب فهو رجلٌ وحدهُ سام عن الإسفاف ، مشرق كالنجم ، صاف كأنهُ مرآة مجلوّة ، ثم فرحٌ كأنهُ أملٌ يتحقق ، باك كأنهُ عضوٌ يُقْطَع ، متألم كأنهُ محارب باسلٌ ينهزم ، ثم لا يزال على ذلك – الرجلَ الجلْد القويَّ الذى

لا ينكسر ولا يتحطم ، ولا تتدنَّى بِهِ القوة الغالبة ، قوّة اللذّة الإنسانية القَرِمة [١] المتشهّية . لذلك يخلو حبُّ الرافعيّ من الفجور الفنى ، وإنما يصف الرافعى المحبُّ فجور الرجل والمرأة ليسمو بالرجل الفاجر ويخرجهُ من سلطان لذتِه ، ويصف فجور المرأة ليهديها ويطهرها وينزهها وينصفها من ظلم الرجل الفاجر . ولهُ على ذلك قدرة قَلّ أن ينالها كاتب ممن نعرف .

وأما الرافعى ربيبُ الشّعب ، فهو الواصف البليغ الذى يستطيع أن يجمع آلام أمة مظلومة فى ألفاظٍ تتألم ، ويؤلف آلام المساكين فى كلمات تبكى ، ويحصر سخط المستعبدين من الفقراءِ فى حروفٍ تبكى وتتألم وتتسخط وتتشفى وتبغض وتسخر من هذا الاجتماع الذى استعبدهم وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا . فهو فى هذه « ترجمان القلوب المتحطمة » .

وأما الرافعى الساخر ، فهو الكلمة القصيرة التى تبلغ مالا تبلغهُ الثورات المسلحة ... وأما الرافعى فهو الرافعى الذى لاتعرفه حتى تقرأه وتصبر على ملازمتِهِ ، وتعطيه من نفسك لتأخذ من بيانهِ ومن فنّهِ ومن بلاغته ومن فكره ومن حكمته . فهو كاتب حكيم قوى فلا يجدر بك أن تأخذ كلامه على النظرة الطائرة كما تقرأ مقالة فى صحيفة يومية لتستفيد ، بل اقرأه لتحس وتنفذ إليهِ وتهتز معهُ ثم تستفيد .

اقرأ « وحى القلم » تجد الرجل الذى حدّثناك به ، وتجد البيان الغضَّ القوى المتدفق الذى يثير فى نفسك التاريخ اللغوى المكتوب فى دمك بالوراثة ، وفى قلبك بالحب ، وفى إحساسك بالأهوال النفسية التى تمر بك . فإن بيان الرافعى إذا تدبرتهُ وتدبرتهُ أيقظ فيك البيان لأنه بيان حر غير مقلد ، وأوحى إليك بالفكرة المستحكمة والعبارة المجوّدة لأنه بيان سام غير مقيد ، ثم يلهمك القدرة على التفكير ، والإبانة لأنه « وحىُ القلم » .

* * *

---

(١) القَرَم : التشهى للذائذ ، وأصله فى اللحم والنساء .

علم معانى أصوات الحروف

سر من أسرار العربية

نرجو أن نصل إلى حقيقته فى السليقة العربية

(١)

هذا بابٌ من أصول اللغة لم يَرْمِ إليه أوائلنا – رضى الله عنهم – إلَّا إشارة مبهمة ولمحة خافية أو نبذًا مهضومًا ، فهم لم يجردوا لهُ أنظارهم ، ولم يحتفلوا لتقصيهِ وتتبعه واستظهار طرائفه ، وهم حين أشاروا أو ألمحوا أو نبذوا ، لم يلموا إلَّا بأطرافه وحدوده ، فلم يغمضوا فى قلبه وسره ومعدنه ليستنبطوا منهُ أسراره المستكنة تحت ألفاظ العربية . ومعانى هذا الباب مما يقتضى القارىء فضل تدبر وصبر وتقليب وتثبت حتى ينفذ إلى حقيقته ، ويستولى على ما يتعسر من أصولهِ ، فإذا فعل فقد أدرك منهُ طرفًا صالحًا يستعين بهِ على التوسع فى معرفة حده وغرضِه ونتائجهِ ، ويعيننا فى تحقيق ما نرمى إليهِ من تفسير ألفاظ العربية بدلالة الحروف على معان أصلية ثابتة فى طبيعة أصحاب السليقة العربية الأولى الذين تلقينا عنهم بيان هذا اللسان العربى المبين .

وأنا أريد بقولى « معانى أصوات الحروف » ، ما يستطيع أن يحتمله صوت الحرف – لا الحرف نفسهُ – من المعانى النفسية التى يمكن أن تنبض بها موجة اندفاعه من مخرجه من الحلق أو اللهاة أو الحنك أو الشفتين أو الخياشيم ، وما يتصل بكل هذه من مقومات نعت الحرف المنطوق . وليست المعانى النفسية – أو العواطف أو الإحساس – هى كل مايستطيع أن يحتمله صوت الحرف ، بل هو يستطيع أن يحتمل أيضًا صورًا عقلية معبرة عن الطبيعة ومافيها من المادة ، ومايتصل بذلك من أحداثها أو حركاتها أو أصواتها أو أضوائها أو غير ذلك مما لايمكن استقصاؤه إلَّا بعد طول الممارسة لوحى الطبيعة فى فطرة الإنسان ، وبعد مدارسة اللغة ومفرداتها على أصل دقيق من هذا الباب ، والاحتفال فى كل ذلك للتدبر والاستقصاء ومداورة اللسان على مخارج الحروف مع حسن التفطن

---

* المقتطف ، المجلد ٩٦ ، مارس ١٩٤٠ ، ص : ٣٢٠ – ٣٢٥

للمعانى الأولية التى يمكن اعتمادها أصلًا لمعنى الصوت فى حرف حرفٍ من حروف اللسان العربى .

وأنا لا أدعي لنفسى درَك هذا الذى قدَّرت من « علم معانى أصوات الحروف » ، ولا أنى وصلت بالفكر فيه إلى حيث أُريد ، ولا أنى قد حشدت لهُ جهدى كلهُ حتى أصل إلى استقصاء المعانى التى تضمرها أصوات الحروف . كلَّا بل هذا جهد كنت بذلته قديمًا والنفس ساكنة قارَّة هادئة ، إذ كانت مَخِيلةً لطول النظر وحسن الإصغاء لهواجس العاطفة وألحان الطبيعة ، وقد حاولت أن أقيد كل خاطرة بقيد لا تتفلت من جوامعه ، ولكن الأيام انتزعتنى ورمت بى إلى حومةٍ تتسعر وتضطرب وتطغى بضجيجها على فترة النفس واجتماعها على الهَدْأَة والهوينا والسُّكون ، فكذلك ذهب أكثر ما تلقفته من المعانى نهبًا ضائعًا بين النسيان والغفلة وقلة المبالاة وطول الإهمال . فلما رغب إليّ أخى الأستاذ « فؤاد صروف » أن أعود إلى الذى تركت من ذلك ، أقبلت على فكر قديم لم تبق عندى غير أطلالهِ وظلالهِ ، فأتممت منهُ مانقص على قدر ما بلغ بى الشوق إلى إنقاذ هذه الخواطر من الضياع والبوار . فأنا أكتب هذا الباب الآن ليكون قيدًا لمعانيهِ يحبسها حتى تبقى فى مواطنها لا تضيع ولا تشرد ، ورجاء أن يقع عليهِ من يحسن أن يتصرف فيهِ بقوة ونشاط وتجويد ، أو من هو أمثل منى بمدارسة اللغة والوقوف على أسرارها ، والتهدى إلى مسالكها وغوامضها ، والاستنباط لينبوع هذا العلم بالبصيرة النافذة التى لا تخطىء مظنة الفائدة ، ولا تضل عن جوهر المعانى المطموسة فى ظواهر الحروف .

وينبغى لنا أن نقدم بين يدى الكلام فصولًا من القول تكون بها الفائدة ، ويسهل معها تقريب هذا الباب إلى من يحتمله ، ونحن نقصد فيهِ إلى السهولة والوضوح ، فإن ممن يقرأه ، ويرجى لهُ أن يصل إلى حقائقهِ ، من لا يستطيع أن يقف على الأصول التى يرتد إليها نسب هذا الكلام ، من كتب القراءات وكتب اللغة ، وأصول كتب النحو والبلاغة وغيرها مما يتصل بسبب إلى أصل العربية والكشف عن مدارجها .

فينبغى إذن أن نفرق أولًا بين الصوت والحرف . فالصوت نَفَسٌ مقذوفٌ من الجوف إلى الحلق إلى الفَم يخرج مدفوعًا مستطيلًا متصلًا حتى يعرض له فى طريق استطالته أو اندفاعه مايثنيِه أو يقفُه أو يردّده أو ينكّسهُ ، وإنما يعرِضُ له ذلك فى الحلق أو الفم أو الشفتين أو الثنايا والأضراس مع اللسان ، أو فى الخيشوم أو فى أعلى الحنَك ، على اختلاف فى مواقع النَّفس من كلّ هذه الأعضاء . فحيث يعرضُ للنَّفَس المقذوف من الجوف ما يقفهُ أو يقطعهُ عن الامتداد والاستطالة والاندفاع ، فيسمَّى هذا المكان « مقطعًا » وإذن فلكل مقطع يقطع النَّفَس عن استطالته جَرْسٌ يتميز من جرَّاء اختلاف نوع الصوت حيث ينقطع . فانثناء النَّفَس على المقطع أو وقوفه أو تردُّدهُ أو ارتداده أو انتكاسه يحدث من الجرس مانسميه « الحرف » .

ولسنا نستطيع أن نعرف مقاطع الحروف وما تحمله من الجرس على براءَته إلَّا أن تأتى بالحرف ساكنًا لا متحركًا وذلك لأن الحركة نفسها حرف من الحروف ، فإن الفتحة « ألف » مختلسة ، والضمة « واو » مختلسة والكسرة « ياء » مختلسة [١] ، وكأنها حرف ساكن يمد حرفًا متحركا ولا يبرأ مقطع الصوت « أى الحرف » من شائبة الاختلاط بمقطع صوت غيره إلّا حين يكون ساكنًا لا تحفزه الحركة عن مستقرّ انقطاعه ، ولا تميل بهِ إلى الحرف الذى هى بعضهُ وجزءٌ منهُ مع اختلاس الصوت وسرقتهِ وكبحه عن الوصول إلى مستقرّ انقطاعه هو أيضًا .

فإذا عرفت ذلك ، وعرفت أن الحرف الساكن لا يوصَل إلى النطق بهِ مفردًا مجردًا من حركة تلحقهُ أو حركة تحفزه ، لم تجد بدًّا من أن تستبدل الحركة التى تعين على النطق بوسيلةٍ أخرى تؤدى إلى تمكينك من قطع الصوت حيث لايختلط بمقطع حرف غيره من الحركات الثلاث . وليس يوصَل إلى تحقيق ذلك الصدى

---

(١) كان المتقدمون من أصحاب النحو قبل أن تقرر مصطلحاته ، يسمون الفتحة « الألف الصغيرة » والكسرة « الياء الصغيرة » ، والضمة « الواو الصغيرة » ، وذلك لأنك إذا أشبعت الفتحة فى قولك مثلًا « سعد » وكسرت العين لاجتناب التقاء الساكنين صارت « ساعد » ، وكذلك باقى الحروف . فهذا أسلوب جيد من النظر فى حقيقة الحركات . (شاكر) .

الصوتى للحرف مع تجريده إلَّا أن تدخل على تَأَهُّبِك لدفع الصوت همزة مكسورة قبله ، فتقول مثلا فى الشين والقاف والجيم والفاء والزاى ، « إشْ » ، « إقْ » « إجْ » « إفْ » « إزْ » إلى آخر الحروف . وإدخال الهمزة هو التحقيق والصواب وذلك لأن صوتها يبدأ من الجوف ثم يعتمد على أسفل الحلق وأقصاه ثم يحفز ما يشاءُ بعد ذلك من الأصوات ، وكذلك لا يختلط بأىّ الأصوات التى تريدها وتحتال لها لأنهُ أول أصوات الحروف . ثم الهمزة المكسورة أحق بالإثبات هنا من المفتوحة والمضمومة . والعلة فى ذلك أن « الفتحة » إن هى إلَّا ألف مختلسة تجد عندها الصوت بريئًا من الضغط والحصر لانفتاح الفم والحلق ، « والضمة » واو مختلسة يضمُّ معها معظم الشفتين على شدة الضغط والحصر ، وكلا هذين إذا مارسته ودارسته – وجدته يدخل المؤونة عليك فى اعتبار صدى الحروف عند منقطع الصوت . أما « الكسرة » وهى الياءُ المختلسة المسروقة من أصلها فإنما يقع ما فيها من الضغط والحصر على مجرى الأصوات كلها ، وذلك أنك ترى الأضراس تكاد تنطبق على جنبتى اللسان فتحصره بينها ويجرى الصوت معها ممتدًّا مستطيلًا فى الفم كله على يسر ، فكذلك يسهل أن ترمى بها أول الحرف لتحفزه إلى أى مقاطع الصوت شئت ، فهى إذن لذلك أولى أن تكون حافزَ النّفَس لأحداث الصدى الذى يتميز بِهِ كل حرف من حروف النطق .

فإذا عرفت ذلك ، وعرفت أن مقاطع الصوت متنازعة بين الحلق إلى الشفتين والخيشوم على تدرُّج واطراد فى منقطع الصوت ومكان اصطدامه أو انفلاته أو تفشّيه ، رأيت أن ثمة ترتيبًا لابدَّ منهُ للأصوات على مقتضى تدرُّج انقطاعها فى أى مكان من آلة النطق التى هى اللسان وما يحيط بِهِ . ونحن نجتهد أن نأخذ ذلك عن التجربة التى نحدثها بأنفسنا ، وما وصل إلينا من تحرير المتقدمين من أصحاب العربية لبيان مقاطع الحروف وصور منطقها .

فالحروف أو الأصوات حيث تنطق تتميز على هذا الترتيب فى اطرادها :

الهمزة [١] ، الألف [٢] ، الهاء [٣] ، العين [٤] ، الحاء [٥] ، الغين [٦] ، الخاء [٧] ، القاف [٨] الكاف [٩] ، الجيم [١٠] ، الشين [١١] ، الياءُ [١٢]

الضاد [١٣] ، اللام [١٤] ، النون [١٥] ، والراء [١٦] ، الطاء [١٧] ، الدال [١٨] ، التاء [١٩] ، الصاد [٢٠] ، السين [٢١] ، الزاى [٢٢] ، الظاء [٢٣] ، الذال [٢٤] ، الثاء [٢٥] ،والفاء [٢٦] ، الباء [٢٧] ، الميم [٢٨] ، الواو [٢٩] .

فهذه هى حروف العربية التسعة والعشرون على التصاعد من الحلق إلى منقطع الشفتين غير ناظرين إلى ما يدخل بعضها من المد والإخفاء والتفخيم والإمالة وغير ذلك من الأعراض التى تلحق الصوت من قِبَل انقطاعه واصطدامه . واعلم أنك إذا أردتَ أن تسير فى ذلك على طريقة مستقيمة فلا بد لك من أن تأتى بهذه الحروف ساكنة قبلها همزةٌ مكسورةٌ للعلة التى ذكرناها آنفًا ، ثم كرّر ذلك ، وتصور صوت الحرف وردده وتمثل قوته أو ضعفه أو لينه أو استرخاءَه أو تفشيه أو انحرافه أو استطالته ، حتى يتأتّى لك أن تعرف بالمدارسة موقع انقطاع صوتهُ الذى يحدث عنهُ الصَّدَى المتردد الذى يتميز بِهِ الحرف مما يلابسهُ أو يدانيه أو يقع على بعض موقعه .

وقد تقصَّى شيوخنا من أئمة اللغة مخارج الحروف ، ولابدَّ لنا هنا من ذكر هذه المخارج لحاجتنا إليها فيما نستقبل من كلامنا عن معانى أصوات هذه الحروف ، وسنثبتها على الترتيب الذى رأيت قبل للحروف العربية نفسها .

« المخرج الأول » من أسفل الحلق وأقصاه مع اطلاق الهواء ، وفيه : الهمزة [١] ، والألف [٢] ، والهاء [٣] .

« المخرج الثانى » من وسط الحلق مع إطلاق الهواء وفيه : العين [٤] ، والحاء [٥] .

« المخرج الثالث » من أدنى الحلق إلى أن يرتطم الهواء المقذوف بأول الحنك الأعلى وفيه : الغين [٦] ، والخاء [٧] .

« المخرج الرابع » من طرف اللهاة وأقصى اللسان مما يلى الحلق مرتطمًا بالحنك الأعلى بعد ذلك وفيه : القاف [٨] .

« المخرج الخامس » من طرف اللهاة وأقصى اللسان مرتطمًا بمقدم الفم من الحنك الأعلى وفيه : الكاف [٩] .

« المخرج السادس » من وسط اللسان مع تفشى الهواء وضغطه إلى وسط الحنك الأعلى وفيه : الجيم [١٠] والشين [١١] ، والياء [١٢] .

« المخرج السابع » من أول حافة اللسان من الجانب الأيسر وحصر الهواء إلى الأضراس التى تلى هذا الجانب وفيه : الضاد [١٣] .

« المخرج الثامن » من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه ودفع الهواء عن جانبيه محصورًا فى الحنك الأعلى مما فوق الضاحك والناب والرباعية والثنية وفيه : اللام [١٤] .

« المخرج التاسع » من طرف اللسان بينه وبين فويق الثنايا العليا وانبعاث الهواء إلى الخياشيم وفيه : النون [١٥] .

« المخرج العاشر » من طرف اللسان بينه وبين فويق الثنايا العليا مع تحرف اللسان وإطلاق الهواء وحصره وترديده فى تجويف اللسان وفيه : الراء [١٦] .

« المخرج الحادى عشر » من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مع ارتطام الهواء بالغار الأعلى من الحنك محصورًا مع الإلانة وفيه : الطاء [١٧] ، والدال [١٨] ، والتاء [١٩] .

« المخرج الثانى عشر » من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مع تحرف اللسان وإطلاق الهواء وحصره وترديده والتصفير به فى تجويف اللسان إلى الثنايا السفلى وفيه : الصاد [٢٠] ، والسين [٢١] ، والزاى [٢٢] .

« المخرج الثالث عشر » من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا مع إطلاق الهواء فى فروج الأسنان إلى اللثة ونبذ أسلة اللسان إلى خارج الثنايا وفيه : الظاء [٢٣] ، والذال [٢٤] ، والثاء [٢٥] .

« المخرج الرابع عشر » من باطن الشفة السفلى مع قذف الهواء إلى الشفة العليا من بين الثنايا العليا وفيه : الفاء [٢٦] .

« المخرج الخامس عشر » من الشفتين بعد قذف الهواء من الجوف وانطباق الشفتين عليه قبل ندوره وخروجه ، أو خروجه مع استدارة الشفتين وانطباق أكثرهما وفيه : الباء [٢٧] ، والميم [٢٨] ، والواو [٢٩] .

فهذه خمسة عشر مخرجًا لحروف العربية على الترتيب والتوالى والاطراد قد وصفناها ، ولم نلم بكل الفروق بين الأحرف المشتركة المخارج ، وهناك مخرجان آخران لا بأس من ذكرهما هنا ، وإن كان الرأى عندنا فيهما غير ما ذهب إليه كثير من أئمة العربية ، وبهما تتم المخارج سبعة عشر مخرجًا .

« المخرج السادس عشر » وهو ملحق بالمخرج الأول والمخرج السادس والمخرج الخامس عشر ، هو من الجوف إلى أقصى الحلق حيث ينقطع المخرج حتى يتصل بالهواء خارج الفم وفيه : الألف ، والواو الساكنة المضموم ما قبلها ، والياء الساكنة المكسور ما قبلها . وأنا لا أجعله مخرجًا لعلل كثيرة ليس هذا مكان بيانها .

« المخرج السابع عشر » وهو ملحق بالمخرج التاسع والخامس عشر حيث يستدير الهواء المنبعث فى الخياشيم يتردد فى دورته فيها وفيه : « النون والميم الخفيتين الساكنتين فى الإخفاء والإدغام بالغنة .

فهذان المخرجان ، كما ترى ، هما أعراضٌ قد لحقت أصوات الحروف ، ولم تنشأ منهما حروفٌ منصوبةٌ على اللسان كسائر حروف المعجم التى اعتمدناها فى لساننا العربى . ولو أقمنا نعت المخارج على الأعراض التى تلحق أصوات الحروف لكثر عندنا ما يمكن أن يعدَّ من المخارج . ألا ترى أن الحروف التى زعمناها من مخرج واحد إنما كانت كذلك لتقاربها مع تمام اختلافها ، وإلّا لما جاز فى العقل أن يشترك فى المخرج الواحد أكثر من حرف واحد ألبتَّة . وسيكون لهذه الأعراض التى تلحق أصوات الحروف بيانٌ تقتضيه فيما يأتى بعد من كلامنا .

ولابدَّ هنا أيضًا من حصر هذا التقسيم الذى مضى فى دائرة أضيق من هذه ، فهم يسمون حروف المخارج الثلاثة الأولى « الحروف [١] الحلقية » وهى سبعة أحرف .

والرابع والخامس « للحروف [٢] اللَّهَوِية » نسبة إلى اللهاة ، وهى الهناة المعلقة بين الحلق والفم ، وهما حرفان .

والسادس « للحروف [٣] الشجرية » نسبة إلى الشجَر وهو مفرجُ الفم لا نفتاحه وهى ثلاثة أحرف .

والسابع ، وهو مخرج [٤] الضاد لم يسمَّ لنا ، وبعضهم يعدها من الحروف الشجرية ، وهو ليس بشىء .

والثامن والتاسع والعاشر « للحروف [٥] الذلَقية » نسبة إلى الذلق وهو طرف اللسان وعليهِ اعتمادها ، وهى ثلاثة أحرف .

والحادى عشر « للحروف [٦] النِطْعية » نسبة إلى نطع الغار الأعلى وهو سقف الحَنَك وهى ثلاثة أحرف .

الثانى عشر « للحروف [٧] الأسلية » نسبة إلى أسلة اللسان وهى مُسْتَدَقُّه حيث تصفرُ عليهِ الحروف ، وتسمى أيضًا حروف الصفير » ، لذلك ، وهى ثلاثة أحرف .

والثالث عشر « للحروف [٨] اللّثوية » نسبة إلى اللثة حيث يكون تقطع الحرف وهى ثلاثة أحرف .

والرابع عشر والخامس عشر « للحروف [٩] الشفوية » لأنها تخرج من الشفتين وهناك يكون مقطع الصوت ، وهى أربعة أحرف .

وتنقسم هذه الحروف بالنظر إلى مقطع الصوت والنفس إلى أقسام كثيرة : فمن ذلك قسمتها إلى « مجهورة » « ومهموسة » ، فالمجهورة هى التى أشبعت الاعتماد فى مواضعها ، ومُنع النفسُ أن يجرى حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت ، والمهموسة ماضعف الاعتماد فى مواضعها حتى جرى معهُ النفس ، وهى عشرة أحرف : الهاء [١] والحاء [٢] والخاء [٣] والكاف [٤] ، والشين [٥] والصاد [٦] والتاء [٧] والسين [٨] ، والثاء [٩] ، والفاء [١٠] ، وسائر حروف المعجم بعد ذلك مجهورة كالذى وصفناها .

وقسمة أخرى إلى الشدة والرخاوة وما بينهما ، فالشدة أن يمنع الحرف الصوت أن يجرى فيهِ فلا تستطيع أن تمده معهُ ، والحروف الشديدة ثمانية وهى : « الهمزة [١] ، والقاف [٢] ، والكاف [٣] ، والجيم [٤] ، والطاء [٥] ، والدال [٦] ،

والتاء [٧] ، والباء [٨] . فإذا أردت أن تمد صوتكَ مع القاف من قولك « الحقّ » لم تستطع ذلك . والرخاوةُ أن يجرى الصوتُ الحرفَ كما ترى فى قولك « القَسُّ » فالصوت يجرى مع السين كما تشاءُ ، وبين هذين [بين الرخوة والشديدة] حروف ثمانية وهى : الألفُ ، والعينُ ، والياءُ ، واللامُ ، والنونُ ، والراءُ ، والميمُ ، والواو . فهذه يجرى الصوت معها على تعسف أو مسامحة قليلة ، وسائر حروف العربية – بعد ما سميناه من الحروف – هو رخوٌ .

وقسمة أخرى إلى الإطباق والانفتاح ، فالحروف المطبقة هى التى ترفعُ معها ظهر لسانك إلى غار الحنك الأعلى مُطْبقًا بهِ على الهواء ، وهى أربعة أحرف ، الضادُ ، والطاء ، والصاد ، والظاءُ ، وسائر الحروف منفتِحٌ ولولا هذا الإطباق لخرجت الضادُ من العربية ، ولانقلبت الطاءُ دالًا ، والصادُ سينًا ، والظاءُ ذالًا .

وقسمةٌ إلى الاستعلاء والانخفاض . والاستعلاء أن يَعْلُوَ الصوت فيرتطم بالحنك الأعلى ، فالحروف المُسْتعلية سبعة : الخاءُ ، والغينُ ، والقافُ ، والضادُ ، والصادُ ، والطاءُ ، والظاءُ ، وسائر الحروف منخفضة : وأنت ترى أنَّ مع الاستعلاء الحروف الأربعة المطبقة التى عددناها قبل .

أما القسمة الأخيرة للحروف فهى استنفاذُ الصاد والسين والزاى وجعلها حروفًا للصَّفير كما ذكرنا ذلك قبلا ، وباقى الحروف العربية لا تصْفِرُ .

فهذا نهاية ما يجب أن نقدمه بين يدى الكلام عن « معانى أصوات الحروف » ، ونحن نرجو أن نكون قد بلغنا بعض الغاية فى تقريب صوت الحروف لمن يريد أن يحقق معنا . حين نشرع فى الكلمة الآتية فى دراسة معانى الأصوات المقترنة بالحروف أو التى تجرى معها فى النَّفَس أو المقاطع .

* * *

علم معانى أصوات الحروف

سر من أسرار العربية

نرجو أن نصل إلى حقيقته فى السليقة العربية

(٢)

فرغنا فى الكلمة السالفة من تقرير مخارج الحروف العربية ومدارجها وصفة مواقعها من الحلق واللسان وغار الحنك الأعلى والثنايا والأضراس واللثة والخياشيم وسائر الفم وما يحيط به ، وأبنَّا عن مبلغ تباعدها وتقاربها وما يأتلف منها فى المخارج وما لا يأتلف ، ورتبناها على مجرى ذلك بالتحرِّى والضبط والإتقان ، ثم قسمناها لك على وجوه الاشتراك فى صدى الصوت وما يلحقها من الإطباق والانفتاح ، والاستعلاء والانخفاض ، وما يلابسها من الرخاوة والشدة ، وجعلنا ذلك كله مقدمة للقول فى « علم معانى أصوات الحروف » ، ونحن « إن شاء الله » نذكر لك بعض ماعرض لنا من الرأى فى هذا العلم .

ونحن نريد أن نأخذ معانى هذه الأصوات التى تدل على حروف العربية من جهة طبيعة الإنسان حين يريد العبارة عن شىء فى نفسهِ أحسَّ بِهِ أو عزم عليه ، محاكيًا أو مقلدًا أو منبهًا أو مصوِّرًا أو مقرِّبًا للمعنى الذى يريده بالجرس الصوتى المفرَد الذى يتبادر إليهِ فيحاوله ويعالجُه ويتهجم عليه . ويحسن أن نبدأ أول ذلك على ترتيب القسمة التى عرضناها فى الكلمة السالفة متتبعين مدارج الأصوات من أقصى الحلق ، مؤلفين بين الأصوات المشتركة الصدى ، المتقاربة المقاطع والمخارج .

وأول ذلك ما يسمونه « الحروف الحلقية » ، وهى حروف المخارج الثلاثة الأولى ، وهى سبعة على الترتيب :-

الهمزة « ١ » والألف « ٢ » ، والهاء « ٣ » - والعين « ٤ » ، والحاء « ٥ » - والغين « ٦ » ، والخاء « ٧ » .

---

* المقتطف ، المجلد ٩٦ ، إبريل ١٩٤٠ ، ص : ٤٠٥ - ٤١٢

فأنت إذا أردت أن تعرف معانى هذه الحروف فارجع إلى الفقرة الأولى من العبارة ، وما تحملك عليهِ إرادة التعبير من التفريج عن نفسك بالمنطق أو التصويت الذى هو قوةٌ كامنةٌ فى الإنسان لابدَّ لها من العمل والمطاوعة حين تجد الحافز الذى يدفعها إلى تقرير طريقها فى العمل لايُلائمها تغيير عنيف فى النظم ، فهنالك فارق فى العادات والأخلاق والمدنية والتعليم والدين .

وأول ذلك أن تنظر إلى الحاجة التى تدفع إلى التعبير ، ولعلَّ من أوائل الحاجات التى يُدفع الإنسانُ للتعبير عنها النداءُ والتعجُّب والتأوُّه والأنينُ والإشارةُ والتنبيهُ ، وغير ذلك مما تدعو إليهِ معاناة الحياة الفطرية الأولى التى بدأ الإنسان بها عمله على الأرض . فإذا استوعبت أمثال هذه الضرورات وجعلت تأخذُ نفسك بتدبرها فى فطرة الإنسان رأيت أن النداءَ مثلًا يعتمد على أصوات الحلق المقذوفة من الجوف مطلقة فى الهواء لتبلغ بالصوت أقصى ما يطيقه تدافعُ الهواء الذى يجعله . وكذلك الإشارة والتنبيه يتطلبان من المشير والمنبه إرسال الصوت خارجًا من الحلق إلى حيث يلاقى الهواء المقابل لفم الإنسان . ثم إذا أنت أردت كل حرفٍ بما يتجلى من صداه المقرون به – على المعانى الأولى – استطعت أن تقرّر لصدى الحروف معانى من النفس أو من المحاكاة أو من التمثيل للحركة أو الصوت المسموع أو غير ذلك .

ونحن إنما نتكلم عن العربية ، لأنها فى اعتقادنا – بعد الذى مارسناه من معانيها – أدقُّ اللغات احتفاظًا بالمعانى الفطرية للحروف ، بل هى أكثر اللغات احتفاظًا بحركة الإنسان الأوَّل فى الإشارة إلى المعانى ، وذلك حين يريد أن يقرن الصوت بحركة دالّة على معنى من الإشارة يُفهم بهِ المتكلمُ المخاطبَ مايريد أن ينبههُ إليه أو أن يحمله على فهمه . فنحن نختصر لك طريق الكلام عن الحروف المجردة وحدها بإدماج ذلك فى تركيب الحروف بعضها مع بعض ، غير مخلِّين بالبيان عن المعانى التى يتحملها الحرف الواحد من حروف هذا اللسان . ولا يهولنَّك ماسنقدم عليه ، ولا يذهبنَّ بك أنا لا نستطيع أن نجرىَ اللغة كلها على هذا الأصل ، كلَّا ، بل نحنُ نستطيعُ ذلك ، ونستطيع أن نحاول معرفة

الأطوار الاجتماعية والعقلية والخلقية واللسانية والمدنية التى مرَّت بالشعب العربىّ . وهو شعبٌ كما تَعْلم لا يزال محصورًا بين الحدود التى ضربتها عليه الصحراءُ ، ولا يزال حيًّا على نَمَطٍ من العيش لم يدخله كثير من التبديل ، وإن كان قد اختلف بما اندفق إليهِ من نتاج الحضارات الأخرى التى اختلطت ببعض أمواجه ثم ارتدَّت إليه .

فخذ معنا الآن :- الهَمزة والهاء والألفَ . وهى الحروف الحلقية المطلقة التى تُصَوّت حيث تلاقى الهواء ولا يقف فى سبيلها ، وما ترتطِمُ بهِ من الثنايا أو الأضراس أو الشفة ، ولا يعمل معها اللسانُ عملًا فى تكوين صداها أو جرْسها . واعلمْ أننا لن نفرق كثيرًا فى هذا الذى أردناه بين الهمزة والألف ، وأننا سوف نجعل عملهما فى العبارة واحدًا ، هذا على أن الألف فى أصل معناها تخالفُ الهمزةَ من وجوه كثيرة . وليس هذا موضع بيان الفروقِ بينهما ، وأحق بذلك ما نريده إن شاء الله من الكلام عن الواو والياء والألف .

فهل تنكر أن الرجل إذا خاف أو فزع أو رغب أن ينادى أو أن يشير - وهو ناقص الآلة اللغوية - فأول ما يبدأ بهِ أن يقذف الصوت مغسولًا من الحلق بأقصى ما يستطيع ، كلَّا . وإذن فالهمزة الممدودة هى الصَّدى الصوتى الذى يراد بهِ التنبيه والإشارة والنداءُ . وكذلك هو فى العربية . فالهمزة فى العربية لا تزال تحتفظ بجميع هذه المعانى وما يتشعب منها تقول : « أمحمد » تريد « يامحمد » وإنما تفشَّى الحرف « يا » فى النداء بعد ، لأنهُ تسهيلٌ لمجرى الهمزة وتليين لها ، ثم انقلب بعدُ حرفًا من الحروف « الشجرية » التى فى مفرج الفم كالجيم والشين لأسباب أتت بعد خروج اللغة من الطور الأول ، وإلّا فإن الأصل الذى لا أشك فيهِ أن الياء أقرب إلى الحروف الحلقية منها إلى الحروف الشجرية ، فانطق « آء » ، « وياء » تجد صدق ذلك [(١)] .

ثم انظر ، فالهمزة حرفٌ للاستفهام كقولك : أأنت ؟ ، وهى حرف للتعجب

(١) أما العلة فى أن الياء صارت بعد حرفًا من الحروف الشجرية ، فسنعرض له فى كتابنا عن سر العربية إن شاء الله . (شاكر) . أقول : انظر ص ٧٢٥ ، هامش : ١ .

من طريق الاستفهام . وقد احتفظت بها العربية فى وجوه كثيرة أخرى كالتفضيل والتعجب [١] كقولك ما أحسنهُ ! ، وهو أكرم من فلان ، فإثبات الهمزة والإتيان بها فى هذه الأبواب مأخوذ من الأصل الذى أقيم عليهِ معنى الحرف من فطرة الإنسان : فكأنهم أرادوا – بالبدء بها – إظهار المعنى الذى يتحمله صدى الصوت من الاستفهام والتعجب ، والتفضيل فرعٌ من تعجبك من الشىء واستكبارك له . وكذلك احتفظت العربية بهذا الحرف فى أكثر حروف الاستفهام كقولهم « أين » « أنّى » وما يدانيها كقولهم « أم » كذلك فيما يقارب ذلك من المعانى كما فى قولهم « أو » .

ويشترك مع الهمزة حرفٌ آخر هو قريب منها ، وهو « الهاء » ، ففى لغات بعض العرب يقولون فى الاستفهام فى « أزيد ؟ » « هزيدٌ ؟ » . وكذلك وقعت هى فى « هَلْ ؟ » و« هلَّا ! » وإن كان أكثر موردها على التنبيه والدلالة والإشارة ، كما وقعت « فى هذا » و« هؤلاء » و« هى » ، و« هو » وهذان الحرفان الأخيران ، وإن عدَّهما النّحاة من الضمائر وأجروا عليهما أحكامًا ، إلَّا أنهما فى أصلِ معناهما للإشارة بغير شك . ولمثل ذلك قال المفسرون فى قوله تعالى ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ ... « الضميرُ فى منهُ » جارٍ مجرى اسم الإشارة كأنهُ قيل « عن شىء من ذلك » [٢] .

وكذلك جرت العربُ على سُنّة إبدال الهمزة هاء والهاء همزة لتقاربهما فى الدلالة كما يقولون فى « أراق ، وهراق » و« لأنك ، و لَهِنَّك » وغير ذلك مما لا نريد استقصاءَهُ الآن .

* * *

---

(١) ومن باب ذلك الهمزة فى أوائل أوزان جموع التكسير أيضًا فى مذهبنا . (شاكر)

(٢) اعلم أننا لا نريد بذكر هذا المثال إلا أن نضرب المثل بأن « الهاء » هى الفطرة للإشارة ، ثم استقرت الضمائر بعد ذلك وجرى حكمها فى النحو العربى مجرى غير الذى جرى عليه حكم الإشارة ، ونحن لا نخلط هنا بين ماهو النحو الآن ، وما نتوهمه من المعانى للصدى الصوتى المقارن للحرف . (شاكر)

وأنت إذا أخذت الضمائر أول ما تأخذ وجدتَ الإشارة فيها ظاهرة ، فما قولهم « أنا » إلَّا إبانةٌ عن الصوت « أَن »[١] المدْغم فى الخياشيم مقترنًا بإشارة المتكلم إلى نفسه بيده ، ثم تركوا الإشارة وعمدوا لفتح النون - أقاموا ذلك مقام الإشارة ، فلما أراد أن يعبّر عن المخاطب قرن « أن » بحركة يده فى صدر مخاطبه . ثم استغنوا عن ذلك بتمثيل صوت اليد وهو يقرع الصَّدرَ فى رفق بأخف الحروف النطعية التى يرتطم فيها الصوت بالحنك الأعلى محصورًا باللسان فقال : « أنت »[٢] .

فإذا قرَّ فى نفسك هذا المذهب فأدرْ عليهِ سائر حروف الحَلْق مما لم نذْكره ، وتبين فروق مواقعها وتدبَّر ذلك كل التدبُّر ، تجد المذهب حسنًا سهلاً طيعًا لا يتخالف عليك إلَّا قليلًا . ونحنُ نأخذُ الآن فى بيان بعض ذلك من جمهور بعض الكلام العربىّ المؤلَّف من ثلاثة حروفِ أحدُها مُضَعَّف ، ليكون ذلك المذهب أقرب إليك . فإن لكلّ حرفٍ معنى ، فإذا نحنُ أخذنا فى الثلاثىّ غير المضعَّف اقتضانا ذلك أن نعرضَ لمعنى حروف ثلاثة ، والمؤونة علينا فى تقريب ذلك إليك ، والكلفة عليك فى تعاطى ما نناولك - هى فى ذوات الثلاث أشد منها فى ذوات الحرفين .

وهذه الحروف الحلقيَّة لم تجتمع فى العربية على التضعيف إلَّا قليلًا لقرب مخارجها كما تعلم فقالوا « أحّ » و« أهّ » و« أخّ » ولم يقولوا « أع » ولا « أغ » ، ولا « أآ » لأن هذه ثقيلة لا تأتلفُ . وهذه الثلاثة إنما تدل على إشارة وبيان فالصوت فيها يتحمل معنى التنبيه . ألا ترى أن قائل « أح » و« أخ » إنما يريد التألم والتوجع وإبداء ذلك والدلالة عليه ، ولكنهُ مع الحاء يريد التنفيس عن نفسه لما يعانى من شدة الألم والوجع . وكما يكون من صوت المغيظ المحنق والمغموم

---

(١) اجعل نطق هذه الكلمة صوتًا مبهمًا فى الخياشيم غير مبين فى نطق « النون » ويكون الفم مغلقًا مطبقًا ، واللسان ساكنًا لاصقًا أسلته بالثنايا العليا من الداخل . (شاكر)

(٢) اقرع صدرك بيدك ، ومثل صوت التاء بلسانك مع التخفيف تجد الصوت مقاربًا . والدلالة بينة ، وهذا أحد معانى التاء . (شاكر)

المفكر فقالوا « الأحيحُ : الغيظُ والضِّغْنُ » وإنما هو فى الحقيقة صوتُ الممتلىء غيظًا حين يتفرَّج بهذا الصوت الذى يصدره من جوفه .

ثم انظر ... ، فإنهم لما أرادوا هذا المعنى نفسه من التأوه والغيظِ والغمّ اتخذوا « أخّ » والخاء حرف حلقى جافٌّ غليظٌ يكون معهُ الاستعلاء والترفع والاستبشاع والاشمئزاز ، فقول أصحاب اللغة « أخّ » : كلمة توجع وتأوّه وغيظ – قول ناقص لا يفضى إلى المعنى الحقيقى ، وهو أن المتوجع يبين عن اشمئزازه وشموخه وتقذُّره ، ولذلك ماورد فى اللغة أن « الأخ » : القذَر ، يقول الراجز يذكر سنّه وعجزه وضعفه :

وانثنت الرِّجْلُ فصارت فخًّا   وصار وَصْل الغانيات أخًّا

أى قذرًا لا يقربهُنَّ ، أو لا يَقْرَبنه .

وكذلك ترى أنهم لما راموا التعبير فى الأول أقاموا له « الحاء » للبُحَّة التى فيها ، وهى لينٌ ونعومة ، وهى قابلة للدوران مع الهمزة فى التكرار ، لأن الذى ينطقها يريد معها أن يكررها ويتلوَّى معها ، ويعكس لها أضلاعه لما يقاسيه من الألم أو الغيظ ، والخاء لجفوته وانقطاعه فى غار الحنك واستعلائه لا يطيع على مثل ذلك ، بل أكثر عبارته المقترنة بهِ هى فى الوجه والشفتين ، والألف ترفع من بعضها وتخفض من بعض .

ولكنهم لما أرادوا العبارة عن التوجُّع مع اللين والضَّعْف والفَتْرة التى تلحق المتأسف المكسور النفس بغير إضمار للحقد والغيظ كما فى « أحَّ ، وأخَّ » قالوا « أَهْ » و« أَهَّ » و« آهٌ » . وهذا إشارة إلى تعب النفس . واجتماع هذين الحرفين السائلين المطلقين المغسولين الضعيفين هو تمثيل لحركة التوجّع من إرسال النفس بريئًا مع انهزام خصر المتوجع وانثناء صدره واستسلامه للضعف واسترخاء أعضائه وتكسر أجفانه على عينيه .

وقالوا أيضًا من ذلك مايكون فى الجيش من الأصوات للنداء والإيقاظ والتنبيه والتوجع والإشارة وتداخل الأصوات بعضها فى بعض وزجر الإبل وما إلى ذلك «آءَ » ، يقول الشاعر :

إن تَلْقَ عمرًا فقد لاقيتَ مُدَّرِعًا ... وليسَ من همهِ إبْلٌ ولا شاءُ
فى جَحْفَلٍ لَجِبٍ صَوَاهِلُهُ (١) ... بالليل تُسْمَعُ فى حافاتِهِ : آءُ

وقد أفرد أصحاب اللغة هذه المعانى التى ذكرناها ، فقالوا : « آء » حكاية لصوت زجر الإبل ، وليس كذلك ، وهذا البيت يدل على خلافه كالذى قدمنا فى بيان معناه : فأنت ترى أن هذا الحرف « الهمزة » يحمل معهُ أين كان معنى الصوت المغسول الأوَّل ، وهو الإشارة والتنبيه وما إلى ذلك من استفهام وتعجب وما يتفرع منها .

وأما العين والحاء والغين والخاء . فهذه الحروف الأربعة الحلقية لاتصلح للاستفهام والتعجب وما إليهِ لأنها فى الحقيقة أحرفٌ غير خالصة بين الحلْق والهواء الذى يلاقيها خارج الفم ولما فى جميعها - إلَّا الحاء - من التكلف والضغطِ والتعسُّر فى المخرج وارتطامها قبل الهواء ببعض أجزاء الفم عند مقطعها المبين عن صداها . انطق : « إعْ ، إغْ ، إخْ » . والحاء ، وإن كانت أسهل وأخفَّ وأسلم ، فهى مع ذلك مقرونةٌ بحشرجةٍ طفيفةٍ رقيقة غير مُثْقلة مع كفٌ النَّفس المقذوف عن الانطلاق إلى نهاية تصادُمه بالهواء خارج الفم ، وإنما تصلح للدلالة على نوع الصوت المراد تمثيله ، أو تصوير الصوت مقرونًا بالحركة التى تكون معهُ أو تلحقهُ من جرَّاءِ ألمٍ يدعو إلى هذه الحركة ، كما قالوا مَثَلاً فى الرجل إذا ذَرَعهُ القيءُ - فمدَّ ذراعيه على الأرض وأقبَلَها وَجْهه ونَغَضَ إليها رأسه وتمايل على الأرض ليقيءَ : « هَاعَ » ، فهذه بلا شكٌ حكايةُ صوت القيء أوّلَ مايكون بالهاء ، ثم ما يكون من تضرُّب الطعام المائع فى الحلق كصوت العينِ ، ثم انطباق الحنجرةِ وتصويتها فى هذا الانطباق بصدًى كصدى العين .

هذا ونحن لا نستطيع أن نستوفى لك فى هذه الكلمة كل الذى نريده من المعانى ، فهو كما ترى بابٌ واسع متداخل يفضى قولٌ منهُ إلى قول ، وهو مما

---

(١) قف عند قوله « صواهله » ثم انزع إلى الابتداء بعد سكتة فاقرأ « بالليل ... » . هذا صواب إنشاد الشعر ونرجو أن نوفق قريبًا إلى كتابة كلمة للمقتطف للبيان عن طريقة قراءة الشعر . (شاكر)

لا يمكن حصره فى مثل هذه الكلماتِ ، فإنَّ لكُلّ جمهور من حروف العربية مجرى ودربًا تتفرع منه شعبه ، ولا يمكن استيعاب ذلك إلا بالإطالة والدُّربة والتمثيل ، وذلك مما يقتضى انبساط النفس وقلّة الثّقل وخُفُوف [1] العمل . ثم نحنُ لا نكتب هذا إلَّا عَفْو الخاطر أو شبه ذلك ، فإذا أردنا أن ندخل الجدّ من هذا الباب - ونحن مانحنُ - انبتَّ الجهد بنا دون ذلك . فاقبل بعض العُذْر وتغمد بعض الزلل. وكذلك نستطيع أن نبين لك بعض الإبانة عن الأصوات وحكاياتها وأسمائها التى جعلتها اللغة لها فى أعمال الإنسان والحيوان والجماد ، وكيف تدور فيها هذه الحروف الحلقية دورانًا طبيعيًّا دالًّا صريحًا متدرجًا على بيان نوع الحكاية أو التمثيل ... ، فكأنك به .

* * *

(١) الخفوف : السُّرعَة .

علم معانى أصوات الحروف
سر من أسرار العربية
نرجو أن نصل إلى حقيقته فى السليقة العربية
(٣)

أفضنا فى الكلمة السالفة – فى ذكر الحروف الحلقية ، وبدأنا بالهمزة ونظرنا بعض النظر فى معناها ماهو ؟ وحسنٌ أن نعود إلى استقصاء القول فى هذه الهمزة وسائر الحروف الحلقية ، واستخراج أكثر معانيها من الفطرة . ثم كيف هو دورانُها فى الكلام العربى ، ثم كيف تنزلُ عن بعض معانيها من تركيب الكلمة لدلالة أخرى تفضى إلى معنىً يكون شارعًا من الأصل أو مستمدًّا منهُ أو عارضًا فيهِ ، أو ليكون اعتراضها مسقطًا لبعض المعنى فى حرفٍ آخر ليعادَل بهِ إلى القصد فى إرادة معنى بعينِه ينشأ من اشتراك هذه الحروف الدالة فى تركيب الكلمة . ويقتضينا هذا المذهب أن نسبقَ إلى عرض بعض معانى سائر الحروف العربية فى مدارج القول ، إذ كان الاشتراك بين هذه الحروف فى الكلمة مدعاةً للبيان عن معانيها . وإذ كان ذلك كذلك ، فستجد كلامنا عن هذه الحروف الحلقية مختلطًا بغيره من بيان معانى حروف أُخر من حروف اللسان العربى . وإنما أردنا ذلك اختصارًا وتخفيفًا . فلو ذهبنا ننشىء لكل حرف مقالًا لغلبنا الجهد ، ولكان على القارىء أن يبقى مغموسًا فى فكره فى هذا الباب أشهرًا بعدد حروف العربية . ونحن إنما نجعل كلامنا هذا كالتذكرة لنا وللقراءِ فى هذا العلم ، ولأن ننتظر – حتى يأذن الله فيتيح لنا من الفراغ والهمة والجدة والتوفيق ما هو بعض نِعَمِه علينا وآلائهِ – أَوْلَى وأخلقُ ، ولأن يكون ذلك مخبوءًا لنا حتى نضع كتابنا فى « سر العربية » [١] – أحبُّ إلينا وأَجود للبيان ، فإن بيان الرأى – فى سعةٍ من كتابٍ

* المقتطف ، المجلد ٩٧ ، يونيو ١٩٤٠ ، ص : ٥٧ – ٦٣

(١) لم يُتَح للأستاذ شاكر أن يضع مثل هذا الكتاب ، وليته فَعَل ، فقد فاتنا بذلك خير كثير .

يؤلَّف لغرضٍ يشملهُ – أحرى بالاستفاضة فيه من مجلة تحدّ الرأى بحدود من الورق !

ولقد علمتَ أن ضرورة الحياة الفطرية الأولى هى التى نزعت بالحرف الحلقيّ المغسولِ – المسمى فى عبارة المتكلمين « بالهمزة » – أن يكونَ هو أقربَ الحروف إلى النداءِ ، والتعجب ، والاستفهام ، والإشارة ، والتنبيه ، والأمر ، والتحذير ، وذلك لأن هذه المعانى كلها ليست إلَّا أقربَ الحوافِز التى تحفِزُ الإنسان الفطريَّ إلى ارادة التعبير ، لفرط حاجته إلى كل منها بضرورة الطبع ، لما يلاقيه مما يَصدِمُهُ ويتذَمَّرُ عليه من تصاريف الحياة وتخاليف الأحوال التى تُقبِلُ عليهِ فتدفعُهُ إلى نداء مَنْ يستعينه من أبٍ أو ولدٍ أو أخٍ أو زوجةٍ ، أو تحمله على الاستغاثة ، بالإشارة ، أو الإغاثة بالتنبيه والتحذير . ثم لما يتجددُ عليهِ مما يستخرج عجَبَه أو ما ينصبُّ عليهِ مما يستغلقُ ويستبهمُ ، فيجيله إلى طلب الاستفهام أو الاستنكار . ولعلك لستَ تشكُّ فى أن ذلك هو أولُ مايبدأ الحيُّ على الأرض وما يتنازعهُ من الضرورة ، كما لا تشكُّ فى أن أوَّل مطاوع لهُ من الصوت هو ما يصوّتُ من الجوف والحلق ، دون ما يكون تصويتهُ من قِبَل اللسان والفم والشفة مما هو لا يُطيع إلَّا بالمداورة والهزّ والتمرين والدُّربه على حركة بعينها مرة بعد مرة . وفى أصوات سائر الحيوان – خلاف الإنسان – دليل ذلك والبرهان عليه وعلي صحة مذهبنا إليه ، فإن أصوات جميع الحيوان إنما هى أصوات حلقية تتردد ، إلَّا ماكان من مثل صوت الغراب والقط والجُندب والبازى والقَطَا وما إلى ذلك مما انفردَ من الحيوان والطير بحرفٍ يتردد ، فى مدارج نفسهِ أو منقط صوته . ثم لا يكون ذلك إلَّا حرفًا واحدًا مقاربًا ، أو بعض حرفين متجانسين يتليَّن شدتهما ألفٌ أو همزةٌ مختلسة تكون بينهما فاصلةٌ .

ولما كان من أول ضرورة الحياة الفطرية أيضًا أن يلاقىَ الإنسان من الهول مايفزعه ويخيفه وما يتعرض لهُ من الجرح والكدم فى صراع غيره مِن الإنسان والحيوان ، وما يجد بعد ذلك من الألم والشدة ، ثم ما يحمله عليهِ الألم الممضُّ من التأوه والأنين والغيظ والحنق ، ثم ماهو من دواعى الفطرة الإنسانية القائمة على الغرائز الاجتماعية كالذى يجده إذا توحَّد وانفرد من الحنين والحيرة والوجد – لمَّا

كان كل ذلك وما إليه مما يتصل به ، كان أيضًا من ضرورة الحافز الذى يستوفزهُ ويرتفع به إلى إرادة التعبير ، أن ينحو به إلى أول مايطاوع من الأصوات ويتلين ويخف ولا يحتاج إلى المداورة والتمرين .

فإذا تدبرت ذلك وأوعبت نظرك إليهِ وفيهِ ، وتلمست كل الصلات والأسباب التى تمتد بهِ إلى سائر المعانى التى تنظر إلى هذا الأصل أو تتخايل عنهُ - عرفت أنهُ لابدَّ من اشتمال كل هذه المعاني على الدلالة الفطرية التى تدلُّ بها طبيعة الإنسان على أغراضهِ الأولية القديمة . فكُلُّ ما يرجعُ أصلُ معناه أو بعض فحواه إلى هذه الدلالة ، فالواجب لذلك إذن أن يشتمل على حرفِ الحلق الأوَّل وهو « الهمزة » ، أو على الحرف الثانى الذى يقاربه ويشابهه ولا يختلف عنه إلَّا بضغطهِ هوائية رفيقة هينة فى جوار الحنجرة وهو « الهاء » . فإذا تصرفت قليلًا على مثل هذا الأصل ترقَّيت إلى « العينِ » ، « فالحاء » ، « فالغين » ، « فالخاء » ، مقدّمًا « الحاء » على جميع هذه الأربعة الأخيرة لخفتها وسهولتها وسلامتها واقترانها بالحشرجة الحُلوة اللطيفة الرقيقة المُنْسربة فى تصويتها كأهدإ انسرابِ وأحنِّهِ وألينهِ .

فإذا صحَّ لكَ ، ماندهبُ إليه ، استخرجتَ من ذلك ضرورةً أن تكون جميعُ الألفاظ العربية - التى ندعى لها هذه الحكمة الشريفة : فى إمساسِ الحرف والكلمة شبهًا من معانى الفطرة ودواعيها - مبينة كل الإبانة عن هذا الرأى الذى نجرى إليهِ ، باشتمالها على أحد هذه الحروف الحلقية . ويقتضى ذلك أن تكون كل أدوات الاستفهام والنداء والإشارة والتنبيه والفزع والتحذير ، وسائر الألفاظ ذوات المعانى المقاربة لذلك - مشتملةً على أحد هذه الأحرف ثم يكونُ منهُ أيضًا أن جميع أسماء الأصوات الدالة على صوت الإنسان والحيوان والطير والحشرات قد جمَعتْ طرفًا صالحًا منها ، حين تكون هذه الأسماء - أو الأفعال - دالةً على حكايةِ صوتِ حلقيٍّ يكون لهذه الخلائق . وإذن فواجبنا - بعد الذى قلناه وعرضناهُ - أن نقدّم الدليل من ألفاظِ العربية على صحة ذلك ، وأنه طريقةٌ ممهدةٌ على لسان هؤلاء الناس من العرب ، وأنهُ إذا كانَ مانقول بهِ ، فاللغة العربية هى حقًّا - على ما ادعيناه فى الكلمة السالفة - أدق اللغات ، وأكثرها احتفاظًا

بالمعانى الفطرية للحروف ، وبالحركات التى لجأ إليها الإنسان الأول فقرنها بالحروف للدلالة على معنًى ليس يقومُ الحرفُ على بيانِه كلهِ إذا أفردَ وحده للتعبير عنهُ .

ولقد رمينا إليك – فى الكلمة السالفة – طرفًا من القول فى حروف الاستفهام والنداء والتعجُّب والإشارة ومايجرى إليها من معنى الضمائر ، ثم فى الكلمات الثلاثية المضعَّفة التى اجتمع عليها فى التضعيف حرفان حلقيان وهي « أحّ » و« أهّ » و « أخّ » ، ثم كشفنا عن معانيها بعض الكشف . فالآن نستقِلُّ بك إلى حروف الحَلْق المشتركة مع حروفٍ أخر من حروف اللسان . ولن نستوعَب كلَّ ذلك ، فإنهُ يقتضينا – إن فعلنا – شرح اللغة كلها على مذهبنا ، وهذا إن اجتمع فى كتاب فجمعهُ فى مقالٍ يتعذَّر مرَّةً ويثقُلُ على قارئه أخرى .

فلو أخذت الهمزة وبدأت بها فى قولهم : « أبَّ » ، « أتَّ » ، « أثَّ » ، « أجَّ » ، « أدَّ » « أذَّ » « أرَّ » ، « أزَّ » ، « أسَّ » ، « أصَّ » ، « أضَّ » ، « أطَّ » ، « أظَّ » « أفَّ » ، « أكَّ » ، « ألَّ » ، « أمَّ » « أنَّ » ، « أىَّ » . وقد أمضينا القول على « أحَّ » ، « أخَّ » ، « أهَّ » ، « أنَّ » ، « أع » ، « أغ » ، « أآ » مما تجافوا عنهُ وتركوهُ وأهملوهُ لعلل ذكرنا بعضها ، كما أسقطوا أيضًا « أقَّ » ، وذلك لأن هذه « القاف » – كما علمت من أوَّل مقال لنا – هى الحرفُ الذى يلى مخرجهُ مخرج الحروف الحلقية ، فهو الحرف الثامن بعد الحروف السبعة الحلقية المبدوء بها فى ترتيبنا . فإذ كانت الهمزة أشدَّ الحروف مطالبةً بالانطلاق وحافزها أقوى حوافز الحروف الحلقية فاتباعها بالحرف الذى يدانى اللَّهاة وأقصى اللسان ويرتطم بالحنك الأعلى ويتردد فيهِ جاسيًا غليظًا متعسرًا [١] ، يكون مثقلًا على النطق ، ثقيلًا فى السَّمْع . وأيضًا فإن القاف – هى فى ترتيب الحروف الشديدة التى وصفناها لك – تلى الهمزة ، وهى أول هذه الحروف الموصوفة بالشدة ثم

---

(١) فالهمزة تريد الانطلاق والمضى حتى تلاقى الهواء ، والقاف تريد أن تقطع عليها ذلك لتستوفى حقها من المخرج ومنقطع الصوت الذى تتمثل فيه بترددها عليه ، وارتداد اللسان بها وبهوائها المحصور فى مخرجها ارتدادًا يعوق انطلاق صاحبتها التى تحفزها من ورائها . (شاكر)

الاستعلاء أيضًا . فهم لم يريدوا أن يجعلوها مفردَة فى كلامهم لذلك ، وقالوا « حق » و« عق » لما تعرف من صفة العين والحاء على مايتوجه إليك من فحوى بعض كلامنا آنفًا .

فنحن سنأخذ هذه الكلمات المبدوءة بالهمزة على ترتيب مُتّصل ، وذلك بأن نفصّلها لك على مخارج الحروف التى تليها ، فأول ذلك :

« أكَّ » فأصل هذه المادة عندنا من صوت احتكاك الأجسام اللينة بعضها ببعض لأن الكاف تمثّل فى النطق صوت شيئين ليّنين بَيْنَ بَيْنَ يزحمُ أحدهما الآخر زَحْمًا شديدًا . والأَكَّة فى اللغة الزحمة والضّيقُ ، وأكَّهُ زاحَمَهُ . وهذا المعنى للكاف ثابتٌ فى قولك « حَكَّ » و« عكَّ » و« هَكَّ » الشىء سحقهُ ، وهذه كلها حروف حلقية تتبعها الكاف ، فإذا أنت أخذت فى مثل « بَكَّ » أى زَحَم ، و« تكَّ » الشىء الليّن الرطب وطأه فشدخه و« دكَّ » ، و« زكَّ » فى مشيه قارب خطوه وحَرَّك جسده واحتَكَّ بها ثوبهُ ، و« سَكَّ » و« شكَّ » و« صَكَّ » ... رأيتَ كلَّ هذه تَحْمِلُ كافُها لها معنى الاحتكاك أو تصويره أو مقاربة صوته [1] ولكنهُ فى « أكَّ » و« حَكَّ » أبينُ المعنيين ، لأنَّ الهمزة والحاء حرفان أصليان دالّان على الأصوات الأولى التى هى أقربُ من سواها إلى حكاية هذا الصوت [2] .

ثم إليك « أشَّ » ، « أجَّ » والشين تحمل بطبيعتها صوتَها المتفشِّى المستطيلَ المتليّنَ الذى يُهمس بِهِ ، ويضعف لها الاعتماد فى مخرجها حتى يجرى معها النَّفَس بين الحَنَك الأعلى واللسان مع انفتاح الشفتين مع الإمالة الخفيفة . ويلقى هذا الصوت الأذن فيمثل صَوْت الحركة الخفيفة التى تكون كأنها من احتكاك

---

(١) اعلم أن لكل حرف معنى ، وأن اشتراك الحروف ذوات المعانى فى الكلمة الواحدة يسقط بعضها معانى بعض ، ومصطفى من المعنى الأصلى ما يتمثل به فى الحروف المجتمعة معنى آخر يجتاز عليهما أو يستمد منهما ، وعلى ذلك فعليك أن تنظر إلى هذه الأحرف على الأصل الذى نحاول بيانه لك . (شاكر) .

(٢) إذا رجعت إلى اللغة فى معاجمها الدقيقة الواسعة ، وجدت تقارب المعانى بين هذه الكلمات ظاهرًا حتى فى المجاز ، ولولا أن ذلك يستوعب أكثر مما نكتب هنا لأحطنا به . ولكنك إذا أردته على طريقتنا لم يباعدك ولم تخطئه . (شاكر) .

الثوب القشيب ، أو صوت وقوع الرش الخفيف من المطر ، أو صوت خفيف الورق الأثيث على أشجاره إذا فيَّأهُ النَّسيم المُتروّح ، ويمثِّل أيضًا صوت الضاحك إذا انقذف نَفَسهُ بضحكةٍ خفيفة لا تبلغ القهقهة ، مع انفراج الشفتين واستعلاء الشفة العُليا . وتجد أكثر هذه المعانى دائرة فى « أشّ » ، « هشّ » ، و« حشّ » ، و« خشّ » و« بشّ » ، و« نَشّت » القدر تنش ، وهو صوت غليانها ، و« رشّ » الأرض بالماءِ . و« كشّت الحيَّة » والمرأة أيضًا !! كشيشًا وهو صوت جلدهما إذا حكت بعضهُ ببعض . ولذلك كُلّهِ قيل فى « أشّ » أن الأش والأَشاش الطلاقة والبشاشة لما يتبع الارتياحَ والنشاطَ والخفة والضحك من الحركة التى تُسْمِع هذا الصوت ، وأشّ غنمهُ كهشها ، وأشّت الشحمة إذا نشّت وقطرت فسمع لها مثل هذا الصوت .

وأما « أجّ » ، فمن قبل أن الجيم أجسى وأقسى وأغلظ صوتًا من الشين ، واللسان بها أشد ضغطًا للهواء فى غار الحَنَكِ الأعلى ، وصوتها جافٍ على السمع ظامئٌ لاماء فيه ولا قطر له ولا همس يأتى من قبله - لذلك دخلت مع الشين فى بعض معانيها ، ولكنها خرجت من بعضها الآخر بما أَخرجها من الميْزة التى مازتها عنها فى مستقبل السمع . وبعد ، فإن « أجّ » هذه ومايليها من « هَجّ » ، « حَجّ » و« عَجّ » بالدعاء ، و« ثجّ » المطرُ يثجُ سَالَ فسمع صوت سيلانِه ، و« هَجّ » ، و« لَجّ » - الجيم فى جميعها دالةٌ على حكاية صوتٍ وصفناه بما وصفناه فأُخِذَ منهُ « أجّت » النار و« هَجّت » إذا اتقدت فتعالت فاستعرت فاستطارت فسمع صوت تلهُّبها الذى تمثلهُ الجيم ، كما يظهر لك إذا تدبَّرتهُ وداورتهُ على المعنى الفطرىّ للحرف [١] .

وأما « أىّ » وهو اليائى الذى عددناه مع الشين والجيم فى مخرج الحروف

---

(١) أرجو القارىء أن يعذرنى فى اختصار القول ، فإنى وأنا أكتب هذا أكاد لا أمسك النفس عن الاستفاضة ، لأنى أكتب وأنا أحضّ النفس على التأمل ، فتنثال على المعانى فلا أدرى ما آخذ منها وما أدع ، وقد ذكرت فى الكلمة الأولى أن هذا بحث قديم أستثيره وأهيجه ، فربما غلبنى ما أجد منه على الضبط . والقارىء فى هدأته يستطيع - إذا تأمل - أن يصل إلى مثل الذى يريده منا إن شاء الله .

الشجرية فليس هذا مكان الإفاضة فى ذكره ، لما تعلم مما أشرنا إليه آنفًا فى بعض كلامنا من أنّنا نرى فى الألف والواو والياء رأيًا نخالف بهِ ماذهب إليهِ أئمتنا رضوان الله عليهم . وأن فى سرّ تطوره من حرفٍ حلقيّ إلى حرفٍ شجرىّ موضعًا للنظر ، ومجالًا يجول إليهِ الرأى . فندعه إلى موضعه الذى يتنزل عليهِ فى أوانه إن شاء الله .

وإذا درجتَ إلى « ألّ » ، رأيت اللّام ، وهى عندنا من الحروف ذوات المعانى المتشابكة ، وذلك أن اللسان معها يعمل أعمال حروف كثيرة . ولقد علمت أن مخرجها – فيما أسلفنا – هو من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه حيث يندفع إليها الهواء المقذوف من الجوف ، فيحصُرُ اللسان هذا الهواء حَصرًا بين الشدّة والرخاوة فى الحنكِ الأعلى مما فوقَ الضاحك والنابِ والرباعية والثنية ، وعند ذلك يرتكسُ هذا الهواء المحصور فى جوف الفم من كِلَا جانبيه ، ثم إن بعض هذا الهواء يجول فى ميدان كأنهُ يروم المخرج من الخياشيم وهو مخرج النون . فلذلك ترى هذه اللاَّم إذا وقفت عليها فى مثل « هَلْ » و« قُلْ » ، قذفت من المنخرين نفسًا خفيفًا همسًا ، تنتفش معهُ الخِنَّابَتان [1] قليلًا قليلًا ، وكذلك تجدُها كأنْ قد أُشْربتْ من غنة النون فى أكثر المنطق . وهذه الملامح الكثيرة التى اختلستها اللام من الحروف التى تليها كالنون والراء والميم ، ومن الحروف التى سبقتها كالجيم والشين والضاد ، هى التى راحبت من معانيها وكثَّرتها وغمَّضتها على من يروم فقهها وضبطها ، وهى أيضًا التى جعلتها أكثر الحروف دورانًا فى كلام العرب للطفها وضعفها ورقّتها حيث كانت – ولا تكون هذه الرقّة التى فيها إلَّا مشوبةً ببعض القوَّة والشدَّة ، فهى إذن أعدل الحروف وأحسنها استواءً فلا تعتاص على باغيها . ولذلك أيضًا تجدها لا تدخلها العيوبُ التى تدخل سائر

(١) هما حرفا المنخرين – الثقبين – عن يمين وشمال من عرض الأنف ، وهما وحشيا الأنف . (شاكر)

(٢) لا نريد أن نفيض فى ذكر اللام وشرح معانيها ، فإنها تأخذ من كل معنى بسبب . ولو أردنا ذلك لخرجت وحدها فى أوراق صالحة لأن تفرد لها مقالة برأسها . (شاكر) .

الحروف كالراء التى تليها ، وهى تدخلها اللّثغة فى لسان الألثغ فلا يستقيم لهُ معها المخرج ، وإنما ينحاز الألثغ – إذا غلبته لثغتهُ من الراء إلى اللاَّم ، فاعرف هذا وتدبرْه وانعم نظرك له وفيهِ [٢] .

فالقول فى « ألَّ » ، « هلَّ » يفترق من القول فى اللاَّمِ التى تلى سائر حروف الحلق مثل « حلَّ » « وعلَّ » ولذلك نقصر القول على « ألَّ » و« هلَّ » ، فالألف والهاء هما عمدة باب الحروف الحلقية كما أمضينا آنفًا . واللام فى هذا الموضع تمثيل للإلحاح والتردد والانتشار ، ومعاناة للتحفز الذى يأتى بالصوت فى اندفاعهِ . ألا ترى أن صوت اللام – إذا حققتهُ – شبيهٌ بالجرْس الذى تسمعهُ من اصطدام شىء لين ببعض اللين بشىء من مثله فيفزع سمعك إليه فتصغى له . وعلى ذلك فمعنى « ألَّ » – ابتداءً يتضمن الإشارة إلى حركة مقرونة بصوت بين بين ، فلا هو جاسٍ ظامئٌ ولا هو رطب ممتلئٌ بمائه . وكذلك هو فى اللغة : ألّ الفرس إذا أسرع فاهتزَّ فسمع من الرمل صوت حافره إذا وقع عليها متتابعًا مترددًا ، وكذلك ألّ البرق ، وألَّت المرأة رفعت صوتها بالدعاء أو غيره . والأليل من ذلك هو الأنين والحنين عند الجزع ، وهو خرير الماء على التربة ، وهو صوت الحَصَى إذا وقع على الرمل . والقول فى « هَلَّ » قريب منهُ فقالوا : هَلَّ السَّحاب وانْهَلَّ بالمطر ، وذلك إذا قطر فوقع ماؤه فسمع صوت هذا الماء حين يصطدم الثّرى والرمل بحباتِهِ فى شدة انصبابِهِ ، وتردد هذا الصوت مرة بعد مرة ، ومنهُ « أهلَّ » إذا رفع صوته بالدعاء فردَّده .

فإذا صرتَ بعد هذا إلى الحرف الذى يلى اللام وهو النون فى « أنَّ » ، حيث ينبعث الهواء المقذوف إلى الخياشيم ، فيحار فيها ويتردد ويجولُ ويُسمَع لجولانه فى الأنف صدًى ناعمًا تتبعه غُنَّة مُدَوّيةٌ باحتكاك الهواء بجدار الأنف – رأيتَ المعنى يتسلسل من اللاَّم إلى النون مختلفًا فى الدلالة اختلافًا بينًا مرة ومقاربًا مرة أخرى . ثم هو من أجل ذلك حرفٌ دَمِثٌ طيِّع مترفِّه ناعمٌ حُلو النَّغم لطيفُ الترديدِ ، يسيلُ مع الهواءِ لينًا ونعومةً ورقة ، لا تدركه الجفوةُ التى تعرض لسائر الحروف مع التحريك إذا حُرّك ، فهو لطيفٌ مطاوع ذو نَغَم إذا حُرِّك أو سُكّن .

فهو إذن أقرب الحروف للبيان عن المعانى الصافية التى لا تتحامل أصواتها إلى المادة وصوتها ، ولذلك يدور أكثر مايدور فى الألفاظ ذوات المعانى النفسية الصافيةُ التى تذوب فيها آلام النفس وأحزانها وأحلامها وأفكارها التى لا تتكلم إلَّا لمحًا وإشارة وتلويحًا . فكذلك هو فى معناه إذا قلت : « أنَّ » أنينًا ، و« حنَّ » حنينًا وحنانًا ، و« هَنَّ » هنينًا ، وهو كالحنين والأنين ، وكذلك « خنَّ » خنينًا ، وهو الانتحاب والبكاءُ الذى يتردد حتى يصير فى الصوت غُنَّة من جولان البكاء فى الخياشيم . وذلك كلهُ من أجل الحزن الذى لا يعبَّر عنهُ إلَّا بالصوت المبهم المطاوع لحركة الجسد إذا حُرِّك من نوازى الأحزان الداعية إلى هزّ الأعصاب وبالرجفة التى تلحقها من تنزّيه فيها . ولكن انظر إلى « خنَّ » وتدبَّر فعل « الخاء » فى توجيه المعنى إلى الشموخ والاستعلاء ورفع الصوت بالبكاء ، وخشونة الصوت التى تكون فى هذا الضرب من البكاء أو الضحك المشوب بالترفُّع والاشمئزاز ، وإلى التعذُّر والمعالجة التى تجدها فى البدء بالخاء . ومن أجل هذا يتباين الأنينُ والحنينُ من « الخنين » تباينًا صحيحًا فى الدلالة على هذا الأنين المشوب بالصوت الذى وصفناه لك .

ونحن نقف بالقول عند هذا الحدّ الذى حدَّه الفرق الصوتى أيضًا بين النون والراء التى تليها فى المخرج ، ولعلك قد رضيت عن هذا الضرب من النظر ، ولعلك تحمل نفسك على معاناته وتكلفه ، ولعلك تجد لهُ من الطرافة والحسن واللذة ، وما يجعلك تمضى فى إتمام ما أسقطناه من كلامنا . فإذا فعلت عرفت لطف هذه اللغة ، وملابستها للطبع والطبيعة والفطرة ، وأن أصحاب هذا اللسان كانوا أرقَّ الناسِ إحساسًا ، وألطفهم فهمًا ، وأحسنهم تهديًا الى المعانى ، وأثقفهم لسحر الطبيعة وأنغامها ولغتها التى تجرى فى أرواح الشعراء بالمعانى والأحلام .

واعلم أننا إنما أخذنا لك من أبواب الكلام فى هذه الكلمات ، وما يُعَدُّ من أصول المادة اللغوية التى يكون الحرف دالًّا عليها ، وتركنا ماهو مجاز واستعارة فى مذهبنا ، وإن كان أصحاب علم اللغة يعدُّونه من أصل المادة أيضًا . وإذا جاء أوان شرح المجاز من المعنى الأصلى الى المعنى الذى انتقل إليه اللفظ بعدُ ،

عرفت أن هذه اللغة شريفة جليلة دقيقة التركيب ، مع ماتتبين فى قسماتها من النبل والاستواء والاستقامة على مذهب لا يتخالف ولا يتناقض ولا يختلُّ والله المستعان .

* * *

عبقرية عمر

تأليف : الأستاذ عباس محمود العقاد
المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، مطبعة الاستقامة فى
سنة ١٣٦١ هـ ، ١٩٤٢ م عدد الصفحات ٤٦٠

« وكتابى هذا ليس بسيرة لعمر ، ولا بتاريخ لعصره ، على نمط التواريخ التى تقصد بها الحوادث والأنباء ولكنهُ وصفٌ له ، ودراسةٌ لأطواره ودلالة على خصائص عظمته ، واستفادة هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الحياة . فلا قيمة للحادث التاريخى جلَّ أو دقَّ إلَّا من حيث أفاد فى هذه الدراسة ، ولا يمنعنى صغر الحادث أن أقدّمهُ بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث ، إن كان أوفى تعريفًا بعمر وأصدق دلالة عليهِ .

« وعمر بعدُ رجل المناسبة الحاضرة فى العصر الذى نحن فيه ، لأنهُ العصر الذى شاعت فيهِ عبادة القوة الطاغية وزعم الهاتفون بدينها أن « البأس » و« الحق » نقيضان . فإذا فهمنا عظيمًا واحدًا كعمر بن الخطاب ، فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه لأننا سنفهم رجلاً كان غايةً فى « البأس » ، وغاية فى « العدل » ، وغاية فى « الرحمة » . وفى هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى بهِ من ليس ميؤوس الشفاء » .

هكذا قدَّم العقاد بين يدىّ كتابهِ وهو أتم قول فى البيان عن مبنى كتابه وعن منحاه وعن غرضه الذى رمى إليهِ فى كل فصل من فصوله . فأنت تقدم فيه بعينيك ورأيك وعقلك على رجل قد استوى واستَحْصد . لا تجد ذكر أولية ولا ميلادٍ ولا نشأة ، ولا من كان أبوه ولا من كانت أمه ، وإنما هو « عمر بن الخطاب » وحدهُ الذى تلقاه . ثم تجول فيه فلا ترى تاريخًا ولا موقعةً ولا فتوحًا ولا أعمالًا ولا حوادث ، وإنما ترى « رجل » التاريخ والموقعة والفتح والعمل والحادثة قد

---

* المقتطف ، المجلد ١٠١ ، ديسمبر ١٩٤٢ ، ص : ٥٣٤ - ٥٣٨

امتثل لعينيك قوّة وفكرًا وعقلًا وتدبيرًا وجنانًا ، وهو الرجل ... هو عمر بن الخطاب .

وعمر - ككل رجل فى التاريخ - قد ترك للناس أعماله وخرج منها لتكون شاهدةً عليه ، أحسن أو أساءَ ، وليس أحد بأكبر من أن يسيء . وقد وقع فى تاريخ عمر بعض ما يمكن أن يترجَّح الرأى فيه إلى جانب الإساءَة ، وإذا كان ذلك ، فإن عمل الكاتب - إذا أراد أن يؤدى الأمانة التى استحفظ عليها - أن لا يدع شاردةً من الحوادث إلَّا اعتبرها ووزنها واستخرج منها مايقيم له وجه الرأى ، فإن من ظلم الظالمين أن تحكم بالإساءَة ، على رجل قد أكثر من الإحسان حتى عُرف به . وليس يستقيم وجه الرأى فى مثل هذا إلّا بعد تمحيص يخرج بك إلى القدرة على معرفة النية التى انطوى عليها صاحب العمل فيما عمل . ولست تصل إلى معرفة النية فى العمل حتى تتمثل الرجل بجميع خصائصه ومناقبه ، وأطواره ومثالبه ، ثم لا تزال توازن بين ما يجتمع لك حتى تعرف الحدود التى يقف عندها فى كل أمر من أموره أو عزيمة من عزائمه ، وحتى يتبيّن مقدار الطاقة فى كلّ قوةٍ من قُواه ، وكيف تسيلُ ، وإلى أين تتَّجِه ، ولم تنحرف إلى غير ما يظنُّ بها .

فإذا عرفتَ ذلك وأطقته ، فأنتَ - بَعدُ - على الطريق ... وإذا الشيءُ يفسِّرُ الشيءَ وقد ظُنَّ أنهُ يعارضهُ ، وإذا الحادث يحقق الحادث وقد خيِّل أنهُ يناقضه . وبذلك يخرجُ الكاتب من جملة « الكتّاب المنصفين !! » - كما قال العقاد - الذين تعوّدوا « أن يحبّذوا وينقدوا ، وأن يقرنوا بين الثناء والملام ... فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنّة المغالاة والإعجاب والتحيز » .

ويكفى العقاد فخرًا أنه حطَّم بهذا الكتاب تلك الهياكل البشعة الموبوءة التى يتعبَّد أهلها بكلماتٍ مريضةٍ كالإنصاف والتحقيق العلميّ ، ثم يرمون من سواهم بالإغراق والمبالغة والمغالاة والتعصُّب إلى آخر مايملكون من كَلِم . ولم يكن تحطيمه لها إلَّا بقوةٍ من العقل والمنطق والاستقصاءِ والمراجعة ، حتى يخيل إليك إنه لم يدَعْ شيئًا يمكن أن يؤتى به فى الحجة والدليل إلَّا أتى بهِ بيّنًا كأحسن البيانِ لمن شَرَح بالعلم صدرًا ولم يعاند فيه عنادَ من لا يعقل . ولذلك لم يحجم عن أن

يقول لهم حين قال لنفسهِ فى أول كتابه : « إن كنتِ قد أفدتِ شيئًا من مصاحبة عمر فى سيرته وأخباره ، فلا يحرجنّك أن تزكى عملًا لهُ كلما رأيتهِ أهلًا لتزكية . وإن زعم زاعمٌ أنها المغالاة ، وأنه فرط الإعجاب » ، « فالحق أننى ماعرضت لمسألةٍ من مسائله التى لغِط بها الناقدون إلَّا وجدتهُ على حجة ناهضة فيها ، ولو أخطأه الصواب » .

وهذا الذى فعله هو على التحقيق طريق العالم المتثبت الذى لا يخاف ولا يتردّد ، ولا يحاول أن يستجلب لنفسه المحاسن التى تقوم على دعوى اللسان ، إذ يقول لهُ : هذا رجلٌ منصف ! هذا رجل محقّق ! هذا رجل واسع الذهن ! هذا رجل يرى وجوه الرأى من جميع نواحيها ! فإنما هذه كلها تعاويذ الْمرضى وتمائم الجهَّال .

لم يدع العقاد شيئًا من مقوّمات شخصية عمر إلّا عقد عليه فصلًا أو بعض فصل ، ومن هذه المقوّمات يتمثل عمر بجميع خصائصه وأخلاقه وما تدلُّ عليه أعماله من أول جاهليته إلى مقتله وهو أمير المؤمنين .

وما شكّ أحدٌ فى القوة النفسية التى كانت تتدفّق بهذا الرجل كأنها سيل جارفٌ ، وكانت تسم أعماله وأخلاقه بسمة فذّة بين أعمال الرجالِ وأخلاقهم ، وكانت على عهد رسول الله - وهو من هو - مميزة لعمر عن جميع أصحابه ﷺ . ولقد كانت هذه القوة التى لا يخطئها مؤرّخٌ يكتب عن عمر ، سببًا فى أخطاءٍ كثيرةٍ فى فهم تاريخ الدولة الإسلامية بل كانت سببًا حَمَل بعضَهم على أن يضعوا فى الدعوة الإسلامية أوهامًا مضلّة لمن لم يقف على حقيقة هذه الدعوة ، ولا على حقيقة صاحبها ، ولا على حقيقة عمر من بين أصحابه ﷺ . وكأن العقاد وقد تنبّه لهذا من أول كتابه فهو يثبت لك القوة النفسية فى عمر ويدلك على أنها مع اندفاعها وتدفقها لم تجعل صاحبها من أصحاب المطامع الطاغية التى تدفعهم إلى اقتحام الحقّ إلى باطلهم إن كان لابدّ لهم من ذلك . ولم يأت بها كلمةً تقال لتدفع شبهةً ، بل عاد إليها فى الفصل الذى عقده عن « صفات عمر » من ص ٤١ إلى ص ١١١ ، ثم فى الفصل الذى يليه عن « مفتاح شخصيته » من

ص ١١١ - ١٤١ فأبان عن تعادُل القوى النفسية فى عمر بحيث لا تطغى صفةٌ من صفاته على الأخرى فتتحيَّنها أو تأكل بعض حقها فى العمل . فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان ، هذه كلها فى عمر تتعاون تعاون الأسلحة الحربية فى الغرض الذى ترمى إليه ، وأَصْل ذلك كله مجتمع فى الخلق الغريزى الذى طبع عليه عمر ، وهو طبيعة الجندىّ الحازم الصارم الذى لا يلتف إلى وراءَ إذا عرف أنه لابد منتصر على العقبات التى تخيّل له لتضعف من حدَّتهِ . وقد جعل العقاد « طبيعة الجندىّ » هى مفتاح شَخصية عمر ، ولقد وفّق فى ذلك أحسن التوفيق ، إذ هى التى انتظمت جميع خلائقه فرمت بها إلى أغراضها ، وحمتها أن يطغى بعضها على بعضٍ .

بل إن الحدود التى حدّ بها طبائع عمر ، وبيانه عن طاقة كل قوة من قواه ، وتحديده لعملها فى عمله ، قد أعانهُ كل العون فى تصحيح الروايات المختلطة التى تروى عن عدل عمر أو رحمتهِ أو قسوتهِ أو لينهِ ، فاستطاع مثلًا (من ص ٤٩ - ٥٨) أن ينفى من قصة عبد الرحمن بن عمر وأبى مسروعة حين شربا الخمر بمصر فحدَّهما عمرو بن العاص ، وأعاد عمر الحدّ على ابنه حين حُمل إليهِ بالمدينة - استطاع أن ينفى كل المبالغات التى دخلت على الرواية ، واستخرج منها الرواية الصحيحة التى تطابقُ الحقّ والعدل فى غير زيادة أو نقصان .

وبذلك أيضًا استطاع أن يعرّف برحمة عمر تعريفًا لا يدع شكًّا لأحد فى أن عمر كان يرحم بفطرة مستقيمة لا تظلم ولا تقبل الظُّلم فهو يرحم الصغير والكبير ، والمسلم والذمىّ من أهل الكتاب سواءً ، فهو لا يرحمُ المسلم لأنه من أهل دينه ، ثم تذهبُ الرحمة من قلبه لامرئٍ ليس من أهل هذا الدين ، بل هما لديهِ سواءٌ فيما استوجَبَا بهِ الرحمة .

وليست تقتصر فائدة هذا البيان عن قُوَى عمر على الكشف عن خصائص أخلاقه وطبائعه ، بل أعانت أيضًا على بيان أعماله كلها فى تأسيس الدولة الإسلامية ، التى قاد جيوشها ووسع ممتلكاتها ، وأرسل إليها عمالها ليحكموا البلاد ، ويعلموا الناس دينهم الذى اتبعوه .

فهذه القوة التى لاتقف أبدًا بل تندفع إلى الإمام فى كل وقت كما تكاد تعرفها فى عُمَر على عهد رسول الله ﷺ ، هى نفسها القوة المكيثة المتريثة التى كان عمر يوصى بها قواده وعماله . ففى عمر قوة الاندفاع وقوة الضبط معًا لا تفقد إحداهما حيث يجب أن تكون . « إن البأس الذى رُزِقته نفس عمر لحظٌّ عظيم ، ولكنه لو كان فى يَدَىْ غيرِها لقد يكون نصيبها أوْفى من نصيبه وهو فى يديها . فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره » وكذلك « يقوى الرجل فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخاف الضعفاء » كما قال العقاد فى فصل من كتابه .

ومن قديم والناس يخوضون فى موقف عمر من سيف الله خالد بن الوليد حين عزله ، ثم أتى جماعة من المحدثين - عربهم ومستشرقيهم - فاستوحلوا فيه إلى الأذقان ، فانبرى العقاد لأقوالهم ففندها بالحجة التى لا يقف لها شىء ، ولم يجعلها كذلك إلّا هذه الحدود التى استطاع أن يميز بها أخلاق عمر وطبائعه ، فإنهُ استخدم كل ما استبان لهُ من شخصية عمر بعد التحليل المقنع ، وسرد القصة كلها بما يرتضيه العدل والمنطق والتاريخُ ، وإذا شئت أن تتثبت من ذلك فاقرأ من ص ٣٣٨ - ٣٦٤ فلعلهُ خير ماكتب إلى اليوم عن هذه المسألة التى ضلَّ فيها من ضلّ .

إن كل فصل من هذا الكتاب يستوقف الناظر فيه ، فلا أدرى ما آخذ منهُ وما أدع ولقد جاهد العقاد فأبلى بلاءً حسنًا ... إنما كان يقاتل تاريخًا مختلطًا مبعثرًا قد أهملهُ أهلهُ ، وآراء باغية قد رمى بها قوم عزتهم عن أنفسهم قوة أيامهم وعلوّ سلطانهم ، وتكاذيب قد تجمل بها المستضعفون من الكتّاب . ولقد دل بهذا الكتاب على أن التاريخ العربى والإسلامى إذا استوى لهُ كاتب قد قرر المذهب على أصول صحيحة ، استطاع أن ينفى عنهُ زغلهُ [١] وأن يبعثهُ بعثًا جديدًا بعد تراكم الأتربة التى قبرتهُ أجيالًا طوالًا .

---

(١) الزَّغل : لا أعرف لهذا الحرف معنى يستقيم فى موضعه من السياق هنا . والزغل : مَجّ الشراب أو صبته ، ورمْىُ البعير بِبَوْله ، ورضع الفصيل أمه على كره منها ، وغير ذلك . ولابد أن الأستاذ شاكر قد وقف على معنى مخالف لما فى كتب اللغة أخلت به .

ليس من الهين أن تكتب التاريخ الإسلامى على نمط جديد ، فإن عدّة الكاتب لهذا الأمر تتنازعها قوّى مختلفة يجب أن تتوفر للكاتب ، ولعلها قد توفرت فى العقّاد ، فهو أديب يتلقّف معانى الكلام وينفذ إلى ما وراءَها ، وهو مفكر لا يدعُ للفكر منهجًا إلّا ولج إليهِ ، وهو واسع المعرفة فهو يعرف المجهول من المعلوم بأدق فكر وأحسن نفاذٍ ، وبذلك استطاع أن يكتب للتاريخ الإسلامىّ فصلًا خالدًا فى شخصية خالدة هى الفاروق « عمر بن الخطاب » .

* * *

شاعر الحب والفلوات

ذو الرُّمَّة

– ١ –

« ذو الرُمّة : لقبٌ غَلَب عليه ، واسمهُ « غَيْلان بن عقبة بن مسعود » من بنى عدى بن عبد مناة . وأمه « ظبية بنت عبيد أو بنت مصعب » من بنى أسد . وإخوته لأبيه وأمه : « مسعود » و« هشام » و« جرفاس » ، وكلهم شعراء . وكان هشام من عقلاء الرجال . وخاله أبو جِنّة الأسدىّ « حكيم بن عبيد أو بن مصعب » ، وكان شاعرًا . وابن عمّهِ « أوْفى بن دلهم العدوى » ، وهو أحد من يروى عنهم الحديث ، وكان رجلًا صالحًا . وصاحبته مىّ بنت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرىّ . وجدها قيس بن عاصم هو الذى قال فيهِ رسول الله : هذا سيد أهلِ الوبَر. ثم شبَّب ذو الرمة بخرقاء العامرية ليكيد بها مَيّة – وذلك قبيل وفاتهِ بقليل – ثم نزع إلى صاحبته حتى مات » .

قبس يتوقّد فى عينى هذا الغلام البدوىّ النحيف ، وقد أخذت أمه بيده تريد ذلك الشيخ سيد بنى عدىّ بن عبد مناة « الحُصينَ بن عبدة بن نعيم العدوى » وجاءَت المسجد والناس على صلاتهم ، حتى إذا ماانفتلوا عن موقفهم ، وانفضُّوا عن إمامهم أقبلت عليهِ : يا أبا الخليل إن ابنى هذا يروَّع بالليل كأنما يفزِّعهُ شيطان ، وإنى لأخاف عليه ، فاكتب لى معاذة أعقلها على عنقه . قال الشيخ : إيتينى برَقّ أكتب لك فيه . قالت : فإن لم يكن ، فهل يستقيم فى غير رقٍّ أن يكتب له ؟ قال : فجيئينى بجلدٍ . فانطلقت الأم الوالهة حتى أتتهُ بقطعة جلدٍ غليظ ، فكتب الشيخ لهُ معاذة فيه ، فعلقتها فى عنقه مشدودة على يساره فى حبل أسود .

فمكث الغلام بها ما شاءَ الله أن يمكث ، حتى قال شعرًا . وإن أمهُ لتمشى بهِ إلى بعض حوائجها ، فلما كانت ببعض الطريق ، مرَّت بالشيخ سيد بنى عدىّ بن

---

* المقتطف ، المجلد ١٠٢ ، فبراير ١٩٤٣ ، ص : ١٢٦ – ١٣٠

عبد مناة ، وهو جالس فى ملأ من أصحابه ومواليه . دنت وسلّمت وقالت : يا أبا الخليل : هذا غلامك غيلان قد شبَّ وقال [١] ، ألا تسمع قوله وشعره ؟ قال : بلى ! يا أم مسعودٍ ! فتقدّم الغلام فأنشدهم ، فإذا أبلغ قائل ، وأنطق متكلم ، وأحسن صوتٍ فى أحبّ إنشادٍ ، كأنما يرتل مزامير داود . قال الشيخ لقد أنجبتِ يا أمّ مسعودٍ ! أحسن ذو الرمة وأنهُ لشاعرٌ ! فمن يومئذٍ ذهب بلقبه « ذى الرمة » ، لذلك الحبل الأسود البالى الذى كان فى عنقه ، والذى كانت فيه المعاذة . (والرمة قطعة من حبلٍ بالية) .

ولم يلبث أن خرج الغلام « ذو الرمة » ، هو وأخوه مسعود وابن عمه (أوْفى) ، فى بغاءِ إبلٍ ضلّت لهم ، حتى إذا أجهدهم العطش ، وردوا ماءً . وإذا حِوَاءٌ [٢] عظيم . فقال مسعود لأخيه الغلام : إيت الحِوَاء فاستسق لنا . فانطلق ، فإذا عجوزٌ جالسةٌ فاستسقاها . فالتفتت وراءَها وقالت : يامَى ! اسق الغلام ! ... ودخل ذو الرُّمة على مى وهى تخيطُ ثوبًا لها ، وهى تتغنَّى بأرخم صوتٍ .

يامن رَأى برقًا يَمُرُّ حينًا ؟ زمْزَمَ رغْدًا وانْتَحى يمينا
كـأنّ فـى حـافـاته حـنـيـنـا أو صوتَ خيل ضُمَّر يَرْدِينا [٣]

فقطعت غناءَها وقامت إليهِ تصبُّ فى قربته من الماءِ . وعلى الفتاة بُرْدٌ فارسيٌّ لا جَيْب ولا كُمّ يسمونهُ « النوذر » . فلما مالت على القربة تصبُّ ، رأى ذو الرُّمَّة ، فلها بالنظر إليها ... غلامٌ متوقدٌ ينظر من عينى باز ، إلى فتاة أحسن من النار الموقدة فى الليلة القرّة فى عين المقرور مسنونة الوجه ، أسيلة الخد ، شماءُ الأنف ، حُسَّانة الجيد ، هيفاءُ أملود [٤] ، واردة الشعر ، عليها وَسْم جمال ، تنظر عن عينى غزال ، فجعل يستطعم حديثها ، حتى انطلقت تحدثهُ ويحدِّثها ، والماءُ يذهب يمينًا وشمالًا . رقّت الفتاة للغلام حين نمَّ صوتهُ على هواه . فقالت له : ياذا الرمة ! لقد كلّفك أهلك السفر ، على ما أرى من صغرك وحداثة سنك !! وتفطن لهما العجوز ، وتقبل عليهما ، وتقول : يابنّى ! ألهتك مىّ عما بعثك أهلك له ! أما

---

(١) أى قال الشعر .
(٢) الحواء : مجتمع بيوت الناس .
(٣) يردى : يسرع .
(٤) الأملود : اللينة القدّ .

ترى الماءَ يذهب يمينًا وشمالًا ؟ فلم يخش أن يقول لها يا أماه ! أما والله ليَطولنَّ هيامى بها !! ... ثم يملأ قربتهُ وينصرف ، ويأتى أخاه وابن عمه . ولم يطل بهِ الأمر حتى أخذه من هواه ما قرب وما بعد ، فيلف رأسهُ ، وينتبذ دونهما ناحية ، حتى دنا رحيلهم فارتحلوا ، ومىّ أحلام ليله ونهاره .

وشبّ الغلام فى وَهج الحبّ ... فى سعير الحرمان ، فإذا هو شابٌّ آدم ، رقيق البشرة ، مدوَّر الوجه ، أكحل حلو العينين ، برّاق الثنايا ، حسن المضحك ، أقنى الأنف ، أنزع الرأس ، حسن الشعرة جعدها ، خفيف العارضين ... بدوىٌّ جميل المنظر ، لوَّحه [١] البيد والأسفارُ ، وإذا هو يفترُّ عن شاعر عاشق مُلْهم لُجِّىّ الصبابة ، لا يشكو الحبَّ أحد أحسن من شكواهُ ، مع عفةٍ وعقل رصين . وإذا هو يتعشق الأطلال فى البوادى والقفار ، فيقف عليها متأملًا قد نفذت بهِ أشواقه إلى سرِّ الرمالِ ، فلا ينعتُ الفلوات ، وسرابها ، وأسفارها ، وسَفْرها [٢] ، وما فيها من شىءٍ ... شاعرٌ ، أبرعَ من نعته . ويتسامع الناس بهذا « الغلام من بنى عدىٌّ » الذى يركب أعجاز الإبل وينعت الفلوات ، حتى يحسده فحول الشعراءِ كجرير والفرزدق ، فيؤخروا ذكره لما يرون من حداثة سنه ، وأنهُ لا يحسن من الشعر ما يحسنون ... هذا المدحَ ، وهذا الهجاءَ ، وهذا الفخر !!

ولكن الفتى البدوىّ العاشق يندفع إلى الحَضَر فيكثر أن يأتى الكوفة والبصرة يدَعُ رجز أهل البادية ، ويأخذ فى القصيد . ويلمُّ بأهل الحضر فإذا هو عندهم من أظرف الناس وأرقهم : بدوىٌّ عاشق ، عفيف الطرف ، عذب المنطق . إذا نازع أحدًا الكلامَ لم يسأم حديثه ، وإذا تكلّم أبلغ الناس ، يضع لسانهُ حيث شاء ، لم يكن أحد من القوم أحلى كلامًا ، ولا أجلى منطقًا ، ولا أحسن جوابًا منهُ ، حتى كانوا يرون أن كلامه أكبر من شعره .

ولم يزل الفتى يتردد بين ديار مىٍّ فى بلاد بنى مِنْقَر ، وبين دياره فى بلاد بنى عدىّ ، وبين الكوفة والبصرة . فتجلو أرض الحضر وحديث أهلها بعض ما فى

---

(١) لوّحه : غيّر لونه وأضمره .

(٢) السفر : جماعة المسافرين ، مثل راكب ورَكْب .

نفسه من جفاء البادية . حتى إذا لجَّ به هواه عاد إلى بلاد ميّ ينظر الديار بعينين ظامئتين ، فإذا خفَّ ما به انقلب إلى أهله ، يحادث بينهم قلبه . ولا يزال يردد ذكر ميّ حتى عرف بها وعرفت بهِ ، ولم يكن مابهِ إلَّا هوى فتى لفتاة هو عليها – إن شاء – قادر . فقنع بذكرها وحبها زمنًا ، وجعلت عناصر المأساة تتجمع من هنا ومن هناك ومن ثمة . وذو الرمة فى أسفاره يتطرح بين البوادى والحضر ، يستزير طيف ميّ على البعد ، قد عمى عن فجاءات الغِيَر !

لم تلبث مى أن تزوجت أحد رجال قومها : « عاصمًا المِنْقَرِى » . نسيت الغلام الذى عجبت منه ومن أخيه مسعود ، يوم .

« رأتْ غلامَيْ سَفَرٍ بعيد يَدَّرِعان الليل ذا السدود »

« مثل ادّراع اليَلْمَقِ (٢) الجديد »

نسيت ميّ عينيه تنظران فى عينيها ، وهى تصبّ له الماء فى قربته ، فيشغلها الحديث ويشغله ، فيذهب الماء يمينًا وشمالًا . نسيتْ ذلك الهيام الذى انبعث فى صوت الغلام يدعو هواها إلى هواه . لم تأبه لذلك القلب الغض الذى تنسَّمها فاستراح ، ثم فارقها ليتعبّد لها ولطيفها فى الليل والنهار ... مات صدى كلماته وهو يقول لأمها : « أما والله ليطولنَّ هيامى بها » ، فلم تجد لها فى نفسها رجعًا .

ويعرف ذو الرمة خبر زواج ميٍّ ، فيجن جنونًا .

يومئذٍ ينبثق ينبوع الشعر فى قلب هذا البدوى العاشق المحروم . الأمل ، اليأس ، اللوعة ، الدمع ، الصبوة ، الأحلام ، وساوس القلب ، ديارها ، زوجها ، أخوها ، الغدر ، الذكريات ، النظرة الأولى ... كل هذه أخذت تتدفق فى خطرات قلبه تحت الضربة الأولى من ضربات الغيرة المغيظة ، المحنقة ، الحاقدة . ميٌّ ... ميٌّ ... ميٌّ ... ، هكذا يتردد صدى الضربات الملحة التى لا تفتر ولا تنقطع ... ميٌّ ... ميٌّ ... ميٌّ ... ، صدى يتردد فى أذنيه من عن يمينه وشماله ، قد ملأ عليهِ أرضه وسماءه .

---

(١) يتطرح : يذهب ويجيء على ما بُعْد ما بينهما .

(٢) اليلمق : القباء الفارسى ، وهى مُعَرَّبة .

ميٌّ ... ميٌّ ...وتضرمت الروح باللَّهب القدسىّ ، وانبعثت فى عينى « ذى الرمة » تلك الشعلة الخالدة التى لا يطفئها شيءٌ ، وأكلت النار التى لا تخبو كل غشاءٍ كان يحول بينهُ وبين ميٍّ . وإذا الفتى اللّاهى جليد « قد حلّمته العشائر »[١] . ويخرج من بلواه ... من غيرته ... من أحقاده ، قد نصب وجهه لهجير الحياة ، فإذا قسماته تتوهج بالعزم ، والصبر ، والمغالبة ، وفى عينيه تلك النظرة النافذة المتأملة الساكنة ، ثابتةً لا تنهزم .

لقد كان أحب فتاة هو عليها – إن شاء – قادرٌ ، وهو اليوم يحب امرأة قد ضمها خدْر بعلها ، فلا سبيل لهُ عليها . أحبَّ الفتى فتاته ، ولكنه اليوم رجل يحب أنثى قد تصدَّى وجودها لوجوده . ذهب الفتى وذهبت الفتاة ، وبقى الرجل والمرأة .

أىُّ سرّ عجيب يمسُّ الفتاة اللاهية المتقلبة فإذا هى تستحيل إلى وجودٍ كاملٍ ... إلى قلب يسع الدنيا ... إلى حب ثابت حافل ؟ أى سرّ هذا الذى يحيل عاشقها الفتى إلى قوةٍ زاخرة منشئة مبدعة متجلية ، لا تقف ولا تتردَّدُ . أى سر فيها يمنح العين دقة ونفاذًا ؟ أى سر ينفث فى البصيرة وعيًا مستوعبًا لا يضيق ؟ بل أى سر هذا الذى يرد إلى العبد حريته ليزداد فى حريته تعبدًا للرّق ؟

وينظر ذو الرمة فيرى الأُسَى[٢] قد سبقته بين يديه . فما من شاعر من العشاق إلّا قد ابتلىَ بمثل ما ابتلى به : امرأة ذات بعل لا سبيل لهُ عليها . أهى إذن « المرأة » وحدها لا الفتاة ؟ أهى وحدها التى تحقق لهُ معنى وجوده ؟ فليذهب ليخالس الطرف إلى مى زوج « عاصم المِنْقَرى » . ويركب ناقته « صَيْدَح » ، حتى إذا انتهى إلى ديارها لمح « ميًا » مع الصبح تستقبل النهار .

وتجلو بفَرْعٍ من أراكٍ كأنه ... من العنبر الهندى والمسك يُصْبَحُ[٣]

---

(١) من بيت لذى الرمة ، وتمامه :

أفى الدار تبكى أن تفرّق أهلُها ... وأنتَ امرؤٌ قد حَلَّمتْكَ العشائِرُ

حلمتك : وَصَفُوك بأنك حليم .

(٢) الأُسَى : جمع أُسْوَة .

(٣) الأراك : شجر تتخذ منه المساويك . يُصبح : يُسْقَى العنبر الهندى والمِسك فى الصباح

ذُرى أَقْحُوانٍ راحهُ الليل وارتقى إليه الندى ، من رامة ، المتروّحُ [١]
هجانَ الثنايا مُغْرِبًا لو تبسمت لأخرس عنه ، كاد بالقول يفصح [٢]

هى البرءُ والأسقام ، والهمُّ ، والمنى ،
وموت الهوى ، لولا التنائى المبرح

ويعود « ذو الرمة » إلى ديار أهله ، إلى أخيه مسعود ، إلى الذى جعل يركب معه الفلوات ، يطيعه تارة حين يستوقفه على ديار مى ، ويعصيه تارة أخرى ويلومه . ولم يزل ذاك أمره ، يهيم فى ديار مى أكثر من عشرين سنة ، ومى لا تزداد فى عينيه إلّا ملاحة ، ويتفجر شعره من قلبه ، يشكو ما يلقاه من حبها ، وما يقاسيه من البيد فى الحنين إليها والوجد بها . ولا يلقى صاحبته إلّا والحىُّ خُلوف ، لم يبقَ فى الديار إلّا النساءُ ، فيشكو لها ويتوجع ، فتمسح عنهُ بعض عذابه . ويتردّد شعره بين البادية والحضر فلا يزال يعجب الناس ويحسده الشعراءُ .

ويلجُّ الشوقُ بذى الرمة يومًا ، فيركب ناقته فى ليلة ظلماءَ يريد أن يضيف [٣] « عاصمًا المنقرى » زوج مىّ ، وهو يطمع فى أن لا يعرفه فيدخله بيته ، فيقريه ، فيرى ميًا ، ويتزوّد من وجهها ، ويكلمها. فلما نزل به فطن له عاصم وعرفهُ ، فلم يدخله . وأخرج إليهِ قِراه وتركه بالعراءِ ، فلمحته مية تحت الليل فعرفته . وجعل ذو الرمة يتململ ، فلما كان فى جوف الليل تغنى غناء الركبان ببعض شعره :

أراجعة يا مىّ أيامنا التى
« بذى الرمث » أم لا ؟ ما لهن رجوعُ !
ولو لم يَشُقنى الظاعنون لشاقنى
حمام تغنَّى فى الديار وقوعُ

---

(١) ذُرى الأقحوان : أعاليه ، وهى جمع أُقحوانة ، وهى نبتة طيبة ، تشبه بها ثغور النساء .

(٢) هِجان : بيض ، وكذلك مُغرِب ، أو هو الشديد البياض .

(٣) يضيف : ينزل به ضيفا .

تجاوبنَ فاستبكينَ من كان ذا هوى ،
نوائح ماتجرى لهنَّ دموعُ !
دعانى الهوى من نحو ميّ ، وشَاقنى
هوًى من هواها : تالد ونزيعُ [١]
إذا قلت عن طول التنائى قد ارعوى ،
أبى مُنْثَنٍ منه علىَّ رجيعُ

فغضب عاصمٌ ، وقام إلى امرأته وقال : قومى فصيحى به وسبيه ، وقولى : أى أيام كانت لى معك « بذى الرمث » ؟ فأبت ميّ وقالت لزوجها : ياسبحان الله ! ضيف !! والشاعر يقول ! فانتضى عاصم سيفه وقال لها : لأضربنك بهِ حتى آتى عليك أو تقولى ! ففزعت وصاحت بذى الرمة وسبته كما أمرها زوجها . هذا صوت ميّ !! ذهل ذو الرمة ، فلما استقر فى سمعه كلامها ، نهض على راحلته فركبها . وانصرف عنها وعن ديارها مغضبًا يريد أن يصرف قلبه عنها إلى غيرها . وعاد إلى ديار قومهِ مغيظًا يتمزَّق ، وأبى على نفسه ذكر مى ... وهيهات .

وجاء قَدَرُه ، فخرج فى سفر فى بعض أصحابه ، فلما كان بفَلْج - فى طريق الحاج من البصرة إلى مكة - إذا جوارٍ خارجات من بيت يردنَ آخر ، وفيهنَّ جارية طويلة ، حسنة ، حلوة ، شهلاء ، بها فَوَهٌ [٢] ، فنظر إليها فوقعت فى عينه وفى قلبهِ المغيظ المحنق ، وذكر ميًّا فأراد هذه يكيدها بها إذا تناقل الناس ما بينه وبينها ، وما يقول فيها . فأخذ إداوَته [٣] فخرَّقها ، ودنا من هذه الجارية يبتغى حديثها فقال : إنى رجل على ظهر سفر ، وقد تخرَّقت إداوتى فأصلحيها . فنظرت إلى عينيه وقالت له تهزأ به : والله إنى ما أحسن أعمل ، وإنى لخرقاءُ ! (والخرقاء التى لا تعمل بيدها شيئًا لكرامتها على أهلها) ، فسماها يومئذٍ خرقاء . وانطلق يشبب

---

(١) التالد : القديم . والنزيع : الذى ينزعه من مكانه إلى منَ أحبّ ، يعنى أن هواه أبدا متجدد .

(٢) الشُّهلاء : التى يخالط سواد عينها حُمْرة أو زرقة ، وهو ذَمّ عندهم . الفَوَهُ : سعة الفم ، وأيضا خروج الأسنان من الشفتين وطولها .

(٣) الإداوة : وعاء يحفظ فيه الماء مثل المَزَادة

بها ويذكرها فى بعض شعره ، يريد أن يغيظ بذلك ميًا ، فرمى إليها أول ما رمى ببيت تداولتهُ الرُّواة :

تمام الحجّ أن تقف المطايا على خرقاءَ واضعة اللثام

فجعلها منسكًا من مناسك الحج ، لا يتم إلا به !! ولكنه كان لا يطيق أن يدع ذكر مى فلم يقل فى خرقاء إلّا قصيدة أو قصيدتين ، ورجع إلى ميّ .

ثارت نفس ذى الرمة ثورتها على مى ، وقلق ، فاضطرب فى البلاد حتى أبعد ، فذهب إلى أصبهان ، فلم يطق أن يقيم بها فعاد إلى دياره ... صبىٌّ مروَّع يتفزَّع بالليل ، وغلامٌ عاشق يتزوَّد بعينيه من ميّ نظرة بعد نظرة ، وبين جنبيه نفس ملتاعة يحرقها الوجد فى وقدة البيد تحت الشمس السافرة ، ثم شابٌّ تأكل الغيرة قلبه ، يثور بالليل والنهار فزعًا إلى مى ، إلى المرأة التى لا سبيل لهُ عليها إلّا بالوساوس والأوهام . إلى أين ومن أين ؟ من البادية ... إلى الحضر ... إلى البادية ... من الديار ... إلى الأطلال ، وميُّ تناديه فى سرّ روحه فيهوى إليها كأنه شهاب تقاذفهُ الفضاء . فلم يلبث ذلك الشاب القصير ، النحيف ، الخفيف العارضين ، أن استحال شيخًا شَخْتًا [١] دقيق العظام ، قد براهُ الحب والضنى ولمّا يشرف على الأربعين . حتى إن أمهُ لتقول ، وقد تحلق الناس عليه واجتمعوا . فأنكر - من لم يعرفهُ - دمامته ، : أيها القوم اسمعوا إلى شعره ، ولا تنظروا إلى وجهه !!

فلم يلبث ذو الرمة على ذلك أن اشتكى « النُّوطة » - وهى زيادة تحدث فى النحر كأنها غُدَّة ، تَمور بين الجلد واللحم إذا حركتها - فوجع بها دهرًا حتى قال :

أَلِفْتُ كلابَ الحيِّ حتى عَرَفْنَنِى
ومُدَّت نِساج العنكبوت على رَحْلِى

فلما تماثل عزم على أن يخرج إلى الشام ، إلى هشام بن عبد الملك ، فقال

---

(١) الشخت : الدقيق الضامر .

لأخيهِ مسعود : يامسعود ! قد أجدنى تماثلت ، وخفّت الأشياء عندنا ، واحتجنا إلى زيارة بنى مروان ، فهل لك بنا فيهم ؟ فقال نعم ! فأرسلهُ إلى إبلهِ يأتيهِ منها بلبن يتزوّده ، وواعده مكانًا . وركب ذو الرمة ناقته فقمصت به ، وكانت قد أعفيت من الركوب ، فانفجرت النوطة التى كانت به . فلما بلغ موعد أخيهِ جهد فقال : أردنا شيئًا وأراد الله شيئًا . وإن العلة التى كانت بى قد انفجرت . مكث أيامًا حتى ثقل ، وكان معه من أخواله الحجاج الأسدى فسأله : ياغيلان ! كيف تجدك ! فقال : أجدنى والله يا أبا المثنى اليومَ فى الموت لا غداة أقول :

كأنى غداة الزُّرْق يا مى مُدْنِفٌ　　　يَكِيد بِنَفْسٍ قد أحمّ حِمامُها [1]

فلما احتضر كان آخر ما قاله :

ياربٌّ قد أشرفتْ نفسى ، وقد علمتْ
علمًا يقينًا لقد أحصيتَ آثارى
يا مُخْرِجَ الروح من جسمى إذا احتضرت ،
وفارجَ الكرب ، زَحْزِحْنى عن النارِ

فمن مبلغ ميًا منية هذا القلب الذى شب فى حبها حتى هَرِم قبل حين هَرَم ؟؟

* * *

(١) يكيد بنفسه : يجود بها عند الموت .

شاعر الحب والفلوات
ذو الرُّمَّة

– ٢ –

« هذا والله ملهمٌ ! وما علمُ بدويٍّ بدقائق الفطنة وذخائر العقل المعدَّة لذوى الألباب ؟ لله بلادُ هذا الغلام ! ما أحسن قولهُ ، وما أجود وصفه ! » .

الكميت بن زيد الأسدى الشاعر

غلامٌ يتيمٌ عبقريُّ الطبيعة ، مشتعل العقل ، ثائر العاطفة ، نابض الأعصاب ، لطيف الحس ذكيُّ القلب ، وَرِعُ النفس ، جيَّاش الخيال : يرى أو يسمع ، أويتوهَّم ، فيهتز كيانه من أعماقهِ هِزة خاطفةً ، كأنهُ قوسٌ موتَّرة يُنبضُها مشبوح [١] الذراعين شديد النَّزع . بعث اليتْم فى دمهِ حرارة التحفُّز ، وسعَّر فى روحه ضِرام الحياة الملتهمة ، وسلبهُ سكينة القلب الغرير الناشىء ، فهو أبدًا جافلٌ متفزّع ، كأنما يعارضهُ – حيثما توجه – شبحٌ يتخيل لهُ فى صورٍ تروّعهُ وتَهُولهُ .

ويقوم على تثقيف هذا الغلام اليتيم وتهذيبه ، رجلٌ من عقلاءِ الرجال ، وشاعرٌ مُقلٌّ من شعراءِ بنى عدى بن عبد مناة ، ثم هو أخوه الأكبر : « هشام بن عقبة » . يشفق هشام على يتيمه « غيلان » ، فيحوطهُ بقلبٍ متودّدٍ ، ويعطفُ عليهِ بنفس صادقة ، فتشتد قوى الودّ بين الغلام اليتيمِ وأخيهِ الذى يربّبُهُ ، وبذلك يكسب « الطفل » من عقل « الرجل » وذكائهِ وصدقهِ ، عقلًا وذكاءً وصدقًا ، حتى تنشقَّ طفولته عن رجولةٍ مبكرةٍ . ولا يزال الغلام ينشأ فى سر البادية العربية الخالدة التى لا تكادُ تتغيّر ، وفى جوّ الشعر العربى من أقدم عصوره إلى أيام شبابه [فى أواخر القرن الأول من الهجرة من سنة ٧٧ – ٩٧] ، وبين إخوة وأخوالٍ من شعراءِ البادية ، وبين رواةٍ قد حفظوا شعر قومهم وغير قومهم . لا يزال الغلام ينمو على

---

* المقتطف ، المجلد ١٠٢ ، مارس ١٩٤٣ ، ص : ٢٤٥ – ٢٥١

(١) مشبوح : عريض ، يعنى بُعْد مابين الذراعين ، وهذا أدعى إلى قوة النزع ، وهو جذب وتر القوس لإطلاق السهم .

الأيام فى ذلك كلهِ ، حتى يمشى ، فى بادية قومهِ « بنى عدىٍّ » ، بروح ثائرة متمرّدة عليه ، تكافح طُغْيان البادية لتظفر بأسرارها المكتّمة . ينظر ، وفى عينيه تلك اللمحة الحديد النافذة التى لا تدَعُ شيئًا إلّا تغلغلت فيهِ أو أحاطت بهِ ، لينالَ الخيالُ غذاءَه مما يرى . يُصغِى ، وفى أذنيةِ تلك الحاسة الدقيقة التى لا تذرُ نغمة إلّا اختطفتها ، ليأخذ الشعور الرقيق حظهُ مما يسمع .

ويُومض فى قلب الغلام ذلك الضوءُ المتلاحق المتدارك الذى يضئُ لعينيه دنيا جديدة ثم يخبو ، ليعود فيبحث عنها فى الظلام ليجدها مرة أخرى . هنا ، ثم ههنا ، ثم هناك !!! أين ضلّت عنهُ ؟ كيف ذهبت ؟ لماذا اختفت ؟ ما الذى رأَى ؟ ويهتز الفتى لليقظة ، يريد أن يجدها ، ولابدَّ لهُ من أن يجدها . وفى سر البادية العربية الخالدة ، وفى جو الشعر العربىّ الخالد ، يدبُّ الفتى اليتيم الصغير بين إخوةٍ وأخوال من الشعراءِ ، ورواة للشعر يتناشدونه فى أسمارهم تحت هدأةِ الليل التى تموج فيها النفس الإنسانية مَوْجَها . يصغى الفتى ويحفظ ، ويخفق قلبه بين جنبيه على نغم حُلوٍ حبيب تتردّد أصداؤه فى أرجاءِ روحهِ ، حين ينقلب إلى مضجعهِ . ولا تزال ترنُّ فى أذنيهِ تلك الأصداءُ مع الفجر إذا تنفَّس .

ولم تزل البادية فى عصر هذا الفتى تردّد أنغامها إيقاعًا عجبًا على ألفاظ اللغة ، فى شعر امرىء القيس فحل الجاهلية ، ولبيد ، وطرفة ، وعنترة ، والأعشى ، والنابغة . ولكنَّ الفتى يتسمع إلى ذلك الحنين الخفىّ فى نغم امرىء القيس وطرفة ابن العبد . ماهذه القوة المتدفقة من تحت الألفاظ ، تعطيها الحياةَ فتحيى ، لتغالب الدهور المفنيةَ المبيدةَ للحياة ؟ وما هذه الصورة الممثلة التى تحبّب البادية إلى قلبه حبًّا لا ييأس ولا يفتُر ؟ كيف استطاع هؤلاءِ أن ينفذوا فى الغامض الملتبس ليبعثوه فى كلماتهم بيّنا سهلًا يكاد يمشى ويتحرَّك ؟! ثم تَلْقَفُ مسامعه تلك الأنغام الجديدة التى تقذفها حواضر الحجاز والشام إلى بوادى نجدٍ : عمر بن أبى ربيعة ، العرجىّ ، الأحوص ، عبيد الله بن قيس الرُّقيات !! هذا الترفُ الجميل الذى يعبث بالحب ويعبث الحب بهِ . نساءٌ ينفثنَ على ألسنة هؤلاءِ سحر الغزل وفتنة الأحاديث . ويناظر الفتى – الذى صهرته البادية ، ثم صاغَتهُ ، ثم نفخت فيهِ

- بين هؤلاء ، وبين امرىء القيس وطرفة ومن إليهما من فتيان الجاهلية وفُتّاكهم وأصحاب اللهو منهم . ولكن شعر المعاصرين يقبل على قلبه وعقله بغضارته ولينه وترفه ، ثم ينفذ فيهما بسطوته ، سطوةِ الجديد المتحكم . يتمنى الفتى أن يرقَّ رقة هؤلاء الغزلين ، إن فى روحه سرًّا يتحرَّك ، إنهُ يريد أن يقول . وتتبع عين « الفنّان البدوىّ » أوانِسَ البادية ، كما تبعت عيون الشعراء المعاصرين أوانس الحاضرة فى الشام والحجاز ، ولكنهُ لا يستطيع أن يقول كالذى قالوا . إن قلبه لا يزال مغلقًا على قَدَره الذى سيحين وقد قارب . وتجيش أمواج الشعر فى صدره لتكون إرهاصًا للقدر المُجْلِب عليهِ من بعيد أو قريب . فيعالج بداوته التى حكمته وأنشأتهُ ، بتقليد الرقة التى يستشعرها من فنّ الشعراءِ الفتيان المعاصرين ، وينظر إلى ابن أبى ربيعة الذي فتن نساءَ عصره ، يريد أن يكون كمثلةِ ترفًا وغزَلًا وحديثًا ، وهيهات ! إنهُ سرُّ البادية العربية ، وابن أبى ربيعة سرُّ الحاضرة العربية ، لكنهُ سيقول على نهجه غير متلبث ، إلى أن تنتفض روحه انتفاضتها : شاعرةً مبينة متحدثة على سجيتها . فماذا يقول ؟ :

أُطاوع من يدعو إلى رَيِّق الصِّبا
وأترك من يَقْلَى الصِّبا لا أُؤامِرُهْ
وسِرْبٍ كأمثال المَهَا ، قد رأيته
« بوَهْبِينَ » : حورُ الطرف بيضٌ محاجرُهْ
إذا ما الفتى يومًا رآهنّ ، لم يزلْ
من الوجد كالماشى بداءٍ يُخامِرُهْ
يُرين أخا الشوق ابتسامًا كأنهُ
سنا البرق فى عُرْف له جاد ماطِرُهْ [١]
فجئتُ وقد أيقنتُ أن تستقيد لى
وقد طار قلبى من عدوّ أحاذِرُهْ

(١) عرف السحاب : أعلاه الذى يتدلى منه كعرف الفرس متهدلا .

فقالت : بأهلى ! لا تَخَفْ ! إن أهلنا
هجُوعٌ ، وإن الماءَ قد نام سامِرُهْ

فأين البادية ، وأين ابن البادية فى هذا الشعر ؟ لقد ضاع ابن البادية ولم يبق له من بداوته إلّا قوله : « وإن الماءَ قد نام سامره » ، فإن أهل الحواضر لا يقولون ذلك، وإنما هذا كلام الذين ينتجعون الغيث فى البوادى ، وينزلون على الماءِ فى الفيافى الظامئة . وأما أهل الحضر فيقولون : « إنّ الحىّ قد نام » ، وينسون الماءَ لقلة افتقادهم إياه فى الحاضرة ، أو يقولون كما قال عمر بن أبى ربيعة :

فما رِمْتُها حتى دخلت فجاءَةً ... عليها ، وقلبى عند ذاك يروَّعُ (١)
فقلن حذارَ العين لما رأيننى ... لها : إن هذا الأمر أمر سيشْنُعُ
فلما تجلّى الروع عنهنَّ قلنَ لى : ... هلَّم ! فما عنها لك اليوم مَدْفع !
فَظَلْت بمرأى شائقٍ وبمسمع ... ألَا حبذا مرأًى هناك ومَسْمَعُ !!

إن فنان البادية يقلّد هؤلاءِ الحضريين ، فهو يطاوع أصحاب اللهو والبطالة ، لا يبالى بمن يلومه وينهاه . وهو يملأ عينيه من جمال الفتيات ، يغازلهنَّ ويحادثهنَّ ليعود إلى دارهِ مترنحًا يتهالك من صبابته بهنَّ . ثم يتفتَّى فيدَّعى أنهُ انفرد بواحدة من بينهنّ قد تيقَّن – أو خيل لنفسه أنهُ يتيقن – أنها أمكنته من نفسها ، وأنها لابد منقادة له ، فواعدها فجاءَها لميعادها على رِقْبة من أهلها خائفًا فزعًا ، فتحدثهُ صاحبته بما يسكن روعه . تفدّيه بأهلها حين يقبل عليها ، ثم تميل عليه فتقول : لا تخف ! ثم تبتسم له وتُخافِت صوتها لتعلمه أن « أهلها هجوع ، وأن الماءَ قد نام سامره » . فهذا شعر غُفْل لم يوسم بسِمَة امرأة بعينها قد فرغت لها نفسه ، وإنما هنَّ النساء : غانيات مطمعات بالحب لاهيات . وهو يتهالك فى شعره تهالك « الماشى بداءٍ يخامره » . ثم يعود بخيلاء شبابه فيحدث نفسه أن الفتاة خاضعة له ، ثم يحاول أن يتمثل الفزع ليزعم أن الفتاة قالت له وقالت !! هذا شعر الغزلين من أهل الحضر ، لا شعر الفتى الذى كان – إذ ذاك – يتهيأ فى داخله ليستوى على ذروة الشعر العربىّ الفنىّ ، حتى يخِرّ له شعر العشاق والفنانين من

(١) رام مكانه يريمه : تركه وغادره .

أهل الجاهلية كامرىء القيس ، ويسجُد بين يديه شعر المعاصرين كجرير والفرزدق والأخطل ! إنهُ إلى اليوم فتى حائرٌ يقلّد ، لم يستول على طريقته .

ولم يلبث الفتى أن انتبه من غفلة على صوت جديد ونغم فنيٍّ ساحر : ذلك النغم البدوى الذى يترجم عن حب صاحبه للبادية ، وعن عشقه للإبل ، فهو ينعتها نعتًا لم تسمع أذن عربيٍّ مثله ، فحل من شعراء الإسلام المعاصرين ، « عُبَيْد بن حصين » الذى لقبوه « الراعى » ، و« راعى الإبل » ، لشدة شغفه بالإبل وجودة لغته لها . ويهوِى « غيلان » إليه ، ويلازم شعره يرويهِ ويتتبّعه ، ثم يصاحب هذا « الراعى النُميرى » حتى يكون راويته ويجعله إمامه . ولكن الفتى لم يخلق للإبل ونعتها فيقصر قلبه عليها . إنهُ سرّ البادية ، ولن تكون الإبل وحدها هى كلَّ همه من البادية ، ولكن هكذا قدّر لهُ ، فيصحب الراعى ويحبه ويسلك معهُ المسالك ، ليأخذ عنهُ دقة العبارة عن غامض النعوت والأوصاف ، وليزداد تأملًا فيما يرى من أسرار البادية ، كتأمل « الراعى » فى الإبل التى استخرج غاية أوصافها . ولكن ... إن بين جنبى هذا الفتى قلبًا يرتعد . قلبٌ محروم ظامئٌ يبحث عن ريّهِ . هؤلاءِ النساء ! أهو يبحث عنهنَّ ليلهو بهنَّ كما يلهو عمر بن أبى ربيعة وأشياعه ، أم يبحث بينهنَّ عن سرٍّ ضائع يريد أن يجده ؟ أيقول كما قال أوَّلا وهو يقلد ابن أبى ربيعة ؟ ... كلّا بل يقول :

وبيضًا تهادَى بالعشىّ كأنها	غمام الثُّريَّا الرائحُ المُتَهَلِّلُ [١]
خِدالًا قذفنَ السورَ منهنَّ والبُرَى	على ناعم البَرْدىّ بل هنَّ أخدلُ [٢]
قصارَ الخطى يمشينَ هَوْنًا ، كأنهُ	دبيبِ القطا ، بل هنَّ فى الوعَثْ أَوْحَلُ [٣]
نواعمَ رَخْصاتٍ كأن حديثها	جَنَى النحل فى ماء الصفا مُتَشمَّل
رقاقَ الحواشى ، مُنفذِاتٌ صدورُها	وأعجازُها ، عما بِهِ اللهو ، خُذَّل
أولئك لا يُوفينَ شيئًا وعدنهُ	وعنهنَّ لا يصحو الغوىّ المعذَّل

(١) الرائح : مطر العشى . المتهلل : السحاب الماطر .

(٢) خدال : ممتلئات . السور : جمع سِوار . البرى : الخلاخيل . وعنى بالبردى : سواعدهن وسوقهن لنعومتها .

(٣) الوعث الرمل اللين . أوحل : أكثر وقوعا فى الوحل .

هذا هو ينقلب إلى بداوتهِ ! إلى رقّة البادية العنيفة فى رقّتها . أجل هنَّ النساءُ أيضًا ، ولكنهُ لا يَتَضَنَّى ولا يتهالك ، بل يصف وهو جليدٌ ، يقول هنَّ بيضٌ تتهادى ، ثم يصرخ صرخة الظامئِ إليهنَّ يريد أن يروى منهنَّ ما استطاع ، فهنَّ الغمام فى آخر اليوم يتهلل بالمطر . هكذا رآهنَّ جملة أول ما رأى ، ثم تستقرُّ أشواقهُ فيتأمل تلك الأبدان الفاتنة ، فإذا الساعدُ ريّان ممتلئٌ ، وإذا الساق تامةٌ مستويةٌ لا عَضِلةٌ ولا مضطربة، كأنها ساق البرديّ فى نعومتهِ ولينهِ بل هنَّ أخدل وأشدُّ امتلاءً واستواءً . ثم يراهنَّ تتبعهنَّ نفسهُ ، فيفارق سَوْرة المشتاق إلى هدأة المتأمّل ، فيرى خطوهنَّ كأنهنَّ قَطًا يدبُّ على الرمل ، بل هنَّ فى مشيتهنَّ فى الرمل اللين السهل أحلى مشيةً . كأنما يخشينَ أن ينهال الرمل من تحتهنَّ . ثم يدنو إليهنَّ فيسمع اللحن الحلو الفاتن الذى يروى من ظمئهِ ، إنهُ فى نفسهِ أحسن بردًا من شهدِ مذابٍ فى أخصر ماءٍ وأبرده وأنقاه ، ثم يسكن ظمأه إليهنَّ شيئًا فشيئًا ، فيرى كلماتهنَّ تنفذ فى سر قلبه ، فإذا أراد منهنَّ ، ما كان يجد فى كلام ابن أبى ربيعة وأمثاله من الفتيان اللاهين بالحب ، وجد من حديثهنَّ ، بعد الإطماع ، مايخذله وينهاه . فتضطرب نفسه من أعماقها باليأس منهنَّ بعد الأمل ، فيقول :

أولئك لا يوفينَ شيئًا وعدنهُ   وعنهنَّ لا يصحو الغويُّ المعذّل

فهذا هو البدويُّ الفنان قد عاد مرة أخرى إلى البادية وأنكر لَهْو الحضر ورقته . ثم ينطلق بعد ذلك – وقد كسب من «الراعى النميرى » دقة التأمل – يصف هذه الأرض التى نمشى عليها فيقول :

فما أمُّ أولاد ثَكولٌ ؟ وإنما ...   تبوءُ بما فى بطنها حين تَثْكَلُ

يسائل : ماهى أمُّ أولادٍ ، ومع ذلك فهى لا تزال تفقدهم ، فإذا فقدتهم امتلأت بطنها بهم كما تمتلىء الحامل ، فيثقلها هذا الحمل الجديد ، يعنى من يموت من الناس .

أَسَرَّتْ جنينًا فى حشًا غيرَ خارج   فلا هو منتوج ولا هو مُعْجَلُ

وهذا الذى يموت ، فتُخْفِيه فى حشاها ، ويعود بدفنه جنينًا ، لا هو يخرج إلى

الدنيا مرة أخرى مولودًا لوقته ، ولا هى تلقيه سِقْطًا مُعْجَلًا قبل ميعاد مولده ، بل هو أبدًا جنين مستقرٌ لن يرى نور الدنيا ثانيةً .

تموتُ وتحيا حائلٌ من بناتها ومنهنَّ أخرى عاقرٌ ، وهى تحملُ

ومن بناتها أرضون حوامل ، وحملها هذه القرى ، تكون عامرة تارة وخرابًا تارة أخرى ، فالقرى تحيا إذا كانت عامرةً ، وتموت إذا صارت خَرَابًا . ومن بناتها أرضٌ هى البيداء ، وهى عاقر لا تحمل قرى ، ولكنها تحمل الناس من البداة الذين يسكنونها وينتجعون مراتعها :

تراها أمامَ الركبِ فى كلٍّ منزلٍ ولو طالَ إيجافٌ بها وترحُّلُ

وهى بساط بعيدٌ مترام لا يتناهى ، فهو أبدًا أمام السَّفْر . كلما ساروا وأوغلوا ، لم يستقبلوا إلّا أرضًا ولا شىء إلّا الأرض ، فهى :

تُقَطِّعُ أعناقَ الركابِ ، ولا ترى على السير إلّا صِلْدِمًا ما تَزَيَّلُ

إذ كل من أراد قطعها شَقِى فى طَيِّها حتى تكاد أعناق ركابه تنقطع ، وهى هى لا تنتهى حتى يخيل إليك أنك لم ترحل فيها عن مكانك ، فكأنك ركبت من هذه الأرض راحلة شاقة صلبة لا تفارق مكانها :

ولو جُعلَ الكُور العِلافِىُّ فوقها وراكِبُهُ أعيتْ به ما تَحَلْحَلُ

فلو وضع الرحل فوق هذه الراحلة ، أى الأرض ، ثم علاه الراكب ، لأبت ولم تتحرك من مكانها . ومع ذلك فإن راكبها لو أراد أن تتحرّك به فإنهُ :

يرى الموت إن قامت ، وإن بَرَكت بهِ
يرى موتَهُ عن ظهرها حين ينزلُ

فإن الأرض إذا همت براكبها وارتفعت عن مكانها فذلك نذيرٌ بفناء الكون وقيام القيامة ؟ وإن ثبتت به لا تتحرك فإنه يرى ويستيقن أن ساعة موته قد دنت لينزل عن ظهرها . وهذه هى الأرض المفنية المحيية التى وصفها . فلما قارن بينها وبين الراحلة التى تُرْكب لتقطع عليها مسافة الرحلة ، أتى بالدليل على ذلك وهو أنها :

تُرَى ولها ظَهْرٌ ، وبطنٌ ، وذِرْوَةٌ وتشرب من بَرْدِ الشراب وتأكلُ

فالبطن جوفها الذى يغيب فيهِ كل شيء وكل حى إذا فارق الحياة الظاهرة ، وظهرها جلدتها من الثرى والرمال ، وذروتها وسنامها هذه الجبال ، وإنها - أيضًا - لتشرب ماءَ الأمطار إذا نزلت عليها ، وتأكل كل ما يلج فى بطنها من شيء .

فهذه الأبيات فى صفة الأرض ، وهذا الخيال الذى توهمها ، هو خيال الفتى المتأمل الذى بدأ يقف على مكامن الأسرار ، لينفذ إليها ، ويكشف عنها ببصيرة الشاعر الفنان المصور . وفيها سُخْرِية الضجر من الحياة التى لا معنى لها إلّا الإجهاد الذى لا ينتهى ، وفيها قوة « ابن البادية » الذى يستطيع أن يلم شعث الأشياء المتفرقة ليستفيد من النظر إليها ، ثم يلقيها ساخرًا مستخفًّا لا يبالى . فما أمُّ أولادٍ ثكول ... إلّا مطية لها « ظهرٌ ، وبطنٌ ، وذروةٌ ، وتشرب من برد الشراب وتأكل » ، فمصيرها مصير كل مطية ، هو الموت ، هو إقبال الفناء بالهدم والتدمير ، فمن وثق بالبقاءِ عليها وهى فانية فقد جهل وضلّ .

ثم لا يزال الفتى ، فى أشواقه وتأملهِ ، يقطع البيداء فى الرحلة بين الديار والقبائل ، فى صحراء فاتنة ساحرة ، ومَوْمَاةٍ مَخُوفة مَهُولة :

ومَــهْــمَــه دَوِّيَّــة مِــشْــكــالِ	تَقَمَّسَت أعلامها فى الآلِ
كأنما اعتَمَّت ذُرَى الجبال	بالقزِّ والإِبْريسَمِ الهلهالِ
فى كلِّ لمَّاعٍ بعيد الجالِ	تسمعُ فى تيهائه الأفلال
عن اليمينِ وعن الشمال	فَنِّينَ من هماهم الأَغوالِ [(١)]

ويرى بقر الوحش ، والثيران ، والظباء ، والنعام ، والقطا ، والجندب ، والحرابىّ ، والغراب ، والذئب ، فيرى ويسمع وينصت ويتأمل ، وتستجيش نفسُهُ إليها صورًا من خياله القوى العنيف ، فتترك الباديةُ وَسْمَها عليهِ ، ذلك الوسم الذى لا يفارق من وَسَمَتْه بهِ .ولكنهُ على ذلك حائر لم يجد دنياه التى رآها أول ما أومض فى قلبه ذلك الضوءُ المتدارك الذى لم يلبث أن خَفت . إنهُ يبحث عنها فى

(١) المهمه : الفلاة . الدوية : تسمع لها دويًا لخلائها . وتقمست : تغوص ثم ترتفع . والآل : السراب والأعلام : الجبال . واللماع : السراب اللامع . بعيد الجال : بعيد الجوانب لا شاطىء له . والتيهاء : التى يتاه فيها . والأفلال : التى لا يصيبها المطر . والأغوال جمع غول . (شاكر)

كل وجه . ويطول بحثه وفكره ، وتتهيأ نفسهُ مستعدةً للتلقّى أعظم استعدادٍ ، إنها نفس دقيقة حساسة لا تتبلّد .

وجاءَ القدر ، فيخرج الفتى هو وأخوه « مسعود » وابن عمّه « أوفى » ، فى بِغاء إبل ضلّت لهم ، ويدخل على « مى » وهى تتغنّى [١] . ذلك الصوت الذى يتحدَّر من سمعه إلى قلبه فيرسل فيهِ قشعريرة الإفاقة من إغماءٍ طويل كان فيه هذا القلب . إن ألحانها قد أضاءَت فيه نبراسًا من النغم لن تزيده أعاصير الحياة إلّا ائتلافًا وضياءً . ذلك الحديث بينها وبينهُ – وهى تصبُّ له الماءَ فى قربته – سيزيد على مرّ الأيام جدَّة فى حقيقة روحهِ . أىّ تعبير فى الحياة كلها عن الفن والجمال هو أروع من هذا المنطق الرخيم ، تفترُّ عنهُ ثناياها كما يفترُّ الفجر عن صباحهِ ؟ أىّ فتنة فى هذه الدنيا هى أنبل من حرّ هذا الوجه الأسيل المخروط المسنون الذى صقَلتهُ أسحارُ البادية وآصالها ؟ أىُّ لذة فى هذا الوجود هى أمتع من هذا الجِيدِ المتمرّد على جسد أهيف أملود يتحدَّى كل قوة فى كل جمال ؟ أىُّ متاع فى هذا العالم هو أغنى من هذا الشَّعَر الجَثْل الأثيثِ المتموّج على متنها ، ينادى كل عاطفة لتضلَّ فى دياجيه الساحرة ؟ أىّ دنيا هى أعمق أسرارًا من هاتين العينين الصافيتين تسبح فى صفائهما الروح إلى الغاية التى تُرَى ولا تُدْرَك ؟؟

وينصرف الفتى من لقائها ، وفى سمعه نغماتها ، وفى عينيه صورتها ، وفى قلبه هواها ، وفى روحه لذة خالدة تزداد على الأيام عِتْقًا ونفاذًا . فلئن أشقاه الحرمان بالرحيل ، فلشدّ ما أسعده أن وجدها . فهو بين اللذة والألم يتردد ، ولكنه فى شَجْوٍ يطربهُ كما يحزنهُ ، ينال بأثريه فى قلبه فرحةَ وجودها . لقد تزوّد منها نظرة وابتسامة وحديثًا . أنستْه النساء وما فيهنَّ ، وصرفته إلى طيف يُلمُّ بهِ فى مضجعهِ ، ويعارضه فى طريقه . يناديه إذا خَلَا ، فيأتيه جواب دعائه من أعماقه ... صوتها ، ألحانها ، عيناها ، كل شىء رآه منها أو سمعهُ يستجيب لهُ . ولكن القدر يعدُّه ليتلقى من « مىّ » ماهو أعظم من الفرح بحبها ووجدانها ، فيتركه ينطوى

---

(١) انظر مقتطف فبراير ١٩٤٣ ص ١٢٥ – ١٣٠ (شاكر) . وانظر الجزء الثانى من المقالات ص : ٧٤٢

عليها ، ويتسلى بها فى خلوتِه فرحًا أن يزورها من عامِهِ فى ديار أهلها كما زارها من قبل . فيرجع إلى ديار بنى مِنْقَر ، لعامه هذا ، فيجد القوم قد ارتحلوا عن منازلهم « بالوحيد » ، فيقف على ديارها يسائل نفسه عن مىّ وأهلها ، وكذلك يعرف الفتى منذ اليوم مامعنى الوقوف على الديار ، وما لذة مساءلة الأطلال ، يعرفها تجربة فى قلبه ، لا معرفة من شعر من سبقهُ . فإذا عاد إلى دياره - مؤملًا أن يعود إلى « مىّ » ، فرحًا بما عرف من لذة الوقوف على أطلالها - قال :

« هل تعرفُ المنزلَ « بالوحيدِ »   قَفْرًا محاهُ أبدُ الأبيدِ ؟ »
« والدهرُ يُبْلى جِدَّة الجديدِ !!   ... . »

فإذا أتمَّ تساؤله ، وعرف لذة ماكان فيهِ من موقفه هناك ، أجاب نفسه فقال :

« نعمْ ! فأنتَ اليومَ كالمعمود   من الهوى أو شَبَهُ الموروِدِ »

يجيب نفسهُ مختالًا : نعم ، ثم يصرف القول كأنهُ يخاطب آخر غيره فيقول له متعجبًا نعم : لقد عرفت ، فأنت فى يومك هذا كالمريض الذى هَدَّه المرض فهو يُسْنَد من جوانبه ليستوى ، أو مثل المحموم الذى وردتهُ حُمَّى نافِض [١] ، فتلك الحمى هى ماوجدتَ فى روحك من قشعريرة الشوق والذكرى . ثم يصرخ يناديها :

« يامىُّ ! ذاتُ المبسمِ البَرُودِ   بعدَ الرقادِ ، والحشا المخضودِ »
« والمقلتينِ وبياضِ الجيدِ »

ولكنهُ يعود فيذكر حديثها إذ قالت له - وهى تصب الماء فى قربتِهِ - تلومه على ارتكاب السفر ، وهو صغير حديث السن ، فيقول : يا مىُّ !

« أهلكتِنا باللومِ والتفنيد »

أهلكتنا ! عجيب هذا الفتى البدوى كيف يرقّ ويقسو ، ولكنه يعود فيعتذر لنفسهِ عن ملامتها وتفنيدها . مسكين ! إنهُ يخاف عليها حتى فى خلوتهِ وشعره ، فيقول : هذا عذرها ، إنها

« رأت شُحوبى ، ورأت تخديدى   من مُجْحِفَاتِ زمنٍ مِرِّيد »

---

(١) يقال : أخذته حمى نافِضٍ (على الإضافة) وحمى نافِضٌ (على الوصف) .

« نقَّحْنَ جسمى عن نُضار العود   بعد اهتزاز الغُصُن الأملود »

ثم يعود فيقول : كيف أعتذر لها ؟ إنها رأت هواى لها فصدَّت عنى ، فيقول لها :

« لا ! بل قطعتِ الوصل بالصدودِ »

ألم يكن ذلك كذلك ؟ وإلَّا فلمَ :

« قد عجبتْ أختُ بَنى لبيد   وهربتْ منى ومن مسعود »

وإذن فهو الصدود والإعراض بعد الوصل . أجل ! إنها أيضًا تخاف أن يكون بينى وبينها هـــــوًى غالبٌ ، وبيّنة ذلك أنهُ لا يمكن أن يكون سرُّ صدودها أنها :

« رأت غلامىْ سفرٍ بعيد   يدَّرعان الليل ذا السدود »
« مثل ادِّراع اليَلْمَقِ الجديد »

كما تدعى ، فإن هذا الأمرُ لا يوجب دهشةً ولومًا وتفنيدًا ، وإذن فهو الصدود ، هو الصدود يامىٌّ !! ويبيت يمنّى النفس بغدٍ يراها فيه ، فهو يتهيَّأ لها ، ويزوّر الأحاديث فى نفسه للقائها ، ويومئذٍ تجد صدُودها وإعراضها قد انقلب شوقًا وصبابة وإقبالًا على فتاها ! هكذا كان يقول ويقدِّر ، والقدرُ من وراءِ الحجُب يقول : على رِسْلك أيها المغرور !!

* * *

شاعر الحب والفلوات
ذو الرُّمَّة
- ٣ -

« ذو الرّمة يخبر فيُحسن الخبرَ ، ثم يردُّ على نفسه الحجّة من صاحبه فيحسن الردّ ، ثم يعتذرُ فيحسنُ التخلّص ، مع إنصاف وعفاف فى الحكم » أبو عبيدة

تتحدَّث الباديةُ بأسرارها حديثَ اللَّوعة الخالدة فى ضميرها ، فتحنُّ الرياح وتئنُّ من أرجائها ، ويقفُ « غيلان » يصغى إليها حتى تجاوبها نفسه فتناجيها بأشواقِها إلى « مى » ، هذه اللوعة المتنهّدة فى سر حياتِهِ ، فيحنُّ مع الريح حنينها ويئِنُّ أنينها ، ولكن ميعةَ الصِّبا ، وغرّة الشباب ، وبراءَة الروح من عذاب الحب ، تأبى عليه كلها أن يحزن مع هذه الرياح الباكية حزنًا كحزنها يستهلك النفس فى طغيانهِ وعتوه . فَرِحٌ غافل : قد وجد دنيا كان يقلقُ إليها ، ينشقُّ عن أسى لاهٍ : إذْ تعذَّرت عليه دنياهُ وهو يتصبب إليها .

يقف « غيلان » وإن دمه ليتوهَّج متدفّقًا فى مدافِعِهِ ، وإن آمالهُ لتستقبلهُ من كل وَجْهٍ تومض إليهِ إيماضةَ البرق فى حواشى السحابة السوداءِ ، وإن خياله ليمثل لهُ ميًا وأيامها جنةً ناعمة تتفيّأ النفس من ظلالها متاعًا لا تنقضى لذتُه . وتجيشُ غوارب الشباب بين جنبيه متلاطمة يتكفَّأ بعضها على بعض ، فتنبعث قوته بتيارها مريدة مصممةً راغبةً ، لا تنثنى عن هذا الهدف الذى نشأ أمامها ففتنها ودلَّهها . فهو يريد « ميًا » ، ويريد من أجلها كل شىء . سيسمو إلى « مى » بنفسه وحياته وشعره ، وسيمنحها النفس والشعر والحياة غير ضنين . سيذهب المذاهب فيها ، سيطوى البيد كالطيف فى ضمير الليالى ، وسيجتابُ الحضر كالشعاع فى مسرح الشمس ، وسيأتيها بثمار الحياة ناضجة تغرى وتنادى ، فتستجيب لها « مىُّ » من أعماق روحها مشتاقة منقادة . سيقذف بنفسهِ فى كل سبيل ، لتردّد البيداءُ

* المقتطف ، المجلد ١٠٣ ، يونيو ١٩٤٣ ، ص : ٤١ - ٤٧

والحضر صدى خطواته نغمًا حلوًا ينساب فيأخذ كل سمع ويستميل إلى شجوه كل جنانٍ . سيجعل اسمها لحنًا بدويًا عنيفًا رقيقًا بعيد القرار متجاوب الإيقاع ، ينبسط فى جوّ الشعر العربى فيلين القلوب القاسية ، ويذيب الكباد المتحجرة ، ويحيي بالشوق من أهلكتهُ الصبابة وأحرقهُ الوجد وذرّاه [١] الهيام ، وتلتفّ حولهُ عشرون عامًا مضت عليهِ من يوم وُلد كأنها أغلالٌ وسلاسل ، فهو يجاهدُ أن يفضَّها عنهُ ليحرر لميّ كل حياتهِ وكل همهِ وكل أمانيهِ ، فإذا فعل فقد رجَّعت البادية اسمه واسمها ، وثارت ميٌّ إلى الصوت تستشرف ، لترى هذا القلب العاشق المتيَّم الذى استكنَّ فى صورة رجل بدوىّ لا تمسك الطرف على محياهُ فتنة ساحرة أو جمال بارع ، ويومئذٍ لا تأبى عليهِ ميٌّ إباءَها ، بل تعرف ذلك الفتى الذى وهب لها من عينيه وقلبه عَلاقة الأبد .

هكذا كانت تقول له نفسُه ، وهكذا جعلت خطرات الهوى تندفع بهِ فى تأمُّله ، وتمر الأيام بهِ وهو يلحُّ على نفسه إلحاح الحائر المحروم يتعجَّل ميقات ما يتشهَّى أن يكون ولكنه لا يجد من حيلتهِ إلّا أن يفيض إلى ديار ميّ يطوف بها ، يختلس النظرة إليها وهى على باب خبائها تستقبل الشمس بسُنَّة وجه تتلألأ عليها أشعة الشرق ، فتكسوها غلالة من بهاءٍ يتلهَّبُ ، حتى تضطرم فى قلبهِ نار الوجد عليها . أو يلمحها وهى تنعطف بجيد غزال تريد خباءَها فتنعطف فى إثرها دواعى هواه . فكانت هذه الخطراتُ مما تزيده شوقًا وغرامًا وصبابة ، ثم يعود قد طوى النفس على ظمإٍ يائس ، لم يروَ إلّا ليستأنف شدّة والتياحًا [٢] . هكذا كان يتقلب غيلان فى أيامه ولياليه . أما ميّ فكانت لا تحس شيئًا ، ولا تجد لغيلان فى نفسها صدًى أو ذكرًا . إنهُ شيءٌ كان ثم مضى ، لم تلتفت إليه الفتاة التفاتة الحريص المذّكر .

ويحوم « غيلان » يومًا حول ديار « مى » بأسافل « الدهنا » ، وإذا هى تغسل ثيابًا لها ولأنها فى بيتٍ رثٍّ من الشعر ، فيهِ خروق يرى الناظر منها ما وراءَها .

---

(١) ذرّاه : أضعفه وبدّد قواه ، وأصله للريح تدفع التراب فتنثره وتبدّده .

(٢) الالتياح : شدة العطش .

ويلمحها متجرّدة متكشفة ليس بينها وبين عينيه إلّا الهوى ومهالكهُ . لقد ارتدّت هذه اللمحة إلى قلبه حريقًا يتسعر حتى أتلفت كل ماضيه ، أنهُ رجلٌ ليس له ذكرى إلّا ذكرى واحدة سوف تعرض لهُ مع كل مشرقٍ ومغيبٍ ، فلا يذكر من مواضى أيامه إلّا ما رأى فى يومه هذا ... فتنة وغرامًا وتعذيبًا لا تنتهى غوائلهُ . يمضى على وجهه كالهارب من لذْع ما يجد ، ولكنهُ لا يلبث أن يعود لينظر النظرة الأخرى ، فلا يجدها إلّا قد لبست ثيابها وجلست إلى أمها تحدثها على باب الخباءِ . ويذهب ويجيءُ فى تحرُّقه ، فتسوّل لهُ نفسهُ أن يقبل على ميٍّ وأمها ليسمع حديثها من قريب ، فيدَّعى لهما أنهُ أضلَّ بعيره فهو ينشده ، فما يروعه إلّا أن تدعوه العجوز فيدنو ويجلس إليهما ، وجعلتا تناقلانه الحديث سرْدًا واحدًا لا تسألانهِ ولا تستخبرانه عن شيء من أمره . أغفلتهُ الفتاة وجهلتهُ أمها ، كأنْ لم ترياه من قبل . أهكذا تقتحمُ « غيلانَ » عيونُ الناس فلا تأبه له ولا تبالى بهِ ؟ فيتربَّد وجههُ ، وتختلج شفتاه ، وينطلق مسلمًا مودّعًا ثائرًا كأنما نهشتهُ فى مجلسهِ حيةٌ أو أطارتهُ جِنَّةٌ عن حلمِه ، وينصرفُ أشد ماكان يأسًا ووجدًا وهيامًا . تعجبُ مى لما ترى مما غفلت العجوز عنهُ . إنه ينظر إليها بعينين ترى فى شعاعهما لهبًا ، وفى وقعهما لذعًا ، وفى تتابعهما معمعة تتكلّم كلامها ولا تبينُ . وتلتفت ميّ إلى عجوزها وتقول : أمَّاه ! تالله أنه للفتى العدويُّ الذى دخل علينا حِواءنا عام أول يستسقى !! إنه لهو ذو الرُّمة قد ثاب إلينا ! وكأنى يا أماه قد قرأت فى عينيه أنهُ اطلع عليّ آنفًا فرآنى متجردة من حيث لا أرى ولا أشعر !! اذهبى يا أماه فقصِّى أثره من حيث لا يراك .

وتعجل أمها وراءه وقد ذكرته وعرفته ، وتعود إليها تقول : أرأيت يامىّ ؟ إنه والله لهو ذو الرمة ! لقد أخذته عينى من قريب وهو لا يرانى ، ولقد رأيته يتردد آنفًا أكثر من ثلاثين طرفة ، كل ذلك يدنو فيطلع إليك ثم يرجع على عقبيه ، ثم يعود . وإنى لأخاف عليك بعد اليوم يا بنيّتى ، فقد وقعتِ فى لسان شاعر فيما أرى ، وما أنسى ماحييتُ ماقال لى فيك : أما والله ليطولنَّ هيامى بها ! اللهمّ إنا لا نسألك ردَّ القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه !

ويعود ذو الرُّمة إلى دياره غضبانَ أسِفًا ، ولكنهُ قد عزم وصمم . فستكون له مى عرفتهُ أو أنكرتهُ ، وسيهدى إليها بشعر يضىء لعينيها طريق قلبها رضيتهُ أو كرهتهُ ، وسيقذف على ألسنة الرواة ، من شعره الذى يذكرها فيهِ حتى تتلقف الآذان اسمها فتطلع إليها وإلى أخباره وأخبارها ، فلا يلبث من فوره أن ينشد الناس فى الأندية ذلك الرجز الذى ذكرناه آنفًا : « هل تعرف المنزل بالوحيد ؟ » ، ثم يُرْدِف إليها ذلك الرجز الآخر الذى يقول فى أولِهِ :

« قِفا نُحَيِّى العرصاتِ الهُمَّدا والنؤْىَ ، والرميمَ ، والمُسْتَوْقَدا »[١]

والسُّفعَ – فى آياتهنَّ – الخُلَّدا »[٢]

والذى جعل يتكذب فيهِ بما لم يكن وما لم يرَ من مىّ ومن صواحبات لها ، فيقول يذكرها ويذكرهنَّ ، وأن الديار ورسومها قد هاجت كمده :

«أَوْلَى – لِمَن هاجت له – أن يَكْمَدا أَوْلَى ، وإن كانتْ خلاءً بعَدا »[٣]

« وقد أرى والعيش غير أنكدا ميًّا بها ، والخَفِراتِ الخُرَّدا »[٤]

« غرَّ الثنايا يستبينَ الأَمْرَدَا والأَشْمَطَ الرأس وإن تجلَّدَا »[٥]

« قواتلَ الشَّرْقَ قتيلًا مُقْصَدا إذا مشينَ مِشْيَةً تَأَوُّدا »[٦]

هزَّ القَنا لانَ وما تَخَضَّدَا يركضنَ رَيْطَ اليَمَنِ المُعَضَّدا »[٧]

وسالت أودية بنى عدى بهذا الشاعر الذى نبغ بينهم ، وتناقلوا ما أنشدهم ، وتساءل القوم : ما « مىّ » هذه التى يذكرها ؟ وكل امرىء يخشى أن تصيبه معرَّة هذا اللسان العاشق حين يتولج إلى حرمه بالصبابة والوجد . وأقبل على « غيلان »

---

(١) النؤى : حَفَر يكون حول الخباء يمنع الماء . الرميم : الرماد .

(٢) السفع : الأثافى ، تضرب إلى السواد فيهن حمرة .

(٣) بعدا : كذا بالأصول ، وبعيد لا تجمع على بُعَّد . ورواية الديوان وسائر المصادر : بُيَّدا : أى نائية .

(٤) الخرّد : الحَيِّيات .

(٥) الأمرد : الذى لم تنبت له لحية بعدُ . الأشمط : الذى خالط سواد شعره بياض .

(٦) الشرق هنا : البكاء ، وأجود روايات البيت : السَّرْق ، أى استراق النظر .

(٧) تخضد : تثنَّى . الريْط : جمع ريطة ، وهى الملاءة . المعضد : ضَرْب من الوشى .

إخوته يستخبرون خبره ، ويسألونهُ عن ميّ من تكون ؟ وجعلتْ نفس « غيلانَ » تعتاص على الناسِ ، فردَّ السائل بخَيْبته ، وائتمن عليها أخاه مسعودًا فهو أحق الناس بالأمانة : إذ كان عونًا لهُ فى سفره ، وصديقًا قد اقتربَ ما بينهُ وبينه ، ولم تَعُد للسنِّ قدرةٌ على التفريق بينهما فى المودَّة النامية المتوثّقة .

ولم ينشب هذا الشعر وماسواه أن تدفَّقَ إلى ديار بنى مِنْقر من كل وجه ومكانٍ ، وعرفَت العجوز وعرفت ميٌّ أنهُ يريدُها ، وأن الأمر قد استَعْصى ، وأن الحزمَ أن يُبتَّ الرأىُ قبل أن تذهبَ ساعته ورأتِ العجوز أن تقطع هذا اللسان المتقحّم باليأس ، فإذا ملكه اليأس غلبهُ العيّ والحصر ، وانتهى أمرهُ – كما ينتهى أمر كثير سواه من نوابت الشعراء – إلى لجاجة ثم فترة ثم سكون . فدسَّت العجوز إلى فتى من بنى مِنْقر يقال له « عاصم » دسيسًا يرغبهُ فى ميٍّ ، ويُسَنِّى له من أمرها ما قد يتعسَّر عليه ، ويكفل له رضاها أن تكون له زوجًا . فسعى « عاصم » إلى العجوز سعى الملهوف ، وجعل يماسحها ويعرّض لها بخطبة ابنتها حتى صرّح ، فرضيتهُ لابنتها ، ليكون عاصمًا لها من لسان هذا المتجرىء الباغى إليها الفضيحة والعار . واستشيرت ميّ فى أمرها فقبلت ، وتم الرأى على أن يبنى بها حين يشاءُ ، فسارع عاصم وقضى الأمر .

أما ذو الرّمة فقد رجع إلى دياره ، ثم أوفض منها إلى البصرة نافرًا عجلًا يريد أن يقضى فيها عامهِ هذا حتى يصيب من الذكر بين أئمة العلماءِ وفحول الشعراء ، مايردُّ عليهِ راحةً قد استلبتها هذه الفتاة الطاغية التى أحبها ذاكرًا مردّدًا راغبًا ، فكان جزاؤه منها أن اقتحمته وأسقطتهُ ، ولم تعرف له حقًّا يذكر أو هوًى يكون منها على بال . ونزل هذا البدوىّ مدينةَ الحضر ، فجعل يتلفت ههنا وههنا ، فلا يجد إلفًا يألفه إلّا شذّاذ القبائل الذين نزلوا « البصرة » ، وخلطوا أنفسهم بالتجار وأوشاب أهل الأسواق ، وجعل يتسكع معهم حائرًا بين حوانيت البقالين وأشباههم ، قد فترت همته عما كان خرج له من بلاده .

وكانت البصرة تموج بالناس من نواحيها ، واجتمع فيها من العلماء والشعراء

ما لم يجتمع فى مثلها من قديم أيام العرب ، فقامت فيها سوق من أعظم أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، تضَارع سوق عكاظ منتدى الشعراء من أهل الجاهلية ، وهى « المِرْبدُ » : مِربد البصرة ، حيث يجتمع العلماء والكتاب والشعراء يكتبون وينشدون ويتفاخرون ويتهاجون . وأقبل ذو الرُّمة - هذا البدوىّ الراجز - يسمع إلى الرجز والشعر الحديث . فلما سمع من رَجز العجاج ورجز ولده رؤبة علم أنهُ إذا ألحَّ على الرجز لم يقع من هذين الفحلين موقعًا ، ورأى أنهُ إذا بقى عليه يقوله ، عرَّه ما يقول ، فعزم أن يصرف نفسه عنه ويعوّل على الشعر وحده . وكان ما يسمعهُ من الشعر فى هذه السوق العظيمة قد هاج فى نفسه الرغبة فى المنافسة ، إذ كان الشعر أسهل مأتًى ، وأوسع مجالًا ، وأدنى إلى القدرة على الإجادة ، وأولى أن يكون تصريفُ القول فيه أحسن وأنبل ، وأن الرجز لا يطيق ما يطيقه الشعر من المعانى . وكانت نفسه إذ ذاك تتحرك مغاضبةً إلى مىّ ، وترقُّ لها ، وتريد متنفسًا تَبُثُّ فيهِ لوعتها وأشواقها ، والرجز لا يستوى على إرادتها ، وقلَّ فى العشاق من الشعراء من رَجَزَ بحبه . وكذلك بدأت نفسه تستقبل الشعر وحده ، وتدع الرجز لهؤلاءِ البداة الغلاظ الأكباد يقولون فى أغراضه ما يقولون .

ولا يكاد يشك فى أن الشهور التى يقضيها ذو الرمة بمدينة العلم والشعر والحضارة ، قد جعلت تهزُّ نفسه هزًّا عنيفًا متتابعًا لاهوادة فيه ، وأن شدَّة ما لقى من الغربة فى هذه البيئة الجديدة التى لا عَهْد له بمثلها ، قد أحدثت له فترةً وانكسارًا ، وكادت تذهب به فى الخمول مذاهبها . ولكن العاطفة المحنقة التى تجيش بين جنبيهِ كانت توجه هذه النفس إلى الغاية التى أعدت لها . وكذلك بقى ذو الرمة حائرًا لا يدرى كيف يتوجه بالرأى والعزيمة ، فهو يدخل حوانيت البقالين يبقى فيها يسمع من لغو أهل الحضر ما يسمع ، ثم ينصرف إلى المساجد وقد تحلَّق الناس على علمائهم يسمع من هؤلاء وهؤلاءِ ، ويتلقف الكلمة بعد الكلمة مما يدرك من جدَ لهم وأحاديثهم . ثم يفكر فى ذلك ماشاءَ الله ، لم يأخذ نفسه بالدّربة على شيءٍ مما يتعلمون أو يتناقلون . وكان أكبر ما شغل عليهِ خواطره قول

هؤلاءِ المتكلمين فى القضاءِ والقدر ، وما يتنازعون فيه من الشر الذى يقع فى هذا العالم ، أهو مُرادٌ من الله تعالى أم غير مرادٍ ؟ ويعجبهُ أن يذهب إلى أن الشرّ ليس مرادًا لله تعالى ، وأن إرادته لا تتعلق إلّا بالخير ، وأن الناس وما سواهم هم الذين تتعلق بالشر إرادتهم . فكان له فى هذه المجالس شغل عما يتردد بين جنبيه من وساوس مى وبلبالها ، وأخذت تهدأ على الأيام حدّة ما يجد من ذكرها ، ويذهب عنهُ عناءُ ما يلقى من خيالها . وكان كل ذلك يرقق من قسوة البادية التى نشأ فيها ، ويلين من جفائها وغلظتها ، ويمهد لسماحة أهل الحضر ورقتهم وظرفهم ومباذلهم طريقًا فى نفسه ، يهديها إلى السمت النبيل المتواضع الذى درب عليهِ الناس ممن يعاشرهم فى هذه المدينة .

وأنس به أهل الحاضرة – « البصرة » – ، فكان لبلاغة منطقه ، وحسن تَهَدِّيه إلى غاية القول ، وصدق عبارته عما فى نفسه ، وقوة بيانه البدوى عن المعانى التى يبتذلها أهل الحضر بإهمالهم ، وسرعة بديهته فيما يعرض له ، وقدرتهُ على تخيل الأشياء بذلك الفكر البدوى المحض ، وإرساله فى الكلام شعاعًا من الفطرة السليمة التى لم تفسد على الترف والعبث والمخالطة ، كل ذلك جعل أهل البصرة – من عرفه منهم – يحبه ويستدنيه ويتحفَّى له ، حتى صار يدعى إلى أعراسهم وأفراحهم وملاهيهم ، ليسمعوا من حلو حديثه البدوى صفةَ هذه الأشياء التى لا عهد لأحد من أهل البادية بها . فكان ذلك سببًا فى أن يقال عنه – بعد أن طار اسمه فى الآفاق :– هذا الشاعر البدوى !! تالله لقد كنا نراه بالبصرة طفيليًّا يتدَّسس إلى العرساتِ !!

وشغله المربد عن شعراء البادية الذين كان يألفهم ويروى شعرهم ، وجعل يسمع مناقضات جرير والفرزدق والأخطل ، ويحفظ ما يرد على المربد من شعراء الحِجاز ، ولكنه لا يجد عند أحد من هؤلاء ما وجد عند « الراعى النميرى » : مِن نَفَسٍ رابٍ كأنما يقذفهُ مرجل أوقدت عليهِ نار لا يخبو لها سعير . فهذا القلق الذى استولى على رأيه فى الشعر ، وهذا السأم الذى استبدَّ بعزمه فى الحياة ، وهذه اللوعة التى اعتسفت قلبه فى الحب ، كل أولئك كان يُعِدُّ هذا اللسان الشاعر

إعدادًا جديدًا لتنطق البادية العاشقة على عَذَباته [١] أجمل بيان وأعنفه ، وأروع نجوى وأحلاها ، وأدق نعت وأشكله . فكانت أيامه بالبصرة تدريبًا لابد منهُ لهذه النفس البدوية المفطورة على جانب من الخشونة والجفاء .

ومضى العام عليهِ بالبصرة ، فاجتوى ريح الحاضرة من طول ما أقام بها ، فآثر أن يعود إلى ديار قومه بالبادية ليتنسَّم تلك الرُّوَيحة الحبيبة إلى القلب البدوى ، وليستروح نسمات ميّ إن أطاق أن يكفكف من كبرياء نفس ثائرة متمردة عنيفة فى أصل جبلّتها . والبادية هى البادية قلَّ أن تتغير لها صورة أو يجدّ لها جديد ، فنزل على إلْفٍ قديم حبيب ، تتلقاه أمهُ رفيقة به على عاداتها ، ويسائله إخوتهُ ولِداتُه عن أمر الحاضرة كيف وجدها ، وما لقى فيها ، وما الذى أحبَّ منها وكره ، وكيف ترك ابن عمه « أوفى » ، وقد زعموه تحضَّر وأخذ من علم الحاضرة ، يسمع فى مساجدها عن شيوخ الحديث حديث رسول الله ﷺ . فينبئهم بأخباره ، وأنَّ أوْفَى قد ترك البصرة فى طلب حديث نافع مولى ابن عمر ، فلم يلقه بها . ويحدِّثهم أنهُ لقى أُمَّ الصهباء معاذةَ بنت عبد الله العدوية العابدة ، وما يتناقل الناس من أخبار عبادتها وتقواها .

ويقيم ما يقيم ، ثم يعزم على أخيه مسعود فى الرُّفقة حتى يزور ميًّا ، ليتزود منها نظرةً لعلها تردّ من صدره هذه البلابل التى نشأت توسوس له أن قد أصابها مكروه . وينهاه مسعود أن يُتْبع نفسه هذه الفتاة التى عنَّتْهُ وأنهكتهُ وشغلت عقله عن أمر دينه ودنياه ، وقبيح بالرجل أن يلجَّ على من أعرض أو نأى عنه بجانبه ، والنساءُ بالنساءِ أشبه من الغمامة بالغمامة ، فما هذا العناء الذى يفنى فيهِ أيامه ولياليه ؟ ثم يرى مسعود فى سُكات أخيهِ أنينًا يلتجُّ تحت الهدأة ، وينظر فى عينيه إطراقةً تستصرخ غوث الرحمة ، فيأوى [٢] لذلك الشبح المستكين وراءَ هذه التجاليد الصامتة المستحصدة ، ويشفق عليه أن تنتهب حياته هذه الأشواق التى تتنازعه من كل مغيب عاطفة أو صبابة . « لك ماشئت ياغيلان ، فأنت والرحيل

---

(١) عذبات اللسان : أطرافه .

(٢) أوى له : رقَّ له ورحمه .

كيف عزمت ، وإنى لرفيقك حيثما وجهت » . وهكذا يصبح مسعود عون أخيه فى هذه البأساءِ التى يتضرع لها بعد جلادة . ويرتحلان يقصدان بلاد بنى منقر ، فإذا الديار بلاقع ليس بها أنيس ، إلّا هذه الظباءُ وهذه المها تتهادى كأنهن العذارى يرفلنَ فى بيض الجلابيب . ويعوج ذو الرُّمة على النؤى والرسوم ينظر إليها نظرة الواله المتوجس ، ويدور عليها كأنهُ يستخبرها وهى تستعجم عليه لا تجيب ، « والدار لو حدثته ذات أخبار » . ويظلُّ ذو الرُّمة يتوهم لنفسه أوهامها فى مى ، ولكن لا تخطئه وسوسة الغيب بأمر ذى بال قد أصاب صاحبته ، فهو يزداد التياعًا كلما ازداد ريثًا فى مكانه من هذه الأطلال الخُرْس النواطق . ثم تنزو بهِ روعةٌ كأنه آبدٌ قد نشِط من قيده ، وينطلق يجوب هو ومسعودٌ هذه الفيافى يسألها عن مذاهب مى فى غوامضها ومنكراتها . وهكذا يبدأ هذا العاشق يتطوّح فى أقدار مجهولة لا يدرى أين ينتهى به سيرُه وسُراه !

ولكن لا يلبث أن يجد فى أسفاره جماعة من بنى منقر قد انفردوا عن أهلهم فى أرض ينتجعونها ، ويسألهم عن أخبار ميّ ، فيعلم يومئذٍ أن قد ذهب بها عاصم المنقرى . ربّاه ! لقد تهدّم البناء الشامخ من كبريائهِ على قلبٍ حيّ نابضٍ محب لم يسكن ساعة عن ندَاءِ ميٍّ من وراءِ الأسوار المضروبة عليهِ . ألم تعلم هذه الحبيبة أن غيلان قد أخلص لها حقيقة ما فى قلبه من الحب والهوى ؟ ألم تدرك بعد أن حياته كانت تفيض إليها متدفقة من أغوار النفس الجياشة بالعشق والصبابة ؟ أكانت هى الغريرة البلهاءَ حتى لا تجد على نفسها لواذع نظراته إليها ملتاعًا قد توقد وجده بها ؟ ألم يكن فى عينيه ووجهه وحديثه عهدُ المحبين إلى من أحبوا ؟ وتغوّلتِ به الأرض الفضاء فلم يجد إلّا ضلالا وحيرة فى وحشة هذه الحياة المجدبة الجرداء ، التى قذفت به فيها هذه الفتاة اللاهية عن جد الحب الذى لا يلهو ولا يهزل ، أى غدر قد ألقى به فى مُغَوَّاة [1] مظَلمة قد افترشتها أفاعى الغيرة والغيظ والضغينة . فانطلقت تنهش منهُ بأنيابها ، وترسل فى عروقه

---

(١) المغَوَّاة : حُفْرَة تحتفر للأسد لصيده .

ذلك السم الذى يغلى عليهِ دمهُ ؟ وفى سكتة البيداء التى لا حس فيها ولا ركز [١] ، تترامى إليه من كل وجه أصوات تتردد « ميّ ، ميّ » وتقع فى سمعه إلى قلبه سهامًا مسددة تنفذ فى رميتها تنشُّ كأنها سِكَّةٌ محماة .

ما أقسى هذه الساعات التى تمر عليهِ وهو كالملقى على جمرات الغيظ فى غمرات من لهيب الغيرة !! إنها تمضى لايحس منها إلّا حريق الزمن خالدًا عليهِ ، لا ينقضى ولا يتقطع . وأخوه مسعود إلى جانبه ينظر مشفقًا متلددًا إلى شبح ساكن لا ينود [٢] منهُ شيء أو يتحرك . من لهُ بأن يستلَّ أخاه المسكين من أمواج أطبقت عليهِ من كل مكان ؟ إن الصمت وحده هو كل ما يستطيع أن يعين بهِ أخاه على بلوى هادمة مدمرةٍ ، صمت ينطق بالمشاركة والإسعاد ، والرقة والحنان . ليتهُ ما أطاعهُ ، بل ليتهُ أغرى أخاه بالرحلة فى جانب من الأرض بعيد فعسى كان يستجدُّ له من نوازع الحياة ما يكفيهِ شر ميٍّ وشرّ هواها .

وكذلك يخطو ذو الرُّمة الخطوة الأولى فى الطريق إلى حقيقة الحب ... ، فى الطريق إلى العذاب ... ، فى الطريق إلى الجحيم الذى يجعل النفس العاشقة سعيدة بالألم ، متشبثة به ، آلفة له ، باحثة عنهُ لو فتر عنها أو سكت .

* * *

(١) الحِسّ والرِّكز بمعنى .

(٢) ينود ويتحرك بمعنى ، وإن كانت الأولى فيها بمعنى التمايل .

« جمعية الشبان المسلمين »

في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول ، من سنة ١٣٥٣ وضع الحجر الأساسى لبناء دار جمعية الشبان المسلمين ، وإنى ليحزننى أن لا أكون حضرت وضعه فى أرضه المباركة ، فلقد كان قلبى يوما ما لبنة حية من لبنات هذه الجماعة ، ولا يزال هذا القلب مخلصا لها إخلاص ورع لا دعوى فيه ، محبا لها محبة إيمان لا نفاق فيها ، يبتسم لما تبتسم له ، ويغضب لما تغضب له ، ويأسى لما تأسى به ، ولئن كان من أحداث الدهر عندى أنى انقطعت دون أصحابى من هذه الجماعة ، فوقفت وساروا ، فإنى لا أزال أجد فى نفسى الاطمئنان إليهم ، وما بى عنهم من تأخر حين يدعوننى إلى مكانى من صفوف المجاهدين يوم يشتد ساعدى للجهاد .

وبعد أن وضع هذا الحجر الأساسى رغب إلىّ أستاذى وصديقى محب الدين الخطيب أن أتعجل فى كتابة التاريخ الماضى للأيام الأولى لظهور هذه الجماعة التى انتشرت فى عام واحد بين خوافق العالم الإسلامى ، انتشار النور الإلهى فى القلوب المؤمنة ، وسبيل التاريخ فى مثل هذا أن تذكر الحوادث مؤرخة باليوم والساعة ، مبينة بالمواضع والأمكنة ، محددة بالرجال والأعمال ، ولكنى وجدت أن أوراقى قد تشتّت على الآن ، وليس بين يدى منها إلا القليل الذى لا يأتى منه هذا التاريخ على وجه التدقيق والتحقيق . فقصارى ما أكتبه فى هذه الكلمة أن يكون تاريخا مجموعا من أشتات الورق ، ثم مما وعته الذاكرة من أيام كانت تمر بنا إذ ذاك مر السحاب ، لفرط مافيها من الحياة والشباب ، والعجلة والاهتمام ، ثم إن فرحة ماكنا بسبيل تحقيقه هى مما يُنْسِى المرء كل شىء ، حتى لذة العمل والإخلاص .

---

* مجلة الفتح – العدد ٤٠١ ، السـنة التاسعة ، ١٦ من ربيع الأول ١٣٥٣ هـ ، ٢٩ يونيو ١٩٣٤ .

« تاريخ اليوم الأول »

ففى مثل هذا الشهر (ربيع الأول من سنة ١٣٤٦) زار مكتب الأستاذ محب الدين الخطيب فى دار المطبعة السلفية ومكتبتها فضيلة الأستاذ الجليل السيد محمد الخضر حسين ، وكانا يتحدثان فى أمر الاجتماعات التى كانت جمعية الشبان المسيحية تعقدها فى تلك الأيام - كدأبها إلى اليوم - تدعو لها رجالا من رجال مصر ، ليحاضروا الناس فى دارها . فمما حدث يومئذ أن تلك الجمعية دعت إلى دارها رجلا كان من دأبه أن يجعل القرآن موضعا للتهكم والشك . وفيما هما فى حديثهما هذا دخل عليهما صديقى الأديب الضليع الأستاذ عبد السلام محمد هارون - الطالب إذ ذاك بتجهيزية دار العلوم [1] - فأشرقت بوجوده فكرة انبسطت أنوارها فيما بعد ، وأضاءت ظلمات من الغفلة والخمول والدعة ، كانت قد انطبقت على العالم الإسلامى عامة ، ومصر خاصة ، حتى كنا نستشعر الفزع مما يمر بنا من أطياف الحوادث التى تمر بالناس ، ولا تصيب منهم شيئا يبكى له ، أو يؤسف عليه ...

من ذلك الشر انقدحت الشرارة الأولى التى أوقدت النور الذى أشرق على العالم الإسلامى فى الشهر المبارك شهر مولد الرسول ﷺ ، ليكون ضياء للمسلمين ، يسترشدون به فى أمر دينهم عامة ، ثم اجتماعهم خاصة بعد أن أصاب الأمة الإسلامية من قِبل التدابر والتقاطع ، والفرقة والشتات ما أعيى حكمة الطبيب ، وإشفاق الآسى . فلذلك كانت هذه الجمعية ولا تزال لاغرض لها إلا أن يكون المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ولا تتعمد فى ذلك طعنا فى دين ، أو منابذة لملة ، بل غرضها الذى لا يتغير أن تطلب خير الأمة الإسلامية والعربية من كل سبيل .

والآن نعود إلى تاريخ هذه الجمعية ... أشرقت هذه الفكرة فكنت فى طليعة

---

(١) وقد تخرج بعد ذلك فى مدرستها العالية ، وهو الآن يتولى التدريس فى مدرسة فارسكور الابتدائية ، من أعمال مديرية الدقهلية (شاكر) .

مَن سُوِّغ من أشعتها لمحات ، لاتزال تضئ فى قلبى سراجا هاديا ، فيما ينطبق علىّ من ضلال الحياة انطباق فكٍّ من الظلام على فك ... وكنت (حين تفجر النور من منبعه الصافى) مع أخى الذى أشرقتْ عليه (عبد السلام هارون) فى طريقنا إلى المطبعة السلفية ، يدفعنا الشباب ، وتثور بنا الفكرة المنبعثة من الآلام التى لقيناها حين سمعنا خبر جمعية الشبان المسيحية . وكانت دار المطبعة السلفية – ولم تزل – نبع القلوب الصادية ، تردُها من الشباب فئة قليلة الصبر على ضيم ينزل بالأمة العربية من ظلم الاستعمار ، وعصبية الاستعمار . ففى المطبعة السلفية قلد السيف صاحبه ... ذلك المجاهد الرابض فى مكتبة ، يواصل الليل بالنهار ، عاملا لأشياء قد استقرت فى نفسه فصارت إيمانا ، ودارت على لسانه فأصبحت تسبيحا ، وترامت عن قلمه فكانت جهادا – ذلك هو محب الدين الخطيب .

لم يلبث هذا الجمع أن جمع من كبار المجاهدين رجلين : أما أحدهما فرحمة الله عليه أحمد تيمور باشا ، ذلك القلب الرقيق الوفى ، الذى لا يَنْسَى ولا يُنْسَى ، وأما الآخر، فهو العالم المخلص ، والكاتب البليغ الأستاذ السيد محمد الخضر حسين ، الذى بارك الله به هذا العمل من الساعة الأولى ، فمن هؤلاء جميعا استفاض النور الحى الجميل على مدينة الأحلام الفاتنة ، التى نسميها الآن (جمعية الشبان المسلمين) .

أماتيمور باشا رحمة الله عليه فحين سمع ما تآمرنا له أضاء وجهه ، وابتسم ثغره ، وترقرق الدمع فى عينه ، حتى لظننت أنى لا أرى رجلا شيخا ، بل أرى قلبا فتيًا حيا ، يتنزى إلى جهاد يبذل فيه الروح فى غير حرص ولا شح .

وأما السيد الخضر فكان كالغُصُنِ الرطب ، حين يَفيئه النسيم ، يهتز طربا وسرورا ، فحين بدأنا العمل أصبح نشاطا قد سُوِّىَ رجلا ، وإيمانا قد أفرغ قلبا ، وصراحة قد جمعت حزما وعزما .

هذا الاجتماع الأول كان هو الحجر الأساسى الذى يقوم عليه البناء الحى النابض بدم الشباب ، العامل بفكرة الشيوخ ، المترامى إلى الحقيقة العظمى فى

تاريخ الإنسانية ، ليثبت أن الإيمان يمنح الضعيف أسبابا من القوة والرهبة ، تنشىء في القوىّ أدْوَاءً من الضعف والفزع .

« دعوة الشباب إلى الجمعية »

افترقنا بعد ذلك الاجتماع ، وذهب صديقى عبد السلام ، وذهبت إلى من نعرف من أحبائنا وأصدقائنا ، نداولهم ونشاورهم . وأذكر أنا لم نذق ليلتنا نوما نطمئن إليه ، فقد كانت حياة الفكرة في أعصاب الشباب كفيلة بأن تنشىء فينا القوة على الاطمئنان إلى العمل ، وتنفى الركون إلى الراحة والدعة ... ووفق الله في اليوم التالى فصار عدد الدعاة إلى إنشاء الجمعية اثنى عشر شابا من طلبة المدارس العالية والتجهيزية على اختلافها . نذكرهم للتاريخ ، لا للفخر والتعالى :

محمد محمود الخضيرى	من قسم الآداب بالجامعة
مصطفى محمود القاضى	من مدرسة الهندسة
محمود محمد شاكر	من قسم الآداب بالجامعة
زكى القاضى	من مدرسة المعلمين
عبد الفتاح كيرشاه	من قسم الحقوق
عبد السلام محمد هارون	من مدرسة دار العلوم
كمال اللبان	من كلية الحقوق
عبد المنعم خلاف	من مدرسة دار العلوم
محمد القاضى	من كلية الحقوق
محمد أبو الفضل إبراهيم	من مدرسة دار العلوم
محمد محجوب	من كلية الطب
توفيق أحمد البكرى	من مدرسة الجيزة

« الاجتماع الأول »

اجتمع الإخوان الاثنا عشر يرأسهم تيمور باشا رحمة الله عليه ، والسيد الخضر ومحب الدين في المكتبة السلفية ، وتبادلوا الرأى في تنفيذ الفكرة على

أساس من القوة ، ومن العجب أن هذا الاجتماع لم يحدث فيه اختلاف ما على فكرة واحدة مما عرض ، مع أن هذا الاجتماع قد طال أكثر من ثلاث ساعات لا فترة بينها ، ثم افترقنا على موعد من الأستاذ الخضر ، لمهلة يضع فيها نص القانون الأساسى للجمعية ، وبلاغ ينشر فى جمهور المسلمين . فلما اجتمعنا فى المرة التالية اطلعنا على ماوضع الأستاذ الخضر ، وحددنا موعدا للاجتماع فى المنزل رقم ٣٠ بغيط العدة ، من باب الخلق ، يتسع لعدد كثير من المدعوين من أفاضل الرجال .

« الاجتماع الثانى والثالث »

كان هذا الاجتماع كما ذكرنا بغيط العدة ، لعرض القانون مرة ثانية على المدعوين من الشباب والشيوخ ، الذين توافدوا بإخلاص وشوق لتشييد البناء الأول للعمل الإنسانى العظيم الذى دعوا إليه . ففى هذا الاجتماع خطب الأستاذ الخضر ومحب الدين الخطيب ، ثم كاتب هذه السطور ، وكانت أقوالهم جميعا فى بسط أغراض الجمعية ، ومناشدة الحاضرين إلى توسيع أمر الدعوة ، ولذلك كان الاجتماع الثالث فى هذا المكان نفسه حافلا بأفاضل الرجال والشيوخ والشباب ، حتى إن المكان ضاق بهم ، وكان من خطباء تلك الليلة المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والأستاذ الخضر ، ثم الأستاذ الههياوى . ومما حدث فى هذا الاجتماع وعددناه توفيقا وبركة قيام رجل إيطالى موظف بالمحكمة المختلطة ، خطب خطبة بالغة ، أثارت الناس ، وأحيت فى نفوسهم أملا قويا ، وعزما صادقا . وفى هذا الاجتماع أُقرت الصورة النهائية للقانون ، ووضعت الخطة الأخيرة ، وانتخب الاثنا عشر الدعاة إلى مقابلة الدكتور عبد الحميد سعيد ، وعرض الأمر عليه لأن آراء القائمين بتأسيس الجمعية أجمعت على انتخابه رئيسا ، لمزايا متعددة اجتمعت فيه ، وحدد ميعاد للذين اشتركوا فى الجمعية ، أن يجتمعوا فى يوم ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٦ ، بدار الكوزمجراف ، بشارع عماد الدين ، لانتخاب مجلس الإدارة .

« انتخاب مجلس الإدارة »

وفد الوافدون على دار الكوزمجراف فى الموعد المحدد ، وقام الخطباء ، وكان منهم الأستاذ الخضر ، ثم الدكتور عبد الحميد سعيد ، ثم الأستاذ محمد الههياوى من الشبان ، (ثم) الأستاذ عبد الفتاح كيرشاه - المحامى الآن بالإسكندرية - فأبدع وأثار وحفز الناس وضج الحاضرون ، وقام إليه بعد خطبته الأستاذ محب الدين فعانقه وقبّله ، لما أبدى من حمية وإخلاص . ثم انتخب مجلس الإدارة بالاقتراع السرى ، فكان المنتخبون هم هؤلاء الأعلام :

(١) الرئيس : الدكتور عبد الحميد سعيد عضو مجلس النواب
(٢) وكيل الرئيس : الشيخ عبد العزيز بك جاويش مدير التعليم الأولى
(٣) أمين الصندوق : العالم الجليل أحمد تيمور باشا عضو مجلس الشيوخ
(٤) كاتم السر العام : الأستاذ محب الدين الخطيب منشىء الزهراء ، والفتح

الأعضاء :

(٥) الأستاذ السيد محمد الخضر حسين - المدرس بقسم التخصص بالأزهر
(٦) الأستاذ أحمد إبراهيم - أستاذ الشريعة بكلية الحقوق
(٧) الأستاذ محمد أحمد الغمراوى - خريج جامعة لندن
(٨) الدكتور يحيى الدرديرى دكتور حقوق وليسانسيه فى العلوم السياسية
(٩) الدكتور على مظهر - خريج جامعة فيينه
(١٠) الأستاذ محمود على فضلى - المدرس بمدرسة المعلمين العليا
(١١) الأستاذ محمد الههياوى - من رجال الصحافة المصرية
(١٢) الأستاذ على شوقى - سكرتير وكيل وزارة المعارف

بهؤلاء بدأت الحياة تعمل عملها فى إحياء الروح الإسلامية فى شباب العالم الإسلامى ، لا ليكون التعصب والسخرية والعبث . بل ليكون الإيمان الذى لا يرهب ، والعقيدة التى لاترتد ، والدعاء الممتد من نواحى الأرض إلى خوافق السماء ، يستنزل الرحمة على أمم قد قاست من القسوة والظلم والتحيف ما لا صبر

لأحد عليه ، حتى هوجمت بعد تجريدها من سلاحها – فى معقل الدين من قلوبها ، وحصن الفضيلة من اجتماعها ، ومنبر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من ألسنتها .

ألا وإن أمل العالم الإسلامى كله معقود بتحقيق الأغراض التى سعت لها هذه الجمعية المسلمة ، ومابقى العالم الإسلامى متعلقا بها ، معينا لها ، فهى إلى الغلبة والظفر والانتصار إن شاء الله .

* * *

فى حلبة الأدب

كتاب
تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى
للأستاذ أنيس الخورى المقدسى

ألقى إلى هذا الكتاب فخما ضخما مصقولا كأنه حديقة مطوية فأخذته بين يدى أدافع به الملل وأنا عند صديق عزيز فوقعت العين على كلمة أكبرتها أن تكون من غير رجل عالم . ثم وضعت الكتاب وأنا فى أمر غير الأمر وطويت أياما حتى تلقيته مرة أخرى لأقرأه وأكتب عنه ، فدخلت الكتاب كما يدخل الضيف أحمل نفسى على الأدب فى خلوة من أهل الدار ، وطفقت أرد ورقة منه على أختها يوما من بعد يوم حتى فرغت منه وأنا فى حيرة . فقد اتفق لمؤلفه أنه سما بالرأى حتى قلت قد انفتق لعينيه النور فما يروعنى إلا وأنا فى ظلماء مطبقة من تحت سبع أرضين لا هدى فيها لدليل ، وهذا عجيب فى كثير ممن يؤلف فى عصرنا هذا فقد رأيت فى كتبنا كثيرا من هذا السمو فى الفكرة والسقوط فى أدلتها وبراهينها ثم فى توجيهها وتطبيقها .

وقبل هذا أصف للقارىء موجز هذا الكتاب الذى هو الأول من جزءين فهو كما يقول مؤلفه فى صدره « يتناول النثر العربى وخصائصه الفنية منذ بزوغ الإسلام إلى النهضة الأخيرة يتخلله دراسات تحليلية لنخبة من أمراء الأقلام وعرض كثير من نصوصهم الإنشائية » . ثم يصف غرضه فى الكلمة التمهيدية لكتابه فيقول « أما كتابنا فغايته عرض الأساليب النثرية عرضا يبين تطورها منذ ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر » ... « ولسهولة البحث أفردنا لنثر صدر الإسلام قسما خاصا صرفنا العناية فيه إلى تحقيق مروياته والنظر فى نصوصه وهو يشمل بضعة فصول ويمتد إلى زمن عبد الحميد الكاتب » ، ثم ألقى نظرة « على الأساليب

---

* المقطم ، الجمعة ٢٦ يوليه سنة ١٩٣٥

الإنشائية من أيام عبد الحميد إلى الوقت الحاضر فإذا هي تجرى على ثلاثة أساليب رئيسية :

(١) الأسلوب المتوازن (أى المزدوج غير المسجع) ويدخل فيه ترسل عبد الحميد والجاحظ وأضرابهما .

(٢) الأسلوب المسجع - ويتناول الرسائل الديوانية والأدبية والمقامات وما إلى ذلك .

(٣) الأسلوب المطلق - وهو النثر السائد فى الكتب العلمية والتاريخية والاجتماعية قديما وأسلوب الإنشاء العام فى العصر الحديث » . وقد تناول المؤلف الأسلوبين الأولين فى هذا الجزء وأبقى الثالث للجزء الثانى من كتابه .. هذه صفة الكتاب رويناها للقارىء عن مؤلف الكتاب .

وأنا حين أقرأ كتابا أنظر إلى نهج صاحبه فى تأليفه فإذا رأيت له نهجا يخالف ما درج عليه الناس فى التأليف أخذته بنهجه حتى أخرج لنفسى خطأ النهج أوصوابه ، فإذا اضطرب نهجه عدلت عنه إلى أغراضه ، فإذا استوت أغراضه أخذته بها ونظرت إلى غرض غرض منها معدلا بين أوزانها حتى يخلص لى الأصل الذى خرجت عليه أو الأرض التى نبتت فيها ، فإذا اضطرب ذلك أخذته بآرائه فى مفردات علمه واحدة واحدة حتى يخلص بى إلى أحد أمريه غير مظلوم ولاظالم .

فلما قرأت هذا الكتاب لم يقع لى إلا أن آخذ الأستاذ أنيس المقدسى بآرائه فى مفردات علمه غير متعرض لنهجه أو أغراضه فى كتابه هذا . فمن أول ذلك كلامه عن السجع ومقارنة سجع الجاهلية بآيات القرآن فإن المؤلف لم يأت فيه إلا بالشبه التى تورط فيها الناس من قديم إلى يومنا هذا كقولهم فى تحريم السجع لما روى عن رسول الله ﷺ فى حديث الغرة وقوله للرجل الذى قال « أَأَدِى من لا شَرِبَ ولا أَكَل ولا صاح فاسْتَهَلّ ، ومثل ذلك يُطَلّ » فقال الرسول ﷺ «أسجْعًا كسجع الكهان » . ثم جاء الجاحظ بعد ذلك ووضع علة لتحريم السجع : إن الكهان كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ، فوقع النهى فى ذلك

لقرب عهد العرب بالجاهلية ولبقيتها فى صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة هذه زال التحريم .

وكنت أحسب أن المؤلف سينظر فى خصائص سجع الكهان نفسه ليستخرج منه الفرق بينه وبين السجع المعروف عن البلغاء ثم بينه وبين القرآن فإن هذا هو موضع الفصل فى الكلام الذى دار حول السجع وهو موضع التحقيق فى العلم المروى الذى وقع إلينا ولم نحقق فيه إلا القليل . وأكتفى هنا بأن أقول أن سجع الكهان اسم لما وقع فى ألفاظ الكهان على صورة صامتة وهو غير السجع الذى عرفه علماء البلاغة ووضعوا له الحدود والرسوم وسنفرد لهذا البحث كلمة خاصة فى المقتطف إن شاء الله .

ومن عجيب ماوقع للمؤلف فى هذا الفصل قوله « ص ٥ » ويؤيد مايراه من شيوع السجع فى تلك الحلقات (الدينية فى الجاهلية) أن التنزيل القرآنى على تعاليه عن أقوال العرب وكهانهم لم يخرج عن الأسلوب الذى عرفه الناس يومئذ » . كيف يتفق للمؤلف أن يقول أن القرآن (لم يخرج عن هذا الأسلوب) وهو لا يعرف هذا الأسلوب ولم يحط بخصائصه . أيحسب الأستاذ أن الأسلوب هو الكلام المرصوف ، وأن الخصائص هى انتهاء كل جملة من هذا الكلام بلفظين متقاربين فى الجرس متفقين فى القافية ... إنه لا يقول هذه الجملة إلا من وقع إليه سجع الكهان فى « حلقاتهم الدينية » كما يقول فدرسه وميزه وحده ، ووضع له مطلعا ومقطعا وغرضا ، ثم درس القرآن وعرف مثل ذلك فيه وقارن ثم ألقى ووضع وأخذ ورد ونفى وأثبت . كيف يقول المؤلف ذلك وهو الذى يقول فى ص ٤ « ولا يجوز علميا أن نتكل على روايتها فقط (أى أسجاع الكهان) فى الحكم على ما كان عليه هذا النثر » . وقد أتى المؤلف فى ص ٦ بما يدل على بطلان الأصل الذى يبنى عليه كلامه هذا من معنى السجع ، فقد نقل عن الجاحظ « وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فيكون فى الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا أحدا منهم » . فهذا دليل على أن سجع الكهان غير السجع الذى يقع فى كلام الناس أو يتعمدونه للزخرف والزينة ، ولولا ذلك لكان الخلفاء

الراشدون قد نهوا عن ذلك كما يقول الجاحظ . فلو أن المؤلف وقف قليلا عند هذه الكلمة لتبين له أن كلمة السجع قد وقع فى معناها الخلط والخبط بين أقوال الكهان والكلام المزور المزوق بالقافية الموسيقية ، ولاجتهد بعد ذلك أن يفرق بين معنى الكلمة عند علماء البلاغة ومعناها الذى وردت له فى قولهم (سجع الكهان) ، ولوجد أن مقارنة سجع الكهان بالتنزيل القرآنى كما يسميه من أعظم الخلط بين المتضادين . والذى أوقع المؤلف فى هذا أنه حسب أن أهل الجاهلية الذين قالوا عن الرسول ﷺ أنه كاهن إنما قارنوا بين سجع كهانهم وبين سجع السور المكية الأولى كما قال فى ص ٥ . ولو أن أهل الجاهلية قالوا ذلك لهذا المعنى ومن جراء هذه المقارنة لما كانوا أهلا لتنزيل قرآن عليهم ، ولما كان هذا القرآن معجزا لأنه إنما أعجزهم ببلاغته وأسراره والذى يحكم فى صور الألفاظ لا يكون بليغا أبدًا ولا يدرك أبدًا سرًّا من أسرار الكلام فهو عاجز من أصل طبيعته لا من أن الكلام بليغ أو معجز وبذلك يسقط الإعجاز كله ولا يبقى معنى لإيمانهم بما جاء فيه ولا بمن جاء به .

وندع كلامه كله عن القرآن فأكثره مما لايقف عنده إلا من أراد أن يكشف عن أوهامه وَهْمًا فوَهْمًا مفصلا لأخطائه أو مبينا لمواضع السقط فيه . ويأخذ فى كلامه عن حديث رسول الله ﷺ وهذا الباب من الكـــتاب مملوء بكل عجيبة من الرأى ، وفيه من التناقض كثير مما يدل على أن المؤلف لم يدرس هذا الموضوع دراسة من يريد أن يعلم ثم يحقق ثم يكتب خلاصة ماثبت عنده أو رجح لديه .

ومن عجيب أمره أنه بعد ما جعل السجع من أسلوب الجاهلية وردَّ القرآن إليه فى موضع من الباب الأول ، عاد فذكر فى ص ٧٣ أن من مزايا الحديث أو نثر صدر الإسلام - البساطة - وفسرها بقوله أنها البعد عن تكلف السجع أو البديع وكيف يكون ذلك فى الحديث ولا يكون فى القرآن . هذا من العجب فإن الذى أنزل عليه هذا القرآن هو هو الذى تكلم بهذا الحديث ، وهو هو الرسول الذى يريد أن يؤثر كلامه فى الناس . فلو أن السجع الذى فى القرآن كان للتأثير والإيهام كما

يكون سجع الكهان لكان ذلك أولى بصاحب هذا الكتاب فى حديثه أن يتخذه من مادة تأثيره على الناس .

ثم أنه فى ص ٥٠ بدأ كلاما عن وضع الأحاديث - يعلم الله أنه كلام مُتلقَّف من أفواه قوم خبرناهم عهدًا طويلا ، وفيه من التحريف شيء كثير . وللدلالة على ذلك نجد المؤلف يروى عن صحيح مسلم قول ابن القطان « لم تر أهل الخبر فى شيء أكذب منهم فى الحديث » . وجعل الخبر بالباء الموحدة وسط اللفظ ، ويريد بذلك أن يوهم الناس أنهم أهل الحديث . والحديثُ فى مسلم « أهل الخير » بالياء المثناة ، وفى رواية « لم نر الصالحين » ، وفسر مسلم بعد هذا الحديث موضع الإشكال فى أن الصالحين يكذبون على رسول الله ﷺ وهم هم الصالحون . فقال : « قال مسلم : يقول يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب » ، وتأويل ذلك أن أهل الصلاح والتقوى الذين يصرفون أنفسهم عن أمور الناس ولا يبحثون عن أحوالهم من صدق وكذب وتدليس وكذا وكذا إلى آخر النقائص يحسبون أن الناس لا يجترئون على رسول الله بالكذب إذا حدثوهم عنه فيتلقَّوْن ما يسمعون بالتسليم ثم يَرْوون مايسمعون لما فيهم من سلامة الصدر عن الخبث ، ولذلك يجرى الكذب على ألسنتهم ولا يتعمدونه . ولذلك يردّ أصحاب الحديث قوما من كبار الصالحين ويقولون عنهم حين يذكرونهم « كان فى فلان غفلة » ، فهذا هو المراد .

ومما يدل على أن المؤلف لم يتثبت من كلامه فى هذا الباب كله أنه قال فى ص ٦٦ فى عرض كلامه عن رد أحاديث من الصحيحين لاتثبت عنده لعلل زعم أنه اهتدى إليها وحده فردَّها ، لذلك قال المؤلف حفظه الله « آية المنافق بغض الأنصار - آية المنافق حب الأنصار » وهما (يعنى الحديثين كما يزعم) مع تناقضهما من المتفق عليهما فى الصحيحين والإغضاء عن مثلهما أَوْلَى ، **أولاً** : لما فيهما من دعاية حزبية ، **ثانيا** : لتناقضهما » . انتهى كلام الأستاذ والعجب لمن ينقل عن كتابين طبعا ثم طُبِعا ثم طبعا حتى امتلأت بما طُبع منهما بيوت المسلمين وغير المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ثم يخطىء فى النقل ثم

يجعل خطأه من الأدلة التى دفعته إلى الطعن فيما روى من حديث مسلم والبخارى وهما من هما فى التحديث وفنونه . وللقارىء أن ينظر فى صحيح مسلم كتاب الإيمان : باب حب الأنصار ، وفى البخارى : كتاب المناقب ، ليقرأ الحديث على وجه التحقيق لاعلى وجه الوهم « آية المنافق بغض الأنصار وآية المؤمن حب الأنصار » . وأنا لا أدرى كيف يتأتى لمؤلف أن ينقل خطأ ثم يتوهم ثم يكتب ثم يرد على الناس أقوال أئمتهم الذين أفنوا أعمارهم فى تحقيق العلم وتمييزه طيبه من خبيثه ثم يزعم أن ذلك تحقيق لمرويات الصدر الأول كما نقلت عنه فى أول كلامه .

هذا وسنعود إلى مواضع من الكتاب بعد قليل لنثبت أن هذا الكتاب لابد من تغييره البتة لأنه لا يصلح أن يكون دراسة فى النثر العربى . وهنا أسوق للمؤلفين قول كونفوشيوس « من تعلم من غير تفكير فهو فى حيرة ، ومن فكر من غير تعلم فهو فى خطر » .

* * *

« عن كتاب تطور الأساليب النثرية »
رد على مؤلفه

غضب الأستاذ أنيس المقدسى مما نقدناه به فى مقالنا الأول ورمانا بكلمته الفاتكة فى مقطم الثلاثاء ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٥ ظنا منه أن ما أتى به يعد دليلا جديدا يقنعنا بما فى كتابه . والحقيقة أنه دليل جديد يعضد رأينا فى الكتاب ودليل أيضا على أن المؤلف إنما يأخذ معانى الأشياء من ظواهرها ولا هَمَّ له بما فى باطنها . ونحن لا نقول هذا هجاء ولا طعنا كما يقول فى مقاله . فما فى العلم هجاء ولا طعن . وأنت إذا قلت فى قضية من قضايا العلم أنها فاسدة وأن صاحبها مخطىء وأن هذا الخطأ دليل على أنه لم يفكر فى القضية وأن إلقاءه القضية بغير تفكير فيها إنما هو تهجم على الخطأ - فلا تعنى بذلك هجاء ولا طعنا ولا تنقصا . فإذا جئت مع ذلك بالدليل على ما تقول لم يبق لصاحبها عذر فى غضبه أو فورته .

أراد الأستاذ الأديب أن يدفع عن نفسه وعن كتابه ما قلناه وأراد أيضا أن يعلمنا - علمه الله الخير - كيف نكتب حين ننقد فى هذا القرن العشرين وسنكون عند حسن ظنه بنا إن شاء الله .

يدعى الأستاذ - أكرمه الله - أن نقدنا « مشبع بروح لا نجدها اليوم إلا فى الأوساط الجدلية البعيدة عن الحرية العلمية فنحن ننظر إلى الحياة من خلال (العرف الموروث) ، وأننا نعتبر (التقاليد القديمة) قضايا منزلة لا سبيل للعلم إليها ، وأننا حين رأيناه خرج عن السنة المعهودة قامت قيامتنا واتهمنا الخارج بالضعف وسوء القصد وانصرفنا عن المناقشة العلمية الهادئة إلى الطعن والتنقص ، وأن كلامنا قد ورد فيه ما يجب أن يتنزه عنه ناقد من نقاد القرن العشرين إذ أخذنا نعالج علمه معالجة الغيور على معتقد موروث نخاف فقدانه ، وذلك من جراء الغيرة التقليدية التى اتهمنا به .

---

* المقطم ، الثلاثاء ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٥ ، ص ١١

وإذا كان الأستاذ قد أباح لنفسه أن يفهم كل هذا من كلمتى عن كتابه ثم رضى أن يصرح بذلك تصريحا عجيبا فى بابه ثم لم يتورع عن أن يقول إنا أخذتنا الغيرة على (معتقد موروث نخاف فقدانه) ، إذا كان الأستاذ قد أباح لنفسه ذلك كله فلا أقل من أن يبيح لنا أيضا أن نترجم للقراء معنى هذا الكلمات التى ذكرها فى كلامه . فإن هذه (الطريقة الأمريكانية فى الأساليب الكتابية والنقدية) مما لا نتعاطاه ولا ندع لأحد سبيلا إلى الاختفاء وراءه . ولعل الأستاذ يعرف أننا نقبل كل ما يقال تصريحا ولو كان فى كل كلمة منه سيف مسموم ، ولا نقبل شيئا مما يقال تعريضا ولو كان فى كل كلمة منه رحيق مختوم . فإن أدوأ الأدواء هذه المخادعة التى يتخذها بعض الناس ولا يزالون يلحون فى الإتيان بها عند كل حديث ليوقعوا فى النفوس معانى تأتى من وراء العقل مأتى اللص من وراء الجدار . ونحن لا نظن بقرائنا إلا خير الظن ، فما من أحد إلا وقد فهم أن الأستاذ يريد بقوله (العرف الموروث والتقاليد القديمة والمعتقد الموروث) – القرآن والحديث – فإن الكلام فى مقالنا كان منحصرًا فيهما ، وفهم أنه يريد بقوله (الغيرة التقليدية) قيامنا لرد شبه الأستاذ التى أتى بها وبثها فى كتابه وأكثرها مما لا يقتضيه البحث الذى يبحثه . وليعلم الأستاذ أننا أخذنا كتابه أرفق مأخذ ولم نرد أن نفجعه فيه دفعة واحدة فوضعنا له كلمات هى أس عظيم لمن يتدبر ، فظن الأستاذ أن قليل علمنا وقف لنا حيث وقف القلم . فإن كان ذلك ظنه وكان ذلك هو الذى حفزه إلى أن يجعل القرآن والأحاديث من التقاليد الموروثة فخير له أن يرد ظنه إلى حيث كان . وإن كان هذا أيضا هو الذى استفزه حين قال أننا كتبنا غيرة منا على (معتقد موروث نخاف فقدانه) فسيعلم أننا ماكتبنا أولا إلا لإقرار الحق فى العلم وتزييف العلم الناقص أو العلم الصناعى الذى راج الآن فى أسواق الأدب رواج بضائع اليابان فى أسواق البزازة . وليعلم أيضا أن هذا (المعتقد الموروث) ليس مما يخشى عليه طوارق الحدثان التى تسمى أساتذة وفلاسفة وكتابا وشيوخا فى الأدب فى هذا الزمان . وبعد هذا كله سيعلم الأستاذ أيضا أننا لسنا نقلد أحدا فيما نكتب حتى نصبح من المدافعين عن التقاليد ، وأن كلامنا عن السجع مما نقضنا

به أقوال الأئمة من علمائنا رضى الله عنهم وأننا نأخذ هذا العلم من طريق الفهم لا من طريق الرواية وحدها وأننا لا نستعمل الطريقة (التجارية الأميركية) فى تقسم الأشياء وترتيبها وهندمتها وتزيينها للإغراء لا للفائدة .

حصر الأستاذ أنيس (نظرياتنا العلمية) كما سماها فى كلمات خمس لا ندرى كيف وقعت له على الصورة التى كتبها بها ، ورد عليها ردا طريفا يقف بالمسألة كلها على الباب ، لا تريد أن تدخل ولا تريد أن تنصرف . وقد نبهنا الأستاذ فى مقالنا الأول (حين تكلمنا عن كلمة الجاحظ فى سجع الخطباء عند الخلفاء الراشدين) أن الوقوف عند النصوص وتدبرها لفهمها أمر لابد منه وأن فيلسوف الصين الأكبر يقول « من تعلم من غير تفكير فهو فى حيرة ومن فكر من غير تعلم فهو فى خطر » . وسنقرر ذلك نفسه فى مقالنا هذا من باب آخر وسنقرر أيضا أن الفوضى التى عمت أدباءنا فى فهم الألفاظ ثم القدرة على اختراع كلمات وتوهم معنى لهذه الكلمات ، ثم بناء التاريخ على هذا الوهم إنما هو إفساد للعلم وللعقل وللتراث الإنسانى كله .

فالأستاذ أولا قد ادعى أن العرب كانت لهم (حلقات دينية !!) وأن رأس هذه الحلقات هو (الكاهن) وأن هذا الكاهن كان (يسجع) كلامه فى هذه الحلقات فالسجع إذا من (آلات) صناعة الكاهن فى الحلقات الدينية ومن هنا خرج إلى مقارنته بالقرآن .

أما مسألة (الحلقات الدينية) عند العرب فما هى إلا وهم توهمه الأستاذ وفَجَأَ القراء به فى أول صفحة من كتابه كأنه شىء مقرر ثابت قد أجمعت عليه الرواة وتواترت به الأخبار . وكان من حق القراء الذين يقرأون كتابه أن يبين لهم أستاذهم الأصل الذى جاء منه بهذا البيان عن دين العرب فى الجاهلية ثم يصف لهم هذه الحلقات مما استنبطه هو من أصول التاريخ . ونحن ننفى هنا أن العرب كانت لهم حلقات دينية كما يقول الأستاذ وإلا فليأتنا الأستاذ بالدليل الذى يعضد رأيه فما قرأنا مرة واحدة شيئا من هذا لا فى تاريخ قديم ولا حديث يوثق به .

وإذا صح ذلك واستطاع الأستاذ أن يأتينا بالدليل فليبين لنا أيضا كيف كان الكاهن هو رأس هذه الحلقات الدينية . ونحن من الآن نقول لقرائنا أن الأستاذ لن يستطيع أن يفعل شيئا من هذا وأنه كان أولى به أن يدع أمر كتابه ويقف به حيث وقفنا به من النقد ، فهذه واحدة في القدرة على اختراع كلمات ثم تَوَهُّم معنى فيها ثم بناء تاريخ على هذا الوهم .

وننصرف عن هذا إلى القول فى الفوضى فى فهم الألفاظ العربية فالكاهن عند العرب إجماعا هو الرجل الذى يتعاطى الكهانة وهى الخبر عن الكائنات والحوادث فى مستقبل الزمان ويدَّعِي لنفسه معرفة الأسرار واستظهارها . وكانت العرب تسمى كل مَنْ أخبر بشيء قبل وقوعه أو أنذر به قبل أن يقضى أمره (كاهنا) . فكانوا يلجأون إلى الكهنة لفض النزاع القائم بينهم فى خصوماتهم أو عند إرادة السفر من مكان إلى مكان ليعرف الرجل منهم مايصيبه فى سفره من خير أو شر إلى غير ذلك مما هو من هذا الباب . وليس فى كتاب من الكتب ما يدل على أن الكهان كانوا من رؤساء الدين أو أنهم كانوا قائمين بشرائع الجاهلية فى شيء أبدًا . والكاهن عند العرب والعراف والمنجم من بابة واحدة مع اختلاف يسير يدل عليه اشتقاق هذه الألفاظ . فالأستاذ قد وقع فى هذا الخلط بين معنى الكاهن عند العرب والرئيس الدينى كما يسمونه من أنه إنما اعتمد فى فهمه هذا على مايرد فى ألفاظ المترجمين الذين ترجموا كتب المستشرقين حين كتبوا عن تاريخ الشرق القديم كمصر والهند وآشور وغيرها ، فإن هؤلاء المترجمين لم يجدوا فى ألسنتهم كلمة يعبرون بها عن الرئيس الدينى إلا قولهم (الكاهن) . فهذا اللفظ عند الأستاذ هو كما ترى عامى لا عربى فهمه على عاميته لا على عربيته .

بقى أن نذكر لقرائنا كلمة (الكاهن) التى وردت فى القرآن ثم ننتقل بهم إلى معنى (سجع الكهان) موجزين فى ذلك غير ناظرين إلى رأى الأستاذ فيما نقوله فإن المعنى العامى الذى فهمه من هذه الكلمة يجعل بيننا وبينه سدا محكما . فالذى ورد فى القرآن آيتان إحداهما فى سورة الطور وهى قوله تعالى لرسوله ﷺ

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ .

والأخرى فى سورة الحاقة ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

ومن أسباب نزول هاتين الآيتين أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونَفَرٌ من قريش ، وكان ذا سِنّ فيهم وقد حضر الموسم فقال : إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم فأجمعوا فيه رأيا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويردّ قول بعضكم بعضا . فقيل يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقوم به . فقال : بل أنتم . فقالوا نقول مجنون ! فقال ما هو بمجنون ، ولقد رأيت الجنون وعرفناه فما هو بخَنْقَه ولا تَخالُجِه [1] ولا وَسْوسته ، فَقُولوا أَسْمَعْ . فقالوا : نقول كاهن ! فقال ماهو بكاهن ، رأيت الكهّان فما هو بِزَمْزَمَة [2] الكهان . فقالوا : نقول شاعر ... إلخ وسنعود بعد إلى تفسير هاتين الآيتين مع هذا الحديث .

فذِكْر الكاهن فى القرآن ليس مما يقيم لأستاذنا أبقاه الله حجة فيما يدعيه من أن هذا الاتهام مبنى على ما رأوه من الشبه بين أسلوب كُهَّانهم وأسلوب السور الأولى من القرآن . وليتدبر الأستاذ هذا الموضع فضل تدبر فإنا لن نفسره له إلا بعد أن يقر بأوهامه التى ذكرناها ويقيننا أن القراء قد فهموا الآن موضع التفسير الصحيح لمسألة الكهانة .

أما سجع الكهان فموجز الرأى فيه عندنا أنه هو طريقة الكهان فى الإخبار بالغيوب ثم زَمْزَمَتُهم عليها ثم الاستعانة على إيقاع التأثير على السامع فى زمزمتهم بالاتزان والتعديل الذى وضعوه لكلامهم . وفى هذه الكلمة الكفاية بعد ، ونتم

---

(١) تخلّج المجنون فى مشيته : تجاذب يمينا وشمالا ، أى تمايل .

(٢) الزمزمة : صوت خفىّ لا يكاد يُفْهَم .

قولنا عن الكهان وسجعهم مفصلا بعض التفصيل فى المقال الآتى [١] مختصرين القول اختصارا لأن الرأى الذى نقضنا به أقوال علمائنا فى فهم (سجع الكهان) كثير الأدلة ، مبنى على تفسير دقيق لمعانى الألفاظ التى تداولها العلماء ولم يبينوا لنا وجهها بيانا شافيا .

* * *

(١) لم يكتب الأستاذ شاكر هذا المقال ولم يتابع قوله عن سجع الكهان فى أى مكان آخر .

ترجمة القرآن
وكتاب البخارى

كتب فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد السلام القبانى كلمتين عن ترجمة القرآن الأولى فى بلاغ الثلاثاء [١] الماضى والأخرى فى بلاغ الجمعة [٢] « أمس » ويقول الأستاذ فى مقاله الأول « والذى كنت أعجب له أن المسألة لها باب خاص فى أشهر كتاب إسلامى وهو البخارى عُقِد لبيان جواز (ترجمة) التوراة وغيرها من كتب الله إلى اللغة العربية (كذا) وغيرها فى كتاب التوحيد وهو آخر كتاب فى البخارى إذ قال - باب مايجوز من تفسير التوراة وكتب الله بالعربية وغيرها لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ... إلخ ﴾ . وقد كان من فرح الأستاذ الجليل بهذا النص أن جعل كلامه تعجبا من الكتاب والعلماء الذين تعرضوا لمسألة الترجمة ولم يفطنوا إلى هذا النص ولا وقعوا عليه حتى بلغ به أن قال فى آخر المقال الثانى « وإذا كان للأقلام أن تفخر بالعلم ، والعلم خير ما يتنافس فيه ، ويُفْتَخر به ، فلهذا القلم أن يفتخر بانفراده باكتشاف هذا الدليل (العجيب) فى المسألة من أن البخارى - وهو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى - وضع لهذه المسألة بابا خاصا . وذلك أن مئات من الناس العلماء وغيرهم كتبوا فى هذه المسألة ولم يعثروا على هذا الباب من البخارى . وبعض كبار العلماء وضعوا رسائل فيها ، بل العلماء المتقدمون لم يعثروا عليه أيضا ، فللّهِ الحمد والمنة . ولا نقول ذلك إلا فرحا بالعلم وسرورا به . فلا ينقمن علينا ذلك رجل سليم دواعى الصدر » .

ونحن نقول للأستاذ الجليل : هونًا فما بك الفخر . فدعوى الأستاذ أن أحدا لم يعثر على هذا الباب فى البخارى ليس لها دليل البتة من وجه من وجوه القول ، فإن هذا الباب المعقود فى كتاب تدارسته الأجيال من منتصف القرن الثالث

---

* البلاغ السبت : ١٩ المحرم سنة ١٣٥٥ - ١١ إبريل سنة ١٩٣٦

(١) ١٥ محرم ، سنة ١٣٥٥ - ٦ إبريل سنة ١٩٣٦ .

(٢) ١٨ محرم ، سنة ١٣٥٥ ، ١٠ إبريل ١٩٣٦ .

للهجرة إلى يوم الناس هذا ، ليس مما يخفى على أحد من العلماء أو أشباه العلماء من أمثالنا . ولكن الذين كانوا يتدارسون هذا الكتاب ، ومن لايزال يتدارسه لا يستطيعون أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويخرجوا العربية من أوضاعها المقررة إلى الأوضاع المتخيلة ، لذلك لم يدخلوا هذا الحديث فى كلامهم حين ذكروا ترجمة القرآن ، وتولجوا فى الكلام عنه إباحة أو منعا . وإذا كان أستاذنا قد كشف شيئا لم يكشفه أحد قبله ، وعثر على مالم يسبقه إليه كاتب ولا عالم ، فهذا الذى كشفه وعثر عليه شيء آخر غير هذا الباب المعقود فى « أشهر كتاب إسلامى - وأصح كتاب بعد كتاب الله تعالى » كما قال الأستاذ . إذا كان للأستاذ أن يفتخر ، ولقلمه أن يفتخر فليفتخر بأنه أول عالم قد اكتشف أن « الترجمة والتفسير » لفظان مترادفان فى العربية ليس بين مفهومهما فرق البتة . فالإمام الجليل البخارى يقول « باب مايجوز من (تفسير) التوراة وكتب الله بالعربية وغيرها ...» وأستاذنا يقول أن البخارى قد « عقد بابا لبيان جواز (ترجمة) التوراة وغيرها من كتب الله إلى اللغة العربية (كذا) وغيرها » فاكتشاف الأستاذ الذى يفخر به هو أن الترجمة والتفسير بمعنى .

ولكنى أنا خاصة لا أطاوع على أن الترجمة والتفسير بمعنى ، وإلا فليأتنا الأستاذ بالدليل على أنهما بمعنى واحد فإذا فعل سلمنا له بأن هذا الباب الذى ورد فى كتاب البخارى إنما يراد به جواز الترجمة . ولا بأس من أن نُذكّر الأستاذ هنا أن الأئمة لم يختلفوا أبدا فى جواز تفسير التوراة والإنجيل والقرآن بلغة من اللغات ، ولا كان ذلك فى كلامهم . وأرجو أن يعلم أستاذنا الجليل أنى رجل سليم دواعى الصدر ، ليس بى عليه نقمة ، ولا لى معه خلاف إلا على هذه المسألة بعينها ، أن الترجمة والتفسير بمعنى واحد ، وأن البخارى لم يرد إلا التفسير ، ولم يرد فى كلامه ، ولا فى الحديث الذى رواه فى هذا الباب أو غيره دليل واحد فيه ذكر ترجمة شيء من الكتب المنزلة ولسنا نريد أن ننافس الأستاذ فى العلم ولا أن نفخر به ، بل نريد أن نتعلم ، ويقول رسول الله ﷺ « من كتم علما يُنْتَفَع به جاء يوم القيامة مُلْجَما بلجام من نار » .

* * *

ترجمة القرآن
فى صحيح البخارى

قلنا لفضيلة الأستاذ الجليل محمد عبد السلام القبانى حين فخر بأنه اكتشف فى صحيح البخارى نصا فى مسألة ترجمة كتب الله المنزلة على عباده ورسله : (إذا كان للأستاذ أن يفتخر ، ولقلمه أن يفتخر ، فليفتخر بأنه أول عالم اكتشف أن « الترجمة والتفسير » لفظان مترادفان فى العربية ليس بين مفهومهما فرق البتة) ، ثم قلت – ولا أزال أقول – أننى أنا خاصة لا أطاوع على أنهما بمعنى واحد . فغضب الأستاذ لذلك غضبة الأسد الجريح إذا حملته الجراحة فأعمل فى عدوه الناب والظفر . وأنا يعجبنى من الرجال من يغضب لحقه فى القول أو غيره . ولا أضيق به صدرا ولا أتبرم . ولكن الأستاذ حفظه الله فى غضبه لم يبال أن يصب علىَّ نهرا من البلاغ . ماكنت أحسب أنه يستطيع أن يصبه علىَّ ، ...

وبعد فإن الأستاذ يقول إن البخارى « عقد الباب للترجمة ، وساق الأدلة ، ولم يفهم الشراح إلا أنه للترجمة ، ولا يمكن إنسانا كائنًا من كان أن يفهم إلا أنه للترجمة وفى الترجمة ، وليس معنى كلمة تفسير حينما تضاف لشىء بلغة إلا ترجمته إلى تلك اللغة الأخرى ، فمن الذى حرف كلم الناس عن مواضعه لأجل أن ينقدهم ثم يشتط فى نقدهم ؟ وأى جملة فى كلامى تقول أن التفسير من حيث هو مرادف للترجمة ، حتى تبنى المقالة كلها على هذا التوهم !! » .

وأنا مضطر أيضا هنا أن أسجل للأستاذ الجليل اكتشافا ثانيًا لم يفطن إليه أحد من قبله ، وهو أن كلمة (التفسير) إذا أضيفت إلى شىء بلغة كان معناها ترجمة هذا الشىء من تلك اللغة إلى اللغة الأخرى ، وهذا اكتشاف جدير بالتقدير ، فهو زيادة فى ثروة اللغة أولا ، ثم هو أصل فى قاعدة جليلة ينبغى للمجمع اللغوى أن

* بلاغ الجمعة : ٢٥ المحرم سنة ١٣٥٥ – ١٧ ابريل سنة ١٩٣٦

يدرسها ، فإن فى تطبيقها والتوسع فيها إنقاذًا للعربية من الضيق وقلة المادة . وإذا صحت هذه القاعدة التى ذكرها الأستاذ ، فأنا ولا شك قد أسأت إليه أبلغ الإساءة وعلىَّ أن أعتذر إليه جهدى ، وإن أبذل إليه العُتْبَى حتى يرضى . فهذه القاعدة هى التى « تزيل الإشكال » وتجعل كلامى الأول تحريفا لكلمه عن مواضعه ، وبناء قائما على توهم ليس فيه من الحق شىء ، ومع اعترافى بأنى كنت أجهل هذه القاعدة حين كتبت مقالى الأول ، فإنى لا أزال فى شك من أمرها ولا أستطيع أن أقر الأستاذ عليها ولا أطاوعه فيها فالإشكال لا يزال عندى قائما .

ولا يغضبن الأستاذ مرة أخرى إذا اضطررنا أن نقول له أن الترجمة من حيث هى كما يقول لا ترادف التفسير من حيث هو ، وليست من بابه ، ولا لها به صلة . وتأويل ذلك أن الترجمة فى أصلها « نقل » الكلام من لغة إلى لغة ، وللترجمة شروط ودقائق يعرفها من مارسها وأخذ نفسه بها ، والتفسير هو بيان معانى الكلام تفصيلا فى اللغة الواحدة . هذا هو الأصل . ويحسن بى أن أضرب لفضيلة الأستاذ مثلا يقرب إليه فصل ما بين الكلامين . فلو أنى قلت للأستاذ أنى ترجمت قصيدة من شعر شكسبير من الإنجليزية إلى العربية ، فمعنى ذلك أنى قرأت هذه القصيدة وتدبرتها وفهمت معانيها ، وجهدت فى استبطان نفس الشاعر فى كلامه ومراميه ، ثم هضمت ذلك كله ، وجئت بلسانى العربى ، فحاولت أن أنقل إلى القارىء العربى الأديب شعر هذا الرجل فى ثوب عربى لا يزيد ولا ينقص عن ثوبه الإنجليزى مجتهدا فى أن أحمل اللفظ العربى روح الشاعر ونفسه ومقدرته على التأثير فى نفس قارئه أو سامعه ، غير مخل فى ذلك بمعنى شعره أو معانيه مقابلا اللفظ الإنجليزى المحكم البليغ ، الذى تتسع معانيه على قدر اتساع الأفهام ، واختلاف الأحوال بلفظ عربى موجز مثله محكم بليغ تتسع معانيه وتختلف ، بشرط أن لا يكون فى عبارتى ما يخرج بالقارىء العربى إلى فهم معنى لا يحتمل أن يفهم من عبارة الشاعر الإنجليزى .

هذه واحدة . فإذا قلت للأستاذ أنى فسرت قصيدة من شعر امرىء القيس فمعنى ذلك أنى قرأت هذه القصيدة وتدبرتها ، وفهمت معانيها ، وجهدت فى

استبطان نفس الشاعر فى كلامه ومراميه ، ثم هضمت ذلك كله ، وجئت بلسانى العربى ، فحاولت أن (أبين) للقارىء العربى الأديب معانى شعر هذا الرجل فى ثوب عربى آخر يزيد على لفظه العربى الأول ، مفصلا فى ذلك مراميه كلها فى شعره (أو بعضها) ، كاشفا الغطاء عن أغراضه فى شعره هذا ، مبينا عن المشكل الذى تختلف فيه الأفهام محددا وجوه الاختلاف ، ثم مرجحا لبعض المعانى على بعض ... إلى آخر مايكون فى ذلك .

فالأصل فى الترجمة والتفسير كما يرى الأستاذ مختلف ، والموضوع متباين والقواعد متباعدة غير متفقة ، فكيف يصح فى ذهن الأستاذ بعد هذا أن كلمة (تفسير) حينما تضاف لشيء بلغة إن هى إلا (ترجمته) إلى تلك اللغة الأخرى ؟! وكيف يأتى هذا المعنى الجديد الذى كشفه الأستاذ على وجه مرضى عند إنسان يفهم (كما قال الأستاذ فى مقاله) ؟ وليتدبر الأستاذ هذا الباب فضل تدبر فإن الفصل بين معنى الترجمة والتفسير لابد منه لمن أراد أن يتناول كلام الأئمة رضوان الله عليهم ، وبخاصة من كان كتابه أصلا من الأصول العظيمة فى دين الله . وأزيد الأستاذ كلمة أخرى فى ذلك فلو أنى قلت له إنى فسرت قصيدة من قصائد شكسبير بالعربية ، فليس يقع فى وهم إنسان (كائنا من كان !!) أنى ترجمتها ، فإذا لم يصدقنى الأستاذ فى ذلك فليسأل ، فإنه واجد من يقول له أن ثم فرقا كبيرا بين قولنا « ترجمت قصيدة فلان الإنجليزية إلى العربية » و« فسرت قصيدة فلان الإنجليزية بالعربية » .. فإذا فرغ أستاذنا من سؤاله عن ذلك ، فسيعلم أننا لم نحرف كلام الناس عن مواضعه « لأجل أن نشتط فى نقدهم » ، وأننا لسنا ممن يبنى « كلامه على التوهم » .

وأعود فأقول مرة أخرى للأستاذ خشية أن يكون فاته ذلك فى مقالى الأول « أنى رجل سليم دواعى الصدر ، ليس لى عليه نقمة ، ولا لى معه خلاف إلّا على هذه المسألة بعينها من أن الترجمة والتفسير بمعنى واحد ، وأن البخارى لم يرد إلا التفسير ولم يرد فى كلامه ، ولا فى الحديث الذى رواه فى هذا الباب أو غيره دليل واحد فيه ذكر ترجمة شيء من الكتب المنزلة » . أما ما نقله الأستاذ من

كتب شراح البخارى حين شرحوا هذا الباب منه ، ومافى ذلك من ذكر الترجمة ، والصلاة بالفارسية أو غيرها ، وجواز قراءة القرآن بغير العربية ، فلسنا نكذبه فى نقله . وليست هذه النقول التى نقلها مما بعد عنا ، فإن الكتب - وبخاصة المطبوع منها - مبذولة لكل قارئ . ونحن نعلم أن ابن حجر قد استوفى الكلام فى هذا الموضع من كتابه وفى هذا الباب من صحيح البخارى ، ولكن أيظن الأستاذ أن ذكرهم الترجمة فى هذا الموضع دليل على أن قول البخارى « باب مايجوز من تفسير التوراة ... إلخ » معناه « باب مايجوز من ترجمة التوراة .. إلخ » ؟ كلا يا سيدى الأستاذ ، فإن ابن حجر وغيره كان أحرص على علمه من أن يتقحم على العربية فيقلب وجهها . انظر كيف حرص ابن حجر حين شرح نص كلام البخارى فقال « والحاصل أن الذى بالعربية مثلا يجوز (التعبير عنه) بالعبرانية وبالعكس » . وكرر ذكر (التعبير) ولو أنه كان قد صح عنده أن البخارى عنى بالتفسير الترجمة لما ذكر غيرها ، ولا أدرى .. لعل عذر ابن حجر كان هو عذرنا إذ لم يكن يعرف قاعدة الأستاذ فى أن كلمة التفسير إذا أضيفت لشىء بلغة فما هى إلا ترجمته إلى تلك اللغة الأخرى !!

أما ذكرهم فى هذا الموضع بعينه قراءة القرآن بالفارسية أو الصلاة بالفارسية وترجمة القرآن أو ما يشاءون فليس لأن البخارى جعل هذا الباب لذلك ، بل لأن هذه المسائل من مسائل الفقه مما استدل فيها الفقهاء بهذه الأحاديث على مذاهبهم ، وفرق بين أن يكون البخارى عقد الباب من أجل ذلك وبين أن الفقهاء استدلوا بما فى هذا الباب على مذاهبهم . ولو رجع أستاذنا فقرأ شرح ابن حجر لوجد صواب الرأى ، والله الهادى إلى سواء السبيل ، فإذا أشكل عليه المذهب ، فليسألنا غير متجانف ، فإذا فعل شفينا صدره من ذلك بجوابنا .

هذا ، وقد نصحنى الأستاذ فى أول كلامه بنصائح غالية كقوله « وكنت أود أن يتروى (يعنى كاتب هذه الكلمات) قليلا قبل أن ينشر ، أو أن يعرض هذه الكلمة على فضيلة الأستاذ أخيه أو والده الأجل قبل نشرها » ، وكقوله « لو تروى قليلا أو شارك (أى إنسان) فى فهم ما ينقده لما وجده موضع نقد » . وأنا اعترف

للأستاذ أننى (ترويت قليلا) ولكنى آسف أشد الأسف وأبْلَغه وأمضَّه أنى لم أستطع أن أعرض هذه الكلمة على فضيلة الأستاذ أخى أو والدى الأجل قبل نشرها ، وآسف أيضا أشد الأسف وأبْلَغه وأمضَّه إذ لم أجد (أى إنسان) أشاركه فى فهم ما أنقده ... ويقول الله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ساعة فاصلة فى تاريخ الإنسان ، حين يرمى تحت قدميه كل وساوس الشيطان متجردًا لله ، مجاهدًا يعمل ويكد وينطلق ، لا يردّه فزع ، ولا يكبح جماحه وَجَلٌ . ساعة فاصلة ينصرم من ورائها عمر قد أدبر ، ويمتد أمامها أجل يستقبل ، والحياة بينهما شاخصة تنظر عمل الحى فى أسباب حياته .

فى هذه الساعة أضع بين يدىّ أشياء عزيزة كنت أضن بها دون الناس جميعًا ، ثم أرسل إليها بصرى مؤملا يرجو أن يفوز ، مشفقًا يخشى أن يحبط عمله .

لقد عشت ما عشت ، وجربت ما جربت ، ثم بقيت صامتًا أو كالصامت . فالآن حين أبدأ أعرض نفسى على الناس فى كل أسبوع أو أسبوعين ، أرانى متكلما أبدًا : إن سكت القلم بقى عملى من أمامى يتكلم . فأنا - مابقيت - محاسب بالكلمة يقولها ، والعدة يعدها ، والتدبير يسوسه ، والعمل يعمله ؛ ورب واحدة تخفض منى ماكنت أرجو أن أرتفع ببعض أسبابه .

لقد انتزعت نفسى من بين أحبابى وأصحابى ، وصرت رجلا لكل امرىء فيه حق ، وعليه فى كل ما هو بسبيله تَبِعة ، ولكل يد فى عنقه مِنَّة أو دين ، ولديه أمانة هو مؤدّيها على الرضى كما يؤدّيها على الكره ، فإن خاس أو خان أو أمسك هلك - ولا هلك سواه - وكان من الخاسرين .

---

* « مجلة العصور » العدد الأول فى يوم السبت ٢٧ من رمضان سنة ١٣٥٧ - ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، ص : ١ - ٢ .

لقد انتزعت نفسى من بين أحبابى وأصحابى ، ولزمنى أن أبطل - فى هذا العمل الصحفى - معنى العداوة والصداقة فى جانب من قلبى ، إذ ليس أقتل لعمل الصحافى من تحكم العداوة ومحاباة الصداقة . ولئن كنت قد خسرت لذة إيثار الصديق ، فأحسبنى سوف أربح جمال إيثار الحق والعدل من طريق المساواة فى المحبة . وكأىّ من لذة تعدل لذة القدرة على إنصاف عدوك من نفسك حين يكون مع الحق ، أو كان الحق معه !!

إن هذا العمل الذى أقدم عليه يكاد يشعرنى بعض الفكر فيه بدبيب الشيب وهو يصَّاعد بين القلب والشعر ، ويكاد يحملنى بعض هذا الفكر على حالة من أريحية الصبا وعنفوان الشباب ، أتدفق بهما فى نفسى تدفق السيل تحت صعقات الرعد ، وخفقات البروق ؛ وانقضاض الرياح العواصف بين مخارم الأودية وأفواه الفجاج .

أما دبيب الشيب : فمن هول المطلع ، حين أُغمض عينى على هدأة وأرمى ببصيرتى فأرى ليلا مظلمًا قد أطبق على هذه الشعوب العربية والإسلامية والشرقية، وأرى من ورائها دنيا تموج وتضطرب ، وتضىء وتخبو ، وتسمو وتتضع، وتأخذ وتدع ... توشك أن تلتهم الشرق كله ، فينتاشنى [١] الهم من نواحى نفسى ، ويتداخلنى الرعب والفزع واليأس أو يكاد . كيف ...! كيف نستنقذ مجدنا وتاريخنا وأرواحنا وذرارينا من بعدنا ، وأنّى المسلك ؟ إن أحدنا ليضربه العجز عن ضبط ما يتبدد على أفكاره من خطرات الرأى التى يريد نفسه وأمته على العمل بها لينقذ روحه من الهلاك ، ومجده من التهدم ، وذريته من إرث السوء وتركات الشر .

وأما عنفوان الشباب : فحين أمد طرفى إلى مجد آبائى وأجدادى ، وهم يهبّون من بواديهم فى غبارها ، ثم لا يلبثون إلا قليلا فيملأون الدنيا حضارة تلوح

---

(١) انتاشه : أخذه وتناوله من قريب .

في بدئها كتباشير الفجر ، ثم تتفجر بشموسها وأنوارها حتى تضىء من جنبات الأرض كل مظلمة داجية ، فثَمّ الأسوة .

إن المجد الغابر ينادينا من وراء السنين والأجيال : لابد . لابد !! فهل ييأس من يريد أن يحيى ؟ إن الصخرة العظيمة المعترضة سبيل الظمآن إلى الماء تقول له : إما أن تحطمنى ، وإما أن تموت ، فأين الخيرة ..؟ لقد أعتقد أن إرادة الرجل إذا تعلقت بالله ، وأمّلت فى الله ، وعملت لله لم يبق أمامها إلا مايلين أو يتقصف أو يتهدم أو يستقيم .

لقد تعلمت أن لا أيأس ، وقد بالغت الحوادث والأيام فى تكوين بعض ما فى نفسى حتى ما أكاد أعرف كيف أفرح لنجاح أصيبه وأدركه . لقد سُلبتُ أشياء كثيرة ، وحُرِمت أشياء كثيرة ، ثم وجدت أشياء كثيرة ، فعرفت مما حُرِمت ومما وجدت خيرًا كثيرًا أرجو أن أنفع الناس به بإذن الله ؛ فإن فزت فبإذنه وله الحمد فى الأولى والآخرة ، وذلك أملى فى الله وهو على كل شىء قدير .

* * *

من أين ؟ وإلى أين ؟

فى هذه العاصفة الهوجاء التى تجتاح الدنيا ، والشرق أول ماتجتاح فى تهجمها وانقضاضها ، أجترئُ فأصدرُ « العصور » محتملا فى سبيل ذلك ما يهدّ وما يفزع وما يغتال ، وبالله أستعين ، وله أتوجه ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

إن بعث مجلة « العصور » التى كان يقوم على تحريرها ، ويتولى إصدارها صديقى إسماعيل مظهر ، عمل قد نصبت نفسى له ، وفرغت من كل شىء فى سبيل تحقيقه . لقد كان مما يسعنى أن أصدر مجلة أخرى باسم آخر ، وأنهج لها عين المنهج الذى أريده الآن « للعصور » . ولكن تاريخًا قديما ينبعث من بعض نواحى القلب يدفعنى إلى أن لا أختار إلا ما اخترت . « فالعصور » الأولى التى كان يقوم بأمرها إسماعيل ، إنما كانت ثمرة مبدأ اعتقده صاحبه واستمسك به ، وخفَّ له ، ونافح دونه ، ورمى به إلى غرض . وفى الطريق إلى غرضه ، أصاب إسماعيل وأخطأ ، وأحسن وأساء ، وأثار إلى نفسه من يحب ومن يبغض ، واحتقب [1] فى ذلك شرًا كثيرًا وأصاب بعض الخير . لقد ميز « العصور » الأولى عن سائر ماكنت رأيته من المجلات أن صاحبها أنشأها لمبدأ تقوم عليه وتعمل به ، واستمر يلاقى فى سبيله ما يلاقى من شر نفسه وشر الناس ، حتى اندفعت به الحوادث إلى مصائبها ونكباتها فصرف وجهه اضطرارًا ، وفاء إلى سكتة ظاهرة ، يعمل من ورائها قلب مشبوب .

إن الشركة بينى وبين إسماعيل فى أصل المبدأ الذى قامت عليه « العصور » الأولى ، هو الذى جعلنى أتجاوز ابتداء مجلة إلى بعث مجلة ، وأيضًا ... لقد عملت « العصور » عملا لا ينكر أثره فى الفكر العربى الحديث ، وسواء علينا

---

* العصور العدد الأول ، يوم السبت ٢٧ من رمضان سنة ١٣٥٧ - ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٣٨

(١) احتقب : حَمَل .

أكان هذا الأثر مما نرضى عنه أُم كنا نعارض فيه ونقف دونه ، ونخالف على صحته أو بطلانه . وعقيدتى أن حقيقة الحياة هى المبدأ والإيمانُ به ، وبغيرهما ينقلب الإنسان آلةً عاملة لا يعرف معنى الإيجاد والإِبداع والمقاومة ، والنزُوع العقلىّ والروحىّ إلى المعانى السامية والفضائل العلْوية . وكذلك يفقد الإِنسان الحياة ، وكذلك يضيع التراث الإنسانىّ الذى جاهدت أجيال البشر الغابرة فى سبيله ، بما وهبت من قوة ، وما أُعِينَت به من وسيلة . إن صحة المبدأ وحدها كفيلة بإحداث أعظم الآثار فى تاريخ العقل الإنسانىّ ، وأما الإيمان بهذا المبدأ ، فهو إعطاء العقل قوة التدبير ليخرج حقائقه وأمانيه إخراجًا عمليًا فى الحياة .

لقد كان المبدأ الأول « للعصور » هو حرية الفكر ، وصراحةُ الضمير ، وإخلاصٌ للوطن والعلم والأدب . هذا هو المبدأ ، وقد آمن به « إسماعيل » إيمان الشباب المتوقّد ، فاندفع به الرأىُ فى مجاهله فاهتدى وضل ، وأضاع نفسه ووجدها ... لم يبق على حالة يستقر عندها استقرار الحكمة الرزينة .

الرجل الحر ، هذا هو مبدئى ومبدأ أصحابى . الرجل الحر أى الفكر الحر الذى يبلغ من حريته ، واتساع آفاقه ، وبُعد مداه ، وترامِيه إلى الغايات البعيدة وتساميه إلى الأجواء العلوية - أن يعرف أن للحرية قيودًا كثيرة ، وأن الجاهل المغرور هو الذى يظنها انطلاقا من القيد ، وخروجًا من التقاليد ، وتحللا من إصر الأخلاق وأغلال الشرائع .

إن النفس (البُغاثية) [1] إذا انطلقت - فى ضعفها وفتورها - بين حدائق الرأى وغاباته أذهلها سعة ماترى من الأرض الخضراء المثمرة المُظلة ، وخُيل إليها أن الدنيا كلها امتداد لما ترى ينبسط على نهج واحد . ولكنَّ نفس (النسر) الأجدل تنطلق لترى الغاب وما وراء الغاب ، فترى كيف ينتهى إلى قفر يحدُّه بجَدْبه وظمأه وفقره وإعدامه ، ثم يصده بجبال رواس شامخات الذُّرى ، مظلمات

(١) بُغاث الطيور : ألائمها وشرارها وما لا يصيد منها .

النواحى ، مضلات المخارم [١] ، فتختلف المعالم باختلاف الحدود . أما الشىء الذى لاحد له ، فهو شىء يستحيل وجوده فى هذه الدنيا ، فلا جرم أن تكون الحرية شيئا كسائر الأشياء محدودًا بحدوده .

إنى أومن بالحرية ، وأومن بقدرة الرجل الحر على الإتيان بالمعجزة حين تتم فيه آية الحرية ، فلذلك لا يسعنى حين أبدأ هذا العمل إلا أن أقول بملء نفسى لمن يسمع : « من ههنا أبدأ » ، من ههنا أبدأ لا لنفسى ولكن للناس . إن هذه كلمة شاملة لايكون تفصيلها إلا عملا فى كل موضع عمل .

إن العمل الصحافى ليقتضينى أشياء كنت بمنجاة منها ، وكان أحب إلى أن أفرغ لما كنت فيه من عمل ، ولكنى أشد حبًا لهذا التراث العربى الإسلامى العظيم من أن أدعه فى يد من لايقوم عليه كقيامى عليه . إن هذا التراث الإسلامى ليس وحده ماخلف آبائى من دين وعلم وأدب وآثار ، بل إن أعظم التراث وخيره وأروعه هو هذه النفوس التى انحدرت معنا إلى هذا العصر من أجيال القوة الحرة المستحصدة [٢] العادلة . إن هذه النفوس التى نحيا بها هى التى تطالبنا – من تحت الأدران التى غشيتها – بالعمل من أجلها وفى سبيلها لإنقاذها من التعفن والبلى ، ثم لردها إلى حياة هذا العصر لتثبت أنها لاتزال نفوسًا يجب أن توصف بالحياة .

هذه فلسطين الصغيرة المجاهدة المظلومة التى تحيط بها الأفاعى الذهبية من كنوز اليهود تثبت للعالم كله أن (الرجل) فى العربى لم يمت بعد ، وأنه حين يستيقظ فى داخله تستيقظ معه كل الفضائل والأخلاق والتقاليد العربية التى تتوهج تحت شمس البادية المقفرة ... تتوهج كالذهب حيث يفقد الذهب قيمته المدنية . هذا العربى حين يحارب ، ولكن أين العربى العالم العامل المخلص الدؤوب الذى لايفتر . إننى وأصحابى ممن أكرمونى بصحبتهم ، ومن يكرمنى بعد

---

(١) المخارم : الطرق فى الجبال .
(٢) المستحصدة : القوية .

بصداقته ، سوف نرصد قوانا كلها لإيقاظ الفكر العربى والإسلامى فى مصر والحجاز والشام والعراق والمغرب وسائر بلاد العربية والإسلام . إن هذا الفكر إذا جدد تاريخه القديم وبدأ بدءه أثبت هو الآخرُ أن (العاقل) فى العربى إذا انتبه ، انتبهت فيه كل الحقائق العادلة فى الحياة العقلية والاجتماعية ، وكل الأحلام الجميلة الوديعة التى تتندّى على النفس العاملة المجهدة بالراحة والسكينة .

* * *

إنى أكتب كلمتى هذه من هذا المكان ، وقد انبسطت تحت عينىّ خريطة رقعة من الأرض ما بين المشرق والمغرب ، أهلها إما عرب قد انحدروا سلالة أمة تاريخية قد حازت من المجد كل غال وكريم ، وإما مسلمون من غير العرب قد اندمجوا فى العرب بإسلامهم فكانوا مِنهم واستبقوا خيرات المجد العربىّ ، وأعانوا على إبداع الحضارة العربية الإِسلامية بقلوبهم وأيديهم وعقولهم غير مقصرين ولا متخاذلين .

إن هذه الرقعة من أرض الله كانت يومًا ما نبراس العقل والعلم والحضارة ، بل كانت منبعَ الفيضِ الإنسانىّ السامى المتفوّق ، بل كانت مَعبدَ الرحمة والعدل والحق ، والسموّ بالطبيعة الإِنسانية إلى عنان السماء المشرقة بفضائلها وأخلاقها . كانت كذلك حين كانت القوة فى هذه الشعوب ميراثًا لا يضيعه وارثٌ من وَرَثته ، فلما رمينا بحب الخمول والكسل انفلتت أسباب القوة من أيدينا ، وانفتل كل خير ، وكل مجد ، وكل فكر سام ، إلى من يستطيع أن يحوزه ويحرص عليه ويقوم على تربيته ليربو بين يديه . القوة ، القوة .. إنها الفضيلة الأولى فى حياة الإنسان الحى ، القوة ... إنها عصب الحرية الكاملة التى تعمل بنقائها لتطهير الحياة البشرية من أدران الذل القذر الذى يجعل الحياة جيفة منتنة على الأرض .

إن هذا الطاعون الوبىء الذى انتشر فى الشرق ، وفى الشرق العربى والإِسلامى خاصة ، طاعون الضعف ، قد فتّ كل خير فينا وأحاله إلى فساد ، فاختلفت الأنظار إلينا هازئة ساخرة بنا .. كلا .. بل هازئة ساخرة بالمجد

المخلف من عصور آبائنا الأمجاد ... كلا ، كلا ؛ بل اختلفت أنظارنا (نحن) إلى هذا الميراث النبيل بالهزء والسخرية والاحتقار ، فصارت الناشئة منا إلى ازدراء ماورثنا من علم وفن وأدب ودين ، وشريعة اجتماعية ، وفضيلة أخلاقية ، واندفعت إلى ما بهر أبصارها من مدنيات الأمم ، وارحمتاه لنا ... إن الضعف قد أيقظ فى الإنسان الشرقى الطبيعة المنتكسة ، الطبيعة (القردية) ، طبيعة التقليد على غير هدى فى بصيرة النفس ، والفرح بغير انبساط فى حرية العقل ، والفكر بغير تأمل فى عواطف القلب ، والعمل بغير ضابط من قلب أو عقل أو بصيرة . وأى خير يرجى لمثل هذا الإنسان الذى لاتحركه إلا أدنأ الطبائع ، وأحطها مرتبة عن الإنسانية العالية السامية التى يجب أن تتفوق فى الإنسان المهذب على الإنسان الوحشى المريض فيه .

أكتب هذه الكلمة ، وأنا أعلم أن عمل الصحافة اليوم قد خرج عن أن يكون مقالا أدبيًا يكتبه أديب متمكن ، أو قطعة فنية يصورها فنان مبدع ، أو قصيدة درية تتلألأ على الذرى العالية ، ليسمو الشاعر برواته وقرائه إلى أحلامها الجميلة الرائعة ، تحفها أناشيد النفوس الرقيقة التى عذبها الأسر فى السجن الآدمى المسمى بالجسد ، إنى أعلم ، وأعلم أن الحياة المدنية الحاضرة قد اقتسرت الناس على خطة مالية لايعرف فيها ما قال فلان ، ولكن ، ما ملك فلان ؟ إنى أعلم ، وأعلم أن الجمهور قد اعتنقته هذه الحياة إلى طريقة هازئة ساخرة فهو لايقدر إلا ما يجد له لذة طارئة تهز النفس هزتها الأرضية ... وما يبالى بعدُ باللذة الخالدة التى تبقى حلاوتها فى النفس بالتأمل ، وفى العقل بالتفكير الحر ، وفى القلب بالعاطفة المتفجرة التى تملأ إنسانية الإنسان عذوبة وريًا ، ثم حنانًا ورحمة .

إنى أعلم هذا ... ولكنى أعلم أيضًا أن الصحافة الأدبية الشرقية قد اندفعت فى طريق ليس لها أن تسلكه ، أو تصر على المسير فيه . إن هذه الصحافة قد بلغ بعضها فيما بلغ مرتبة أعظم الصحافة فى العالم ، ولكنى أجد الحق والعدل أكرم عندى من صداقة الأصدقاء . إنى أجل كل عمل ، وأقدر كل عامل ، ولكنى أجل أمتى وتاريخى ، وأقدرهما بما يفوق كل عمل وكل عامل ... إن صحافتنا التى

اتخذنا أساسها من أسس الصحافة الغربية ، لاتنفعنا ولا تجدى علينا إلا بقدر لايكفى ما نطالب به ونجاهد له . إن هذه الأمم التى أخذنا عنها ، واهتدينا بها ، وشرعنا على منهاجها ... أمم قد بلغت شعوبها من مرتبة الحرية والقوة ما أوحى إلى صحافتها بالنهج الذى يجب أن تنهجه فى تتبع إرادات الشعب ، واستغلال أهوائه وشهواته لمصلحتها ثم للذته . فلذلك كانت هذه الصحافة متعة المستمتع ، وكان فيها لذة الضعيف ولذة القوى معًا ، وكان فيها ما ينفع وما يضر ، ما يهدم وما يبنى ... لأن استفحال القوة وامتلاء النفس والعصب والروح والقلب بآثارها وأصولها ، لا يجعل الشعور بما يضعف أو يضر أو يهدم شعورًا تاما يوقظ النزاع لمقاومة هذه العوامل الهدامة ودرء آثارها ، وأيضًا لأن القوة تحمل على البغى ، وتجعل الاعتقاد فيها والإِيمان بها نفيًا للمبالاة والاكتراث من نفس الإِنسان القوى .

أما نحن فإن السبيل علينا مختلف ، والغرض الذى من أجله ننشىء الصحافة جد مباين لأغراض الصحافة الأوروبية . إن صحافتنا صحافة شعوب ضعيفة خاملة متهدمة ، شعوب قد فقدت فضيلة القوة وكل أسبابها العاملة ، وافتقدت نور الحرية النبيلة المترفعة على الشهوات ، وبذلك صار من حقها على الصحفى أن ينظر نظرة متأملة متعمقة نافذة شاملة ، لينهج لها النهج القويم الذى يرد إليها ما فقدت ، ويوجدها ما افتقدت ؛ ويعمل لها عمل الأب الرحيم لولده الضعيف حتى يشب ويستحكم .

وأنا حين فكرت فى بعث « العصور » واحتمال تكاليف الحياة الصحفية ، لم أُلْقِ كثير بال إلى مشقة المال وهو أصل فى قوة الصحافة ، ولا فى النصب الذى يهد الجسد لأن الروح يجب أن تبقى مستعلية بشبابها على عجز البدن ، ولا فى الآلام التى سأحملها فى كل شىء ، لأن الآلام هى التى تجدد عزم الإنسان ، وتدفعه إذا عرف كيف يحتملها مبتسما راضيًا . لم أفكر فى هذا ولم ألق بالى إليه ، وإنما فكرت فى المبدأ الذى يجب على أن أحدده لنفسى تحديد الذى يريد أن يشرع فى عمل ينتظم ، وفى الغرض الذى يجب أن أسدد إليه كل سهم من سهامى فى هذا العمل .

إن مبدئى ومبدأ أصحابى ممن أرتضى أن يشركنى فى هذا العمل ، هو الجهاد فى سبيل القوة التى نملك بها القدرة على الاحتفاظ بهذه الحريات ، والنظام الذى يسدد خطانا فى العمل بقوة وحرية فى إيقاظ الشعوب المستضعفة العاجزة . إن هذا المجمل الذى تنطوى تحته أسرار اليقظة ، يشمل الحياة الاجتماعية العربية والإسلامية كلها : حياة الفرد من حيث أنه أصل فى تكوين الجماعة وتكييفها ، وحياة الجماعة من حيث أنها اشتراك بين الأفراد لتكوين شـعب مثقف عال عامل، ويشمل الحياة الأدبية والعلمية والعملية ، أو الحياة العقلية كلها مستغلة ومنتجة .

من وراء هذا المبدأ البسيط أهوال ، أهوال النظر فى كل مايمت إليه بسبب من أشياء الحياة ، وأهوال العمل على تنفيذ السياسة التى نتخذها لكل إرادة من إرادات الخير للمنفعة ، وأهوال التنبه للخطأ كيف ينشأ ، وكيف يصلح ، وأهوال الخطر من أين يقبل علينا وكيف يتقى ، وفوق ذلك قول الترفق على هون ، والتلطف للنفوذ بما نريد إلى المكان الصالح لاستنبات المبادىء الصالحة والأعمال الناجحة .

فالعمل الصحفى فى مجلتنا هذه ليس عملا إخباريا ولا سياسيا ، ولكنه عمل اجتماعى تمتد أصوله إلى كل شيء ، فى الشارع وفى البيت ، وفى النفس وفى العلم ، وفى الأدب وفى السياسية ، وفى كل ماهو ممثل للحياة التى يجب أن يصير بها الشرق العربى والإسلامى كائنًا حيًا يعيش بنفسه ولنفسه ثم بالإنسانية وللإنسانية .

إن النظرة الأولى إلى هذا المبدأ الذى نهجناه وبينا بعض أصوله ، توحى إلى الناظر غرور العمل الذى نحن مقبولون عليه ؛ وأما النظرة الثانية ، نظرة المتأمل الذى يرمى ببصره إلى الأعماق البعيدة ثم إلى الذرى العالية ، ويستوعب ما عليه الأمم العربية المختلفة ، وما تتباين فيه وما تتفق عليه ، وما يجترفها من التيارات الحديثة القوية المكتسحة – سوف يرى مشقة العمل ، ومشقة التوجيه السياسى لهذه المبادىء .

وأما الغرض الذى نرمى إليه ، فهو غرض واضح بين لا خفاء فيه . هو إصلاح الحياة التى نحياها ، وإمدادها بكل أسباب القوة والحرية والسيادة النفسية والعقلية والأدبية ، وما يحمى هذه السيادة من الخضوع لاستبداد الأهواء والشهوات . وطريقنا طريق واضحة هى أن ننفض الكسل عن عقولنا وأرواحنا ، ونتجرد للحق والعدل ، والسيادة ، والاستقلال . إننا نريد أن تكون حياتنا المنزلية والاجتماعية ، وحياتنا العقلية والعملية ، وحياتنا السياسية والأدبية ، حياة ممثلة للفضائل الإنسانية الكاملة ، ومميزة لنا بتقاليدها القويمة القوية ، وسامية بنا إلى مرتبة المجد الذى أذهل العالم فى أوانه بحضارته وروعته وعبقريته وجماله . الطريق واضح بين ، فيجب أن نقول وأن نعمل وأن نؤمن بما نقول وما نعمل من سر أنفسنا .. من قلوبنا .. من أحشائنا ... من دمائنا ... من نوازع المجد التى تتراءى لأبصارنا أحلامًا تريد أن تتحقق ... ولابد من أن تتحقق.

* * *

لماذا، لماذا ؟

إن قلبى الذى يتصدع الآن هو قلبى الذى أحبها من قبل . لقد عشت لها كالدوحة الناضرة . من أفيائها ظل رطب ندىٌّ يروى ظمأ النفس الصادية ، هكذا كنت أحس . أنا بقوتى كنت ألين لها كأنى نغمة عاطفة تحن إليها حنين الطفل ، هكذا كنت أحب . وأنا بكبرياء رجولتى كنت أخشع لرقة أنوثتها خشوع الزهرة المتفتحة فى معبد الفجر ، هكذا كنت أفرح .

ولكنها المرأة .! فى طبيعتها إنكار الرجل إذا عرفت أنه لها ، وأنه أحبها ، وأنه بها يفرح .

إن قلبى يتصدع الآن فى يديها : لأنه أظلها ، وحَنَّ إليها ، وخشع لها ...، لأنه أحبها .

فلماذا أحببتها ..؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ...

* * *

* العصور ، العدد الأول ، ١٩ نوفمبر ١٩٣٨ ، ص : ٢٦

تهيئة الشرق
لوراثة الحضارات والمدنيات

لبثت فى أسر « الوظيفة الحكومية » عشر سنوات متواليات أعمل فيها ولها ، ثم تنزل القدر فعافتنى وعفتها ، وانطلقت أطوى الأرض ... ، أنظر بعينىَّ إلى آفاق تترامى على مطرح البصر ، وكأنى آبد قد حطَّم القيود وانفلت من بين أعواد الحديد التى كانت تمسكه من ورائها ، وملأت رئتىَّ من الهواء الحر ، يارب ، أين كنتُ ؟ إن طبيعتى التى فُطِرْتُ عليها تأبى أن تألف هذه الأنفاس المقتّرة المعطاة على المنة لصدور تنطوى على قلوب حية تنبض وتتحرك وتسمو بآمالها إلى الخير النبيل . وبقيت أياما ، هى من حياتى كأنها ذكرى فرحة قديمة انبعثت على حين غفلة من كهوف النفس المهجورة التى يختبىء فى ظلماتها مايمضى من أفراح الحياة .

وتوالت الأيام تتسحب على ظلال العمر ، وتجلت الأحلام العزيزة التى لا تفنى وسكنت النفس إلى حريتها ، وبدأت أبحث عن واجبى فى الحياة ، فمكثت على لُبث أتأمل وأفكر ، والروح فى فترة من هدوء ورضًا ، حتى اهتديت بحمد الله إلى الطريق والغاية .

نحن شعوب متخاذلة قد غفلت عن حقيقة الحياة ، فواجبنا أن نعمل على إيقاظ هذه الشعوب من سنة النوم التى طالت بها ، وقتلت فيها مادة النشاط التى تدفعها إلى تحقيق الأغراض النبيلة التى خلق من أجلها الإنسان على الأرض . أجل .. ، وهذه الشعوب نفسها ، هذا الشرق ، قد أثبت فى التاريخ مرات أنه قادر على صناعة الحضارة والمدنية ، يتقنها ويستجيدها ويطهرها من أدران البلاء التى تعصف بإنسانية الإنسان كما تعصف الريح بأوراق الشجر . فلم لا يثبت الشرق مرة أخرى فى التاريخ الحديث أنه لم ينس هذه الصناعة ؟ وأن أنامله الرفيقة لاتزال قادرة على نسج الثياب الرفيعة التى تلبسها الإنسانية لتزهى بها ، وتبدو فى زينتها ؟

---

* العصور العدد الثانى ، ٩ ديسمبر ١٩٣٨ ، ص ٣٧ - ٣٩

هذه المدنية الأوربية المحدثة من أمامنا قد عملت عملها ، وأتمت ما وجدت له على طريقتها ومذهبها ، وجعلتنا ننظر إليها ذاهلين كأنما نرى معجزة تحققها أيدى مردة من الجن ليسوا من الإنس فى أصل ولا نسب . إن هذا الوهم الكبير هو الذى أعجز الشرق عن العمل ، ورماه فى براثن الأمم المستأسدة الضارية ، وجعله كالفريسة تنتفض تحت أقدامه عجزًا وهلعًا واستكانة .

ولكن الحين قد حان ، وآن للشرق أن ينظر إلى الحقائق الواقعة ليعرف كيف يعمل . إن أوروبا ، التى هى مصدر المدنية الحديثة ، تقف على هذه الأرض موقفًا ظاهرًا لمن يتأمل . هذه دول الحضارة الحديثة من أمامنا قد هبت كلها فى جنبات الأرض تملأها حديدًا ونارًا وضجيجًا فى الأرض وصخبًا طائرًا فى السماء . والرجال على الأرض كأنهم قنابل معدة مهيأة لتنفجر ، وفى كل ناحية أمة مُقْعِيَة[1] متربصة تكاد تثب ، والحياة تتدافع بهذا وذاك وهؤلاء ، فلا تلبث أن تصطدم هذه الأمم بعضها ببعض ، ويومئذ لن تثبت الأرض ولن تسكن السماء ، وتتطاير أشلاء الحضارة الحديثة إلى أعلى لتسقط على أهل هذه الحضارة ، وتطويهم فى أكفانها ، وتدفنهم فى قبورها .

إن المدنية الأوربية المحدثة ، فى هذا العصر ، تحمل فى داخلها كل عناصر التهدم ، وكل أسباب الفناء والبلى ، وأهم هذه العناصر والأسباب ، هذه الحالة الحربية التى شملت كل دولة أوربية ، ودفعتها إلى زيادة التسلّح بكل أدوات الدمار والهلاك ، والسرعة الجامحة التى تعمل بها هذه الأمم فى كل ما يمس الاستعداد الحربى ، ولاشك فى أن هذه الإِرادة وحدها مع الإِسراع فى تنفيذها ، سوف تؤدى حتما إلى اختلال التوازن فى القوى المتساندة ، وسينتهى هذا الاختلال باصطدام قوى الشر جملة واحدة ، وسيعقب هذا الاصطدام انفجار هائل يشوه وجه الإِنسانية الباغية أبد الدهر ، ويتركها مثلا فى العالمين .

ولو أن هذا الاستعداد الحربى العظيم ، كان نتيجةً للدفاع عن مبادىء

---

(١) أَقْعَى الكلبُ : جلس على مؤخرته مُفْتَرِشا رجليه وناصِبا يديه .

استقرت على أصولها فى نفوس القائمين بأمرها ، لقلنا عسى أن تنتفع الإِنسانيةُ بانهزام الباطل وانتصار الحق ، وإن ضَحَّت فى سبيل ذلك بالملايين من البشر الذين تأكلهم هذه الحرب الضروس ، ولكان ثمَّة أمل فى عودة الحضارة إلى منزلة من الإِصلاح تعمل فيها لسعادة الإنسان بعد الشقاء الكبير الذى تعس به . ولكن الواقع غير ذلك .

فإن الحرب الحديثة المقبلة ...، إنما هى بغْى . لقد بغى بعضهم على بعض فى العلم ، فضربوا للإنسان أسوأ الأمثلة على أن ضَرَرَ العلم أكبر من نفعه ، وأن الشقاء قرينٌ لعلم هذه المدنية الطاغية ، وأن الفرد فيها حيوان يستغل ، فيالشناعة هذا الاستغلال الذى هزم العقل والإِرادة ، وردهما إلى أدنأ درجة فى تاريخ الإنسان على الأرض ... !

هذه أوربَّا التى نفضتْ على كلمة « الحرية » من تهاويل الخيال ، وتخاليف الفن ، وتحاسين الإِبداع ، وزخارف الحضارة – حتى بدتْ فتنةً يتهاوى فى فتونها كل غاو وحليم – تثبتُ للناس أن « الحرية » كلمة ضامرة ضعيفة لا معنى لها ، ولا حياة فيها ، ولعل التاريخ كله لم يشهدْ عصرًا ضاعت فيه كل معانى هذه الكلمة ، مع كثرة دورانها على الألسنة ، مثل الذى شهده فى هذا العصر . ففى كلِّ ناحية فى أوربا يضرب الحصار على حرية الأفراد ، وحرية الجماعات ، وعلى حرية السر وحرية العلن ، وعلى حرية الرأى وحرية الضمير . فى فرنسا – باعثة هذه الفتنة فى أوربا – فى إنجلترا ، فى ألمانيا ، فى إيطاليا ، فى روسيا ، فى كل بلد ، يشهد التاريخ أفظع استبداد تستبد به السياسة الدولية ، وتتعسف به المعاهدات والمحالفات القائمة على مصالح البغى السياسى والحربى ، فى إزهاق الروح الحقيقية التى تحملها كلمة « الحرية » .

إن كل عمل ، بل كل رأى ، بل كل فكر ، بل كل شىء فى أوربا الآن تقتسره السياسة الحربية على صورة تنفعها ، فإن لم تكن تنفعها فلا تضرها ، حتى صارت العقول الإنسانية آلة فى يدها تصرفها كيف تشاء ، وفسدت معانى الأشياء، وطغى غرور القوة والاعتداد بها ، فى العلم والفن والأدب وفى كل

شيء، واختلط الحق بالباطل اختلاطًا فاسدًا لا أمل فى تطهيره إلا بجهد كبير تبذله نفوس هادئة ساكنة حكيمة تتجرد للعمل، وتعمل للحق، وتختار صالح كل شيء، وتنفى فساده وتحريفه وغلوه وغروره ليكون الانتفاع به أقرب لإنقاذ الإنسانية من مصير مخيف، يرتد بها إلى وحشية الغرائز الدنيا التى تتحكم فى مراشد العقل والقلب بغير حكمة ولا روية .

هذه الصورة الدانية الآن للحالة الظاهرة فى أوروبا غير ناظرين إلى الاختلاط الفكرى القبيح بين المذاهب المتباينة، ولا إلى الفساد الكبير فى المبادىء العقلية التى تبنى عليها سعادة القلب الإنسانى، ولا إلى تشاجر الأهواء الاجتماعية فى حرب الفضيلة والرذيلة؛ والخير والشر، والعدل والبغى، ولا إلى انحلال القوى الاقتصادية وتزعزع الأسس المالية، ولا إلى ما يمد كل هذه بأكبر أسباب الفساد إلّا وهو غرور هذه المدنية بعلمها ورأيها وفهمها؛ وادعائها إدراك سر الحقيقة فى كل ماتتناوله بالبحث والتحليل .

أما الشرق ... ، فهو الآن يموج ويهتز ويمتد بآماله، ويطالب بحرياته، فبذلك تهيئه ضرورة الحياة الحاضرة لانتزاع الخير المحض مما يقع إليه من مدنية وحضارة، وتهيئه طبيعته الموروثة للاستفادة من نتاج الحضارات والمدنيات قديمها وحديثها، وتهيئه ما انحدر معه فى أعصابه من الحكمة القديمة، والرزانة التقليدية، لتعبئة قواه التاريخية كلها، فيأخذ الحضارة الحديثة فيصهرها ويذيبها ويعيد تكوينها موسومة بسمته : الحرية، العدل، الشرف، الفضيلة، سكينة النفس، التقوى تقوى الله فى عمل الدنيا وعمل الآخرة، تلك سمات الشرق التى يسم بها مدنيته الجديدة التى يتهيأ اليوم لوراثتها عن سالف الحضارات والمدنيات .

* * *

شكر

لم يزل هذا القلب يكلفنى من عواطفه يومًا بعد يومٍ ، ويطالبنى أن أجزى عن كل إحسان بما يعجزنى ويعجزه . وحين أصدرت العدد الأول من « العصور » تجلت له عواطف أصحابه وأحبابه ، وأشرق عليه من بشرهم وترحيبهم ما لا وفاء لى ولا له ببعض مثله . ومن حيانى سرًّا فأنا أرد تحيته هنا علانية ، ومن قدّم إلى من معروفه علانية ، فأنا أحفظ له الشكر فى نفسى ما بقيت . وأخصّ فى هذا المكان أستاذى الأول ومرشدى وصديقى الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية ومجلة الفتح ، وأستاذى وصديقى الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة والرواية ، أخصهما بكل ما أملك من هذه الدنيا التى يتنازع عليها الطغاة البغاة ...

أخصهما بقلبى وإن قلّ .

* * *

---

* مجلة العصور العدد الثانى ، ٩ ديسمبر ١٩٣٨ ، ص : ٤٤ .

أنا وحدى ... !

تحت الشمس المحْرقة التى ترسلُ أشعتها ، وكأنها لُعَابٌ من النار الجاحمة المتسَعِّرَة .

وعلى الرِّمال الملتهبة التى تَزْخر حَرَارتها ، وكأنها بحرٌ من السعير تتلاطَمُ فيه أمواجُ اللهب .

وبينهما ... بينهما يتهاوَى سَمومٌ من الرياح العاصفة ، وكأنها أنفاسُ الشياطين المخلوقة من مارج من نارٍ .

أنا وَحدِى ... أمُدُّ الطرف إلى الآفاق المترامية ، ذاهلاً عن آلام الظَّمْأ ، لأرى السرَابَ المتخايلَ كأنه ذَوْبُ الدُّر واللؤلؤ .

أنا وحدى ... أرَى الجبال البعيدة الشامخة ، على هامَاتها عمَائمُ الشيب تفيئُّها الريح ، وكأنها ذوائب من دُخانٍ .

أنا وحدِى ... حيث تلبسنى النار ، حيث أطأ النار ، حيثُ أتنفَّسُ من نارٍ ، حيث أسمع حَسيسها وأرى آثارها ... أنا وحدى ...

أيتها الشمس المحرقة ، أيتها الرمال الملتهبة ، أيتها الرياح المندلعة ، أيها السَّراب ، أيتها الجبال ... !! أنا وحدى معكُنَّ أحيى لأحترق ، وأحترق لتحيى النفس التى تنشُدُ الخلود !!

الصديق ...! الصاحب ...! الأخ ...! كلهم ... كلهم ودَّعنى لأنه لا يطيق ، وأنت أيضًا أيتها الحبيبة !!

إذن فأين أجد الراحةَ من وَقُودِ النار ؟ .

* * *

* العصور ، العدد الثانى ، ٩ ديسمبر ١٩٣٨ ، ص : ٦٤

الطريق إلى الأدب

- ١ -

تلقيت رسالة من بعض أصحابنا يسألنى فيها عن الطريق الذى ينبغى له أن يسلكه إلى دراسة الأدب ، ويقول : إنه يجد فى نفسه المعانى التى تجرى وتتخايل والأحلام التى تزهو وتتزين ، وأنه إذا رام الكتابة جرى فيها على طبيعته غير متوقف ، ولكنه إذا قرأها - بعد أن يفرغ منها - وجدها أقل مما يحس به ، بل هى ليست تعبر كل العبارة عما يحس به ويتمثل له من معانيه وآلامه وأحلامه .

وأنه قد أكثر القراءة لفلان وفلان من المعاصرين ، ولكنه يجدهم لا يلقون فى طبعه تلك الجذوة الخالدة التى تشتعل نارها إذا تنفست عليها النسمات التى ترتاحه وتهزه ، وأنه يعتقد - أو يخيل إليه أنه يعتقد - أن هذا الذى يقرؤه لو كان حقا من الأدب الخالد لبعث فى نفسه ما يبعث بخلوده من نفحات الخلود .

ويريد هذا الأخ الفاضل أن يدلنى على صدق ماذهب إليه ، فيبعث إلى بقطع من كلامه - ومن شعره أيضا - لأعلم أنه مطبوع على الأدب وإن كان يقصر بيانه عن إدراك الإجادة .

ثم يقول : فأرجو أن تمنحنى بعض وقتك ، وتنظر فى بعض كلامى على طريقتك فى استخراج (نوع الأديب والشاعر !!) من تحت الألفاظ التى تجتمع له ، والمعانى التى ينبعث طبعه إليها . ثم يأتى فى كتابه إلى بكلام كثير ، أستأذنه فى إغفاله هنا ، إذ ليس يجرى إلى الغرض الذى نرمى له أو الذى يريدنا هو أن نرمى إليه .

وقد قرأت الورقات التى كتبها فوجدت له روحا حرة حية متأملة تترقرق فى كلامه ، وأنه مطبوع على سرعة النظر وحسن الهداية إلى المعانى سريع النفوذ فى أغراض القول ، يتغلغل فى بعض ما يفكر فيه بما هو فوق طاقة الفكر المجرد من

---

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٧٢١ ، الثلاثاء ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ - ٢٣ إبريل سنة ١٩٤٠

حدة البصيرة ومضائها ، فأسفت أن يكون هذا الأخ قد جاوز الثلاثين من عمره ، وهو ما هو ، ثم هو لا يزال حائرًا بعد ذلك لا يستطيع أن يملأ نفسه من زاد الأدب ، ولا يطيق أن يحمل أداة العمل الأدبى المرهق الذى أعد له فى طبعه . وحملنى كتابه على التفكير فى شأنه وشأن أمثاله من الأدباء الذين قتل أدبهم سوء التعليم فى الصِّغَر ، وفى الأدباء الذين يكتبون للأدب وهم لا يجيدون ما يكتبون ، ولولا أن صاحبنا هذا حيى متواضع - كما وصف نفسه - لكان من الممكن أن يزاحم كما زاحم غيره غير مبال بتقدير نفسه وتقدير ما يكتب قبل أن ينشره على الناس ، فلذلك أحببت أن أجعل رسالتى إليه رسالة عامة يحملها إليه بريد « الدستور » . ولا بأس من أن يستفيد هو ويشرك معه غيره ، إذ كان الذى يجده من الضعف يجد كثير من الناس مثله فى أنفسهم ، وكثير لا يبالى أن يجد ذلك ثم يكتب وهو لا يبالى أن يجيد أو يستفيد .

وأول ما تجب معرفته لكل طالب أدب ، أن لكل علم آلة ، ولكل آلة نظاما ، ولكل نظام مبدأ ، ولكل مبدأ أصولا ، فإذا فسد الأصل فسد معه المبدأ والنظام وتوقفت الآلة حتى يعلوها الصدأ ، وإذا وقع بعض الاختلال فى بعض الأصول أفضى هذا الاختلال إلى الآلة فجعلها تدور متعسرة ضالة يتكسر سن منها على سن حتى ينتهى بها ذلك إلى الفساد عامة بعد الجعجعة والضوضاء والصخب الذى هو كل إنتاجها . فليس ثمة علم من العلوم أو فن من الفنون إلا وقد استأثر بأصول مؤسسة ، لابد لكل راغب - فى شىء من هذه العلوم والفنون - أن يستوعبها ويجيدها ويحسن التصرف فيها إذا عالجها حتى لا يتوقف به العجز بعد الدخول فى بحبوحة هذا العلم أو الفن ، إذا فَجأهُ مايفجأ مما لابد منه ولا محيص عنه .

فطالب الهندسة مثلا إذا لم يعرف أصولها من النقطة والخط والزاوية القائمة والحادة والمنفرجة ، والأشكال المختلفة بين التربيع والتثليث والتدوير ، ومايتبع كل ذلك من البرهان على صحة الأحكام التى تقتضيها هذه الأشكال الهندسية - فهو خليق إذن أن لا يجيد شيئا من الهندسة مهما طال مراسه لها ، وتتبعه لكتبها الكبيرة التى لا تلم بشرح هذه الأصول الإبتدائية .

فإذا خيل لهذا الطالب - بعد طول العمر فى دراسة الكتب الكبيرة - أنه مستطيع أن يشرح النظام الفلكى بالحساب الهندسى ، أو أن يبنى دارًا بما تلقف من ألوان هذا العلم ، وقع من حيث طار مرة ، أو انهدم عليه ما أقامه مرة أخرى ، وهكذا أمر كل العلوم والفنون لايشذ واحد منها عن القاعدة التى تقررها فطرة العلوم والفنون .

والأدب والشعر والفلسفة وسائر العلوم النفسية والعقلية التى يخيل لبعض الناس إنها ملك للجميع من كل صاحب عقل وصاحب نفس لا تخرج عن هذه القاعدة التى تطالبنا بتقريرها فطرة العلوم والفنون . فأيما أديب أو كاتب أو شاعر أو ناقد أو متفلسف يقتحم بابا من هذه الأبواب غير متسلح بالبراعة فى أصول الفن الذى يرمى بنفسه فيه ، فهو إلى إهلاك نفسه أدخل ، وإلى إضاعة وقته أسرع ، وبالغرور سار حيث سار ، وإنى قد رأيت أكثر من يقذف نفسه فى فن من هذه الفنون يقول : إذا كان مرد الشعر والأدب والكتابة والنقد وما إليها - هو إلى الطبع والسليقة وصفاء النفس ورقة الشعور ، فما جدوى أن نقيم الدنيا ونقعدها من أجل أشياء لا تنفع ولا تشفع ؟ وأى فائدة - بعد أن يجتمع للأديب والشاعر هذا كله - فى أن يرهق نفسه بالدراية والثقافة والبحث والدأب ، ولعله أن يكون بعيدًا عن هذا كله أقدر على العبارة عن ضمير نفسه ؟ ولعله إذا أقبل على هذه الأشياء بالدرس والتثقيف كان ذلك أسرع فى إفساد طبعه ، ومجمجة سليقته ، وتكدير نفسه ومَحْق شعوره !! ولقد أخطأ هؤلاء من حيث أرادوا الإصابة فى التقدير .

فإن أصل العلم كله من أدب وفن وعلم إنما هو النفس والطبع والشعور ، ولولا هذه لما كان فى الدنيا علم ، ولكن النفس لا تكتفى بأن تكون كل أعمالها صادرة عنها وحدها ، بل إن الاجتماع الإنسانى يضطرها أن تكون أبدًا متأهبة للتلقى كما هى مريدة للإذاعة ، وأن تكون راغبة فى مشاركة الآخرين فى تأملاتهم كما هى متشوقة للانفراد بتأملاتها . وهذا يدل على أن النفس إذا انفردت لم تؤد أعمالها إلا ناقصة معيبة ، لأن تمام أعمالها فى المشاركة .

وكأنى بابن خلدون قد رام هذا المعنى إذ قال فى مقدمته الجليلة ، حين

عرض لذكر « علم الأدب » : « هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارض أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهى الإجادة فى فنى المنثور والمنظوم على أساليب العرب ومناحيهم » . ثم عد ابن خلدون أشياء لا قيمة لها فى تحقيق معنى الأدب . وأنت ترى أن عبارته التى نقلناها مبهمة « غامضة » لأنه لم يجر إلى شرحها والبيان عنها ، ولكنه بعد أن تقدم فى كلامه وضع التفسير لهذه العبارة من حيث لم يرد ، ولكنه أفسد التفسير بالتعليق عليه ، وذلك قوله :

« ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل علم بطرف » . فالأخذ من كل علم بطرف أصل عظيم للأديب ، لأنه هو المعبر عن نفسه التى تريد أن تعبر عن النفس الإنسانية العامة التى يشترك فى الاستمداد منها سائر البشر .

وما دامت كل العلوم فى أصلها صادرة عن النفس فلابد للأديب من معرفة الأحوال التى تعرض لهذه النفوس فتوجهها إلى استجلاء الغامض الذى به وبإرادته وطلبه كانت هذه العلوم علوما .

وأخذ الأديب بطرف من هذه العلوم لابد أن يكون على طريقة الأديب لا على طريقة العالم ، فإن الأديب ينفذ بنفسه وروحه فيما يقرأ من ذلك ، ليحس ويستشعر نبض النفس الإنسانية الكبيرة فى إنتاج هذه العلوم . وأما العالم فإنه يريد أن يستوعب فى نفسه النبض العلمى الذى يجرى عليه التحقيق والنقد فيها وبأسلوبها وعلى هديها .

ولكن ابن خلدون أفسد معنى هذه العبارة بشرحه إذ قال بعد ذلك : « يريدون (الأخذ بطرف) من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهى القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم فى كلام العرب » .

ولاشك أن هذه بعض ما يجب على الأديب أن ينال منه ، وخاصة القرآن والحديث ، فعليه أن يعب منهما عبًّا ، لأنهما نهاية الإعجاز الإلهى والبشرى فى التعبير وفى المعانى وهما النظام الخلقى العام للبشر ، وكلاهما يخاطب أول مايخاطب النفس الصافية ويمسها ويتغلغل فيها ويهزها ويملؤها ريا ونعمة وحياة .

ومنهما تتكون للأديب السليقة العربية الصحيحة الحرة التى لا تتقيد بالزمن ودواعى الزمن ، من مثل القيد الذى جعل ابن خلدون يتوهم فى شرحه للعبارة أوهاما فاسدة كقوله بعد : « فاحتاج صاحب هذا الفن – يعنى الأدب – حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها » !!

فابن خلدون إنما يشرح قولهم « الأخذ من كل علم بطرف » – على طريقة الأدب فى عصره هو ، وهو العصر الذى كان أدبه ترديدًا لحشرجة الميت لا معنى للصوت فيها إلا معنى انقضاء الأصوات وعجزها عن التعبير عن الحياة ، ذلك كان صوت الموت إذا صوت فى صدور أدباء عصره .

وكذلك زعمه أن لا مدخل لغير النحو واللغة والبلاغة والعلوم الشرعية فى علم الأدب ، إنما هو تصوير لأدب العصر الذى عاش فيه ، فحكم ابن خلدون وشرحه وبيانه ليس إلا الحكم والشرح والبيان الذى اقتضاه عصره وحده . ومهما كان ابن خلدون فى الأدب بالمنزلة التى كان بها أول من استطاع أن يقرر قواعد علم الاجتماع – لكان قوله فى علم الأدب غير ذلك ، ولاهتدى إلى السر فى تعبير القدماء من قولهم فى الأدب أنه الأخذ من كل علم بطرف .

ولعل أهم ما أسقطه فى هذا الخطأ ظنه أن قولهم « كل علم » يعنون العلوم التى قامت باصطلاحاتها ، وليس كذلك ، فإنهم أرادوا لب العلم لا حواشيه ، وجعلوا « العلم » فى هذه العبارة بمنزلة « المعرفة » التى لا تحده بحدود .

والسر كما ترى هو أن الأدب تعبير عن الحياة كلها على طريقة نفسية محضة يراد بها أن تخاطب نفس نفسا بألفاظ من اللغة تروم بها التأثير والهز ، وتنبيه النفس الإنسانية النائمة فى نفس الفرد لتوجهه إلى الغاية التى يرمى إليها الأديب بالضرب الذى اختاره من الأدب ليكون بيانا عن الحياة مهما اختلفت أنواعها وأشكالها ومقتضياتها .

والأديب من أجل ذلك مضطر لدراسة الحياة وما فيها دراسة حية بنبض النفس وحركتها وأشواقها إلى ما وراء الماده دون الجسمية أو العلمية التى تحجب

فن الحياة دون أعين الأحياء ثم هو بعد ذلك مدفوع إلى طلب العبارة عن الإحساس الذى يجرى فى كيانه الإنسانى العاقل المفكر المتأمل .

وسواء بعد أكان مايريده من الأغراض علميا أم فكريا أم قلبيا أم فلسفيا ، فكل ذلك إنما يستمد من الطبيعة التى انطوى عليها ، والتى صار بأسبابها ودواعيها أديبا يريد أن يتكلم بألفاظه ، وأن يترجم بنفسه عن النفس الخالدة الذائبة فى الكون كله ، والتى تعرف بالنفس الإنسانية العامة . هذا وسنتم فيما يستقبل بقية القول فى أداة الأديب وما يجب عليه .

* * *

الطريق إلى الأدب

- ٢ -

جاءتنى عدة كتب من إخواننا بعد الكتاب الذى فتح لنا باب القول فى « الأدب » ، وكلها يجرى على أسلوب واحد من الحيرة فى طريق الأدب . هذه الحيرة - كما يقول أحدهم - التى تجعل الأديب يمشى فى بيداء من الظنون الشائكة والشكوك الظامئة . ثم لا يفضى إلى شىء ، ولا يظفر من حياته إلا بالوحشة والمرارة والحزن ، ثم يهلك بعد ذلك كله على أرض سبخة يأكل مِلْحها كل ما يقع عليها : يبليه ويسحقه . نعم ، إن هذه الظاهرة المؤلمة هى أول الخير للأدب والأدباء وهى البشير بأن عصر الفوضى فى الأدب قد بدأ ينقضى إلى غير رجعة ، وهى الدليل على أن أكثر الأدب الماضى قد كان تلبيسا على العقل والقلب ، وشعوذة على الروح والنفس والفكر .

لقد أخرج العهد الماضى طائفة من الأدباء ، كلهم قد عمل واستعد وخرج على الناس بأدبه ، ثم غرتهم الشهرة فمضوا لم يبالوا أن ينظروا إلى قيمة الأدب الذى ينتجونه ليمحصوه للناس ، فلعل بعضه يفسد على الشباب أمر أدبهم الذى يتأهبون له . وشغل الشباب هذا الأدب الجديد ، وكبرت معانى الأسماء والألقاب فى أسماعهم وأذهانهم ، فحسبوا أن هذا الأدب هو الغاية وهو النهاية وهو الذى ليس بعده نبوغ أو عبقرية .

وتعصَّبوا لذلك بحمية الشباب ، وصرفتهم هذه العصبية عن تحرير أنفسهم وعقولهم من أسر الألقاب والأسماء .

ثم مضى زمن فنظروا فلم يجدوا فى أيديهم شيئا من هذا السراب الخادع الذى تعصَّبوا له وعكفوا عليه . بل وجدوا أنفسهم كعابد النار تحرقه ويعبدها !!..

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٧٢٧ ، الثلاثاء ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ - ٣٠ إبريل سنة ١٩٤٠

ولكن هذه الظاهرة الجديدة التى تدفع الشباب الجديد إلى الشك فى قيمة ذلك الأدب ، وإلى الشك فى أنفسهم – هى النجاة لهم من عبودية مستبدة ماحقة وهى التى ستقذف فى أعصاب الجيل الجديد روح الحرية ، وهى التى ستجعله يأبى إلا أن يمهد الطريق قبل المسير ، وإلا أن يتخير الأساس قبل البناء ، وإلا أن يعرف برهان الحقيقة التى يجب عليه اعتقادها قبل الإيمان بها إيمانا أعشى أو إيمانا أعور أو إيمانا أعمى يضل به ويموت عليه .

ونحن قد تناولنا فى الكلمة السالفة تعريف الأدب الذى وضعه ابن خلدون فى مقدمته ، وأخذنا فى نقده وتمحيصه لعلمنا أن الأدواء التى أدركت الأدب أو أصابته ترتد فى أصل جرثومتها إلى عهد بعيد متقادم . فأردنا بذلك البيان عن هذه العلة (بالتشخيص) والتحليل .

فإذا عرف طالب الأدب حقيقة الأدب كان ذلك أحرى أن يهديه سواء السبيل فى كل ما يقصده من أغراض هذا الأدب وهذا هو الأصل ، وأما الفروع التى تتفرع منه فهى هينة عليه بعد ذلك إن شاء الله . وقد كان القدماء الذين نقل عنهم ابن خلدون ومن هو فى طبقته – يعرفون حقيقة الأدب معرفة نفسية ، فلذلك كان كلامهم عنه صحيحًا موجزًا ولكن شرح أهل العصور المتأخرة التى ضلت عن حقيقة الأدب – حين شرحوا هذا الكلام الموجز الدقيق الفاصل – هو أصل الداء الذى تغلغل فى الأدب العربى قديمه وحديثه ، وهو الذى حقر الأدب فى عيون أكثر الأدباء ، وزيفه عند العامة .

فإذا استطعنا أن نخلص إلى حقيقة أقوالِ القدماء الموجزة وعرفنا سر معانيها الجميلة الدقيقة ، نظرنا – عندئذ – إلى الأدب القديم نظرة جديدة تنفض عنه الأتربة التى طمست محاسنه وروائعه كل هذه القرون ، وإذا عرفنا هذه المحاسن وما فيها من جمال وفتنة ، استطعنا أن نغير أساليب القراءة وأساليب الفكر فيما نقرأ ، فإذا أدركنا ذلك فهو أول الطريق إلى الأدب الصحيح الذى نريده ونشتاق إليه ، وهو بدء الحرية الأدبية التى لاتعرف القديم والجديد بتلك الفكرة المفتونة المريضة التى ثارت فى ميادين الأدب حينا من الدهر ، تحقر القديم لقدمه ،

وتستعظم الجديد لجدته ، على غرور واندفاع وتهور ، حتى تحطمت كل الموازين فى أيدى أصحابها ، ولم يبق للناس ميزان يعرفون به ما فى الكلام من الصدق والجمال ، وما فيه من الكذب والغش ، وهما أقبح القبح ، وهما الدمامة المتبرجة فى زينة « المكياج » اللفظى لا فى زينة الحق والعدل ، فإن القبيح ربما حسن إذا عرف الإنسان سر القبح الذى فيه ، ومن استطاع أن يعرف سر القبح فاشمأز منه ، فهو خليق أن يعرف سر الجمال فيهتز له .

وحركة النفس بالاشمئزاز والاهتزاز هى أصل الأدب - إذا ما نشأت عن الإدراك أو النفوذ إلى الإحساس بالسر الذى يكون به القبيح قبيحًا والجميل جميلا. فإذا تتام هذا الإدراك وهذا النفوذ وعملا فى كشف الحجب عن هذه الأسرار على نظام وتدبير وتساوق واطراد فذلك هو طريق الأدب . فإذا خلص للأديب مذهبه فى تناول هذه الأسرار على طريقته وبأسلوبه ، واهتز إحساسه بالمعانى اهتزازًا قويا متجاوبا بأنغامه التى يتردد صداها فى كهوف النفس فتتابعت هذه الأنغام معبرة عن خواطر العقل والقلب والنفس والروح وآلامها وأفراحها وأحزانها ولذاتها ، وظنونها وحقائقها ، وأوهامها ويقينها ، فذلك هو حقيقة الأدب . فإذا استطاع الأديب أن يصور هذه كلها بألفاظه ولغته وعبارته وأسلوبه الذى يحمل صور هذه الاهتزازات ، ويحمل أنغامها فى جرس الكلام ، فذلك هو الأدب الذى ينسب إليه ويتميز به فيقال مذهب فلان وطريقة فلان وأسلوب فلان ...

والوصول إلى هذه الغاية من الأدب ليست عملا سهلا يكون قصده هو بلوغه كلا ، فإن الفطرة وحدها أو الطبع الفطرى وحده لا يكاد يصل إلى ذلك فى مثل زماننا هذا . بل هو كان يصل إلى غايته فى العصور الأولى قبل أن يتكاثر الأدب ويتشقق الكلام ، وتستقل الطرائق للناس بعد الناس من الأدباء .

وقد كان الطبع قديمًا كافيا لتساوى من يتعاطى الأدب فى السليقة وفى بعض العلم وفى أكثر المعرفة ، ولأنهم إنما كانوا يتناولون من أغراض القول على طريقة محدودة بطبيعة الاجتماع الذى لم يكن قد تراحب مثل التراحب الذى بلغه فى زماننا .

فالآن قد امتلأت دنيا الناس بأسباب اجتماعية طاغية ، وتبعثرت حقائق الوجود فى كل علم وفن على وجوه من الاختصاص ، وتكشفت أسرار كثيرة لايحيط بها إلا من حمل نفسه حملا على متابعة الدراسة ، وطول الروية ، ومعالجة الفكر وحذر الغريزة ، وتوقد الفطنة . ثم لايخلى نفسه مع ذلك من الحرص على نفسه وإحساسه وطبعه أن ينفذ إليه مايفسده من جميع هذه الدراسات الكثيرة والتأملات الطويلة .

ومن هنا أيضا تستطيع أن تعرف مقدار ما فى قول ابن خلدون من الخطأ إذ قال فيما نقلناه لك آنفا فى المقالة الماضية « فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها » . فاسأل ابن خلدون ما جدوى أن يفهم الأديب اصطلاحات العلوم ؟ وإنما الاصطلاح حرف من الكلام مقيد معناه بالعلم الذى اتخذ له واصطلح عليه فيه ، فإذا عرفه الأديب فهو بين اثنتين ، إما أن يعرف اللفظ ليعرف معناه ويكون قائما على فهمه من حيث هو حروف مركبة وهذا شىء لا قيمة له - إذ كان الأديب لا يحتاج إليه ما لم يكن من أهل هذا العلم الذى وضع له الاصطلاح ، أو أن يعرف ذلك ويقوم على فهمه ليستطيع أن يتعلم من هذا العلم ، وينفذ فى معانى أصحابه التى يقصدونها فى علمهم هذا . فإذا فعل وتعلم وقرأ لهم وفهم عنهم ، فهو لا ينتفع بهذا العلم إلا إذا اتخذه مادة تمد أدبه وتغذيه .

أما إذا تعلم هذا العلم ليفهمه على طريقة أصحاب هذا العلم وقيودهم التى قيدوه بها فهو باطل من حيث كان لا ينفعه فيما أراده من الأدب .

وإذن فطريقة الأديب فى قراءة العلم هى طريقة امتياز ، على أصحاب العلم نفسه ، لأنها طريقة استيعاب لما وصلوا إليه من حقائقه وأسراره ، ثم تزيد على ذلك فطنة الأديب وبصره وإحساسه وقوة إدراكه للمعانى البعيدة التى تفضى إليها هذه الحقائق وهذه الأسرار ، ثم قدرة الخيال على التطرح والتسامى ، والتغلغل والنفوذ إلى أعماق مبهمة ، حيث يستطيع أن يعقد المقارنة ويقيم المشابهة ويجمع هذا إلى ذاك ، ويفرق بُعْدًا شيئين يتلازمان فى بعض وجوه النظر وكذلك يهتدى

بالفطرة الصادقة الهادية إلى معان وأسرار لا يصل إليها إلا من استقل بمثل هذا المذهب الذى يبدأ بصحيح العلم وينتهى بصادق الخيال .

وقد كان القدماء من شيوخنا يدركون ذلك ، ويفصلون بين الطبع والطبع والسليقة والسليقة ، وقد جهدوا أن يضعوا فاصلا يبين الحد بين الطبع الجيد والطبع الردئ ، ولكن ذلك مما لا يرام البلوغ إليه فى تحديد هذه الطبائع التى لا تخضع لسلطان علمى متميز بحد وقوة . فانظر مثلا إلى قول القاضى أبى الحسن الجرجانى فى كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه : « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ، ترك التكلّف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح » ، انظر إلى قول القاضى وتأمله تجده قد رام البيان عن حقيقة الطبع الذى يستقل بمذاهب الأدب ويقوم عليها ، ولكنه وقع دون الغرض . قال عن الطبع : « تصور أمثلة الحسن والقبح » . والتصور فى هذا لا يكفى ولا يؤدى بالأديب إلى غاية كالغاية التى نريدها نحن ؟

نعم إن التصور شرط فى كل شيء من الأدب ، ولكن الإحساس بالقبح والحسن هو الأصل الذى لا أصل غيره فى الأدب جميعه شعره ونثره ، والإحساس المتلقى وحده لا يكفى أيضا ، بل هو الإحساس الذى يتلقى فيثور فيندفع فينفذ كما ينفذ السهم أو كما يغيب الشعاع فى ظلمة المعانى ليضيء للأديب والشاعر ما يستبهم على غيره وينغلق .

وأما قوله عن الطبع أيضا : « وألهم الفصل بين الردئ والجيد » فهو كلام جليل دقيق موجز ، فإن الإلهام – هذا المعنى المبهم الذى نحس به وبآثاره ولا نستطيع أن نعرفه أو نحدده – هو الأصل العظيم الذى يردف العقل ، ويغذى الخيال ، ويشحذ الحس ، ويهدى فى الظلمات الجاثمة على المعانى والأفكار ، وإذا استطاع الأديب أن يتنبه إلى آثار الإلهام فيما يفكر فيه ، وفيما يكتب وفيما يقول ، واستطاع أن يجعل لعقله وفكره وبعض خياله نظاما يسترشد فى وضعه

وتدبيره بهداية هذا الإلهام وتعرف آثاره فى إنتاجه ، فعندئذ تستقم له الطريقة وتنثال عليه الآراء والمعانى ، ويدخل فى الأسرار ويخرج على يسر وفى لين وبخفة ، وهذا هو قول القاضى الجرجانى فيما سلف من كلامه :

« وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به » .

ولولا أن القاضى لم يأخذ هذا الأمر من بدئه بل أمسك بذنبه وجرى وراء الذنب ، لكان وضع عبارته على التقديم والتأخير كما فعلنا نحن فى شرح هذه العبارة . فإن تَرْكَ التعمل ورفْضَ التكلف والاسترسال وتجنُّبَ الحمل على الطبع هى النتيجة التى يبدأ عمل الأديب من بعدها فأين المقدمة التى تتقدم به فى هذا الطريق ؟ وكيف يستطيع أن يكون كذلك ؟

نعم ، فليس كل من ترك التعمل ورفض التكلف وتجنب الحمل على الطبع والعنف به ثم استرسل – بمستطيع أن يكون أديبًا أو شاعرًا ، لأن هذه ليست أداة ولا شبه أداة بل هى نتيجة طبيعية لشىء آخر فإن الإحساس المشبوب النافذ الحذر الذى يصيد معانيه من كل ما يتناوله بالسمع أو بالبصر أو بالفكر أو بالخيال ثم هداية الإلهام الحر الذى يستقل بأدب الأديب ، هما اللذان ينتجان ما ينتجان ، فإن الأديب إذا خلص له هذا كله لم يكن له بد من ترك التعمل ورفض التكلف والاسترسال .

وإنما يتعمل الأديب ويتكلف فى أول الطلب ، وفى بدء ممارسته للفن الأدبى الذى يريده ، ويكون هذا التكلف والتعمل شحذا لحده ، وصقلا لمرآته ، وجلاء لروحه ، وماهو إلا القليل حتى ينطلق من هذه القيود الأولى ، ويتحرر من رق الرغبة ، ومن عبودية التقليد والمحاكاة . فإذا انطلق الأديب وتحرر تصرف فى أغراضه كلها على هوادة ورفق كأيسر ما يكون التصرف وأسهله وأنعمه وأرقه .

فلينظر طالب الأدب أول ما ينظر إلى هذه الأصول التى رتبناها ، وليحاسب

نفسه ويفهمها ، وليعرف قوة طبعه معرفة التجربة ، فإذا فعل ذلك وتدارس ما يجب عليه من الاختبار لنفسه ، فوجد عنده من الاستعداد لها أثارة قد طُبِع عليها ، فلا يخافن ، فهو على الطريق وهو إلى الغاية ، وهو مدرك ما يبغي إن شاء الله .

* * *

فوضى الأدب
وأدب الفوضى

مضى زمن، مذ كان أحد من يلتصق بأيامه فى أيام الأدب، وينتشط اختطافا من بعض أسباب هذا الأدب المسكين - يتكلم عن الأدب والفوضى وكيف يضرب أحدهما بعرق إلى الآخر. وقبل، فإن أضر ما ابتلى به الأدب وغير الأدب من العلم والسياسة والاجتماع وماعلا وما سفل - إنما هو تلك الهنات الناشبة فى أقصى الحلق، والتى تمتد وتطول وتعرض، وتلين على الحركة، والتى تسمى فى لغة الناس باللسان.

ونحن الآن نريد أن نتسلل من فتنة هائلة وفوضى شاملة، بل نحن غارقون فى هذين البلاءين إلى قريب من الاختناق فيجب على كل من حقق لنفسه معنى من معانى الأدب - على أصل ثابت قوى أن يدفع بنفسه فى جهاد هذه الجنود الفاسدة التى تغزو عقول الناس فى الشرق بأداة مهولة من الأدب الذى لا قيمة له فى حقيقة العلم. وهذه الجنود هى بعض الآراء البراقة، وكثير من المراتب التى يلقى على درجاتها كل من ملك لسانا يتكلم به فتكلم وأطال، وعرف أن الحياء إن يكن فى الأخلاق مَنْقَبة، فهو لطالب الشهرة والصيت مَثْلَبة ومَذَمة. وعلى ذلك فأنت ترى أكثر هؤلاء لا يستحى أن يتبجح بالجهل والخطأ والضلال والفجور، مادام ذلك مما يؤدى به إلى مدارج الذكر على ألسنة الناس من العامة وأشباه العامة. وإذا نُزِع الحياء كثر البلاء.

وقد رأيت أن أقدم بين يدى هذه الكلمة - أن الرأى ليس هو ما يقال، وإنما هو ماينبنى بناء محكما على دقة وتدبير ومراقبة، وأما القول فسهل على باغيه، دان لملتمسه، وليس فى ظواهر الأشياء فى الحياة ما يعسر على المرء أن يتخذ منه فصلا بل فصولا كاملة يلبس بها الحق على الناس تلبيسًا، يقف فى مدارج

---

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٧٦٤، الثلاثاء ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ - ١١ يونيو سنة ١٩٤٠، ص ١.

أفكارهم فيدعها لا تخلص إلا على طريقه ، وإن بعض البلاغة – على أى درجاتها – تمهد للسان الرجل أن يذهب بالرأى المذاهب غير حذر ، فإنه يعلم أنه يزور كلاما على مدة وتطاول ، يلقن إلى من يقرؤه فيتلقفه فيختزنه عقله يعمل فيه عمل الداء الخفى فى العضو المصاب به .

ولذلك جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » وجاء عنه أيضا قوله : « إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال ، الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة [١] بلسانها » وذلك لأن عمل الكلام فى النفس الإنسانية هو العمل الخفى الذى يذهب مع الدم ، فإن الجماهير تأخذ الآراء كلاما لم يحذر فيه صاحبه ، وتعطيه للدنيا عملا لا يخاف مغبته فاعله . فذلك هو البلاء وهو اللعنة وهو المحق الذى يذهب بصالح أعمال الناس فيجعلها كهباء اشتدت به الريح فى يوم عاصف . فواجب الأديب الذى يحرص على أن يكون رجلا مذكورا فى الناس ما بقى فى الدنيا وبعد زواله منها ، أن لا يتركه لسانه يلين كما يلين لسان البهيمة فى التمطق بلذيذ الكلأ إذا أصابته وتملأت منه ، وإلا فقد اختار لنفسه أسوأ الحالين . فإن العصر الذى هو فيه إن ذكره فذاك ، ثم يأتى من بعده عصر فيه يغاث الناس بالعقل الحاكم فيقذفون به وبأدبه فى تلك السلال الأبدية العظيمة التى أعدها الزمن لفلان وفلان ممن عرفنا ومن لم نعرف .

فمن الغفلة التى طمست على صاحبها ، وسولت للسانه أن يتخلل الكلام من هنا وهنا ، أنه جعل الأدب إنما – على هذا الحصر – يزدهر فى أزمان الفوضى الاجتماعية . ولو فهم هذا الأديب حق الفهم معنى الفوضى الاجتماعية لم يجرؤ على القول الذى قاله ، ولم يحاول بلسنه وتفاصحه ، أن يذهب هذا المذهب من الرأى . فإن عصر الفوضى الاجتماعية ، شيء غير عصر الصراع الاجتماعى ، فإن الفوضى انحلال ذاهب إلى أسفل وإلى طلب الأسفل ، والصراع ذاهب إلى الأعلى وإلى درك الأعلى ، وبين هذين ما بين ألفى ميل انخسفت فى الأرض ، وألفى ميل

(١) الباقرة : اسم جمع للبقر .

ذهبت فى السماء ، ولا يخلط بينهما إلا مخادع أو مفتون أو من عمى فلم يبصر الذى فوق والذى تحت .

إن جماعة الجماهير التى تقرأ والتى تسمع والتى تفهم ، لا تفهم من الفوضى إلا ذلك الاضطراب المتداعى الذى لا يستقر فيه شيء على حال ، ولا يمكن أن يستقر على حال ، والذى لا يعرف أصولا مقررة بينة يتهاوى إليه بقوته وإرادته إلى غاية بعينها ، فالفوضى الاجتماعية هى الحال التى إذا وضعت إصبعها فى سرارة الجماعة ووسطها جعلت فيها كمثل الزلزلة المخبولة الطائشة الباغية بقوتها وجبروتها ، إذا أصابت الجبل فهدته ، فما كان فيه قمة لم يلبث أن يكون مطمورا تحت الحصى الذى كان يلوذ بالجبل كما يلوذ الذليل بمن أذله واحتكم عليه . فهذه حال لا يكون فيها الجبل جبلا ولا ينتظر أن يكون مرة ثانية .

أما الصراع الاجتماعى فهو ذلك الجذب الهائل بين القوى المتكاثفة من الخير والشر والخطأ والصواب والعلم والجهل كلها قد احتشد للظفر والغلبة فيخيل للجاهل المفتون إذا رأى تداخل هذه الجيوش المتحاربة وتحاطم أسنتها فى قتالها ، ومايصيب ميدانها من الكَرّ والفر والإقبال والإدبار وما سوى ذلك من أعمال القتال والمناجزة - يخيل لهذا الجاهل أن الأمر فوضى واضطراب ، وما هو به ، إن هو إلا طبيعة الحرب ، التى يراد بها الظفر ولا تكون الحرب إلا كذلك . وما اختلاط الدنيا وموج الناس إلا تنظيم القوى وتلاقيها ، فليس بين هذا وبين الفوضى إلا شبه يتخيله من ينظر إلى السطح دون الأعماق ، ويطلب عرض الباطل دون جوهر الحق ، وهذا النظر حاله غالبة على من به ضعف كضعف القط حين يتنمر أو يستأسد ، وماهو إلا نتيجة الفوضى التى تقع فى أعصاب مريضة متهالكة من منبعها إلى مصبها ، فلذلك لا يكون الرأى لها إلا كذلك .

إن الفوضى الاجتماعية إنما تعقب عصور القوة الحاكمة المتسلطة ، وذلك إذا بدأت تنهار بعد الاستكانة إلى غرور هذه القوة وهذا السلطان ، وإذا انهار السلطان الاجتماعى القوى كانت الفوضى بتمامها وبأدق معانيها ، وتعيش الأمة بعد ذلك في فوضي أى في ضعف مستمر ليس له حاجز يلجأ إليه ، أو ليس له من

القوة ما يرتفع به حتى يعتصم بهذا الحاجز إن كان قد بقى منه شيء . وإذا بلغت الأمة هذا المبلغ فالرجاء فى قيامها من كبوتها هو رجاء باطل ليس له أصل فى السماء ولا فى الأرض .

وعلى ذلك ، فإن أدب مثل هذا الجيل الذى تغلب عليه الفوضى الاجتماعية لايكون إلا أدب فوضى من عقول فوضى بآراء فوضى إلى غايات فوضى ، أدب لايرجع إلا إلى الفوضى ، ولا ينتهى إلا إليها . فإذا انقشع غبار الفوضى ، وتجلت عمايتها عن الناس ، كان مصير هذا الأدب أن يحكم عليه بالإعدام فيقتل ثم يلقى فى حفرته إلى التعفن والبلى ، فإذا خفف الحكم كان حكما بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ليعمل فى البناء التاريخى للأمة ومع ذلك فلن يعرى فى مكانه هذا من اللعنات التى يغسل بها كلما ذكر .

إن صاحب هذا الرأى الذى أشرنا إليه آنفا قد احتمل سيله من غثاء الرأى ، لا نجد معه حاجة إلى تعقبه للبيان عن وجه الخطأ فيه ، أو وجه المغالطة إن كان قد تعمد ذلك . وليس هذا سبيلنا الآن . وإنما أردنا أن نبين قدر اللجاجة التى تسقط الرأى إذا نبعت فى أصلها من خطأ الفهم لحرف واحد من الكلام . فلم يتدهور هذا الأديب فيما تدهور فيه إلا بعد أن كان أصل كلامه خلطا عجيبا بين معنى الفوضى ، ومعنى الإرادة التى ينشب بقوتها الصراع بين الآراء أو المذاهب أو الضرورات الاجتماعية . إن الفوضى شر كبير لا يشك فى ذلك عاقل ، وهذا الشر لا يمكن أن ينتج خيرا كالذى يخيله للناس كلامه ، والصراع خير وإن ظن فيه بعض الشر ! فهو مخيلة الخير فى الأدب وغير الأدب .

والأدب إذا بدأ استمداده من الفوضى التى لاتدع ، يجب كما يجب ، ولا تذهب بما ينبغى أن يذهب إلى حيث ينبغى أن يذهب - فهو أدب ضعيف لا يقوم على أساس من شيء ولا واقع ولا مرجو . وليس يغر أحدًا أن يقال إن الفوضى هى التى تدفع الناس إلى التفكير فى إصلاح الفوضى ، فإن أول ما يصاب فى الفوضى هو التفكير ، وإذا أصيب التفكير فى مجموع الأمة بهذه الفوضى ، لم يجد المصلح من يعقل عنه معنى ما يقول وأخفق أن يجد من يسمع إليه ، وإذا فقد الأديب هذين فَقَدَ القدرة على الذهاب فى البيان عن إصلاحه .

إن الأديب ينشأ فى أوساط متصارعة بعقولها فى طلب الحق ، أى فى الجماعات التى يشملها الصراع الاجتماعى الهائل ، وليس معنى ذلك أن يكون هذا الصراع قائما على أسباب من المفاسد والمقابح التى تفسد النفس وتهلكها ، بل معنى ذلك أن يكون هذا الصراع قائما على طلب الحقيقة التى تعصم الأمة من التفكك والذهول والحيرة أى من الفوضى .

فأدب الفوضى ، فوضى الأدب هما شيء واحد ، وقد احتفظت العصور الكثيرة فى الأمم المتعاقبة بصور كثيرة من الفوضى الاجتماعية ، وما كان من قدرة أدباء تلك الأجيال ، وأين يقع أدبهم من الأدب الجيد ، فإذا تناولت ذلك ، ودراسته لم تجد إلا الفوضى فى هذا الأدب من قبل الفكر والعبارة عنه والغرض الذى يرمى إليه . فلا يخدعن الناس ما يقال فى ذلك ، فإن أكثر ما بين أيدينا من الأدب إنما يدل دلالة بينة مكشوفة عن حقيقة الفوضى التى جعلت عقول بعض الأدباء كسطح المنخل ، لاتمسك حبها على الهز .

* * *

الأدب والحرب

إن روح الأديب الذى أعدته طبيعته للتعبير عن الإحساس الذى يجيش فى ضميره تعبيرًا يكفل لنفسه البقاء والخلود فى تاريخ الأدب ، هى الروح الصحيحة التى يمكن أن يعرف من ناحيتها حقيقة تأثير الحرب فى الأدب . وقد قلنا مرارا إن تأثير الحرب فى الأدب ليس هو أن ينصب الأدباء أنفسهم لتسجيل أخبار الحرب أو أحداثها أو نتائجها أو غاياتها أو فكاهاتها ، وما يكون فيها أو منها مما يمكن أن يتخذ أساسًا للكتابة ، وإنما يكون أثر الحرب فى أدب الأديب فى وحى الفكرة التى يقوم عليها بناء إنشائه البليغ ، أو غرضه الذى يتوجه إليه معنى كلامه . وبذلك نعرف أن تأثير الحرب فى الأدب يقع فى كل إنتاج بيانى صحيح ، فالحديث عن المرأة مثلا إذا كان فى كلام هذا الأديب يخضع اليوم - أو زمن الحرب - خضوعا تاما من بعض نواحيه للزلازل المرجفة التى يرتج فى رجفاتها كيان الأديب المفكر المترفع .

وهذه الحرب الحديثة التى نسمع اليوم هدها ودويها وقعقعتها ، وتزأر فى نواحى ميادينها والوحوش المجنونة التى تستولغ فى الدم ، وتصبغ فيه أفكارها وأعمالها وعقائدها ، وتنشب مخالبها فى الفرائس التى تلاقيها فى انقضاضها المخبول حين تنقض بكل غرائزها الدنيئة التى تثور فى الإنسان ساعة الغضب وأوان الحقد وعند الحفيظة - نقول هذه الحرب الحديثة ذات الطبيعة الدموية الحمراء ، تخالف من كل نواحيها كل ما سبقها من الحروب فى تاريخ العالم من لدن آدم إلى يوم الناس هذا .

فلا جرم إذن أن يكون تأثيرها فى طبائع البشر تأثيرا مخالفا لما سبق من تأثير الحروب السالفة فى توجيه شعور العالم . والأديب - لاشك - أشد الناس تأثرا بهذه الحرب ، وأثرها فيه وفى أدبه أشد وضوحا وبيانا من مثل ذلك فى سائر

---

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٧٧٠ ، الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ - ١٨ يونيو سنة ١٩٤٠ ، ص ١ .

الناس ، وبذلك سيكون تأثير هذه الحرب – على قصرها أو تطاولها – تأثيرا مباينا لكل تأثير سبقه فى أدب الأدباء .

فالأديب فى حياته الإنسانية والأدبية يعيش على استمداد الطبيعة الأدبية التى تصيد من مادة الحياة التى يعانيها فى كل يوم من أيامه ، والتى أرصدتها لها طبيعتها لتكون له أبدأ صيدا يغذو منه أدبه وفنه ، ويربى على دره عبقريته الأدبية ، وطريقه إلى ذلك طريق لا يكاد يختلف . فالحياة الإنسانية اليومية هى المؤثر الأول فى حياة الأديب ، وهى التى تشكل أعصابه المفكرة بشكل الصورة التى يمكن أن تخضع لها هذه الأعصاب وتخضع فطرتها . وهذه الأعصاب المتصلة بعقل الأديب الحساس المعبر ، هى التى تتناول المادة الفكرية لتصوغها صياغة جديدة من البيان . فليس شك إذن فى أن الأفكار – أو الإنتاج – نفسه ، سيكون مميزًا ببعض المميزات التى كانت نتيجة طبيعية للتأثير الواقع بصورته فى أعصاب الأديب وعلى ذلك – فمهما يتناول العقل الأديب من شيء من أشياء الفكر ، قدم أو حدث ، بَعُدَ أو قرب – ففى هذا الشيء تظهر آثار بينة من ضغط المؤثرات الإنسانية اليومية التى تقع عليه .

والفكرة فى البيان الأدبى هى الأصل الذى تدور عليه بلاغة التعبير اللغوى ، وذلك أن الألفاظ اللغوية التى يتداولها أهل كل لسان من الألسنة الكثيرة فى هذا العالم ليست إلا رموزا محدودة بحروفها ، يراد بها وجه من وجوه الدلالة على معان كثيرة ، وهذه المعانى التى تدل عليها الألفاظ تختلف اختلافا كبيرا فى فهم رجلين متقاربين متعاصرين وذلك لأن الألفاظ اللغوية بحدها الذى تحده به المعاجم ليس لها عمل البتة إلا إثارة المعانى فى نفس قارئها أو سامعها ، وهذا السامع أو القارئ يتحين أحيانا لمعانيه ، فإذا هزته الألفاظ أخرجت من مكامنها تلك الأفكار الكثيرة المتشابكة المتداخلة التى لا تنتهى ، والتى تنام دائما فى واعية العقل – أو مايسمونه العقل الباطن – وعندئذ لا يُبْقِى اللفظ اللغوى معناه المحدود بالمعجم ، بل ينطلق فى مذاهب لا تنتهى كل معنى منها يركب معنى آخر أو يتعلق به أو يتولد منه .

والعرب سمت هذه الحالة التى تعرض للألفاظ فى سمع السامع وفهمه ، وكلام المتكلم وبيانه ، اسما خاصا أرادت به تعميم هذا المذهب فى كلامها . ولولا أن البلغاء – أعنى أصحاب علم البلاغة – قد حجروا ماوسع أصحاب اللغة والبيان العربى ، لكان لهذا الباب مذهب آخر غير المذهب الذى درج عليه أئمتنا رضوان الله عليهم فى دراسة هذا الباب من العلم .

وهذه الحالة التى ذكرناها هى المعروفة فى علم البلاغة « بالمجاز » . فالمجاز فى اللغة هو الطريق ، وسموه كذلك لأن اللفظ اللغوى يجوز من معناه الأصلى على طريق ومذهب إلى معنى آخر يتهافت إليه أو يتعلق به أو يهوى فى بعض هواه . وهذا المجاز الذى يجوزه اللفظ ينضبط ويتقرر على أصول نفسية محصنة [١] ، هى التى ترتاد للفظ سبيله إلى المعانى التى يمت إليها أو يمتد معناه فيها . والمجاز هو أصل البيان كله ، والبيان هو أصل الأدب ، والأدب قائم من ناحية أخرى على الفكرة الأدبية ، فمن هنا ترى أن المجاز فى اللفظ والفكرة الأدبية هما الشريكان المترافدان اللذان ينشئان الأدب ويجعلانه شيئا خالدا من الفن المتكلم الصامت .

وإذا سقط أحد هذين من مذهب الأديب تساقط معه أدبه وتهافت ، وإذا بقى أحدهما سابقا والآخر متخلفا كان ذلك مطعنا يغمز منه أدبه أو مقتلا يلقى من قبله حتفه ، وكذلك تعلم أن لابد من تقاود الفكر واللفظ فى البيان الأدبى حتى لتجد كأنهما يتسابقان يقود أحدهما الآخر إلى غايته ، فلا تسلم صفة القيادة لواحد منهما دون الآخر ، فإذا تم ذلك تم المعنى الأدبى البيانى الكامل فى أدب الأديب ، وتم له الخلود الدائم فى التاريخ الأدبى والبيان اللسانى الذى تتكون من أشيائه ثروة اللغة .

وإذا صح لديك – وهو لاشك صحيح – أن الأديب لا تجتمع لأدبه مادته إلا من الحياة اليومية التى تؤثر فى فكره أشد التأثير ، وتحمله على توليد المعانى الأدبية من معاناة الحياة ومداورتها ومقاساتها على لينها وشدتها ، وأنه أشد الناس تأثرا وإحساسا بالأحداث الإنسانية والطبيعية كلها ، وأن هذا الإحساس وهذا التأثر هما

---

(١) كذا بالأصل ، وظنى بها : مَحْضَة .

الدافعان الأولان اللذان يوجدان فيه معانيه التى تحمله حملا على التعبير ، وأن التعبير يتناول المادة اللغوية من الألفاظ فيديرها على أسلوب وطريقة وترتيب ينتهى إلى شىء واحد : هو حفظ النسبة والعبارة بين اللفظ اللغوى والمعانى الجديدة التى يعلق بها الأديب أسبابه بأسباب معانيه . إذا علمت ذلك علمت أن الحرب وهى الهَزّ الدائم المستمر بين صباح اليوم وليله - توجد فى أدب الأديب بيانًا جديدًا ومجازًا مبتكرًا وعبارة متناسبة تتجدد بها اللغة وتثرى ، وتختزن فى خزائنها أموال الأدب التى يسهبها [(١)] لها هذا الأديب .

ولا يذهبن بك ما ترى مِنْ رَأْينا إلى أن ذلك لا يتناول إلا الألفاظ ، كلا ، فالأغراض والمعانى والآراء كما قلنا هى الأصل واللغة تبع كمتبوع ، وليس ذلك حسب ، بل أن النهج والأسلوب والمأخذ والمرمى والمقطع والحد ، وكلٌّ يتميز به الكلام الأدبى والنهج الأدبى العام ، هو أيضا يتأثر تأثرًا ظاهرًا بينا بالأثر الذى يحدث من جراء الرجفة الحربية التى تزلزل أعصاب المجتمع البشرى فى هذه الأيام .

والحرب الحديثة هذه لاتزال قائمة تدمدم دمدمة مفزعة متغولة بالرعب الوحشى الذى يزأر زئيره فى ميادين القتال الهائلة ، وستستمر كذلك إلى أن يقضى الله قضاءه على هذا العالم الظالم أهله ، ولن تضع الحرب أوزارها إلا بعد أن تصفى الأوضار الخبيثة التى تراكم ثقلها [(٢)] على البشرية ، وحتى ينهك التعب شياطين الحرب وهى تتداك وتتزاحم إلى أن تسقط إعياء من طول ماطوفت على العقول المختبلة تضع فيها مادتها الشيطانية النارية الملتهبة بالشر والعدوان والبغى والطمع وسائر الرذائل الماحقة التى تعمل فى خراب العالم من ناحية ، ليقوم العقل البشرى الخالد من ناحية أخرى فيعمره بتوفيق الله وهدايته ، واتباع طريقه والتسلم لقضائه ، والإيمان بأن منه الرحمة فى الخير والشر يداوى بها الكلم الدامى المتفجر حتى يرقأ دمه وتنحسم مادته .

---

(١) كذا فى الأصول ، وظنى أن الصواب : يُنْهِبها ، وأنهب المال : جعله نهبا لمن يريد أن يأخذه .

(٢) فى الأصول : ثغلها ، فأثبتُ ماترى . الثِّقْل : الذَّنْب ، وفى التنزيل العزيز ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] أى : أَوْزارهم وأَوْزار مَن أضلوا .

ومادامت هذه الحرب قائمة على هذا الهول وهذا العنف وذلك الجبروت الطاغى ، فنحن لا نستطيع أن نقول كيف هو أثر هذه الحرب بالتحديد فى أدب العالم ، وذلك لأن تأثير الحرب لن ينتهى الآن لأنه يتجدد فى كل يوم بأهواله ، بل فى كل ساعة بل بين كل دقيقة ودقيقة ، والتأثير لايعرف ولا يتميز إلا بعد أن تمر فترة تكفى على قدرها أن يستوى التأثير على حالة باقية يمكن أن يتصورها العقل أو يُلِمّ بها فيتفهمها ، وعلى ذلك فليس من الممكن أن نجد أساسا نقول فيه إنه هو الأساس . ولكن لسنا نشك البتة فى أن هذا الانفجار العظيم المتقصف فى كل مكان سيجعل فى أعصاب العالم كله بعد انقضائه انفجارا يتقصف زمنا بمثل ذلك الهول والفزع ، وأن الحياة الاجتماعية فى نواحى العالم الحى بعد ذلك ستجد اختلالا هائلا يسمع هده ودويه فى كل ثنية من ثنايا الدنيا ، وأن كل دار يسكنها حى باق سوف تسمع من أرجائها ضجيجا هائلا يودى بالحياة الاجتماعية السالفة التى تعاقبت على العالم بعد الحرب الماضية ، وأن المرأة سوف تستغل لشهواتها هذه الرجولة الظامئة التى أطارت الحرب ريها زمنا طويلا ، وأن العالم على ذلك سيجد بلاء جديدا لم يسبق له شبيه فى التاريخ الإنسانى ، وأن الأديب سيعيش فى هذا الاجتماع الإنسانى العالمى بعد آثار الحرب فى نفسه فيرى ويسمع ويحس ويفكر ويتأمل ثم ينتج للأدب إنتاجا جديدًا فيه من ذلك كله آثار تشتعل فى نواحيه .

إن الأدب هو تعبير الروح الإنسانية السامية النبيلة ، والحرب الحاضرة هى تعبير الروح الإنسانية التى اختبلها مَسٌّ من الشيطان المتدلِّى إلى هوة سحيقة من الغرائز الوضعية ، وسنرى - والله يعصمنا ويعصم القارئ ، وهو الحافظ - كيف يعبر المعنى السامى حين يهتز بالمعانى الوضيعة ، وسنرى أبالسة الأدب ينطلقون فى كل فج ومن كل حدب ينسلون على الناس بشهواتهم المتكلمة فى شعرهم ونثرهم وأفكارهم المستكلبة . وإنا لا ندرى ما خَبأَ الله للناس ، ولكنا نرجو أن ينجينا الله أن نكون بعض هؤلاء ، فإن الرجل - وصدق رسول الله - ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها قيد ذراع ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها .

وإنما القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف شاء ! فاللهم اهدنا بهديك واعصمنا ، فلا عاصم اليوم من أمر الله .

* * *

إلى على ماهر باشا

هل يأذن لى – صاحب الرفعة – أن أنتحل لنفسى صفة الأديب الذى يريد أن يتكلم بلسان مصر الخالدة التى أرسلت أجيالها تطل علينا من لدن عصر التاريخ الأول إلى القريب القريب ممن توفاه الله من آبائها وأبنائها ؟

إننى لن أنتحل بهذا شيئا ليس لى ، فإن الأدب الذى وقفت نفسى عليه هو نفسه ليس إلا تعبير الوطن كله بأرضه وسمائه وسكانه بألفاظه من اللغة على لسان رجل واحد ، فما ينكر أحد على أديب مجهول مثلى – يجد فى دمه تلك الأمواج الثائرة المتدفقة ، وهى تتدافع فى بنيانه تيارا من الإحساس – أن يطلب بألفاظه التعبير عن حقيقة هذا التيار تعبيرا صريحا يدل بروحه على أن الغفلة المظلمة لم تطبق دياجيها على القلب المصرى الحر بعد .

حين بدأ الموقف المصرى السياسى يرسل تلك الرعدة النافضة فى أعصاب الوطن المستيقظ ، بادرت فكتبت كلمة كنت أجد ألفاظها جائلة تدور فى نفسى . كان الموقف غامضا ، ولكنى كنت أجد الهواء ينشق عن رائحة الفجر ويترقرق بأنواره فعلمت ساعتئذ بعض واجبى ، فسارعت إليه . فلما قرأت اليوم ذلك البيان الفاصل الذى فرق بين الحق والباطل جعلت أستعيده مرات . ثم قلت لنفسى :

« ويحك يانفس ! أى رجل هذا الذى أشرق من قلبه النور الخالد الذى أضاء لمصر وللعالم الإسلامى طريقا سوداء داجية » ، وعندئذ علمت من واجبى بعضًا آخر .

إن مصر قد لقيت فى هذا القرن من أحداث الدهر ما لا طاقة لوطنى بالصبر على لأوائه وشدته ، فقد قامت جماعات أريد لها يوما أن تنصب أنفسها كالأعلام الشامخة فى تاريخ مصر ، فكان ذلك . ومع ذلك فإن القلب المصرى الذى لايندفع وراء صوت الناعق ، قد وجد هؤلاء – حين استوى لهم الأمر – قد أفرغوا

---

* الدستور – السنة الثالثة – العدد ٧٧٨ ، الأربعاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ – ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ ، ص ١ .

على شعلة الوطن التى أوقدتها قلوب أبنائه ذَنوبا [١] من ماء ، فأطفأوا نورًا ونارًا – لو هما بقيا واستمرا إلى غاية ، لأضاءا للتاريخ المصرى الحديث مرتقاه إلى الذروة .

ولكن لا يخذل الله إلا هالكا ، فاصطفاك الله لمصر فى أيام من المحن ، فما ندرى !!

لقد كانت مصر تجهل أن هذا الرجل الذى استطاع أن يلم شعث الوطن فى أيام عاصفة ، هو الرجل نفسه الذى سيكون عمله فيما بعد تعبيرًا عن روح النار المصرية الخالدة التى تأبى أن تنطفىء . نعم ، لقد وقفت اليوم على قمة المجد الوطنى تكشف الحجاب عن ذلك المارد العاتى الذى جعل همه أن يغرر غرره بالوطن المصرى ، فنزعت من قلبك الرهبة ، وسموت بروحك عن حاجة البدن وضرورة المادة ، فتوهج بك النبراس المنير الذى سيضىء لمصر مرة أخرى – بعد مصطفى كامل – طريقها إلى معراج مجدها الخالد الذى لا يتهدم .

أبشر أيها الرجل المبارك !!! إن هذه القلوب المصرية المشعلة قد جعلت تسمع معمعة نيرانها تتردد فى أرجاء الوطن قاصيها ودانيها . وإن الجرأة الكامنة فى ضلوع هذا الشعب قد وجدت تعبيرها فى مثال روحى سام نبيل ، فهى تمد بقوتها وتستمد منه استمرارها ودوامها ، ليس فى مصر اليوم إلا أمة على قلب رجل واحد ، اجتمعت على معرفة الحقيقة التى أحاطت بها ، فهى لن تتوانى ساعة من نهار فى إعلان حقيقتها هى . تلك هى الحقيقة التاريخية الخالدة فى بلاد الشرق حقيقة الروح الباقية بإيمانها ، بعد أن ينضم الثرى على رمَّة ورُفاتها .

إن الأسد لا يعرف من معانى وجوده إلا معنى واحدا : هو معنى العظمة الباذخة تستعلن بخيلائها من عضله إلى لبدته ، وتتجلى بتيهها من نظراته إلى مشيته ، لأنه هو قوة تفرض سلطانها بنفسها ، وهو متبوع لا تابع ، وهو صرامة

---

(١) الذَّنوب : الدلو الملأَى ، ولا يُقال لها وهى فارغة : ذَنُوب .

ماضية تلطم فتحطم ، وما يؤذيه أو يضره أن يصاب خيانة أو غدرا . فإذا لاقاه من يلاقيه عيانا ، فالأسد الأسد ، لا يفر ولا ينهزم .

وقد مد الله لك صحيفة بيضاء فى عهد الفاروق ، فاكتب فيها تاريخك المجيد الحى فى المحاماة عن هذه الأرض التى حملتك صغيرا ، ورعتك شابا ، وعظمتك كبيرًا . اكتب تاريخك ، وسيكون توقيع الأمة كلها شهادة على أن مصر تستطيع أن تلد أبناءها أحرارًا ، لا يستذل أعناقهم خوف ولا حرص ولا طمع وسيكون توقيع الأمة عملا مجيدًا لعملك وصرامة ماضية كصرامتك ، وجرأة تتحفز كجرأتك .

إن الله قد أعطاك سَورة من عز مصر ، وعز العرب ، وعز الإسلام ، فاعمل على ألا يراك الله إلا بحيث أحبَّ ، فإنه تعالى يقول :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

إن مصر قد أعدت لك قلوبها ، فانزل منها حيث شئت ، ومن أنكر عليك موضعك فما ينكر إلا نفسه ، ومن أغمض [١] فى ضلاله فدعه ، فقديمًا قالوا : « خرقاء وجدت صوفا » [٢] فهى تفسده بحماقتها ، وسيأتى على الناس يوم تعلم فيه الشاة علما ليس بالظن : أنها إن تك بقرنيها تناطح ، فمن قرنيها تصرع ، ويومئذ لا يغنى عنها علمها شيئا . فاللهم ادفع عنا وانصرنا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) أغمض فى الأمر : مضى فيه ولجَّ .

(٢) مثل يضرب للذى يُفْسِد ماله .

لاتبكوا .. !
لا تنوحوا ... !!

من يوم أَنْ سقطت تلك المدينة العبقرية التى فتنت الناس وأغوتهم ، ورمت فى قلوبهم أعوانها وأشياعها ، وأطلقت عليهم لذاتها فأطلقوا عليها شهواتهم .. من يوم أن سقطت باريس الفرنسية : لا أكاد أستريح من نفسى ولا من قلقها واشتياقها واضطرابها إلى أمر غامض لم تنجل غمامته بعد . إنى من ذلك اليوم لأنطوى بين جدرانى أفكر ، أو آوى إلى ليل الحرب المظلم أسبح وأتخيل وآخذ لقلبى متاعه من الفرح ، أو لوعته من الحزن . نعم ! لقد آثرت أن أنفرد فى هذه الأرض أعيش وحدى ، وآكل وحدى ، وأفكر وحدى ، كما أفرح وحدى ، وأتألم وحدى ، فإن يكن فى هذه الوحدة متاع ولذة ، فذاك بعض فنون الدنيا ، وإن يكن منها شجو وحسرة ، فذاك بعض شجونها .

ولكن .. هل استطعت أن أكون أبدًا وحدى ؟ كلا ، كلا ! ما ظنك بإنسان قد فرض عليه - أو فرضت عليه إنسانيته - أن يكون حيًّا يتداخل فى الحياة كما تتداخل عليه ، وأن يؤدى وظيفتها كِفاء ما وظفت له من أسباب الحياة : من هواء ونور وحرارة وحركة . وقد جعلت وظيفتى فى هذه الحياة فى شيء أحسنه بعض الإحسان ، ألا وهو هذا الأدب الذى نعيش به ، و .. و .. ونحيا له إن شئت .

فهذه الوظيفة تحملنى على أن أدع ما أحب إلى ما لا أحب ، وأن أضرب النفس على واجبها بالسوط والعصا حتى تنقاد ، فليس يحسن بمن هذا عمله وتلك وظيفته أن يقطع نفسه عن إنتاج الأدباء الذين يعاشرونه ويعاصرونه ، ولا أن يتخلف عن شهود مواكبهم أو مآتمهم فى راحة أو تعب . فلذلك كان لزاما على أن أقرأ لأصحابنا - أطال الله بقاءهم ومدّ فى أعمارهم - كل مايكتبون ، فإن لم

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٧٨٧ ، الجمعة ٢٩ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ ، ٥ يوليو ١٩٤٠ ، ص ١ .

يكن كله فأكثره ، فإن لم يكن أكثره فبعضه ، وذلك أقل ما يجب على الأديب من حق الأدب وحق المعاصرة .

وقد جاءت الحرب الطاغية ، فأوقدت عليَّ أفكارى فهى أبدًا تغلى بما فيها مما يخص وما يعم ، ومما أسر به أو أعلنه ، ومما أرضاه ، أو ما أسخطه . وعلى ذلك أقرأ أفكار أصحابنا ، وفى هذه الحال أتناول آراءهم وإنتاجهم ، فإن وجدوا فى بعض كلامى حرارة تحرق ، فإن الذى ألقى من هذه الحرارة أشد مما يلقون . وأنا أقاسى فأتكلم ، وهم يقرأون كلامى فيشعرون ثم يتناسى منهم من يتناسى ، وفرق بين الحالين كبير . وقد قيل فى المثل : « تحرقك النار أن تراها بله أن تصلاها » .

ولم أزل كلما أخذت صحيفة أو مجلة أجد أصحابنا يعيشون فى دنيا غير الدنيا ، وينظرون فى أشياء ، لو أنصفوا لكفوا أنفسهم مؤونة الفكر فيها ، فضلا عن الإلحاح عليها ، فضلا عن معاناة الكتابة فى أغراضها .

فلما سقطت باريس مدينة فرنسا تحت سطوة الجيوش الألمانية الغازية ، لم أكد أتناول شيئا من ذلك إلا وجدت هؤلاء قد لبسوا الحداد ، فهو فى سطورهم حسرات ، وذرفوا الدمع ، فهو فى كلماتهم قطرات ، وتأوهوا وأنوا وتصدعت أكبادهم ، وتزايلت أنفسهم ، وأظلمت الدنيا فى عيونهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت !! وكأن كل أحد منهم قد أخذ أخذًا على أن يحمل القلم ، ليثبت أن البكاء الذى فى قلبه ، يستحيل أيضا بكاء من قلمه .

لم يرد أحد منهم أن ينظر إلى الحقيقة التى يجب أن يفرض على نفسه طلبها والعمل لها . لم يرد أحد منهم أن يعرف أن الأدب أو مايجرى مجراه – ليس هو الكلام يقال أو يكتب ، وإنما هو فى أصله وفى أخراه هو طلب الحقيقة وإظهار هذه الحقيقة ، ثم يختلف الأسلوب على هذه الحقيقة . إن الأدب المصرى أو العربى أو الشرقى عامة ، قد فرضت عليه أمته أن يبحث لها عن حقيقتها هى ، ليعلن لها هذه الحقيقة ، فى أسلوب بعد أسلوب ، يكون من كل واحد منها أثر

يدفع إلى غاية ، وتكون الغاية إثباتا لهذه الحقيقة وتقريرا لها فى روح الشعب ، حتى يتكون من جميع الآثار التى يرمى إليها الأدباء ، ما نسميه فى هذا العصر بالرأى العام .

فإذا كان إنتاج الأدباء ذاهبا عن هذه الغاية ضالا على وجهه ، ليس يهتدى ولا يبصر ولا يستوضح طريقه ، فهو إنتاج مخمور ، كأنه قد استنقع فى كأس من الخمر فهو يمشى متخلعا يتطوح بين حائطين من الضلال ، كلما صدم أحدهما قذف به إلى الآخر ، ولا يزال كذلك حتى يتهالك مجرحا محطما ، لايتماسك شيء منه على شيء .

لقد سقطت باريس !! هذا شيء - لا أقول مؤلم أو محزن - بل أقول : هذا شيء كان الظن فيه غير ذلك . فما الذى يؤلم المصرى أو الشرقى من سقوط باريس فى أيدى الطغاة الذين حملوا على أصحابهم حملة واحدة حتى فرغوا ؟ نعم لست أجهل مواقع الحجة لمن يريد أن يحتج منهم ، ولكن إن كان الكاتب يألم ، فالشعب الذى يكتب له لا يستطيع أن يألم كألمه ، أو أن الضرورة الوطنية تحمله على أن يوفر على الشعب عواطفه التى تتألم ، لشيء غير هذا . ليس أحد من هؤلاء يجهل أين ينبغى أن تتوجه آلام عواطف الشعب ، فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى بيان أو دليل ، وإذن فواجب هذا الأديب - أو هؤلاء الأدباء - أن يتخذوا من سقوط باريس وأخواتها مادة لتوجيه عواطف الشعب إلى الحقيقة الوطنية العظمى ، الحقيقة الوطنية التى لا يعيش الشعب إلا بها ، لأنه ليس له قوام إلا بها ، ولا بقاء له إلا عليها .

إننا نعانى من قرون بعيدة آلاما كأشد الألم إذا تمكن حتى يفقد صاحبه الشعور به ، من طول إلحاحه عليه حتى يعتاده ويقر عليه . وهذه الآلام يعوزها من يقوم على تصويرها لشعبه تصويرًا جديدًا حتى يتمثلها فى دمه آلاما جديدة قد ولدت له خاصة فى جيله هذا ، وبذلك يبقى الشعب أبدًا وهو يجد فى دمه تاريخه الموروث بآلامه ، فيعرف واجبه فى العمل على دوائها والقضاء عليها ، فكان يجب على هؤلاء أن ينتزعوا من سقوط هذه المدينة أمثالا جديدة لقرائهم - أى

للقوم الذين يتكوَّن منهم الرأى العام – ليوقظوا ذلك التاريخ المنسى الذى طمست عليه فتنة المدنية الحديثة التى أتت إلى بلادنا ، فأحالت رجالنا إلى رجال ليسوا منا ، وما هم إلا كترجمة فاسدة فى لغة ركيكة لكتاب بليغ فى لغة أخرى . هذا مَثَلُهم ...

إن الحياة – أيها المعاصرون الأصدقاء – قد كتبت على الأرض مدنيات كثيرة ، علت مدنية وجاءت أخرى فبغت عليها بطوفانها حتى ذهبت بها إلا آثار للتاريخ . لقد قامت مدنية الهند والصين وآشور والكلدان ، ومدنية مصر والعرب وغيرهم مما نعلم وما لا نعلم ، ثم ألقى الدهر عليها كَلْكَله فسوّاها ، فكم من باكٍ بكى على هذه المدنيات المسكينة التى دفنت تحت أجساد متجمدة من الدم ؟ كم من باكٍ بكى عليها من غير أهلها ؟

ونحن !! نحن الشرقيين !! نحن المصريين !! نحن العرب !! هذه أعظم جرائم التاريخ قد فتكت بنا وبرجالنا وبمجدنا ، وسلبتنا حتى العقل ، حتى الروح ، حتى الآمال والأمانى والأحلام ، من بكى علينا يومئذ ؟ ومن يبكى علينا اليوم ؟ أين هؤلاء الكتاب الذين فتنتهم باريس بالأمس وأبكتهم على لذاتها اليوم ، أين هم من تلك الصور الفظيعة المخيفة التى يعرضها عليهم التاريخ فى كتبه ؟ صور آبائهم وأجدادهم ، ومن يتبجحون بالانتساب إليهم والتحدر من أصلابهم ؟؟ وهم يتعذبون ويشردون ويطاردون بين خوافق السماء وفى جوانب الأرض !!! أولئك هم الغافلون : لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ، ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها .

ثم انظروا .. انظروا .. أليس الجنرال بيتان هو ابن فرنسا وابن باريس وابن المجد الفرنسى الذى توارثه عن أجداده وعن تاريخه وتاريخ بلاده . لقد قام الرجل الفيلسوف الجندى الحزين يصور للشعب الفرنسى... حقيقة حضارته التى كان سرها وخلاصتها وأجودها ممثلاً فى باريس . لقد وصفها صفة خالدة الميسم على الحضارة الفرنسية الباريسية ، حضارة اللذة واللهو ، حضارة المجون والعبث ، حضارة من يأخذ لذة ولا يعطى أمته فائدة ولا مجدا . لقد كان حكم بيتان على

قسوته حكما مشوبا بالملق لتاريخ حضارة أمته ، وإلّا فالتاريخ أَمْضَى حكمه على هذا الضرب الساقط من المدنية الخبيثة ولكن بيتان الرجل معذور فى ملقه ، لأنه فرنسى يحب فرنسا بدمه قبل أن يحبها بأفكاره وآرائه .

ولكن ما عذرنا نحن إذا قام كاتبنا .. وكاتبنا ... وكاتبنا ... إلى آخر هذه القائمة الطويلة ، يمجد تلك المدينة - باريس - التى حكمت بأسلوبها فى الحضارة على فرنسا بذل الأبد وعار الدهر . لاتقولوا إنا نذكر ونحن نسبح بخيالنا فى جمال باريس وفن باريس وعقل باريس وعلم باريس ... إن تمجيد باريس ليس إلا تمجيدًا لذلك النوع الفاسد من الحياة التى سلبت باريس وأم باريس الحياة . إنكم حين تتكلمون وتكتبون لا تذكرون شوارع باريس ولا حيطان باريس ، فإن ذلك كله لا نفع له إن لم يكن ذكركم لها ذكر الروح التى تحيى بها هذه المدينة العبقرية اللذات وهذه الروح هى التى أرهقت روح المدينة الفرنسية ومايشابهها ويلف لفّها فى التلذذ والشهوة والفساد .

يا أحبابنا ، ويا أصحابنا : إنى أكتب هذه الكلمات ، لكل من يقرأ ومن لا يقرأ ، ومن ينسى ومن لا ينسى ، ولكنى أعلم أنى أؤدى واجبى ، فليس يسوء أحدكم أن أكون له مخالفا ماكان خلافى عليه نصيحة له وحبا لهذا الشعب الذى يغذونى ويغذوكم بما تقوم به حياتى وحياتكم . فانظروا إليه أولا وانظروا إلى ماهو فيه من البلاء ، وخذوا من أحداث الدنيا مايكون لنظره عبرة ، ولرأيه فكرة ، ولروحه قوة ، ولمستقبله حافزًا . لاتبكوا ... لا تنوحوا ، فإن كنتم لابد فاعلين ، فابكوا له ، ونوحوا عليه :

موت بعض الناس فى الأرض على البعض فُتوحُ
فعلى نفسك نُحْ إن كنت لابد تَنوحُ

* * *

تجديد التاريخ المصرى ساعة واحدة

ساعة واحدة ، وتتوالد منها ساعات تلمع فى الأيام كبسمات النجوم فى قبة الليل . ساعة واحدة فى تاريخ الأمة ، وتأتى الساعات بعدها تنفث فى الشعوب رقى من السحر تجعل الساكن البليد الغافل شعلة متوقدة تتوهج من نشاطها وإقبالها وذكائها وحسن تصرفها فى المضيق المتلازم الضنك . ساعة واحدة ، وتنبعث حرارة الإيمان فى القلب حتى ما يدع شيئا إلا قهره وأذابه ورده بعدُ سبيكة من الجمال والحق والقوة والحرية والنبل . ساعة واحدة ، وتكون المعجزة قائمة على الدهر جديدة حية كالحياة نفسها .

هكذا يبدأ تاريخ الشعوب ، وهكذا يكون يوم يتجدد التاريخ القديم ليكون مرة أخرى على الناس فى عنفوانه كالموج المتلاطم لا يتفانى إلا ليكتسب قوته من تياره فيتجدد . وهكذا يقوم على الأرض بناء الحضارات من يوم أن كانت الأرض. وهكذا تتجلى فضائل الشعوب على الزمن الشعبى فتجعله فضيلة تاريخية متوارثة متبعة ، تقف الأمم إليها تقتبس من نورها هدى تمشى به خطاها فى تاريخ الأمم .

إن من يجهل حقائق الحياة الإنسانية العالية المتسامية ، يخيل إليه جهله أن الزمن إذا وقف بأمة فى مربط من الحيوانية التاريخية النازلة لا يمكن أن يمد لها مرة أخرى فى طِوَل [١] أو زمام ، وأن الحياة التى وقفت يصعب بعد ذلك أن يستمر مَرِيرها [٢] فتقوى على المشى المتعب ، وأن ساعات الاستبداد ، وعد الأنفاس ، ومراقبة الهمس ، والتوجس من النجوى ، والتفتيش عن أسرار القلب وخطرات النفس وخلجات العقل – هى ساعات من البلاء تمسك الحياة على ذلها وقلتها ، فلا تعز بأمر ولا تزيد ولا تكثر .

ولكن الحق يختلف بطريقته عن طريق هؤلاء الظانين به غير الحق ، فإنه

---

* الدستور – السنة الثالثة – العدد ٧٩٤ ، الجمعة ٦ جمادى الثانية سنة ١٣٥٩ – ١٢ يوليو سنة ١٩٤٠ ، ص ١ .

(١) الطِّوَل : الحَبْل .

(٢) استمرت مريرتُه : قَوِيَ واستحكم واشتد .

يمتحن الإنسانية بالاستبداد والتعذيب والمحاصرة وطول الحرمان وشدة البلاء ، ليخلص الحق بقوته من كل ضعف ، وإذا خلص الحق من رعاع الأخلاق وأنذال الطبائع وجبناء الغرائز ، انصلت كالسيف ما مس من شيء قطع ، وهو يومئذ لا يُغْلَب لأنه لا يَتهيّب ، ولا يذل لأنه لا يطمع ، ولابد أن ينتصر لأنه لابد أن يجنى .

هذا ، وإن تقصير أصحاب الصوت الذين يصلون بأصواتهم إلى أسماع الجماهير ، هو البلاء الذى يتفلت به تاريخ الأمة من أيدى الشعب ، فتضيع الفرص السانحة التى تعرض على الشعب مجدًا وعزا وحرية وبقاء وذكرًا حسْنا فى التاريخ ، فإن هذه الساعة التى وصفناها إنما هى اهتبال للفرصة وتعلق بها وحرص عليها ، ثم حسن التصريف والتدبير والأهداف إلى أغراض من المجد ، ثم حث للأمة على اليقظة وتنبيهها إلى علم الحقيقة التى تعيش فيها ، والحقيقة الأخرى التى ينبغى أن تعمل لها لتعيش بها .

فإذا عرضت للأمة هذه الساعة التاريخية الخاطفة ، فلم تجد أصوات قادتها – من أدبائها وشعرائها وكتابها ، وأصحاب الرأى فيها ، وذوى السلطان منها – فقد استحقت كلمة العذاب فى التاريخ ، وتأتى الأجيال بعد الأجيال لتقرأ فتعرف ، فتصب اللعنات على ماضيها وأهل ماضيها ، لعنات كأنها شواظ من النار مصبوب على السلف الذى فرط فى حقوق الأرض التى تغذوه وتربيه وترعاه وتحوطه ، وتجعل له نسبا ينتهى إليه وخلفا يستمر به حيا فى التاريخ .

ونحن اليوم قد وقفنا وعرضت لنا هذه الساعة الخالدة فى تاريخ مصر ، بل فى تاريخ العرب ، بل فى تاريخ الإسلام ، بل فى تاريخ الشرق كله ، واشتعل لها رجل واحد فأضاء عليها وجلاها كشفها لِكل ذى عينين مبصر ، وجرد معها نفسه للفداء والتضحية ... هذا هو على ماهر ، ولكنه آثر الرفق فلم يعنف ولكن الأمة التى فداها بنفسه لم تعرف بعد أن هذا هو يومها الذى تستطيع فيه أن تجدد تاريخ الشرق وتاريخ مصر ، وإن أكثر أصحاب الصوت فيها قد خرسوا وأَرَمُّوا [(١)]

---

(١) أَرَمَّ : جلس ساكنا لا يتحرك .

وسكتوا وأطبقوا أفواههم ، وخَنَسُوا فى جِحَر [١] الحياة المظلمة التى تخاف النور وتعشى ببرقه ، وتخشى فواضحه التى تكشف الضعف وتميز للناس الخبيث من الطيب .

إن هذه السكتة التى خاطت شفاه الثرثارين - كانوا - بخيط الرعب والفزع والحرص على شهوات العيش ، قد أضرت بمصر بل بالشرق ضررا نرجو أن لا يتلاحق أوله بآخره . نعم أنهم كانوا لعهدهم فيما مضى قد اتخذوا عقول الناس مطايا لما يشتهون ، فارتحلوها وركبوها بالشهرة والصيت ونبوغ الاسم ، فلما جاء يومهم يوم الجد والحزم ، وأن ينزلوا عن مراكبهم هذه ليترنَّموا بالحداء والغناء والنشيد ، فيبعثوا قلوبا حرة تستهدف للبلاء بإيمان وصبر وعزة وإرادة : استكانوا وهوَّموا [٢] وأخذتهم نعسة الخوف ، فارتاحوا بها واطمأنوا لها ، ورضوا بالحياة كما تقبل عليهم بعد ثورة وصخب وجَعْجَعَة من رأى وكلام .

إن سبيل التجديد الذى يطلب التاريخ منا أن نمتهدها ونسلكها ، قد انشقت لنا أوائلها وصدورها ، وقد بطل العذر وستموت المعاذير فى المستقبل ، فلم يبق إلا الإقدام وحده ، ولم يبق إلا تجريد القوة الكامنة فى أنفس الناس . فإذا أمكننا أن نبدأ وأن نتحرر فى البدء مما يعوقنا من الخوف ، وما يقطعنا من الحرص ، ومايقف بنا من الجزع - أمكننا أن ندير الأيام على مدار ينتهى بنا إلى الغرض الذى نرمى إليه .

فالصراع العالمى الدائر بين القوى الفكرية والأدبية والسياسية والحربية ، قد مهد السبيل لكل عامل أن يعمل ، وأعطى النائمين نصيبًا من اليقظة ، وكسر عن المقيدين بعض القيود التى كانت تعض على كل جارحة . فالعمل واليقظة والحركة فى هذا الأوان كفيلة بأن تورث الشعوب - إذا أحسنت حق استعمالها - قوة ومضاء وعزمًا ، لا ينثنى شىء منها لما يعترضه من الحوائل التى أوجبت بعض

---

(١) خنس : تراجع وارتد . وجِحَر : جمع جُحْرَة .

(٢) هوَّم : تملكه النعاس ، فسقط رأسه فوق صدره .

الظروف قيامها فى سبيل هذا المدد الحى الذى أمدت به شعوب الشرق فى ساعة التاريخ العظيمة .

وطبيعة الصراع قائمة على انتهاز كل فرصة عارضة واستغلالها بالمضاء والعنف والاقتسار وجعل أوائل الفرص إذا أقبلت على المصارع خاضعة للإرادة التى تتحكم فى الغايات التى ينتهى إليها فى صراعه . فعمل الشرق الآن عمل حقيقى لاوهمى ، والفرص العارضة له حقيقة مستمرة باستمرار الحالة الدولية التى نشبت فى أعصاب الأمم المتعادية المتنازعة على أغراضها وأطماعها ، وتاريخ الشرق منذ اليوم قد افتتح صفحة جـــديدة من كتابه ليثبت فيها هذا الشرق حقيقة الوراثة البعيدة التى جعلته فيما مضى حارسا على العقل الإنسانى وإنتاجه وعبقريته .

وسبيل الشرق إلى هذا التجديد فى تاريخه ، وسبيل مصر - وهى رأس الشرق اليوم - فى تجديد تاريخها ، هى طرح الأناة والغفلة والخمول ، واحتمال مؤونة العذاب فى العمل على إنتاج الشعب الذى يستعد بفطرته للدخول فى المعركة الحاسمة التى تقطع عهدا مضى عن عهد يستقبل . وسبيل ذلك أن نتعاون ونتظافر ونتظاهر على إحياء التراث القومى الذى لا يعرف المسامحة فى محاسبة أصحاب التهاون فى مصير أوطانهم ، وأصحابهم الحرص على منافعهم التى ينتهشونها من أيدى الجبارين والطغاة ، وأصحاب اللهو والعبث بروح الأمة وعقلها وحقائق وجودها .

وإن كل أحد منا قد أقامته مصر - أو أقامه الشرق - حارسا على ثغرة من ثغور البلاء ، وكتبت عليه أن يدافع دونها دفاع المستميت حتى الموت ، وأن ينذر بالعدو إذا أقبل عليه وأجلب [١] ، فإنما كل أحد منا طليعة لجيش أو ربيئة ، فلابد أن يكون فى عينيه ذلك الضوء النافذ الذى يخترق ظلمة المخارم [٢] والثنايا

---

(١) أجلب : جمع عُدَّته وحشد رجاله من كل وجه . الربيئة : الذى يعتلى مكانا يراقب حركة العدو وينذر قومه .

(٢) المخارم : الطرق فى الجبال ، جمع مَخْرِم .

ومجاهل الأرض وأن يكون فى حزون [1] ذلك الصوت القاصف الذى يجلجل فى الهواء بقوة وصليل ورعد وبرق وصواعق ولابد أن يكون بعد ذلك كله حيًّا قد وهب حياته للموت تحت البارقة فى كل ساعة وعند كل فزع لا يختلجه إلى الحياة سبب من أسباب العيش أو شهوة من شهوات البقاء فى لذة الدنيا ومتاعها .

هذه هى الدعوة الصحيحة إلى العمل عمل الأدباء والشعراء والكتاب وعمل كل ناطق من أهل هذا الشرق ، وكل مطيق لحمل هذا العبء الروحى الجليل ، وليس يغر الناس ما هم فيه من الضعف ، فإن كل ضعفة فى الإنسان مقتولة بقوة من إرادة الرجل إذا عقد العزم عليها ، وكل مخوف يبعث الرعب وينشره ويجلب له بالدعاية والأكاذيب وفوضى العقل المرسلة على لسانه ، يمكن أن تبددها صرامة رجل واحد يقف على رأس الناس يقول :

« ها أنذا فاعرفونى ! لقد كذبتم وتكذبتم !! » . إن هذا الرجل إذا صرخ بالناس بعد ذلك صرخة إلى الجد ، عمل بصرخته فى الناس ما لا تجد الأكاذيب معه بعد ذلك حياة تحيي بها لتستجيش الذعر لقتال إنسانية الإنسان الحى الذى يريد أن يعيش لوطنه وأمته ، جنديا يقاتل عنها ويحميها من عدوان الاستبداد والطمع ، ويحسم عنها شر الضمير المدخول بالوحشية الاقتصادية الغالبة على أمم هذا العصر .

إن العقل يجب أن يستبطن المعانى ليستطيع أن يطابق بينها وبين وقائع الحياة ، وفى كل كلمة معنى إذا اتصل سره بسر النفس ، اهتزت له وأقبلت عليه ، وجعلت تفسر به الحياة تفسيرًا واضحًا يقيم البناء على أساسه الحق ، أو يفتح الطريق إلى الغاية المرجوة . وإذا كنا اليوم لا نستطيع أن ندع ألسنتنا تنطلق بكل ما يحملها على الطلاقة ، فإننا نستطيع أن نجعل قلوبنا فى عالم واحد لا يتغابى ولا يتجاهل ، ولا يتعادى فى الحق ولا يتدابر ، ونستطيع أن نجد عند « الرجل » ما وجدناه قبل من القدرة على الاستعلاء على جبروت العناد الأحمق الشره ، الذى يريد أن يجعل قانونه فى المظالم هو القانون .

---

(١) حزون : جمع حَزْن ، وهى الأرض الصلبة المرتفعة .

إن الروح لاتموت ، لأنها تستمد سلطانها من سلطان الله ، وإن القلب لا يسكن ، لأن سكونه هو حقيقة الموت ، وإن العقل لا يؤسر أو يقيد ، لأنه حر لا يستعبد ، وإن الزمن قد أشرف بنا على مجد وعزة ، فينبغى أن نجدد تاريخنا القديم بمجد مستحدث مستجد .

* * *

أحلام مبعثرة

ليس يخفى على أحد لمن يتعاطى الأدب والشعر والفلسفة وما إليها من مادة الأفكار القلقة التى تعيش بأشواقها الظامئة إلى حقائق الوجود أن هذه الفنون الجميلة الرفيعة لا يتلقاها عامة الناس فى مصر إلا بالاستهانة والسخرية ، ومع أن من هؤلاء الناس من يجد الحاجة إلى تناول بعض هذه المواد العقلية من أصحابها فإنه مع ذلك يجد من رغبته إلحاحا يحمله على النظر إليها وإلى أصحابها نظرة الساخر المستصغر .

وعدوى الرأى والفكر حقيقة قائمة فى الطباع كحقيقة الجرثومة إذا التبست بالبدن المستعد لقبول المرض الذى تقوم به ، فالعامية الطاغية على الشعوب العربية فى هذا العصر تعدى جراثيمها كل متعرض لها ، فمن هنا كان كثير من طلبة الأدب ، ومن يجدون فى أنفسهم رغبة واستعدادًا وشغفا به ، ربما تناولوا المادة الأدبية بشغفهم من ناحية ، ولكن تغلبهم من الناحية الأخرى عامية العصر ، فلا يزالون ينظرون إلى الإنتاج الأدبى نظرة فاترة ، ساكنة باردة على الأغلب والأعم . وبذلك تقل حماسة الطالب لما يطلبه من الأدب ، وإذا قلَّت الحماسة ضَعُفَ النظر واختلج الرأى وضاعت حقيقة الأدب .

وإذا تم ذلك كانت هذه العدوى مؤثرة أثرا قويا بالغا فى أصحاب الإنتاج أنفسهم ، أى فى الأدباء ، فترى الأديب يتهالك فى أدبه بقدر ما يأخذ من جرثومة الداء العامى ، لأنه لا يستطيع أن يتخلص من روح الاجتماع الذى يتنفس فى جوه ، ولأنه أيضا يريد أن يتدلى إلى عامية الشعب ليكتسب لنفسه قراء أيا كانوا يشعر بنظراتهم وهى تجرى على كلامه الذى يكتبه من أجلهم ، ليجد صيته وشهرته عندهم حتى يرضى ويطفئ ما يتوقد فى نفسه من حب الشهرة .

* الدستور - السنة الثالثة ، العدد ٨٠٢ ، الأحد ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٩ - ٢١ يوليو سنة ١٩٤٠ ، ص ١ .

وهذه العامية العصرية فى الفكر والرأى والإحساس ، قد تناولت كل شيء فى الحياة الاجتماعية العربية ، حتى ما تكاد تجد معنى من معانى الحياة يتسامى عن الإسفاف العامى الهابط إلى أردأ ما تعرف من القبح والسماجة . ولو أردت أن أظهر لك قبح ما نتورط فيه من عامية العصر ، فذهبت بك إلى الأصل الذى لا يكاد يتخلى منه إنتاج أدبى صحيح : وأخص الشعر ، لرأيت أن منبع الوحى الأدبى فى عصرنا هذا ، منبع وحل قد تضرب طينا فى ماء فى حمأة فى عفن الحياة الإنسانية الرديئة .

فالشاعر حين يشتعل فى روحه ذلك السراج الإلهى الطاهر المقدس ، فيمشى بضوئه فى الأرض ليبدأ رحلته فى الأعماق النفسية الهائلة المرصدة لشاعريته فيتقدم إلى باب المعبد الروحى ، يجد هذا الباب قد دار به فى أقبح ما يتصور العقل من مستنقع طينى نازل زلق . فالمرأة باب المعبد : لا يزال الشعراء يعرفون بها طريق الحقائق العليا للوجود الأسمى ، فإذا بدأتهم بأوحالها فما يزال الشاعر على أوحالها ينزلق يرفع رجلا ويهوى بأخرى لا يكاد يستقر حتى على هذه الحقيقة الطينية الطبيعية .

وعامية العصر أعظم تمثلا فى المرأة منها فى الرجل ، لأنها بطبيعتها أقدر على مداورة الحياة الاجتماعية بأسلوبها الرقيق السحرى الذى اختصت به ودربت عليه وتفننت فيه ، فهى اليوم فى عاميتها ، وسوء تركيبها وقلة احتفالها بالعقل النبيل وغفلتها عن حقيقة ما يتطلبه شعبها من جهودها الصامتة التى لاتعرف إلا نظرة الحنان ، تلك النظرة التى تبعث بضعفها فى قلب الرجل أقوى القوة - أقول : هى اليوم قد نزلت بالأدب والشعر والفن نزولا عاميا كنزولها حتى ما ترى شاعرا يستطيع أن يسمو أو يتغلغل لأنه لايزال ينزلق فى الأوحال التى تسيل أمامه ومن خلفه وحواليه وتحت قدميه .

ولو ذهبنا نتتبع سائر ما يحيط بالأدب وأهله ، وما يجعل العوامل العامية أشد أثرًا فى كل إنتاج أدبى لطال بنا ما نتولجه من القول فى هذا الباب ، ولكنك إذا أَسْدَدْتَ النظر إلى هذا الأمر عرفت أن الحقيقة هى ما ذكرت لك ، وأن العمل

على التخلص من عوامل الضعف فى الأدب يحتاج إلى جهد هائل من الأدباء أنفسهم حتى يبلغ بهم جهدهم ، يريدون من تمحيص أدبهم ، وجعله مادة حقيقية تعمل فى الحياة عملا نافعا يشفى من داء العامية ليجد فى قوة الشعب قوة يمتلىء بها شبابا وعزما ليكون أجمل مما هو وأسمى مما هو .

وفى هذا الجو العامى يجب على الأدباء أن يبحثوا لأنفسهم عن أساليب جديدة لكفاح هذه الجرثومة المبيرة المهلكة لهم ولأدبهم ، وينبغى أن تبدأ الأساليب كلها من باب واحد يكون هو الأصل ، وهذا الباب هو باب الاعتزال عن المغريات التى تدفع الأديب لشهوة الصيت والاحتفال بذلك لتقوية الروح المقاتلة التى لاتعرف الهزيمة فى العمل دون الموت . فإذا تم ذلك للأديب - أو الأدباء استطاعوا أن يمحقوا جراثيم الداء فى كل مكان بالإرادة الصارمة والعزم النافذ .

ولكن الأدباء فى بلادنا ومن أهل لغتنا لا يحبون أن يأخذوا أنفسهم بالجد والاعتزام وطول الحرمان ومجاهدة الطبائع المعادية للواجب ، فهم ينساقون فى طريقهم على الهوى والهوادة ومتابعة الشهوات الغالبة ، ومحاباة العواطف المريضة ، التماسا للراحة بعد الإنتاج السريع . وبذلك لم يكن لأحد ممن نعرف مذهب يستقل به ويقوم عليه ، ويذب عنه بالروح القوية التى تحمله على التضحية بكل شيء فى سبيل المذهب الذى يعمل فى تمهيده وتطريقه للناس بعده ، وكذلك ليس لهم غاية يجد لها أحدهم القلق الدائم المستمر الذى يدفعه من كل ناحية إلى بلوغها وإدراكها والظفر بها .

من أجل ذلك أصبحت تجد أدب الأدباء وشعر الشعراء وفن الفنانين خطرات من الرأى أو الفكر أو الخيال ليس لها جامع يجمعها ، ولا رابط يربط بين متفرقها حتى يمكن أن يتكون من مجموعها للأديب الواحد - أو الشاعر الواحد أو الفنان الواحد - مذهب صحيح يفضى إلى غاية على ترتيب ونظام ومساوقة ، ومن أجل ذلك أيضا كان هؤلاء تمثيلا صحيحا لصورة الشعب الذى لا رأى له ولا مذهب ولا غرض ولا غاية ، ومن أجل ذلك أيضا صار الأدباء أتباعا للشعب لا قادة له ،

فمن أجل ذلك كله انتبذهم الشعب أو استقلهم وأنكرهم وسخر منهم ، لأن الشعوب لا تعرف بل لا تحب إلا صرامة الصارم وقوة القوى لأن الطبيعة والفطرة تدعو إلى البحث عن المثل الأعلى ، أى عن أحلام الشعب فى المثل الأعلى ، أى عن الأحلام المتمثلة فى قائد الجماهير ، وإلا فلا فضل لأحد على أحد مادام أمر القيادة قائما على المتابعة دون الاستقلال ، وعلى الممالأة دون العزم والإصرار والقوة .

وأنت لو تتبعت أدب الأدباء وشعر الشعراء ، لعرفت يقينا أن الألفاظ التى تقرأها ، فيها من كثرة الملل قدر ما فيها من قلة الجهد ، وفيها من الفتور أكثر مما فيها من عدم الفكر ، وأن أكثر ما تجده من الأفكار والأخيلة والأساليب ما هو إلا أحلام نائم لا حقيقة لها - أى لا رابطة بينها وبين الحقيقة ، وربط الأحلام العقلية بحقائق الوجود هى العمل الصحيح للأديب والشاعر ، فإذا تركا أحلامهما تضيع وتشرد وتند عن حظائرها من الحقيقة ضاع الأدب وبقى مبعثرا شاردًا لا قيمة له ، فإذا لم تكن للأدب قيمة ، فلا جرم أن يكون مدعاة للاستهانة ، ومظنة للسخرية والاستهزاء .

ونحن اليوم مقبلون على زمان من التاريخ لابد فيه من العمل المرهق والجهد المميت ، فواجب الأدباء والشعراء لا يتم إلا بنفض الكسل والخلاعة واللين والطراوة وقلة المبالاة ، ثم إقبالهم على الحياة بنشاط المجاهد المضحى ، لا بانبعاث اللاهى المتلذذ ، ثم إقدامهم على أفكارهم وآرائهم وخيالاتهم وأحلامهم بالنظر الخاطف ، والعقل المسيطر ، والتدبير الحازم ، والنظام المتساوق ، فإذا فعلوا فقد أنشأوا حكومة عقلية جديدة قوية من هذه الأحلام المبعثرة ، ويومئذ تنال هذه الحكومة العقلية الفائدة من احترام الشعب مايجعل الأدب ساميا أبدا ، حتى ما تستطيع العين إلا أن تنظر إليه طامحة سامية جادة ، فى مثل جده وسموه وطموحه ، وبذلك يصبح الأدب احتراما يتجلى لاهزأة تمحو ضوءها ابتسامة المبتسم وسخرية الساخر .

* * *

أهوال النفس

سبحان خالق نفسى !! كيف لذتها	فيما النفوس تراه غاية الألم ؟
الدهر يعجب من حَمْلِي نوائبه	وصبر نفسى على أحداثه الحُطُمِ [(١)]
وقت يضيع ، وعمر ليت مدته	فى غير أمته من سالف الأممِ
أتى الزمان بنوه فى شَبِيبته	فسرَّهُم وأتيناه على الهرمِ

فى ظل الأيام الصامتة الثقيلة ، وفى سوادها المظلم الممتد تحت غمام الحياة ، تتململ النفس من عنت وضيق وحيرة ، وتجد من أحداث القدر ما يتركها تتقلب على نار موقدة من أفكارها وأشواقها وآلامها ، وتتجمع من حولها أطياف ماضيها وأحلام مستقبلها ، ثم تتنازعها هذه الهاوية فى الأبد ، وتلك السابقة فى الغيب ، حتى تكون بينهما تتمزق بين جاذبين قويين متعارضين لا يضعف أحدهما فى قوته فتذهب النفس معه على وجهها إليه .

وفى هذه الحالة التى تدرك النفس يعيش أحدنا فى أنفاس من الجحيم والعذاب المستعر ، وتنشأ له فى جنون اللهب أحلام مفزعة حمراء الحواشى والأطراف ، تندلع فى تاريخ إنسانيته ، وتثبت فيه أثر النار التى تنضرم عليه فيكتوى بها وليس يستطيع أحد أن يخلص بنفسه من هذه الأحوال الفظيعة ، لأن سبيل الخلاص لا يمتد إليه من خارجه ، وما سبيل الخلاص إلا من النفس وحدها ، فإذا كانت هى التى تعيش فى حيرة وآلام مكفوفة عن قوة تفكيرها فى إطفاء النار بإيمانها ، فليس إلى نجاتها طريق تتخذه ، أو باب تنفذ منه .

وهذه الأيام التى نحياها فى دنيا الاضطراب العالمى المختبل المجنون ، تشعل تحت النفس تنُّورًا هائلا طعامه تاريخ الإنسانية كلها من لدن آدم إلى هذا اليوم ، وتملأ النفس أفكارًا كثيرة قد انطوت عليها ، فهى تغلى بها غليان المرجل

---

* الدستور – السنه الثالثة – العدد ٨٠٧ السبت ٢١ ، جمادى الثانية سنة ١٣٥٩ – ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٠ ، ص ١ .

(١) الحُطُم : جمع حَطُوم ، وهى النائبة تحطم الإنسان من شدتها ، والأبيات للمتنبى .

المصمت فلا يزال فى تفزُّع وتقلقل يتنزَّى بضغط البخار ، فلا يستقر ولا يرجى له أن يستقر .

إننا لا نفقد آمالنا فى الحياة إلا أن نفقد الإحساس بالحياة ، فنفقد الرغبة فيها ، ومادامت لنا فى الحياة رغبة أو شهوة ، فآمالنا أبدًا حية تتحرك بل تتجدد بل تزيد وتتكاثر ، وأيما أمل تعتاقنا عنه ضرورة لا نملكها ولا نُعْطَى القدرة على تصريفها كما نشاء - فهو أمل يتوالد آمالا كثيرة صغيرة تكبر وتتعاظم وبذلك نعيش العيش فى حالة تستجيش جيوشا حاشدة من الآمال تقاتل أحكام القدر التى لا تعرف إلا حقيقة الحياة الاجتماعية ، ولا تلقى بالا إلى الحياة الفردية المستأثرة الطامعة التى لا تشبع .

ولكن الفرد لا يستطيع أن يحقق وجوده ، ويستيقن من قدرته على العمل والإنتاج إلا باتساع فرديته اتساعا يعطيه من الحرية ما يكفل له إرضاء نفسه فى بعض آمالها التى يريد أن تتحقق ، فإذا استطاع الفرد أن يحقق بعض آماله تحقيقا كاملا ، استيقن من حقيقة وجوده ، فإذا استيقن من حقيقة وجوده بذلك ، كانت قدرته على الحياة أبلغ وأقوى وأمتن وبذلك يكون دائما ثابتا فى تقدير أعماله وإتقانها وإيجادها بالقوة الصارمة ، فإذا أمكن ذلك ، وجدت نفسه فى الحياة المضطرمة منفذا تستعين به على تلطيف الحياة أو تبريد السعير الملتهب الذى يكتنفها بألسنته المتكلمة بألفاظ من النار اللذاعة .

وإذا بدأ الإنسان يخفق فى آماله ، ولا يحقق من نوازعها العظيمة شيئا يسكن إليه أو يهدأ عليه ، كان إحساسه بنقصان حياته أو ببطلان وجوده عاملا ثائرا دائبا يجعله أبدا فى تعذيب من قوة النزاع الهائل بين الحقيقة التى تتطلبها فرديته وشخصيته وبين الأمر الواقع الذى يكفُّه عن الشعور بمعانى هذه الحقيقة فى نفسه شعورا واضحا بيِّنًا متمما لإنسانيته .

ولكن بعض النفوس تعيش مهما أخفقت فى إدراك تام لحقيقة وجودها وعلى يقين ثابت من أنها أحق بالوجود من النفوس الغبية الفاترة المتلذذة التى تعيش كما

تعيش البهائم ترعى حيث طاب لها المرعى . فهذه النفوس المستيقنة المؤمنة بحقها إيمانًا لا يتزعزع تبقى دائما فى تجديد لمعانيها وآمالها ولا ترتد عن أعمالها التى ينبغى لها أن تعملها ، وتمضى فى الحياة تتكلف أثقال العيش ، وتتوثب فى نيران الأفكار ، وتقاتل عن حقها قتالا لا يلقى السلاح أبدا إلا أن تفرغ الحياة من تحريك النفس بنفحاتها المنعشة .

وهذه النفوس لاتعرف كيف تستقبل أعمال الحياة فى بُلَهْنِيَة [١] من العيش المترفّه الناعم الرقيق ، ولكنها تريد أن تعرف كل ساعة كيف تغتصب أعمال الحياة اغتصابا بالافتراس والانقضاض والسقوط على رغباتها كما ينقضّ النسر على أفكار عينيه المتمثلة فى فريسته . فإذا أعطى القدر هذه الفرائس طريقا إلى النجاة من مخالبه ! لم يرتد هذا النسر إلى صخرته العالية إلا لينفض الجو بعينيه مرة أخرى ، حتى يقع بصره على أفكار جديدة تتخايل له ، ويبقى حياته على ذلك يعانى آلام الشوق المتضرم الدائم حتى تقول له الحياة : مكانك ، لقد فرغتَ فاسكن الآن !

وفى هذه الحالة المؤلمة تجد النفس شيئا كثيرا من المضض والحسرة ، ولكنها لا تضعف ، بل يزيدها الألم عنادا فى المطالبة بحق وجودها ، لإثبات شخصيتها فى داخلها إثباتًا صحيحا بالعمل ، أنتج العمل أو لم ينتج ، لا تبالى أى ذلك كان ، وعندئذ تكون فى جو من الأهوال القاسية الفظيعة التى لا تفتر ، وتعيش فى تهاويل من خيالها وأحلامها وآمالها ، وتنقض عند كل بارقة بقوة الحياة التى تندفع فى أنحائها اندفاع التيار الأعظم أمسك عن تدفقه لحظة ثم أطلق . أى شيء فى الحياة بعدئذ يستقر على دفاع هذا التيار ؟ وأى شاطئ عندئذ يستطيع أن يحتمل صدمات هذه الأمواج المجنونة ، وأى سد يحتمل الثبات فى وجه هذه القوى الهائلة المفزعة التى لا تلتفت وراءها ، وليس لها إلا الأمام يطالبها ويجذبها ويتطارد لها لتدركه بعنفوانها وطوفانها المجنون ؟

---

(١) بلهنية من العيش : أى تَرَف ولين ونَعْمَة .

إن الأعصاب التى يتكون من مجموعها إنسان هذه النفس ، تجد من الجهد فى ضبط الأمواج المنفجرة المتدفعة أشد ما يجد حيٌّ من الجهد ، ويكون العقل المدبر لهذه الأعصاب فى حالة لا يستطيع معها إلا أن يفقد هدوء التأمل الذى ينبغى له ويكون فى حياة صاحبه مادة جديدة لتعذيبه ، لأنه يُنْشِيء من هذا البحر أفكارًا جديدة يضع فيها مادة عقلية متفجرة ، لاتكاد النفس تتناولها حتى تنفجر ، فتزداد أمواجها ارتفاعا وثورة واضطرابا وتدفقًا ، وكذلك يتعاون العقل والنفس على إشقاء الحى ، وجعله بحرا من الآلام لايسكن ولا يطمئن .

هذا العذاب كله وهذه الحركة المستمرة فى أعصاب الحى ، وهذه الأمواج المتطوحة الصاخبة فى أودية النفس ، هذه كلها تعود فى حياة من يمارسها ويصبر عليها لذَّات متتابعة يجد فيها سموًّا وعبقرية وقدرة متجددة فى دمه ، لذات مؤلمة ، ولكنها تنعش النفس بالآلام ، لذات محرقة ، ولكنها تجدد الحياة بالحريق الدائم ، لذات على علاتها توجد للحياة اليائسة معنى من الآمال الحية .

أيتها النفس ، خوضى غمرة الحياة واسبحى ، فلن تعرفى حقيقتك إلا وأنت على الشاطئ الآخر ، أيتها النفس المعذبة ؟ انغمسى فى العذاب ما استطعت فإنك لن تستريحى إلا أن تجدى راحتك كلها فى القدرة على احتمال العذاب ! أيتها النفس ! أنت قوية الإرادة ، ولكن القدر أقوى إرادة منك .

* * *

وقاحة الأدب

أدباء الطابور الخامس

نحن لا نشك فى حقيقتين ظاهرتين متمايزتين متحزبتين بطبيعة الفطرة الإنسانية الاجتماعية . فالحقيقة الأولى هى مطالب الفرد لنفسه ورغباته وأمانيه وأحلامه . والحقيقة الأخرى هى : مطالب الجماعة المكونة من الأفراد على اختلاف نزعاتهم فى أنفسهم وخاصتهم . وكل عمل فردى لا يكاد يفلت أثره فى الجماعة ، وتوجيهه فى الحياة الاجتماعية عامة إلى جهة بعينها ، وخاصة إذا كان مرد أعمال الأفراد إلى قاعدة عامة تطلق لهم من الحرية ما يجعل أعمال الفرد استقلالا على طريقة المصلحة الفردية التى لا تحترم قيود الجماعة ، وقيود الجماعة عندنا هى المصلحة التى لاترقى بها هذه الجماعة المختلفة قوة وضعفًا ، ولؤما وكرما ، وعقلا وسفاهة ، وحكمة وضلالا . وأخطر الأشياء فى حياة الجماعات والشعوب هى القواعد العامة التى يأتى من تفسيرها وتوجيهها سيل طام متدفق من تيارات الأفكار المتنازعة التى تتنابذ ولا تتعاون .

فلذلك نحن نعد المبادئ العامة التى تسيرها أعمال الأفراد مستقلة عن الفكرة الاجتماعية الرحيمة التى تخاف سوء المغبة فى جسم الجماعة ، هى الأصل الذى يجب أن يمحص ويحقق ويضبط ، حتى لا تتنازع عليه الأهواء أو الشهوات ودناءات الأخلاق الفردية المستأثرة ، والتى تعيش بلذاتها قبل حقائق لذاتها . فإن طغيان الوحشية الفردية يفضى بالعالم إلى فوضى فى الجماعة لاتقاومها حسنات المجتمع أو مصالحه أو حقيقة حياته .

فأنت ترى من ذلك أن أهم ما يجب علينا أن نتوجه إليه ، هو ضبط النسبة بين حاجة الفرد المستقل باعتباره فردًا من جماعة مستقلة أيضا ، تريد هذه الجماعة أن تجتنب أكبر قسط بل أعظم كارثة من بلاء التشقق الاجتماعى الذى يأتى من وراء

---

* الدستور – السنة الثالثة – العدد ٨١٣ ، السبت ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٩ – ٣ أغسطس سنة ١٩٤٠ ، ص ١ .

القانون الذى يضبط دولة الجماعة ويقوم على حياطتها ، طلبا لإسعادها والترفيه عنها ، ووقايتها من التدهور الأدبى والعقلى والسياسى والاجتماعى .

وقد كان من بلاء المدنية الأوربية الفاجرة ، أن انفجرت فى الأخلاق الفردية انفجارا بعد انفجار حتى صارت مِزَقُ الأخلاق نثرا متطايرا لا يجمعه جامع يكون للجماعة – من صعلوكها إلى مليكها – جِماعا ومِلاكا واستحصادا ، يمسح عن آلام البشرية تلك الدموع الغزيرة التى تجرى تحت ظلام الأثرة والبغى والاستبداد والشهوات المظلمة فى نفوس مظلمة مثلها وأنشأت هذه الطريقة الدنيا من الشهوات المستحكمة الغالبة ، مبادئ يتخذها الأفراد شعارًا ، ثم جعلت تتخذها بعض الجماعات رمزا لحياتها ، ولكنها مع ذلك لا تعد نظاما لجماعة ، بل تبديدا لنظام الجماعة أو لما ينبغى أن يكون عليه نظام الجماعة .

فمن هذا البلاء ما يقوم فى عقول بعض المتأدبين من حرية الإنتاج الأدبى على أى صورة من الصور ، أى أن يدور الأديب بإنتاجه حول شهواته الخاصة التى يبثها أدبا فى أمته ، ويدعى مع ذلك أن هذه الحرية الشخصية فى نظرته إلى الحياة وأعماله فى الحياة ، وتصوير هذه النظرات والأعمال ، عمل أدبى حر يكفل له الناس الانتشار والذيوع ، وأن يدخل على الأحرار فى بيوتهم ، وعلى العقائل فى خدورهن الطاهرة وعفافهن النبيل ، وأنه ينزل على الأمهات والزوجات والعذارى وحيًا جديدًا من الفن الذى تضمن له فنيته حرية التغلغل فى حصون الأمة المقاتلة عن الذرارى والأبناء وكيان الشعب المولود للمستقبل .

ولا يبالى هؤلاء أن يكون فى داخل هذه الحصون الشعبية الهائلة معنى جديد يخذل القوى العاملة على إنشاء الحياة الاجتماعية إنشاء يضمن لها البقاء والاستمرار والتفوق والسمو بالشعب إلى القوة الحاكمة التى تدفع عن أرض الوطن بلاء الاستعباد . فإن الرجل إذا استعبدته الشهوة ، فهو يدور أبدا فى تصريفها مستعبدًا ذليلا لا يدفع عن نفسه إذا ما أوتى من هذه الحاسة المتلينة الخاضعة بطبيعتها لسلطان اللذة غير متورعة عن التدلى إلى الحضيض ، وغير حافلة إلا بالساعة الحاضرة العمياء المظلمة ظاهرا أو باطنا .

وإذا أفسد الأدب أول ما يفسد هذه الحصون فقد أمد الشعب بهلاكه ، وأدخل عليه هذه النوازع المحطمة ، وبث فيه سراياه وأعوانه من (الطابور الخامس) الذى يعمل على إيجاد حركة ارتداد تشقُّق وحَيْرة ووَجَل ، فإذا تم لهذا الطابور الخامس تمامه ، استولى على الأمة فمحقها بالفزع والتسليم والرضا بالخضوع والذل ، قبل أن يمحقها العدو بالآلة والسلاح والجيش الغازى .

وفى هذه الأمم التى لا تملك من سلطان القوة ما تسوغ به السيطرة على ميادينها فى صراع الأمم إذا تصارعت ، أى فى هذه الأمم الشرقية ، وأخص الأمة العربية ، يعيش هذا الطابور الخامس من الأدباء ، ويرى أنه قد أجاد المذهب والمسلك ، واتخذ لأمته أهدى السبيلين وخير المنزلتين . وعقيدة هذا الطابور الخامس أن حرية الفن يجب أن لا تتقيد بمصلحة الجماعة ، أى أن يكون إنتاج هذا الطابور على ما يثور فى أنفس أفراده من النزعات المستكلبة والنزغات المنفجرة فى أعصابه بروح الشهوات .

فالأدباء والشعراء خاصة يرون أن أدبهم وشعرهم لابد أن ينطوى على تلك المعانى النفسية النازلة التى تستولغ فى دماء الناس وأعراضهم المذبوحة بالآلات الحديدة الماضية التى لا تقاوم بالشهوات الغريزية المجنونة التى تضئ لأعينهم سراج اللذة المحرمة تحت جناح الليل ، بين الأخلاق المتهالكة فى حانات الفجور ، تستنقع بأحلامها وهذيانها فى كأس تفوح نشوة وتسيل عربدة ، ثم ماذا ، ثم يأتى هؤلاء فيدفعون إلى المجتمع نتاجا مركبا من جميع هذه الرذائل المنهوكة المخمورة ، ثم تتغلغل هذه المساخط كلها فى بيوت الشعب فى أوهام الزوجات البريئات ، فى عيون الفتيات الجاهلات ، فى أحلام العذارى المتأملات فى هدأة الحياة ينتظرن من وراء النفس والعقل تحقيق أحلام الفطرة الغالبة على كل حى فى هذه الأرض .

ثم يكون ماذا ؟ ثم يكون هذا التفكك والتخاذل بين الأوصال الشعبية التى يجب أن تتماسك وأن تجعل من تماسكها وارتباطها قوة ، وأن تنفث فيها روح الجماعة روحا سامية طامحة راغبة جادة تريد أن ترتفع بالجميع فوق شهوات

الجميع ، لتحقق للكيان الاجتماعى كله سيادة تامة على الأسباب التى يصير بها الشعب قوة عاملة على إيجاد السعادة للشعب وسلالة الشعب فى مستقبل أيامه وأعوامه .

فأدباء الطابور الخامس الذين اتخذوا لأنفسهم شعارًا من حرية الفن وحرية الأدب ، وحرية التعبير عن ثورة النفس المشتهية المستكلبة ، هم أعدى أعداء هذا الشعب المسكين ، وهم البلاء الماحق ، وهم الذل الحاضر والقيد الربوض ، وهم سفالة الإنسانية ، إذ كانت الإنسانية لاتستطيع إلا أن تنزل بهم إلى الحضيض الأوهد من الخضوع لسلطان الشهوة ، وهم الهلاك المحقق ، لأنهم سبب التفرقة إذ كان بناء أدبهم على الاستقلال الفردى المحض الذى لا يقدر للجماعة معنى الجماعة بل يأتيها بكل أسباب التمزيق والتعاند والخلاف بين القوى إذا تحررت فانطلقت فاتخذت كل قوة سبيلا مناقضا لاتجاه صاحبـــتها ، فتصبح قوى الشعب كلها فى نزاع دائم لا خير فيه ، بل فيه كل الشر وكل البلاء وكل المحق .

إن أحدًا من الناس لا يستطيع أن يفرغ دمه من معانى الشيطان ، لا يستطيع أن ينقى أعصابه من وراثة الغرائز الإنسانية القديمة الآتية مع الإنسان من الخطيئة الأولى لآدم صلوات الله عليه . وإن أحدا لا يعطى التحكم فى تصريف القدر على الوهم والأحلام ، ولكن الإنسان أعطى العقل ، وأعطى مع العقل الإرادة وأعطى مع الإرادة طبيعة التعاون وأعطى مع هذه الطبيعة نظام الجماعة فأعطى مع نظام الجماعة حقيقتين عظيمتين

فالحقيقة الأولى ، هى قدرة الفرد فى بعض حياته على الحياء وعلى التضحية ، وبذلك يستطيع أن يضع تحت أعين الجماعة قدوة حسنة ومثلا أعلى ، ينبل ويسمو ويترفع ويضىء فى الأجواء البعيدة بروح الجمال والحق . والحقيقة الأخرى ، هى سرعة استجابة الجماعة للمثل الأعلى بالاقتناع من ناحية والتقليد من ناحية أخرى ، وبجميع ذلك تستطيع الجماعة أن تجعل نظامها ساميا أبدا عظيما دائما ، متماسكا على مر الزمن .

فأدباء الطابور الخامس – هم كسائر الناس – يستطيعون أن يستخدموا العقل والإرادة وطبيعة التعاون ونظام الجماعة ، لإيجاد المثل الأعلى للشعب ، باذلين من أنفسهم تضحية واحدة ، هى أن يستحوا قليلا من الناس ومن أنفسهم ، وأن يجعلوا مصلحة هذا الشعب المسكين نصب أعينهم وعلى مد أفكارهم ، وأن يكونوا عاملين على إيجاد القوة فى بناء الأمة وإصلاح أفرادها ، لا أن يكونوا خبلا خابلا وفسادا ، ونزولا بالإنسانية السامية إلى الحضيض المظلم الذى تعيش فيه أرواح الشر المهلكة ، تلك الأرواح التى لاتريد من معنى الحرية إلا استعباد الآخرين للشهوات .

أما نحن فعلينا أن نحارب هذا الطابور الخامس قبل أن نحارب أعداءنا من غيرنا ، لأن هذا هو العدو الحقيقى الذى يخذل قوانا ، ويفسد استحكامنا ، ويحطم قواعدنا الحربية التى بنتها الأجيال من قديمنا الأول ، هذا الطابور الخامس هو من رسل المدنية الخربة التى تهدمت ، ولا تزال تتهدم ، وستتهدم فى ميادين القتال إلى هذا اليوم . فلنعمل جميعا على أن نكون من الفرق الواقية من دسائس الطابور الخامس .

* * *

قلوب جديدة

تأتى النائبة من وراء الغيب مسرعة متوهجة تتوقد ، ثم تنغمس فى الدم فتسمع الحياة نشيشها فيه ، وتضطرب الروح ، وتتفرق النفس ، ويتألم القلب ، وتتبعثر الإرادة ،ويحار العقل ، ويكون مع ذلك كله أمل ممض نافذ يجعل الحى يستشعر معانى الموت وهو لا يزال حيا بعد . فالمصيبة بطبيعتها توجد فى الحياة حركة سريعة طائرة مخبولة تخرج الحياة كلها عن دستورها ونظامها بعنف وقسوة ، فيعقب هذه الموجة المتلاطمة السريعة فترة خاملة بليدة تنقل الحى من جو إلى جو حتى يتسنى له أن يستقر ويهدأ . فإذا لم يقرر لنفسه هذا النظام الذى تتطلبه المصائب لم يزل فى موج واضطراب وفزع وحيرة ، وتتضاعف المصيبة الواحدة حتى تكون - من جراء عواقبها عليه - مصائب عدة .

وقد تنزل المصيبة بالرجل فينفتر لها ويتبلد عليها ، ويستنيم فى بعض أحزانها ولكنه لا يلبث حتى يشعر أن فى دَمِه أصواتا تتداعى فيه كما يتداعى الجند إذا تفرق على ضربة عدوه فى الميدان ، يجتمع المتفرق ويتألف الشاذ وتتضام القوى ، ويعود الأمر على أشده كأحصن ماكان . فإذا تداعى الدم ، وزأر القلب ، واهتزت الروح ، وأصاخت النفس ، وارتدت العواطف المنهزمة إلى مواقعها وحصونها من إنسانها ، وجد الرجل كأن قلبا جديدا قد انتفض فى صدره ، فنفض المصيبة وأعوانها نفضة الطل عن غصن مورق .

والشعوب كالرجال ، وأمرها كأمرها . والشعب إذا ابتلى ببلاء مصبوب عليه بمصائبه ونواكبه [1] ، يستطيع أن يسترد مايضيع من قوته فى تيار المصيبة ، وأن يستعيد شبابه الثائر مرة أخرى ، ولكن الفرق بينهما هو فرق ما بين الواحد إذا استقل ، والجمع إذا تعاون . فشرط الاستقلال الإرادة والنفاذ بها ، وشرط التعاون

---

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٨٢٠ ، الأحد ٧ رجب سنة ١٣٥٩ - ١١ أغسطس سنة ١٩٤٠ ، ص ١ .

(١) النواكب : جمع ناكبة ، مثل النكبة .

المشاركة بين الأفراد المستقلين بالإرادة والعزم ، والحرص على اجتناب التخالف ، واطراح الفرقة ، ونبذ الهوى والعناد على الهوى .

وأمر الشعب هو أغمض الأمرين وأشدهما وأحقها بالرعاية والنظر والتدبير ، فإن مصائب الشعوب قلما تكون فتراتها إلا جيلا أو أكثر يقع فى خلاله من النقص والتدمير والضعف وذهاب النشاط الحافز ، وطغيان الجهل المستبد ، واضطراب أمر الجماعة ونظامها إلى ماوراء ذلك ، يكون تحطيما كاملا لأكثر الإنسانية الشعبية ، وإذا تحطمت إنسانية الشعب فى المصيبة أردفت وراءها مصائب ، إذ يقع النسل إلى الحياة لتقتله الحياة بفتورها وبلادتها وقلة احتفالها ويتبدد ذلك النور الإلهى الذى يأتى مع المولود من وراء الغيب ، ويبدأ يمشى فى الحياة المظلمة بالبصر المكفوف عن النفاذ فى أسوار المستقبل .

وعلاج الشعوب فى هذه الحالات لا يتأتى ولا يمكن ولا يكون ، إلا بعلاج الأفراد أنفسهم ، وأخذهم بالجد فى تدبير الحياة والاستعداد لها ، وتحمل المشقات العظيمة فى سبيل إيجاد الفرد الذى يستطيع أن يجعل فى صدره قلبا جديدا أبدا بعد كل نازلة أو مصيبة ، والقلب الجديد المتجدد هو سر الشعلة الذاهبة دائما إلى السماء سامية طامحة ، مُطالبة بحقها فى السمو ، عالمة بواجبها فى إضاءة الظلمات المتكاثفة من حولها بنور جديد .

أما استكانة الأفراد وإخلادهم للراحة واستمتاعهم باللذة وإغماضهم فى طلب المنفعة الفرديه المستأثرة ونفضهم عن أنفسهم تكاليف النظر الاجتماعى الشعبى ، ودبيبهم إلى الغايات بالخطو المسترق من أسماع الشعب لا يبالون أن يكون هلاك غيرهم من أمتهم فى بعض مايجتلبون به قليلا من أسباب الحياة لأنفسهم ... فذلك كله جريمة بعيدة الأثر فى قتل الروح المعنوية للشعوب وفى إيجاد المثل الأسوأ للنسل ، بل هو سرقة صحيحة الشرط الذى يوجب عقابها . فالشعب كلٌّ كامل ، فكل جزء منه انتفع بشىء كان من حق الجميع أن ينتفع به على تقدير حق الانتفاع ، فذلك استبداد بحق الغير ، واستلاب منه لما يوجب الاجتماع أن يكون على صورة بعينها ولغرض بذاته ، وفى تسليمه بقدرتنا ، وفى موضع هو له .

وليست السرقة فى الحقيقة إلا هذا الضرب من الاستلاب ، فسارق الشعب يخون الشعب ويخون نفسه ويمنع غيره من الانتفاع بحق الحياة التى أوجدوا فيها جميعا ليعملوا لها جميعا متعاونين متظافرين .

وعدم شعور السارق المُغْمِض [(١)] فى سرقته المستطيل بها المصر عليها ، دليل قائم أبدًا على انعدام إحساس القلب فيه ، وإذا عدم القلب إحساسه - أى حركته فى الحياة - رق وتخرق وبلى وأخذه المَحْق من كل وجه ، فلا يمكن أن يعد فى القلوب ولا أن يجرى عليه حكم القلب الحى فى قبوله للتجدد والحياة المستأنفة من أولها مشرقة كميلاد الفجر مع كل صباح .

وإذا ابتلى الشعب ، ثم أخرج منه هذا البلاء رجالا كان من صفتهم ما ذكرنا من الاستكانة واللهو والعبث واهتبال اللذات على مدها وتطويحها ، كان هؤلاء بلاء آخر على الشعب ومستقبل الشعب ، وكانوا فوق ما وصفنا جثثا مطروحة على طريق الشعب تعتاقه عن مسيره إلى الغاية التى تنبغى له أن يسير إليها . وإذن فهو بين اثنتين : أما أن يطأ الشعب على جثث الشعب ، وإما أن ينتظر حتى يمتهد لأجياله طريقا آخر يكون فيه السير حثيثًا لا تقوم فى سبيله عقبات كهذه . وكلا الأمرين تعويق وتخذيل وإضاعة وبلاء من البلاء .

ومن ذلك ، فإن الحياة تأبى إلا أن تجعل لأحيائها أساليب كثيرة منها ينفذون ، فاليأس - من أن يكون فى هذه الجثث صلاح بعدُ - أمرٌ لا تكاد تقبله الحياة إلا بعد طول التجربة والامتحان ، ولم يبق إلا الأمل فى أن يكون إصلاح هذه الجثث وبعثها ، وإيجاد قلوب جديدة فى جثمانها ، أمرا مقاربا ممكنا مستطاعا يجب العمل له ، والحرص عليه ، والاحتيال فى تصريفه احتيالا صحيحا مدبرا يفضى بنا إلى الغاية منه .

وقد تسهل فى هذا العصر خاصة مالم يكن فى العصور الخالية ، فالطريق إلى إسماع الناس ودعوتهم وتنبيههم صارت أقرب وأسرع ، فالطباعة والصحافة

---

(١) أغمض فى الشيء : مضى فيه .

والمذياع وسائر أساليب الدعوة تمكن لصاحب الصوت أن يبلغ بصوته حيث أراد إلى من شاء على الوجه الذى يحب .

ولكن نشأت مع هذه الأشياء عوائق بقدرها جعلت الدعوة بهذه الطرق أقل أثرا مما يراد منها أو يرجى فيها ، ولم يكن وجودها فى الحقيقة إلا طريقا جديدًا لإفساد الأساليب الصحيحة فى الدعوة للإصلاح الكامل الذى يراد به تجديد القلوب ، أى تجديد حياة الشعب تجديدًا نفسيا عميقا ثابتا .

ومع هذا فما أحسب أن الأمر قد أحبط إلا من ناحية واحدة ، هى فقدان الصوت المستجاب فى كل قلب . فإذا وجد هذا الصوت للعالم ، فقد يتغير كل شىء ، ويصبح تجديد القلوب أمراً سهلا على صاحبه ومالك أمره والقائم عليه . وإذا أتت ساعة خلاص العالم من فتنة الحضارات المتجبرة الطاغية المتوحشة ، فقد يكون عمل العامل فى تجديد قلوب البشر هو الفتح الصحيح للتاريخ الجديد للعالم ويمضى عصر ويأتى عصر ، ويومئذ يقف لفظ واحد فى التاريخ ليدل على نوع الحضارة التى نعيش فيها ، فيسمى هذا العصر « عصر القلوب المتحجرة » .

« قلوب جديدة » : هذه هى غرض الحضارة الجديدة التى يتمخض عنها العالم اليوم ، فإذا عرفنا الغرض فما يصعب علينا أن يقوم كل أحد منا بالتجربة بعد التجربة لإيجاد قلب جديد فى صدره مكان قلبه المتحجر ، إن الشباب لا يضيع مع طول العمر ، ولكنه يضيع مع طول العبث ، والحياة لا تفنى مع شدة الجهد ، ولكنها تفنى فى شدة الغفلة ، والعقل لا يكل مع طول الفكر ، ولكنه يكل مع طول الاستخفاف بالفكر . وشباب الشعوب وجهودها وأفكارها هو الحضارة كلها ، وأصل الحضارة فى القلب الشاب العامل المفكر الذى لا يسكن ولا ييأس ولا يقسو حتى يتحجر .

فهل يستطيع العالم أن يبدأ التجربة على الانفراد ، فإذا جاء الداعى للحق بالحق ، وجد أعوانه لإنشاء القلوب الجديدة فى كل مكان فى الأرض .

* * *

من أحلام الفجر

القلم المعطَّل

بقيت أسابيع وأنا كالسجين المعذب فى وحدة الغربة ووحشة التشريد ، وكنت أجد المعانى فى نفسى وفى قلبى وفى أفكارى ، وكأنها ظاهرة على لسانى ولكنى إذا جئت إلى القلم أحمله لأكتب وجدته صامتا جافيا نابيًا عن أوراقه ، ثم أتحامل عليه أقسره على المطاوعة فإذا هو حائر عَيِيّ تَمْتام متردد لا يفصح ولا يُبِين ، وعجزت عن علاج هذا العجز الذى لحق بأنيسى وصاحبى وكاتم سرى ، والمخبر عن نفسى ، والمبين عن معانى روحى ، فلما أعيانى وغاظنى وهدد حولى ، وبدد حيلتى ، لجأت إلى الكتاب أستخبره وأستنبئه وأطويه وأنشره ، وصرفت أوقاتى فى القراءة .

وأقبل على يوم كاللعنة المرسلة حائرة طاغية ماحقة ، ولم أجد ملجأ ولا ملاذًا ولا مغيثا حتى جاء الليل يؤنسنى بسواده ووحشيته ، فلما ضقت انصرفت إلى بيت كتبى فجعلت أتلفت حائرًا لا أدرى ما آخذ وما أدع ، حتى استقر بصرى على كتاب أسود مظلم موحش مضطجع على صف من الكتب ، فأخذته وانصرفت إلى غرفة نومى أملأ بحديث هذا الجزء من كتاب « الحيوان » للجاحظ فراغ الليل الساكن الموحش .

أيتها النجوم الخاشعة المشرقة فى معبد الزمن السرمدى ! أنت دائما أنسى وراحتى وصديقى ، ولكن الكتاب أيضا صديق يحدثنى حديث العقول الناسكة المضيئة فى معبد العقل الأبدى . أفتأذنين - أيتها النجوم ! - أن أخلو إلى شيخى أبى عثمان ساعة من ليلك أسمع فى صمت كتابه صدى لسان المتكلم من أقصى الماضى ؟ قولى نعم ! وخلاك ذم .

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٨٥٤ ، الثلاثاء ١٤ شعبان سنة ١٣٥٩ - ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، ص ١ .

وأضأت مصباحي وبدأت الجزء أقرؤه حتى شغلنى عن أحاديث نفسى ، وردنى إلى شيخى أطوع ماكنت له ، وأعقل ماكنت عن بيانه .. كل هذا جيد يا أبا عثمان ، ونعم صاحب الرأى كنت ! وإنك والله ماتخلو – أيها الشيخ – من لسان ناطق مبين متدفق حتى حين تكتب ، فما أقرأ لك إلا رأيتنى أجد الألفاظ تنفذ عن بصرى إلى نفسى إلى عقلى إلى أوهامى التى أسمع دبدبة صوتك المتكلم فى جوف دمى . ما أنت يا – أبا عثمان – إلا رجل محدث منطلق فياض اللسان ، خفيف الروح ، قليل البطء فيما تحاوله وما أظنك تكتب شيئا كما يكتب سائر من يتعاطى الكتابة ويعمل لها ويتحامل عليها ، وما أحسبك إلا كنت مغلوبا على قلمك ، قد غلب اللسان المتكلم فن القلم الصامت . هذه حروف كتابك تتردد على بياض الورق وكأن ترددها صدى صوت يتذبذب فى جو الهواء ... هكذا كنت أقول كلما وقفت على جملة من الكتاب أسكن عندها سكون المتأمل .

وقطعت الكتاب حتى أفضيت إلى هذه الحكاية ... قال أبو عثمان : قال الأصمعى : قال رجل لأعرابى : كيف فلان فيكم ؟ قال : مرزوق أحمق ! قال : هذا والله الرجل الكامل !

ألقيت الكتاب ، وجعلت أسمع إلى أبى عثمان وهو يردد : « هذا والله الرجل الكامل » ! أجل إن الحماقة المرزوقة من جهود العقل ومتاعبه وعبقريته وتفانيه هى التى تعيش فى الناس ظاهرة حاكمة غالبة مستولية على الأمد فى السلطان والحكم والسيادة ، وإنك لترى الرجل أو المرأة وما لهما من فضل إلا الغنى ، وأنهما على ذلك لأهل كل جميل وإنهما لغاية كل طامح ، وأنهما لَلْقوة الكاملة التى تفيض على مايطيف بهما روعة وجلالا ...

استبدت بى الرغبة ، وألحت إلحاح العناد ، أن آوى إلى سريرى بعد وَهْدَة . فأطفأت المصباح ، وجعلت أتقلب قليلا قليلا ، وأنى لأرى هذه النجوم فى جوف السماء زاهرات مضيئات متلألئات ، كأنهن عذارى ألقين زينتهن على الشاطئ ثم

انغمسن فى لج البحر إلا ما عفا [١] البحر عنه من إهابهن الرقيق المضئ المتبلج .. أيتها النجوم السعيدة الضاحكة أبدًا ! حدثينى بأفكارك الجميلة المتجددة ! إنك منذ الزمن القديم ، وأنت أبدًا تنظرين إلى الأجيال وهى تموج فى أشعتك على هذه الأرض فى تيار القضاء والقدر ، منذ الأزل البعيد والدنيا تتفانى تحت نظراتك الهادئة الساخرة .. أف لك يا أبا عثمان ! لماذا وضعت الأحمق المرزوق - هذا الرجل الكامل - بينى وبين هذا الجمال العتيق الذى يروى لعينى لمحات الإشراق الإلهى عن أقصى الأجيال الفانية الغابرة ؟

وجعلت قصة أبى عثمان عن الأعرابى تنتشر فى نفسى ، وتتسرب فى سراديب عميقة تحت الظاهر الإنسانى المتجسد ، وطفقت تأخذ فى كل سرداب معنى جديدا ، أو تثير معنى قديما ، أو تدفع معنى ساكنا ، حتى وجدت فى أفكارى سطوة البعثرة التى تنفض النفس وتطيرها فى وجوه كثيرة . لقد خرجت هذه القصة من معناها إلى معان أخرى كثيرة تتعادى وتتطارد وتغيب فى كلمات الفكر البعيد ... وأجهدنى ذلك إلى أن سبحت الروح فى لجة الليل ، واستيقظت الأحلام .

وحضرنى أبو عثمان ، فجاء من بعيد ضاحكا متسرعا نافضًا ، وهو يعب عباب البحر ، حتى دنا ثم سلم وجلس وأقبلت عليه بين يديه ، فبدأت أستمع إليه وهو يروى ويقص وينشد ، ويخرج من باب داخلا فى باب ، وهو خلال ذلك يتنادر على شيوخه وأصحابه ومريديه ، ويحدث بكل غريبة وعجيبة ونادرة عن الأوائل وعن رجال العصر ، ويروى من طرف الأخبار ما لم أسمع به ولا وقفت عليه .. حتى إذا هدأ قلت : يرحمك الله يا أبا عثمان ! إنى والله لفى تعب من طول ما أرحت نفسى وأرحت القلم : وما بدأت أكتب إلا وجدتنى كالمغشى عليه من فرط ما يتوقف القلم ، وإن فى النفس من الحديث ما يعيى القلم بقليله فضلا عن كثيره ، وإنك لتقول فى بعض كتابك :

---

(١) عفا : من العفو ، وهو الفضل ، يعنى مالم يستره البحر من أجسادهن ، فكأنه تفضّل على الناظرين بما أظهره ولم يستره .

« وينبغى لمن كتب ... أن يعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعترى المؤدِّب عند ضربه وعقابه . فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة !! لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع ، فأراه السكون أن الصواب فى الإقلال ، فلما ضرب تحرك دمه ، فأشاع فيه الحرارة فزاد فى غضبه ، فأراه الغضب أن الرأى فى الإكثار ، وكذلك صاحب القلم . فما أكثر ما يبتدئ الكاتب وهو يريد مقدار سطرين ، فيكتب عشرة » .

وإنى والله لأ عزم وأهم وأثور وتغلى المعانى فى نفسى ، وأحمل القلم ، وآخذ مجلس الكتابة ، أعد العدة ، وأريد مائة سطر ، فما أجاوز سطرا أو سطرين ، ثم كأن القلم قد اعْتُقِل [١] ، وكأن الفكر قد بطل ، وكأن الذى قد كان لم يكن !

فنظر أبو عثمان ، وإن الضحك لفى عينيه ، ثم قال :

من زمنك أتيت - يابنى ! أنكم لتعيشون - أيها الكتاب - فى زمان غير زمانكم ، وأن أحدكم ليحمل من قلمه عبئًا ثقيلاً ، كعبء من وقع فى الصحراء يضرب فى أرجائها ، وما يحمل فيما يحمل إلا ثيابا وزينة ومتاعا وفنونا من الحضارة . وهو كان أحوج إلى زاد يزوده ، إلى تمرات فى جراب وماء فى إداوة [٢] ، وعصا يستعين بها على بعض أمره .

إنكم لفى زمن أهون شيء عليه القلم ، وإن الصباح ليخرج عليكم من جنبات الأفق بشهوات كثيرة تجعل الحياة عندكم عملا فى استخراج أسباب المتاع باستخراج الدينار والدرهم ، وإن الليل ليظل عليكم بشهوات أخرى تجعل الحياة إفناء لعمل النهار ، فإذا كان نهاركم إحياء الدينار والدرهم ، وليلكم إفناء الدينار والدرهم ، فأين تجد يابنى عمل القلم ؟ وأين تجد من يبالى بعمل القلم ؟

إذا أردت - يابنى - أن تعيش بقلمك فى زمانك هذا ، فاحمله حين تكتب

---

(١) اعتقل (بالبناء للمفعول) : حُبِس عن حاجته .

(٢) الإداوة : إناء يحمل فيه الماء كالمزادة .

على أنه أداة لاستخراج الرزق من الحياة ، كما يحمل صاحب الفأس فأسه لاستخراج الرزق من الأرض ، أما إن حملت القلم على أنه أداة البيان ، وآلة العقل ، وزينة النفس ، وسر الطبيعة المركبة فى سر الإنسانية ، فأنت والله تحفى قلمك ، وإنك لتبدأ عاملا جاهدًا مشتعلا ، ثم لا تلبث أن تمل ، فإذا مللتَ فما أيسر أن تنطفئ .

ولتعلم – علمك الله الخير – إن فرق ما بين القلمين فى هاتين الإرادتين ، كالفرق بين من يحمل السيف على أنه آلة النصر غصبا وحربا ، ومن يحمله احتياطا ، حتى إذا وجد الدنيا تضيق بسلمه وحيلته ورفقه ، فما يجد إلا أن ينصب السيف ، ثم يحرر ذبابه [١] إلى قلبه ثم يتكئ عليه حتى يموت انتحارًا . فأنت إذا حملت القلم تريد البيان ، ولا تريد من قلمك إلا البيان : لا تحفل رزقت به أم لم ترزق ، فقد كتب عليك أن تبقى فى شقاء القلم وتعبه ، حتى إذا طالبتك الحياة بحاجاتها وضروراتها ، فزعت وتلفت ودرت ودارت رأسك حتى تعلم أن القلم استخدمك فى بيانه طائعا ، وأنك لاتستطيع أن تستخدمه فى أسباب الرزق طائعا ولا عاصيًا . فإذا مضيتَ على ذلك لا تبالى واحتملت شقاء الضرورة وكابدت طغيانها وأبيت إلا القلم وحده مبينا كاملا عادلا ، فقد أبيت إلا أن تنتحر .

إن صاحب القلم كصاحب العقل ، فإذا أبى صاحب العقل أن يخضع عقله فى الحياة لبعض غرورها ، وأن يجعل فى عقله مكانا لحماقاتها ، شقى بالنقص فى حياته إذ رضى بالتمام فى عقله . فإذا أبى صاحب القلم أن يتهور ، فى بعض ماينخسف من أبواب الكتابة ، وأن ينحط فى بعض الأودية الغامضة البعيدة عن طهارة البيان الحقّ ، فما بد له من أن يتهور وأن ينحط فى سعير الحيرة والقلق والضيق والشقاء المريض ...

وأنا أسألك : كيف تجدك تشقى وتعانى وتتألم ، ولا تزال من فزع إلى فزع ، ثم تجد القلم إذا حملته وأنت على هذا البلاء – مطيعا ريضًا سهلا سمحا

---

(١) الذباب : حَدُّ السيف وطرفه .

لا يشمس [١] بعنان فى يدك ؟ إن القلم أداة البيان ، ولكنه أداة تريد رضاها من صاحبها ، فإذا أقبلت عليها وأنتَ تحمل الهم وتتكفأ به كما تتكفأ السفينة المثقلة الموقرة على ثبج الموج ، لم تستقم لك نصبتها التى تجعلها أداة صالحة للعمل على صورة يعينها .

فإذا أردت - يابنى - إلا القلم النبيل الذى لا يتهور ولا ينحط ، فامنع نفسك واحْفَظْها وحُطْها ، وتدبر لها ، وترفق بها ، ولا تمسك القلم إلا وقد علمت أنك قد نفيت عن نفسك الهم والخبث ، ونكد الدنيا ، وشقاء الحياة ، وضرورة العيش ، ثم اعمل له عمل المجاهد لا يبالى أن يموت ، إذ نفى عن قلبه نوازع الحياة ، فإذا فعلت فقد نفثت فى هذا القلم المعطل روح السمو التى لا يمكن أن تنزل ، وإن القلم يومئذ لهو أطوع لك من الحبيبة فى هوى من يحبها ، إذا أفضت الروح إلى الروح ، وبقى الجزء الأرضى فى أوحاله أسيرا ممنوعا مكفوفا عن عمل الشر الذى هو طبيعته وسر طبيعته .

إن القلم الأحمق الذى لا عقل له هو القلم المرزوق - يابنى - وإن الأقلام أشبه بأزمانها منها بأصحابها ، وإن زمنكم ...

ثم انتفضت جالسا إذ خيل إلى أن قنبلة تكاد تسقط علينا من السماء فى أزيز الطائرات .

* * *

---

(١) يشمس : يجمح ، وأصله فى الفَرَس .

اللغة والمجتمع

أدق تعريف للغة وأوجزه . فيما أعلم ، هو ماجاء فى كتاب الخصائص لابن جنى من أنها : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » ، وهو على إيجازه مغن عن التفصيل ، ومصيب حد المقطع فى الخلاف ، ومساير لمدارج اللغات منذ نشأتها الأولى إلى أن صارْت أوضاعًا محفوظة يقاس عليها . ففيه تحديد الصوت ، وهو أصل الكلام المنطوى كله ، وفيه ذكر الجماعة ، وهم القوم الذين يتفاهمون بينهم بهذه الأصوات المختلفة ، وفيه ذكر الأغراض ، وهى حاجات المجتمع الذى يتفاهم بتلك الأصوات المعينة وهذه هى حقيقة كل لغة فى كل زمان وفى كل مكان وبين كل جماعة .

ولما كانت أداة الصوت ، وهى الحلق واللسان وما يكتنفهما ، هى بطبيعتها مختلفة فى الناس على تباينهم منذ كان الناس ، وكانت الأعراض والعلل التى تلحقها تزيد الاختلاف كثرة وشدة ، كانت الأصوات المعبرة عن الأغراض عرضة للتباين والاختلاف أيضًا . ولامراء فى أن الحلق واللسان وعملهما فى النطق خاضعة لقانون طبيعى كالقانون الذى اكتشفه الإنسان وأصدر عنه أكثر آلات الموسيقى على اختلاف تركيبها ، وعرف بذلك كيف يبتدع الأصوات ويقلدها ويفسد منها ويصلح .

وكذلك الجماعات أيضًا خاضعة لقانون - أو قوانين كثيرة - تجعل لكل جماعة دستورًا أو دساتير تجرى عليه فى كل شأن من شؤونها ، وتفضى بها إلى غايات أو نتائج لا محيص عنها . وهذه القوانين تنشىء من الأغراض - أو تنشأ هى من الأغراض - ماتصبح به الجماعة فئة ذات حضارة مدنية على اختلاف الدرجات .

فمن أجل ذلك كان لابد للغة من قوانين تسير بها وتتغير على قواعدها طبقا لما يلحق أداة التعبير نفسها من التغير والتباين ، وبحسب ماتخضع له الجماعة من

---

* مجلة الكِتاب ، المجلد الثانى ، سنة ١٩٤٦ ، ص : ٣١٠ - ٣١٣

تطور إلى علو أو سفل ، وتبعًا للأغراض التى تقتضيها طبيعة التبدل التى هى سنة من سنن الله فى الحضارات والمدنيات . ومن أجل ذلك نشأ علم جديد يبحث عن هذه القوانين التى تشمل طبائع الألسنة المختلفة فى العصور المتطاولة ، وهو الذى فى شأنه ألف الدكتور وافى كتابه « اللغة والمجتمع » .

ولاشك أن علماء العربية القدماء لم يؤلفوا فى هذا الباب كتبًا قائمة برأسها . وليس معنى هذا أنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا من هذه القوانين التى انتهى إليها بحث المحدَثين . كلا ، بل كان فى كتبهم ما يدل على أنهم ألموا بأطراف من هذه القوانين وساروا فى بعض أبحاثهم سيرة من يدرك حق الإدراك طبيعة تلك القوانين ومقتضياتها . ولكن كل ذلك من عملهم كان شيئًا مبعثرًا فى كتبهم وفى مطاوى كلامهم ، ولم ينتهوا إلى إفراده بالتأليف على النسق الذى انتهى إليه المحدَثون ، وتركوا لمن يأتى بعدهم جهد الإبداع فيما أشاروا إليه أو ألموا به ، وكان من أعظم من تعاطى القول فى بعض ذلك فى تضاعيف كلامه ، فيما أعلم ، الجاحظ أولا ، ثم أبو على الفارسى ، ثم تلميذه إمام العربية أبو الفتح بن جنى ، فى كتاب « الخصائص » ، وفى كتاب « سر صناعة الإعراب » ، وفى كتاب « المحتسب فى شواذ القراءات » بيد أن انتثار القول هنا وهنا يجعلنا نقضى بأنه لم يكن عندهم « علمًا » ولا « فنًّا » ، بل كان بابًا من المعرفة غير مضبوط ولا محصور ولا مترابط .

أما العلماء المحدثون – من غير أهل اللسان العربى – فقد تدارسوا ما يختلف على اللغات أو أكثرها من تغير وتبدل على مدى عصور متطاولة ، فانتهوا إلى شىء كثير من هذه القوانين التى يخضع لها اللسان فى أمم كثيرة ، وصارت اللغات عندهم ظاهرة من الظواهر الطبيعية تدرس على حدتها ، دراسة استقصاء للأطوار التى مرت على مفرداتها ونحوها وإعرابها وبيانها . أما عندنا فى العربية فقل ما ألف من الكتب فيها وندر من شغل نفسه بتتبع مثله فى مدارج العربية من أول أمرها إلى يومنا هذا . ولعل رجلا أو رجالا لوتتبعوا ذلك فى بلاد العرب كلها أن يهتدوا إلى كثير من وافى هذا الفن فيسدوا بذلك إلى العربية فى العصر الحاضر خيرًا كثيرا فى

إصلاح تعليمها ، وتيسيرها على أهل العصر ، وتبسيطها لهم حتى يدرك منها الرجل من عامة الناس ما لا يزال يجد العوائق دونه جمة مستعصية .

وقد أراد الدكتور وافى بكتابه « اللغة والمجتمع » أن ينقل إلى العربية صفوة ما انتهى إليه الرأى فى شأن القوانين التى تسير عليها لغات الأرض قاطبة من حيث هى إحدى الظواهر الاجتماعية على اختلاف ألسنة البشر والناطقين بها . وقد قسم دراسته هذه ثلاثة أقسام : الفصل الأول فى تطور اللغة وارتقائها . والفصل الثانى فى صِراع اللغات بعضها مع بعض . والفصل الثالث فى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

ففى الفصل الأول طوى المؤلف جمهرة العوامل والمؤثرات التى تعمل فى تطور اللغة من حالة إلى حالة أعلى أو أسفل ، وهذا الفصل هو أهم الفصول فى أمر اللغة ففيه تكمن العوامل الاجتماعية والأدبية والطبيعية واللغوية التى كان لها أكبر شأن فى تحول اللغات من لهجة إلى لهجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، ومن لغة إلى لغة . ودراسة أسرار هذه العوامل ودراسة آثارها بعد الاستقصاء والتحقيق ، لها خطر أى خطر – لا فى معرفة التطور اللغوى وحده ، بل أيضًا فى استخراج أشياء من اللغة نفسها بعد تطورها تتيح للباحث أن يقف على أحوال الشعب الذى كان يتكلم بها ، من حيث الحضارة والثقافة والأدب ، والأخلاق ، وسائر أسباب مدنيته ، وتكشف له الغطاء عن علاقاته بالأمم التى جاورته أو احتلته أو عقدت بينه وبينها أواصر الرحم والقربى ، وما كان بينهما من تبادل الثقافات والتجارات والفنون وما سواها .

فمعرفة القوانين التى تخضع لها اللغات فى تطورها أمر لاغنى عنه لمن يريد أن يصور تاريخ الأمم الماضية بصور أقرب إلى الواقع . فما أكاد أرتاب فى أن علم التاريخ وحده علم « قاصر » لم يلم كل الإلمام بما ينبغى أن يشتمل عليه من الحالات الاجتماعية السائدة بين الناس ، والتى لها فيما أظن أكبر الأثر فى حضارة الأمة ، ولعل أثرها فى ذلك أعظم وأخطر من أثر الأحداث التى عنيت أكثر كتب التاريخ بجمعها واستيعابها .

وقد أتى فى هذا الباب طرف مما يتعلق بآثار هذه القوانين فى اللغة العربية ، غير أنه جاء عرضًا ومن ناحية الاستدلال وحده على صحة القانون الشامل لسائر اللغات . وأظنه يكون أجدر بالأستاذ أن يفرد لمثل هذا الشأن كتابًا يتتّبع فيه العربية ولهجاتها واختلافها على العصور وفى البلدان المتباينة . وذلك لأن إدراك ذلك فى اللغة التى يعرفها القارىء أتمَّ معرفة ، يكون أقرب وأسهل منه فى لغة أجنبية عنه ، قلما يتاح له أن ينفذ إلى تاريخ ألفاظها نفاذًا يعينه على حسن فهم الموضوع الذى يعالجه المؤلف . وليس فى الذى أقول غض من شأن الكتاب فى ذاته ، بل هو نقص فى المكتبة العربية نحب أن يسده من كان أهلًا له وقائمًا به . وقد رأيت الدكتور وافى حسن التهدّى إلى أشياء من ذلك فى كتابه ، فلذلك أحببت له وللعربية أن يتولى تأليف كتاب يغنى القارىء العربى عن كثير من فضول القول فى لغات لا يسهل عليه أن يضطلع بعبئها مستقلًّا ، والفائدة التى تهدى إليه من مثل ذلك خليقة أن تحفز الهمة إلى إنجازه .

أما الفصل الثانى وهو صراع اللغات ، من ناحية نزوح العناصر الأجنبية إلى بلاد فيها لغة قائمة ، ومن ناحية تجاور الشعوب المختلفة الألسنة ، ومن ناحية العلاقات التجارية والثقافية والأدبية ، فهو أقرب إلى دراسة تاريخ اللغات وماكان من أمرها بين الحياة والموت وبين الغلبة والهزيمة ، وكيف يتم أحد هذين الأمرين للغة على أخرى ، وماهى الأسباب المفضية إلى هذه العاقبة . ومعظم هذه الأسباب كما قال المؤلف نفسهُ تردّ فى أخراها إلى العوامل الاجتماعية التى عالج بحثها فى الفصل الأول ، بل هى فى الحقيقة شىء لا مفر منه فى العالم الاجتماعى كله .

وأما الفصل الثالث : وهو تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات ، فهو عندى من أقوم فصول الكتاب . ولو كنت مؤلفًا فى مثل ذلك لبدأت بهذا الباب أو بأكثره ، لأن اللغة الواحدة تتشعب من أول نشأتها إلى شُعَب من اللهجات قبل أن يلحقها التطور اللغوى الذى بينه المؤلف فى أول كتابه . فعندئذ تتشعب مرة أخرى بعامل من العوامل الكثيرة التى تصطلح عليها حتى تستقل لهجة عن لهجة فتصير إحداهما لغة ثانية . والقوانين التى تخضع لها اللغة فى انشعابها إلى لهجات

هى أصل القوانين التى تخضع لها فى انشعابها فى لغات ، وهى أشبه شبهًا بالقوانين التى تفضى إلى تطورها وارتقائها أو انتكاسها . والمؤلف فيما أظنّ كان عارفًا بذلك كل المعرفة ، لأنه قدم فى أول هذا الفصل ما يفهم وأنه كالملحق بالفصل الأول ، وجاء فى أثناء كلامه مايجعل الشبه بين الفصلين أقرب ما يكون . ولعل الذى دعاه إلى تقديم الأول وتأخير الثالث خطر التطور اللغوى فى تاريخ الألسنة ، وخفاء شأنه فى انشعاب اللهجات . وهذا رأى ، ولكنى أميل إلى الذى قلتُ به .

هذا عرض الكتاب ، رأيت أن أقتصر فيه على هذا القدر . بيد أنى رأيت المؤلف كان يقف من بعض الآراء التى ينسبها إلى أهلها موقف البصير المتعقب ، فكان فى أكثر الأحيان موفقًا غاية التوفيق ، وكان فى أحيان قليلة يميل به كرم طبيعته ترجيح رأى قال به عالم كانت بينه وبينه مودة سابقة ، أو لعلى مخطىء ، فيكون هو من صاحبه أنفذ بصرًا وأهدى فهمًا فى حقيقة ما كان يقول به ، غير أنه فى حجاجه كان مبينًا كل الإبانة عن حقيقة رأيه .

وبقى فى الكتاب أشياء كثيرة أخرى لم نتعرض لها بالنقد ولا بالتوضيح ، لأن ذلك يقتضينى أن أكتب فيها كلامًا قائمًا بنفسه ، فإن موضوع اللغة متشعب تشعبًا يجعل المرءَ أمضى قلمًا فى باب التوسع ، فلذلك آثرت أن أطوى ذكرها حتى يحين حينها ، ونعود إلى بقية آراء المؤلف فى سائر كتبه الأخرى ، ليكون الموضوع أملأ بالرأى وأَقْوَم بالحجة .

هذا ، ولابد لقارىء الكتاب من أن ينتهى إلى رأى لا محيص عنه : هو أنه لابد من دراسة اللهجات العامية فى البلاد العربية كلها دراسة تبويب وتقسيم وفهم ، ولابد من رد كل طارىء على هذه اللهجات إلى الأصول القديمة التى لا تزال باقية متوارثة فى سلائق الشعوب التى تنطق بالعربية إلى يوم الناس هذا ، وأن نجعل أكبر همنا أن ننتهى إلى معرفة هذه السلائق المشتركة بين العرب على اختلافهم . فإذا وقفنا على ذلك وعرفناه تمام المعرفة ، تيسر لنا أن نَنمِّى هذه السلائق ، وأن نعلمها العربية على هدى من قوانينها الثابتة ، وبذلك تجرى العربية

يسيرة سهلة على الألسنة ، ونصير فى مندوحة عن الخضوع للقوانين التى جعلت اللغة العربية الأولى تنشعب فى ميادين المحادثة إلى لهجات متباينة ، على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها والاحتفاظ بوحدتها ومحاربة مايطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف (كما قال المؤلف فى ص ١٣٢) . بل نقلب الأمر ، ونجعل هذه القوانين خاضعة لسيطرة علماء العربية فى تيسير أمرها على متعلميها من أهل اللسان العربى والسليقة العربية . وكفى بهذا غرضًا تبذل فى سبيله كرائم الجهود والآراء .

* * *

أوطانَ

فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى وأوائل القرن العشرين ، كانت العربية قد بلغت من الانحلال على ألسنة أهلها مبلغًا ليس بعده إلا موت اللغة واندثارها بتةً واحدةً ، لولا كتاب واحد كان كالديدبان على مصير هذه اللغة ومصير أهلها – هو القرآن ، إذ كانت فى كل بلد عربى لهجة عامية تختلف عن عامية أخيه ، بيد أن القرآن ظل هو اللغة المشتركة التى يتفاهم بها هذا الجيل المختلط من العرب ، وظلت لغته هى الرباط الوثيق الذى يمنع هذه الأمة العربية من أن تنتشر وتتفرق وتنقطع بينها أسباب التفاهم .

وفى هذا العصر نفسه كان الشعر العربى ، فى هذه البلاد المختلفة والأوطان المتباعدة ، خليطًا عجيبًا من الركاكة والعبث بالألفاظ وبالمعانى وبالعقول ، فكان مصيره أيضًا إلى الاندثار ، لولا رجل فرد جاء كالقدر الغالب لينقذ الشعر العربى من أن يصير رِمَّة بالية فى تاريخ الأدب ، هو محمود سامى البارودى الذى نشأ على سليقة العرب الأوائل ، فطرح الركاكة واللهو بالألفاظ ، وانتحى الجزالة وقوة الأسر فى العبارة فى شعره ، أو فى التعبير عن حقيقة ما يدور فى نفسه « هو » من المعانى التى يحس بها إحساس الشاعر ، وإن كان يسلك أحيانًا طريق تقليد القدماء فيما لم يحس به ولم يعرفه ، كبكاء الديار والأطلال ما إليه من خصائص شعراء الجاهلية وصدر الإسلام . فكانت نشأة البارودى فى ذلك العصر إحياء للعربية وللشعر العربى لم نقدره إلى اليوم حق قدره . فلولا كتاب الله ، ثم لولا ما شاء الله من هداية البارودى الشاعر إلى حقيقة نفسه وإلى حقيقة الشعر ، لما صارت العربية إلى الذى صارت إليه اليوم ، حتى لو بعث الجاحظ ، وبيننا وبينه أكثر من عشرة قرون ومئتى سنة ، لما أعجزه أن يفهم عن العقاد والمازنى وطه حسين من كتاب هذا اليوم ، وعن محمود حسن إسماعيل وعلى طه من شعرائنا المعاصرين .

---

* مجلة الكِتاب ، المجلد ٤ ، سنة ١٩٤٧ ، ص : ١٥٦٦ – ١٥٨٧

وفى هذا العصر نفسه ، بلغت فورة الاستعمار الأوربى ذروتها ، وغمرت الشرق والغرب العربى أمواج طاغية متدافعة من البغى والعدوان والعصبية الفاجرة ، وأصبح العرب من أطراف مراكش إلى أقاصى العراق غرقى فى لجج الاستعمار الأجنبى ، ثم لا يجدون شيئًا يتشبثون به إلا الإيمان ، وإلا أنهم قوم بُغِى عليهم و « على الباغى تدور الدوائر » ! أى أنهم كانوا مستسلمين لعقوبة القدر التى نزلت بهم ، وكان مع الاستسلام الذهول والتشتت والحيرة والضلال عن الطريق السوى ، طريق الحرية .

وفى هذا العصر أيضًا ولد رجلان قدر لاسمهما أن يكونا أعلى الأسماء فى شعراء مصر والبلاد العربية ، هما شوقى وحافظ ، ولد أولهما فى سنة ١٨٦٨ وولد الثانى فى نحو من سنة ١٨٧١ ، أى قبيل اليوم المشئوم فى تاريخ وادى النيل وتاريخ العرب قاطبة ، إذ تم للغزاة البريطانيين أن يطؤوا ببطشهم أرض القاهرة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ . فنشأ الرجلان فى حقبة من الدهر كان البلاء فيها محيطًا بالأرض التى ولدا فيها وبسائر بلاد العربية . وكان البارودى يومئذ قد نفى إلى جزيرة سيلان بعد أن استسلم للغزاة كما استسلم إخوانه من رجال الثورة العرابية ، وخلا بِغَيْبَتِه ميدان الجهاد من شاعر يؤرث أحقاد أمته على الغزاة ، أو يرفع لعينيها أهدافًا نبيلة سامية تندفع إلى بلوغها ، أو يملأ قلوبها أشواقًا إلى التحرر من طغيان الغزاة وغطرستهم واستبدادهم .

وقد فُتِن هذان الشابان بالشعر منذ حداثتهما وطلبا أن يكونا شاعرين مذكورين كما كان إمامهما البارودى ، فإن البارودى كان قد حطم ذلك الوهم الراسخ الذى لم يزل يملأ قلوب الشعراء هيبة تحجم بهم عن الطمع فى بلوغ مرتبة الأوائل القدماء فى الشعر : من قِبَلِ لغته وجزالتها ، ومعانيه وجدّتها ، وأغراضه وحداثتها . فأرهف هذا المثل الحى إحساس الشابين ، فانطلقا يطلبان الشعر من معادنه الأولى كما فعل البارودى : طلباه من دواوين شعراء الجاهلية وصدر الإسلام إلى ما وراء العصر العباسى . وتم لهما ما أرادا ، فأجادا اللغة وتتبعا ألفاظها ، وحرصا على اختيار جيد الكلام واحتذاء مِثَاله فى أغراض عصرهما ،

حتى صارا شاعرين لا تنزل ديباجة كثير من كلامهما عن ديباجة شعر العصر العباسى ، ولكنهما وقعا فى أشد مما وقع فيه البارودى ، فكانا كثيراً ما يقلدان شعراء هذا العصر فى نهج شعرهما ، وفيما لم يحسا به ، وفيما لم يعرفاه على وجهه من تاريخ تلك الحقبة من حضارة الدولة العربية ، فصارا يستعيران من كلامهم وأسلوبهم ما ليس يغنى شيئًا فى مثل عصرهما ، وإن شئت فقل : ما ليس له معنى فى هذا العصر .

ولما استقاد لهما الكلام العربى السليم ، نظرا فأبصرا سبعين مليونًا من العرب يرسفون فى أغلال الاستعمار الأوربى ، ومن ورائهم خمسون مليونًا ومئتا مليون مسلم من أهل القرآن يرسفون فى هذه الأغلال أيضًا ، وفى أغلال مثلها من الجهل والتفرق والتنابذ والتدابر والعصبية الجاهلية . ثم تلفتا فإذا مجد باذخ عريق كان لأسلاف هذه الأمة من خلق الله ، ولأوطانها التى تعيش فيها - مجد يضرب بجذوره إلى آلاف من السنين فى مصر والشام وبلاد العرب والعراق وتونس ومراكش والجزائر وتركيا وفارس والهند وما والاها . ولم يلبثا أن سمعا صوت جمال الدين الأفغانى ، وهو يدور فى أرجاء الدنيا ليوقظ هؤلاء المسلمين من غفواتهم ، ويحملهم على فضّ تلك الآصار التى ضربت عليهم . ثم لم يلبثا أن سمعا الصيحة الأولى فى أرض مصر والسودان - صيحة الجهاد والتحرير التى انبعثت من قلب الفتى مصطفى كامل فى نحو سنة ١٨٩٠ ، ورددتها جنبات الوادى ، واستيقظ على رَوْعتها ذلك الجيل المستسلم بعد فُجَاءَة الاحتلال . فانتبه هذان الشابان وتسمّعا ، فإذا صيحات أُخَر تدوى فى نواحى الأرض العربية والأرض الإسلامية كلها ، داعية إلى التحرر من ضراوة الاستعمار الأوربى ، ومن البطش التركى ، ومن الجهل المستبد الجاثم على هذه الشعوب ، ومن الخوف الذى يقبض الهمم ويُغلّ النفوس . وإذن فقد نشأ هذان الشاعران فى زمن كل ما فيه يدعو الشاعر إلى أداء الفَرْض الأول على أبناء الوطن ، وهو الجهاد ، فماذا كان من أمرهما ؟

* * *

كان من البديهى أن ينبعث هذان الشاعران إلى باب من الشعر حقيق بأن يسقط عنهما عبء الجهاد العسير فى السياسة أو فى الثورة أو فى الجماعات السرية التى تعمل لاستنقاذ الوطن الأصغر وهو مصر والسودان ، وتحرير الوطن الأكبر وهو ديار العروبة والإسلام ، كما فعل رجال كالأفغانى وتلاميذه ومن جاء بعدهم . وهذا الباب من الشعر هو الذى يؤثر الكتاب أن يسموه الشعر الوطنى أو الشعر القومى . وقد عرف الرجلان ذلك وأراداه ، وأدركا أن عليهما فرضًا وطنيًّا لابد من أدائه على وجه من الوجوه ، ولذلك كثر فى شعرهما ما قالاه فى المناسبات الوطنية قديمها وحديثها . وليس عليك إلا أن تتصفح ديوان شوقى ثم ديوان حافظ ، فتعلم أنهما شاركا مشاركة تامة فى ذكر الأحداث السياسية العظيمة التى عاصراها . وكان حقًّا عليهما أن يعرفا أن هذا الضرب من الشعر إنما هو جهاد فى سبيل بلادهما وفى سبيل سائر الأوطان العربية والإسلامية ، وكان حقًّا عليهما أن يحرصا عليه حرصًا شديدًا ، لأن الأمم العربية والإسلامية كانت يومئذ تتحرك وتغلى ، وكان وطنهما مصر مُهَاجَر كل مضطهد ومأوى كل مهضوم ، وكانت هى نفسها تغلى غليانًا شديدًا عميقًا لقرب عهدها بنعمة الحرية المسلوبة فى سنة ١٨٨٢ ، ولأن الغاصب كان يومئذ جبارًا متغطرسًا شديد الوطأة ، لم ينشِّئْ بعد ذلك الجيلَ المستكين إليه ، العاملَ على مرضاته ، القانعَ بالوظيفة ، الراضىَ بخسيس الجهد فى خسيس الرزق .

وهذا الضرب من الشعر الوطنى الذى قصداه أو ظنا أنهما قصداه كان بلا ريب شيئًا جديدًا عليهما وعلى الشعر فى زمانهما ، فهل استطاعا أن يعرفا طريقهما إلى إنشاء أسلوب لهذا الشعر غير الأسلوب الذى درج عليه شعر الحماسة وشعر المناسبات .

أما « حافظ » فما أظنه فعل شيئًا ولا كان فى طوقه أن يفعل شيئًا ، ولذلك قصر شعره على المناسبات يقول فيها ، وكان قليل المحصول من تاريخ هذه الدنيا ، فاتر النفس فى عالم مضطرب ، مُسْتَغْرَقًا فى همم صغارٍ لا تنزع به إلى ثورة ولا إلى تحريض على ثورة ، وكان إلى آخر حياته حريصًا على أن يكون مكفىّ

الرزق ، فإنه – رحمه الله – قد لقى عنتًا شديدًا من ضيق ذات يده فى نشأته وفى صباه وفى أكثر شبابه . ولكنه لم يخل شعره أحيانًا قليلة من إحساس وطنى يدفع الشاعر أن يقول شعراً فيه نفحة من الوطنية ، ولكنه شعر على غير نهج وإلى غير هدف ، بل كان إذا جاءه القول قال . واستقر فى نفسه أن ذلك حسبه من الشعر الوطنى فيما يظن ويتوهم .

وكان فى حافظ عيب آخر ضلله وزاغ به عن طريق الحق ، ووقع به دون الاهتداء إلى النهج الذى يكون به الشاعر صاحب شعر وطنى أو قومى ، فقد كان إنسانًا مذعور القلب فى غير ذعر ، قليل الحمل للمشقة وتكاليفها ، كثير الشكوى والتبرم من أهون شيء ، فكان إذا جاءه شعر فيه شيء يخشى أن يؤخذ عليه ، آثر السلامة فطواه وأبى أن ينشره ، كما روى ذلك أكثر الذين عاصروه وصاحبوه ، ولما نشر هذا الشعر بعد وفاته كان أفرغ من أن يخافه إنسان من عامة الناس فضلا عن شاعر من خاصة المجاهدين ! ثم إن هذا الذعر فى غير ذعر كان يحمله على اختيار مناسبات يقول فيها شعرًا تبرأ الوطنية منه ، ولا يقوله إلا شاعر متكسب أو خائف أو مقتول إن سكت ، كان يقوله وهو يعلم كما نعلم أنه لن يأتيه بخير كثير ولا قليل ، ففيم كان عناؤه وكده ذهنه إذن ؟ فأى شاعر اهتدى إلى الحق يخطر على باله أن تموت ملكة بريطانيا التى كان زمنها بلاء مصبوبًا على بلاده ، فإذا هو يرثيها ويعزى قومها الذين غزوا بلاده وساموها الخسف ، وأى خسف ؟ هو الخسف الذى شهده حافظ بعينيه وأبصره بباصرتيه ! ونشر هذا الرثاء الغث فى يناير سنة ١٩٠١ ، والذى لن يسمعه أحد إلا قومه المساكين ، وهو كان يعلم ذلك حق العلم ، ولذلك يقول فى أولها : « أعزى القوم لو سمعوا عزائى » ولو سمعوا عزاءك لفعلوا ماذا أيها الشاعر الرقيق القلب ؟

ثم لما ماتت ملكة بريطانيا التى تعرف فى تاريخهم باسم فكتوريا ، ولى المُلْك بعدها فى يناير سنة ١٩٠١ إدوارد السابع ، فإذا الشاعر المصرى ينبرى بعد أكثر من عام فينشر فى أغسطس سنة ١٩٠٢ ، يهنيء ملك الغزاة البريطانيين بتتويجه بقصيدة مطلعها (١ : ١٨) :

لمحتُ من مصرَ ذاكَ التاجَ والقمرَا　　فقلتُ للشعر هذا اليوم من شعرَا
يا دولةً فوق أعلامٍ لها أسدٌ　　تَخْشَى بوادرَهُ الدُّنيا إذا زأرَا

فى كلام كثير هو على غثاثته مدخول مرذول ، فأى رجل هذا الذى يقول لأبناء أمته إن الدولة المحتلة لبلادكم دولة ذات بأس تخشاه الدنيا ؟ وأى تثبيط هذا ؟ وما الذى دفع هذا الرجل إلى أن يقول ما قال ثم يشفعه بما هو أرذل منه وأشد تثبيطًا ، إذ يقول لبريطانيا :

مَنْ ذا يُنَاوِيكِ والأقدارُ جارِيَةٌ　　بما تشائين ، والدُّنيا لمن قهرَا
إذا ابتسمتِ لنا ، فالدهرُ مبتسمٌ　　وإن كشرتِ لنا عن نابِهِ كشرَا

ألستَ خليقًا أن تقول كما قال القائل الأول : « لا والله لا يخرج هذا الكلام من قلب سليم أبدًا » ؟

ثم ندع شيئًا كثيرًا من أمثال هذا وننظر ، فإذا يوم « مشئوم » آخر فى تاريخ مصر يفجع الشعب المصرى كله ، وتتسامع به الدنيا وتقشعر له الأبدان ، حتى أبدان الإنجليز أنفسهم ، لشناعته وشناعة آثاره ، هو يوم دنشواى الذى لم يشهد العالم يومًا أفظع منه وحشية ولا اعتداء على الإنسانية . وكانت هذه الحادثة خليقة أن تنشىء رجلا لم يقل الشعر قط فيكون شاعراً يملأ رحاب الدنيا تفجعًا ونداء وتحريضًا على تقويض دعائم البغى والطغيان ، أما إذا كان الرجل شاعرًا وطنيًا ، فكانت حقيقة بأن تبعثه بعثًا جديدًا فيجرِّد شعره للحرية والجهاد والمصابرة على البأساءِ والضراء ، حتى يوقظ نيام قومه من غَفَلاتهم ، وينفض المخاوف عن قلوبهم ، ويجيش هممهم للصِّراع الذى لاتنطفىء له جمرة أو تنطفىء جذوة الحياة فى أبدانهم ، ولقد وقعت هذه الكارثة فى ١٣ يونية ١٩٠٦ ، وحافظ يومئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أى فى فَوْرة الشباب والعزم والقوة ، ودوى صوت مصطفى كامل كأنه الرعود القاصفة فى السحاب العرَّاض فى الليلة المظلمة ، فماذا كان من أمر هذا الفتى الشاعر الوطنى ؟ إنه استفتح قصيدته بهذه الكلمات الرقيقة وبهذه السخرية اللطيفة التى يقول فيها (٢ : ٢٠) :

أيها القائمون بالأمر فينا　　هل نسيتم ولاءَنَا والودادَا

ثم لاتنس أنه يخاطب الإنجليز ويذكر لهم ولاء مصر ووِدادها !!

خفِّضوا جيشكُم وناموا هنيئًا وابتغوا صيدكُمْ وجوبوا البلادَا
وإذا أعوزتكُمْ ذاتُ طوقٍ بين تلك الرُّبَى ، فصيدوا العبادَا
إنما نحنُ والحمامُ سواءٌ لم تغادر أطواقنا الأجيادَا

ثم يطلب من الطغاة إحسان القتل إذا ضنُّوا بالعفو ، وأنه لا يليق بالقوى أن يتشفى من ضعيف أسلم إليه قياده ، ثم يقول :

إنّ عشرين حجّةً بعد خمسٍ عَلمتنا السكون مهما تمادَى !

إلى آخر ما قاله فى هذه القصيدة ، وهو كلام لا غناء فيه ولا يمكن أن يعد فى جيد الشعر الوطنى ، فإن فيه من المغامز ما لا يقوم له شيء من عذر أو سواه ، بل أكبر من ذلك كله أن هذا الفتى الشاعر لم يلبث أن نشر قصيدة أخرى فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٦ يستقبل بها اللورد كرومر عند عودته من مصيفه بعد حادثة دنشواى (٢ : ٢٢) يقول فى مطلعها إنه لا يريد بها شيئًا أكثر من أن يعاتب اللورد ويقول له « علمتنا معنى الحياة » ، ثم لا يزال يفيض فى كلام رقيق سهل حتى يقول له ويذكر ولاء المصريين للبريطانيين !!

رفقًا عميد الدولتين بأمّةٍ ضاقَ الرجاءُ بها وضاق المذهبُ
رِفْقًا عميد الدولتين بأمّةٍ ليست بغير ولائِها تتعذّبُ
كن كيف شئتَ ، ولا تَكِل أرواحنَا للمستشارِ فإن عدلَكَ أخصبُ
فاجعل شعاركَ رحمةً ومودّةً إن القلوب مع المودّةِ تكسبُ

إنها نصائح غالية يهديها هذا الفتى الشاعر الوطنى إلى الغازى المتغطرس الذى لم تسلم من شروره زاوية فى أرض مصر ، لكى يكسب قلوب المصريين وينال مودتهم وإخلاصهم له ولبريطانيا ، فما أعجب وما أغرب !! ثم هل يكتفى هذا الفتى ويمسك لسانه عَن القول ؟ كلا بل هو يبسطه أشد البسط فى أوجز قول وأخصره ، يصف قومه وما هم عليه فيقول للورد العظيم :

وإذا سُئِلتَ عن الكنانة قُلْ لهم : هى أمّةٌ تَلهو وشعبٌ يلعَبُ
واستبقِ غفلتَها ، ونمْ عنها تَنَم فالناسُ أَمثال الحوادث قُلَّبُ

« هى أمة تلهو وشعب يلعب » ! لم تكن لحافظ مندوحة عن أن يقول هذا القول ، فإنها عادة « سيئة » من عاداته لم يزل يرددها فى شعره ما استطاع ، كأنه ترك هجاء الناس ووكل بهجاء هذه الأمة ، لتكون كلماته عونًا للغزاة حين تذيع وتثبت وتجرى بها ألسنة الجهال والمنافقين وشذاذ الآفاق الذين نزلوا مصر مع الاحتلال البريطانى . وقد كان ذلك ، فمن منا أخطأه أن يسمع هذا المثل المضروب !! مرات كثيرة فى كل مجال قول أو دفاع عن مصر ؟ وأقول عادة ، لأن حافظ قد أطال الطعن فى هذا الشعب على غير هُدًى ، فإذا كان يريد به إيقاظ النفوس ، فيا سوء المسلك الذى سلك ، وإلا فهو يريد الطعن وحده ولا شىء غيره . وهو فى سنة ١٩٠٤ قبل دنشواى يقول : (١ : ٢٥٦)

فما أَنت يا مصر دارَ الأريبِ ... ولا أَنـتِ بـالـبـلـد الـطـيّـبِ

يقولون فى النشء خيرٌ لنا ... ولَلنَّشْءُ شرٌّ من الأجنبِى

وكم ذا بمصرَ من المضحكاتِ ... كما قال فيها أَبو الطَيّبِ

وشعبٌ يفرُّ من الصالحات ... فرار السليم من الأجرب

أيجوز لى أن أعلّق على هذا الشعر بشىء إلا أن أقول إن حافظا نفسه كان أشد على مصر من هذا النشء الذى ذمه ، وأنه ابن هذا الشعب الذى يفر من الصالحات ؟ ولست أدرى كيف أنتصف من هذا الرجل ، فإن كل كثير فى أمره قليل . وهو بهذا الكلام وأمثاله قد نفى عن نفسه خيرًا كثيرًا كان هو أحوج الناس إليه فى حياته وبعد مماته .

ولست أدرى أيضًا ما الذى كان يحمل حافظًا ، حتى بعد أن جاوز الأربعين واستقر عيشه وصار رئيسًا للقسم الأدبى بدار الكتب ، على أن يرمى بنفسه فى غمار هذه الأشياء التى تجلب عليه المذمة والنقيصة ، فإن كان يطلب الرزق فقد كفى الرزق ، وإن كان يطلب الترقية ليزداد شيئًا إلى شىء فقد كان له سبيل غير سبيل الشعر . ويخيل إلىّ أحيانًا أن حافظًا كان أذنًا يذهب حيث يذهب به من يواليه ويلوذ بكنفه ، فقد كان سعد زغلول فى ذلك الحين الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية وكان حافظ صديقًا له ونديمًا ، ثم أعلنت الحماية على البلاد

وأذيلت كرامتها فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ ، وأرسلت بريطانيا أول مندوب سام يحكم مصر تحت ظل الحماية ، فخرج وكيل الجمعية التشريعية يستقبل هذا المندوب فى محطة مصر يوم ٩ يناير سنة ١٩١٥ ، وكان مما قاله سعد يومئذ على مسمع من المستقبلين : « إن دلائل الخير بادية على وجهه » وأمّل أن يجزل الله لمصر الخير على يده !! كما نُشِر فى جريدة المقطم يوم ١١ يناير ١٩١٥ ، فلا تكاد تمضى أيام حتى ينشر حافظ فى يناير ١٩١٥ قصيدته التى يقول فيها (٢ : ٨٢) مخاطبًا المندوب الجديد :

أَىْ مَكْمَهُون قدمت بالـ ... قَصْدِ الحميد وبالرعايةْ
ماذا حملتَ لنا عن الـ ... مَلك الكبير وعن (غِرايه)
أَوضِحْ لمصر الفرقَ ما ... بين السيادة والحمايَةْ

ثم يمضى على سننه فى هذا الكلام الرفيق الرقيق الذى كان كأنه ترجمة شعرية للكلمة التى قالها وكيل الجمعية التشريعية ، ثم يسأل العميد الجديد أن يتعهد هو وقومه أرض مصر بالرعاية ، وأن يحسنوا عليها الوصاية !! إلى أن يقول فى غزاة بلاده :

أَنتم أَطباءُ الشُّعُو ... بِ وأَنبلُ الأقوام غايَةْ
أَنَّى حللتم فى البلا ... دِ لكم من الإصلاحِ آيةْ
وعدلتمُ فَملكتمُ الدُّ ... نيَا وفى العدل الكفايةْ
إن تنصروا المستضعَفيـ ... ـن فنحن أَضعفهم نِكايَةْ !!

وَاذُلّاه ! فأى شىء أبقى لبريطانى أن يقوله فى تسويغ احتلال مصر ، وفى الدعوى العريضة التى لا تزال بريطانيا تدعيها على كل شعب وقع تحت سلطانها الباطش ؟!

ونحن قد سقنا هذا للدلالة على موضع الدَّخَل فى شعر حافظ وفى عزيمة نفسه ، ولو طلبنا أن نذكر شعراً مما تكون فيه نفحة من الوطنية لوجدنا شيئًا ، ولكنه إذا مُحّص وُجِد غير صحيح على التمحيص . وغير ذلك أننا لم نكتب هذا لنجمع ما قاله من الشعر مما فيه ذكر لمصر أو لما حدث فيها ، بل أردنا أن نعرف

هل استطاع حافظ أن ينهج شعراً فى الوطنية ، وأن يتخذ له أسلوبًا غير أسلوب المناسبات ، وغير ترديد أسماء الأمم والأعلام والرجال من العرب الأوائل والمحدثين ممن كان لهم أثر فى وطنه الأصغر خاصة أو فى وطنه الأكبر عامة . فلما لم نجد لهذا الرجل نهجًا ، وأعجزنا أن نجد له إلا كل ما يجعله محالا عليه أن يهتدى إلى مثل النهج الذى نطلبه ، آثرنا أن نغفل ذكر شيء من شعره الذى يخيل إلى السامع أنه شعر وطنى .

* * *

أما شوقى فقد برىء من هذه الآفة التى لحقت شعر حافظ ، إذ خلا شعره مما يقدح فى وطنية الشاعر ، ومن طعن على بلاده وأوطان قومه إلا أن تكون فلتة ، ومن كل ملق لا خير فيه يتملق به الغزاة البريطانيين . وبذلك سلمت له نفسه ، فهل استطاعت هذه النفس الشاعرة أن تلتمس نهجًا للشعر الوطنى ؟ وما الذى وفقت إليه ؟ وهل أتتنا بشعر حقيق بأن يسلك فى عداد الشعر الوطنى كما ينبغى أن يكون ؟

كتب شوقى أول شعره فى نحو سنة ١٨٨٨ ، أى بعد الاحتلال بست سنوات ، وكان قد صار إلى ما كان يتمناه وهو أن يصير « شاعر الخديو صاحب المقام الأسمى فى البلاد » ، كما قال فى مقدمة ديوانه الأول . وكان خديو مصر فى ذلك الوقت هو محمد توفيق الذى تم فى عهده احتلال وادى النيل بعد انهزام جيوش عرابى وإخوانه . فليس عجيبًا إذن أن لا تجد فى شعره الذى قاله فى عهد توفيق شيئًا فيه ذكر ما اعتلج فى نفسه من أثر هذا الاحتلال المشؤوم الذى نكبت به مصر والسودان ، وهو يومئذ فى نحو الخامسة عشرة من عمره – أى أنه كان فتى يعقل ويدرك ويعرف معنى الاحتلال وكان أيضًا يحفظ الشعر ويطلبه ويتهيأ له كما قال فى مقدمة ديوانه الأول . وسكوت شوقى هذا السكوت المريب عن أفظع بلوى منيت بها بلاده ، لم يكن إلا أنه كان منذ أول عهده يسمو ببصره إلى أن يكون « شاعر الخديو صاحب المقام الأسمى فى البلاد » ، فحمله هذا المطمح النبيل على أن يخفى شعوره الوطنى كل الإخفاء ، أو يغفله كل الإغفال ، حتى

لايعوقه ذلك عن بلوغ المرتبة السامية التى يصبو إليها . فلو هو تنفَّس عن شيء لجرّ ذلك عليه غضب الخديو توفيق الذى تم الاحتلال فى عهده ، ولكانت عاقبة ذلك أن يقصى عن القصر وعن الحضرة الخديوية الفخيمة لا محالة . وهذا الفعل من شوقى دليل على أن نفسه كانت تؤثر المنفعة الخاصة إيثارًا يصرفها عن الأهداف النبيلة فى حياة أحرار الرجال . وهذا أول مغمز يخشى معه أن يضل هذا الفتى كما ضل حافظ من قبل عن الشعر الوطنى الحق .

ثم قضى توفيق نحبه فى ٧ يناير سنة ١٨٩٢ ، فانقضى بموته السبب الذى كان يمنع الشاعر الفتى أن ينفث خطرات نفسه ويبث قومه أشجانه . وولى الأمر بعد توفيق الخديو عباس الثانى فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢ . وبدأ عباس ، منذ عاد من فينا إلى مصر فى ١٦ يناير من تلك السنة ، يناوىء الانجليز ويُصِرّ على أن يستمسك بحقوق مصر وحقوق عرشه . وكان رئيس الوزراء يومئذ هو وزير الاحتلال المشهور مصطفى فهمى باشا ، فظل يعمل جاهدًا على نزع السلطان كله من يد الخديو الشاب ، ووضعه فى يد المعتمد البريطانى اللورد كرومر ، ومضى عام ، فإذا الخديو الشاب يرسل إلى مصطفى فهمى كتابًا يقيله من رئاسة الوزارة دون أن يستشير كرومر أو يطلعه على ما نواه ، وذلك فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ . فلما بلغ الخبر كرومر استشاط غضبًا وجن جنونه وثار ثورة بريطانية ، فأسرع إلى الخديو وقابله ، وأصرّ على عودة وزير الاحتلال ، فأصر الخديو على أن اختيار الوزراء حق من حقوقه الشرعية لا يجوز لكائن من كان أن ينازعه فيه . فأخذ كرومر يتوعده وينذره ويهدده ، ولكن الخديو الشاب بقى كالطود الراسخ لا يتزلزل ولا يهاب وعيدَه ولا نُذُرَه . هكذا فعل كرومر ، أما الشعب المصرى فقد انبعث انبعاثًا جديدًا كان فاتحة الحركة الوطنية الخالدة فى تاريخ مصر ، وكان هذا الشعب يبغض مصطفى فهمى وزير الاحتلال بغضًا ليس بعده ولا قبله ، ولكنه كان يطوى جوانحه على هذا البغض ، فلما انتهى إليه خبر إقالته ، وخبر هذه الجرأة الصريحة على كرومر الجبار المخوف ، ابتهج ابتهاجًا عظيما ، ولم يلبث أن سارت وفود الناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى الموظفين والقضاة ، ويمموا

شطر قصر عابدين فى ١٨ يناير سنة ١٨٩٣ لكى يؤيدوا هذا الفتى فيما فعل . وكان هذا اليوم عجبًا فى تاريخ مصر ، دل على أن هذا الشعب لا يغفل عن حقوقه ، ولا ينام عن عدو أو صديق ، وإن ظن الجاهل به أنه راضٍ ساكن قانع بما كتب له أو عليه . ومن يومئذ ظل عباس يناوىء بريطانيا وعميدها كرومر مناوأة العنيد الذى لا يهاب .

ولسنا نشك فى أن شوقى « شاعر الخديو » قد استفاق يومئذ على روعة هذا العمل الذى اجترأ عليه هذا الفتى الغرير عباس الثانى ، كما استفاق خلق كثير ممن أُبْلِسُوا [1] حيرةً وذهولاً بعد احتلال بلادهم فى عهد سلفه توفيق . ومن يومئذ ، فيما نظن ، بدأ شوقى يتطلب أن يكون شعره صدى يردد صوت الأمة المصرية والأمم العربية والإسلامية التى حاق بها بلاء الاستعمار . فماذا فعل ؟

فى سبتمبر من سنة ١٨٩٤ ، أى بعد هذه الحادثة بسنة ، أُوفِد شوقى مندوبًا إلى المؤتمر الشرقى المنعقد فى مدينة جنيف ، ويومئذ قال قصيدته المشهورة . (ج ١:١)

هَمَّتِ الفُلْكُ واحتواها الماءُ — وحَدَاهَا بمنْ تُقِلّ الرجاءُ

وهى ، كما قال هو فى ديباجتها : « قصيدة تاريخية تتضمن كبار الحوادث فى وادى النيل من يوم قام إلى هذه الأيام » ، وفى هذه القصيدة أول شعر لشوقى تجد فيه إشارة إلى احتلال الغزاة البريطانيين لأرض وادى النيل ، بعد سكوته فى عهد توفيق ، وذلك إذ يقول فى ذكر الخديو محمد توفيق :

وغزيرِ الهُدَى من « الحمد والتو — فيقِ » صيغت لذاته الأسماءُ

بثَّت العدْلَ راحتَاه ، وعزَّتْ — فى حماهُ العلوم والعلماءُ

(إن أَتَاها فليس فيهَا ببَادٍ ، — أو جناهَا فذا الوَرَى شركاءُ)

(لا يلمْ بعضُكمْ على الخَطْبِ بعضًا ، — أيها القوم ، كلّكُمْ أبرياءُ) !

ولم يصرح باسم الاحتلال بل كنى فقال : « إن أتاها ... » يعنى الزلة المردية

(١) أبلس : وقف فى مكانه حائرا مترددا .

التى زلها توفيق بدعوة بريطانيا إلى نصرته على أبناء بلاده الذين ثاروا مطالبين بحقوقهم الدستورية . وشوقى يحفظ جميل البيت العلوى عليه ، فيلتمس العذر لتوفيق بأن يشترك الشعب المصرى فى هذه البلوى التى حلت بهما جميعًا . ثم يذكر فى آخر القصيدة عهد عباس الثانى ، فإذا فيه إشارة « خفية » إلى ما كان من إقالته لوزير الاحتلال وقلة احتفاله ببطش المعتمد البريطانى ، وذلك إذ يقول :

كيفَ تشقى بحبّ حِلْمِى بلادٌ نحنُ أسيافُها وأنت المَضَاءُ ؟

وهذه القصيدة ، لا أقول إنها من فاخر شعر شوقى ، ولكنها كانت بدءًا جديدًا أراد به هذا الفتى أن يجلو بالشعر تاريخ وطنه ، وأن يذكر الناس بماضى أسلافهم وغابر مجدهم وقديم حضاراتهم ؛ وهذا بلا ريب باب من أبواب الشعر الوطنى . بيد أن شوقى لم يوفق إلى حقيقة الشعر الوطنى فكانت قصيدته هذه سردًا للأحداث التاريخية فى وادى النيل ، وردًا على بعض المطاعن ، وسخرية من الغزاة الذين غزوا أرض مصر ، حتى إذا ما بلغ عهد توفيق اختصره فى الأبيات التى ذكرناها آنفًا ، وأعرض عن التصريح بذكر الاحتلال ووقعه فى نفسه ، ولم ينبض حرف « واحد » من شعره هذا ببغض الغزاة الذين يسومون بلاده سوء العذاب ، وهو حى يدرك ويحس ويسمع ويبصر .

فأى بلاء هذا ؟ شاعران تفخر بهما مصر العربية والإسلام ، يضل أحدهما ضلالا مبينًا كما ذكرنا ، ويضل الآخر عن الطريق الذى مهده له الخديو بجرأته وقوة جنانه معرضًا عرشه للضياع ! كان شوقى رجلا طموحًا إلى أشياء بعينها أخذت عليه المسالك : أن يكون « شاعر الأمير » وأن يظل « شاعر الأمير » وإن اختلفت الأمراء ، فمن أجل ذلك تراه لا يزال يخشى أن تتغير الحال بعد قليل فتتغير حاله ، فيؤثر أن يمسك لسانه ولا يسترسل مع أميره هذا الجرىء . وكان هذا أول الداء العياء ، هو الخوف آفة الأحرار . ومن جراء هذا الخوف القابض على جَنَانِه حار هذا الفتى الشاعر فلم يستطع هو أيضًا أن يهتدى إلى حقيقة الشعر الوطنى الصحيح ولا إلى نهجه الحق . إن أصل الشعر الوطنى هو الحماسة ، أى أن تكون ثائر النفس جياش الفؤاد ، فتصب ثورة نفسك فى بيان يتدفق فى قلوب

أبناء أمتك فيثيرهم ويثير أحلامهم ، ويجيش همتهم ، ويوقظ نائم أحقادهم ، ويرفع لهم مثل الحياة الحرة الشريفة العزيزة ، ويهزهم هزا إلى صراع عدوهم وإن خيف بطشه وجبروته ، ويحبب إليهم احتمال الأذى ولقاء الردى ، والجود بالنفس والمال والولد ونعيم العيش وراحة الحياة الدنيا ، فكيف يستطيع أن يركب هذا المركب الوعر من تتعلق نفسه بلقب يحرزه ونعمة يتقلب فيها ؟!

وأنت إذا قرأت هذه القصيدة الهمزية التى ذكرناها ، رأيت شوقى يتدفع فيها تدفعًا شديدًا على خلاف أكثر شعره ، فقد كانت كالموج المتدفق فى أسلوبها ، وهذا هو الأسلوب المختار لأكثر الشعر الوطنى فى أى أغراضه كان . بيد أن شوقى لم يلبث حتى هجر هذا الأسلوب نفسه واتخذ أسلوبًا آخر يناقضه تمام المناقضة ، فلان شعره واسترخت قوته ، وبدأ يسمو إلى أن يكون حكيم هذه الأمم يضرب الأمثال ، ويأتيها بشعر فيه فلسفة وحكمة ، تقليدًا للشاعر « صاحب اللواء ، والسماء التى ما طاولتها فى البيان سماء » وهو المتنبى ، كما وصفه فى مقدمة الطبعة الأولى لديوانه (ص ٥ - ٧) . ومع ذلك لم يخرج شوقى من هذا التقليد إلا بأن يكون شاعراً واعظًا ، لا شاعرًا حكيما كما كان المتنبى وخليفته أبو العلاء المعرى ، على شدة التفاوت بينهما . وأما السبب الذى من أجله عجز شوقى عن أن يكون حكيما على شدة تشبثه بهذا الوصف كما جاء فى شعره ، فشىء ليس هذا مكان بيانه والتدليل عليه .

ومن أعجب العجب أن شوقى الذى كان إلى سنة ١٩٠٦ لا يدع شيئًا إلا قال فيه ، قد اعتقل لسانه وسكن سكونًا حتى لا حراك به يوم وقعت كارثة دنشواى ، فلم يقل شيئًا إلا أبياتًا من أرذل الشعر ، قالها بعد عام مر على « حادثة هذه القضية فى سبيل طلب العفو عن سجنائها » ! كما قال فى ديباجتها ، وكان غاية ما قاله :

(نيرون)لو أدركتَ عهد(كرومر)   لعرفتَ كيف تنفّذ الأحكام !

فمن شاء أن يرشدنى كيف استطاع شوقى أن يملك نفسه ، فلا يذكر شيئًا عن احتلال بلاده وضياع استقلالها ، وعن هذه الكارثة الوحشية التى حركت الكاتب الإيرلندى « برناردشو » - فليفعل مشكورًا . أما أنا فأرى أن القلب الذى

سكن فلم يتحرك ولم يتمزق على هذين البلاءين الشديدين ، لا يستطيع البتة أن ينفخ الحياة فى شعر يقال لينفخ الروح فى شعوب موات من وطأة الاستعمار والجهل والاستعباد قديمه وحديثه . وهذا هو جوهر الشعر الوطنى والقومى .

كانت الأحداث تتوالى فى الدولة العثمانية ، وتوالت الأحداث أيضًا فى مصر ، وهبَّ مصطفى كامل كالأسد يزأر هنا وهنا حتى أيقظ الأجنَّة فى أرحام أمهاتها ، واضطرب أكثر العالم العربى والإسلامى ، فأراد شوقى أن يكون بالمرصاد لكل ذلك ، فأرصد شعره للمناسبات يقول فيها ، فكانت لكل حادثة قصيدة ، وألف هذه العادة إلى آخر أيام حياته ، وقلده فيها جمهرة من معاصريه الشعراء ، ولا يزال يعيش بيننا إلى اليوم من يقلده ويقتفى آثاره خطوة خطوة . وأمثال هذه القصائد التى تقال فى فورة الأمر وعنفوانه قلما تخطىء هدفها ، إذ تجد النفوس مستعدة للتلقى والاهتزاز من تلقاء نفسها ، وإن كان الذى يلقى عليها كلامًا غثًّا لا غناء فيه . وشبيه بذلك مايجده الخائف المتوجس إذ تروعه النبأة الخافتة وتنفضه نفضًا ، فإذا سكن جأشه نام على هدة جبل يندك . ولو قرأت اليوم أكثر ماقاله شوقى فى المناسبات الوطنية والإسلامية والعربية ، فعسى أن لا تجد فيه شيئًا يثير شيئًا فيك إلا التعجب مما كنت أحسسته يوم قرأته فى حينه وأوانه ، وكأنما كان ذلك كله من عمل الوهم فيك لا أكثر ولا أقل . ومثل هذا ليس بنافع شيئًا فى الشعر الوطنى الصحيح الذى لا يموت بموت الساعة التى قيل فيها . ولو شئت أن أضرب الأمثال بكثير من هذا الشعر لفعلت ولكنه إطالة ، فمن شاء أن يلتمس وجه الحق فى ذلك فليقرأ ديوانه ، فهو واجد فيه تحقيق ذلك عيانًا وتجربة .

وشىء آخر أراد به شوقى أن يكون شاعراً وطنيًا لكل وطن من أرض العرب والإسلام ، ذلك أنه عنى كل العناية بدراسة تاريخ عظماء هذا الجيل العربى قديمه وحديثه وحفظ أسماء الرجال والمواقع والأحداث ، وجعل ينثرها نثرًا فى شعره حتى ما تكاد تخلو له قصيدة من ذكر هؤلاء الرجال كخالد بن الوليد وصلاح الدين وبنى أمية وبنى العباس وفلان وفلان . وصار الأمر عادة حتى أفرط فى ذكر الأنبياء بخاصة عيسى ومحمد عليهما السلام ، ثم ألح على أسماء الملوك الأقدمين

كالفراعنة والقياصرة ومن إليهم ، حتى صار شعره أشبه بسجل تاريخى لقديم هذا العالم وحضاراته . وأكبر الظن أن شوقى ظل يبحث عن الشعر الوطنى فخيل إليه أن هذا الذكر المردَّدَ للأسماء كافٍ وحده فى أن يجعل شعره مذكورًا فى الشعر الوطنى . والحق أنه ليس كذلك ، وإن كان بعضه مما يدخل هذا المدخل على ضعف شديد . وكذلك أخفق شوقى كما أخفق حافظ فى التهدى إلى حقيقة الشعر الوطنى والقومى .

* * *

بيد أنه ليس من الإنصاف فى شىء أن نغفل أكبر يد أسداها حافظ وشوقى إلى الأمم العربية والإسلامية . ذلك بأنهما كانا شاعرين يستجيدان الكلام ، وإن أخطآ وضلا عن الصواب ، وأنهما كانا رائدين لهذا الجيل العربى بعد البارودى ، وأن شعرهما قد علم مئات من الكتاب والشعراء فى كل نواحى البلاد العربية ، وأن تلهف الناس كان على شعرهما هو الذى أغرانا جميعًا ببذل الجهود فى دراسة العربية ودراسة تاريخها وآدابها ، وأنهما كانا من طلائع النهضة العربية الحديثة فى هذا القرن العشرين . فإن كانا قد أخطآ وضلّا ، فقد أيقظا ناسًا صاروا مددًا لهذه القوة الجياشة التى سوف تدفع بلاد العرب والمسلمين إلى التحرر من ربقة الاستعمار ، ومن أوزار الجهل والتشتت والفرقة ، وتجمعهم يدًا واحدة لكى ينشؤوا للعالم حضارة جديدة كالتى أنشأها آباؤنا من قبل ، تأنف لنفسها أن تستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا .

* * *

رَسَائِل القُراء

(حول قصيدة القوس العذراء)

أخي الأستاذ محمد سعيد المسلم

... شكرًا شكرًا . وبعد ، فلست أنكر ماقلت ، ولا ماقال من قبل صديقي الأستاذ جمال مرسى بدر . فالذى جرى عليه العملُ - كما يقال - هو ماقلتما .

أبدأ بما ختمت به رسالتك ، فقد ذكرت هذا البيت (ص ١٧٣ ؛ مجلة الكتاب ، فبراير سنة ١٩٥٢) .

أغثنى ! أجل ! باع ! ماذا ! أباعَ   نعـمْ باعَ ! حقًّا ! أجل

والعجز كما رأيت مختل الميزان ، وهو عندى مختلّ المعنى أيضًا ، وصوابه :

« نعم باعَ ! قد باعِ ! حقًّا فعلْ ! »

وسقطت « قد باعَ » فى نقلى أنا من نسختى إلى نسخة المطبعة ، لما شغلنى به البيت والأبيات قبله من كثرة « البعبعة » .

أما القسم الأول من رسالتك ، فيحتاج إلى إطالة فى ذكر العروض والقوافى ، وإلى الإفاضة فى ذكر بحر الرمل ، وما يطيقه ومالا يطيقه . وأختصر القول اختصارًا . فأنا لم أفعل ما أنكرته إلا فى أبيات قليلة من بحر الرمل ، وكان يسيرًا أن أقيمها بأهون الجهد ، ولكنى قبلت منذ قديم ، أن أخلط فى بحر الرمل بين أعاريضه وضروبه على اختلافها ، وأن أنتقص بعض تفاعيله أو أزيد عليها ، وأن أدخل فيها حشوًا قليلا أحيانًا . وبحر الرمل أقرب بحور الشعر كلها إلى النثر ، وتستطيع أن تكتب كتابًا كاملا موزونًا على تفاعيل هذا البحر ، وأنت غير متقيد بضروبه وأعاريضه ، ولا بأعداد هذه الضروب والأعاريض ، ثم يكون الكتاب موزونًا مقبولا فى السمع ، خفيفًا على اللسان حافلا بالموسيقى التى لا تنتهى . فإن استطعت أن تجرب هذا ، وأن تحاول كما حاولت أن تسيغه ، فإنك

---

* مجلة الكِتاب ، المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٥٢ . وفى الأصل : حول كتاب طبقات فحول الشعراء . وهو خطأ ، فصححته لما يدل عليه فحوى المقال .

ستصيبُ فى لين هذا البحر ، وفى حسن تقلبه معك ، وفى سماحته وسخائه بما لا يسخو به بحر غيره - ما تشاءُ من الروح والراحة .

فإن لم تسغه ، ولم تسغ أبيات قصيدتى هذه ، فاجعلها فى الشعر كقصيدة عبيد بن الأبرص التى قال فيها ابن كناسة « لم أرَ أحدًا ينشد هذه القصيدة على العروض » ، والتى قال فيها القدماء من شيوخنا : إنها « شعر مهزول غير مؤتلف بناء » وأنها « لكثرة ما دخلها من الزحاف كادت أن لا تكون شعرًا » ، ثم عدّها شيوخ آخرون من الملحق بالسبع الطوال (المعلقات) ، أو من المجمهرات . يحقّ لهم أنّ يعدوها كذلك ، فهى من بارع الشعر وفاخره ولم يعبها أنها مهزولة غير مؤتلفة البناء ، تكاد تخرج عن مدارج الشعر . فإذا لم تستطع أن تسيغ من قصيدتى هذا ولا ذاك ، فاطرحها عنك ، فما أظنك تخسر إن فعلت قليلا أو كثيرًا .

وأرجو أن لا تعدنى مجددًا أو مخترعًا فى بحر من بحور الشعر ، فما ذاك أردت ، ولا هذا فعلت ، ولكنى رأيت تفاعيل هذا البحر مطيقة للحركة الشاذة ، مطيقة للاحتمال . نغم لم يألفه بحرها المقيد ، مطيقة للتوجه بى حيث توجهت ، فامتطيتها مما شئت فأطاعتنى ، ولم أنكر من طاعتها شيئًا، واستوت معى على الطريق .

وعسى أن يأتى يوم أبلغ فيه مرضاتك ، وأكتب فى شأن هذا البحر كلامًا متصلا ، حتى تعرف رأيى فيه بأسلوب علمى محضٍ ، ولك منى أجزل الشكر والسلام .

* * *

صَدَى النقد
طبقات فحول الشعراء
رد على نقد (١)

أشكر أخى وابن أخى الأستاذ أحمد صقر شكرًا يخالطه عَتْب ، فقد جاوز القصد فى الثناء حتى أوغل فى المبالغة ، وكان يحسن ظنى بنفس أنا إلى إساءة الظن بها أحوج . والإسراف لا خير فيه ، وإذا خشيت معرّته على نفسى ، فأنا منه على أخى وابن أخى أخوف . وهذا أثر الإسراف بيّن فى أول نقده لكتاب « طبقات فحول الشعراء » . فقد قال إنى رأيت أن أكمل نقص كتاب الطبقات ، بكل ما رأيته « مرويًّا عن ابن سلام من الأخبار والأشعار التى تتعلق بالشعراء الذين ذكرهم فى الطبقات » . إفراط شديد ، ولفظ جائر . لم أقل هذا ولا بعضه ، ولا أنا كتبته فى مقدمتى ، ولا أنا فكرت لحظة فى أن أفعله . ولو فعلته لأسأت إساءة لا أغتفرها ، ولا أحب لأحد أن يغتفرها .

والذى قلته فى المقدمة (ص : ٢٨ - ٣٢) هو أنى جمعت أسانيد أبى الفرج فى الأغانى إلى ابن سلام ، فكانت عدتها أربعة وخمسين إسنادًا . منها ثلاثة عشر إسنادًا ، أثبت نصها (٢٨ - ٣٠) ، ليعلم من يحب أن يعلم ، أنها كلها إسناد واحد فى الحقيقة ، يسوقه أبو الفرج فى ثلاث عشرة صورة . فكأن مجموع أسانيد أبو الفرج اثنان وأربعون إسنادًا . وقلت إنى لم أنقل شيئًا إلى الطبقات ، إلا رواه أبو الفرج عن ابن سلام بإسناده عن « أبى خليفة الفضل بن الحباب ، عن محمد بن سلام » ، وهو الإسناد الذى يسوقه أبو الفرج فى ثلاث عشرة صورة ، مختلفة اللفظ ، متفقة المعنى . أما الأسانيد الباقية ، وعدتها واحد وأربعون إسنادًا عن ابن سلام ، وفيها علم كثير من علم ابن سلام ، فلم أنقل إلى الطبقات من

* مجلة الكِتاب ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الرابع ، سنة ١٩٥٣ ، ص ٥١٣ - ٥٢٢ .

(١) نقد الأستاذ سيد صقر لكتاب طبقات فحول الشعراء نُشِر فى مجلة الكِتاب ، المجلد الثانى عشر ، سنة ١٩٥٣ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٧ .

روايتها وأخبارها شيئًا قط . وهذا واضح فيما أظن ، بل أظن ظنًّا أنه يدل على أننى لا أنقل : « كل مارأيته مرويًّا عن ابن سلام » ، لا فى كتاب الأغانى ولا غيره .

وقد روى أبو الفرج فى أغانيه بإسناده هذا ، أو أسانيده الثلاثة عشر إن شئت ، « عن أبي خليفة الفضل بن الحباب ، عن محمد بن سلام » أخبارًا كثيرة جدًّا ، دلت مراجعتها على الطبقات المطبوعة والمخطوطة ، على أنها ثلاثة أقسام :

الأول : أخبار موجودة بنصها فى النسخ المطبوعة ، وفى المخطوطة جميعًا ، وهو الأكثر .

الثانى : أخبار موجودة بنصها فى المخطوطة وحدها ، وفى زياداتها على مايقابلها من المطبوع ، وهذا كثير . فدل هذان القسمان الكبيران جدًّا على أن ما يرويه أبو الفرج بهذا الإسناد ، أو الأسانيد الثلاثة عشر ، مما هو روايته عن كتاب الطبقات ، الذى أجاز له أبو خليفة روايته عنه ، وكتب به إليه ، كما صرح فى بعض هذه الأسانيد . بل بما ذكرناه مما هو أصرح ، عند ذكر شعراء الطبقات (المقدمة ص : ٢٢ - ٢٦) .

وبقى القسم الثالث : وهو ما رواه بهذا الإسناد ، أو الأسانيد الثلاثة عشر ، وهو الذى يقع فى مواضع من المطبوعتين ، ليس عندنا ما يقابلها من المخطوطة . ولما ثبت بالاستقراء أن القسم الأول والثانى ، هو من كتاب الطبقات ، لم تبق ريبة لمرتاب فى أن هذا القسم الثالث هو أيضًا من كتاب الطبقات . والمخطوط قد دلّ دلالة قاطعة ، على أنّ المطبوع مختصر وناقص نقصًا فاحشًا ، كما دلت أيضًا مراجعة سائر ما نقل عن طبقات ابن سلام فى كتب كثيرة ، وكما دلّ ما نقله أستاذنا من شرح نهج البلاغة ، مصرّحًا بنقله عن الطبقات وليس فى المطبوع . فمن أجل ذلك نزلت هذا القسم فى منازله من الكتاب ، على مابلغه ظنى واجتهادى ، وكله واقع فى المواضع التى ضاع ما يقابلها من المخطوطة .

وما قلته آنفًا عن الأغانى ، أقول مثله عن الموشح للمرزبانى ، فقد روى بأسانيد كثيرة عن ابن سلام ، لم أنقل منها غير إسناد واحد هو « إبراهيم بن شهاب العطار ، عن أبي خليفة ، عن محمد بن سلام » . وقد أكثر المرزبانى الرواية عن

ابن سلام ، وانفرد هذا الإسناد بمطابقة المخطوط والمطبوع ، كما ذكرنا آنفًا فى شأن الأغانى . وطرحت رواية سائر الأسانيد غير هذا الإسناد الواحد . وبمثل هذا السياق من الاستدلال فعلت فيما جاء فى أمالى الزجاجى ، وماجاء فى الشعر والشعراء . فبيّنٌ إذن مما أطرحت نقله من روايات أبى الفرج الكثيرة فى أغانيه ، وما أطرحت أيضًا من روايات المرزبانى الجمة فى موشحه ، أنّى لم أنقل إلى الطبقات « كل ما رأيته مرويًا عن ابن سلام » . فأظن ظنًّا أن ما فعلته دليل قاطع ، يمسك سيل الأسئلة التى ساقها الأستاذ صقر على لسان النقاد ، وأنطقهم بها فى مقاله .

أما سائر الكتب التى نقلت عن ابن سلام ، غير هذه الأربعة ، ففيها علم كثير عن ابن سلام ، لم أنقل إلى الطبقات منه شيئًا . ولكنه الإسراف ، زلَّ معه اللسان ، وأزلنى حتى أطلت فى أمر بين لمن تأمل مقدمتى فضل تأمل .

* * *

ولما أسرف ابن أخى فى الثناء وفى البيان ، كانت العاقبة أن فرّط فى الإبانة عن حجتى فى تسمية الكتاب « طبقات فحول الشعراء » لا « طبقات الشعراء » . فإنى ذكرت فى هذا الموضع من المقدمة نصّين عن أبى الفرج أغفلهما الأستاذ فى نقده . أحدهما فى ترجمة المخبل السعدى ، إذ يقول : « ذكره ابن سلام فى الطبقة الخامسة من فحول الشعراء » . والآخر فى ترجمة عبيد بن الأبرص ، إذ يقول : « وجعله ابن سلام فى الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية » ، فإذا ضم إليهما قول ابن سلام نفسه : « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرًا » ، كان بينًا لمن يستبين ، أن ابن سلام لم يؤلف كتابه إلا لذكر طبقات « فحول الشعراء » فى الجاهلية والإسلام ، واقتصر عليهم . وكان أيضًا بينًا أنه لم يؤلفه لذكر « الشعراء » بلا وسم ولا صفة . هذا مبلغ جهدى وحجتى ، وبها أتوسل إلى الأستاذ صقر أن يعذرنى ، وإلى النقاد أيضًا إن استطاعوا إلى العذر سبيلا .

* * *

وللأستاذ صقر بعد ذلك رأى فى الشعر ، ومآخذ على ما شرحت منه .

١ - أخذ عليّ شرحى للبيتين الأخيرين من قول دويد بن زيد بن نهد ، حين حضره الموت :

اليوم يُبنى لدويد بيتُه   لو كان للدهر بلى أبليتُهُ
أو كان قرنى واحدًا كفيته   يارب نهب صالح حويتهُ
« ورب غَيْل حسن لويته   ومعصم مخضَّب ثنيتهُ »

ولما كنت أعلم ، والله أعلم ، أن لكل لفظ يأتى به الشاعر دلالة على معنى ، وأنه لا يسوغ لى أن أسقط بعض الألفاظ أو دلالة بعض الألفاظ ، فقد شرحت الأبيات ، على قدر حظى من فهم الشعر ، ومن فهم لغة العرب ، ومن فهم بعض طبائع البشر . ولكن رأى الأستاذ صقر أن كل مايمكن أن يؤخذ - من البيتين الأخيرين - هو أنه يذكر شبابه ومتاعه بالنساء ذوات السواعد السمينة ، أو كما قال . وللأستاذ رأيه بلا معارضة ، وله أن يستعمل لفظ « كل » حيث شاء . ولكنى رأيت الشاعر أغفل ذكر الساعد وأتى بالصفة « غيل » ، لا لأنه أراد « السواعد السمينة » ، بل لأنه أراد ساعدًا يترقرق ماء شبابه ، كما يترقرق الغَيْل ، وهو الماء السحّ ، السهل الجرية على وجه الأرض ، يتلألأ بريقه بين الشجر الملتف الناضر ، وفى ظله الظليل . وإذا كان ماء شبابه كذلك ، فهو ساعد ممتلىء مشرق البشرة ، لم يهجّنه إسراف فى « سمن » ، بل هو « غيل حسن » ، وهو نعت يدل على القصد والاعتدال والبراءة من الإسراف . وإذا كان كذلك فصاحبته منعّمة ، لم تغذ بؤس معيشة ، كفيت شقاء المهنة ، وأعفيت من ممارسة العمل ، وإذا كانت كذلك فلها وال شريف سريٌّ ، وخدم يحوطونها أن تمتهن . وإذا كانت كذلك فهى فى نعمة من عيشها ، ومنعة من أهلها وخدمها ، وهم جميعًا حراس عليها . أو هذا على الأقل ، هو شيمة السادة والأشراف من العرب فى شأن فتياتهم ونسائهم . فليس عجيبًا إذن أن أقول : « كنى بالبيت الأول عن تجاوز الأحراس والمنعة إلى الكريمة المنعمة » .

وقد غفلت فى شرح البيت عن بيان معنى « لويتُه » . والظاهر على مذهب الأستاذ صقر ، أنه أراد أنه لوى ساعدها كما يلوى الحبل . ولكنى أعجب : أى

متاع كان لدويد فى أن يلوى « سواعد سمينة » ، « لوى يده الله الذى هو غالبُه » ؟ وأى لذة يجدها فى أن يثنى معصما مخضَّبًا ؟ وأسأل نفسى : ما فرق ما بين اللذتين : لذة لىّ السواعد السمينة ، ولذة ثنى المعاصم المخضبة ؟ وكيف يكون هذا اللىّ وهذا الثنى هما آخر مايذكره من متاع شبابه حين حضره الموت ؟

أما عندى ، فمعنى قوله « لويته » أن الفتاة راعها إقدامه على تجاوز الأحراس بلا خوف ، فعلمت شدة هيامه بها ، فأعجبها إقدامه وزادها به صبابة ، فلما دنا إليها « عطفت » ساعدها عليه ، وضمته ضمة شوق وفتنة وإعجاب ، فجاء دويد ونسب إلى نفسه أنه « عطف ساعدها أو لواه » ، لأن إقدامه هو الذى استخفها ، ففعلت ما لم تكن لتفعله فتاة غريرة منعمة مكرمة عفيفة مثلها . فإقدامه هو الذى زادها صبابة ، وهو الذى نفى من قلبها فَرَق العذراء وحياءها ، فعطفت عليه ساعدها وضمته . ذكرى جميلة مثيرة ، تدل على ماكان له فى شبابه من سطوة بالحرائر الغرائر . أما لىّ السواعد السمينة كما يلوى الحبل ، فلا أظنه يصلح أن يكون متاعًا ، ومتاعًا يتمدح بذكره شيخ يصيخ لداعى المنية .

وأما البيت الثانى : فإنى رأيت أن ثنى معصم مخضب ، لا يتميز شيئًا من أى معصم لم يخضب . ورأيت الحسناء تخضب ، والشوهاء تخضب أيضًا ، بل هى أحرصهما على الخضاب والزينة والتجمل . وظننت ، والله أعلم ، أن « الخضاب » لا يدخل لذة جديدة زائدة على لذة ثنى المعاصم التى لم تخضب . وظننت أيضًا أن المعصم لا يخضب ، فرأيت أنه أراد المعصم المخضب الكف . وظننت أيضًا أنى أعلم أن الخضاب كان منذ قديم الآباد من زينة العرس ، حتى خصُّوا به ليلة سموها « ليلة الحناء » . ثم وجدتُ أن ثنى المعاصم المخضبة الأكف ، كَلَىِّ السواعد السمينة ، لا يصلح متاعًا يستمتع به أحد ، ويذكره رجل فى سياق الموت متمدحًا بما كان فى شبابه . فانتهت بى الأظانين كلها إلى أنه أراد « خضاب العرس » ، وإذا كان ذلك كذلك ، فهو يذكر غانية حديثة العهد بالزواج ، أحصنها بعلها ، وكفَّ طِماحها إلى غيره . وهى فى عقيب العرس أولى بأن تمهِّد لزوجها وتتقتل له وتبتغى له مما يسره منها ويرضيه . ولكن يأتى هذا

الشيطان ، دويد ، فاتكًا عارمًا فيتصبَّاها عن حليلها ، ويغلبها على نفسها وعفافها ، ويستثيرها إليه فتنسى البعل بتحليل ، فيخلو بها ، فتكون أشد من الفتاة الغريرة جرأة لأنها عرفت الأزواج ، وإذا هو قد ملك هواها ، وقهر إرادتها ، وإذا هى « تثنى » معصمها عليه مشغوفة به ، أى تطوقه ذراعها تطويقًا وإذا بينهما ماقال سحيم عبد بنى الحسحاس .

توسِّدنى كفًّا ، وتثنى بمعصم عليّ ، وتَحْوِى رجلها من ورائيا

ذكرى تشتعل فى دم الشيخ الفانى ، من شباب كان له عُرام وفتك لا يبالى . هذا بعض ما أخذته ، لا « كل مايؤخذ » . ثم نسب أيضًا إلى نفسه أنه هو الذى ثنى معصمها ، لأنها ثنته عليه ، فتنة به وشغفًا ، ثم سلطان له لا يقهر .

٢ - وأخذ عليّ أيضًا شرح بيت المستوغر فى ذكر بنى بنيه :

إذا ما الشيخ صمّ فلم يُناجَى وأودى سمعُهُ إلا نـدايـا

ولاعب بالعشى بنى بنيه كفعل الهِرِّ يَحْتَرِشُ العَظايا

فعاب إطالتى فى شرح « يحترش » ، وقال إن احتراش الإنسان للضب غير احتراش الهر للعظايا ، وأرادنى أن أكتفى بأن أقول : « يحترش : يصطاد » وكفى المؤمنين القتال ! ورحم الله المستوغر ! فيم أتعبنا ؟ كان حسبه أن يقول : « كفِعْل الهر يصطاد العظايا » فيستقيم الشعر ، ويسقط عنا مؤونة التعب ، ونقل ما فى لسان العرب ! ولكن المستوغر عربى قديم سليم الطبع ، فاختار كلامًا - قلت إنى لا أستطيع أن أسقط دلالته ، وأراد معنى - قلت إنى لا أطيق إغفاله . ولما كان ذلك كذلك ، نقلت صفة « الاحتراش » كما كانوا يفعلونها ، ولم أزعم لنفسى أن احتراش الإنسان للضب ، غير احتراش العظايا ، فإنه غير صحيح ، إذا راقبت هرًّا وعظاء . ولم أرد بما وصفوه من « الاحتراش » ، إلا ما يكون فيه من كثرة حركة الهر ، ومن الإمساك والإرسال ، ومن الغفلة والترقب ، ومن الجثوم والقفز ، ومن سرعة اليد بضربة ، وفرار العظاية منها .

وإذا علم من يحب أن يعلم ، أن المستوغر ، يزعمون ، عاش ثلاثمئة وخمسين عامًا حتى أدركه الإسلام فأسلم ، فهو خليق أن يعلم أن المستوغر قد

عجز عن أن يفعل فِعْلَ الهِرِّ فيما وصفنا من حركته ، وخليق أن يستدل أيضًا بما بدأ به فى شعره من ذكر صممه وذهاب سمعه ، على أنه ضعف ضعفًا مبينًا ذهب بقوته ، فبلغ أرذل العمر ، ونسيه الموت نسيانًا تامًّا ، أو كما يقولون . ولما كان ذلك كذلك ، وكان المستوغر عندئذ غير مطيق أن يفعل فعل الهر المحترش ، وظننت أيضًا أن المطيق لهذه الشيطنة ، هم العفاريت من بنى بنيه ، أجريته على ماجرى عليه كلام العرب من « القلب » ، لأنه هنا بين مفهوم من سياق الشعر ، ومن صفة المستوغر وعمره ، ومن بديهة الفطرة ، وأظن أن الأستاذ يذكر مَثَلَهم المضروب فى قلب الكلام عن وجهه وهو : « أدخلت الخاتم فى إصبعى » ، ومثله قول القائل :

كانت فَرِيضة ما تقول كما ... كان الزِّناء فريضة الرَّجْمِ

أى : كما كان الرجم فريضة الزناء . والفريضة : الحد المفروض عقابًا ونكالا . وقول الأخطل :

مثل القنافذ هدّاجون ، قد بلغت ... نجران ، أو بلغت سوءاتِهم هَجَرُ

والسوآت هى التى بلغت مدينة هجر . وهو مذهب لا يحاط به فى كلامهم . ولم أفهم اعتراض أستاذنا على « لاعب » ، وإيجابه أن يقال – إذا صح ماذهبنا إليه ، وهو صحيح ! – « ولاعبه بالعشى بنو بنيه » . فالذى أعلمه ، والله أعلم ، أن قولك « لاعبت الصبى » معناه : لعبت معه ، وسواءٌ عندئذ أن تكون أنت البادىء باللعب وهو مستجيب ، أم يكون هو البادىء وأنت مستجيب . ولو ذهبنا مذهب الأستاذ لقلنا فى قول العرجى :

مثل الضفادع نَقَّاقون وحدهم ... إذا خَلَوْا ، وإذا « لاقيتهم » خُرُسُ

إنهم لا يخرسون حتى يكون اللقاء منك ، فإذا كان اللقاء منهم لم يخرسوا . وتصير العربية عجبًا فى لغات الناس . وأما ما تبع ذلك من قوله إنه كان ينبغى عندئذ أن يقول : « يلاعبونه وودوا لو سقوه » ، فيدخل فيما دخل فيه السابق . على أنى أرى أجود الروايتين ماذكرته فى التعليق « يفديهم وودوا لو سقوه » ، أى هو عليهم بنفسه ، وهم يتمنون موته بل قتله بسم يجرعونه إياه بأيديهم . أما ملاعبة الجدود التى ذكرها وظن الشعر يستقيم بها ، فربما صحت فى جد بلغ

الخمسين والستين ، أما جد فى أرذل العمر أعشى أصم ميت الأعضاء ، فصعب أن يتصور المرء مثله ماشيًا على يديه وركبتيه ، يحاور من هنا ويداور من هناك ! فوق كل ذى علم عليم . هذا على أن المستوغر لم يكد يقص قصة هذا اللّعاب حتى ختمها بما يلقى من أذاهم ، وأنه لا نجاة له من شرهم إلا أن يموت موتًا مضاعفًا ، فقال :

فذاك الهم ليس له دواءٌ ... سوى الموت المنطَّق بالمنايا

٣ - وأرجىء ما قاله فى أبيات الشماخ ، وسأفرد لها كلامًا غير هذا ، فإنها تحتاج إلى فضل بيان .

٤ - أما تعليقه على قول اللعين المنقرى :

ويترك جِدُّه الخَطَفَى جريرٌ ... وَيَنْدُب حاجبًا وبنى عِقالِ

فإنه قال : « معنى يندب هنا ، يجرح أعراضهم بالهجاء » . ولم أجد فى كتب اللغة : « ندبَ » ، أو « أَنْدَب » بمعنى جرح ، ولا أظنه يصح من جهة الاشتقاق . وأظن الكلمة محرفة ، ولا يزال البيت متطلبًا تصحيحًا ينفع [(١)] .

٥ - أما ما عابه من شرح بيت جرير فى هجائه عمر بن لجأ التيمى :

أَلَّا سوانا ادَّرأتم يابنى لَجَأ ... شيئًا يقارِبُ ، أو وحشًا له غُرَرُ

فإنى قلت إن جريرًا اشتق « ادرأه من الدريئة ، وهى الحلقة التى يتعلم عليها الطعن والرمى » . ثم رأيت فى تاج العروس مادة « درأ » مانصه : « ادَّرأوا ، وتدرّأوا : استتروا عن الشيء ليختلوهُ » ، أو جعلوا دريئة للصيد والطعن . وأستاذنا ينكر هذا ، ويراه بعيدًا ، ولكنى بعد أراه قريبًا . فإن عمر بن لجأ من شعراء تيم الرباب ، كانوا قد تعرضوا لجرير بالهجاء فقال يهجوهم وبنى تيم :

---

(١) ذكر أستاذنا رحمه الله (الطبعة الثانية ١ : ٤٠٢) أن هذه الكلمة وردت فى مخطوطة م : وتثرب (غير أنها غير منقوطة) فنقطها كما رأيتَ ، وهى من باب ضرب ، ومعناها : وبَّخه وعيَّره بذنوبه وعاب أفعاله .

قد كنت أحسبُ فى تيم مصانعة وفيهم عاقلا بعد الذى ائتمروا
تعرض التيم لى عمدًا لتهجونى كما تعرض لاست الخارىء الحجر
ألّا سوانا ادرأتم يابنى لجأ ... ...

فهو يذكر تعرض شعراء تيم له ، إذ جعلوه هدفًا لهجائهم ، فقال لهم : هلا اتخذتهم سوانا غرضًا .

أما مسألة « لها غِرَر » التى جاءت فى الأغانى والديوان ، وهما مطبوعتان سقيمتان غير محققتين ، فالأستاذ يرى أن « الغرر الغفلة » ، وأنها أحسن دلالة على ضعف عمر بن لجأ . وأن « عرر » ، وهى الأذى والشر ، دالة على قوة ابن لجأ ، وهذا غير مراد الشاعر بلاريب . فآثر الأولى . وأخشى أن يكون الذى أوقعه فى هذا الرأى ، أن شيئًا من شرح البيت سقط منى عند الطبع ، وهو قولى : « والوحش : الجائع الذى لا طعام له . يعنى سبعًا أو ذئبًا جائعًا جاء يتعرض لغنمهم . يقال : بات وحشًا ، أى جائعًا لم يأكل شيئًا فخلا جوفه ، قال حميد بن ثور فى صفة ذئب :

وإن باتَ وَحْشًا ليلة ، لم يَضِق بها
ذراعًا ، ولم يُصبح لها وَهْوَ خاشِعُ »

ومع ذلك فقد كان ينبغى أن أزيد الأمر بيانًا حتى لا يقع قارىء فى مثل ما وقع فيه الأستاذ صقر ، فأقول إن جريرًا كان يهجو التيم بأنهم رِعاء أذلاء ، وعيرهم بذلك فى شعره ، يقول :

وقد يحسن التيمى عقد نِجافه ولم يُحْسِنوا عَقْدَ القِلادة بالمُهر

والنِّجاف : جلد يشد بين بطن التيس وقضيبه فلا يقدر على السفاد . يقول : أنتم رعاء أخساء تحسنون هذا ، ولا تحسنون شأن الخيل . ويقول لهم أيضًا ، يذكر كلاب الرعاة وزرائبهم ، وأنهم ليسوا أهل حرب ، ولا أهل شرف يفدون على الملوك ، ولا أهل حلبات لسابق الخيل :

وتَيْم تُماشيها الكلاب إذا عدوا ولم تمش تيم فى ظلال الخَوافقِ

وتـيـم بـأبـواب الـزُّروب أذلـةٌ   وما تهتدى تيمٌ لباب السرادقِ
تَمْسَح تيم قُصَّةَ التَّيْس واستَه   ولا يمسحون الدهر غُرَّة سابِقِ

فهو إذن أراد أن يقول لهم : هلا رميتم بما تظنونه سهامًا تقتل ، شيئًا مما يطيف بأغنامكم ، أو ذئبًا ساغبًا جاء يعرّكم ، وينزل الأذى والشر ببهائمكم . يعرض بأنهم رعاء أذلاء لا شرف لهم .

٦ – أما هذه السادسة ، فقول المتوكل الليثى :

إنـا أنـاس تـسـتـنـيـر جـدودنـا   ويـمـوت أقـوام وهـم أحـيـاء
قد يعلم الأقوام غير تنحُّلٍ   أنَّا نـجـوم فـوقـهـم وسـمـاء

فعاب قولى : « الجدود جمع جد : وهو الحظ والسعادة والغنى والعظمة ، ولو أراد الأجداد والآباء لكان حسنًا » ، وأنا أرجو ممن عنده نسخة من الطبقات يضرب بالقلم الأسود ، على هذه الجملة الأخيرة ، فهى غير حسنة ، بل هى مضللة . وأشكر الأستاذ صقر أن دلنى على فسادها وإضلالها . ولكنه هو يقول : « إنه لم يرد إلا الأجداد والآباء ، فهم الذين يستساغ التمدح له بإضاءة ذكرهم وسالف مآثرهم بعد دثورهم . وبذلك تصح مقابلة هذا الشطر ، وبالشطر الثانى « ويموت أقوام وهم أحياء » . وأما إرادة التمدح بالحظ والغنى والسعادة والعظمة ، شىء لا غناء له هنا ، ولا يسوغ مثله فى هذا المقام ، ولا يتسق ذكره مع الشطر الثانى » . وهو كذلك .

ولكنى أقول بل أزعم – مع الأسف – أنه عنى بهذا الشعر « أقوامًا » يهجوهم يزدريهم ويضع من شأنهم ، ويقابل بين قومه وبينهم ، فيقول فى الشطر الأول والبيت الأول : « إنا أناس » من شأننا كذا وكذا ، ويقول فى الثانى : وأنتم « أقوام » نعتكم كذا وكذا ، ثم يقول فى الشطر الأول من البيت الثانى : وأنتم تعلمون « الأقوام » ما أذكره لكم فى الشطر التالى . فقابل بين « أناس » وبين « الأقوام » ، وكرر ذكر « أقوام » مرتين . فلعله أصبح واضحًا .

يقول : نحن أناس حياتنا حياة ، لا يزال مجدنا وحظنا من السعادة والعظمة يُضىء ويستنير على الأيام . وفى الناس « أقوام » حياتهم موت من بعد موت ،

لا يزال أمرهم ينطفىء بالذلة والضعة ، ولا يزال ذكرهم يموت بالصغار والخمول ، أنهم يعدون فى الأحياء . أو كما قال ابن رعلاء الغسانى :

ليس من مات فاستراح بميْتٍ   إنما الميْت مَيِّتُ الأحياءِ
إنما الميت من يعيش كئيبًا   كاسفًا باله قليل الرجاء

ثم يقول لهم : وأنتم أيها « الأقوام » تعلمون علما ليس بالظن – وهو شيء ولا ننتحله – أننا من فوقكم نجوم تضيء وتزهر ، وأن مجدنا وحظنا من الرفعة والعظمة يظلكم بسماء تعجز المتناول . وكل ذلك تعريض بهم ، وبما هم فيه من الخِسَّة والسقوط .

وقد أطلت ، ولكنى آثرت أن أنفى الريب من نفس من يرتاب ، وأن أصحح طريقى ، وطريق أخى الأستاذ صقر ، وطريق القراء ، فى سعينا إلى طلب الحق والبيان عنه . فإن رضى أخى ، فلعمرى ، لقد أعجبنى رضاه ، وذلك يقينى به . وحسبه من الشكر أن أجعله لى معوانًا على تدارك زلتى ، وإقالة عثرتى ، وتقويم ما اعوج من أمرى .

* * *

[الاستعمار البريطانى لمصر]
كلمة ألقيت فى اللجنة العليا للحزب الوطنى

١ – حين دعيت إلى إلقاء هذه الكلمة بين أيديكم ، كان أوّل ما فكرت فيه أن أعدّدَ أنواعَ الأخطار التى تحيط ببلادنا ، والأخطارِ التى تفعَلُ فى كياننا فعل السوس فى العرقِ العتيق . ولست أعنى مصر والسودان وحدهُمَا ، بل أعنى جميع بلاد الشرق ، وبلاد العربِ ، وبلادِ الإسلام ، فنحنُ فيما أرى رقعة واحدة ، لها هدفٌ واحدٌ هو الحرية ، ننازلُ عدوًّا واحدًا لهُ هَدَفٌ واحدٌ ، هو أن يسلبنا هذه الحرية .

٢ – ولكنّى رأيتُ الأخطارَ أكْثر من أن يحاط بها فى حديثٍ واحدٍ ، ورأيتُها جميعًا ترتدُّ إلى زَمَنٍ بعيدٍ ، ورأيتُها قد تطوّرت أطوارًا على كرّ الأيام . ورأيتُ المرءَ إذا رامَ أن يقسّم هذه الأخطار الداهمة أقسامًا كثيرةً فَعَل ، وإذا أَبَى إلّا أن يحصرَها فى شىء واحد فَعَل أيضًا غير آثم ولا مجانبٍ للصوابِ . وهذا الشىء ، هو الاستعمار . فالاستعمارُ خليقٌ أن يجمعَ فى هذا اللفظ البرىء من اللغة كُلّ معانى الأخطار ، وكُلّ خبائث الشرور التى اجتمعت فى أرض الله منذ كانت هذه الأرض ، فآثرتُ أن أجعلَهُ مادة هذا الحديث ، لا لأنّه شئٌ حَدَث اليومَ بعد أن لم يكن بالأمسِ ، بل هو كما تعلمون قديمٌ قد تطاول عليه الأَمَد ، والحديثُ عن شروره قديم أيضًا منذ كانَ هذا الخبث اللَّعين . ولم تزلْ أرجاءُ الشرقِ تردّد أصداءَ الزئير العالى ، زئير الأحرار فى كُلّ بقعة من بقاعه ، ولم تزلْ ترجّع أيضًا أناتِ المعذبين ، الذين صبّ عليهم الاستعمارُ عذابًا غليظًا ونكالًا شديدًا فى كل مكانٍ . ليسَ الاستعمارُ إذنْ شيئًا حديثًا كانَ بعد أن لم يكنْ من قَبْلُ ، وبيدَ أنّه شئٌ يتجدّد كُلّ يوم . ويتّخِذُ صورًا مستحدثةً مختلفة الأشكالِ : بعضُها بَشِعٌ تنكرهُ العينُ عند النظرة الأولى ، وبعضُها ثقيل بغيضٌ إلى النفوسِ ، ولكنّه يلحُّ إلحاحَ الذبابِ حتى ييأسَ المبتلَى به ، فيعرضُ عنه تارةً ويتجشّمُه أخرى ، فإذا

---

* يوم الخميس ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ ، ٣ مارس سنة ١٩٤٩ . وهذه الكلمة لم يضع لها الأستاذ شاكر رحمه الله عنوانا ، ولم تنشر من قبل ، أخذتها من أصولها بخط يده ، وجعلت عنوانها كما ترى .

طال الزمن أَلِفَ هذا البغيض الثقيل فلم ينكره . أما أخبث صوره وأخفاها فهو الذى يأتى القلوبَ من أضعفِ أركانها ، فيتمكّن ويضربُ بعروقه ، ويستفِحلُ ويتفشَّى ، حتى لا يكادُ ينفِرُ منه أشدُّ الناسِ بُغْضًا للاستعمار ، وأصدقهم حَمْلةً على أصحابه وطواغيته .

٣ - والأخطارُ الحديثة التى يشملها لفظُ الاستعمار كثيرةٌ لا يحصرها عدٌّ ، وأظهرهَا الآنَ خَطَر المطامِعِ الديمقراطية التى هَبَّتْ على الشرق كالذئابِ الضَّوارِى فى كُلّ أرضٍ وفى كُلّ ميدانٍ . وَخَطَر المطامع الشيوعية التى تَتَدسَّسُ إلى كُلّ قلبٍ ، فتلقى فيه فتنتها ، وتنفث فيه سُمُومها ، ومن البلاءِ أن تجدَ كثيراً من الناس لا يزالون يؤمنون بأنهم سوفَ ينالون خيرًا كثيرًا - أو بعض الخير على الأقل - على يد الفئة الديمقراطية ، وأن تجد آخرين لا يزالون يؤمنون بأن الفئة الشيوعية لا تضمر كبيرَ شرٍّ لهذه البقعة المسكينة من بلاد العرب أو بلاد الإسلام أو بلاد الشرق . وهذا الضربُ من الإيمانِ ، بل هذا الضربُ من الغَفْلَة ، كان منذ قديم أكبرَ مَقَاصد الاستعمار ، سَعَى إليه ، ولا يزال يسعى إلى الإكثارِ منه ، وإلى تزيينه عند الجَمَاهير ، لا عند الطبقة المثقَّفة وحسبُ . ولقد أدرَكَ الاستعمارُ ما شاءَ من هذا المقصد ، فمن أجل ذلك رأيتُ أن أَصرف وجه الحديث إلى ناحية من نواحى الاستعمار ، أراها أجدَرَ بالبيانِ وبالفَهْمِ ، وأرى التقصير فى بيانها وإفهامها لجماهير الناسِ ، هو الخطر الحقيقى الكامن ، وراءَ خطر الديمقراطية ووراءَ خطر الشيوعية ، أو وراء خطر الاحتلال العسكرى السافر ، أو خطر الاحتلال الاقتصادى الملثم ، بل هى مادّة كُلّ خطرٍ يتجدّد علينا إلى أن يزول الاستعمارُ عن وجه هذه الدنيا .

٤ - إنّ فى الاستعمارِ فضيلةً واحدةً هو أنه شىءٌ بشِعٌ بغيضٌ ، لا يشُكُّ أحدٌ فى سوءِ مغبّته إذا مَسّه ، أو توهَّم أنه سوف يمسُّه ، وأنّه كُلُّه لا يستطيع أحدٌ أن ينبرى للدفاعِ عنه ، وأنّه خَبَثٌ سافرٌ ، لم يتيسَّر لأذْهَى الناسِ أنْ يذكرَه مصرِّحا باسمه ، ثم يزعمُ أنه خيرٌ من بعضِ نواحيه ، أو أن يحسّنَه جَهْرَةً فى عيون الناس . وإذن فالاستعمارُ مكفىُّ الشرّ من هذه الناحية ، وهى فضيلةٌ تُذْكَرُ له بالخيرِ .

٥ - نعم ، لم يستطعِ المستعمرون أنفسهم حين دخلوا البلاد التى استعمروها ، أن يقولوا للعالم ، أَوْ أن يقولوا لأهل البلاد التى ابتُلِيتْ بهم : لقد جئنا نستعمركُمْ ، أو لقد جئنا نحتلّ بلادكمُ . كلّا ، بل اخترعوا للتدليس على أنفسهم شيئًا سَمَّوهُ « عبءَ الرجُل الأبيض » ، أنفةً من خَسَاسة مَا يرتكبون . ثم قالوا بلسان السياسة : إنّما جئنا لإنقاذ هذه البلاد من الفوضى ، أو جئنا لتخليص ذلك الشعب من الجهل والفساد ، أو جئنا لرفع ظُلْم المهراجات أو الباشوات أو الطبقة الحاكمة عن الشعب الفقير المضطهد ، أو جئنا لترسيخ دعائم عرشٍ تزعزعه الثورات والفتن ، أو جئنا لحقّ بسيط جدًّا أو واضح جدًّا ، هو الحقّ المكتسب فى حماية طريق الإمبراطورية . هذا هو الأسلوب القديم الذى كان المستعمرون يعبِّرون به عن عواطفهم النبيلة ، وعن الحوافز السامية التى تدفعهم إلى ارتكاب الخيراتِ واقترافها - كارهينَ أو رَاضين .

٦ - كان الاستعمارُ يومئذ فى أوائل أمره ، وكان المستعمرون يعرفون أتم معرفة أن الشعوب التى ابتُلِيتْ بهم سوف ترى استعمارهم سافرًا كما هو ، لأنه كان يأتى عقب الغزو الحربى ، ولأنه كان يقوم يومئذ على الاحتلال العسكرى الطاغِى وحده . وكانوا يعلمون أنهم مهما قالوا فى تسويغ هذا الاحتلالِ ، ومهما زيَّنوه بهذه العواطف الرقيقة والمقاصد النبيلة ، فلن يجدوا من الجيل الذى شهد قارعة الاستعمار تحلُّ به إلّا عاطفةً واحدةً ، هى النفورُ من هذا المعتدى على حريته ، الغاصب لبلاده ، المتسلّط فى أمره بقوّة السلاح والإرهاب . ويعلمون أيضًا أنّ هذا الجيلَ سوف ينطوى على نفسه صابرًا مرابطًا ، يترقَّبُ الفرصة للانتقاض على من احتَلّ بلاده ، ويجمَعُ الأحقادَ فى قلبه على الطاغى المستبدّ ، ويُوَرِّث أبناءه هذه الأحقاد .

٧ - ولو أصرّ الاستعمار البريطانى - مثلا - على أن يَظلّ احتلالًا عسكريًّا مجرّدًا منذ سنة ١٨٨٢ ، لظلَّ الناسُ يجمعون له من الأحقاد والأضغان ، ما كان خليقًا أن يقوّض أركانَهُ فى أقلَّ من خمسين سنة ، ولم يُغْنِ عنه يومئذ « عبْء الرجل الأبيض » ، ولا سائر العواطف النبيلة التى دخل من أجلها هذه البلاد .

ولو ظل هذا الاستعمار سافرًا كيوم جاءَ ، لظلّ الصراعُ بيننا وبينه سافرًا أيضًا ، ولا نتهى إلّا إلى أحد أمرين لا مناص منهما : إمّا أن يقضى علينا جميعًا ، وإمّا أن نقضى عليه نحن جميعًا . والأمر الثانى هو الذى لاشكّ فيه ، لأنه مصيرُ الاستعمار فى كُلّ أرضٍ نُكبتْ به . بيد أنَ الاستعمار البريطانى - وهو رأسُ الاستعمار وحاميه فى العالم كُلّه - أخبثُ من أن يظَلَّ ثابتًا على حالٍ واحدةٍ ، يعلم أنّها تحشُد عليه الضغائن والأحقادَ ، وتفضى به إلى هذا المصيرِ المحتوم . فماذا فَعَل ؟ وكيف دبَّر وقدّر ؟

٨ - والإجابة على هذا السؤالِ القصيرِ من أعسَرِ الأشياء ، لأنّها لا تتعلَّق بفترةٍ قصيرةٍ من الزمن ، ولا بشَىء أو شيئين من أمور السياسة ، بل هى تشمل أَقْصى ما تتخيَّل من الأشياء ، وعلى أطولِ فترةٍ من الزمانِ ، وأنا فى حيرة تجعلنى لا أستطيعُ أن أصوّر لكم فى هذه الكلمة كُلّ ما يتمثل فى صدرى من أساليب الاستعمار ، ولا أن أجمعها على ترتيبٍ أستحسنُه وأرضَى عَنْه . ولكنى أذكر لكم أمرينِ أضمرهما الاستعمارُ البريطانى منذ وَضَع قَدَمَه فى أية أرضٍ ، وهُما فِعلُ الزَّمَن ، وفِعْلُ الشهواتِ خيرها وشرّها . فهو يستعين بالزمن على الأمم ، يطاولُها ويراوغُها ، ويضربُ الضربة القاتلة ثم يسكنُ حتى تسكنَ النفوس ، ثم يعودُ فيضربُ الضربة الأُخْرى ويكمن . وهكذا دواليك حتى يَصِل إلى الغاية التى ينشدها على مرّ الزمن . وهو يستعين بشهواتِ الأفراد والجماعات على مرّ الزمن وتطوُّره ، ويعطيها بقَدَر ، ويحرمُها بقدَرٍ ، حتى يستطيع على مرّ الزمن أيضًا أن يتحكَّم فى توجيهها إلى الغرض الذى يَرْمِى إليه .

٩ - ولقد علم الاستعمارُ منذ أول يومٍ أن الاحتلالَ العسكرى السافِر إن هو إلّا جبروتٌ يُفْرض على الناس فرضًا ، ويصبُّ عليهم صَبًّا وهو إذن سيء المغبّة . فهو يرتكبه إلى حين ، على أنه اضطرار وشرٌّ لا مناص منه ، ثم يجهد جُهْدَه خلالَ ذلك أن ينشىء نظامًا تامًّا يكفُلُ له البقاء الثابت بغير حاجة إلى إظهار الاحتلالِ فى أبغضِ صُوره وأظهرها ، وهو الاحتلال العسكرى المحض ، لكى يتفادَى اشمئزاز النفوس وانطواء القلوب على الأحقاد والبغضاء . وهو ينشىء هذا النظامَ على

مراحِلَ ، وعلى أوسع نطاقٍ يتصوره الناظرون ، وبأخبث الأساليب التى تخطر على النفس الإنسانية . إنه نظامٌ يتعلَّق بالسياسة ، كما يتعلّقُ بأساليب الحكم وبضمائر الحاكمين ، ويتعلَّقُ بالمعاملات بين الناس ، كما يتعلَّقُ بأخلاق الجماعات والأفراد ، ويتعلّق بأعمال الناسِ فى الحياةِ من تجارة وصناعة وزراعة ، كما يتعلَّقُ بأفكار الناسِ فى شئون العَقْل من علم وأَدبٍ وسياسة وفنّ ، ويتعلّق بمعايش الناسِ فى بيوتهم ومجتمعاتهم ، كما يتعلّقُ بأهوائهم وشَهَواتهم فى هذه الحياة ، ثم يتعلَّقُ بآثار ذلك كُلّه فى تدمير شعبٍ بأسره تدميرًا منظَّمًا لا يعرف إنسانيَّةً ولا شرفًا ولا كرامة . فهذا النظام كما ترون لا ينتهى إلى أسلوب من أساليب الحكْم فى البلاد ، بل ينتهى إلى أبشعِ غايةٍ فى هذه الدنيا – إلى جمهور مسكين تُسَلَّطُ عليه كُلّ ألوان الفساد والانحلال ، يأتيها طائعًا مختارًا حينًا ، وراغبًا متحمّسًا حينًا آخر ، وهو لا يدرى أن ما يأتيه هو البلاءُ الأعظم والشرُّ المستطير – بل أفظَعُ من ذلك إذ يمضِى الزّمنُ فإذا الجمهور يعدّ ذلك الشرَّ خيرًا يحرصُ على إتيانه ، ويظنُّ من ينهاهُ عنه أو يزجره ، هو الكاره له ، وهو عدوّه الذى يبغى له الغوائل ، ويرى الناصح المشفق دسيسًا عليه يريدُه أن يتأخّر وهذه الدُّنْيَا من حوله كُلُّها تتقدَّم . وأنا لا أرتاب فى أن الجماهير مهما فعل بها الاستعمار ، لن تفتأ مخلصة فى بُغْضه ، ومخلصة فى حبها لأوطانها – ومع ذلك فهى لا تفتأ تسيرُ أيضًا فى أخفى طرق الاستعمار وأوغدِها ، تسيرُ فيها لأنها طرقٌ تزيِّنُها الأهواءُ والشهواتُ ، فلا تبصر فيها إلّا ما تحبُّ وما تشتهى . ومن للجماهير بأن تملك أهواءها وشهواتها ، وليسَ لَهَا يومئذٍ هادٍ يعصمُها من مهالك هذه الأهواء والشهوات .

١٠ – هذه هى الدُّروب التى سلكها الاستعمار إلى تحقيق شرور كثيرة ، ثم انتهى إلى شر منها ، بل إلى الشرّ الأكبر – إلى أبناء المضطهدين ، وإلى سلالة المعذَّبين ، وإلى فرائس الغاصبين ، فإذا هم يجاهدون فى أن يرفعوا عن أنفسهم وعن أبنائهم آصارَ الاستعمار ، وفى أن يميطُوا عن بلادهم شرّه وشَناعته ، وفى أن يدفعوا عن أعراضهم ذُلّه وعارَه – وهمْ فى الحقيقة أعوانٌ له ، وهم خدمٌ لدعوته – بلْ هم شرٌّ من ذلك ، هُمْ معاول هدْمٍ يهدم بها الاستعمارُ كيان أُمّتهم وشَعبهم

وبلادهم ، ويهدمُ أركان الحرية فى كُلّ عمل وفى كل مكانٍ – ولكنهم مع كُلّ ذلك يظنُّون أنفسهم سَواعِد تبنى لا مَعَاول تهدم .

١١ – وقد استطاعت أمّ الاستعمار ، أم الخبائث – بريطانيا العظمى – أن تجمعَ فى احتلالها لبلادنا من ألوان الخداع والتغرير والنفاق والعبث بالضمائر والنفوس ما لم تجمعه لأمة غيرنا . فمن الخيرِ لنا أن ننظر فى تاريخنا إلى أساليب الاستعمار كيف كانت ، وماهى الغايات التى سعى إلى إحرازها ، وماهى الأحوال التى جاهد فى سبيل إيجادها ، حتى تيسَّر له أن يخفّف صور الاحتلال العسكرىّ الذى يملأ عليه القلوبَ نقمةً ومرارة ، فذلك أحرَى أن يعصمنَا من الزلل فى تفسير سياسة الاستعمار ، وأن يعصمنا من طريقٍ وبيلةٍ نسيرُ فيها إلى هوَاه – عُمْيًا ونحنُ ندّعى لأنفسنا الإبصار ، أو يَجْعَلُنا نخرّب بيوتنا بأيدينا ونحن نظن أننا نعمّرها . ودراسةُ هذه الأساليب هى خلاصة المحنة التى مَرَّتْ بنا ، يجبُ أن نعرفها تمامَ المعرفة ، ويجبُ على كُلّ منّا أن يذكرَها فى كُلّ ساعةٍ ، وأنْ يقرأ على هُدَاها كُلّ خبرٍ ، وأن يطبّق فحوَاها على كُلٍّ مايرى وما يَسْمع ، ويجب أيضًا أن يذيعها بين الناس فى كُلّ مكانٍ ، وبين كُلّ طبقة من طبقات الشعب . فهى تفسّر له ولنا هذا البلاء الذى نعيش فيه اليوم ، وهى التى تقينا كل فتنة جديدة من فتن هذا الاستعمار .

١٢ – دخلتْ بريطانيا بلادنا غازية فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وادَّعتْ أنها جاءت لكى توطّد لنا أركانَ عرشنا ، وتطفىء نار الفتنة العرابية كما يسمّونها ، وزعمتْ أن بقاءها لن يطول ، وأن مصيره إلى الجلاء القريب . بيد أن بريطانيا المستعمرة انتهزت الفرصة الأولى لتضرب ضربة حاسمة ، فلم تمض خمسة أيام على دُخُولها حتّى ألغت الجيش المصرىّ ، ومزّقت البحرية المصرية ، وأغلقت مصانع السلاح ، وسرّحت الجنود ، وجرّدتْ الضباط الصغار من رتَبهم ، وقدمت كبار الضباط للمحاكمة ، ووضعت الشرطة كُلَّها تحت سيطرتها المباشرة ، وتتبَّعَتْ الأحرار الذين اشتركوا فى الثورة ، فقبضت عليهم أوشردتْهم ، حتى يخلُو لَها الطريق ، فلا يجدُ الشعبُ من يستجيشه إلى الانتقاض عليها . هذه هى الضربة

الأولى ، ضربةٌ سريعةٌ تستعين بريطانيا بالزَّمن على نيل غايتها منها - وهى أن لا يكون لمصر جيش إلّا صورةً من الصور ، وأنتم تعلمون كيف تم هذا ، وإلى أى مدًى وُفِّقت بريطانيا فى تحقيق غايتها إلى هذا اليوم .

١٣ - نظرت بريطانيا بعد دُخُولها ، فإذا هى أمامَ شعبٍ هُزِم فى معركةٍ كان يشتركُ فيها شِيبُه وشُبَّانه وفقيرُه وغنيُّه ، وجاهِلُه وعالمه . فلا قِبَلَ لَها بأنْ تصدمَه صدمةً واحدة بإظهار الاحتلال العسكرىّ الصَّارِخ فى أبغض مظاهِرِه ، خشيةَ أن يثورَ بعد قليلٍ ثورة جائحة . ولكن لابُدَّ من إضعافِ ثِقَة هذا الشعبِ بنفسه وبرجاله وبحكّامه دون أن يجد غضاضةً مُرّةً تشمئزُّ منها النفوس ، ولابُدَّ من أن يأتى ذلك على مراحِلَ ، وأن تستمرَّ هذه المراحِل حتى تظفر بالسلطة كاملةً غير منقوصة . فتظاهرت بريطانيا بالعفّة عن الاستيلاء على مقاليد الحكْم كاملة ، ونصحت توفيق بأن يستدِعى رجُلاً - كان منذ سنةٍ واحدةٍ - فيما يعرف الناسُ جميعًا ، نصيرًا لعرَابى باشا ، إذ جاءَ على إثر ثورة الجيش ، فتولّى الوزارة بمعونة العرابيين ، وتحقّق على يديه كثيرٌ مما يريدون ، وهذا الرجُل هو شريف باشا . وأرادتْ بريطانيا أنّ تختار هذا الرجل بعينه ، لأن الشعب كان يعرفُه ، ويعرف إخلاصَهُ لبلاده ، وحبَّه لخيرها ، وإشفاقَه عليها . وعلمتْ بريطانيا أنَّه لن يتردّدَ طويلًا إذا استدعِىَ فى هذه المحنة الماحقة ، لأنه سوفَ يظنُّ أنه مُسْتطيعٌ أن يدفعَ بعض الشرّ عن بلاده . فإذا جاءَ فمجيئُه يسكّنُ ثائرة النفوسَ الجامحة ، ويجعلها تصبِر حتى تنظُر ماذا يفعل ، ومجيئُه أيضًا يخفف وقع الاحتلال العسكرىّ ، وسيقول الشعبُ : هذا رجُلٌ كان قريبًا إلى عرابى يتعاونُ مع الغُزَاة ، إذن فلعلَّهم راحلونَ ولعلهم أرادوا بعضَ الخير كما يزعمون . ويأتى شريف فى أغسطس [(١)] سنة ١٨٨٢ ليتولّى الوزارة ، معلنا فى كتاب تأليفها أنّه جاءَ وغايته صيانة البلاد « ونجاحُ الوطن ماديًّا وأدبيًّا ، وتعميم المعارف ، ونشر لواءِ العدالة ، وتوسيع نطاق

---

(١) لابد أن يكون توليه الوزارة متأخرا عمّا ذكر الأستاذ رحمه الله ، لأن الاحتلال الإنجليزى لمصر تم فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ .

المبادىء الحرّة الملائمة لهيئتنا الاجتماعية والسياسية » يعنى « مجلس النواب » و« الدستور » .

وقد خُدِع شريفِ بنفسه وببريطانيا ، فقد ظنّ أنه يستطيعُ أن يفعل شيئًا ، وأضمرت بريطانيا أن تبدأ بتلويث هذا الرجل الذى كان نصيرًا لعرابى أو نصيرًا للدستور - كما يطلبه عرابى - وأستطيعُ أن أقولَ إنّ شريفًا كانتْ فيه غفلةٌ شديدةٌ ، لولاها لقاوَم بريطانيا بدلًا من أن يتعاون مَعَها على يد الخديو الذى زعمت بريطانيا أنها جاءت تثبت له دعائم عرشه . وظلت بريطانيا تطوى الرجَل وتبسُطه سنة ونصف ، حتّى جاءت الساعة ، فإذا هى تستطيع أن تستغنى عنه وأن تسقطه من حسابها جملةً واحدة . ولكنْ بعد أن تعاون مَعَها ، وبعد أن ألف الشعبُ تعاونه معها ، وبعد أن رَجَا الشعبُ أنْ تُرْفَع عنه نقمة الاحتلال على يد هذا الرجل الذى عارضَ الخديو وعارضَ عرابى ، وبقى مع ذلك موضع ثقتهما فى الأزمات . ففى ٧ يناير سنة ١٨٨٤ رفض شريف إخلاء السودان كما طلبت بريطانيا ، فإذا وزير خارجية بريطانيا « جرانفيل » يرسل برقية إلى مصر هى أغرب بل أوقح برقيّةٍ فى تاريخ الحياة السياسية المصرية يقول فيها : « من الضرورىّ أن يتخلّى عن منصبه كل وزيرٍ أو مدير لا يسيرُ وفقًا لسياسة بريطانيا » . وتؤكد البرقية أيضًا « أن حكومة جلالة الملكة - البريطانية طبعًا - واثقةٌ من أنّه إذا اقتضت الحالُ استبدال أحد الوزراء ، فهناك من المصريين ، سواءٌ من شغلوا منصب الوزارة ، أو شغلوا مناصبَ أقل درجةً - من هُمْ على استعداد لتنفيذ الأوامر التى يصدرها إليهم الخديو ، بناءً على نصائح حكومة جلالة الملكة » ، استقال شريف غضبًا للسودان ، ولكنه طُردَ فى الحقيقة طردًا لا كرامة فيه ، وخرجَ لم يَفْعَل شيئًا مما كان يرجوهُ الشعب ، وخابَ رجاءُ الشعبِ فى رجُلٍ من رجالاته ، وبقى شريف ساكنًا لا يستطيع أن يحرّكَ سكونَ هذا الشعب المسكين ، وانزوى بين جدران بيته .

١٤ - ويبدأ الفصلُ الثانى من المسرحية التى يرادُ بها إذلالُ الشعبِ وتوهينُ عزمه ، وتبديدُ ثقته فى رجاله . فيستدعى رياض باشًا إلى تأليف الوزارة ، ولكنه

يأبى ، لا لأنّه ممن يؤمنون بمقاومة الاحتلال ، أو من الذين يعملون عملاً صادقًا فى مقاومته ، بل لأن مسألة السودان « بَغْى ظاهر لا يستره شئٌ » .

١٥ – ويأتى الفصل الثالث ، وترى بريطانيا أن خروج شريف وإباءَ رياض ، لم يُثِرْ غضبة هذا الشعب الذى غاب عنه أَحرارُه وأسودُه . فتتعمَّد إذلالَه إذلالًا سافرًا لترى ما وراءه . وتأْتى بأرمنىّ خبيثٍ ، ممن ابتليت بهم مصر كما ابتليت بسائر الأجانب . فيتولّى وزارة مِصْر نوبار ، ويقضى فى السودان بما تُرِيد بريطانيا ، وتجدُ بريطانيا شعبًا ساكنًا لا يغيّر عليها ولا يثورُ . فتلقى حَبْلَ هذا الأرمنىّ على غاربه ، يعيث ماشاءَ أن يعيث فى وزارته من يناير سنة ١٨٨٤ إلى يونية سنة ١٨٨٨ . ويختلفُ هذا الأرمنى مع توفيق لأسبابٍ تافهة ، فيستقيل ، ولا تبالى بريطانيا أن تنصر من نَصَرهَا وسار فى خدمَتها . ولماذا ؟ لأنها لا تأمن أن يطولَ إذلال الشعب بهذا الأرمنى ، فتسوء العاقبة . ثم هى تريد ماهو أَفْعَلُ من مجرّد الإذلالِ – تريد أن يشهَد الشعب المسرحية التامة التى تفقده ثقته بنفسه وبرجاله .

١٦ – ويبدأ الفصل الرابع . هذا الذى انتصر لشريف فى مسألة إخلاء السودان ورفض الوزراة أين هو ؟ لقد مضى على هذا الإخلاء أربع سنوات ، لعله نَسِىَ ، ولعلّه لا يرى الآن بأسًا فى قبولها ، ولعلَّه يظنُّ كما ظنّ شريف أنه سوف يرفع عن بلاده شيئًا من هذه الغاشية ، وأن يردّ عنها بعض شرور الاحتلال ، بالتعاون مع الاحتلال . وصدق حدسُ بريطانيا ، فإذا رياض باشا لا يأنفُ أن يؤلف الوزارة ، مغالطًا نفسه ، ومغالطا عيون نَظّارة الشعب . ويظل رياض ينزلق فى هَوَى بريطانيا الخفى وكيدها المسموم ، ويلوّث نفسه تارة ويَغْسِلُها أُخرى ، ويتورطُ فى أشياء تضرُّ مصْر ، فتكافئه بريطانيا بأن تأذن له فى عمل يقابله يظنّ أن فيه مصلحة ظاهرة لمصر ويستمرّ يفعلُ ذلك ، وتستمرّ بريطانيا فى كيدها له ولشعب مصر من يونية سنة ١٨٨٨ إلى مايو سنة ١٨٩١ . وذلك حين جاءه الأمرُ الملزم بتعيين مستر سكوت مستشارًا قضائيًا . فينفر رياض من هذا العدوان ، ويأبى ويصرُّ على الإباءِ ، ثم يلين على مضضٍ ، ثم يستسْلِمُ ، وتكرهُ بريطانيا هذا التلكؤ ، فهو كان خليقا أن يعلم كما علم شريف من قبل ، أن برقية جرانفيل توجب على الوزراء وغير الوزراء أن يسمَعُوا ويطيعُوا . ولقد صبرت بريطانيا عليه ثلاث سنوات حتى

يتمَّ تلويثه ، وإظهارُ عجزه على عيون الشعب . وقد تم لها ما أرادت وإذن فليستقل ، فاستقال بعد تعيين سكوت بثلاثة أشهر ، وانزوى كما انزوى شريف من قبل .

١٧ – لقد مضت الآن تسع سنواتٍ على هذه المسرحية التى يشهدها الشعبُ ليستكين ويخضَع . ولم تجد بريطانيا أثرا ظاهرًا لتلويث هذين الرجلين وامتهانهما ، ولم تجد شعبًا ينكر إذلاله بهذا الأرمنى نوبار ، وإذن فقد آن الأوان للإتيان بمصرى آخر كانت بريطانيا تعلمُ أحسن العلم أنه يرضى كل الرضى بالسعى فى خدمة بريطانيا العظمى مهما كلّفه هذا السَّعْى ، وأنه سامع لها ومطيعٌ كما تشاء وفيما تشاءُ . ولقد كانت تستطيع أن تفرضه منذ أوّل يوم دخلت فيه مصر ، ولكنّها لم تفعلْ ، لأنه ذخيرةٌ ادَّخرتها حتى تتمَّ معالجة هذا الشعب وترويضَه على قبول الواقع ، وبعد أن يفقدَ بعض إيمانه بجدوى المُقَاومة ، وبعد أن تطمئن إلى أنّها بلغت الغايةَ فى اختبارِ إرادته وثقته وعزيمته . ويبدأ الفصل الخامِسُ من المسرحية ، فيؤمر مصطفى فهمى ، وزير الاحتلال الأعظم ، بتأليف الوزارة فى ١٤ مايو سنة ١٨٩١ . وهذا الرجل هو الذى قال فيه ملنر « إنّه أول رئيس للوزارة المصرية يشارك الإنجليز عواطفهم غير متحفّظٍ » . وكانت بريطانيا تستطيع كما قلتُ أن تفرض هذا الرجل على مصر منذ أول يوم ، وكانت تستطيع أن تجعل حُكْمها فى مصر حُكْمًا مباشرًا على يده ! نعم كانت تستطيع ، ولكنّها لم تكنْ تريد ، لأنها تنظر إلى المستقبل البعيد ، وتهيىء لهذا المستقبل كل الأسباب والأحوال التى تؤازره على البقاء الطويل ، طبقًا لما ترسمُه وما تريده .

١٨ – ثم حدث شيءٌ لم يكُنْ فى حسبان بريطانيا ، فخرج منه شيءٌ جعلها تعرف أنّها أخطأت فى حسابِ هذا الشعب وفى تمييز قُوَّته وعظمته وكوامن نفسه . مات توفيق فى ٧ يناير سنة ١٨٩٢ ، وفى عهد وزير الاحتلال مصطفى فهمى ، وولى بعده عباس الثّانى الشابُّ . وظلّ ساكنًا سنة كاملةً ، حتى إذا مرض مصطفى فهمىَ فى ٥ يناير سنة ١٨٩٣ أرسل إليه يحرّضه على الإستقالة مراعاة لصحّته ، فيردّ وزير الاحتلال بأنه سيفكّر فى الأمر ، وأنه خير لسموّ الأمير أن

يستشير اللورد كرومر ، فيغضب الخديو الفتى ، ويرسل إليه كتابا بإقالته ، ويأمرُ حسين فخرى بتأليف الوزارة فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ وتتألّف الوزارة ، وإذا كرومر يأتى فى ١٧ يناير بعد يومين يحمل إلى الخديو برقيةً من وزير خارجية بريطانيا ، يُعارض فى تعيين فخرى باشا ، وتذكر حَقّها فى اختيار الوزراء طبقا لما تأمر به برقية جرانفيل . وتحدث الأزمَة ، ويعاند الخديوى ويصرُّ على حقوقه ، ويشيع الخبرُ فى الناس ، فإذا الشعبُ كُلَّه يهبُّ هبَّةً واحدة حتى الموظّفون ، ويمضى إلى سراى عابدين وفودًا بعد وفودٍ مؤيدّة للخديوى فى موقفه . ويومئذٍ استيقظت بريطانيا ، ولم ترد أن تتراجع ، وآثرت أن تعودَ إلى الحزمِ مَرّة أخرى ، وتشبثت بإقالة وزارة فخرى باشا وسترًا لانهزامِها أمام سخط الشعب . وأرادتْ أن تترضّى الناسَ ، وهى تطوى الغيظ عليهم والتربُّصَ بهم ، فاستبدلتْ بفخرى باشا رياض باشًا مرّةً ثانيةً ، ليمثل الفصل السادسَ من المسرحية المهلكة ، وذلك فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٣ . وظلّ رياض سنة كاملة فى الوزارة ، وبريطانيا تتربّص . ففى ١٨ يناير سنة ١٨٩٤ سافر الخديوى فى رحلته إلى وادى حلفاء ، وعرضت فرقة من الجيش المصرى يتولاها بريطانى ، فلاحظ بعض النقص فى نظامها وتدريبها ، وانتقد نظام الجيش كله، فثار كتشنر وعدّها إهانة له وللكرامة البريطانية ، وثارت معه بريطانيا كلّها وطلبت الحكومة البريطانية أن يعتذر الخديوى ، وخاف رياض فنصح الخديوى بالاعتذار ، وقد كان ، طلب رياض ، ولكن الخديوى أسرّها له فى نفسه ، ويبسَ الثرى بينهما ، فاستقال رياض.

١٩ – كان هذا الحادث قَتْلًا للروح التى ظهرت فى الشعب عند إقالة مصطفى فهمى ، وظَهَرَ له جليًّا أن الخديو أيضًا لا يستطيع شيئًا أمام هذه القوة القاهرة ، وعرفت بريطانيا أثر ذلك فى الشعب ، فأسرعت بفرض وزارة نوبار باشا فى ١٦ إبريل سنة ١٨٩٤ ، ليعود لإذلال الشعب مرّة أخرى ، وإرغامه على التسليم بقوة بريطانيا التى تعزلُ من تشاء ، وتوَلّى من تشاء . ولم يلبث نوبار أن فَرضَ تعيين أول مستشار بريطانى لوزارة الداخلية ، صارت له الكلمة العُلْيا فى الوزارة وعَيّن المفتشين الإنجليز ، وكاد يلغى سلطات المديرين المصريين . وردًّا

على فعلة الخديوى ، أنشئت المحكمة المخصوصة التى تحاكم من يتعدّى على ضباط جيش الاحتلال وجنوده . وكان ختام الفصلُ السابع من المسرحية ، أن اشتدّ الخلاف بين عباس ونوبار ولكنه أبى أن يستقيل ، فلجأ عبّاس إلى كرومر يحتالُ على إقالة هذا الأرمنى برغبته فى إعادة مصطفى فهمى وزير الاحتلال . فاستقال نوبار فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥ .

٢٠ - وفى اليوم التالى بدأ الفصل الأخير من هذه المسرحية ، وتولّى مصطفى فهمى وزارةً تدومُ من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٨ ، أى دامت أكثر من ثلاث عشرة سنةً ، يشارك رئيسُها الإنجليز عواطفهم غير متحفّظٍ .

ولست أشُكُّ لحظةً فى أن السياسة الاستعمارية ، لو أرادت أن تحكم مصر حُكْمًا مباشرًا بالاحتلال العسكرىّ لفعلتْ ، ولو أَرادتْ أن تفرضَ منذ دخلت وزيرًا واحدًا يقضى بقضائها كما تريد لفعلتْ أيضًا . نعم ، ولكن لم يكنْ يعنى بريطانيا شيء ، بقدر ما يعنيها تثبيطُ قُوَى الشعب الكامنة ، وترويضُه على قبول فكرةٍ واحدة ، هى أنه لا خير فى مصادمة الاحتلال أَو مقاومته ، فلجأتْ إلى تمثيل هذه المسرحية الطويلة التى دام القسم الأول منها ثلاث عشرة سنة فى تقليب الوزراءِ على أعين الشعب ، ودامَ القسم الثانى ثلاث عشرة سنة أيضًا بوزير واحدٍ تأمُرُه بريطانيا فيطيعُ . وفى خلالِ ذلك تتمُّ ثلاثة أشياء - الأوَّل أنْ يَظْهر سلطانُ بريطانيا القاهر فى الحُكْم ، وفى الحاكمين - والثانى أن يَفْشو تحكُّم البريطانيينَ فى الدَّوَاوين وفى الحياة العامة - والثالث ، أَنْ يجهَلَ الشعبُ جهلًا تامًّا تَفَاصِيل ماتضمرُهُ برِيطانيا من خفايا سياسَتِها . وقد استطاعتْ أن تحقق ذلك كُلّه على يد كرومر ، وبغفلة الرِّجالِ الذين تولّوا الحُكْم تحت سلطانها مِن المخلصين ، وبخيانة الوزراء الخَوَنَة الذين راضوا أنفسهم على الطاعة المطلقة ، وعلى كراهة هذا الشعبِ .

٢١ - ستٌّ وعشرون سنة أيها الإخوان من سنة ١٨٨٢ - ١٩٠٨ ، أمّةٌ حائرةٌ أذهلتها مفاجأة الاحتلالِ ومفاجأةُ الهزيمة ، أمّةٌ أصبحت ولا جيش لها ، أُمّةٌ يعاون وزراؤها جيش الاحتلالِ ، أمّة شرّد أحرارها واضطهدوا وأُبعدوا عن شَعبهم ،

وإدارةٌ كُلُّها فى يد الإنجليز ، ودواوين تعمَلُ تحت سلطانهم ، ورجالٌ يخدمونهم ويعاشرونهم ، وأَمْوالٌ تنفق على شراء النفوس الضعيفة ، ومدارسُ كلها تحت إشرافهم ، كُلّ صغيرة وكبيرة مما يقرؤه الطُّلَّاب ومما يدرسونه ، وكتب خاصة وضعت لخدمة الاحتلالِ من ناحية ، ولإنشاء جيلٍ من المتعلمين الجاهلين من ناحية أخرى ، وصحافةٌ تحتضنها بريطانيا وغير بريطانيا من المستعمرين ، تعمل وتتَّسِع وتنشر على الناس ماتريده بريطانيا أن يُنْشَر لإضعاف نفوس الناس وتثبيط عزائمهم فى مقاومة الاحتلال ، وشراذِمُ من الأجانب مسرّحةٌ فى أرض مصر تستولى على تجارتها وصناعتها وزراعتها وسائر مصادر رِزْقها ، وتسلبُ المصريين أموالَهم وتحتقرُهم وتفقرُهم تحت حماية الاحتلال ، وحياة اجتماعية جديدةٌ تستهوى جماهير الشعب الجاهل الغافل ، وآراءٌ تُذَاع فتستميل القلوب حينا وتنفّرها حينا آخر ، وسلطانٌ يرهبُ ويخيفُ ، ومودّة تنافق للعلماء وأصحاب الرأى فتفتنهم وتخذلهم ، وأموالٌ تؤلّف القلوب النافرة ، ومناصبُ تُوهب لمن يتطَّلبُ الجزاءَ أو المجد أو الشرف فى بلاده المحتلة . ستّ وعشرون سنة ، وذلك كُلُّه يحدث ويزداد اتساعًا على الزمن ، وتظْهر آثارُه على مرّ الأيام . لماذا ؟ لأنّ بريطانيا أرادتْ أن تضرب بمعاوِل اليأسِ فى قلوب الذين شهدوا هزيمة بلادهم ، وحضروا نكبة احتلالها . وأرادتْ أيضًا أن تطيل هذه المُدّة لكىْ تستطيع أن تنشىء من أهلِ مصر ، ومن شباب مصر ، جيلًا من المثقَّفين تريده على صورةٍ بعينها . وأرادت أخيرًا وهو أَهَمُّ ما تريدُ : أن تجعل الشَّعْبَ يحارُ ويضطربُ وتتنازعه الأهواء والشهوات ، ويضيعُ إخلاصه لبلاده فى هذا الموج المتلاطم من الحياة الحديثة ، ومن التدليس والتغرير ومجاذبة النوازعِ الفاسدِة ، ومن اليأْس الغالِب والقُنُوط المدمِّر .

ستٌّ وعشرون سنة ، أرادتْ بريطانيا فى خلالها أن تنشىء جيلًا من المثقَّفين اليائسين الطامعين فى مناصب الدولة ، يعينون غاصب بلادهم أو على الأقل يعتدلُون فى عداوته . جيلٌ ينشأ من صميم مصر والسودان ، لا يبغّضُه إلى الشعب ثوب الخيانة الفضّاح ، الذى بغض إليه نوبار ومصطفى فهمى وأعوانهما . وتعلم

بريطانيا أن الزمن كفيلٌ بعد ذلك بأن يُرِيها أبناءَ مِصْر والسودان ، وهم يسخرون لعبثٍ لا ينتهى بمستقبل مصر والسودان ، وبمجد مصر والسودان ويريها أبناء مصر والسودان يفكرون فى إصلاح مصر والسودان ، وتحرير مصر والسودان ولكن على أسلوب ترضاه هى ، وتؤثره هى ، دون أن تَظْهر على المسرح بطغيانها وغطرستها إلّا عند الحاجة .

٢٢ - كان هذا الجيل الجديد يتخلّق ويجيش فى رَحِم أمّنا العظيمة - مصر والسودان ، يتخلَّقُ كما تريده بريطانيا ، يفكّر لبلاده ولكن بعقل بريطانى ، ويحبُّ بلاده ولكن بالنظر إلى رَهْبَة بريطانيا وعظيم سلطانها ، ويفهم معنى الحريّة والاستقلال ، ولكنْ فى حُدُودِ الحُكمْ البريطانىّ والسطوة البريطانية . هكذا أرادت بريطانيا ، ولكنْ خابَ ظنُّها مرّة أُخْرى ، فقد أراد الله أن ينبعث من بين هذا الجيل فتى واحدٌ : جاءَ يسعى من أعماقِ التاريخ ، ويَصْرُخُ من أغوار الشعب المصرى ، لا يرهبُ شيئًا ولا يردّهُ شيءٌ ، فصرخ فى الوادى صرخةً رَوَّعت القلوبَ فى أكنّتِها . جاء مصطفى كامِل يتدفّقُ من جميع نواحيه ، ويمضى على غُلَوائه كالسيل المتلاطم ، وكانَ أصلبَ عودًا وأقوى مراسًا ، وأعنف إرادة - من أن تزلزلَه مكايِدُ الغاصب أو ضرباتُه . واستطاعَ الفتى أن ينقذ مئاتٍ من الجيل الذى تعهّدت بريطانيا تكوينه وإنشاءه ، واستطاع أن ينقذ آلافًا مؤلَّفة من الشعب ويهديهم إلى حقيقة معنى الحريّة والاستقلال . ولم تستطع بريطانيا أن تهزمه ، بل كان العكس ، فروّعتْ بريطانيا باجتماع هذا الشعب الكريم مرّة أخرى فى ١٩٠٦ أيام دنشواى ، كما روّعت باجتماعه ويقظته عند عَزْلِ مصطفى فهمى فى يناير سنة ١٨٩٣ . وقالت بريطانيا : ماهذا الشعب الغريب ؟ ماهذا الشعبُ الجاهلُ الذى يَكْمُنُ فيه حبّ الحريّة كما يكمن المرض الخبيث - يَخفى أشدّ الخفاء ، ثم يَنتشر دفعة واحدة كالحريق المُشْعَل ؟ كيف يتسنّى علاجه من داء الحريّة الخبيث ؟ لجأتْ بريطانيا إلى مصطفى فهمى وزير الاحتلال ، وأمرتْه أن يتلقّطَ لَهَا جماعةً ينشئون شركة مساهمة مصرية ، لكى يصدروا صحيفة يومية ، هى الجريدة . واستطاعَ مصطفى فهمى أنه يجد فى سنة ١٩٠٦ أى بعد أربع وعشرين

سنة من الاحتلال ، جماعة من الشيوخ ممن يتزلّفون كما يتزلّفُ إلى الغاصبين ، واستطاعَ أن يجدَ جماعةً من الشباب الجديد من ذوى الأطماعِ والمطامح البعيدة ، ممن يفهمون الحرية والاستقلال كما تريدُ بريطانيا أن يكون . وتألفت الشركة برعاية مصطفى فهمى ، وصدرت الصحيفة بعد أيام دنشواى وتولّاها فتىً مِصرىٌّ من الجيل الجديد هو « أحمد لطفى السيد » الذى سيصير فيما بعد المعلم الثانى أو الثالث لا أدرى - وإذا الجريدة تدعو إلى سياسة الملاينة والاعتدال ، وإلى التدرُّج فى نيل حقوق البلاد ، وإلى الاستقلال ولكنْ بعد أن يُتِمَّ الشعبُ تعليمه على يد الاحتلال . وتنقلب هذه الشركة إلى حزبٍ يعرف باسم حزب الأمّة ، يجتمع فيه صغارٌ وكبارٌ - كبار من شيعة بريطانيا فى خمسٍ وعشرين سنة ، وصغارٌ نُشِّئوا وأرضعوا لِبَانَ بريطانيا فى خمسٍ وعشرين سنة . ويمهّد الكبار للصغار ، وتمهّد صحافة الاحتلالِ لهذا النشء ، وتولّى بريطانيا كثيرًا منهم المناصبَ العالية ، وتستغِلُّ بريطانيا طُموحَ هذا الجيل إلى الحكْم والسلطان والمال ، وتستغلُّ كُلّ مافى النفس الإنسانيّة من النوازع والشهواتِ ، ويستغلُّ كرومر عميد الاحتلال شيوخًا من جلّة العلماء والوزراء ، وأعضاء الجمعية التشريعية ، فى الثناء على هذا الجيل - ليعارضوُا ذلك الفتى المشاغب العنيد الذى لايرضى أن يلين لبريطانيا ، أو يستكين تحت لوائها ، أو يدعَ ذكر الحرِّية الخبيثة التى يدعو الناس إليها ، والشعبُ المصرىّ ينظر إلى هذا الصراع بين الشبان المثقفين - بين مصطفى كامل ، وشيعة حزب الأمة -

وترى بريطانيا أنّ هذا الصراع خليقٌ أن يمزّقَ وحدة الشَّعبْ ، ويجعَلَ فئة تنحازُ إلى هذا ، وفئة تنحازُ إلى الآخرين ، والزّمنُ بعد ذلك سوف يعمل على توسيع الشُّقة من ناحية ، وهى تعمل أيضًا إلى إبلاغ إحدى الفئتين إلى أَسْمى المناصبِ وأعلى الدرجاتِ فى الحُكْم وفى غير الحُكْم .

٢٣ - ويموت مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٨ ، وتتنفَّس بريطانيا الصعداء ، ويتنفَّسُ معها شيعتُها ، لقد استراحوا من هذا الموجُ الصاخب الذى لا يهدأ . ويخلُفه فَرِيد ، ولكن شتان ما بينهما - شتّان بين خطيب الجماهير ، والسياسىّ

الساكن – شتان بين النار المُشْعَلة ، والنَّهر المنسابِ . علمت بريطانيا أن الشَّعْب لن يَسْمَع بعد اليوم ذلك الصوتَ الذى يُضِيءُ لَهُ شعاب الحرّية وأوديتها الغامضة . فتبسُط ما استطاعت للفئة الأخرى لكى تستكثر من الأعوان والأنصار ، ومن المخدوعين والمغررين ، وتبذلُ الأموال والرُّشَى فى الدواوين وفى غير الدواوين . وتأتى الحربُ العالمية الأولى ، وتعلن الحماية على مصر والسودان ، فتضطرب النفوسُ ، وتتطاير الأراجيف ويعظُم الطمع ، ويقلُّ الوَرَع ، وتخبث نفوسٌ وتَصْلُحُ نفوسٌ ، وتتَّسِع مِصْر لخبائث جيش الاحتلال ، وتنحلّ الأخلاقُ انحلالا لا مثيل له فى تاريخ مِصْر ، ويستهتر الشبابُ ، وييأس الشيوخ ، ويظلُّ هذا البلاءُ أربع سنوات ، فإذا مصر والسودان تجيش جيشانها العجيب فى سنة ١٩١٩ ، وتذعَرُ بريطانيا من هذا الشعب الذى لا يموتُ ولا يريدُ أن يموت . وتعودُ كلمة الحريّة والاستقلالِ ناصعةً لا تشوبها شائبةٌ ، يتنادى بها شعب كامِلٌ من أقاصى مِصْر إلى أبعد أَطْرافِها . شعبٌ كاملٌ يريد طرد بريطانيا من بلاده ، يثور ثورة رجل واحدٍ لا يزيدُه الإرهاب والعنف والتقتيل إلّا مضاءً واشتعالاً ، فماذا تفعل بريطانيا بهذا الشعب الغريب ؟ .

٢٤ – كانَ من حُسْن حظّ هذه الأمة الغاصبة أن الرجل الذى نفته ، والذى ثارتْ الأمّة فجاءة وعلى غير توقّع منها أو من الثلاثة الذين زاروا دار الحماية فى ذلك الوقت – هو « سعد زغلول » – الذى كان وزيرًا فى وزارة مصطفى فهمى الأخيرة ، وزوجُ ابنة مصطفى فهمى ، والذى تعاون مع الاحتلالِ فى زمنِ طغيان كرومر ، والذى كان يَأْوى إليه طائفةٌ من الشُّبّان الذين عارضوا مصطفى كامل ولا يزالون يعارضون دعوته باسم الحرية الخالصة من الشوائب والقيود . وعلمتْ بريطانيا أنها تستطيع أن تتفاهم مع سعدِ المنفىّ ، ولكن هل يستطيع سعْدٌ أن يقاوِم تيّار الثورة التى أرَّثَها شبابٌ من المؤمنين بالحرية والاستقلال بلا قيد ولا شرطٍ ؟ وهل يستطيع أن يردّ جماحَ شعبٍ بأسره لا يعرف شيئًا إلّا أنّه يريد الاستقلال ، ويريد طَرْد الغطرسة البريطانية من أرض بلاده ؟ هذا الشعب !.. هذا الشعب ! عرفت بريطانيا يومئذ أن المسرحية الطويلة الأُولى فى رفع الوزارات وخفضها قد

باءتْ بالخسران ، فى نواحٍ كثيرة ، ولم يَنجعْ دواؤها فى شفاء الشعب الحرّ من داءِ الحريّة . وعلمت أيضًا أن الحديد والنار لم يزد هذه الثورة إلا اشتعالًا . وعلمت أنّ سعدًا ومن يلوذُ به من شباب الجيل الجديد ، ومن أهل الطويّة السليمة - أو الغفلة إن شئت - فيهم استعدادٌ كريمٌ للملاينة والمسايرة والتفاهم والتعاون ، لأنهم لا يؤمنون بقدرة الشعب الأعزل على طرد غاصبٍ يملك من القوّة والسلاح والإرهاب مالا قِبَل لأحدٍ به ، بل غاصبٍ خرجَ من الحرب العالمية الأولى منتصرًا ظافرًا على ألمانيا المخيفة وتُرْكيا الباسلة . فمن هذه العناصر جميعًا وضعت بريطانيا مُسَوَّدَة المسرحية الجديدة التى ينبغى لهذا الشعب أن يشهدَهَا ، لكى يَنْسَى كلمة الحرية ، وكلمة الاستقلال ، فإن لم ينسهما ، فليفهمهما على النحو الذى تريده بريطانيا . حريّة خائِفَة ترجو معونة بريطانيا فى حياطتها حتى تنمو وتعيش ، واستقلالٌ مذعورٌ ، لا يستطيع أن يتخلّى عن معونة بريطانيا فى التمهيد لَهُ وفى كفالته ، فى عالمٍ تصطرعُ فيه القُوَى المسلّحة بالحديد والنار وبالسلطان والبطش .

٢٥ - اشتعلت نار الثورة الجامحة فى يوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩ ، وظلت تزداد اشتعالًا يومًا بعد يوم ، ولم يُجْدِ الإرهابُ والبطش شيئًا ، وكانت بريطانيا قد أعدّت الفصل الأول من المسرحية الجديدة ، فأرسلت إلى مصر تلك اللجنة المشهورة باسم لجنة ملنر ، فقاطعها الشعب الثائر ، فعادت لم تنلِ شيئًا مِنْه أو من ثورته ، ولكنها فى الحقيقة نالت شيئًا كثيرًا ، لأنها لقيت رجالًا يحفظون الودّ والعَطْف والجميل ، ويؤمنون بأن بريطانيا تحبّ الخير أو بعض الخير لبلادهم ، ورأت أنهم مستعدّون للتفاهم والتعاون ؟! فبدأت المسرحية بأن وضعت اللجنة مشروع معاهدة لإرضاء المصريين فيما ترى ، وترسله إلى الوفد المصرى بزعامة سعد ، وإذا زعيم الثورة لا يَرَى بأسًا فى أن يفاوض بريطانيا فى أمر هذه المعاهدة ، وإذا هو يُعدُّ مشروعا آخر يفتتحه سعد بهذه الكلمات الخالدة : « أتشرف بأن أبلغكم نبأ استلام خطابكم المؤرخ ١٧ يوليه ١٩٢٠ وإنى أبادر فأعرض على فخامتكم طى هذه مشروع اتفاق يحوى النقط التى جرت المناقشة فى شأنها فى أحاديثنا ، وهى النقط التى يلوح لى أنكم تقبلونها . ونحن نعتقد أن المشروع

بالصفة التى هو عليها من شأنه أن يرضى الطرفين ، فعلى هذه القواعد يمكننا أن نضع دعائم صداقة متينةٍ وتعاونٍ عمادهُ الإخلاص بين الشعبين الإنكليزى والمصرى » .

وبإرضاء الطرفين - أيها الإخوان - وبدعائم الصداقة المتينة والتعاون والإخلاص بين الشعبين - تمَّتْ هزيمة الثوار ، وهُزمَ شعب مصر والسودان هزيمة منكَرةً ، بل هى أفظع هزيمةٍ فى تاريخ مصر والسودان ، بل أبشع هزيمة أصيب بها شعبٌ يجاهد فى سبيل الحرية والاستقلال . وعلى يد مَنْ هُزمت ؟ على يدِ أبنائها ، وبعمل أبنائها أنفسهم ، وبجهادِ أبنائها أنفُسِهم !!

٢٦ - وبعد قليلٍ أيها الإخوان سَارَ الشعبُ المصرى وهو ينادى بالحرية والاستقلال ، وزعيم ثَوْرته يفاوضُ الاحتلال فى الحرية والاستقلال - ويتشعب الرأى ، ويتقسَّمُ الناسُ ، ويعظُمُ أمر هذه المفاوضة ، ويختلف عدلى وسَعْد على رآسة المفاوضة : أهى لرئيس الوفد وكيل الأمة أم لرئيس الحكومة حاكم الأمة ؟ ويشتغل الشعبُ كُلّه بكلمة المفاوضة ، ولمن تكون ؟ وعلى يد من تكون ؟ ويتعادَى الناسُ ، وتظهر العصبيّة لهذا ولهذا . ويتقدَّم الجيل الذى أنشأته بريطانيا إلىٰ قيادة هذا الانقسام بين سعد وعدلى وثروت ومحمد محمود وأشباه هؤلاء . وتخفُّ العداوة الكامنة فى الصدورِ لبريطانيا ، وتتجه إلى تعادى الزعماء والقادة - كما يسمونهم - وتصْبرُ بريطانيا على هذا الانقسامِ ثلاث سنواتٍ حتى يشهَدَ الشعب مسرحيّة النزاع بين رُؤُوس الثورة الكبار ، أو على الأصح من كانوا يظنونهم رؤوس الثورة . ويبدأ الشعبُ الذى أحبّ سعدًا لأنّه ثائر فيما يظنُّ ، يَشْعُرُ شيئًا فشيئًا بأن معونة بريطانيا ومفاوضتها لازمةٌ لحريته واستقلاله . وفى خلالِ ذلك استغلظ أمرُ هؤلاء المعتدلين جميعًا فى عداوة بريطانيا ، وتأثر الشعبُ بهذا الاعتدال ، وضعفتْ عزيمته فى النداء باسم الحرية والاستقلال . وتم بذلك الفصل الثانى من المسرحية البريطانية الجديدة .

٢٧ - وجاءَ موعد الفصَل الثالث من المسرحية الثانية ، وهو أضخَمُها وأعظمها . وهو تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى يقضى بانتهاء الحماية

البريطانية ، والاعتراف بمصر (وحدها دون السودان) دولة مستقلة ذات سيادة .
مع تحفظات أربعة هى :

١ - تأمين مواصلات الإمبراطورية .

٢ - الدفاع عن مصر من كل اعتداء أجنبى بالذات أو الواسطة .

٣ - حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

٤ - السودان .

وظاهِرُ هذا التصريح يدلّ كما قال مع الأسف أحد قدماء رجال الحزب الوطنى - على أنه - « مكسبٌ سياسىٌّ ومعنوىٌّ ، فقد ترتّب على انتهاء الحماية إعادةُ منصب وزير الخارجية الذى ألغى فى عهد الحماية ، وتحقيقُ التمثيل السياسىّ والقنصلىّ لمصر ، كما أن الاعتراف بمصر دولةً مستقلةً ذات سيادة ، قد أزال العقبة التى كانت تعترض فعلًا إعلان الدستور ، فبزوال هذه العقبة قد تمكنت مصرِ من أنه تجعَلَ نظامَ الحكْمِ فيها نظامًا دستوريًا » ، ويقول أيضًا : « إن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ يكون ضارًّا لو قبلته الأمة وارتضتْ به ، أو اعتبرته خاتمة الجهاد ، أمّا إذا كانت ماضية فى جهادها ، فإنّه بلا شكٍّ فوزٌ لها فى معركة من سلسلة المعارك التى يتألّف منها نضالها القومىّ الطويل » . وأنا أَرَى أيّها الإخوان أن الحرية لا تتجزَّأ وأرى فى هذه الكلمات التى جرى بها قلم أحد أفذاذ رجال الحزب الوطنّى - دليلاً على نجاحِ بريطانيا فى بلوغ غَايتها من صرف الشعب المصرىّ علمائه وجُهَّالِه ، وخاصته وعامته ، عن حقيقة الجهاد فى سبيل الحريّة - إلى هَوًى من الأهواءِ عظّموه أكثر ممّا يعظّمون الحرية ، وآثروهُ بحرص ، لم يؤثروا الحريّة بحرصٍ مثله - وهذا الهَوَى هو الذى شاءت بريطانيا أن تستغلّه أحسن استغلالٍ ، ألا وهو الدستور والحُكم النيابى . علمت بريطانيا أنّ عرَابى ثار من أجل تحقيق هذا الدستور لبلاده ، وأن الجمعيّة التشريعية قبل الحرب استرعت انتباه الناسِ ببعض المواقف العظيمة فى سبيل تحقيق الحُكْم النيابىّ ، وعلمتْ أن اسم الديمقراطيّة ودَعْوَاها فى هذه الفترة من الزمن يستهوى كثيرًا من العقول الراجحة المثقفة ، فأتت الثورة من هذه الجهة ، وأتَتْ كلمة الحريّة والاستقلال من هذا المدخَل . فلم يكَدْ سعدٌ يَقْبل دخول الانتخابات التى ضمِنها أو مَهّد لَهَا هذا

التصريحُ ، حتى نَسِيَ الشعبُ المصرىّ عداوَته الفَوّارةَ لبريطانيا ، وتَابَع بعداوته أعداءَ سعد وأعداءَ الوفد المصرى من المصريين ، وانطفأتْ كلمة الحُرّية انطفاءً تامًّا ، وسارَ الشعبُ فى ظُلُماتٍ سُودٍ لا ينيرها شىءٌ إلى هذا اليوم .

٢٨ - فَرِح الجيلُ الجديد من المثقَّفين ، وقادَ الشعبَ إلى الفرحِ ، بهذا الدستور الجديد ، وباتت سياسة بريطانيا فى فرحٍ آخَر بانصراف الشعب إلى هذا الدستور الجديد . وصارت قيادةُ الأحزابِ المصرية جميعًا إلى جماعة المعتدلين فى عداوة بريطانيا ، وشاعَتْ كلمة المفاوضة والمعاهدة مكان كلمة الحرية والاستقلال ، وثار الجدلُ على صفحات الجرائد وفى الكتب عن الدستور والمفاوضة والمعاهدة ، وانقطع البحثُ فى حقيقة معنى الحرية والاستقلال . ويومئذ ضمنت بريطانيا سيادة كلمة المعتدلين فى عداوتها واستمرار هذه السيادة زمنًا طويلًا ، وضمنت بريطانيا شعبًا كاملًا تشغَلُه كلمة المفاوضة والمعاهدة ، ولا تشغله قليلا أو كثيرا كلمةُ الحرية أو كلمة الاستقلال ، وضمنت بريطانيا صحافة يتولاها مصريون وأشباه مصريين تؤثر الاعتدال وتزيدُ الشعب إيثارًا له ، وتحبُّ المفاوضة والمعاهدة وتزيدُ الناس حُبًّا فيهما ، وضمنت الزمن وكرَّه على الناس وفِعْلَه فى الشعوب ، وضمنت تطوُّر الحياة الاجتماعية تطوُّرًا يُفْضِى بالشَّعْبِ إلى الاستهانة والتهاوُن ، وإلى التَّسلية والتلهّى ، وإلى السُّخْرية بالزعماء والقادة وهم يختلفون ويتنازعون على الحُكْم وعلى الأموال والمناصب ، وإلى اشتغاله عن الحريّة الحقة بحياة الاستقلال الجديدة التى كَفَلَها لهم الدستور الجديد . وخلاصة ذلك كُلّه أنّ بريطانيا أرادت بتصريح ٢٨ فبراير تمزيق وحدة الشعب ، وصرفه عن حقيقة معانى الحرية والاستقلال - وأراد الزعَماءُ نَيْل السُّلطة التى يكفُلُها الدستور للأكثريّة . وأنتم تعلمون أيها الإخوان أن الأكثرية أخفقت فى نيل ما أرادتْ على الزمن ، وأن بريطانيا نجحتْ على الزمن فى إدراك بُغْيَتِها من الشَّعْب العنيد الذى ابتُلِىَ بداء الحريّة . فكأنها رفعتْ يدها عن هذه الأداة المصرية (لحمًا ودمًا) فى سنة ١٩٢٤ ، البريطانية (كيدًا وهَوًى وإرادةً) ، وقالتْ للناس : هذه بلادكُمْ : احكموها بأنفسكم ، وتنازعوا على حكمها ماشاءَ لكم التنازع ، وتنابزوا

بالألقابِ فى سبيل هذا الحكْم ، وليعادِ الأب أبناءَه ، والأخُ إخوانه ، والصديق أحبابه ، وكونوا عباد الله أعداءً . وكان من أخبث مكر السياسة البريطانية أنها تورَّعت عن أن تنزل بالشعب عذاب التنكيل بالقوة الغاشمة ، لتنزل به ماهو أبشع وأفتك من عَذَاب الأبدان ، عذاب الأَرْوَاح الحائرة المضلَّلة ، عذابَ الاعتدال فى طلب الحرية ، عذاب العداوة والبغضاء ، عذاب الضعف والاستهانة والفتور ، عذاب الغفلة الدائمة عن الذلّ المقيم .

٢٩ - هذه هى غاية المسرحية الجديدة التى بدأت « بإرضاء الطرفين ، وبدعائم التعاون الصادق بين الشعبين الإنجليزى والمصرى » كما قال سعد زعيم الثورة !! ولم تتمَّ المسرحِيَّة بَعْدُ ، والشعبُ لا يزالُ ينْظُرُ إلى الممثّلين وهُمْ على المسرح ، وبريطانيا من بعيد تنظُر إلى أثر هذه المسرحية فى الشعب الذى أضناها علاجُه . وتعدُّ له تتمّة المسرحية فى الفصل الذى يتضمَّنُ « رفع مستوى معيشة الشعوب » ، « والدفاع المشترك عن حوزة الوطن » ، و« الخوف من ضياعِ الحضارة الإنسانية وتدميرها فى الحروب » . ولكنها مع ذلك مطمئنّة بعض الاطمئنانْ ، لأن المفكرين والسَّاسة والقَادة والصحافَة كُلَّها ، أَعوانٌ لها فى هذا الهدف ، أعوانٌ فى اللحم المصرى ، ومن الدم المصرى ، وعليهم سمة النيل الخالدة ، والشَّعْب حائرٌ يسيرُ على غير هُدًى وإلى غير غاية ، وهو ينظر إلى هؤلاء غير مُنْكر لهم ولا مستريبٍ فيهم أو فى إخلاصهم لبلادهم . والأحرارُ الذين يعرفون معنَى كلمة الحريَّة ، ويؤمنون بأنّ الحُرّية لا تنال بالمفاوضة ولا بالمعاهدة ولا بالتعاون مع بريطانيا أو أمريكا أو روسيا أو فرنسا ، ويؤمنون بأنّ الاحتلال الطويل قد أَفْسَد عقولًا كثيرةً ونفوسًا كثيرة - هؤلاء الأحرار - أيها الإخوان - غائبون عن أوطانهم وعن شَعْبهم فى غيابات الاضطهاد ، وفى ظلماتِ طَلَب العيش ، وفى سراديبِ السُّكُوت والتسليم .

٣٠ - صورة قائمة عابسةٌ عرضتُها على شباب هذا الحزبِ ، لم أتناوَلْ فيها إلا الناحية السياسية والتفكير السياسىّ . وهناك صورٌ أشد قتامًا وعبوسًا فى النواحِى الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية ، تزيدُنا بلاء على بلاء . ومع

كُلّ هذا ، ومع أن بريطانيا استطاعتْ أن تبعدنَا عن كلمة الحريّة فى أوسع معانيها ، وأن تميت هممًا وتثبّط عزائم ، وتهلك نفوسًا ، وبرغم سيادة المعتدلين على الرأى العامّ ، وسيادتهم على الدستور ، وسيادتهم على الحكومة وسيادتهم على الصحافة والأقلام ، فأنا أثق بشىء واحدٍ ، أثق بشعبِ مصر والسودان ، كما أثق بسائر شعوب بلاد الشرق وبلاد الشرق وبلاد العرب وبلاد الإسلام . وإنى لأرى خلالَ هذه الظلمات نجومًا تلمع ، وكواكب تتوهَّج ، وعَزَائم تنبثِقُ ، وأمواجًا تجيشُ فى قرارة هذه الشعوب . وستأتى الساعة فى ميقاتِها ، وسنهبُّ هبَّةً واحدة ، فننفض الغبار العتيق ، ونعصف بالقيود ، قيودِ الاستعمار وأعوان الاستعمار. وسنهتدى إلى الطريق التى نهجها الأحرارُ فى كُلّ مكان ، ليسلكهَا الأحرارُ من كُلّ أُمَّةٍ . وإذا كان كيد بريطانيا فى سياستها الدائبة الملحّة ، لم يُردْ إلّا الشَّعبَ وحده ، ولم يقصد إلا تدمير هذا الشعب وحده ، فعَلَينا نحنُ أن نبدأ جِهادنا فى الميدانِ الذى أرادته بريطانيا ، نجاهد فى هذا الشَّعْب وحده من أجل هذا الشَّعْبِ وحده ، نذكره بالحرية التى نَسِيَها فى مكر بريطانيا ، ونُعينُه على أن ينشىء حياةً أخرى غير الحياة التى دبّرتها له بريطانيا ، علينا وعليكم يارجال هذا الحزب ويا شبابه ، أن تحملوا شُعْلة الحريَّة إلى كل قلب ، وأن تنفثوا روح الحرية فى كُلّ عَمَل ، وأن تطاردوا شيطان المستعمر فى كُلّ بقعة وفى كُلّ نفس ، وأن تعلّمُوا أنفسكم وتعلّموا الناس كيف يعيش الحُرُّ بالحُرّية – لا بالمال ولا بالجاه ولا بالسلطان ولا بمناصب الوزارة ، ولا بعضوية البرلمان . أوقدُوا نَارَ الحرِّية وألقوا فيها خبائث العبودية والذلّ والاستعمار ، واعلموا أن مِصْر والسودان تموتُ الآن على يد فئة من أبناء مصر والسودان ، فكونوا أنتم حياةَ مصر والسودان ، بل حياة بلاد العرب ، وبلادِ الشرق ، وبلاد الإسلام .

* * *

المتنبى

فى شهر يناير الماضى صدر عدد المقتطف وفيه كلمة قد استغرقت العدد كله عن أبى الطيب المتنبى ذهبت فيها مذهبا ، ولا أدعى العصمة ، ولا علو الكعب فى الآداب ولا حسن المنطق فى الحجة .

وقد كانت كلمتى عن أبى الطيب بدءا لطريقة انتهجتها فى ترجمة الرجل ، لم أتعبد فيها بأقوال الرواة تعبد الوثنى للصنم . وقد ظهر العدد من المقتطف ولم أحاول بإخراجه شهرة ، ولا إعلانا عن نفسى ولا أدبى . وقد احتفى الناس به فى الشام والعراق ومهجر أمريكا وغيرها من بلاد العرب والعربية ، وخلت صحف مصر من الكتابة عنه إلا قليلا قليلا ... ومع ذلك فما سعيت إلى أحد أن يكتب لى عنه ، أو يذكر الناس به ، فقد كان من توفيق الله أن نفد عدد المقتطف فى شهر ظهوره ، ولم يبق من مطبوعه شىء .

وكان مما ذهبت إليه فى كلمتى ما أثبته هناك من الشك فى أن المتنبى كان كما زعم الرواة ابن سقاء ، .. ثم سقت القول على هديه وطريقه ورجحت أنه كان عَلَوِىّ النسب ، وترجمت للرجل على هذا الأساس . وأنا حين فعلت ذلك ، وكتبت ماوفقت إليه فى رد السقاءة عن المتنبى ، وإظهار بطلانها ، وبطلان كل هذر مما لجَّ فيه بعض من نتهم من الرواة ، لم أرد (أن أنفى عنه عيبا ، أو أضيف إليه مفخرا جديدا) ، ولم أرد أيضا (أن اذكر المتنبى فأحسن إليه ، وأحمد الخبر عنه ، وأسبغ من دفاعى ستارا على عيبه) ليقول الناس عنى (إنى قد أوتيت الحكمة ، وبلغت نهاية الفهم ، وصرت مستحقا لاسم الأدب ، وداخلا فى جملة الموسومين عند الناس بالأدباء ...) . لقد كتبت كلمتى وتركتها ، وكنت أظن أن النقاد من أهل عصرنا سيحرصون على حسن الهداية إلى الحق ، كان ذلك لى أو على ..

ولكن خاب ظنى فى كثير من النقاد ، فمن سكت منهم فقد تنصل ، ومن

---

* جريدة الأهرام ١٩٣٦/٦/١٣

وافقنى فقد أخجلنى ، وجاء بعض من خالف بأسلوب غريب فى المناظرة . فمن ذلك ماقرىء على اليوم مما كتبه الأستاذ الجليل محمد هاشم عطية – المدرس بدار العلوم . وأنا قبل أن أنقل للقارىء قوله أعترف له أنى كنت متحرجا من التعليق على قوله لسابق فضله علىّ فى عام من أعوام الدراسة بالمدارس الابتدائية ، ولكنى رأيت الأستاذ لا يتحرج من أن يذكر فى مقاله رأيا لأحد من الناس غفلا غير منسوب إلى صاحبه ، ولا إلى مكانه من الكتاب الذى نشر فيه ، ثم يزيد فيرد على هذا الرأى بغير طريقة النقد العلمى الصحيح ، ثم يزيد فيتهكم ، ثم يزيد فيرمى الناس على غير علم بإرادة مالم يجل لهم فى خاطر .

فقد أصدرت (جماعة دار العلوم) مجلتها الجليلة الموفقة « صحيفة دار العلوم » العدد الرابع من السنة الثانية ، وهو خاص بذكرى أبى الطيب المتنبى . ومن الكلمات الممتعة التى فيه كلمة الأستاذ محمد هاشم عطية عن (المتنبى وكافور) . ويقول الأستاذ ص ٨٠ و٨١ من هذا العدد :

« .. ونحسب أننا بما سنقضى به من بعض ما لاحظناه فى أكثر ماكتب عنه فى أيامنا الحاضرة ، سنكون أبلغ احتفالا وأسنى تكرمة على حساب أننا لا ننفى عنه عيبا ، ولا نضيف إليه مفخرا ، ولا ندعى أننا سنزيل من أمره لبسا ، أو نحل متعقدا إلا النظر فى هذه المحاولة التى يراد بها إسناد المتنبى إلى غيرأبيه ، واستخراجه من غير معدنه ، والادعاء بأنه علوى النسب ، هاشمى الأرومة ، والالتجاء فى ذلك إلى التأويل للحكم والاتهام للثقة ، والانتحال لكل حيلة ، لتحصينه من كل تهمة ، وتبرئته من كل مذمة، والتصدى لاحتمال المكروه عنه . مع أنهم يعلمون أن وضع الرجل فى غير موضعه ، وإعطاءه ما ليس من حقه ، تهجين لشأنه وذم له . يظنون أن من ذكر المتنبى فأحسن إليه ، وأحمد الخبر عنه ، وأسبغ من دفاعه ستارا على عيبه – فقد أوتى الحكمة ، وبلغ نهاية الفهم ، وصار مستحقا لاسم الأدب ، داخلا فى جملة الموسومين عند الناس بالأدباء ، لتوهمهم أن الناس لا يتجرأون عليه ، ولا يقدر منهم على مسافات خواطره ، ومسبح إلهاماته إلا الذين أصفاهم ربهم بالفطن ، وأعانهم بتمام البصيرة ، من المنحوتين

على مثالهم ، والمنتخبين من طرازهم . ولكن ذلك على مافيه من المناقضة للتاريخ الثابت ، والمعارضة للصريح من النصوص ، ليس بمغن عنهم شيئا ، ولا بنافعهم قليلا ولا كثيرا ، ولا هو من الأمانة الأدبية التى لا أظن أن التمويه بخلافها يروج على العقول فى أيامنا هذه . ومع أن الشاعر أسقط عن الناس هذه الكلفة ، وأعفاهم من احتمال هذه المئونة ، باعترافه فى شعره ، وتصريحه لممدوحيه ، بأنهم أولى له ، وأفضل عنده من أهله الذين لم يشرف بهم ، ولا تناول ما تناول من المجد بأولهم ولا بآخرهم . وقد آثرنا أن نكتفي فى الاستدلال على ذلك بحياته فى مصر مدة انقطاعه لكافور ، ونحب قبل تلخيص هذه الصلة أن نذكرهم بتقدمة صغيرة لهذا الأمير .. » . ثم مضى الأستاذ على غير هذا الغرار الجاحظى فى التحرير والكتابة . وسائر كلامه ليس عندنا بشىء حتى نقف عليه أو نحاول نقله .

وقد أراد أستاذنا كما اعترف فى كلامه أن ينظر (فى هذه المحاولة التي يراد بها إسناد المتنبى إلى غير أبيه .. إلخ) وقد اخترط المقالة كلها ، ولم يأت بشىء يُعَدُّ نظرا فى الذى كتبت عن نسب المتنبى ، ولا نقدا لقولى فيه . ولكن لعلى لم أفهم ، فأنا أرجو الأستاذ أن يدلنى على الذى فى كلمته مما هو نظر أو نقد أو إسقاط لقولى . وليعلم الأستاذ أن للنقد الذى كتبه على نفسه بهذه الجملة طريقا لابد من انتهاجها ، هو أدرى بها وأعلم . وأول ذلك أن يذكر رأيي منقولا منسوبا ، ثم حجتى متتابعة ، ثم يعمل فى ذلك عمل الناقد فإن شاء رفع وأن شاء أسقط . أما الذى سلك أستاذنا من مذهب القول فهو مما لا يخفض قولى ولا يرفع قوله .

ثم شرع الأستاذ ينظر إلى الجاحظ بطرف ، ويقول عنى مايقول من أنى أحاول تأويل المحكم وأتهم الثقة ، وانتحل الحيلة ثم يزيد ذلك أنى أريد تحصين المتنبى من كل تهمة ، وأبرئه من كل مذمة ، وأتصدى لاحتمال المكروه عنه . وأنا يعجزنى أن أرد على هذا القول !!

ثم لا يكتفى أستاذى بهذا بل يستبطن نفسى ، ويتولج فى دخيلتى ويزعم أنى أزعم أنى كتبت ما كتبت وأنا أظن أنى قد أوتيت الحكمة وبلغت غاية الفهم ..

إلى آخر ما تنبأ به من أمرى فجعل لى فى الخواطر مسافات ، وفى الإلهام سبحات ! وأنا أسأل الأستاذ مرة أخرى أن يضع يد القارىء وعينه وعقله وفكره على موضع من كتابى تكون لى فيه هذه الدعوى مقولة أو مفهومة أو متوهمة . فإلى الأستاذ الجليل محمد هاشم عطية أسوق شكرى أولا ، ثم نصيحتى بعد ، فى أن يتجنب اتهام البرىء بالظن ، واعتقاله بغير حجة بينة ، وليأت بالبيان عن كل جملة فى كلمته الجاحظية التى نقلناها ، وليضع أمام القارىء جملته التى وصفنى بها ، والجملة التى وردت فى كتابتى فحفزته إلى اختيار الأوصاف لى وصفا وصفا ، وسأدع للأستاذ أسبوعا كأسبوع المتنبى يقرأ فيه ما كتبت مرة أخرى ليقول كلمته ، ويجيب سؤالى وله الشكر أولا وأخيرا .

* * *

حديث رمضان *

عبادة الأحرار

سألتنى أن أكتب لك شيئا عن هذه الكلمة المعذبة : الصيام . فقد ضرب عليها الناس من الحكم ، وصبوا عليها من الفوائد ما لوتأملته لم يعد أن يكون عرضا طفيفا من أعراض التجارب التى تمر بالصائم . ولرأيتهم يبنون فوائدهم وحكمهم على غير منطق ، كالذى يزعمونه من أن الغنى إذا جاع فى صيامه أحس بل عرف كيف تكون لذعة الجوع على جوف الفقير ، فهو عندئذ أسرع شيء إلى الجود بماله وبطعامه . ثم يزعمون أن الفقير الصائم إذا عرف أنه استوى هو والغنى فى الجوع قنع واطمأنت نفسه ، لا أدرى أمن شماتته بالغنى حين جاع كجوعه وظميء كظمئه أم من حبه للمساواة فى أى شيء كانت وعلى أى صورة جاءت ! ولا تزال تسمع مثل هذه الحكم ، حتى كأن ربك لم يكتب هذه العبادة إلاليعيش الفقير ، وليعيش الغنى ، كلاهما فى سلطان معدته جائعا وشبعان .. !

ومنذ ابتلى المسلمون بسوء التفسير لمعانى عباداتهم ، ومنذ أدخلوا عليها ما ليس منها ، ساء أمرهم ودخل عليهم عدوهم من أنفسهم ومن غير أنفسهم ، وجعل بأسهم بينهم ، وتتابعوا فى الخطأ بعد الخطأ حتى تراهم كما تراهم اليوم : ألوف مؤلَّفة مابين الصين ومراكش ، تستبد بهم الطغاة بل تهاجمهم فى عقر دارهم شرذمة من قدماء الأفاقين ، ومن أبناء الذل والمسكنة ، فتمزق أبناء دينهم ولغتهم من الأرض المقدسة شر ممزق . وكل نكيرهم أصوات تضج ، ثم عودة إلى موائد الشهوات ولذات النفوس ومضاجع الراحة والترف والنعيم : حرصوا على الحياة وأسباب الحياة فذلوا حتى أماتهم الذل ، ولو حرصوا على الموت وأسباب الموت ، لعزوا به فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

ولقد كتب علينا الصيام لينقذنا من مثل هذا البلاء ، ولكنا نسينا الله فأنسانا أنفسنا ، حتى صرفنا أعظم عبادة كتبت علينا - إلى معنى الطعام نتخفف منه

* جريدة الأهرام ١٩٥٠/٧/١٥

لتصح أبداننا ، ونبذله لنواسى فقيرنا ، ونجتمع عليه لتأتلف قلوبنا ، ونصوم شهر رمضان فلا تصح لنا أبدان ، ولا يواسى فقير ، ولا تأتلف قلوب – وإذا تم بعض ذلك فسرعان ما يزول بزوال الشهر وتنتهى آثاره فى النفس وفى البدن وفى المجتمع .

ولو أنصفنا هذه الكلمة المظلومة المعذبة لرأينا الصيام – كما كتب على أهل هذا الدين – طاعة خالصة بين العبد وربه ، يأتيها الفقير الهالك ابتغاء رضوان الله ، ويأتيها الغنى الواجد ابتغاء رضوان الله ، ويأتيانها جميعا فى شهر رمضان ، ويأتيانها فرادى فى غير شهر رمضان ، لا ليعيشا فى معانى المعدة بالبذل أو بالحرمان ، بل ليخرجا معا سواء عن سلطان الطعام والشراب ، وليخرجا معا سواء من سلطان الشهوات بل ليخرجا معا سواء من سلطان كل نقيصة : من سلطان الخوف فلا يخاف أحدهما إلا الله ، ومن سلطان الرياء فلا يعمل إلا لله . وليس بين الصائم وبين ربه أحد ، ولا يحول بينه وبين الاستجابة لربه شيء من أشياء الدنيا ، أو حاجات البدن ، أو داعيات الغرائز أو نزوات العقول .

فتأمل معنى الصيام من حيث نظرت إليه : هو عتق النفس الإنسانية من كل رق : من رق الحياة ومطالبها ومن رق الأبدان وحاجاتها فى مآكلها ومشاربها ، من رق النفس وشهواتها ومن رق العقول ونوازعها ، ومن رق المخاوف حاضرها وغائبها ، حتى تشعر بالحرية الخالصة ، حرية الوجود ، وحرية الإرادة ، وحرية العمل . فتحرير النفس المسلمة هو غاية الصيام الذى كتب عليها فرضا وتأتيه تطوعا . ولتعلم هذه النفس الحرة أن الله الذى استخلفها فى الأرض ، لتقيم فيها الحق ، ولتقضى فيها بالحق ، ولتعمل فيها بالحق – لا يرضى لها أن تذل لأعظم حاجات البدن لأنها أقوى منها ، ولا لأعتى مطالب الحياة لأنها أسمى منها ، ولا لأطغى قوى الأرض لأنها أعز سلطانا منها . وأراد الله أن يكرم هذه العبادات فأوحى إلى رسوله ﷺ أن يخبر الناس عن ربه إذ قال « الصوم لى » ، فلا رياء فيه لأنه جرد لله فلا يراد به إلّا وجه الله ، فاستأثر به الله دون سائر العبادات ، فهو الذى يقبله عن عبده ، وهو الذى يجزى به كما يشاء .

وقد دلنا الله سبحانه على طرف من هذا المعنى . إذ جعل الصيام معادلا لتحرير الرقبة فى ثلاثة أحكام من كتابه إذ جعل على من قتل مؤمنا خطأ تحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ . وجعل على الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا تحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ . وجعل كفارة اليمين تحرير رقبة ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ . فانظر لم كتب الله على من ارتكب شيئا من هذه الخطايا الثلاث : أن يحرر رقبة مؤمنة من رق الاستعباد ، فإن لم يجدها فعليه أن يعمل على تحرير نفسه من رق مطالب الحياة ، ورق ضرورات البدن ورق شهوات النفس ، فالصيام كما ترى هو عبادة الأحرار ، وهو تهذيب الأحرار وهو ثقافة الأحرار .

ولو حرص كل مسلم على أن يستوعب بالصيام معانى الحرية ، وأسباب الحرية ، ومقاليد الحرية ، وأنف لدينه ولنفسه أن تكون حكمة صيامه متعلقة بالأحشاء والأمعاء والبطون فى بذل طعام أو حرمان من طعام – لرأينا الأرض المسلمة لايكاد يستقر فيها ظلم لأن للنفوس المسلمة بطشا هو أكبر من الظلم ، بطش النفوس التى لا تخشى إلا الله ولا يملك رقها إلا خالق السموات والأرض وما بينهما . ولرأينا الأرض المسلمة لا يستولى عليها الاستعمار ، لأن النفوس المسلمة تستطيع أن تهجر كل لذة وتخرج من كل سلطان ، وتستطيع أن تجوع وتعرى وأن تتألم وتتوجع صابرة صادقة مهاجرة فى سبيل الحق الأعلى وفى سبيل الحرية التى ثقفها بها صيامها وفى سبيل إعتاق الملايين المستعبدة فى الأرض بغير حق وبغير سلطان . واستطاع كل مسلم أن يكون صرخة فى الأرض تلهب القلوب ، وتدعوها إلى خلع كل شرك يقود إليه الخوف من الظلم ، ويفضل إليه حب الحياة وحب الترف وحب النعمة ، وهى أعوان الاستعمار على الناس .

ويوم يعرف المسلمون صيامهم حق معرفته ، ويوم يجعلونه مدرسة لتحرير نفوسهم من كل ضرورة وكل نقيصة ، فحق على الله يومئذ أن ينصر هذه الفئة الصائمة عن حاجات أبدانها وشهوات نفوسها ، الطالبة لما عند ربها من كرامته

التى كرم بها بنى آدم ، إذ خلقهم فى الدنيا سواء أحرارا لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى وفعل الخيرات .

ويومئذ ينصرهم على عدوهم ويستخلفهم فى الأرض مرة أخرى لينظر كيف يعملون .

* * *

مع الشيطان الأخرس

قرأت الكلمة التى كتبها صديقنا الدكتور زكى نجيب محمود فى الأهرام الخميس ١٩٧٦/٣/٤ ، ولا أقول أنها ساءتنى ، لأن الذى يسوء كثر وتفاقم حتى تبلد الإحساس به . وأحب أن أجعل الأمر واضحا كل الوضوح . فالذى يسوء مما يكتبه من يدعى الالتزام بما كان عليه السلف ، كثير جدًّا أو فوق الكثير ، والذى يسوء مما يكتبه الداعون إلى طرح العودة إلى ماكان عليه السلف ، كثير أيضا وفوق الكثير . فمن أجل هذا تعجبت من قول الدكتور زكى « أنه يجد موجة تطغى على حياتنا الفكرية والشعورية طغيانا يزداد كل يوم قوة وصرامة ، حتى ليخشى أن يقول عنه أنه طغيان يبلغ حد الإرهاب الفكرى الذى لايدع مجال الحرية فى التعبير عن الرأى مفتوحا للجميع على حد سواء ، فهو مفتوح على مصاريعه لأصحاب جانب واحد من جوانب القول ، مغلق بالضبة والمفتاح أمام الجوانب الأخرى أو قل إنه يكاد » . وهذا عجيب جدا . أوشكت أن أقول إن الدكتور زكى قد مل قراءة الصحف والمجلات ، حتى صحيفة الأهرام التى يكتب فيها . فمن أجل ذلك صار لا يرى الأمر بوضوح كاف مع خبرتى القديمة بوضوح رؤيته لما يحيط به ، وصدق تعبيره عما يرى . وأستطيع أن أشهد صادقا أنى أرى الأمر على غير مايرى ، فإن الجوانب الأخرى ، تمارس ضروبا من الإرهاب الفكرى ، وضروبا أخرى من العبث بعقول الناس ، وضروبا ثالثة من الحجر « الصحى » !! لا يكاد يقارن بها ما يمارس الجانب الذى كره هو ما رآه من إرهابه الفكرى .

وأنا لا أحب أن أناقش صديقى الدكتور زكى فيما يثير كراهيته لما يسميه « العودة إلى السلف فى رسم الطريق الذى يراد لنا أن نسلكه فى أكثر جوانب حياتنا حيوية وأهمية » ، وهذا لفظه - لا أريد أن أشرحه ولا أن أحلله فى هذا

---

* جريدة الأهرام : ١٩٧٦/٣/١٢

الموضع وإن كنت قد تناولت مثله قديما فى مكان آخر [١] . ولكننى أريد أن أنبه الصديق الكريم أن الموضوع الذى تناوله للبيان عن هذا الإرهاب هو موضوع « قطع يد السارق » وموضوع « تحريم الخمر » ، قد تناوله بمجلة لا تليق به ولا بأدبه الذى أعرفه ، وكنت أحب أيضا أن لا يورط نفسه فى مثله وبمثل هذه السخرية الخفية المبنية على قصة هو مسئول عن صحة روايتها عن الشيخ حافظ وهبة ، فإن كان الشيخ حافظ قالها كما رواها الدكتور ، فهو مسىء فارق الأدب فى الحديث عن حد من حدود الله سبحانه . وأما قصة واصل بن عطاء والخوارج التى أدهشت الدكتور زكى ، فهى لا تدل على ضيق الأفق كما قال ، بل تدل على أن الذين لا يفهمون ما أنزل عليهم من القرآن على الوجه الذى أنزل عليه ، ويتلعبون بأحكام الله فى كتابه ، قوم بلا عقول . وواصل بن عطاء ، الذى زعم له الدكتور مكانة دينية وفكرية ، هو نفسه ممن أخطأوا الطريق إلى فهم ما نزله الله من القرآن وبلغ هو وأصحابه وشيعته مبلغا من الإرهاب والقسوة والفجور فى الحكم ، حين صارت إليهم مقاليد الحكم فى خلافة المأمون .

أما الفقرة الثانية الخاصة بالمرأة ، وقول من قال أنها « سهم من سهام إبليس » ، فإن كان قائلها قد أساء من وجه فى لفظه ، فأغرب من إساءته : ما انتهى إليه الدكتور زكى فى تعقيبه بقوله : « أيكون البشر على هذه الصورة الشيطانية الرهيبة ؟ ألا نتقى الله فى كرامة الإنسان ، إذا كنا لم يكن بنا رغبة فى أن نتقيه فى القيم الحضارية كلها » ، فهذا تعقيب فى غاية الغلو ، وإدراجه تحت « الإرهاب الفكرى » مسألة أعجب وليس بى حاجة إلى دلالة الدكتور على أن فتنة الرجال بالنساء ، مسألة لاتحتاج إلى إيضاح ، وأن قائل تلك العبارة ، إن كان قد أساء ، فإنه لم يبلغ المبلغ الذى ظنه الدكتور فى كلامه ، بل وضع لفظا فى غير موضعه لا أكثر ولا أقل ، لا يعنى به أما ولا أختا ولا زوجة ولا كريمات النساء وحرائرهن فى أمتنا وفى غيرنا من الأمم .

---

(١) وذلك فى مقاله « مواقف » ، يأتى ص : ١٠٥١ - ١٠٧٠

وأما الفقرة الثالثة ، التى علق فيها على خبر فى تقرير صحفى نشرته الأهرام عن مؤتمر الاقتصاد الإسلامى ، وما قاله أحد من سماهم « أئمة الدين » : « أن رجال الشريعة ، قادرون على أن يقولوا كلمتهم فى كل شىء » ، فأقصى ماكان ينبغى أن يقال فيها إنها عبارة سيئة أيضا عن معنى صحيح ، وهو أن كتاب الله وسنة نبيه ، فيهما أصول جامعة ، ليستنبط منها علماء الأمة المسلمة فى كل زمان طريقا صحيحا للعمل ما استطاعوا . ولا يكون عالما من علماء الأمة من يتكلم فى شىء يجهله من شئون زمانه كالذى نراه اليوم ممن يتكلم فى الأدب ، وهو لا يحسن شيئا منه ، وفى الاقتصاد ، وهو يجهل أصوله ولم يتعلمها تعلما كافيا ، وفى الفلسفة وهو لا يحسن إلا ما يعرف من قشورها ، والدكتور زكى أخبر بهؤلاء وقد تناولهم فى بعض ما كتب ، مع أنهم يتولون تعليم الفلسفة فى الجامعات ، كما قال .

وإذن ، فالسيل قد أغرق الزُّبى ، لا بهذا الذى ذكره فى الفقرات الثلاث التى ظن أنها عودة إلى السلف ، بل هو قد أغرق الزبى ، وغطى قمم الجبال بعبث آخر يجرى فى حياتنا الفكرية والعقلية على يد من يكرهون العودة إلى السلف ، وعلى كل حال ، فأنا سلكت نفس الطريق الذى سلكه أخى الدكتور زكى ، فى ترك المواجهة بالألفاظ الصريحة الدالة على المعانى الواضحة ، وتحيتى إلى الصديق الكريم .

* * *

« يحيى حقى صديق الحياة الذى افتقدته »

علاقتى بصديقى يحيى حقى - رحمه الله - بدأت مع بدايات الحرب العالمية الثانية . أو بالتحديد فى أواخر عام ١٩٣٩ لتمتد حتى يوم زيارته وهو على فراش الموت فى غرفة الإنعاش .. قبل رحيله ببضعة أيام ، لتستمر هذه العلاقة أكثر من ثلاثة وخمسين عامًا استمرار حياتنا ، فلا يقطعها إلا سفر له أو لى .. وقد بدأت هذه العلاقة بداية غير مألوفة بالنسبة لى على الأقل . إذ زارنى السفير عثمان عسل ، ودارت بيننا أحاديث أحسست خلالها بأن هناك ما يريد أن يقوله ، وإذ هو بقائله . وخلاصته أن هناك صديقًا عزيزًا لديه ود التعرف بى . وهو على استعداد لزيارتى . هذا الصديق هو يحيى حقى . وينبهنى عثمان عسل بأمر ربما فزعت له فى حينه ، وهو أن لا أشتد فى المناقشة أو أغلظ فى القول معه قائلاً :

« إن يحيى حقى إنسان عذْب الحديث رقيق الحاشية دمث الخُلُق .. فنان إلى أبعد الحدود فلا تشتدّ عليه » .

وقد عجبت لهذا التقييم غير المتوقع .. فلا أنا مُغلظ فى القول لأحد يزورنى ، وليس ما أسمعه عن يحيى حقى ليستحق شدة الجدل أو المناقشة .

وجاء الاثنان يحيى حقى وعثمان عسل . وتحدثنا ساعات طوالًا وتفرّع بيننا الحديث إلى أكثر من اتجاه . حتى حان موعد انصرافهما . وخلال عبارات التوديع التقليدية . نظر إلىّ يحيى هذه النظرة الوَدود الحانية وقال برقة بالغة : « أتسمح لى أن أزورك مرة ثانية ؟ » .

وعلى قدر ما راعتنى منه هذه المودة وذلك اللطف ، بقدر ماكانت دهشتى وعجبى لهذا الطلب الذى لم أتعوّده . فوجدت نفسى أقول له مندفعًا : « يا أخى البيت بيتك وأنا أخوك . وزيارتك لى حق لك ودَيْن علىّ . ثم إن أبغض الأشياء إلى النفس أن توضع الحدود والقيود بين البشر » .

* جريدة « الأهرام » - العدد ٣٨٧٢٨ - ١٩٩٢/١٢/١٨ - ص ٨

وفى اليوم التالى فوجئت بمكالمة من وزارة الخارجية ليكون المتحدث هو يحيى حقى حيث كان يعمل بها لتنتهى بطلب الزيارة . وفى هذه اللحظة أيقنت أن يحيى هو صديق الحياة الذى لا يمكن الإبتعاد عنه إلا بالموت و﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾ .

واستمرت هذه العلاقة كما قلتُ ثلاثة وخمسين عامًا . وازدادت قوة مع الأيام إلى درجة أنه ترك بيت العائلة وأقام معى فى بيتى عشر سنوات لا نفترق فيها قط ، ولم يقطعه إلا زواجه الأول من والدة كريمته « نهى » ليعود إلينا بعد وفاتها مواصلاً هذه العلاقة مع إخوة كرام فى مقدمتهم فتحى رضوان ، وعلى محمود طه ومحمود حسن اسماعيل ، ومحمد لطفى جمعه وإبراهيم صبرى ابن شيخ الإسلام مصطفى صبرى المنفى فى تركيا وعثمان عسل .

كانت علاقتى بيحيى حقى مزيجًا من صلات العمل العلمى والأدبى ، وخلافات فى الرأى ووجهات النظر ، مع تباين واضح فى الأمزجة والطباع وتبادل لمحات الفكر ، وجوانب المعرفة . والحق أنها كانت صُحبة عظيمة خيل إلىّ بعدها أننى كنت أعرف يحيى حقى منذ عشرات السنين وذلك لدماثته وأدبه وصفاء نفسه .

كنا ننفق وقتًا طيبًا فى قراءة الأدب العربى القديم شعره ونقده ونثره وتاريخه . وكان يحيى أكثر الموجودين التقاطًا للتعبيرات والألفاظ وأسرعهم حفظًا للشعر . كنا نلحظ ذلك إلى درجة أننا فسرناه أنه يريد أن يُحَصِّل فى ساعات وأيام ما لم يُحصِّله فى شهور وسنين . وكنت والرفاق نعجب لذلك . ويزداد عجبنا حيث نلحظ تنبهه إلى جمال العبارة العربية ، واكتشافه المبكر لأسرار بلاغة العرب ، وقدرته الفائقة على اختزان كل ما يعرف وتمثله فيما يكتب بأسلوبه وعباراته بغير محاكاة أو تقليد . وإنما باقتدار وفن . براعة جعلته لايقع فيما يقع فيه غيره من النقاد والأدباء . وهو ما أكسبه شخصية متميزة ومستقلة قائمة بذاتها كامنة فى نفسه لاتظهر إلا عند الكتابة أو الاحتكاك بالآخرين . وعلى امتياز يحيى حقى وتفوقه فى المجالات التى اختارها لنفسه . كنت ألمح فيه شفافية من الصعب أن

ألمحها فى غيره . إلى درجة أنه كان يستشعر أمورًا يصدق فيها دائمًا . ولعله استشعر نهايته فى الأيام الأخيرة قبل وفاته حيث أكّد لى بأنه يعيش الأيام الأخيرة من حياته . ولم يمض على ذلك إلا أيام دخل بعدها غرفة الإنعاش لأزوره ، وتنبهه كريمته قائلة : عمى محمود شاكر . فيرد عليها وقد ضعف بصره تمامًا : أنا لا أعرف أحدًا بهذا الإسم . أعرف محمود محمد شاكر وكأن اختصار ابنته للاسم لم يقنعه . لقد كان يحيى حقى بالنسبة لى أخًا وصديقًا سرنا معًا فى زمن واحد ، ومشينا فى طريق واحد ، وكنا ننتهى إلى غاية واحدة ولم يتخلّف أحدنا عن الآخر حتى فرّق بيننا الموت وإنا لله وإنا إليه راجعون .

* * *

لا تنسوا ..

لا أعلم نكبة نزلت بالشرق العربى والإسلامى بلدا بلدا كانت أفحش أثراً وأشأم عاقبة من نكبة النسيان والغفلة . لقد نسينا نسيانا تاما أن العالم كما هو فى الواقع الذى نشهده بالليل والنهار ، قد انقسم قسمين : قسم من الأقوياء ، يقع الصراع بين قواه حتى يبلغ الحرب العالمية المدمرة ، وهو إنما يصطرع ويقاتل ، على القسم الثانى من العالم ، وهو الضعفاء . والقسم الأول من هذا العالم يرى أنه هو السيد ، وأن القسم الآخر هو العبد الذى لا ينبغى أن يطمح إلا بقدر محدود يُعينه على أن يكون حسن الإنتاج فى خدمة هذا السيد . وهؤلاء الأقوياء هم شيء واحد وإن اختلفت أسماؤهم : بريطانيا ، روسيا ، أمريكا ، فرنسا ، هولاندة ، أسبانيا . وهم إن اختلفوا فيما بينهم ، لا يختلفون أبدا على القسم الثانى من العالم ، وهو الشرق المستعبد ، ينبغى أن يظل كما هو ، وأن يتعاونوا جميعا عليه حتى يبقى كما هو ، ومن استطاع أن يستعمر بنفسه فعل ، ومن لم يستطع فهو يؤازر أخا له على الاستعمار واستعباد الأحرار . أنه شيء معلوم بالضرورة ، لأنه ظاهر بين .

بيد أننا ننسى كل هذا ، وقد أنشأ المستعمر مثلا مدارسنا بيديه ، ووضع لنا برامجها بنفسه وتولى الإشراف عليها حتى نشأ الجيل الذى يستولى به على أداة الحكم كلها ، ومنها وزارة المعارف . فنحن نتعلم فى هذه المدارس والجامعات وننسى أن أكثر ما يلقى إلينا : أما علم « يصرفنا عن التأهب لقتال الغاصب المستعمر » أو علم يقرب ما بيننا وبينه ليكون التفاهم معه أقرب ، والاعتدال فى عدوانه أدنى وأسرع ، ونحن نتكلم عن الاستعمار الاقتصادى ولكننا ننسى فنعيش بهذا الاقتصاد ، وفى ظل نظامه الاجتماعى يوما بعد يوم عيشة اللاهى المستمتع ، بل عيشة الذى لا يرى الحياة إلا هذا الضرب من الحياة .

إننا ننسى أن هذه الأمم المستعمرة قد نزلت بكل مكان وكل أرض ،

---

* اللواء الجديد ، عدد ٧ أغسطس سنة ١٩٥١ ، ص ٣ .

بجيوشها تارة ، وبسياستها تارة أخرى ، وباقتصادها تارات أخر ، وبحضارتها فى كل ساعة من ساعات الحياة التى نعيشها . فإذا رأينا مثلا حوادث تتتابع وتتلاحق فجأة وفى كل مكان ، فِكَرنا فى كل واحدة منها هى فِكَرُنا فى كل واحدة منها على حِدَة ونسينا الذى وراء الستار ، نسينا الدافع الذى فى يده أن يدفع ، وفى يده أن يمنع . تثور إيران ، ويضطرب ما بين الهند وباكستان ، وتنشب معارك بين بعض البلاد وإسرائيل ، وتتقابل أحزاب السودان وتتشقق ، وتضطرب معانى القلق فى مصر ، ويقتل وزير ، ويهلك منصوب على عرش من الذهب البريطانى وتقوم مشكلة دولية مفتعلة كناقلات البترول ، وتدور تمثيلية المفاوضات بين انقطاع واتصال ، وتظهر فجأة المادة الخامسة عشرة من الدستور ، إلى ضروب أخرى من الأحداث فى كل ناحية من نواحى الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية وتأتى كلها فى وقت بعينه ، ويشغلنا شىء منها عن شىء ، وندور مع هذه الأحداث كما تدور ، بلا روية وبلا تفكير .

ما معنى هذا كله ؟ لا شىء . إن الشرق العربى والإسلامى ، يحاول أو تحاول صحافته على الأقل ، أن تفسر كل حدث من الأحداث على أنه أمر مستقل ، يجعل عامة الناس يقنعون بأنهم عملوا شيئا ، أو استطاعوا أن يعملوا شيئا ، أو أنهم أرادوا مجرد إرادة – أن يعملوا شيئا يحقق وجودهم فى هذه الدنيا . وقلما تجد من يحاول أن يرتاب فى الباعث الذى يحرك كل هذه الأحداث مرة واحدة ، ويجعلها فى أعيننا متلاحقة متداركة ، فى أوقات متقاربة ومقرونة بضجة صاخبة طويلة عريضة كمهزلة قضايا الجيش ! قل أن تجد من يحاول أن يرتاب أدنى ريبة ، لأننا نسينا ، وأريد بنا أن ننسى أن الاستعمار أو المستعمر موجود بين ظهرانينا ، بجيوشه ، وباقتصاده ، وبسياسته ، وبأسلوب تفكيره الذى ارتضاه لنا ، وبحضارته التى بثها فينا واستعبدنا لها ، وبأداة حكمه من زعماء ووزراء وأعوان لهم فى كل مرفق من مرافق الحياة . وبأنظمة حكمه من دستورية واستبدادية وعرفية ! فأى نكبة أبشع ، وأى بلاء أفظع من أن تفقد الأرض التى اسْتُعبِد أهلها من يحذر الناس ويقول لهم : لا تنسوا ، وقبيح بكم أن تنسوا أن المستعمر الخبيث قد اختبأ وراء كل عمل يغركم ظاهره .

إنه ليس من المعقول أن تحدث هذه الأحداث فجأة ، متوافقة فى ترتيب الحدوث ، بغير تدبير سابق . فإذا خفى التدبير ، وعجز صاحب الرأى عن تفسير الغرض من حدوثه ، فليس معنى ذلك أنه ليس تدبيرا مبيتا وأنه جاء فجأة متلاحقا لغير غرض محدود . إن صريح العقل يوجب على كل ذى عقل أن يرتاب ، وأن يجعل الريبة مقرونة إلى الاستعمار وأعوان الاستعمار وأن يرى وراء هذه الأحداث شيئا واحدا ، هو المستعمر نفسه . ويقتضينا صريح العقل أن ننسى الأحداث نفسها ، لنذكر غاصب بلادنا ، والمعتدى على حريتنا ، ثم نعمل على بث الريبة فى كل نفس وكل فكر ، فلا نضيع أيامنا وليالينا فى النزاع على أحداث لا معنى لها . إلا أن الاستعمار قد نجح فى أن يشغلنا عن نفسه بأنفسنا ، وفى أن يذكرنا بهذه التوافه الصاخبة ، لننسى القارعة الكبرى ، وهى وجوده فى صور مختلفة عميقة فى حياتنا بالليل والنهار .

من الغفلة أن تصطخب الأصوات ، ويصطرخ المتنازعون فى الدستور وغير الدستور ، وفى المذاهب وغير المذاهب ، وفى رفع مستوى المعيشة وغير المعيشة ، وفى أخطاء وزراء الاستعمار وغير وزراء الاستعمار ، ويظل اسم بريطانيا وأمريكا وروسيا وفرنسا وهولاندة وأسبانيا ضميرا غير مذكور ، ومنسيا غير معروف ، وغائبا غير مشهود . إن الحياة لا تعاش بالأوهام ، وإنما يعيشها من أراد أن يعيش بالإرادة الصادقة ، وبالرأى الصريح ، وبالهدف البين ، وبالحق الذى لا يتجزأ ، وبالمشقة التى توهن البدن وتستهلك القُوَى . فإذا أردنا الحياة ، فإنما حياتنا أن نعرف العار الذى ألبسنا ذلة الاستعمار ، فلا ننام حتى ننفض عنا الذل ، بإعلان العداوة لعدونا الواحد الذى يتسمى بأسماء كثيرة فى هذه الأقاليم المتراحبة من تخوم الصين إلى حدود المغرب الأقصى .

اذكروا اسم عدوكم ، فإن نسيانه جريمة . واعرفوا عمل عدوكم فإن جهله هو الذل ، وحرضوا أنفسكم على أن تقاتلوه بالليل والنهار ، فى تفكيركم وأعمالكم ، وفى بيوتكم وشوارعكم وفى كل شىء من أشياء الحياة له فيها أثر ظاهر أو رسم خفى . لا تنسو ، فإن النسيان هو الهلاك ....

* * *

عدوى وعدوكم واحد !

أخى علال الفاسى ...

... لقد أوشكت أن أقول « عدونا وعدوكم واحد » ، ولكنى آثرت أن أسند العداوة إلى المفرد : لأسباب كثيرة منها : أننى أحببت أن تكون هذه الرسالة كأنها موجهة إليك من كل قارىء ، بل من كل عربى ، فأنت تسمع أصواتهم جميعا ، تعج فى مسامعك بلفظ واحد : « عدوى وعدوكم واحد » . وبذلك ترى آلافا مؤلفة قد رفعت لعينيك وأن تقرأ ، وكل منهم مستقل بعداوته ، فإن غاب واحد أو اثنان أو ثلاثة أو عشرات لم يقدح ذلك شيئا فى كثرة الداعين والهاتفين . ثم هو أدل على أن استقلال كل فرد بعداوته ينطوى على عزيمة ونية ثابتة لا تتحول ولا تتأثر بتغير الأحوال ، وعلى أن كلا منهم لا يرى أنه فرد مسوق فى جمهور صاخب ، بل يرى أن الآلاف المؤلفة من حواليه صور قد لبست الفكرة فعاشت بهم ، ومشت بهم ، ونطقت بهم وستعمل بهم عملا ينبغى أن يتم لأنه إرادة وعزيمة ونية وهدف ، لاحياة إلا بتحقيقها جميعا .

بل لعلى آثرت هذه الصيغة ليكون قارئها فى هذه الصحيفة ، مستشعرًا معنى العداوة فى نفسه ، وهو يخاطبك من خلالها بلسانى ، فإذا ألح عليه تأمل هذا المعنى فتح عينيه على حقيقة العداوة ، ماهى ؟ ولمن هى ؟ وكيف تكون ؟ والإجابة على هذه الأسئلة الثلاث هينة ، ولكنها تدلس بهوانها فى بادىء الرأى . فهى فى الحقيقة شاقة عسيرة ، تحتاج إلى تفاصيل كثيرة ، لو ذهب إنسان يحصيها ، ويمحص ضروبها وأنواعها ، ويميز بين طيبها وخبيثها ، لاحتاج إلى مجلد ضخم ، لا إلى أسطر فى رسالة ، أو مقالة فى صحيفة ، أو فصل فى كتاب .

ما العداوة ؟ أهى مجرد البغضاء والحقد ؟ إذن ، فهى سفه وسوء خلق . أهى مجرد الشعور بأن تكره إنسانا ما ، أو ناسا ما ، لأنك تحس بهذه الكراهة بلا سبب بين عندك ، أو بسبب بين ولكنه لا يزيد على أن يجعلك تكره وينطقك بهذه الكراهة ؟ وإذن فهى إضاعة لجهد النفس ، وإفساد لصحة الرأى . والعداوة بهذه

* اللواء الجديد ، عدد ٢٤ أغسطس سنة ١٩٥١ ، ص ٣ .

المعانى وأشباهها لا نبل فيها ولا شرف . وأختصر هذا التفصيل إلى ما تحققته أنا فى نفسى من معنى العداوة ، ولست أشك أنك قد تحققت مثله ، وأن كثيرين غيرنا عرفوه وأدركوه . فنحن نعادى الاستعمار – مثلا – لما فيه من بذاءة العدوان على أصحاب الحرية ، ولما فيه من فجور الطغيان على الضعيف العاجز ، ولما فيه من الشره على احتياز الخير لنفسه ومنعه عن أهله ومن هم أحق به ، ولما فيه من خسة الهدف لأنه يعمل على إسقاط همم الناس والتغرير بهم وتنويمهم حتى لا يفيقوا فيستخرجوا حقهم بأيديهم من الغاصب ، ولما فيه من لؤم الطبيعة الدافعة إلى احتقار جماعات من البشر ، لا لشيء إلا لحب المال وحب السيطرة ، وحب العلو فى الأرض ، ولما فيه من التفريق بين بنى آدم على أساس المعدة والشهوة والترف ، ولآلاف من المعانى الرديئة التى لا يحصيها حصر ، ولا يجهلها سليم الفطرة من الناس .

فنحن نعادى إذن هذه المعانى الخسيسة ، لنحب أضدادها من المعانى النبيلة ، وذلك لا يتيسر إلا بإدراك كل هذه الخساسة التى يتضمنها الاستعمار ، فإذا أدركناها فعلينا أن نجتنبها فى الخاص من أمورنا نحن وفى العام منها . فأول معانى العداوة إذن هو إدراك الخسيس وتجنبه ، وإدراك النبيل والعمل به والحرص عليه . وتحصيل ذلك يتطلب من كل فرد يعادى الاستعمار أن يدور بعينيه وبرأيه وبفكره فى كل مايحيط به ليعرف مواضع الخسة واللؤم والبذاءة ، ويفعل مثل ذلك فى تمييز المروءة والنبل والطهارة وأعمال الفضيلة ، ويمثل معانيها أعمالا فى نفسه باتباعها ، وبدعوة إخوانه إلى فعل ما يفعل ، ونهيهم عن ارتكاب هذا الحشد البغيض من مثالب الاستعمار ، وأخلاقه التى أنشأته ومكنت له فى الأرض .

ونحن لا نعادى الاستعمار ، إذا نحن لجأنا فى مقاومته وقتاله إلى نفس الأخلاق التى منها نبع . ولا نعادى الاستعمار إذا عشنا حياتنا بما يعيش هو به من الطغيان على الضعيف والعاجز ، ومن الشره الظالم لحقوق الناس ، ومن الخسة فى التغرير بهم وتنويمهم وإسقاط هممهم ، ومن لؤم الطبيعة فى احتقار بعضنا بعضا ، ومن حب المال والسيطرة والعلو فى الأرض ، ومن جعل حياتنا معدة وشهوة وترفا

ومتاعا لا نبالى معه أن نظلم ضعيفا ، أو نجور على غير قادر ، أو نغتال حق رجل منا لا فضل لنا عليه ولا ميزة ، إلا أن يكون فضلا مغتصبا ، وميزة ندعيها .

وإذن فالعداوة ، إدراك صحيح ، وعمل صادق ، إذا لم يتحققا جميعا صارت العداوة لغطا نتشدق به ، لا معنى له ولا خير فيه . وهى شىء ينبغى أن يحققه كل فرد بنفسه وفى نفسه أولا ، مستقلا عن سواه بمجهوده وعمله ، ثم يصير الأمر عمل جماعة لأن الفكرة الواحدة كالضوء مصدرها واحد ، ولكنها تجمع الآلاف وتنير لهم الطريق ، كل على قدر ما يستطيع ، وبقدر ما أوتى من بصر ومعرفة ، فكلهم يعمل ، لأنه يرى ويبصر ماذا يعمل وفيم يعمل . هذه واحدة ، لعلى وفقت فى بيان بعض معانيها .

أما لمن تكون العداوة ؟ فأظننى قد بينت عن العدو ، وهو الاستعمار ، ولكنه بيان غير كاف . وأشهدك على أن بيانه متعبة شديدة ، فهو متلبس بكل شىء . متلبس بهذه الدول الطاغية التى تتناحر فيما بينها على غير معنى نبيل للحياة الإنسانية ، والتى اعتدت على أكبر جزء من العالم لتستغله وتستعبده ، وتبقيه أبدا غير مطيق للنهوض بنفسه ، إلا معتمدا عليها . وهو متلبس بنفس الحضارة ، التى تحاول أن تزعم نفسها حضارة إنسانية شاملة ، وهى ليست إلا حضارة نابتة فى جزء صغير من العالم ، ويريد أن يفرضها على العالم كله بسيئاتها جميعا ، وذلك الجزء الضخم من العالم لم يشترك فى إيجادها ولا فى رعايتها ولا فى إمدادها والقيام عليها . وهى حضارة لا تقوم على فكرة تدعو إليها ، بل على سيطرة تريد أن تضربها على قلوب الناس وعيونهم وبصائرهم ، ولا أصل لها فى هذه القلوب ، وهى لا تهدى عيونهم ، ولا تنير بصائرهم ، بل تقودهم بعمى الشهوات والفتن والجهالة ، إلى غرض واحد ، هو أن يعيش هذا الضرب من الحضارة سيدا على هذه الأرض .

فنحن إذن ينبغى أن نعادى شيئا كثيرا ، بل أشياء كثيرة تعترف عقول كثيرة أيضا بأنه جزء لا غنى عنه للحياة الإنسانية فيما يزعمون ، ولكن هل يمنع ذلك أن يكون الحق حقا أبدا ؟ مهما تنوعت أسماء الدول المستعمرة ، ومهما كثرت ،

فهى فيما ينبغى لنا أن نعرفه ، دولة واحدة . ومهما تفرقنا نحن فى الأرض التى خضعت لهم ، فينبغى أن نكون عداوة واحدة لهذه الدولة ، الواحدة الحقيقية ، المختلفة الأسماء . والحضارة التى قامت فى هذه الدول ، نبعت فعلا من نفس الأخلاق التى جعلت الاستعمار كما وصفناه طاغيا باغيا شرها خسيس الغرض ، لئيم الطبع ، جريئا على إهدار الكرامة الإنسانية . فينبغى إذن أن نعاديها بنفس الأسلوب الذى نعادى به الاستعمار . وإذا ظن أصحاب هذه الحضارة أن حضارتهم ينبغى أن تشمل الأرض جميعا ، بالأساليب التى يتبعونها فى بثها ، لتكون لهم ثمرة جهود العبيد الذين تستعبدهم لخدمتها فعلينا نحن أن نستيقن أن كرامة الإنسان لا يمكن أن تهدر ، وإن إنشاء الحضارات شيء قائم فى طبيعة الجنس البشرى ، قد أوتى القدرة عليه منذ وجد على الأرض بلا أداة ، ولا علوم ، وبلا فنون ، وبلا صناعات . ومن الجهل أن نعتقد أن الجنس البشرى يتقدم أو يترقى بهذه الحضارة ، فى حين نراه قد انقسم هذا الانقسام الشنيع إلى : طاغ ومحطم ، إلى : ظالم ومظلوم ، إلى : آكل ومأكول ، إلى : حى يستأثر ، وهالك يستغيث . ولن يضيرنا شيئا أن نعادى هذه الحضارة ، لأننا بالفطرة قادرون على إنشاء حضارة أفضل منها ، إذا أقمنا عداوتنا على الأصل الصحيح ، وهو بغض الفساد ، وحب الإصلاح ، وكراهة الشر وإلف الخير ، وتحقيق معانى ذلك كله فى حياتنا كلها بالليل والنهار ، فى بيوتنا وشوارعنا ، فى معاملاتنا وخصوماتنا ، فى صغير أمورنا وكبيره ، غير غافلين ولا متهاونين ولا متعجلين أيضا ، فعندئذ سوف ينبثق على هذه الأرض نور جديد يمحو هذه الظلمات الباغية التى أطبقت على العالم ، وسنكون نحن هداة هؤلاء - الذين عاديناهم - إلى طريق صحيح ، يعرفون به كرامتهم ، لأنهم عرفوا للناس كرامتهم ، ويهتدون إلى السكينة التى فقدوها فى عالمهم هذا ، لأنهم سوف يعرفون أن للحياة معنى أكبر من معنى الاستئثار والغلبة والترف .

ولن نبلغ هذا المبلغ إلا بأن نبنى أعمال حياتنا على غير ما بنيت عليه أعمال حياتهم ، ولو اتخذنا نفس أساليبهم ، ونفس أفكارهم ، ونفس أضغانهم على

الجنس البشرى فنحن إذن مثلهم فى الشر ، بل هم أقوى منا فيه لطول ممارستهم له ، ولاجتماع قوى الشر كلها فى أيديهم ، بل أفظع من ذلك أننا لن ننال شيئا من الحرية ، لأننا أتباع مقلدون ، نشعر فى أنفسنا أننا أتباع وخدم ، وإننا عاجزون محتاجون إلى هذا المدد المستمر من نفس عدونا . وبئس المصير !

أما السؤال الثالث ، فخيل إلى أنى أجبت عن بعضه فى تضاعيف كلامى ، وأنا أدع لك تفصيل وجوهه وأسبابه ووسائله فإن ذلك يسير عليك ، وعلى كل إنسان صدقت عداوته لعدوه ، وعرف الحق فاتبعه فى نفسه قبل أن يحمل الناس عليه ويدعوهم إليه . والسلام .

* * *

أندية لأناد واحد ..

من أكبر الغفلة أن يظن ظان أن السياسة المصرية ، بل الحياة المصرية ، كانت تستمد أصولها من قلوب المؤمنين بحق بلادهم فى الحياة وفى المجد ، وأنها كانت خالصة من كل شائبة تفسدها أو تحولها إلى وجهة بعيدة كل البعد عن الصراط المستقيم . حسبك أن تعلم أن فى مكان ما ، مستعمرا ما ، حتى يملأ قلبك اليقين أنه لن يدع الأمور تجرى على ما يتفق بغير تدبير ولا سياسة ولا ضبط ولا فكرة . بل ينبغى أن تعرف كل المعرفة أنه لابد له من أن يكون شديد الحرص على أن يقلل أسباب القلق والمخاوف والريب ، أو أن يمحوها محوا إن استطاع إلى ذلك سبيلا . وأنه من أجل ذلك ينبغى أن يكون عظيم الحذر ، خفى الكيد ، رفيق العمل ، بالغ الأناة ، واسع الحيلة . ولن يبلغ ما يريد من ذلك إلا بأن يستخفى هو عن عيون الشعوب ما وجد إلى ذلك طريقا . وكيف يستخفى إلا بأن يصطنع من أنفس الشعب ناسا يطمئن إلى أنه منه ، لأنهم يمشون فى ثيابه ، ويتكلمون بلسانه ، حتى يتشبه على الشعب فيما بعد أمر الصالح والفاسد من أبنائه . فإذا بدأوا يعملون ظنهم الشعب منه ، وهم فى الحقيقة عدو له . وتجرى الأمور عاما بعد عام وجيلا بعد جيل ، حتى إذا بلغ الأمر مداه ، صار تمييز الحق من الباطل ، والبرىء من المجرم ، قضية معقدة تحتاج إلى فطنة وتتبع واستقصاء ، وتفتيش عن خبايا الأعمال والأقوال ، وعن أسرار المودات والمجالس ، وعما وراء الأستار الكثيفة التى يعيش فيها كل إنسان على حدة .

كشف اللواء الجديد عن أخبار نادى الشرق الأوسط الذى ذكره جون كيمش فى كتابه « الأعمدة السبعة المنهارة » ، وجاء فى وصفه أنه : يضم موظفين بوزارة خارجية بريطانيا ، وأكثر موظفى سفاراتها ومفوضياتها فى الشرق الأوسط ، وموظفى حكومة فلسطين ، وموظفى شركات البترول ، وبخاصة

---

* اللواء الجديد ، ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥١ ، ص ٥ - ٦ .

الموظفين والضباط السابقين الذين خدموا فى الشرق الأوسط من عهد لورنس إلى الآن ... » .

ولكن لم يزد جون كيمش على أن رفع الغطاء عن أصابع أقدام المارد المتلفع فى أثياب الحياة المصرية الحديثة كلها .

وهذه الأصابع أهون مافى الأخطبوط المارد .

أين هذا النادى من معاهد التعليم الأجنبية التى تتلقى أبناء مصر وبناتها لتنفث فى قلوبهم وعقولهم سحرا يدب فى عروقهم ما عاشوا بين الناس ؟ أنها بنيت للعلم ، هكذا يقال . والحق أنها بنيت لأغراض كثيرة من الاستعمار : منها استعمار القلوب والنفوس والعقول والأهواء . ومنها تليين هذه الفطرة العاتية فى الشعوب – وهى كراهة العدو . فعلم هذه المعاهد أن تسل من القلوب الغضة أسباب هذه البغضاء ، حتى تألف عدوها فلا تنكره ولا تمقته ، بل أكبر من ذلك : أن يستحيل عليها يوما ما أن تقاتله صادقة مستعلنة ، أو تطاعنه جريئة مستبسلة . فأين إذن هذا النادى من معاهد الاستعمار أمثال الجامعة الأمريكية ومدارس الليسيه ، والمدارس الإنجليزية ، ومدارس الجزويت والراهبات وأشباهها ، هذه تتدسس فى القلوب والعقول والأفكار والبيوت ، وفى كل الحياة العامة . فيا بعد مابينهما !

أين هذا النادى من الأساتذة فى الجامعات المصرية الذين نظن أننا نستوردهم لتعليمنا ، وهم مستوردون من مصانع تفريخ الاستعمار ، يعيشون لغير العلم ، ويعملون لغير العلم ، ولهم نشاط ضخم فى غير العلم ، وأكبر همهم أن يبثوا فى أبنائنا ما يبعد كل البعد عن حقيقة معنى العلم ؟

أين هذا النادى من أندية الشركات المختلفة الجنسية المتفقة الغرض على استعمار أرضنا ؟ تستجلب من يصلح لها من المستأجرين صغارهم وكبارهم ، وتمهد لهم وتعينهم وتمكن لهم تمكينا ، رأيناه يفضى أحيانا كثيرة إلى أن نرى من هؤلاء وزراءنا ورجال سياستنا وأعوان حكوماتنا ؟ وأين هذا النادى من أندية الآلاف المؤلفة من المهاجرين المستعمرين الذين استوطنوا أرضنا حتى ملكوا تجاراتها وصناعاتها وأرزاقها جميعا ، وخالطوا الناس وعاملوهم وصادقوهم ،

وجـــــاذبوهم الأحاديث فى شئون كثيرة ، وأهدوا إليهم من الآراء والأفكار مابلغ خطره على الحياة الاجتماعية والسياسية مبلغا يعجزك تقدير خطره عن الأمم ؟

أين هذا النادى من أندية أعوان الاستعمار الذين انبثوا فى الصحافة ، فوجهوها وجهة معينة فى هذا القرن ؟ أين هذا النادى من الأقلام الدخيلة المتسترة باسم العلم والفن والأدب والسياسة ، وعملها موغل فى التغرير بالجمهور المتطلع إلى الفهم والمعرفة ؟ أين هذا النادى من الإذاعات العامة ، كالسينما والراديو والتمثيل وأشباهها ، وهى جميعا ملوثة بالفساد تعمل فى تحريكها أصابع لا ترى ، وألسنة لا تسمع ، تبث فى الناس ما تبث باسم اللهو والتسلية والترفيه ، وفيها السم الذى لاينجو ذائقه ؟ أين هذا النادى من أندية مبثوثة فى كل منزل ، وفى كل طريق ، وفى كل مكتب - تعمل باسم الصداقة أو باسم الخدمة العامة ، أو باسم التجارة ، أو باسم العلم والأدب ؟

مئات من الأندية ورثت نادى كرومر فى بيت نازلى ، ومئات من الأندية ورثت أندية الأسواق التجارية الماضية . فلو نحن راجعنا تاريخ الأسماء التى وقعت فى يدها مقاليد الحكم ، أو كانوا أعوانا لهذا الحكم ، لعرفنا جذور الفساد ، وعرفنا أنها غاصت فى أرض خبيثة ، استطعمت منها أخبث غذاء ، لتكون نكبة ماحقة مستشرية فى الشعب المضلل .

وأندية أخرى مثل هذه الأندية تقوم الآن فى كل أرض للاستعمار فيها قدم ، أو له فيها مطمع : فى جزيرة العرب ، فى الشام ، فى لبنان ، فى العراق ، فى اليمن ، فى بلاد المغرب ، بل فى سائر بلاد الشرق . ويخرج من مجموع هؤلاء جميعا ناد أكبر من هذه الأندية جميعا ، هو النادى المختلط الذى احتكر ، أو أراد أن يحتكر ، الكلام باسم هذه الأمم ، ويتولى قيادتها وتصريف شئونها ، ويذيع على الشعوب المغررة معانى لم تستمد أصولها إلا من الكذب والغش والفساد ، ومن التجارة البشعة بمستقبل الحياة الحرة فى هذا الشرق ، لقاء عرض زائل من مال يثمرونه ، أو شهرة يستمتعون بها ، أو مجد يحلمون به .

ولكن حذار حذار ، فإن النائم لابد له أن يستيقظ ، والجاهل خليق أن يتعلم ، والذاهل يوشك أن يفيق ، فيومئذ لا يغنى شىء عن العاقبة التى يرونها عيانا ، ويومئذ يعلمون الحق علم اليقين . وذلك يوم قريب .

* * *

لا تخدعونا !

كتب كاتب فى الأهرام يعلق على موقف روسيا من مسألة قناة السويس ، وأراد أن يفسر مسلك موسكو فى هذا الأمر ، وزعم بعد التطويل أن الخطأ خطأ وزير الخارجية النشيط ، إذ تأخر عن الاتصال بموسكو ، فسبقته إسرائيل إلى الاتصال بها ، فغيرت روسيا موقفها من أجل إسرائيل .

وهذا الضرب من التفسير ، يراد به دائما أن نظل عالة نمد أيدينا إلى الأمم والدول ، نطلب منها النصرة ، ونخيل إلى أنفسنا أن لو فعلنا ذلك ، لاستطعنا أن نصل إلى كثير ، لولا تقصيرنا . وهذا الكاتب يخدع الناس .. فروسيا - وغير روسيا - لها سياسة هى بها أعلم ، وهى إليها تسعى ، ووزير الخارجية لا يعرف شيئا عن هذه السياسة ، ولايمكن أن يعرف ، ومهما فعل فلن يغير شيئا منها ، ولن يستطيع بلباقته المشهورة !! أن يحول هذه السياسة إلى مصلحة بلادنا ، وإسرائيل لم تكن هى التى غيرت سياسة روسيا فجعلتها تخذلنا بعد أن تظاهرت بنصرتنا . بل الحقيقة أن لروسيا أغراضا فى مجلس الأمن وغير مجلس الأمن ، - ولها سياسة ثابتة تعرفها - لا تغير بهذه السهولة بين عشية وضحاها من أجل إسرائيل ، ومن أجل نشاطها السريع الحاسم ، كما يزعم هذا الكاتب .

كان أولى بالكاتب الفاضل ، أن يبين لقراء الأهرام أن الشعوب التى تطلب الحرية ، ينبغى أن لا تصدق الدول التى صارت كل صناعتها فى العالم أن تسلب الناس الحرية ، وتأكل الأمم أكلا لا يبقى على إنسانية ولا كرامة ولا شرف . حطموا هذه الأقلام الكاذبة ، فقد قادتنا زمنا طويلا إلى اليأس والانحلال . كنتم بالأمس تهللون لروسيا وأنتم لا تعلمون ، ماذا تخبأ ، ويتأثر الشعب بتهليلكم ويفرح ويأمل ، ثم يصبح وأنتم تنوحون وتفسرون !! ليتأثر الشعب ويحزن بنواحكم ثم ييأس . وكأنكم تريدون أن تدعوا هذا الشعب يعيش فى بلبلة دائمة

---

* اللواء الجديد ، عدد ٤ سبتمبر سنة ١٩٥١ ، ص ٥

بين الفرح والحزن ، والأمل واليأس ، حتى يتحطم فى أيديكم وأيدى الاستعمار هذا ما تفعلونه عامدين وغير عامدين .

* * *

احذروا أعداءكم !

تكاثر الحديث فجأة عن إلغاء المعاهدة ، ولم يبق لسان ولا قلم لم يجر عليه حديث إلغائها ، ولكنى وقفت طويلا أتردد أن أغمس قلمى أو لسانى فى شأنها ، حتى يستقر قرارى على ما ينبغى أن أكتب أو أقول . ثم تبين لى أن ثقل الصمت أفدح من وزر الكلام . وتبين لى أنه لابد من بيان وتفسير لما نحن فيه ، وإلا فنحن صائرون لا محالة إلى مصير مفزع تسوقنا إليه سياسة الاستعمار . فإذا لم نفهم الآن كل الفهم ماذا يريد بنا عدونا ، فلن نجد غدا من شره نجاة ، وسنظل دائما فى حيث أراد بنا أن نكون ، وسنسير أبدا إلى حيث يريد لنا أن نسير .

وقبل كل شيء ، ينبغى أن نفرق بين الشعب والحكومة . فالحكومة فى البلاد المنكوبة بالاحتلال ، جزء من نظام الاستعمار ، ولو زعمت أنها مستقلة فى تصريف سياستها . ومن خداع النفس أن يتصور إنسان أن الحكومة تمثل إرادة الشعب ، أو تفكر مثل تفكيره ، وبخاصة إذا ثبت ثبوتا قاطعا أن جميع حكومات الاستعمار ، لم تستنكف أن تعاونه مرات ، وأن تخضع لما أراد أن يخضعها له ، وأن تبقى فى مناصب الحكم وهى تعمل بأمره وتحطب فى هواه .

وطريقة الحكومات فى البلاد المحتلة ، هى أن تهادن الغاصب وتفاوضه وتعاهده ، أما الشعوب فلا تعترف بالمهادنة والمفاوضة والمعاهدة ، إلا أن يدعى مدع أن الحكومة تمثل الشعب ، فإذا رضيت هى شيئا ، فالشعب راض عنه ! وهذا باطل من أساسه ، لأنه مناقض لطبيعة الحق الخالد : وهو أن الشعوب لا ترضى أبدا بالاستعباد وإن جاء فى صورة معاهدة .

فالحكومة والشعب شيئان مختلفان كل الاختلاف فى عهد الاستعمار ، ومن أجل ذلك كانت كل معاهدة بين الحكومة وبين حكومة الغاصب المستعمر ، معاهدة باطلة من أساسها . والشعب لا يطالب بإلغائها ، لأنها ملغاة فعلا فى

* اللواء الجديد ، عدد ١٨ سبتمبر سنة ١٩٥١

نظره ، لا يعترف بها أبدا : لأنها معاهدة معقودة بين المستعمر وصنيعة المستعمر ، فهى لا تتعدى أن تكون معاهدة عقدها المستعمر بينه وبين نفسه .

فإذا جاءت ساعة رأينا فيها الحكومة الضالعة مع المستعمر تقول : « لابد من إلغاء المعاهدة » ، وسمعنا أصوات الشعب تردد الكلمة : « لابد من إلغاء المعاهدة » فربما خيل إلى الناس بل إلى الشعب نفسه أحيانًا ، أن معنى الكلمة واحد فى لسان الحكومة وفى لسان الشعب . ولكن هذا باطل ، وغير معقول أيضا ، بل هو ما قيل فيه :« كلمة حق أريد بها باطل » .

كلمة الحكومة قاصرة على الإلغاء القانونى ، واستبدال معاهدة بأخرى ، لأن المعاهدة التى يراد إلغاؤها قد استنفدت أغراضها مثلا . أما الشعب فلا يذهب هذا المذهب فى الإلغاء القانونى للمعاهدات بين دولتين مستقلتين ، بل يريد أن لا يعترف بهذه المعاهدة ، ولا بإبرام معاهدة بين الحكومات الضالعة مع المستعمر وبين الاستعمار ، وأن هذه الحكومات لا تمثل إرادته ، وأنه أراد أن يقول إنه عازم على أن يجعل عدم اعترافه بالمعاهدات أمرا واقعا ، وإنه سيقاتل المستعمر بطريقة الشعوب فى طلب الحرية .. أى بقتال المستعمر فى كل زاوية وطريق ، بالليل والنهار ، وبكل أداة يملكها ، وبكل وسيلة يطيقها ، رضيت الحكومات عن ذلك أو لم ترض وما أبعد ما بين المعنيين ! بل هما غرضان متناقضان .

وإذن ، أليس عجيبا أن تكون طائفة الساسة الذين عقدوا معاهدة سنة ١٩٣٦، هم أنفسهم الذين يذمون هذه المعاهدة نفسها يطالبون بإلغائها ! وهم أنفسهم أصحاب مبادىء المهادنة المعتدلة التى لا ترى محيصا من عقد معاهدة أخرى مع المستعمر ! وهم أنفسهم الذين كانوا منذ أيام قلائل يفاوضون ويذهبون ويجيئون للاتفاق على نص يرضى الشعب فيما يزعمون ! أنه لعجيب ، ولكن لابد من تفسير :

انتهت الحرب الماضية ، وعلمت بريطانيا أن شعب مصر والسودان ، بل شعوب العالم العربى والإسلامى ، تموج بآلاف من قوى مختزنة فى الشباب وغير الشباب ، وأنها توشك أن تنفجر ، وأنه لابد من تبديد هذه الطاقة المختزنة قبل أن يحين انفجارها .

وكادت الثورة تندلع فى سنة ١٩٤٦ ، ولكن سرعان ماحولت عن وجهها ، إلى الخديعة الكبرى المعروفة بتعديل المعاهدة ، وشغل الناس بها زمنا طويلا ، وانبعث أشقاها يتولى حوك هذه الخديعة وإطالة أمدها ، وهو بطل قديم من أبطال الساسة الدجاجلة صنائع الاستعمار . وأفلح الخبيث ، وفازت بريطانيا بعض الفوز . ولكن لابد من تبديد الطاقة ، فإنها أكبر من أن تقضى عليها خديعة واحدة . فإذا بريطانيا تمكن لليهود كل التمكين هى وأعوانها ، وإذا الدول العربية جملة واحدة تنزلق إلى ما تريد ، فتدخل حرب فلسطين بجيوشها ، وإذا الهزيمة المنكرة ، وما تبعها من اضطهاد وتشريد واستبداد ومخاوف بالليل والنهار . ولم تكد تنتهى هذه الخديعة ، حتى جاءت الانتخابات المضحكة التى انتهت بمجيىء الوفد فجأة إلى الحكم ، بعد اليأس كل اليأس من عودته . وما هو إلا قليل ، حتى أثيرت القضايا الكثيرة الملوثة التى شغلت القلوب والعقول ، ثم انتهت أيضا بما نعلم من الركود والخيبة ، وانتصار الخيانات وأصحاب الخيانات . وفجأة ينبعث من كل مكان ضجيج وعجيج فى فضائح الاستبداد والظلم والاستبداد والفجور وتبديد الأموال وقضايا الحرية .

وأخيرا ينفجر فى هذا الجو الصاخب الثائر ، صخب أشد منه . من أين ؟ من معسكر الحكومة : إلغاء المعاهدة ، إلغاء المعاهدة !

فى كل حادثة من هذه الحوادث التى ذكرتها ، والتى لم أذكرها ، فزعت الأمة كلها : شيبها وشبانها ، جاهلها وعالمها ، ثم انقلبت يائسة قانطة ، وثارت ثم سكنت ، واندفعت ثم ارتدت ، وغلت ثم فترت . وضاع قسط وافر من الطاقة المختزنة فى الشعب شيئا فشيئا . وبدد سخط الألسنة عزائم القلوب . يالها من نكبة !

ثم يجىء إلغاء المعاهدة ، فإذا لسان ثائر يتولى تعبئة الشعب لإلغاء المعاهدة ، وهو لسان من ألسنة الحكومة الضالعة مع الاستعمار . وينطلق الشعب يردد : إلغاء المعاهدة ! بيد أن الحكومة – كما قلنا آنفا – تذهب فى إلغاء المعاهدة مذهبا ، أما الشعب فيذهب فى الحقيقة مذهبا يناقضه كل المناقضة . فياله من إشكال عسير معقد !

أن كل عاقل يستطيع أن يسمع همس الاستعمار فى هذا الضجيج الصاخب ، ويرى أصابعه من خلال الغبار الثائر : ويرى غايته فى الاحتيال على تحطيم إرادة الشعب ، وتحطيم ثقته بنفسه ، وتحطيم إيمانه ، وتحطيم تفكيره ، وتحطيم أخلاقه وتحطيم عزائمه ، وتحطيم قدرته على العمل . والحكومة صنيعة له ، فهى أداة من أدوات هذا التحطيم .

وكل عاقل يستطيع أن يرى تماثيل الأبطال القدماء من صنائع الاستعمار ، وهى تتهاوى فى قبور الثرى ، وفى حفر النسيان ، وفى مصارع الشيخوخة ، وفى مزالق العجز والفناء .

وكل عاقل يستطيع أن يبصر فى هذه الظلمة المتبلبلة أنامل الاستعمار – على اختلاف دوله وأجناسه وأهوائه – وهى تصنع للشعب دمى من الأبطال الكذبة ، ليخرجوهم على أعين الناس فى مسرحية مصارعة الاستعمار بأساليب الشعوب الوطنية ، لكى ينخدع الشعب بهم ويطمئن إلى أعمالهم ، وليحلوا بعد قليل محل الجيل الفانى من صنائعه . ويتم كل ذلك بأسلوب طبيعى ، على التدريج ، وبلا مفاجأة ، حتى لا يكون الأمر مدعاة إلى الريبة ، بل إلى الاطمئنان والرجاء تارة ، وإلى الإعجاب والعذر تارة أخرى .

فما الذى يرمى إليه الاستعمار إذن ، بأن يدفع صنائعه التى استحدثها فى هذا العهد الأخير ، لكى يتولوا هم قيادة الشعب ، بلسان كلسان الشعب ، يستخدم كلمة يريد بها هؤلاء الصنائع معنى ، ويريد الشعب معنى آخر ؟ يريدون بها معاهدة تلغى وتحل محلها أخرى ، ويريد الشعب بها أنه لا يعترف بأية معاهدة مع المستعمر ، ولا يريد أن يسمع ذكر معاهدة أخرى ، بل يريد الحرية كاملة بلا قيد ولا شرط ، ينالها بالطريقة التى تنال بها كل حرية .

هناك وجوه كثيرة لتفسير مايريده بنا الاستعمار ، ولكنى سأقتصر الآن على أبشعها وشرها : تلغى المعاهدة ، ويتولى الأبطال المزيفون قيادة الشعب إلى جهاد عنيف ، هو راغب فيه لا يهابه ولا يتخوفه ، ويصطدم بالاستعمار وجنوده بلا تردد ، ويتقدمه بعض هؤلاء الأبطال صاخبين مهللين وما هى إلا خطفة البرق ،

حتى نرى جيوش إسرائيل (فعلا) على الحدود ، وينازلها الجيش المصرى دفاعا عن أرضه ، وتظاهر مصر دول صديقة كثيرة « حالها كحالنا ويراد بها مثل ما يراد بنا » ، وتنبعث حركات كثيرة قد مهد لها فى بلاد كثيرة من العالم العربى والإسلامى ، وإذا الشرق الأدنى كله فورة متصلة من الاضطراب العنيف ، وإذا نحن وهم جميعا فى حاجة إلى سلاح ليس عندنا شىء منه ، وإذا الصنائع الجبناء يمدون أيديهم مرة أخرى يطلبون الإنقاذ من بريطانيا وأمريكا وسائر دول الاستعمار ، وإذا هذا الإنقاذ نفسه يصبح كالدليل على بطولة هذه الدمى ، وإذا المعاهدات تعقد فى كل مكان كخطفة البرق أيضا ، وإذا الألسنة التى دعت لإلغاء المعاهدة ، تقذف الجماهير بالألفاظ الغرارة الخداعة التى استعملت فى سنة ١٩٣٦ ، وإذا الشعب يسكن بعد هذه الجهود المضنية الطويلة ، وإذا حرب أخرى تنبعث وإذا جنود الطغاة المستعمرين من كل جنس بين ظهرانينا تغدو وتروح : لها بيوتنا وأقواتنا وأرزاقنا وأخلاقنا ونساؤنا وأبناؤنا وتجارنا وموظفونا ، وإذا كل طفيلى من صعاليك الأجانب يصير إلى الغنى بإفقار الشعب ، وإذا الحياة كلها متاع لهم وخدم ، وتذهب الأموال والأعراض والدماء لكى نعود بعد هذه الحرب الجديدة ، إلى المطالبة بإلغاء معاهدة سنة ١٩٥١ (مثلا) التى « استنفدت أغراضها » ، والتى « أصبحت غير ذات موضوع » ، والتى « كانت نكبة » ، والتى « وقعت تحت الضغط والتهديد » إلى آخر ما جاءت به ألسنة الأبطال القدماء الكذبة ، الذين وقعوا معاهدة سنة ١٩٣٦ .

أنه خطر داهم ، فعلى المخلصين فى هذه البلوى نظرة الأناة لا العجلة ، وأن لا يدعوا قيادة الشعوب إلى جهاد المستعمر تفلت حتى تستقر فى يد الأبطال الكذبة ، كما أفلتت منذ سنة ١٩١٩ وما بعدها . وليعلموا أن ساعة الجهاد والنزال هى التى نحددها نحن لأنفسنا ، لا التى تحددها سياسة الاستعمار على ألسنة الدجالين والكذبة والمنافقين من صنائعها . وطريق الحرية شاق طويل ، ولكنه وحده هو الطريق .

* * *

فى خدمة الاستعمار

اقرأ أحاديث هؤلاء الذين تسميهم الصحافة « زعماء » تارة و « ساسة » تارة أخرى ، فلا أدرى من أى شئونهم أعجب ؟ أمن حسن فهمهم لما يدور فى عالم نعيش نحن فيه أداة مسخرة للاستعمار ؟ أم من دقة بصرهم بما يرضى الدول التى استعمرت بلادنا من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ؟ أم من براعة ألسنتهم فى عرض قضايا الأمم المنكوبة بالاستعمار ، عرضا لطيفا هينا رقيقا ، يعين الشعوب المسكينة على أن تسكن إلى الأمر الواقع ، وإلى الاطمئنان إليه والرضا به ، أم من رشاقة اهتدائهم إلى حلول يزعمون أنها ترضى طرفى النزاع ؟ وطرفى النزاع - كما هو معلوم بالضرورة - هما المستعمر الذى أهدر حرية الشعوب ، وكرامة البشرية ، والمستعْبد الذى يريد أن يسترد حريته وكرامته .

كلا ، بل أخطأت ، فأنا لا أعجب فى الحقيقة ، بل أتقزز وأشمئز ، فإن الفرق بين التعجب وبين التقزز والاشمئزاز ، هو من الدقة بحيث لا يعدو أن يكون فرقا فى صورة التعبير عما تعانيه النفس حين تفاجئها المعانى المثيرة . ولعلها اختلطت علىّ ، كما اختلط علينا كل شيء فى هذه السنين السود .

والذى يحمل النفس على التقزز والاشمئزاز ، هو أن هؤلاء الزعماء والساسة ، مفروض أنهم من أنفسنا ، أسماؤهم كأسمائنا ، وأنسابهم فى الأمة كأنسابنا ، ونشأتهم فيها كنشأتنا فكان ينبغى أن يكون إحساسهم بالذل والعار والمهانة كإحساسنا ، ولكن يخيل إليك إذا تكلموا ، أنهم من عالم غير عالمنا أو من أرض غير أرضنا ، فلو طمس اسم أحدهم من حديث يتحدث به إلى الصحافة وثبت مكانه اسم أى انجليزى أو أمريكى أو روسى أو ماشئت ، لما أحسست كبير فرق ، يميز بينهم وبين أحد من هؤلاء ، يكون الرجل منهم كأحسن مايكون عقلاء الرجال ، ولكن فقده للإحساس بالذل والعار والهوان الذى يتمرغ فيه هو وبلاده ، يجعل الأمر من الفظاعة ، بحيث لا ينفع فيه إحسان ظن ولا حسن تقدير .

---

* اللواء الجديد ، عدد ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥١ ، ص ٣ .

ومن هذه الأحاديث ، حديث على ماهر المنشور فى الأهرام (السبت ٢٢ سبتمبر الحالى) وقد سئل عن مشكلة السودان فكان جوابه : « ويخيل إلى أنه ينبغى أن نتدبر حقوق السودان وحقوق مصر ، والمصالح البريطانية . ففيما يتعلق بالمصالح البريطانية ، فإن الرأى عندى – حتى أثناء مفاوضات ١٩٤٦ – أن تلك المصالح تلخص فى مسائل اقتصادية ، ومشاكل مواصلات ومطالب استراتيجية ويمكن الاهتداء إلى حل لكل من هذه المسائل يرضى بريطانيا » يا للعجب ! « يرضى بريطانيا » !!

وتصوير المشكلة على هذا الوجه اللطيف البسيط غريب جدا ! . ولو أنت جعلت آخر هذه الفقرة : « ويمكن الاهتداء إلى حل لكل من هذه المسائل يرضى مصر » ، ثم نسبت الحديث إلى إيدن مثلا ، لكان كلاما مستقيما مع السياسة البريطانية ، لا لبس فيه ولا إبهام ، وكلنا قد قرأ مثله للساسة البريطانيين ، وفى الصحافة البريطانية ، مصورا لهذه المشكلة بنفس الأسلوب ، إن لم أقل بنفس الألفاظ . لم يقولوا قط أن السودان ملكا لهم ، بل قالوا أن لهم فيه مصالح اقتصادية ، واستراتيجية يحافظون عليها ، بل هم زعموا أنهم يحافظون على رفاهية السودان واستقلاله . بل أقرب من ذلك أنهم زعموا منذ قديم أن بقاءهم فى مصر نفسها ليس إلا للمحافظة على مصالحهم الاقتصادية والحربية والمواصلات البريطانية ، وسلامة الأمن العالمى أخيرًا ، وأن هذا البقاء ليس احتلالا بل هو بعض واجبات الصداقة المتينة بين مصر وبريطانيا !!

ولا أظن أن فى الدنيا العاقلة مفكر يستطيع أن يفرق كثيرا بين الاحتلال وبين هذه الصداقة المتينة ، إلا أن يكون قد زال من نفسه كل معنى من معانى الشعور بالعدل المجرد ، ولا أقول أنه قد زال من نفسه كل معنى من معانى الشعور بالكرامة الإنسانية ، وبالبلاء الماحق الذى نراه ماثلا فى تاريخ الاستعمار ، منذ انقض على بلاد الشرق كله ، والعالم العربى والإسلامى ، من أطرافها ، حتى احتل القلب ، فى هذه النقطة التى يسمونها الآن : الشرق الأدنى .

ولست أدرى كيف يستطيع سياسى أن يجهل أن وجود المصالح الاقتصادية ،

والاستراتيجية ، فى أرض معناه إهدار ما يماثلها من مصالح ، هى حق أصيل لهذه الأرض وسكانها ، وأن الأجنبى المعتدى على هذه المصالح ، لا يعتمد فى صيانتها إلا على أن يسلب سكان الأرض مقدرتهم على أن تكون لهم مصالح تنازع مصالحه ، ومعنى هذا أنه يعتمد على استعباده ، ويرتكب فى سبيل ذلك كل وسيلة تؤدى إلى أن يجعل سكانها فى مرتبة الخدم والأذناب والماشية ، فإن لم يفعل ، فمنطق الاستعمار يدل على أنه مستعمر شديد الغفلة ، لو سمح لأى عنصر من عناصر القوة أن تنازعه فى هذا المكان ، وأكبر عناصر القوة ، هى : الحرية .

فتصوير المشكلة إذن خطأ كله ، فمشكلة السودان أو مشكلة مصر – كما يحلو لك أن تسميها – ليست فى هذه الصغائر ، بل هى أكبر . هى مشكلة إهدار الحياة الإنسانية الصحيحة ، والعمل على بث حياة إنسانية فاسدة منحطة ، هى مشكلة ضياع الحرية ، وسلب الشعوب كل مقوماتها التى تعينها على أن تكون أمما حرة ، هى مشكلة تدليس الحياة على الشعوب ، حتى تتصور الباطل القبيح ، حقًّا جميل الصورة ، هى مشكلة إحلال المنافع العاجلة التى تستهلكها الشعوب فى حياتها اليومية ، محل المنافع الباقية التى تحيى بها الأمم وتقوى وتستمجد .

ونحن لا نطالب بضم السودان إلى مصر ، بالمعنى الذى يفهمه ساسة هذا الجيل ، ولا أن يحكم السودان من القاهرة أو الخرطوم ، أو بالعكس ، فإن هذه كلها معانى فاسدة فى التعبير ، إننا – مصر والسودان جميعا – نريد أن نتحرر من المصالح البريطانية ... اقتصادية وسياسية واستراتيجية ، لتنبعث من قبورها مصالحنا نحن ، اقتصادية ، وسياسية ، واستراتيجية ، ولن نصل إلى ذلك إلا باسترداد حريتنا ، التى أهدرت فى كل شىء ، وإنسانيتنا التى أبيدت فى كل عمل ، وفضائلنا التى ألغيت فى كل شأن من شئون الحياة ، ونحن لا ندعو إلى هذا فى مصر والسودان وحدهما ، بل فى كل أرض من أراضى بلاد العرب والمسلمين ، وغير العرب والمسلمين ، افترستها الوحوش الاستعمارية الطاغية فى العالم ، التى جعلت المصالح الاقتصادية والسياسة والحربية مسوغا تستحل به إهدار الحرية ، وإهدار الكرامة ، واستعباد البشر .

وإذن فالمشكلة أسمى بكثير مما يتصور هؤلاء الساسة والزعماء ، أنها مشكلة انقاذ ملايين البشر من الانحطاط الخلقى والعقلى والنفسى ، واسترداد ما دمره الاستعمار من مقومات الحياة الإنسانية فى هذه الرقعة المترامية من الأرض وإحياء المعانى الصحيحة للحرية والكرامة والشرف ، وقتل الوحش الاستعمارى الذى يريد أن يفرض على البشر ، أن يرضوا بسيادته ووحشيته ، لكى يضمن هو مصالحه الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية التى يقتتل عليها بالليل والنهار ، والتى توشك أن تدمر عليه حضارته التى يستعز بها ، ويستعلى ، فى هذه الحياة الحاضرة .

إنها ليست مشكلة ساسة وزعماء ، كساستنا وزعمائنا بل مشكلة أحرار ، يتولون حلها بأسلوب الأحرار ، فى حل مشاكل الظلم والاستبداد ، واللؤم والجشع والخسة ، والكذب على الناس ، والتغرير بالبشر ، أنها مشكلة الحق والباطل ، مشكلة النور والظلام ، مشكلة الذل والكرامة .

* * *

حكم بلا بينة

يوشك تاريخ الإسلام أن يصبح لهوًا على الألسنة ، ولغوًا فى الصحف ، ومرتعًا للظن المتسرع دون اليقين المتثبت ، وهدفًا لكل متقحم [١] على الحق بمثل جراءة الباطل ، ومخاضة يخوض فيها كل من ملك لسانًا ينطق ، أو عقلا يفكر ، أو قلما يخط . وإنما ابتلى زماننا بهذا لأسباب كثيرة ، **أولها** : أن العصر الذى نعيش فيه يُعجل الناس عن تحقيق معنى الدين نفسه فى حقيقة قلوبهم . **وآخرها** : أن المسلمين فى زماننا بلغوا من العجز والقلة والهوان على أنفسهم مبلغًا مهد لشياطين الإنس والجنّ مسالك كثيرة إلى مقر الغرور فى بعض الأفئدة ، فسوّل لأصحابها فيما يسول أن فهموا الإسلام « فهمًا جديدًا » ، فكان لهذه الكلمة سحرها حين مست مكان الغرور والكبرياء من نفوسهم ، واحتملهم هذا الغرور على أن يسيئوا الظن بما يفهمون من ماضيهم ، جله أو كله ، وخيل إليهم سوء الظن أن ذلك هو طريق الحق لإحياء دين الله فى نفوسهم وإقامة شريعته فى أرضه . ثم خرج بهم مخرجًا أوقع فى أوهامهم أنهم قادرون على أن يجددوا أمر هذا الدين ، بمجرد النظرة الخاطفة المعتسفة فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وفى تاريخ أسلافهم من المسلمين .

ولا أظننى أخطئ شيئا فى التقدير إذا زعمت أن هذه النابتة ، لم يبتل الإسلام بمثلها قط ، على كثرة ما انتابه من النوابت المتتابعة على مدى عصوره كلها ؛ فى حال بأسه وسطوته ، وفى حال ضعفه وفترته . وهى عندى أخطر النوابت جميعا وأخوفها على دين الله ، لأنها نجمت فى عصر قد حطم جميع القيم الإنسانية العتيقة ، ودمر تراث الأخلاق التى فطر عليها ولد آدم فى الآباد المتطاولة . ولا أسيىء الظن فأدعى أنهم يأتون ما يأتون عن عمد ، بل أقول إن وباء هذا العصر

---

* المسلمون ، العدد الأول ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ ، ص : ٤٣ - ٤٨

(١) يرد الأستاذ شاكر على ماكتبه سيد قطب فى شأن بعض الصحابة . ولم يرد سيد قطب على نقد الأستاذ شاكر ، ولكن تصدّى له أحد أصدقاء سيد قطب وهو الأستاذ محمد رجب البيومى ، وانظر الجزء الأول ، ص : ٥٦٧ - ٥٧٩

قد أصابهم ، منذ نقله الاستعمار إلى الأرض المسلمة ، فنشئوا فيه لا يكادون يحسون بالذى أصابهم من آفاته ، فاتسم تفكيرهم من أجل ذلك بسمة التحطيم والتدمير ، وسمة الغلو والجراءة ، وسمة الإصرار على تحقيق معانى الغرور الإنسانى فى أعمال الإنسان ، وأولها الفكر .

وقد تفشت فى أهل الإسلام منذ زمن قريب فاشية شديدة الخطر على تاريخ الإسلام كله ، بل على دين الله نفسه . نظرت متعجلة فى دين ربها ، وخطفت خطفة فى تاريخ أسلافها ، ثم انتزعت من ذلك كله حكما يدمغ المسلمين جميعا منذ القرون الأولى من الهجرة ، باطراح الدين واتباع الشهوات ، فزعمت مثلا : أن الإسلام لم يطبق ولم يعمل به إلا مدة رسول الله ﷺ ، ومدة أبى بكر خليفة رسول الله ، ومدة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، ثم مرج أمر الإسلام واضطرب !

والخطأ فى مثل هذا الحكم الدامغ يكبر عن أن يسمى خطأ ؛ إنه الحالقة : حالقة الدين لا حالقة الشعر ، كما قال رسول الله ﷺ ؛ تستأصل دين الصحابة والتابعين ، وتستأصل أمانتهم فى تبليغه ، وتستأصل ما بذلوه فى نشره فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتستأصل تاريخهم ، وتستأصل تاريخ الحياة الإسلامية كلها ثلاثة عشر قرنًا ! فيالها من بلوى تستهلك دين امرئ إذا نطق بها ، وتخسف بتقوى سامع إذا لم ينكرها . ورَدُّ مثل هذه المقالة ، يوجب على منكرها أحد طريقين : إما أن يسرد على القائل بها تاريخ الإسلام كله بجميع تفاصيله ، ويقف به على كُلِّ موضع منها ، وهذا شىء لا يتيسر فى كتاب واحد ، فضلا عن مقالة ، فضلا عن حديث . وإما أن يقفه على فسادها فى صريح العقل ، ويبين له ما تقضى إليه من بَهْت أمة كاملة ، بل أمم بأسرها ، بشىء لا يستطيع عاقل أن يحتمل وزره فى فكره وتقواه ودينه . وهذا هو أيسر الطريقين ، وأقربهما إلى تصحيح المقاييس ، وإلى إقامة التفكير على أصل واضح وثيق .

* * *

وكلمة « الإسلام » كلمة شاملة لدين الله كله ، وإذا دخلت فى حكم قاطع

كهذا الحكم « إن الإسلام لم يطبق إلا مدة رسول الله وأبى بكر وعمر » صار حكما شاملا بطبيعته ، فإذا ألقى إلى سامع ، لم يجد عندئذ مناصا فى العقل ولا فى اللغة ولا فى البيان ، من تعميم الحكم فى كل ما يتناوله لفظ « الإسلام » . فإذا استمعه سامع كأهل زماننا الذين وصفنا قبل ، كان هذا الحكم ظلا كثيفا قاتما كئيبا يلقى على العصور الأولى كلها من قتامه وكآبته ، يدفع إلى الاستخفاف والتحقير والغلو فى التهزؤ بأهل هذه العصور ، والشك فى أمورهم ، ويعميه عن معرفة الحقائق ، ويصرفه إلى البحث عن المثالب يتسرع إليها ويتقممها من كل كتاب ومن كل خبر ، والناس أسرع شىء إلى سوء الظن ، فإذا كان سوء الظن والثلب والتحقير مما يعينهم على نسبة القدرة والصلاح والعلم والفقه إلى أنفسهم فهم عندئذ أسرع إليه من السيل إلى الحَدُور [1] . وإذا كانت نسبة الصلاح والعلم إلى أنفسهم مدعاة إلى صرف أنظار الناس إليهم بالتسليم والتبجيل والإعجاب ، فسوء الظن والثلب والتحقير ، أسرع فى عقولهم وألسنتهم من النار المتضرمة فى الهشيم اليابس . وماذا بعد هذه البلوى ، إلا أن يصبح تاريخ الأمة المسلمة منذ اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٣ من الهجرة (منذ قتل عمر) إلى يوم الناس هذا فى سنة ١٣٧١ وقودًا لكلمة يزل بها لسان ، ويتبجح بها صوت ، وتستخفها أذن ؟ أى إنسان يرضى لنفسه هذه الظنة الجائحة ، فضلا عن إنسان عاقل ، فضلا عن مسلم ، فضلا عن مسلم يتقى الله ، يرجو رحمته ، ويخاف عذابه ؟

قتل عمر وخلف أئمة الصحابة ، فعاشوا زمن عثمان ، وزمن على ، وزمن معاوية رضى الله عنهم ، وبقيت منهم بقية فى عصر الأوائل من بنى أمية ، ثم خلفهم الذين اتبعوهم بإحسان من علماء الأمة وفقهائها وأهل دينها ، وهم متوافرون يومئذ إلى أوائل عصر بنى العباس ، وكانوا هم علماء الأمة ، وورثة النبوة ، القائمون ببثّ دين الله فى الأرض ، الآمرون بالمعروف والناهون عن

(١) الحدور : الأرض المنحدرة .

المنكر ، المبلغون عنّ نبى الله ورسوله ، وعن أصحابه هذا الدين إلى الناس . وبهم بلّغ المسلمون هذا الأمر كله ، وبما بلغونا من أمر الدين قامت حجة الله علينا ، وإلى ما بلّغوا كان مرجع أئمة المسلمين وفقهائهم وعلمائهم طول هذه القرون . ولولاهم ، ولولا ما بلّغوا لدرست سنة رسول الله ، ولذهب الفقه ، ولفقد الناس الحجة والبرهان فى دينهم ، ولما وجدوا وسيلة لتحكيم الله وتحكيم رسوله فى شيء مما اختلف فيه من أمر الدين ، أفيمكن فى العقل أن يوصف العصر الذى كان فيه هؤلاء الأمناء على دين ربهم ، بأنه عصر لم يطبق فيه الإسلام ؟! وأين غابوا جميعا إذا كان الإسلام لم يطبق فى زمانهم ؟ ولو شهدوا ، وصحت هذه الكلمة على زمانهم ، فكيف يؤتمنون على ما بلغوا من أمر الدين ؟

بل إلى أى شيء يحتَكم قائل هذه الكلمة فى الحكْم على عَصْرهم ؟ أليس يحتكم ويرجعُ فى الحكْم عليهم إلى ما بَلغَه هو من دين الله الذى بلّغوه هُمْ إليه ؟ وأنّى له أن يعرفَ الإسلامَ إلّا بما عرَّفوه هُمْ له ولمن سبقه من أمة محمد ﷺ ؟ بل كيف يُعْقَل أنْ يبلِّغوا هذا الشيء الذى يستند إليه هذا القائل ، ويكونونَ هم أوَّلَ الناقضين والهادِمِين بإغفالهم إقامته . بل بعملهم على إقامة خلافه ؟ أفى العَقْل شيءٌ بعد ذلك هو أَفْسَدُ معنىً ومدخلًا ومخرجًا من هذه الكلمة الجائرة ، من هذا الحكم المستأصِل لدين هؤلاء الناسِ وعلمهم وَأماناتهم ؟ كبرت كلمة وساء حكمًا .

وأحبُّ أن أزيدَ الأسئلة : ماهو هذا الإسلام الذى لم يطبّق : أكفروا بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ؟ أتركوا صلاتهم وأضاعوها وسهوا عنها ؟ أمنعوا زكاتهم واحتجنوها [1] فلم يؤدوا حق الله عليهم ؟ أتركوا شهر صيامهم فأفطروه ؟ أأبوْا أن يحجوا إلى بيت ربهم قانتين مسبحين مكبرين ؟ أعتزلوا الجهادَ بأموالهم وأنفسهم رغبة عنه وحرصًا على الحياة ؟! أأغفلوا أدبَ الله لهم وأدبَ رسوله ؟ أنقضوا عهدَ الله فخانوا الأمانة وبغوْا فى الأرض ؟ أعطَّلوا أحكامَ الله

(١) احتجنوها : خزنوها .

وفرضوا على الناس أحكامًا من عند أنفسهم ؟ أشرَعوا فى الدين ما لم يأذن به الله ؟ أأبطلوا الحدود ونصروا الخارجين عليها والمعتدين ؟ أأعرضوا بقلوبهم ووجوههم عن كل ما تضمَّنَه كتابُ الله ، وما احتوته سُنَّة رسوله ، وعادوا فى جاهليةٍ لا يعرفُ فيها لله دين ، ولا يطاعُ له فيها أمرٌ ، ولا ينتهى فيها عن منكر ، ولا يؤتى فيها معروف ؟ أرتكَسُوا هم والأمة كلها قرنًا من بعد قرنٍ فى تعطيل الإسلامِ فى أحكامهم ، وفى أنفسهم ، وفى أبنائهم ، وفى الذين دخلوا فى هذا الدين حتى شمل ما بين الهند شرقًا إلى المغربِ الأقصى غربًا . ومن حدود الروم شمالًا إلى أقصى الأرض جنوبًا ؟ أىّ عاقل يستطيع أن يقول : نعم ، فى جوابِ سؤالٍ واحدٍ من هذه الأسئلة ، فضلا عنها كلها ؟

ولو غلغَل المرءُ قليلًا فسألَ نفسه : أمن الممكن لأمّة تنقُض دينها هذا النقضَ ، الذى استوجبَ ذلك الحكم ، أن تفتح الأرَضين كلها ، وتحدث فيها أكبرَ تغيير حدث فى تاريخ الجنس البشرى كله : تتغير بهمْ ألسنة الناسِ إلى العربية ، ودينهم إلى الإسلام ، وتنابُذهم إلى الألفه ، وتداعيهم باسم العصبية والجنسية ، إلى شىء واحدٍ هو جماعة المسلمين ، ويقومُ هذا الأمرُ فى الأرض ثلاثة عشر قرنًا ، مع شدة ما انتابَ المسلمين على مرّ القرون من النوائب ، إلى أن كانت النائبة الكبرى فى هذا العصر ، وهى نائبة الاستعمار ، ويَظَلُّ مع ذلك هذا الرباطُ الوثيق مشدودًا ، لا ينحلُّ من ناحية ، إلّا تداركته آلاف الأسباب من هذا التراث من نواح أخرى ، أكان ممكنًا لهؤلاء الذين خانوا أمانة الله أن يبلغوا هذا المبلغ ؟ اللهم اشهد ، فإنها كلمةٌ لو صحت لأزالتْ العقول من مستقرّها ؟ وصدقَ الله رسولَه والمؤمنين : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [سورة النور : ٥٥] . وما من حرفٍ من هذه البشارة إلا أتمه الله على محمد وأصحابه وتابعيهم ، إذ كانوا خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويطيعون الله ورسوله فى سرّهم وعلانيتهم .

ومن الحق على من وسوسَ فى قلبه هذا الحكم الشامل : أن الإسلام لم يطبَّق إلا مدّةَ رسول الله ، ومدةَ أبي بكر وعمر ، أن يسأل نفسه : بم يصحُّ مثل هذا الحكم ؟

إنّ بديهة العَقْل تجيبه بأنه لا يسوغُ لهُ أن يحكم على عصور كاملة بحكم شامِلٍ ، إلا بدلائل بينة المعانى صحيحة الأصول ؛ وشرطُ هذه الدلائل أن تكون مستقصية لأهل الإسلام جميعًا فى كل أرضٍ ، وأن تكون شاملةً أيضًا لكل مايكون به إسلام الناسِ إسلامًا ، وأن يكون ما يدّعى المدَّعى أنه قد أبْطِلَ ، أمرًا من أمور الإسلامِ التى لم يختلف عليها المجتهدون من العلماء والفقهاء ، وأن يكون هذا الإبطالُ جاريًا مجرى الشريعة ، ومأمورةٍ به كلُّ جماعة يشملها الإسلام . فإذا فقد الحكم هذا الشرطَ ، فإنما هو تحكُّمٌ محضٌ وبهتانٌ خالصٌ . ولست أظنُّ فى العالم كله إنسانًا يوصف بالمعرفة يستطيع أن يؤيّد هذا الحكم ، بمثل هذه الدلائل ، على مثل هذا الشرط ، مهما أوتى من العلم ، ومن التتبُّع ، ومن سوء النية ، ومن براعة التخلُّص ، ومن تمام القدرة على إظهار الباطِلِ فى ثيابٍ مزوَّرة من الحق .

وإلا فإن هذا الحكم الشامل ، مظلمةٌ جائرة مُبِيرة لأهل العصور الأولى من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة ، وقادحٌ بليغٌ فى دينهم وأمانتهم ، وجائحة طاغيةٌ تزيل كل ثقة بهم وبتاريخهم وأعمالهم ، وناقضٌ مُدَمّر ينقضُ كل ما يشهدُ به التاريخ الذى كنا نحنُ آخرَ خلف له فى هذا العَصْر .

كلا ، بل أتجاوز ولا أطالب من يقضى بهذا القضاء ، أن يأتى بكل هذا الشمول بل أقتصر فأدعوه إلى أن يأتى بقضية مفردة عن الإسلام ، تجتمع لها هذه الشروط ، مصححة صادقة خالية من التوهم والغلو . وأنا على يقين من أن أحدًا لا يطيق أن يفعل ، وأن الأمر أكبر من أن يحيط به بيان مبين وعلم عالم . وإنما يؤتى الغارز فكره فى هذه الضلالة المتحكمة باتخاذه الحادثة الواحدة المجردة من الاستقصاء والشمول ، ومن الاختلاف فى أمرها ، ومن شمول العمل بها وإنفاذها فى جماعات المسلمين – أساسًا لاستقصاء مكذوب وشمول متوهّم .

ثم أتجاوز مرة أخرى وألتمس لهذا الحكم الشامل مخرجًا آخر ، أزعم فيه أن العربية والبيان والعقل تبيح مجتمعة أن يكون المراد بالإسلام فى هذا الحكم جزءًا من الإسلام ، وأن يكون المراد بالذين لم يطبقوه فئة واحدة من المسلمين : فكيف يمكن أن يصح ؟

إن المدعى لمثله مطالب عندئذ أن يستقصى هذا الجزء المعطل فى تاريخ العصور التى يشملها حكمه ، يومًا بعد يوم ، وحادثة بعد حادثة . وأن يدل دلالة لا يأتيها الشك أن ذلك هو الذى جرى به العمل فى كل جماعة من جماعات المسلمين ؛ وأن يأتى بالبرهان على أن هذه الفئة أصرت على أن تجعل هذا الجزء ديدنها فى كل زمان ومكان ؛ وأنها استطاعت أن تجعل ماخالف حكم الله إلزامًا عامًا للناس كلهم بتشريع من عند أنفسهم يلزم الناس جميعًا العمل به والطاعة له . وهذه هى الشروط التى يقضى محض العقل أنها هى وحدها التى تبيح لامرئ أن ينطق بحكم شامل كهذا الحكم . فإذا لم تتم له هذه الشروط ، فما هو إلا التعسف الغليظ الذى لا يبصر وجه الحق إلّا فى ظلمات من الباطل ، إن صح وأمكن أن يكون التعسف قادرًا عندئذ على أن يبصر .

ثم أتجاوز مرة ثالثة ، فأزعم أن من الممكن أن نلتمس شيئًا من الإسلام لا يدخله الخلاف ، قد أطبق الخلفاء جميعًا منذ قتل عمر رضى عنه – على تعطيله فما الشروط اللازمة لمثل هذا الممكن ؟

ينبغى أن يثبت المرء أولا أن الخليفة قادر على أن يأمر علماء الإسلام وفقهاءهم ومفتيهم وأمراءهم وعامة الناس منهم بهذا الذى يريد تعطيله ، وأنهم إن فعل أطاعوه جميعًا وعملوا بما أمر ، وأن هذا الشىء من الإسلام قد عطل تمام التعطيل فى الحياة الإسلامية كلها فى زمنه . ومن البين أن الخليفة رجل من المسلمين ، لا يملك أن يشرع للناس شرعًا يعمل به الفقهاء والقضاة والمفتون ، ويخضع له عامة الناس علانية ويعملون به فى أنفسهم سرًا . وإذا بطل هذا الشرط ، بطل الحكم كله ، ولم يبق إلا أن الخليفة ربما قدر على أن يعطل حكما من أحكام الله ، فيما يمكن أن تناله يده ، وهو فى بيته أو قصره أو بلدته ، دون سائر بلاد المسلمين . وأن هذا الحكم لا يلزم أحدًا من القضاة ولا الأمراء أن يفعلوا

فعله ، لأنه لا يملك أن يشرع لهم ما لم يأذن به الله . وأنا أقطع بأن تاريخ الإسلام كله ليس فيه حادثة واحدة : استطاع خليفة أن يأمر قضاة المسلمين وعلماءهم وفقهاءهم بأمر يخالف كتاب الله وسنة نبيه ، فأطاعته الأمة كلها أو بعضها ، وعملت بما أراد ، وقضت على الناس بقضائه دون قضاء الله .

وينبغى أن يثبت المرء ثانيا أن الخليفة - أو غير الخليفة من أمراء المسلمين فى بلدان الأرض المسلمة - قد استطاع أن يجعل هذا التعطيل ، بهذه الشروط ، عملا متوارثًا فى جيل بعد جيل ، وأن الأمة قد اتفقت على قبول تعطيله أبدًا وأن هذا هو الذى جرى به العمل بلا ريبة ولا ادعاء ولا توهم ولا اعتساف ، وأنا أقطع أيضًا بأن هذا شىء لم يكن قط إلا بعد أن ضرب الاستعمار على هذه الأمة الإسلامية حضارته وثقافته ولون تفكيره .

فهذه الكلمة الباغية الجائرة منقوضة فى شمولها وفى تخصيصها ، ولا يستطيع منصف بعض الإنصاف أن يجد لها فى العقل مخرجًا ، ولا فى التاريخ شاهدًا ، ولا فى الفرض المطلق وسيلة إلى تحقيق طرف منها . وهى لاتصح فى أحد محمليها إلا كانت حكما على عامة الصحابة والتابعين والفقهاء وخاصتهم بالكفر البواح . فلينظر امرؤ أين يُنزل عقله ؟ وفيم يورّط دينه وتقواه ؟ وإلى أى قرار تهوى به كلمة تعجب هواه ويستخفها لسانه ، ويتغذى بها غروره بنفسه ؟

ولم أجعل همى فى هذه الكلمات أن أسرد الحجج التى يحتج بها القائلون بهذا الحكم ولا أن أروى مايعدونه مؤيدًا لهم من روايات التاريخ والكتب . فإنى إن فعلت كان لزامًا على أن أقدم نفس هذه المقدمة فى شروط الأحكام ، ومقدمة أخرى فى تمييز مايعد تاريخًا ، ومقدمة ثالثة فى انتزاع الحكم العام من الحادثة أو الحوادث ، وهل هو صحيح فى نفسه أو غير صحيح . ثم آخذها واحدة واحدة فأبين وجه تأويلها أو فهمها أو ردها أو تجريحها إلى آخر ماينبغى لكل من يتصدى للأحكام على أفراد فى التاريخ ، فما ظنك بأمم بأسرها فى تاريخ كامل كتاريخ العصور الإسلامية أولها وآخرها ، وكل ما رميت إليه أن أبين فساد مثل هذا الحكم الشامل ، وأسباب فساده ، وأن أكشف عن موضع المخافة وثقل الوزر ، وجناية

التسرع فى تعميم الأحكام بلا بينة من العقل أو الحجة أو التاريخ . وأرجو أن يتاح لى أن أتناوله مرة أخرى بالبيان والتفصيل حتى يتجلى فيه وجه الحق .

* * *

تاريخ بلا إيمان

أنا أعلمُ أنى استفتحتُ موضوعًا ، لو شئت أن أستهلك فيه تلك الذُّبالة الخفاقة المترددة من بقيّة عمرى ، لما استطعتُ أن أوفيه حقه من البيان . فإن مادة التاريخ كلها تستقبلنى بقضها وقَضيضها ، وتتذاءَبُ بين يدىَّ أصنافُ الطبائع البشرية التى فطر الله الناسَ عليها – على ماعلمَ هو سبحانه من اختلاف نفوسهم وساعاتهم وأيامهم وأجيالهم وعصورهم . وطبيعةُ رجُلٍ واحدٍ حىّ ، تعرفه وتعاشرهُ من ولد أبينا آدم صلى الله عليه ، مشكلةٌ تعجز الفارس [1] البصيرَ أن يهتدى إلى ما يختبئ فيها من التناقض والتخَفى والتسرُّب . فما ظنُّك بإنسان لم يستبقِ لك الله منْه ماتعرفه به إلا نبذًا يسيرًا من أخبار تُروى ، لا تستغرقُ سوى صفحة أو صفحاتٍ ، ولقد قضى فى الدنيا عُمُرًا من قبلُ ، لو هو قُيِّد وكتب بجميع ماأحدث فيه ، لما وسعته المجلدات الضخمة ؟ فانظر إذنْ أين ينتهى بك توهمك ، وأنت تتحرَّى أن تتعرَّفَ خبءَ مؤلّفه من مثل هذا الإنسان ، عاشت أعمارًا طوالا وقصارًا فى طوايا الغيب الماضى ، استنفدتها بأعمالها وخواطرها ساعة بعد ساعة ، ويومًا بعد يوم ، وعامًا بعد عام – فى تاريخ متقادِمٍ متطاول يمتدُّ فى غيب الماضى سبعين سنة ، وثلاثمائة سنة ، وألف سنة ، أو تزيد !! هذا تصوُّرٌ مثبطٌ للفكر ، ولكنه ضرورة لا غِنى عنها للمؤرخ ، وهو أشد ضرورة لمؤرخ يكتب تاريخ أهل الإسلام ، ثم هو أفدح ضرورة لأنه تاريخ – ماعلمتُ – يختلف اختلافًا مبينًا صارخًا عن كل تاريخ عهده البشر فى سائر تواريخهم ، ثم هو الضرورة الراسخة لمنْ ورَّط نفسه فى تأريخ أهل القرون الأولى من الإسلام . بيد أنّ المؤرخ المسلم وحده هو القادر على أن يكتب تاريخ أهل الإسلام ، وغيرهم إن شاءَ ، على وجه يمكن أن يوصف بالنبل والفهمِ والصدق والأمانة والثقة – إذا هو حرَصَ على أن يتأدّب بما أدَّبه به ربه من أخلاق تَلزمه فى معاملته ، كما تصحبهُ فى

* المسلمون ، العدد الثانى ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ ، ص : ١٣٨ – ١٤٥

(١) الفارس هنا : صاحب الفراسة .

تفكيره وبحثه ، وإذا هو مكن فى قلبه ونفسه الطاعة لما تركه لنا رسول الله ﷺ من أدب كان يؤدب به أصحابه ممسكا بِحُجُزِهم أنْ : هلموا عن النار !

وعلمُ ضمائر خلق الله علم قد استأثر به ربنا سبحانه علامُ الغيوب . ومع ذلك ، فلست أغالى شيئًا إذا زعمتُ لك أن أكثر من ثلاثة أرباع تاريخ الدنيا ، لم يجتمع ولم يتكوَّن ولم يصبح عملا فى الأرض ، إلا من خفيات هذه الضمائر . ونحن حينَ نرى نتائج أعمال البشر ، والتى نزعمها أو نسميها تاريخًا ، لا نرى إلا أثرًا شاحبًا متهافتًا مما استسرّ فى جوانح خلق الله . وهذه الآثار ربما تشابهتْ عندنا تشابهًا غريبًا ، مع أن الأسباب التى أحدثتها تختلف فى حقيقتها وطبيعتها كل الاختلاف . فإذا خفيت الأسبابُ وتشابهت الآثار ، فإجراءُ حكمٍ واحد على هذه الآثار المتشابهة خطلٌ وسوء رأى ، وإعظامٌ فى الفرية على الناسِ الماضين ، وإغراقٌ فى التضليل بالناسِ الحاضرين . وأنا لا أحيلك فى معرفة مصداقِ ما أقول إلى التاريخ الماضى ، بل إلى ما تشهدهُ بعينيك ، وتسمعهُ بأذنيك ، وتدركهُ ببصيرتك وفكرك من أحوال الناس الذين تعاشر ، والتاريخ الذى يصنع الآن بمرأى منك ومسمع ، ساعة بعد ساعة ، ويومًا بعد يوم . فانظر كيف يحكُم الناس بعضهم على بعض ، وكيف يفسر بعضُهم أعمالَ بعض ، فإذا صح هذا عندك وتأملته ، علمت لم أوثر أن أدعوك إلى تصوّر أزمنة التاريخ وخلائقه ، تصوُّرًا طويلا عريضًا متراحبًا ، يكاد يثبط الفكر الإنسانى عن العناية به والإلحاح عليه .

وهذا الأصلُ الذى يكادُ يبلغُ مبلغَ البديهىّ ، أصلٌ متروك فى التأريخ الحديث . وذلك لأن حضارة هذا القرن العشرين المتحدّرةَ من عصور المدنية الأوربية الوثنية والمسيحية ، قد انبثقت من ضرورات اجتماعية وأخلاقية ودينية ، لا يمكنُ أن تدع لمثل هذا الأصل مكانًا فى التصوُّر ، إلا شعاعًا ميتَ النور ، ربما انبثَّ فى بعض مايؤلفون ، محاطًا بظلمات شديدة من الجرأة والتهجم والافتراء والرجم بالغيب ، والمبالغة فى اعتداد المؤرخ منهم بنفسه ، والإفراط فى ثقته بقدرة عقله ، والغلو فى تحكيم ما يدَّعيه وما يفرضه على مادَّة التاريخ ورواياته ، بغير بينة ولا حُجة .

ثم زاد هذا كله بشاعة حين نجمت طائفة المستشرقين ، بأحقادها وضغائنها وسفاهة ألسنتها وسرائرها ، وبدأوا يكتبون تاريخ الإسلام على أصولهم الفاسدة ، ثم قام فى الشرق العربى والإسلامى طائفة أخرى من أصحاب الأهواء ، من بين مسلم وغير مسلم ، فاتبعوهم وناصروهم ، وأذاعوا بعلمهم ، وأشادوا بمقدرتهم فى التقصِّى وكمال مناهجهم فى البحث ، فنقلوا إلى العربية ثمرة هذه الأحقاد والضغائن ، فى كتب ألفوها ، ونشرُوها وطارت بين عامة المثقفين ، يتلقفها الإعجاب بها ، والإفتتانُ بأسلوب قصصها وحكاياتها وتحقيقها ! وجاء هذا مع غلبة الحضارة المسيحية الأوربية حين تم لها سلطانها فى أرض الشرق والإسلام ، بالغزو الحربى والسياسى والأدبى والعلمى والاجتماعى والأخلاقى والثقافى عامة ، فعشش فى القلوب ثم باض ثم فرَّخ كما يقول الجاحظ . وانتهى الأمر بالعرب والمسلمين أخيرًا إلى أن يكون مصدرُ ثقافتهم وفكرهم عدوًا لهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون - تجد ذلك فى كتبهم ومجلاتهم ، وصحفهم ، ومدارسهم ومعاهدهم ، وفى معاقل دينهم كالأزهر وغيره . فسادَ من يومئذ الافتراء الكاذبُ سيادة تامة فى الحياة العقلية والأدبية ، وأصبح تاريخ الإسلام وأدبه وعلمه ، منظورًا إليه من صميم أهله المتحمسين بعين تبغضُ ، وقلب يعرض ، ونفس تزورُّ عنه ، ولم ينج من غائلة هذا الفساد إلا من عصم الله ، وهى قلة قليلة هى اليوم فى طريقها إلى الفناء ، إلى الانقراض ، إلى مصارع الأولين من أهل العلم والفقه والمعرفة .

من أجل ذلك البلاء المستفيض فى حياتنا ، وفى عقولنا ، وفى دراستنا أقول دائمًا : إنه لا يغرنى من أحد دينه ، ولا تقواه ولا علمه ولا جهاده ولا فضله ولا عقله ، إذا لم يكن ذلك كله نابعًا من كتاب الله ، ومن الحياة الإسلامية المهتدية بهدى الله ورسوله ، غير مختلط ما استطاع بذلك الوباء الجائح الذى فرض علينا فى صورة مدنية أو حضارة أو علم أو ثقافة . ومن أجل ذلك لم أزل أثور عند كل بثق ينبثق من هذا الشر ، فى شأن أبى بكر رضى الله عنه قديمًا ، وفى شأن عثمان رضى الله عنه ، وفى شأن صحابة رسول الله فى أيام فتنة عثمان ؛

لأن استشراء ضغائن المستشرقين ، واستفحال منهج الحضارة الأوربية فى الجرأة على عباد الله بالكذب المتهجم ، وادعاء كل مدع ممن يحاول أن يكتب فى التاريخ أو يقول : إن هذا هو حق الأسلوب التاريخى - كل ذلك قد مس النفوس والعقول ، وأوقع فيها معانى لم تكن لتقع فيها ، لو أن حضارة الإسلام وأخلاقه وآدابه وما نبع من هذه الأخلاق والآداب من أساليب العلم والبحث والفكر - بقيت هى السائدة فى حياتنا الأدبية والعقلية والعلمية والاجتماعية .

* * *

إن المؤرخين الأوربيين ، ثم المستشرقين خاصّة ، ثم من لفَّ لفّهم من المتخطِّفين من فُتَات موائدهم من أهل هذا الشرق العربى والإسلامىّ - يزعمون أنّ للتاريخ منهاجًا أو منهاجين أو ثلاثة أو عشرة ، هى كلّ مايستطيع الباحثُ أن يعتمد عليه فى دراسة كلّ تاريخ . وأنا أحبُّ أن أزعمَ أيضًا أن ليس فيها منهاج واحدٌ يصلح لدراسة تاريخ الإسلام ، بل أشكُّ كل الشكّ فى صلاحه لدراسة تاريخ أىّ الناس كانَ من غير المسلمين . وإذا احتاج المسلمون إلى إعادة كتابة تاريخهم ، فحاجتهم لا تنتهى - أو ينبغى ألا تنتهى - إلى الشعور بفقرهم إلى إمام يقتدون به مقلدين ، ثم يكونُ هذا الإمامُ منهجًا فاسدًا نشأ فى تربة غريبة ، ودعتْ إلى نشأته أسبابٌ اجتماعية محدودة ، وعلل أخلاقية وعقلية معينة . كلا ، فإن تحكيم مثل هذا المنهاج ، وفى هذا العصر الذى لوثت ثقافته منابع الفكر كلها وكدرتها ، لا يؤدى إلا إلى شىء واحد : هو إفسادُ تاريخ أهل الإسلام إفسادًا يشقُّ إصلاحه . وفى الكتب الحديثة التى كتبها مسلمون متحمسون فى هذا العصر ، برهانٌ لمن تطلب البرهان ، على مقدار ما ينجمُ من الضرر والفساد والعبث والتبديل والتحريف والافتراء ، والجهل إن شئت - إذا انطلق كلّ حامل قلم ، ليكتب تاريخ أهل الإسلام ، على مثل هذه المناهج ، وبمثل هذا القصور عن معرفة الحقائق الصريحة فى الحياة الإسلامية ، وبمثل هذا التقليد البشع للمستشرقين وأكثرهم من اليهود ، وبمثل هذا الإغفالِ الشديد للفرق بين الأصول التى قامت عليها حضارة هذا الإسلام وانفردت بها دون سائر الحضارات ، والأصول التى

قامت عليها حضارة سائر أمم الأرض ؛ وتناولها المؤرخون بالبحث والتنقيب والكتابة والتصوير .

وإذا كان الهاتف الذى هتف بالناس أنْ : « افهموا الإسلام فهمًا جديدًا » قذف بالمسلمين وبعقولهم وأهوائهم فى متاهة لا يعلم غايتها إلا الله وحده ، فإنه حين هتف أيضًا بهم أن : « افهموا تاريخ الإسلام فهمًا جديدًا » ، أوشك كما قلتُ أن يهوى بتاريخ أهل الإسلام وأئمته فى ظلمات مطبقة لا يطلع على خبئها إلا عالم غيب السموات والأرض . وقد مارستُ دعوَى من اتبعوا هذا الهاتف سنين ، ولا أزال أمارسها وأتتبعها ، فأدركتُ أن شيمة هذا العصر الوبىء ، هى الغالبةُ دائمًا على أصحاب هذا الهاتف : من تحطيم ، وتدمير ، وغلو ، وجرأة ، وإصرار على التحكم ، وضراوة فى التهجم ، وإغراق فى الرجم بالغيب ، وإفراط فى ثقة المرء بقدرة عقله واعتداده بنفسه . ومن أجل ذلك كرهتُ كلمة التجديد هذه ، وأنفتُ لنفسى أن أثق بالألفاظ التى يلقيها كثيرٌ من المتحمسين للإسلام ، إذا لم أجد عمل أحدهم وتطبيقه وسيرته ونهجهُ ، تؤيد دائمًا دلالة هذه الألفاظ على معانيها . هذا ، إذا صحّ عندى أن منبع هذه الألفاظ هو دين الله نفسه ، كما نزل فى كتابه ، بسياقه وبيانه وعربيته غير مؤَوَّل ولا مصروف عن وجهه وكما أوحى إلى نبيه ﷺ فى سيرته وعمله وتأديبه وحديثه ، وكما جرت به سيرة أصحاب رسول الله ، الذين أقامـــوا دين الله فى الأرض ، ولزموا طاعة الله ورسوله ، وارتضاهم ربهم خلفاء فى أرضه ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها .

* * *

ولعلك ترانى شديد الحرص على أن أجعل أخلاقَ الإسلام وآدابَه وسننه وسائر مايكون به الإسلام إسلامًا ، هى الأصلُ الذى لا غنى عَنْه لمن يتعرَّض لكتابة تاريخ أهل الإسلام . وترانى أكادُ أقطع بأن هذا هو المنهجُ لا غيرُه من مناهج البحث ، كما تعرف مناهج البحث فى العصر الحديث . وأقول لك : نَعَمْ ، ونِعمة

عين(١) ، فأنا أنكر أن يكون فى الدنيا شئٌ يسمى منهاجًا للبحث والفكر أو أسلوبًا أو طريقة إلا وهو منبثق من سرّ النفس الإنسانية ، من تصوُّراتها ومآلفها ، من عِشرتها وعهدها بما يحيط بها ، من أسباب تصرُّفها فى خواطرها ، من دوافع نقدها للأشياء وتقديرها ، من استحسانها واستقباحها ، من دَواعى حبها وبغضها ، من كلّ ماتعيش به فى دخيلتها ، وتعاشر به مايتصل بها ، بل إن العقل المجرّد نفسه ، لا يستطيع أن يدرك الحق وحده ، ولا أن يستقلّ بمعرفته وبالبيان عنه ولا أن ينفرد بشىء يسمى تفكيرًا ، متخليًا عن جاراته من الطبائع والغرائز والسلائق ومن العادات والآداب ، ومما تسخطه النفس أو تحمدُه ، ومما تحبه أو تكرهه ، بل إن أكثر علم الناس فى هذه الدنيا لا ينشق لهم طريقه إلا بما استقرَّ فيهم من أخلاقٍ وآدابٍ وسننٍ متبعة ، بل إنّ اختلاف الأخلاق والآداب والسنن ، أصلٌ أصيل فى اختلاف العلم ، ومفهوم العلم ، وطبيعة العلم ، بل إنّ الحضارات المتباينة ، بعلمها وفنونها وصناعتها وآدابها ، لم تتباين كل هذا التباين ، إلا من جراءِ تباين الآداب والأخلاق والسنن فى كل حضارة . فإذا أنا حرصتُ على أنْ أجعل أخلاقَ الإسلام وآدابه وَسننه هى الأصلُ الذى لا ينفك منه مؤرخ الإسلام ، فذلك لأن المنهاجَ الذى يتبعه الباحث ، لا يمكن إلا أن يكونَ صَدى لما تقوم به حياته التى يعانيها فى دخيلة نفسه بالليل والنهار ، وفى السرّ والعلن ، وفى المنشطِ والمكره ، وفى الرضا والغضب .

والتاريخ ، فى زماننا ، ليس علمًا على الحقيقة ، كما ترى فى الكيمياء والحساب والهندسة ، بل هو تفسيرٌ لحوادث خفية الأسباب ، مطمورة الجذور ، متعدّدَةِ الدوافع ، كثيرة المحامل والوجوه ، متعلقة كل التعلق بحياة كل فرد عاش فى الفترة التى تريدُ أن تؤرخها ، شديدةِ الخضوع لعوامل لا يحصيها إلا الله وحده سبحانه . فما كان هذا شأنه وتعقيده ، واختلاف أسبابه ، وخفاء علله ودوافعه ، فإنّ منهاجَ دراسته لايقوم أبدًا على مقاييس لا تختلُّ كمقاييس الرياضة أو التجربة ؛

---

(١) تقول : نَعَمْ ونعْمَةَ (مثلثة النون) عَيْنٍ : أى أفعلُ ذلك كرامةً لك .

بل هو يلقى المؤرخ بقدر هائل من الطبائع الإنسانية المتآلفة والمتنافرة ، والمتآخية والمتناحرة ، والمتفقة والمتناقضة ، والظاهرة والغامضة ، فلا معدَى له عن لقائها بقدر مثله من نفسٍ تراحبَ إدراكها للطبائع والسجايا والأخلاق . وما دامَ الأمرُ قد انتقل من المقاييس المحدَّدة الضابطة ، إلى إدراك الطبائع الإنسانية البعيدة الغوْر ، الخفية السرِّ ، المتباينة الصور ، بقدْر تباين صور البشر وألوانهم وأشكالهم وألسنتهم وأصواتهم وأهوائهم ونوازعهم - فقد انتقل المنهاج كله من التحديد الضابط إلى التشتت المفزع الذى لا تدْرى ماذا تأخذُ منه أو تَدع . فلا مناص إذن لأى عاقل بعض العقل من الرجوع إلى شىء لايختلف ، يقومُ على أصل صحيح من هذا التقدير المخيف لاختلاف الطبائع ، ومهما التمس الإنسان شيئًا يَفى بضبط هذا القدْر من التباين المتفجر ، فهو خليقٌ ألا يجده . فإذا أثبته العجز عنه فآثر أن يغفله لمجرد شهوة يشتهيها ، وهى أن يكتب للناس ويؤرخ لهم ، فهو عندئذ خليقٌ أن يضلَّ فى تقديره ، وفى تصوّره ، وفى حكمه ، وصار كل ما يأتى به رجمًا وظنونًا وأهواءً وعبثًا وافتراءً وتكذبًا واقتفاء لما ليس له به علم : وهذا الذى كان .

وليس على الأرض العاقلة شىء يمكنُ أن يعدَّ ميزانًا عادلا لهذه الطبائع البشرية التى وصفنا ، إلا ميزانٌ واحدٌ لاغير ، هو الذى أنزلهُ ربُّ العالمين إذ يقول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] .

واهتداء البشر بالكتاب ، وفقههم لمعانيه ، واتخاذهم الميزان الذى أنزله الله على أنبيائه ورُسله ، أصلا يتعايشون به فى حياتهم ويتحاكمون إليه فى النظر والفكر ، وفى العلم والفقه ، وفى المعرفة والتقدير ، وفى القياس والاستنباط ، هو الوسيلة الوحيدة التى تضمن لصاحب الرأى أن يكون رأيه قريبًا من الحقّ ، ويكون منهاجه قادرًا بعضَ القدرة على لقاء هذه الكثرة الجياشة من الاختلاف . فإن منزل الميزان للناس ليقوموا بالقسط ، هو الذى خلق الناس مختلفين ، وجعل لهم هذا الميزان بإزاء هذا الاختلاف .

ولم يبق على الأرض العاقلة تنزيلٌ لا يأتيه الباطلُ من يديه ولا من خلفه ، سوى كتاب واحد لاغير ، هو كتاب الله تبارك اسمه ، ثم بيان هذا الكتاب ، وهو سنة رسوله ﷺ . فهما بجميع مانزل فيهما ، وما يستنبطُ منهما ، غير مؤول عن حقه ، ولا مصروف عن وجهه ولا مضروب بعضه ببعض : أخرجا الذين آمنوا بمحمد ﷺ من الظلمات إلى النور ، فجعلهم أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدًا . فلما أطاعوا الله وأطاعوا رسوله ، واتبعوا ماأنزل إليهم وساروا بما استطاعوا مما أوحى إليهم من البينات والكتاب والحكمة أثنى عليهم ربهم بأفضل ثنائه سبحانه فقال لهم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] . ثم نبأهم بعد بما نعتهم به فيما نزل على موسى ﷺ ، وفيما نزل على عيسى بن مريم ﷺ من قبل أن يكونوا هم شيئًا مذكورًا فقال لهم فيما يتلى عليهم : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] . صدق الله وكذب القوّالون .

فهؤلاء الذين زكّاهم ربهم وعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وبشّرهم فى أواخر مانزل على نبيهم : بآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم ، من سائر التابعين ومن تبعهم بإحسان ، هم الذين كان بهم تاريخ الإسلام تاريخًا ، وبما اتبعوا من آدابه وأخلاقه وسننه ، وبما كانوا به بشرًا يتعاشرونَ فيتآلفون ويتنافَرون ، وبما أخطأوا وأصابوا ، وبما عدلوا وأسرفوا ، وبما استغفروا إلى ربهم وتابوا ، وبما اجتهدوا فأحسنوا أو اجتهدوا فأساءوا ، وبكلّ ما تكون به الحياة الإنسانية حياةً مختلفة الأبدان والوجوه والصور والأعمار ، مختلفة الطبائع والغرائز والنوازع ، مختلفة الحاجات والدوافع ، مختلفة المساخط والمحامد ، مختلفة فيما يحبُّ وما يكره ، مختلفةً فيما يغضبُ ويرضى ، معدَّلة فى كل ذلك

بضابط لم يوجد مثله فى تاريخ البشر : تقوى الله ، والتوبة إلى ربّ العالمين . فقاموا بذلك كله إذ ألزمهم ربهم كلمة التقوى فى السر والعلن ، وعادوا إليه من عند زلاتهم توابين مستغفرين بالأسحار ، وعاشت هذه الأمة المنفردة فى تاريخ الجنس البشريّ ، وأنشأت تاريخها برضى الله عن بعض عملها ، وغضبه على بعض ، وبعقابه لبعض أهلها ومغفرته لبعضٍ ، ولم يجعلهم ربهم أمة معصومةً من خطإ ، ولكنهم يخطئون ويتوبون ماانفسحت آجالهم ، يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة ، فيرحمهم ربُّهم ويتوب عليهم ، ويعاقبهم ببعض ذنوبهم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [سورة فاطر : ٤٥] .

فمن غير الممكن ، وأكادُ أقول إنه المستحيل ، أن يطيق إنسانٌ لم يتأدَّبْ بما تأدبوا به فى أنفسهم ، وبما صار به تاريخهم تاريخًا فيه مشابه من تواريخ الأمم ، ولكنه مختلفٌ عنها كلّ الاختلاف - أن يكون مصيبًا أو مقاربًا للصواب ، أو خليقًا بأن يدرك بعضَ الصواب ، إذا هو أرادَ أن يكتب تاريخهم على النهج الذى نعرفه اليوم من كتابة التاريخ ، والذى تُرمى فيه الأحكام جزافًا بلا تقوى ولا ورع ، ولا مخافةٍ من ظنّ السوء ، ولا هيبة من بهت الناسِ بما ليس فيهم ، ولا تأثم من الاجتراء على غيب لا يعلمه إلّا العليم الخبير . والذى لم يجرّبْ هذه الآداب فى سريرة نفسه ، غير مستطيع أن يدرك مأتى أعمال هؤلاء الناس ، ولا مقاطع أحكامهم ، ولا سيرة حكامهم ، ولا طبيعة حياتهم ، بل هو خليق أن يخلط ماجرى فى حياتهم وأيامهم ، بما جرى فى حياة غيرهم وأيامهم ، وأن يحكم على الذى كان يجرى بينهم سهلا يسيرًا منظورًا إليه بما ينظر به إلى مجرد الاختلاف فى الرأى ، حكما جازمًا قاطعًا مدمرًا ، كأن الله وَكَّلَ إليه الاطلاع على سرائر خلقه ، وفوض إليه أن يقضى فيهم بقضائه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٩] .

المسلمون

المسلمون فما أَذَلَّهمو ... في هذه الدنيا وهم كُثْرُ
جدُّوا فجدَّ زمانُهم بهمو ... وتغيَّروا فتغيَّرَ الدهرُ

* * *

« لا تسبُّوا أصحَابى »

حسبُ امرئ مسلم لله أن يبلغه قول رسول الله ﷺ : « لا تسبُّوا أصحابى ! لا تسبُّوا أصحابى ! فوالذى نفسى بيده لو أنّ أحدكم أنفقَ مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه » (١) ، حتى يخشع لربّ العالمين ، ويسمع لنبىّ الله ويطيعُ ، فيكفّ غَرْب (٢) لسانه وضراوة فكره عن أصحاب محمد ﷺ ، ثم يعلم علمًا لا يشوبه شكٌّ ولا ريبةٌ ، أن لا سبيل لأحد من أهل الأرض ، ماضيهم وحاضرهم ، أن يلحق أقلَّ أصحابه درجة ، مهما جهد فى عبادته ، ومهما تورّع فى دينه ، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء فى سرّه وعلانيته . ومن أين يشك وكيف يطمعُ ، ورسول الله لا ينطقُ عن هَوًى ، ولا يداهنُ فى دينٍ ، ولا يأمرُ الناس بما يعلم أن الحقّ فى خلافه ، ولا يحدّث بخبر ، ولا ينعتُ أحدًا بصفة ، إلا بما علمه ربه وبما نبأه ؟ وربه الذى يقول له ولأصحابه : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣ : ٣٥] .

ثم يبين ﷺ عن كتاب ربه فيقول : « خير الناس قَرْنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجئ قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » . ثم يزيد الأمر بيانًا ﷺ ، فيدل المؤمنين على المنزلة التى أنزلها الله أصحاب محمد رسول الله ، فيقول : « يأتى على الناس زمانٌ ، فيغزو فئامٌ من (٣) الناس فيقولون : فيكم مَن صاحب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون : نعم ! فيفتح لهم . ثم يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس فيقال : هل فيكم من صاحبَ أصحاب رسول الله

---

* المسلمون ، العدد الثالث ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ ، ص : ٢٤٦ – ٢٥٥

(١) المُدّ : رُبْع الصاع ، وإنما قدّره به ﷺ لأنه أقلّ ما كانوا يتصدّقون به . والنَّصِيف والنِّصف بمعنى .

(٢) غرب اللسان : حَدُّه .

(٣) الفئام : الجماعة الكثيرة .

ﷺ ؟ فيقولون : نعم ! فيفتح لهم . ثم يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فِئَامٌ من الناس فيقال : هل فيكم من صاحب مَن صاحب أصحابَ رسول الله ﷺ ؟ فيقولون : نعم ! فيفتح لهم » . فإذا كان هذا مبلغ صحبة رسول الله ، فأى مسلم يطيق بعد هذا أن يبسط لسانه فى أحد من صحابة محمد رسول الله ؟ وبأى لسان يعتذر يوم يخاصمونه بين يدى ربهم ؟ وما يقول وقد قامت عليه الحجة من كتاب الله ومن خبر نبيه ؟ وأين يفر امرؤ من عذاب ربه ؟

وليس معنى هذا أن أصحاب محمد رسول الله معصومون عصمة الأنبياء ، ولا أنهم لم يخطئوا قط ولم يسيئوا ، فهم لم يدّعوا هذا ، وليس يدّعيه أحدٌ لهم . فهم يخطئون ويصيبون ، ولكنّ الله فضّلهم بصحبة رسوله ، فتأدبوا بما أدَّبهم به ، وحرصوا على أن يأتوا من الحق ما استطاعوا ، وذلك حسبهم ، وهو الذى أمروا به ، وكانوا بعدُ توَّابين أوَّابين كما وصفهم فى محكم كتابه . فإذا أخطأ أحدهم ، فليس يحلُّ لهم ، ولا لأحد ممن بعدهم ، أن يجعل الخطأ ذريعةً إلى سبهم والطعن عليهم . هذا مجمل ما أدبنا به الله ورسوله . بيد أن هذا المجمل أصبح مجهولا مطروحًا عند أكثر من يتصدى لكتابة تاريخ الإسلام من أهل زماننا ، فإذا قرأ أحدهم شيئا فيه مطعنٌ على رجل من أصحاب رسول الله سارع إلى التوغل فى الطعن والسبِّ ، بلا تقوى ولا ورع . كلا ، بل تراهم ينسوْن كل ما تقضى به الفطرة من التثبت من الأخبار المروية ، على كثرة مايحيط بها من الريب والشكوك ، ومن الأسباب الداعية إلى الكذب فى الأخبار ، ومن العلل الدافعة إلى وضع الأحاديث المكذوبة على هؤلاء الصحابة .

ولن أضرب المثل بما يكتبه المستشرقون ومن لف لفهم فهم كما نعلم . ولا بأهل الزيغ والضلال والضغينة على أهل الإسلام ؛ كصاحب كتاب الفتنة الكبرى [١] وأشباهه من المؤلفين . بل سآتيك بالمثل من كلام بعض المتحمسين [٢] لدين ربهم ، المعلنين بالذبّ عنه والجهاد فى سبيله . لتعلم أن

---

(١) للدكتور طه حسين رحمه الله .

(٢) يعنى الأستاذ سيد قطب ، رحمه الله ، فى كتابه « العدالة الاجتماعية » .

أخلاق المسلم هى الأصل فى تفكيره وفى مناهجه وفى علمه ، وأن سمة الحضارة الوثنية الأوربية ، تنفجر أحيانًا فى قلب من لم يحذر ولم يتق ، بكل ضغائن القرن العشرين وبأسوأ سخائم هذه الحضارة المتعدية لحدود الله التى كتب على عباده - مسلمهم وكافرهم - أن لا يتعداها .

أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ : هم أبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وهند بنت عتبة بن ربيعة ، أم معاوية . رضى الله عنهم كيف يتكلم أحد الناس عنهم .

١ - « فلما جاء معاوية ، وصيَّر الخلافة الإسلامية مُلكا عضوضًا فى بنى أميّة ، لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وَحْى الجاهلية » ولم يكتفِ بهذا بل شمل بنى أمية جميعًا فقال : « فأمية بصفة عامة لم يَعْمر الإيمان قلوبَها وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبَسُه حسب المصالح والملابسات » .

٢ - ثم يذكر يزيد بن معاوية بأسوأ الذكر ثم يقول : « وهذا هو « الخليفة » الذى يفرضه معاوية على الناس ، مدفوعًا إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام ؛ دافع العصبية العائلية القبلية . وماهى بكثيرة على معاوية ولا بغريبة عليه . فمعاوية هو ابن أبى سفيان . وابن هند بنت عتبة ، وهو وريث قومه جميعًا وأشبه شىء بهم فى بُعد روحه عن حقيقة الإسلام . فلا يأخذ أحدٌ الإسلام بمعاوية أو بنى أمية ، فهو منه ومنهم برىء » .

٣ « ولسنا ننكر على معاوية فى سياسة الحكم ابتداعه نظام الوراثة وقهر الناس عليها فحسب ، إنما ننكر عليه أولا وقبل كل شىء إقصاءه العنصر الأخلاقى ، فى صراعه مع على ، وفى سيرته فى الحكم بعد ذلك ، إقصاءً كاملا لأول مرة فى تاريخ الإسلام ... فكانت جريمة معاوية الأولى ، التى حطمت روح الإسلام فى أوائل عهده هى نفى العنصر الأخلاقى من سياسته نفيًا باتًّا . ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سُننه الرفيعة ... ولكى ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم فى العهود المختلفة على أيدى أبى بكر وعمر ، وعلى أيدى عثمان

ومروان ... ثم على أيدى الملوك من أمية ... ومن بعدهم من بنى العباس ، بعد أن خُنقت روح الإسلام خنقًا على أيدى معاوية وبنى أبيه » .

٤ - « ومضى على إلى رحمة ربه ، وجاء معاوية بن هند وابن أبى سفيان ! » (وأنا أستغفر الله من نقل هذا الكلام ، بمثل هذه العبارة النابية فإنه أبشع مارأيته !) ثم يقول : « فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته ، كانت تقف حاجزًا أمام أمية .. لقد انهار هذا الحاجز ، وانساح ذلك السد ، وارتدّت أمية طليقة حرة إلى وراثاتها فى الجاهلية والإسلام . وجاء معاوية ، تعاونه العصبة التى على شاكلته ، وعلى رأسها عمرو بن العاص . قوم تجمعهم المطامع والمآرب ، وتدفعهم المطامح والرغائب ، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير » (وأنا أستغفر الله وأبرأ إليه) . ثم قال : ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية ، فنحن لا نؤرخ له هنا ، وبحسبنا تصرفه فى توريث يزيد الملك ، لنعلم أى رجل هو . ثم بحسبنا سيرة يزيد لنقدّر أية جريمة كانت تعيش فى أسلاخ أمية على الإسلام والمسلمين » .

٥ - ثم ينقل خطبة يزعم أنها لمعاوية فى أهل الكوفة بعد الصلح يجىء فيها قول معاوية : « وكل شرط شرطته ، فتحت قدمىّ هاتين » ثم يعقب عليه مستدركا : « والله تعالى يقول : ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ والله يقول : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ فيؤثر الوفاء بالميثاق للمشركين المعاهدين ، على نصرة المسلمين لإخوانهم فى الدين . أما معاوية فيخيس بعهده للمسلمين ، ويجهر بهذه الكبيرة جهرة المتبجحين ! .. إنه من أمية ، التى أبت نحيزتها أن تدخل فى حلف الفضول ! » .

٦ - ثم يذكر خطبة أخرى لمعاوية فى أهل المدينة : « أما بعد ، فإنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم » ثم يعلق عليها فيقول : « أجل ماوليها بمحبة منهم . وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضى فى دين الإسلام . ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام .. وهو ابن هند وابن أبى سفيان ! » .

٧ - « وأما معاوية بعد عليّ ، فقد سار فى سياسة المال سيرته التى ينتفى منها العنصر الأخلاقيّ ، فجعله للرُّشى واللهى وشراء الأمم فى البيعة ليزيد ، وما أشبه هذه الأغراض ، بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال » .

٨ - ثم قال شاملا لبنى أمية : « هذا هو الإسلام ، على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى ، من غلبة أسرة لم تعمرْ روحُ الإسلام نفوسها . فآمنت على حرف حين غَلب الإسلام ، وظلّت تحلم بالملك الموروث العضوض حتى نالته ، فسارت بالأمر سيرة لا يعرفها الإسلام » .

هذا ماجاء فى ذكر معاوية ، وما أضفى الكاتب من ذيوله على بنى أمية ، وعلى عمرو بن العاص . وأما ماجاء عن أبى سفيان بن حرب فانظر ماذا يقول :

٩ - « أبو سفيان هو ذلك الرجل الذى لقى الإسلام منه والمسلمون ما حفلت به صفحات التاريخ ، والذى لم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام . فهو إسلام الشفة واللسان ، ولا إيمان القلب والوجدان . وما نفذ الإسلام إلى قلب ذلك الرجل قطّ ، فلقد ظلّ يتمنى هزيمة المسلمين ويستبشر لها فى يوم حنين ، وفى قتال المسلمين والروم فيما بعد ، بينما يتظاهر بالإسلام . ولقد ظلت العصبية الجاهلية تسيطر على فؤاده ... وقد كان أبو سفيان يحقد على الإسلام والمسلمين، فما تعرض فرصة للفتنة إلا انتهزها .. »

١٠ - « ولقد كان أبو سفيان يحلم بمِلك وراثى فى بنى أمية منذ تولى الخلافة عثمان فهو يقول : « يابنى أمية ... تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم ، ولتصيرنَّ إلى صبيانكم وراثة ! » . وما كان يتصوَّر حكم المسلمين إلا ملكا حتى فى أيام محمد ، (وأظن أنا أنه من الأدب أن أقول : ﷺ) ، فقد وقف ينظر إلى جيوش الإسلام يوم فتح مكة ، ويقول للعباس ابن عبد المطلب : « والله يأبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما » ، فلما قال له العباس . إنها النبوّة ! قال : نعم إذن ! ...

« نعم إذن ! وإنها لكلمة يسمعها بأذنه فلا يفقهها قلبه ، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنى الملك والسلطان » .

ثم يقول عن هند بنت عتبة أم معاوية .

١١ - « ذلك أبو معاوية . فأما أمه هند بنت عتبة ، فهى تلك التى وقفت يوم أحد ، تلغ فى الدم إذ تنهش كبد حمزة كاللبؤة المتوحشة ، لا يشفع لها فى هذه الفعلة الشنيعة حق الثأر على حمزة ، فقد كان قد مات . وهى التى وقفت بعد إسلام زوجها كرها بعد إذ تقررت غلبة الإسلام تصيح . « اقتلوا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه . قُبّح من طليعة قوم ! هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟ » .

* * *

هؤلاء أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، يذكرهم كاتب مسلم ، بمثل هذه العبارات الغريبة النابية ! بل زاد ، فلم يعصم كثرة بنى أمية من قلمه ، فطرح عليهم كلّ ما استطاع من صفات تجعلهم جملة واحدة ، برآء من دين الله ؛ ينافقون فى إسلامهم ، وينفون من حياتهم كل عنصر أخلاقى ! كما سماه . وأنا لن أناقش الآن هذا المنهج التاريخى ، فإن كلّ مدّع يستطيع أن يقول : هذا منهجى ، وهذه دراستى . بل غاية ما أنا فاعل أن أنظر كيف كان أهل هذا الدين ، ينظرون إلى هؤلاء الأربعة بأعيانهم ، وكيف كانوا - هؤلاء الأربعة - عند من عاصرهم ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم . وأيضًا فإنى لن أحقق فى هذه الكلمة فساد ما بُنى عليه الحكم التاريخىّ العجيبُ ، الذى استحدثه لنا هذا الكاتب ، بل أدعه إلى حينه .

فمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، أسلم عام القضية ؛ ولقى رسول الله ﷺ مسلمًا ؛ وكتم إسلامه من أبيه وأمه . ولما جاءت الردة الكبرى ؛ خرج معاوية فى هذه القلة المؤمنة التى قاتلت المرتدّين ؛ فلما استقر أمرُ الإسلام وسير أبو بكر الجيوش إلى الشام سار معاوية مع أخيه يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنه . فلما مات يزيد فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى سفيان : أحسن الله عزاءك فى يزيد . فقال أبو سفيان . من ولّيت مكانه ؟ قال . أخاه معاوية . قال : وصلتك رحم ياأمير المؤمنين . وبقى معاوية واليا لعمر على عمل دمشق . ثم ولاه عثمان الشام كلها ؛ حتى جاءت فتنة مقتل عثمان ؛ فولى معاوية دم عثمان لقرابته ؛ ثم كان بينه وبين على ما كان .

ويروى البخارى : (٥ : ٢٨) أن معاوية أوتر بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس ، فقال : دعه فإنه صحب رسول الله ﷺ . وقال فى خبر آخر : هل لك فى أمير المؤمنين معاوية فإنه أوتر بواحدة ، فقال ابن عباس : إنه فقيه . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٠٢) عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس أن معاوية أخبره أن رسول الله ﷺ قصر شعره بمشقص [١] . فقلت لابن عباس : ما بلغنا هذا الأمر إلا عن معاوية ! فقال : ما كان معاوية على رسول الله ﷺ متهمًا . وعن أبى الدرداء : ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا يعنى معاوية (مجمع الزوائد ٩ : ٣٥٧) . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٠١) عن أبى أمية عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده أن معاوية أخذ الإداوة [٢] بعد أبى هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها ، واشتكى أبو هريرة ، فبينا هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين فقال : يامعاوية ؛ إن وليت أمراً فاتق الله عزّ وجل واعدل . قال معاوية : فما زلت أظن أنى مبتلى بعمل لقول النبى ﷺ حتى ابتُليتُ . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٢٧) عن العرباض بن سارية السلمى قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يدعونا إلى السحور فى شهر رمضان : هلموا إلى الغداء المبارك ! ثم سمعته يقول : اللهمّ علم معاوية الكتاب والحساب وقِه العذاب . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ٢١٦) عن عبد الرحمن ابن أبى عميرة عن النبى ﷺ أنه ذكر معاوية فقال : « اللهم اجعله هاديًا مهديًّا واهد به » .

هذا بعض ماقيل فى معاوية رضى الله عنه ، وفى دينه وإسلامه . فإن كان هذا الكاتب قد عرف واستيقن أن الروايات المتلقفّة من أطراف الكتب تنقض هذا نقضا حتى يقول إنّ الإسلام برىء منه ، فهو وما عرف . وإن كان يعلم أنه أحسنُ نظراً ومعرفة بقريش من أبى بكر حين ولّى يزيد بن أبى سفيان ، وهو من بنى أمية ، وأنفذ بصرًا من عُمرَ حين ولّى معاوية . فهو وما علم ! وإن كان يعلم أنّ معاوية لم

---

(١) المشقص : نصل طويل عريض (المقص) .

(٢) الإداوة : إناء من جلد صغير كالقربة .

يُقاتل فى حروب الردّة ، إلّا وهو يضمر النفاق والغدر ، فله ما علم . وإن كان يرى ما هو أعظمُ من ذلك ؛ أنه أعرف بصحابة رسول الله ﷺ ، من رسول الله الذى كان يأتيه الخبر من السماء بأسماء المنافقين بأعيانهم ، فذلك ما أعيذه مِنهُ أن يعتقده أو يقوله . ولكن لينظر فرق ما بين كلامه وكلام أصحاب رسول الله عن رجل آخر من أصحابه ، ثم ليقطع لنَفسه ماشاء من رحمة الله أو من عذابه . ولينظر أيهما أقوى برهانًا فى الرواية هذا الذى حدثنا به أئمة ديننا ، أم ما انضمَّت عليه دفَّتا كتاب من عُرْض كتب التاريخ ، كما يزعمون . ولينظر لنفسه حتى يرجّح رواية على رواية ، وحديثًا على حديث ، وخبرًا على خبر ، وليعلم أن الله تعالى أدّب المسلمين أدبًا لم يزالوا عليه منذ كانت لدين الله الغلبة ، حتى ضرب الله على أهل الإسلام الذّلة بمعاصيهم وخروجهم عن حدّ دينهم ، واتباعهم الأمم فى أخلاقها وفى فكرها وفى تصورّها للحياة الإنسانية . يقول ربُّنا سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ ويقول : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٞ ﴾ ويقول ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولٗا ﴾ . ولينظر أنّى له أن يعرف أن معاوية كان يعمل « بوحى الجاهلية لا الإسلام » ، وأنه بعيد الروح عن حقيقة الإسلام ، وأن الإسلام لم يَعمُر قلبه ، وأنه خنق روح الإسلام هو وبنو أبيه ، وأنه هو وعمرو بن العاص ومن على شاكلتهم ، لا يمسكهم خُلق ولا دين ولا ضمير ، وأن فى أسلاخ معاوية وبنى أمية جريمة أى جريمة على الإسلام والمسلمين ، وأنه يخيس بالعَهد ويجهر بالكبيرة جهرة المتبجحين ، وأنه ما لمعاوية وهذا الإسلام ؟ وأنه ينفى العنصر الأخلاقى من سيرته ويجعل مال الله للرشى واللهى وشراء الذمم ، وأنه هو وبنو أمية آمنوا على حرف حين غَلب الإسلام .

* * *

أما أبو سفيان رضى الله عنه ، فقد أسلم ليلة الفتح ، وأعطاه رسول الله من غنائم حنين كما أعطى سائرالمؤلفة قلوبهم فقال له : والله إنك لكريم فداك أبى

وأمى ، والله لقد حاربتك فلنعم المحارب كنت ، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيرًا . ثم شهد الطائف مع رسول الله ، وفقئت عينه فى القتال ، ولاّه رسول الله ﷺ نجران ، ورسول الله لا يولى منافقًا على المسلمين ، وشهد اليرموك ، وكان هو الذى يحرض الناس ويحثهم على القتال . وقد ذكر الكاتب فيما استدلّ به على إبطان أبى سفيان النفاق والكفر أنه كان يستبشر بهزيمة المسلمين فى يوم حنين ، وفى قتال المسلمين والروم فيما بعد ، وهذا باطل مكذوب . وسأذكر بعد تفصيل ذلك . أما قول أبى سفيان للعباس « لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما ! » فقال العباس إنها النبوة ! فقال أبو سفيان : فنعم إذن . فهذا خبر طويل فى فتح مكة ، قبل إسلامه ، وكانت هذه الكلمة « نعم إذن » أول إيذان باستجابته لداعى الله ، فأسلم رضى الله عنه وليست كما أولها الكاتب : « نعم إذن . وإنها كلمة يسمعها بأذنه فلا يفقهها قلبه ، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنى الملك والسلطان » ، إلّا أن يكون الله كشف له ما لم يكشف للعباس ولا لأبى بكر ولا لعمر ، ولا لأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار . وأعوذ بالله من أن أقول ما لم يكشف لرسول الله ونبيه ﷺ .

وعن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يارسول الله ثلاثًا أعطنيهنّ . قال : نعم قال : تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما قاتلتُ المسلمين . قال : نعم . قال : ومعاوية تجعلُه كاتبًا بين يديك . قال : نعم . وذكر الثالثة ، وهو أنه أراد أن يزوّج رسول الله ﷺ بابنته الأخرى عزّة بنت أبى سفيان ، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة فقال : « إن ذلك لا يحلُّ لى » .

وأما هند بنت عتبة أم معاوية رضى الله عنهما فقد روى عن عبد الله بن الزبير (ابن سعد ٨ : ١٧١) قال : لما كانَ يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ونساء معها وأتين رسول الله وهو بالأبطح فبايعنه ، فتكلمت هند فقالت : يارسول الله ! الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه . لتنفعنى رحمُك يامحمد ! إنى امرأةٌ مؤمنة بالله مصدقةٌ برسوله . ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال رسول الله : مرحبًا بك . فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء

أحبّ إليّ من أن يذلُّوا من خبائك ، ولقد أصبحتُ وما على الأرض أهل خباء أحبّ إليّ من أن يعزّوا من خبائك . فقال رسول الله : وزيادة ... قال محمد بن عمر الواقدى : لما أسلمتْ هندُ جعلتْ تضربُ صَنمًا فى بيتها بالقدوم حتى فلّذته فلذة فلذة وهى تقول : كنّا منك فى غرور . وروى البخارى هذا الخبر عن أم المؤمنين عائشة (٥ : ٤٠) .

فهل يعلم عالمٌ أن إسلام أبى سفيان وهند كان نفاقًا وكذبًا وضغينة ؟ لا أدرى . ولكن أئمتنا من أهل هذا الدين لم يطعنوا فيهم ، وارتضاهم رسول الله ﷺ وارتضى إسلامهم . وأمّا ما كان من شأن الجاهلية ، فقلّ رجُلٌ أو امرأةٌ من المسلمين لم يكنْ له فى جاهليته مثل مافعل أبو سفيان ، أو شبيةٌ بما يروى عن هندٍ إن صحّ .

وأما عمرو بن العاص ، فقد أسلم عام خيبر قدم مهاجرًا إلى الله ورسوله ، ثم أمّره رسول الله ﷺ على سرية إلى ذات السلاسل يدعو بليًا إلى الإسلام ، ثم استعمله رسول الله على عمان فلم يزل واليًا عليها إلى أن توفىَ رسول الله ﷺ . ثم أقره عليها أبو بكر رضى الله عنه ثم استعمله عمر . وروى الإمامُ أحمد فى مسنده (٢ : ٣٢٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ابنا العاص مؤمنان » يعنى هشامًا وعمرًا . وروى الترمذى وأحمد فى مسنده (٤ : ١٥٥) عن عقبة بن عامر الجهنى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص . وروى أحمد فى مسنده (١ : ١٦١) عن طلحة بن عبيد الله قال : ألا أخبركم عن رسول الله بشيء ؟ ألا إنى سمعته يقول : عمرو بن العاص من صالحى قريش . ونعم أهل البيت أبو عبد الله ، وأم عبد الله ، وعبد الله .

فإذا كان جهاد عمرو ، وشهادة أصحاب رسول الله ﷺ ، وتولية رسول الله ثم أبى بكر ثم عمر ، لا تدل على شيء من فضل عمرو بن العاص ، ولا تدل على نفى النفاق فى دين الله عنه ، فلا ندرى بعد ما الذى ينفع عمرًا فى دنياه وآخرته ؟ ولست أتصدى هنا لتزييف ما كتبه الكاتب من جهة التاريخ ، ولا من جهة

المنهاج ، ولكنى أردت كما قلت أن أبين أن الأصل فى ديننا هو تقوى الله وتصديق خبر رسول الله وأن أصحاب محمد ﷺ ليسوا لعانين ولا طعانين ولا أهل إفحاش ، ولا أصحاب جرأة وتهجم على غيب الضمائر ، وأن هذا الذى كانوا عليه أصل لا يمكن الخروج منه ، لا بحجة التاريخ ، ولا بحجة النظر فى أعمال السابقين للعبرة واتقاء ما وقعوا فيه من الخطأ .

ولو صح كل ما يذكر مما اعتمد عليه الكاتب فى تمييز صفات هؤلاء الأربعة ، وصفة بنى أمية عامة ، لكان طريق أهل الإسلام أن يحملوه على الخطأ فى الاجتهاد من الصحابى المخطئ ولا يدفعهم داء العصر أن يوغلوا من أجل خبر أو خبرين فى نفى الدين والخلق والضمير عن قوم هم لقرب زمانهم وصحبتهم لرسول الله ﷺ ، أولى أهل الإسلام بأن يعرفوا حق الله وحق رسوله ، وأن يعلموا من دين الله مالم يعلمه مجترئ عليهم طعان فيهم .

وأختم كلمتى هذه بقول النووى فى شرح مسلم (١٦ : ٩٣) « اعلم أن سبَّ الصحابة رضى الله عنهم حرام من فواحش المحرمات ، سواء مَن لابَسَ الفتن منهم وغيره ، لأنهم مجتهدون فى تلك الحروب متأولون . وقال القاضى : سب أحدهم من المعاصى الكبائر . ومذهبنا ومذهب الجمهور أن يعزر ولا يقتل . وقال بعض المالكية يقتل » . وأسدى النصيحة لمن كتب هذا وشبهه أن يبرأ إلى الله علانية مما كتب وأن يتوب توبة المؤمنين مما فرط منه ، وأن ينزه لسانه ، ويعصم نفسه ، ويطهر قلبه ، وأن يدعو بدعاء أهل الإيمان ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحشر : ١٠] .

من أجل هذا أقول : إن خلق الإسلام ، هو أصل كل منهاج فى العلم والفهم ، سواء كان العلم تاريخًا أو أدبًا أو اجتماعًا أو سياسة . وإلا فنحن صائرون إلى الخروج عن هذا الدين ، وصائرون إلى تهديم مابناه أصحاب رسول الله ﷺ ، وإلى جعل تاريخ الإسلام حشدًا من الأكاذيب الملفقة ، والأهواء المتناقضة ،

والعبث بكل شيء شريف ورثتنا إياه رحمة الله لهم وفتح الله عليهم ، ورضاه عن أعمالهم الصالحة ، ومغفرته لهم ما أساءوا ، رضى الله عنهم وغفر لهم وأثابهم بما جاهدوا وصبروا ، وعلموا وعلّموا . وأستغفر الله وأتوب إليه .

* * *

طلب الدراهم من الحجارة !

قال أبو معاوية : لقد رأيتنى أنضح أول النهار ، وأضرب آخر النهار على بطنى بالمعول . فقيل له : لقد لقيت مؤونة ! قال : أجل ، إنا طلبنا الدراهم من أيدى الرجال ومن الحجارة ، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا .

* * *

ألسنةُ المفترين

ممَّا يُسْتخرَج به الضَّحِك أن يحدّثك المحدّث أو الكاتب بشيْئ سخيف لا يُعْقَل ، وهو يُبْدى لكَ الجدّ كل الجدّ فيما يحدِّثُ أو يكتب . ولكنه عندئذٍ لا يريدُ إلّا إضحاكك . فإذا جاءَ امرؤ يفعَل ذَلك وهو لا يريدُ إلا الجدّ ، لأنّه قد بَنَى حديثَه عليه عند نفسه وعند سامعه أو قارئه ، فهذا هو المضحك المحزنُ معًا . ولكن من العجيب أن يَكون هذا السَّمْتُ الأخيرُ ، هو سمْت أكثر الذين يكتبون اليوم فى تاريخ الإسلام . ومن البلْوى أن يأتى هذا فى زمنٍ أصبحنا فيه وأصبح الناس ، وكلّ حرف مكتوبٍ يُعدُّ عندهم كأنه تنزيلٌ يتلقوْنه بالثقة والتسليم لايكادُ امرؤ مِنهم ينظر فى مأتاهُ من أين أتى ، ولا فى منتهاهُ إلى أين ينتهى . فإذا اجتمع إلى هذه البلوى بلْوى الهوى المخلوط بالغلوّ ، خرجَ الأمرُ كله من الضَّحِك والحزنِ ، إلى الهلاكِ المطبق الذى يغتال العقول والنفوس جميعًا .

يرى الكاتب ذو الهوى خبرًا أو أخبارًا ، فلا يدفعه هواهُ إلا إلى أخذ أقربها موافقة لهواه ، ويمنعُه الهوى من التمييز ، ويحمله التعبُّد للحرف المكتوب أن يغمِض كلَّ بصيرةٍ عن مواضع الدَّخلِ والغشّ والزَّيْف فيما كُتِب ، وتشتدُّ البلوى حين ينتصب لهذا التزوير المدمِّر رجالٌ يلبسون للناس ثيابَ الغيرة على دين ربهم ، والحمية لماضى أمتهم ، والجهادِ فى سبيل إعزاز هذا الدين بأنفسهم وألسنتهم . وتجتمع عليهم وعلى الناس صواعق الهلاك ، حين يخدع عامة الناس أمرُهم ، فيتلقوْن عنهم معانى وأحكامًا وأخبارًا ، وما شئتَ من حصائد الألسنة ، على غير هُدًى ولا بيِّنةٍ . فيوشك أمر الناسِ أن ينتهى إلى الردَّةِ الماحقة ، والكفر المستعلِن . كما مضى مثل الأوَّلين ، الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، حين استنصحوا الأحبار والرهبان فأطاعوهم على غير هدى ولا بينة ولا كتاب منير .

وقبل أن أفضى إلى الأمثلة التى تبين عن الفساد والضلال ، أحبُّ أن يعلم من

---

* المسلمون ، العدد الرابع ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ ، ص : ٣٥١ - ٣٥٩

لم يكن يعلم ، أن أسلافنا رضى الله عنهم وغفر لهم ، منذ ألفوا كتبهم ، وضعوا لها قواعد يعرفها أهل هذا العلم ، ويجهلها من جنح عن أصولهم وعمى عليه طريقهم . فهم منذ بدأوا يكتبون أسسوا كتبهم على إسناد الأخبار إلى رواتها ، وبَرِئوا من عهدة الرواية بهذا الإسناد ، ولم يبالوا بعد ذلك أن يكون الخبرُ صحيحًا أو ضعيفًا أو زائدًا أو ناقصًا أو موضوعا مكذوبا ؛ لأنهم كانو يعلمون حال الرُّواة ومنازلهم من الصدق والكذب ، ومن الورَع والاستخفاف ، ومن الأمانة والهوى . وكأنهم أرادوا بهذا أن يجعلوا كتبهم فى التاريخ وغير التاريخ سجلا لما قد قيل فى زَمانهم وما قبل زمانهم ، وما كان يقوله قومٌ ، وما كان يقوله آخرون ، مهما تعارض القولان أو اختلفا أو تناقضا . وتركوا للعلماء تمييز الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، على أساسهم المشهور ، وهو معرفة الرجال الذين رووا هذه الأخبار أو تكذّبوها . هذا الطبرى مثلا (توفى سنة ٣١٠) يقول فى فاتحة كتابه فى التاريخ : « فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناهُ عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجها صحيحًا ، ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يُؤت فى ذلك من قِبَلنا ، وإنما أتى من بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدِّى إلينا » . ومن عرف كتابه وكتب القوم ، علم يقينًا صدق مايقول ، فإنه يأتى بالخبر لايصحُّ أبدًا ، وبالخبر الصحيح الذى لاشك فيه ، ولا يعرض لهما . بتصديق أو تكذيب ، ثم تراه فى موضع آخر قد احتاج إلى البيان عن حال هذين الخبرين ، فعندئذ يميز لك ماهو صحيح عنده وماهو باطلٌ من هذين الخبرين . فهو كما قال ، إنما يؤدِّى إلى الناس ما أدِّى إليه . وكان الناسُ على عهدهم أهل دين وتقوى ، لا يستحل امرؤ منهم - إلا من ضلَّ - أن يحتج فى دين الله ، ولا فى تاريخ الناس والحكم عليهم ، بخبر لا يدرى أصدق قائله فيما روى أم كذب . ثم جاء من بعدهم قوم خلطوا عامة الأخبار بلا إسناد إلى رواتها ، فاجتمع الغث والسمين والصحيح والسقيم ، والصادق والمكذوب . ولكن لم يزل دين الناس يعصمهم من شر هذا الخلط المضل ، فأمسكوا ألسنتهم عن الخوض فى المطاعن والمثالب بلا بينة ولا حجة . فلما جاء

زماننا هذا ، بَشِع الأمر وقبُح . فإن الناس قد هجروا أدب دينهم ، ومروءة أسلافهم، وعلم كتبهم ، واقتحموا بالجهالة على الظنون المردية ، واستخفهم الهوى حتى أخذوا الباطل وعارضوا به الحق بلا تمحيص ولا رواية ولا فهم . وشابهوا زمن هذه الحضارة الغالبة عليهم ؛ فاجترؤا وتهوروا واستغلظوا معانى وألفاظًا يتقاذفونها فى ألسنتهم وكتُبهم ، وقد نفى الشيطان من قلوبهم كلّ معانى الوَرَع ومخافة العذاب يوم القيامة ، حتى قذفوا بالغيب من مكانٍ بعيدٍ ، واجترأوا على أصحاب رسول الله ﷺ بأوهامهم وأهوائهم فأفحشوا القالة فيهم وفيمن تبعهم ، بلا معرفة ولا تخوّفٍ ، وربّ العالمين ينذرهم فيما يتلون من كتابه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٥٨] .

أفتراهم يحسبون أنَّ الله حرّم عليهم أعراض عبادِه الأحياءِ ، وأباحَ لهم أعراض عباده الموتَى ، بعد أن أفضوا إلى ربهم بأعمالهم وغيبهم وماقدَّموا من حسنات وسيئات ؟! ألا فليعلموا أن الميت أولى بأن تكفَّ عنه ألسنة المفترين مِنَ الحيّ ، فإنه لا يدفع عن نفسه ، وليتقوا عذاب ربهم ، فإنَّ الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه ، يدفع عنه ربُّ العالمين الذى أحصى كل شيء خلَقه ثم يحكم بينهم بالعدل وهو العليم القدير .

* * *

وأعود إلى هذا الكاتب الذى طرح لسانه فى معاوية بن أبى سفيان وأبيه وأمه ، وفى عمرو بن العاص ، وفى عامة بنى أمية ، ووصفهم وصفًا آذاهم بغير ما اكتسبوا . وأنا لن أجادله فى صواب ما يدَّعى أو خطئه ، ولن أتعرض لتزييف أحكامه وأحكام أشباهه من الطاعنين بألسنتهم فى أعراض المؤمنين حتى يخرجوهم من الدين ، وينسبوهم إلى التغيير والتبديل . بل أريد أن أعرض على الناس بعض مايروى ، حتى أعرف لم ترك خبرًا وأخذ آخر ؟ ولم صدق رواية وأعرض عن أخرى ؟ ولم وضع قاعدة فى أمر ثم أغفلها فى مثله ؟

كان مما جعله من سيئات معاوية رضى الله عنه فى سياسة الحكم توليته يزيد

ابن معاوية فروى أن يزيد « كان فتى شراب ولهو يبلغ فيه إلى حدِّ التفاهة ، فيعنى بتدليل القرود وتربيتها ، أكثر مما يعنى بسياسة الحكم ومصالح الرعية ... إلى نزق وطيش وفتون » . ومن المفيد أن أنقل مع هذا أيضا قول قائل آخر فى صفة يزيد « ويزيد هذا شاب خليع لا يصلح أن يلى أمر مدرسة ابتدائية ، بله أن يقف على منبر الرسول ، ويحل مكان أبى بكر وصحبه » .

وما كنت أظن قط أن عاقلا يرتضى لنفسه مثل هذا الزلل ، فإن معاوية عند هؤلاء إنما دبر الأمر تدبيرًا هو وعمرو بن العاص وأشباههما (كما يقول) ، حتى يأخذ الخلافة فيجعلها ملكا عضوضًا لبنى أمية أو بنى عبد شمس . فالذى يفعل ذلك ، ويستخلص الملك لنفسه وأهله من جمهور أصحاب رســـول الله ﷺ ، ليقيم عرش بنى أمية على أكبر رقعة من الأرض متباعدة الأطراف ، لا يفعل ذلك إلا وهو يريد المحافظة على هذا العرش وحياطته وتدبيره حتى يصبح ملكًا متوارثًا فيما يزعمون . هذا صريح العقل فيما أظن . فهب أن معاوية رضى الله عنه كان فاسد الدين مبدلا مغيرا مفتاتًا على أهل الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، أفكان أيضا فاسد العقل والتدبير ؟ ولو كان فاسد العقل والتدبير ، فكيف استطاع أن يصل إلى حكم أهل الشام عشرين عامًا فى ولايته وعشرين أخرى فى خلافته ؟ وأى فساد فى عقل إنسان يجاهد بسوء نيته عشرين عامًا لإقامة ملك عضوض ، ثم يورث هذا الملك شابا يصفه واصف بأنه فتى لهو وشراب يبلغ إلى حد التفاهة ، يعنى بتربية القرود وتدليلها أكثر مما يعنى بسياسة الحكم ومصالح الرعية ، إلى نزق وطيش !! ويصفه آخر مثله بأنه شاب خليع لايصلح أن يلى مدرسة ابتدائية بله أن يقف على منبر الرسول (ﷺ) ، ويحل محل أبى بكر وصحبه (رضى الله عنهم) !! أليس هذا عجبًا عاجبًا ؟ ولكن لا عجب فى زماننا مع الأسف ! ولا عجب مع اللجاجة والهوى وافتراء الألسنة وتهور الأقلام ! ومن العبث عندى أن يجادل المرء أمثال هؤلاء . وسأتناول الآن كتابا للبلاذُرِى (توفى فى نحو سنة ٢٨٠) ، ويقول عنه مؤرخوه إنه كان « عالمًا فاضلا شاعرًا راوية نسابة متقنا ، وكان مع ذلك كثير الهجاء بذىء اللسان أخِذ الأعراض » . فإذا البلاذرى هذا

الذى وصفوه بما وصفوه ، يروى فى أول ترجمته ليزيد بن معاوية عن رواة وصفهم علماء الرجال بأنهم من الكذابين والوضاعين ومن المتشيعين الغلاة فيقول :

« كان يزيد بن معاوية أول من أظهر شرب الشراب ، والاستهتار بالغناء والصيد ، واتخاذ القيان والغلمان ، والتفكه بما يضحك منه المترفون ، من القرود والمعاقرة بالكلاب والديكة . ثم جرى على يده قتل الحسين وقتل أهل الحرة ، ورمى البيت وإحراقه . وكان مع هذا صحيح العقدة فيما يُروى ، ماضى العزيمة ، لايهم بشيء إلا ركبه » ثم ذكر أخبارًا فى لعبه بالقرود وشربه الخمر . ثم ذكر بعد ذلك بإسناده قال : « قال رجل لسعيد بن المسيَّب : أخبرنى عن خطباء قريش . قال : معاوية وابنه يزيد ... » . ثم روى بعد أسطر عن المدائنى عن عبد الرحمن ابن معاوية قال : قال عامر بن مسعود الجمحى : إنا لبمكة إذ مر بنا بريد ينعى معاوية ، فنهضنا إلى ابن عباس وهو بمكة وعنده جماعة ، وقد وضعت المائدة ولم يؤت بالطعام . فقلنا له : ياأبا العباس ، جاء البريد بموت معاوية . فوجم طويلا ثم قال : اللهم أوسع لمعاوية . أما والله ما كان مثل من قبله ولا يأتى بعده مثله ، وإن ابنه يزيد لمن صالحى أهله . فالزموا مجالسكم ، وأعطوا طاعتكم وبيعتكم . هات طعامك ياغلام » . ويروى أيضًا : « أن سبب وفاة يزيد أنه حمل قرده على الأتان وهو سكران ثم ركض خلفها ، فسقط ، فاندقت عنقه ، أو انقطع فى جوفه شيء » ثم يعود بعد ستين صحيفة يروى أيضًا « وكان سبب موت يزيد أنه ركض فرسا فسقط عنه وأنه أصابه قطع ، ويقال : إن عنقه اندقت » . هذا ضرب من الرواية لايشك شاك أن بعضه يناقض بعضًا فى كتاب واحد ، فابن عباس ، وهو أعلم قريش بقريش ، يقول عن يزيد إنه من صالحى أهله ، والذى يروى خبر استهتاره بالغناء والخمر والقرود ، يختم كلامه بأنه « كان مع هذا صحيح العقدة فيما يرى » أى صحيح الاعتقاد والإيمان ، وأنه كان « ماضى العزيمة لايهم بشيء إلا رَكِبه » فأين هذا من الذى استباح لنفسه أن يجعله بالغًا حد التفاهة والنزق والطيش ، ومن الذى جعله « لايصلح أن يلى أمر مدرسة ابتدائية » ؟ وأين هذان من سعيد بن المسيب ، الذى عده هو وأباه من خطباء قريش ؟ أفيكون الفتى التافه الخليع

الطياش ، خطيبًا معدودًا فى خطباء العرب ، إلا إذا كان سعيد يعد من الخطباء أولئك المتشدقين الثرثارين كخطباء عصرنا هذا !

ثم يكون ماذا إذا وجدنا من يروى كلام من يصف يزيد بما زعموه من شرب الخمر واللعب بالقرود ، ثم يعقب فيروى أن أهل المدينة لما رجعوا من عند يزيد : « مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية (وهو محمد بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما) ، فأرادوه على خلع يزيد ، فأبى عليهم ، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشربُ الخمر ، ويترك الصلاة ، ويتعدّى حكم الكتاب . فقال : مارأيتُ منه ماتذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة ، متحرِّيًا للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازمًا للسنة . قالوا : فإن ذلك كان منه تصنعًا لك . فقال : وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر إلىّ الخشوع ؟ أفأطلعكم على ماتذكرون من شرب الخمر ؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فيما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : إنه عندنا لحقٌّ وإن لم نكن رأيناه ! فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٨٦] ولست من أمركم فى شىء . قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك ، فنحن نوليك أمرنا . قال : ما أستحل القتالَ على ما تريدوننى عليه تابعًا ولا متبوعًا . قالوا : فقد قاتلتَ مع أبيك ؟ قال جيئونى بمثل أبى أقاتل على مثل ماقاتل عليه . فقالوا : فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا . قال : لو أمرتهما قاتلت . قالوا : فقم معنا مقامًا تحضُّ الناسَ فيه على القتال . قال : سبحان الله ! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ! إذنْ مانصحتُ لله فى عباده . قالوا : إذن نُكرهك ! قال : إذنْ آمُر الناسَ بتقوى الله ولا يُرضون المخلوق بسُخْط الخالق . وخرج إلى مكة » . فهذه شهادة رجُل قاتل معاوية نفسه ، وخليق أن يُعدّ عدوًّا له ولملكه فيما يزعمون .

فما الذى جعل هؤلاء يرجحون هذه الروايات عن فسق يزيد وفجوره ، على صلاح أمره وتستُّره ؟ لا أدرى !

فهذه الأخبارُ كلها موجودة مذكورة مروية فى كتب التاريخ ، فبأى حجة

يحتجُّ الآخذ فيما أخذ ، والتارك فيما ترك ؟ لست أدرى أيضًا . فإما أن يفعل هؤلاء المتدسّسون إلى التاريخ ما فعل أوائلهم من جمع الغث والسمين والصحيح والسقيم ، ثم يكفوا ألسنتهم عن المعابة والإقذاع وسوء الأدب ، وإما أن يأتوا الناس بحجة أو بيان يُرجّح أقوالهم فيما قالوا وما اختاروا من الروايات . وإلّا فإنَّ الله ربهم آخذهم فمحاسِبهم فمعطيهم نَصيبهم من العذاب الذى أنذر به من آذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا . وأنا أكتب هذا لقوم وصفتهم بأنهم يلبسون للناس ثياب الغيرة على الدين ، والحمية لماضى سلفهم . ولو كنتُ أعلم أنى أكتب للزنادقة أو للمتبرئين من دين ربهم ، لكان لما أكتب شأن آخر ، وطريق غير هذا الطريق . ومع ذلك ، فإنى سوف أرتكبُ لهم فيما بعد طريقًا أنفى به الدَّخل والفساد والتزوير فى تاريخ سلفى رضى الله عنهم وغفر لهم ماقدموا من سيئ وأثابهم بما فعلوا من صالح . ولستُ أكتب هذا دفاعًا عن يزيد ، فإن يزيد نفسه دافع يومًا ما عن نفسه فيما ترويه كتب التاريخ التى ينقلون عنها ، أو قُلْ يدلسون بالنقل عنها ، إذ سمع قالة الخارجين عليه والكارهين لخلافته أو ولايته إذ قالوا : « إنه رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعبُ بالكلاب ، ويُسامر الخرّاب والفتيان » . وبلغه أن المنذر بن الزبير ، انطلق من عنده بعد أن أكرمه وأحسن إليه ، فانحاز إليهم ، فقال بمثل قولهم فأكثر وقال : « إنه يشربُ الخمرَ ويسكرُ ، حتى يدع الصلاة » . فقال يزيد : « اللهمَّ إنى آثرته وأكرمته ففعل ما قد رأيتَ ، فاذكرهُ بالكذبِ والقطيعة » . لم يملك يَزيدُ إلّا أن يلجأ إلى ربه ليذكر هؤلاء بالكذب وقطيعة الأرحام . وماذا ينفع الدفاعُ عن النفس مع منْ لا يتورّعُ من كذب ، ولا يتجافى عن قذفِ الناس بما يعلم أنه ليس فيهم ؟

وأقول مرة أخرى أن ليس همى أن أدفع عن يزيد ، ولا أن أصحح كتابة التاريخ . ولكنى أكشف عن أصحابِ الأهواء الذين يتغلغلون بين الناس ، وينفثونَ فيهم داءَ الهوى والعصبية ، حتى يقعوا فى أعراض عبادِ الله بالمذمّة والإقذاع وبسطة اللسان ، فاتبعوا بذلك طريق الرافضة أهل الغلوّ والعداوة لأصحاب محمد

رسول الله ﷺ . فلو شاء هذا الكاتب أن يحقق معنى العدل والدينِ فيما يكتبُ ، لوجد الطريق واضحًا لا يضطرب عليه ، ولكنه ركب أهواء الرافضة حيث رَكِبوا ، فأخذ ما حمله له الهَوى من الطعن فى يزيد ليطعن أباه رضى الله عنه وغفر له ، وهو يعلم أنه أحدُ أصحاب رسول الله ﷺ . نعم ليس من أدب أهل المروءة ، ولا أقول الدين أن يؤخذ الوالد بجريرة ولده ، إلا ببينة لا تردُّ ، ولكنه فعل . لا بل فعل أيضًا ماهو أكبر من ذلك فى سبيل الطعن على رجل كان ينبغى أن يمسك لسانه عنه فى الخطأ الظاهر ، لأنه أحد أصحاب رسول رب العالمين ، فإن لم يستطع أن يمسك لسانه فليطلقه بالاستغفار لهُ كما أمره ربه أن يستغفر لأصحاب رسول الله ﷺ . نعم ليس من أمانة التاريخ فى شىء ، بل ليس من أمانة العقل فى شىء ، بل ليس من أمانة الإنسان مجردًا من كل دين يتبعُه ، أن يرفُضَ الروايات الصحيحة والأخبار المحكمة ، لخبر مجهول لم يوجد إلا فى كتاب طعَّان معروف بثلب عدوٍّ له ، ويرفضها كلها لقاعدة أقامَ عليها رفضه ، هى أن هذه الروايات الصحيحة والأخبار المحكمة إنما أشيعت بعد الظفر بالملك ، أشاعها الأنصارُ والأتباع ، كما يفعل سائر الدعاة . ثم لا يتوقى أن يكون الطعن والسلب من العدو ، هو أيضًا من إشاعة الأعداء والمفترين ، كما يفعلُ سائر الدعاة حين يريدون التشنيع على أعدائهم والوقيعة فيهم ، وصرف الناس عنهم ، وهاك المثل .

يقول هذا الكاتب : « بَقى ما اشتهر خطأ من أن معاوية كان كاتب الوَحْى لرسول الله . فالصحيح أنّ أبا سفيان حين أسلم ، رجَا النبىّ (ﷺ) فى أن يسند إلى معاوية شيئًا يعتزُّ به أمام العرب ، ويعوّض عن سُبّة التأخّر فى الإسلام ، وأنه من الطلقاء الذين لا سابقة لهم فى الإسلام ، فاستخدمه النبىُّ ﷺ فى الرسائل والحوائج والصدقات . ولم يقل أحدٌ من الثقات : إنهّ كتب للنبى شيئًا من الوحى ، كما أشاعَ أنصارُه بعد استقرار الملك ، كما يصنَعُ سائر الدعاة ! » . سبحان الله ! « لم يَقُل أحدٌ من الثِّقات » ؟ فأين الثقات الذين قالوا إنّ النبى ﷺ استخدمه « فى الرسائل والحوائج والصَّدَقات » !! وأنا لا أتعرّضُ هُنَا لفسادِ معنى هذا الكَلامِ من حيث هو كلامٌ عربىٌّ له دلالةٌ على معانيه ، بالألفاظ التى ذكرها هذا الكاتب ، بل

أكشفُ له ولغيره من أين أخذَ كلامَه ؟ ومن هو هذا « الثّقات » الذى يروى عَنْه ؟ فهذا « الثقات » رجلٌ من الرافضة كان فى زمن ابن تيمية . ألف كتابًا سمّاه « منهاج الكرامة » ، فانبرى له ابن تيمية يردّ عليه فى كتابٍ سماه « منهاج السنة » فكان ممّا نقله من نصّ كلامه (٢ : ٢٠١) « وسمّوه (يعنى معاوية) كاتب الوحى ، ولم يكتب له كلمة واحدة من الوحى ، بل كان يكتب له رسائل (وزاد كاتبنا هذا مالا نعرف معناه ، الحوائج والصدقات !!) . وقد كان بين يدى النبى ﷺ ، أربعة عشر نفسًا يكتبون الوحى ، أولهم وأخَصُّهم وأقربهم إليه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، مع أن معاوية لم يزلْ مشركًا بالله تعالى فى مدة كون النبىّ ﷺ مبعوثًا يكذّب بالوحى ويهزأ بالشرع » . ولستُ أدرى لم ترك هذا الكاتبُ سائرَ ماذكره الرافضىّ ، فيزعم أيضًا أنّ معاوية ظل مشركًا لم يؤمِنْ مدّة بعثة رسول الله ﷺ ؟ كلاّ كلاّ فلعلّه استغنى عَنْه بأن جَعَله بطريق آخر « بريئًا من الإسلام والإسلامُ برئٌ منه » !

وقد ردّ ابن تيمية فى ص ٢١٤ بقوله : « هذا قول بلا حجة ولا علم ، فما الدليل على أنه لم يكتب له ولا كلمة واحدة من الوحى ، وإنما كان يكتب له رسائل » . وأزيد أنا فأقول : أوَ من الهين عند هذا الكاتب وأشباهه أن يكتب امرؤ لرسول الله ﷺ رسائله ؟! أكان رسول الله ﷺ يملى رسائل لشغل فراغه ، وقضاء حوائجه ، ومجاذبة أصدقائه ، والتلهى بإملاء صغائر الأمور التى يتعايش بها الناس فى شئون دنياهم !! عجيب ! ولكن لا عجب فى زماننا ، ومن أين يأتى العجب ، بل كيف يطيق إنسان أن يعجب بعد أن تبلد حسه بالعجائب تترى لا تنقطع ، حتى صار المعروف منكرًا والمنكر معروفا ! وأنا لن أدلّ الكاتب على حيث قيل إن معاوية كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ . ولكنى أحب أن يأتى هو الناس « بثقات » آخر ينفى أن يكون معاوية كتب الوحى لرسول الله ، وأنه إنما كان يكتب له فى الرسائل ... والحوائج والصدقات أيضا !

وإذا كان قد استطاع بالأمانة والذمة أن يزيف قول من قال إنه كان يكتب الوحى لرسول الله ، بأن ذلك من قول أنصار معاوية أشاعوه وأذاعوا به ، أفلا

يستطيع أن يزيف ولو مرة واحدة كل ما رواه فى كتابه عن معاوية وعن أبيه ، وعن أمه ، وعن يزيد وعن بنى أمية ، وعن عمرو بن العاص ، بأنه مما أشاعه وأذاع به أعداؤهم وأعداء بنى أمية ؟ أو ليس صريح العقل يقتضى أن يكون المهزوم المقهور، أحرص على ذكر مثالب عدوه ومعايبه ، من الغالب المنصور على ذكر مناقبه وفضائله !

ألا إن هذا الكاتب وأشباهه من أصحاب الألسنة الجريئة على الحق ، يرتكب كل صعب وذلول فى سبيل تحقيق معان تدور فى نفوسهم ، لا يجدون لها متنفسًا إلا فى الهالكين الذين لا يدفعون عن أنفسهم ، وهم لا يبالون فى سبيل ذلك بتحقيق ولا علم ، ولا بتمييز صحيح من سقيم ، ولا يتخطفون من الكلام إلا ما قارب ما يريدون فى أنفسهم أن يقولوه ، ولا يعرفون للحجة حرمة ، ولا للبرهان كرامة . وهم يتناولون ما يعرضون له من تاريخ أسلافهم ، بل من أمر صحابة نبيهم ﷺ بنفس الأسلوب الذى انحدر علينا من حضارة هذا القرن ، فى أدب منازعات الصحف والأحزاب . أسلوب يراد به تحقيق معانى العداوة وتقريرها فى النفوس ، لا أسلوب تحقيق مواطن الخلاف والكشف عنها بالبيان والبرهان . وهم يريدون أن يجعلوا هذا الأسلوب علمًا وتاريخًا . بل يريدون أيضا أن يجعلوه دينًا يتدين به الناس ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

جرأة العلماء ...

دخل عمرو بن عبيد على أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وكان أعظم ملوك الدنيا فى عصره فقال :

ياأمير المؤمنين : إنّ الله عز وجل يَقفك ويُسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ؛ ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يُعدل عليك فإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل فى الرعية . ياأمير المؤمنين إن وراء بابك نيرانا تتأجج من الجور ، ووالله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ، ولا بسنة نبيه ﷺ .

* * *

أنباء وآراء

أحمد محمد شاكر
إمام المحدّثين

فى الساعة السادسة بعد فجر يوم السبت ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٣٧٧ (١٤ من يونية سنة ١٩٥٨) ، فقد العالم الإسلامى إمامًا من أئمة علم الحديث فى هذا القرن ، هو الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر ، المحدث المشهور ، وهو أحد الأفذاذ القلائل الذين درسوا الحديث النبوى فى زماننا ، دراسة وافيه ، قائمة على الأصول التى اشتهر بها أئمة هذا العلم فى القرون الأولى . وكان له اجتهادٌ عُرف به فى جرح الرجال وتعديلهم ، أفضى به إلى مخالفة القدماء والمُحْدثين ، ونصر رأيه بالأدلة البيّنة ، فصار له مذهب معروف بين المشتغلين بهذا العلم ، على قلَّتهم .

وقد تولى القضاء فى مصر أكثر من ثلاثين سنة ، فكانت له أحكام مشهورة فى القضاء الشرعىّ ، قضى فيها باجتهاده غير مقلِّد ولا متَّبع ، وكان اجتهاده فى الأحكام مبنيًّا على سعة معرفته بالسنَّة النبوية ، التى اشتغل بدراستها منذ نشأته إلى أن لقى ربه .

وهو أحمد بن محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر من آل أبى علياء ، ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب ، وأبوه الإمام العلامة الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقًا ، وجدُّه لأمّه هو العالم الجليل الشيخ هارون عبد الرازق ، وأبوه وأمه جميعًا من مديرية جرجا بصعيد مصر .

وولد الشيخ أحمد ، رحمه الله ، بعد فجر يوم الجمعة ٢٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٩ ، الموافق ٢ من يناير سنة ١٨٩٢ ، بمنزل والده بدرب الإنسية ، بقسم الدرب الأحمر ، بالقاهرة . وسمَّاه أبوه : « أحمد شمس الأئمة ،

---

* مجلة المجلة العدد ١٩ ، يوليه سنة ١٩٥٨ ، ص ١١٩ - ١٢٢

أبو الأشبال » ، وكان أبوه يومئذ أمينًا للفتوى مع أستاذه الشيخ العباسىّ المهدىّ ، مفتى الديار المصرية .

فلما صدر الأمر بإسناد منصب قاضى قضاة السودان ، إلى والده الشيخ محمد شاكر ، فى ١٠ من ذى القعدة سنة ١٣١٧ (١١ من مارس سنة ١٩٠٠) ، عقب خمود الثورة المهدية ، رحل بولده إلى السودان ، فألحق ولده « أحمد » بكلية غوردون ، فبقى تلميذًا بها حتى عاد أبوه من السودان ، وتولى مشيخة علماء الإسكندرية فى ٢٦ من أبريل سنة ١٩٠٤ ، فألحق ولده من يومئذ بمعهد الإسكندرية الذى يتولاه .

وكان السيد أحمد منذ عقل وطلب العلم ، محبًّا للأدب والشعر ، كدأب الشباب فى صدر أيامه ، فاجتمع فى الإسكندرية وأديب من أدباء زمانه فى هذا الثغر ، هو الشيخ عبد السلام الفقى ، من أسرة الفقى المشهورة بالمنوفية ، فحرَّضه على طلب الأدب ، وحرَّض معه أخاه عليًّا ، وهو أصغر منه ، وصار يقرأ لهما أصول كتب الأدب فى المنزل زمنًا طويلًا . ثم أراد الشيخ عبد السلام أن يختبر تلميذيه ، فكلفهما إنشاء قصيدة من الشعر ، فعمل علىّ ، أطال الله بقاءه ، أبياتًا ، أما أحمد فلم يستطع أن يصنع غير شطر واحد ثم عجز ؛ فمن يومئذ انصرف أخوه علىّ إلى الأدب ، وانصرف هو إلى دراسة علم الحديث بهمة لا تعرف الكلل منذ سنة ١٩٠٩ إلى يوم وفاته . ولكنه لم ينقطع قط عن قراءة الآداب : حديثها وقديمها ، مؤلفها ومترجمها ، كما سيظهر بعد من الكتب التى تولى نشرها فى حياته رحمه الله .

وكان أول شيوخه فى معهد الإسكندرية الشيخ « محمود أبو دقيقة » ، وهو أحد العلماء الذين تركوا فى حياة الفقيد أثرًا لا يمحى ؛ فهو الذى حبب إليه الفقه وأصوله ، ودرَّبه وخرَّجه فى الفقه حتى تمكن منه . ولم يقتصر فضل هذا الشيخ على تعليمه الفقه ، بل علمه أيضًا الفروسية وركوب الخيل ، والرماية والسباحة ، فتعلق السيد أحمد بركوب الخيل والرماية ، ولم يتعلق بالسباحة تعلقًا يذكر .

أما أعظم شيوخه أثرًا فى حياته ، فهو والده الشيخ محمد شاكر ؛ فقد قرأ له

ولإخوانه التفسير مرتين ، مرة فى تفسير البغوى ، وأخرى فى تفسير النسفى . وقرأ لهم صحيح مسلم ، وسنن الترمذى والشمائل ، وبعض صحيح البخارى . وقرأ لهم فى الأصول : جمع الجوامع ، وشرح الإسنوى على المنهاج ، وقرأ لهم فى المنطق : شرح الخبيصى ، وشرح القطب على الشمسية ، وقرأ لهم فى البيان الرسالة البيانية ، وقرأ لهم فى فقه الحنفية كتاب الهداية على طريقة السلف فى استقلال الرأى وحرية الفكر ، ونبذ العصبية لمذهب معين . وكثيرًا ماخالف والدُه فى هذه الدروس مذهبَ الحنفية عند استعراض الآراء وتحكيم الحجة والبرهان ، ورجح ما نصره الدليل الصحيح . وهكذا قال السيد أحمد فى ترجمة والده . وقد ظهر أثر والده هذا ظهورًا بينًا فى دراسة الشيخ أحمد للحديث ، وفى أحكامه التى قضى بها فى مدة توليه القضاء بمصر .

وكان لوالده أعظم الأثر فى توجيهه إلى دراسة علم الحديث منذ سنة ١٩٠٩، فلما كانت سنة ١٩١١ اهتم ، السيد أحمد ، بقراءة مسند أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله ، وظل منذ ذلك اليوم مشغولا بدراسته حتى ابتدأ فى طبع شرحه على المسند سنة ١٣٦٥ من الهجرة (سنة ١٩٤٦ من الميلاد) ، كما بيَّن ذلك مختصرًا فى مقدمة المسند .

ولما انتقل والده من الإسكندرية إلى القاهرة وكيلا لمشيخة الجامع الأزهر فى ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ (٢٩ من أبريل سنة ١٩٠٩) ، التحق السيد أحمد ، هو وأخوه السيد على بالأزهر ، فكانت إقامته فى القاهرة بدء عهد جديد فى حياته ، فاتصل بعلمائها ورجالها ، وعرف الطريق إلى دور كتبها فى مساجدها وغير مساجدها ، وتنقل بين دكاكين الكتبية . وكانت القاهرة يومئذ مسترادًا لعلماء البلاد الإسلامية ، وكان من التوفيق أن حضر إلى القاهرة من المغرب الأقصى السيد عبد الله بن إدريس السنوسى ، عالم المغرب ومحدثها ، فتلقى عنه طائفة كبيرة من صحيح البخارى ، فأجازه هو وأخاه برواية البخارى ، ورواية باقى الكتب الستة . ولقى بها أيضًا الشيخ محمد بن الأمين الشنقيطى ، فأخذ عنه كتاب بلوغ المرام ، وأجازه به وبالكتب الستة ، ولقى أيضًا الشيخ أحمد بن الشمس

الشنقيطى ، عالم القبائل الملثمة ، فأجازه هو وأخاه بجميع علمه . وتلقى أيضًا عن الشيخ شاكر العراقى ، وكان أسلوبه فى التحديث أن يسأله أحد طلّابه عن مسألة ، فيروى عندئذ كل ما ورد فيها من الأحاديث فى جميع كتب السنَّة بإسنادها ، مع بيان اختلاف روايتها . فأجازه وأجاز أخاه عليًا بجميع كتب السنة . ولقى أيضًا فى القاهرة من علماء السنة الشيخ « طاهر » الجزائرى عالم سورية المنتقل ، والسيد « محمد رشيد رضا » ، صاحب المنار ، ولقى كثيرًا غير هؤلاء من علماء السنة ، يطول ذكرهم بالتفصيل .

وهذا اللقاء المتتابع للعلماء ، هو الذى مهَّد لهذا العالم أن يستقلّ بمذهب فى علم الحديث ، حتى استطاع أخيرًا أن يقف فى منتصف هذا القرن علمًا مشهورًا لا ينازعه فى إمامة التحديث إلّا قليل .

* * *

ولما حاز شهادة العالمية من الأزهر فى سنة ١٩١٧ ، عُين مدرسًا بمدرسة ماهر ، ولكن لم يبق بها غير أربعة أشهر ، ثم عين موظفًا قضائيًا ثم قاضيًا ، وظلّ فى القضاء حتى أحيل إلى المعاش فى سنة ١٩٥١ عضوًا بالمحكمة العليا ، ولكنه لم ينقطع فى خلال ذلك عن دراساته ، وعن المشاركة فى نشر التراث الإسلامى ، فى الحديث والفقه والأدب .

وأول كتاب عرف به الشيخ أحمد محمد شاكر ، وعرف به إتقانه وتفوُّقه ، هو نشره رسالة الإمام الشافعى ، عن أصل تلميذه الربيع بن سليمان ، الذى كتبه بخطه فى حياة الشافعى من إملائه . ونشره رسالة الشافعى يُعَدُّ من أعظم الآثار التى تولى العلماء نشرها فى هذا العصر .

ثم شرح سنن الترمذى شرحًا دقيقًا ، ولكنه لم يتمّه ، وشارك فى نشر شرح « سنن أبى داود » ، ونشر كتاب جماع العلم للشافعى ، وشارك أيضًا فى نشر المحلى لابن حزم ، وشرح صحيح ابن حبّان ، ولم ينشر منه غير الجزء الأول .

* * *

أما عمله الذى استولى به على الغايات فهو شرحه على مسند أحمد بن

حنبل ، أصدر منه خمسة عشر جزءًا فيها من البحث والفقه والمعرفة مالم يلحقه فيه أحد فى زمانه هذا .

ونشر من كتب الأدب والشعر ، كتاب لباب الآداب لأسامة بن منقذ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والمفضَّليات للمفضل الضبىّ ، والأصمعيات للأصمعى ، وشاركه فى نشرهما ابن خاله الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، ونشر كتاب المعرَّب للجواليقى نشرًا علميًّا دقيقًا .

وشارك أخاه الأستاذ « محمود محمد شاكر » فى نشر تفسير الطّبرىّ ، فتولى جزءًا من تخريج أحاديثه إلى الجزء التاسع ، وعلق على بعضها إلى الجزء الثالث عشر ، ثم وافته منيَّته ، ولم ينظر بعد فى أحاديث الجزء الرابع عشر .

* * *

وكان قبل وفاته ، رحمه الله ، قد شرع فى اختصار تفسير القرآن لابن كثير ، وسمَّاه « عمدة التفسير » ، وصل فيه إلى الجزء الخامس من عشرة أجزاء . وقد قصد فيه الإبانة عن معانى القرآن ، بما يوافق حاجة المتوسطين من المثقفين ، مع المحافظة على ألفاظ المؤلف ما استطاع .

أما سائر الكتب التى تولى نشرها فهى كثيرة يطول ذكرها . وله فى جميع ما نشره وألَّفه تعليقات دافع فيها عن أحكام الإسلام وآدابه دفاعًا تفرَّد به ، ونطق فيه بالحق الذى يراه ، غير متهيب ولا متلجلج .

وأما أهم ما ألفه فهو كتاب نظام الطلاق فى الإسلام دلّ فيه على اجتهاده وعدم تعصبُّه لمذهب من المذاهب ، واستخرج فيه نظام الطلاق من نصّ القرآن ، ومن بيان السنَّة فى الطلاق ، وكان لظهور هذا الكتاب ضجة عظيمة بين العلماء ، ولكنه دافع فيها عن اجتهاده دفاعًا مؤيدًا بالحجة والبرهان ، ومن قرأ الكتاب عرف كيف يكون الاحتجاج فى الشريعة ، وظهر له فضلُ هذا الرجل وقدرته على ضبط الأصول الصحيحة ، وضبط الاستنباط فيها ضبطًا لايختل .

فرحم الله فقيدنا ، وبعث فى هذه الأمة من يخلفه للنهوض بما ابتدأه .

* * *

« قُرَىً عَرَبِيَّة »

كلمة تقديم لعلامة الجزيرة المرحوم الشيخ حمد الجاسر

[بلية البلايا فى تراثنا القديم ، التصحيف ، وخاصة فى أسماء المواضع ، حيث لا توجد قرينة فى الكلام توضح الوجه الصحيح ، ولا أستثنى من ذلك سوى ما استثناه الله جل وعلا وهو القرآن الكريم ، حيث قال جل ذكره : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فحفظه الله من كل ما قد يؤثر فى بقائه على أصله الصحيح ، الذى أنزله عليه .

أما ما عداه - مما لا يتصل بأصول الدين الحنيف - فحسب الباحث أن يرجع إلى أى كتاب من الكتب القديمة ، ليرى العجب العجاب من بلايا التصحيف فى أسماء المواضع ، ففى « صحيح البخارى » - وهو أصح كتاب بعد كتاب الله ، أشياء من ذلك يجدها الباحث فى اختلاف رواة ذلك الكتاب العظيم فى اسم « العشيرة » الموضع الذى غزاه المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، وفى غيره من المواضع ، وفى كتب سيرته ﷺ لابن إسحاق ، بتهذيب ابن هشام ، و« طبقات ابن سعد » وغيرهما من المؤلفات ، مما نكتفى بالإشارة إليه ، إذ لا يتسع المجال للحديث عنه . وحسب القارىء أن يطلع على بحث أستاذنا العلامة الجليل أبى فهر ، محمود بن محمد بن شاكر ، هذا البحث الذى نقلل من قيمته حينما نقدمه للقارىء - حسبه أن يطلع على هذا البحث الممتع حقًّا ، ليدرك كيف يسير بعض علمائنا - قدس الله أرواحهم - فى بيداء من الأوهام والحيرة ، من جراء ذلك الداء الوبيل ، داء التصحيف والتحريف ! وهم - أعلى الله ذكرهم فى منازل الأبرار من عباده - لا يضيرهم أن يوصفوا بعدم الإحاطة ، ولايضرهم أن لا يوصفوا بأكثر مما يتصفون به من علم غزير ، وخلق سام كريم ، يتلاءم مع ما وهبهم الله ، وما وصفهم به ، لأنهم أرفع قدرًا ، وأعلى مكانة من أن

* مجلة العرب ، الجزء التاسع - السنة الثانية ، ربيع الأول ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م . ص ٧٦٩ -

تبلغ بهم مطامح النفس ، ومطامع الترفع إلى بلوغ منازل أخرى ، لا ينقص من أقدارهم عدم بلوغها ، ولا يسمو بغيرهم أن ينالوها ، سموًا لا يبلغ درجة التفاضل ، ومعاذ الله أن يوجد بين أمة تدين بهذا الدين الكريم ، ممن يؤمن حق الإيمان بما قاله نبينا ، عليه أزكى الصلاة والتسليم ، ومن ذا الذى لا يؤمن بقوله ، وهو الصادق الأمين : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

وإنما الفهم موهبة إلهية ، حباها الله أناسًا قد تبلغ منزلتهم منها من السمو والرفعة أعلاها ؛ وإن لم يبلغوا فى الفضل منزلة من فضلهم الله ، لسابقتهم فى الإسلام . وبمنزلتهم منه ، قال جل ذكره : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ .

وقديمًا قالوا : كم ترك الأول للآخر !] [(١)]

حمد الجاسر

قرى عربية

١ - « قُرَى عَرَبيةَ » ، اسم موضع فى بلاد العرب ، يأتى فى بعض الكتب المطبوعة والمخطوطة مصحَّفًا . فهو فى أكثر المواضع « قُرَى عُرَنية » ، وفى مكان آخر « قُرَى عُيَيْنَة » ، ومن قديم الاختلاف فى ضبطه أيضًا « قُرى عَرَبيَّةٌ » بالتنوين ، أو « قُرى عَرَبيَّة » بالإضافة وترك التنوين ، أما الإشكال الأكبر فهو فى تحديد مكان « قُرَى عرَبيَّةَ » وعلى أى شىء يدلّ اسم هذا المكان ؟

* * *

٢ - فأبو عبيدٍ البكرىُّ فى « معجم ماستعجم » (٩٣١ - ٩٣٢) ، لم يزد بيانُه على أنه قُرَى بالحجاز معروفة ، ثم استدلّ ببعض الأخبار والآثار التى ستأتى (رقم : ١٠ ، ١٥ ، ٢٣) .

* * *

---

(١) أقول : هذا عجز بيت لأبى تمام وصدره :

* يقول مَن تَقْرَعُ أَسْماعَهُ *

٣ - وأما ياقوت فلم يذكر لها مادة فى معجم البلدان ، ولكنه ذكر مادة « عُرَيْنَة » وقال : « بلفظ تصغير عُرنَة » ، ثم قال : « وعرينة ، موضع ببلاد فَزَارة . وقيل : قُرَى بالمدينة . و « عُرَيْنَة » قبيلة من العرب » . ولكن نقل بعد ذلك نصًّا سيأتى (رقم : ٢٠) وذكر فيه « قُرى عربيَّةَ » وأنه مضبوطٌ بخط العبدرىّ فى فتوح الشام ، بفتح العين والراء ، والباء الموحدة ، وياء مشددة « قُرَى عَربيَّةَ » ولم يزد على ذلك شيئًا .

* * *

٤ - أما السمهودىّ ، فقد جاء بالطامّة فى كتابه « وفاء الوفا » ، ففى الفصل الثامن من الباب السابع من كتابه ، حيث ذكر بقاعَ المدينة وأعراضها مرتبة عَلى حروف المعجم ، ما نصه : « عُرَينة ، كجهينة ، قرى بنواحى المدينة فى طريق الشأم » .

- وعن مُعاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله ﷺ على قُرَى عُرَينة ، فأمرنى أن آخذ حَظَّ الأرض (انظر ما سيأتى رقم : ٥ و ٦) .

- وقال الزهرى ، قال عمر : « ما أفاء الله على رسوله » هذه لرسول الله ﷺ خاصةً قُرى عُرينَة ، وفَدَك وكذا وكذا (انظر ما سيأتى رقم : ٧ - ١٠) .

- ووُجِدَ على حجر بالحِمَى كما سبق [١] : « أنا عبد الله الأسود ، رسولُ عيسى ابن مريم إلى أهل قُرى عُرينة » .

وسيأتى ما يدلّ على تصحيفه فى الخبرين الأولين . أما الخبر الثالث الذى أشار إليه فهو فى كتابه فى الفصل الأول من الباب الثالث ، وسأذكر مكانًا آخر وقع فى كتابه ذكر « قُرى عُرَينة » (رقم : ٤٣) .

* * *

ولكى أصل إلى الفصل فى أمر « قُرى عربيَّة » أسوق الأخبار التى وقفت عليها فيما بين يدىّ من الكتب .

٥ - روى يحيى بن آدم فى كتاب الخراج ص : ٦١٩ - ٦٢٢ :

- (٦١٩) قال يحيى ، قلت لشريك : ذكرت عن جابر عن محمد بن زيد ،

---

(١) لم يسبق ذكر ذلك .

عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى قُرَى عربيَّةَ أقاسمهم حظّ الأرض . قال : قد ذُكِر ذلك .

– (٦٢٠) حدثنا يحيى قال ، حدثنا أبو حماد الحنفى ، عن جابر ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن محمد بن زيد ، عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى قُرَى عربيَّةَ ، وأمرنى أن آخذ حظَّ الأرض .

– (٦٢١) حدثنا الأشجعى ، عن سفيان بن سعيد ، عن جابر ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن محمد بن زيد ، عن مُعاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى قرى عَرَبيّة ، وأمرنى أن آخذ حظَّ الأرض ، قال الأشجعى : قال سفيان : الثُّلث والرُّبُع .

– (٦٢٢) حدثنى ابن مبارك ، عن معمر ، عن أيوب ، عن سعيد بن جبير فى قوله « قُرًى ظاهِرَة » (سورة سبأ : ١١٨) قال : قُرَى عَرَبيَّةَ – قال يحيى : وأما « قُرَى عربيَّةَ » فإنه يعنى أرضًا بعينها يقال لها « قُرى عَربيَّةَ » (انظر ما سيأتى رقم : ١٣) .

* * *

٦ – وروى أحمد فى مسند معاذ بن جبل من المسند (٥ : ٢٢٨ / ثم ٥ : ٢٤٤) قال :

– حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن جابر ، عن محمد بن زيد ، عن معاذ قال : بعثنى رسول الله ﷺ على قُرَى عَربيَّةَ ، فأمرنى أن آخذ حظّ الأرض – وقال عبد الرزاق : يعنى : عن سفيان ، عن جابر ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن محمد بن زيد ، فى حديث معاذ (ص : ٢٢٨) .

– حدثنا عبد الرزاق ، أنا سفيان ، عن جابر ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن محمد بن زيد ، عن معاذ قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى قُرى عربية فأمرنى أن آخذ حَظَّ الأرض – قال سفيان : حَظُّ الأرض الثُّلث والربع (ص : ٢٤٤) .

* * *

٧ – وقال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الأموال : ٩ « وأما فَدك فإن إسماعيل بن إبراهيم حدثنا ، عن أيوب ، عن الزُّهرى فى قوله : ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ

عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [سورة الحشر : ٦] فقال : هذه لرسول الله خاصة ، قرى عربية ، فدك وكذا وكذا .

قال أبو عبيد : وهى فى العربية « قرًى عربيةٌ » بتنوين ، إلا أن يكون كما قالوا « دارُ الآخرة » و « صلاة الأولى » ، والمحدِّثون يقولون : « قرى عربية » بغير تنوين (انظر ما سيأتى رقم : ٢٣ ، ٢٤) .

* * *

٨ - وروى البلاذرى فى فتوح البلدان : ٣٩

- حدثنا سريج بن يونس قال ، أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن الزهرى فى قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [سورة الحشر : ٦] ، فقال : هذه قرى عربية ، لرسول الله - ﷺ - ، فدَك وكذا وكذا .

* * *

٩ - وقال ابن أبى حاتم فى آداب الشافعى : ١٤٦

- قال الزهرى ، قال عمر ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [سورة الحشر : ٦] ، فهذه لرسول الله ﷺ خاصّة ، قرى عربية ، وفدك وكذا وكذا .

(سنن أبى داود ، فى صفايا رسول الله ﷺ ٣ : ١٩٥ رقم : ٢٩٦٦ ، ومعالم السنن للخطابى ٣ : ١٧ ، ومختصر السنن لابن القيم ٤ : ٢١٤ ، وسنن النسائى الخبر بطوله ٧ : ١٣٦ ، ١٣٧) .

* * *

١٠ - ونقل البكرى فى معجم ما استعجم : ٩٢٩

- من حديث الزهرى قال ، قال عمر فى قول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [سورة الحشر : ٦] قال هذه لرسول الله ﷺ خاصة قرى عربية ، وفدك وكذا وكذا - وهى قرى بالحجاز معروفة .

* * *

١١ - وروى الطبرىّ فى تفسيره (٢٨ : ٢٤ بولاق) :

- حدثنى محمد بن سعد قال ، حدثنى أبى قال : حدثنى عمى قال : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [سورة الحشر : ٦] . قال : أمر الله عزّ وجل نبيّه بالسَّير إلى قُريظة والنضير ، وليس للمسلمين يومئذ كثيرُ خيلٍ ولا ركاب ، فجعل رسول الله ﷺ يحكم فيه ما أراد ، ولم يكن يومئذ خيلٌ ولا ركاب يوجَف بها : قال : « والإيجاف » أن يوضعوا السير - وهى لرسول الله ﷺ فكان من ذلك خيبر ، وفدك ، وقُرَى عربيَّةَ ، وأمر الله رسوله أن يُعِدَّ لينبع .

- وخرَّجه السيوطى فى الدر المنثور : ٦ : ١٩٢ ، بمثله من طريق ابن مردويه عن ابن عباس ، ولم ينسبه للطبرىّ .

* * *

١٢ - ووجدت فى مختصر المزنىّ بهامش الأم للشافعى (٣ : ١٨٠) :

- « والفىء هو ما لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت سنّة رسول الله ﷺ فى « قُرى عربيّة » أفاءها الله عليه ، أربعة أخماسها لرسول الله ﷺ خاصةً دون المسلمين .

- وفيه أيضًا (٣ : ١٨٣) :

- وفُتح فى زمان رسول الله ﷺ فتوحٌ من قُرَى عربيّةَ وعدها الله رسوله قبل فتحها .. » .

إلا أن رسم الكلمة فى كتاب « الأم » من هذه الطبعة ، فى باب « جماع سنن قسم الغنيمة والفىء » ، هو :

- « قُرى عُرَينة » ، وذكر الشافعىّ أنها هى التى أفاء الله على رسوله ، وأنها خاصة لرسول الله ﷺ دون المسلمين (الأم ٤ : ٦٤) .

- ثم جاء فى الأم (٤ : ٦٤) « وقد كان فى زمان النبى ﷺ فتوح فى غير « قُرَى عُرَينة التى وعدها الله رسوله ﷺ قبل فتحها ... » .

- ثم قال « وقد كان فى زمان النبى ﷺ فىء من غير قُرى عُرينةَ ، وذلك مثل جزية أهل البحرين » .

- وهذا الذى جاء فى متن كتاب الأم للشافعى ، يصحِّحه ما جاء فى مختصر المزنى من نفس الطبعة ، ويزيد تصحيفه ثبوتًا ، ماذكره ابن أبى حاتم فى كتاب آداب الشافعى ومناقبه كما سلف (رقم : ٩) ، وكما سيأتى (رقم : ٢١) ، وسائر الأخبار فى تفسير آية « الفىء » (انظر رقم : ٧ - ١١) .

* * *

١٣ - وقال الطبرىّ فى تفسيره (٢٢ - ٥٨ بولاق) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ [سبأ : ١٨] :

- يعنى قُرى مُتَّصلة ، وهى قُرى عَرَبيَّة .

- حدثنى محمد بن سعد قال ، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى عن أبيه ، عن ابن عباس قوله : « قرى ظاهرة » يعنى : قرى عربية بين المدينة والشام .

- حدثت عن الحسين قال : سمعت أبا معاذ يقول ، أخبرنا عبيد قال ، سمعت الضحاك يقول فى قوله تعالى : ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ يعنى : قرى عربية ، وهى بين المدينة والشام (انظر ما سلف رقم : ٥ ، من حديث يحيى بن آدم فى كتاب الخراج ، فى تفسير الآية عن سعيد بن جبير أيضًا) .

- ونقل هذا ابن كثير فى تفسير هذه الآية ، ثم عقب بقوله : « قرى ظاهرة » أى بيِّنة يعرفها المسافرون ، يقيلون فى واحدة ، ويبيتون فى أخرى .

* * *

١٤ - وروى أبو جعفر الطبرى فى تفسيره (٦ : ٥٠٧ ، رقم : ٧٢٣٣ ، من طبعة دار المعارف) .

- حدثنا محمد بن الحسين قال ، حدثنا أحمد بن المفضل ، حدثنا أسباط ، عن السدى : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٧٢] كان أحبار

قرى عربية اثنى عشر حبرًا ، فقالوا لبعضهم : ادخلوا فى دين محمد أول النهار ، وقولوا : نشهد أن محمدًا حق صادق ، فإذا كان آخر النهار فاكفروا ..

– وخرجه السيوطى فى الدر المنثور (٢ : ٤٢) من طريق ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وفيه « قرى عربية » أيضًا .

– إلا أن البغوى نقل فى تفسيره بهامش ابن كثير (٢ : ١٦٥) :

– « قال الحسن ، وقتادة ، والسُّدى : « تواطأ اثنا عشر حبرًا من يهود خيبر وقرى عيينة .

– وهذا تصحيف غريب جدا ، ولكنه غير مستنكر على مطبوعة المنار من هذين التفسيرين ، ولم يأت ذلك فى كتاب آخر وقفت عليه .

بيد أن ما أتى به البغوى ، ساق إلينا فائدة جليلة ، بزيادته ذكر « خيبر » فى هذا الأثر .

* * *

١٥ – وفى التاريخ الكبير للبخارى (٢٣٧/١/٢) :

– « قال أحمد بن سليمان ، أخبرنا حسين بن إسماعيل قال ، حدثنى درباس وعمرو ، ابنى دَجاجة ، عن أبيهما : أنه خرج فإذا عثمان ، فقال عثمان : لا يسكن قرى عربية ديناان » .

– رواه ابن أبى حاتم مختصرًا فى الجرح والتعديل ٤٤١/٢/١ ، ونقله البكرى فى معجم ما استعجم : ٩٣٠ .

* * *

١٦ – وفى المحبَّر لابن حبيب : ١١٥ :

– « ثم سنة سبع ، فيها خرج ﷺ فى المحرّم إلى خيبر ، فحاصرهم بضعة عشر يومًا ، وارتحل منها إلى قرى عربية ، فلم يلق كيدًا » .

* * *

١٧ – وفى المحبر أيضًا : ١٢٦ :

- « أنه ﷺ ولّى الحكم بن سعيد بن العاص على قرى عربية » (انظر رقم : ٤٨) .

* * *

١٨ - وفى جوامع السير لابن حزم : ٢٤ (والتعليق عليه ص : ٤٥٨)

- (أن رسول ﷺ) ولّى الحكمَ بن سعيد بن العاص بن أمية على قرى عُرينة ، وهى فدكُ ، وغيرها . (انظر رقم : ٤٨) .

- وهذا تصحيف ، يدلُّ عليه مابعده وما قبله ، وسائر الأخبار فى أمر فدك .

* * *

١٩ - وذكر ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب : ٧٣ ، الحكم بن سعيد قال : (ولاّه عليه السلام قُرى عَرَبية) (انظر رقم : ٤٨) .

* * *

٢٠ - وقال ياقوت فى معجم البلدان ، مادة (عرينة) .

- (وقرأت بخط العبدرىّ فى فتوح الشأم لأبى حذيفة بن معاذ بن جبل (الصواب : عن معاذ) قال فى كلام له طويل : (واجتمع رأى الملأ الأكابر منّا أن يأكلوا قرى عربية ويعبدوا الله حتى يأتيهم اليقين) .

- وقال فى موضع آخر ، فى بعثة أبى بكر عمرو بن العاص إلى الشأم ممدًّا لأبى عبيدة : وجعل عمرو بن العاص يستنفر من مرّ به من البوادى وقرى عربية .

- قال ياقوت : ضبط فى الموضعين بفتح العين والراء ، والباء الموحدة وياء مشددة) .

* * *

٢١ - وقال ابن أبى حاتم فى كتاب آداب الشافعى ومناقبه : (١٤٥)

- عن الربيع بن سليمان قال ، قال الشافعى ، وذكر (القرى العربية فقال : كانت اليهود فى قرى العرب ، والعرب حولهم ، وهى فدك وخيبر وهى قرى اليهود بنوها فى بلاد العرب ، وهى أشراف [١] بلاد العرب ، لأن العرب بعيدة المطلب .

(١) يأتى تفسير « أشراف بلاد العرب » فى رقم : ٤١ .

– قال عبد الرحمن بن أبى حاتم : يعنى القرى التى أفاء على رسول الله ﷺ بلا خيل ولا ركاب (انظر ما سلف : ٧ – ١٢) .

٢٢ – ونقل البكرى فى معجم ما استعجم : ١٥ ، عن يعقوب بن السكيت ، عن الأصمعى :

– وقرى عربية ، كل قرية فى أرض العرب ، نحو خيبر ، وفدك ، والسوارقية [1] ، وما أشبه ذلك ..

* * *

٢٣ – وقال الزبيدىّ فى طبقات النحويين واللغويين : ١٤٩ ، فى ترجمة قتيبة النحوىّ :

– (وحدثنا محمد بن موسى بن حماد قال ، حدثنى سليمان بن أبى شيخ الخزاعى قال ، حدثنا أبو سفيان الحميرىّ قال : قال أبو عبد الله كاتب المهدى (صوابه : أبو عبيد الله) : (قرَى عربيةٌ) فنوّن ، فقال : شبيب بن شيبة ، إنما هى (قُرى عربيةَ) غير منونة . فقال أبو عبد الله (أبو عبيد الله) لقتيبة النحوى الجعفى الكوفىّ : ما تقول ؟ فقال : إن كنت أردت القرى التى بالحجاز يقال لها (قرَى عربيةَ) فإنها لا تنصرف ، وإن كنت أردت قرى من قرى السواد ، فهى تنصرف . فقال : إنما أردت التى بالحجاز . قال : هو كما قال شبيب) .

– وهذا الخبر نقله البكرى بنصه فى معجم مااستعجم : ٩٣٠ ، ونقله السيوطى مختصرًا فى بغية الوعاة فى ترجمة (قتيبة الجعفى) (انظر ما سلف رقم : ٧) .

* * *

٢٤ – وقال البكرى فى « معجم ما استعجم » : ٩٢٩

---

(١) السوارقية : لاوجه لذكرها فى « قرى عربية » فهى تقع جنوب المدينة . ولا صلة لها بالقرى التى ذكرت هنا ، هكذا علّق الشيخ حمد الجاسر رحمه الله . وانظر كلام الأستاذ شاكر رحمه الله على السوارقية فى رقم ٤١ الآتى .

– (قرى عربية) على الإضافة لا تنصرف ، منسوبة إلى العرب (انظر ما سلف رقم : ٧) .

* * *

٢٥ – وذكر ابن خرداذبه فى « المسالك والممالك » : (١٢٨ ، ١٢٩) أعراض المدينة ، فعدَّها (وقد اختصرت كلامه) ، ومثله فى (الأعلاق النفيسة) لابن رسته : ١٧٧ :

(تيماء ، وهى بين الشأم والحجاز ، ودومة الجندل ، وهى من المدينة على ثلاث عشرة مرحلة ، والفرع ، وذو المروة ، ووادى القرى ، ومدين ، وخيبر ، وفدك ، وقرى عربية ، والوحيدة ، ونمِرة ، والحديقة) .

* * *

٢٦ – وفى النبذ الملحقة بالمسالك والممالك ، من كتاب الخراج لقدامة (ص : ٢٤٨) :

– وأعراض المدينة وأعمالها وعماراتها : ظبية (فى الأصل طيبة) ويثرب ، وتيماء ، ودومة الجندل ، والفرع ، وذو المروة ، وادى القرى ، مدين ، خيبر ، فدك ، قرى عربية ، ساية ، رهاط ..) ثم انظر ما سيأتى من رقم : ٤٨ ، إلى رقم : ٥٣) .

* * *

٢٧ – وبيّنٌ من هذا الذى جمعته أن (قرى عُرَيْنة) لم ترد على هذا الوجه مضبوطة إلا فى كتاب وفاء الوفا للسمهودى (انظر رقم : ٤) واستدلّ على ذلك بخبر معاذ بن جبل (رقم : ٥ ، ٦) وخبر الزهرى فى الفىء (رقم : ٧ – ١٠) .

والخبر الأول رواه يحيى بن آدم ، من طرق ، ورواه أحمد أيضًا من طريقين ، وهو ثابت فى المطبوع والمخطوط من أصولهما (قرى عربية) (لا عرينة) وزاد يحيى بن آدم ما يؤكد ذلك ، بخبره الذى رواه عن سعيد بن جبير (رقم : ٦٢٢) فى تفسير قوله تعالى : ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ ، فجاء مطابقًا لما رواه الطبرى فى تفسير هذه الآية من طريقين آخرين (رقم : ١٣) ، وهو ثابت على هذا الوجه فى الطبرى المطبوع والمخطوط .

- وأما الخبر الثانى من الزهرى ، فهو (قرى عربية) فى كتاب الأموال لأبى عبيد ، وفى فتوح البلدان للبلاذرى ، وفى آداب الشافعى لابن أبى حاتم ، وفى معجم ما استعجم للبكرى ، وفى تفسير الطبرى ، وفى الدر المنثور ، وفى مختصر المزنى ، ويزيده ثبوتًا تعقيب أبى عبيد عليه (رقم : ٧) بقوله : (هى فى العربية (قرى عربية) بتنوين ، والمحدِّثون يقولون (قرى عربية) بغير تنوين ، فلو كانت (قرى عرينة) لم يكن لها سوى وجه واحد ، وهو بالإضافة وترك التنوين ، ويزيده ثبوتًا مرة أخرى إتيان ابن أبى حاتم به ، بعقب ما نقله عن الربيع بن سليمان عن الشافعى فى تفسير (القرى العربية) وهى التى بناها اليهود فى بلاد العرب ، وأنها هى التى أفاء الله على رسوله ﷺ (رقم : ٢١) .

فبان بهذا أن السمهودى قد صحّف أو نقل عن كتاب مصحف لا خير فيه ، ثم ضبط هذا الضبط (قرى عرينة) ، كجهينة ، من عند نفسه ، لا عن أصل صحيح أو رواية ثابتة .

* * *

٢٨ - أما ياقوت فى معجم البلدان (رقم : ٣) ، وأظن السمهودى قد نقل عنه ، فإنه أغمض فى كلامه إذ قال : (وعرينة ، موضع ببلاد فزارة ، وقيل قرى بالمدينة . وعرينة قبيلة من العرب) ، فهو لم يصرّح بذكر (قرى عرينة ، بل أتى فى نفس المادة بعقب هذا الكلام بأنه رآها (قرى عربية) مضبوطة بخط العبدرى فى فتوح الشأم (رقم : ٢٠) فقد أبرأ الرجل ذمته ، ودلَّ على توقفه وتشككه .

* * *

٢٩ - وأقدم ضبط فى هذه الأخبار ، هو ماجاء فى خبر أبى عبيد الله كاتب المهدى ، وشبيب بن شيبة وقتيبة النحوى الجعفى الكوفى (رقم : ٢٣) ، ونقله البكرى فى معجم ما استعجم ، والسيوطى فى بغية الوعاة ، فأبو عبيد الله معاوية ابن عبد الله بن يسار الأشعرى ، كاتب المهدى ، ولد سنة ١٠٠ ، وتوفى سنة ١٧٠ ، وشبيب بن شيبة المنقرى توفى سنة ١٦٢ . وهو خبر يقوم على الاختلاف فى تنوين (قرى عربية) وترك تنوينها ، على نحو ما كان من كلام أبى عبيد فى الأموال (رقم : ٧) . وقد بنيت أنه لا وجه للاختلاف إذا كانت (قرى عرينة)

كما أسلفت (رقم : ٢٧) ، هذا على أن أبا عبيد القاسم بن سلام قديم أيضًا ، فقد ولد سنة ١٥٤ وتوفى سنة ٢٢٤ .

٣٠ – ويلى ذلك فى الصحَّة والقدم ، مع وضوح الضبط ، ما رواه ابن أبى حاتم عن الشافعى (ولد سنة ١٥٠ ، وتوفى سنة ٢٠٤) فى تفسير (قرى عربية) (رقم : ٢١) ، ودلَّ بذلك على أنها منسوبة إلى العرب ، كما قال البكرى فى صدر كلامه عن (قرى عربية) (رقم : ٢٤) ، وزاد أيضًا أنها لا تنصرف ، نفيًا لقول من يقول (قرى عربية) مصروفة ، منونة .

* * *

٣١ – ويلى هذا ، على تأخره ، ما رآه ياقوت مضبوطًا بخط العبدرى فى فتوح الشام ، إذ قال فى مادة (عرينة) (رقم : ٢٠) ، بعد الخبرين اللذين ساقهما : ضبط فى الموضعين بفتح العين والراء ، والباء الموحدة ، والياء المشددة) .

* * *

٣٢ – وإذن ، فإجماع هذه النصوص كلها ، مما نشر مطبوعًا عن أصوله الصحيحة أو السقيمة ، على أنها (قرى عربية) ثم تظاهُرُ الأدلة على أن (قرى عربيةَ) نسبة إلى (العرب) ، ثم وضوح الدلالة على أنها لو كانت (قرى عرينة) فلا وجه للكلام فى تنوينها وترك تنوينها كل ذلك قاطع على أن الصواب (قرى عربية) غير مصروف ، وأن ما جاء فى كتاب السمهودى وهم امرىء مصحّف غير ضابط ، وقاطع أيضًا على أن ماجاء فى نص الأم المطبوع (رقم : ١٢) وفى جوامع السير لابن حزم (رقم : ١٨) ، وفى تفسير البغوى بهامش تفسير ابن كثير (رقم : ١٤) ، بلفظ (قرى عيينة) ، كل ذلك تصحيف لا خير فيه ، وثبت أنها (قرى عربية) لا غير .

* * *

٣٣ – ولكن يبقى إشكال آخر ، هو ما يدل عليه (قرى عربية) فإن كتاب ياقوت ، وكتاب البكرى ، وكتاب السمهودى ، وكتاب ابن خرداذبه ، لا تكاد

تأتي بشيء شافٍ يحدد رسم (قرى عربية) من أعراض المدينة ، والأخبار تأتينا أيضًا بشيء لا يكاد يعتمد عليه فى تحديد موقع ما يسمى (قرى عربية) فمن أجل ذلك آثرت أن آخذ دلالة الأخبار خبرًا خبرًا ، حتى أرى ما يُفضى إليه الرأى فى تحديد مدلول (قرى عربية) .

* * *

٢٤ - فأول شيء خبر الفيء ، فالذى فى كتاب الأموال (الخبر : ٧) ، والبلاذرى فى فتوح البلدان (رقم : ٨) فتفسير (قرى عربية) فيهما أنها (فدك ، وكذا وكذا) ومثلهما ما جاء فى جوامع السير (رقم : ١٨) .

فهذه الأخبار دالة على أن (قرى عربية) ، كانت تطلق على فدك ، وقرى أخرى غيرها ، وهى التى أفاء الله على رسوله خاصة دون المسلمين .

* * *

٣٥ - ولكن خبر الفيء نفسه روى بزيادة « واو » تجعل الأمر مختلفًا بعض الاختلاف ، وذلك ما رواه ابن أبى حاتم (رقم ٩) ، وما نقله البكرى (رقم : ١٠) ففيهما أن الفيء : (قرى عربية ، وفدك وكذا وكذا) وهذه الزيادة إن لم تكن خطأ فى أصل هذه الكتب ، فهى دالة على أن (قرى عربية) موضع بعينه غير فدك .

ويعضد ذلك ما جاء فى خبر الطبرى (رقم ١١) فى شأن الفيء أيضًا : (فكان من ذلك خيبر ، وفدك ، وقرى عربية) . ويعضده مرة أخرى ما ذكره ابن خرداذبه ، عند ذكر أعراض المدينة (رقم : ٢٥) وقدامة أيضًا (رقم : ٢٦) ، فقالا : (... خيبر وفدك وقرى عربية) .

- ويعضده أيضًا ما رواه أبو جعفر بن جرير فى تفسير آية الفيء (٢٤:٢٨ بولاق) قال :

- حدثنا ابن عبد الأعلى قال ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الزهرى فى قوله : ﴿ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [سورة الحشر : ٦] قال : صالح النبى ﷺ أهل فدك ، وقرى قد سماها لم أحفظها ، وهو محاصر قومًا آخرين ، (يعنى محاصرة خيبر ، كما فى رقم : ١٦) ، وأرسلوا إليه بالصلح . قال : ﴿ أَوْجَفْتُمْ

عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ، يقول : بغير قتال ، قال الزهرى : فكانت بنو النضير للنبى خالصة لم يفتحوها عنوة بل على صلح » .

وقوله : (وقرًى قد سماها لم أحفظها) من كلام معمر ، وجائز أن يكون (قرى عربية) نفسها ، وجائز أيضًا أن يكون ماجاء مبهمًا مكنيًّا عنه فى حديث الزهرى كله (رقم : ٧ - ١٠) فى قوله : (فدك وكذا وكذا)

- وكل ذلك دال على أن (فدك) غير (قرى عربية) .

* * *

٣٦ - وفى الأخبار التى ذكرتها ما يدل أيضًا على أن (خيبر) ، غير (قرى عربية) وذلك خبر ابن عباس فى الفيء (رقم : ١١) ، حين عدّ خيبر مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فقال : (فكان من ذلك خيبر ، وفدك ، وقرى عربية) .

- ثم ما رواه البغوى عن الحسن وقتادة والسدىّ (رقم : ١٤) (بعد تصحيحه) ، إذ قال : (تواطأ اثنا عشر حبرًا من يهود خيبر ، وقرى عربية) .

- ثم جاء فى المحبر (رقم : ١٦) . خرج ﷺ إلى خيبر .. وارتحل منها إلى قرى عربية) .

- ثم ما جاء أيضًا فى ابن خرداذبه (رقم ٢٥) فى قوله : (.. خيبر ، وفدك ، وقرى عربية) .

- ثم ما جاء فى الخراج لقدامة (رقم : ٢٦) فى قوله (.. خيبر ، فدك ، قرى عربية) .

* * *

٣٧ - وتلخيص هذا أن (قرى عربية) فى بعض الأخبار هى (فدك) وقرى أخرى غيرها - وفى بعضها الآخر أن (قرى عربية) غير (فدك) وغير (خيبر) وأنها اسم مكان بعينه .

* * *

٣٨ - وأيا ماكان ، فإن تتبع صفة هذا الموضع ، لا غنى عنها فى طلب الدليل على مكانه من أرض العرب .

- فمن ذلك أنها أرض بعينها يقال لها (قرى عربية) كما سلف (رقم : ٥)، في بيان يحيى بن آدم .
وأنها (قرى الزهرى بالحجاز معروفة) ، كما قال البكرى فى حديث (رقم : ١٠) ، وفى خبر قتيبة النحوى وشبيب بن شيبة (رقم : ٢٣) .
- وأنها (قرى متصلة) بين المدينة والشام ، كما روى الطبرى عن ابن عباس والضحاك ، كما مضى (١٣) وزاد ابن كثير أنها : (بينة يعرفها المسافرون يقيلون فى واحدة ، ويبيتون فى أخرى) .
- وأنها قرى بالمدينة ، كما قال ياقوت (رقم : ٣)
- وأنها من أعراض المدينة ، كما دل عليه كتاب « المسالك والممالك » (رقم : ٢٥) ، وكتاب قدامة (رقم : ٢٦) .
- وإنها قرى بنواحى [المدينة] [1] فى طريق الشام ، كما ذكر السمهودى (رقم : ٤) .

* * *

٣٩ - وهذه الصفات لاتكاد تحدد شيئًا ، ولكنها تدل فى مجموعها على أن (قرى عربية) كانت تطلق أحيانا على (فدك) وقرى غيرها ، وأن هذه القرى من الحجاز ، وأنها من أعراض المدينة ، وأنها قرى متصلة بين المدينة والشأم : وإذا صح ماقاله عرّام فى حد الحجاز « معجم ما استعجم » : ١٠) من أعمال المدينة هى فدك ، وخيبر ، ووادى القرى والمروة ، والفرع ، والجار » - وما قاله محمد ابن عبد الملك الأسدى « معجم ما استعجم : ١٠) من أن (الحجاز) اثنتا عشرة دارا هى المدينة ، وخيبر ، وفدك ، وذو المروة ، وداربلىّ ، ودار مزينة ، ودار جهينة .. » ثم قارن ذلك بما قاله ابن خرداذبه (رقم : ٢٥) ، وماقاله قدامة (رقم : ٢٦) فظاهرُ الرأى أن تكون « قرى عربية » تخص أحيانًا قرى بعينها من الحجاز من أعمال المدينة ، وأحيانًا أخرى تعم ما بين المدينة والشام من القرى المتصلة ، كما ذكر الطبرى عن ابن عباس .

* * *

(١) زيادة يستقيم بها السياق ، انظر رقم ٤ فى كلام السمهودى .

٤٠ - والذى يرجح هذا ، ويزيده عندى يقينًا ، ما رواه ابن أبى حاتم (٥٠) عن الشافعى (رقم : ٢١) فى تفسير « قرى عربية » وأنها هى قرى اليهود التى بنوها فى بلاد العرب ، وهى أشراف بلاد العرب - وما قاله الأصمعى فى تفسير « قرى عربية » (رقم : ٢٢) ، من أنها كل قرية فى أرض العرب ، نحو خيبر ، وفدك ، والسوارقية ، وما أشبه ذلك - وإن كان نص الأصمعى أعم ، لأنه يدخل فى تفسير « قرى عربية » : (السوارقية) وهى ليست فى الطريق بين المدينة والشام ، بل فى طريق بين مكة والمدينة ، ولا أعلم أكانت من قرى اليهود أم لم تكن ؟

٤١ - وفى خبر الشافعى (رقم : ٢١) أنها أيضًا (أشراف) جمع (شرف) ، وهو ما أشرف من الأرض ، أى ما علا حوله ، أو دنا منه ، وكأن الشافعى أراد بالأشراف (المشارف) و (مشارف الأرض) أعاليها ، وهى أخصب الأرض ، ولذلك قيل : « مشارف الشام » وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، والريف عندهم : ما قارب الماء ، من أرض العرب ، فكان فيها خصب وزرع ونخيل . فإذا صح ذلك ، وهو صحيح ، كان كل ما سكنه يهود من أرض العرب ، وأقاموا به وسكنوه ، جائزًا أن يكون (قرى عربية) كما قال الشافعى . وقد قال ياقوت فى معجمه مادة (الشرف) : (والمشارف من قرى العرب ، ما دنا من الريف ، وهى مثل خيبر ، ودومة الجندل ، وذو المروة) ، فالأشراف والمشارف واحد ، فيما أرجح .

- و « دومة الجندل » كما قال السمهودى وغيره : « من القريات ، من وادى القرى ، وأنها « قرى بين الشام والمدينة » وذكر ابن سعد (٤٤/١/١) أنها طرف من أفواه الشام ، بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة » . و « ذو المروة » ، أيضًا ، من وادى القرى ، فهذا يشبه أن يكون داخلا فى قول الشافعى « أشراف بلاد العرب » وأن « دومة الجندل » و « وادى القرى » ، وغيرهما من القرى التى سكنتها يهود وازدرعتها ، هى داخلة فى حدّ « قرى عربية » .

* * *

٤٢ - هذا على أنى لم أجد تحديدًا شافيًا لما كان يسمى (وادى القرى) ، فالبكرى لم يذكره محددًا ، ولم يعقد له بابًا فى كتابه « معجم ما استعجم » . أما ياقوت ، فقد ذكره فى (القرى) وفى (وادى القرى) وأحال على ما كتبه فى (القرى) . وكل ماقاله فى صفته هو ما يلى :

(ووادى القرى ، واد بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر ، وبه قرى كثيرة ، وبها سمى وادى القرى . قال أبو المنذر : سمى (وادى القرى) لأن الوادى من أوله إلى آخره قرى منظومة ، وكانت من أعمر البلاد ، وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة ، إلا أنها فى وقتنا هذا كلها خراب ، ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد) . ثم قال :

(قال أبو عبيد الله السكونى : وادى القرى ، والحجر ، والجناب ، منازل قضاعة ، ثم جهينة وعذرة وبلىّ ، وهى بين الشام والمدينة ، يمر بها حاج الشام ، وكانت قديمًا منازل ثمود وعاد ، وبها أهلكهم الله ، وآثارها إلى الآن باقية ، ونزلها بعدهم يهود ، واستخرجوا كظائمها ، وأساحوا عيونها ، وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل ، عقدوا بينهم حلفًا ، وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل فى كل عام ، ومنعوها لهم من العرب ، ودفعوا عنها قبائل قضاعة) - وهذا مختصر مما فى « معجم ماستعجم » : ١ : ٤٣) .

ويوهم سياق الكلام أن اليهود هم الذين منعوا وادى القرى من العرب ، والصواب أن الذين منعوها لليهود هم بنو عذرة ، للحلف الذى بينهم وبين يهود . وقد ذكر ذلك النابغة الذبيانى فى شعره ، فقد أراد النعمان بن الحارث الغسانى أن يغزو بنى عذرة بوادى القرى ، وكان النابغة لهم محبًّا ومادحًا ، فنهاه عن ذلك ، وقال فى أبياته :

تجَنب بنى حُنّ فإن لقاءهم ... كريه ، وإن لم تلق إلا بصابر

و (بنو حُنّ) ، هم بنو عُذْرة ، ثم قال :

وهُمْ منعوا وادى القرى من عدوهم ... بجمْع مُبِير للعدو المُكاثِرِ

وهُمْ منعوها من قضاعة كلِّها ... ومن مُضَرِ الحمراء ، عند التغاوُرِ

٤٣ - وأما السمهوديّ فى « وفاء الوفاء » ، فإنه عقد باب (وادى القرى) ، وليس فيه تحديد شاف بل قال :

(واد كثير القرى بين المدينة والشام) ، ثم نقل عن الحافظ ابن حجر : (هى مدينة قديمة بين المدينة والشأم ، وأغرب ابن قُرقول فقال : إنها من أعمال المدينة) .

(قال السمهودى) : ولا إغراب فيه ، بتصريح صاحب « المسالك » به ، كما سبق فى تبوك ، وسبق أن (دومة الجندل) من أعمال المدينة ، وأنها بوادى القرى (انظر ماكتبته رقم : ٤١) ثم قال :

(وسبق فى (ذى المروة) ، أن بعضهم عدّه من وادى القرى ، وأنه إن ثبت فهو غير (وادى القرى) المذكور ، وسبق فى (بلاكث) و (برمة) مايؤيده . وعليه أهل المدينة اليوم ، لأنهم يسمون ناحية ذى المروة ، وناحية ذى خشب (وادى القرى) ، ولعلها (قرى عرينة) الصواب : (قرى عربية ، كما أسلفنا) .

- وهذا نص مهم جدًّا ، لأن السمهودى تنبه هنا إلى أن (قرى عربية) توشك أن تكون دالة على هذه القرى جميعها .

* * *

٤٤ - وصفة (وادى القرى) كما جاء فى صفة أبى المنذر (رقم : ٤) (سمى وادى القرى) لأن الوادى من أوله إلى آخره قرى منظومة (هو نفس صفة (قرى عربية) التى ذكرها الطبرى (رقم : ١٣) ، ويطابق ما لخصته آنفًا (رقم : ٣٨ ، ٣٩) ، وذلك كما قال الطبرى : قرى متصلة بين المدينة والشام) .

* * *

٤٥ - وشىء آخر يدل على مثل ذلك ، فقد قال ابن حبيب فى « المحبّر » (رقم : ١٦) :

(ثم سنة سبع ، فيها خرج ﷺ إلى خيبر ، فحاصرهم بضعة عشر يومًا ، وارتحل منها إلى (قرى عربية) فلم يلق كيدا) .

وإجماع أهل السير ، أن رسول الله ﷺ لما فرغ من أمر خيبر ، ارتحل

متوجهًا إلى (وادى القرى) قال ابن إسحاق (سيرة ابن هشام : ٣ : ٣٥٣) :

(فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر ، انصرف إلى وادى القرى ، فحاصر أهله ليالى ، ثم انصرف راجعًا إلى المدينة) .

وكذلك قال البلاذرى فى « فتوح البلدان » : ٤١ ، الطبرى فى تاريخه : (٣: ٩٦) ، وابن سيد الناس فى « عيون الأثر » (٢ : ١٤٣) ، وابن كثير فى « البداية والنهاية » (٤ : ٢١٢) ، والمقريزى فى « إمتاع الاسماع » (١ : ٣٣١) ، وغيرهم .

فصح بذلك أيضًا أنهم كانوا يطلقون (قرى عربية) على (وادى القرى) أيضًا .

* * *

٤٦ - وبقى نص آخر ، يحتاج إلى بعض التفصل ، ذلك مانقله ياقوت فى معجمه عن خط العبدرى (رقم : ٢٠) فى بعث أبى بكر رضى الله عنه عمرو بن العاص ، إلى الشأم مُمِدًّا لأبى عبيدة :

- (وجعل عمرو بن العاص يستنفر من مرّ به من البوادى وقرى عربية)

وقد ذكر البلاذرى فى فتوح البلدان (١١٤ ، ١١٥) أن أبا بكر عقد ثلاثة ألوية لفتح الشأم ، منها لواء عمرو بن العاص ، ثم ذكر عن أبى مخنف : أن عمرو ابن العاص إنما كان مددًا للمسلمين ، وأميرًا على من ضم إليه) و (أن يسلك طريق أيلة عامدًا لفلسطين) .

وجاء فى الطبرى (فى سنة ثلاث عشرة) أن أبا بكر بعث عمرًا قِبَل فلسطين ، فأخذ على طريق (المعرفة) إلى (أيلة) .

وطريق (المُعرفة) هو الذى كانت تسلكه عير قريش إلى الشام ، وفيه سلكت عيرهم حين كانت وقعة بدر ، وهذه الطريق ، كما استظهرت من صفة ابن خرداذبه فى « المسالك والممالك » (١٥٠ ، ١٩١) للطريق من دمشق إلى مكة هى : (من المدينة ، إلى ذى خشب ، إلى السويداء ، إلى المرّ ، إلى ذى المروة ، إلى الرحيبة ، إلى وادى القرى ، إلى الحِجر) .

و (ذو خشب) يعد من وادى القرى ، و (السويداء) بعد ذى خشب على ليلتين من المدينة على طريق الشام ، و (مُرّ) واد فى بطن إضم ، وهو كما قال ابن سعد ١/١/٩٦ : (بين ذى خشب وذى المروة) ، وهو من منازل جهينة ، وجهينة كما سلف (رقم : ٣٩ ، ثم رقم : ٤٢) بوادى القرى ، ثم (الرُّحيبة) وكأنها (الرحبة) ، إلا أن يكون تصغيرًا ، من بلاد عذرة ، قرب وادى القرى .

وأيضًا ، فقد روى ابن عساكر فى تاريخه (١ : ٤٤٦ - طبعة المجمع العلمى بدمشق : (" أن أبا بكر قال لعمرو بن العاص فى فتح الشام : إنى قد استعملتك على من مررت به من بلىّ ، وعذرة ، وسائر قضاعة ، ومن سقط هنالك من العرب ، فاندبهم إلى الجهاد فى سبيل الله ..) .

وقد سلف فى (رقم : ٣٩ ، ورقم : ٤٢) أن منازل بلىّ ، وعذرة وقضاعة ، هى (وادى القرى) ، بين المدينة والشام ، وإذن فالذين استنفرهم من البوادى و (قرى عربية) فيما ذكره العبدرى ، هم أنفسهم من استعمل عليهم عمرو بن العاص من بلىّ وعذرة وقضاعة ، واستنفرهم فى طريقه إلى فلسطين ، كما قال ابن عساكر ، وهم أنفسهم أصحاب (وادى القرى) .

- فهذا إذن ، دليل آخر على أنهم يريدون بقولهم : (قرى عربية) ، وادى القرى ، وسائر القرى الممتدة المتصلة بالشام .

* * *

٤٧ - وأما صدر الكلام الذى وجده ياقوت بخط العبدرى (رقم : ٢٠) فقد أوجدنيه الأستاذ عبد الله الوهيبى ، فى أخبار الردة فى « فتوح البلدان » ١٠١ ، وتاريخ ابن الأثير ١٤٢ ، وهو بإسناده فى فتوح البلدان .

- حدثنى عبد الله بن صالح العِجْلى ، عن يحيى بن آدم ، عن عوانة بن الحكم ، عن جرير بن يزيد ، عن الشعبى قال : قال عبد الله بن مسعود : « لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ ، مقامًا كدنا نهلك فيه ، لولا أن من الله علينا بأبى بكر . اجتمع رأينا جميعًا على أن لا نقاتل على بنت مخاضٍ وابن لبون ، وأن نأكل قرى عربية ، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين » .

ومعنى هذا الخبر أن العرب لما ارتدت ، وتنازع الصحابة أمرهم بينهم ، كادوا يجمعون على المقام فى المدينة وما حولها ، وهى قرى عربية ، يأكلون مما تنبت أرضها ، ويعبدون الله حتى يأتى أمر الله ، وهذا واضح الدلالة على أن المراد بقوله : « قرى عربية » ، أعراض المدينة وهى خيبر ، وفدك ، ووادى القرى ، كما سلف من قول ابن خرداذبه ، وابن رسته (رقم : ٢٥) .

* * *

٤٨ - هذا ، وبعد الانتهاء مما سلف ، تفضل الأخ الأستاذ عبد الله الوهيبى ، فأوقفنى على عدة نصوص فاتتنى وأنا أسردها هنا :

- فى الاستيعاب لابن عبد البر ، فى ترجمة « عمرو بن سعيد بن العاص » !

« واستعمل رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد ، على قرى عربية ، منها تبوك وخيبر وفدك .. » .

ومثله فى ترجمته أيضًا فى أنساب الأشراف للبلاذرى (٤ : ١٢٨) ، وانظر ما سلف (رقم : ١٧ - ١٩) .

- ثم جاء فى الاستيعاب أيضًا فى ترجمة « خالد بن سعيد بن العاص » :

« وكان خالد على اليمن ، وأبان على البحرين ، وعمرو على تيماء وخيبر وقرى عربية ، وكان الحكم يعلّم الحكمة » انظر ما سلف (رقم : ١٧ - ١٩) .

٤٩ - وقال أبو حيان فى « البحر المحيط » فى تفسير سورة الحشر (٨ : ٢٤٥)

- « وقال ابن عطية : أهل القرى المذكورون فى هذه الآية ، هم أهل الصفراء ، وينبع ، ووادى القرى ، وما هنالك من قرى العرب التى تسمى قرى عربية » .

قلت : وهذا يشبه أن يكون تفسيرًا واضحًا مطابقًا لقول الأصمعى والشافعى وبيانهما فيما سلف (رقم : ٢١ ، ٢٢) .

٥٠ - وفى كتاب « البدء والتاريخ » لابن طاهر المقدسى (٥ : ٢٥) فى ذكر رسول الله ﷺ وميراثه ، قال :

- (وله ﷺ من الضياع : قرى عربية ، وفدك ، والنضير ، وكثير من خيبر) .

* * *

٥١ - وفى كتاب الخراج لأبى يوسف : ٧٠ :

- (وأما الخوارج ، فإنهم أخطأوا الحجة ، وجعلوا (قرى عربية) بمنزلة (قرى عجمية) ، ولم يأخذوا بما اجتمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ وقول عمر وعلى) .

ويعنى بذلك أنّ أرض الحجاز والمدينة ومكة واليمن وأرض العرب كلها ، أرض عُشر ، وإن فتحت عنوة ، أما (قرى عجمية) ، وهى قرى العجم ، فإن ما افتتح منها فهو أرض خراج . قال أبو يوسف : (وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ افتتح فتوحًا من الأرض العربية ، فوضع عليها العشر ، ولم يجعل على شيء منها خراجًا) .

- وهذه الفتوح هى التى ذكرها الشافعى رحمه الله فيما سلف (رقم : ١٢) وأبان عنها فيما نقله آنفًا (رقم : ٢١) . فقول أبى يوسف أن الخوارج جعلوا (قرى عربية) بمنزلة (قرى عجمية) ، إنما يعنى هذا ، ويعنى أيضًا ما أشار إليه الشافعى فى بيانه ، وما قاله الأصمعى آنفًا (رقم : ٢٢) من أن (قرى عربية) كل قرية فى أرض العرب) فكذلك (قرى عجمية) هى كل قرية فى أرض العجم .

* * *

٥٢ - وفى « شرح ابن الأنبارى » للقصائد السبع (١٠٦ - ١٠٧) فى شرح قول امرىء القيس :

وتيماء لَمْ يترك بها جِذْع نخلةٍ ... ولا أجما إلّا مشيدًا بجندلِ

قال : (وتيماء ، من أمهات القرى ، قرى عربية) .

- وهذا واضح الدلالة على أن (تيماء) ، من قرى عربية ، فهو لذلك دال

على أن قرى عربية اسم جامع لقرى العرب التى كانت شمال المدينة ، والتى سكنها يهود .

* * *

٥٣ - وبقى خبر عن أبى هريرة رواه ابن عساكر « مختصر تاريخ ابن عساكر » ١ : ٣٥٠) ، والسيوطى فى دلائل النبوة (١ : ٢٥) :

- (عن أبى هريرة : بلغنى أن بنى اسرائيل ، لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بخت نصر عليهم ، وفرقتهم وذلتهم تفرقوا ، وكانوا يجدون محمدًا منعوتًا فى كتابهم ، وأنه يظهر فى بعض (القرى العربية) ، فى تربة ذات نخل ، فلما خرجوا من أرض الشأم ، جعلوا يقترون [1] كل قرية من تلك القرى العربية بين الشأم واليمن ، يجدون نعتها نعت يثرب ، فينزل بها طائفة منهم ، ويرجون أن يلقوا محمدًا فيتبعونه ، حتى نزل من بنى هرون ممن حمل التوراة بيثرب منهم طائفة ، فمات أولئك الآباء وهم مؤمنون بمحمد ﷺ أنه جاء ، ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء ، فأدركه من أدركه من أبنائهم ، وكفروا به وهم يعرفون) .

- وصفة هذه القرى العربية ، شبيهة بصفة (قرى ظاهرة) (سبأ : ١٨) فيما ذكرته آنفًا من خبر سعيد بن جبير (رقم : ٥) ، وما جاء فى تفسير الطبرى (رقم : ١٣) ، وأنها هى (قرى عربية) .

٥٤ - وعندى أن هذا كله يوشك أن يدل على أن (قرى عربية) كانت تشمل القرى العربية ما بين الشأم إلى المدينة ، كما فسرها الطبرى فى تفسير قوله تعالى : (قرى ظاهرة) (سبأ : ١٨) ، وأن (قرى عربية) و (وادى القرى) كانا يستعملان أحيانًا ، ولا سيما فى القديم من الرواية ، للدلالة على معنى واحدٍ ، وأن هذه الدلالة عند عمومها تشمل خيبر ، وفدك ، ووادى القرى ، وبرمة التى بين خيبر ووادى القرى ، (وفاء الوفا) ، وذا المروة وذا خشب ، والهمج ، وهو ماء بين خيبر وفدك (ابن سعد ٦٥/١/٢ ، « وفاء الوفا » فى (فدك) وهمج - وظبية ، والصفراء ، ويثرب ، وتيماء ، ودومة الجندل ، ومدين ، وينبع ، وبلاكث ،

---

(١) اقترى البلاد : إذا تتبعها وخرج من أرض إلى أرض وسار فيها ينظر أحوالها .

وسائر ماكان من القرى فى شمال المدينة ، وما نزلت به هو من أرض العرب فسكنته وغرسته وبنت فيه بيوتها وآطامها وأسواقها .

٥٥ – وقد بقى خبران لم أتعرض لهما ، أولهما : خبر الطبرى ، وشبيهه الذى جاء فى تفسير البغوى (رقم : ١٤) فى شأن النفر الاثنى عشر من أحبار يهود ، الذين جاءوا من خيبر وقرى عربية ، وقد تواطأوا على الدخول فى دين الله أوّل النهار ، ثم يكفرون آخره ، وهذا الخبر لم أجده مفسَّرًا مبسوطًا فى مكان آخر ، وقد ذكر أصحاب السير اجتماع نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ وماكان من أمرهم .

وقد ذكر ابن اسحق أن (سورة آل عمران) التى ذكر الله سبحانه فيها مقالة أحبار يهود : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾ [سورة آل عمرن : ٧٢] ، إنما نزلت خاصة فى الذين كانوا يسألون رسول الله ﷺ ويتعنّتونه ، وعدَّ منهم (أبا ياسر بن أخطب) ، وأخاه (حيى بن أخطب) ، وهما من بنى النضير (ابن هشام ٢ : ١٦٠ – ٢ : ١٩٤ ، ١٩٧) ، وعبد الله بن صيف ، من بنى قينقاع ، وعدى بن زيد ، والحارث بن عوف ، من بنى قريظة (ابن هشام ٢ : ١٦١ ، ١٦٢ وتفسير الطبرى ٦ : ٥٠٤ ، رقم : ٧٢٢٣) ، وهؤلاء الثلاثة من الذين تواطأوا على أن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره .

فأما (حيى بن أخطب) وأخوه ، فهما من بنى النضير ، و (صفية أم المؤمنين) ، هى بنت (حيى بن أخطب) سيد قريظة والنضير (صحيح مسلم – كتاب النكاح – باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها) . وإذ كان ذلك كذلك ، فأرجِّح أن أموال (حيى بن أخطب) ومنازله كان بعضها فى فدك ، وقرى عربية (وهى التى نزلت فيها آية الفىء ، كما أسلفنا ، فهذه الآية نزلت فى بنى النضير ، بلاشك ، و (سورة الحشر) التى منها هذه الآية ، كان ابن عباس يقول هى (سورة بنى النضير) .

ولما أجلى بنو النضير إلى خيبر ، كانت لحيى أيضًا أموال بها ، لأن (صفية

أم المؤمنين) كانت يوم خيبر عند (كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق) فصارت من سبايا خيبر ، وكانت يومئذ فى حصن بنى أبى الحقيق ، وهو القموص) . و(كنانة) هذا ، كان أيضًا من بنى النضير (ابن هشام ٢ : ١٦٠) .

فأنا أرجح أن اليهود ، من بنى قريظة ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير ، وسائر طوائفهم كانوا مفرقين شتى متداخلين فى القرى التى كانت شمال المدينة ، فى خيبر ، وفدك ، ووادى القرى ، وقرى عربية وغيرها ، فأظن لذلك أنّ المذكورين فى خبر ابن هشام ، هم أنفسهم المذكورون فى خبر المتواطئين من يهود خيبر وقرى عربية ، كما جاء فى خبر الطبرى (انظر ما سيأتى رقم : ٥٦) .

وقد رأيت ما يصحّح هذا القول فى شأن قريظة والنضير ، وأنهم كانوا خارج المدينة فى كتاب ابن القيم « أحكام أهل الذمة » ص : ٨٣٩ قال : (وأما قريظة والنضير ، فكانوا خارجًا من المدينة ، وعهدهم مع رسول الله ﷺ أشهر من أن يخفى على عالم) .

* * *

٥٦ - وأما الخبر الثانى ، فهو خبر دجاجة ، عن عثمان رضى الله عنه (رقم : ١٥) وقول عثمان : (لا يسكن قرى عربية دينان) ، وهذا الخبر لم أجده فى أخبار عثمان رضى الله عنه ، والذى عندنا فى أمر إجلاء اليهود ، هو إجلاء عُمر يهود خيبر ، وغيرها لقوله ﷺ (لايجتمع دينان فى جزيرة العرب) ، فأجلاهم عمر إلى (تيماء) . فإذا صح أن عثمان قال : (لا يسكن قرى عربية دينان) فإنه لا يعنى خيبر بلا شك ، ولا يعنى أيضًا (فدك) ، ولا منازل بنى النضير القريبة من شمال المدينة ، لأن رسول الله ﷺ ، خرج إلى بنى النضير سنة أربع ، فسار بعضهم إلى (خيبر) فكان منهم (سلاّم بن أبى الحقيق) ، و(كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق) ، و (حيى بن أخطب) (ابن هشام ٣ : ٢٠١) .

وإذا لم يكن يعنى هذه القرى القريبة من شمال المدينة ، فأرجح أن قول عثمان : (لا يسكن قرى عربية دينان) ، إنما يراد به بعض الأماكن البعيدة عن شمال المدينة إلى حد الشام من القرى الظاهرة المتصلة التى ذكر الطبرى أنها

(قرى عربية) (رقم : ١٣) ، نحو (تيماء) ودومة الجندل ، ومدين ، وما قارب ذلك [1] .

* * *

٥٧ - فمن هذا كله ، من الذى علقته فى هذه الكلمات ، وعما أغفلته من الاستنباط والمراجعة ، يتبين لى أن أدق تفسير لقولهم (قرى عربية) هو أقدم تفسير ، وهو قول الشافعى فى ذلك : (هى قرى اليهود بنوها فى بلاد العرب ، والعرب حولهم ، وهى أشراف بلاد العرب ، (أى مشارفها) ، وهى فدك وخيبر) ، وقول الأصمعى ، وهو أوضح : قرى عربية ، كل قرية فى أرض العرب ، نحو خيبر ، وفدك ، والسوارقية ، ما أشبه ذلك) (رقم ، ٢١ ، ٢٢) وذلك ما فسّرته آنفًا (رقم : ٥٤) .

وظنى أن اليهود لما نزلوا أرض العرب ، وانساحوا ما بين المدينة والشأم ، كانوا يسمون بلاد جزيرة العرب يومئذ « عربية » أى أرض العرب ، ثم قالوا للقرى التى سكنوها فى مهبطهم من الشأم إلى يثرب « قرى عربية » اسمًا جامعًا ، أى قرى أرض العرب ، وقولهم (عربية) وهم يعنون بلاد جزيرة العرب ، أشبه بأن يكون من كلامهم ونهج لسانهم ، وإذ كانوا غرباء على لسان العرب ، فقد سموها على سليقة لسانهم بلفظ عربى مستجلب . ثم لما طال عليهم الأمد ، وسموا كل قرية باسم أنشأوه أو ورثوه ممن كان معهم من العرب نحو (تيماء) و (دومة الجندل) و (خيبر) و (فدك) ، ظل قولهم (قرى عربية) اسما جامعًا لهذه الأرض كلها من شمال المدينة إلى الشأم : ولكن العرب لما جاوروهم وعقدوا بينهم حلفًا ، بدأوا يضيقون بهذه التسمية التى تشبه أن لا تكون عربية خالصة

(١) وذكر خليفة بن خياط فى تاريخه (المطبوع فى بغداد جـ ١ ص ٦٢ وفى دمشق ص ٧٢ والمخطوط سنة ٤٧٩ ص ٢٣٨ - فى سياق ذكر عماله عليه الصلاة والسلام : وعمرو بن سعيد بن العاص على قرى عربية ، خيبر ، ووادى القرى ، وتيماء ، وتبوك ، وقبض رسول الله ﷺ وعمرو عليها . ا هـ . والنسخة الخطية موثقة ومصححة ، وقرأها علماء أعلام . أقول : هذا الهامش علقه الشيخ حمد الجاسر ، رحمه الله .

(قرى عربية) وإن احتملها لسان العرب ، فقالوا لهذه القرى (وادى القرى) ، إذ كانت أكثر هذه القرى تقع فى الوادى الطويل الممتد المتفرع ما بين الشأم إلى المدينة .

فلما أخذت كل قرية تتسع وتكبر ، ويزداد عدد أهلها ، وتكون لها شهرة بثمر أو سوق أو تجارة ، انفردت كل واحدة منها باسمها وطار صيتها ، وجعل لفظ (وادى القرى) أو (قرى عربية) يضيق أحيانًا فيطلق على مكان بعينه ، يجمع عدة قرى متقاربة ، وربما جاء وقت بعد ذلك ، لا أستطيع أن أحدده ، وإن كنت أرجح أنه كان بعد الإسلام بدهر ، فخص (وادى القرى) و (قرى عربية) بناحية بعينها أو ناحيتين من هذه القرى الممتدة المتصلة ما بين الشأم إلى يثرب . ومن أجل ذلك كما رأيت ، اضطرب قول المؤلفين فى تحديد ما كان يسمى (وادى القرى) أو (قرى عربية) وصارا بذلك اسمين مبهمين يدلان دلالة مبهمة غير محددة تحديدًا شافيًا .

هذا غاية ما أحببت أن أقيده ، وعسى أن أكون قد بلغت بعض التوفيق فى جمع هذه الأخبار وتصحيح دلالاتها ، والبيان عن معنى (قرى عربية) وتمحيصه ، والحمد لله وحده .

* * *

كانت الجامعة ...
هى طه حسين

ما هو دور طه حسين فى رأيك [١] ؟

سؤال ضخم الإجابة عنه فى أسطر قلائل ، تكليف بمالا يطاق . ومع ذلك فسأحاول أن أقول لك شيئا أتمم به ما تناثر فى بعض ماكتبت ، حين كانت الضرورة تدعونى إلى التحدث عن الدكتور طه حسين وآرائه فى الأدب .

كان رحمه الله ينشر « حديث الأربعاء » فى صحيفة السياسة ، وذلك فى حدود سنة ١٩٢٣ ، وكنت يومئذ فتى صغيرا فى المدارس الثانوية ، فكنت أقرأ مايكتب وأتتبعه . وكنت قبيل ذلك أيضا أقرأ كتاب « الكامل » للمبرد وكتاب « الحماسة » لأبى تمام على شيخى وأستاذى رحمه الله إمام العربية فى زمانه « سيد ابن على المرصفى » فى بيته ، وكان الشيخ لا يكاد يقرأ الصحف ، ففى بعض حديثى معه ذكرت له ماكان يكتبه الدكتور طه حسين . فعرفت يومئذ منه أن الدكتور طه حسين قرأ عليه أيضا ما شاء الله أن يقرأ من كتاب الكامل للمبرد . فحفزنى ذلك على أن أسعى إلى لقاء الدكتور طه حسين وإلى السماع منه . فمن يومئذ عرفته معرفة عن قرب . عرفته محبا لعربيته حبا شديدا ، حريصا على سلامتها ، متذوقا لشعرها ونثرها أحسن التذوق ، وعلمت أن هذا الحرص وهذا التذوق كان ثمرة من ثمار قراءته على المرصفى . فإنى لم أر أحدا كان يحب العربية ويحرص على سلامتها ، ويتذوق بيانها ، كشيخنا المرصفى رحمة الله عليه ، ولم أر لأحد تأثيرا فى سامعه كتأثير الشيخ فى سامعه .

ومضت الأيام منذ سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٢٥ ، فيومئذ صدر المرسوم بإنشاء « الجامعة المصرية » مكونة من عدد من الكليات إحداهن « كلية الآداب »

---

* مجلة الكاتب ، السنة الخامسة عشرة ، العدد ١٦٨ - مارس ١٩٧٥ ، ص ٢٨ - ٣٥ .

(١) السائل هنا هو الأستاذ سامح كريم فى مقابلة أجراها مع الأستاذ شاكر رحمه الله فى فبراير ١٩٧٥ ، وقد أشار الأستاذ إلى هذه المقابلة فى مقاله الأول عن « المتنبى ليتنى ماعرفته » انظر ٢ : ١١٢٣

وصار الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربى فى « قسم اللغة العربية » فى « كلية الآداب » . ولكن لم تكد تمضى سنة على إنشاء الجامعة حتى صرنا إلى أمر غريب جدا : لا يكاد يذكر اسم « الجامعة » حتى ينصرف ذهن كل سامع إلى « كلية الآداب » وحدها ، ثم إلى الدكتور طه حسين وحده ، هذا مع أن عدد طلبة « كلية الآداب » كان يومئذ يعد بالعشرات ، وكان عدد طلبة « قسم اللغة العربية » من هذه الكلية يكاد يعد على الأصابع . أى أنك تستطيع أن تقول بلا تجوز كثير : أن طه حسين كان عند الناس هو الجامعة ، وكان الجامعة عندهم هى طه حسين !

وهكذا أيضا كنا نراها نحن طلبة كلية الآداب ، وقسم اللغة العربية من هذه الكلية خاصة . وبيِّن أن الفضل فى ذلك راجع كله إلى الدكتور طه حسين ، وإلى ما أثاره يومئذ من صراع عنيف فى الحياة الأدبية لذلك العهد . ولا تتوهم أنى أريد بهذا أن أثنى على الدكتور طه حسين ، بل أنا شاهد أقرر لك حقيقة كانت مصورة حية فى الأذهان منذ خمسين سنة لا أكثر ولا أقل . وهى صورة غريبة قل أن تتكرر . وقد بقيت حية على عنفوانها بضع سنوات ، ثم بدأت فى الركود شيئا فشيئا بضع سنوات أخر . حتى انسلخت عنه الجامعة واستقلت بصورتها المعروفة اليوم عند الأمة العربية وانسلخ الدكتور طه أيضا عنها .. وصار هو طه حسين بصورته المعروفة اليوم عند الأمة العربية لا مصر وحدها .

واصبر على قليلا ولا تتعجل . إن هذا السؤال الضخم الذى سألتنيه بغتة ، كان ينبغى أن أتهيأ للرد عليه أياما طوالا جدا ، لأنى أمرؤ أحب الكلمة المعبرة عن حقيقة المعنى القائم فى نفسى ، ولكنى مع حبى لها أخافها وأتهيبها ويأخذنى عندها من الذعر ، ما يأخذ المحمول فى يد جبار يريد أن يلقى به فى نار متضرمة . ولقد رميتنى أنت فى أشد الحرج ، لأنى أجد أن هذه الألفاظ القلائل التى حرصت آنفا على أن أؤدى بها شهادة شاهد عيان ، لم تبلغ عندى الغاية التى أحسها فى قرارة نفسى ، وأريد الإبانة عنها .

ويا للعجب ! سؤال من سبع كلمات تلقيه علىّ عفوا ، يريد أن يبعث الحياة فى صورة غريبة مذهلة ، مضى عليها خمسون سنة ! خمسون سنة بقيظها

وزمهريرها، وبنورها وظلامها ، وبصحوها وغيومها ، وبصفاء أيامها وغبارها ، لا تمشى على صورة ناضرة حتى ترد نضرتها إلى ذبول كئيب وتحيل إشراق لونها إلى شحوب مفزع . ومع ذلك فأنا مطالب اليوم أن أرفع إلى عينيك وإلى أعين الأجيال الحديثة بعد خمسين سنة ، صورة كانت على إبانها صورة حية غريبة مذهلة ! ومن لى بأن أؤدى ما أنا مطالب بأدائه ؟ ولكن لا مناص ولا مهرب .

وهل تدرى لماذا أقطع حديثى وأقول لك هذه الكلمات ؟ لا أظنك تدرى ، لأنك لم تكن حيا منذ خمسين سنة ، ولو كنت حيا يومئذ ، ولم تكن قادرا على استيعاب زمانك استيعابَ يقظة ، لا استيعاب لجاجة ودعوى وسفسطة لبقيت أيضا لا تدرى شيئا ، وسأحاول أن أقرب لك الأمر ما استطعت حتى تعلم لم قلت لك هذه الكلمات .

ان هذه الصورة الغريبة المذهلة ، التى توهجت بألوانها فى مصر ، ثم فى أضيق من ذلك : « فى كلية الآداب » ، ثم فى أضيق من ذلك . فى « قسم اللغة العربية » من كلية الآداب ، ثم فى سنوات قلائل : سنة ١٩٢٥ وما بعدها ، لم تكن صورة على رقعة أفردت لها خاصة ، بل كانت صورة صغيرة جدا ، صغيرة جدًّا لا تكاد ترى من بعد قريب ، وهى فى حيز رقعة واسعة مترامية الأطراف ، ما بين تخوم المغرب الأقصى ، إلى النهاية حدود الصين ، ومن أعلى حدود تركية إلى أقاصى الأطراف فى بلاد أندونسية أى فى الرقعة التى يقع عليها اسم « العالم العربى » و« العالم الإسلامى » معا ، وليس هذا فحسب ، فهناك أبعاد أخرى غير أبعاد المكان وهى أبعاد الزمن أى أقصى تاريخ هذه الرقعة منذ بدأت إلى العصر الجاهلى ، إلى عصور الإسلام الذى نعيش فيه .

ودعنى أسألك كما سألتنى : هل أكون صادقا إذا أنا اقتصرت على أن أرفع لعينيك هذه الصورة الغريبة المذهلة ، مقتطعة من جوف هذه الرقعة المترامية الأطراف فى الزمان والمكان ، لا لشىء إلا لكى أحيى ذكر طه حسين فى هذه المناسبة التى حدثتنى عنها ، مؤديًا بذلك بعض حقه على ؟

وستقول : لا بلا ريب .

فأقول لك : وإذن فقد شققت علىَّ كل المشقة ، ورميت بى فى أشد الحرج ، حين سألتنى عما سميته « دور طه حسين » فى حياة هذه الأمة المنساحة فى أبعاد الزمان والمكان كما وصفتها لك .

وإذا كان جواب هذا السؤال عسيرا محرجا لى كما ترى ، فهل تراه حسنا أن أدفع عن نفسى المشقة والحرج ، وأفزع بالهرب منهما إلى ماهو أيسر وأروح ، فأتعلق بما انتهى إليه أمر طه حسين من الشهرة فى هذا العالم الرحب ، فأقول لك كما قال من يحمل العلم : إن ضخامة أثر طه حسين فى حياة العالم ، خليق أن يجعلنا نسمى الزمن الذى عاشه طه حسين بيننا « عصر طه حسين » ؟ ليس هذا هزلا محضا ! بل هو شر من الهزل المحض ؟

ومع ذلك كله فأنا أستعفيك من ركوب هذا المركب الصعب ، ولكنى لن أخذلك وسأحاول أن أستبقى هذه الصورة الغريبة المذهلة فى مكانها ، غير مقتطعة من رقعتها المتراحبة ، فأبين لك لم توهجت هذه الصورة ؟ وكيف كان توهجها فى حيزها الصغير جدا ؟ ثم أحدثك عن أثر هذا التوهج على الرقعة التى هى جزء منه ، ولكنى فى الحقيقة لا أدرى من أين أبدأ ، ولكن لا مفر من بدء .

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) انتفض هذا العالم الرحب الذى حدثتك عنه وهو العالم العربى والعالم الإسلامى ، وبدأت أول انتفاضة فى مصر فى مارس ١٩١٩ ، وتتابعت الانتفاضات على درجات مختلفة فى جميع بلاد العرب والإسلام ، وحدثت الرجة العظمى ، بالحرب التركية فى سنة ١٩٢٢ ، على عهد مصطفى كمال ، ثم زلزل هذا العالم كله ، حين ألغى الخلافة الإسلامية فى سنة ١٩٢٤ ، وبإلغائها صار هذا العالم الذى كانت فيه الخلافة تجمعه أو تشده إليها بحبال واهية .. ولكنها حبال على كل حال ! صار خلائق مشتتة فى يم متلاطم ، تمد أيديها إلى شىء تتعلق به طلبا للنجاة وخوفا من الغرق ، وكانت مصر خاصة والبلاد العربية عامة ، ملتقى أنظار العالم الإسلامى فى طلب النجاة والخوف من الغرق ، مع أنهم جميعا غرقَى فى هذا اليم المتلاطم .

وفى هذا الذهول الغامر ، ما بين سنة ١٩١٩ إلى ١٩٢٤ نزع العالم العربى

بفطرته السليمة إلى التشبث بالحبال الباقية التى تربط بعضه ببعض ، وهى اللسان العربى الممثل فى الشعر والنثر ، لأنه لا أمة بلا لغة ، وصار مفهوما واضحا عند الجماهير ، أن إحياء اللغة العربية هو إحياء الأمة العربية ، وإحياء اللغة العربية وإحياء الأمة العربية هو إحياء البلاد الإسلامية . كان هذا واضحا جدا لمن يريد أن يبصر .

ولكن ثورة مصر .. انفرط عقدها بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، ويتولى سعد زغلول الوزارة فى سنة ١٩٢٤ ، ولكنها لم تخمد بعد ، فكان الجيل الذى عاش تلك الأيام يتشبث بلغته ، ويقاوم عناصر الهدم الخبيثة التى أطلقتها وزارة الاستعمار البريطانى ، وهيئات المبشرين (وهما شيء واحد) ويتولى العمل لها رجال من أهل جلدتنا معروفون بأسمائهم . وفى هذا الجو الذى أحببت أن أوجزه لك فى هذا الحديث الملهوج أنشئت الجامعة المصرية فى سنة ١٩٢٥ ، وألقى الدكتور طه حسين كلمته « فى الشعر الجاهلى » وهاجت الحياة الأدبية كلها فى مصر ثم فى سائر بلاد العرب والمسلمين . والذى هاج الحياة الأدبية وأثارها هو فى الحقيقة ماسماه « المنهج » ، والذى ذكر أنه أحد مذهبين فى البحث بقوله : « نحن بين اثنتين .. أما أن نقبل فى الأدب وتاريخه ما قال القدماء .. وأما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث » ،، ثم يقول هذه الكلمات المفزعة : « والفرق بين المذهبين فى البحث عظيم ، فهو الفرق بين الإيمان الذى يبعث على الإطمئنان والرضى ، والشك الذى يبعث على القلق والاضطراب وينتهى فى كثير من الأحيان ، إلى الإنكار والجحود . المذهب الأول يدع كل شيء تركه القدماء لا يناله بتغيير ولا بتبديل ، ولا يمسه إلا مسا رفيقا ، أما المذهب الثانى فيقلب العلم القديم رأسا على عقب ، وأخشى إن لم يمح أكثره ، أن يمحو منه شيئا كثيرا » ، ثم ما انتهى إليه فيما سماه بحثا ، إلى أن : « الشعر الجاهلى » أو كثرة هذا الشعر الجاهلى لا تمثل شيئا ، ولا تدل على شيء إلا ما قدمنا من العبث والكذب والانتحال » .

هذا نص كلام الدكتور طه حسين بألفاظه ، فوضع علم المتقدمين كله موضع

البحث والإنكار والجحود ، وقلب العلم القديم رأسا على عقب ، والانتهاء إلى محو أكثر العلم القديم ، وبطلان الشعر الجاهلى وهو عماد اللسان العربى كله بعد القرآن والحديث ، كل ذلك أفزع القلوب التى كانت تحس وتسمع وترى وتقرأ مايكتبه أعوان الاستعمار والتبشير يومئذ ، فاختلط الأمر ، وصار طه حسين عند عامة الناس ، واحدا ممن يمثل هذا الاتجاه الذى يتولاه فلان وفلان من خبثاء المبشرين الذين يكتبون بالقلم العربى .

لقد لقى طه حسين يومئذ ما لقى ، ونسب إليه ما أقطع بأنه برىء منه ، والدليل على براءته عندى هو أنه منذ عرفته فى سنة ١٩٢٤ ، إلى أن توفى فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ ، كان كما وصفته فى أول حديثى ؛ محبا للسانه العربى أشد الحب ، حريصا على سلامته أشد الحرص ، متذوقا لروائعه أحسن التذوق ، فهو لم يكن يريد قط باللسان العربى شرا ، بل كان من أكبر المدافعين عنه ، المنافحين عن تراثه كله إلى آخر حياته . ومحال أن يحشر من هذه خصاله فى زمرة الخبثاء ذوى الأحقاد من ضعاف العقول والنفوس ، الذين ظـــهروا فى الحياة العربية لذلك العهد ، بظهور سطوة « الاستعمار » وسطوة « التبشير » وهما صنوان لا يفترقان .

ودليل آخر ، وذلك أنه حين انجلى غبار ما أثاره طه حسين بكتابيه : « فى الشعر الجاهلى » فى سنة ١٩٢٦ و« مستقبل الثقافة فى مصر » سنة ١٩٣٩ ، وهما كتابان لا قيمة لهما من الوجهة العلمية ، انجلت بعد ذلك نفسه ، وناقض به ما كتبه وما قاله كل مافى هذين الكتابين من فساد . ومرد ذلك إلى هذه الخصال التى كادت تكون فى نفسه ، وفى حبه للعربية وحرصه على سلامتها ، وما هداه الله إليه من حسن التذوق لروائع البيان .

ولهذه الخصال الثلاثة ، ولمكانه فى « الجامعة » ، ولمجيئه فى تلك الحقبة من حياة الأمة العربية والإسلامية ، وللمخاوف التى أثارها بما قاله فى الجامعة ، يعود الفضل كله فى شهرة طه حسين ، وفى ارتباط حياته بحياة هذه الأمة العظيمة من العرب والمسلمين ، وفى توهج هذه الصورة الغريبة المذهلة التى وصفتها لك .

ولكن يبقى شيء واحد ينبغى أن أختم به هذا الحديث . وهو هذا التوهج الذى كان فى تلك الحقبة من الزمان ، وأثره على سائر الرقعة التى وقع فيها .

لم تكد تمضى عشر سنوات على ظهور كتاب « فى الشعر الجاهلى » أى فى سنة ١٩٣٥ حتى أدرك طه حسين إدراكا واضحا جدا أن اللسان العربى قد صار فى محنة ، لا فى نفسه ، بل فى هذه الأعداد الهائلة من المثقفين الذين رفضوا الأدب العربى كله ، ورفضوا القديم كله شعره ونثره ، لا فى مصر وحدها ، بل فى كثير من البلاد العربية ، وأن أعدادهم إلى تكاثر كلما تقدمت الأيام ، فأخذ يعبر عن ذلك بألفاظ محزنة باكية ، وحاول أن يتألف هؤلاء النافرين ويردهم إلى الطريق القديم ، وإلى أدبهم القديم « لكى يظل قواما للثقافة ، وغذاء للعقول ، لأنه أساس الثقافة العربية . فهو إذن مقوم لشخصيتنا محقق لقوميتنا ، عاصم « لنا من الفناء فى الأجنبى ، معين لنا على أن نعرف أنفسنا » .

هذه بعض كلماته رحمه الله . ومعنى ذلك أن طه حسين فى تلك السنوات ، قد فزع فزعا شديدا لانصراف الناس عنه وعن عربيته التى يحبها ، وعن لغته التى يحرص على سلامتها ، وعن بيانها الذى يعتز به ، ومعنى ذلك أيضا أن الدكتور طه حسين فى سنة ١٩٣٥ ، عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن الذى أثاره بألفاظه المفزعة سنة ١٩٢٥ ، قد خرب البنيان الذى كان يظن يومئذ أنه سوف يبنيه بعد أعوام قلائل ، وبلا مجاز ولا تشبيه . أدرك طه حسين أن الذى قاله فى سنة ١٩٢٥ مفض إلى ضعف اللغة العربية ، وإلى أن تصير الأمة العربية أمة لا لسان لها إلا العامية السوقية ، بلا تاريخ ، وبلا علم ، وبلا ماض .

ثم شهد الدكتور طه حسين بعد ذلك فى أواخر أيامه تقوض القديم كله ، مع تكاثر أعداد المثقفين ، فكان يقول الكلمة بعد الكلمة معبرا عن حزنه وعن لوعته ، بل قل مكفّرا عن خطئه العظيم ، الذى قدر الله أن يقوله فى ساعة عظيمة من حياة هذه الأمم فكان له أثر عظيم فى تدمير أمانيه وأمانى كل مخلص لأمته .

* * *

مواقف .. !

قبل كل شيء ، ولكي أكون واضحا ؛ وحتى لا يختلط الأمر على قارىء ، أحب أن أقص القصة على وجهها . كنا فى ذوات الثلاثين ، نكتب معا فى مجلة الرسالة فى أول عهدها ، فنشأت بيننا مودة ومحبة ، ومضت الأيام ، وهجر صاحبى الأدب ؛ وانصرف إلى دراسة الفلسفة وتدريسها والكتابة فيها ، فلم أنقطع عن متابعة ما يكتب ، كان له فى الأدب طريق متميز ، وصار له فى الفلسفة أيضا طريق متميز ؛ ولم يفتنى فيما يكتب إلا القليل فيما أظن . وتطاولت الأيام ، حتى قرأت لأخى وصديقى الدكتور زكى نجيب محمود مقالة فى مجلة « العربى » . وكان يومئذ فى الكويت ، فلم أصبر حتى كتبت إليه رسالة أسأله فيها عما أراد بما كتب ؟ كانت مقالة غريبة على ، لأنى وجدتها غامضة الأسلوب غامضة المعانى ، وعهدى به كان أبدا واضح الأسلوب واضح المعانى ، فى الأدب وفى الفلسفة معا . فتفضل الصديق الكريم ، ورد على برسالة يقول فيها : « ما دمت أنت قد رأيت المقالة غامضة غير مفهومة ، فهى إذن غامضة غير مفهومة » أو كلاما هذا معناه ؛ فعجبت لقوله ، وساءنى ، فآثرت أن أسكت عنه ! ومضت الأيام ؛ وهيأ الله لى أن أزور الكويت ، وهو مقيم يومئذ ، وقبل أن ألقى الصديق الكريم ، وقع فى يدى كتابه « تجديد الفكر العربى » ، فأخذت أقرؤه حتى فرغت منه ، وتعجبت ماشاء الله أن أتعجب ، فهو بهذا الكتاب قد ردنى إلى زمان قديم جدا ؛ إلى زمان المراهقة الفكرية ، أيام كنا نقرأ ونفكر بلا مبالاة . عجبت له كيف استطاع أن يعود القهقرى إلى صدر الشباب ، بعد هذا الزمان الطويل من مفارقة الصبا ! ثم سعيت إلى لقاء الصديق القديم ؛ فلما لقيته كدت أسأله عن سر ذلك ، ولكنى طويت فجأة كل ما قام فى نفسى ، كما طويت ذلك الكتاب منذ ساعات ، وقنعت بلذة المودة واللقاء بعد دهر طويل من الفراق .

ومنذ أيام ، أخذت كتابه الجديد « المعقول واللا معقول فى تراثنا الفكرى » ؛

* مجلة الكاتب ، السنة الخامسة ، العدد ١٧٠ ، مايو ١٩٧٥ - ص ٢٢ - ٣٦ .

وقرأته ، فازددت تعجبا ، لأنى رأيته يزداد مع الأيام بعدا عن وضوح الأسلوب ووضوح المعانى ، فى مواضع كثيرة . ولكن لم تكد تمضى أيام ، حتى جاء الدكتور زكى يفسر لى ، وللناس ، سر هذا الغموض فى الأسلوب والمعانى ، فإنه نشر فى صحيفة « الأهرام » (الجمعة ٧ مارس ١٩٧٥) مقالة عنوانها : « نريدها ثورة فكرية » ، يدعو فيها الدولة (فيما أظن ؛ أو فيما فهمت) إلى إحداث هذه الثورة الفكرية ويختمها بقوله :

« شيء فى مناخنا الفكرى ؛ يردنا عن إحداث هذه الثورة . فما زالت الكلمة المسموعة هى لغير الراغبين فى ثورة فكرية كالتى أتصورها ، فعليهم أن يراوغوا فى التعبير عما يريدون ، اجتنابا منهم لوجع الدماغ ، تاركين لقرائهم أن ينزعوا المعانى من بين السطور » .

وهذا بيان كاف ! وإذن فبُعْدُ الدكتور زكى ، فى هذه الأيام ، عن وضوح الأسلوب ووضوح المعانى ؛ مرده إلى هذه « المراوغة فى التعبير عما يريد » ، اجتنابا لوجع الرأس والدماغ ! وهذا موقف غير مفهوم فى الحقيقة ، وهو أيضا موقف غير لائق به . غير مفهوم ، لأنه منذ سنوات يقف على منبر لا يزاحمه فيه أحد فى صحيفة « الأهرام » ، لا ، بل يقف هو ومعه آخرون على هذا المنبر غير مزاحمين ، بلا حرج عليهم أن يعلنوا رأيهم فى صراحة وعلانية . وغير لائق ، لأن أسوأ ما تصاب به أمة ، أن يكون كتابها وأدباؤها ومفكروها على مثل هذا المذهب البغيض : « أن يراوغوا فى التعبير عما يريدون ، تاركين لقرائهم أن ينزعوا المعانى من بين السطور » !! هذا إهدار لكرامة القراء ، وإهدار لشجاعة العقل ، وإهدار لأمانة القلم . وأى ثورة هذه التى يدعو إليها ، إذا كان الداعى نفسه لا يملك إلا المراوغة فى التعبير عما يريد ! ثم لا يستنكف أن يعلن أن ما يكتبه إنما هو « مراوغة فى التعبير » . هذا أعجب العجب ! هذا موقف غير مقبول من رجل حرفته ، كما يقول هو : « هى الأستاذية فى الفلسفة ؛ التى تقتضيه ألا يرسل القول إرسالا مهملا بغير تحديد » (المعقول واللامعقول ص : ٣٠) .

وأنا بطبيعتى أكره هذا الطريق ، لا من حيث أنا إنسان عاقل مفكر حر

وحسب ، بل أيضا لأنى منذ آمنت بأن الله وحده لا شريك له ، وأنه أرسل إلى الناس رسولا يبين لهم طريق الهدى من طريق الضلال ، علمت أن هذا البلاغ الذى هو القرآن ، وهو الحق ، لم يكره أحدا على الإيمان ؛ لأن الإكراه والسيطرة خليقة أن تدعو الناس إلى المراوغة ، والمراوغة مفسدة للحياة البشرية ؛ ومتلفة للعقل الإنسانى – ومن أجل ذلك نهى الله نبيه ﷺ عن ارتكاب طريق الإكراه والسيطرة ، فقال له : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ ، وقال له ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، ثم زاد فأمره أن يدع الناس أحرارا فى اختيار طريق الإيمان وطريق الكفر فقال : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ ، كل ذلك كان طريقا مستقيما ومنهجا متبعا ، لأن سلامة الحياة الإنسانية ، وسلامة العقل ؛ وسلامة النفس ؛ لا تنال ولا تدرك إلا بالوضوح : وضوح اللفظ ، ووضوح الرؤية ، ووضوح التعبير ، ووضوح المعانى ، ووضوح الطريق ، وبهذا وحده فارقت حضارة أهل الإسلام سائر الحضارات ؛ ما سبق منها وما أتى بعدها . ومن أجل ذلك كان الأسلوب الذى أبان عنه الدكتور زكى كريها إلى نفسى . وكنت أتمنى ، بعد هذا العمر الطويل ، أن يكون كريها أيضا إلى نفس صديقى الدكتور زكى ، مهما لقى فى سبيل ذلك من عنت ، ومن وجع الرأس والدماغ . وعلى كل ، فهذا موقف لا أحبه له ولا أرضاه .

* * *

موقف ثان ، فيه نفس السمات ؛ سمات الإبهام والغموض ؛ بلا داع يدعو إلى ذلك ، فأنا حين قرأت كتابه الأول « تجديد الفكر العربى » وفرغت منه ، أحسست ، (ولا أدرى كيف !) أنه كتبه وفى نفسه مرارة مؤذية من شىء لقيه فى حياته . وبهذه المرارة أطلق أحكاما قاطعة على « أسلاف » هذه الأمة ، فهو يقول مثلا (التجديد ص : ٥٩ وما بعدها) : « إنى إذ أقرن ما أطالعه من حكايات الخرافة الساذجة عند أسلافنا ، وخصوصا فى عصور ضعفهم ، بما أسمعه بأذنى من حكايات الخرافة يرويها بعض رجال العلم فينا اليوم ؛ تأخذنى الدهشة العميقة :

هل زاد هؤلاء الرجال الذين ظفروا فى ميادين العلوم الطبيعية والرياضية بأعلى الدرجات العلمية ، على أولئك الأسلاف السذج شيئا فى درجة التصديق ؟ هل زاد هؤلاء على أولئك شيئًا إلا صفحات من علوم « حفظوها » ليلقنوها لطلابهم تلقينا ، لقاء الرواتب التى ينفقونها على مظاهر الحياة ، فيبدون للأعين وكأنهم اختلفوا عن سائر العامة العوام فى نظرتهم اللاعلمية إلى تسلسل الأحداث ... فهل أقول إننا فى حياتنا الثقافية ما زلنا فى مرحلة السحر التى تعالج الأمور بغير أسبابها الطبيعية وإننا لولا **علم الغرب وعلماؤه** ، لتعرت حياتنا الفكرية على حقيقتها ، فإذا هى حياة لا تختلف كثيرا عن حياة الإنسان البدائى فى بعض مراحلها الأولى » . وبهذه المرارة أيضا يصف جماهير الأمة العربية قديما بأنهم « **دراويش بالوراثة** » ، ليسقط هذه الصفة على « جماهيرنا اليوم » ، مشيرا إلى محنة يعيشها اليوم فى حياتنا الثقافية والفكرية ؛ بلا إبانة عما يقصد بذلك كله (التجديد ص : ١٦٣ وما بعدها) .

وتنتقل هذه السمة من الكتاب الأول إلى الكتاب الثانى (المعقول واللامعقول ص : ١٨٥ - ١٨٧) ؛ فإذا هو يتناول هؤلاء أنفسهم بالرمز الغامض ، وذلك فى الفصل الذى كتبه عن « إخوان الصفا » ، يقول : « نمضى مع إخوان الصفا فى حديثهم الممتع ، الذى هو جدير بأن يذكر لمعاصرينا - لا أقول من عامة الناس - بل لمعاصرينا الأجلاء أساتذة الفلسفة فى الجامعات ، الذين شالوا الدنيا وحطوها من الغضب ، حين ساير كاتب هذه الصفحات شعبة من الفلسفة المعاصرة ... هكذا ربما صاح فى وجهى أنصار « الجوانية » من أساتذة الفلسفة المعاصرين لنا فى مصر بالذات ... فإذا رأينا هذا ، عجبنا أشد العجب من نفر من الزملاء ؛ سواء منهم من جعل تدريس الفلسفة فى الجامعات العربية حرفته ؛ أو من اكتفى بثقافة عامة ، سمعوا من مؤلف هذا الكتاب دفاعا عن موقف كهذا ، فاتهمه بالكفر من اتهم ، وبالجهل آخرون .. » . كلام مر متفجر .

وكنت أتمنى ألا تكون المرارة التى يجدها صديقى الكريم ، مدعاة إلى مثل هذا الغموض فى التعبير وفى الإشارة لأنى أرى البيان أولى بالعلماء من الكناية .

وأنا أخشى أن يكون صديقى إنما كتب هذين الكتابين بمرارة : للرد على هؤلاء الذين آذوه ، لا للبحث الصادق عن طريق لتجديد الفكر العربى ، وللبيان عن الجزء المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى ، فهذا أيضا موقف لا أحبه ، لأنه عندى غير معقول ! وكان أولى به عندى أن يصرح . ولقد أحس هو نفسه ، بأن هذا الغموض مرغوب عنه ، فإن حديثه الجميل عن « عبد القاهر الجرجانى » ، أنه كان قد أبدى رأيا فى النقد الأدبى ، فهاجمه من هاجمه ؛ قال : « فما هو إلا أن مرت على ذلك بضعة أعوام ، وإذا بعجيبة من عجائب الحياة الثقافية المعاصرة فى مصر ؛ تظهر فى الأفق بلا حياء ، وهى أن نسبت هذه الفكرة عينها ، للرجل عينه الذى كان قد تصدى لكاتب هذه الصفحات أول الأمر بالمعارضة والمجادلة » ، وهذا شىء قبيح بلا ريب وظلم مفزع ثم أدرك الدكتور زكى أن هذا الغموض فى الإشارة لا داعى له ؛ فلجأ إلى التصريح فقال : « ولماذا أخفى الأسماء ؟ أنه الدكتور محمد مندور ، ومات الدكتور مندور ، ونهض له مناصرون يبرزون أهم ما استحدثه فى النقد الأدبى ، فإذا بينه فكرة « القراءتين » هذه : قراءة أولى للتذوق ، وقراءة ثانية للتحليل والتعليل !! » ؛ ثم عقب على هذا بكلمات حزينة مؤلمة قال : « لكن ما فائدة الندم على لبن مسكوب ! لنمض فى طريقنا ، طاوين الصدر على ضروب من **العنت والإهمال** لقيناها ، ولم يعد لنا فى هذه المرحلة من العمر أن نرد ونعترك ؛ وإنما هى ذكرى أليمة تنزو » . أى مرارة من الظلم أو أى حيف لقى فى حياته ! ومع ذلك كله فقد أحب له أن تكون مواقفه كلها كهذا الموقف من التصريح والإبانة عن مواطن الفساد فى حياتنا الأدبية ، بلا غموض وبلا رموز .

وموقف ثالث ، أعجبنى من ناحية ، ولم يعجبنى من نواح أخرى . أعجبنى لأنه بعد قليل من التأمل يبدو واضحا جدا . لأنه موقف انحياز كامل من جميع نواحيه إلى ما يسميه « ثقافة الغرب » ، كقوله آنفا : « لولا علم الغرب وعلماؤه ؛ لتعرت حياتنا الفكرية على حقيقتها » ، ومواضع أخرى متفرقة ، صرح فيها بهذا الانحياز التام . وهذا أمر مريح ، ولا غضاضة عليه فى التصريح به .

ولكن هذا فيه كل الغضاضة أن يقول فى (المعقول واللامعقول : ص ٢٨) : « وأنى لأقرر عن نفسى أنى حين هممت بهذه الرحلة (أى رحلة المسافر الغريب فى أرض غريبة ، كما يقول فى ص : ١٠ ، ١٦) فى دنيا تراثنا الفكرى ، لم أجعل غايتى تقويم التراث ، ومن أكون أنا حتى أجيز لنفسى مثل هذا التقويم ، لتراث كان بالفعل أساسا لحضارة شهد لها التاريخ ؟ لكنى جعلت غايتى شيئا آخر ، أظن من حقى إذا أردته ، وهو البحث فى تراثنا الفكرى عما يجوز لعصرنا الحاضر أن يعيده إلى الحياة ، ليكون بين مقومات عيشه ، ومكونات وجهة نظره . وبهذا يرتبط الحاضر بذلك الجزء من الماضى الذى يصلح للدخول فى النسيج الحى لعصرنا الذى يحتوينا راضين به أو مرغمين » .

ومع كل هذه الصراحة المحمودة ، فقارىء الكتابين ينتهى إلى شىء واحد ، هو أن كاتبهما لم يفعل شيئا سوى أن نصب نفسه مقوما لجميع ماسماه « التراث » ، رافضا لأكثره ، قابلا لشىء قليل جدا منه . فهو يقول مثلا فى (تجديد الفكر العربى : ٢٩٤ - ٢٩٩) :

« إنى لأنظر فأرى سلسلة الخصائص التى يراد لها أن تقتلع من جذورها من تربتنا الثقافية ، قبل أن يتاح لنا استنبات زرع جديد ، إنما تترابط حلقاتها ، فإذا سلمت بالأولى ، كان لزاما أن تسلم بالثانية فالثالثة فالرابعة . وأولى هذه الحلقات ، وأعمقها جذورا ، وأكثرها فروعا ، هى نظرة العربى إلى العلاقة بين الأرض والسماء ، بين المخلوق والخالق ؛ بين الواقع والمثال ؛ بين الدنيا والآخرة ، بين المعقول والمنقول - هذه كلها ظلال من موقف واحد وحقيقة واحدة . ونظرة العربى فى صميمها هى أن السماء قد أمرت ، وعلى الأرض أن تطيع ، وأن الخالق قد خط وخطط ، وعلى المخلوق أن يقنع بالقسمة والنصيب ، وأن المثال سرمدى ثابت ، وعلى الواقع أن يقسر نفسه على بلوغه ، وأنه إذا تعارضت الدنيا والآخرة ؛ كانت الآخرة أحق بالاختيار ؛ وأن المنقول إذا ما تناقض مع المعقول ، ضحينا بالمعقول ليسلم المنقول ... » ثم يمضى فى احتجاجه حتى يقول : « جذور ينبغى أن تقتلع من أصولها ، إذا أردنا للمواطن العربى أن يولد من جديد ، فإذا خلت التربة من هذه الشوائب ، بذرنا بذورا أخرى لتُنْبِت نبتا آخر » .

وهذا كله كلام محفوف بالغموض ، وبالإشارات المبهمة لشيء مبهم ، إنه هو نفس الأسلوب الذى اختاره الصديق الكريم : « اجتنابا لوجع الرأس والدماغ » . وأنا لا أحب أن « أنزع معانيه من بين السطور » . كما أمر ، ولكن أقل التأمل يدل دلالة واضحة على أنه قد قوم « أصل التراث » كله تقويما لامرية فيه ، فوجده غير صالح . بل هو أيضا مضر بالتربة ، فقضى أن يقتلع من جذوره ، لأنه « أعمقها جذورا ، وأكثرها فروعًا » ، وإذن : فما معنى تواضعه الخادع ؛ حين استنكر أن يكون قد أجاز لنفسه تقويم التراث ؟ هذا طريق محفوف بالخطر ، وهو أيضا موقف غير لائق .

وموقف رابع : ذلك أن الدكتور زكى أستاذ متميز فى الفلسفة ، والمذهب الذى يتبعه مذهب قائم على تحليل الألفاظ والقضايا ، وهو قد لقى العنت والظلم فى سبيل مذهبه . وقد كان حريصا فى مواضع من كتابيه المذكورين أن يحلل بعض الألفاظ ويحددها على الوجه الذى يريده . من ذلك لفظ « العقل » (تجديد الفكر العربى : ٣٠٨ وما بعدها) ، فإنه قال : « وأول التوضيح أن نبين فى جلاء ماذا نريد بقولنا « عقل » ؟ فلا يجدينا شيئا أن نقذف بهذه الكلمات المحورية قذفا ، لنبنى عليها أقوالا على أقوال ، كأنما هى من الوضوح بحيث لا يسأل عن تحديدها ، مع أنه إذا لم تكن أمثال هذه الكلمات غامضة مبهمة ، فأين تجد الغموض والإبهام ؟ » . فهذا التزام صريح بالمذهب .

بل إنه فى الكتاب الثانى (المعقول واللامعقول : ١٥٩ ، ١٦٠) ، كان أشد التزاما بالمذهب ، فإنه تناول الجاحظ فى فصل مهم جدا ، أحسن فى أكثره ، فجعل يتنقل بنا من موضع إلى موضع فى كتب الجاحظ : حتى انتهى إلى رسالته « فى الجد والهزل » . فاتفق أن جاء فى هذه الرسالة معنى كان الدكتور زكى قد استعمل له نفس اللفظ الذى استعمله الجاحظ . وذلك أن صديقى الدكتور زكى كان قد شبه بعض الألفاظ التى يتداولها الناس « بالظرف الخالى » ؛ وهى ألفاظ يظن الناس أنهم قد فهموا دلالتها ، مع أنها إذا حللها الفيلسوف ليرى ما فى جوفها ، إذا هى فارغة . وكان الجاحظ قد ذكر أمر آدم عليه وعلى نبينا السلام ،

وذكر قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ، ثم قال الجاحظ فى بيان ذلك : « ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنى لغو : كالظرف الخالى ، والأسماء فى معنى الأبدان ، والمعانى فى معنى الأرواح ، اللفظ للمعنى بدن ، والمعنى للفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معان ، لكان كمن وهب شيئا جامدا لا حركة فيه ، وشيئا لا حِسَّ فيه ، وشيئا لا منفعة عنده » .

فلما وقف صديقى على هذا الذى قاله الجاحظ ، علق عليه تعليقا ثائرا مثيرا ؛ وملتزما بمذهبه ، لأنه وجد ما يؤكده فى كلام الجاحظ ؛ فقال :

« كان كاتب هذه الصفحات قد أخذته الحماسة المشتعلة ذات حين ، معتقدا أن الناس عامة ، والأمة العربية خاصة ، قد ملأت لغتها بألفاظ لا تدل ، وبأسماء لا تسمى ، فكانت النتيجة أنهم كتبوا ، وقالوا ثم قالوا : لكن حصيلة الفكر أضأل جدا من هذا الدوى الهائل الذى أحدثوه . ولقد أورد هذا الكاتب تشبيه « الظرف الخالى » فى كتاب صدر له سنة ١٩٥٣ وعنوانه : « خرافة الميتافيزيقا » فقامت جماعة من الناس ظنت أن فى جماجمها ثقافة ، وكتب أحدهم ، وقد ظن أن أعواما قضاها فى أوربة قد زودته بالسلاح المرهف الذى يرد به على « الكفرة » ، فكان أن علق هذا الرجل على التشبيه بعينه ، ليبين للناس إلى أى حد ذهب الضلال بصاحب « خرافة الميتافيزيقا » ... مسكين أنت ياعثمان [١] ، ياابن بحر ، ياجاحظ ! لو كان حظك قد شدك من زمنك فى القرن التاسع (يعنى فى القرن الثالث الهجرى) لتعيش مع المعاصرين لنا فى القرن العشرين » !! كلام مرير لاذع .

وهذا ؛ وإن كان يدخل فى « الموقف الثانى » الذى لا يعجبنى ، إلا أنه يدل على مقدار حرص الدكتور زكى على تحليل الألفاظ وتحديدها ، وعلى التزامه بمذهبه الفلسفى ، وما لقى فى سبيل ذلك من الظلم المبرح . فبأى معنى يكون له

---

(١) كذا بالأصول ، الصواب : يا أبا عثمان .

كل هذا الحرص ، وكل هذا الالتزام ، ثم يدع قراء كتابيه فى حيرة من أمر ألفاظ أخرى « محورية » كما يقول ؟ وهذه الألفاظ « المحورية » كثيرة فى الكتابين ، ولكن هناك ثلاثة ألفاظ يدور عليها ما فى الكتابين جميعا ؛ وهى أيضا من أكثر الألفاظ دورانا على ألسنة الناس فى أيامنا هذه ، وهى أيضا ألفاظ محدثة ، ينطبق عليها أشد الانطباق ، ما قاله الدكتور آنفا « كأنما هى من الوضوح بحيث لا يسأل عن تحديدها ، مع أنه إذا لم تكن أمثال هذه الكلمات غامضة مبهمة ، فأين تجد الغموض والإبهام ؟ » . وهذه الألفاظ هى : « التراث » و « الثقافة » و « الحضارة » فلو التزم الدكتور زكى بمذهبه الفلسفى ، لكان من حق قرائه عليه أن يعرفوا ؛ على الأقل ، ماذا يريد هو باستعمالها ؟

لم يغب هذا عن الصديق الكريم ، ولكنه أتى بشىء عجيب جدا فى سبب إغفالها ، فإنه أشار فى (تجديد الفكر : ٦٦) إلى أن فى ذهنه معانى كلية ، يريد التحدث عنها ، كمعنى « الثقافة » ومعنى « التراث » ، وقال : « فما أسهل أن أسوق ألفاظا كهذه بمعانيها المجردة الخالية من التفصيلات والعناصر » - ومع ذلك فلم يكلف نفسه مشقة تحديدها أو تحليلها ، بل العجب العاجب أنه لما بلغ (ص : ٦٩) ذكر « الثقافة » ثم قال : « إن سؤالا ليفرض علينا نفسه قبل هذا السؤال ، وهو : ماذا تعنى بالثقافة ؟ ولقد طرح هذا السؤال ؛ وتنوعت الإجابات عنه ؛ حتى أصبح **موضوعا تمجه النفس** ، ولذلك فلست أنوى الوقوف عنده لا طويلا ولا قصيرا ، وسأترك للقارىء حرية كاملة فى أن يفهم من الكلمة ما يشاء » .

كيف يكون هذا ؟ وأى معنى إذن لالتزام المرء بمذهب فلسفى يقوم على تحليل الألفاظ والقضايا ؟ وهل يصح أن يضرب الفيلسوف عرض الحائط بمذهبه ، لأن تنوع الإجابات ، جعل اللفظ أو القضية « موضوعا تمجه النفس » : هذا أمر غريب جدا . وهل تحل المشكلة ، بأن يبيح الفيلسوف للقارىء أن يكون حرا حرية كاملة فى أن يفهم من « الكلمة » ما يشاء ؟ هذا هدم لأصول المذهب ، وهو حرى أن يوقع القراء فى التخبط والخلط ؛ ولاسيما إذا كان « اللفظ » هو

المحور الذى يدور عليه كل مافى الكتابين . وأنا أنقل إليك مواضع منهما ، تغير فيها معنى « الثقافة » تغيرا مبنيا . من ذلك قوله فى (تجديد الفكر ص : ٧١) :

« فحياة الناس هى ثقافتهم ، وثقافتهم هى حياتهم ، لا حين ننسلخ عن الحياة ، ليضطلع بها محترفون يطلقون على أنفسهم اسم : المثقفين » . هذا معنى مبهم ، ثم يقول بعد قليل فى الكتاب نفسه (ص : ٨١) .

« لم تكن اللغة فى ثقافة العرب ، « أداة » للثقافة ؛ بل كانت هى الثقافة نفسها » ، فهذا معنى ثان أشد غموضا وإبهاما من الأول . ثم يقول فى الكتاب الثانى (المعقول واللامعقول ص : ١٠٥) ؛ عند ذكر مقتل أبى مسلم الخراسانى ، وما أعقب ذلك من أمر بعض الخوارج على الدولة كالراوندية ، يقول :

« لا يعقل أن يكون مقتل رجل كأبى مسلم الخراسانى ، مبررا كافيا لمثل تلك الردة إلى ديانات الفرس فيما قبل الإسلام ، وبمثل تلك السرعة وذلك الاتساع (وهذه كلها مبالغات مضنية مع الأسف !) مما يدل دلالة قوية على أن الإسلام لم يكن عند القوم أكثر من غطاء خارجى ، أبعد ما يكون عن ثبات الجذور ؛ فكانت تكفيه أقل هبة من هواء ليطير ، فتنكشف العقائد الراسخة من تحته (وهذا أوغل فى المبالغات المضنية أيضا) ، وإذا قلنا « العقائد » ؛ فقد قلنا « الثقافة » أيضا » ، وهذا معنى ثالث غارق فى الابهام والغموض . وهى ثلاث صور مختلفات لمعنى « الثقافة » ، وفى الكتابين صور أخرى أعجب وأغرب !

وأنا لا أدرى لم هان على صديقى الدكتور زكى مذهبه الفلسفى الصارم ، فى مسألة « الثقافة » و « التراث » و « الحضارة » ، على وجه الخصوص ؟ ولا أدرى ما معنى الحرية التى تركها لقارئه ، حتى يقع فى حيرة مضللة ؛ وهو يتحسس المعانى التى يريدها بهذه الألفاظ ؟ هذا موقف لا يرضى ولا يليق من رجل « حرفته هى الأستاذية فى الفلسفة ، والتى تقتضيه ألا يرسل القول إرسالا مهملا بغير تحديد » (المعقول واللامعقول ص : ٣٠) .

وموقف خامس : وأنا كما ترى ، لا أريد أن أناقش الدكتور زكى فيما قاله ،

أو فيما انتهى إليه ، فى هذين الكتابين ، فهو حر فى أن يقول ما شاء ، وأن يختار مما يسميه هو « ثقافة » أو « تراثا » ما شاء أيضا . ولقد شاء أن يجعل رحلته الأولى فى « التراث » ، فى ميدان المعركة التى نشبت بين أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وبين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (المعقول واللامعقول ص : ٢٩ وما بعدها) .

وأنا لا أريد هنا أن أصحح له وقائع التاريخ كما رواها فى كتابه ، ولا أريد أيضا أن أحجر عليه القول فيما اختاره ، أو فيما انتهى إليه ، أو فى الطريقة التى عالج بها هذا المشهد الذى رآه . ولكن الشىء الذى لا أستطيع أن أغفل الإشارة إليه ، لأنه واجب كل مفكر ، هو الالتزام التام بالتحرى والفحص ، قبل مشيئة القول ومشيئة الاختيار .

فهو قد اختار كتاب « نهج البلاغة » ، ليتخذ مافيه من الأقوال المنسوبة إلى أمير المؤمنين علىّ ينبوعا يستخرج منه صورة للإمام على فى القرن الأول من الهجرة ، يقول : « ولننظر كم اجتمع فى هذا الرجل من أدب وحكمة وفروسية وسياسة » (المعقول واللامعقول ص : ٣٠) . فإذا كان ذلك كذلك ، أفليس من وسائل « العقل » أن يتثبت المرء من أن هذا الكلام المنسوب إلى على رضى الله عنه هو كلامه ، بلا ريب فى ذلك ؟ هل يختلف فى مثل هذا عاقلان ؟ لا ، بلا ريب ، وإذا كان الدكتور زكى ، كما وصف نفسه : « بعيدا عن التخصص الدقيق الكامل فى تراثنا العربى » (المعقول واللامعقول ص : ١١٥) ، ألم يكن أسلم له فى طريقه أن يسأل ، وأن يحاول أن يفكر على الأقل ، حتى يتثبت من صحة نسبة ما فى هذا الكتاب من الأقوال إلى على رضى الله عنه ؟ إنه إذا بطل أن يكون هذا الكلام صحيح النسبة إلى علىّ ، كان استخراج صورة علىّ منه ضربا من العبث ، لاأكثر ولا أقل .

وكتاب « نهج البلاغة » ، هو مجموع أقوال وخطب ، جمعها الشريف الرضى المولود سنة ٣٥٩ من الهجرة والمتوفى سنة ٤٠٦ من الهجرة ، أو جمعها أخوه الشريف المرتضى المولود سنة ٣٥٥ من الهجرة والمتوفى سنة ٤٣٠ من

الهجرة ، ونسب ما فيه إلى أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، الذى توفى سنة ٤٠ من الهجرة . ومعنى ذلك أن بين جمع هذه الأقوال وبين وفاة على رضى الله عنه نحو أربعة قرون . وهذه الأقوال لم يروها الرضى أو أخوه المرتضى بإسناد متصل ينتهى إلى على فكيف نثق بهذه الرواية المرسلة بلا إسناد صحيح ، مع هذه الدهور المتطاولة التى تفصل بين على أمير المؤمنين ، وبين جامع هذه الأقوال ؟

وأنا أستطيع أن أؤكد لصديقى الكريم أن النظرة الأولى إلى جملة ما فى الكتاب من الكلام ، تقطع بأن كثرته الكاثرة لم تجر على لسان على رضى الله عنه قط ، وأنه ، بعد الفحص الأول المدقق ، لا يكاد يسلم منه لعلى رضى الله عنه إلا أقل من العشر . فإذا كانت النسخة التى طبعها الشيخ محمد عبده ، تقع فى نحو ٤٠٠ صفحة ، فلا يكاد يصح منها إلا أقل من أربعين صفحة . وهذا القدر المنسوب إلى على ، يكاد يكون كله فى السنوات الأخيرة من حياته ، منذ بويع بالخلافة لخمس ليال بقين من ذى الحجة سنة ٣٦ من الهجرة ، إلى أن قتل رضى الله عنه لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ٤٠ من الهجرة ، أى فى أقل من أربع سنوات . وهذا أمر لايكاد يصدق : أن يكون قيل كله فى هذه الفترة القصيرة من الفتنة والاضطراب ، وأن يكون الرواة قد استطاعوا أن يجيدوا روايته فى هذه الفترة من الفتنة والاضطراب . هذا فضلا عما فى الكتاب من أقوال لا يليق صدورها عن رجل مثل علىّ فى دينه وعلمه وتقواه .

ودليل آخر ، فإن هذا الكتاب « نهج البلاغة » ، فيه من غريب ألفاظ اللغة قدر كبير جدا ، وقد أفرد علماء الأمة كتبا تسمى « كتب الغريب » ، عنيت بتفسير غريب ما فى حديث رسول الله ﷺ ، وغريب ما روى عن كبار الصحابة . فمن ذلك مثلا كتاب « الغريب » لأبى عبيد القاسم بن سلام (توفى سنة ٢٢٤ من الهجرة) ، فإن شرح حديث أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، يقع فى نحو مئتى صفحة من المطبوع ، ويقع شرح حديث أمير المؤمنين على رضى الله عنه فى خمسين صفحة من المطبوع ، أى أن حديث على فيه ربع حديث عمر ، فإن صحت نسبة ما فى « نهج البلاغة » إلى على ، لكان شرح غريبه من اللغة ، يقع فى

أضعاف أضعاف ماروى عن عمر ، على الأقل . ومعنى ذلك أن علماء الأمة الذين تتبعوا شواهد اللغة ، قبل مولد الشريف الرضى أو أخيه المرتضى ، لم يقفوا على هذا القدر المفرط الموجود فى « نهج البلاغة » . ولو كان تحت أيديهم مثل هذا القدر ، لما أغفلوه البتة . وهناك أدلة أخرى على بطلان نسبة ما فى هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين .

وحسبى هنا أن أختم القول فى « نهج البلاغة » ، بذكر ما قاله الحافظ الذهبى (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) ، حيث ذكر الشريف المرتضى فقال : « وهو المتهم بوضع كتاب « نهج البلاغة » ، وله مشاركة قوية فى العلوم ، ومن طالع كتابه « نهج البلاغة » ، جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين ، ففيه السّب الصراح والحطّ على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفيه من التناقض ، ومن الأشياء الركيكة ، والعبارات التى من كان له معرفة بنفس القرشيين من الصحابة ، وبنفس غيرهم من المتأخرين ، جزم بأن أكثره باطل » . وهذا أهون ما يقال فى هذا الكتاب .

فكتاب كهذا الكتاب ، يدل صريح العقل والنظر ، وصريح النقل والتثبت ، على أنه كتاب قريب النسب ، كان غير لائق بالدكتور زكى أن يتسرع إلى التقاطه ، دون أن يفحصه ، ويتحرى عنه ، فيجعل ما فيه من كلام كثير الغثاثة ، وقد كتب أكثره بعد دهور متطاولة ، ممثلا لعلى بن أبى طالب وممثلا أيضا للقرن الأول من الهجرة ، وهو القرن الذى يجمع أجلاء أصحاب رسول الله ﷺ وهم ألوف ، وليس علىّ إلا واحدا منهم ، وإن فاقهم بما فضله الله به وكرمه ، من العلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ . فإغفال تحديد معنى « التراث » عند الدكتور ، وترك التثبت من صحة الأقوال والأفعال المنسوبة إلى الرجال ، ثم الإقدام مع ذلك على الأحكام القاطعة فى المعانى والصور ، موقف لا أرضاه لمفكر عريق متميز ، كأخى الدكتور زكى ، أراد أن يضع لنا منهجا ، ويمهد لنا طريقا يفضى إلى الفصل والتمييز بين « المعقول واللامعقول فى التراث العربى » .

وموقف سادس : وذلك أنى كنت دائم التخوف على أخى الدكتور زكى ، وأنا أقرأ كتابيه ، من أن تكون له أفكار أعدها إعدادا قبل قراءة « التراث » ، وقبل

الغوص فى « الثقافة » ، فبجانب ما هو معروف به من سلامة النظر ، ومن الأستاذية التى لا تنكر فى الفلسفة . وهذا الذى خفته هو الذى وقع ، ولولا ذلك لما كان معقولا أن يقول فى (المعقول واللامعقول ص : ١١٧) إنه يستند فيما يكتب « إلى انطباعات أحسستها ، إذ كنت أقلب صفحات التراث ، أكثر مما استندت إلى مقدمات موثوق بصحتها ، لتنتج نتائج موثوقا بصدقها أيضًا » . ولا أدرى كيف يغيب عن الدكتور أن مرتكب هذا الطريق يسير على غرر ، ويضيع وقته ووقت الناس فى كتابة ما يكتب ، وأن التزام مثل هذا الطريق يفضى بالكاتب إلى التسرع فى فهم الكلام وفى الاستنباط منه ، وإلى صرف الكلام عن وجهه الصحيح إلى الوجه الذى أعده إعدادا قبل القراءة ، وإلى ترك التثبت من صحة النص الذى بين يديه ، مع قدرته ، لو تأنى إلى معرفة وجه الخطأ فيه ، أو إلى ما دخله من تصحيف أو تحريف .

مثال ذلك أنه يقرر تقريرا لايشك هو فى صحته ، وبلا دليل يدل عليه ، أن « الثقافة » العربية التى عاش بها العربى ، تجعل له موقفا واحدا فى الحياة : « وقفة من يجعل الثبات للسماء ، والفناء للأرض . ففى السماء الأصول ، وعلى الأرض الأشباح والظلال . أنها ثنائية حادة بين الغيب والشهادة ، بين الروح والجسد ، بين الإنسان والله ... فإذا كانت هذه هى الصورة الكونية ، فلابد أن تكون كذلك هى الصورة لحياة الإنسان فى مجتمعه ، فلصاحب السلطان أن يريد ، وعلى الناس أن يطيعوا . الكلمة عندنا لصاحب القوة ، والقول النافذ لصاحب الجاه » (تجديد الفكر ص ٢٩٤ - ٢٩٦) . وهذه الفكرة التى لا نجد دليلا واحدا يدل عليها ، إنما هى فكرة ثابتة سابقة على قراءة « التراث » ، وهى أيضا منتشرة فى الكتابين جميعا . فلننظر الآن كيف طلب الدليل على صحتها من « التراث » فى الكتابين جميعا . قال فى (تجديد الفكر ص : ٤٦ - ٤٨) .

« لم يكن فى ساحة الفكر عند الأسلوب حوار حر إلا فى القليل النادر » ، لماذا ؟ يقول : لأننا « قوم على **الفطرة** ، فأى عجب إذا سلكنا أنفسنا مع **الفطرة** فيما فطرها عليه فاطر السماء والأرض ! » وكيف كان ذلك ؟ يقول : « قد ورد

فى **التراث** أن من الكائنات ما لا يصلح إلا بأمير يؤمر عليه ، وتلك هى - كما ورد فى العقد الفريد : الناس ، والفأر ، والغرانيق ، والكراكى ، والنحل ، والحشرات ... كلها تأبى بحكم فطرتها أن يكون الأمر حوارا بين أفرادها ، وتريده أوامر ونواهى وزواجر تهبط من الأعلى ليصدع بها الأسفل ، وطوبى لمن كان لهم الأمر ، ناسا كانوا أو حشرات » . ولماذا كان ذلك كذلك يقول : « لأن الأمر والنهى - كما يقول الجاحظ - لذة أين منها الحواس .. فسرورك إذا كنت صاحب أمر أو نهى ، سرور من طراز فريد ، حين ينحدر أمر من شفتيك ، فإذا هو نافذ ، وحين توقع بخاتمك ، فإذا الطاعة على الناس قد وجبت ، بل ، **فإذا الحجة « العقلية »** قد ألزمت كل ذى حجة . ولا تقل إنْ لمْ يَكُن فى الأمر إلا بصمة الخاتم .. لا تقل ذلك ، لأنك إنما تقوله لجهلك باللذة الكبرى .. إذا جلست من الناس مجلس الأمر والنهى ، (اقرأ الحيوان للجاحظ ١ : ٢٠٥) . إنه إذا نزلت الأوامر والنواهى من أهل الطوابق العليا إلى أهل الطوابق السفلى ، « .. فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم ، والأوامر بالانقياد ، والنواهى بالتعظيم (البداية والنهاية لابن كثير ١ : ٥) » ، انتهى باختصار .

ولأنى لم أنصب نفسى لمناقشة قضايا الكتابين ، فإنى سأصرف النظر عن موضوع « الفطرة » ، وعن استدلاله بما جاء فى « العقد الفريد » : وعن الأسلوب الذى ساق فيه حكما غريبا عن « الأسلاف » وجعله شيئا مقررا مفروغا من صحته وسلامته . وإنما عملى هنا أن أنظر فيما نسبه إلى الجاحظ وإلى الحافظ ابن كثير ، والكلام السالف الذى نقله عن الجاحظ ، إنما هو استخراج وتأويل للفظ كلامه ، جعله حجة مؤيدة للفكرة السابقة التى اعتقدها ، وفسر كلامه على مقتضاها . ولكنه أتى بنص كلام الجاحظ فى الكتاب الثانى (المعقول واللامعقول ص : ١٦٨) ، قال :

« أأقول إنه خلق عربى متأصل - لا فرق بين أقدمين ومحدثين .. أن يتحكم بعضنا فى رقاب بعض ؟ .. إننا نسأل ههنا عن « العلة » ، لأنه هو الوضع الشاذ الذى يتطلب التعليل ، يقول الجاحظ : « أين تقع لذة درك الحواس ، الذى هو

ملاقاة المطعم والمشرب ، وملاقاة الصوت المطرب ، واللون المونق ، والملمسة اللينة ، من السرور بنفاذ الأمر ، وبجواز التوقيع ، وبما يوجب الخاتم من الطاعة ، ويلزم من الحجة » (الحيوان ١ : ٢٠٥) ، وأرجو أن يلاحظ القارىء معنى الجملة الأخيرة من هذه العبارة ، جملة : « .. يلزم من الحجة » أن الحجة تكون ملزمة إذا وقعها صاحب الأمر والنهى فينا ، وختم عليها بخاتمه ، وليذهب إلى جهنم عقل يقيس إلزام الحجة بمقاييس منطقه ، ليرى أين تكون المقدمات العقلية التى تلزم بالنتيجة » ، انتهى ، مع بعض الاختصار .

ومرة أخرى أقول : إنى لست بصدد المطالبة بالدليل على صحة ما جعله « خلقا عربيا متأصلا » ، من تراث العرب وثقافتهم ، ولكنى أحب أن ألفت النظر إلى هذا الأسلوب المتوهج الثائر الفرح بما ظفر به فى كلام الجاحظ ، مما ظن أنه يؤيد فكرته السابقة عن « التراث العربى » ، وإلى تكرار ماظفر به فى الكتابين جميعا . والسؤال الآن هو : هل أراد الجاحظ هذا المعنى الذى فهمه من عبارته ؟ هل يصح فى سياق نص كلام الجاحظ : أن الحجة العقلية فى تراثنا تكون ملزمة للعقلاء من الناس ، إذا وقعها صاحب السلطان ، وختمها بخاتمه ؟ هل هذا صحيح أن يكون الجاحظ قال ذلك أو عناه ؟

وهذه الجملة التى قالها الجاحظ ، مأخوذة من « كتاب الحيوان » . وهذا الكتاب نشره وحققه الأستاذ عبد السلام هارون ، وبذل فيه من الجهد قدرًا بالغاً . ومع ذلك فقد قال فى مقدمة الكتاب ما نصه : « ليس يوجد فى عصرنا من يستطيع أن يخرج هذا الكتاب مبرأ من العيب ، سليما من التحريف » ، وصدق فيما قال . ومن أجل ذلك تجده قد ألحق بكل جزء من أجزاء الكتاب ، استدراكًا لما فاته ، مما تجاوزه النظر ، أو غمض الطريق إلى تصحيحه . وهذه الجملة التى نقلها الدكتور زكى ، هى مما وقع فيه التحريف والتصحيف ، بدلالة العقل ، ثم بدلالة السياق ، ثم بدلالة تاريخ هذه الأمة العربية ، ومعلوم أن الجاحظ لم يكن ممن يلقى القول على عواهنه . فهو يتحدث عن كل صاحب سلطان فى هذه الدنيا ، فى كل ملة من الملل ، وفى كل زمان ومكان ، وفى كل طائفة أو أمة ،

وفى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب ، وعما يجده صاحب كل سلطان من لذة خفية بنفاذ أمره فى الناس – ويقول إن كل من ولى أمرًا من أمور الناس ، فبحق هذه الولاية يأمر وينهى ، (بلا غضاضة فى ذلك على عربى أو أعجمى أو أوربى !) . وصار بهذه الولاية مستوجبا أن يطاع فى الأمر والنهى ، وإلا بطلت الولاية ولم يكن لها معنى ، ولم يكن للناس حاجة إلى حاكم أو وال أو رئيس أو وزير . وبهذا الحق المفروغ من التسليم به فى جميع أمم الدنيا منذ كانت إلى أن تنقضى مدتها ، وجب على كل مرءوس أن يطيع رئيسه فى الأمر والنهى ، فلفظ « الطاعة » . عند الجاحظ لا يزيد على هذا : أن ينفذ أمر الرئيس ، وأمر الرئيس لا يكون صحيحا موجبا للطاعة إلا بتوقيعه على الأمر ، وعبر الجاحظ عن ذلك فقال : « بما يوجب الخاتم من الطاعة » . ويبقى الجزء الآخر بعد صدور الأمر والتوقيع ، وهو « التنفيذ » ، كما نقول اليوم . وهذا « التنفيذ » هو الذى عبر عنه بقوله : « ويلزم من الحجة » ، كما جاءت فى نسخ كتاب الحيوان ، ولكن كلمة « الحجة » وقع فيها تحريف النساخ ، لأن صوابها هو « الخدمة » ، وصواب العبارة كلها إذا هو :

« من السرور بنفاذ الأمر ، وبجواز التوقيع ، وبما يوجب الخاتم من الطاعة ، ويلزم من الخدمة » .

ولفظ « الخدمة » ، بمعنى السعى فى إنفاذ ما أمر به السلطان ، أو صاحب الولاية ، لفظ دائر فى جميع كتب « التراث » ، كما يسمونها ، وهو يأتى فى كل كتاب مقرونا بلفظ « الطاعة » ، والجاحظ ، والأمر لله وحده ، جزء من « التراث » ، يجرى كلامه على عادة أهل هذه اللغة ، وعلى ما ألفته الأمة التى هو منها . والجاحظ أحرص من أن يقول أن « خاتم الولاة » يلزم الرعية التسليم لهم فيما سماه الدكتور « الحجة العقلية » ، ولولا أن الدكتور زكى كان قد اعتقد فى نفسه هذا الاعتقاد ، بأن الأمة العربية يمكن أن توصف بأنها تسلم لولاة الأمر ما قالوا وأن أمرهم يصبح بتوقيع خاتمهم « حجة عقلية » يلزم الناس التسليم لها ، ولو ناقض الأمر حجة العقل – لولا ذلك ، لكان الدكتور خليقا أن ينتبه إلى موطن

التصحيف والتحريف فى هذه الكلمة . والدليل على أنه يقرأ ما يقرأ ، وهو قادر على النظر فى وجوه التصحيف والتحريف فى الكلام أنه نقل نصا عن كتاب « الخصائص » لابن جنى (١ : ٢١٥) ، وذلك فى (المعقول واللامعقول ص : ٢٣٦) ، يقول فيه : « ألا ترى أن الشاعر قد يكون راعيا جلفا ، أو عبدا عسيفا ، تنبو صورته ، وتمج جملته » فتوقف عند قوله « جملته » ، وكتب معلقا عليها : [ربما كان الصواب : خلقته] ، ومع الأسف ، فإنى أقول أن الذى فى « الخصائص » هو الصواب المحض ، وأن التغيير الذى اقترحه لتصويب عبارة ابن جنى لا محل له ؛ ولو لم يكن الدكتور قادرًا على النظر فى النصوص وتصويبها ، وأنه شديد العناية بالألفاظ الدالة على المعانى ، لما كتب هذا التصويب . فكيف حرص على تصويب ما لا خطر له فى بحثه ، وكيف فاته ماكان خليقا أن يحرص على تصحيحه ؟ لا شىء ، إلا أنه فرح بكلمة تؤيد رأيه السابق فصرفه الفرح عن التأمل وتصحيح ما هو خطأ محض .

هذه هى القضية فى شأن نص الجاحظ - وبقيت القضية الأخرى فى شأن نص ابن كثير ، وهى قضية غريبة جدا ؛ فإن الدكتور زكى نقل جملة من كلام الحافظ ابن كثير فى سياق تدليله على أننا ، نحن العرب ، قوم على الفطرة ، وأن الفطرة توجب علينا أن الكائنات كلها لا تصلح إلا بأمير يؤمر عليها ، وحكم هذه الفطرة يوجب ألا يكون بيننا حوار ، بل تريد أوامر ونواهى تهبط من الأعلى إلى الأسفل ليصدع بها ، فإذا نزلت الأوامر من أهل الطوابق العليا إلى أهل الطوابق السفلى » .. فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم ، والأوامر بالانقياد والنواهى بالتعظيم (البداية والنهاية لابن كثير ١ : ٥) فجعل الدكتور هذه الجملة حجة لتأييد رأيه فى أنه « خلق عربى أصيل - لا فرق بين أقدمين ومحدَثين ، أن يتحكم بعضنا فى رقاب بعض » .

وحقيقة الأمر ، هى أن هذه الجملة مقتطعة من مقدمة الحافظ ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » حين ذكر منن الله على عباده ، بأن « أرسل رسله إليهم » ، وأنزل كتبه عليهم ، مبينة حلاله وحرامه ، وأخباره وأحكامه ، وتفصيل

كل شيء فى المبدأ أو المعاد إلى يوم القيامة ، فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم ، والأوامر بالانقياد ؛ والنواهى بالتعظيم » . ويبّن أن الحافظ يتحدث عن تصديق أخبار الله تعالى فى كتابه ، وعن أوامره سبحانه فى كتابه ؛ وعن نواهيه تعالى جده فى كتابه القرآن العظيم . وهذا بمعزل عن توقيع سلطان أو أمير أو حاكم بخاتمه - ولا يمكن أن يقال إن التصديق بأخبار الله تعالى فى كتابه ، والانقياد والتعظيم لأوامره ونواهيه ينسحب على أوامر خليفة أو أمير أو صاحب سلطان أو عالم أيا كان . فإن فى تراثنا أن عدى بن حاتم الطائى كان نصرانيا ، فوفد على رسول الله ﷺ ، قال : « أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب : فقال : ياعدى ، اطرح هذا الوثن عن عنقك ! قال عدى : فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ فى سورة براءة . فقرأ هذه الآية : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، قال قلت : يارسول الله ، إنا لسنا نعبدهم ! فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ قال قلت : بلى ! قال : فتلك عبادتهم » ، فدل هذا على أن الانقياد والتسليم والتعظيم ، إنما هى لله وحده ، ولرسوله الذى أرسله بهذا الكتاب مبلغا له ، ومبينا عنه ، وأنه لا أحد بعد ذلك يجب علينا الانقياد والتسليم لأوامره ، حتى يصح أمره « حجة عقلية » ملزمة إذا وقعها وختم عليها بخاتمه .

هذا حق كلمة الحافظ ابن كثير ، وهذا هو معناها ، فنقل هذه القضية من طاعة الله ؛ إلى طاعة البشر ؛ أمر لا يعقل ولا يقال : ولا يصح نسبته إلى « التراث » . إن صاحب « خرافة الميتافيزيقا » ، وصاحب المذهب المعروف بالتدقيق فى تحليل الألفاظ والقضايا ، كان خليقا ألا ينقل هذه الجملة من معنى بعينه ، إلى معنى آخر ، لولا أنه فارق طريقه ومذهبه ؛ ولجأ إلى الاستناد إلى « الانطباعات » ، وإلى « مقدمات غير موثوق بصحتها ، تنتج نتائج غير موثوق بصحتها أيضا » ؛ كما قال عن نفسه .

هذا موقف غريب جدا ، وأغرب منه أن يكون طريقا إلى البحث عن « تجديد الفكر العربى » ، وعن « تمييز المعقول واللامعقول فى تراث العرب » . وهذا هو

ماخفته عليه ، وأنا أقرأ الكتابين : أن تكون له أفكار أعدها إعدادا قبل قراءة « التراث » وقبل الغوص فى « ثقافة » العرب ، فيحمله ذلك على أن يجانب ما هو معروف به من سلامة النظر ؛ ودقة التحليل ؛ ومن الأستاذية التى لا تنكر فى الفلسفة .

وفى الكتابين بعد ذلك مواقف كثيرة جدا ، مردها إلى هذه الأفكار السابقة قبل القراءة ، التى تلوى النظر عن الصواب ، وتفسير النصوص على غير معناها . وقد اقتصرت على « المواقف » دون النظر فى صحة قضايا الكتابين ، ودون التحليل لهذه القضايا ، لأنى أكره أن أناقش قضايا كتبت على أسلوب غامض غير مكشوف ، يترك للقارىء أن « ينتزع المعانى من بين السطور » ؛ فأنا أحب المكاشفة ، ولا أرضى إلا المصارحة بالرأى ، والاستقامة فى التعبير . هكذا موقفى وموقف تراثى وثقافتى وحضارتى من تراث اليونان والغرب وثقافتهما وحضارتهما . وليس بين الحق والباطل ، ولا بين الصدق والكذب ، ولا بين العلم والجهل ، ولا بين الصواب والخطأ – من حاجز ، إلا ترك الاستقامة ، وإلا تغليب الهوى على العقل ، وإلا مفارقة التثبت ، وإلا ايثار السلامة على المعاناة .

* * *

فى الطريق إلى حضارتنا

ألقيت فى جامعة الملك عبد العزيز بجدة

فى يوم الأربعاء ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٩٤/ ١٥ مايو سنة ١٩٧٤

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله .

لا أملك إلا الشكر الجزيل على هذه الدعوة التى جاءتنى من جامعة الملك عبد العزيز ، موجهة من صاحب المعالى وزير المعارف والرئيس الأعلى للجامعة الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ . وقد عشت أكثر من أربعين سنة فى عزلة ضربتها على نفسى حتى استحكمت ، وصارت كأنها طبيعة فطرت عليها ، أنظر إلى العالم من حولى وأحس به من خلالها . فلما جاءتنى هذه الدعوة الكريمة أحدثت فى إلفى الطويل لهذه العزلة انتقاضا ناسفا لما أبرمته السنون الطوال فتصدعت أسوار العزلة التى اخترتها ورضيتها لنفسى ، تصدعت على غير توقع ، فلم يخطر ببالى قط أن يدعونى أحد لأنى منذ هجرت الكتابة فى المجلات والصحف أكثر من عشرين عاما ، كنت قد وضعت اسمى فى صندوق مغلق ، لا يعرف ما فيه إلا عدد قليل من قدماء القراء . أما الأجيال الحديثة ، فهى تمر عليه بلا مبالاة ، ثم لاتجد ما يحفزها على الكشف عما يحتويه هذا الصندوق المغلق ، والكاتب إذا وضع قلمه صدىء القلم ، وإذا حجب اسمه عن القراء ، نسى اسمه ، وانطمس رسمه ، ودخل فى حيز الموتى ، وإن كان يعد فى الأحياء . فلما جاءتنى هذه الدعوة الكريمة ، فكأنها فرضت علىَّ أن أجلو ماصدىء من قلمى ، وأن أسترد لنفسى صورة أبدو فيها حيا بعد طول الرقاد فى حيز الموتى من الماضين .. وحب الحياة شهوة خفية فى كل قلب ، فإذا كان اللسان معبرا عن ظاهر الشكر لهذه الدعوة إلى الحياة فإن الباطن شكر لايكاد ينتهى إلى غاية .

---

* مجلة الثقافة ، العدد العاشر – يولية ١٩٧٤ ، ص ٤ – ١٠

من العسير على أن أضمن هذه الدقائق القليلة ، قدرا كافيا من الحديث عن أهم مايدور فى العالم العربى والإسلامى . فإن هذا العالم قد مضى عليه أكثر من قرن كامل وهو يموج بالحركة ويغلى بالفكر ، حتى تجمعت فى هذه السنوات الأخيرة دلائل كثيرة على أن هذا العالم لن يهدأ حتى يحتل مكانته التى يستحقها بتراثه العظيم ، وبمساحته المترامية الأطراف ، وبسكانه الذين يزيد عددهم على ثمانمئة مليون من البشر ، وبما أودع الله فى أرضه من الذخائر والكنوز ، ما استغل منها وما لم يستغل بعد - ولا يستطيع أحد أن يغمض عينيه عن قوة عالمنا هذا مرة أخرى ، بعد المعركة التى هزت قواعد العالم الآخر ، العالم المتفوق الذى كان يستغل غفلتنا منذ أكثر من قرنين ، استغلالا لا شرف فيه ولا أمانة ولا رحمة ولا إنسانية . ومع ذلك فواجبنا نحن اليوم أن نعلم علم اليقين أن هذه القوة التى فاجأت العالم وهزته هزا عنيفا ، لم يكن مصدرها تفوقنا نحن بحضارتنا الموروثة ، على هذا النوع الغريب من الحضارة الممثلة فى القوى الحربية والصناعية والعلمية التى يمتلك زمامها العالم الذى نسميه عالم المستعمرين . بل كل الذى حدث هو أننا استطعنا أن نستفيد فائدة جليلة من حركة الصراع بين القوى الكبرى فى عالم الاستعمار ، فاشترينا بأموالنا السلاح المتفوق من إحدى القوتين العظيمتين فى العالم ، لنواجه به سلاحا متفوقا أيضا يستمده عدونا من القوة الأخرى ، ثم بلغنا درجة كاملة من حسن الاستعداد للمعركة ، ومن دقة التوقيت لساعة اللقاء . هذه واحدة . أما الأخرى فهى أننا استطعنا أيضا بالجرأة والاتحاد أن نحبس عن عالم الاستعمار أهم مصدر من مصادر قوته وتفوقه ، أو على الأصح ، أهم مصدر من المصادر التى يعتمد عليها تفوقه الحربى والصناعى ، وهو النفط . ومنذ عهد غير بعيد لم يكن فى قدرتنا أن نفعل هذا الذى فعلناه ، ولا أغالى إذا قلت أنه كان يعد ضربا من الأحلام التى لا مكان لها فى عالم الحقيقة .

ورب قائل يقول ، وهو صادق فيما يقول : إننا لم نصل إلى (شراء السلاح المتفوق) ولم نبلغ القدرة على (حبس النفط) إلا بجهود متواصلة طويلة الأجل ، بلغت غايتها من التدبير والحزم ومن الفكر والعزم ، وبأسباب كثيرة من وسائل

المعرفة والعلم . وأقول : نعم ، وصدقت ولكن ينبغى أن نكون على بينة من أن هذا القدر من الجهود ، لا يستطيع أن يدفع حقائق مخيفة (ظاهرة) كل الظهور . أهمها أن العالم العربى الإسلامى والعالم الإفريقى والآسيوى اللذين يرتبطان به ارتباطا يكاد يكون ارتباطا عضويا ، لا يعيش اليوم فى حضارة متفوقة ينبع تفوقها من داخله ، بل يعيش مستهلكا لإنتاج حضارة عدو متفوق ، عدو ماكر يأخذ من هذا العالم بلا حساب ، ويعطيه بحساب دقيق مقتر لايرحم ، ولا يتعفف عن ارتكاب أخبث الجرائم فى حق الإنسان وفى حق الإنسانية .

نحن من أجل ذلك ينبغى أن نكون على حذر دائم اليقظة ، حتى لا تغرر بنا هذه الجهود المتواصلة التى بذلناها حتى تطمس الحقيقة الظاهرة الأخرى ، وهى أن (شراء السلاح المتفوق) يتوقف على أمرين : على مال متوافر ، وعلى رغبة البائع فى بيع هذا السلاح المتفوق . فإذا كان مالنا لايفى بشرائه ، أو كان يفى به إلى أجل محدود ، ولكنه لا يضمن المدد المستمر الذى يعوض ما يستهلك منه فى الحرب أو فى الاستعداد لها ، فإننا نكون عندئذ على شفا جُرف هار يفضى بنا إلى التمزق والضياع . فهذا خطر لا ينبغى لعاقل أن يسقطه من حسابه ، ونحن إن شاء الله قادرون على حسابه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، لأن المال مالنا وفى أيدينا القدرة على تدبيره وتصريفه . ولكن يبقى خطر آخر لا نستطيع أن نملكه قادرين عليه ، وهو رغبة البائع الذى يبيعنا السلاح المتفوق ، فهذه الرغبة متعلقة بمصالحه ، ونابعة من إرادته ، ونحن لا نستطيع أن نملك مصالحه إذا رأى هو أن بيعه السلاح لنا ضار بهذه المصالح ، ولا نملك أيضا أن تستمر إرادته طبقا لما نريده نحن . فإذا علقنا حياتنا على إرادة لا نملكها ، فقد وقعنا فى براثن خطر لا يرحم ، هو أن تكون إرادة بائع السلاح هى التى تملكنا وتملك مصيرنا ، وتملك تدميرنا بين القبض والبسط فى أى ساعة يشاء هو ، ونحن عندئذ فى قبضته بلا إرادة ولا مشيئة .

أما (حبس النفط) وهو الذى هز العالم الاستعمارى هزة دكت كثيرا من قواعده ، وأذهلته فترة طويلة ، وأحدثت فى خططه ومقاصده اضطرابا شديدا ، فإنه قوة مخوفة ، كان عالم الاستعمار يحاول جاهدا منذ سنين طويلة أن يثبط عزائمنا ،

ويضرب على آذاننا وعلى أبصارنا غشاوة حتى لانسمع دويها أو نبصر مدى ما هى قادرة على بلوغه ، والأمر الذى لاشك فيه أننا قادرون على (حبس النفط) ما صحت عزائمنا على حبسه فهو قوة نملكها ولا تملكنا ، ولكن ينبغى أن لا يغيب عنا أن حبس النفط وحده قوة سلبية من ناحية ، وقوة ذات أثر إيجابى من ناحية أخرى . قوة سلبية لأنها لاتنتج بمجردها إنتاجا صحيحا فى حياتنا ، وهى قوة ذات أثر إيجابى فى عالم الاستعمار ، لأنها توجب عليه أن يخفض من تفوقه الحربى والصناعى لأن عالم الاستعمار استغفلنا دهرا طويلا ، يأخذ المقادير الوافرة من نفطنا بأبخس الأثمان ، لكى يستخدمها فى تصعيد هذا التفوق المذهل فى أدوات الحرب وإنتاج الصناعة لبيع ذلك كله بأفحش الأثمان ، وليعيش هو فى رغد مترف لا نهاية له ولا لآثاره السيئة فى الحضارة ، وليتركنا نعيش فى قيود من المهانة والضنك والاضطراب والتفكك ، تحول بينا وبين ما هو حق لنا فى أن نمارس الحياة الصحيحة وأن نعطى العالم حضارة شريفة بريئة من آثام هذه الحضارة الباغية التى تريد أن تنفرد بالبقاء والخلود فى عالم لا يضمن البقاء ولا الخلود للحضارات إذا هى ضلت الطريق السوى . وقد ضلت حضارة الاستعمار ضلالا بعيدا عن كل طريق سَوِىّ ، وهى اليوم تبذل كل جهودها فى اتقاء المصير المكتوب عليها بضلالها بيد أنها لن تستطيع ذلك ، لأن داءها داء عضال ، يعميها عن علاجه ودوائه ما هى فيه من التفوق ومن الغنى ومن السطوة ومن الترف الذى أصبح هدفا لجماهيرها لا تستطيع أن تتخلى عن طلبه طلبا ملحا لا ينقطع ولا يفتر .

وعالم الاستعمار يعرف هذه الحقيقة معرفة واضحة ، وهو يعيش أيامه الباقيات فى خوف وفزع من هذا المصير المرهوب ، المفضى إلى تقوضه ودماره . وهو يعرف أيضا أن الحضارة دول ، يتداولها الجنس الإنسانى مرة بعد مرة ، وأقواما بعد أقوام ، فما من حضارة بادت إلا قامت على أنقاضها حضارة أخرى جديدة الشباب ، تملك أسباب التفوق والاستمرار . وهو يعلم أيضا علم اليقين ، أن عالمنا العربى والإسلامى يرتبط به العالم الإفريقى والأسيوى ارتباطا عضويا ، هو المؤهل

للقيام بأعباء تجديد عمارة الأرض ، بحضارة متميزة بنقائها وبراءتها من الأدواء الكامنة التى أدت إلى تقوضه ودماره .

وعالم الاستعمار عالم غير غافل ، وهو متمكن كل التمكن من وضوح الرؤية ، ومن تملك أسباب العمل ووسائله ، فهو لا يتردد فى سعيه سعيا حثيثا باستخدام أخبث الوسائل ، إلى استبعاد شبح التقوض والدمار . فمن أفحش وسائله حرصه المتتابع البين حينا ، والغامض حينا آخر على أن يخرب حياتنا وذلك بإدخال عناصر الفساد إلى عالمنا : بإفساد إرادتنا وإفساد عقولنا ، وإفساد ثقافتنا ، وإفساد ضمائرنا ، وإفساد أذواقنا ، وإفساد صورة ماضينا ، وإفساد حاضرنا ، أى بإفساد حياتنا كلها ليفسد مستقبلنا ، ويحرص أيضًا على أن يوهمنا إيهاما مستمرا بأن مصيرنا مرتبط بمصيره ، لكى يبلغ بنا حدا من العجز والتردد وتشتت القوى ، يضمن له إطالة مدى بقائه غالبا متسلطا مسيطرا على هذا العالم كله بتفوقه الحربى والصناعى والعلمى .

وإذا كنا قد استطعنا ، فى هذه الفترة الأخيرة ، أن نحدث فى فكر عالم الاستعمار رجة شديدة الدوى باقتدارنا على (شراء سلاح متفوق) وعلى (حبس النفط) فإن هذا غير مُغن على طول المدى ، وهو غير مضمون ضمانا مستمرا ، لأنه غير متعلق بإرادتنا تعلقا صحيحا من جميع الوجوه وأثره فى حياتنا أثر موقوت بميقات . ونحن مكلفون تكليفا محتوما أن نصحح وضع السلاح والنفط تصحيحا يقوم على أساس لا يختل ، نملكه ولا يملكنا . وذلك بأن نصبح قادرين ، فى عالمنا نحن ، على صنع السلاح المتفوق ، حتى لايكون مصيرنا معلقا على إرادة بائع السلاح الذى يملك القبض والبسط فى ساعة العسرة = وأيضا أن يتخطى نفطنا كل السدود التى ضربت عليه لكى يظل فى حياتنا سلعة فحسب ، سلعة تدر المال الوفير علينا ، دون أن تكون لنا قدرة على استخدامه فى الوجوه التى يستخدمها فيه عالم الاستعمار ، ومعنى ذلك أن نحاول بالعزم والحزم والقوة أن نخرج نفطنا من حيزه المضروب عليه ، لكى يصبح عاملا إيجابيا منتجا ، يتيح لنا التسلط على أسباب التفوق الصناعى والحربى معا . وهذا بلا ريب

هدف لاغنى لنا عنه ، وينبغى أن يكون واضحا كل الوضوح فى أفهامنا وفى نظرنا ، وفى تخطيطنا ، وأن تتعلق به إرادتنا تعلقا لايتخلله عجز أو تردد .

عالم الاستعمار يعلم علم اليقين أن عالمنا نحن ، سوف ينتهى عاجلا أو آجلا إلى الإصرار على محاولة تحقيق هذا الهدف ، فمن الغفلة أن نظن أنه سوف يتركنا اليوم نعمل بإرادة طليقة تكفل لنا بلوغ ما نريد . وهذه قضية واضحة ، وإن كان بعض الصخب واللجاجة قد أخفى عنا كثيرا من معالمها البينة ، وسوف تزيدها الأيام جلاء وبيانا .

وإذن ، فنحن نعيش اليوم فى حومة الصراع ، صراع لن يفتر ولن ينقطع . صراع إرادة كانت مغلولة اليدين زمنا طويلا ، وقد آن لها أن تفض أغلالها بالحزم والعزم حتى تتحرر ، وإرادة ظلت طليقة دهرا طويلا ، ولكن دُولَة تاريخ الحضارات قاضية عليها أن تلحق بأخواتها من الحضارات التى بغت فى الأرض وضلت الطريق المستقيم .

وقد أَلِف كثير من الكتاب أن يعدوا هذا الصراع المستمر ، صراعا بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية ، أى بين الحضارة التى يتصور عالمنا أنه يمثلها ، وبين الحضارة التى يمثلها اليوم عالم الاستعمار . ولكنى لا أرتاب فى أن وضع القضية فى هذه الصورة خطأ بيِّن ، ساقنا إليه قلة احتفالنا بتحديد معانى الألفاظ ، وغفلتنا عن دلالاتها الصحيحة ، وكل تهاون فى تحديد معانى الألفاظ وفى تحديد دلالاتها ، مؤد إلى تيه لا ينتهى الضلال فى فيافيه . وليس من الحكمة ولا من العقل أن نعود أنفسنا وأبناءنا عادة مميتة قاتلة ، وهى عادة التهاون فى العمل أو فى الفكر . وإذن فلا مناص لنا من أن نعرف على وجه التحديد معنى هذا اللفظ المألوف الذى نستعمله فى غير مكانه . وكل ما نسميه (حضارة) مما تداولته أمم الأرض منذ أقدم الأزمان دال على أن (الحضارة) بناء متكامل ، لا تستحقه أمة إلا بعد أن تجتاز مراحل كثيرة معقدة التركيب ، حتى تنتهى إلى أن يكون لأهلها سلطان (كامل) على الفكر ، وعلى العلم ، وعلى عمارة الأرض ، وعلى أسباب هذه العمارة من صناعة وتجارة ، وعلى أسباب

كثيرة من القوة ، ترغم سائر الأمم على الاعتراف لها بالغلبة والسيادة ، وإذا صح هذا ، وهو صحيح إن شاء الله ، فالذى لاشك فيه أن عالمنا نحن اليوم ليس له سلطان (كامل) على هذه الأصول والشروط التى يستحق حائزها أن يسمى ماهو فيه (حضارة) ، والذى لاشك فيه أيضا أن عالم الاستعمار الذى نصارعه ، هو المستحق اليوم ، وإلى أجل محدود ، أن يسمى ما هو فيه (حضارة) لأنه يملك هذا السلطان على الفكر والعلم وعمارة الأرض وعلى الصناعة والتجارة وعلى أسباب قوة باغية ترغم العالم على أن يعترف له بالغلبة والسيادة . وإذن فمن المغالطة المعيبة أن نلهج نحن بوصف هذا الصراع الذى لاشك فى أنه كائن ومستمر بأنه صراع بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية . ومن الضرر البالغ أن نظل فى غيبوبه تحول بيننا وبين الفهم الصحيح لطبيعة هذا الصراع الذى لا خفاء فيه ولا لبس فى أنه واقع ومستمر .

وإذا كنت قد استطعت فى هذه الألفاظ القليلة أن أوضح مايكتنف قضية الصراع من الغموض الذى نتورط نحن فيه بسلامة نيتنا ، والذى سعى عالم الاستعمار بأساليب مختلفة أن يجعلنا ننغمس فى أمواجه المضطربة بمكره وبسوء نيته ، فإنى أعلم أنى قد أثرت بهذا الوضوح سؤالا ينبغى أن يردده كل من يسمع كلامى أو يقرؤه .. وهو سؤال لا مفر منه ، ولا غنى عنه أيضا . يقول السائل : فخبرنا إذن ، ماهى حقيقة هذا الصراع الذى يدور فى عالمنا بيننا وبين عالم الاستعمار ؟

وجواب هذا السؤال أمر « عسير » كل العسر . لأنه فى زماننا هذا أصبح محتاجا إلى حيطة مضنية فى إزالة كل لبس يخالط معنى (الحضارة) وفى تحديد حقيقتها تحديدا صارما فى أذهان عالمنا هذا - وأصبح محتاجا أيضا إلى دقة بالغة فى تفسير ماعنيته بقولى آنفا : (إن الحضارة بناء متكامل ، لا تستحقه أمة إلا بعد أن تجتاز مراحل كثيرة معقدة التركيب) وسأحاول فى جمل قليلة مفيدة ، إن شاء الله أن أبلغ بالوضوح إلى مطلع ينير لنا الطريق . أما لفظ (الحضارة) فعسى أن أكون قد حددته تحديدا واضحا مجزئا حيث قلت : (إن الحضارة بناء متكامل ،

يمكن أصحابه من أن يكون لهم سلطان (كامل) على الفكر والعلم وعمارة الأرض، وعلى الصناعة والتجارة وأسباب القوة التى ترغم على الاعتراف لها بالغلبة والسيادة . وهو على إيجازه واختصاره لا يحتاج إلا إلى استدراك ضرورى ، وهو أن حضارة الأمة مرتبة لاحقة ، لابد أن يسبقها أساس ترتبط به ارتباطا لا فكاك منه البتة . وبهذا الأساس تتميز حضارة من حضارة تميزا جوهريا وتتميز به غلبتها وسيادتها حتى يصح أن توصف بأنها حضارة شريفة كريمة ، أو حضارة لئيمة المنبت خسيسة الأصل .

وهذا الأساس هو الذى عنيته بقولى آنفا « إن الحضارة بناء متكامل لا تستحقه أمة إلا بعد أن تجتاز مراحل كثيرة معقدة التركيب » . فأساس الحضارة هو هذه (المراحل الكثيرة المعقدة التركيب) وهذه المراحل هى الشىء الذى يحتاج إلى تفسير دقيق صحيح . وقد وقع أهل زماننا على اصطلاح سموا به هذه المراحل المعقدة وهو لفظ (الثقافة) وينبغى أن أكون واضح العبارة عند هذا الموضع لأنه هو منبع الخطر الذى لم نزل نعانيه فى هذا القرن الأخير ، وهو المدخل الخبيث إلى كل وسائل التدمير التى يُكاد بها لعالمنا هذا . فأول كل شىء ، أجده لزما علىّ أن أعيد ماقلته مرارا منذ حملت هذا القلم الذى طال صدأه بانقطاعى عن الكتابة ، وهو وجوب الفصل فصلًا تاما بين (العلم) بمعناه الحديث وبين (الثقافة) ، لأن العلم تراث إنسانى ممتد من أقصى الجهود التى نعرف تاريخها إلى يوم الناس هذا ، وإلى غدهم فيما يستقبل ، ولكن الذى ينبغى أن نحذره فهو أن ندخل نحن أو أن نقبل من عدونا أن يدخل ، على مفهوم « العلم » شيئا وهو عنه بمعزل ، ومع ذلك فأنا لا يمكن أن أدعى أن هذا الفصل سهل يسير لأن التداخل بين (الثقافة) وبين (العلم) واقع لاشك فيه ، ولكن أكثر فروع (العلم) يسهل فيها تميز هذا التداخل ، وبعضها يحتاج إلى جهد - وصبر وتبصر ، حتى يخلصها الدارس البصير شيئا فشيئا ، لتصير علما خالصا يستحق أن يقال فيه أنه تراث إنسانى مشترك دائم النمو ، ودائم التغير أيضا ، طبقا للمناهج التى يهتدى إليها العقل الإنسانى وما يتبع ذلك من مناهج التطبيق التى تجعل العلم قادرا على المشاركة

فى صياغة الحضارة فى صورة أو فى صور متحركة دائبة السعى إلى أهداف الإنسان فى هذه الحياة .

فإذا صار بينا هذا الفصل بين «العلم» الذى تسيطر عليه قوى (الحضارة) وبين المراحل المعقدة التركيب ، والتى لاتقوم الحضارة إلا على أساس منها ، وهى « الثقافة » فالذى لاشك فيه أن عالم الاستعمار إنما يدير الصراع كله بيننا وبينه على هذا الأساس الذى هو شرط ضرورى لقيام أية حضارة وهو الثقافة ، وإذن فالصراع بيننا وبين عالم الاستعمار صراع بين « الثقافة العربية الإسلامية » وبين « الثقافة الأوربية المسيحية الوثنية » ، هذه هى القضية على وجهها الصحيح . وسبب هذا الصراع وهدفه : هو الحيلولة بيننا وبين أن تتجدد « الثقافة العربية الإسلامية » حتى تصبح قادرة أو حتى نصبح نحن قادرين بها على أن نسير فى الطريق الصحيح الذى يصل بنا إلى أن تكون ثقافتنا حاملة للقوة المتحركة التى تدفعنا إلى أول الطريق الذى تلتقى عنده « الثقافة » وحركتها الدافعة الدافقة ، بالأسباب التى تجعلها قادرة على تملك السلطان الكامل على الفكر والعلم وعمارة الأرض ، وعلى الصناعة والتجارة ، وعلى القوة التى سيتاح لنا نحن أن نصنعها بأيدينا . فنرغم العالم على الاعتراف لنا بالغلبة والسيادة ، أى بالأسباب التى تجعل (الحضارة) شيئا واقعا فى حياتنا ، أنشأناه نحن ، وفى أيدينا الحق الكامل فى إنمائها حتى تتفوق . ونحن وإن كنا لا نعيش اليوم فى « حضارة عربية إسلامية » نمثلها تمثيلا صحيحا يكفل لنا أو يؤدى بنا إلى هذا السلطان ، إلا أننا بلاشك ورثة لحضارة عربية إسلامية كانت فيما مضى تملك هذا السلطان ، ونحن بلا شك أيضا ورثة لثقافة عربية إسلامية أصولها قائمة بصورة ما فى عالمنا هذا ، وفى قدرتنا أن نجلوها ونحييها ثم نحيى بها مرة أخرى ونضع بعد ذلك أقدامنا على الطريق إلى « حضارة عربية إسلامية » جديدة نستطيع أن نحققها للعالم ، كما حققناها من قبل على هذه الأرض بلا ريب فى ذلك . وشرط ذلك أن لا ندع لحظة أو خطرة تمر ، إلا ونحن عاملون دائبون على تأسيس حياتنا على أصل محكم من فهم المراحل المعقدة التركيب ، التى ينبغى أن نمر بها ونزيل الركام

والأنقاض والتراب الذى غطى على (ثقافتنا) حتى نملك ثقافتنا ونأخذها بقوة واقتدار ، فى هذه الفترة الحرجة التى تعانيها حضارة عالم الاستعمار فى ساعة تقوضها ودمارها . وقبل كل شيء ينبغى علينا ، ولا سيما ناشئتنا ، أن نعرف تمام المعرفة أن الشعار الذى ترفعه الحضارة الغربية ، وتلح على إذاعته وبثه فى العالم كله ، بادعائها أنها « حضارة عالمية » إنما هو شعار مزيف وغش فاضح ، تريد أن تفرضه فرضا على العقول حتى تستسلم ، وتنفذه إلى غيب الضمائر حتى تتخدر . وحقيقة الشعار ، كما هو واضح فى دنيانا ، أنها حضارة خاصة بأقوام بأعيانهم ، يرون أن لها الحق كل الحق فى السيطرة على العالم ، وإذلاله وترويضه واستغلاله لتطيل بناءها على الأرض .

هذه هى الحقيقة المجردة من الزيف والغش . والحقيقة الأخرى أنها تريد أن تبيد (ثقافة) كل شعب من شعوب عالمنا هذا ، لتحل محله قشورا مزيفة من ثقافتها هى ، بشعار آخر يتولى إذاعته وبثه أصحاب دعوات خبيثة ، بكثرة إلحاحهم على إقناع جماهير قرائنا وناشئتنا فى عالمنا العربى الإسلامى وهو شعار (وحدة الثقافة الإنسانية) .

وتعريف (الثقافة) ليس سهلا ميسورا كما نتوهم عند أول النظر . لأن مفهوم الثقافة لا يتم إلا بعد مراحل متداخلة متطاولة الأزمان ، يقطعها الشعب بين مئات من فترات الارتفاع والانخفاض والتقدم والتأخر والحركة والسكون ، والوضوح والغموض وهو فى خلال ذلك يجيش ويتجمع حتى يتحقق له أسلوب حياة مركب شديد التعقيد يكاد يستعصى على التحليل الصحيح الواضح لمقوماته المميزة ، التى ترى ، ولكن لا يحيط بها الوصف إحاطة كاملة . وأضرب مثلا قريبا . فأنت ترى رجلا بعينه ، فتعرفه وتميزه ، ولكنك إذا أردت أن تصفه لصديق لك لم يره قط من قبل ، فإنك لا تستطيع أن تبلغ بالألفاظ التى تصف بها ملامح وجهه وحدها إلى درجة تجعل هذا الصديق قادرا على معرفة هذا الرجل إذا رآه فى مكان ما ، فيقول : هذا هو الرجل بعينه ، الذى وصف لى . ولكنك إذا زدت مع وصف ملامح الوجه صفة بعض الأشياء المميزة لحركته فى مشيته مثلا ، ولون

ثيابه ، وما يحمله في يده ، وما شئت من أمثال هذه المميزات ، كان خليقا أن يعرفه لأول وهلة يراه فيها : هذا مثل أردت به تقريب تصوير هذه الصعوبة فى الحديث عن (الثقافة) .

ولفظ الثقافة مستحدث فى لغتنا ، بل فى لغات العالم أجمع ، وقد وقع الاختلاف في تحديدها وتعريفها حتى صار اختلافا يخرج من النقيض إلى النقيض ، وكأنها ليست لفظا قابلا للتحديد والتعريف . بل رمزا غامضا لحركة دائمة فى حياة كل شعب ، فى أحواله المختلفة ، فى حالة تفجره وغليانه حتى يصبح مؤسسا لحضارة فى طريقها إلى العمل والتميز والتفوق ، أو فى حالة سكونه حين يصبح وارثا لحضارة قد فقدت قدرتها على العمل والتميز والتفوق . وهذه الحالة الأخيرة ، هى الحالة التى تكون فيها ثقافة الشعب قد تفككت بتفكك أفراد الشعب فى أنفسهم وما يتبع ذلك من تفكك المجتمع المكون من هؤلاء الأفراد . ومع كثرة الاختلاف فى تحديد لفظ (الثقافة) فى زماننا فنحن نجد أنهم يحاولون أن يضعوا مميزات تميز ثقافة شعب من ثقافة شعب آخر ، وتكاد تنحصر هذه المميزات فى (العقائد) و(الأخلاق) و(العادات) و(التقاليد) و(الأفكار) و(اللغة) ولا شك فى صحة هذه المميزات من ناحية النظر المجرد ، ولكنها مميزات مبعثرة . وقد أراد بعض الغربيين أن يجمعها فى سياق واحد فقال : إن ثقافة الشعب ودين الشعب ، مظهران مختلفان لشيء واحد لأن الثقافة فى جوهرها تجسيد لدين الشعب . وقال أيضا : (إن السير إلى الإيمان الدينى عن طريق الاجتذاب الثقافى ظاهرة طبيعية مقبولة) ، وهو تعبير صحيح فى جوهره يجمع هذه المميزات المبعثرة فى إطار واحد ، ويجعل تمييز ثقافة من ثقافة واضحا من خلال النظر فى أصول التدين الذى هو فطرة فى طبيعة الإنسان حامل الثقافة ومؤديها إلى من بعده .

ومع ذلك فإنى أحب أن أوضح هذا بعبارة أخرى فأقول إن ثقافة كل شعب هى تراثه البعيد الجذور فى تاريخه المنحدر مع أجياله ينقله خلف عن سلف . وهذا التراث مكون من أفكار ومبادىء يحملها أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم

وطبائعهم ، فى زمن ما من حياتهم ، ومن تطبيق هذه الأفكار والمبادىء حتى تصبح أسلوبا لحياة المجتمع المكون من هؤلاء الأفراد . ولم أرد بهذا تعريف الثقافة ولكنى أردت تحديد حركتها فى جيل بعينه يعيش زمنا محدودا وفى خلال هذا الزمن نفسه تكون حركة الثقافة دائمة التغير فى تطبيق الأفكار والمبادىء ، وينشأ فى أحضان هذا الجيل جيل آخر من أبنائه يتلقى عن الأفراد وعن المجتمع ، فيتأثر بما تلقى ، ولكنه لا يزال ينمو وتنمو معه أفكار أخرى تزيد أفكار الجيل السابق غنى أو تعدلها ، أو تنقص منها ، أى أنه يجدد أسلوب حياة مجتمعه فيصير مجتمعا ثانيا يمثل مجتمع الآباء من وجوه ، ويعطى مجتمعه هو لمحة جديدة تميزه بعض التمييز عن مجتمع الآباء . وهكذا دواليك على طول امتداد حياة هذا الشعب .

ورحم الله عمر بن الخطاب ورضى عنه . فإن هذا العبقرى الدقيق النظر قال فيما قال : (الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم) - وهذه من جوامع الكلم التى جرت على لسان هذا العبقرى رضى الله عنه وضمنها تجربته هو التى مر بها : فإنه حين انتقل من الجاهلية إلى الإسلام فى صدر شبابه ، مارس هذا التحول الثقافى فى نفسه ثم مد الله عمره حتى ولى الخلافة ، ورأى ناشئة جديدة من أبناء الصحابة لم تشهد الجاهلية (أى لم تشهد ثقافة المجتمع الجاهلى الصرف) ولكنها نشأت فى مجتمع مسلم جل أفراده قد انتقلوا من ثقافة الجاهلية إلى ثقافة الإسلام ، ثم رأى هذه الناشئة التى تلقت عنهم وتأثرت بهم ، وهى تتحرك وتنمو وتطبق أفكار الإسلام الحى ، لتنشىء مجتمعا جديدا وارثًا لمجتمع الصحابة ورآه وهو يتميز من مجتمع الصحابة بعض التميز ، لكى يتهيأ بحركته وفورانه واندفاعه إلى إنشاء حضارة جديدة فى أرض العرب وسائر الشعوب التى دانت يومئذ بالإسلام ودخلت دخولا تاما فى ثقافته ، حضارة جديدة سوف تسود بعد قليل وتملك السلطان المطلق على الفكر وعلى العلم وعلى عمارة الأرض ، وعلى الصناعة والتجارة وعلى أسباب القوة التى سوف ترغم العالم على الاعتراف لها بالغلبة والسيادة . وهكذا كان . فهذه الكلمة التى قالها عمر ، من أروع الكلمات

الدالة على عمق النظر وبعده فى حركة دين الإسلام فى نشأته ، ثم فى انتشاره ، ثم فى تحقيقه عن طريق ثقافته ، حضارة نسميها اليوم (الحضارة الإسلامية) : بمفهومها التاريخى الواسع المتراحب .

ولعل هذا الاستطراد البسيط قد كشف شيئا من فكرة المفكر الغربى الذى قال : (إن ثقافة الشعب ودين الشعب مظهران لشىء واحد ، وإن الثقافة فى جوهرها تجسيد لدين الشعب) . ودين الإسلام يزيد هذه الفكرة وضوحا وجلاء ، لأنه هو الدين الوحيد فى هذه الدنيا الذى يشتمل على جميع الأصول التى تقوم الثقافات الإنسانية على بعضها دون جميعها ، فإن الله تعالى جده أرسل رسوله ﷺ إلى الناس كافة ، على اختلاف قبائلهم وشعوبهم ، وعلى اختلاف ألسنتهم وألوانهم وهيأ للجنس البشرى كله أن ينتقل به من فوضى الملل والعقائد والعادات والتقاليد ، أى من فوضى الثقافات ، إلى ثقافة هى فى جوهرها قابلة لتصفية سائر الثقافات القديمة ، ثم احتوائها لتكون ثقافة متعددة الوجوه على غير اختلاف فى الأصول . ومعنى ذلك أن الله تعالى قد ضمَّن كتابه الذى جاء للناس كافة ، أصولا جامعة للعناصر الحية التى تقوم عليها ثقافات البشر المختلفة ، من عهد أبينا آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وضمن هذا الكتاب ، وضمن الحكمة التى هى سنة رسول الله ﷺ جميع الأسباب التى تحرك « الثقافة » وتعدها للنمو المتجدد الذى يتيح لها إنشاء الحضارة المتميزة الشاملة .

وذلك أن الله جل جلاله قد اصطفى لكلامه سبحانه اللسان العربى المبين ، فأنزل به كتابا عربيا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو كلام الله ، وهو القرآن ، واصطفى من البشر نبيا عربى اللسان فأنزل على قلبه هذا الكتاب ، وآتى هذا النبى العربى الحكمة المبينة عما أجمله القرآن ، وآتاه جوامع الكلم التى هى حديثه وسنته ﷺ . واختار لتحقيق هذه الأصول التى اشتمل عليها كتابه واشتملت عليها سنة رسوله ، مجتمعا عربيا مستخلصا مستصفى من المجتمع العربى الجاهلى ، وهم - أصحابه ﷺ ، ثم وصفهم سبحانه فى محكم كتابه

فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، فحدد بذلك مكانهم فى معترك ثقافات العالم التى عاصرته أو سبقته ، ثم وصف عملهم فى تصفية الثقافات كلها بقوله سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

وكانت هذه الأمة العربية الجاهلية أمة ذات ثقافة منحدرة من عهد أبيهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وما كان إبراهيم ولا ولده إسماعيل يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ، أى أن الحنيفية التى طبقها أبناء إبراهيم وإسماعيل قرونا طوالا وتداولها التغيير والتبدل حتى انتهت إلى العصر الجاهلى الذى أظله الإسلام ، كانت قد صارت تراثا ثقافيا لهذا المجتمع الجاهلى يعبر عنه أسلوب حياته عند نزول القرآن . فجاء الله بالإسلام لينفى من هذا التراث الحنيفى كل ما دخله من الفساد والتغير على تطاول القرون ، وليتم مكارم أخلاق هذا المجتمع الجاهلى الوارث للثقافة الحنيفية ، وليحمل هذا الجيل الذى اصطفاه من جيل الجاهلية أمانة حمل هذا الكتاب بقوة ، وأمانة حمل السنة باقتدار وفهم ، وأمانة تطبيقه فى مجتمع جديد ، وأمانة تبليغه ذلك كله لأبنائهم ولسائر من يدين به من البشر من غيرهم ، ليحملوه أيضا ويبلغوه ويطبقوه فى مجتمع متجدد تتسع رقعته ، وتتجدد حاجاته زمانا بعد زمان .

وهذا الدين قد انفرد بخصائص لم تكن قط فى ملة سبقته ، باشتماله على تفاصيل كل ما يحتاج إليه الجنس البشرى فى كل عصر وزمان ، لم يقتصر على العقائد والعبادات وحدها ، بل اشتمل على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الفرد الخاصة ، وعلى آدابه فى معاشرة الأهل والولد والعشرة والزوج والصديق والقريب والبعيد ، وفى جميع معاملاته الخاصة والعامة واشتملت على أصول مايحتاج إليه فى تشريعه واقتصاده وسياسته وعلمه وفلسفته ، وحروبه وجهاده ، وعلى أصول حياة الجماعة وعلى روابط هذه الجماعة بسائر الجماعات التى تجاورها أو تهادنها أو تحاربها ، لكل شىء من ذلك هدى هو نص فى الكتاب والسنة ، وهدى هو

دليل عقلى للاستنباط من الكتاب والسنة ، مع تجدد حاجة كل مجتمع إلى هدى يهتدى به ، حتى لا يخرج عن الطريق السوى الذى اختاره الله لعباده الذين أسلموا له وآمنوا به وبرسوله ثم لم يرتابوا .

إن الله سبحانه قد جاءهم بالدين الجامع الذى فيه صلاح أمر الدنيا وصلاح أمر الآخرة . ومعنى هذا أن دين الإسلام قد ضمن لكل شعب يدين به عناصر جامعة شاملة للحياة الإنسانية ، تتضمن أصولا جامعة فى الكتاب والسنة يجب عليه أن يتحرى أفراده العمل بها فى ذوات أنفسهم ، ويجب عليه أيضا أن يطبقها فى مجتمعه ، ويجب عليه أيضا أن يلتمس لكل ما يجد فى حياته ومعاملاته هديا مستنبطا من الكتاب والسنة ، ويجب عليه أيضا أن يلتمس فيها ضوابط تصحح طريق آدابه وعلومه وفنونه وأفكاره ومعارفه . وكذلك ترى أن ثقافة كل أمة مسلمة هى دينها بهذا المعنى الجامع لحقيقة هذا الدين الذى انفرد عن سائر الملل بخصائص لم تشاركه فيها ملة من قبل .

ولكن هذا الأمر كله لم يترك سدى ، يتناوله كل من دان بهذا الدين على اختلاف شعوبهم وألسنتهم ، بلا ضابط يضبطه ، كلا فإن كتاب هذا الدين هو كلام الله الذى لا يتبدل فى نصه حرف واحد ، والسنة المبينة لجمله بجوامع الكلم ، هى كلام رسوله الذى لا ينطق عن الهوى . بل هو وحى يوحى وقد قال ﷺ : (أوتيت الكتاب ومثله معه) ، فهما بمنزلة واحدة فى وجوب الطاعة لهما ، والعمل بهما والاحتكام إليهما عند اختلاف المختلفين . وكلاهما جاء بلسان عربى مبين ، فمن آمن بهما وبما جاء به ، فهو يعلم علم ضرورة أنه لا مفر له من أن يكون متقيدًا بلفظ كلام الله سبحانه ومتقيدا بلفظ حديث رسوله ﷺ ، فى طلب الهدى منهما ، وفى استنباط المعانى والأفكار والمبادىء والأحكام من كليهما ، وفى الاحتكام إلى نفس ألفاظهما عند الاختلاف ، كل ذلك واجب فى كل زمان ومكان .

وإذن فاللغة التى نزل بها كلام الله وجاء بها حديث رسول الله ﷺ هى الأصل الأول الذى لا يمكن أن ينفصل عن ديننا ولا عن ثقافتنا ، وعن طريقها

وحده ، يستطيع الفرد المسلم ، من أى جنس كان ، أن يتخذ من الأصول الجامعة فى هذا الدين نبراسا لنمو الأفكار والمبادىء عن طريق النظر والاستنباط من نصوص هدى الكتاب والسنة ، وعن طريقها أيضا يتم الاحتكام إلى الكتاب والسنة عند اختلاف العقول فى نظرها واستنباطها ، وعن طريقها أيضا نستطيع أن نخلص الثقافة العربية الإسلامية التى نحن ورثتها من كل ماشابها أو خالطها ، ونجلوها ونحييها ونحيى بها ونجدد ونتجدد بها ، ولا طريق لنا غير هذه اللغة المذهلة التى نحن ورثتها ، فإن لم نفعل ، وإن لم نعرف طريقنا إلى إحياء هذه اللغة فى قلوبنا وألسنتنا وحواضرنا وبوادينا وبيوتنا ومدارسنا ، فإن أقدامنا ستقودنا إلى طريق مهلكة وضياع .

وقد أبان الإمام الشافعى رحمه الله عن هذا المعنى أحسن إبانة ، فيما رواه الخطيب البغدادى عنه فى كتاب (الفقيه والمتفقه) قال : (لا يحل لأحد أن يفتى فى دين الله ، إلا رجلا عارفا بكتاب الله ، بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكيه ومدنيه ، ويكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله ﷺ وبالناسخ والمنسوخ منه ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن = ويكون بصيرا باللغة ، بصيرا بالشعر وما يحتاج إليه منه للسنة والقرآن ، ويستعمل مع هذا الإنصاف ، ويكون بعد هذا مشرفا (أى مطلعا) على اختلاف أهل الأمصار = وتكون له بعد هذا قريحة . فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتى فى الحلال والحرام . وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتى) .

ولا تحسبن أن هذا الكلام البارع الذى قاله الإمام الشافعى قاصر على الفتيا فى الحلال والحرام ، بل هو خاص يراد به العام ، كما يقول الأصوليون ، فالذى قاله شرط لازم لكل ناظر فى كتاب الله وسنة رسوله ولكل مهتد بهديهما ، فقيها كان أو فيلسوفا ، أو متكلما ، أو أديبا ، أو كاتبا أو مؤرخا ، أو داعيا أو واعظا ، أو ماشئت من العلوم والفنون التى تجمعها (ثقافة) أو (حضارة) .

واللغة والشعر - اللذان ذكرهما الشافعى ، وجعلها شرطا للناظر المتكلم فى كتاب الله وسنة رسوله ، هى لغة العرب الجاهليين الذين تحداهم القرآن بلفظه ،

وفوض إليهم الحكم على أنه كلام مفارق لكلام البشر بهذا اللفظ العربى المبين ، وإن هذه المفارقة التى فوض إليهم الحكم بها ظاهرة فى لفظ القرآن ، وجعل هذه المفارقة هى القاضية عليه بأن يقولوا أنه (كلام الله سبحانه) لا كلام نبيه ﷺ ، وهى القاضية عليهم بأن يعلموا أنه معجزة النبى ﷺ ، وأنه لا يؤمن أحدهم حتى يقر بأن القرآن هو كلام الله المنزل من عنده وأن مبلغ هذا القرآن نبى مرسل أرسله إليهم بلسانهم وجعل هذا شرط الإيمان بالله وبرسوله ولم يجعل سائر معجزاته التى أوتيها كما أوتيها الأنبياء من قبله شرطا للتسليم بأن هذا الرجل نبى مرسل ، ﷺ .

والشعر الذى جعل الشافعى البصر به شرطا أيضا للناظر والمتكلم فى كتاب الله وسنة رسوله ، هو شعر هذه الجاهلية التى اختار الله من رجالها صفوة آمنت لتحمل أمانة هذا الدين بلسانه العربى المبين لا على معنى المعرفة به بل على معنى البصر النافذ فى إدراك وجوه الشعر المختلفة ، لأن الشعر هو محصلة البيان الإنسانى الذى مَنَّ الله به على الإنسان فقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ فجمع سبحانه (القرآن) و(البيان) فى سياق واحد لأن بيان القرآن هو المعجز لبيان الإنسان ، ومجرد التحدى ببيان القرآن ، دال على أن هذه الجاهلية التى أظلها الإسلام قد بلغت أقصى حدود القدرة الإنسانية على البيان ، ولذلك فوض الله إليها أن تكون هى الحكم على أن بيان القرآن مفارق لبيان البشر ، وأنه معجز للخلق جميعا على اختلاف ألسنتهم واختلاف القدر المكنونة فى طبائعهم فى الإبانة عن أنفسهم ، فى كل زمان ومكان .

وإذن ، فهذه اللغة الشريفة النبيلة التى كرمها الله بكلامه المنزل من فوق سبعة أرقعة هى بلا ريب حاملة ديننا ، وحاملة ميراثنا من ثقافة الأمة الإسلامية وحضارتها على امتداد أربعة عشر قرنا ، وهى اللغة التى ينبغى أن نجدد حياتها ، ونحييها على ألسنتنا وأقلامنا بلا هوادة فى ذلك ونمحو بها أمية الشعوب العربية والإسلامية ، ونرفع بها غشاء الجهل عن جماهير الأمة المسلمة ، لكى نستطيع أن نصفى بنقائها وصفائها ميراث ثقافتنا السالفة وحضارتنا الغابرة ، ولكى نستطيع أن نجدد ثقافتنا مرة أخرى فى زماننا ، حتى نجتاز المرحلة الصعبة المرهقة العنيفة التى ينبغى

أن نقطعها حتى نبلغ الحد الفاصل بين الثقافة والحضارة ، وتتمكن مرة أخرى من أن تسيطر بسلطانها على الفكر والعلم ، وعلى هداية الأمم ، وعلى عمارة الأرض وعلى الصناعة والتجارة ، وعلى كل أسباب القوة التى ترغم العالم مرة أخرى على أن يعترف لنا بحضارة مجددة شريفة لها الغلبة والسيادة ، بلا بغى ولا عدوان ولا إذلال ولا ابتزاز ولا مهانة ولا تحقير لمن يجاورنا أو يعايشنا أو يهادننا أو يعادينا .

والصراع الدائر اليوم بين الثقافة العربية الإسلامية التى نحن ورثتها وبين الثقافة الغربية المسيحية قد جمع أكبر همته فى ميدان اللغة لأنه يعرف هذه الحقيقة التى بينتها ، فبدأ دعوة هذه الأمم العربية المتفرقة إلى اتخاذ العامية الإقليمية لغة سائدة فى كل إقليم عربى لكى يحطم هذا الأصل الحامل لثقافتنا وديننا ، وليزيد فى تمزيق حياتنا وتدميرها ، وبلغ دعاته بعض مأربهم . ولا يتسع الوقت لبيان حقائق هذه المعركة ، ولكنى أذكر لكم أن كاتبا مسيحيا [١] كتب منذ سنوات يتمنى أن يرى عاملا عسكريا سياسيا يفرض اللغة العامية على العرب ، ثم قرأت لكتاب عرب مسلمين كلاما يطالبون فيه بإسقاط اللغة الفصحى . فهذا نذير ، من نذر ، بأن قيام « العامل العسكرى السياسى » الذى يرجوه الكاتب المسيحى ليس بالأمر البعيد .

هذه النذر المخيفة التى أحببت أن أختم بها كلمتى ، تدل على جزء من هذا الصراع المر بين ثقافتنا وثقافة عالم الاستعمار [٢] ، يوجب علينا جميعا أن نعيد النظر فى أساس التعليم كله من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة ، كما فعلت كل أمم الحضارة الحديثة وكما فعلت كل الحضارات السالفة ، لكى نجدد حياة هذه اللغة الحاملة لتراث ثقافتنا العربية الإسلامية والتى لا نستطيع بغيرها أن نجدد ثقافة عربية إسلامية تقطع الطريق إلى حضارة عربية إسلامية متجددة . ومعنى ذلك أن

(١) هذا الكاتب – الذى لم يفصح الأستاذ رحمه الله عن اسمه – أظن ظنا أشبه باليقين أنه سلامة موسى .

(٢) انظر مزيدا من تصوير هذا الصراع فى كتاب « أباطيل وأسمار » .

تكون هذه العربية الشريفة لغة العلم والفكر بلا تردد فى ذلك ، وعلى المثقفين اليوم منا أن يلتزموا بجعلها لغة الدراسة فى كل فرع من فروع المعرفة ، مهما لاقوا من صعوبات فى سبيل ذلك . وكلما عظم التحدى عظم الحافز ، وطلب السهولة والتخفف من الأعباء أكبر عدو مهلك للثقافات وللحضارات . هذه مهمتكم ، فخذوها بقوة ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واعلموا أن الذى حققناه مرة ، نحن قادرون على تحقيقه مرة أخرى بإذن الله .

واللهم أنا نبرأ إليك من كل حول وقوة ، فأعنا بحولك وقوتك .

* * *

تعقيبات أدبية ولغوية*

الأندلس تاريخ اسم وتطوّره

كتب الدكتور الطاهر أحمد مكي في عدد الثقافة (٢٢ - يولية ١٩٧٥) ، كلمة جيدة عن « الأندلس : تاريخ اسمه وتطوره » ، ذكر فيها أن الباحثين المحدثين من العرب ، يرون أن اسم « الأندلس » ، قد أخذه العرب من كلمة (Vandalos) وهم « الوندال » وأن كتابتها بالجرمانية (Wandal) وجمعها (Wandalos) وأن الحرف الأول منها وهو (W) ينطق بما يشبه الواو في اللغة العربية ، فيكون نطق هذا الجمع بالعربية « وندلس » ، ثم قال :

وانقلاب الواو همزة لا تعرفه اللغة العربية أبدا ، ثم عقب على ذلك بقوله : « إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة ، أمر بعيد الاحتمال » . فمن أجل ذلك ، بحث لها عن مدخل ، فانتهى إلى أن هذا اللفظ قد انتقل إلى العربية عن طريق اللغة البربرية ، ثم أفاض فى توجيه دخول هذا اللفظ إلى البربرية وعن افتراض تحوله فى اللسان البربرى من الواو إلى الهمزة طبقا للقواعد الصوتية فى اللغة البربرية ، ثم ختم ذلك بقوله : « فهى إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية ، أو الجرمانية ، أو اللاتينية المتكلمة فى أسبانية مباشرة . وبذلك يمكن حل المشكلة صوتيا وتاريخيا ، فإن غياب حرف V أو W من كلمة أندلس ، لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء هذا الفهم » .

كان الدكتور الطاهر فى غنى عن كل ماكتبه عن اللغة البربرية ، وعن اتجاهاتها الصوتية ، وعن افتراض ما افترضه فى تحول الواو همزة فى اللغة البربرية . بيد أن الذى حمله على ارتكاب هذا الطريق البعيد ، هو ما اعتقده اعتقادا جازما ، من أن « انقلاب الواو همزة لا تعرفه اللغة العربية أبدا » . والأمر فى الحقيقة على خلاف ما اعتقد ، وذلك أن قلب الواو همزة قياس مطرد فى العربية بلا شك .

---

* مجلة الثقافة - السنة الثانية - العدد ٢٣ ، أغسطس ١٩٧٥ ، ص ٩ - ١٠

وتلخيص القول فى ذلك : أن « الواو » إذا كانت فى أول الكلمة ، فلها ثلاثة وجوه : أما مضمومة ، وإما مكسورة ، وإما مفتوحة ، فإذا كانت الواو مضمومة ، فيكاد يكون قياسا مطردا فى العربية أن تقلب الواو همزة . فمن ذلك فى القرآن العظيم ، فى سورة المرسلات : ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ ، وهى من « الوقت » ، وقرأ أبو عمرو وابن ورداك : ﴿ إذا الرُّسُلُ وُقِّتَت ﴾ بواو مضمومة ، وهو الأصل . وقالوا فى « وجوه » جمع « وجه » « أجوه » ، وغيرها كثير .

وإذا كانت الواو الأولى مكسورة ، فقياس مطرد أيضا أن تقلب همزة ، نحو قولهم فى « وسادة » « إسادة » وفى « وشاح » « إشاح » وغيرهما كثير أيضا .

وأما إذا كانت الواو الأولى مفتوحة ، وهو الذى عندنا هنا فى « وندلس » و« أندلس » ، فقلب الواو المفتوحة قليل فى العربية ، وليس قياسا مطردا ، ومع ذلك فهو كثير أيضا على الوجهين ، أى أن تقلب الواو الأولى المفتوحة همزة ، وأن تقلب الهمزة المفتوحة واوا . وذلك نحو قولنا « وحد » فتقول « أحد » بفتحتين ، وهو من « الوحدة » بلا ريب ، وقولهم أيضا : « امرأة وَناة » ، أى كسول ، بطيئة القيام فيها فتور من طول النَّعمة ، فقالوا : « امرأة أناة » ، وقالوا للجبل الصغير « وَجَم » بالواو ، فقالوا فيه « أَجَم » وقالوا : « وَسِنَ الرَّجلُ » و« أَسِنَ » ، إذا غُشِىَ عليه من نتن ريح البئر ، وقالوا : « وَكَّدت العهد » و« أَكَّدته » ، وقالوا « وَلَته حقه » و« أَلَته حقَّه » أى نقصه حقه ، وقالوا : « ورَّخْتُ الكتاب » ، و« أَرَّخته » ، وقالوا « وَرَّشْتُ بين القوم ، وأرشت بينهم » ، أى أفسدت مابينهم وحَرَّشت بعضهم على بعض ، وقالوا : « ماوَبَهْت له ، وما أَبَهْت له » أى ما فطنت له ، أو ما باليت به لقلته وتفاهته ، وقالوا « وَجّ » وهو اسم بلدة الطائف بالحجاز و« أَجّ » بفتح الهمزة ، وقالوا « وَجْه ، أَجْه » لوجه الإنسان ، وغير هذا كثير ، فضلا عن قلب الواو همزة إذا كانت فى وسط الكلمة أو فى طرفها .

وإذن فالأمر على خلاف مايعتقد الدكتور الطاهر ، من إنكاره قلب الواو همزة ، وأن العربية لا تعرف هذا القلب أبدا .

وإذن فأقرب شيء إلى الاحتمال ، هو ما رآه الدكتور الطاهر بعيد الاحتمال ، أن يكون لفظ « وندلس » قد دخل إلى العربية دخولا مباشرا بقلب الواو الأولى المفتوحة همزة . والذى ألجأ سلفنا الفاتحين من العرب أصحاب اللسان العربى إلى إبدال الواو الأولى المفتوحة همزة ، أنها جاءت بعدها نون ساكنة ، ومخرج الواو من طرف الشفتين ، ومخرج النون الساكنة من الخياشيم ، فثقل ذلك على ألسنتهم لقرب المخرجين ، ولارتداد النفس من الشفتين عكسا إلى الخياشيم ، ولأن الواو المفتوحة أخفى من الواو المضمومة والمكسورة فى النطق ، ولأن الهواء المندفع من الحلق عند نطق الواو المفتوحة آت من عند مخرج الهمزة فى أقصى الحلق ، فمن أجل ذلك كله آثروا أن يقلبوها همزة صريحة من أقصى الحلق ، ليندفع هواؤها إلى مخرج النون الساكنة من الخياشيم سهلا بلا مؤونة على أداة النطق .

ولهذه الأسباب نفسها ، رأيت أصحاب اللسان العربى فيما استظهرته وتتبعته ، قد كرهوا أن تجتمع الواو والنون متجاورتين فى أول الكلمة الواحدة من عربيتهم ، وتكون الواو أصلا فى الكلمة ، والنون التى تليها أصلا أيضا فى الكلمة .

وإذن ، فالذى لاشك فيه ، هو أن لفظ « وندلس » ، قد دخل اللسان العربى مباشرة ، بعد إخضاعه للقانون الصوتى العربى ، ليدخل بعد أن يصقله الذوق العربى دخولا سهلا ساريا على أصول لغته .

وللأخ الدكتور الطاهر أجزل الشكر على الفوائد الكثيرة التى تضمنها مقاله عن « الأندلس » .

* * *

المتنبى ليتنى ما عرفته

– ١ –

أخى الدكتور عبد العزيز الدسوقى

.... وبعد ، فكاذب أنا إن قلت لك أن ثناءك علىّ لم يهزنى ، فأنا كأنت وكهو وكهى ، كلنا مما يغره الثناء ، أو تأخذه عنده أريحية وابتهاج أو تغمره فيه نشوة ولذة . ولكن غرورى وأريحيتى وابتهاجى ونشوتى ولذتى ، سرعان ما تنقلب علىّ غما لا أجد متنفسا يفرج عنى لأنى أعلم من حقيقة نفسى ما يجعلنى دون كل ثناء وإن قلَّ ، أعلمه عيانا حيث لا يملك المثنى علىَّ أن يراه عيانا كما أراه . وليت شعرى ، أكان شيخ المعرة صادقا حيث يقول عن نفسه .

إذا أَثْنَى علىَّ المرءُ يوما بخيْر ليس فِيَّ فذاك هاجِ
وحقِّى أن أُساءَ بما افتراه فلؤمٌ فى غريزتىَ ابتهاجِى

وعسى أن يكون الشيخ قد صدق عن نفسه بعض الصدق . لقد عد ثناء المثنى عليه بما ليس فيه افتراء ، ثم أقر مع ذلك أنه يبتهج لما افتراه وكان حقه أن يستاء ، لولا لؤم الغريزة . فمعنى هذا إذن : أن الشيخ كان إذا جاءه ثناء عليه بما هو فيه ، فإنه يبتهج له ، ولا يعد ابتهاجه هذا لؤما فى غريزته . أما أنا فأعد ابتهاجى بالثناء على بما هو فىَّ وبما ليس فِيَّ ، لؤما فى الغريزة لأنى أعلم أن الذى فِيَّ من الخير مغمور فى بحر طام من النقيصة والعيب . ومع ذلك ، فأنا أشكر لك ثناءك ، لأن الشكر واجب لا مصرف عنه . وترك الشكر لؤم آخر فى الغريزة .

أشكره لك لأنك بثنائك علىَّ ، ذكرتنى عيبى وتقصيرى ونقيصتى لأستغفر الله وأتوب إليه هذه هى الأولى .

أما الثانية : فإنى وجدتك فى مواضع متفرقة من كلامك فى شأن كتابى وكتاب الدكتور طه عن المتنبى تكثر من أن تتنصل من إرادة إغضابى أو إرادة

---

* الثقافة ، السنة الخامسة – العدد ٦٠ ، سبتمبر ١٩٧٨ ص ٤ – ١٩

إساءتى . فمن الذى أنبأك أيها العزيز الكريم أنى أعد الذى يظهرنى على أخطائى ، أو الذى لا يعجبه ما أكتب ، مريدا لإساءتى ، مثيرا لغضبى ، طالبا للغض منى أو من كتابى ؟ من أنبأك هذا ، حتى تبالغ فى التنصل من اعتماده ، وفى البراءة من إرادته ؟ لقد قدمت بين يدى كتابى عن المتنبى قصة هذا الكتاب . وبينت أنها : « لمحة من فساد حياتنا الأدبية » . فكان مما أشرت إليه أنه كان من عادة « الأساتذة الكبار » ، وهى عادة بثت فى حياتنا الأدبية إلى هذا اليوم فسادا ساحقا : أنهم كانوا يخطئون فى العلن . ويتبرأون من أخطائهم فى السر . (المتنبى ١ : ٤٢) . وأشرت أيضا إلى أنهم كانوا لا يصبرون على من يدلهم على الخطأ ، ويستنكفون كبرا أن يؤوبوا إلى الصواب . ثم أزيدك الآن أيضا : أنهم كانوا لا يتورعون عن الإيقاع بمن يدلهم على الخطأ ، ويتعقبونه بالأذى من وراء حجاب : ومَنْ طلب الأمثلة على هذا وجدها على مَدّ يده !

بيد أنى ، من يوم عقلت أمر نفسى ، قد أنكرت جميع السنن التى سنَّها « الأساتذة الكبار » ، أنكرتها كفاحا ومواجهة وبلا مواربة . فبئس المرء أنا إذن ، إذا أنا أنكرت سنة كريهة ثم ركبتها ! كانوا ، رحمهم الله جميعا ، لا يحبون إلا الثناء المحض المصفّى الخالص من كل شائبة . فإذا جاءهم غير ما يحبون ، تنمَّروا لمن أتاهم به تنمُّرَ من لا يبيت على دِمْنة - (والدمنة : الحقد الدفين المضمر الملتهب بالغيظ) . وهم يتخلّقون ، فى غير موضع التخلُّق ، بما قاله بشار الأعمى فى صفة عمر بن العلاء ، فاتح طبرستان فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور . وكان عمر قبل ذلك جزارا ، ولم تعبه الجزارة ، بل كانت له أسوة حسنة بفاتح مصر عمرو بن العاص رضى الله عنه فإنهم يزعمون أنه كان جزارا فى الجاهلية ، قبل أن يسلم . قاتل عمر بن العلاء الديلم قتالا مريرا حتى كسر شوكتهم وأخضعهم ، فلذلك ولاه المنصور ثم المهدى من بعده ، طبرستان مرات ، منذ سنة ١٤١ من الهجرة إلى سنة ١٦٧ ، كان عمر عاقلا داهية جوادا شجاعا شديد البأس ، فقال بشار للخليفة فى شأنه :

فقُلْ للخليفة إن جئته ... نَصيحا ولا خيرَ فى مُتَّهَمْ

إذا أيقظتْكَ حروبُ العِدَى فنَبِّهْ لها عُمَرًا ، ثم نَمْ
فتًى لا يبيتُ على دِمْنةٍ ولا يشربُ الماء إلا بِدَمْ !

« لا يشرب الماء إلا بدم » ، هذه حقيقة أخرى أيضا ، تستطيع أن تجد عليها الدلائل الكثيرة فى تاريخ صراع « الأساتذة الكبار » . فالأمر كما ترى تخلُّق منهم بما قال بشار ، ولكنه تخلُّق فى غير موضع التخلُّق . ولا تحسبنى أريد بهذا الاستطراد أن أبشع إليك « أمر » « الأساتذة الكبار » تبشيعا أو أنفرك منهم تنفيرا لا ! ليس يعنينى أن تستبشع أو تستسيغ ، ولكنى أعبر عن نفسى ، ثم أقول لك : إنى شهدت فأجفلتُ ، فعرَفت ، ففزِعتُ ، فهالنى الأمر ، فأنكرتُ .. أنكرت جميع هذه السنن التى كانوا يسنونها لنا فى حياتنا الأدبية .

فمن أجل ذلك أجدنى لا أغضب إذا دلنى أحد على خطأ قارفته ، ولا أستنكف أن أعترف بخطأ ارتكبته ، ولا أستتر من عيب اجترحته . ولا يسوؤنى أن ينقدنى ناقد ظالمًا أو غير ظالم ، ولا أعده غضًّا لشأنى ولا وضيعة تحط منى أن يقول قارىء أو كاتب أو ناقد جهارا وعلانية ووجها لوجه : إن كتابى لا يعجبه ، أو إنه كتاب لا قيمة له . لم أكتب شيئا قط ، وأنا أتلفت يمينا وشمالا ، أراقب ما يُعْقِبه على كلامى من رضى أو سخط ولم أخطّ حرفا إلا وأنا على ثقة ويقين من أن الناس مختلفون فيه لا محالة بين قادح ظالم ، وبين مادح ظالم يظلمنى ويظلم نفسه بالغلو فى الثناء . واعلم إذن ، إن كنت لا تعلم ، أن أحب الأمرين إلىّ : أن تنقدنى مخالفا لى ، أو مظهرا لخطأ كان منى ، أو دالا لى على طريق جُزْت عنه غرورا بنفسى أو اتباعا لهواى . ثم اعلم بعد ذلك أيضا أنى لا أبيت ليلة طاويا ضلوعى على حفيظة تؤرقنى ، من إساءة أحد يسىء إلىّ متعمدا أو غير متعمد .

هكذا كنت ، وهكذا كانت سيرتى ، ولا ينبغى لى غير ذلك ، لأنى منذ قديم ، منذ ريعان شبابى ، أنكرت سنة « الأساتذة الكبار » وكرهتها مستبشعا لها ، كراهة لم تزل قائمة فى نفسى ، وإن قصر قلمى ، أو تورع ، فى الدلالة على خبثها وبشاعتها وعلى فسادها أيضا وإفسادها للناس .

لن تستقيم لنا حياة أدبية ، ولن تصح ، ولن يرجى لها صلاح ، حتى تقوم على قواعد راسخة ثابتة من طلب الحق صرفا ، ثم الإبانة عن الحق بلا مداجاة ، ثم الإفصاح عن حقيقة ما فى النفس بلا مواربة ، بلا تخوف ، بلا ترقب . القائل بالحق لا يحتاج إلى التنصل من إرادة الإساءة . فإن المخطىء مخطىء وإن جل شأنه ، والمصيب مصيب وإن خفى فى الناس مكانه ، هذه هى الثانية .

أما الثالثة : فجملة قرأتها فى كلمتك الثالثة ، (الثقافة : مارس ١٩٧٨) ، حيث تقول : « إنه لشىء محزن أن يصل (اللدد فى الخصومة) حدا يجعلنا نسلب طه حسين أخص خصائصه ، ونتجاهل أجمل قدراته ، ونصفه بأنه (رجل جاهل) ، (ليس له بصر بتذوق الشعر) » . هذا النص كلامك . شىء محزن حقا ، ولكن هل هذا صحيح ؟

ذكر خبر الخصومة

أنت بلا شك تعنينى ، وتعنى أنى فعلت ذلك وقلته : فهل تأذن لى أن أقف على كلماتك هذه وقفة ، لا يحبسنى عليها ولع بجدل أحسنه ، أو صراع عقلى أجيده ، كما وصفتنى ، لا ، بل تجلية للحقيقة كما كانت ، وكما جاءت فى كل ما كتبته قديما وحديثا وذكرت فيه الدكتور طه وهذا لا يضيرك ، ولا يفيد أحدا إن شاء الله ، وإن كنت أعده مملا !!

ذكرتَ « اللدد فى الخصومة » بينى وبين الدكتور طه ، ورتبتَ عليه ما رتبتَ ، فأحب أن تعلم ، قبل كل شىء ، إنه لم تكن بينى وبينه (خصومة) قط ، حتى يكون فيها (لدد) وأنت الآن تضطرنى إلى تعقب هذه (الخصومة) من عند جذورها الأولى ، إلى أن كتبت كتابى عن المتنبى ، ثم ما كان بعد ذلك بيننا إلى أن قضى الدكتور طه نحبه . وهذا الذى ألجأتنى إليه ، يقتضينى أن أتحدث عن نفسى ويقتضينى مرة أخرى أن أعيد ما استفتحت به « قصة هذا الكتاب » حيث قلت (المتنبى ١ : ١٠ ، ١١) :

« الحديث عن النفس شىء أكرهه ، ولكنه يكون أحيانا ضرورة لا غنى عنها . فالجيل الذى يستقبل اليوم هذا الكتاب ، لم يشهد تلك الأيام الغابرة ، ولا يعلم

عنها علما يغنى أو يفيد . بل لعله يعلم عن هذا الغابر أشياء قليلة ، على غير الوجه الصحيح الذى كانت عليه ، وإنما اكتسبها الجيل الحاضر من الثرثرة التى تنشر أحيانا فى بعض الصحف والمجلات . وقد التزمت فى هذا الحديث أن أقص ما لا مناص منه : على الوجه الذى كان ، بلا إخفاء للحقائق التى وقفت عليها يومئذ ، لأنها هى التى أثرت فيما أكتب ، وهى التى كونت رأيى فى الجيل الذى عاصرته ، وفى آثار هذا الجيل فى الأجيال التى جاءت معه أو بعده ، متأثرة به أو وارثة له » . هذا ما قلته وما فعلته ، وكذلك أنا فاعل الآن :

عرفت الدكتور طه عن قرب ، وهو يكتب حديث الأربعاء فى صحيفة السياسة (سنة ١٩٢٣ ، ١٩٢٤) وذلك قبل أن أفارق المدارس الثانوية ، واحدة . ثم فارقتها ، عند أول انشاء الجامعة ، فكانت له عندى يد لا تنسى يوم تقدمت إلى الجامعة أحمل شهادة (البكالوريا) من القسم العلمى ، لألتحق بكلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، وبإصراره هو استطاع أن يحطم إصرار مدير الجامعة يومئذ أو أحمد لطفى السيد الذى كان ، كعادته ، ملتزما بظاهر الألفاظ ويرى أن لا حَقَّ لحامل بكالوريا القسم العلمى فى الالتحاق بالقسم الأدبى ، فبفضل الدكتور طه صرت طالبا عنده فى قسم اللغة العربية بالجامعة ، ثانية . وكان الدكتور طه فى السابعة والثلاثين من عمره ، وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ، فهو بمنزلة أخى الأكبر ، وكان توقير السن ، فيما مضى من زمننا نحن ، أدبا نرتضعه مع لبان الطفولة ، ثالثة . ثم عرفت الدكتور طه عن قرب أشد قرب ، كنت طالبا ، وكان أستاذا ، وكانت هيبة الأستاذية وتوقيرها أدبا ننشأ عليه منذ نعومة أظفارنا ، رابعة . وقصصت القصة كلها واضحة فى كتابى (المتنبى ١ : ١٧ - ٢٦) ، ولكن كلمتك التى كتبتها ، تضطرنى الآن أن أرجع على نفسى باللائمة . لعلى أســـــأت العبارة عما أريد . لعلى أوقعت فى سياق القصة خللا مضللا . لعلى أجملت حيث كان ينبغى التفصيل . فهل تأذن لى أيها العزيز ، أن أجعل القصة أشد وضوحا ؟

منذ بدأ الدكتور طه محاضراته فى الجامعة ، فى شأن الشعر الجاهلى ، إلى أن

انتهى منها ، نشأت عندى أنا قضيتان : وأرجو أن تقرأ هذا بشيء من التدقيق ، ومعذرة أيضا من هذا التوسل :

القضية الأولى

القضية الأولى : « قضية الشعر الجاهلى » : وهى قضية قد أكثرت من ترديد ذكرها فى مواضع مختلفات فى أكثر ما أكتب ، لأنها هى القضية التى أحدثت فى حياتى ، وفى طلبى للعلم ، تغييرا حاسما ، فيما بعد سنة ١٩٢٦ ، وأنا يومئذ فى السابعة عشرة من عمرى . وهى بلاشك ، مرتبطة ارتباطا ما بالدكتور طه ، وبسماعى محاضراته فى الشعر الجاهلى ، وأظن أن هذا « الارتباط » ، وخاصة بعد أن قطعت دراستى فى الجامعة فجأة ، هو الذى أوهم أنه كانت بينى وبين الدكتور طه (خصومة) ، ظلت تنسحب ، عند كثير من الناس ، على كل ما أكتبه وأذكر فيه الدكتور طه . وليس هذا بصحيح البتة ، لأن « قضية الشعر الجاهلى » كانت ، ولم تزل إلى اليوم ، هى قضيتى أنا وحدى ، بينى وبين نفسى ، ليس لأحد فيها ذنب ولا جريرة . ومن أجل ذلك لم أكد أفرغ من قصتى فى الجامعة ، ومن قصة انقطاعى عن الجامعة وفراقها بعد سنتين ، (المتنبى ١ : ٩ - ٢٦) ، حتى قلت بعد ذلك مباشرة فى أول ص : ٢٧ :

« ومرت بى الأيام والليالى والسنون ، ما بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٦ ، التى كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبى » ، وهمى مصروف أكثره إلى قضية الشعر الجاهلى إلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا لمعارضة أحد من الناس (وأعنى الدكتور طه بلا شك) ، مشت بى هذه القضية فى رحلة طويلة شاقة ، ودخلت بى فى دروب وعرة شائكة ، وكلما أوغلت انكشفت عنى غشاوة من العمى » .

ثم عدت فذكرتها فى كتابى مرة أخرى زدتها وضوحا فقلت : « .. وفى خلال ذلك ، لم يكن لى مطلب سوى مطلب واحد : أن أجد برد اليقين فى نفسى ، فى شأن « الشعر الجاهلى » . وفى شأن ما نسميه « إعجاز القرآن » ، (المتنبى ١ : ٤٧ ، ٤٨) .

ثم عدت فذكرتها وذكرت فراقى للجامعة ، وذكرت ما كان من سبب طلبى

للعزلة فقلت : « ... حتى أستبين وجه الحق فى « قضية الشعر الجاهلى » : بعد أن صارت عندى قضية متشعبة كل التشعب » ، (المتنبى ١ : ٢٤) .

فالأمر إذن ، كما ترى بين جدا . « قضية الشعر الجاهلى » ، هى قضيتى أنا وحدى . ومعناها عندى معنى قائم فى نفسى أنا وحدى . ومهما يكن من شأن المآزق المهلكة ، والمتالف المبيرة التى لم أنج من شرها وعقابيلها إلا بتوفيق من الله وحده وعصمته ، فأنا وحدى أشقيت نفسى بها ، ولم يكن للدكتور طه فيها جريرة ، ولا كان له فيها ذنب جناه عليّ حتى أخاصمه على هذه الجناية .

أما الذى قلت لك من أن للدكتور طه بهذه القضية « ارتباطا ما » : فسأبينه ، لأزيل الضباب الذى يخلط بين معنيين متباينين ، ولتعلم أيضا أن هذا الارتباط لا يمكن أن يكون سببا فى (خصومة) ، ولا كان فيه ظل من (خصومة) ، مع أني أظنه كان واضحا فى مقدمة كتابى « المتنبى » . ما علينا أيها العزيز .

الأمر وما فيه هو أن الدكتور طه أراد أن يثيرنا نحن طلبة الجامعة يومئذ ، بمسألة غريبة ، هى « مسألة الشعر الجاهلى » . وهذه « المسألة » من حيث هى مسألة شك فى صحة الشعر الجاهلى وفى صحة نسبته إلى أهل الجاهلية ، ثم الإفضاء منها إلى أن الشعر الجاهلى منحول موضوع ، وأنه شعر إسلامى صنعه الرواة في الإسلام ، هذه « مسألة » كنت أعرفها قبل أن أدخل الجامعة ، وقبل أن يلقى علينا الدكتور ما ألقى ، لأنى كنت قرأتها فى مقالة الأعجمى مرجليوث ، وقصصت القصة فى كتابى ثم قلت : « إنى لم ألق بالا إلى هذا الذى قرأت : وعندى ماعندى من هذا الفرق الواضح بين الشعر الجاهلى والشعر الإسلامى » ، (المتنبى ١ : ١٦) . ثم قلت أيضا فى شأن هذا الأعجمى وزمرته : « لم يكن لمثل هذه الآراء فى الشعر الجاهلى وقع فى نفسى يثيرنى اللهم إلا ما يثير تقززى . فما أسرع ما أسقط كلامهم جملة واحدة فى يم النسيان » ، (المتنبى ١ : ١٨) .

ثم جاءنا الدكتور طه يردد أقوال مرجليوث وآراءه وحججه ، بجوهرها ونصها ، أستغفر الله ، بل زاد عليها تعليقاته وحواشيه ، فلم يزد الأمر عندى على أن يكون ما أسمع من المحاضرات « حاشية » على متن من المتون ، ولكنها

« حاشية » من نوع مبتكر مبتدع جديد مباين للحواشى التى كانت مألوفة يومئذ عند طلبة الأزهر . ولما كان « المتن » معروفا عندى من قبل قرأته ولم ألق إليه بالا ، بل قذفته فى يم النسيان ، كما قلت : فإن « حاشية الدكتور طه على متن مرجليوت » (وهى المعروفة عند الناس باسم كتاب : فى الشعر الجاهلى) ، كانت خليقه أن تلقى نفس هذا المصير ، لولا شيء سأحدثك عنه فيما بعد . وهذه « الحاشية » لم تكن تتضمن شيئا ذا بال سوى « مسألة الشك فى صحة الشعر الجاهلى » ، وإذن فهى لم تكن قادرة فى ذاتها على إثارتى أو إثارة خصومة بينى وبين صاحبها الدكتور طه ولم يكن لها عندى أثر سوى ما بينته فى كتابى حيث قلت : « تتابعت المحاضرات ، وكل يوم يزداد وضوح هذا السطو العريان على مقالة مرجليوث ، ويزداد وضوح الفرق بين طريقتى فى الإحساس بالشعر الجاهلى وبين هذه الطريقة التى يسلكها الدكتور طه فى تزييف هذا الشعر » (المتنبى ١ : ٢١) . وانظر أيضا ذكر حواشى الدكتور طه فى كتابى (المتنبى ١: ٢٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥) .

إذن ، فبين أن « مسألة الشعر الجاهلى » بهذا القدر الذى وصفته لك آنفا ، هى أولا وقبل كل شيء ، مباينة تمام المباينة للذى أسميه « قضية الشعر الجاهلى » ، ثم هى ثانيا بهذا القدر نفسه ، مسألة كانت فى ذاتها غير قادرة على أن تنشيء بينى وبين الدكتور طه (خصومة) . وأيضا ، لم يكن لها ، لا بالفعل ولا بالقوة فى نفسى أو فى قلبى أو فى عقلى ، أو فى شيء مما أكتب ، أثر يمكن أن يحرك (خصومة) وإذا كنت ممن يخاصم الناس على آرائهم ، لا ممن يخاصم الآراء نفسها : وكان لمثل هذه « المسألة » قدرة على إنشاء (خصومة) : فأولى الناس كان بخصومتى هو مرجليوث نفسه صاحب « المسألة » وصاحب « المتن » . أما الدكتور فلم يكن سوى ناقل لهذه « المسألة » وصاحب « حاشية » على هذا « المتن » ، لا أكثر ولا أقل . وببديهة العقل ، لا ينال الناقل صاحب الحاشية من خصومتى عندئذ ، إلا قدر ضئيل كاب لا يستحق أن يسمى (خصومة) . وإذا كان ذلك كذلك ، فالدكتور طه ينبغى - بلا شك ، أن يكون بنَجْوَة من خصومتى ، أو من ضراوتها ، أو من جَوْرِها على الأقل .

وأحب أن أصدقك القول عن نفسى . لو أن الأمر فى « مسألة الشعر الجاهلى » لم يكن كما كان : لكان يكون ممكنا ، على وجه من الوجوه أن تقع بينى وبين الدكتور طه (خصومة ما) وذلك إن صح فعلا أنه شك أولا من عند نفسه : ثم أداه شكه إلى « مسألة » إبطال صحة رواية الشعر الجاهلى . ولكن هذا لم يصح البتة : ولن يصح لأنه لم يزد على أن جاء فنقل مسألة إبطال صحة رواية الشعر الجاهلى ، من الإنجليزية إلى العربية ، نقلا لا يستره ساتر ، ولا يقبل فى شأنه تأويل أو انتحال عذر ، وببطلان هذا ، بطل أيضا معنى (الخصومة) بينى وبينه .

ومن الدليل أيضا على بطلان كل (خصومة) بينى وبين الدكتور طه ، جرتها « مسألة الشعر الجاهلى » ، أنى لم أكتب يومئذ ، ولا بعد ذلك اليوم ، وإلى يوم الناس هذا : شيئا يمكن أن يعد ردا مباشرا على ما تضمنته « حاشية الدكتور طه على متن مرجليوث » ، وذلك لأن هذه « المسألة » برمتها كما هى فى المتن والحاشية ، كانت ، ولم تزل ، هى عندى مسألة فارغة بذرتها ثرثرة ، وشجرتها ثرثرة ، وثمرتها ثرثرة ، أى هى مسألة لا طعم لها . وهذا حسبك : إن شئت متفضلا ، فى نفى كل شبهة تؤدى إلى الظن بأنه كانت بينى وبين الدكتور طه (خصومة) قديمة ، من أجل آرائه التى كان يرددها فى « مسألة الشعر الجاهلى » وهو حسبك أيضا فى إزالة كل وهم عن (خصومة) كانت ، يحدثها اقتران هذه « المسألة » بما كان من أمر مفارقتى الجامعة ، بعد سنتين من بدء حديثه فيها . فهذا بيان موجز عن القضية الأولى ، ومعذرة إن أطلت أو كررت .

القضية الثانية

أما القضية الثانية التى نشأت عندى أنا ، أى عندى أنا وحدى مرة أخرى ، وكانت محاضرات الدكتور طه سببا فى نشأتها يوم كنت طالبا عنده فى الجامعة ، فهى « قضية السطو » على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم ، ثم ادعاء تملكها تملك عزيز مقتدر ، ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والاستطالة به على الناس . وأبشع من ذلك : أن ينكشف أمر هذا الغصب والسطو . ويتسامع به الناس :

ويدل الكتاب والعلماء على الأصل المغصوب كتابة موثقة منشورة ، فلا يبالى الساطى بشىء من ذلك كله : بل يزداد جرأة وتيها وادعاء واستعلاء واستطالة ، كأن الذى قيل عن سطوه لم يُقَل ، وكأن ظهور سطوه فضيلة ترفع من قدره تنوه به فى المجامع ، أما أنا ، مع أسفى واعتذارى ، فلم أزل أعد هذا المسلك احتقارا للناس أى احتقار ، وإزراء بهم وبعقولهم أى إزراء ، وإنزالًا لهم منزلة من لا يبصر ولا يسمع ولا يعقل ولا يحس . هكذا نظرى أنا ، كان ، ولم يزل إلى هذا الأمر . هذه هى « القضية » كانت ، ولم تزل ، حية فى نفسى منذ خمسين سنة : (وانظر كتابى المتنبى ١ : ٢٥) .

وقبل أن أحدثك بخبر هذه « القضية » وأنا فى الجامعة سنة ١٩٢٦ ، أجدنى مضطرا أن أخبرك بشىء كان قبل ذلك ، يجعل « القضية » أوضح وأبين . كنت فى سنة ١٩٢٣ ، وسنة ١٩٢٤ ، أقرأ على شيخى سيد بن على المرصفى إمام العربية فى زماننا ، وهو شيخ الدكتور طه أيضا . وكنت فى ذلك الوقت أقرأ ماكان يكتبه الدكتور طه فى صحيفة السياسة ، وهو « حديث الأربعاء » ، فجاء يوما على لسانى وأنا عند الشيخ ذكر الدكتور طه ، فعرفت من الشيخ أنه كان يقرأ عليه بعض ما كنا نقرأه عليه . وبهذا النسب القريب ، كما يقول أبو تمام [1] ، تاقت نفسى إلى معرفة الدكتور طه . فسعيت إليه سعيا ، وعرفته من يومئذ عن قرب . كنت صغيرا ، وكان هو فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، ومع هذا التفاوت فى السن : فقد قربنى الرجل إليه حتى اطمأن قلبى وانطلق لسانى ، فبجرأة الشباب كنت أخالفه أحيانا كثيرة فيما يكتب ، وبجهل الشباب أيضا أحاوره وأجادله بقليل علمى . وكان بيِّنًا عندى ، وعنده أيضا ، أن مقالاته فى « حديث الأربعاء » كانت تنطوى على « استلهام » شديد مفرط من آراء طائفة الأعاجم المستشرقين ، على حد تعبيرك أنت أيها العزيز ، أو على « استعارة » منهم مغرقة ملتهمة ، على حد

---

(١) وذلك فى قوله :

أو يَخْتَلِفْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بَيْننا أَدَبٌ أقمناهُ مقامَ الوالِدِ

تعبير شاعرنا القديم الذى هجر الشعر وتفرغ للكتابة ، الأستاذ كمال النجمى ، أو على « استلال فى خفة » على حد تعبير الأستاذ كمال أيضا . ومع كل ذلك : فقد استمرت مودتى لأستاذنا الدكتور طه صافية ، لم يكدرها خلافى عليه ، أو جهل شبابى عليه أحيانا . ولم يكن لهذا « الاستلهام » ، أو لهذه « الاستعارة » أو لهذا « الاستلال فى خفة » : أثر يبلغ من قوته أن يحدث بينى وبينه (خصومة) ، لا فى نفسى ولا فى نفسه هو أيضا . وظل الأمر بيننا سهوا رهوا (أى ساكنا لينا كنسيم الصبا) ، حتى جاء عهد التحاقى بالجامعة ، فغمرنى الدكتور طه بفضله ، وقيدنى بإحسانه ، وأحسن الشهادة لى عند مدير الجامعة ، ثم أصر إصرارا حتى غلبه ، فبإصراره صرت طالبا فى الجامعة ، وقصصت بعض القصة آنفا وفى كتابى (المتنبى ١ : ٢٠ ، ٢١) .

وهكذا كان الأمر بينى وبينه قبل دخولى الجامعة وقبل إنشائها ، والدكتور طه يومئذ لم يكن سوى كاتب أديب يكتب فى الصحف والمجلات ، وأنا يومئذ قارىء لما يكتبه ، أقرؤه فى البيت أو الشارع ، أو على ظهور المقاهى .

ولكن الأمر سوف يختلف اختلافا بينا حاسما حين ضمتنى وإياه أسوار الجامعة .

فى الجامعة

كنت يومئذ فتى شابا غض الإهاب : فلما أنشئت الجامعة والتحقت بها ، كان للفظ الجامعة معنى فى نفسى ، أنا الآن ، بعد أكثر من خمسين سنة ، يغلى بى ارتيابى وشكى : أأنا مخطىء فى هذا المعنى أم مصيب ؟ أقولها لك ، ودمعة من عينى تنحدر على الخدين من ألم الذكرى ! وقاتل الله النابغة الذبيانى الشاعر الجاهلى ، ما أصدقه حيث قال ، وكأنه إنما عنانى أنا ، يقرعنى تقريعا يوغل بى فى مهاوى اليأس :

إن يكُ عامر قد قال جَهْلا ،	فإن مَظِنَّة الجهلِ الشبابُ
ولا تذهبْ بحِلْمك طامِياتٌ	من الخُيلاء ليس لهنَّ بابُ
فإنك سوف تَحْلُمُ ، أو تَناهَى	إذا ماشِبْتَ أو شاب الغرابُ

لقد شبتُ وما شاب الغراب بعد ، فكيف وأنَّى وأيان لى الحِلْم أو التناهى عن

الجهل ! وإنى لأسأل نفسى اليوم : أبجهل منى لا حلم فيه ، كان يومئذ للفظ « الجامعة » هذا المعنى فى نفسى أخالنى لست أدرى ، بعد طول التجريب وبعد المشيب . ولكن هكذا كان ، واحسرتاه ! « أم كان شيئا كان ، ثم انقضى » ، كما يقول العرجى .

دخلت الجامعة ومعى هذا المعنى يتسع ويتراحب يوما بعد يوم ، حتى بلغ مبلغا يرتد عنه البصر خاسئا وهو حسير . دخلتها ومعى فورة الشباب وأحلامه وتهاويله . دخلتها ومعى كل ما قرأته وسمعته من أدب أمتى وتاريخها وأخلاق علمائها وعظمة رجالها ... والآن أقول لك ما لم يكن يخطر لى يومئذ على بال : دخلتها ومعى أيضا « متن مرجليوث » فى « مسألة الشعر الجاهلى » مطروحا فى قرارة يم النسيان . ألقيت بكل سمعى مصغيا إلى أستاذنا الدكتور طه ، وهيبة الأستاذية تملأ قلبى وهو يردد كلماته ، وأنا واقع أيضا فى أسر كلماته ، ولكننى فى الأسر كنت أعرف وأنكر ، وينبسط قلبى وينقبض ، ثم يوما بعد يوم . وبغتة ، ومن قرارة يم النسيان ، طفا « متن مرجليوث » كتابا مفتوحا ، اقرأ « المتن » بعينى ، وأسمع « الحاشية على المتن » بأذنى ، وأخذنى ما أخذنى من الحيرة والدهشة والارتياح ، ثم انقشع عنى الظلام ...

فأصبحتُ والغولُ لى جارةٌ ، فيا جارتا ، أنتِ ، ما أَهْوَلَا !

« والغول لى جارة » ، ليست رمزا ولا مجازا بل كانت عندى حقيقة [١] مفزعة ، تدخل معى قاعة المحاضرات يوما بعد يوم ، وكل يوم أقول لنفسى عسى ، ولعل ! وأتوقع أن يذكر الدكتور طه ، اسم مرجليوث مرة ، وينسب إلى الرجل رأيه فى « مسألة الشعر الجاهلى » ، مجرد إشارة ! وذهب توقعى باطلا هذرا . لم أسمع منه إلا : « انتهى بى البحث » ، ثم « انتهى بى البحث » ، ثم « انتهى بى البحث » وإذا كل شىء منه هو يبدأ ، وإليه هو ينتهى ! كيف يكون هذا ، « والمتن » أمامى أقرؤه بعينين مبصرتين ، وكل شىء يقوله الدكتور طه من هذا « المتن » وحده يبدأ ، وإلى « المتن » وحده ينتهى ، ياالحيرتى وعجبى !

---

(١) كما كانت عند تَأَبَّط شَرًّا ، صاحب البيت الذى استشهد به الأستاذ شاكر .

لو مرة واحدة ذكر الدكتور طه اسم مرجليوث ، لنجوت بها من هذه « الغول » التى كانت تفزعنى وتتشبث بى « جارة » لى فى قاعة المحاضرات وخارج هذه القاعة ! « فياجارتا أنا ما أهولا ! » ، ويومئذ ، ومن هذا الهول الذى كان يصحبنى ويتهددنى ، نشأت عندى « القضية الثانية » « قضية السطو » التى ذكرتها وأن أكشف عن « لمحة من فساد حياتنا الأدبية » فى كتابى (المتنبى ١ : ١٧ - ٢٦).

* * *

تفاقم أمر « قضية السطو » فى نفسى ، واستبدت بى جارتى « الغول » حتى لم تدع لى ولا لقلبى سكينة ، وسِرتُ على الجمر حافيا ، وأنا أسمع يوما بعد يوم قعقعة معنى « الجامعة » فى نفسى وهو يتقوض ، يريد أن ينقضّ . وفى خلال ذلك كان منى ما كان . يوم وقفت أجادل الدكتور طه فى « المنهج » و « الشك » ، حتى انتهرنى ، ثم استدعانى فدخلت عليه ، فعاتبنى « وأنا صامت لا أستطيع أن أرد . لم أستطع أن أكاشفه أن محاضراته التى نسمعها مسلوخة كلها من مقالة مرجليوث ، لأنها مكاشفة جارحة من صغير إلى كبير ، ولكنى كنت على يقين من أنه يعلم أنى أعلم ، من خلال ما أسمع من حديثه ، ومن صوته ، ومن كلماته ، ومن حركاته أيضا » هكذا قلت فى كتابى (المتنبى ١ : ٢٢) . ثم قلت أيضا : « ومن يومئذ لم أكف عن مناقشة الدكتور فى المحاضرات أحيانا بغير هيبة ، ولم يكف هو عن استدعائى بعد المحاضرات ، فيأخذنى يمينا وشمالا فى المحاورة ، وأنا ملتزم فى كل ذلك بالإعراض عن سطوه على مقالة مرجليوث : صارف همى كله إلى موضوع « المنهج والشك » ، وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلى والأموى والعباسى قراءة متذوقة مستوعبة ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلى والإسلامى .. ولكنى من يومئذ أيضا لم أكف عن إذاعة هذه الحقيقة التى أكتمها فى حديثى مع الدكتور طه وهى أنه سطا سطوا كريها على مقالة المستشرق الأعجمى . فكان بلا شك ، يبلغه ما أذيعه بين زملائى . وكثر كلامى عن الدكتور طه نفسه ، وعن القدر الذى يعرفه من الشعر الجاهلى ، وعن أسلوبه الدال على ما أقول . واشتد الأمر حتى تدخل فى ذلك ، وفى مناقشتى ، بعض الأساتذة كالأستاذ « نلينو »

والأستاذ « جويدى » من المستشرقين ، وكنت أصارحهما بالسطو ، وكانا يعرفان ، ولكنهما يداوران . وطال الصراع غير المتكافىء بينى وبين الدكتور طه زمانا ، إلى أن جاء اليوم الذى عزمت فيه على أن أفارق مصر كلها ، لا الجامعة وحدها » ، (المتنبى ١ : ٢٣ ، ٢٤)

أخشى أن يكون هذا هو الذى أوقع فى نفسك أيها العزيز ، أنه كانت بينى وبينه (خصومة) قديمة منذ ذلك الزمان وأنا فى الجامعة . سوف أتمم لك التاريخ الغابر خطوة خطوة . نعم ظل أمرى كما وصفت آنفا ، سنتين ، وأنا لم أفارق الجامعة بعد . وأزيدك الآن أيضا ، أني ، مع كل ذلك ، لم أنقطع عن زيارة الدكتور طه في بيته خلال هاتين السنتين المرة بعد المرة والذى بيني وبينه « سهو رهو » ، كما حدثتك عن شأني وشأنه قبل أن يكون أستاذا في الجامعة . أما « قضية السطو » فكانت قضيتي أنا وحدى ، تعمل عملها فى هدم معنى « الجامعة » في نفسي فلا أنا أجترىء على مصارحته بها ، ولا هو يفاتحنى فى شأنها وهو يعلم علما ليس بالظن ماذا أقول فى فناء الجامعة ، وماذا أقول للأساتذة لم كان يفعل ذلك ويصبر على ؟ أمر يحتاج إلى تفسير ، وأنا لست بصدد التفسير ولكني ملتزم برواية التاريخ لا غير . وأيا ما كان الأمر فهل ترى فى هذا ظلا من (خصومة) ؟

وكذلك ، فأنا أزيدك أيضا من أخبار هاتين السنتين يوم قبل مدير الجامعه أن التحق بكلية الآداب ، وبمحضر الدكتور طه نفسه ، أخذ على عهد : أن أدرس اللغة الفرنسية ، لأن طلبة القسم العلمي فى الثانوية ، كانوا لا يدرسون سوى الإنجليزية ، وزملائى فى كلية الآداب كلهم من طلبة القسم الأدبى الثانوى وقد درسوا هذه اللغة سنتين ، فكان لزاما على أن أحصل ما حصلوه فيها : وأن أحضر أيضا معهم دروس اللغة الفرنسية فى كلية الآداب ، لكى أمتحن فيها كما يمتحنون ، ومرت الأيام والشهور ، ودنا موعد الامتحان ، وأنا فى حيرة من أمرى ، أى حيرة استنكفت أن أسأل الدكتور طه أن يشير على ماذا أفعل ؟ وذات يوم دعاني وقال لى : غدا تمر عليَّ فى بيتي . فعلتُ : وبقيتُ معه طويلا فى حديث

متشعب . وأخيرا سألنى : ماذا فعلتَ فى دروس الفرنسية ؟ قلت : الآن أستطيع أن أقرأ قراءة مقاربة ، وأن أفهم فهما لا بأس به ولكننى لا أستطيع البتة أن أعبر عن نفسى فى الامتحان الشفوى ، لا ينطلق لسانى . فقال وبعدين يامحمود ! قلت الأمر إليك . فأطرق يفكر . ثم قال : إذا كنت لا تستطيع أن تجيب عما تسأل عنه بالفرنسية ، فهل تستطيع أن تجيب بالإنجليزية ؟ قلت : نعم بلا شك . قال : إذن فعند الامتحان الشفوى تعالى إلىَّ . ولم يزد ، وانصرفت . فلما جاء الامتحان ودنا دورى ، ذهبت إليه فى مكتبه ، فأخذ بيدى ، وسار بى إلى لجنة الامتحان ، ووقف الأستاذ الفرنسى إجلالا له ، وبعد تَقْدِمَة قدمها قال : إنه يقرأ بالفرنسية ما شئت فإذا سألته عن شيء مما يقرأ ، فأرجو أن تقبل منه أن يجيبك بالإنجليزية . وأخذت الأستاذ الدهشة ، وبعد تردد ومحاورة قبل ، وامتحننى .

فهل ترى ، أيها العزيز ، فى هذا ظلا من (خصومة) ؟

* * *

وذارت الأيام وأنا أغدو وأروح إلى الجامعة وجارتى « الغول » لا تفلتنى ولا تفارقنى ، وصليل المعاول وهى تضرب فى معنى « الجامعة » يتردد فى نفسى ، وأسمع هدّة انهيارها . وبغتة تهاوى كل شيء وهلكت قدرتى على الصبر فانقطعت عن الدراسة واستحصدت [١] عزيمتى على أن أهجر مصر كلها لا الجامعة وحدها ، غير مبال بإتمام دراستى الجامعية ، طالبا للعزلة ، حتى أستبين لنفسى وجه الحق فى « قضية الشعر الجاهلى » ، بعد أن صارت عندى قضية متشعبة كل التشعب ، (المتنبى ١ : ٢٤) ، هكذا قلت .

انقطعت عن الذهاب إلى الجامعة فجأة . لم أر أحدا من زملائى البتة . وعزمت على أن أسافر إلى مكة والمدينة طلبًا للعزلة ، ولم أخبر أحدا قط بعزيمتى إلا رجلا واحدا ، كان قد أطال المقام فى مصر ، وصار بعد سفيرا للسعودية ، وهو الشيخ « فوزان السابق » ، رحمه الله . كان صديقا لأبى وإخوتى ، وكان يعرفنى

(١) استحصدت : اشتدتْ وقويت .

أوثق معرفة . استمع الرجل إلى وكان وديعا طيب النفس ، فبعد لأى قَبِل أن يُعيننى ، وأخذت عليه العهد أن لا يخبر أحدا من أهلى بما عزمت عليه . ورحت أسعى سعيا حثيثا حتى استخرجت شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية ، بعد دفع رسوم « البدلية » ، كما كانوا يسمونها . وأعاننى الشيخ فوزان حتى استخرجت جواز سفر بعد جهد جهيد . فلما وضعت الجواز فى جيبى واطمأن قلبى ، ذهبت إلى أبى رحمه الله فكاشفته بجلية أمرى .. لم تأخذه دهشة المُنْكِر ، خيل إلىّ أنه كان يعرف ! ظللت أياما بين يديه ، يحاورنى ويحاول أن يقنعنى بالإقلاع عما عزمت عليه . لا هو يقتنع بما أقول وبما أمنى النفس به مختالا ولا أنا أقتنع بما يقول ، وأخيرا ذكر لى بيت النابغة الذى مر آنفا :

ولا تَذْهَبْ بحِلْمكَ طامِياتٌ ... من الخُيلاء ليس لهنَّ بابُ

وقال : ستجد الأبواب مغلقة دون أمانيك بالضبة والمفتاح وستعود إلينا ، بعد أن تضيق كما ذهبت ، فافعل ما تشاء . وأَلْقَى حَبْلِى على غاربى ، ووافق على سفرى ، وبدأت أعد العدة وجمعت جميع كتبى وعبأتها . ولكن من الطريف أنى أقصيت منها جميع كتب الدكتور طه ، وهبتها لصديق لى رحمه الله .. فلم أكد استقر فى مدينة جدة بالحجاز ، وهدأت نفسى ، حتى عدت فاشتريتها جميعا من مكاتب جدة . كان سخفا منى ، ولكن هكذا كان !!

وذات يوم فى الصباح الباكر دخل علىّ زميلى وصديقى الأستاذ محمد الخضيرى ، يستطلع أمر غيبتى عن الجامعة . وكان قد سأل عنى مرات بالهاتف ولم يجدنى . فلما جلس ، أفضيت إليه بالأمر كله ، ففزع قائما ، وكاد يبكى . فلما أخبرته بجميع ما فى نفسى ، أطرق وسكن ، وبقى قليلا ثم انصرف . وفى العشية فوجئت بمقدم الأستاذ نلينو ، ولكن هدوءه وبشاشته وهو يسألنى عن أبى كعادته كلما جاء يزوره نفت الشك عن قلبى . فأخبرت أبى بمجيئه . فلما التقيا وجلسا ، فوجئت بالأستاذ يتكلم ويذكرنى وصوته يتهدج ويتقطع من الغضب والأسف ، فرجف قلبى رجفة وقمت من فورى ذاهبا على وجهى أحث الخطى ، من دارنا فى الحلمية الجديدة ، ولم أنتبه إلا والمؤذن يؤذن لصلاة المغرب ، من

مسجد قريب فى منطقة الدقى فصليت المغرب ثم انقلبت راجعا إلى البيت بعد صلاة العشاء .

أخبرنى والدى أن الأستاذ نلينو جاء نائبا عن الدكتور طه ، وأن الدكتور طه استحسن ذلك لأنه كان أستاذه وهو اليوم أستاذى أيضا ، وقال : إنه دعا الأستاذ نلينو والأستاذ جويدى على الغداء عندنا بعد غد . جاء هذا الغد ، وعدت إلى البيت بعد الظهر ، لأجد الأستاذين نلينو وجويدى ومعهما أكثر من عشرين ضيفا ، كلهم كان يعرفنى ، وهم من الأساتذة فى دار العلوم ، ومدرسة القضاء الشرعى ، وفى الأزهر ، وآخرين من أساتذتنا الكبار فى ذلك العهد .

وبعد الغداء وقعت بين المطرقة والسندان . كلٌّ يتكلم مُسَفِّهًا لى ضِمْنًا أو علانية ، وأنا أرد مرة وأسكت مرات حتى بلغ منى الجهد . وأخيرا وقف الأستاذ نلينو فجأة ، ووجه الحديث إلى أبى ، وقال إن واجبه ديانةً (غريبة !) أن يمنع ولده من السفر . فقال له أبى رحمه الله : لا آمر ولدى فى شىء ، وقد حاولت أن أقنعه بالحجة بعد الحجة فلم يقتنع . وها هو ذا بين يديك ، فإن استطعت أن تبلغ فى إقناعه ما لم أبلغ ، فقد شفيت صدرى وأرحتنى ، أما القسر فلا قسر عندى يا أستاذ نلينو . فالتفت إلى نلينو ، وأطبق على إطباقا خانقا ، فلم أجد لى مخلصا من قبضته إلا المصارحة . فقلت له : نعم أنا مقتنع بكل ما تقوله عنى وعن تسرعى وتهورى ومخاطرتى بمستقبلى ، ولكنى لم أكن كما وصفت إلا لشىء واحد ، هو أن معنى « الجامعة » فى نفسى قد أصبح أنقاضا وركاما ، فإن استطعت أن تعيد لى البناء كما كان ، فأنا أول ساكن يدخله لا يفارقه . قال : ما هذا ؟ ماذا تعنى ؟

قلت : أنت تعلم أنى بقيت معك فى الجامعة سنتين لم أبرح ، وتعلم ما كنت أقوله عن « مسأله الشعر الجاهلى » التى نسمعها فى محاضرات الدكتور طه ، وأن هذا الذى نسمعه ليس إلا « سطوا » مجردا على مقالة مرجليوث ، وأنت وجميع الأساتذة تعلمون صحة ذلك . وفى خلال السنة الماضية ، نُشِرت كُتُب ومقالات فى الصحف تكشف ذلك أبين كشف – ولكن لم يكن لهذا الكَشف عندكم فى الجامعة صدى إلا الصمت . فهذا الصمت إقرار من الجامعة وأساتذتها بهذا

المبدأ ، مبدأ « السطو » . قد مضت على سنتان صابرا ، أما الآن ، فلم أعد قادرا على التوفيق بين معنى « الجامعة » فى نفسى ، وبين هذا المبدأ الذى أقررتموه ، فتقوض معنى « الجامعة » وأصبح حطاما . فكيف تطالبوننى بأن أعيش سنوات أخرى بين الحطام والأنقاض ؟ وأى خير أرجوه ، أو ترجونه منى ، إذا أنا فعلت ذلك راضيا أو غير راض ؟ شىء واحد : أن يعلن الدكتور طه أن الذى يقوله فى « مسألة الشعر الجاهلى » ، هو قول مرجليوث بنصه ، وليقل بعد ذلك أنه يؤيده ويناصره ويحتج له ، أو لا يقل . فإذا فعل ، فستجدنى غدا أول طالب يرابط فى فناء الجامعة قبل أن تشرق الشمس . أما مع هذا الصمت ، فإن نفسى لا تطيق أن تسكن الديار الخربة !

وجم نلينو ، وأحسست بنظرات العيون تنفذ كالسهام فى جميع أعضائى ، وبغتة قال الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله : إن هذا الفتى كان فى رأسه أربعة وعشرون برجا ، فطارت ولم يبق إلا برج واحد ، عسى أن ينتفع به يوما ما ، فيسترد الأبراج التى طارت ! وسكت . وحيرتنى كلماته . ولم أدر ما عناه ، أهو راض عما قلت أم غير راض ؟ ثم بدأ نلينو يتكلم مرة أخرى هادئا معرضا عنى ، وعرض على والدى حلا آخر لإنقاذى ولكننى لم أستجب لهذا الحل . وبعد يومين كنت على ظهر الباخرة التى تقلنى إلى مدينة جدة ، فنزلتها ، وشددت الرحال إلى بيت الله الحرام ، فقضيت عمرتى ، ثم عدت إلى جدة بعد أيام ، فأجد أول رسالة تلقيتها من أبى وفى آخرها يقول : « زارنى فى عصر اليوم الذى سافرت فيه إلى السويس ، الأستاذ نلينو والدكتور طه حسين » ، ولم يزد على ذلك شيئا ، وختم الرسالة .

لقد أضنيتنى ، أيها العزيز ، وحملتنى على أن أقص قصة طويلة أنا راغب عنها ، ولا خير فيها لأحد . ولكن .. أنت قطعت اللجام بالحسام ، فلم يبق فى يدى ما أكبح به جماح القلم ، وقد كنت من قبل قادرا على كبح جماحه وأنا أكتب « لمحة من فساد حياتنا الأدبية » فى مقدمة كتابى « المتنبى » حيث قصصت بعض القصة كارها ، ولكن ما أبشع قصة (الخصومة) وأكرهها إلى

نفسى . فالآن هل ترى من (خصومة) كانت بينى وبين الدكتور طه منذ عرفته إلى أن فارقت مصر كلها ، لا الجامعة وحدها ، فى سنة ١٩٢٨ ؟

بعد الجامعة

مضت السنوات منذ سنة ١٩٢٨ ، وأمر الجامعة وكل ما فيها لا يعنينى . وكان ما توقعه أبى ، فعدت أدراجى من الحجاز إلى مصر ، لم أر الدكتور طه ولا أحدا من زملائى فى الجامعة أو أساتذتى منذ ذلك اليوم إلى أن كان يناير سنة ١٩٣٦ ، التى خرج فيها كتابى « المتنبى » . ثم جاء أسبوع الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة أبى الطيب ، بدار الجمعية الجغرافية فى النصف الثانى من سنة ١٩٣٦ ، فلقيت الدكتور طه مرتين متتابعتين ، فقابلنى بالحفاوة والبشاشة ، « ثم أخبرنى أنه قرأ كتابى كله ، وجاء بثناء لم أكن أتوقعه ، وأطال وأفاض : (على مشهد من جميع أساتذتى فى الجامعة) وغمرنى ثناؤه حتى ساخت بى الأرض ، فمات لسانى فى فمى ، فلم أستطع أن أنبس بحرف واحد ، وهو آخذ بيدى لا يرسلها ، إلى أن ركب ، وافترقنا » ، قلت ذلك وذكرت تمام القصة فى كتابى ، (المتنبى ١ : ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨) - ثم فى يناير سنة ١٩٣٧ ، أى بعد أقل من عام ، ظهر كتاب الدكتور طه « مع المتنبى » ، وساءنى الكتاب ، وردنى إلى سنة ١٩٢٨ وما قبلها ، وإلى كل ما عنيته يومئذ من غوائل جارتى « الغول » وكذلك عادت « قضية السطو » على أعمال الناس فى قلبى جَذَعَةً أى نارا حية بعد أن طفئت وخبا أُوارها .

كتبت اثنتى عشرة مقالة فى صحيفة البلاغ بعنوان : « بينى وبين طه » بنيت الكلام فيها ، منذ فاتحة المقالة الأولى على قول صريح بلا مواربة ولا مداهنة ، أن كتابه « مع المتنبى » ، « سطو » على كتابى أولا وتقليد لمنهجه ، ثم على كتاب الدكتور عزام ، ثم على كتاب الأعجمى بالاشير ، وعلى كتب أخرى متفرقة . وكنت على نية متابعة هذه المقالات ، فحدث ما بغَّض إلى هذا الأمر كله ، فطرحت كتابى وكتاب الدكتور طه جانبا ، وضقت بهما وبالمتنبى نفسه ذرعا . فكففت عن متابعة الكتابة ، وذكرت سبب ذلك فى كتابى « المتنبى ١ : ١٤٢ ،

١٤٣ » . وكنت أنوى فى ختامها أن أثير « قضية السطو على أعمال الناس برمتها ، لأن أمرها كان قد استشرى فى ذلك الوقت ، وإلى اليوم ، بين أسوار الجامعة وخارج الأسوار » .

بعد أيام ، منذ كففت ، اتصل بى الأستاذ نلينو مرات بالهاتف : يسأل عن أبى ، وكان مريضا ، ويسأل عنى فلم يجدنى . كانت وفاة الرافعى رحمه الله ، وهو أستاذى وصديقى ، قد بلغت منى ، فنسيت نلينو أو تناسيته - وبينما أنا أفارق محطة مترو مصر الجديدة ، وكانت فى شارع عماد الدين يومئذ ، لقيت نلينو وجها لوجه ، وتصافحنا وسرنا حتى جزنا الزحام إلى الرصيف الهادىء ، فابتدرنى قائلا : قرأت كتابك ثم مقالاتك فى صحيفه البلاغ . ثم ضحك كعادته حتى استغرب [١] وقال : لم تتغير أنت ، ولم يتغير الدكتور طه ، (يعنى ماكان من أمرى وأمره فى الجامعة) . ثم قال : إنه سألنى عنك مرات ، وهو يحب أن يراك ، فواجب عليك أن تزوره ، قلت : نَعَمْ ، ونِعْمَة عَيْن [٢] ، وسوف أفعل إن شاء الله . ولم يذكر كتاب الدكتور طه بكلمة ، فسألته : وهل قرأت كتابه ؟ قال : نعم . قلت له : فما رأيك إذن ؟ وكنت أعنى رأيه فيما كتبته أنا فى صحيفة البلاغ ، إلا أنه فاجأنى قائلا : كان ينبغى للدكتور طه أن يحتفظ به فى درج مكتبه بضع سنوات ، وهو يعيد النظر فيه ، ثم ينشره بعد ذلك . قنعت بهذا ، وسرنا نتحادث حتى افترقنا . ولكنى لم أف بما وعدته به من زيارة الدكتور طه .

ومضت ثلاث سنوات أو أكثر ، وفى يولية سنة ١٩٤٠ ، دق جرس الهاتف ، وإذا المتحدث هو الدكتور طه نفسه ، فعاتبنى عتابا مُرا على انقطاعى عنه ، ثم حدثنى عن مقالة كان قرأها قبل أيام فى الرسالة ، كتبتها بعنوان : « ويلك آمن ! » ، وحرضنى على أن أتابع القول على هذا المنهج ، ثم دعانى إلى زيارته ، فزرته بعد ذلك مرات . ثم توفيت زوجة صديق لى ، كان أديبا كاتبا ، ومدرسا أيضا ، وتركت امرأته صغارا فى المهد وفوق المهد قليلا ، فلم يطق من يومئذ أن يذهب

---

(١) استغرب : أغرق فى الضحك حتى بدأت أواخر الأسنان .

(٢) أى أفعل ذلك وكرامةً ، وقد مر شرحه .

إلى المدرسة ويرى أشباههم الصغار ، وأراد أن ينقل إلى الوزارة نفسها ويترك التدريس كان الدكـــتور طه يومئذ مستشارا لوزارة المعارف ، فرأيت لزاما على أن أقضي حـــق صديقي ، فاتصلت بالدكتور فى بيته لأزوره ، واتفقنا على الموعد .

كان هذا الصديق قد تناول الدكتور طه تناولا شديدا فى بعض ماكتب من قبل ، وأنا أعلم من خلائق الدكتور طه ما أعلم ، فأخذت لذلك حذرى . لم أفاتحه فيما جئت له إلا بعد أن أنبأته أني جئت فى حاجة قضاؤها فى سلطانه وناشدته أن يستجيب لى مهما بلغ أمرها من الصعوبة . فقال خيرا ، حتى استوثقت من الأمر لم أذكر اسم الصديق ، ولكنى حدثته عن نكبة صديق لى مدرس فى المدارس ، وبلغتُ الجهد فى نَعْت نَكْبته ، وأحسنت وصف أخلاق صديقى وقدرته وامتيازه ومعرفته وخبرته وسألته أن يأخذه معه فى مكتب المستشار ، أى فى مكتبه هو . فقال : سأفعل ، لكن من هو هذا الذى حدثتنى عنه ؟ فذكرت له اسمه ، فانتفض غاضبا وقال : لا ، كيف يكون هذا ؟ محال ! غير ممكن ، إنك خدعتنى ! فقمت غاضبًا وقلت لقد أعطيتنى العهد ، وإذ لا عهد ، فالسلام عليكم ، ووليت منصرفا ولم أعقب . فنادى سكرتيره بأعلى صوته ، وأمره بأن يردنى : فرجعت . فأجلسنى وقال : مالك أيها الصعيدى ! فقلت مسرعا ببقية الغضب التى فى نفسى : إنك ترفضه ، لا لأنه كتب عنك ، بل لأن ما كتبه ذكَّرك بما كتبت أنا عنك ! (وأعنى مقالاتى عن المتنبى) . فقال : لا ، ياشيخ ، أتظن هذا ؟ وانفثأ غضبه وظل يضحك ملء فيه . بدأ يحدثنى عن هذه المقالات ، وكيف كان يقرؤها ؟ وعما كان يحدث بينه وبين بعض أصدقائه كلما ظهرت مقالة فى البلاغ ، وقال ما قال عن هذه المقالات ، فأدهشنى ما قاله ، وعلى كل حال لعله رأى فيها غير ما رأيت أنت أيها العزيز . ثم ختم الحديث بأن قبل شفاعتى فى صديقى واستجاب لكل ما طلبته على بعض المضض . وصار موظفا عنده فى مكتبه . وبعد أسبوعين أو ثلاثة زرته فى مكتبه ، فصارحنى بأنى قد أخلصت له النصيحة فى هذا الصديق، وأثنى عليه ثناء مذهلا .

حسبنا هذا القدر من التاريخ الممل ، ذكرته واضحا لمن يتأمله ، وفيه من جوانب فضل الدكتور طه ما ينفى كل (خصومة) متوهمة ، ولم أنس قط يدا كانت للرجل عندى . ومنذ سنة ١٩٤٠ ظل الود بينى وبينه إلى أن أفضى إلى ربه غفر الله لنا وله . وكان فى حياته يقرأ كل ما أكتبه وأذكر فيه « قضية الشعر الجاهلى » ، فلم أجد عنده ولا عندى (خصومة) تبلغ بى أو به حد « اللدد فى الخصومة » . وإذا كان ، أيها العزيز ، بعض ما فى كلامى وألفاظى ، وأنا أذكره قد ارتفع بك إلى استخراج (خصومة) تنسبها إلىّ ، فهذا ليس يجرى عندى على هذا الوجه . و (الخصومة) على الوجه الذى دل عليه كلامك ، ليست مما أتعامل به فيما أكتب . فما من شيمتى أن أخاصم أشخاص الرجال على آرائهم أو أفعالهم ، فإذا خاصمت فإنما أخاصم الآراء والأفعال نفسها ، ولا أتجاوز بخصومتى إلى أصحابها والفاعليها .. نعم ، إن « الأساتذة الكبار » قد سنوا فى (الخصومة) سننا جرت عليها حياتنا الأدبية ، فألفها الناس حتى لم يعد أحد ينكرها أو يعيد النظر فيها ، فكأنك معذور كل العذر ، إذ جعلت تقيس سُنَّتى فى الكتابة على سُنَّتهم ، ولكنى لست من « الأساتذة الكبار » فى شىء بحمد الله .

قضية السطو

كذلك .. « قضية السطو » ، وهى إلى هذا اليوم قضية جارية فى حياتنا الأدبية ، حاولت فى مقدمة كتابى « المتنبى » أن أكشف عن جذورها وأصولها وبعض أساليبها ، ثم قلت : « والقصة تطول ، ومع ذلك فليس هذا مكان قصتها على وجهها ، إذا أنا أردت أن أقيد ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا » ، (المتنبى ١ : ٣٨) وإذا كان طول إلفها قد جعلها مستساغه ، أو بعيدة عن التناول ، أو فى ظل وارف يسترها عن أعين الناظرين ، فذلك لا ينفيها ، أو لا يحجبها عن العين الفاحصة التى تتدسس إلى الأعماق . ومع ذلك ، فأنا أحب أن أجعلك على بينة من أمرها عندى . فقد ذكرت لك أنها إحدى قضيتين نشأتا عندى ، وأنا فى الجامعة ،

أستمع إلى محاضرات الدكتور طه فى « مسألة الشعر الجاهلى » ، وكانت هذه القضية قضيتى أنا وحدى ، فيما بينى وبين نفسى . ففارقت الجامعة سنة ١٩٢٨ وهى معى حية مبصرة . ثم عشت منذ ذلك الحين زمنا طويلا إلى يومنا هذا ، وأنا أرقبها وأشاهد آثارها ، وأتتبع وسائلها وأساليبها فى كل ما أقرأ أو أسمع . ولكنى لم أنصب نفسى لدلالة الناس على هؤلاء الذين يسطون على أعمال الناس بجرأة خارقة ، ولا أنا حاولت أن أتعقب هؤلاء فأكشف أمرهم علانية ، كان ينبغى أن أفعل ، ولكنى لو فعلت ذلك ، لكان على أن أستهلك أيامى ولياليى وعمرى كله ، ولأحفيت إذن آلافا من الأقلام فى تسطير هذه الخبائث على آلاف من القراطيس والأوراق . لم أصبر نفسى على كشف الأساليب الملتوية البارعة فى السطو على أعمال الناس ، لأننى كنت يومئذ فى شغل عنها ، بما هو أجدى على : من تقويم نفسى ، ومن تخليصها مما داخلها من الفساد بفساد الزمان الذى نشأت فيه .

كانت « قضية السطو » ، فيما قبل سنة ١٩٢٨ ، تسير على استحياء ، وكان ما بقى من أخلاق الناس فى الناس ، يكف من خطواتها فى حياتنا الأدبية . ولكن لما ثارت « مسألة الشعر الجاهلى » فى الجامعة ، وعلم من لم يكن يعلم أن الذى قيل فيها إنما هو سطو مبين على مقالة مرجليوث اختلف الأمر اختلافا شديدا . فالجامعة وجميع أساتذتها يومئذ ، قد علموا علما يقينا أن كتاب « فى الشعر الجاهلى » قائم على « السطو » على مقالة مرجليوث بحذافيرها . ومع ذلك ، فقد ابتلعت الجامعة وأساتذتها هذا « السطو » ، ثم تستروا عليه ، لا بل حاطوه بالرعاية وبالعصبية . فكان ذلك إقرارا بالصمت ، لهذا المبدأ ، فمن يومئذ ، أخذ من كان بالأمس يستحى أن يوصم بالسطو ، يخلع برقع الحياء عن وجهه شيئا بعد شىء . واستحدث كل منهم وسيلة من الوسائل ، وأسلوبا من الأساليب ، تجعل هذا « السطو » يبدو ضربا من « التجديد » فى دراسة الأدب وفى إنتاج الأدب . وبدأ السطو من بعض « الأساتذة الكبار » تزداد أساليبه خبثا ونكرا ، ودهاء ومكرا ، يوما بعد يوم ، تحت سيطرة « الإرهاب الثقافى » الذى تولى كِبْرَهُ « الأساتذة

الكبار »[١] . وتُسَهِّل من أمره ماكان يَسْتصعب ، وبدأ الكبار يستغلون الصغار أيضا ، ويدربونهم على السطو الصريح بأساليب تخفى شيئا من معالمه ، ودارت العجلة .. ورحم الله أبا العلاء إذ قال :

ولا تُعَلِّم صغيرَ القوم معصيةً ... فذاك وِزْرَ إلى أمثاله عَدَلَكْ

فالسِّلْكُ، ماسطاع يوما ثَقْبَ لؤلؤةٍ! ... لكنْ أصاب طريقًا نافِذا فسَلَكْ

دارت العجلة ، ولم تزل تدور ، وجاء جيل بعد جيل ، أصاب طريقا نافذا فسلك ! واستقر الأمر على ذلك فى حياتنا الأدبية إلى اليوم ، لا أقول لك فى البحث الأدبى ، بل فى الفن كله وفى الموسيقى أيضا ، وفى الإنتاج الأدبى والعلمى بلا استثناء ، إلا من عصم الله ، وهم قليل .

وليت الأمر وقف عند ذلك القدر من المكر والدهاء فى « السطو » ! ليته وقف ، ولكن انحدر بعد إلى هوة « السطو الحر » وقرارته ، (الحر ! غريبة ، كيف جاءت هذه الصفة هنا ؟) . انحدر إليها بلا قناع ، إلا قناع الزمن الذى يُسْدِلُه على أعمال الناس بالتقادم ! مثال ذلك : كتاب كان صاحبه يحميه حيا ، فلما هلك هلكت معه الحماية ، وأسدل الزمن عليه قناعه . يأتى أستاذ فيعيد نشره بنصه كما كان ، ولكن عليه اسمه هو ، ويرتفع الأمر إلى المحكمة ، فتحكم بأنه « سطو » ، دون أن تلجأ إلى خبير من أهل هذا العلم ، لأن الأستاذ قد أغنى المحكمة عن إرهاق الخبير ! كان سطوا حرا ، سطرا سطرا . ثم مات الأمر ، وابتلعته حياتنا الأدبية ابتلاعا حرا ؟ بلا استنكار ، لا باليد ولا باللسان ولا بالقلب . وإذا بلغ الأمر هذا المبلغ . فلا ريب فى أن « السطو » الخفى المتقن ، الذى يلبس طيلسان الجامعة ، أو برد الأستاذية ، أو يختال فى ثياب موشاة من البحث العلمى = خليق أن يعد عندنا فى حياتنا الأدبية ، تسابيح عبادة فى محراب الفنون والآداب .

من أجل ذلك ، لا أجدنى منصفا ، إذا توقفت عند مقالتك الثانية ، وعند

---

(١) كِبْر الأمر : مُعْظَمه .

ما ذكرته فيها من استنكارك على أن أجعل فى كتابى « المتنبى » فصلا بعنوان « كتابان فى علم السطو » ، متهما فيه الأستاذين الجليلين : الدكتور طه والأستاذ عبد الوهاب عزام بالسطو على مافى كتابى وعلى كتب غير كتابى عن المتنبى . فهذه قضية لا أحب أن أناقشها هنا ، بأكثر مما سطرته فى المقدمة (المتنبى ١ : ١٠٦ - ١٦٥) ، وفى مقالاتى التى نشرتها فى الجزء الثانى من كتابى بعنوان « بينى وبين طه » ، فإذا كان ما كتبته لم يقنعك ، فأنا وأنت كما قال المقنع الكندى :

وإنَّ الذى بَيْنِى وبَيْنَ بَنِى أَبِى وبَيْنَ بنى عَمِّى ، لَمختِلفٌ جِدًّا !

وحسبى أن أختم القول « قضية السطو » بكلمتين أقتبسهما عرضا .

الاقتباس الأول

من صحيفة الأخبار فى ٢٧ فبراير ١٩٧٨ ، من كلمة كتبها الأستاذ جلال الدين الحمامصى « دخان فى الهواء » . يقول : « لصوص الفكر : عندما تحدثتُ عن لصوص الفكر الذين يسطون على الكتب ، ويأخذون بعض أفكارها ويؤلفون منها القصص السينمائية ، لم أكن أظن أن هذا الموضوع يشغل بال الكثيرين ، لا فى مجال السينما وحدها ، بل وفى كل المجالات ، فأساتذة الجامعة يشكون من أن اللصوصية امتدت إلى بعض الطلبة ، فيسطون على مؤلفاتهم بكاملها ويصورونها ، ويبيعون النسخ لزملائهم بأرباح طائلة . والدكتور صليب بطرس يقول :

« إن الإنتاج الفكرى المصرى أصبح فى معظم الأقطار العربية نهبا للصوص الفكر ، يسَّرت لهم السرقة فنون الصنعة الطباعية الحديثة التى انتشرت على نطاق واسع فى السنوات الأخيرة كما يسرت لهم تفادى أغلى الأجزاء فى صناعة الكتاب ، وهى حق المؤلف ، وعملية الجمع . فلا يبقى بعد ذلك إلا التصوير والورق والحبر وهى تقل عن نصف التكلفة الكلية بكثير . ومن ثم يصبح اللص فى مركز يمكنه من بيع الكتاب المزور بأقل مما يبيعه ناشره الأصلى بكثير جدا » .

وردود الفعل لكلمتى كثيرة ، وهكذا نجد أن اللصوصية لم تعد مقصورة على

مجال واحد ، بل أنها تمتد . وتمتد وتصبح القاعدة فى كل شىء . وما ذلك إلا لأن الاعتداء على حقوق الآخرين لايجد من يمنعه . على أنى أقول إن أخطر أنواع هذه اللصوصية ، هى السطو على فكر الآخرين وتقديمه فى أفلام لأن المفروض أن مؤلف القصة أو كاتب السيناريو والحوار ، إنما يحاضر المشاهدين فى موضوعات عامة وترتكز على المبادىء ، والقيم الأخلاقية . وما أتعس شعبا يكون المحاضر فيه من أقطاب لصوصية الفكر » . هكذا قيل فى (فبراير سنة ١٩٧٨) .

فهذا كما ترى ، أيها العزيز ، داخل دخولا ما فى « السطو الحر » الذى حدثتك عنه ، ولكنه خسيس !

الاقتباس الثانى

من كتاب جيد للدكتور فؤاد زكريا ، عنوانه « التفكير العلمى » ، نشره فى شهر (مارس سنة ١٩٧٨) ، عقد فى أواخره بابا بعنوان « شخصية العالم » ، وجعل الفصل الأول فى « الروح النقدية ، فقال (ص : ٢٨٨ ، ٢٨٩) :

« والوجه الآخر لموضوع النقد هذا هو أن نعترف بفضل الآخرين على أعمالنا . فنحن ندين لمن نقرأ لهم بقدر كبير من معارفنا بل أن كثيرا من أفكارنا الشخصية التى يبتدعها كل منا وفى ذهنه أنه مصدرها الوحيد ، لا تثار فى أذهاننا إلا لأن قراءة بحث أو كتاب معين ، قد أوحى إلينا بها ، ولو بصورة غير مباشرة ، أو أثار فينا حاسة النقد والهجوم ، فيكون له الفضل فى هذه الحالة بدورها ، حتى ولو كان ذلك فضلا سلبيا . ومن هنا : فإن العلماء والكتاب فى البلاد المتقدمة التى رسخت فيها التقاليد العلمية ، يحاولون بقدر ما فى وسعهم ، رد الفضل إلى أصحابه . وربما رأيت المؤلف منهم يعدد فى مقدمة كتابه أسماء مجموعة ضخمة من الأشخاص ، بعضهم ناقشه مناقشة قصيرة حول الموضوع ، وأحيانا يذكر الأستاذ فضل تلاميذه الذين ألهموه بأسئلتهم واستفساراتهم كثيرا من أفكاره . أما الإشارة إلى الاقتباسات من المراجع الأخرى ، فقد أصبحت تقليدا ثابتا لا يخالف فيه أحد .

وفى هذه الحالة بدورها ، نجد أن هذا التقليد الجليل لم يستقر فى بلادنا تمام

الاستقرار ، بل أن مخالفته قد تتخذ فى بعض الأحيان أبعادا مؤسفة ، كما يحدث فى حالات « السطو » على أعمال الآخرين التى ينسبها المرء إلى نفسه دون وازع من ضمير . ومن المؤكد أن حياتنا العلمية لن تستقيم إلا إذا أصبح الاعتراف بفضل الآخرين ، حتى فى الأمور البسيطة ، قاعدة لا يخالفها أحد . وربما احتاج الأمر فى البداية إلى قدر من الشدة ، بحيث يَلْقَى من يرتكبُ عملا من أعمال السرقة العلمية جزاء رادعا . وبعد ذلك يمكن أن يتحول السلوك العلمى القويم إلى عادة متأصلة فى النفوس ، فلا نحتاج إلى فرض جزاءات . ولكن النظرة المدققة إلى أوضاع التقاليد العلمية فى العالم العربى لا توحى بالتفاؤل ، إذ يبدو أن الأجيال الجديدة أقل تمسكا بهذه التقاليد حتى من الأجيال السابقة . ومن ثم فإن الخط البيانى للروح النقدية السليمة ، وللأخلاق العلمية بوجه عام ، يتجه إلى الهبوط . وهو أمر مؤسف ينبغى أن نتداركه حتى لا تتسع الهوة بيننا وبين البلاد المتقدمة التى يزداد علماؤها تمسكا بالتقاليد العلمية جيلا بعد جيل » . هكذا يقول أستاذ من أساتذة الفلسفة بعد مضى أكثر من خمسين سنة على إنشاء الجامعة !

وأنا أقتصر على هذين الاقتباسين بلا تعليق ، فإن ما أسلفته هنا وفى كتابى دال عليه ، وصدق أبو العلاء ، فإن الجيل بعد الجيل « أصاب طريقا نافذا فسَلَكْ » ، وغفر الله للأساتذة الكبار !! ولكن الأمر أجل وأفحش مما يتصور الأستاذ الحماصى والدكتور فؤاد ، كالذى قال الشاعر فى هجاء رجل يقال له « الأشنعى » :

لَعَمْرُكَ إن الأَشْنَعِىَّ وشَأْنَهُ ، لكالصُّبْحِ ، مايزداد غَيْرَ بياضِ

أو كالذى قال أبو تمام :

أيقظت هاجِعَهمْ ، وهل يُغْنِيهمُ سَهْرُ النواظرِ والعقولُ نيامُ

أو كالذى قال ابن الرومى :

يرى الموارط ذو عين فيحذرها والعمى فيها إلى الأذقان والركب

وحسبى أن أختم هذه القضية ، « قضية السطو » هنا ، بما قلت فى ختامها فى كتابى

« أتلفت اليوم إلى ما أشفقت منه قديما من فعل « الأساتذة الكبار » . لقد ذهبوا بعد أن تركوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدوا ، حياة أدبية وثقافية قد فسدت فسادًا وبيلا على مدى نصف قرن ، وتجددت الأساليب وتنوعت ، وصار السطو على أعمال الناس أمرا مألوفا غير - مستنكر ، يمشى فى الناس طليقا عليه طيلسان (البحث العلمى) و « عالمية الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصوله إلا ترديدا لقضايا غربية ، صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كل قضية ، واختلط الحابل بالنابل . قُلْ ذلك فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفن أو ما شئت ، فإنه صادق صدقا لا يتخلف . فالأديب مصور بقلم غيره ، والفيلسوف مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ ناقد للأحداث بنظرغريب عن تاريخه ، والفنان نابض قلبه بنبض أجنبى عن تراث فنه » ، وارحمتاه !!

كذلك ... وهذه هى القضية ! ولم أزل أقول عن كتاب الدكتور طه ، والأستاذ عزام ، أنهما « كتابان فى علم السطو » لاجَرَم ! وسَمِّهما أنت بعدئذ ماشئت : « استلهاما » أو « استعارة » أو « استلالا فى خفة » ، أو بابا من أبواب « الاجتهاد » الذى تصورت أنى خُلِقْت لأغلقه ، فالمهارة البارعة فى تغيير بعض معالم المتاع المسروق أو أكثرها لا تخرجه ولا سارقه من حد السرقة .

وطال الأمد على لُبَد [1] ... ونحن لم نزل فى الثالثة . فأنت أيها العزيز ، تقول : « إنه من المحزن أن يبلغ بنا اللدد فى الخصومة حدا يجعلنا نسلب طه حسين أخص خصائصه ، ونتجاهل أجمل قدراته ، ونصفه بأنه (رجل جاهل) ، ليس له بصر بتذوق الشعر » .

بطلت (الخصومة) آنفا ، فالآن كيف ؟ أنت تعرفنى بلاشك ، وتعرف الدكتور طه أيضا ، أليس كذلك ؟ فهل تتصور أنه لو كان الدكتور طه عندى (رجلا جاهلا) ، هل تتصور أنى كنت أخاطبه أو أبالى به ؟ لعلك قست أمرى وأمر الدكتور طه ، على ما كان منى يوم حملت القلم بعد هجر له طويل ،

(١) هذا مثل ، وأكثر مايروى : طال الأبَد على لبد ، ولبد آخر نسور لقمان بن عاد السبعة ، وكان أطولها عمرا ، فضربت به العرب المثل .

فذكرت فى مقالاتى إنسانا ينطبق عليه هذا الوصف انطباقا كاملا [١] ، فأوغلت فى كتابة اسمه إيغالا يوهم إنى أخاطبه أو أبالى به ، لا ، ياسيدى ، فأمر الدكتور طه غير أمر هؤلاء الذين يشترون قلما بقرش من الخردواتى ، فيكتبون ، فيكثرون ، فيعدون فى الكُتَّاب !! أمران مختلفان جدا ، وزمنان مختلفان كل الاختلاف أيضا . ومع ذلك ، فأنا قد نبهت مرارًا فى مقالاتى أن هذا الذى أكثرت ذكر اسمه ليس إلا دمية يحركها محرك ، وأن الدمية فى ذاتها ليس لها قيمة تذكر ، وأن اسمه الذى أذكره لا يعنينى ، بل الذى كان يعنينى هو « هيئات التبشير » و « دوائر الاستعمار » التى تحرك هذه الدمى فى حياتنا الأدبية وترشدها إلى الطريق . كان همى هو كشف الغطاء عن هذه الحقيقة لا غير . فإذا كنت قست هذا على هذا فالقياس فاسد : كما يقول أصحاب المنطق .

(رجل جاهل) ! لم أستعمل هذا قط فى حديثى عن الدكتور طه : فليس لك بحق أن تقول إنى قلته ، لا استخراجا من فحوى كلماتى ولا استئناسا بأنى خاطبت مرة (رجلا جاهلا) !

يقول أبو عثمان الجاحظ : « طلبتُ علم الشعر عند الأصْمَعِى ، فوجدته لا يحسن إلا غريبه . فرجعت إلى الأَخْفش ، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه . فعطفت على أبى عبيدة ، فوجدته لا يحسن إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وَهْبْ ومحمد بن عبد الملك الزيات .

أفيحل لأحد منا أن يستخرج من كلام أبى عثمان أن الأصمعى (رجل جاهل) ، وأن الأخفش (رجل جاهل) ، وأن أبا عبيدة (رجل جاهل) ؟ أو على الأقل أن كلا منهم (رجل جاهل بالشعر) ؟ ونعم أنا ذكرت الدكتور طه وكتابه « مع المتنبى » فقلت فيه أحيانا : « إنه يتهجم على غير بصيرة فى الرأى ، وأن فى بعض كلامه فوضى وإطالة وتهويلا وثرثرة ، وفى بعض كلامه اضطراب وفساد

---

(١) يعنى لويس عوض . انظر ماكتبه عنه فى « أباطيل وأسمار » .

مفسد ، وفيه تعسف غليظ وفيه تحميل للفظ ما لا يحتمله اللفظ ، وفيه سوء نقل عن الكتب ، وأنه كثير المغالطة : شديد اللدد ، غير مستقيم الرأى ، وأنه فى بعض المواضع متخلف النظر ، وأنه يجهل نفسية المتنبى كل الجهل ، وأنه لا يعلم أسرار الألفاظ التى يستخدمها الرجل فى شعره » ، إلى آخر ما قلت فى مواضع متفرقة من مقالاتى التى تضمنها الجزء الثانى من كتابى . كل هذا قلته وأشد منه ، ولكنى لا أقول إنه (رجل جاهل) كل ما قلت من ذلك محدود بمواضع نقدى لنصوص من كلامه ، لا ينسحب شيء منه انسحابا مطلقا على كل كلام يكتبه ، ولا على شخصه من حيث هو أستاذ من الأساتذة الكبار . وما من أحد من الناس يخلو من عيب فى بعض شأنه ، فإطلاق العيب على كل شأنه مجازفة ، ولكن الأساتذة الكبار قد سَنُّوا من السنن سنة المجازفة ، فكأنك أيضا معذور لأنك لم تملك إلا أن تقيس سُنَّتى فى الكتابة على سُنة « الأساتذة الكبار » وأنا لست منهم فى شيء بحمد الله وتوفيقه .

* * *

نحن لم نزل فى الثالثة . فسياق كلامك أنى وصفت الدكتور طه بأنه « (رجل جاهل) ، (لا بصر له بتذوق الشعر) » . وظاهر عندى أن مسألة « التذوق » مما تشغلك شغلا حتى ترددها ترددا ، ولذلك ، فأنا أظنها انزلقت منك فى خلال هذه الجملة ، حيث كان ينبغى أن تكفها وتحبسها .

نعم ، أنا قلت مرارا لا أحصيها فى كتابى وفى مقالاتى عن كتاب الدكتور طه « مع المتنبى » أن الدكتور : « لا بصر له بالشعر » ، ولكنى لم أقل قط أنه « لا بصر له بتذوق الشعر » ، والجملتان غير متكافئتين فى المعنى ، حتى تغنى إحداهما عن الأخرى أو تقوم مقامها . وأنا أعلم أن أهل زماننا يتساهلون فى كل شيء ، ويتساهلون خاصة فى التعبير ، بلا تحديد ولا تحليل لألفاظ اللغة . وكنت أحب لك أن لا تتابعهم على هذا التساهل . ولكنى أعلم أيضا أن هذه هى أيضا إحدى السُّنن التى سنّها « الأساتذة الكبار » ، فغلبت على الناس وعلى ألسنتهم ، فأصابت منهم موقعا أغفلهم عن حقيقة الفساد الذى يجره هذا التساهل . فهل تأذن لى أن أبين عن نفسى ؟

في شهر فبراير سنة ١٩٧٥ ، جاءني الأخ الأستاذ سامح كريم مندوبا عن مجلة الكاتب يسألني سؤالا بمناسبة المشاركة في الاحتفال بذكرى وفاة الدكتور طه . وكان السؤال : « ما هو دور طه حسين في رأيك ؟ » . وقد أجبته ونشرت الإجابة في مجلة الكاتب عدد مارس ١٩٧٥ بعنوان « كانت الجامعة هي طه حسين » . بدأت الإجابة بالقصة التي ذكرتها آنفا عن قراءتي على الشيخ المرصفي ، وما عرفته منه من قراءة الدكتور طه عليه من قبل ، قلت في مجلة الكاتب :

« فحفزني ذلك على أن أسعى إلى لقاء الدكتور طه وإلى السماع منه (وذلك في سنة ١٩٢٣) ، فمن يومئذ عرفته من قرب . عرفته محبا لعربيته حبا شديدا ، حريصا على سلامتها ، (متذوقا) لشعرها ونثرها أحسن (التذوق) . وعلمت أن هذا الحرص وهذا (التذوق) ، كان ثمرة من ثمرات قراءته على المرصفي ، فإني لم أر أحدا يحب العربية ويحرص على سلامتها كشيخنا المرصفي رحمة الله عليه . وكررت ذكر تذوقه في موضع آخر وقلت : ثم انتهى أمر الدكتور طه إلى أن صار من أكبر المدافعين عن اللسان العربي إلى آخر حياته ، وأنه محال أن يحشر في زمرة الخبثاء ذوي الأحقاد من ضعاف العقول والنفوس الذين ظهروا في الحياة العربية لذلك العهد ، بظهور سطوة « الاستعمار » وسطوة « التبشير » ، وهما صنوان لا يفترقان ثم قلت :

« ودليل آخر ، وذلك أنه حين انجلى غبار ما أثاره الدكتور طه بكتابيه : « في الشعر الجاهلي » و « مستقبل الثقافة في مصر » ، وهما كتابان لا قيمة لهما من الوجهة العلمية ، انجلت بعد ذلك نفس الدكتور طه ، وناقض بما كتبه وبما قاله كل ما في هذين الكتابين من فساد . وَمَرَدُّ ذلك إلى هذه الخصال التي كادت تكون طبيعة في نفسه : من حبه للعربية وحرصه على سلامتها ، وما هداه الله إليه من حسن (التذوق) لروائع البيان » .

فهل تظن أن قائل هذا في الدكتور طه ، يمكن أن يقول فيه « أنه (رجل جاهل) ، ليس له بصر (بتذوق) الشعر هذا عجب أي عجب ؟ ونعم أنا أقول

الآن وقد قلت مرارا كثيرة فى مقالاتى « بينى وبين طه » وغيرها أن الدكتور طه « لا بصر له بالشعر ، لأن البصر بالشعر يحتاج إلى أشياء كثيرا جدا ، أظن (أى استيقن هنا) أن كثيرا منها يفتقر إليه أستاذنا الدكتوز طه . وهناك فروق كبيرة بين « المعرفة بالشعر » ، « العلم بالشعر » ، و « البصر بالشعر » فالأمر كما ترى ، درجات تفرق بينها فروق ظاهرة أحيانا ودقيقة أحيانا أخرى . وهذا رأى فى معرفة الدكتور طه بالشعر تستطيع أن تقول فيه أنى مخطىء ، بلا ضير عليك فى ذلك . وسواء كنت مخطئا أو مصيبا ، فإنه لا يتيح لك البتة ، أن تستخرج منه – وهو بهذا القدر من التحديد – أنى أقول أن الدكتور طه رجل جاهل لا بصر له بتذوق الشعر بإقحام « التذوق » إقحاما يخرج عبارتى عن معناها ومرماها . وبيان ذلك أن التذوق معنى عام مجمل مشترك الدلالة بين الناس جميعا : لكل واحد منها نصيب ، وهو يقل ويكثر ويعلو ويسفل ، ويصقل ويصدأ ، ويجود ويفسد ولكنه على كل حال حاسة لا غنى عنها للإنسان .

وقد بينت بعض رأيى فى « التذوق » فى كتابى « أباطيل وأسمار » ، حيث قلت :

« كل حضارة بالغة تفقد دقة التذوق ، تفقد معها أسباب بقائها . والتذوق ليس قواما للآداب والفنون وحدها ، بل هو أيضا قوام لكل علم وصناعة ، على اختلاف بابات ذلك كله ، وتباين أنواعه وضروبه . كل حضارة نامية تريد أن تفرض وجودها ، وتبلغ تمام تكوينها : إذا لم تستقل بتذوق حساس حاد مرهف نافذ ، تختص به وتنفرد ، لم يكن لإرادتها فى فرض وجودها معنى يُعْقَل ، بل تكاد هذه الإرادة أن تكون ضربا من التوهم والأحلام لا خير فيه . فحسن التذوق ، يعنى سلامة العقل والنفس والقلب من الآفات . فهو (أى التذوق) ، لب الحضارة وقوامها ، لأنه قوام الإنسان العاقل المدرك الذى تقوم به الحضارة . وهذا شىء لا يكاد يختلف فيه اثنان فيما أظن » ، (أباطيل وأسمار : ٣٤) .

وإذن ، فلفظ « التذوق » لفظ مبهم مجمل الدلالة ، ولكل حى عاقل مدرك منه نصيب يقل أو يكثر ، ويحضر فى شىء ويتخلف فى غيره ، وتصقله الأيام

والدربة ، وترهفه جودة المعرفة ، والصبر على الفهم ، والمجاهدة فى حسن الإدراك . فبهذا القدر من دلالة اللفظ المجمل المبهم حين نقول « التذوق » ، أقول إن الدكتور طه كان حسن « التذوق » للشعر أو لروائع البيان . وبهذا القدر أيضا صار الدكتور طه أديبا كاتبا متميزا من سواه فى التعبير عن نفسه ، أخطأ أو أصاب ، غالط أو استقام ، أوجز أو ثرثر ، صح كلامه أو فسد ، رضينا عن أسلوبه أو كرهناه . فلو صح أن أقول فى الدكتور طه : « أنه رجل جاهل لا بصر له (بتذوق) الشعر » ، لكان معنى هذا إخراجه من حيزه الذى هو فيه إلى حيز لا يكون فيه أديبا أو كاتبا ، أى فى حيز من لا يعتد به فى الأدب أو فى الكتابة . وهذا بلاشك ، شىء لا يخطر ببالى ، ولا يدل عليه شىء من حديثى عن الدكتور طه فى كتابى هذا ، ولا فى سائر ماكتبت .

فانظر الآن ، كيف فعل بنا أتباع سنة « الأساتذة الكبار » فى التساهل فى التعبير عن أنفسهم أحيانا ، وفى نقل ما ينقلون بغير لفظه من كلام غيرهم ؟ أنا لست من الأساتذة الكبار فى شىء بحمد الله وستره ، فأنا أرجو أن لا تُجْرِى علىَّ أو على كلامى سُنَّتهم ، وأَجْرِ هذه السنة على كلامهم هم : « فأول راض سنة من يُسَيِّرها » . ويحسن هنا أن أضع عبارتى التى أحزنتك ، فاستخرجت منها عبارتك الحزينة عن رأيى فى الدكتور طه ، حين ذكرت المقالات التى كتبتها بعنوان : « بينى وبين طه » ، فقلت :

« وحين بدأت أكتب ، كنت قد حددت طريقى تحديدا كاملا ، وهو أن أواجه الدكتور طه بثلاث حقائق :

= الحقيقة الأولى : أنه فى أكثر أعماله « يسطو على أعمال الناس سطوا عريانا أحيانا ، أو سطوا متلفعا بالتذاكى ، والاستعلاء والعجب أحيانا أخرى » .

= الحقيقة الثانية : أنه لا بصر له بالشعر ، ولا يحسن تذوقه على الوجه الذى يتيح للكاتب أن يستخرج دفائنه وبواطنه ، دون أن يقع فى التدليس والتلفيق .

= والحقيقة الثالثة : إن منطقه فى كلامه كله مختل ، وأنه يستره بالتكرار والترداد والثرثرة » (المتنبى ١ : ١٤٠) .

فأنا أقول فى الدكتور طه : « لا بصر له بالشعر ، ولا يحسن تذوقه على وجه يؤدى إلى كيت وكيت - فصارت العاقبة ، عاقبة التساهل : « رجل جاهل لا بصر له بتذوق الشعر » وبالتساهل أيضا صار « التذوق » المقيد بقيد ، « تذوقا » جامحا مطلقا بلا قيد ، فاكتسح فى طريقه أخص خصائص الدكتور طه ، وأجمل قدراته » ! غفر الله لنا ولك ، أيها العزيز .

وقبل أن أسلت نفسى من هذه الثالثة ، أحب أن أقول لك : أنى كنت أتمنى أن تصدر مقالاتك الخمس بهذه الجملة : « أنه لشىء محزن أن يصل اللدد فى الخصومة حدا يجعلنا نسلب طه حسين أخص خصائصه ، ونتجاهل أجمل قدراته ، ونصفه بأنه رجل جاهل لا بصر له بتذوق الشعر » . لأنك لو كنت فعلت ذلك ، كان أبين عن طريقك فى النظر إلى كتابى وكتاب الدكتور طه ، وعن فصلك فى القضية بينى وبينه . فالرحى لاتدور إلا على قُطْب ، وهذه الجملة هى القطب ، فكان تقديمها أولى من تأخيرها ، لأنه منك قضاء فاصِلٌ بأنى بنيت ماكتبته على خصومة تحملنى على الجور حملا . هكذا أظن .

ولا أدرى ، منذ الآن هل تستطيع أن تصدقنى أو لا تستطيع ، إذا أنا قلت لك : أنى منذ وقعت فى المحنة ، محنه « قضية الشعر الجاهلى » ورميت بنفسى فى أهوالها التى كادت تفضى إلى الهلاك ، لم يعصمنى فيها إلا آية سورة المائدة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . فمنذ خمسين سنة ، قذفتنى القواذف فى المعمعة ، فأنا أخوض الغمرات فى قضايا الفكر والنظر وأطأ على أشواك الاختلاف والتناقض ، وتتخطفنى خطاطيف الشكوك والريب ، وأقف على شفا حفرة من النار ، لو زلت بى قدم

لهويت على نار لا قرار لها سبعين خريفا . ولولا إخباتى لله بالطاعة فيما أمرنا به من القيام بالقسط ، والاحتراز من الجور ، وكف النفس عن تحكيم الشنآن [1] فى كل قضية من آلاف القضايا التى يَعُبُّ عُبابها فى بحار الفكر والنظر ، لكنت قد هلكت منذ دهر طويل هلاكا لا مخلص منه . فهل تظن بعد ذلك أنى أكفر نعمة الله علىّ بنجاتى من ماحقات الدين ، فأعمد إلى تحكيم الشنآن والخصومة فى شىء هين لا خطر له ، مثل كتابى وكتاب الدكتور طه عن المتنبى ، فاتخذ الجور فى الخصومة مذهبا ، لا لشىء إلا لأسلب الدكتور طه بعض خصائصه وقدراته ؟ هل تظن ؟ رحم الله شيخ المعرة :

أَطَلبْتُم أدبا لدىَّ ؟ ولم أزلْ   منه أُعانى الحجر والتَّفْليسا
وأردتمونى أن أكون مُدَلِّسا ؟   هيهاتَ ! غيرى آثرَ التدليسا ؟

* * *

(١) الشنآن : البُغْض .

المتنبى ليتنى ما عرفته

- ٢ -

أيها العزيز ، كانت نيتى ، كما تعلم ، أن أجعل ما أكتبه ، تعقيبا على مقالاتك الخمس ، مقالة واحدة ، ولكن القلم جمح بى جماحا أنا غير راض عنه ، فاجتزأت بالقدر الذى نشرته ، وأجلت الباقى . ومع التأجيل تتغير طبيعة سرد الأفكار . ومضت أيام ، وحل ميعاد كتابة المقالة الثانية ، فكعادتى ، عدت أقرأ ما كتبته فى المقالة الأولى ، ولم أكد انتهى إلى آخر ما ختمت به المقالة ، وهو بيت شيخ المعرة :

وأردتمونى أن أكون مُدَلِّسا ؟   هيهاتَ ! غَيْرى آثر التدليسا !

حتى رأيتنى بما كتبت ، قد وقعت فى ردغة التدليس ، (والردغة : الوحل الكثيف المتماسك الذى يعسر الخلاص منه) . وذلك أنى من شدة إلحاحى على نَفْى كل (خصومة) بينى وبين الدكتور طه تظن أنت أنها أدت بى إلى الجور عليه فى الكتابه عنه ، كدت بفعلى هذا أن أوهم القارىء أن الخلاف بينى وبينه كان ، ولم يزل ، مقصورا على « مسألة الشعر الجاهلى » ، وما ارتكبه هو فى سبيلها ، وما اقترفته الجامعة وأساتذتها يومئذ من التستر على فعلته التى فعل . وهذه هى ردغة التدليس التى وقعت فيها . ولكى أُزيل هذا التدليس الذى أوحت به مقالتى الأولى ، رأيته واجبا علىّ أن أبين الأمر بيانا واضحا .

لم تكن بينى وبين الدكتور طه نفسه (خصومة) ما منذ عرفته إلى أن أفضى إلى ربه .نعم ، ولكن نَفْى هذه (الخصومة) لا يعنى البتة إنى راض كل الرضى أو بعضه عن سائر أعماله وآرائه ، فالعكس هو الصحيح ، الدكتور طه أديب كبير ، له كتب كثيرة مختلفة الأنواع ، وله آراء كثيرة مبثوثة فى ثنايا كتبه ، وله أساليب فى البحث والنظر والاستنباط ، وله قدرة متميزة على تصوير آرائه وأبحاثه وسائر

---

* مجلة الثقافة ، السنة السادسة - العدد ٦١ ، أكتوبر سنة ١٩٧٨ ، ص ٤ - ١٨ .

ما يعالجه فى كتبه ومقالاته . فأنا أحب أن تكون على بينة من رأيى ، لكى تبنى حكمك وقضاءك بيننا على بصيرة .

ليس الأمر أمر (خصومة) ، ولكنه أمر خلاف ، خلاف بعيد الجذور . يبلغ حد التباين الكامل فى الأصول . وهذا التباين الكامل فى الأصول يفضى إلى تباين كامل فى الآراء التى تنبع من هذه الأصول . وهذا التباين كان معروفا واضّحا عندى وعند الدكتور طه على السواء منذ عرفته إلى أن فرق بيننا الأجل المُسَمَّى . وأنا لم أكتب شيئا كثيرا فى نقد أعمال الدكتور طه وآرائه مدة حياته ، ولكن الذى كتبته على قِلَّته كان يحمل فى ثناياه وجوه التباين فى الأصول ، وفى طريقة تناول الأدب والتاريخ ، وفى أسلوب تكوين التفاصيل التى تبنى عليها الصورة التى يصورها الكاتب بقلمه وبيانه ، فمن أجل ذلك كان حكمى واضحا صريحا على كثير مما كتبه فى التاريخ والأدب ، ككتابه « على هامش السيرة » ، وكتابه « الفتنة الكبرى » ، وسائر هذه الفصيلة ، وأنها بُنِيَت بناء فاسدًا كل الفساد ، بفساد التفاصيل التى أعدها ونظر فيها واستخرج منها مادة كتابته ، ولما جئت إلى النظر فى كتابه « مع المتنبى » ، كان بينا فيما كتبت ، مقدار الاختلاف بين الأصول التى يصطنعها الدكتور طه ، وبين أصولى التى أبنى عليها ماأكتب . ودع عنك مسألة الاستلهام أو الاجتهاد ، أو الاستعارة ، أو « الاستلال فى خفة » فإنها ليست كل المسألة . ليست الجوهر ، بل هى العرض ، كما يقول أصحاب المنطق .

كنت أحب أن تتوقف عند هذا ، لأن قضاءك كان محتاجا إليه ، لتنصف فى القضية . ولكنك أغضيت عن التباين فى الأصول ، فلم تجد تفسيرا لما تجده عندى إلا (الخصومة) الداعية إلى الجور . وعلى كل حال ، فعسى أن أكون قد أزلت بهذه الكلمة القصيرة ، ما أوقعتنى فيه المقالة الأولى ، من التدليس عليك أوعلى القراء . لا (خصومة) بينى وبين الدكتور طه ، نعم ، ولكن بينى وبينه خلاف يبلغ حد التباين فى الأصول ، يجعل حكمى على كثير مما كتب أشد مما هو ظاهر فيما كتبته فى كتابى « المتنبى » أو غيره من المقالات . وهذا حسبنا إن شاء الله . ونعود الآن إلى ما كنا فيه ، بعد أن فرغنا من الثالثة .

أما الرابعة : فهى أيضا فى مقالتك الثالثة ، (الثقافة : مارس سنة ١٩٧٨) والتى جعلت عنوانها : « قضية التذوق الفنى بين شاكر وطه حسين » . وقبل كل شيء ، أحب أن أثبت هنا نص الحكم الذى قضيت به علىّ فى أثنائها حيث قلت : « والأستاذ شاكر مولع بهذا الجدل ، مولع بهذا الصراع العقلى » .. ولا أدرى هل أستطيع ، إعتابا لك وترضية ، أن أغسل عقلى ونفسى وقلبى من أوضار هذا الذى طُبِعت عليه وأُولِعتُ به ؟ ولكنى سأحاول ما استطعت ، مستعينا بحول الله وقوته على تكذيب أبى الطيب فى قوله : « وتأبى الطباع على الناقل » ، وما ذلك على الله بعزيز .

هذه المقالة الثالثة محيرة لى أنا . أربعة أسطر فيها لا أكثر ، حركت فىّ تاريخا كاملا ، حاولت أن أقص طرفا منه فيما مضى ، حتى أطلت وأمللت . وكان الذى جر هذا أن ابتداء الأسطر الأربعة يتضمن لفظا مجلوبا من التوهم المحض ، وهو (الخصومة) ، وأنها بتمامها وختامها تتضمن ألفاظا بنيت صياغتها على التساهل فى التعبير عن المعانى ، فضلا عن التساهل فى فهمها من كلامى ، وذلك حين نسبت إلىّ أنى وصفت الدكتور طه بأنه (رجل جاهل لا بصر له بتذوق الشعر) . أما الآن ، فأنا فى حيرة أشد حيرة ، لأن موضع التعقيب مبثوث فى أسطر المقالة كلها ، أى فى أكثر من ثلاثمئة سطر . فمن أجل ذلك رأيت أن ألخص ما فيها تلخيصا أرجو أن يكون معينا لى ولمن يقرؤه .

١ - ذكرت فى رأس مقالتك هذا العنوان : « قضية (التذوق الفنى) بين شاكر وطه حسين » ، ثم قلت فى فاتحته إن من أخطر القضايا التى تهمك قضية (التذوق الفنى) ، لأنها قضية جمالية - وأنك لا تهتم ، فى المقام الأول عند دراسة الشعر ، إلا بهذا (التذوق الفنى الجمالى) ، ثم لما فرغت من عرض أصل القضية بينى وبين طه قلت : « وقضية التذوق الفنى من أعقد القضايا فى مجال الدراسات الإنسانية » . ثم عرضت بعد ذلك ما تظن أنه رأيى أنا فى (التذوق) من نص نقلته من كلامى ، ثم قلت : « وقبل أن أناقش هذه (القضية الجمالية) أرجو أن لا يغضب أستاذنا الجليل محمود شاكر ، وألا يعتبره دفاعا عن طه

حسين ، فقد أفضى إلى ربه ، ولا يحتاج إلى دفاع منى أو من غيرى .. هذه واحدة . وأخرى ، أننى **لن أتناول تصور الدكتور طه يرحمه الله (للتذوق الفنى) للشعر ، ولا للأسس النظرية لمناهجه المتطورة فى النقد** ، فهى معروفة للقراء ، وفى كتب مطبوعة أكثر من طبعة » .

٢ - ثم قلت : « ونحن نلاحظ عيبا أساسيًا فى منهج الأستاذ شاكر حول هذه القضية . فهو يتصور أنه المبتدع الأول لفكرة (التذوق الفنى) ، وأن تطبيقها على شعر المتنبى الذى تم على يديه ، ليس له نظير فى القديم ولا الحديث » . ثم نقلت بعد ذلك نصا طويلا من كلامى ، منتزعا من سياق استدلالى على سطو الدكتور طه على بعض ما فى كتابى ، وعلى تقليده لى فى بناء كتابه ، ثم فى مواضع بعينها مما وقفت عنده من شعر أبى الطيب ، وهذا النص مذكور فى كتابى (المتنبى ٢ : ٩٦ ، ٩٧) ، ثم عقبت عليه بقولك : « وبصرف النظر عن الغلو الذى يبدو فى هذا الكلام ، فإن وضع القضية على هذا النحو ، هو الذى أوقع أستاذنا فى هذا العيب الأساسى » .

٣ - ثم عقبت على هذا بما يأتى : « وفكرة التذوق الفنى معروفة منذ أقدم العصور .. والأساس النظرى لعملية (التذوق) كما حددها الأستاذ شاكر معروف ، منذ حدد ابن سلام الجمحى ، المتوفى فى الثلث الأول من القرن الثالث الهجرى ؛ فى مقدمة كتابه « طبقات الشعراء » الأسس الموضوعية لتذوق الشعر » . وجئت بنص ابن سلام . ثم قلت أيضا : « ويحدثنا ابن الأثير فى المثل السائر .. » وجئت بنصه ، ثم قلت : « وهذه كلها معروفة فى القديم والحديث » .

٤ - ثم لما بلغت معى إلى التسليم جدلا بكل ما جاء فى كتابى حول كتاب طه ، قلت إنه لا يصدق إلا على ٩٨ صفحة فى الطبعة الأولى التى أربت على ٧٠٠ صفحة ، ثم قلت : « ومع ذلك ، فمعظم الانتقادات التى جاءت فى كتاب الأستاذ شاكر ، **يدور حول أمور بعيدة عن (التذوق الفنى)** ، مثل الحديث عن نسب أبى الطيب ، وعلاقته بجدته ، وقرمطيته ، أو الخلاف حول ترتيب القسم الأول من ديوانه ، وهى أقرب إلى الجدل العقلى ، منها إلى (التذوق الفنى) ،

والأستاذ شاكر مولع بهذا الجدل العقلى ، مولع بهذا الصراع العقلى . ولقد صرفه هذا الولع فى كتابه إلى مجموعة من الأقيسة المنطقية والقضايا العقلية ، أخضع الشعر لسطوتها ، ليثبت أمورا لا علاقة لها بقضية (التذوق الفنى) ، مثل علوية أبى الطيب ، وسجنه لإظهار هذا النسب ، وحبه لخولة أخت سيف الدولة ، وترتيبه لقصائد القسم الأول . ثم جاء (التذوق الفنى) شيئا ضئيلا على هامش هذه القضايا العقلية . وبذلك أصيب منهج الدراسة بالضمور فى جانب ، والتضخم فى جانب آخر . أما كتاب طه حسين ، فعلى العكس من كتاب الأستاذ شاكر ، اهتم أولا بالدراسة (الفنية) و (التذوق الجمالى) ، وجاءت القضايا الفكرية على هامش هذا (التذوق الفنى) ، وهو منهج « مستقيم فى النقد والدراسة الأدبية » .

٥ - ثم قلت : « على أن تصور محمود شاكر (النظرى للشعر) يحتاج إلى مراجعات وملاحظات . فلو تأملنا النصوص التى سقناها فى هذه الدراسة من كلامه ، لاكتشفنا للوهلة الأولى أنه يتخذ الشعر وثيقة نفسية ، يستخرج منها حياة أبى الطيب وطبائعه وعواطفه وآماله وآلامه وأحزانه - كما يتخذ منه وثيقة تاريخية تسهم فى تعديل أخبار الرواة القدماء أنفسهم أو تجريحها ، أو استخلاص الصدق من نصوصها ، ونفى ما زيفه (التذوق) . وهذا مفهوم غير خصب (للتذوق الفنى) ، يحول العمل الأدبى إلى وسيلة لخدمة غاية خارجية . وبذلك يتحول الأدب إلى وثائق تاريخية ، أو اجتماعية ، أو نفسية ، أو يصبح انعكاسا مباشرا لحياة الناس وأهوائهم ونزواتهم ، واصطراعهم فى الحياة » . انتهى التلخيص .

وهذا التلخيص لا يغنى بطبيعة الحال ، عن قراءة المقالة كاملة . وأنا لم آت بهذا التلخيص المخل لكلماتك ، لكى أناقشها وأناقش الآراء التى تضمنتها المقالة : بل لأجعل القارىء على بينة صريحة من المحور الذى تدور عليه المقالة وما فيها من الآراء ، والمحور كما هو ظاهر ، هو لفظ « التذوق الفنى الجمالى » .

والبلوى ، أن لفظ (التذوق الفنى والجمالى) عندك ، ناشب نشوبا غريبا فى جميع أسطر المقالة ، وفى جميع الآراء التى تضمنتها ، وفى جميع الأحكام التى

أصدرتها علىّ ! والبلوى أيضا أن لفظ (التذوق) عندى أنا ، ناشب هو الآخر نشوبا غريبا فى مقدمة كتابى « المتنبى » ، وفى كثير مما كتبت منذ زمان طويل . والفرق بين لفظى ولفظك ، أن لفظى هو دائما عندى عار من كل زينة ، (التذوق) لاغير ، ولفظك عندك هو دائما فى أتم زينة ، (التذوق الفنى والجمالى) . وأنا أخشى أن أقترب من لفظك فى زينته ، لأنى إن فعلت ذلك ، سقطت فجأة فى جوف المنطقة الملتهبة ، منطقة الجدل والصراع العقلى ! فلم أجد لى مذهبا سوى الاقتصار على لفظ (التذوق) ، كما استعملته أنا ، ولم أزل استعمله .

وواضح جدا أنى ملتزم بأن أقول « التذوق » عاريا ، وأنك مغرى بأن تقول « التذوق الفنى والجمالى » فى أتم زينته . ولا بأس علىّ ولا عليك إن شاء الله ، ولكن البأس يحتدم احتداما حين تعد معنى اللفظ العارى ، وهو « التذوق » عندى ، مطابقا تمام المطابقة لمعنى اللفظ المتأنق عندك ، وهو « التذوق الفنى الجمالى » ، فالتماسا لبركة العلماء القدماء والمحدثين ، وتعرضا لنفحاتهم ، أسلك مسالكهم فى تدبر معنى « التذوق » ، ثم لا أمس لفظك المتأنق ، إلا بقدر اشتراكنا فى لفظ « التذوق » . ثم صدقنى أنى لا أفعل ذلك إلا التماسا للبركة وتعرضا للنفحات ، واتقاء للفحات اللهب ، لا إيثارا للجدل ، ولا ولعا بالصراع العقلى ، معاذ الله الذى أسأله أن يحط عنى وعنك الخطايا .

و « التذوق » مصدر قولك « تذوقت الشىء تذوقا » ، و مرده إلى « الذوق » ، وهو مصدر قولك « ذاق الطعام أو الشراب ذوقا » ، وهذا « الذوق » عمل من أعمال اللسان ، حين يلتمس صاحبه تعرف طعم مأكول أو مشروب ، وعمل اللسان فى تبين طعوم الأشياء المختلفة أو المتشابهة ، لا يختلف فى ذاته ولا يتعدد . فالذوق ، إذن ، مصدر دال على حدث (أى فعل) معين متميز غير مبهم . وهو فى هذا شبيه بقولنا : « جلس جلوسا » و « قعد قعودا » وأضرابهما . فالقعود والجلوس كلاهما دال على حدث معين متميز غير مبهم : لا يختلف أحدهما أو يتعدد ، باختلاف الأفراد الذين يفعلونه ، مهما تعددوا واختلفوا .

ولا يختلف ولا يتعدد أيضا باختلاف عمل الأفراد فى الجلوس والقعود ، أو بتعدد صور جلوسهم وقعودهم . والذى يقال فى « ذاق الشىء ذوقا » يقال مثله فى « تذوَّقْتُ الطعام أو الشراب تذوُّقا » ولا فرق ، إلا أن هذه الصيغة الأخيرة تدل على تكرار عمل اللسان مرة بعد مرة ، فى طلب تعرف طعم المأكول أو المشروب ، لا غير . هذه حقيقة معنى «الذوق والتذوق» فى أصل اللسان العربى .

ثم لما نقل هذان اللفظان من مدارج الحقيقة إلى معارج المجاز ، تغيرت دلالتهما تغيرا تاما . بيان ذلك : أن معنى نقلهما من الحقيقة إلى المجاز ، هو صرف اللفظين عن التعلق بالجارحة وهى اللسان ، وعن الأجسام التى هى المأكول والمشروب وما يجرى مجراهما = ثم توجيههما إلى التعلق بالمعانى المجردة التى لا أجسام لها أو إلى التعلق بأجسام لا عمل للسان فى تبين طعومها البتة . وفى الحالين تسقط الجارحة ، وهى اللسان ، عن لفظ « الذوق » و « التذوق » ، ويسقط أيضا « الجسم » الذى يقع عليه فعل هذه الجارحة من المأكول والمشروب عند تعلقهما بالمعانى المجردة التى لا أجسام لها . فإذا تعلقا بجسم لا عمل للسان فيه ، بل كان العمل فيه لجارحة أخرى غير اللسان ، اكتسب لفظ « الذوق » أو « التذوق » معنى مبهما غير محدد من فعل هذه الجارحة - الأخرى فى ذلك الجسم بعينه ، على وجه من الحقيقة لا المجاز . وفى الحالتين جميعا يصبح فقط « الذوق » أو « التذوق » ، مصدرا يدل على حدث مبهم غير معين ولا متميز . وبذلك تغيرت دلالة اللفظين تغيرا تاما ، وأصبحت قابلة للوقوع على أنواع متعددة مختلفة .

فإذا قال القائل : « ذُقْتُ القوس » وهى الأداة التى يرمى بها الرامى بالسهام ، فالقوس جسم ، ولكنه لا يدخل فى معنى شىء من الأشياء التى يحاول المرء أن يتعرف طعمها باللسان ، فبديهة اللغة ، وبديهة متكلميها ، تُسقِط عندئذ عن لفظ « الذوق » جارحةَ الذوق ، وهى اللسان ، وتُكْسِبه قدرا غير محدد من فعل جارحة أخرى ، وهى اليد ، لأن مراد القائل بقوله : « ذقت القوس » ، إنما هو ما يعمد إليه بيده من اختبار جسم القوس ، من حيث خفتها وثقلها ، أو خشونتها وملاستها ،

أو لينها وشدتها عند نزع الرامى عليها بالسهم . بل ربما اشتركت العين أيضا فى تبين طولها وقصرها ، واستوائها واعوجاجها ، إلى آخر ما يتطلبه اختباره جودة القوس وصلاحها لأحسن رَمْى الرامى بسهامه . فهذا هو المطلوب من « ذوق القوس » . فلفظ الذوق فى هذه الحالة ، حين سقط عنه عمل الجارحة وهى اللسان ، صار دالًّا على حدث مبهم غير معين ولا متميز ، ولكنه بوقوعه على « جسم » تعمل فيه جارحة أخرى ، وهى اليد ، اكتسب قدرا مقدورا من التحديد . أزالت عنه بعض الإبهام الذى استغرقه وأكسبته قدرا مقدورا من التعين والتميز . ولكن الإبهام لم يزل عنه زوالا تاما . هذه هى الحالة الأولى .

أما إذا قال القائل : « ذقت العذاب ، وأنا أفعل كذا وكذا » ، اختلف الأمر اختلافا فاصلا ، فإن « العذاب » الذى وقع عليه « الذوق » إنما هو معنى من المعانى المجردة لا جسم له ، ولا تعمل فيه جارحة اللسان ولا جارحة أخرى من الجوارح . هذا فضلا عن أن « العذاب » معنى من المعانى متعدد الحقائق ، متعدد الصور فبديهة اللغة وبديهة متكلميها ، تُسْقِط عندئذ عن لفظ « الذوق » عمل الجارحة إسقاطا تاما ، لأنه تعلق بشىء ليس بجسم له طعم من مأكول أو مشروب . وبإسقاطها يدخل اللفظ فى الإبهام دخولا صريحا . وزيادة على ذلك فإن « العذاب » المتعدد الحقائق والصور ، يكسبه قدرة على التعدد والتنوع فى مواقعه على ما يقع فيه ، فإذا كان إسقاط الجارحة هنا قد جعل « الذوق » مصدرا دالا على حدث مبهم غير متعين ولا متميز ، فإن وقوعه على « العذاب » وهو معنى من المعانى لا جسم له ، يغرقه إغراقا فى الإبهام وانعدام التعين والتميز . لا ، بل إن تعدد الحقائق والصور التى يحملها لفظ « العذاب » تزيد زيادة كثيفة فى إبهامه وعدم تعينه وتميزه ، وهذا غاية الغايات فى الإبهام إلا أن الذى حَسَّنه وجعله مقبولا أن « العذاب » على إبهامه مما تدركه الحواس إدراكا لا مرية فيه . ومن هنا أشبه الحالة الأولى بعض الشبه وهذه هى الحالة الثانية .

ومن البين أن الذى قلته فى لفظ « الذوق » عندما نقل من مدارج الحقيقة إلى معارج المجاز ، يصدق كل الصدق على لفظ « التذوق » لأنه فرع عنه ، جاء

للدلالة على تكرار عمل اللسان فى « الذوق » مرة بعد مرة ، طلبا لدقة التعيين والتمييز فى الطعم والنكهة . و « النكهة » من عمل الأنف لأنها تتبين الرائحة مع الطعم . وهذا حسبنا من التماس البركات ، والتعرض للنفحات . وعسى أن أكون قد وفقت بعض التوفيق فيما كتبت آنفا ، فإن أحد أسباب كتابته أنى أردت أن أزيل الغموض عن الصفات التى وصفت بها لفظ « التذوق » فى أواخر مقالتى السالفة ، حيث قلت : « إن التذوق معنى عام مشترك الدلالة بين الناس جميعا ، يعلو ويسفل ، ويصقل ويصدأ ، ويجود ويفسد ، ولكنه على كل حال حاسة لا غنى عنها للإنسان » = وحيث قلت أيضا : « إن التذوق لفظ مبهم مجمل الدلالة ، ولكل حى عاقل مدرك منه نصيب ، يقل ويكثر ، ويحضر فى شيء ويتخلف فى غيره ، وتصقله الأيام والدربة ، وترهفه جودة المعرفة ، والصبر على الفهم ، والمجاهدة فى حسن الإدراك » . فلعله صار واضحا بعض الوضوح ما أردته بقولى إنه « معنى عام مشترك الدلالة بين الناس جميعا » ، وبقولى : « إنه لفظ مبهم مجمل الدلالة » .

وهذه الألفاظ التى تدل على حدث مبهم غير متعين ولا متميز ، هى فى طبيعتها ذات نماء سابغ متوهج ، وذات غنى مفعم وثراء مكنوز ، ولكنها أيضا ، وهو ما يهمنى هنا ، ذات خطر مرهوب على جميع مذاهب القول والفكر والنظر . فإن فيها من القوة الغامضة ما يجعلها قادرة قدرة مطلقة على تضليل المتكلم والسامع جميعا ، وهى التى تتيح لفكرة « التأويل » (أعنى تأويل اللفظ المفرد والكلام المركب ، وإخراجه من معنى ظاهر إلى معنى باطن) = أن تسيطر سيطرة كاملة على العقل أحيانا . وهذه القوة الغامضة ، والقدرة المطلقة على التسلط ، كانت ولم تزل من أكبر أسباب ضلال المتصوفة والمتكلمين والفلاسفة وأشباههم ، فيها ضلوا وأضلوا ، وهى أيضا العامل الحاسم أحيانا فى توسيع هوة الاختلاف بين المختلفين فى الرأى وفى تفسير الألفاظ والتراكيب ، لأنها تعين على تشقيق الكلام وتفريعه تفريعا يغرق الاختلاف فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض من الأهواء ونوازع النِّحَل

المختلفة . يضاف إلى هذا أننا ، نحن البشر ، لا نرتاب أقل ارتياب فى أن « اللغة » هى أداة التفكير ، وأداة البيان . هذه حقيقة واقعة لا يختلف فيها أحد . ولكننا بالتدبر والتأمل نعلم أن « ألفاظ اللغة » ، أى لغة كانت ، ليست محددة المعانى تحديدا قاطعا حاسما فى كل لسان ، وعند كل أحد ، وفى كل زمن من أزمنة هذا اللسان = ونعلم أيضا أن « تركيب ألفاظ اللغة » ، وهى الجمل وأساليب دلالتها المختلفة ، ليست هى الأخرى محددة تحديدا قاطعا حاسما واضحا فى كل لسان ، وعند كل أحد ، وفى كل زمن من أزمنة هذا اللسان . ومعنى ذلك أن ادعاءنا أن « اللغة هى أداة التفكير . وأداة البيان ، قضية غامضة ، قضية موهمة ، قضية إذا امتحنتها وجدتها غير مطابقة للواقع » ، ومع ذلك فنحن بهذه « اللغة » نفكر ، وبها نتفاهم ! قضية مشكلة ! ولكن هكذا كان ، وهكذا خلقنا ! وأنا أحب أن أعفيك ، أيها العزيز ، من المشقة ، فأحيلك على ما كتبته فى كتابى « أباطيل وأسمار » (ص : ٥١٤ - ٥١٧ وما بعدها) ، حيث قلت ذلك فى حديث طويل عن « اللغة » ، وعن لفظ « الدين » وغيره من الألفاظ ، أحيلك أيضا إلى ما أشرت إليه فى مواضع متفرقة من الكتاب ، تقوم على هذا الأصل من الرأى . فلو أذنت متفضلا فاطلعت عليه ، لكان ذلك عونا لنا على ما نتلمسه أنا وأنت من الحق تلمسا .

وأنا أحدثك عن نفسى ، فأنا منذ حاولتُ تلمُّس طريقى فى المسالك الوعرة الشائكة التى قذفت بى فيها المقادير المقدرة ، أطبقت علىّ الشكوك والريب فى معانى الألفاظ التى نستعملها والتى استعملها من قَبْلُ أسلافنا ، وفعلنا ذلك ، وفعلوا بلا مراجعة ، لوضوحها فيما نظن . يومئذ لم يكن لى مطلب سوى مطلب واحد ، هو أن أجد برد اليقين فى نفسى فى شأن « الشعر الجاهلى » ، وفى شأن ما نسميه « إعجاز القرآن » ، كما قلت فى كتابى ، (المتنبى : ١ : ٤٧ ، ٤٨) . ويومئذ تبينت لى مشكلة « اللغة » ومتشابهاتها ومبهماتها تبينا كاملا ، حين وقعت فى حومة الاختلاف بين المختلفين ، وأطبقت علىّ الشكوك المدمرة ، وتنازعتنى هذه المتشابهات المبهمات حتى كادت تمزقنى ، فلم أجد لى سبيلا إلى النجاة

بنفسى ، ولا منفذا إلى برد اليقين فى نفسى ، إلا طرح الاستهانة بخطر اللغة ، وخطر الألفاظ والتراكيب التى تجرى على الأقلام والألسنة سهلة واضحة كل الوضوح فيما نتوهم . وهذه الاستهانة داء قديم عند البشر ، ولكنها كانت عند أسلافنا رحمهم الله ، محدودة بحدود صارمة من الجد والإخلاص للعلم والمعرفة ، لم تمنع عنهم شر خطرها كل المنع ، ولكنها كفت منه : وهيأت لفئة منهم أن تكون ظاهرة بالحق على سائر الفئات الأخرى التى استهانت بخطر المبهمات والمتشابهات ، كالمتصوفة والمتكلمين وغيرهم فضلّوا وأضلوا ، كما قلت .

أما اليوم ، فيؤسفنى أن أقول لك ، أيها العزيز ، أن أكثر هذه الحدود الصارمة التى كانت عند أسلافنا ، قد طمست وامحت معالمها ، بإعراضنا عما كان عندهم ، واستخفافنا بما كانوا يلتزمون به استخفافا مزريا بنا وبهم جميعا . ومن أخطر ذلك سُنَّة الاستهانة الجامحة باللغة ، وبالألفاظ ، وبالتراكيب ودلالاتها على المعانى ، ثم إهدارها جميعًا إهدارًا كاملًا ، واطراح التدبر والتأمل فى المبهمات والمتشابهات اطراحا طائشا أحيانا . هذه السُّنة ، هى إحدى السُّنن التى سَنَّها « الأساتذة الكبار » فى حياتنا الأدبية ، واستشرى الأمر وتفاقم على مر السنين ، وتكاثرت الجراثيم الفتاكة ، وعز الطبيب المداوى ، وأصاب جيلنا « طريقا نافذا فسَلَكَ »[(١)] ، وقد تخفف من كل عبء يعوق حركته من حد أو التزام أو معاناة ، أى تحرر من كل قيد يقيده . وحين أقول « حياتنا الأدبية » فإنى لا أعنى الأدب وحده ، أو الشعر وحده ، بل أعنى كل ما كانت « الكلمة » أصلا فيه من أدب وشعر ودين وفلسفة وعلم ، إلى آخر هذه السلسلة المتشابكة .

ولذلك ، فهى قضية يطول شرحها ، كما ترى أيها العزيز ، ولكنك وقفت معى ولم يأخذك فيها الملل أو التبرم بى ، ولم تستحوذ عليك سُنَّة من سُنن « الأساتذة الكبار » فى إهدار الألفاظ ودلالاتها ، والاستهانة بها وبخطرها ،

---

(١) جزء من عجز بيت لأبى العلاء ، استشهد به الأستاذ رحمه الله فى المقالة السابقة ص ١١١٦.

واطراح التدبر فى مبهماتها ومتشابهاتها تخففا من الأعباء ، وتفلُّتا من القيود = فأنا عندئذ على ثقة من قدرتك على استبانة ما أوجزته هنا ، استبانة تغنينى عن كل شرح وتفصيل . وقبل كل شىء ، فأنا لم أكتب هذا إلا لك وحدك ، أما قراء هذه المجلة ، فلست على ثقة من أمرهم حين يقرأون هذا الكلام ، على هذا السياق ، لأنى لا أعلم عن أحد منهم شيئا يغنى . فإذا سخطوا علىّ ، فهين سخطهم فى مرضاتك ، وإذا رضوا عنى ، فبفضلك أنت كان رضاهم ، وهذا اعتذار منى إليهم . وأيا كان الأمر ، فإنى إنما اضطررت اضطرارا إلى ركوب هذا المركب ، إذ ليس عندى ولا عند القراء منى ، ما كان خليقا أن يعفيك ويعفيهم من كل مشقة . ليس عندى قليل ولا كثير مما عند الدكتور طه : الذى أعفاهم وأعفاك من أن « نتناول تصوره (للتذوق الفنى) ، أو الأسس النظرية لمناهجه المتطورة فى النقد ، فهى معروفة للقراء ، وفى كتب مطبوعة أكثر من طبعة » ، كما قلتَ آنفا فى الفقرة الأولى مما لخصتَه من مقالتك الثالثة . ليس عندى شىء من هذا ، ولا أنا بهذه المنزلة الموجبة لإعفائك وإعفاء القراء .

القول فى « تذوق الشعر »

والمسألة الآن فى تحرير القول فى اللفظ المشترك بينى وبينك ، حيث أقول أو تقول : « تذوَّقَ الشعر » أو « تذوَّقتُ هذا الشعر » . وأبدأ هنا بلفظ « الشعر » الذى يتعلق به « التذوق » ، متجنبا استعمال هذه التحف التى ألطفنا بها زماننا ، من ألفاظ مشكلة غامضة غير مستقرة ، مثل « الشكل » و « المضمون » وأخواتهما وبنات عماتها وبنات خالاتها . ولكى يكون حديثى عن « الشعر » واضحا فى نفسك ، فأسألك أن تكون على ذُكْر دائم غير متقطع من أن « الشعر » كلام ، وأن « الكلام » أصلا هو اللفظ المسموع لا المكتوب ، فإن أكثر حديثى هنا يتضمن ما يوجب أن يكون هذا المعنى حاضرا فى الذهن ، وإن لم أكتبه . وأنت بلاشك تدرك ، لماذا سارعت فسألتك أن تفعل ذلك ، وإن كان مثل هذا السؤال غير لائق أحيانا ، ولكن لولا ذلك لما سألتك .

القول فى « الشعر »

ولفظ « الشعر » فى لغتنا ، وفى سائر اللغات التى عرف له فيها اسم متميز ، قديم موغل فى القدم ، محدود الدلالة عند جميع واضعيه ، قبل أن تكثر فيه لجاجة عصرنا وثرثرته ، فى لغتنا وفى غير لغتنا . هو لفظ موضوع وضعه الأوائل والأسلاف القدماء للدلالة على ضرب من ضروب « الكلام » ، يفترق افتراقا ظاهرا واضحا عن سائر ضروبه التى تجرى على ألسنة المتكلمين باللغة . ولولا أنهم قد وجدوا هذا الفرق الظاهر وجدانا ظاهرا فى أنفسهم لما كان بأحد منهم حاجة إلى تخصيص ضرب من « الكلام » الذى يجرى على ألسنتهم باسم متميز .. فإن الله تعالى حين خلق هذا الخلق ، أنعم عليهم بالقدرة على « النطق » أى على « الكلام المسموع » ، وأودعهم قدرة كامنة أخرى هى أجل وأعظم ، وهى القدرة على « البيان » بهذا الكلام المركب ، عن كل ما يمكن أن يجول فى أنفسهم وفى ضمائرهم ، وهذا الذى يجول فى الأنفس والضمائر غيب مستور لايمكن تحديده أو تفسيره تفسيرا واضحا ، وكيف يجىء وكيف يذهب ؟ وبهذه القدرة الكامنة قضى ربك أن يلتمسوا فى بعض صور « الكلام » ، قدرا من الكلام المركب أبلغ وأخفى وأغمض فى الإبانة عن دخائل نفوسهم . أى هو قدر زائد على ماهم محتاجون إليه من « الكلام » فى التفاهم والتعايش وقضاء الحاجات الحاضرة وكذلك فعلوا ماقضى ربهم عليهم .

وصار فى « الكلام » ماهو مطلوب بالضرورة للتفاهم والتعايش وقضاء الحاجات ، وصار فيه أيضا ضرب آخر من « الكلام » موسوم بالتجويد فى ألفاظ اللغة وتراكيبها ، تعبيرًا عن أغمض مايجول فى أنفسهم ، أو فى أنفس بعضهم ، من معان لا تلجئهم إليها الضرورة إلى الحاضرة فى التفاهم والتعايش وقضاء الحاجات . وهذا الضرب الأخير ، كما هو ظاهر ، متضمن بطبيعته للمعانى المختلفة الوجوه والغايات ، والتى تنبع أصلا من القلب والعقل والنفس ومن تجارب الحى فى الحياة . وعلى مر الزمن ، صار الفرق واضحا وضوحا لا يكاد يخفى بين كلامين : كلام التعايش والتفاهم ، وكلام البيان عن النفس . وعلى مر

الزمان أيضا وصفوا هذا الأخير من الكلامين بأنه « كلام بليغ مبين » ، وبأشباه لهذه الصفات ، على ما فى هذه الصفات من الغموض عند النظر ، وإن كان معناها فى الحقيقة ظاهرا فى سر الأنفس ظهورا لا مرية فيه .

ولو استمر أمر أصحاب كل لغة على هذا القدر من الفرق الذى تدركه السرائر بين الكلامين المسموعين لما كان بهم حاجة إلى زيادة ضرب ثالث من « الكلام » على هذين الضربين ، يفردونه باسم متميز كما انفرد ما ينطقونه باسم متميز وهو « الكلام » ، ولا قتصروا على « الوصف » المميز بين كلامين لا غير . ولكن ظهر على مر الأيام ضرب آخر منبثق من « الكلام البليغ المبين » المسموع ، تميز بميزة زائدة ظاهرة تقع فى الأسماع والأنفس موقعا آخر ، فميزوه باسم متميز محدود هو « الشعر » . وهذه الميزة الزائدة على ما فى « الكلام البليغ المبين » ، هى ما يدركه السمع فيه من التناسق والتوازن فى وقع الكلمات المركبة ، ومن تتابع تساقطها على سمع السامع تتابعا تستلذه الأذن أولا ، وتتسرب ذبذبة من هذه اللذة تخامر القلب والعقل والنفس وسائر القوى التى يكون بها إدراك معانى « الكلام » . وهذا موضع الفرق الحاسم لا غير ، بين « الشعر » وبين كل « كلام بليغ مبين » . مهما كثرت اللجاجة فى زماننا ، فى البحث عن فروق أخرى ، يراد لها أن تطغى على هذا الأصل العتيق المتقادم فى إدراك البشر = الأصل الذى دعاهم ، أو ألجأهم ، إلى وضع لفظ « الشعر » للدلالة على ضرب متميز منبثق من « الكلام البليغ المبين » ، ولا يفارقه إلا بهذا القدر من التناسق والتوازن ، لا غير .

وحديثنا عن لفظ « الشعر » على هذا الوجه ، يصرفنا صرفا إلى قَسِيمه وضريعه ، وهو لفظ « النثر » . وهو فى جميع اللغات التى عرفت لفظ « الشعر » ، لفظ متأخر الوضع ، أى هو اصطلاح متأخر لاحق ، لم يكن بأحد حاجة إلى وضعه ، لولا اهتداء الناس منذ أقدم عصورهم إلى تسمية ضرب خاص متميز من « الكلام البليغ المبين » باسم منفرد هو « الشعر » للدلالة على ميزته الظاهرة فى تركيبه وبنائه ونظامه ، ولذلك فقد أصاب أسلافنا حين عرفوه بأنه « كلام موزون مقفى » غاية الإصابة . فلما تقدم بهم الزمان ، احتاجوا إلى وضع اسم للكلام البليغ

المبين المستجاد ، فسموه « النثر » ، اختصارا . ولذلك فلفظه فى أكثر اللغات مأخوذ من لفظ يدل على نقض الشيء أو تفريقه وتغيير نظامه وحركته ، لأنهم حين وضعوه اصطلاحا موجزا ، كانوا ينظرون بعين إلى ما يتميز به « الشعر » من التناسق والتوازن والاتساق وإذا تأملت هذا بعض التأمل ، لم تجد لما يسمونه فى زماننا : « الشعر المنثور » معنى يفهم ، لأن لفظ « النثر » مغن عن ذلك كل الغناء ، ولأنه ممكن أن يحتمل « النثر » كل ما يحتمله « الشعر » من معان وخصائص ، ولأنه لا يزيد عندئذ عن أن يكون « كلاما بليغا مبينا » قد استعار من ضريعه وقسيمه بعض ما جدَّ عنده ، ثم ظل ، كما كان ، مفارقا ذلك الضرب من « الكلام » الذى يقتصر فيه الناس على التفاهم والتعايش وقضاء الحاجات .

وإذا كان ذلك كذلك فلفظ « الشعر » إذن ، ليس يدل دلالة صريحة على معنى من المعانى المجردة ، بل هو فى حقيقته : حروف مركبة فى كلمات ، وكلمات مركبة فى جمل ، جمل مقدرة التناسق والتوازن فيما بينها ولكنه ينفرد عن (النثر) بعدئذ ، بضرب خاص من التناسق والتوازن مقدر محدود ، يكمن فى سره نَغَمٌ متساوق يتحدَّر فى تركيب الحروف والكلمات والجمل . وهو بهذا التكوين المتميز الذى يفرق بينه وبين « النثر » ، أى « الكلام البليغ المبين » تنتظم فيه المعانى المختلفة الوجوه والغايات ، نابعة من أقصى أغوار القلب والعقل والنفس وتجارب الحياة . وهذا قدر كاف فى الحديث عن « الشعر » بل لعل قليله كان يغنى عن كثيره .

القول فى « التذوق »

فإذا عدنا إلى قولنا : « تذوقَ الشعر » أو « تذوقتُ الشعر » ، فإن بديهة اللغة وبديهة متكلميها تسقط عن لفظ « التذوق » هنا عملَ الجارحة ، وهى اللسان ، فيغرق الحدث أى الفعل الذى يدل عليه عندئذ فى الإبهام ، وينعدم معه التعين والتميز . وتعلقه هنا بلفظ « الشعر » ، وهو على كل حال أشبه بأن يكون معنى من المعانى لا جسم ، ولا تعمل فيه جارحة بعينها من الجوارح ، فهو بذلك لا يستطيع

أن يكسب لفظ « التذوق » شيئا يعين على توضيح بعض إبهامه ، أو يَسْتَحْيِي شيئا مما انعدم من تعينه وتميزه . وكذلك ترى أن « التذوق » هنا حدث (أى فعل) واقع فى صميم الحالة الثانية التى ذكرناها آنفا ، أى فى صميم الغموض والإبهام الذى انعدم معه التميز والتعيين . وأصبحنا نحتاج إلى إعادة النظر فى دلالة هذا التركيب .

ويحسن هنا أن نتوقف قليلا عند وقوع « الذوق » و« التذوق » على معنى من المعانى المجرَّدة وتعلُّقه به . فإن « العذاب » مثلا معنى من المعانى المجرَّدة ، ولكن تعلُّق « الذوق » به فى قولنا : « ذقت العذاب » ، إنما صح وحسن ، لأن « العذاب » معنى تدركه الحواس إدراكا لا مرية فيه . كما قلت آنفا ، ولكنك إذا قلت : « ذقت الفهم » أو « ذقت الكذب » أو « ذقت الإيمان » ، وثلاثتها معان مجردة ، فهو كلام ساقط مرذول ، لأنه فقد التجانس والتطاعم بين طرفيه . ولا يخرجه من رذالته وسقوطه إلا أن تجلب إليه عاملا آخر يعين على التجانس والتطاعم بين طرفيه ، فتقول « ذقت لذة الفهم » ، و « ذقت وبال الكذب » و« ذقت حلاوة الإيمان » ، وما أشبه ذلك من صريح اللفظ أو متشابهه ، فيعتدل الكلام عندئذ ويستقيم ويتطاعم طرفاه بهذه الواسطة ، وتذهب عنه رذالته وسقوطه . وهذا أمر بين إن شاء الله .

ولنطرح الآن الإلف جانبًا ، لأن الإلف يضلل كما يضلل الهوى ، ولنُقْبِلْ بأنفس بريئة من سطوة جواذبه ونوازعه ، على النظر والتدبر فيما نقوله : « تذوقت هذا الشعر » ، أو « تذوق الشعر » . و « التذوق » هنا ببديهة اللغة وبديهة متكلميها : حدث مبهم غير متميز ولا متعين ، إذ سقط عنه عمل الجارحة ، وهى اللسان ، سقوطا لا رجعة فيه ، وبقى خِلْوا من كل بديل يقوم مقام هذه الجارحة فى كشف الإبهام عن صاحب هذا الحدث (أى الفعل) ، وينجده بعض النجدة بإكسابه شيئا يدنيه من التعين والتميز . وبيان ذلك أننا حين قلنا : « ذقت العذاب » ، فإن « الذوق » صار خِلْوا من الجارحة صاحبة الحدث ، وهى اللسان ، وصار حدثا مبهما غير متعين ولا متميز ، وبلا صاحب يُحْدِثه . ولكن « العذاب » ،

وهو معنى من المعانى المجردة ، أكسبه صاحبا مبهما بعض الإبهام ، يقوم مقام الجارحة الساقطة عنه ، وهو الجسم المحس للعذاب ، أو النفس المحسة للعذاب ، أو ماشئت = وأكسبه أيضا بعض ما يميزه ويعينه ، بالذى هو مضمر فى لفظ « العذاب » من إدراك الحواس للوجع والألم واللذع وأشباه ذلك . فهل استطاع « الشعر » هنا ، أن يكسب « التذوق » صاحبا يقوم مقام الجارحة التى سقطت عنه ؟! أو أن يمنحه بشىء مضمر فيه (أى فى الشعر) تدركه الحواس ، بعضِ ما يدنيه من التعين والتميز ؟ أظن أن لا .

فإذا كان لفظ « الشعر » غير قادر بنفسه على شىء من ذلك ، كما نرى حتى الآن ، فقد وقعنا اضطرارا فى حيز هذه المعانى العاجزة عن إحداث التجانس والتطاعم بين طرفى الكلام ، مثل « الفهم » و « الكذب» و « الإيمان » ، ودفعنا النظر دفعا إلى طرح « تذوقت هذا الشعر » على ركام من الكلام الساقط المرذول الذى فقد التجانس والتطاعم بين طرفيه . ولا تجزع أيها العزيز ، لهذا المصير ، فقد تعاهدنا أن نقبل على هذا الأمر بأنفس بريئة من جواذب الإلف ونوازعه ، أى أن ننخلع انخلاعا من « دروشة » الصوفية وأشباههم .

هل ينفع « الشعر » أنه ، كما قلنا أحرف مركبة فى كلمات ، وكلمات مركبة فى جمل ، وأنه على الجملة « كلام » بليغ مبين ، وأنه لولا « اللسان » لما كانت الأحرف والكلمات والجمل والكلام البليغ المبين وأن « اللسان » هو أداة إبلاغه إلى سمع السامع ؟ ونعم ، هذا عمل اللسان بلا ريب ولكنه عمل لا ينفع « الشعر » شيئا ، لأنه ، قبل كل شىء ، عمل مباين كل المباينة لعمله الأول وهو « التذوق » . ثم يزيد الأمر خبالًا أننا ، بلاشك حين نقول « تذوقت الشعر » مجرد تذوق أنفس الأحرف ، وأنفس الكلمات ، وأنفس الجمل ، ونفس الكلام المركب منها مجردة جميعها من المعانى . ثم يزيده خبالا على خبال : أن الأحرف والكلمات والجمل والكلام المركب من جميعها ، ليس اللسان سببا فى إحداثها وتكوينها وتركيبها بل المُحْدِث والمُكَوِّن والمركِّب فاعلٌ آخر غيره ، وإنما اللسان واسطة للأداء والتبليغ ، ليس غير ، وإذن فعمله هذا فى « الشعر » فضلة زائدة معينة للفاعل

الأول ، فهو عمل مموه غير صريح الفعل ، ولا أصيل النسبة إلى « الشعر » . وعندئذ ، فقد بقى لفظ « التذوق » هنا حدثًا لا صاحب له ، فاقدا للعامل الذى يحدث التجانس والتطاعم بين طرفى الكلام ، أى لما يُكْسِبه التعين والتميز ويخرجه من الإبهام المطلق .

وأخرى ، هل ينفع « الشعر » أن أحرفه وكلماته وجمله ومعانيه أيضا ، يجرى فيها جميعا تناسق أو توازن مقدر ، ويكمن فى سرها نغم مُتَساوِق يتحدَّر فى تكوينها وتركيبها تحدُّرا يدركه السمع ، حين يتتابع تساقُطها على سمع السامع تتابعًا تستلذه جارحة السمع ، وهى الأذن ؟ عسى أن يكون ذلك نافعا بعض النفع ، إذا كان لفظ « الشعر » مقصور الدلالة على ما يميز كلاما من كلام من هذا الوجه ليس غير . فكون لفظ « التذوق » معلقا بلفظ « الشعر » من حيث هو نغم مستكن فى أحرفه وكلماته ، لا أكثر ولا أقل . فبهذا المعنى وحده يتجانس طرفا الكلام ويتطاعمان ، ويخرج قولنا « تذوق الشعر » من الرذالة والسقوط ، لأن صريح معناه هو « تذوقت نغم هذا الكلام » ، لا غير ، بلا عمل للتذوق فى معانيه ولا فى تركيبه . وهذا بلا ريب ، ليس إلّا جزءا يسيرا جدا مما نعنيه حين نقول : « تذوقت الشعر » وإذن فهو غير مُغْنٍ ولا نافع كل النفع .

وأشياء أخرى كثيرة يمكن أن تقال أيضا ، إذا نحن أمعنا إمعانا فى التأمل والتدبر والتحليل ونحن فى حالة البراءة من سطوة الإلف الذى يملك القدرة على أن يضللنا كما تضللنا الأهواء . وأيًّا ما كان ، فهذا القدر كاف فى أن يدلنا منذ الآن على أننا مهما جئنا به من وجوه التبرير والتحليل فسوف ننتهى إلى شىء واحد مصمت محدد ، وهو أن قولنا : « تذوقت الشعر » ، لفظ مشكل مجمل مبهم الدلالة غارق فى الإبهام لأن صاحبه الأول ، أى فاعله على الحقيقة ؛ وهو جارحة « اللسان » ، قد سقط عن هنا سقوطا لا رجعة فيه : ولأن لفظ « الشعر » لفظ عاجز عجزا عن أن يُكْسِبه صاحبا جديدا معينا متميزا ، يمكن أن يتولى إحداث هذا الفعل يكون بديلا من صاحبه الذى سقط عنه ، والذى كان معلوما مفهوما وإن لم يُذْكَر لفظه الذى يدل عليه حين نقول : « تذوقت العسل أو الطعام » وهو

جارحة « اللسان » التى هى جزء لا ينفصل عن الفاعل الذى أسند إليه ههنا « التذوق » ، وهو أنا أو أنت أو هى ، الذى تدل عليه « التاء » الأخيرة فى « تذوقت » .

وإذن ، فقد أصبح قولنا « تذوقت الشعر » قولا مهددا تهديدا مخوفا ، بأن يُؤخَذ ، بمرة واحدة وبرُمَّته ، فيُلْقَى على ركام مطروح بعضه فوق بعض من الكلام الساقط المرذول الذى فقد التجانس والتطاعم بين طرفيه ، وليس ينجيه من هذا المصير الكئيب ، إلا أن نتلمس صاحبا شهم الشمائل نافذ الجراءة يخف إلى نجدته ، لا لينتشله من الغرق فى معاطف الإبهام والغموض بل لينتاشه قبل كل شيء من دنس الهلاك قبل أن يهوى فى قرارة السقوط والخساسة .

وهذا مطلب شريف ، لأنه لفظ عزيز على وعليك أيها العزيز . ولكى نهتدى إلى هذا « الصاحب » الذى يملك من النخوة والشهامة والجراءة ، ما يحفزه ليثب مسرعا إلى استنقاذه من التهلكة الموبقة ، أراه لزاما أن نريح هذين اللفظين « تذوقت الشعر » من كل عناء يوجبه التنقير والتفتيش عن هذا « الصاحب » ، وذلك يقتضينا أن نرفه عنهما بتنكُّب طريق التدبر والتأمل والتحليل : الذى يؤدى بنا إلى إنهاكهما إنهاكا مفضيا بهما إلى التلف والبوار . وتنكبُ هذا الطريق ، فيما أرى ، واجب على كل ذى مروءة ، لأنه طريق مسدود على سالكه ، فى نهايته هوة لا ينجو عليها ناج ، مهما حاول وأراغ المهرب .

أما الطريق الآخر ، فلست أحب أن أشق عليك فتشدّ رحالك بأنس الصحبة ، فأغرر بك فى سلوكه معى ، فإن للصاحب فى السفر ذمة ينبغى أن يرعاها صاحبه ، بأن يكاشفه بغوائل الطريق وجوائحه [١] قبل ارتكابه . فهذا طريق قديم كنت قد سلكته منذ دهر طويل ، فى زمن محنة « الشعر الجاهلى » ، التى ألقت بى بغتة فى الأمر المخوف المهوب الذى تنخلع عنده القلوب ، وهو إعادة النظر فى شأن « إعجاز القرآن » . نعم ، قد نجوت قديما ، بحمد الله وبرحمته ، من غوائله ولمَّا

---

(١) الجوائح : المصائب المهلكة .

أَكَدْ ، ولكنى لم أكد أفارقه حتى انطرحت وحيدا ، لاهثا داميا قد أثخنتنى الجراح ، عند طرف منه قد أفضى بى إلى محجة واضحة المناهج بعض الوضوح . ولذلك فأنا أوثر اليوم أن أعاود السير فيه وحدى ، بينى وبين نفسى لأنى أخشى أن يكون معالمه عندى قد درست وامحت ، وخفى عنى مدب أقدامى قديما فيه ، وتهدمت بعض الصُّوَى [١] التى كنت نصبتها منارا حيث سرت ، لكى أهتدى بها وأستدل على مذاهبى التى بلغت بى يومئذ طريقا قاصدا ، كان لى موئلا ومفازا ونجاة وسلامة . ولذلك فأنا أخشى عليك أن تكون لى فيه صاحبا ، بل كن لى مراقبا يرقب خطاى من بعيد ، فإن وجدتنى قد أشرفت على تهلكة ، فنادنى حتى ينقذنى من الضياع صوتك ، فهذا معروف تفعله بأخيك ، ليس عندى جزاؤه ، ولكن عند ربك جزاؤه . وكل ما أملك أن أدعو الله أن يجنبك كل محنة كمحنتى التى بدأت أَصْلَى نارها منذ سنة ١٩٢٨ .

كانت « محنة » ، وكان على أن أنجو أو أهلك فيمن هلك . تناهشتنى الشكوك والريب ، ووجدتنى يومئذ مخذولا لا معين لى من داخل نفسى ولا من خارج نفسى . لا عِلْمَ عندى ينصرنى ، ولا كتاب أعرفه يغيثنى . غدرت بى نفسى ، ونكثت عهدها الكتب ، وأحاطت بى الشكوك القواصم ، وأطبقت على ظلمات بعضها فوق بعض ، أخرج يدى فلا أكاد أراها . وكدت ساعة أن أنفض كل شيء نفضة واحدة ، ضنا بنفسى على الهلاك ، وطلبا للنجاة ، ولكن لاح لى فى الظلمات بصيص من نور ، فامتثلت للحكمة المضيئة التى جرتِ على لسان الشاعر الجاهلى ، الحُصَيْن بن الحُمام المُرِىّ :

تأخرتُ أَسْتبقى الحياةَ ، فلم أجِدْ   حياةً لنفسى مثل أن أَتقَدَّما

فلم أبال شيئا وتقدمت ، « فأما لهذا وأما لذا » ، كما يقول أبو الطيب . أحسبنى قد وقعت مرة أخرى منساقا إلى رواية تاريخ قديم غَبَرَ ، لا يغنى ولا ينفع ، ولكن عذرى أن كلامك قد صادف قلبا محزونا فتذكر :

---

(١) الصوى : معالم تنصب فى الطريق يهتدى بها المسافر .

تذكر شيئا قد مضى لسبيله ، ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

كما يقول النابغة الجعدى ، فاعذرنى مشكورا .

كان علىّ يومئذ ، فيما رأيت ، أن أنبذ علما كثيرا علمته ، لا نبذ استخفاف به ، أو إغفال له ، أو استهانة بمن علَّمنيه ، بل نبذ تخوُّف عليه مما أنا مقدم عليه ، وتخوف على نفسى من مغبة سطوته علىّ ، وهو على كل حال حاضر عتيد [1] لا يغيب عنى وضعه ، إن وجدت إليه حاجة فإنه يسعفنى . ومحال أن يتخلى المرء عن كل علم ، فهذا غرور بالعقل والنفس موغل فى الجهالة ، وكذب مغموس فى لجج الباطل . فلابد إذن من علم أستعين به وأهتدى ، وأنا موقن بسلامته من كل آفة ، فلم أجد علما يقينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : إلا القرآن العظيم ، فبه وحده اهتديت ، وقصتى بعدئذ تطول وتتشعب ، وتختلف فيها المسالك ، وتتعدد عندى المطالب . وأخيرا وجدتنى ملتمسا مطلبا واحدا لا أستطيع أن أتجاوزه ، حتى أجد فى نفسى عنه بيانا شافيا أطمئن إليه .

ماهو هذا « الكلام » الذى ميزنا الله به عن سائر خلقه وهم من حولنا صموت لا ينطقون ؟ من أين يأتى ؟ وكيف ؟ ومم يتكون ؟ وكيف يتخلَّق ويتصور ؟ فإذا الجواب عن هذه الأسئلة مطلب مستعص على الغوص ، مفض إلى الحيرة ، لأن حقيقته غائرة فى قلب الأسرار المحجبة ، أسرار « الخلق » التى لا يعلم علمها وخَبْأَها إلا الذى له وحده « الخلق والأمر » سبحانه . بيد أن « الكلام » شىء كائن بأمره كسائر ماهو كائن بأمره ، فهو إذن آية كسائر آيات خلقه فى السموات والأرض . فإن يك مستعصيا جواب هذه الأسئلة جوابا حاسما كاشفا عن حقيقته وأسراره ، فإنه ، من حيث هو آية من آيات الله ، غير مستعص على التأمل والتدبر ، بل هو واجب علينا أن نوفى هذه الآية حقها من التدبر والتأمل ، لأنه هو سبحانه أمرنا أن نفعل حيث قال : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، فامتثالا وطاعة فعلت ما أمر الله به .

---

(١) عتيد : حاضر قريب .

ومنذ قليل قلت : « إن الله سبحانه حين خلق هذا الخلق ، أنعم عليهم بالقدرة على « النطق » ، أى « على الكلام المسموع » وأودعهم قدرة أخرى هى أجل وأعظم ، وهى القدرة على « البيان » بهذا الكلام المركَّب عن كل ما يمكن أن يجول فى أنفسهم وفى ضمائرهم . وهذا الذى يجول فى الأنفس والضمائر غيب مستور لا يمكن تحديده أو تفسيره واضحا ، كيف يجىء ؟ وكيف يذهب ؟ » . وعلى طول التأمل وجدت هاتين القدرتين توأمين لا يملكان أن يفترقا ، لأن عمل الأجل الأعظم ، وهو القدرة على « البيان » ، معتمدا اعتمادا كاملا شاملا على أدناهما ، وهو القدرة على « النطق » بالكلام المركب . ثم وجدت أيضا أنهما قدرتان متداخلتان لا سبيل إلى تمييز إحداهما من الأخرى إلا بآثارهما فيما يصدر عنهما من الكلام ، أما تخليص إحداِهما من الأخرى ، فأمر ممتنع امتناعا حاسما على كل طامع .

وكل قدرة يملكها الإنسان ، فلها فى بنائه مكمن تستقر فيه ، هو أداة صالحة لإظهار فعلها وعملها ، كاللسان والأذن والأنف والعين واليد ، والعقل أيضا على ما يكتنفه من الغموض = إلا هاتين القدرتين التوأمين المتداخلتين ، فقد رأيته معجزا أن نلتمس لهما فى هذا البناء الإنسانى مكانا تستقران فيه ، أو تنتسبان إليه انتسابا صريحا لا يشوبه تردد أو ارتياب . وفوق ذلك ، فهاتان القدرتان العجيبتان الغامضتان قد انفردتا بخصائص غريبة كل الغرابة ، تميزها بها عن سائر القُدَر الإنسانية . الأولى : أن لهما من خارجهما مترجم يترجم عنهما ، وهو « اللسان » صاحب القدرة على « الذوق » وفاعل « الذوق » ، فهو مؤد عنهما ما تفعلان ، لا غير . والثانية : أن لهما من خارجهما مستقبلا يستقبل ما يؤديه عنهما « اللسان » ، وهو « الأذن » صاحبة القدرة على « السمع » وفاعلته ، فهى مستقبلة لما تفعلان لا غير ، والثالثة : أن لهما مددا لا ينقطع يأتيهما من خارجهما ، أى من جميع القوى الإنسانية المُدْرِكة المُحِسَّة ، وعلى رأسها العقل والقلب والنفس . وهذا المدد وحده هو الذى يحركهما لأداء عملهما . ولولا هذا المدد المستمر ، لبقيتا عاجزتين خامدتين لا تملكان قدرة على فعل شىء البتة . وطبيعة

هذا المدد الذى لا ينقطع ، وطبيعة تكون مادته ، عمل غريب جدا ، مستعص على التحديد والتفسير ، ولكننا نجد آثاره كائنة ظاهرة فى كل ما يمكن أن يسمى « كلاما » قابلا للإدراك والفهم .

وأعجب من ذلك وأغرب : أن جميع قوى الإنسان المدركة والمحسة ، مقصور أثر ما تفعله وتحدثه وتدركه وتحسه على صاحبها وحده . وليس لقوة واحدة منها حافز يحفزها على تبليغ ما تحدثه أو تحسه إلى غير صاحبها البتة ، ولا لإحداهن وسيلة قادرة على التبليغ والأداء . فالذوق واللمس والشم والسمع والبصر ، جميعهن قوى تفعل أفعالها ، وتدرك الطعم والجسم والرائحة والصوت والصورة ، ولكن غير مستكين فى طبيعة إحداهن حافز يحفزها إلى تبليغ شىء مما تجد إلى غير صاحبها ، ولا تملك إحداهن وسيلة إلى هذا التبليغ . ومعنى ذلك إنه ليس عند أحد من أصحابها مترجم يترجم عنها ، وليس عند أحد من البشر مستقبل يستقبل ما يمكن أن ينقله عنها مترجم . أى هى قُوى صُمّ بُكْم لا تبين ، ولا تستطيع أن تفصح بما عندها إلا لصاحبها وحده ، دون سائر إخوانه البشر .

وإذا اختصرنا الطريق اختصارا ، ونظرنا فى الأمر من وجه آخر ، فسوف ننتهى إلى ماهو أعجب . فنحن نجده وجدانا ظاهرا لاشك فيه : أن هاتين القدرتين الغامضتين الكامنتين فى مكان مبهم من أنفسنا نحن البشر ، هما وحدهما القادرتان على احتمال كل ما تعمله قوى الإنسان أو تدركه . وأيضا ، هما وحدهما القادرتان عن الإفصاح عما تفعله أو تدركه هذه القوى الصم البكم المقصورة على صاحبها وحده . وأيضا ، هما وحدهما المالكتان لشيئين : مالكتان لوسيلة عند صاحبها مُترجِمة مُبْلِغة عن هذه القوى الصُم البُكْم ، تؤدى عنها بعض ما تدركه إلى إنسان آخر غير صاحبها = ثم مالكتان لمستقبل عند غير صاحبها يستقبل الترجمة ويبلغها ويؤديها إلى هذا الإنسان الآخر ، وهذان هما « اللسان » و « الأذن » ؟ . وعندئذ ينشأ سؤال محير بالغ الخطر ، محفوف جوابه بالمبهمات من كل جوانبه . هذا المستقبِل ، وهو الأذن ، إلى أى قوة كامنة فى الإنسان الآخر ، تؤدى ما تحمل ، أو تبلغها ما حملت ؟ إلى أخوات هذه القوى

الصُّم البُكْم نفسها فى الإنسان الآخر ؟ وبقليل من النظر ، يظهر بُطْلان الجواب عن ذاك السؤال ، إذا أجبت بنعم . فليس معقولا أو ليس موجودا أصلا : أن السمع يؤدى ما يسمعه من صفة الرائحة أو الطعم ، يؤدى إلى أنفس السامع نفس الرائحة ، أو يؤدى إلى لسانه نفس الطعم !! وقس على ذلك سائر القوى الصُّم البُكْم التى يستعصى عليها إدراك شيء مما يحمله السمع من الأسماء والصفات . كل هذا الوجه باطل لا يعرج عليه .

وإذا بطل هذا ، لم يبق إذن إلا أن السمع يؤدى ما يسمع إلى العقل أو القلب أو النفس ، وثلاثتهن جميعا قوى مركبة معقدة مبهمة الأفعال غامضة التصرف ، وإن كنا نجد آثار أفعالها وتصرفها واضحا وضوحا لانشك فيه . كيف يكون ذلك ؟ هذا سر من أسرار « الخلق » التى استأثر بعلمها خالق هذا الخلق ، ومُودِعه من حكمته وتدبيره ما أودع . وإن كان هذا التفويض إليه سبحانه لا يعجب أهل زماننا و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ . وعلى كل حال ، فقد ألفنا أن نسند إلى ثلاثتهن إدراك جميع مانسمعه (القلب والنفس هنا رمزان جامعان لقوى كثيرة معقدة خفية فى الإنسان) .

والذى اصطلح البشر على تسميته « العقل » ، أخطر الثلاثة شأنا ، وأجهرهن صوتا . و « العقل » على غموض أفعاله وتصرفه ، هو أظهر العوامل ، بل لعله العامل الأول الذى يمد هاتين القدرتين الغامضتين الكامنتين ، (القدرة على النطق ، والقدرة على البيان) ، بالمدد الذى يحركهما إلى أداء عملهما فى تركيب ما نسميه « الكلام » . ولكن هل هذا الذى نقوله أو نتصوره صحيح من كل وجه صحة تنفى عنه كل شك أو تردد أو ارتياب ؟ هل يستطيع « العقل » مثلا أن يدرك ثم يبين إبانة ما عن « حلاوة الطعم » التى يجدها اللسان ، مجردة من هذين اللفظين اللذين أنشأتهما عندنا « القدرة على النطق » و « القدرة على البيان » ؟ هل يستطيع « العقل » معزولا عزلا تاما عن هاتين القدرتين أن يقول : هذا أبيض ، وهذا أسود ، قبل أن يوجد عنده لفظ يدل على السواد أو البياض ؟ هل هذا أو ذاك

من عمل « العقل » منفردا بالإدراك ؟ وعشرات من الأسئلة عن المعانى المفردة والمعانى المركبة ، وكلها أسئلة لا يملك امرؤ أن يجيب عنها بقولٍ فَصْل جوابا غير قابل للقوادح التى تفسده أو تبطله ، مهما ادعى ذلك المرء لنفسه من البسطة فى العلم ، ومهما سولت له نفسه أنه قادر على التغلغل فى أسرار « الخلق » التى استأثر بها فاطر السموات والأرض ومن فيهن .

ومع كل هذا الغموض الذى يحيط بعمل العقل من نواحيه ، فالتأمل يضطرنا اضطرارا إلى أن نسلم مرة بأن هاتين القوتين الغامضتين ، (القدرة على النطق ، والقدرة على البيان) عاجزتان عجزا مطلقا عن أداء عملهما فى إنشاء الكلام وتركيبه ، لولا مدد العقل = وأن نسلم مرة بأن هذا « العقل » غير مطيق لأداء عمله فى التفكير والتبين والتمييز إطاقة ندركها ، لولا ما تمده به هاتان القوتان الغامضتان ، (القدرة على النطق ، والقدرة على البيان) ، من الألفاظ التى عنهما وحدهما تنشأ ، وبفعلهما وحدهما تتركب ، فيما نتوهم . فإذا سلمنا بذلك ، فهذا إذن تداخل بين هذه القوى الثلاث ممتنع على الفصل ، أى هو تداخل يدور فى حلقة مفرغة ، لا ندرى من أين يبدأ ، ولا إلى أين ينتهى . وكذلك يمكن أن يقال عن « القلب » و « النفس » ما قيل فى العقل ، وإن كان عملهما أشد غموضا من غموض عمل العقل وتصرفه . وهما ، من ناحية أخرى ، أشد تعلقا بالعقل ، والعقل أشد تعلقا بهما .

وإذن ، فهذه خمس قُوى : القدرة على النطق ، القدرة على البيان ، العقل ، القلب ، النفس ، جميعهن قوى متداخلة تداخلا ممتنعا على الفصل ، وجميعهن قوى متعانقة تعانقا ظاهرا ، ولكن أعمالها جميعا تدور فى حلقة مفرغة ، وجميعها متغلغل بعضها فى بعض تغلغلا باطنا لا يمكن تفسيره أو توضيحه أو تحديده . ويبقى شيء آخر أن هذه القوى المتداخلة بجميعها تتلقى عن الحواس الخمس الظاهرة أفعالها ، من ذوق وملمس وشم وسمع وبصر ، وتشترك جميعا فى إدراك معناها وتبينه وتميزه . وهذا واضح كل الوضوح بعد الذى قلناه آنفا فى شأن تداخل هذه القوى تداخلا ممتنعا على الفصل .

ولكن يبقى بعد ذلك شيء مهم جدا ، وهو الذى يعنينا هنا أول ما يعنينا . فأى هذه القوى الخمس المتداخلة المتعانقة المتغلغل بعضها فى بعض ، أيها أعظم شأنا ، وأجل خطرا . ولكى نفضى إفضاء سريعا نافذا إلى جواب هذا السؤال ، نأخذ هذه الخمس المتداخلات ، فنعزل منها القوتين الغامضتين ، وهما « القدرة على النطق » و « القدرة على البيان » . فماذا يكون مصير الثلاث الأخر ؟ يسقطن جميعا من فورهن هاويات من ذُرَى الشَّرَف [١] التى استوت عليها ، لكى تلحق بالقوى الصُّم البُكْم التى لا تطيق أن تفصح لنا عن عملها ، بل عن وجودها ، أى إفصاح . وإذا أرادت ، فإننا نحن أنفسنا لا ندرى عندئذ كيف ندرك ما تريد أن تفصح به ، ولا ندرى أيضا ما هى الوسيلة التى يمكن أن تملكها لتكون مترجمة مبلغة عنها ، ولا من يكون المستقبِل الذى يستقبل الترجمة ويؤديها إلى إنسان آخر غير صاحبها . ومعنى ذلك أن « العقل » و « القلب » و « النفس » جميعا ينقلبن إلى قوى مصمتة صامتة عاجزة لا تبين ، ولا نطيق نحن البشر عندئذ إدراك شيء من عمَلها هى ، ولا تستطيع أن تبلغنا شيئا مما تدرك ، بطل عمل « العقل » و « القلب » و « النفس » بطلانا لا رجعة فيه !

وإذن ، فهاتان القدرتان النفيستان الغالبتان الغامضتان الكامنتان فينا حيث لا ندرى ولا نعلم ، « القدرة على النطق » و « القدرة على البيان » ، هما أشرف القوى وأنبلها وأعظمها سلطانا فى بناء الإنسان ، لولاهما لخرب البنيان : لولاهما لالتحق الإنسان التحاقا مطلقا لا رجعة فيه ولا مخلص منه بسائر خلق الله من الأنعام والبهائم العجماوات أو الجماد . لولاهما لسقط عنه التكليف ، ولأشفق الشيخ أبونا آدم إشفاق السموات والأرض والجبال ، حين عرض عليهن ربهن الأمانة ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، و ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ، ومع ذلك ، وبما حمل من الأمانة ، كرم الله بنيه ، وجعل منهم الأنبياء والصديقين والشهداء وأولى العلم الذين يشهدون مع الله قائما بالقسط ومع

---

(١) الشرف : المكان العالى .

ملائكته أنه لا إله إلّا هو العزيز الحكيم . فأى شرف هذا وأى تكريم ؟ سبحانك ، تباركت ربنا وتعاليت .

وما بلغتُ هذا المبلغ من ظهور سلطان هاتين القدرتين الغامضتين على جميع ما فى الإنسان من قُوى ، حتى استبان لى أن حياة هذه القُوى حياة يمكن أن نتبينها نحن ، متوقف كل التوقف على وجودهما فى الحلقة المفرغة التى اندمجن فيها جميعا ، والتى لا تقبل الفصل وتستعصى على التقسيم . وإذن ، فهاتان القدرتان أحقهن جميعا أن تكون أول من يبلغه السمع من الكلام المسموع . أحق من العقل ، ومن القلب ، ومن النفس ، أى هما أحق قُوَى الإنسان جميعها بذلك . فهذا جواب السؤال عن « الأذن » : إلى من تبلغ ما تسمع ؟

والذى نجده فى أنفسنا عند سماع الكلام البليغ المبين من الشعر وغيره ، شاهد على صحة ذلك مقبول الشهادة إن شاء الله . يسمع أحدنا البيت المستجاد من الشعر فتأخذه بغتة عند سماعه هِزَّة وأريحية ، ثم يردده فى نفسه مرة بعد مرة ، فربما مضت الأيام والليالى وهو لا يزال يتوغل فى استحسان لفظه وما يتفجر منه من المعانى ، ثم ينتبه مرة إلى عيب يشوبه أو يشينه . فالهِزَّة والأريحية توشك أن تكون من وقع هذه الألفاظ المركبة جملة واحدة على أوتار هاتين القدرتين الغامضتين الساريتين فى الحلقة المفرغة ، وهما صاحبتا السلطان فيها = أما الاستحسان وتفجُّر المعانى من الألفاظ ، فيوشك أن يكون من اشتراك قُوَى الحلقة المفرغة جميعا ، وهى تحت سلطان هاتين القدرتين فى تقليب الألفاظ المركبة وتفليتها والتدسس فى ثناياها وأغوارها مرة بعد مرة = وأما ظهور ما يشوبها من عيب أو يشينها ، أى الحكم عليها ، فيوشك أن يكون إعلانا لسطوة العقل وقدرته المطلقة على التبين والتمييز ، حين استوى له ، بعد لأى ، أن يظهر سلطانه على جميع قُوى هذه الحلقة المفرغة . وهذه المراتب الثلاث فى تجربتى ، كادت تكون واضحة عندى كل الوضوح .

ولما بلغتُ هذا المبلغ ، وجدته ظاهرا عندى أن « القدرة على النطق » ، « والقدرة على البيان » ، تعتمد إحداهما على الأخرى اعتمادا شاملا كاملا ، كما

قلت آنفا ، وأنهما قدرتان توأمان متداخلتان لا سبيل إلى تمييز إحداهما من الأخرى إلا بآثارهما فيما يصدر عنهما من الكلام ، وأن تخليص إحداهما من الأخرى أمر ممتنع امتناعا حاسما على كل طامع . فعندئذ آثرت أن أدمجهما معا فى كلام واحد دال على قدرة مركبة ، وأن أغلِّب الأجلَّ الأعظم ، وهو لفظ « القدرة على البيان » ، اختصارا ، وفرارًا أيضا من التثنية لغير ضرورة ملزمة ، وأكبر من ذلك ، إيثارا لما امتن الله به على عباده حيث قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [سورة الرحمن : ١ - ٤] .

ولما بلغت هذا المبلغ تأملت المراتب الثلاث التى ذكرتها آنفا ، فوجدت أن لهذه القدرة المركبة الخفية المندمجة فى الحلقة المفرغة ، وهى « القدرة على البيان » ، عملين يتجاذبانها : الأول عملها فى إنشاء الكلام وتركيبه وإذاعته ، وهذه هى « الإبانة » ، والثانى عملها فى استقبال الكلام المسموع الآتى من خارج ، ثم تقليبه وتفليته والتدسس فى ثناياه وفى أغواره مرة بعد مرة ، وهذه هى « الاستبانة » . وهى تعمل هذين العملين ، والسلطانُ فى الحلقة المفرغة سلطانُها الأعظم . فإذا ما أصابت هذا السلطان فترة أو وَهْنٌ ، انبعث العقل بسطوته يبسط سلطانه على الحلقة المفرغة مستقلا بالتبين والتمييز ، منتهيا لإصدار أحكامه على هذا الكلام : وصارت هى من أعوانه فى عمله كما كان هو من أعوانها قبل فى عملها . فإذا أصدر حكمه فهى بإحدى المنزلتين : إما أن تقبل حكمه بالاستحسان أو الاستهجان طائعة راضية مستبشرة = وإما تسخط هذا الحكم بالاستحسان ، أو الاستهجان وتألف أن تطيعه ، وتستعلى عليه أحيانا بكبريائها ، متهمة إياه بالتقصير فى التبين والتمييز .

لما بلغتُ هذا المبلغ رأيتنى محتاجا إلى التوقف طويلا ، متثبتا من أمرى فى شأن « الإبانة » و « الاستبانة » . أما « الإبانة » ، فلها عندى حديث طويل متشعب ، وفى الحديث عن « الاستبانة » طرف منه مجزىء ، و « الاستبانة » كما قلت « هى العمل الثانى الذى تزاوله القدرة على البيان » ، حين تتهيأ هذه القدرة لاستقبال الكلام المسموع الآتى من خارج ، وتهتز له حين تتلقاه ، ثم تشرع من

فورها فى تقليبه وتفليته والتدسيس فى ثناياه وفى أغواره مرة بعد مرة . تتحسس ما أنشأه غيرها من أحرف وكلمات وجمل وتراكيب ، بما أنست هى من القدرة والدربة على إنشاء مثله وتركيبه . وهذا عمل خفى غامض موغل فى الغموض ، تَعْسُر الإحاطة به أو تفصيله – ولكن أحدنا ، إذا هو أطال تأمل ما يختلج فى نفسه حين يسمع ، مثلا ، شعرا بارعا ، أو يعيد ترديده فى نفسه ، أو يقرؤه على مُكْث مرة بعد مرة ، فإنه واجد وجدانا خفيا حركة خفية من عمل هذه القـــدرة ، نابضة فى أقصى حسه . فإذا ألح ، استبان له بعض عملها استبانة لاتكاد تخفى أحيانا .

فما الذى تطلبه هذه القدرة حين تشرع فى « استبانة » الكلام الذى جاءها من خارج ؟ هى الآن لمّا تزل صاحبة السلطان الأعظم على جميع قُوى الحلقة المفرغة التى تعمل معها تحت سلطانها ، وعلى رأسها « العقل » . أكبر الظن أنها تطلب أول ما تطلب ، أثر أختها وضريعتها عند الإنسان الآخر فى هذا الكلام ، فى أحرفه وكلماته وجملة وتراكيبه التى تم التعبير بها عن معان متعانقة جالت فى نفس صاحبها . وصاحبتنا تعلم علما ليس بالظن : أن الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب تنشأ عندها هى عن آلاف مؤلفة ، وحشود حاشدة ، وجماهير غفيرة ، وموج لُجّى من أعمال الغرائز والطبائع والسجايا والشيم والشمائل والعواطف والشهوات والأهواء والنوازع ، جموع بعد جموع تجيش فى نفس صاحبها ، من بين ثائر متفجر ، وهامد الأنفاس . كلهم له عليها حق لازم ، لأنه جزء لا يتجزأ من ضمير صاحبه وغيبه وحقيقته التى يتميز بها وينفرد عن سائر إخوانه من البشر . كلهم يطالبها أن تستعد للبيان عنه إثباتا لوجوده . وهى لا تملك إلا أن تستجيب لكل طالب حق . واستجابتها أن تتهيأ هيئة تعين على تميز صاحبها وانفراده عن غيره ، وتعبىء قدرتها على الإنشاء والتركيب تعبئة تجعلها عند الحاجة صالحة للدلالة على كل منهم ، وعلى وجوده أو حضوره . فكذلك تصبح « قدرة على البيان » متميزة بالدلالة على ضمير صاحبها وغيبه وحقيقته التى ينفرد بها عن غيره من البشر .

معنى ذلك ، أنها حين تمارس إنشاء الكلام وتركيبه ، تحمل الأحرف والكلمات والجمل والتركيب ومعاطف المعانى التى تبين عنها أمشاجا متداخلة من الدلالات ، ثم تفصل عنها حاملة آثارا مفصحة ، أو مستكنة ، أو عالقة ، أو ناشبة فى ثنايا الكلام وفى طواياه وفى أغواره ، دالة دلالة على ما يتميز به صاحبها من أعمال الغرائز والطبائع والسجايا والعواطف والأهواء والنوازع ، قديمة أو متجددة ، ظاهرة أو باطنة . لا ، هذا جزء يسير من عملها وخصائصها . فأكبر من ذلك أن هذه القدرة الخارقة الغامضة الغريبة المطيقة للتشكل ، قادرة على أن تعبىء نفسها تعبئة صالحة للدلالة - بالأحرف والكلمات والجمل والتراكيب - على هيئة صاحبها وحركته وشمائله وسمته وعلى مئات من السمات الظاهرة والخفية التى يتميز بها صاحبها ، تفصل عنها مغروسة فى الكلام ، ومغروسة أيضا فى المعانى أحيانا .

وإذن ، فهذه القدرة حين تلتمس هذه الآثار فى كلام أتاها من خارج ، فهى تمارس عملا خاطفا لأول وهلة فى الاهتزاز له ، ثم تبدأ تقلب وتفلى وتتدسس فى الثنايا والأغوار ، وتتحسس ذلك مرة بعد مرة ، فترتاح ارتياحا لمهارة أختها الأخرى ، أو ترضى رضا ، أو ترفض ، أو تنفر . فإذا فتر سلطانها فى الحلقة المفرغة ، اهتبل « العقل » هذه الفترة ، فجاء بسطوته ليفرض سلطانه على الحلقة المفرغة ، وشرع يفصل ويبين ويميز ، ثم حكم ، مستقلا بالحكم . فإما رضيت صاحبتنا عن حكمه أو أنكرته .

فهذا طرف من حديث « الاستبانة » ، حين توقفت يومئذ عنده متثبتا . ولكنى وجدت اللفظ غير كاف فى الدلالة ، ووجدت أهل زماننا قد أكثروا من ذكر « تذوق الجمال » و « تذوق الموسيقى » ، « تذوق الشعر » ، و « تذوق الفن » ، فرأيته أحسن دلالة على ما تفعله « القدرة على البيان » من لفظ « الاستبانة » فآثرته عليه . وقد سألتنى أن أجد مكانا صالحا أقف عنده من حديثى هذا ، فكأنه الآن أصلح مكان للتوقف ، ثم أتابع القول فى « التذوق » فيما بعد إن شاء الله . وأنا أرجو أن أكون قد استطعت أن أتبين بعض مدب أقدامى فى هذا الطريق الموحش القديم ، وأرجو أيضا أن أكون صادقا فيما عبرت عن نفسى ، أو قصصته .

وأنا أقول « أرجو أن أكون صادقا » ، تخوفا على نفسى من أن أكون قد كذبت أو لفقت فإنى رأيت القصاص المبدع والكاتب المطبوع ، الأستاذ إبراهيم الوردانى قد فزع فزعا شديدا حين قرأ كلمتى السالفة ، ثم أبدى عن فزعه فى صواريخه ، فى صحيفة الجمهورية ، يوم الخميس (١٩ من شوال ١٣٩٨ / ٢١ من سبتمبر ١٩٧٨ ، فقال إنه قرأ شيئا « مرعبا مخيفا ، تدوخ له النفس ، بل تتطاير » . ولعل فزعه كان لما وجد فيه من ذكر « عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين » ، وما كان من سطوه على أعمال الناس وادعائها والاستطالة بها استطالة باذخة ، ثم نقل بعض كلامى وختم كلمته بقوله :

« عزيزى القارىء ، أنقل عن الكاتب ، ويأخذنى الدوار . فالكاتب هو « الأستاذ محمود محمد شاكر – ٧٠ سنة » . ورغم قلة شهرته ، وعدم ذيوع صيته ، إلا أن له فى الأروقة الأدبية ، ومنذ زمان ، لقب الإمام الزاهد ، بل الإمام الكبير الزاهد ، حتى ولو لمحناه دائما يؤم للصلاة ، ولا أحد من خلف ظهره) ... نعم .. نعم .. تهلع النفس أن يكون كذوبا ملفقا ، ولكن الهلع الأكبر أن يكون صادقا أمينا » .

وأنا أقول لأخى إبراهيم : لا تهلع أن أكون كذوبا ملفقا ، فإن أكن ما تخاف ، فإنما أنا رجل من الناس ، فإن أك كاذبا فعلىّ كذبى . وما عليك إلا تدخلنى فى غمار الناس وتستريح ، فلست « إماما » حتى تهلع ، إنما الإمام من يتخذ المؤذنين يؤذنون له على المنائر وأسطح المنازل وأفواه الطرقات . لا مؤذن لى . فإن أكن مصليا ، فصلاتى فى غار ضيق لا أخافت بها ولا أجهر ، والغار لا يتسع لمأموم واحد ، فضلا عن زحام المأمومين ! وإن يكن هلعك الأكبر لما يصيب « عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين » إذا كنت أمينا وصدقت ، فاكفف من هلعك : فإنه غير مجد عليك شيئا ، وخذ نفسك بما أمر به الفرزدق « النوار » أم ولديه ، حين ماتا ابناها منه ، فجزعت عليهما حتى كادت تتلف ، فقال لها ضنًّا بها على التلف :

فما ابناكِ إلا مِن بنى الناس ، فاصْبرِى
وهل يُرْجِعُ الموتى حنينُ المآتمِ ؟

رفِّه ، ياأخى ، عن نفسك ، فالأمر كله أهون من ذلك ، فإن الدكتور طه حسين فى نفوس الناس أعظم وأجل من أن يصاب بشىء تكرهه ، ولا يعمل فيه قدح قادح كذب ولفّق ، أو صدق وأدّى الأمانة .

* * *

المتنبى ليتنى ما عرفته

- ٣ -

فى سحيق الأزمان والآباد التى لا يعلم مدتها إلا عالم الغيب والشهادة سبحانه ، كان أبونا الشيخ ، آدم عليه السلام ، منجدلا فى طينته ، حتى إذا ما نفخ الله فيه من روحه ، قام على رجليه حين قام ، طيع الشفتين ، مطلق اليدين ، ممشوق القوام معتدله ، مصورا فى صورة تباين كل ما يحيط به من خلقه سبحانه . قام منذ أول نهضة نهضها على الأرض ، و « القدرة على البيان » بعمليها فى « الإبانة » و « الاستبانة » ، مودعة فيه مُعَدَّة ، مهيأة للعمل من فورها ، ليتلقى « التكليف » منذ أول وهلة .

هذه هى النشأة الأولى فى لحظة خاطفة مضيئة ، شهدها رجل واحد ، ثم ضاعت وأظلمت فى غمرة الآلاف المؤلفة من الدقائق والساعات والأيام والليالى والشهور والسنين والقرون الغوابر والأحقاب . أسدل عليها الحجاب ، واستسرت فى أعماق الأزمان والآباد والدهور السحيقة . لحظة انتهت ، وانتهى بانتهائها كل ما وجده آدم فى نفسه ، حين أدرك نفسه ، إذ أبصر وسمع وعقل واستجاب للتكليف . انقطع كل أمل أن تبقى هذه اللحظة ميراثا متجددًا حاضرا واضحا فى نفوس أبنائه إلى آخر الدهر . لم يكن لنا سبيل إلى علم شىء عنها بوسيلة من الوسائل ، ولولا الخبر الصادق الذى لم يبق على ظهر هذه الأرض خبر صادق غيره لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لعجز العقل عن تصورها أو توهمها عجزا قاطعا لكل رجاء . والذى نقرؤه عن « نشأة اللغة » عند البشر ، بحثا عن اليقين الذى يعين على تصور هذه اللحظة الخاطفة المضيئة ، موسوم كله بالقصور والبطء والتردد والتسكع ، مُغلَّف كله بالغموض والعجز والحيرة وتكاثف الظلمات . ولذلك ، فكل تفسير يراد به الوصول إلى حقيقة هذه « القدرة على البيان » بعمليها فى « الإبانة » و « الاستبانة » ، سوف يظل محفوفا بأسباب الزلل ،

---

* الثقافة ، السنة السادسة ، العدد ٦٣ ، ديسمبر سنة ١٩٧٨ ، ٤ - ١٧ .

مهددا بالمجازفة على غير هدى . ولكن أبناء آدم عليه السلام كلما فتح لهم باب من المعرفة فتح لهم به باب من الغرور ، وكلما فتح لهم باب من العلم فتح لهم به باب من البغى والجدل ، هكذا نحن ، إلا من عصم الله .

وأنا أحدِّث هنا عن نفسى ، فمنذ بدأت قديما فى تدبر هذه الآية من آيات الله فى أنفسنا ، لم أزل أزداد على تدبرها وتأملها دهشة متصلة وحيرة لا تنقطع . وبين الدهشة المتصلة والحيرة التى لا تنقطع آثرت منذ قديم أن لا أتكلم ، لا مبينا عن دهشتى وحيرتى ولا مفسرا لأسباب دهشتى وحيرتى . ولذلك ، فلم أكد أقف فى مقالتى السالفة عند حديث « الإبانة » و« الاستبانة » ، (وهما العملان اللذان تتولاهما آية الله فينا ، وهى « القدرة على البيان ») لم أكد أقف ، ثم أسلم ما كتبت إلى رئيس التحرير حتى عدت على نفسى باللائمة والتقريع . فأنا حين كتبت ما كتبت ، لم ألتزم بأن أكتب مبينا عن دهشتى وحيرتى ، أو مفسرا لدهشتى وحيرتى . ولو كنت فعلت ذلك لكان أدنى إلى الصواب ، وإن كنت عندئذ قد خرجت خروجا عما ألزمت به نفسى هذا الدهر الطويل . فالآن جاوز الحزام الطُّبْيَيْن كما يقال فى المثل [1] وأطعت من كان ينبغى على أن أعصيه . سولت لى نفسى أن تجاوز هذا القدر الذى كان لزاما على أن أمسك نفسى عليه ، فأرمى بنفسى فى تيه ملتبس المعالم من النظر والاستنباط وتقرير الحقائق . ليتنى مافعلت ! ولكن هى النفس !

والنفْس كالطفل ، إنْ تُهمله شبَّ على
حُبِّ الرضاع ، وإنْ تَفْطِمْهُ ينفطمِ

كما يقول البوصيرى ، وأنا فى خلوتى لم أفطم قط نفسى عن شىء من النظر والاستنباط .. كان الأمر مقصورا على الخلوة ، فالآن صرت إلى العلانية . من الذى أضل خطاى فأخرجنى من خلوتى ؟ المتنبى ؟ ليتنى ماعرفته ! ولكن ،

(١) يُضْرَب عند بلوغ الشدة منتهاها . والطُّبْى للحافر والسّباع : كالضرع للشاة والناقة وغيرهما .

ماجدوى التمنى ! لابد مما ليس منه بد . فلنعد ، إذن إلى حديث « الإبانة » و « الاستبانة » و « التذوق » ، وإن كان التوقف والانقطاع ، فلنعد إلى بعض التكرار ، لأريح القارىء من بعض العنت والمشقة .

تتمة القول فى التذوق

خليط هائل يموج بعضه فى بعض من الحب والبغض ، والصدق والكذب ، والشك واليقين ، والعفة والدعارة ، والود والمداهنة ، والاستقامة والمراوغة ، والغضب والرضى والتقوى والفسق ، والشجاعة والجبن ، والنشاط والسأم ، والطمع والقناعة ، والصبر والجزع ، والألم واللذة ، والحزن والفرح ، والغش والأمانة ، والأنفة والاستكانة ، والطيش والحلم ، والطلاقة والعبوس ، والسفه والوقار ، والخسة والنبل ، والعقل والجنون ، والحقد والصفاء ، والجفاء واللين ، والفطنة والغفلة ، والسكينة والهلع ، والحياء والقحة ، والدماثة والشراسة ، والقسوة والرقة ، والزهو والتواضع ، والخبث والطيبة .. وألوف مؤلفة من الخواطر والهواجس ، والهواتف والوساوس ، والنوازع والشهوات والغرائز والطبائع ، والأهواء والعواطف ، والشيم والشمائل . وبحور متلاطمة من أفكار مركبة ، وصور مصورة ، متجددة الظهور والاختفاء ، والثورة والخمود ، تتصادم وتأتلف ، وتتزاحم وتنفضّ ، تضيىء وتنطفىء ، وتثب وتغوص ، وتعدو وتدب ، وتعوى وتغمغم ، وتقدم وتهرب .. هول هائل يجول فى النفس ليلا ونهارا ، فى مستقر قوى الحلقة المفرغة ، (المكونة من العقل والقلب والنفس والقدرة على البيان) .. كل منها يطالب « القدرة على البيان » أن تهيىء نفسها وتتشكل ، وأن تعبىء نفسها تعبئة صالحة عند الحاجة للدلالة على وجوده وحضوره فى الضمير قديما أو متجددا ، ظاهرا أو باطنا ، مجملا أو مفصلا .

حتى إذا ماجاء وقت « الإبانة » ، وهو أول عمل لهذه القوة الغريبة الغامضة المطبقة للتشكل ، مارست إنشاء الكلام وتركيبه على أسلوب مطبق لأن تحمل أحرفه وكلماته وجمله وتركيبه ومعاطف معانيه أمشاجا متداخلة مما تتميز به نفس

صاحبها أو ضميره ، ثم تفصل عن لسانها حاملة آثارا مفصحة ، أو مستكنة ، أوعالقة ، أو ناشبة ، فى ثنايا الكلام ، وفى طواياه ، وفى أغواره ، دالة على صاحبها دلالة مميزة له من سائر إخوانه من البشر .

حتى إذا ما جاء وقت « الاستبانة » ، وهو العمل الثانى لهذه القوة الغريبة الغامضة تلقت « الكلام » الذى يأتيها من خارج ، والذى أنشأته أخت لها عند إنسان آخر ، انبعثت هذه القوة تمارس عملها الثانى ممارسة خاطفة لأول وهلة ، فتهتز لما تلقته ، ثم تبدأ تقلب « الكلام » وتفليه بسرعة مذهلة ، متدسسة فى الثنايا والطوايا ، والأغوار ، طالبة باحثة عن الآثار التى علقت بالأحرف والكلمات والجمل والتراكيب التى جاءتها من خارج ، يعاونها فى ذلك جميع صواحباتها فى الحلقة المفرغة ، (وهى العقل والقلب والنفس) . وهذه « الاستبانة » نجدها فى أنفسنا وجودا ظاهرا لاخفاء فيه ، إذا ما أحسن أحدنا التنبه لهذه اللحظة الخاطفة التى يتم فيها عمل « القدرة على البيان » ، إذ هى عندئذ صاحبة السلطان الأعظم على قوى الحلقة المفرغة ، وقبل أن تتراخى قبضتها عن صولجانها ، ليتاح للعقل أن يهتبل الفرصة ليبسط سلطانه على قوى الحلقة المفرغة ، وليتولى عمله فى التبين والتمييز ليقضى فيما سمعن جميعا قضاء فاصلا ، ثم يحكم مستقلا بالحكم .

وهذه « الاستبانة » التى تتولاها « القدرة على البيان » ، وهى مسيطرة على قوى الحلقة المفرغة ، تتطلب ما تتطلب فى كل كلام تتلقاه من خارج ، هذه الآثار التى ذكرتها آنفا . وهى تفعل ذلك فى سرعة خاطفة خارقة لكل مدى تبلغه السرعة ، وفى « زمن » مختطف كومضة البرق لا يمكن إدراكه أو تثبيته ، ثم تتراخى قبضتها على صولجانها ، لكى يمارس أخوها العقل سلطانه القاهر على قوى الحلقة المفرغة ، فى تبين الكلام وتمييزه . وهو أيضا يفعل ذلك فى سرعة مذهلة ، وفى زمن مختطف أيضا كومضة البرق لا يمكن إدراكه أو تثبيته . ولكن طبيعة العملين : « عمل العقل فى التبين والتمييز ، وعمل القدرة على البيان فى الاستبانة » ، وطبيعة السرعة عند كل منهما ، مختلفان اختلافا صريحا ، نجده فى

أنفسنا بالتأمل المستغرق ، ولكننا نعجز عن أن نحدده تحديدًا قاطعًا ظاهرًا يبين عن قدر هذا الاختلاف أو نوعه .

ولذلك يقع التداخل والخلط عندنا بين أحكام « القدرة على البيان » فى « زمن » الاستبانة ، وبين أحكام العقل عليه فى« زمن » التبين والتمييز لأنهما زمنان مختطفان متلاحقان متداخلان غير قابلين للإدراك والتثبيت .

بل يبلغ الأمر مبلغا أبعد من ذلك بكثير ، وهذا عجب وفوق العجب : إن الكلام المركب من الأحرف والكلمات والجمل ، تحمل فى تركيبها أشياء أخرى غير آثار الطبائع والغرائز والأهواء والنوازع التى يطول جولانها من السرائر والضمائر المغيبة . نعم هى قادرة بفضل هذه القوة الغريبة النفسية العجيبة المنشئة للكلام ، أن تُحَمِّل الأحرف والكلمات والجمل ضروبا أخرى من الدلالات الخفية والظاهرة ، والكامنة والمنسابة ، تدل على هيئة صاحبها ، وعلى حركاته عند إنشاء الكلام ، وعلى شمائله الظاهرة ، وعلى سمته ، وعلى صوته ، حتى كأنك ترى صاحب الكلام ماثلًا أمامك ، يشير ، أو يتحرك ، أو يهمس ، أو يصرخ ، أو يتلوى ، أو يثنى جيده ، أو يرفع رأسه فعل المندهش أو المستنكر ، أو يميل جانبا كفعل الذى يسرّ إليك سرا ، أو يغضى ، أو يطرق ، أو يسكت سكتة كالمتردد بين أن يتم كلامه أو يكف عن الكلام ، أو يشيح بوجهه فعل المستنكف .. مئات لا تعد من السمات الظاهرة والخفية التى يتميز بها متكلم عن متكلم . كل ذلك ممكن أن تراه أو تحسه وهو يطل ملثما أو سافرا من خلل الأحرف والكلمات والجمل ، مغروسا فى حافاتها وحواشيها ، بل مغروسا أيضا فى معاطف المعانى التى يدل عليها هذا الكلام المركب . عجب وفوق العجب ! وهذا شيء تحسه أحيانا إحساسا خاطفا فى الشعر وفى غير الشعر ، ولكننا لا نطيل الوقوف عليه متأملين ، بل نتجاوزه تجاوز المستهين الغافل .

هذه جملة من القول . حاولت أن أصورها لك ، أيها العزيز ، بهذه البراعة [١]

---

(١) البراعة : القلم ههنا .

المتقصِّفة العاجزة عن ملاحقة حركة هذه اللحظات الخاطفة من عمل « القدرة على البيان » فى زمن « الاستبانة » . ولا أدرى ، هل أنا متعجل مسىء ، تدفعنى العجلة إلى الإخلال بسياق حديثى ، أم ترانى عصيبا إذا أنا قلت لك الآن ، ههنا : إنى أعد « القدرة على البيان » بعمليها فى « الإبانة » و « الاستبانة » حاسة سادسة فى بناء الانسان ، هى أولى بالتقديم من الحواس الصُّم البُكْم المقصورة على صاحبها وحده ، أولى من السمع ، ومن البصر ، ومن الذوق ، ومن اللمس ، ومن الشم ، بالإثبات .. بل لعلها أولى بأن تعد جارحة كامنة فى البناء كله ، أشرف وأكرم من اليدين والرجلين والأذن والأنف والعينين واللسان ، وهى الجوارح الظاهرة . لا يعيبها أن لا مَكْمَن لها تستقر فيه نعلمه وندركه ، ويكون أداة صالحة لإظهار فعلها وعملها ، كاللسان والأذن ، مثلا ، فى السمع والبصر ، لا ، بل لعل مكمنها فى الحقيقة هو هذا البنيان كله الذى يسمى « الإنسان » ، والأداة الصالحة لإظهار عملها وفعلها هو بناء الإنسان نفسه ، وكل ما فى هذا البنيان خدم لها . ولأن « الإنسان » لو سلب هذه « القدرة على البيان » سلبا تاما ، لعاد من فوره بهيمة من البهائم ، لا معنى لإطلاق يديه ، ولا لقدرة شفتيه على الحركة ، ولا لاعتدال قوامه واستوائه ، ولخرج يمشى على أربع ، بلا فرق ظاهر بينه وبين سائر إخوانه من البهائم ، وإذن ، فقد خرب البناء كله ، وسقط عنه « التكليف » ، وزادت السوائم سائمة ترعى ما أخرج لها ربها من الأرض . وإن شئت الآن فتدبر هذه الآية : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، ثم هذه الآية ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ ، ثم هذه الآية : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ، آيات ثلاث فيهن الحديث عن « خلق » الإنسان وإنشائه ، ويقترن بذكر « الخلق » ذكر « البيان » ، و « الأسماء » و « القلم » ، وتأمل قوله سبحانه « علّم » فى ثلاثتهن ، فسترى الخبر الصادق يلوح كأنه نور ساطع يكشف عن حقيقة هذا « الإنسان » التى طمستها القرون والكتب ، وعسى أن تقول معى : لولا البيان ، لخرب هذا البنيان !

وعسى أن يكون صوابا أن أدمج السياق الأول فى هذا السياق الثانى . فإن تكن كل حاسة من الحواس الخمس الصُّمّ البُكْم المقصورة على صاحبها وحده ، (وهى الحواس المشتركة بين الإنسان والبهائم) ، لها مَكْمَن وأداة صالحة لظهور عملها ، هو جارحتها . فإن هذه الحاسة السادسة الخفية المبهمة المفصحة البريئة من الصَّمَم والبَكَم ، لها هى أيضا مَكْمَن هو بناء الإنسان ، وهو أيضا جارحتها ، أى هو بجملته الأداة الصالحة لإظهار عملها ، وعملها هو « البيان » ، الذى يتميز به الإنسان من سائر البهائم . ومن أجل هذا المميز الغريب الحاسم ، فارقها كل المفارقة فى إطلاق يديه ، وفى طواعية شفتيه للحركة ، وفى استواء قوامه واعتداله ولأن هذا البناء كله هو الأداة الصالحة لإظهار عمل هذه الحاسة السادسة ، صار ممكنا أن يكون كل ما تنشئه هذه الحاسة إنشاء ، وهو « الكلام » ، قابلا لظهور كل فعل باطن أو ظاهر من أفعال هذا البناء العجيب ، وهو « الإنسان » ، ويظل الأمر بعد ذلك عجبا وفوق العجب !

ولأنى حددت هذه القدرة النبيلة الغريبة المذهلة حاسة من الحواس وجارحة من الجوارح ، لم أبال بأن استبدل لفظ « التذوق » ، الذى هو أصلا من عمل جارحة اللسان ، مكان لفظ « الاستبانة » الذى هو أحد عملين تتولاهما هذه الحاسة السادسة ، بل هو جزء لا يمكن أن يتجزأ من عملها الآخر « الإبانة » أى إنشاء الأحرف والكلمات والجمل ، وتركيبها تركيبا دالا على المعانى الجائلة فى الضمير المستور ، على الهيئات الظاهرة التى يشف عنها هذا البناء الذى تكمن فيه ، ثم تخرج جميعها حاملة آثارا مفصحة عن صاحبها المتميز عن إخوانه من البشر ، بخصائصه الدالة عليه وعلى تفرده . وهذه الآثار موجودة حاضرة فى « الكلام المركب » حضورا مستكِنًّا فى غضونه ، أو عالقا بأحرفه وتركيبه ، أو ناشبا فى ثنايا الكلام ، وفى طواياه ، وفى أغواره القريبة والبعيدة .

ولم آخذ هذه الكلمة ، وهى « التذوق » ، عن تراث أسلافنا رحمهم الله ، ولكنى أخذتها عن المحدثين من كتابنا وأدبائنا ، حيث وجدتهم يقولون : « تذوق الشعر » ، و« تذوق الجمال » و « تذوق الموسيقى » و « تذوق الفن » . والذى

حملنى على أن أوثر هذا اللفظ وأجعله دالا على العمل الثانى من أعمال « القدرة على البيان » وهو « الاستبانة » هو أنى وجدت فى نفسى أن عمل « الاستبانة » عندى وأنا أتأمله أشبه بعمل جارحة اللسان فى تذوق الطعوم مرة بعد مرة ، ثم أشبه بما يتسم به عمل اللسان فى التذوق من سرعة الفعل ، وسرعة انقضاء الفعل ، وسرعة الحكم على الشىء الذى وقع عليه الفعل ، أى هذا الشعور الخاطف بالحلاوة أو المرارة ، أو الملوحة ، أو الغضانية أو اللذع ، وسائر مايتولى اللسان الحكم عليه من طعوم الأشياء .

حسبنا هذا القدر من المسير فى الطريق الموحش المهجور الذى رمت بى فيه ، كما قلت ، « محنة الشعر الجاهلى » ، حين أخذتنى قديما فقذفتنى قذفا فى الأمر المخوف المهوب ، الذى تنخلع عنده القلوب ، وهو إعادة النظر فى شأن « إعجاز القرآن » .. والآن ، ليت شعرى هل استطعت أن أثير فيك بإلحاحى على التجزئة والتقسيم والتوضيح والتكرار ، إحساسا ما يعمق هذه الأعجوبة التى أودعت فى بناء الإنسان ، ملثمة بالأسرار المتلونة بألوان من البوح والكتمان ، تحجبه بالوميض المتتابع الذى يُغْشِى نظر المتأمل من تعاقب الإضاءة والإظلام ، لا أدرى ، ولكنى أجد فى إحساسى عجزا فادحا عن ملاحقة هذه البروق الخاطفة المتواترة التى تنشأ على التأمل ، ثم أحس عجزا أفدح عن تثبيت ما أراه فى كلمات . بيد أنى أشعر الآن ، مخطئا أو مصيبا أنى قد جعلت أمر « الاستبانة » التى تتولاها حاسة « القدرة على البيان » ، ظاهر المعالم بعض الظهور فيما أتوهم ، وأن بلوغى هذا المبلغ فى تبين بعض معالمها ، هو الذى جعلنى أوثر أن أستبدل لفظ « التذوق » مكان لفظ « الاستبانة » . ولما فعلت ذلك ، كنت قد أصبت للفظ « التذوق » صاحبا يمكن أن يقوم مقام صاحبه الأول ، وهو جارحة اللسان . وهذا الصاحب الجديد هو أيضا جارحة أخرى (أو حاسة أخرى) ، هى « القدرة على البيان » ، وكذلك أوشك أن يسلم قولنا : « تذوقت الشعر » من الهلاك ، بعد أن كان مهددا بأن يرمى على ركام من الكلام الساقط المرذول الذى فقد التجانس والتطاعم بين طرفين .

* * *

والذى يجعل قولنا « تذوقت الشعر » يسلم كل السلامة من المعاطب والمتالف ، أن الشعر « كلام » ، وهذه الحاسة السادسة هى التى تنشىء كل « كلام » ، وهذا عملها الأول وهو « الإبانة » . ثم هى نفسها التى تتلقى كل « كلام » يأتيها من خارج لتستبينه ، وهذا هو عملها الثانى ، وهو « الاستبانة » . وهى وحدها ، دون سائر الحواس الصم البكم المقصورة على صاحبها وحده ، ودون سائر أخواتها فى الحلقة المفرغة ، هى وحدها المالكة لوسيلتين : مالكة لوسيلة عند صاحبها مترجمة مبلغة عنها هى نفسها وعن جميعهن ، وهذه الوسيلة هى جارحة « اللسان » صاحب التذوق . ومالكة أيضا لمستقبِل عند صاحبها وعند إنسان آخر غير صاحبها ، يستقبل « الكلام » ويؤديه إلى أخت لها كامنة فى بناء الإنسان الآخر ، وهى جارحة « الأذن » صاحبة السمع . وهذا « اللسان » جارحة من جوارح الحواس الخمس الصُّمّ البُكْم المقصورة على صاحبها ، المشتركة بين الإنسان والبهيمة . ولكنه حين تم بناء الإنسان ، وصار البناء بجملته مكمنا لهذه القوة العجيبة النبيلة التى لولاها لخرب البناء ، صار لهذا « اللسان » نفسه عمل آخر حاسم الدلالة ، هو الترجمة عن هذه القوة المركبة من توأمين متداخلين لا يمكن الفصل بينهما ، هما « القدرة على النطق » و « القدرة على البيان » . وعندئذ صار « اللسان » بهذه القوة الغريبة النبيلة ألصق وألزم ، وسما بالتصاقه بها سموا حاسما باذخا ، حين صار صاحب « النطق » عنها ، وصاحب الترجمة ، وصاحب التبليغ ، حتى كاد يخرجه سموه بها عن أن يكون هو صاحب التذوق ، فى أصحاب خمس من الحواس الصُّمّ البُكْم ! ولذلك سموا اللغة نفسها « اللسان » ، وقالوا : « إنما المرء بأصغرية قلبه ولسانه » ، أى بيانه .

اشتد لصوق « اللسان » بالقدرة على البيان لصوقا يستعصى على الفصل والانفصام ، لأنه هو الآن مترجمها الوحيد فى البناء كله ، ولأنه هو وحده المبلغ عنها كل ما تنتشئه من « كلام » ، ولأنه هو وحده مظهر عملها المنفرد بالدلالة على كمونها فى هذا البناء . فكذلك صار عملاه فى « النطق » و « التذوق » عملين أخوين شقيقين متعانقين ثاويين فى وطن واحد ، وكاد يكون هذا الوطن

مِلْكا خالصا للقدرة على البيان و « النطق » هو أسنى الأخوين شرفا ، وأعلاهما سلطانا وغلبة على « اللسان » والنطق هو قرين « الإبانة » أحد عملى « القدرة على البيان » فلا جرم أن يكون أخوه الضعيف القاصر ، وهو عمل « اللسان » فى « التذوق » قرينا لعملها فى « الاستبانة » ، لشدة التشابه بين العملين ، (التذوق ، والاستبانة) فى طلب التمييز بين الأشياء ، وفى تبين الخصائص الكامنة فيها ، ثم فى سرعة الفعل ، وفى سرعة انقضاء الفعل ، وفى سرعة الحكم على الشىء الذى وقع عليه الفعل كما قلت آنفا .

وإذن ، فبحمد الله وتوفيقه ، خرج قولنا : « تذوقت الشعر » من المأزق الذى كان فيه لفظا مشكلا مبهم الدلالة غارقا فى الإبهام ، كما قلت فى المقالة السالفة ، وخفت إلى نجدته صاحب له ، شهم الشمائل نافذ الجراءة لم يكتف بأن ينتشله من الغرق فى معاطب الإبهام والغموض أو بأن ينتاشه من دنس الهلاك هاويا فى قرارة السقوط والخساسة ، بل زاد فرفعه إلى مكان علىّ من الشرف والسمو . وأى مكان أشرف وأسمى وأنبل ، من أن يكون لفظ « التذوق » بديلا له الحق الخالص فى النيابة عن لفظ « الاستبانة » وهى العمل الذى تتولاه أنبل قدرة فى بناء الإنسان ، وهى « القدرة على البيان » . وقد أصاب كُتّابنا وأدباؤنا المحدثون قدرا عظيما من التوفيق ، حين جرى لفظ « التذوق » على ألسنتهم متأثرين بما يقابله فى الأدب الأوربى الحديث . ولكن العجب العاجب عندى أن يقع هذا اللفظ فى اللغات الأوربية الحديثة ! من أين جاءهم ؟ وأنا شديد الشك فى أن يكون أغتام [١] الأعاجم وأجلافهم فى القرون الوسطى قد أصابوا هذا القدر من التوفيق اللطيف الخفى من عند أنفسهم . ولا أظنه ينفعهم شيئا زعمهم أنهم ورثة آداب اليونان الأوائل وورثة حضارتهم لأنى لم أقف فى قراءتى على شىء يدل على أن عظماء اليونان قد قالوا فى مباحثهم عن الشعر والخطابة واللغة : « تذوق الشعر » أو « تذوق الجمال » أو « تذوق الفن » . ولو كان ذلك ، لوجدنا أثره فى كتب

---

(١) أغتام : جمع أغتم ، وهو الذى لا يُفْصِح شيئا لعُجْمَته .

أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة ، ولكن هذا على كل حال موضع توقُّف ، لأن بضاعتى فى شأن اليونان بضاعة مُزجاة ، ولعلى أجد عند أخى الأستاذ الجليل الدكتور عبد الرحمن بدوى ، أثارة [(١)] من عِلْم ، فهو الخبير حق الخبير بهذا الشأن ، وأقول له أن أكبر ظنى أن هذا اللفظ قد انحدر إليهم مع ما انحدر إليهم من لسان العرب فى الأندلس أو فى غير الأندلس ، حيث كان كُتّابنا العرب القدماء ، بل عامة الناس أيضا ، يكثرون من استعمال لفظ « الذوق السليم » ، ثم يسندون إليه الفصل فى أمور كثيرة منها الحكم على ألفاظ الشعر والنثر ، كما سأبين فيما بعد .

* * *

قضية « التذوق » عندى

وبعد ، فأنت ترى أنى آثرت لفظ « التذوق » على لفظ « الاستبانة » ، لكى أدل به على ما تتولاه تلك الحاسة السادسة فينا ، من تطلب الآثار العالقة فى الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعانى الناشبة فى حواشيها وأغوارها ، والتى تدل دلالة ما على ما فى ضمير صاحبها الذى أنشأها من ألوف مؤلفة زاخرة من الغرائز والطبائع والأهواء والنوازع والعادات والأخلاق ، بل تدل أيضا على الهيئة والسمت والحركة وسائر السمات الظاهرة والخفية . ومعنى ذلك أن « الكلام » مُحَمَّل بدلالات مميزة ، تجعل صاحبه متفردا بخصائصه عن سائر إخوانه من البشر المتكلمين . وأنا أدرك تمام الإدراك أن هذا كلام سهل أن يقال . ولكن ليس من السهل التسليم به ، فإن من يبتغى الوصول إلى التثبت من صحته ، أو إلى اختباره وتحقيقه ، مكلف أن يخوض فى العنت والمشقة والحيرة خوضا ... وإذن فأنا لا أستطيع أن أنكر أنى أقول قولا ليس سهلا أن يقتنع المرء بصحته على وجه يعينه ، أو يحثه على مراجعة نفسه ، أو على محاولة اختباره فى شيء مما يقرؤه أو يسمعه .

---

(١) أثارة : بقية من عِلْم تُؤْثَر وتُرْوَى .

وهذا عيب ، ولكنه ليس عيبى أنا وحدى . ففى كل لغة ألفاظ كثيرة جدا تدل على المعانى المجردة التى لا تتجسد . ولكننا إذا أدخلنا هذه الألفاظ فى الجمل المركبة ، لم نجد مناصا من استعمال ألفاظ أخرى من الأفعال والصفات ، تجعل الحديث عن هذه المعانى المجردة حديثا عن متجسد يكاد يرى بالعين ، ويمس باليد .. وهذا التجسيد يقربنا إلى إدراك مضمون الحديث عنها ، نعم ، ولكنه يباعد بيننا وبين القدرة على الاحتفاظ بالأصل الأول ، وهو أننا نتحدث عن معان مجردة لا تتجسد ولا تُرَى ولا تُمَسّ ... وغياب القدرة على الاحتفاظ بهذا الأصل الأول (المعنى المجرد) ، يباعد هو أيضا بيننا وبين الشعور بوجوب العودة إلى مراجعة ما نجده فى أنفسنا ، أو ملاحظة ما يجرى فى أنفسنا ، مما له علاقة بهذه المعانى المجردة التى لا تتجسد . وبذلك يصبح الطريق إلى الامتناع ، أو إلى مراجعة النفس ، أو إلى محاولة اختبار ما نسمع أو نقرأ ، طريقا مسدودا فى أغلب الأحيان . وكذلك كان فقد كان حديثى كله يجعل « القدرة على البيان » وهو معنى مجرد مغرق فى التجريد ، شيئا متجسد الصورة ، متجسد العمل ، فصار ما قلته فى شأنها سهلا فى السياق ، ولكن ليس من السهل التسليم به لأول وهلة . وهذا ليس عيبى ولكنه عيب اللغة ، لأنها ، اضطرارا ، تُجسِّد مالا يَتَجَسَّد .

ومع ذلك ، فالذى قلته على عيبه هذا ، ليس أمرا مجهولا لا يعرفه أحد : بل العكس هو الصحيح . فما من أحد منا إلا وهو يمارسه مرات بعد مرات . يمارسه حين يسمع من يكلمه (أو حين يقرأ شعرا ، أو نثرا ، أو رسالة) . فيمس فى دخيلة نفسه أن صاحبه كاذب ، وإن كان ظاهر ألفاظه لا يدل على الكذب ، أو أنه مراوغ ، أو أنه حقود ، أو أنه خبيث ، أو أنه حيى ، أو أنه عفيف ، أو أنه رقيق ، أو أنه منافق = فإذا سألته من أين عرف ذلك ؟ لم يجد جوابا ، ولم يدر ماذا يقول ، وأحال الأمر كله إلى أنه : هكذا أحس ! والعامة الذين لم يتعلموا قط ، يفاجئونك أحيانًا كثيرة بالحكم على حديث رجل ، بل على الرجل نفسه ، حكما تنكره ويعييك أنت المتعلم أن تعرف صحته ، إلا بعد تجارب قد تطول ، مع أنك كنت شاهده معهم . وكذلك طفلك الصغير ، يكشف أحيانا ما تضمره فى نفسك ،

وأنت تتحدث حديثا عليه سمة الصدق كاملة فيما تظن ، أما هو فقد يفاجئك باكتشاف ما لم تكن تتوقع أن يكشفه .

ونحن الذين نتحدث عن الشعر وعن تذوق الشعر ، نقول أن الشرط الأول فى جودة الشعر (أو جودة الفن عامة) أن يكون الشاعر « صادقا » . وهذا شرط صحيح بلا ريب . ولكن ما السبيل إلى معرفة ذلك ؟ أن يقول لنا الشاعر بلسانه أنه صادق ، أو يكتب على رأس كل قصيدة « أنا صادق » ؟ أم أقنع أنا بأن أفترض افتراضا أنه صادق ، فيكون عندئذ صادقا ! كلا هذين باطل لأول وهلة . لم تبق ، إذن ، وسيلة لمعرفة صدقه إلا من خلال الشعر نفسه ، أى من خلال أحرفه وكلماته وجمله وتراكيبه ومعانيه . ومن أين يعرف صدقه فى هذا ؟ وكيف ؟ ينبغى هنا أن نحترس من الوَهْم الذى يجعل مجرد مطابقه مايقوله الشاعر لما نعتقده نحن أو نتوهمه دليل على صدقه فى شعره . فهذا باطل أيضا ، لأن مخالفته كل المخالفة فى الاعتقاد أو التوهم ، ممكن أيضا أن يكون فيما قاله صادقا كل الصدق وإن لم يقع كلامه عندنا موقع الرضى والقبول والتسليم . فلم يبق إلا طريق واحد : أن يكون الكلام المركب من الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب ، وما تؤدى إليه من المعانى ، كلها حاملا لآثار عالقة فى جميعها ، أستطيع أنا أو أنت بالاعتماد على « التذوق » الذى وصفته لك ، وكما وصفته لك ، أن نحسه إحساسا ما ، وبطريقة واعية منظمة بصيرة ، قادرة على الاعتماد على هذه الحاسة السادسة التى تنشىء « الكلام » فينا ، والتى تطيق أن « تتذوق » ، الكلام الآتى إليها من خارج . ومناقشة هذه القضية للتوصل إلى غاياتها البعيدة ، وإلى كشف النقاب عنها ، وإلى إزالة الإبهام المحيط بلفظ « التذوق » ، كما استعمله أدباؤنا وكُتّابنا المحدثون بمجرد التوفيق من الله ، لا بالنظر والاستنباط والتحصيل والتقرير ، مسألة تحتاج إلى إفاضة وتتبع واستيعاب .

وقضية نشوب جميع الطبائع والعواطف والغرائز والأهواء وجميع السمات الظاهرة والباطنة ، فى الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعانى أيضا ، قضية صادقة عندى كل الصدق ، بعد أن عانيت فى سبيلها معاناة لا أستطيع أن

أسترجع أهوالها وأقيدها لك فى هذا المكان ، ولذلك فسوف أنقل شيئا مما كتبته قديما فى مجلة المقتطف (المجلد ٩٧ ، ص : ٥٧ ، شهر يونيه ١٩٤٠)[١] حين شرعت فى كتابة مقالات لم أتمها بعنوان : « علم معانى أصوات الحروف : سر من أسرار العربية ، نرجو أن نصل إلى حقيقة فى السليقة العربية » قلت :

« وأنا أريد بقول « معانى أصوات الحروف » ما يستطيع أن يحتمله صوت الحرف من المعانى النفسية التى يمكن أن تنبض بها موجة اندفاعه من مخرجه من الحلق أو اللهاة إلى الحنك أو الشفتين أو الخياشيم ، وما يتصل بكل هذه من مقومات نعت الحرف المنطوق . وليست المعانى النفسية ، أو العواطف ، أو الإحساس ، هى كل ما يستطيع أن يحتمله صوت الحرف . بل هو يستطيع أن يحمل أيضا صورا عقلية معبرة عن الطبيعة وما فيها من المادة ، وما يتصل بذلك من أحداثها أو حركاتها أو أصواتها أو أضوائها ، أو غير ذلك مما لا يمكن استقصاؤه ، إلا بعد طول الممارسة لوحى الطبيعة فى فطرة الإنسان ... » ثم قلت : « هذا جهد كنت بذلته قديما . والنفس ساكنة قارة هادئة .. ولكن الأيام انتزعتنى ورمت بى إلى حومة تتسعّر وتضطرب وتطغى بضجيجها على فترة النفس واجتماعها على الهدأة والهوينى والسكون ، فكذلك ذهب أكثر ما تلقنته من المعانى نهبا ضائعا بين النسيان والغفلة وقلة المبالاة وطول الإهمال » .

وهذا الذى كتبته قديما ، أشد إيغالا فى أعماق القضية ، من كل ما تناولته فى كلماتى اليوم . ومع ذلك ، فإن فى الواقع مؤيدا هو أشد دلالة على صدق القضية عندى . فالخط ، مثلا ، (وهو عمل من أهم أعمال اليد فى تقييد « الكلام » وتثبيته بالتسطير على الورق وغيره) ، يحمل فى طوايا رسمه دلائل كثيرة عميقة على صاحبه الذى كتبه بيده ويحمل دلائل على أخلاق الكاتب وعاداته وطبائعه وحالاته وهيآته وسماته المختلفة المتباينة . وقد استطاع المتخصصون فى قراءة ماوراء « الخط » ، أن يصيبوا صوابا كثيرا موفقا فى قراءتهم لهذه الدلائل العالقة الناشبة فى

---

(١) هكذا ذكر الأستاذ شاكر رحمه الله ، والصواب : المجلد ٩٦ ، مارس ١٩٤٠ ، ص ٣٢٠ .

انظر المقالات هنا ٢ : ٧٠٨ - ٧٠٩

حواشى الخط وفى طواياه ، وفى أغواره ، وفى تعيين بعض تكوينه الذى يتميز به من غيره من الناس ، وفى تمييز صاحب خط من صاحب خط آخر ، وإن تشابه الخطان كل التشابه ، بل ميزوا التقليد المتقن الخفى البارع من أصله الذى قلده ، أو ميزوا الصادق من الكاذب . ومعنى ذلك أن « الخط » المسطور قابل لحمل هذه الدلائل الخفية المغرقة فى الخفاء ، وأن التوصل إلى استخراج هذه الدلائل ممكن أيضا لمن تطلبه على وجهه الصحيح . هذا على أن أحدنا ، وإن لم يكن خبيرا بقراءة « الخط » خبرة المتخصص ، قد يصله كتاب من صديق ، فيقع فى نفسه وهو ينظر فى خطه : إن صديقه قد كتب ماكتب على عجل ، وأن أحرفه محفوفة بالملل ، وإنه كتبه مجرد إبراء للذمة ، وإن كان الكلام الذى سطره وكتبه يعبر ظاهره عن أشد الاهتمام وأشد العناية ، وأشد الحرص على الصداقة . فإذا لقى صديقه الذى كتب هذا إليه ، فأعلمه بما وقع فى نفسه من دلالة خطه ، قال له نعم ، صدقت ، هكذا كنت حين كتبت إليك . وأنا أحدثك بهذا عن واقع لا عن توهم .

فإذا كان هذا صادقا فى شأن « الخط » وهو عمل من أعمال جارحة صماء بكماء لا تبين ، فماذا تظن بأشرف قوة مبينة فى بناء الإنسان ، لم تستو لها قامته وتعتدل ، ولم تطلق له يده ، إلا لكى تكون اليد خادمة تقيد ما تنشئه هذه القوة العجيبة النبيلة ، التى لولاها لَلَحِقَ من فوره بالبهائم على خلقتها وهيأتها يسعى على أربع . أيمكن أن يكون « الخط » - وسائر الفنون الدنيا : من نحت وتصوير وموسيقى جميعا - قادرا على حمل آثار العواطف والأخلاق والشمائل ، ثم لا تكون الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعانى التى تقيد بالخط ، وهى الدالة على الفن الأعلى المتفرد بالسمو على سائر الفنون : الشعر والنثر والكتابة ، غير قادرة على حمل هذه الآثار نفسها ؟ أممكن هذا ؟ كلا ، هى على ذلك أقدر وأثبت وأقوم وأصدق شهادة . هى « الوثيقة الجامعة » ، التى تميز إنسانا من إنسان (لا شاعرا من شاعر وبَسْ ، أى ، وحسب) ، وعليها تنعكس صور حياته كلها ظاهرة وباطنة . و « التذوق » عندى هو الطريق إلى بعث هذه الصور ، وإلى استنطاقها ، وإلى حل رموزها المعقدة ، وإلى بث الحياة فى هامدها حتى تعود « إنسانا » يمشى ويتحرك ويتكلم ويغضب ويرضى ، ويكذب ويصدق ، ويخون

ويؤدى الأمانة ، ويستقيم ويراوغ ويتهلل ويعبس ، ويزهو ويتواضع ، ويتألم ويبتهج ، ويأنف ويستكين ، ويسرق ويتصدق ، ويعف ويفجر ، إلى آخر ما لا يحصى مما يكون به الإنسان إنسانا ، لا شاعرا وبَسْ . هذا هو « التذوق » عندى ، وقد أعفيت نفسى منذ بدأت من الحديث عما يريده الأدباء والكتاب بقولهم « التذوق » ، ولكنه عندى معنى مغرق فى الإبهام ، قولا وتطبيقا .

فأنا أسألك الآن ، أيها العزيز ، أن تقرأ هذا ، إن شئت ، ببعض التأمل والتدبر ، وتراجع قولك فى مقالتك الثالثة « على أن تصور محمود شاكر النظرى للشعر : يحتاج إلى مراجعات وملاحظات . فلو تأملنا النصوص التى سقناها فى هذه الدراسة من كلامه ، لاكتشفنا للوهلة الأولى أنه يتخذ الشعر وثيقة نفسية يستخرج منها حياة أبى الطيب وطبائعه وعواطفه وآماله وآلامه وأحزانه ، كما يتخذ منه وثيقة تاريخية ، تسهم فى تعديل أخبار الرواة القدماء أنفسهم أو تجريحها ، أو استخلاص الصدق من نصوصها ونفى ما زيفه التذوق . وهذا مفهوم غير خصب للتذوق الفنى ، يحول العمل الأدبى إلى وسيلة لخدمة غاية خارجية . وبذلك يتحول الأدب إلى وثائق تاريخية أو اجتماعية أو نفسية ، أو يصبح انعكاسا مباشرا لحياة الناس وأهوائهم ونزواتهم واصطراعهم فى الحياة » . وأنا لا أنتفى من شىء مما قلت ، بل هو الحق كل الحق كما قلته ، ولا أعده عيبا ، ولا خدمة لغاية خارجية ، بل هى غاية فى الصميم .

ولكن ، لو أنت فعلت ما سألتك ، لاكتشفت للوهلة الأولى أيضا أنك تستعمل لفظ « التذوق الفنى » فى أتم زينته ، وأنى استعمل لفظ « التذوق » عاريا متجردا من كل زينة ، وأنك تعد معنى اللفظ العارى المتجرد عندى وهو « التذوق » مطابقا تمام المطابقة للفظك المتأنق فى أتم زينة عندك ، وهو « التذوق الفنى » . ثم لاكتشفتَ أيضا أنهما غير متطابقين فى المعنى البتة ، بل كل ما فى الأمر أن لفظ « التذوق » لفظ مشترك بينى وبينك ، له عند كل واحد منا معنى يصعب معه أن يتطابقا كل المطابقة . ثم لاكتشفتَ أيضا أنك بذلك قد ظلمتنى حين جعلت معناتك فى لفظ « التذوق » واقعة على معناته عندى .. وأنت أَلَبُّ وأَفْطَنُ من أن أدلك على الفروق بينهما ، وأنا ممتنع عن الدلالة على ذلك ، لأنى عاهدتك منذ

أول الأمر قلت : « وأنا أخشى أن أقترب من لفظك فى زينته ، لأنى إن فعلت ذلك ، سقطت فجأة فى جوف المنطقة الملتهبة ، منطقة الجدل والصراع العقلى » . لن أفعل ، فالأمر كله بعد ذلك إذن مفوض إليك ظلمتَ أو أنصفتَ . وهذا التفويض أقل ما يجب علىّ من حقوق صداقتك لى ومودتك .

* * *

تاريخ « التذوق » عندى

أنت متذوق للشعر ، وأنا متذوق للشعر ، وآلاف مؤلفة من المثقفين وغيرهم ، قديما وحديثا متذوقون للشعر ، أوه ، نسيتُ ، وحتى لا أُعَدّ متجنيا أو مقصرا ، والدكتور طه حسين أيضا متذوق للشعر . و « التذوق » عند جميعنا قائم فى النفس ، ولا يجمع بيننا فى الحقيقة إلّا هذا اللفظ « التذوق » . أما وسائل « التذوق » وأسبابه وطرائقه وأساليبه ، فمختلفة بيننا اختلافا يكاد يبلغ من الكثرة عدد المتذوقين . ولا يستطيع أحدنا أن يلزم الآخر بما يجده قائما فى نفسه من وسائل « التذوق » وأسبابه وطرائقه وأساليبه . هذا مستحيل إن شاء الله ، وكل مايمكن أن يكون ، أن يقع من جميعنا ، أو من بعضنا ، اتفاق على مظهر أو أكثر من مظاهر « التذوق » ، وعلى غير تواطؤ منا أو من بعضنا . أما الاتفاق على طبيعة « التذوق » وعلى وسائله ودرجاته وأبعاده ، اتفاقا قاطعا لكل شبهة اختلاف أو تباين أو تضاد ، فهذا ما لا يكون البتة . وهذا تفسير آخر يزيد ما قلته قديما وضوحا ، إذ قلت فى المقالتين السالفتين : « إن التذوق معنى عام مشترك الدلالة بين الناس جميعا ، وهو يقل ويكثر ، ويعلو ويسفل ، ويصقل ويصدأ ، ويجود ويفسد ، ولكنه حاسة لا غنى عنها للإنسان » (١) ، وقلت أيضا : « إن التذوق لفظ مبهم مجمل الدلالة ، ولكل حى عاقل مدرك منه نصيب يقل ويكثر ، ويحضر فى شيء ويتخلف فى غيره ، وتصقله الأيام والدربة ، وترهنه جودة المعرفة والصبر على الفهم والمجاهدة فى حسن الإدراك » (٢) .

وقد فرغت فى المقالة السالفة من الدلالة على أن لفظ « التذوق » ، مصدر

---

(١) انظر ص ١١٢٤ من هذا الجزء .

(٢) نفس الجزء ص ١١٢٤ - ١١٢٥

دال على حديث (١) (أى فعل) مبهم غير متعين ، ولا متميز ، قابل للتعدد والاختلاف والتنوع ، أى أنه ، كما قلت ، كسائر أخواته من الأحداث المبهمة ، هى ذات نماء سابغ متوهج ، وذات غنى مفعم ، وذات ثراء مكنوز - وأنها أيضا ذات خطر مرهوب ، لما فيها من قوة غامضة تجعلها قادرة قدرة مطلقة على تضليل السامع والمتكلم . وقد نشأت أنا فى زمن كانت فيه هذه اللفظة « التذوق » شائعة كثيرة الاستعمال فى الصحف والمجلات ، فتَلَقَّنْتها تَلَقُّنا وأنا فى أول الصبا وخفَّت على اللسان ونشبت فيه كسائر ما نتلقنه مع الصغر . فكان إبهامها وقبولها للتعدد والتنوع بنمائها وغناها وثرائها يثير فى النفس لذة ونشوة واهتزازا ونحن نحاول أن « نتذوق » الشعر والنثر ، ثم سائر الفنون الدنيا ، كالتصوير والموسيقى . ولكن التفكير فى حقيقة « التذوق » ماهو ، لم يكن داخلا فى منطقة الوعى ، ولا غائبا أيضا عن منطقة الوعى . (استطراد : أرجو أن لا تتذكر أن هناك شيئا حادثا شبيها بهذا فى مسألة « غيبة الوعى » و « عودة الوعى » (٢) ، لأننا هنا نتكلم فى فن الأدب والشعر ، لا فى فن التمثيل والتهريج ، وأيضا لأن الله عافانى من أن أسلك نفسى فى عقد « الأساتذة الكبار » ، فلذلك لم أتعلم هذه الفنون لا صغيرا ولا كبيرا ، فليس بينى وبينها عمل . وكذلك لفظ « الوعى » هنا ، ليس بينه وبين هذا اللفظ عندهم عمل . لاتنس ذلك أيها العزيز) .

فمنذ الآن ، سأقص عليك القصة كاملة « قصة التذوق » ، لأنى رأيتك قد جُرْت على فيها جَوْرا ما كان ينبغى أن يكون . جور هو أشد من جورى الذى زعمته على صاحبك الدكتور ، سأبين لك تاريخ « التذوق » عندى ، وبعض معانيه عندى أيضا ، ومنهجى الذى ملكته وطبقته فى جميع ما كتبت . ومن خلال ذلك تعلَمْ ، إن شاء الله ، إنى لم أظلم الدكتور طه حبة خردل فى كل ما كتبته عنه أو وصفته به ، بل لعلى أسأت أبلغ الاساءة ، حين تغاضيت عن كثير مما كان ينبغى أن أقوله فيه قديما وحديثا .

---

(١) كذا بالأصول ، والصواب : حَدَث .

(٢) يشير الأستاذ شاكر رحمه الله إلى كتابىْ الأستاذ توفيق الحكيم ، غفر الله له .

لعلك تذكر أني قد تحدثت فى مقدمة كتابى (المتنبى ١ : ١١ - ١٥) : وقلت إنى حفظت « المعلّقات العشر الجاهلية » صغيرا ، وإن معرفتى بها لم تزد قط على أن تكون زيادة فى ثروة معرفتى بالعربية وبشعرائها وشعرها = وإن قراءتى بعض أصول كتب الأدب والشعر على الشيخ سيد بن على المرصفى ، شيخى وشيخ الدكتور طه من قبلى ، نقلتنى من هذا الطور إلى طور آخر ، أوغل بى فى الحفاوة بالشعر الجاهلى ، وفى الحرص على قراءته وتتبع قواصيه ونوادره = وإن قراءتى على الشيخ أوقفتنى على شيء مهم جدا ، شغلنى ، واستولى على لبى وعلى نفسى ، فعدت أدراجى أقرأ دواوين الشعراء الجاهليين ، ديوانا ديوانا ، شاعرا شاعرا ، ومن لم أجد له منهم ديوانا جمعت لنفسى ما بقى من شعره وقرأت شعره مجتمعا . وهذا المسلك فى ترتيب القراءة ، جعلنى أجد فى الشعر الجاهلى شيئا لم أكن أجده من قبل وأنا أقرأ الشعر الجاهلى متفرقا على غير نظام ، مبعثرا بين الشعراء المختلفين : أو وأنا أحفظ هذه « المعلقات العشر الجاهلية » ، وإدراسها[١] معانى ألفاظها ، مع اختلاف معانيها وأغراضها » . (المتنبى ١ : ١٤) . وهذا الذى وجدته فيه فاستولى علىّ ، كان يومئذ شيئا لا أملك التعبير عنه ولا أحسنه ، لأنه كان شيئا غامضا مستبهما يجول فى نفسى لا أكاد أتبين معالمه . فلذلك صار أمر التعبير عنه تعبيرا واضحا متعذرًا على كل التعذر وقلت أصف ذلك : « فما هو إلا « التذوق » المحض والإحساس المجرد . وبهذا « التذوق » المتتابع الذى ألفته مرة بعد مرة ، صار لكل شعر عندى مذاق وطعم وشذا ورائحة ، وصار مذاق الشعر الجاهلى وطعمه ورائحته بينا عندى ، بل صار تميز بعضه من بعضه[٢] دالا يدلنى على أصحابه » (المتنبى ١ : ١٥) .

وأنا عند هذا الموضع أتلفت إلى الماضى التفاتة لابد منها . حق لازم فى عنقى أن أفرد الفضل كله فى تنبهى إلى أول الطريق ، إلى شيخى سيد بن على

(١) كذا فى أصول مجلة الثقافة ، والصواب : وأدارِسها وأتتبّع ، كما فى مقدمة كتاب « المتنبى » ١ : ١٤

(٢) كذا فى أصول مجلة الثقافة أيضا ، والصواب : بَعْض ، بغير هاء .

المرصفى ، فإنه ، بعد الله سبحانه ، هو الذى هدانى وسدد خطاى على أول الطريق . كانت للشيخ رحمه الله وأثابه عند قراءة الشعر وقفات ، يقف على الكلمة ، أو على البيت ، أو على الأبيات ، يعيدها ويرددها ، ويشير بيديه وتبرق عيناه ، وتضيىء معارف وجهه ، ويهتز يمنة ويسرة ، ويرفع من قامته مادًّا ذراعيه ، ملوحا بهما يهم أن يطير ، وترى شفتيه والكلمات تخرج من بينهما ، تراه كأنه يجد للكلمات فى فمه من اللذة والنشوة والحلاوة يفوق كل تصور . كنت أنصت وأصغى وأنظر إليه لا يفارقه نظرى ، ويأخذنى عند ذلك ما يأخذنى وأطيل النظر إليه كالمبهوت ، لاتكاد عينى تطرف وصوته يتحدر فى أقصى أعماق نفسى كأنه وابل منهمر تستطير فى نواحيه شقائق برق يومض إيماضا سريعا خفيفا ثاقبا . أيام لم يبق منها إلا هذه الذكرى الخافتة ! فإذا كف عن الإنشاد والترنم أقبل يشرح ويبين . ولكن شرحه وتبيينه لهذا الذى حركه كل هذا التحريك ، كان دون ما أحسه وأفهمه ويتغلغل فى أقاصى نفسى من هيئته وملامحه وهو يترنم بالشعر أو يردد ، كان دون ذلك بكثير ، وكنت أحس أحيانا بالحيرة والحسرة تترقرق فى ألفاظه وهو يشرح ويبين ، كأنه كان هو أيضا يحس بأنه لم يبلغ مبلغا يرضاه فى الإبانة عن أسرار هذه الكلمات والأبيات . هكذا كان شأن الشيخ رحمه الله ، أى علاَّمة ذوَّاقة كان !

هكذا حال الشيخ كان فى بيته ، وأنا أقرأ عليه الأدب والشعر يومئذ وحدى . أما حاله وهو يلقى دروسه العامة التى يحضرها الجمع من طلبة العلم ، والتى كان يحضر أمثالها من قبلنا الدكتور طه قديما فيمن يحضر دروسه فى الأزهر ، فكان مختلفا كل الاختلاف . كان ملتزما بالجد والوقار يتخللهما دور قليل من مزاح لاذع جارح أحيانا ، ولكنه كان لا يقصر فى الإبانة والشرح ، ولا فى التوقف عند الأبيات أو الكلمات الجياد الحسان المحكمة ، فهذا موضع الفرق بين الذى أخذته أنا عن الشيخ ، والذى أخذه عنه الدكتور طه ، وما كان على كل حال بقادر أن يأخذ عنه ما أخذت ، فإن الذى أخذته عنه وأحدث فى نفسى ما أحدث ، لا يبلغ السماع بالأذن منه شيئا ، لأنه وليد المشاهدة والعيان ، لا وليد الألفاظ والكلمات ! ما علينا أيها العزيز .

شيئا فشيئا ، منذ تلك الأيام الغوابر ، بدأت أحس فى الشعر الجاهلى ، وفى غير الشعر الجاهلى ، شيئا ينبعث منه ، دبيب حركة تترك فى نفسى آثارا خفية غريبة . فإذا عدت استبطنه مترنما به ، متأملا فى طواياه ، عاد دبيب الحركة ، حركة لا أدرى ماهى ؟ فهذا هو الذى قلت إنه كان من ديدنى بعد ذلك أن أحدث عنه أساتذتى الكبار الذين خالطتهم وعرفتهم يومئذ وتأخذنى النشوة وأنا أفاوضهم فيما أحس به : « فكان يعرض منهم عنى من يعرض . ويربت على خيلاء شبابى من ربت بيد لطيفة حانية » ، كما وصفت ذلك فى كتابى (المتنبى ١ : ١٢ ، ١٥) . ومن أغرب ما لقيت من الإعراض عما أقول ، إعراض الشيخ المرصفى نفسه عن حديثى مرات ، وهو نفسه الذى أثارنى إلى هذا وحركنى هو وحده دون سواه ! ولكنى لم أكف عن الإلحاح عليه ، حتى كانت نهاية إعراضه عنى ، حين فهم عنى ماكان لسانى يعجز عن بيانه وعن التعبير عنه . فإذا هو بعد ذلك راض عنى مقبل عليّ ، يفيدنى الفوائد ، ويسدد لى خطاى فى هذا الطريق الوعر المسالك والمضايق ، المتشابك المناهج والشعاب . كان هذا أول ممارستى للذى سميته فيما بعد « التذوق » ، مكان « الاستبانة » ، ولكنها على ذلك كله ، كانت ممارسة جاهلة جافية غامضة بلا منهج صحيح آوى إليه وأستعين به . كان ذلك فى سنة ١٩٢٥ ، وما بعدها .

وبعد سنة دخلت الجامعة ، وكان من أمر الدكتور طه وأمرى ما كان ، حتى كان اليوم الذى اضطررت فيه اضطرارا أن أقف الموقف الذى دفعت إليه بغتة أجادل الدكتور وأناقشه فى « مسألة الشعر الجاهلى » ، صارِفا همى كله إلى موضوع « المنهج » و « الشك » وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلى والأموى والعباسى قراءة « متذوقة » مستوعبة لنستبين الفرق بين الشعر الجاهلى والشعر الإسلامى ، قبل الحكم على الشعر الجاهلى بأنه شعر صنعته الرواة المسلمون فى الإسلام ، كما بينت ذلك فى كتابى (المتنبى ١ : ٢٣) ثم فى مقالتى الأولى هنا أيضا . وفى غضون هذا الموقف المتطاول بيننا حتى فارقت الجامعة . كان اللفظ الناشب فى لسانى وفى ألسنة الكُتّاب ، وهو « التذوق » بمعناه المشهور الغامض

المبهم الدلالة القابل للتنوع والتعدد بلا شيء يعين على تميزه وتعينه - كان هذا اللفظ محور المفاوضة بيني وبينه ، كما كان من قبل محور المفاوضة بيني وبين أساتذتي الكبار ، على رأسهم شيخي المرصفي ، فيعرض عليَّ من يعرض ، ويربت على خيلاء شبابي من يربت ، ولكني كنت في خلال مفاوضتي لجميعهم ، أغرق هذا اللفظ إغراقا في أشباه أقولها ، هي « وراء التذوق » ، بيد أنني كنت لا أحسن العبارة عنها إحسانا يعين عليّ .

وقد حدثت الدكتور طه مرارا ، وأنا أجادله يومئذ فأطيل ، بالذي كنت أجده في نفسي ولا أحسن العبارة عنه ، أي بما هو « وراء التذوق » ، فكان يصغي إليّ أحيانا كثيرة ، ثم ينتهي إلى أن يمصمص بطرفه لسانه ، وبزهوه وخيلائه وإفراطه في الإعجاب بنفسه ، لا يكون رده عليّ إلَّا سخرية بي وبما أقول . كان زهوه يجعله لا يصبر ، فلم يفهم عني مرة واحدة كل الفهم أو بعض الفهم . لم أكن أبالي بسخريته ، فقد ألفتها منذ قديم ، وألفت استخفافه بالناس جميعا سوى نفسه ، « شِنْشِنَة أَعرِفُها مِن أَخْزم » ، كما يقال في المثل ، (والشنشنة : الخليقة والسجية المغروزة في الطبيعة) . هذا ، على أنه كان له يومئذ كل العذر في خيلائه واستخفافه ، لأن ذيوع صيته بفعل المعارضة التي لقيها كتابه « في الشعر الجاهلي » ، بلغ مبلغا مثيرا ، فهو طائر محلق في جو السماء ، كل شيء يقع عليه بصره يتضاءل ويصغر ، كلما أمعن في العلو والتصعيد وهو معذور أيضا ، لأنه كان يومئذ في الثامنة والثلاثين من عمره ، وكان يحس أنه أصبح مشروعا معدا ناضجا ، قابلا للتنفيذ ، أي هو في طريقه إلى أن ينقلب أستاذا كبيرا ، فلابد له من التشبع بسُنن « الأساتذة الكبار » في الزهو والعجب والاستخفاف . ومع الزهو والعجب والخيلاء » لم أجد عنده صبرا أو استجابة ، أو محاولة ، لفهم ما أقول ، كاستجابة المرصفي شيخي وشيخه هو أيضا . ذهب كل كلام بيني وبينه هذرا باطلا ، هكذا ظننت يومئذ ! ولكن .. ولكني قد قصصتُ قصة تذكُّره لهذا الحديث البعيد ، وظهور أثره فيما كتبه في جريدة الجهاد سنة ١٩٣٥ ، حين أحس أن العرش يهتز من تحته ، قصصتها في كتابي (المتنبي ١ : ٤١ - ٤٧) وفي مواضع أخرى ، ثم ما فوجيء به عند ظهور كتابي عن المتنبي سنة ١٩٣٦ ، حيث استبان له أني

طبقت فى هذا الكتاب منهجا فى « تذوق الشعر » ، يشبه أن يكون قريبا من شيء سمعه قديما منى ، ثم ذهل عنه فى غمرة الأحداث والأزمان . ويومئذ بدا له أن يفعل ما فعل ، مما قصصته أيضا فى مقدمة كتابى (المتنبى ١ : ١٤٧ - ١٥٨) ، وفيه قصة « السطو » كاملة على اختصارها ، فإن شئت فأعد قراءتها ، فعسى أن تجد فيها شيئا يزداد وضوحًا بعد هذا الحديث . (انظر أيضا المقالات فى الجزء الثانى من (« المتنبى ») .

فارقت الجامعة سنة ١٩٢٨ ، وانطوى الماضى كله بما فيه ، وبمن فيه أيضا . ذهبت بعيدا وحيدًا لا رفيق لى غير « قضية الشعر الجاهلى » ، كما شرحتها لك آنفًا ، والتى لم تلبث أن أنشأت لنفسها صاحبة لا تفارقها ، هى إعادة النظر فى شأن « إعجاز القرآن » . كان لفظ « التذوق » فاشيا فى الألسنة والأقلام . لا يكاد أحدنا يشك فى أنه معنى مفهوم واضح مفروغ منه . ومع الأيام الطوال الموحشة ، وشيئا فشيئا ، بدأ ما كنت أجده فى نفسى عند قراءة الشعر الجاهلى وغير الشعر الجاهلى ، والذى سميته لك آنفا « ماوراء التذوق » ، والذى كان ما أقوله عنه غير مبين ولا واضح ، والذى أنكره على أساتذتى من قبل ، ورفضه الدكتور طه رفضا كاملا - أخذ هذا يدفعنى إلى سلوك طريق آخر ، يعتمد على جس الكلمات والألفاظ والتراكيب جسا متتابعا بالتأمل ، ثم على الرجوع إلى أصولها فى المعاجم مع التدقيق فى مكنون معانيها المختلفة ، ثم فى دلالاتها وظلال دلالاتها عند كل شاعر أو كاتب ، ثم دخلت فى مقارنات كثيرة بين المتشابهات والمتباينات ، وشيء كثير بعد ذلك كان يفرض نفسه على طريقى فرضا . يومئذ بدأ لفظ « التذوق » ، بمفهومه الذى عهدته ، بدأ يتزعزع من حيث نشب من نفسى ومن لسانى ، ورأيته لفظا مبهما مجمل الدلالة ، لفظ غامض مظلم ، مضلل بتعدد صوره واختلافها وتنوعها ، ولكنى لم أستطع أن أطرق بعيدا ، لأن الذى أجده فى نفسى مما سميته « ما وراء التذوق » ، كان لا يزال صاحب سلطان علىّ مطاع ، فكان يقبضنى عن الطيش والمجازفة بطرحه ، فبينهما صلة خفية أحسها ، وإن كنت غير قادر على تبينها .

وهذا الذى استولى علىّ وخامرنى فى شأن « التذوق » ، رمانى بغتة فى حومة الارتياب وفوجئت بلفظ آخر هو لفظ « البلاغة » الذى يدور عليه القول فى « إعجاز القرآن » ، والذى يوصف به الكلام فيقال : « كلام بليغ » ، فإذا هو أيضا عندى الآن لفظ مبهم شديد الإبهام ونفرت جهنم ، بين شدقيها تريد أن تبتلعنى . ضاقت علىَّ الأرض بما رحبت ، بيد أنى كلما أعدت النظر ، وجدت « الذوق » حقيقة كامنة فى نفسى ، ووجدت « البلاغة » أيضا حقيقة ظاهرة تفرض سلطانها على نفسى ، ولكنى كلما حاولت أن أعرف لهما بيانا أو حدا ، بلغ فى الإعياء كل مبلغ . وبدا لى يومئذ أن أعيد قراءة عبد القاهر الجرجانى فىّ كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » . أكببت على قراءة الكتابين ، وبغتة رأيت أو تبيَّنتُ أن عبد القاهر قد وقع فى نفس ما وقعت فيه . رأيته قد وقع فى الحيرة من لفظ « البلاغة » ، ورآه لفظا مبهما شكلا ليس له بيان ولا حد يعين على تصور « البلاغة » ماهى ؟ فيومئذ انبعث انبعاثا ليكشف عن إبهام « البلاغة » ، فألف كتابه « أسرار البلاغة » ، عمد فيه إلى تحليل الألفاظ المتصرفة بأمر المعانى ، مبينا عن وجوه حسنها وقبحها ، وخطئها وصوابها ، وسموها وسقوطها غير مقطوعة عن أصلها فى الكلام المؤلف المركب . ثم ألف أيضا كتابه « دلائل الإعجاز » ، عمد فيه إلى تحليل الجمل أى الكلام المركب الذى يحتمل تركيبه آلافا من الوجوه ، فكان كتاباه هذان ، أول كتابين فى « تحليل اللغة » بلغ فيهما غاية قَصَّر عنها كل من جاء بعده ، وهذان الكتابان هما أصل « علم البلاغة » ، كما سميناه (وسترى ذلك مبينا فى كتابى : مداخل إعجاز القرآن) [١] .

كان فضل عبد القاهر يومئذ علىَّ فضلا عظيما ، لأننى حين فهمت حقيقة الدواعى التى حملته على وضع كتابيه الجليلين ، أدركت من فورى أن مسألة « التذوق » ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بمسألة « البلاغة » فى الأمرين جميعا ، فى إبهامهما ، وفى أنهما حقيقتان متعلقتان بمدارك الفطرة فى الإنسان . ولما رأيته قد

---

(١) نشر بعد وفاته رحمه الله ، مطبعة المدنى ، القاهرة ٢٠٠٢

استطاع بتحليل الألفاظ والجمل والتراكيب ، أن يجعلها تكشف اللثام عن أسرار المعانى القائمة فى ضمير منشئها ، فأزال إبهام « البلاغة » ، ظننت أنه من المستطاع أيضا بضروب أخرى من تحليل الألفاظ والجمل والتراكيب أن أصل إلى شيء يهدينى إلى كشف اللثام عن أسرار العواطف الكامنة التى كانت فى ضمير منشئها ، فأزيل إبهام « التذوق » . وإذا كان تحليله قد أفضى به أن يجعل نظم « الكلام » دالا على صور قائمة فى نفس صاحبها ، فعسى أن أجد أيضا فى ضرب أو ضروب من التحليل ، ما يفضى بى إلى أن أجعل « الكلام » ونظمه جميعا دالا على صورة صاحبها نفسه . والتبست على الطرق مرة ، واستبانت مرة ، ثم بدأت بعد زمن تتضح لى بعض المعالم . وكان مما أعاننى على وضوح هذه المعالم ، ما كنت دخلت فيه من قبل ، من جس الكلمات والألفاظ والتراكيب جسا متتابعا ، إلى آخر ما وصفته آنفا . وعلى الأيام بزغ لى بعض الضياء ، وأنارت بعض الشعل ، ووضعت لنفسى منهجا ، انتهيت إلى أن سميته « التذوق » ، كما حدثتك آنفا ، وجعلت أمارسه فى جميع ما أقرأ من الكلام لا فى الشعر وحده والأمر يطول ، ولكن هذه خلاصته أكتبها على مشقة .

ولم أجاوز حد تطبيق منهجى هذا فى القليل الذى كتبته ، مما نشرته وعما سوف أنشره بعد قليل إن شاء الله ، ولكنه تطبيق لا أكثر ولا أقل . وما دمنا فى حيز التاريخ فسأقفك على كلامين ، أحدهما يصف الشعر الجاهلى فى أول أمرى حين قرأت كما حدثتك ، والآخر يصف الشعر الجاهلى بعد ذلك بزمان طويل ، لما كتبت مقدمة كتابى المتنبى ١ : ١٤) فى سنة ١٩٧٧ ، وضعت قديم إحساسى بالشعر الجاهلى فى سنة ١٩٢٧ وما قبلها فقلت :

١ - « وجدت يومئذ فى الشعر الجاهلى ترجيعا خفيا غامضا كأنه حفيف نسيم ، تسمع حسه وهو يتخلل أعواد نبت غميم متكاثف = أو رنين صوت شجى ينتهى إليك من بعيد فى سكون ليل داج ، وأنت محفوف بفضاء متباعد الأطراف وكان هذا الترجيع الذى آنسته مشتركا بين شعراء الجاهلية الذين قرأت شعرهم ، ثم يمتاز شاعر « من شاعر » بجرس ونغمة وشمائل تتهادى فيها ألفاظه ، ثم

يختلف شعر كل شاعر منهم فى قصيدة من شعره ، وبدندنة تعلو وتخف تبعًا لحركة وجدانه مع كل غرض من أغراضه فى هذا الشعر » .

هكذا كنت أجد الشعر الجاهلى ، قبل أن انتهى إلى المرحلة التى وجدت عندها منهجا أستطيع أن أعيد عليه قراءة هذا الشعر ، وإن كنت قد كتبته بعد انقضاء خمسين سنة . ولكنى فى سنة ١٩٦١ ، وصفت هذا الشعر نفسه فى مقدمة كتاب صديق لى ، رحمه الله [١] فقلت :

٢ - ولقد شغلنى « إعجاز القرآن » كما شغل العصر الحديث ، ولكن شغلنى أيضا هذا « الشعر الجاهلى » وشغلنى أصحابه ، فأدانى طول الاختبار والامتحان والمدارسة إلى هذا المذهب الذى ذهبت إليه ، حتى صار عندى دليلا كافيا على صحته وثبوته . فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت فى الثرى أعيانهم ، رأيتهم فى هذا الشعر أحياءً يغدون ويروحون ، رأيت شابهم ينزو به جهله وشيخهم تدلف به حكمته ، ورأيت راضيهم يستنير وجهه حتى يشرق وغاضبهم تربد سحنته حتى تظلم ، ورأيت الرجل وصديقه ، والرجل وصاحبته ، والرجل الطريد ليس معه أحد ، ورأيت الفارس على جواده ، والعادى على رجليه ، ورأيت الجماعات فى مبداهم ومحضرهم ، فسمعت غزل عشاقهم ، ودلال فتياتهم ، ولاحت لى نيرانهم وهم يصطلون ، وسمعت أنين باكيهم وهم للفراق مزمعون .. كل ذلك رأيته وسمعته من خلال ألفاظ هذا الشعر ، حتى سمعت فى لفظ الشعر همس الهامس ، وبحة المستكين وزفرة الواجد ، وصرخة الفزع ، وحتى مثلوا بشعرهم نصب عينى ، كأنى لم أفقدهم طرفة عين ، ولم أفقد منازلهم ومعاهدهم ، ولم تغب عنى مذاهبهم فى الأرض ، ولا شىء مما أحسوا ووجدوا ، ولا مما سمعوا وأدركوا ، ولا مما قاسوا وعانوا ، ولا خفى عنى شىء مما يكون به الحى حيا على هذه الأرض التى بقيت فى التاريخ معروفة باسم : جزيرة العرب » .

وأظن ، أيها العزيز ، أنك مستطيع أن تجد الفرق بين هذين النعتين للشعر الجاهلى ظاهرا علانية ، وأن أولهما عليه وسم باد يلوح ، يدل على أنه نعت من أثر

---

(١) كتب الأستاذ شاكر هذه المقدمة لكتاب الظاهرة القرآنية ، لمالك بن نبى سنة ١٩٥٨

« التذوق المحض والإحساس المجرد » ، كما قلت آنفا ، وأن هذا « التذوق » يومئذ كان تذوقا ساذجا بلا منهج ، كالذى هو ناشب فى الألسنة وأقلام الكتاب المحدثين .. وأن ثانيهما عليه سمة واضحة تدل على أنه نعت من أثر « التذوق » أيضا ، ولكنه تذوق له معنى آخر غير المعنى المألوف ، وأنه « تذوق » قائم على منهج مرسوم ، له أسلوب آخر فى استبطان الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعانى ، ثم فى استدراجها ومماسحتها وملاطفتها ومداورتها حتى تبوح لنا بدخائل منشئيها ومخبآت صدورهم ، بل حتى تكشف اللثام عن صورهم وملامحهم ومعارف وجوههم سافرة بلا نقاب . أظنه فرقا ظاهرا بين نعتين ، فى زمنين متباعدين ، لكل زمن منهما طبيعة تميزه عن الزمن الآخر . أليس كذلك ؟

ولمجرد الحذر مما يخاف على الحديث إذا هو اختلف سياقه وتباعدت أطرافه ، فيصبح عندئذ مهددا بأن تخفى أسباب التشابك بين معانيه ، أو متوعدا بأن تتهتك أو تسقط بعض الروابط الجامعة بين أوصاله فيتفكك أو ينتشر ، أحب أن اختصر لك مجمل حديثى فى نظام واحد ، متدانى الأطراف محذوف الفضول . فهذه القوة المركبة الكامنة فى بناء الإنسان ، والتى سميتها « القدرة على البيان » ، مندمجة اندماجا لا انفصام له فى حلقة مفرغة مكونة منها ومن العقل والنفس والقلب . ولها فى هذه الحلقة عملان متداخلان لا ينفصلان هما : « الإبانة » و « الاستبانة » . و « الإبانة » هى قدرتها على إنشاء « الكلام » وتركيبه ، بليغا كان أو غير بليغ . و « الاستبانة » هى قدرتها على تفلية « الكلام » وجسه والتدسس فى طواياه ، وحين تتلقاه من خارج ، بليغا كان « الكلام » أو غير بليغ . وهذه « الاستبانة » بجملتها هى التى سميتها « التذوق » .

وكلامى ، خفت ، يوشك أن يوهم أن « التذوق » عمل آخر مستقل من أعمال هذه القدرة ، مقصور على استبانة دفائن الكلام الدالة على آثار العواطف والنوازع والطبائع الناشبة فيه ، وعلى التقاط الملامح العالقة التى يمكن بالملاطفة أن تحسر اللثام عن بعض معارف ضمير منشئها وصورته وهيئته ، وخفت أيضا أن

يظن ظان أن هذا عمل آخر هو غير عملها فى استبانة صور المعانى القائمة التى كانت فى نفس منشئها ، والتى هى فى الحقيقة ما نسميه « البلاغة » . وخفت أيضا أن يتوهم متوهم أن أحد العملين ممكن أن يتم بمعزل عن العمل الآخر . ليس كل ذلك صحيحا أو ممكنا ، لأن صاحب « الإبانة » و « الاستبانة » واحد غير قابل للتجزئة ، وهو « القدرة على البيان » ولأن طلب « الاستبانة » لجميع ما تطلبه فى « الكلام » المتلقى من خارج متداخل ممتزج فى حيز واحد هو نفس « الكلام » المتلقى من خارج ، ولأن جميع ذلك حدث واحد متلازم أيضا فى زمن واحد مختطف متلاحق لايمكن تثبيته أو تقسيمه . وإذن ، فهو على التحقيق عمل واحد خاطف لا يتجزأ ، وإنما نحن الذين نتولى الفصل بين شيء منه وشيء بعد تمام العمل الواحد جميعه ، على قدر ما عندنا من الرغبة وتوجيه العناية إلى إبراز شيء منه دون شيء .

وأظنه صار قريبا ممكنا أن نتخطى كلاما كثيرا ونفضى إلى نتيجة موجزة ، هى أن « التذوق » يقع وقوعا واحدا ، فى زمن واحد ، على كل « كلام » ، بليغا كان أو غير بليغ . ثم يفصل عن « الكلام » ومعه خليط « واحد » ممزوج متشابك غير متميز بعضه من بعض . وفى هذا الخليط أهم عنصرين .

العنصر الأول : ما استخرجه « التذوق » من العلائق الباطنة الخفية الناشبة فى أنفس الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعانى . وهذا فى جملته يجعلنا قادرين على أن نستخلص منه ما يحدد بعض الصفات المميزة التى تدل على طبيعة منشيء الكلام ، أى على بعض ما يتميز به من الطبائع والشمائل ، أو ما شئت من هذا الباب .

والعنصر الثانى : ما استخرجه « التذوق » من العلائق الظاهرة بين أنفس الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعانى ، وهذا فى جملته يجعلنا قادرين على أن نستخلص منه ما يحدد بعض الصفات المميزة التى تدل على طبيعة الكلام نفسه ، أى على ما يتميز به من « السذاجة » و « البلاغة » أو ما شئت من هذا الباب .

والإحساس بهذين العنصرين الخليطين إحساس سريع ، خاطف ، ناقد ، لطيف ، دقيق ، دفين ، قائم فى النفس لأول وهلة عند سماع كل كلام أو قراءته ، من العسير علىّ أن أتقصاه هنا أو أعبر عنه تعبيرا واضحا فى كلمات قلائل ، ولكن كل أحد قادر على تبينه بالأناة والتوقف . وبالتأمل والدربة ، فيما أظن . ولكنه على كل حال ، إحساس خفى مكنون مقنع بقناع من الكتمان . يحتاج إلى ما يهتك عنه هذا القناع حتى يسفر ويستبين وينجلى ، ثم يبوح بما عنده .

ولكن ليس أمر « التذوق » ، فى الحقيقة ، محفوفا بمثل هذه القسوة والصرامة التى ألجأتنى إليها طبيعة حديثى عنه ، وطبيعة اللغة التى تجعلنا « اضطرارا » أن نجسد مالا يتجسد . فما من إنسان حى عاقل مدرك ، صغير أو كبير ، جاهل أو عالم ، قَل علمه أو كثر ، إلا و « التذوق » حاضر فى دخيلته حضورا ما ، لأنه « إنسان » قد أودع الله فى بنائه هذه الأعجوبة النفيسة الغالية التى صار بها إنسانا ، وهى « القدرة على البيان » . فهو ، إذن على هذا « التذوق »، لأنه ما من شىء يسمعه أو يبصره أو يحسه أو يذوقه ، أو يتوهمه أيضا ، إلّا وهو محتاج فيه إلى « القدرة على البيان » بعمليها فى « الإبانة » و « الاستبانة » أى « التذوق » ، لأنه غير قادر على إدراك أى معنى أو تصوره ، إلا عن طريق هذه القدرة وأدائها لعمليها أداء ما فالتذوق إذن ، ضرورة لكل حى منا ، منذ يولد إلى أن ينقطع أجله على هذه الأرض .

وهذا الإلف الطويل لقيام « التذوق » فيه وأدائه لعمليه ، منذ يولد إلى أن يكبر ويعقل يؤهله ، بلا وعى منه حاضر فريد واضح الإرادة ، أن يكتسب قدرة على سرعة استخلاص قدر لا بأس به من هذا الخليط الذى امتزج فيه العنصران جميعا ، وعندئذ ، ولأول وهلة ، ينفصل شىء بعد شىء من هذا الخليط وكأنه انفصل من تلقاء نفسه ، ويبرز للمرء واضحا جليا ، ولا يحس البتة أنه بذل فى تبينه جهدا أو تعمد بذله . وهذا هو « التذوق » الساذج الذى لم يتم عن منهج مرسوم أو قصد أو عناية . ولكن يبقى فى الخليط الممزوج من العنصرين بعد ذلك شىء « كثير » ، يحتاج إلى منهج وقصد وعناية أى يحتاج إلى إرادة واضحة ، وإلى تنبه وبصر ،

وإلى حرص على تمييز شىء من شىء ، وإلى عناية متوجهة إلى غرض واحد أو أغراض متنوعة . وهذا غير ممكن أن يتم من تلقاء نفسه على وجه صحيح ، ولا أن يتم كله دفعة واحدة . ويحتاج أيضا إلى ترديد الكلام وترجيعه ، وإلى إعادة النظر فيه مرة بعد مرة بعد مرة ، وإلى التقاط شىء من هذا الخليط ، وإلى فصل بعض من بعض ، وإلى ضم شكل إلى شكل ، وإلى ملاحظة الفروق بين المتشابهين أحيانا ، أو تحديد ضرب من التشابه بين غير المتشابهين ظاهر أحيانا أخرى . وأشياء أخرى كثيرة لا يضبطها إلا المنهج والقصد والعناية .

وهذا الذى وصفت هو « التذوق » بعنصريه « التذوق » الواقع على طبيعة الكلام نفسه ، أى على ما يتميز به من « السذاجة » أو « البلاغة » أو ما شئت من هذا الباب ، والذى كان مبهما كل الإبهام ، فجاء عبد القاهر الجرجانى فألف كتابين : « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » ، ليزيل الإبهام عن لفظ « البلاغة » : أى عن أحد عنصرى « التذوق » ، وهو نفسه « التذوق » الواقع على طبيعة منشىء الكلام ، أى على بعض ما يتميز به من الطبائع والشمائل أو ماشئت من هذا الباب ، وهذا العنصر الثانى هو الذى حاولت جاهدا أن ألتمس لنفسى طريقا إلى إزالة إبهامه ، فإن أنا قد وفقت فيه إلى بعض الصواب ، فبفضل الله وتسديده ، وإن أكُ قد أخطأت الطريق وأسأت ، فأسأل المغفرة واسع المغفرة سبحانه

* * *

من هؤلاء !

الذى يسرى اليوم فى حياتنا الأدبية من السموم الفتاكة شىء « كثير » لا يحاط به ، ومع ذلك فالأطباء والصيادلة قليلون وهم مع قلتهم منصرفون كل الانصراف عن تتبع هذه السموم وعن تحليلها ، وعن تنبيه الناس إلى خطرها وفتكها ، وعن تحذيرهم من هذه الأقراص الجميلة الشكل الذكية الرائحة من خارج ، وباطنها تفوح منه أخبث الروائح . وهى اليوم تباع فى كل مكان ولا يسأل أحد عن مصدرها ، أو عن الجهات التى تخصصت فى صناعتها وتصديرها ، أو عن التكنولوجيا الحديثة التى عبأتها أحسن تعبئة وهيأتها للاستئثار بإقبال الشباب والفتيات فى هذا العالم العربى والإسلامى الذى نعيش فيه ، واتخذت وسائل الإعلام جميعا للإعلان عنها يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة .

لا أدرى من يكون ؟ ولكن هكذا يقول ، عن رواية « أولاد حارتنا » للأستاذ نجيب محفوظ .

وربما تبادر إلى الظن أن كتابة الحوار على الأقل باللغة العامية ، إن لم نقل كتابة الرواية كلها ، كانت تكون أقدر على تحقيق هذا الهدف (أى أن يشد اهتمام القارىء البسيط ويأسره ليتمكن بعد ذلك من إثارة تفكيره ! هكذا يقول) .

ولكن نجيب محفوظ يقصر استخدامه للعامية على الأغنيات والأمثال الشعبية التى يقتبسها ، بالإضافة إلى بضع كلمات ومصطلحات تجرى على الألسنة فى الحياة اليومية ، ولو نقلت إلى اللغة الفصحى لبعدت عن هذه الحياة بعدا كثيرا (فالمائدة تظل طرابيزه ، والأريكة كنبة ، والعربة التى يجرها حصان عربة كارو ... الخ) . وكل ما خلا ذلك مكتوب باللغة الفصحى التى يتردد فيها أحيانا إيقاع قرآنى (مثل التعبير الوارد على صفحة ٣٤٤ : يؤدى الإتاوة صاغرا) أو فى صيغ عتيقة مثل « فوه » بدلا من « فمه » و« فيه » بدلا من « فمه » و« فاك » بدلا

---

* مجلة الثقافة ، السنة السادسة ، العدد ٦٢ ، نوفمبر سنة ١٩٧٨ ، ص ١٤ - ١٦

من « فمك » ص : ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٦، على عكس الصيغ المألوفة التى ترد على سبيل المثال ص ١١٩ ، ٥٠٧ . وقد تعجب أيضا لوجود تعبير عامى مألوف « مافيش فايدة » على هذه الصورة : « ما فيها فائدة » (أى الدنيا) ، ص ٤٤٨ . وربما كأن هنا إشارة إلى تعبير منسوب إلى سعد زغلول (غريبة هذا علم واسع جدا !؟) ولكن النص فى جملته – بصرف النظر عن المواضع القليلة – نص سهل ومقروء . وهذا أمر يتفق مع ما يقصده المؤلف . لقد طالما وجه اللوم إلى نجيب محفوظ بسبب تمسكه بالفصحى ، ولكنه لم يحد عن رأيه أبدا ، ولم يحاول أن يجعل منه مذهبا متزمتا (عيب عليك يانجيب ، لماذا لا تحيد عن رأيك !) . لقد وجد لغة الكتابة التى أمامه هى اللغة الفصحى (عجيبه : شوف إزاى) ، ووجد من طبائع الأمور أن يستعملها فيما يكتب . والواقع أن استعمال العامية يمكن أن يصدم كثيرا من القراء بدلا من أن يؤثر فيهم تأثيرا مباشرا . إذ ليس من المألوف أن تتناول الموضوعات الجادة . أضف إلى هذا دور الفصحى بوصفها وسيلة التفاهم فى العالم العربى كله . ونجيب محفوظ لا يكتب لمواطنيه المصريين وحدهم . وأخيرا فإن اللغة الدارجة تعد فى رأيه علامة « على الجهل ، وهى لن تصلح للاستعمال فى عمل فنى يهدف إلى نشر الروح العلمية » انتهى ، (ونجيب محفوظ مخطىء فى رأيه بلا شك !) (انظر مجلة الثقافة، العدد ٦١ ، من ص ٢٦ – ٣٤) .

وظاهر أن هذا الأعجمى الألمانى شديد الحب لنجيب محفوظ ، وهو أشد حبا للمصريين ، لأنه يريد أن يكون ما يكتبه نجيب عاملا مهما (يشد اهتمام القارىء البسيط ويأسره ، ليتمكن بعد ذلك من إثارة تفكيره !) – لا بل هو أشد حبا للمصريين من سلفه الألمانى العظيم (الذى لا أظن أن أحدا يعرف اسمه فى بلاد ألمانيا اليوم !) وهو : « ولهلم سبيتا » ، الخبير بتكنولوجيا اللغة فى القرن التاسع عشر والذى ألف كتابا يدعو فيه المصريين بالشفقة والرحمة التى فى قلبه ، ليتخذوا العامية لغة للكتابة والتأليف . و« ولهلم سبيتا » هذا فدائى عظيم ، عرض نفسه للمتالف فى سبيل مصر ! ولذلك قال فى مقدمة كتابه :

« وأخيرا سأجازف بالتصريح عن الأمل الذى يراودنى على الدوام طول مدة جمع هذا الكتاب ، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها ، (انظر ، ما أشد حبه لمصر) ، ويمس أمرا هو بالنسبة لها وإلى شعبها يكاد يكون مسألة حياة أو موت (شوف إزاى (فكل من عاش فترة فى بلاد تتكلم العربية ، يعرف إلى أى حد كبير تتأثر كل نواحى النشاط فيها ، بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة) . « راجع كتاب الدكتورة نفوسه زكريا : تاريخ الدعوة إلى العامية وكتابى : أباطيل وأسمار » .

وهذا الألمانى الجديد ، ليس أقل منه مجازفة وفدائية فى سبيل مصر ونجيب محفوظ خاصة وإلا فلماذا جازف هو الآخر ، بعد هلاك سلفه منذ مئة سنة (توفى ولهلم سنة ١٨٨٣ م) ؟ ودعنا من قصة « العامية » فى البلاد العربية ، ولكن المهم الذى ينبغى أن تعلمه ، هو أن هذا الأعجمى الألمانى الفاضل ، مجاهد عظيم ، فإنه من كبار الدعاة فى لغته الألمانية نفسها ، إلى طرح اللغة الألمانية الفصيحة التى كتب بها شعراؤها وعلماؤها وفنانوها وقصّاصوها ، وإلى استبدالها باللغات العامية الألمانية المختلفة ، وإلى إحياء ما مات منها منذ قرون ! هكذا ينبغى أن يكون شأن فدائيته !!

من الغرائب أيضا أن هذا الرجل العظيم شديد التنبه للعيوب الفادحة فى « فصحى نجيب محفوظ » ، فقد وقع على ما لم يقع عليه الأب جاك جومييه ، ولا ساسون سومبخ اليهودى ، ولا شومان ، ولا فاتيكيوتيسى ، وسائر العلماء والمفكرين العظماء الذين درسوا « أولاد حارتنا » دراسة مستفيضة . ونبهنا إلى أنه يتردد فى « فصحى نجيب محفوظ » « إيقاع قرآنى » (مثل التعبير الوارد على صفحة ٣٤٤ : يؤدى الإتاوة صاغرا) . ويعنى بهذا الكشف الجديد (الإيقاع القرآنى لفظا واحدا وهو « صاغرا » ، فوقوع هذا اللفظ وحده فى أى كلام ، يجعل فى الكلام « إيقاعا قرآنيا » ، والدليل على ذلك أن لفظ « الإتاوة » لم يرد فى القرآن البتة ، ولفظ « يؤدى » مع أنه جاء فى بعض الآيات فى ذكر « أداء الأمانة » ، فإنه أيضا لفظ يجرى فى العامية قديمها وحديثها كقولهم « يؤدى له خدمة » أما

« صاغرا » ، فهى وحدها التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] . فبالإحساس الدقيق المتوهج الذى يتمتع به هذا الخبير بتكنولوجيا اللغة العربية فصيحها وعاميها ، وبتكنولوجيا الشعوب العربية والإسلامية : استطاع أن يحس بما لم يحس به أحد ، ولا نجيب محفوظ نفسه ، أن ههنا فى هذه الكلمات الثلاث « إيقاعا قرآنيا » ! مصدره لفظ واحد ! لفظ واحد ! هو « صاغرا ! » (وبالذمة بقى ، ده مش فكر تكنولوجى خفيف الدم !!) .

زلة كبيرة ، كان على نجيب محفوظ أن يحترس كل الاحتراس فى فصحاه . ليطرد من هذه الفصحى كل لفظ جاء فى القرآن ، فإن هذا الخبير بتكنولوجيا اللغة فى القرن العشرين قد أفتاه بأن كل لفظ ورد فى القرآن يوشك أن يجعل فى كلامه « إيقاعا قرآنيا » غير مرغوب فيه . وأنا أحب أن أشارك فى « لوم نجيب محفوظ بسبب تمسكه بالفصحى » ، وخاصة بعد أن قامت فى مصر منذ قديم جهة ذات اختصاص فى هذا الأمر ، وهى تبذل اليوم جهودا عظيمة فى سبيل تنقية (اللغة العربية المعاصرة) من مثل هذه الألفاظ ، ويتولى العمل فى هذه السبيل أساتذة جلودهم عربية ، وبين أشداقهم ألسنة عربية ، وهم يتأهبون لإصدار معجم تكنولوجى يتضمن (اللغة العربية المعاصرة) ، بعد طرد مثل هذه الألفاظ من لغة الكتابة والحديث . كان على نجيب محفوظ أن يستشير هذه الجهة قبل أن يقدم على استعمال ألفاظ فى كتابته ، تشينها شينا عظيما عند الخبراء التكنولوجيين المحدثين . والأستاذ نجيب قادر على الوصول إلى تلك الجهة المختصة ، فإنها جامعة مشهورة معروفة [١] ، تتدفق عليها الأموال والصدقات من كل المحبين للعرب وللغة العرب ، وللإسلام ، من جميع أقطار العالم غير العربى وغير

---

(١) يعنى الأستاذ شاكر الجامعة الأمريكية بالقاهرة . واسم المعجم الذى أصدرته هو : معجم اللغة العربية المصرية ، من تأليف الدكتور سعيد بدوى والدكتور مارتن هاينز .

الإسلامى . هناك سيجد نجيب من يرشده أيضا إلى « الصيغ العتيقة » التى ينبغى أن يصون نفسه عن خبائثها ، مثل : « فوه وفاه ، وفيه » ، فإن إخلاء كتابته من هذه الخبائث كفيل بأن يطفىء ظمأ الظامئين ، وأن يحقق أمانى المتمنين ، الذين يتطلعون تطلعا إلى « ترجمة هذه الرواية إلى اللغات الأوروبية » ! هذا واجب عليه حتى لا يتكرر مرة أخرى ماحدث لألبرتو مورافيا ، حيث بقى هذا العمر الطويل ، وهو لا يعرف كاتبا عربيا واحدا ، لأنه لم يُتَرْجَم من أعمال هؤلاء الكتاب شىء إلى اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو الإيطالية ، أو كما قال مورافيا ! .

ملاحظة : ألبرتو مورافيا كاذب ، لأننا نعرف كاتبا عربيا مشهورا على الأقل ، ترجمت آثار حضرته إلى الفرنسية والإنجليزية والروسية [١] .. إلخ ، ولما ظهرت هذه الكتب أحدثت فى عالم هذه اللغات ضجة تسامع بها كل حى ينتسب إلى هذه اللغات . وبترجمة آثار حضرته دخل أدب الأمة العربية فى آداب « اللغات الحية » دخولا لا شك فيه !! مورافيا كاذب ، أو أصم لا يسمع ، أو أعمى لا يقرأ .

أما سائر المقالة (الثقافة ، العدد : ٦١) ، ففى أسطرها روائح كثيرة تفوح ، روائح من صنف آخر ، روائح لم أزل أشمها تفوح من تحت الثياب ، منذ عرفت فى شبابى عن قرب كبار هؤلاء الخبراء التكنولوجيين ، منذ عهد المبشر البروتستانتى زويمر القس ، إلى ويلككس ، إلى أن تمصرت هذه الروائح فى ثياب كثيرة ذكرتها فى كتابى « أباطيل وأسمار » . أما الآن فقد فشت هذه الثياب فشوا واسعا ، وتجنست بجنسيات عربية وإسلامية كثيرة ، وفيها الغَناء ، إن شاء الله ، عن جميع هؤلاء الغرباء الخبراء بتكنولوجيا اللغة العربية فصيحها وعاميها ، وبتكنولوجيا العالم العربى والعالم الإسلامى . ومع ذلك ، فأنا أرى أن على نجيب محفوظ منذ الآن ، أن يحيد عن رأيه فى التمسك بالفصحى ، وأن يدخل فى عصر التكنولوجيا اللغوية الحديثة ، وإلا فاته الركب ، وبقى بقاء سرمدا مع

---

(١) هذا الكاتب هو الأستاذ توفيق الحكيم رحمه الله .

مخلفات القرون البائدة . هل تقبل ، يا أخى أن تكون عاجزا كل هذا العجز ، حتى يقول لك الخبير الذى تجب عليك طاعته : « **لقد وجد لغة الكتابة التى أمامه هى اللغة الفصحى** ، ووجد من طبائع الأشياء أن يستعملها فيما يكتب » ، وجدت ، فانسقت انسياقا ! أهكذا يكون موقف الأساتذة الكبار مثلك ! عار عليك باق ، فاغسل عنك هذا العار .

ولكن بينى وبينك يا أخى نجيب ، المسألة كلها جاءتك وجاءتنا فى ثياب الجد الركين ، إلا أن اللغة العامية لا تعرف لهذه الثياب اسما إلا اسما واحدا هو : « تهميش » ! وأظنه لفظا لا يغيب عنك مهما اشتد تمسكك بالفصحى ، وإعراضك عن العامية . (كده ولّا أنا غلطان ! وشوف إزاى أنا باستعمل العامية) ، لكى أدخل فى عصر التكنولوجيا الحديثة ! أليس هذا موقفًا حضاريا !!

* * *

قضية اللغة العربية
جزء صغير من الحقيقة المفزعة

*** اللغة لست عِلمًا .. بل هى شىء فوق العلم**
*** لغتنا فى خطر داهم .. ونحن أيضًا**

دعت كلية الآداب بجامعة الإسكندرية إلى عقد مؤتمر للغة العربية ، تم عقده فى ٣٠ صفر إلى ٤ ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ « ٢٦ - ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٨١م » . اشترك فى هذا المؤتمر نحو من ستين عضوا ، يمثلون تسع عشرة كلية ، تنتمى إلى عشر جامعات مصرية ، وسبع جامعات عربية من السودان والسعُودية ولبنان ، ومعهم غيرهم من أساتذة العربية فى مصر وغيرها من البلاد العربية . وكان مقرر المؤتمر الدكتور محمد مصطفى هدارة ، وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث .

عدد ضخم ، ولولا ما نحن فيه اليوم ، لتضاعف العدد تضاعفا يذهل ويخيف !

تناول المؤتمر قضية ضعف العربية على ألسنة أبنائها ، من أول نشأة الطفل فى بيت أمه وأبيه ، ثم فى المرحلتين الإبتدائية والثانوية ، إلى أن ينتهى من دراسته الجامعية شابا ، أو رجلا على الأصح ، فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، ثم يلتحق بهيئة التدريس الجامعية ، أو غيرها من الهيئات والأعمال .

قدم أساتذة المؤتمر أربعة وأربعين بحثا .. درست فى المؤتمر العام ، ثم فى لجانه الخمس المتخصصة ، وتخللتها مناقشات طويلة كثيرة دارت بين أعضاء المؤتمر نفسه .

منذ أول يوم فى المؤتمر ، كانت الصورة قاتمة جدًّا ، ومفزعة جدًّا ، وظلت كذلك حتى صدرت توصياته تحمل نذير الخطر ، وتتلمس فى الظلام الدامس سبيلا إلى النجاة منه . ويكفى أن تلم بمجمل الوصايا الخمس ، بأبوابها الثمانية

---

* مجلة الهلال ، عدد مايو ، سنة ١٩٨٢ ، ص ٢٤ - ٣١ .

والأربعين ، حتى تدرك فداحة الخطر الذى يهدد العربية ، وأبناء هذا اللسان العربى :

فالأولى ، تتعلق بمرحلة التعليم قبل الجامعى ، وفيها سبعة أبواب .

والثانية ، تتعلق بالمناهج وطرق التدريس فى الجامعة ، وهى أحد عشر بابا .

والثالثة ، تتعلق بتكوين الطالب الجامعى ، وهى سبعة أبواب .

والرابعة ، تتعلق بتكوين المدرس الجامعى المتخصص ، وهى ثلاثة أبواب .

والخامسة ، وهى أخطرهن ، تتضمن وصايا جامعة شاملة لكل ما فى حياتنا ، وهى عشرون بابا .

* * *

إحساس غامض مبهم ممزق ، ولكنه عميق مزلزل ، أستشفه من وراء هذا المؤتمر ، ومن تحت أكثر ما أقرؤه أحيانا فى الصحف والمجلات والكتب ، وما أسمعه فى الإذاعات والمجالس . إحساس يرتجف ذعرا بما أصاب العربية اليوم على ألسنة أبنائها من الضعف والخلل والتفكك .

« العربية فى خطر داهم » ، حقيقة واقعة .. نعم . ولكنها جزء يسير من الحقيقة المفزعة الكبرى . لأن الخطر الذى يحيط بالعربية ، لا يحيط بها منفصلة عن أصحابها ، أصحاب اللسان العربى نفسه وراثة وإنتماء ، ثم هو لا يحيط بأصحاب اللسان العربى ، منفصلا عن حاضرهم ، ولا عن مستقبلهم فى هذه الدنيا الواسعة المتصارعة ، ولا عن تاريخهم العريق الغائر فى أغمض الآباد المتقادمة على طول القرون ولا عن حضاراتهم الغابرة والباقية التى بسطوها على أوسع رقعة من الأرض ، من أقصى المغرب غربا ، إلى جوف الصين شرقا ، ومن قلب أوروبا شمالا إلى أطراف القارتين الإفريقية والآسيوية جنوبا ، واستقرت فيها عشرات من القرون ، تضىء ثم تكمن ثم تضىء .

« العربية فى خطر داهم » . جزء يسير من الحقيقة المفزعة الكبرى ، ولكنه الجزء المهدد الذى ينهار البناء كله بانهياره ، فإذا انهار ، أصبح الحاضر كله ، والمستقبل كله ، ركاما وأطلالاً وملاعب يستبيحها من يشاء بما يشاء كما يشاء .

ومع أن هذا هو ماتجده مستكنا فى صريح الدعوة إلى هذا المؤتمر وفى وصاياه ، فإنه انعقد أياما ثم انفض ، وتلقته بعض أجهزة الإعلام خبرا ضئيلا ينشر ثم يطوى ، وكأنه كان لغواً لا يحرك ساكنًا ، ولا يثير أحدا ، ولا ينذر بخطر ، ولا يستحق أن ينال أسطرا قلائل من الآلاف المؤلفة من الأسطر التى تحوزها مشاكل الاقتصاد والإسكان والمرور ، أو كرة القدم على الأقل . وهذا وحده نذير بشرّ لا يعلم إلّا الله مداه .

أمر محزن أن تبلغ الاستهانة بشأن اللغة هذا المبلغ . موقف لا مثيل له فى تاريخ أمم العالم ، لأنه يخالف طبيعة الإنسان الذى ميزه الله من سائر خلقه باللغة والبيان ، فى قصة طويلة معقدة ، منذ دب على الأرض أبونا آدم عليه السلام .. وتكاثر أبناؤه حتى عمروا وجه الأرض ، واختلفت ألسنتهم وألوانهم ، وصاروا شعوبا وقبائل وأُممًا تتعارف وتتناكر على مر آلاف مؤلفة من السنين .

ضعف فى اللغة يستشرى جيلا بعد جيل ، واستهانة بما يصيب اللغة تتفاقم جيلا بعد جيل . موقف فريد مناقض للطبيعة ، تقفه أمة العرب ومن ينتمون إليهم بالدين الواحد والحضارة الواحدة ، أو باللسان الواحد والحضارة الواحدة وإن خالفوهم فى الدين .

كيف تم هذا كله ؟ لابد من تفسير لما حدث كيف حدث ، وإلّا فلا علاج لعلة لا يعرف الطبيب أسبابها ولا نشأتها ولا تاريخها ، وكفى بالطبيب جهلًا أن يعالج أعراض الداء ، والداء فى مكمنه حى طليق مسيطر مستبد .

فى زمان الغفلة

منذ أربعة قرون ماضية ، كان العالم العربى والإسلامى أرضا واحدة ، تحيى حضارة واحدة ، تمدها ثقافة واحدة ، من أقصى المغرب إلى حدود الصين ، ومن أطراف تركية دار الخلافة إلى أغوار أفريقية وآسية . أمة واحدة وارثة لأسلافها ، ولكن الورثة كانوا فى غفلة ، استناموا إلى ميراثهم الجليل الضخم ، فهمدوا همود الجمرة تحت الرماد .

وفى زمان غفلتهم واستنامتهم ، دبت الحياة دبيبها فى ناحية أخرى على

أطراف دولتهم . حركة حياة لم يلقوا إليها بالا فى أول الأمر ، مع أن الله تعالى كان قد أنذرهم قبل ذلك بقليل ، فسلَّط الهمج البرابرة على طرف من أطراف دولتهم فى أرض الأندلس ، بعد أن عمروها ثمانية قرون « ٩٣ - ٨٩٧ هـ / ٧١٢ - ١٤٩٢ م » فأبادوا ملكهم ، واستباحوا حضارتهم ، ونهبوا مافى أيديهم من ثروة وعلم وبشر ، ودمروا أكثر ما شيدوه من بنيان . عظة وعبرة ، لم تجد مستمعا ولا مستجيبا .

والآن ، وهم فى غفلة واستنامة ، كان قدر الله سبحانه يعد لهم بعد المغل « المغول » والتتر الذين انصبوا عليهم من الشمال الشرقى . مغل العصور الحديثة وترها من الشمال الغربى ليرسلهم عليهم .. لن يكونوا مغلا جهلة كأهل الشمال الشرقى ، بل مغلا مدربين قد استفاقوا من جهالة ظلوا غارقين فى مستنقعها اثنى عشر قرنا ، « هى القرون الوسطى ، كما يسمونها » . بعد أن أيقظتهم حضارة العالم العربى والإسلامى ، وأمدتهم بما يحييهم . وبعد أن وضع لهم نيكولو مكيافيلى « ٨٧٤ - ٩٣٣ هـ / ١٤٦٩ - ١٥٢٧ م » دستورهم الأخلاقى السياسى . الذى لا تزال تسرى شروره فى شرايين الحضارة الأوروبية الحديثة إلى هذا اليوم .

بدأ زحف المغل « المغول » المحدثين على دولة الخلافة الإسلامية بحذر شديد ، وبدأ تطويق العالم العربى الإسلامى من سواحل البحار البعيدة فى أفريقية وآسية والهند وجزيرة العرب . ثم بدأ التغلغل فى حواشى الأرض اليابسة من أطراف العالم الإسلامى . ومرت السنون ، وشيئا فشيئا نفذت سطوة المغل المحدثين فى كيان دولة الخلافة ، وبدأت دولة الخلافة تفقد سلطانها على نفسها ، وأحس العالم الإسلامى بالنكبة إحساس التوجس المبهم ، وخامر الآذان دوى خفى ينبعث من تقوض أركان دولة الخلافة . وخالط الفزع الغفوة ، وبدأ التحدى الأكبر واضحا فى ناحية ، مبهما فى الناحية الأخرى .

لن أقص تفاصيل تاريخ غريب مخيف ، ولكنى أشير إلى جزء يسير من حركة أمة فزعت من خطر ، فأخذت تمسح النوم عن عيونها بأيد فيها فتور النعاس

الغالب . حاولت أن تهب من رقدتها ، لتنفض عن نفسها غبار القرون ، فماذا فعلت ؟ ولم أخفقت ؟

كان لدوى الأركان المتقوضة فى مركز دولة الخلافة ، ذبذبة تغلغلت فى قلب العالم العربى الإسلامى حتى بلغت أطرافه البعيدة . وبالتوجس المحض من الخطر المرهوب المحجوب ، بدأت أمة كاملة مترامية الأطراف تحاول أن تواجه تحديا عن عدو مبهم ، بدأ يقوض أركان دولتها . وبرد الفعل الفطرى ، تحركت طائفة قليلة مبعثرة فى أرجاء عالم متراحب . تحركت تدافع عن بقائها بلا تدبير سابق ، ولا هدف واضح ، وما هو إلا التوجس الغامض من شر خطر داهم مستطير، ولكنه محجوب لا يعرف ماهو على التحقيق .

كان أول ما انبعث هؤلاء الأفراد القلائل بفطرتهم للدفاع عنه هو اللغة والدين، وهما أساس ثقافة الأمة ، ثم سائر العلوم التى هى أصول الحضارة التى ورثتها ، وعاشت بها وفيها قرونا طويلة . كان الطريق الذى هدتهم إليه الفطرة ، هو بعث الأصول التى قامت عليها الثقافة والحضارة ، بالرجوع إلى منابعها الصافية الأولى ، بعد أن غمرها النسيان والغفلة بأتربة سفت عليها قرونا حتى طمرتها ، وسلبتها بريقها ونضرتها .

لا أستطيع هنا أن أسرد كل ماحدث عند هذا التوجس فى كل ناحية من نواحى هذا العالم الضخم المتراحب ، ولذلك رأيت أن أختار خمسة رجال عظام لا أكثر ، أحسوا بذبذبة النكبة ، فانتفضوا لها ، وكان لهم فى بقعة من قلب العالم العربى الإسلامى طريق واضح فى البعث والإحياء ، دلت عليه كتبهم وأعمالهم دلالة واضحة . لن أستوعب تاريخهم أو آثار كتبهم وأعمالهم ، وإنما هى الإشارة والتنبيه لا غير ، إلى هذا الإحساس الغامض بالنكبة ، وطريقهم الذى سلكوه لدفعها عن بلادهم وأمتهم ، بلا تبين واضح للعدو أو للهدف .

هؤلاء الخمسة

قبل كل شيء ، ينبغى أن نعلم أن حياة هذا العالم العربى الإسلامى ، كانت تسير على نمط مألوف معروف ، لا يكاد يستنكره أحد : فى العقيدة العامة التى

تسود الناس ، وفى الدراسة فى جميع معاهد العلم العريقة ، وفى التأليف والكتابة ، وفى حياة الناس التى تعيش بها عامتهم وخاصتهم من تجارة وصناعة . كل ذلك كان نمطًا مألوفًا متوارثًا ، فجاء هؤلاء الخمسة [١] ، ليحدثوا يومئذ ما لم يكن مألوفًا ، وشقوا طريقًا غير طريق الإلف . وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل ، ولكنى سأشير إليه فى خلال ذكرهم إشارة تعين على تصور موضع الخلاف .

١ - « البغدادى » ، ولد عبد القادر بن عمر البغدادى ببغداد « ١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ - ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م » . وفى الثامنة عشرة من عمره ، « سنة ١٠٤٨هـ » خرج فى إتمام طلب العلم ، فرحل إلى الشام ، ثم فارقها بعد سنتين « سنة ١٠٥٠ هـ » قاصدا مصر . فلقى بها العلماء وتلقى عنهم وصحبهم ، واتسع اطلاعه على ذخائر الكتب القديمة التى لم يكن يعنى بها علماء زمانه ، وفى سنة ١٠٨٠ هـ ، رحل إلى دار الخلافة بالقسطنطينية ، لما فيها من ذخائر الكتب العربية التى حازتها ، ولقى بها عالما جليلا ، حاز مكتبة عربية من أجل المكاتب ، وهو الوزير الأعظم أبو العباس أحمد بن أبى عبد الله محمد ، المعروف بكوبرلى ، ولا تزال مكتبته باقية بها إلى يومنا هذا ، فأقام مع صاحبه سبع سنوات إلى أن عاد إلى مصر سنة ١٠٩٢ هـ ثم وافاه أجله فى أوائل سنة ١٠٩٣ هـ .

كان طريق البغدادى واضحا . لم يكن فى أيدى طلبة العلم سوى ما ألفوه من كتب الفقه والنحو والبلاغة وحواشيها ، فأداه اطلاعه إلى معرفة الضعف الغالب على أهل زمانه ، وهجرهم شعر الشعراء الفحول وأخبارهم وتاريخهم . فعمد إلى مافى كتب النحو التى يعرفونها من شواهد الشعر العربى القديم ، جاهليه وإسلاميه ، فألف ثلاثة كتب تدور كلها على شرح شواهد الشعر ، وضمنها روائع الشعر ، وأخبار الشعراء ، ونوادر التاريخ . فكان ذلك مقدمة لبعث التراث الأدبى وإحيائه ، ووضعه بين أيدى الناس .. تتبين ذلك واضحا فى كتبه الثلاثة : « خزانة الأدب ، ولُب لُباب لسان العرب » .. وهو شرح شواهد الكافية للرضى فى النحو ،

---

(١) تحدث الأستاذ شاكر عنهم أيضا فى « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » .

عدة مجلدات ، وشرح شواهد الشافية للرضى أيضا ، وهو مجلد واحد ، وشرح أبيات مغنى اللبيب لابن هشام ، فى عدة مجلدات [(١)] .

* * *

٢ - « المرتضى الزبيدى » ولد محمد بن عبد الرزاق الحسينى ببلدة بلجرام بالهند « ١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م » درس العربية وسائر العلوم على علماء الهند . ثم رحل إلى الحجاز « سنة ١١٦٣ - ١١٦٦ ، ثم فارقها إلى مصر ولقى مَنْ بها مِنَ العلماء ، ونفض مافى مكتباتها من الكتب العتيقة ، وبقى بها إلى أن توفى - من سنة ١١٦٧ ، إلى سنة ١٢٠٥ هـ . ولم يكن طلبة العلم يعرفون من كتب اللغة إلا قليلا . كالمصباح المنير .. ومختار الصحاح ، ثم القاموس المحيط للفيروزبادى على قلة ، وكان الزبيدى محيطا بعلوم كثيرة ، فكثر عليه طلبة العلم ، وأدرك ضعف ما بأيديهم من كتب اللغة ، فأراد أن يضع تحت أيديهم كتابا جامعا فى اللغة فألف معجمه الكبير « تاج العروس » ، وهو شرح لقاموس الفيروزبادى جمع فيه ماتفرق فى الكتب ، وأشار فيه إلى كثير من دواوين الشعر المحفوظة فى المكاتب . وألف لهم أيضا شرحا على كتاب متداول هو كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالى ، فذاع صيته ، وطارت شهرته فى الآفاق ، ووفدت عليه الوفود من بلاد الإسلام كلها ، وكاتبه العلماء والملوك من الترك والحجاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب والجزائر والسودان . فكان تأليفه وكانت دروسه بعثا للتراث اللغوى والدينى وإحياء لما خفى منه على الناس .

* * *

٣ - «ابن عبد الوهاب» ولد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى النجدى «١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م» ببلدة العيينة بنجد ، ورحل إلى الحجاز والشام والبصرة ، وفتح عينيه على مايعم نجدا والبلاد التى زارها من البدع التى حدثت ، وما غمر العامة والخاصة من الأعمال والعقائد الحادثة ، والتى

---

(١) وأضيف إلى ذلك : حاشية على شرح « بانت سعاد » فى ثلاثة مجلدات .

تخالف ماكان عليه سلف الأمة من صفاء عقيدة التوحيد ، وهى ركن الإسلام الأكبر فلما عاد إلى نجد ، لم يقنع بتأليف الكتب . ورأى أن خير الطرق هو أن يتجه إلى عامة الناس فى نجد ، ليردهم عن البدع المستحدثة ، ويسلك بهم طريق السلف فى العمل والعقيدة ، ولم يزل دائبا فى دعوته ، يدعو ويعلم ويكتب ، حتى استجاب لدعوته أمير بلدة الدرعية بنجد ، الأمير محمد بن سعود فى سنة ١١٧٥هـ . فمن يومئذ صارت دعوته قوة متحركة فاتحة فى قلب جزيرة العرب ، وأحدث ظهور هذه القوة رجة شديدة الدوى فى جنبات العالم العربى والإسلامى ، وتلفت الناس يمينا وشمالا ، فى الهند ومصر والعراق والشام وتركيا والمغرب والسودان . ولشدة وقع هذا الدوى وعنفه ، انقسم الناس فى أمره بين مؤيد له لصواب ما أتى به ، ومعارض له لمناقضته الإلف الذى ألفوه .. وكاد العالم الإسلامى كله يتحرك ويندمج بعضه فى بعض بكل تراثه الضخم ، وبكل مواريث حضارته العظيمة ، ولكن كان قدر الله أغلب ، وحصرت اليقظة الإسلامية كلها بلا معين ، بين أركان الجزيرة العربية الفقيرة يومئذ ، وسدت المنافذ ، ومزقت الأوصال ، وصار الاندماج حلما من الأحلام ، يراود الأمة العربية الإسلامية إلى يوم الناس هذا .

ذلك ، لأن مغل « مغول » العصر الحديث وتتره كانوا أكثر يقظة ، وأوضح هدفا ، وأسرع حركة ، وأغنى غنى ، وأقدر على النهب والسلب والفتك والتدمير ، وفى أيديهم دستور حضارتهم الذى وضعه الخبيث مكيافيلى ينير لهم طريق العمل .

* * *

٤ - « الشوكانى » ، ولد محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ببلدة شوكان ، من بلاد خولان باليمن ، ونشأ بصنعاء ، مقر حكم المذهب الزيدى ، وهم ينتسبون إلى « زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه » .. وهم يعدّون من فرق الشيعة . تفقه الشوكانى على مذهب الإمام زيد ، وبرع فى علمه حتى آل إليه القضاء والإفتاء ولكنه عندئذ خلع ربقة التقليد ، وانتصب للاجتهاد ، فزيف ما لا يقوم عليه دليل من الكتاب والسنة ، فثار

عليه جماعة من المقلدين فى ديار الشيعة ، فجادلهم وصاولهم ، والتزم بعقيدة السلف ، وحرم التقليد ، وذهب فى بيانه مذهب الحافظ ابن عبد البر حيث قال : « التقليد غير الاتباع ، لأن الاتباع هو أن تتبع قول القائل على ما بان لك من فضل قوله وصحة مذهبه . والتقليد أن تقول بقوله وأنت لا تعرفه ولا تعرف وجه القول ولا معناه ، وتأبى مَن سواه وإن تبين لك خطؤه فتتبعه مهابة خلافه ، وأنت قد بان لك فساد قوله . فهذا يحرم القول به فى دين الله .

فكان قيام الشوكانى ، فى محيط الشيعة الزَّيدية ، صبحا جديدًا يوشك أن يهز قواعد التعصب الذى درج عليه أصحاب المذاهب من أهل السنة ، فضلا عن أتباع الفرق المختلفة وعلى رأسها الفرقة الغالية من الشيعة المعروفة باسم « الاثنا عشرية » المكفرة للصحابة وللأمة كلها ، باختيارها أبا بكر ثم عمر ، ثم عثمان رضى الله عنهم ، دون على بن أبى طالب رضى الله عنه .

أوجزت القول فى هؤلاء الأربعة العظام ، لأن استجابتهم للتحدى المبهم كانت مقيدة فى كتب خلفوها ، أو أعمال كان لها دوى لا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، ولأن بشائر البعث والإحياء فى كتبهم وأعمالهم أظهر من أن تخفى على أحد ، ولا يكاد يجادل فيها إلا من وقع فى شرك الرفض لماضيه كله ، أو من يغمض عينيه ويعمد إلى الاستخفاف بها بلا تدبر ، بل بالتهور واللجاجة . وإذا كنا بالأمس منذ قرون قلائل ، صرعى غفلة وفى وَسَنٍ غالب ، وعلى الأبواب عدو مدرب ، كان أكثر يقظة ، وأسرع حركة ، وأغنى غنى ، وأقدر على السلب والنهب والتدمير والفتك كما وصفت ، فنحن اليوم أيضا صرعى غفلة أبشع من غفلتنا الأولى ، لا نكاد نحس كما أحس أسلافنا ، والعدو لا على الأبواب ، بل هو متغلغل منتشر يسرح فى صميم هذا العالم العربى الإسلامى المترامى الأطراف ، وقد تفوق على أسلافه تفوقا لا يكاد يصدق ، فى اليقظة المفترسة ، وفى وضوح الهدف ، وفى سرعة الحركة ، وفى الغنى الباذخ ، وهو أقدر قدرة ضارية على النهب والسلب والتدمير والفتك ، ولا يزال بين يديه ، بل ملء قلبه وعقله دستور

مكيافيلى ، وقد اتسع وتطوربه ونما واستفحل خبثه ، وتوحشت ضراوته ، وتشعب شره تشعبا لا يكاد يصدق .

لذلك وجدت أن الرجل الخامس الذى اخترت أن أذكره فى الخمسة العظام ، يحتاج خبره إلى تفصيل لم أحتج لمثله وأنا أكتب عن أصحابه الأربعة العظام ، فقد جاءوا جميعا يومئذ ليُحْدِثوا شيئا لم يكن مألوفا ، ولكى يشقوا بأنفسهم طريقا غير طريق الإلف ، ولكنه انفرد عنهم بأن طريقه فى عمله كان أخفى من طريقهم ، ولأن تقييد عمله بالكتابة كان أشق ، ولأن عمله كان تحت بصر العدو وسمعه لم يغفل عنه طرفة عين ، فلما انقضّ علينا وظفر بنا ، سار بنا مسارًا يزيد عمله علينا خفاء ، بل يفضى إلى ماهو أعظم من الخفاء ، أى إلى الطمس الكامل لجميع السبل المؤدية إلى استبانة ماكان من عمله ، كيف كان ؛ وستأتى القصة كلها واضحة إن شاء الله .

* * *

الفقيه الجليل
ورموز التكنولوجيا

تحدث الأستاذ محمود محمد شاكر فى العدد الماضى من « الهلال » عن « قضية اللغة العربية » وأربعة من كبار العلماء والأدباء والمفكرين الإسلاميين ، كان لهم شأن عظيم فى بعثها وإحيائها وحمايتها من أعدائها الغزاة ..

ويكمل الأستاذ شاكر حديثه الشائق ، بهذه الصفحات عن « الجبرتى الكبير » والد المؤرخ الجبرتى ..

ويرى الأستاذ شاكر أن للجبرتى الكبير شأنًا عظيمًا فى العلم والأدب ، وأنه أحد الورثة العظام لحضارة الأمة العربية ، وتراثها العلمى والأدبى .

* * *

« الجبرتى الكبير »[1] : ولد حسن بن إبراهيم بن حسن بن على الجبرتى العقيلى بالقاهرة « ١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م » ، وأصله من بلاد الجبرت ، من بلاد الزيلع فى أرض الحبشة . جاء جده الأعلى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى إلى مصر ، فى أوائل القرن العاشر الهجرى « سنة ٩٠٠ هـ ، وما بعدها بقليل » ، فاستوطن مصر ، وصار شيخ رواق الجبرت بالأزهر ، وتولى مشيخة الرواق أولاده وحفدته من العلماء من بعده وانتهت المشيخة إلى الشيخ العلامة إبراهيم بن حسن الجبرتى ، فتوفى سنة ١١١٠ هـ بعد شهر واحد من مولد ولده حسن » .

كفلت حَسنا جَدته أم أبيه ، وكانت موفورة الحظ من الغنى ، وكان الوصى عليه رجل من ذوى الدين والمهابة ، هو الإمام العلامة الشيخ محمد النشرتى . فما أتم حسن العاشرة من عمره ، حتى حفظ القرآن وجَوَّده ، ودخل كآبائه فى عداد طلبة العلم بالأزهر ، فقرأ على أئمة عصره الكبار من العلماء والشيوخ ، فأتقن علوم

---

* مجلة الهلال ، عدد يونيو ، سنة ١٩٨٢ ، ص ٥٠ - ٥٥ . وهذه الفقرة الأولى من تقديم المجلة .

(١) وتحدث عنه أيضا فى « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » .

العربية والدين ، حتى برع فى جميع علوم المعقول والمنقول ، وفاق أقرانه ، حتى زاحم شيوخ عصره فباحثهم وجادلهم ، وصار معدودا فى شيوخ الأزهر وعلمائه المتقنين .

كان مما درسه وأجاده من العلوم المألوفة فى الأزهر يومئذ علم الجبر والمقابلة والأعداد الصم والمساحة والحساب . ثم علت به همته فتعلم تجويد الخط بجميع أشكاله وصوره ، ثم زاد فتعلم النقش على الفصوص والخواتم على أستاذ كبير من أساتذة عصره ، ثم زاد أيضًا فتعلّم التركية والفارسية ، وقرأ بهما واقتنى الكتب المكتوبة بهما ، وكانت غير متداولة ، وفيها التصاوير البديعة الصنعة الغريبة الشكل كما سيأتى ...

وجاءت سنة ١١٤٤ هـ ، وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان قد صار معدودا فى كبار علماء الفقه والعربية وعلم الكلام وسائر العلوم المألوفة فى عصره ، فحدث تحول غريب جدا ، غير مألوف فى حياة أمثاله من الشيوخ يومئذ . وإن لم يفارق طريقه فى الفقه والإفتاء وإقراء العلوم المألوفة لعلماء عصره إلى آخر حياته .

شيء غريب غريب !! فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وبلا سبب ظاهر ، بدأ هذا العالم الفقيه الجليل يولى وجهه شطر الرياضيات ، فكان فى زمانه رجل معروف بمدارستها هو الشيخ محمد النجاحى .. فاتجه إليه ولازمه وقرأ عليه ماكان يحسنه من كتب بعينها ، وهى كتاب الرقائق للسبط المارديني ، وكتاب المجيب والمقنطر ونتيجة اللاذقى ، وكتاب الرضوانية وكتاب الدر لابن المجدى ، ومنحرفات السبط المارديني ، و« إلى هنا انتهت معرفة الشيخ النجاحى » ، كما يقول ابنه الجبرتى المؤرخ .

ولا شك فى أن الشيخ حسن لم يكد يفرغ من تحصيل ماعند النجاحى ، حتى استقل بأمر نفسه ، وأقبل على ذخائر الكتب المحفوظة فى مكاتب القاهرة العامرة يومئذ بالكتب ، ووقف على أصول كتب الرياضيات وسائر الصناعات بهمة لاتفتر ، كما يدل عليه ما سيؤول إليه أمره ، ولكن ابنه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ، لم يحدثنا عن ذلك حديثا شافيا ، لأنه كان يومئذ نطفه فى صلب أبيه ،

فقد ولد بعد ذلك بسنين فى سنة ١١٦٨ ، أى بعد أربع وعشرين سنة . ولكنه قال ما يشعر بذلك وسأسوقه بلفظه :

« وإلى هنا انتهت معرفة الشيخ النجاحى .. وعند ذلك انفتح له الباب ، وانكشف عنه الحجاب ، وعرف السمت والارتفاع ، والتقاسيم والأرباع ، والميل الثانى والأول .. والأصل الحقيقى والمعدل ، وخالط أرباب المعارف ، وكل من كان من بحر الفن غارف .. وحل الرموز ، وفتح الكنوز ، واستخرج نتائج الذر اليتيم ، والتعديل والتقويم . وحقق أشكال الوسائط ، فى المنحرفات والبسائط ، والزيج والمحلولات ، وحركات التداوير والنطاقات ، والتسهيل والتقريب .. والحل والتركيب ، والسهام والظلال ، ودقائق الأعمال ، وانتهت إليه الرياسة فى الصناعة ، وأذعن له أهل المعرفة بالطاعة ، وسلم له عطارد ، وجيمشيد الراصد ، وناظره المشترى ، وشهد له الطوسى والأبهرى « وهما من أئمة علوم الرياضيات القدماء » ، وتبوأ من ذلك العلم مكانا عليا ، وزاحم بمنكبه العيوق والثريا » .

ولاتشغلك الآن هذه الألفاظ الغريبة عنك ، فكلها من المصطلحات القديمة المتوارثة فى علوم الرياضيات والفلك ورفع الأثقال والكيمياء ، وسائر هذه العلوم ، التى هجرها أهلها ، ولكنها شغلت دوائر العلم فى ديار عدوهم قديما وحديثا والى هذه الساعة . والأمر على كل حال ظاهر لا خفاء به .

ظل الشيخ حسن فيما بعد سنة ١١٤٤ دائبا لا يفتر فى كشف اللثام عن علوم مستكنة فى بطون الأوراق والكتب ، فبعد قليل قدم إلى مصر عالم متضلع من العلوم الرياضية والمعارف الحكمية والفلسفية ، « كما يقول ابنه المؤرخ » ، هو الشيخ حسام الدين الهندى ، فنزل بمسجد مصر القديمة « مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنه » ، واجتمع عليه بعض طلبة العلم ، فترامى خبره إلى الشيخ حسن فى القاهرة ، فذهب إليه للأخذ عنه : « فاغتبط به الشيخ وأحبه ، وأقبل عليه بكليته » . وذلك بلاشك لما وجد عنده من الفهم بعلوم قل أهلها ، وبعد عهدهم بها . فلم يزل به الشيخ حسن حتى نقله إلى داره بالقاهرة وأفرد له مكانا ، وأكرمه ورفهه ، ثم قرأ عليه أمهات الكتب القديمة فى الرياضيات والفلك والجغرافيا وعلم

المساحة والهندسة ، وسائر علوم الحكمة . وبقى الحسام الهندى عنده إلى أن عزم على الرحلة عائدا إلى بلاده فى الهند .

وبعد قليل قدم إلى مصر من السودان ، عالم بعلوم الرياضيات والحكمة ، على مذهب المغاربة فى هذه العلوم ، وسكن أولا بدرب الأتراك فى القاهرة ، هو العلامة الإمام محمد بن محمد الغلاتى ، فحمله الشيخ حسن إلى داره ، وقرأ عليه أصول الكتب التى يحسنها فى الرياضيات وآلالات وغيرها ، وبقى عنده إلى أن مات فى داره سنة ١١٥٤ ، وكان قبل موته قد جعله وصيا على تركته وكتبه .

* * *

كانت هذه السنوات العشر ، « ١١٤٤ - ١١٥٤ هـ » ، هى أخطر السنوات فى حياة الشيخ حسن الجبرتى ، فإنه سلك كل سبيل ، وشقى شقاء طويلا حتى استطاع بذكائه وإصراره وحسن تصوره لما يعانيه ، أن يحل لنفسه رموز الكتب العتيقة وألفاظها ، وبهذا الجهد والعنت استطاع أن يكشف اللثام عن أسرار العلوم القديمة التى لم يبق فى أهل زمانه من يعرفها معرفة تحقيق صحيح كامل ، أو قريب من الصحة والكمال . وينبغى أن نعلم أن هذه الكتب العتيقة كانت ، بلا شك ، هى السجل الأعظم الذى سطرت فيه أبحاث أسلافنا من علماء الحضارة العربية الإسلامية فى عصور ازدهارها . فهى تمثل العلم النظرى من ناحية ، والتطبيق العملى الذى أدى إلى ظهور أعظم حضارة باذخة رآها العالم الذى نشأت فى قلبه وفى زمانه . وهذا التطبيق العملى ، هو وليد العلم النظرى ، وهو لب الحضارة ومظهرها الحى ، وهو ما يسمونه اليوم « التكنولوجيا » .

وسترى بعد قليل ، أن الشيخ حسن ، لما فرغ من حل هذه الرموز التى تضمنتها ألفاظا الكتب العتيقة ، دخل بيديه وبنفسه وبتلامذته فى طور آخر ، هو طور التطبيق العملى . وعسى ألا يكون تطبيقه الجديد هو التطبيق العملى الأول ، ولكنه على كل حال ، استطاع أن يستوعب أسرار العلم النظرى ومناهجه ويفهمها فهما دقيقا مقاربا للصواب ، ثم انبرى بعد ذلك لتطبيقه ، منتفعا بالبقايا الباقية فى

زمانه من التطبيق القديم . وهذه البقايا متمثلة فى أساتذة كل فن وصنعة ممن حوله من المعاصرين . وهؤلاء الأساتذة هم الذين كانوا يزاولون أعمالهم من طريق التوارث بدقة ومهارة أحيانا ، وإن كانوا قد وقعوا فى الجهالة ، بعد أن انقطع الحبل بينهم وبين تراثهم العتيق المكتوب المسجل ، وبلا قدرة أيضا على أن يسجلوا شيئا من براعاتهم ومهاراتهم التى اهتدوا هم إليها فى خلال التطبيق المتوارث . وذلك لجهل أكثرهم بالقراءة والكتابة ، فضلا عن اللغة التى يقيد بها العلم النظرى الذى قيده بها أسلافهم العظام .

النكبات الثلاث

وأنا محتاج هنا أن أقف بك وقفة قصيرة المدى ، ملتزمًا بالإيجاز ، حتى تكون الصورة بعد ذلك واضحة عندك بعض الوضوح .

على أوسع رقعة من الأرض عرفها الإنسان ، من حدود الصين إلى الأندلس ، ومن حدود الدولة البيزنطية شمالا إلى أواسط قارة أفريقيا وأقصى آسية جنوبا ، انتشرت ثقافة واحدة ذات لغة واحدة ، تأوى إليها جميع ألسنة أجناسها المختلفة ، فأقامت هذه الأمة العربية الإسلامية أعظم حضارة عرفها البشر ، منذ عهد الحضارة العربية البائدة التى نسميها اليوم خطأ ، حضارة الفراعنة . ومضت عليها خمسة قرون ، وحيث سرت فى هذه الرقعة المتراحبة ، لم تزل تسمع أصوات الأساتذة المعلمين ، وصرير الأقلام على الطروس ، فى كل قرية أو رستاق أو مدينة ، ولم تزل ترى فى كل مسجد أو بناء أو بيت مكتبةً تضم العشرات أو المئات أو الآلاف ، أو الآلاف المؤلفة من الكتب المسطورة على اختلاف فنونها . فاجتمع لهذه الأمة من الكتب المدونة ، ما لو وضع معه كل ماتركته أمـــم العالم القديم من الكلام المسطور ، مابلغ ركنا ، فى غرفة ، من قصر فيه مئات الغرف .

وأترفت جماهير من هذه الأمة بغناها وسطوتها وعلمها ، فعصوا ربهم فى بعض أمورهم به ، فسلط عليهم من أنفسهم من سلط ، ثم أنذرهم بثلاث نكبات عظام لعلهم يبصرون :

النكبة الأولى : زحوف حملة الصليب آتية إلى شمال دولتهم من سنة ٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٥ - ١٢٩١ م ، حتى سقطت دولتهم بفتح عكا آخر حصن للصليبيين فى السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ .

النكبة الثانية : وجاءت على أثرها وهى جحافل التتر آتية من الشمال الشرقى من سنة ٦٣٨ هـ « ١٢٤٠ م » ، فداست البلاد حتى بلغت وأسقطت الخلافة سنة ٦٥٨ هـ « ١٢٥٨ م » حتى ارتدت على أدبارها عند عين جالوت بفلسطين سنة ٦٥٨ هـ « ١٢٥٩ م » ، ولكن شرها لم ينقطع جملة واحدة ، فى قصة طويلة .

النكبة الثالثة الكبرى : وهى التى استمرت سنوات ، حتى زال ملك الإسلام من الأندلس جملة بسقوط غرناطة فى أيديهم سنة ٨٩٧ هـ « ١٤٩٢ م » .

وكانت جحافل هذه النكبات الثلاث ، جحافل من الجهلة الأغتام الغلاظ ، فدمروا وقتلوا ونهبوا ، فهدموا الآثار ، وأفنوا البشر ، وحرقوا الكتب ، وأغرقوها فى الأنهار ، كما هو معروف معلوم .

موجات طاغية من الجهلة المدمرين ، استمرت أربعة قرون ، تهلك آلافا مؤلفة من العلماء والأساتذة فى كل علم وفن ، وآلافا أخرى من الكتب فى كل علم وفن ، فضلا عما أبادته فتن الباطنية والشيعة وأشباههم فى قلب الدولة فضلا عما أبادته المجاعات والطواعين والأوبئة المتتابعة فضلا عن الفقر والجهل الذى كان أثرا لابد منه ، بعد هذا السلب والنهب والقتل فى هذه الرقعة المترامية الأطراف .

ولكن ماكادت تنقشع بعض سحب النكبتين الأولى والثانية ، حتى انتفض العالم الجريح المثخن مرة أخرى ، لا من قلبه ، بل من عند طرفه الشمالى المزاحم لديار الدولة البيزنطية ، أى من حيث انصبت جحافل حملة الصليب من قبل .

فمنذ عهد الغازى عثمان خان « ٦٩٩ - ٧٢٦ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٢٦ م » ، بدأت تتجمع هناك قوة جديدة ، وقلب العالم العربى الإسلامى تمزقه النكبات الصغار المتتابعة . وتوطدت أقدام القوة الجديدة فى أرض الدولة البيزنطية ، حتى بلغت غايتها ، فأسقطت الدولة كلها بدخول جيوش الغازى محمد الفاتح القسطنطينية ، فى يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو

١٤٥٣م واكتسحت هذه القوة قلب أوربة ، واتسعت رقعة العالم العربى الإسلامى اتساعا لا مثيل له ، ولكن ..

ولكن توالى النكبات الكبار والصغار على مدى أربعة قرون ، كان قد قضى على جمهرة العلماء الكبار والأساتذة العظام فى كل فن وصناعة ، وأوشكت الحضارة أن تبقى بلا قادة من مثقفيها إلا ما قلَّ . ومعنى ذلك أن حبال الصلة بين العقول التى كانت تسجل الثقافة وتنميها وتفسرها .. وبين العقول والأيدى التى كانت تقيم صروح الحضارة ، قد بدأت تتهتك وتبلى ، فلا الثقافة تمدّ الحضارة بما ينميها من البحث والتنقيب والتمحيص ، ولا الحضارة تحرك الثقافة وتغذيها بما يزيد أبحاثها وتنقيبها وتمحيصها حدة ونقاء وإشراقا ، وكاد يذهب عصر الإبداع .

وبدأ عصر العزلة ، عزلة البقية الباقية من العلماء وتلامذتهم ، فاقتصروا على محاولة المحافظة على التراث المسجل الذى انتهى إليهم ، وعزلة البقية الباقية من الأساتذة الكبار الذين يعملون فى بناء الحضارة ، فاقتصروا على أن يورثوا تلامذتهم أسرار صناعاتهم وفنونهم بلا كتاب مكتوب . وكاد كلاهما يكون بمعزل عن الآخر ، بمعزل عن الاستفادة الصحيحة من التراث الكبير المسجل ، وعن إمداد التراث المسجل بشىء جديد يحرك المحافظين على التراث المكتوب إلى البحث والتنقيب والتسجيل .

وبتفانى الأجيال جيلا بعد جيل فى عصر العزلة ، استبهم على المثقفين أنفسهم بعض ما يحافظون عليه من التراث المكتوب ، وصار أشبه بالرموز التى تحتاج إلى مفسر ، وكذلك تساقط أيضا فى توارث الصناعات والفنون جزء مهم من أسرار هذه الفنون والصناعات ، وصارت هى أيضا تحتاج إلى مفسر . وأوشك اللسان العربى أن يصبح وسيطا غير صالح لإيجاد التفاهم بين الطرفين . ولولا دوى القرآن فى الأذان ، ولولا كلمة التوحيد التى نزلت فى جذر قلوب الأمة رجالا ونساء ، لَتَفارَطَ عقد هذه الأمة العظيمة تحت النكبات كما تتفارط حبات عِقْد وَهَى سِلْكُه وهلك . وهذا حسبى فى هذه الوقفة . وإن كنت أجدنى مقصرا .

الجبرتى الكبير

جاء زمن الشيخ حسن الجبرتى « ١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤م » ، بعد تدهور متتابع ، وكاد اللسان العربى العظيم يفقد سلطانه على حضارته . أصبحت معاهد العلم ومدارس الثقافة محصورة فى بضعة كتب هى وحدها الزاد الثقافى للأمة ، ألفها الناس وتداولوها . ولكنها لم تكن سوى خلاصة منتقاة من زاد ثقافى متقادم متراحب كان نابضا بالحياة ، وقد قضى على ما نجا منه تدمير البرابرة الجهلة ، أن يظل حبيسًا أكثره بين الجدران وعلى الرفوف فى خزائن الكتب ، ومع ذلك فهذه الخلاصة تحملها أيدى نيام من الشقاء والنصب قد أنهكتهم النكبات ، لا يدل على أنهم ينبضون بالحياة إلا ومضات تلوح وتخفى فى تقارير وحواش يسجلونها على كتب هذه الخلاصة . ومضات مضيئة ، تسجل فترات قصارا من اليقظة والذكاء والقدرة والتنبه . ومع ذلك أيضا ، كان هذا النبض محصورا فى طائفة محدودة من فحول علماء ذلك الزمان ، ولكنه معزول أيضا عن أمة ضخمة جدا غارقة فى الجهالة والفقر والضياع ، يجهل جمهورها الأكبر القراءة والكتابة ، إلا محفوظا يسيرا يتردد خافتا ، بقية من ميراث عظيم يوشك أن يبيد .

فإذا كان الشيخ الجبرتى ، وهو أحد الورثة العظام لحضارة أمته العريقة العظيمة .. قد هب فجأة وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وانتبه عقله المتوقد بعد غفوة طويلة ، فانبرى لهدفه بكل مافى قلبه من همة ودأب وذكاء . وآثر أن يقضى عشر سنوات « من سنة ١١٤٤ إلى سنة ١١٥٤ هـ » .. متلددا متحيرا يحاول أن يفك رموز جزء يسير من ميراثه الضخم العظيم .. « حتى انفتح له الباب وانكشف عنه الحجاب » كما يقول ابنه المؤرخ العظيم فى عبارة غير كاشفة إلا عن دهشة وحيرة . إذا كان هذا كما وصفت ، فلا تعجب ، فإنه جاء بعد قرون أهلكت آلافا مؤلفة من العلماء المسجلين والمفسرين ، وآلافا تفوقها من الأساتذة الخبراء بأسرار فنونهم والحاذقين ، وأيضا بعد أن فقد اللسان العربى سلطانه على حضارته أو كاد .

ومع ذلك ، فهذه مشيئة الله وحده ، جاء الشيخ الجبرتى متأخرا لقدر لا يعلمه إلا مقدر المقادير ، فهذا الجهد الذى بذله عاكفا على حل رموز ميراثه العظيم المسطور فى خزائن الكتب ، والطريق الذى سوف يسلكه بعد ذلك للإحياء والبعث ، كان قد سبقه إلى مثله منذ قرون من ليس وارثًا لهذا الميراث العظيم ، وفى كهوفه المظلمة أكب على حل هذه الرموز إكبابا ، فاستخرج منها ما أطاق أن يفهمه من عربيتها بأسلوب مختلف ، ولكنه كان مفسرا خبيثا ينتهب كل شيء تحت الليل والظلام ، ولا يدل أحدا على موضع الكنز الذى يأخذ منه ما يأخذ .

ولكن هذه قصة أخرى مخزية دنيئة ، سوف أقصها عليك وأنا أسرد قصة الشيخ الجبرتى ..

* * *

الألفاظ المكشوفة
فى هذا الكتاب طبيعية وينبغى ألا يجهلها البشر

الحديث هذه الأيام عن كتاب ألف ليلة وليلة ، مؤسف ومحزن فى الوقت نفسه ، وفى ظنى أن المعلن حتى بهذه الكيفية المؤسفة المحزنة حول هذا الكتاب أقل بكثير إذا قيس بمثيله غير المعلن . والذى ربما يكشف عن جوانب سيئة رهيبة مخيفة .. تضاف إلى غيرها من الجوانب التى تندرج فى النهاية تحت عنوان فساد حياتنا الثقافية بوجه عام . هذا الفساد الذى لم يكن وليد هذه الأيام وإنما يرجع تاريخه إلى عشرات السنين .

لذلك أرى أن المسألة قبل أن تكون احتراما للتراث الذى ينبغى علينا احترامه والمحافظة عليه هى احترام لعقولنا التى تمتهن بمثل هذا الأسلوب .. الذى من صُوَرِه أن ينظر أحدنا إلى الأشياء نظرة مختلة . وفى الأغلب والأعم يعلم البعض كنه هذه النظرة . ومع ذلك نجد أن هذا البعض يشاء - قاصدًا أو غير قاصد - التأثر بهذه النظرة ، ويستطيب له مواصلة السير مع صاحب هذه النظرة المختلة . وتكون النتيجة التى لا مفر منها هى أن تتسم أحوالنا بأنها ولدت فى غيبة تامة من التفكير العقلى والنظرة الصحيحة ، والرؤية الهادئة . وهكذا تكون أغلب أفعالنا ، وتكون النتيجة المنتظرة .. فسادًا وتضليلًا وزيفا وغشًّا لأمور واضحة أمامنا .

مثلا إن ما يثار حول كتاب ألف ليلة وليلة ، وخلاصته أن فى هذا الكتاب من الألفاظ المكشوفة ما يمكن أن يفسد عقول شباب وشابات هذه الأمة . ولذلك يقدم الكتاب للمحاكمة . هذا الذى يثار حول هذا الكتاب يقدم دليلاً جديدًا لهذا السخف اخترناه لمسيرة حياتنا الثقافية .

هذه القضية كانت تتطلب منا معالجة أخرى غير ما تعاملنا به معها . كانت

---

* مجلة القاهرة ، العدد الرابع عشر . الثلاثاء ٧ مايو سنة ١٩٨٥ م - ١٧ شعبان سنة ١٤٠٥هـ ، ص ٧ .

تتطلب منا - إذا أردنا تحرى الدقة - بحثا هادئًا يبدأ بقراءة أجزاء هذا الكتاب نفسه ، والوقوف طويلًا عند صفحاته ، وتأمل عباراته وسطوره ، واستخراج هذه الألفاظ التى ترى أنها مفسدة للعقول ، كل لفظ حسب موقعه من السطر والصفحة والجزء ، ولنرى بعد ذلك حاصل ما يجتمع لدينا من هذه الألفاظ . عندئذ سوف نجد أن ما يجتمع لدينا لا يزيد عن الصفحة أو الصفحتين على أكثر تقدير من الألفاظ المتكررة منتشرة على صفحات المجلدات الأربعة من كتاب ألف ليلة وليلة .

وتأتى الخطوة الثانية بأن نسأل عما لدينا من ألفاظ مكشوفة جمعناها من الكتاب وهل هذه الألفاظ المكشوفة معروفة لنا أم مجهولة ؟ وهل لكوننا لا نستعمل هذه الألفاظ فى كتاباتنا معناه اتهامها ومحاكمتها ؟

بعد ذلك تأتى الخطوة الثالثة وهى حول بحث درجة تأثير هذه الألفاظ المكشوفة كل على حدة . إذا فعلنا ذلك فسوف لا نجد لها أى تأثير . بل إننا إذا قمنا بمقارنة هذه الألفاظ المكشوفة التى نستهجنها ونطالب بمحاكمتها بغيرها من الصور والتراكيب التى تزخر بها كتابات هذا الزمان نجد أن هذه الألفاظ أرحم بكثير مما تقرأه من صور وتراكيب مصنوعة وموضوعة على الصفحات بأسلوب معين يجعل لها أكبر التأثير بالنسبة لأبنائنا وبناتنا .

أقول ذلك بالنسبة للكلمة المقروءة أما بالنسبة للكلمة المسموعة أو المشاهدة فالأمر جد فادح وخطير . وإلا فليجلس أحدنا ساعة أو بعض ساعة أمام شاشة التليفزيون ، ولا أقول الفيديو بالطبع ، بعد هذه الساعة سوف يحكم أن ما جاء فى كتاب ألف ليلة وليلة أرحم بكثير مما يشاهد . وإذا فعل هذا الأمر مع الإذاعة فأسلم أذنيه لما يصدر عن المذياع لاكتشف أن أمر ألفاظ ألف ليلة وليلة أرحم .

وليس معنى هذا أن نلغى من حياتنا الفيديو أو التليفزيون أو المذياع ومن قبلها كتابات توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وغيرهم . بالقطع لا . والسبب أن الحياة مليئة بالأشياء المتلفة ، وأنت لا تستطيع أن توقفها . فقط

ما يمكنك صنعه ألا تسمح لنفسك بالتعامل مع ماتراه متلفا من الأشياء أو تسمح بالتعامل وبالكيفية التى تريد .

هذا هو الأسلوب نفسه الذى ينبغى أن نفعله بالنسبة لكتاب صدر منذ ألف سنة ككتاب ألف ليلة وليلة . من حق بعضنا أن يقرأه أو لا يقرأه . لكن الذى ليس من حقنا جميعا أن نحكم بإلغائه أو بحرقه !

فالثابت أن هذا الكتاب وجد منذ مئات السنين ، وخلال هذه السنين قرأه الناس ، ولم يحدث مرة أن قيل إن هذا الكتاب أفسد عقل جيل أو عرض إلى انحلال مجتمع .

إن غاية مايراه البعض فى اتهامهم لهذا الكتاب هو أن به ألفاظًا مكشوفة تنتشر على صفحاته ! هذه الألفاظ فى رأيى لا خوف منها . فهى ألفاظ العلم نفسه . وإذا كان لها تأثير ضار ، فكيف يستخدمها علماء اللغة وأصحابها . أقول إنها ليست ألفاظًا ضارة وإنها ألفاظ طبيعية وعادية يستخدمها البشر فى كل مكان . وليس من مصلحة البشر أن يجهل مثل هذه الألفاظ . فهى ضرورة من ضرورات الحياة .. العلمية منها أو الاجتماعية .

ومن هنا أرى أن ما يثار الآن حول كتاب ألف ليلة وليلة مثل من أمثلة فساد حياتنا الثقافية بوجه عام .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

إنْ كُنْتَ لَستَ مَعِي ، فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعى
يَرَاكَ قَلْبى وَإنْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِى
الْعَيْنُ تُبْصِرُ مَنْ تَهْوَى وتَفْقِدُهُ
ونَاظِرُ الْقَلْبِ لَا يَخْلُو منَ النَّظَرِ

رحمك الله « أبا السامى » [١] ورضى عنك ، وغفر لك ماتقدّم من ذنبك ، وجزاك خيرًا عن جهادك ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

* * *

كتب « سعيدٌ » – لا أَخلَى الله مكانه وخُطِّىءَ عنه السوء – هذا الكتابَ الذى يسعى بين يديه ، يردُّ به إلى الحياة حياةً استدبرت الدنيا وأقبلت على الآخرة بما قدّمتْ من عمل ؛ وثَمَّ الميزانُ الذى لا يخطىء ، والناقد الذى لا يجوز عليه الزيف ، والحاكم الذى لا يقدح فى عدله ظلم ولا جور ، والبصيرُ الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور ، قد استوت عنده دُجُنَّة السر ونهارُ العلانية . وقد فرغ الرافعى – رحمه الله – من أمر الناس إلى خاصة نفسه ، ولكن الناس لا يفرغون من أمر موتاهم ، ولو فرغوا لكان التاريخ أكفانًا تُطوَى على الرمم ،

---

* هذا المقال هو المقدمة التى كتبها الأستاذ شاكر وصدر بها كتاب سعيد العريان ، عن الرافعى بعنوان « حياة الرافعى » رحمهم الله جميعا . وصدرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٨

(١) كذلك كانت كنيته . واسم ابنه البكر : محمود سامى الرافعى ، وإنما سماه كذلك تشبيهًا له باسم الشاعر محمود سامى البارودى ، وإليه كان ينظر فى صدر أيامه (شاكر) .

لا أثوابا تُلقَى على الميت لتنشره مرة أخرى حديثا يُؤْثر وخبرًا يُرْوَى وعملا يتمثل وكأنْ قد كان بعد إذ لم يكن .

وهذا كتابٌ يقدّمه « سعيدٌ » إلى العربية وقرّائها ، يجعله كالمقدّمة التى لابد منها لمن أراد أن يعرف أمر الرافعى من قريب .

لقد عاش الرافعى دهرًا يتصرف فيما يتصرف فيه الناس على عاداتهم ، وتُصَرِّفُه أعمالُ الحياة على نهجها الذى اقتسرتْه عليه أو مهدته له أو وطَّأت به لتكوين المزاج الأدبىّ الذى لا يعدمه حىٌّ ولا يخلو من مسِّه بشرٌ .

وأنا - مما عرفت الرافعى رحمه الله ودنوت إليه ووصلت سببًا منى بأسباب منه - أشهد لهذا الكتاب بأنه قد استقصى من أخبار الرافعى كثيرًا إلى قليل مما عُرِف عن غيره ممن فرَط من شيوخنا وكتابنا وأدبائنا وشعرائنا ؛ وتلك يدٌ لسعيد على الأدب العربى ، وهى أُخرى على التاريخ . ولو قد يَسَّر الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقًا وفيًا ينقله إلى الناس أحاديثَ وأخبارًا وأعمالا كما يسَّر الله للرافعى ، لما أضلَّت العربية مجدَ أدبائها وعلمائها ، ولما تفلَّت من أدبها علمُ أسرارِ الأساليب وعلمُ وجوه المعانى التى تعتلجُ فى النفوس وترتكض فى القلوب حتى يؤذَن لها أن تكون أدبا يصطفى وعلما يتوارث وفنًّا يتبلّجُ على سواد الحياة فتسفر عن مكنونها متكشِّفة بارزة تتأنق للنفس حتى تستوى بمعانيها وأسرارها على أسباب الفرح ودواعى السرور وما قبلُ ومابعدُ .

والتاريخ ضربان يترادفان على معناه ، ولكل فضل : فأوله رواية الخبر والقصَّة والعمل ، وماكان كيف كان وإلى أين انتهى ؛ وهذا هو الذى انتهى إلينا من علم التاريخ العربى فى جملته ؛ وعمود هذا الباب صدقُ الحديث ، وطولُ التحرّى والاستقصاء والتتبع ، وتسقُّط الأخبار من مواقعها ، وتَوخِّى الحقيقة فى الطلب حتى لا يختلط باطلٌ بحق . وأما التاريخ الثانى فإيجاد حياة قد خرجت من الحياة ، وردُّ ميت من قبر مغلق إلى كتاب مفتوح ، وضمُّ متفرق يتبعثر فى الألسنة حتى يتمثل صورة تلوح للمتأمّل ، وهذا الثانى هو الذى عليه العمل فى الإدراك البيانى لحقائق الشعراء والكتاب ومَن إليهم ؛ ومع ذلك فهو لا يكاد يكون شيئا إلا

بالأول ، وإلا بقى اجتهادا محضا تموت الحقائق فيه أو تحيا على قدر حظ المؤرّخ والناقد من حسن النظر ونفاذ البصيرة ، ومساغِه فى أسرار البيان متوجها مع الدلالة مقبلا مدْبرا ، متوقيًا عثرةً تكبُّه على وجهه ، متابعًا مَدْرجة الطبائع الإنسانية – على تباينها واختلافها – حتى يُشرف على حيث يملك البصر والتمييز ورؤية الخافى وتوهم البعيد ، ويكون عمل المؤرخ يومئذ نكسة يعود بها إلى توهم أخبار كانت وأحداث يخالها وقعتْ ، ويجهد فى ذلك جهدا لقد غنى عنه لو قد تساوقت إليه أخبار حياة الشاعر أو الكاتب واجتمعت لديه وأُلقيت إليه كما كانت أو كما شاهدها من صَحِبه واتصل به ونفذ إلى بعض ماينفذ إليه الإنسان من حال أخيه الإنسان .

وبعدُ ، فإن أكثر مانعرفه من أدبٍ وشعر فى عصور الانحدار التى مُنيت بها العربية يكاد يكون تلفيقًا ظاهرًا على البيان والتاريخ معًا ، حتى ليضل الناقِدُ ضلال السالك فى نفق ممتد قد ذهب شعابا متعانقة متنافرة فى جوف الأرض ؛ ثم جاء العصر الذى نحن فيه فأبطلت عاميتُه البيانَ فى الأدب والشعر من ناحية ، ودلسهما ما أُغرى به الكثرةُ من استعارة العاطفة واقتراض الإحساس من ناحية أخرى ؛ فإنى لأقرأُ للكاتب أو الشاعر وأتدبر وأترفق وأترقى ... وإذا هو عَيْبة ممتلئة قد أُشْرِجَتْ على المعانى والعواطف فلو قُطع الخيط الذى يشدّها لانقطعت كلُّ شاردةٍ نافرةً إلى وطنها تشتدّ ؛ وبمثل هذا يخوض المؤرخ فى رَدَغة مستوحِلة يتزلّق فيها ههنا وثمّ ، ويتقطع فى الرأى وتتهالك الحقائق بين يديه حتى يصير الشاعر وشعرُه والأديب وأدبه أســـمالا متخرّقة بالية يمسح بها المؤرّخ عن نفسه آثار ما وحِل فيه !

وقد ابتُلى الأدبُ العربى فى هذا العصر بهؤلاء الذين أوجفتْ بهم مطايا الغرور فى طلب الشهرة والصيت والسماع ، فخبطوا وتورّطوا ظلماءَ سالكُها مغترّ ، وقد كان احتباسهم وإمساكهم عما نصبوا وجوههم له ، واصطبارُهم على ذل الطلب ، وممارستُهم معضِلَ ما أرادوه ، وتأنّيهم فى النية والبصر والعزم عسى أن يحملهم على استثارة ما ركبه الإهمال من العواطف التي تعمل وحدها إذا تنسمت روح

الحياة ، واستنباط النبع القديم الذى ورثته الإنسانية من حياتها الطبيعية الأولى ثم طمتْ عليه أدرانُ المدنيات المتعاقبة .

والشعر والأدب كلاهما عاطفة وإحساس ينبعان من أصل القلب الإنسانى ؛ هذا القلب الذى أُثبت من داخل بين الحنايا والضلوع ليكون أصفى شىء وأطهرَ شىء وأخفى شىء ، وليمس كل عمل من قريب ليصفيه ويطهره ويسدل عليه من روحه شفًّا رقيقًا لا يستر ، بل يصف ماوراءه صفة باقية بقاء الروح ، ويبرئها من دنس الوحشية التى تطويها فى كفن من بضائع الموتى ؛ فأيما شاعر أو أديب قال فإنما بقلبه وجب أن يقول ومِن داخله كُتِبَ عليه أن يتكلم ، وإنما اللسان آلة تنقل ما فى داخل إلى خارج حَسْب ؛ فإن كلفها أحد أن تنقل على غير طبيعتها فى الأداءِ - وهى الصلة التى انعقدت بينها وبين القلب على هذا القانون - فقد أوقع الخللَ فيها ووقع الفسادُ والتخالف والإحالة والبطلان فيما تؤدّيه أو تنقله .

وقد نشأ الرافعى من أوّليته أديبًا يريد أن يشعر ويكتب ويتأدّب ، وسلخ شبابه يعمل حتى أمكنته اللغةُ من قيادها وألقت إليه بأسرارها فكان عالمًا فى العربية يقول الشعر ، ولو وقف الرافعى عند ذلك لدرج فيمن درج من الشعراء والكتاب والعلماء الذين عاصروه ، ولو أنه استنام إلى بعض الصيت الذى أدركه وحازه واحتمله فى أمره الغرور لخف من بعدُ فى ميزان الأدب حتى يرجح به مِن بعدُ مَنْ عسى أن يكون أخفَّ منه ؛ ولكن الرافعى خرج من هذه الفتن - التى لفّت كثرةَ الشعراء والأدباء والتقمتهم فمضغتهم فطحنتهم ثم لفظتهم - وقد وَجد نفسَه واهتدى إليها ، وعرف حقيقة أدبه وما ينبغى له ومايجب عليه . فأمَرَّ ما أفاد من علم وأدب على قلبه ليؤدّى عنه ، وبرىء أن يكون كبعض مشاهير الكتاب والشعراء ممن يُطيح بالقول من أعلى رأسه إلى أسفل القرطاس ، وللقارىء من قنابله بعد ذلك ما يتشظّى فى وجهه وما يتطاير . لهذا كان الرافعىُّ من الكتاب والأدباء والشعراء الذين تُتخذ حياتُهم ميزانًا لأعمالهم وآثارهم ؛ ولذلك كان كتاب « سعيد » عن حياته من الجلالة بالموضع الذى يسمو إليه كل مبصر ، ومن الضرورة بالمكان الذى يلجأ إليه كل طالب .

عرفت الرافعى معرفة الرأى أول ما عرفته ، ثم عرفتُه معرفة الصحبة فيما بعد ، وعرضْت هذا على ذاك فيما بينى وبين نفسى فلم أجد إلا خيرًا مما كنت أرى ، وتبدَّت لى إنسانيةُ هذا الرجل كأنها نغمة تجاوب أختها فى ذلك الأديب الكاتب الشاعر ، وظفرت بحبيب يحبنى وأحبه ، لأن القلب هو الذى كان يعمل بينى وبينه وكان فى أدبه مسُّ هذا القلب ؛ فمن هنا كنت أتلقى كلامه فأفهم عنه ما يكاد يخفى على من هو أمثلُ منى بالأدب وأقْوم على العلم وأبصَر بمواضع الرأى .

وامتياز الرافعى بقلبه هو سر البيان فيما تداوله من معانى الشعر والأدب ؛ وهو سرُّ حفاوته بالخواطر ومذاهب الآراء ، وسر إحسانه فى مهنتها وتدبيرها وسياستها كما يحسن أحدهم مهنة المال ورَبَّه والقيامَ عليه ؛ وهو سر علوّه على من ينخشُّ فى الأدب كالعَظْمة الجاسية تنشبُ فى حلق متعاطيه ، لا يُبقى عليه من هوادة ولا رفق ، وبخاصة حين يكون هذا الناشب ممن تسامى على حين غفلة يوم مَرِج أمرُ الناس واختلط ، أو كان مرهّقًا فى إيمانه مُتهمًا فى دينه ؛ إذ كان الإيمان فى قلب الرافعى دمًا يجرى فى دمه ، نورًا يضىءُ له فى مجاهل الفكر والعاطفة ويسنِّى له ما أَعسر إذا تعاندت الآراء واختلفت وتعارضت وأكذبَ بعضُها بعضًا .

هذا ، وقد أرخيت للقول حتى بلغ ، وكنتُ حقيقًا أن أغور إلى سرّ البيان واعتلاقه من العاطفة والهوى فى قول الشاعر والكاتب والأديب لأسدِّد الرأى إلى مرماه ، وقد يطولُ ذلك حتى لا تكفى له فاتحة كتاب أو كتابٌ مفرد ؛ فإن البيان هو سرُّ النفس الشاعرة مكفوفا وراءَ لفظٍ ، وما كان ذلك سبيله لا يتأتى إلا بالتفصيل والتمييز والشرح ، ولا تُغنى فيه جملة القول شيئًا من غناءٍ . وحقيقٌ بمن يقرأُ هذا الكتاب أن يعود إلى كتب الرافعى بالمراجعة فيستنبئها التفصيل والشرح ، وبذلك يقع على مادّة تمدّه فى دراسة فنون الأسلوب ، وكيف يتوجهُ بفنّ الكاتب ، وكيف يتصرف فيه الكاتب بحسٍّ من قلبه لا يخطىء أن يجعل المعنى واللفظ سابقين إلى غرض متواطئين على معنى لا يجوران فيجاوزانه أو يقعان دونه .

رحمة الله عليه ، لقد شارك الأوائل عقولهم بفكره ، ونزع إليهم بحنينه ، وفلج أهلَ عصره بالبيان حين استعجمتْ قلوبهم وارتضخت عربيتُهم لُكنةً غير عربية ، ثم صار إلى أن أصبح ميراثًا نتوارثه ، وأدبًا نتدارسه ، وحنانًا نأوى إليه .

رحمة الله عليه !

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله وَحْدَه لا شريكَ له ، أَنْزَل الكتابَ بالحقّ ، لا يأتيه الباطلُ من بين يدَيْه ولا من خَلْفِه . وصلّى الله على خِيرتِهِ مِنْ خَلْقِه ، محمّدٍ رسولِ الله ﷺ تسليما كثيراً ، بلَّغَ الرسالةَ ، وأَدّى الأمانةَ ، وتَرَكَ الناس على المَحَجّةِ الواضحة بِنُورِ القرآنِ الذى لا يَخْبو نُورُه ، وضياءِ السُنّةِ التى لا يَخْفُتُ ضِياؤها .

وبعدُ :

فماذا يقول القائل فى عَمَلٍ قام به فَرْدٌ واحِدٌ ، لو قامتْ عليه جماعةٌ لكان لها مَفْخَرةٌ باقيةٌ ؟ فمن التواضع أَنْ يُسَمَّى هذا العملُ الذى يَعْرِضُه عليك هذا الكتابُ « مُعْجَمًا نَحْوِيًّا صرفيًا للقرآن العظيم » .

فمعلومٌ أَنَّ جُلَّ اعتمادِ المعاجم قائمٌ على الْحَصْرِ والترتيبِ .

أمّا هذا الكتاب ، فالْحَصْر والترتيب مُجَرّد صورةٍ مُخطَّطة يعتمِدُ عليها .

أمّا القاعدة العُظْمى التى يقوم عليها ، فهى معرفةٌ واسعةٌ مستوعِبةٌ تامّةٌ لدقائِقِ عِلْم النحوِ ، وعِلْم الصرفِ ، وعِلْم اختلافِ الأساليب .

ولولا هذه المعرفةُ لم يَتَيَسَّرْ لصاحبِهِ أَنْ يوقِّع فى حصْره من حروف المعانى وتصاريفِ اللغة على أبوابها من علم النحو ، وعلم الصرف ، وعلم أساليب اللغة .

وهذا العملُ الجليلُ الذى تولّاه أستاذنا الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة والذى أَفْنَى فيه خمسةً وعِشرين عاما طِوالًا ، والذى يَعْرِض عليك منه هذا القسمَ الأوّلَ إنما هو جُزْءٌ مِنْ عَمَلٍ ضَخْمٍ لم يَسْبِقْه إليه أحدٌ ، ولا أظنّ أنّ أحدًا من أَهْلِ زمانِنا كان قادرًا عليه بمفرده . فإنّ الشيخ قد أُوتِى جَلَدًا وصبْراً ومعرفة ، وأمانةً فى الاطّلاع ، ودِقّةً فى التحرّى لم أَجدها متوافرةً لكثير ممّن عرفت .

---

* هذا التصدير كتبه الأستاذ شاكر فى الجزء الأول من « دراسات لأسلوب القرآن الكريم » للشيخ العلامة محمد عبد الخالق عضيمة . طبع مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٧٢ .

وحروف المعانى التى يتناولها هذا القسمُ الأوّلُ من جَمْهَرَةِ علم القرآن العظيم [١] ، أَصْعَبُ أبوابِ هذه الْجَمْهرةِ ؛ لكثرتها وتَداخُلِ معانيها . فقلّ أن تخلوَ آيةٌ من القرآن العظيم من حرْفٍ من حروفِ المعانى .

أمّا المشقّةُ العظيمةُ ، فهى فى وجوهِ اختلافِ مواقِع هذه الحروفِ من الْجُمَلِ ؛ ثمّ اختلافِ معانيها باختلافِ مواقِعِها ، ثمّ ملاحظةِ الفروقِ الدقيقة التى يَقْتضيها هذا الاختلافُ فى دلالته المؤثِّرةِ فى معانى الآيات . وهذا وَحْدَه أساس عِلْمٍ جليلٍ من علوم القرآن العظيم .

وسترى فى هذا القسم العَمَلَ المُتْقَنَ الذى تولّاه أستاذنا الجليل ، مواضِع كثيرة من الاستدراكِ على النحاة منذ سيبويه إلى ابن هشام ، ولكن ليس معْنَى هذا أن نَبْخَس الشُّيُوخَ الأوائلَ نَصِيبَهم من التَّفوُّقِ الهائلِ الذى يُذْهِل العقول ، ولكن مَعْناه أنّ الأساس الذى أَسَّسوه فى أَزْمِنَتِهم المتطاولةِ كان ينْقُصُه هذا الْحَصْرُ الدقيق لكلِّ مافى القرآن العظيم من حروفِ المعانى ، وكان هذا الْحَصْر خارجا يومئذٍ عن طاقَتِهم ، فإنّ الذى أعان عليه هو الطباعةُ التى استحدثت فى زماننا . والناظر فى كُتُبِ القدماءِ لا يُخطئه أن يرى أنّهم قاموا بِحَصْرٍ غيرِ تامٍّ ، بيْدَ أنّ هذا القَدْرَ الذى قاموا به هو فى ذاته عَملٌ فوق الجليلِ وفوق الطاقةِ .

ويظنّ أستاذنا الشيخ عضيمة أنّ الأوائلَ قد شَغَلَهم الشِّعْرُ عن النظَر فى شواهدِ القرآن العظيم ، وأظنّ أنّ الذى تولّاه أستاذنا من حصْرِ هذه الأشياءِ فى القرآنِ العظيم ، وتنزيلها فى منازِلها من أبواب علْم النحو وعلْم الصرف ، وعلْم أساليبِ اللغة ، مقدّمةٌ فائقةُ الدلالة ، لعَملٍ آخر ينبغى أن تتولّاه جماعةٌ منظَّمةٌ فى حصْرِ مافى الشِّعْرِ الجاهلىّ والإسلامىّ من حروفِ المعانى ، ومن تصاريفِ اللغة ، ومن اختلافِ الأساليب ودلالتها . والذى ظنّ الأستاذ أنّ القدماء قد فرّغوا هِمَمَهُمْ له ، هو فى الحقيقة ناقصٌ يحتاج إلى تمامٍ ، وتمامه أن يُهيِّئَ الله للناس منْ يقوم لهم فى الشِّعْرِ بمثلِ ماقام به هو فى القرآن العظيم .

---

(١) « الجمهرة » : هذه اللفظة وضعتها لما نسميه فى هذا الزمان « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » (شاكر) .

وإذا تمّ هذا كما أتمّ الشيخ عَملَه فى القرآن العظيم ، فعسى أن يكونَ قد حان الحِينُ للنظَرِ فى « إعجاز القرآن » نظرًا جديدًا ، لا يتيسّر للناس إلا بعْد أن يَتِمّ تَحليلُ اللغةِ تحليلا دقيقاً قائمًا على حصْرِ الوجوهِ المختلفة لكلِّ حرْفٍ من حروفِ المعانى ، وتصاريف اللغة . لأنّ هذه الحروفَ وهذه التصاريف ، تُؤثِّر فى المعانى ، وتُؤثّر فى الأساليب ، وتُحدِّد الفُروق الدقيقةَ بين عبارةٍ وعبارة وأَثَرها فى النفْسِ الإنسانيّة وأَثَر النفْسِ الإنسانيّة فيها ، وفى دلالاتها .

وإذا كان أستاذنا الجليل قد تواضع فظنّ أنّه قد وضع أساساً عِلْميًّا ثابتًا للحكْم على أساليب القرآن ، وموقعها من النحو والصرف ، فإنى أظنّ أنّه قد فات ذلك وسبَقه ، فهيّأ لنا أساسًا جديداً للنظر فى « إعجاز القرآن » نظرةً جديدةً تُخْرِجه من الْحَيِّزِ القديم ، إلى حيِّزٍ جديدٍ يُعين على إنشاءِ « علم بلاغة » مسْتَحْدَثٍ . فإنّه مهما اختلف المختلفون فى شَأْنِ « البلاغة » فالذى لا يمكن أن يدْخلَه الاختلافُ هو أَنّ تركيبَ الكلام على أُصولِ النحو والصرف ، هو الذى يُحْدث فى كلامٍ ما ميزةً يفوق بها كلامًا آخر . وهذا لا يتيسَّر معْرِفَتُهُ إلّا بتحليلِ اللغةِ وتحليلِ مفرداتها وأدواتها ، وروابطها ، التى هى حروف المعانى ، عَملٌ لا يُنْتَهى فيه إلى غاية ، إلّا بعد الْحَصْرِ التامِّ للغة وتصاريفها ، ولا سيما حروف المعانى ، وبعد معرفةِ الفُروقِ الدقيقةِ التى تُحدثها هذه الحروفُ فى مواقعها ، وبعد معرفةِ أَثَرِ هذه الفروقِ فى تفضيل كلامٍ على كلام .

والشيخ – حفظه الله – لم يترك مجالا للاستدراك على عمله العظيم . فكلّ ما أستطيع أن أقولَه ، إنّما هو ثَناءٌ مسْتَخْرَجٌ من عَملٍ يُثْنِى على نفْسِه ، ولكن بقى ما نتهاداه فى هذه الحياة الدنيا ، وهو أن أَدعُو الله له بالتوفيق ، وأن يزيدَه من فَضْله ، وأن يُعينَه على إتمامِ مابدأ ، وأن يجعل هذا العمل ذخيرةً له يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون .

* * *

ذكريات مع محبى المخطوطات

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، وصلى الله على سائر الأنبياء منذ آدم إلى عيسى بن مريم - عليهم السلام .

لست خطيبا ولا متكلما وإنما أنا كاتب . أعبر باللسان وأصوغ بالقلم . وقد جئت ولم أُعِدّ شيئا لأقوله فى هذا المؤتمر . ولما بقيت أياما فى تعب شديد - حاولت أن أكتب - والموضوع كما تعلمون متعلق بالمخطوطات - فجرى قلمى بما لا أستطيع أن أحدثكم عنه . بعد أن كتبت أوراقا وجدتنى أتحدث عن نفسى ، لا عن المخطوطات . والمضطر يركب الصعب من الأمور . وأنتم قد جئتم هنا لتقعوا فى الاضطرار ، لأنكم تريدون أن تسمعونى ، وأنا جئت مضطرا لأن الشيخ أحمد زكى يمانى استخرجنى من بلادى ، ومن بلاد أحبها ، لا أحب أن أفارقها إلى بلاد بينها وبين أمتى العربية والإسلامية ثأر قديم جدا . جئت كارها ، ولكن جئت أيضا مطيعا لصداقة عزيزة علىّ ، لا أستطيع أن أتخلى عما تطلبه منى . والكلمة التى كتبتها لا تصلح للسماع ، لأنى أستغرق صفحة أو صفحتين تقريبا فى الحديث عن نفسى ، وعن تاريخى ، وعن نشأتى ، لأقول أنى بالتجربة انتهيت إلى أننا فى زمان الادعاء والتظاهر فيه هما الأصل . فإذا أنا تحدثت عن المخطوطات فى حضرة الأساتذة صلاح المنجد والشيخ حمد الجاسر ، ممن لهم خبرة ، فإنما أنا مدع لا أكثر ولا أقل . وبضاعتى فى شأن المخطوطات بضاعة مُزجاة . نعم نشأت من صغرى فى الحادية عشرة والثانية عشرة ، على يد رجل كان خبيرا بالكتب وهو أمين أفندى الخانجى . صحبته طويلا ولكنه لم يستطع لا هو ولا من سألتهم فيما بعد ، لم يستطع أحد منهم أن يعدنى لأن أكون من

---

* أهمية المخطوطات الإسلامية : أعمال المؤتمر الافتتاحى لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ، لندن ١٩٩٢ ، ص ٢٣ - ٢٨

الرجال العاملين فى ميدان المخطوطات العربية ، لأن هذا الميدان محتاج إلى صفات معينة وأنا لا أملك من هذه الصفات شيئا . نعم قد نشترك فى الأصل ، ولكن طبيعتى لا تستطيع أن تخضع لغير ما أردته أنا وما اهتممت به . وسأدع الكلام الذى كتبته جانبا لأنه فى الحقيقة لا يستحق أن يُقرأ فضلا عن أن يُسمع على ملأ من العلماء والفضلاء كانوا يتوقعون منى شيئا ، ويطلبون منى فائدة ، ويظنون بى علما ، وأنا لست من العلم فى شيء . بل أنا كما يقول أبو العلاء :

مَن يَبْغِ عندى نَحْوا أو يُرِد لغةً فما يُساعف مِن هذا ولا هذِى
يَكفيكَ شرا من الدنيا ومَنْقَصَةً ألا يَبِينُ لك الهادِى من الهاذِى

فأرجو وقد جئت من بلاد بعيدة أتوكأ على عصا بيمينى وأعتمد على ابنتى بشمالى - ولكن بين ضلوعى نار لم تنطفىء بعد من بقية شباب ذهب - وسأختصر كلامى وأقصره على رجال ممن عرفتهم فى مجال المخطوطات . وهم جميعا يشتركون فى صفة واحدة يعرفها صلاح المنجد وحمد الجاسر - يعرفونها فى أنفسهم . ولأن طول مصاحبتى لهؤلاء الرجال لم تكن رغبة فى الاستفادة من علمهم فى المخطوطات ولكن كانت رغبتى فى مراقبتهم : كيف يتعبون وكيف يعملون .

فمن هؤلاء هذا الذى ذكرته لكم والذى نشأت على يديه ، وهو أمين أفندى الخانجى . وقد حدثنى أنه مِن حَىّ بحَلَب ، وكان قد شَدا شيئا من العلم - قليلا جدا من العلم . وكانت له رغبة فى أن يكون عالما ، ولكنه كان صغيرا جدا ، وعلى قدر بسيط جدا من المعرفة .ففى تجواله فى المنطقة التى يسكنها رأى النساء يوقدن المواقد بأوراق الكتب - بل ببعض الكتب المجلدة . وفجأة استيقظت نفسه ، فأراد منعهم [1] من أن يفعلوا ذلك ، فاستحطب لهم حطبا يوقدون به مواقدهم ، وأخذ منهم هذه الأوراق أو هذه الكتب التى كان بعضها مجلدا . واستمر على هذا دهرا ، وإذا عاد إلى بيته بهذه الأوراق كان يقرؤها ، وهو

(١) الحديث عن النساء ، ولكن الضمائر التى تشير إليهن جاءت بصيغة التذكير .

لا يستطيع أن يفك رموزها لكنه بالإصرار وبالحب وبالجذوة التى تتوهج فى قلبه ظل يزداد حرصا على هذه الأشياء ويجمعها .

ثم بعد أن شبّ عن الطوق ، رأى نفسه مغرما بحيازة هذه المخطوطات وبقراءتها دون أن يكون قاصدا للعلم ، وإنما هى محبة خالصة لهذا الذى يقرأه . فانتهى به الأمر بعد ذلك إلى أن أصبح أخبر الناس بالمخطوطات . عندئذ قرر أن يكون كُتْبيا أو ورَّاقًا . وأنا أشهدكم أن الجيل الذى نشأت فيه ، قد اعتمد اعتمادا كاملا فى كل فن على ما نشره أمين أفندى الخانجى . كل الكتب القديمة التى نشرها أصول لا يَستغنى عنها طالب علم . فكانت صناعته فى البحث عن المخطوطات ، هى أن يأخذها وينشرها . وفى ذلك الوقت كانت ثروته لا تحتمل أن ينفق على طباعة هذه الكتب ، فكان كلما طبع بضعة كتب أفلس . ثم تردد ذاهبا إلى تركيا ، إلى أن جاء إلى مصر . وبقيت أنا مع أمين أفندى الخانجى فى جو أشعر أن هناك ضوءا فى قلب هذا الرجل يضىء لى الطريق - لا طريق المخطوطات : بل أضاء لى طريق العلم .

ولى معه تجارب كثيرة ، منها تجربتى فى كتاب طبقات فحول الشعراء . كان عندنا فى مصر جمَّاع للكتب ثرِىّ تُركى لا يقرأ ولا يكتب اسمه طلعت باشا . كان يحب أن تكون له مكتبة كما لفاضل مكتبة ، ولأحمد تيمور مكتبة . أنفق على أمين الخانجى مايشاء ، فجال فى البلاد العربية ، وجاء إلى مصر ومعه كتب كثيرة أودعت الآن فى دار الكتب المصرية . فحدث أن كان يوم من الأيام ، كان معه صندوق فيه ورق دشت فأعطانى منه ورقة . وكنت حديث عهد بالعلم ، ولكننى كنت أيضا حديث عهد بكتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، فأخذت الورقة . قال لى : « إيه الكتاب ده ؟ » قرأتها ، ثم قلت له : « هذه طبقات ابن سلام » . وبدأنا نفرز هذا الورق إلى أن استخرجنا النسخة التى آلت فيما بعد إلى تشستر بيتى ، لأن أمين أفندى الخانجى باعها ليهودى كان يشترى منه الكتب ، فباعها هو الآخر لمكتبة تشستر بيتى .

ولى معه قصص كثيرة ولكن هذه قصة تخصنى ، لأنى نشرت هذا الكتاب

فيما بعد - بذلت فيه جهدى ، وأنا لا أحب أن أُسَمَّى محققا لأسباب كثيرة ، وإنما أنا قارىء كتب ولذلك لا أكتب على كتبى « حققه » فلان بل أكتب « قرأه » فلان ، لأن المطلوب من نشر الكتب هو أن يكون الكتاب مقروءا حسب موضوعه ، يهتدى الإنسان فى قراءته إلى المعنى الذى أراده مؤلفه . أما طبقات فحول الشعراء فأنا فى الحقيقة قرأته ثم شرحته شرحا وافيا . لأن هذا الكتاب عُمدة لا يَستغنى عنه طالب علم . وهو أول كتاب أُلِّف فى الإسلام فى طبقات الشعراء وفى النقد أيضا .

ثم ذهب أمين أفندى الخانجى رحمه الله ، وشببت عن الطوق ، وعرفت رجلا آخر كان عالما متمكنا من علوم لا يعرف أحد أنه متمكن فيها ، وهو أحمد تيمور باشا . كان فيما عرفته متمكنا من علم النحو تمكنا كاملا ولكنه لا يكتب فيه شيئا . لم يكتب فيه كلمة واحدة . فأحمد تيمور باشا كما وصفته - وهو عالم ناهيك من عالم - كان أحرص الناس على اقتناء المخطوطات ، يبذل فى سبيلها مالا كثيرا ، ولكن الذى لاحظته - ليس جمع الكتب - الذى لاحظته شيئا آخر وهو أنه إذا أخذ الكتاب بين يديه ، تغيرت أسارير وجهه واستضاءت ، وكأن نورا قد سطع بمجرد إمساكه المخطوط ، إذا جاءه أمين أفندى بمخطوط جديد . شيء هائل ، تحس أن هذا الرجل ليس إنسانا - تتغير صورته من إنسان جالس يتكلم ، إلى إنسان مأخوذ ومضيء فى وقت واحد ، وتبرق عيناه وكأنها لؤلؤة مضيئة أو درة يتيمة .

والرجل الثانى الذى عرفته ولقيته لماما هو أحمد زكى باشا شيخ العروبة . ولم يكن فى مثل علم تيمور باشا . ولكنه كان أيضا محبا للكتب ، فالصورة التى أراها فى تيمور أراها فى أحمد زكى . وكانا فى حلبة المخطوطات يتسابقان ، كلاهما يتتبع عمل الآخر وما اقتناه ويريد أن يفوقه . ولكن يختلف الخُلُقان : تيمور باشا كان سخيا لا يضن على أحد بشيء . أما أحمد زكى فكان ضنينا بالطبع - لا أريد المذمة - كان ضنينا وكان لا يتورع عن سرقة الكتاب . ومن الطرائف أنه فى آخر حياته أوقف مكتبته ونقلت إلى مدرسة الغورى القريبة من الأزهر ، وعُيِّن لها

صديق لنا كان أيضا محبا للكتب هو الشيخ محمود زناتى ، فأخبرته عن خُلق زكى باشا أنه يسرق الكتب ، فحاذِرْ . فقال : « كيف يعنى ؟ كيف يسرق الكتب ؟ » قلت : « طَيِّب ياشيخ محمود ، جرِّب بنفسك » . فحدثنى أن أحمد زكى باشا غافله فى يوم من الأيام وأخذ كتابا ووضعه تحت إبطه وأخفاه – فقال له الشيخ محمود عند انصرافه : « تعالى ياباشا – طلع الكتاب » . يسرق نفسه ! كانت أخلاقا ظريفة .

ولقيت رجالاً كثيرين ممن يحبون المخطوطات بشغف زائد ولكن كان أغربهم رجل طويل القامة مستقيم . هذا لم يكن متعلما تعلُّما كافيا لكنه كان يجالس العلماء . وممن جالسهم طويلا وأحبهم الشيخ زاهد الكوثرى رحمه الله وكان علاّمة خبيرا بالكتب ، حافظا أسماءها ومواقعها ، فاكتسب منه رشاد [١] ، لأنه كان أيضا محبا للكتب . كان رشاد فقيرا فكان يدور على المطابع كلما رأى كتابا يُطبع أخذ منه ملزمة ، فأخيرا انتهى إلى حب الكتاب المطبوع – وكان أيضا له ذاكرة قابضة باسطة لا تترك شيئا أبدا ولذلك كان يمشى بيننا وكأنه فهرس كامل لمطبوعات العالم . وصحبناه طويلا إلى أن قضى نحبه رحمه الله .

وهكذا كان ينبغى أن أقدم رجلا عظيما أيضا وهو الشيخ محمد عبد الرسول . كان مديرا للمخطوطات فى دار الكتب . وكان رجلا صامتا لا يتكلم . فإذا تكلم – إذا سألته سؤالا – تفجر بعلم واسع يستغرق كل هذه الكتب . لا يوجد فى دار الكتب كتاب مطبوع لا يعرفه ، ولا مخطوط لا يعرفه . وكان محبا أيضا للمخطوطات وحريصا عليها أشد الحرص ، وأنا إلى الآن لا أمسك مخطوطا حتى أذكر هذا الرجل ، لأنه علّمنى شيئا كثيرا جدا – أدناه أنه علمنى فروق الخطوط وأزمنتها سواء كانت مشرقية أو مغربية . لم يكن هذا همى ، ولكن أحببت هذه المعرفة بحبى للشيخ عبد الرسول . تعلمت منه كيف أحكم على هذا المخطوط – كُتِب فى القرن الكذا أو الكذا ، خطوط متنوعة ، خطوط البغداديين غير خطوط

---

(١) يعنى الأستاذ رشاد عبد المطلب ، رحمه الله ، توفى سنة ١٩٧٥ .

المصريين . وكل هذا يعرفه الشيخ عبد الرسول . تعلمت منه شيئا كثيرا أدناه هذا العلم : علم معرفة الخطوط وأزمانها ، وشغلت به . ولكنى كنت أيضا فى شىء آخر ، ولقد وصفت نفسى ، ولا أحب أن أعيد ما كتبت ، وصفت نفسى : ماذا كنت أريد أنا من هذه الدنيا أو من هذا العمل ؟ فكان للشيخ عبد الرسول أثر عظيم فى نفسى فى معرفتى بالكتب وحبى للمخطوطات . لا حُبَّ جمع ولا شراء ولا اقتناء . مكتبتى من أكبر المكاتب الخاصة فى مصر ولكن ليس فيها كتاب مخطوط . الأشياء التى أريدها أصورها من دار الكتب أو الجامعة العربية - والشيخ حمد أكرمنى كثيرا بصور من مخطوطات ودلنى عليها ولم أكن أعرفها ، لأنى فعلا غير متتبع لشأن المخطوطات ولكن قرأت تراجم الأمة والعلماء وأعرف هذا كله - منها كتاب هنا فى دار المتحف البريطانى .

الشيخ حمد جاءنى بهذه النسخة لأحققها ، وطبعتُ منها جزءا واحدا من « أنساب قريش » - وهى نسخة فريدة - مع أن صاحب فتح البارى ، الإمام ابن حجر ، رأيتُ فى شرحه للبخارى أنه راجع ست نسخ من « جمهرة نسب قريش » ليقف على نسب جاء فى أحاديث رسول الله ﷺ - ست نسخ فى القاهرة فى القرن السابع ، أين ذهبت هذه ؟

هذه خطرات مفككة ، ولكنى عرفت هذه الأشياء كلها عن طريق رجال صحبتهم وعرفتهم - منهم الشيخ حمد - ومنهم علامتنا صلاح المنجد . عظام لم يبق منهم إلا هذه البقية . كان من أغرب الناس أيضا الشاعر الشيخ عبد المطلب الأستاذ بدار العلوم - كان له اهتمام غريب - وهو شاعر - سموه « الشاعر البدوى » من تقليده لشعر القدماء - ولكنى حين زرته فى بيته وجدت عنده صوانا كاملا من مخطوطات فى علم القراءات فقط ، مع أنه شاعر ، وكان لا يُعْرَف عنه هذا - لا يعرفه عنه غيرى . كان أكبر جزء من مكتبته فى علم القراءات القرآنية وحده .

ثم الفضل الأكبر للرجل الثانى فقد كان شيخى وأستاذى الذى علمنى العربية وهو الشيخ سيد بن على المرصفى . مات منذ دهر طويل ، أكثر من خمسة

وخمسين سنة . كان عالما لا يُبارى ، وكان فى حالة فقر شديدة فى أول أمره وهو عالم من علماء الأزهر . وكان فى أول أمره فقيرا شديد الفقر . وكرهه الأزهريون لأنه كان لا يدرس إلا الأدب ، كتاب « الكامل » للمبرد و« الحماسة » لأبى تمام، فأغفلوه إلى أن جاء والدى وكيلاً للأزهر ، وكان يعرف فضل الشيخ المرصفى فبحث عنه . وأقص عليكم قصته كما رواها والدى : فى غرفه أو غرفتين فى حوارى الأزهر العتيقة عرف بيته وذهب إليه فوجده جالسا وحوله الكتب ومحيطا نفسه بدائرة من العسل حتى لا يزحف البق إليه . فعينه والدى مدرسا للأدب ، وأنا أدركت الشيخ عندما كنت طالبا فى المدارس الثانوية وصاحبته ، وهو الذى علمنى العربية وقرأت عليه كتاب « الكامل » للمبرد و« الحماسة » لأبى تمام وفصولا من « أمالى » أبى على القالى . هذا الرجل اشتغل أول أمره مصححا فى دار الكتب . وقد نشر كتابا واحدا وهو الجزء الأول من كتاب « الخصائص » لابن جنى ، وهى الطبعة الأولى ، قبل أن يطبعه كاملا الشيخ النجار فى ثلاثة أجزاء. فهذا الرجل بقى فى دار الكتب سنين يشتغل مصححا وكانت له خبرة بجميع كتب الأدب التى كانت فى دار الكتب ، وكان أيضا لا يحب أن يبوح بعلمه – أشياء معينه لا يخبر أحدا بها . مما قرأته عليه فى شرح كتاب الكامل أنه رجع إلى مخطوطة فى دار الكتب من ديوان ابن مقبل . لما توفى الشيخ ، بحثت عن هذه النسخة فى دار الكتب فلم أهتد إليها إلى هذا اليوم .

عندى كلمة أقولها علانية أمامكم جميعا : إن هذه المخطوطات التى يراد فهرستها فى مثل هذه الدول – الدول التى نحن فيها الآن – يصح أن تُسْتَرَدّ . فأنا عرفت من والدى – الذى جاء من الصعيد إلى القاهرة فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى – أن مكتبة السلطان حسن كانت أكبر المكاتب فى مصر ، وكان الأمين الذى يحرسها واحد تاجر قصب ، له دكان تحت درج المسجد ، وكانت الأعاجم تأتيه فى لباسهم وزيهم يعطون له ملاليم ، فيدخل المسجد ويأتيهم بالكتب ، إلى أن بقيت مكتبة السلطان حسن خاوية على عروشها . كنت أحب أن نبدأ فعلا فى حركة لاسترداد هذه المخطوطات . لابد من استردادها اليوم

أو غدا . قال شوقى لكارنافون الذى سرق نصف ما أخرجه من قبور الملك توت عنخ آمون :-

فمَنْ سَرَقَ الخليفةَ وهْوَ حَيٌّ   يَعِفُّ عن الملوكِ مُكَفَّنِينا ؟

* * *

[تعقيب]

شيء مخجل ، شيء مخجل جدا ، أن يكون أول ما أكتبه لمجلة « العربى » ، متعلقا بكلام نشر بها ، وأن يكون هذا الكلام مما لا يُحسن السكوت عنه ، لا لأنه يتعلق بى ، بل لأنه يعطى قارىء هذه المجلة المتزنة الواسعة الانتشار ، معلومات أقلّ مايقال فى شأنها إنها خطأ وإنها مضللة وقارىء مجلة العربى - كما أعلم - يثق ثقة مطلقة بما تمده به من معارف ومعلومات لأنه كان قد تعود ذلك منها منذ سنين ، فأنا أخشى أن يكون كلامى هذا ، مما يزعزع ثقة قارئها بها ، فلذلك أحب أن أقدم بين يدى كلامى ، عذر المجلة فى نشر مثل هذه الأخطاء .

فهذه المجلة ، كما تحترم قراءها ، تحترم أيضا كُتابها ، وتُحسِن الظن بهم ، وأن هؤلاء الكُتاب لا يقدمون إليها إلا خلاصة صحيحة لعلمهم . وأنا على ثقة من أن جهازها لا ينشر كل ما يكتبه إليها الكاتبون ممن هبَّ ودب ، بل تتحرى أن تنشر مايكتبه المعروفون المشهود لهم بالأمانة والتمحيص ، وعلى رأس هؤلاء - بطبيعة الحال - حملة شهادة الدكتوراه ، الذين قطعوا مرحلة طويلة فى ممارسة علومهم ، وتمرسوا بالدقة والأناة والأمانة فيما يبحثون ، وفيما يكتبون . وكاتب هذه المقالة التى نشرتها مجلة العربى ، حامل لهذه الدرجة العلمية الرفيعة ، فجهاز المجلة لا يستطيع أن يفترض الشك فيما يكتب ، بل إن التجربة ، تدلهم على أن حَمَلة هذه الدرجة العلمية أمناء فيما كتبوا قديما ، وفيما يكتبون لها اليوم ، فأجازوا المقالة وهم على ثقة من أن كاتبها لم يخط حرفا مما كتب ، إلا بعد أن مرّ ماكتبه بمرحلة التمحيص : الأمانة والإعداد السليم ، كما عوّدهم بقية الأساتذة الكُتاب الذين ينشرون فيها ما يكتبون .. ولكن لكل جواد كبوة . فهذا عذر مقبول إن شاء الله .

---

* مجلة « العربى » ، العدد ٢٨٤ - يوليو ١٩٨٢ ، ص ١٨ - ٢٤ . ولم يضع لها الأستاذ شاكر عنوانا ، فجعلته كما ترى . وحق موضع هذه المقالة أن يكون بعد مجلة « الهلال » ، ولكننى لم أحصل على المقالة إلا بعد طبع جميع المقالات ، ولو جعلتها فى حاق موضعها لأدى ذلك إلى إعادة ترقيم صفحات المقالات التى تتلوها ، وأيضا صفحات فهرس الأعلام ، وهذا أمر فيه من المشقة مافيه .

كلام منقول بنصه

كتب الدكتور عبد العزيز المقالح ، مقالا فى عدد شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ (إبريل سنة ١٩٨٢) ، بعنوان « دفاع عن العقل والضمير العربيين : طه حسين ، والشك على الطريقة الأزهرية » ، وهو يفتتح هذه المقالة ، بأنها تحية للدكتور طه فى ذكراه الثامنة ، وأنها ليست دفاعا عنه ضد الاتهامات الباطلة الكثيرة ، ولا دفاعا عن صمت تلاميذه المنتشرين على طول الساحة العربية إزاء هذا الهجوم ، ولكنها محاولة متواضعة للدفاع عن العقل العربى والضمير العربى ، وعن بوادر النهضة الفكرية والثقافية ، وعن ذلك الرجاء الذى كاد يقترب ثم ابتعد ، ويوشك الآن على الانطفاء ! هذا نص مقدمته . وهذا كلام حسن ، ونية أحسن من الكلام . (ص ٥٤ من مجلة العربى) .

ولكنه لم يكد يتجاوز هذه المقدمات حتى قال (ص : ٥٥ من المجلة) ما يأتى :

« ومن بين الاتهامات المبالغ فيها ، والمسئول عنها طه حسين التهمة الثقيلة التالية : (إذا كان هناك تخريب فى الثقافة المصرية ، فإن المسئول عن هذا التخريب هو طه حسين ، لأن تشككه فى الثقافة العربية ، قد أحدث نوعا من التفريغ فى العقل العربى) » ، فوضع الدكتور المقالح هذا الاتهام بين قوسين ، ومعنى ذلك عند كل قارىء أنه كلام منقول بنصه ، أو على الأقل تلخيص أمين لكلام مكتوب منشور ، قرأه الأستاذ الدكتور ولخصه بأمانة . هذا واضح فيما أظن ، ولا يختلف عليه أحد . ثم قال بعقب هذا الكلام المحفوف بالقوسين :

« الذى أطلق دخان هذه التهمة ، أستاذ جليل ، وباحث يحترم قراءه ، ويحترمه قراؤه ، وهو الأستاذ محمود محمد شاكر . وهى تهمة تعطى لطه حسين من التأثير السلبى والخطورة السلبية ، أكثر مما تعطيه للاستعمار والصهيونية وقوى التخريب المختلفة . وهى تمنح ذلك الشيخ الضرير قدرة خارقة لم تكن عفاريت الأساطير فى القصص القديمة تمتلك بعضا منها ، وفى تقديرى أن مثل هذه المبالغات فى إلقاء التهم ، وفى هدم الحسنات والسيئات معا ، هى التى تشكل

بحق نوعا من التفريغ فى العقل العربى المعاصر ، وتجعل القارىء العربى الذى لم يعد يكتفى بتكوين معارفه الثقافية ، من كتابة ما يكتبه الأستاذ شاكر وأمثاله ، تجعله حائرا متشككا غير قادر على المقارنة بين فكر رافض لا يقوم على أساس من البحث والتمحيص ، وبين فكر لا يتوقف عن الجدل حول أغلب الأفكار المطروحة من قبل العصر ، بين الدعوة إلى الغربة الروحية والعقلية ، وبين الاكتفاء بالخواء العقلى والروحى » .

وأنا قد نقلت هذا الكلام بنصه ، لأنه كلام لا يحتمل التجزئة ، لتناسقه أولا ، ثم لأنها عادتى فى وضع النصوص بين يدى من يقرأ كلامى ، بلا عبث ، بلا تحريف . عادة يعرفها عنى كل من قرأ ما أكتب .

فى الطبعة الجديدة « للمتنبى »

وقبل كل شيء ، فليس من عادتى أيضا أن أرفع الناس فوق منازلهم ، ولا أن أضعهم دون منازلهم ، لا نصا بكلام أكتبه ، ولا استنباطا يمكن أن يستنبطه قارىء لما أكتب ، إلا أن يتوهم متوهم أشياء ، فأنا بالطبع غير مسئول عن هذا التوهم . كل ما أملك هو قلم أعبّر به عن رأى أكتبه ، أكتبه بألفاظ محددة صريحة ، بلا رموز ولا إشارات ولا مخاتلة . هذا كل ما أملك ، وهذا كل ما سأفعله هنا الآن ، لأنه غاية قدرتى .

فإذا جاء كاتب ، كالدكتور المقالح هذا يقول إنى أتهم الدكتور طه بتهمة تعطيه من التأثير أكثر مما تعطى للاستعمار والصهيونية وقوى التخريب المختلفة ، وتمنحه قدرة خارقة لم تكن عفاريت الأساطير تملك بعضاً منها فهذا الجائى ، بلا شك عندى ، لم يقرأ لى شيئا قط ، أو قرأ ولم يفهم ، أو فهم شيئا عن طريق التوهم ، لا عن طريق الاستنباط من لفظى وكلامى . فأنا قد عرفت الدكتور طه وقرأت له منذ كنت صغيرا فى الرابعة عشرة من عمرى سنة ١٩٢٣ م ، إلى أن توفى سنة ١٩٧٣ م ، عرفته قارئا وتلميذا له فى الجامعة ، ثم رجلا بينى وبينه من المودة ، مع بعد الشقة بيننا والاختلاف ، زمنا أطول من مدة القراءة والتلمذة . فليس إذن بمستساغ ولا معقول أن أخالف عادتى فأرفعه فوق منزلته عندى ،

ولا أن أضعه دون منزلته فى نفسه ، وأنسب إليه هذه الخوارق التى ذكرها الدكتور المقالح . لا أدرى كيف توهم الأستاذ الدكتور هذا التوهم ! هذا شيء !! .

أما « التهمة » التى ذكرها ووضعها بين الأقواس ، فهة إشارة إلى ماكتبته فى مقدمة كتابى « المتنبى » ، الذى كتبته قديما سنة ١٩٣٦ ، فلما أعدت طبعه سنة ١٩٧٧ ، كتبت هذا المقدمة وسميتها « قصة هذا الكتاب - لمحة من فساد حياتنا الأدبية » ، وتعرضت فيها لما سميته « التفريغ » وهو اللفظ الموجود فى التهمة التى بين الأقواس .

وأنا مضطر هنا أن أتعرض لبيان مافى هذه المقدمة ، لأنها هى التى جلبت عليَّ هذا السَّيل من الألفاظ التى استعملها الدكتور المقالح ، وأعطت قراء مجلة العربى ، معلومات لا أصل لها عندى ، أى فيما كتبت مطبوعا منشورا فى كتاب !!

بدأت هذه المقدمة من ص ٩ إلى ص ٢٦ ، وفيها قصتى مع الدكتور طه ، وكتاب الشعر الجاهلى ، وأنا طالب فى الجامعة وتلميذ للدكتور طه ، حتى تركت الجامعة فى سنة ١٩٢٨ ووصفتُ الدكتور طه بألفاظ صريحة بلا عبث ولا مخاتلة ، وليس فى هذا القسم ذكر لما سميته « التفريغ » .

ثم قطعت هذا الجزء من المقدمة ، وابتدأت فى حديث آخر من ص ٢٧ إلى أواخر ص ٣٩ وبدأت هذا الفصل هكذا !

« ومرت الأيام والليالى والسنون ، مابين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، وهى السنة التى كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبى » ، وهمى مصروف أكثره إلى قضية الشعر الجاهلى ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضة لأحد من الناس (وأعنى الدكتور طه بالطبع) . ومشت بى هذه القضية فى رحلة طويلة شاقة ، ودخلت بى فى دروب وَعِرة شائكة ، وكلما أوغلت ، انكشفت عنى غشاوة من العمى ، وأحسست أنى أنا والجيل الذى أنا منه ، وهو جيل المدارس المصرية ، قد تم تفريغنا تفريغا يكاد يكون كاملا من ماضينا كله ، من علومه وآدابه وفنونه . وتم أيضا هتك العلائق بيننا وبينه ، وصار ما كان فى الماضى متكاملا متماسكا ،

مِزَقا متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة ، ولأنه غير ممكن أن يظل الفارغ فارغا أبدا ، فقد تم ملء الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون ، لاتمت إلى الماضى بسبب ، وإنا لنستقبله استقبال الظامىء المحترق قطراتٍ من الماء النمير المثلج » .

وفى خلال هذه الأعوام تبين لى أمر كان فى غاية الوضوح عندى ، وهو قصة طويلة قد تعرضت لأطراف منها فى بعض ماكتبت ، ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار (مقدمة المتنبى ص : ٢٧) .

« الجيل المفرغ »

ثم انطلقت بعد ذلك أقص القصة منذ عهد محمد على . وحفيده إسماعيل ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرة على كل شيء ، وعلى التعليم خاصة إلى أن جاء دنلوب (فى ١٧ مارس ١٨٩٧) ليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذى لا نزال نسير عليه مع الأسف إلى يومنا هذا (المقدمة ص ٢٨) ، ثم بينت وسائل التدمير التى ارتكبها الاستعمار فى حياتنا ، وما أدى إليه من التدهور المستمر المتتابع ، حتى قلت : « وكذلك كان مقدرا لجيلنا - نحن جيل المدارس المفرغ - أن يتلقى صدمة التدهور الأولى ، لأنه نشأ فى دوامة دائرة من التحول الاجتماعى والثقافى والسياسى (المقدمة ص ٢٦) . ثم ختمت هذا الفصل بقولى : « وفى ظل هذا كله - كما قلت - انتعشت الحياة الأدبية انتعاشا غير واضح العالم ... وأقول غير واضح المعالم ، لأن الأساتذة الكبار الذي انتعشت على أيديهم هذه الحركة (ومنهم بالطبع الدكتور طه وغيره) ، كانت علائقهم بثقافة أمتهم غير ممزقة كل التمزق ، أما نحن - جيل المدارس المفرغ - فقد تمزقت علائقنا بها كل التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذة - فيما له علاقة بهذه الثقافة - باطلا أو كالباطل . فهو لا يقع منا ومن أنفسنا بالموقع الذى ينبغى له من الفهم ومن الإثارة ، ومن الترغيب فى متابعته ، ومن إعادة النظر فى ارتباطنا بهذه الثقافة . بل كان عند كثير من أهل جيلنا غير مفهوم البتة ، فهو يمر عليه مرورا سريعا لا أثر له ، أما الذى أخذه جيلنا عنهم ، فهو

الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تضمنته كلمة « التجديد » ، وأنى هذا الرفض الخفى للثقافة التى كان ينبغى أن ننتمى إليها ، وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه فى التفكير ، كما صوروا لنا ذلك فى خلال ما يكتبونه !! وغاب عن الأساتذة الكبار أن الزمن الدوار الذى يشيب الصغير ويفنى الكبير ، هو الذى سيتولى الفصل بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلمون اليوم على أيديهم . والقصة تطول ، ومع ذلك فليس هذا مكان قصها على وجهها ، إذا أنا أردت أن أقيد ماكان ، كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا » . (مقدمة المتنبى ص ٣٧ ، ٣٨) .

فهذا كما ترى - هو الفصل الذى جاء فيه ذكر « التفريغ » ، وهو شهادتى أنا على جيلى الذى أنا منه ، وهو جيل المدارس الذى فرغ من ثقافة أمته ، وتقطعت علائقه بينه وبين حضارتها على وجه بشع لا تزال آثاره هى الغالبة إلى يومنا هذا ، وكما ترى وكما تستطيع أن تتحقق ، ليس فيها ذكر للدكتور طه على الوجه الذى ذكره المقالح ، ومن أحب من القراء أن يرجع إليه ، فليرجع إليه ، أقول ذلك مخافة أن يفقد الثقة بما أقول ، كما سيفقد الثقة بأقوال الدكتور المقالح .

وبعد أن فرغت قلت مباشرة : « ومع ذلك ، فأنا أحب أن أقرر هنا حقيقة أخرى ، تعين على توضيح هذه الصورة التى صورتها ، وكنت أنا أحد شهودها سنة ١٩٢٨ - ١٩٣٦ ، فصورتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين - وهو أحد الأساتذة الكبار - سوف يشهد فى سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، من وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة » (المقدمة ص : ٣٩) .

كتاب الشعر الجاهلى

ثم فى (صفحة ٤٠ من المقدمة) عدت فتعرضت لكتاب الشعر الجاهلى ، وأثره على جيلنا نحن ، جيل المفرغين ، وما ألقاه علينا وقاله الدكتور طه ، وزعم

أنه « منهج الشك » فقال فيما قال عن هذا المذهب بلفظه من كتاب الشعر الجاهلى « إن هذا المذهب سوف يقلب العلم القديم رأسا على عقب ، وأخشى - إن لم يمح أكثره - أن يمحو منه شيئا كثيرا » . وبينت ماقاله بعد ذلك مما يدل على الاستخفاف بكل شيء ، وقيدته بنصه من كتاب الشعر الجاهلى . ثم شهدت بعد ذلك شهادتى على الجيل الذى أنا منه فقلت :

« والاستخفاف الذى بنى عليه الدكتور طه كتابه معروف ، أما الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حده حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المحض بأقوال السلف ، وأما الذى كان يدور بين طلبته الصغار « المفرغين » من ثقافتهم - كما قلت - فكان شيئا لا يكاد يوصف ، لأنه كان استخفاف جاهل واستهزاء خاو ، يردد ما يقوله الدكتور ، لا يعصمه ماكان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة ، وعلى مر الأيام ، كانت العاقبة وخيمة جدا » (المقدمة ص : ٤٠) . ثم ذكرت كيف كانت العاقبة ، حين كبر هؤلاء الصغار ، وحاولو أن يزاحموا الأساتذة الكبار (كالدكتور طه) فى موقع الأستاذية فقلت : « ولكنهم لم يسيروا سيرة الأساتذة فى معالجة القديم .. بل كان الغالب على أكثرهم هو رفض القديم والإعراض عنه ، والانتقاص له والاستخفاف به ، وعندئذ أحس الدكتور طه بالخطر ، وهو الذى أضاء لهم الطريق بالضجة التى أحدثها كتابه ، فى الشعر الجاهلى » (المقدمة : ٤١) . ثم قلت بعد ذلك مباشرة :

« كان إحساس الدكتور طه بهذا الخطر الذى تولى هو كبر إحداثه ، ظاهرا جداً ، ففى يناير سنة ١٩٣٥ بعد تسع سنوات من صدور كتابه فى الشعر الجاهلى - بدأ ينشر فى جريدة الجهاد مقالات ، .. كان محصلها رجوعا صريحا عن ادعائه الأول فى سنة ١٩٢٦ ، الذى أعلنه فى كتابه ، وهو قوله : إن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهليا ليست من الجاهلية فى شيء ، وإنما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأصداءهم ، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك فى أن مابقى من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جدا ، لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء » .

ثم عقبت على هذا الذى قلته بما يأتى : « قد بينت فى بعض مقالاتى أن الدكتور طه قد رجع عن أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى ، بهذا الذى كتبه فى سنة ١٩٣٥ ، وببعض ما صارحنى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال ، ولكنه لم يكتب شيئا صريحا يتبرأ به مما قال أو كتب ، وهكذا كانت عادة الأساتذة الكبار ! يخطئون فى العلن ويتبرءون من خطئهم فى السر !! » .

ثم ذكرت ماقاله الدكتور طه فى مفتتح مقالاته التى كتبها ونشرها بعد ذلك فى حديث الأربعاء ، فى الجزء الأول منه ، عن شعر الجاهلية ، وذكر السبب الذى دعاه إلى كتابة ماكَتَب ، وهو ما صاغه فى محاورة بينه وبين صاحب له من جيلنا نحن ، يرفض الشعر القديم كله ، وصوّر إحساس هذا الجيل تصويرا كاملا ، ثم قال : « وقد تحدث إلىَّ المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا ، قد أخذوا يَكْثرون ، ويظهر أنهم سَيكْثرون كلما تقدمت الأيام » ، فقلت أنا تعقيبا على ذلك : « وصدق ظن الدكتور طه ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه » (مقدمة المتنبى ص ٤١ ، ٤٢) .

ثم سقت شهادة الدكتور طه على جيلنا المفرغ ، وما كان من أمره وأمرهم ، منقولة من مقالاته فى سنة ١٩٣٥ ، والمنشورة فى حديث الأربعاء (فى ص ٤٣ - ٤٤) ثم قلت : « وليس من همى أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضح مدى صدقها حيث صدق توقع الدكتور طه فى تكاثر عدد من وصفهم من « المثقفين » فى شهادته .. ولكن الذى يجب على أن أقول إن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هى وجه آخر لشهادتى التى كتبتها هنا ، قالها هو من موقع الأستاذيه وقلتها أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذى تلقى صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ فى دوامة من التحول الاجتماعى والثقافى والسياسى ، الذى أشرت إليه آنفا (مقدمة المتنبى ص : ٤٥ ، ٤٦) .

هل يبقى الاتهام ؟

يستطيع الآن قارىء مجلة العربى أن يطمئن ، لأنى وضعت بين يديه قضيتى أنا صغيرا ، وقضية جيلى الذى سميته « الجيل المفرغ » ، وأن أمر « تفريغ » هذا الجيل الذى أنا منه من ثقافة أمته ومن أسس حضارته التى ينتمى إليها ، منسوب كله إلى الاستعمار وقوى التخريب المختلفة التى سيطرت عليه ، وعلى مجتمعه ، وعلى مدارسه ، ونشأته مفرغا غير قادر على مجرد الفهم لثقافة أمته العظيمة التى صار هو خلفا ، لا يطيق الصبر على ما تركه له السلف من آبائه ، لابل لعله يرفضه بتظاهر وتعالم وسخف أيضا . أليس هذا واضحا جدا فيما اختصرته لك بألفاظه من مقدمتى لكتابى عن « المتنبى » ، والتى جعلتها أساسا لقصة هذا الكتاب الذى نشرته فى يناير سنة ١٩٣٦ ، وجعلتها أيضا صورة لفساد حياتنا الأدبية ؟ أليس واضحا ؟

وهذا الجيل « المفرغ » ، هو الجيل الذى تلقاه الدكتور طه فى الجامعة منذ سنة ١٩٢٥ وأنا واحد منه ، فشهدت شهادتى عليه ثم قلت إن الدكتور – حين تلقى هذا الجيل المفرغ والأجيال التى تليه من المفرغين – أخطأ خطأ شنيعا ، حين قال له ما قال فى قضية الشعر الجاهلى ، وبالصورة التى قالها مثبتة فى كتابه الشعر الجاهلى ، وفى كتابه المعدَّل الأدب الجاهلى ، ثم تهوره (وأنا آسف لهذا التعبير ، ولكنى لا أجد غيره مناسبا) ، ثم تهوره حين طالبهم باتباع ما زعمه مذهبا وأنه هو الذى سوف يقلب العلم القديم رأسا على عقب ، « وأخشى – إن لم يمح أكثره – أن يمحو منه شيئا كثيرا » ، كما قال فى كتابه فى الشعر الجاهلى ص : ٣.

ثم قلت بوضوح إن الدكتور طه قد تبين هذا الخطر الذى تولى كبره ، بعد تسع سنوات لا أكثر ، فكتب أو أملى ، شهادة على هذا « الجيل المفرغ » ، بعد أن فارق الجامعة ، وبدأ يسامى الأساتذة الكبار ، وفيهم الدكتور نفسه ، ويجابهه برفض كل شيء . كتب الدكتور طه هذه الشهادة فى سنة ١٩٣٥ على هذه الأجيال المفرغة ، فكانت شهادة من أستاذ كبير ، شهدها من موقع الأستاذية ،

وكانت فحواها مطابقة لشهادة واحد من هذه الأجيال التى تلقت « التفريغ » فى نظام دنلوب ومدارسه ، شهدها من موقعه فى هذا الجيل « المفرغ » .

فهل فى شىء من هذا ما يدل على أنى وصفت الدكتور طه واتهمته ، بانه هو الذى فعل ذلك « التفريغ » ؟ وإذا كان الأمر الآن واضحا لقارىء مجلة العربى ، فماذا يقول لهذا الكاتب الذى يحمل شهادة الدكتوراه ، فيقول عنى إنى أول من أطلق اتهام الدكتور طه بتهمة وضعها بين قوسين ، هى : (إذا كان هناك تخريب فى الثقافة المصرية ، فإن المسئول عن هذا التخريب هو طه حسين ، لأنه بتشككه فى الثقافة العربية قد أحدث نوعا من التفريغ فى العقل العربى) ؟

وهذا الكاتب - كما قلت - بين ثلاثة أمور : إما أنه لم يقرأ لى شيئا قط ، وإما أنه قرأ ولم يفهم ، وإما أنه فهم شيئا عن طريق التوهم ، لا عن طريق الاستنباط من لفظى وكلامى . ولا أحب أن أدع قارىء مجلة العربى مترددا فى اختيار خصلة من هذه الخصال الثلاث ، فلذلك سوف آتيه بالدليل القاطع على أنه لم يقرأ ماكتبت عن الدكتور طه ، وإنما هى ألفاظ تلقاها من تخاليط جالس على مقهى من مقاهى الثرثرة . وذلك أنه قال بعد ما نسبه إلىّ مباشرة مايأتى :

« لقد كان طه حسين زميلا أزهريا للأستاذ شاكر ، سبقه إلى ذلك المعهد العتيد ، وتعلم على مشايخه الأجلاء أساليب الحوار ، وطرائق الرفض والقبول ، وكانت ظروفه الاجتماعية ، وتكوينه النفسى ، يهيئانه لغير ما تهيأ له الأستاذ شاكر » .

فالذى يقول مثل هذا الخلط ، لا يمكن أن يكون قرأ ما كتبت ولم يفهمه ، ولا أن يكون فهم شيئا عن طريق التوهم ولا عن طريق الاستنباط ، لأنى قصصت فى خلال كلامى عن « التفريغ » جزءا من تاريخ حياتى ، منذ كنت طالبا صغيرا فى مدارس دنلوب ، ثم فى القسم العلمى حتى نلت شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) ، ثم دخلت الجامعة ، ثم فارقتها ، وفارقت أرض مضر مدة سنتين ، ثم عدت لأسير سيرتى التى أنا فيها من يومئذ إلى الآن ، فهل هذا هو « الأزهر » ؟ ولا أستطيع أن أتوهم أن حاملا للدكتوراه لا يستطيع أن يفرق بين « مدارس دنلوب » التى فرغتنى وفرغت جيلى ، وبين لفظ « الأزهر » .

هل يليق بعد هذا أن يدلى هذا الحامل للدكتوراه ، بمعلومات عن حى من الأحياء ، تَحْمِل هذا القدر من العبث وقلة الاحتفال بالقراء . هل يمكن أن يكون هذا الحامل للدكتوراه قد قرأ شيئا وفهمه ؟ بلا ريب ، لا ، فالذى فى كتابى الذى يوهم القارىء أنه قرأه ، وفى غيره من كتبى ، قصصت ما أصابنى من « المدارس » التى سيطر عليها الاستعمار وشيطان « دنلوب » فكيف يأتى هذا الأتى ، فيجعلنى زميلا لأستاذى الدكتور طه فى « الأزهر » .

وأنا أختم هذا التصحيح ، بكلام ليس من كلامى ، بل من كلام هذا الأستاذ ، قدمه بين يدى الفقرة التى نقلها عند أول المقالة (العربى ص : ٥٥) يقول : « كما أنه ليس من حق أحد بل لا يليق بأحد – أن يختلق على مخالفيه الرأى من الأقوال والأفعال ، مالم يقولوا ، ولم يفعلوا كما يحدث وحدث فى الكتابات التى تناولت آثار طه حسين وجهوده الفكرية والثقافية ، فقد وصل الزيف والتضليل فى بعض تلك الكتابات إلى درجة لاتسىء إلى طه حسين وحده فحسب ، وإنما تسىء كذلك إلى الفكر العربى والضمير » ، هكذا قال ثم عقب بذكرى وذكر التهمة الثقيلة التى بينت لقارىء مجلة العربى حقيقتها فيما سلف ، وأنى لم أختلق شيئا على الدكتور طه ، ولا نسبت إليه ما نسبه إلىَّ هذا الحامل للقلم وللدكتوراه .

تهمة أكبر

ومع ذلك ، فأنا لا أنفى عن نفسى أنى اتهمت الدكتور طه حسين لا بتلك التهمة السخيفة بل بتهمة أشنع وأبشع من التهمة التى اختلقها هذا الكاتب ، فإن مقدمة كتابى « المتنبى » (من ص ٣ ، إلى ص ١٦٤) مبنية على شيئين : على قصة الكتاب كيف كتبته ، وعلى ظواهر فساد حياتنا الأدبية ، وأكبر ظاهرة تعرضت لذكرها ، هى قصة « السطو » على أفكار الناس وأقوالهم ، وقلت إنها سُنّة سَنَّها الأساتذة الكبار ، وإن هذا « السطو » أتى على أيديهم فى صورتين .

الأولى : سُنَّة « تلخيص » أفكار عالم آخر « أعنى العالم الأدبى » ويقضى

الأستاذ منهم عمره كله فى هذا « التلخيص » ، دون أن يشعر أنه محفوف بالأخطار ، ودون أن يستنكف أن ينسبة إلى نفسه نسبة تجعله عند الناس (أى عند العرب) كاتبا ومؤلفا وصاحب فكر ، وهذا ضرب من التدليس كريه (مقدمة المتنبى ص : ١٦٣) ، وهذه خصلة شنيعة .

والأخرى : سُنَّة « السطو » المجرد ، حين يعمد الساطى إلى ما سطا عليه فيأخذه ويمزقه ، ثم يغرقه ويفرقه فى ثرثرة طاغية ، ليخفى معالم ما سطا عليه ، وليصبح عند الناس صاحب فكر ومذهب يعرفه به ، ونسب إليه كل فضله (مقدمة المتنبى ص : ١٦٣) وهذه خصلة أشنع من الأولى .

ثم قلت : « أتلفَّت اليوم (سنة ١٩٧٧) إلى ما أشفقت منه قديما من فعل الأساتذة الكبار ، لقد ذهبوا بعد أن تركوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدوا ، حياة أدبية ثقافية قد فسدت فسادا وبيلا على مدى نصف قرن ، وتجددت الأساليب وتنوعت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمرا مألوفا غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقا عليه طيلسان « البحث العلمى » و« عالمية الثقافة » ، « والثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصوله إلا ترديدا « لقضايا غريبة ، صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كل قضية ، واختلط الحابل بالنابل ، قُل ذلك فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفن أو ماشئت ، فإنه صادق صدقا لا يتخلف ، فالأديب « عندنا » مصور بغير قلمه والفيلسوف « عندنا » مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ « عندنا » ، ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان « عندنا » نابض قلبه بنبض أجنبى عن تراث فنه (مقدمة المتنبى ص ١٦٤) .

وهذه الخلاصة التى ختمت بها مقدمتى ومنذ أولها - نتيجة لأشياء ذكرتها ، وأطلت فى ذكرها وأسبابها ونتائجها ، وعلى رأسها قصتى أنا مع الدكتور طه حسين فى الجامعة ، حين سمعت بأذنى من فم الدكتور طه كلاما كنت قد قرأته بالإنجليزية فى إحدى المجلات ، كتبه مستشرق غريب الشكل والعقل والأطوار يقال له « مرجليوث » فإذا الذى أسمعه ، هو نفس ما قرأته قبل أن أسمع ما سمعت ، ولكنى سمعته بلفظ عربى مُشتجاد ، وبإلقاء أستاذ بارع تصغى إليه

فيأسرك لفظه وإلقاؤه ، وهو الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربى عند أول دخولى الجامعة ، ولكن فتنة هذا الأستاذ الكبير ، لم تمنعنى يومئذ (سنة ١٩٢٦) - وأنا طالب صغير - أن أقول لزملائى وأساتذتى وللناس : إن هذا « سطو » غير لائق على مقالة المستشرق الأعجمى ، وإن الجامعة مكان للبحث والمناقشة ، لا مكان للسطو على أعمال الناس ، واشتد الأمر علىَّ وعلى من يحيط بى « حتى تدخل فى ذلك ، وفى مناقشتى بعض الأساتذة الأجانب كالأستاذ نلّينو ، والأستاذ جويدى من المستشرقين ، وكنت أصارحهما بالسطو ، وكانا يعرفان ذلك ، ولكنهما يُداوِران ، وطال الصراع غير المتكافئ بينى وبين الدكتور طه زمانا ، إلى أن جاء اليوم الذى عزمت فيه على أن أفارق مصر كلها ، لا الجامعة وحدها ، غير مبال بإتمام دراستى الجامعية ، طالبا للعزلة ، حتى أستبين لنفسى وجه الحق فى قضية الشعر الجاهلى بعد أن صارت عندى قضة متشعبة كل التشعب « مقدمة المتنبى ص ٢٣ ، ٢٤ » .

ليس شكا أزهريا

وقد قصصت القصة كلها واضحة فى مقالاتى فى مجلة الثقافة المصرية حين تفضل الدكتور عبد العزيز الدسوقى فكتب عن كتابى « المتنبى » فى طبعته الثانية سنة ١٩٧٧ ، وقلت فيها ماقلت ، من اتهامى للدكتور طه بالسطو على عمل من الأعمال ، واستنكرت أن يكون ذلك فى « جامعة » « وأن الجامعة » « إذا قبلت هذا السطو » وسكتت عنه ، فإنها تفقد هيبتها ، وطالبت أساتذتى الذين أرادوا أن يحولوا بينى وبين ترك الجامعة ، فى قصة طويلة أن ينصحوا الدكتور طه أن يصرح بنسبة هذا الذى قاله إلى صاحبه مرجليوث ، فإذا فعل عدت إلى الجامعة ونقضت عزمى على السفر ، هذه واحدة .

وبهذه الواحدة يتبين أن الذى قاله المقالح ، من أن الدكتور طه شك شكا أزهريا !! كلام لا أصل له ، فهو ليس شكا أزهريا ولا ديكارتيا ، ولا أرسطوريا (!!) بل الذى فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) إنما هو « سطو » لا غير ، وكان الله يحب المحسنين ، ومن الدليل على ذلك أيضا أن الدكتور طه نفسه ، لم يؤلف

بعد ذلك كتابا واحدا يحمل ذرة من هذا « الشك » الذى زعم أنه منهج ، ويزعمه له أمثال الدكتور المقالح ، وهذه بالطبع غريبة من الغرائب .

أما « الثانية » فإنى نشرت كتابى عن « المتنبى » أول مرة ، فى المقتطف (يناير سنة ١٩٣٦) ، وبعد سنة أو أكثر (سنة ١٩٣٧) فاجأنى الدكتور طه بكتابه « مع المتنبى » فرأبت وأنا أقرؤه ، أنه لم يفارق عادته التى اعتادها ، وأنه وضعنى تحت إبطه وهو يملى كتابه ، فيسألنى عن منهجى فى كل قضية تخص المتنبى ، فإذا فرغت سار على الدرب فرحا ومتفكها ومعاكسا ومستخرجا لغيظى ، إلى آخر ما قصصت من القصة ، قصة السطو على كتابى ، وأيضا لم يؤلف بعد ذلك كتابا عن شاعر من الشعراء ، غير كتابه « مع المتنبى » يحمل ذرة واحدة من هذا المنهج » الذى يزعم للناس أنه هو منهجه فى دراسة الشعراء . وهذه بالطبع أيضا غريبة من أغرب الغرائب !!

ولكن يومئذ (سنة ١٩٣٧) ، لم أصبر عليه صبرى عليه فى قضية سطوه على مرجليوث ، بل نشرتُ مقالات متتابعة فى جريدة البلاغ ، مرة فى الأسبوع من ٣ فبراير سنة ١٩٣٧ إلى مايو سنة ١٩٣٧ واتهمته بالدليل والبرهان على أن عادته فى « السطو » لم تزل قائمة فى نفسه لا يستطيع أن يفارقها ، وزدت الأمر وضوحا فى مقدمة كتابى التى كتبتها سنة ١٩٧٧ ، قلت ذلك فى حياته ، كما ترى مع وجود تهمة « السطو » بلفظها وبلا كناية ، وسكت الدكتور طه حسين لأنه لم يستطع أن ينفى عن نفسه التهمة ، ولا استطاع ذلك يومئذ « تلامذته المنتشرون على طول الساحة العربية إزاء هذا الهجوم الذى يُكال لأستاذهم العميد » كما يقول المقالح (مقالات البلاغ ، منشورة فى الجزء الثانى من كتابى المتنبى) .

وقلت فى جميع ذلك إن الدكتور طه وسائر الأساتذة الكبار الذين تعودوا « السطو » هم الذين نشروا هذه السُّنة ، فصارت سُنة سيئة متبعة إلى يومنا هذا - بلا حياء - فى جميع حياتنا الثقافية والأدبية والفنية وشرح هذه القضية يطول ، وهى قضية أخرى غير القضية التى يذكرها المقالح ، فلم أتعرض لها بتفصيل ، لأنه

لم يذكرها فى دفاعه عن « الدكتور طه » كما لم أتعرض لما حُشِيَتْ به مقالته من الأخطاء التى لا تخصنى .

والآن ، أدع لقارئ مجلة العربى حرية الحكم والتعبير ، فهو حر فى اختيار اللفظ الذى يناسبه ، فى وصف ما كتبه الأستاذ الفاضل حامل الدكتوراه وأشباهه . أما أنا فأكتفى بأن أقول إنه كلام خطأ كله ، وإنه كلام مضلل ، وأسأل الله العافية من البلاء ، وأستعفى قارئ مجلة العربى ، ليعفو عما جلبته عليه بالإكثار والإملال ، ولكن عذرى أنى لا أحب العبث بعقول القراء ، فأكثرت وأمللت لكى أوضح وأصحح ، لا لكى أتباهى وأتبجح .

* * *

فهارس الكتاب

* * *

١ – فهرس الجزء الأول

* * *

٢ – فهرس الجزء الثانى

مجلة الزهراء

مجلة المقتطف

مجلة العصور

جريدة الدستور

مجلة الكتاب

محاضرة لم تنشر من قبل

جريدة الأهرام

* * *

٣ – أسماء من خاض معهم الأستاذ محمود شاكر مساجلات أدبية ، مرتبة حسب تسلسلها فى المقالات

سيد قطب	٨ - ٣٦
بشر فارس	٧٦ - ٧٧ ، ٨٩ - ٩٣ ، ١٠٧ - ١١٠ ، ١١٨ - ١٢٠
سلامة موسى	١٤٢ - ١٤٨
محمد صبرى	١٦١ - ١٦٢
رشاد عبد المطلب	١٢٢ - ١٢٣
زكى مبارك	٢٢٣
محمد عبد الغنى حسن	٢٣١ - ٢٣٣
محمد مندور	٢٤٢ - ٢٤٩
محمود حسن إسماعيل	٢٥٠
عبد العزيز فهمى باشا	٢٥٨ - ٢٦٤
صبحى البصام	٢٨٥ - ٢٩٥
محمد العلمى العربى	٥١٠ - ٥١٤
طه حسين	٥١٥ - ٥٤٠
الدكتور شوقى ضيف	٥٤١ - ٥٤٢
محمد رجب البيومى	٥٦٧ - ٥٧٩
على الطنطاوى	٥٨٠ - ٥٨٢
أنيس المقدسى	٧٨٤ - ٧٨٩
محمد عبد السلام القبانى	٧٩٢ - ٧٩٦
محمد سعيد المسلم	٨٩٨ - ٨٩٩
السيد صقر	٩٠٠ - ٩١٠
محمد هاشم عطية	٩٣٣ - ٩٣٧
عبد العزيز المقالح	١٢٣٥ - ١٢٤٩

* * *

فهرس الأعلام

(ح)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)